

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190488

UNIVERSAL
LIBRARY

عصر المأمون

قلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٢٧ م

فهرس

المجلد الأول من عصر المأمون

صمعة	...
(ط)	كلمة العباد الأصمهانى
(ك)	إهداء الكتاب... .. .
(م)	المقدمة

الكتاب الأول - عصر بنى أمية

الفصل الأول - نحول المدينه الاسلاميه :

١	توطئة
٤	نظام الحكم فى عهد الصحابة
٥	حكومة عثمان وطر الحمايات العربية اليها

الفصل الثانى - الجهاد بين الخلافه والملك :

١٠	توطئة
١١	كتبنا عن على رضى الله عنه
١٣	حول الرأى العام
١٥	معاوية
١٥	سياسة معاوية
١٦	ميراث معاوية
١٨	معاوية والسياسة الميكافيلية

الفصل الثالث - سياسة معاوية وخلفائه :

٢٠	توطئة
٢٢	اصطاع الأحرار بالمال
٢٥	الجمال
٢٨	الوحدة الدينية
٣٥	التعصب المدهى

صفحة	
٩٢	الفصل الخامس — أبو جعفر المصور
١٠١	الفصل السادس — المهدي
١٠٧	الفصل السابع — الهادي
١١٤	الفصل الثامن — هارون الرشيد :
١٢٢	(١) السياسة الداخلية
١٢٨	(٢) السياسة الخارجية
١٣٠	(٣) التكلم عن البرقة
١٣٥	(٤) الدولة البرمكية والسكة البرمكية
	الفصل التاسع — الحياه العلمية في العصر العباسي :
١٦٠	توطئة
١٦١	حركة انتسل
١٦٤	العلوم القرآنية والعلوم والفقهية
	الفصل العاشر — الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس .
١٦٦	توطئة
١٦٧	الخطابة والخطباء
١٧٢	الكتابة
١٧٤	محاسن الخلفاء والمناظرة
١٨٢	الشعر

الكتاب الثالث — عصر المأمون

الفصل الأول — محمد الأمين :

١٨٩	توطئة
١٩١	مولده
١٩٢	نشأته وأحلافه

الفصل الثاني — المأمون :

٢١٠	توطئة
٢١٠	مولده
٢١١	نشأته وأحلافه

صفحة

الفصل الثالث - التزاع بين الأمين والمأمون :

٢١٩	توطئة
٢٢٠	بيعة الأمين وحلاته
٢٢٢	مبدأ الراع وكيف تحوّل
٢٢٨	الوعد السياسية
٢٣٦	عود الرأى العام واستقرار الوعد السياسية
٢٤٥	إعلان الحرب
٢٤٨	انتصار الحيوش المأموية ومقولات الشعراء
٢٥٢	عود على بدء ، جهود الأمين فى سبيل الفور
٢٥٤	مظاهر الثورة وحطاؤها
٢٥٥	قتل الامين

الفصل الرابع - الخليفة المأمون :

٢٥٧	توطئة
٢٥٨	السياسة الداخلية
٢٥٨	ملخص الحالة العامة فى المدة الحراسية
٢٦٩	المدة العدادية
٢٧٣	ثورة مصرى شنت
٢٧٧	الوط
٢٧٨	ثورة مصرى
٢٨١	مالك الخرمى
٢٨٦	مذاهب ونحل
٢٨٧	اقتراعات
٢٨٨	السياسة الخارجية
٢٩٠	عزوة المأمون للروم
٢٩٢	كلمة ختامية

الفصل الخامس - الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون، تاريخ الوزارات المأمونية :

٢٩٦	توطئة
٢٩٦	وزارات العلى س مهل وأحبه الحسن
٣٠٤	وزارة أحمد بن أبى خالد

صفحة	
٣٠٨	ورارة أحمد بن يوسف
٣٠٨	ورارة يحيى بن أكرم
٣٠٨	ورارات أخرى
٣٠٩	الحد والقواد في عصر المأمون
٣٠٩	ديوان القضاء والمطالم والحسة
	الفصل السادس — خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية :
٣١١	توطئة
٣١١	مكة الورداء
٣١٢	الاستصماء
٣١٧	ثروة الخلفاء ورجال الدولة ومذهم
٣٢٠	الحراج في عهد المأمون
٣٢٣	الحراج في عهد المتصم
٣٢٧	السعايات والحاسوسية
٣٢٨	الدعاية (البروياحدا)
٣٣٠	صعوبة مهمة المؤرخ
	الفصل السابع — شخصية المأمون :
٣٣١	توطئة
٣٣١	كفره ومحاذره
٣٣٧	كيف تمك المأمون قلوب طائفة
٣٤٠	قدره لرجال دولته
٣٤٢	قدره للشجاعة الادبية
٣٤٥	عدله وإصافه
٣٤٩	عموه
٣٥٢	احتماله
٣٥٣	نصره بالأدب
٣٥٩	علم المأمون
٣٦٢	احترامه للدين
٣٦٤	سياسته
٣٦٧	مذهبه الديني
٣٧٢	كلمة ختامية عن المأمون

صفحة

الفصل الثامن — الحياة العلمية في عصر المأمون :

٣٧٥	توطئة
٣٧٩	حركة الترجمة والقل
٣٨١	كتب العصر
٣٩٤	آثار المهمة المأمونية
٣٩٥	القول بحق القرآن

الفصل التاسع — الحياة الأدبية في عصر المأمون

٣٩٩	توطئة
٤٠٢	المحادثة أولعة النحاط
٤٠٣	الحطانة
٤٠٥	الكثانة
٤٠٦	محالس الماطرة وأهال الأذب
٤٠٦	الشعر

الفصل العاشر — نماذب لمص الشحصيات البارزة في العصر المأموني :

٤١٧	توطئة
٤١٧	حراثيل بن مثنشوع
٤٢٠	الحاحط
٤٢٩	أمان بن عبا الحبب الاالحق
٤٣٤	أحاب بن يوسف الكاب
٤٤٠	محب بن أكم
٤٥٢	مباحق بن اراهم

« إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ »
« فِي غَدِهِ : لَوْ غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنُ ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ »
« يُسْتَحْسَنُ ؛ وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلُ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ »
« أَجْمَلُ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ »
« النِّقْصِ عَلَى جَمَلَةِ الْبَشَرِ » .

العماد الأصفهاني

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مولای

لله على نعمة التوفيق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتك، والاستظلال بظلك، فانا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهدهم فضلك، وثقفهم نصحك، وهذبهم أدبك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ، ومثقف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنْتُ قد أخذتُ نفسي بأن أقفَ على خدمتك ما أملك من وقتٍ وجهْد، ولكن الإنسان طُلْعَةٌ بطَبْعِهِ، فاذا اتصل بك فلا حدَّ لرغبته في البحث، وحرصه على الجِدِّ، وطُمُوحه الى الكمال . وكذلك أراد الله أن أقتطعَ من هذا الوقت الذي وهبته لك خالصاً ما أمكنتني من وُضْع هذا الكتاب .

فهل تأذن لي يا مولای أن أرفع اليك "عصر المأمون" على أنه أثر يُهدى الى مُنشئه، وحقُّ يردُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من رجلٍ مهمًّا يفعل ومهما يَقُل فلن يوفيكَ بعض ما يدينُ به ضميره لك من حبٍّ وإجلال .

مدَّ الله في حياة مولای، وجعل مستقبلها كحاضيتها حافلاً بالجِدِّ والتوفيق في خدمة أمته وعصره ومليكها

أحمد فريد رفاعى

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ — الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فإني أتعلم بهذا الأثر الصبيل من "عصر المأمون" الى أمي ، والى اللاطقين بالصاد من أبناء لغتي . وأمل بفضل إرشاد العلماء والقاد أن يوفقني الله الى إكمال القص ، وإصلاح الخطأ ، وتلاي التقصير في الطلعات القادمة . معترفاً ، في صدق وإخلاص ، بأن طبعتي هذه لا تعدو أن تكون "محاولة" ، لكاتبه التاريخ العربي على الطم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخا العربي لا يزال ، بلا مباله ولا إعراف ، تُعَوِّزُهُ شَتَّى المصادر كما يُعَوِّزُهُ التظيمُ والتريب والتحقيق والاستقراء . وإني أسأله تعالى أن يحلني مم يدعُنُ لكلمة الحق . ويرتعي حرمتها ، ويهتدي بهديها ، غير مفتون بمدح المادح ، ولا مُنتس بقدح القادح . كما أسأله أن يرشدني الى المصطفى موقفاً مسدداً فيما أحدث به نفسي من البحث عن عصور "معاوية" و "المصور" و "الرشيد" و "عبد الرحمن الأندلسي" . وأمل بمعونته تعالى ، وإرشاد العلماء والأدباء ، ومعونة المستشرقين والباحثين ، وبما يهتدي الله من صر وحلد ، ومواطيه ومُتآبره ، ومُتأنية للدرس والاستقراء ، وبما أوفق اليه من مصادر وبصووص ، ومراجع ومظان ، أن أكون — بعد الانتهاء من كتابة ما ارتهت به ، لو كان في العمر بقية — قد وفقت الى تنظيم دراسته تلك الحوث تطليماً جريئاً ، يعمق ووسائل ومقدوري ، ويتمشي — الى حد ما — والطريقة التحليلية الحديثه في كتابة التاريخ ، وأن يكون عملي حين دلك مما يسمح لي أن أقول ، في ثقة وإيمان ، إني قد قمت

حقاً "بمحاولة" ذات أثر نافع تمكّن صيرى من اتخاذها أساساً لكتابة تاريخ المديّنات العربية الواسعة المدى ، البليغة الأثر في الثقافات الإنسانية عامة ، كتابة تاريخية صحيحة .

٢ - وقد وقع "عصر المأمون" في مجلدات ثلاثة ، خصصت أولها للتاريخ وما إلى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما إلى الأدب . وأعتمدت في تلخيصي للشعراء فيهما على أمهات المظان الأدبية لا سيما كتاب الأعاني ، وأعترف - في صدي وإخلاص - أن مهمتي في المجلدين الأخيرين لم تنجح عن مهمته المتعرجة في تلك العصور الراهية من غرر ودُرر ، المتقّب عما فيها من طُرفٍ ومِلحٍ ، الملخص لحياه أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول إلى كتب ثلاثة . عالجْتُ فيها البحث عن عصور بني أمية وبني العباس والمأمون . وقد توجّحت الإيجاز في فذلكتي التاريخية عن عَصْرِ الأمويين والعباسيين لأهما بمتابة تَكَاةٍ وأساس لموصوعا ، كما لاحظتُ الاستمساكَ بالحيدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرّحين والرّواة الذين تأثروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين كَبَتَ بهم عن مَحَمَّة الصواب معالائهم في الانتصار لفكرتهم الحزبية . وقسمتُ المجلدين الثاني والثالث إلى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وَسَّعَه المقامُ من المنشور والمطوم والصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُصِّيت عنايةً حاصه إلى جانب ذلك بذكر جملة صالحه من آثار كانت حاص وشاعر حاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذتُ من عدالحيد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة نموذجاً أُمَوِيّاً ، ومن أبي الربيع محمد بن اللَّيث و بشَّار بن بُرد مثالا عباسياً ، ومن عمرو ابن مَسْعُود وأبي نُوَاس نموذجاً لتصوير الحياه الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون ، إلى غير ذلك من التناضح والآثار مما يستدعيه المقام ، بجاء المجلدان الثاني والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لن يعترض علىّ معترض لعابتي بالعصر العباسي من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يعدّ "عصر المأمون" عن كونه شرطاً يُحَقَّلُ به من العصر العباسي ، كما أعتقد أنه مما لا مندوحة لنا عنه لتعهم العصر العباسي أن نصوّر لك العصر الذي قبله

بما يسعه المقام . وهذا ما عالجناه لك في كتابنا بصورة متواصلة نأمل أن تكون فيها القُبية والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كتبتُ دهبْتُ إليه من بيان المصادر والمراجع في نهاية كل صفحة ، رغبة في ألا أشعلَ نظر القارئ بما لا يُجدي عليه ، وحرصا على توحيد مجهوده في استيعاب الموضوع ونعمهم شئْ مآجِبه ، مُلِحَقًا في الوقت نفسه نهاية المجلد الثالث بيانَ مصادر الكتاب لمن أراد توسعا فتراجع ثَمَّة .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابي هذا في عصر النهضة الاستقلالية المصرية التي ابدت رعاية مولانا المليك "فؤاد الأول" حفظه الله . كما ابدت باصعة حدم أقطابا وزعماء ، دوى الصُحف البيضاء ، والآثار الخالدات الباقيات ، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأحلاء ، فقيدنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" ، والقُطبان الخطيران "عدلى يكن باشا" و"عبد الحالق ثروت باشا" . فهؤلاء الثلاثة ، قد وهب الله لهم أصالة الرأي ، ونسالة القصد ، وثروة الذهن ، وغنى العقل ، وحباهم سدادا في سياسة ، وتواصعا مع رياسة ، وحكمة في كياسة ، ونبوغا مع ثقافة ، وحرما في حصافة . وأمتعهم بثقوب النظر ، ورجاحة الفكر ، وأفاض على أشخاصهم ليلا ودُمائن ، وسماحة ودَداعة ، حتى أجمع القوم على جبههم إجماعهم على الاعتراف بوافر فصلهم ، والإشادة بعطر دكرهم ، وتساقوا الى الاستفادة من سديد موافقهم ، وحكيم صعبهم ، ونزّيه أعمالهم ، استفادتهم من أفأويق عرفانهم ، وفيض بيانهم ، ومُقْبِع برهانهم . وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا في تكوين الأمة من الوجهة السياسية ، نجاحهم في تكوينها من الوجهة القومية . فاللهم رحمة واسعه لرعيما الراحل الكريم ، وعوضا اللهم من خسارتنا الفادحة في فقده ، أحوح ما كا الى عظيم جُهوده ، وهب اللهم حياة طويلة لقطيبنا محطّ الآمال ومعقّد الرجا .

وأحمد تعالى على أن دخلت البلاد عهدا جديدا من حياتها العلمية ، بزعامة وزير معارفنا . اللهم ، مُرْهَف العَزمات ، مسدّد الوَثات ، صاحب المعالي "على الشمسي باشا" ومدير

جامعنا المصرية العالم الحليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رجالات العلم والأدب فى هذا الجبل .

٤ - وإنى أتهنئه المرصه لأشيد بما للرحوم الأستاذ محمد الحصرى بك من فصل عظيم . ومعترفا بما لصديق الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من مَعُونَة قِيمه فى غير موضع من الكتاب ، كما أتهنؤها لأشكر لسادنى العلماء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلات حسن استقناهم لكتابى . كما أحمد لحصرت النقاد الأحناء جميل تشجيعهم وحكيم أخذهم الأمور بهوادة ويرفق . معترفاً بصداق رعبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء قادرا أعظم قدر روحهم العالية فىا ديجوه فأجادوه ، وكتبوه فارتفعوا بعلم القدر عددا عما وُصِم به أخيرا من التَّطَاخُن والرَّمَاء ، والحِلَالَد والشَّجَاء ، والعمل على الهدم لا على البناء ، كما أشكر لسادنى الأستاذين الجليلين محمد عبدالوهاب الحار وعبدالخالق عمر والكتابين الأديبين محمد المهياوى ومحمد صادق عسبر ، حُسْ صنيعهم فى تهذيب "عصر المأمون" معترفا بعظيم جهد ثانيهما اللعوى أحسن الله جرائهم .

وإلى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حصرت الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشَّامَّة . وأحمد زكى العدوى امدى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الهوامش الحسان . وعبد الرحيم محمود امدى ومحمد عبد الجواد الأصمى امدى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم العاقل ، فى ضبط الكتاب وتصحيح مسوداته . كما أشكر حصرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جراء المأمون على حَديهِ وكبير عايتة بذور الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره ، بأن وفق دار الحكمة فى مصر، فى هذا العصر، الى رعاية عصره ، بهمة وإخلاص ، وتقيق وتحقيق ما

أحمد فريد رفاعى

الكتاب الأول

عصر بني أمية

الفصل الأول

تحول المدينة الإسلامية

توطئة — نظام الحكم على عهد الصحابة — حكومة عُمان وطر الجماعات العربية إليها .

(١) توطئة :

حمل الفتح الإسلامي الذي فتحه الحلفاء الراشدون في سبيل الدعوة الدينية من العاصر المادية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائج وآثاره ، فعد أن كانت الأموال في أيام النبي صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفاً وحبيل ، وبعد أن كان عمرُ الخطاب دَهِشاً مُرتاباً حينما أُلغى أبو هريرةَ عند قدومه من البحرين أنه أتى بمحمائة ألف درهم فاستكثرها عمرُ وقال : أتدري ما تقول ؟ قال : نعم ، مائة ألف خمس مرات . فصعد عمرُ المبرِّ وقال : «أها الناس ، قد جاءنا مالٌ كثيرٌ ، وإن شئتم كَلَّا لكم كيلاً ، وإن شئتم عَدَدًا لكم عَدًا» — بعد أن كان دَهِشًا من هذه الثروة أصبحنا نرى ، بعد عهده بقليل ، حسامة الهبات مما لا تُعد هذه الأموال في جانبه شيئاً مذكوراً .

ونحن لا نعرض الآن للقول فيما وصلت إليه الثروة الإسلامية في أيام المأمون ، ولا نعرض لفنون المدنيات العديدة التي سادت في عهده ، لأننا رسماً لأنفسنا حُطَّةً من لا يريد

استبأق الحوادث وآثارها، ولا التاريخ ونتائجها. وإنا نحترئ الآن بكلاما عن عصر قريب من عصر النبي صلى الله عليه وسلم، القريب العهد بتأثر الأذهان بالمثل العليا : من أبى بكر الذى مات ولم يحدوا عنه من مال الدولة إلا دينارا واحدا سقط من عرارة، والذى أوصى حينما دنا أجله بأن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أحذه من مال المسلمين، ومن عمر بن الخطاب الذى حرّم على المسلمين اقتناء الصّباغ والزرّاعة، لأن أرقاقهم وأرزاق عيالهم وما يملكون من عيد وموال، كلّ ذلك يدفعه لهم من بيت المال، فما هم الى اقتناء المال من حاجة، وليس للال في نفوسهم من إعراء ولا الى صمائهم من إفساد .

هذه حال المسلمين المادية والمعوية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه، نظر بيننا وبين ما حدث بعد ذلك من كثرة في المال وإسراف في الترف مما كان له أعمق الأثر في تميّز أحوال المسلمين الاجتماعية والمعيشية والخلقية . يحدثنا أس حلدون عن عامل أموى، ليس بملك ولا خليفة، يحدثنا عن خالد القسرى أمير العراق في أيام هشام يقول : إن عتته بلغت ثلاثة عشر ألف ألف درهم . ويثبت لنا ابن الأثير دليلا ليس بأقل مما ذهب اليه ابن حلدون قيمة وخطرا، إذ يقول ما نصه : « إن طارقا حليفة خالد على الكوفة لما حتّى ولده أهدى اليه حالد ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب » . وذكر اليعقوبى : أن حالدا فرق أموالا عظاما مبلغها ستة وثلاثون ألف ألف درهم .

أجل ! لقد تحوّلت الاعتبارات الاجتماعية وقا للتعيرات المادية، فبعد أيام الورع وغلبة سلطان الدين والعدل في أعطيات المسلمين، بعد أيام عمر وصحابة عمر التي نعلم الشيء الكثير من وجهة نظر عميد الدين الاسلامي فيها الى المال — وهو عصر حيوى شديد الأثر في تحوّل النظم المعيشية والاجتماعية والسياسية أيضا — والى صرّ اختراجه، فقد قال قائل لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين، لو تركت في بيوت الأموال شيئا يكون عدّة لحادث اذا حدث » ! فزجره عمر وقال له : « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاى الله شرّها ! وهى فتنة لمن بعدى . إنا لا أمدّ للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله، وهى

عُدَّتْنا التي بَلَّغْنا بها ما بَلَّغْنا» — بعد هذه الطَّرَافِ التَّقْشِيقِيةِ البريئة، نظراتِ الورع والزهد، سَرَعانَ ما حملتِ الفُوحُ معها ومع تلك الثروات الطائلة التي أتت بها ما عِبرَ عاصِرِ عِدَّةٍ، فاختَرَنَ المسأَل، وكانت العتة كما تَنَدَّتْ بطراتِ عمر الصائنة الى المال واحتراثة، وذهبت في آثارها الى ما هو أعمق وأخطر، دَهَمَتْ الى اليكَّانِ الحلقِ للعرب، فبدلت من سيرة قَادَتِهَم وسيرة شَعْبِهَم : كانت سيرة قَادَتِهَم عدلاً وإصفاً، وسيرة شَعْبِهَم أنفةً وانتصافاً، فتبدل الحال غير الحال، حتى أُتِيحَ لمصعب بن الزبير مثلاً، وهو من بيت بُنَاوِيٍّ حَى أُمِيَّةٍ ويافسهم في الملك، أن يَدُلَّ ألف ألف درهم في زواجه من سُكَيَّة بنت الحسين، ومثلها في زواج عائشة بنت طلحة، في حين كان حُمدُ المسلمين يتصورون مسبةً وحوا. حتى كتب عبد الله ابن مُصعب الى عبد الله بن الزبير لماسمة ما يعانيه الحمد وتَرَفَّ شقيقه زعيم الحمد :

بَلَّغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً * من ناصح لك لا يريدُ حِدَاغاً
نُصِّحُ العتاه بألف ألف كامل * وتبيتُ ساداتُ الجودِ حِيَاغاً
لَوْلَا بِي حَفِيصُ أَقْوَالٍ مَقَالَتِي * وَأَبَتْ مَا سَابَقْتُكُمْ لِأَرْتَاغاً

صَدَقَ الشاعِرُ في قوله، إن تلك الحال ليرتاع منها عمرُ حقاً، وَلَيَفْرُقُ من ذكرها أبو بكر، ويلتاع من سماعها علي. ولكن الحال تعيرت الى مدى بعيد، حتى أصبح المسأَل عَرَضاً تَشْرِبُ لِحَايَته الأَعْيَاقُ، وتَرَعِ نَحْوَ تَمْلِكِهِ النُفُوسُ، الى أن رأينا فيما بعد أن الحاج بن يوسف لما حاصر الكوفة، وفيها ابن الزبير، وتردد جندُه في صربها بالمجبيق حاء بكرسى وحلس عليه وقال : «يا أهل الشام، قَاتِلُوا على أعطياتِ عبدِ الملك» ؛ ففعلوا .

ذلك هو أثرُ المالِ في الأخلاق والأحوال والنُفُوسِ طبقاً للتغيرات الاجتماعية .

(١) هذه الآيات من عروض الكامل وتعاليه :

متاعل متاعل متاعل

مرتب

وقوله : "لَوْلَا بِي" رُحافٌ يُقال له . الحِرْل، وهو سكون التاء وسقوط الألف من متاعل كما هو ظاهر في "لَوْلَا بِي" مَبْنِيٌّ متعَلٌّ وهذا البناء غير مقول فيصرف الى ساء مقول وهو معتل ؛ والحِرْل في الكامل فيج .

ولحاول فيما سعمقده من الفصول الآتية بيان حال الدولة العربية أيام عثمان، وكيف وصل الأمر الى معاوية، وكيف خرج الملك من بجى أمية حتى وصل الى بنى العباس . ولحاول بعد هذه التقدمة دراسة الحياة الأدبية الى جانب دراستنا السياسية الاجتماعية؛ وإن ذلك ينمعا كثيرا فيما نرومه من التكلم بسطية فى القول وتصوير صحيح لعصر المأمون الذهبى ولا سيما الحياة الأدبية والعلمية فيه، ملاحظين فى ذلك كله جانب القصيد والإيجاز، مآزين سراحا على حلّ الحوادث الجبار فى ذاتها، والتي لا تعيبا كثيرا فى موضوعا، مثل عصر معاوية، مما نرحو أن نوفق فى المستقبل القرب فمكتب عنه وعما فيه من أسرار وثورات .

(ب) نظام الحكم فى عهد الصحابة :

الاس من حيث مؤلهم ومعتقداتهم، دينية كانت أو سياسية، لا يكادون يعقدون طبقة من ثلاث : محافظين، ومعتدلين، ومُتطرفين . ولسا آحدن بسبيل من التوصيح لأحكام هذه الجماعات أو الأحزاب فى حياه عثمان، ولا تطر كل فئة منهم الى سياسة حكومته، وإنما يكفينا أن نقول : إن هذه الفئات التى تكون دائما قوة الرأى العام الذى كان له فى حكومات الصحابة صوت يؤبه له وإرادته تُحترم، مع مراعاة طبيعة النفسية العربية البدوية الشديدة الإباء والأهنة — هذه الفئات لم يكن شأنها ولا كهولها، رهاؤها ولا الفقيرون فيها، براصين عن حكومة عثمان .

كان نظام الحكم فى عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات نظاما مؤوقراطيا — اذا صح لنا هذا التعبير، وهو صحيح لا محالة — ذلك لأنهم لم يمانهم وتقواهم وكامل إسلامهم، جعلوا الله تعالى مصدر السلطات الدينية والدنيوية، فكل شئ لله : المأل مال الله، والحد جند الله . ومن هذه اللاحية توافرت الشورى وتوافرت الكرامة الدينية . وربما كان المحافظون من رجال الدين يتبرمون من هذه اللاحية أيضا بمنح حكومة عثمان، التى لا نشك أن حزبا أيام عثمان لم يكن بدى خطر، اللهم فى ماضيه من حيث الزعامة والسيادة

وما إلى ذلك في العصر الجاهليّ . ولكنه فاز أخيراً ، ولَقِيتَ الجماعةُ العُثمانيّةُ ومنهم الأمويّونَ دورَهُمُ المعروفَ ذا الأثر الكبير في العقليّة العربيّة والمدنيّة الإسلاميّة .

(ج) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربيّة إليها :

وبعد ، فإذا بَقَمَ الشَّبابُ والشُّيوخُ من حكومة عثمان ؟

أما نحن فلا يُطَلَبُ ما أن نُنْدى رأياً في عثمان ، فهو صحابيّ جليل ، وله أثره الخالد في جمع القرآن وغير القرآن ، وله دِيْهُ السَّمْعُ الذي لا تشوبه شائبةٌ . وما كان الدينُ لِيُحْتَمَّ على الناس جميعاً أن يكونَ نظرُهُمُ إلى الحياة الدنيا بطَرِ التَّقْشِيفِ والرهْد . ولا يُطَلَبُ ما أن تُنْثَبَ صَعْفٌ للحكومة العُثمانيّة ، وإِمْما يُطَلَبُ ما أن تُسَرَّدَ الحوادثُ بإيجازٍ ، ولما في تسلسل هذه الحوادثِ ودراستها وتقييد آثارها ما قد يسمَحُ لنا بالتعرُّضِ له حين معاينتنا الكلامَ عن عصرها فيما بعدُ .

بعودُ مُتَساءَلُ : ماذا بَقَمَ الشَّبابُ والشُّيوخُ من حكومة عثمان ؟

يقول اليعقوبيّ : « إن عثمان أثارَ القرباء ، وحَمَى الحمى ، وبى الدارَ ، واتحد الضياعَ والأموالَ بِمالِ الله والمسلمين ، ونَفَى أبا ذرَ صاحبَ رسولِ الله وعبدَ الرحمن بنِ حبلٍ ، وآوى الحَكَمَ بنَ أبى العاصِ وعبدَ الله بنَ سعد بنِ أبى سرحَ طَريْدَيَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدرَ دَمَ الأُهمْرُ ما لم يَقْتُلْ عُبيدَ الله بنَ عمرَ به ، وولى الوليدَ بنَ عُقْصَةَ الكوفَةَ ، فأحدث في الصلاة ما أحدث ولم يَمْنعه ذلك من إعادته إياه . »

ويذكر اليعقوبيّ في مكان آخر ما كان من إغصاب عثمان لعائشة أم المؤمنين ، ومكانة عائشة مكائدها ، وأنه قصص ما كان يعطيها عمرُ بنُ الخطّاب ، وأنها تربّصت بعثمان حتى رأته يحطّبُ الناس فدَلَّتْ قيصَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونادَتْ : « يا معشرَ المسلمين ، هذا جلبابُ رسولِ الله لم يَبَلِّ وقد أبلى عثمانُ سنّته . » وليس أدلّ على شدّة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقومَ بالصلحِ بينه وبين الخارجين عليه حين اشتدّ عليه الأمرُ وصار إليها

مروانُ فقال لها : يا أُم المؤمنين ، لو مُنيتِ فأصلحتِ بين هذا الرجل وبين اللبس ! قالت : قد مرعُتُ من جهازى وأنا أريد الخ ، قال : يدفعُ اليك بكلِّ درهم أتعنته درهمين ، قالت : «لعلك ترى أنى فى شك من صاحبك ! أما والله لو دِدْتُ أنه مُقطَّعٌ فى عِرَارِيه من عرأترى ، وأنى أُطيق حمله فأطرحه فى البحر » .

قلنا : إن نظام الحكم فى عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات كان نظاماً ثيوقراطياً فى إرجاعه كلِّ شئٍ الى الله تعالى ، وأن المال مألٌ الله ، والجدُّ جدُّ الله ، وأن الحكم لله لا للباس . ويقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان وحازن بيت المال فى عهده مُشادةٌ ومسامرةٌ ، وأن حُلَّ الثَّقادِ اتحدوا من هذه المُشادةِ مَطْعماً و سياسةً المالية ، وثُلْمَةً يَتَهَجَّمُونَ منها عليه . وكانت حدة المُشادةِ بينه وبين حازن بيت المال فى أمر غُطَّائه ، حتى قال له عثمان : « إنا أنت حازنٌ لنا إذا أعطيناك نِغْذ ، وإذا سَكَنَّا عك فاسكُت » . فقال : « كَذَبْتَ والله ! ما أملك بجزائٍ ولا لأهل بيتك إنما أنا حازنُ المسلمين » . وحاء بالفتح يوم الجمعة وعثمانُ يحطبُ فقال : « أيا اللاس ، زعم عثمانُ أنى حازنٌ له ولأهل بيته ، وإنما كُتُّ حاربا للمسلمين ، وهذه مفاتيحُ بيت مالكم » ورمى بها . فأحدها عثمانُ ودفعها الى زيد بن ثابت .

وليس من شكٍّ فى أن شبابَ العرب عامةً وقريشَ خاصةً لهم آمالهم ولهم مطامعهم وهم فى مُقتلِ عمرهم حين يكون الطموحُ الى اعتلاء المراتب الرفيعة مُصْطَديماً بالوارع الدينى ، وأنهم تألموا أن يبال عدُّ الله بـ حالد بن أسيد حمسين ألف درهم ، ومروانُ بن الحكم خمسة عشر ألفاً مع أن عثمان استردَّها منهما لما عُوت وتوقش ، وتألموا أن يذهب آل عثمان بمناصبِ الدولة وهم يرون فى أنفسهم من الكفايات والمواهب ، ومن الحسب والنسب ما لا يقلُّ عما لهؤلاء .



وما لنا نذهب بعيداً فى الاستدلال على نظريتنا هذه والمُصُّ الإنسانية هى هى الطُّموحُ الى زينة العاجلة وزُخْرِفِها . وقد جاء فى الأغاني فى معرض كلامه عن أبى قُطَيْبة الشاعر :

«أن ابن الزبير مضى الى صيفية بات أبي عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أن خروجه كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثر معاوية وأبيه وأهله بالنفى، وسألها مسأله أن يُبايعه . فلما قُدمت لزوجها عشاء ذكرت له أمر ابن الزبير واجتهاده وأثنت عليه وقالت : ما يدعو إلّا الى طاعة الله جلّ وعزّ، وأكثر القول في ذلك، فقال لها : أما رأيت بَقَلات معاوية اللواتي كان يحجّ عليهنّ الشهب ! فإن ابن الزبير ما يريد غيرهنّ» .

هذا رأى كبير من رجال العصر في خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالف نفوس الشباب من طُموح الى السلطان ولذاته . مع أن ابن الزبير كان حارجا على أهل بيت يرى حُلّ الناس في ذلك العصر أنهم اعتصموا الملك من أهله اغتصاما . ويظهر أن معاوية نفسه كان قد افتتح بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتجسّب ماجة على الحرّ والعبداء حين ذكره على بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم، لولا مقالة ولده له : « كلا ! ولكك رأيت سيوف بجى هاشم حدادا تحملها شداد »، فثارت نائزته وقال : « وبلك ! ومثلى يُعير لُجُب ! هلم الى الرمح ! » وأحد الرمح وحمل على أصحاب على .

ومعقول أن يعصّب هؤلاء الشاة وأمثالهم من حكومة عثمان وهم يرون العائِم والثروات تكتسح بلادهم ، وللال حكمه وسلطانه . ومعقول أيضا أن يغصّب منها أمثال عمرو بن العاص الذى قال له عثمان، يوم ندبه ليعدره عند الناس ما كان منه إلا أن أصرم جدوة الحقد عليه : « يابّ الباعة، والله ما ردت أن حرّصت الناس على .. يابّ الباعة، قِل درعك مذ عزّ ثُك عى مصر » .

هذا من ناحية النفعيين ومهم المتظرفون . وهناك المعتدلون، وهؤلاء قد ناوا بجانبهم عن الفتنة واعتزلوا الناس من شرّها وآثارها، وهم لها كارهون ومها ناقون . وهناك المحافظون الأتقياء حقا أمثال أبي ذر ورافع بن حديج وغيرهما من صحابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهداهم ومن حبهم للآخرة وإعلاء كلمة الدين الشىء الكثير، والذين

يقول فيهم الجاحظ في رسالته عن بنى أمية ^(١) : « إنهم كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض » . ولبوصح قليلا هذا النوع من المتقشفين حقا والمخلصين في عقيدتهم الدينية صدقا ، ولنصير مثلا أبى ذر العماري ولسطر ما يحكيه لنا أبى الأثير في هذا السبيل ، فهو معتدل مستقر للحقيقة أكثر من سواه . يقول أبى الأثير : إن أما دركان يذهب الى أن المسلم لا يسعى له أبى يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليتبه أو شيء ينفعه في سبيل الله أو بعده لكريم ، وكان واحد طاهر القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ فَكَانَ يَقُومُ السَّامُ وَيَقُولُ : " يَا مَعْشَرَ الْأَعْيَاءِ ، وَاسُوا الْفُقَرَاءَ ، شَرُّ الدِّينِ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَكُلُوا مِنْ نَارِ تَنْكُورٍ بِهَا جَاهُهُمْ وَجُودُهُمْ وَطَهُورُهُمْ " ۚ مَا زَالَ حَتَّى وَلَّيَعَ الْفُقَرَاءُ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَأَوْحِبُّهُ عَلَى الْأَعْيَاءِ ، وَشَكَا الْأَعْيَاءُ مَا يَلْقَوْنَهُ مِنْهُمْ ، فَأَرْسَلَ مُعَاوِيَةُ إِلَيْهِ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي حُجَّحِ اللَّيْلِ فَأَقْبَحَهَا ، فَلَمَّا صَلَّى مُعَاوِيَةُ الصُّبْحَ دَعَا رَسُولَهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : اذْهَبْ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقُلْ لَهُ . أَقْبَذَ جَسَدِي مِنْ عَذَابِ مُعَاوِيَةَ فَإِنَّهُ أَرْسَلَنِي إِلَى عَيْرِكَ وَإِنِّي أَحْطَأْتُ بِكَ ، فَعَمِلَ ذَلِكَ . فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : يَا بُنَيَّ ، قُلْ لَهُ : وَاللَّهِ مَا أَصْبَحَ عِدَمًا مِنْ دُنَايَاكَ دِيَارًا وَلَكِنْ أَتَّخِرًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى يَجْعَلَهَا . فَلَمَّا رَأَى مُعَاوِيَةُ أَنَّ فِعْلَهُ يُصَدِّقُ قَوْلَهُ كَتَبَ إِلَى عِثْمَانَ . إِنَّ أَمَا ذَرٍّ قَدْ صَيَّقَ عَلَيَّ ، وَقَدْ كَانَ كَذَا وَكَذَا : لِلَّذِي يَقُولُهُ الْفُقَرَاءُ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ عِثْمَانُ : " إِنْ الْفِتْنَةُ قَدْ أَحْرَحَتْ حَظْمَهَا وَعَيْنُهَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَتَبَّ ، فَلَا تَسْأَلِ الْفُرَحَ وَجَهْزُ أَبَا ذَرٍّ إِلَى وَاعْتَمِدْ مَعَهُ دَلِيلًا وَكَفِّفِ النَّاسَ وَنَفْسَكَ مَا اسْتَطَعْتَ " . وَبَعَثَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ أَبَا ذَرٍّ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَرَأَى الْمَجَالِسَ فِي أَصْلِ جَبَلِ سَلْعٍ قَالَ : بَشِّرْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِنَارِ شِعْوَاءَ وَحَرْبِ مِدْكَارٍ . وَدَخَلَ عَلَى عِثْمَانَ ؛ فَقَالَ لَهُ : مَا لِأَهْلِ الشَّامِ يَشْكُونَ ذَرْبَ لِسَانِكَ ؛ فَأَجَبَهُ ؛ فَقَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، عَلَيَّ أَنْ أَقْصِيَ مَا عَلَيَّ وَأَنْ أَدْعُو الرِّعْيَةَ إِلَى الْاجْتِهَادِ

(١) راجع رسالة الجاحظ في بنى أمية في باب المشور من ملحق الكتاب الثالث في المجلد الثاني .

(٢) الحطم . الأم . (٣) درب اللسان : حدته .

والاقتصاد، وما على أن أحبرهم على الرهد؛ ثم انتهت المُحَاجَّةُ الى أن نرح أبو دزمن المدينة ونزل الرُبْدَةُ^(١).

فهذا النوع من التفشيف المتبرم بحكومة عثمان، وذلك النوع من الشباب الطامح بعبية الى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعة المعتزلة التاركة الحبل على الغارب — كل هذه العوامل تجعلنا نقع بحاج الفتنة صد حكومة عثمان وانهاؤها بتلك المأساة المروعة التي كان فيها ما كان مما يذكركم لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الخاطب : من قتل عثمان رضى الله عنه، وما أسبغ منه، ومن حطهم إياه بالسلاح، ونفع نطه بالحرا، وقرى أوداحه بالمشاقص^(٢)، وشدح هامته بالعمد، مع صرب لسانه بحصرتة وإحجام الرجال على حرمة، مع انقاء نائلة بدت الفرافصة^(٣) عنه بيدها حتى أطوا^(٤) أصبعين من أصابعها .

كانت تلك المأساة المروعة الى تُفتت القلوب الحلامد، ونتمحروا لها العيون الجوامد؛ فلقف عند دكراها وألجس آسهب .

(١) الربدة من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق وبها قرأى در العفارى .

(٢) المشاقص . جمع مشقص وهو يصل عريض وقيل مهم . (٣) الفرافصة هج الفاء لا غير .

وليس في العرب ما يسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره كما أن أما على القائل ذكر أن كل ما في العرب فرافصة نعم الماء لإفرافصة هذا أما نائلة امرأة عثمان رضى الله عنه . (٤) أطوا قطعوا .

الفصل الثنائي

الجهاد بين الخلافة والملك

توطئة — كلمتا عى على رضى الله عنه — تحوّل الرأى العام — معاوية — سياسة معاوية — ميرات معاوية — معاوية والسياسة المكاظية .

(١) توطئة :

نحى الآن مُقلّون على فترة جهادٍ عيف بين الخلافة والملك ، فترة لا يصح أن نعتبر الجهاد فيها جهادا بين على-ومعاوية ، أو بين على-وعير معاوية من مُفاسيه و الخلافة أو من الخارجين عليه ، وإما يحقّ با أن نعتبرها بمثابة جهاد عيف بين وِحات المطر العربيّة و الحياة ، فإن موتَ عثمان رضى الله عنه لم يمتّ الفتة بل أدكاها وزادها صرّاما واشتعالا .

وإنه لمن الميسور للماقد أن ياتمسّ العلةَ أن الأحرار العربية حين داك لم تُجّع على سيدنا على ، ذلك أن الجماعة الرابعة و الوطنائف والأموال لم تحد فيه طلّتها وسؤلها ، ولم تعرّ فيه على أشودتها ورحلها ، بل على القيص قد لقيت مه حاكما صلّا لا تلبّ قناته ، سار فيهم سيرة الحق لا ناحده و الله لومه لائم ، وكانت حركاته وسكاته رضى الله عنه جميعها لله وى الله لا يعطّ بها حقّ أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أحاه عقيلا ، وهو أسُ أبسه وأمه ، طلب من بيت المال شيئا لم يكن له بحقّ ، فمعه رضى الله عنه وقال . يا أحنى ، ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك ، ولكن أصبر حتى يحىء مالى واعطيك مه ما تريد فلم يُرض عقيلا هذا الجواب وفارقه وقصد معاوية بالشام . وكان لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما . فأطرو الى رجل حملة ورعه على هذا الصنيع بولديه وبأحيه من أنويه ! فلما سار فيهم هذه السيرة ثقل على بعض الناس فعله وكرهوا مكانه .

هذه خُطَّةٌ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ فهم من آثار العزلة وترك حبل الأمة على غاربها، نتطاحنُ أحرابها بين طُلَّابِ الخلافة، ومنهم الخوارج الذين عصوا على عليّ كما غصبوا على معاوية، وندبوا من بينهم عبد الرحمن بن ملجم ليقْتَلَ عليا، والبرك بن عامر لِيُخَلِّصَهُمْ من معاوية، وعبد الله بن مالك الصيداوى لِيُرِيحَهُمْ من حليف معاوية عمرو بن العاص . هؤلاء الخوارجُ كانت كلمتهم : « الحكم لله لا للباس » فقموا من عليّ حضوَعَه للتحكيم، وما خضع إلا مُكرها مُعْتَبًا .

(ب) كلمتنا عن عليّ رضى الله عنه :

كان عليّ إماما دينيا، كان مَوْثِلًا للشريعة ومثالا للورع والاستمسك بأحكام الكتاب، كان مَصْدَرًا خَصِيْعًا من مصادر الفقه والتشريع، وكان في حكمته وحروبه على السواء مؤثرا رصا الله ومُعَصِّبًا شهوات الباس وقادِعا أطماعها، وكان عونا كاملا لأئمة صفات الخلق الإسلامي من حيث البعده والشجاعة لا الخدق والسياسة، كان مُصْلِحًا دينيا على أتم ما يكون عليه مصلح ديني، يتفانى في هذا الإصلاح ويؤثر الآخرة على الأولى فيعمل لإرضاء الله لا لإرضاء الباس، وكان كما وصفه عديُّ بن حاتم لمعاوية : « يقول عدلا ويحكم فصلا، تُتَفَجَّرُ الحكمة من جوانبه والعلم من بواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان والله عرير الدمعة، طويل العكرة، يحاسب نفسه إذا حلا، ويُقَلِّبُ كفيه على ما مضى، يُعِجِبُه من اللباس القصير، ومن المعاش الخش، وكان فينا كأحدنا . كان يعظم أهل الدين ويتجَبَّبُ إلى المساكين، لا يخاف القوى ظلمه ولا يئاس الضعيف من عدله، فأُقيِمَ لِقْدَ رَأْيَتِهِ لَيْلَةٌ وقد مثل في محرابه وأرنبى الليل سر ناله وعارت نجومه، ودموعه تُتَحَادَّرُ على لحيته وهو يتململُ يتململُ السليم ويسكى بكاء الحزين، فكأنى الآن أسمعُه وهو يقول : يا دنيا ألىّ تعزمت أم إلىّ أقبلت ! عُرِّى غبرى لا حان حيُّك، قد طَلَقْتِكِ ثَلَاثًا لا رجعة فيها » .

هذا هو عليّ حقا، عليّ الذى نال في التدقيق في محاسبة عماله حتى أعصب أكثرهم وحق. خسر بصرتهم، وفي حملتهم مَصْقَلَةٌ بن هيرة الشيباني وابن عمه عبد الله بن عباس

بعد أن كان أكثر نصير له ، والذي أعصت الرير وطلحة وكان في مقدوره أن يصمّمهما إليه ، والذي لم يكتسب الى حاسه عمرو س العاص ، ولم يقل بصيحة ابن العاص ولا المغيرة اس شعبة في إقرار معاوية وآس عاصر وثمان عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء ، وقال « لا أداهس في ديني ولا أعطي الدنيا في أمري » ، فقليل له : انزع من شئت وأترك معاوية ، فإن في معاوية جُزأة وهو في أهل الشام يُستع من له وله حقه في إثنائه عما كان من عمر بن الخطاب إذ قد ولاه الشام ، فاني وقال : لا والله لا أستعمل معاوية يومين . فلم تكن الحيل والحدع من مذهبه ، ولم يكن عده غير ممر الحق ، والذي يقول لأصحابه بعد أن أنحوا في أعدائه : « لا نتعوا مؤلّا ، ولا نُجهرُوا على حريح ، ولا تهبُوا مالا » فجعلوا يرمون الذهب والفضة في معسكرهم فلا يعرّص له أحد ، إلا ما كان من السلاح الذي قاتلوا به والدوات الى حاربوا عليها . فقال بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين ، كيف حلّ لما قاتلهم ولم نحلّ لما سنهم وأموالهم ! فقال عليّ رضى الله عنه : « ليس على الموحدين سئ ولا يُعَم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعلبه ، فدعُوا ما لا تعرفون والرمُوا ما تؤمرون » .

أحلّ ! هذا هو عليّ حقا ، الذي أبث رأفته وأبى ديه أن يجمع أهل الشام من الماء كما معوه أثناء مُبارلهم حتى كاد يهلك جسده عطشا ، والذي مع شيعته وأبصاره من شم معاوية ، صار ناصحا عن آثار استغلال ذلك في الدعوة السياسية لتأييد حلافيه والخط من ملك مُبايسة ، فإنه لما نلعه أن تجرس عدى وعمروس الحقي يُظهِران شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل اليهما : أن كُفّا عما لفتي عنكما ، فأبياه فقالا : « يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ! قال : كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعائين ، ولكن قولوا . اللهم أحق دماءا ودماءهم ، وأصلح ذات بيبا وبيهم ، وأهدم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن العى من لهج به » .

هذا هو عليّ حقا ، الشديد في محاسبة نفسه وعماله . أما محاسبة نفسه فظاهرة حليقة واضحة الصوح كله . وأما محاسبته عماله فإن تاريخه معمم بمئات الأدلة والشواهد مما

أفاد منه معاوية أيتاماً فائدة . وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مصقلة بن هيرة السبائي من علي وإصنامه إلى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجة التيمي الذي كان قد آستعمله علي على الرى فكسر من نراحها ثلاثين ألفاً ، فكتب إليه علي يستدعيه فحضر ، فسأله عن المال قال . أين ما علته من المال ؟ قال . ما أخذت شيئاً ، فحققه بالدره حقائق وحبه . ووكل به سعداً مولاه ، فهرت منه يزيد إلى الشام ، فسوّعه معاوية المال ، فكان يال من علي ، وبقى بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية ، فسار معه إلى العراق فولاه العراق .

فهذه الشواهد وأمثالها فيها أقطع الدلالات على شدة محاسبته لعماله وإعصائه آل بنته تدنيا وورعا ، وعملا للأخرة ، لا لساء ملك في الدار الأولى .

فلحفظ هذه الصورة جيداً ، ولذكر أنها لم يتح لها الفور والساح في ذلك الجهاد السياسى ، وأن الكفة الراححة في سياستنا الدوية كانت لمارله الذى نخدر سا أن ندرسه مايجاز وأقتصاب .

(ج) تحوّل الرأى العام :

صوّر الشاعر العفري "شكسیر" في روايه "يوليوس قيصر" تأثير الرأى العام سلاعه رعمائه التى يستعلون بها سداجة موقفه ، ويملكونها عقول قومهم إلى ما يهكرون ، و سحجرون بها عيونهم التى ما يصررون ، فلا يصدرون إلا عن إرادتهم ، ولا يهكرون إلا بعقولهم . وقد أبدع أيتاماً إبداع في موقعى "روتس" قاتل قيصر ومعهذ الرومان ، و"أطونيوس" مؤسسه ورأثيه ، وأظهر إلى أى مدى آفتن بهما الجمهور ، وإلى أى مدى تناقص في حنه وبعضه وإكباره وتألبه .

شكر الرومان "روتس" قاتل قيصر لأحل الرومان في سبل الرومان ، فأسلس له قيادهم وطلنوا منه أن يتبوأ العرش مكانه ، وحمل على الأعاق بعد أن تواء منهم حئات القلوب ، ثم استمعوا إلى "أطونيوس" يرثى قيصر ، وما استمعوا له لأن "روتس" طلب منهم أن

يَنْصِتُوا لَأَن قِصْرًا الطَّاعِيَّةَ غَيْرَ قِصْرِ الرَّاحِلِ ، فَأَنْصِتُوا وَتَكَلَّمُوا « أَنْطُونِيوس » فَخَزَّكَ مِنْ شَوْوَنِهِمْ وَأَسَاسَهُمْ أَهْسَمَهُمْ ، وَأَسْتَعْلَى فِي مَوْقِعِهِ مَا بَثَّ بِثَابِ قِصْرٍ مِنْ دِمَاءٍ وَثَقُوبٍ ، وَمَا بِجِسْمِهِ مِنْ طُعْمَاتٍ وَجُرُوحٍ ، حَتَّى اصْطَرَمَّتِ الْفِتْنَةُ ، وَكَانَ نَصِيبُ « رُوتِس » مَا تَعْلَمُ بَعْدَ حَمَلِهِ عَلَى الْأَعَاوِ !

هكذا فعل معاوية في جهاده وحلاده علياً ، فقد صدع بما أشار به عليه عمرو ابن العاص إدا طلب اليه إيطهارَ مَيْصِ الدَّمِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ عَثْمَانُ وَأَصَابِعَ زَوْجَتِهِ وَأَن يُعْلَقَ ذَلِكَ عَلَى الْمَبْرِ ثُمَّ يَجْمَعُ النَّاسَ وَيَسْكِي عَلَيْهِ عَازِيَا قَتْلِ عَثْمَانَ إِلَى عَلَى مَطَالِبَا بَدْمِهِ مُسْتَمِيلًا بِذَلِكَ أَهْلَ الشَّامِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ . أَحْرَحَ مَعَاوِيَةَ الْقَمِيصَ وَالْإِهْصَاعَ وَعَلَّقَهُ عَلَى الْمَبْرِ وَيَكِي وَاسْتَبْكِي النَّاسَ وَدَكَّرَهُمْ بِمُصَابِ عَثْمَانَ ، فَانْتَدَبَ أَهْلُ الشَّامِ مِنْ كُلِّ حَانَبٍ وَأَيْدِهِمُ الْأَشْرَافُ وَدُودُو الْمَوَدِّ كَشْرَحِيْلَ بْنِ السَّمِطِ وَسِوَاهُ ، وَدَلُّوْهُ الْطَلَبَ بِدَمِ عَثْمَانَ وَالْقِتَالَ مَعَهُ عَلَى كُلِّ مَنْ آوَى قَتْلَتَهُ . ثُمَّ حَاقَ لَعْنَى مُعْصِلَةِ سِيَاسِهِ لَا يَهْوَنُ عَلَى السِّيَاسَةِ حُلْهَا ؛ ذَلِكَ مَّا نَبِثَ بِرِسَالَةٍ إِلَى جَمَاعِهِ عَلَى ، وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ تَحْتَوِي عَلَى أُسُسِ الْمُبَادِي الْعَثْمَانِيَّةِ وَتَقُولُ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكُمْ دَعَوْتُمْ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، أَمَّا الْجَمَاعَةُ الَّتِي دَعَوْتُمْ إِلَيْهَا فَبَعَا ؛ وَأَمَّا الطَّاعَةُ لِصَاحِبِكُمْ فَلَا زَاهَا ، إِنْ صَاحِبَكُمْ قَتَلَ حَلِيفَتَنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَأَوَى نَارَنَا وَقَتَلْتَنَا ^(١) وَصَاحِبَكُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ ، فَحَسَّ لَا زَدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، أَرَأَيْتُمْ قَتْلَةَ صَاحِبِنَا ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ صَاحِبِكُمْ ، فَلْيَدْفَعُهُمُ إِلَيْنَا فَلْيَقْتُلْهُمْ بِهِ ، ثُمَّ نَحْنُ نَجْبِيكُمْ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ » . وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ عَلَى أَنْ يَدْفَعَ إِلَى مَعَاوِيَةَ قَتْلَةَ عَثْمَانَ ! وَمَاذَا يَكُونُ مَوْقِعُهُ أَمَامَ ذَلِكَ الْحِزْبِ الْقَوِيِّ الْبَاقِمِ عَلَى الْحَلِيفَةِ الْمَقْتُولِ ! فَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يَقِفَ رَدَّهُ أَمَامَ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ السِّيَاسِيَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ : « أَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِي إِلَيْكَ قَتْلَتَهُ فَإِنِّي لَا أَرَى ذَلِكَ ، لِعَلَمِي أَنَّكَ إِنَّمَا تَطْلُبُ ذَلِكَ دَرِيْعَةً إِلَى مَا نَأْمُلُهُ وَمِرْقَاةً إِلَى مَا تَرْجُوهُ ، وَمَا الْطَلَبُ بِدَمِهِ تَرِيدُ » .

(١) نَارُهُ : قَاتِلُ جَمِيعِهِ .

(د) معاوية :

لسنا نتعرض للحكم على دين معاوية وملح تمثيه في تصرفاته السياسية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع ، فقد تكلم في ذلك فيه الشافعي والحسن البصري ، وإنما نريد أن نمثل معاوية مؤسس الملكية في الإسلام ، وواضع أسس السياسة الدنيوية ، والذي قال فيه عمر بن الخطاب جلسائه : ”تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعدكم معاوية !“ .

(هـ) سياسة معاوية :

كان معاوية ذوا مواهب سياسية كبيرة ، وكان داهية ، دها ، بعيد مدى العقل ، مالكا قياد أهوائه ، كان ”دما مكر وذا رأى وحرم في أمر دنياه ، اذا رأى الفرصة لم يبق ولم يتوقف ، واذا خاف الأمر توارى عنه ، واذا حوصم في مقال ناصل عنه وقطع الكلام على مسطره“ . كان يعمل جهده ليشتري صمائر القبائل العربية ، وكان كثير البدل في العطاء . وقد ذكر الطبري حادثة نستطيع أن نستبط منها نظر معاوية الى المال والى ملع استعماله إياه ليملك به صمائر أهل المكانة والعهود من معاصريه : ذكر أن أبا مَنازل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بينما أعطى جماعة من الرعاء مئ في مرتته مائة ألف : فصحتني في بى تميم ، أما حسبي فصحيح ! أولستُ ذا سٍ ! أولستُ مطاعا و عشيرتي ! فقال معاوية : بلى ، قال : فما بالك خستت بى دون القوم ! فقال : إني اشتريت من القوم دنهم ووكلتك الى ديك ورأيك في عثمان بن عان - وكان عثمانيا - فقال : وأنا فاشتري متى دى ، فأمر له بتمام جائزة القوم .

كان سياسيا بطبيعته ، مِعطاءً وهوباً بسجيته ، وقد صدق في صفته أبو الجهم الشاعر إذ قال :

نمىل على جوانبه كأنا * نمىل ولا نمىل على أينا
نقلبُه لنغيرَ حالتيه * فنحبرُ منها كرمًا وليًا

وإنا نستطيع أن نفهم فهما صحيحا : أكانت ثورة معاوية لقتل عثمان ثورةً مصدرها إخلاصه العميق في العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجْرِى حَكَمَ الشَّرْعِ فِي قَتْلِهِ عثمان، أم ثورة مصدرها طُموحه إلى الملكِ ليعتصمه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان، فإن التاريخَ يحدثنا أن معاوية لما قدم المدينة دخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أئاه ! ونكت، فقال معاوية : « يابنة أخی، إن الناس أعطوا وأعطيأهم أمانا، وأطهروا لهم حلما تحتہ دَصَبٌ، وأطهروا لسا طاعةً تحتها حَقْدٌ، ومع كلِّ إنسانٍ سِيفُهُ وهو يرى مكانَ أنصاره، فإن نكشنا بهم نكثوا سا، ولا ندرى أعليا تكون أم لسا، ولأن تكوني بنتَ عمِّ أميرِ المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأةً من عُرضِ المسلبين » .

وقد لا نجد تصويرا أدقَّ لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله : « لا أصع سيني حيث يكفيني سوطي، ولا أصع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل: وكيف ذلك؟ قال : كنت اذا مذوها حلّيتها واذا حلّوها مددتها. فهذا القول يبين حلمه وطولَ باعه في السياسة، وهدوءَ أعصابه اذا حابهته المشكلات، أو نزّلت لساحته الكوارث والمعضلات، ويُظهرُ سعةَ عطفه وحرمة . واقصد قال له يزيد يوم يوع له على عهده بفعل الناس بمدحونه ويقترطونه - « يا أمير المؤمنين، والله ما ندرى أنخدع الناس أم يمدعونا ! » فقال معاوية : « كلٌّ من أردتَ حديثه فتحدّع لك حتى تلّع منه حاجتك فقد حدّعه » .

ثم أطر إلى مختلف تصرفات معاوية في حياته السياسية وغيرها، فإنك لتقتنع بصدق حكم الشعبي الذي قال فيه : « كان معاوية كالجلل الطب اذا سُكِتَ عنه تقدّم، واذا رُدَّ تأخّر » .

(و) مميزات معاوية :

ولقد أمتاز معاوية إلى جانب إلمامه التام بميول كل من له به علاقه من الناس، وصايد تقديره مع ثقب بصيرته بما فيهم من نواح للضعف يستطيع التسرّب اليهم منها —

امتناز الى جانب هذا كله بصفات ثلاث لها مكانتها السامية في تكوين الدهاء من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاث هي : أولا إيقاع أعدائه في مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمة، بأفانين طريقة طالما عمدها اليها الكثير من ساسة اليوم، مثال ذلك طريقته في إيقاع بطارقة الروم الديس يكيدون للإسلام، وذلك بمهاداتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقية هي حلمه ، وهناك مئآت الأمثال أترعت بها كتب الأدبية والتاريخية ، مشيدة بحلمه مطيبة في فضائل سعة صدره . على أننا نحترقها بما يمثل عادى، ذلك أنه لما ألحق زيادا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموى ، فقال له : يا معاوية لو لم تحد إلا الرنج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة ، فأقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليج ، فقال مروان : والله إنه خليج ما يطاق ، فقال معاوية . والله لولا حلمي وتحاوى لعلمت أنه يطاق ! ألم يبلغنى شعره في وى زياد ! ثم قال مروان : أشمعية ، فقال :

ألا أليغ معاوية بن صحر * لقد صاقت بما تاقى اليدان
أنقص أن يقال أبوك عف * وترصى أن يقال أبوك راي

الصفة الثالثة هي نعومته السياسية ، وهى غير الحلم ، وقد تمتدبر الى حد ما من نوع المغالطات السياسية ، مثال ذلك ما كان بينه وبين الحسن بن على في شأن نزوله عن الخلافة له ، إذ كتب اليه معاوية كتابا قويا جاء فيه : «أما بعد، فأت أولى هذا الأمر وأحق به لقربتك ، ولو علمت أنك أصبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لبايعتك ، فسل ما شئت » . وبعث اليه بصحيفة بيضاء مخنومة في أسفلها : أن أكتب فيها ما شئت . فكتب الحسن أموالا وضياعا وأمانه لشيعه على .

أصف الى هذه الصفات ما كتبت لمعاوية من توفيق وسداد في اختيار أكبر دهاء الولاة كعمروس العاص وزياد بن أبيه والمعيرة بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

الملك له ، والذين ارتسموا ، الى حدٍ غير قليل ، خطوات زعيمهم السياسي في شراء الضمائر وسعة العطن ورُجوح حصاة العقل . وهذا زياد المعروف بشدة الوطأة مله عن رجل يُكنى أبا الخير من أهل الباس والسَّحْدَة أنه يرى رأى الخوارح ، فدعاه فولاه جُسدَيْسَاوَر^(١) وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر ، وجعل عَمَّالته في كل سنة مائة ألف . فكان أبو الخير يقول : « مارأيت شيئا حيرا من لروم الطاعة ، والتقلب بين أظهر الجماعة » . كذلك فعل المغيرة بن شعبة حين حصَّه مُحَرَّبُ عِدَى وهو على المبر في حطبة الجمعة ، فإنه نزل مُسرَّعا ودخل قصر الإمارة وبعث الى حجير بمائة ألف درهم ترضاه بها . فقيل للغيرة : لم فعلت هذا وفيه عليك وَهْنٌ وَعَصَاصَةٌ ؟ فقال : « قد قتلته بها » ! !

الى حاب هذه العاصير المكونة لتلك الشخصية البارزة التي اعتمدت في تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه من رضى الأحراب بالمال وعاقبة الناس بالطعام ، واستغلال العصبية العربية ، والتساهل في إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبعه الأحوال السياسية ، فإن معاوية يصف بنفسه سبب نجاحه على علي بقوله : « أُعِثُّ على علي بن أبي طالب نار ع خصال : كان رحلا طهرة علة لا يكتم سرا ، وكنت كُتُومًا لسرى ، وكان لا يسعى حتى يُفاجئته الأمرُ معاحة ، وكنت أبادر الى ذلك ، وكان في أخبث جسدٍ وأشدَّهم حلافا ، وكنت أحب الى قريش منه ، فملت ما شئت ، فله من جامع الى ومُفَرَّق عه ! » .

(ز) معاوية والسياسة الميكافلية :

وبعد ، فإن السياسة الحديثة قد أناحت لرجالاتها في سبيل تحقيق آياتهم أن ينتهجوا من الوسائل ما يكفل لهم مُحَنَّهُم السياسي . ويجب علينا أن نُثبت أن جُلَّهُم ، ولو أنهم يتظاهرون بموهرهم من مدرسه « ما يكافئ » التي تُضَحَّى بكل شيء تسويها للوصول الى العاية السياسية ، يأخذون في الواقع بتعاليمها ويعملون على برَناجِيجِهَا . هذه السياسة الإيجابية في نجاحها العملي ، السلبية في إرصادها الماسخ الخلقية ، هي التي أخرجت لنا

(١) مدينة بخورستان ساها ساووس أردشير فستت اليه وأسكنها سى الروم واطاعة من حده . انظر معجم ياقوت .

«ماترنيج» و «كافور» و «دزرائلي» و «بسمرك» و «بت» ، وهى التى كان من أطلالها « حلاستون » دوالمواقف العربيه فى الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تحلّ من السواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود !

كذلك كان معاوية ، فى حُلّ تصرفاته ، يحصل كثيرا بمحقق عاياته فى تشييد الملك ، فهو يدبّر أمور الناس لهذه الوجهة ، وهو يتنج من الوسائل السياسية ما يكفل نجاحه فى هذه الوجهة . وإله خليق با وبسوانا ألا نعدو بعيدا عن هذه الوجهة حين نظرنا الى معاوية فى كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حده شاعره الكبير أب سيجان ، وحين حكم لابن الزبير بش داره المحترقة ، وحين أوصى عقيلا ، واحتمل من الأحف بن قيس ما احتمل ، وحين تحلّص من الأشر الحصى ومن عد الرحمن بن خالد ، وحين فصل فى مازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكاية الأرض التى قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدهما ، وحين كان يبدل المال طبقا لمناهجه السياسية . وإنا نتيح لأنفسنا حين ننظر الى قول زير العابد بن : « إن عليا كان يقاتله معاوية بذهبه » أن نقول : « إن معاوية كان يقاتل عليا بذهبه وذهبه » .

وإنا لفظ أنا قد صوّرا معاوية بما هو أهله ، وأوضحنا ما كانت عليه تلك الشخصية العتة فى مسيره الناس واحتمال الأذى مهم ، والتى يقول صاحبها : ” ما من شئ عدى ألد من غيط أتعزعه “ . « وإنى لا أحول بين الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا » . والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية وميراته ، أن نفهم قيمة قول على رضى الله عنه فى كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية وهو ما نتختم به كلتنا فيه : ” إنى وليتكم ما وليتكم وأنا أراك له أهلا . وقد كانت من أبى سفيان فلتة من أملى الباطل وكذب النفس ، لا توجب لك ميراثا ولا تحل له نسباً . وإن معاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذر ثم احذر . والسلام “ .

الفصل الثالث

سياسة معاوية وخلفائه

توطئة — اصطاع الأحرار المال — المال — الوجهة الدينية — التسف المدهى .

(١) توطئة :

إن معاوية الذي مرَّ على السياسة بشأته وحدَّقها بسجيته وأتمها لمختلف أدوارها التي تقلَّب فيها ، فطُبع عليها وطُبِعَ عليه ، وأصبح منها وأصحت منه ، لم يكن في مقدوره إلا أن يكون سياسياً هذا موقفاً ، بل مصدر سياسات عبقرية طالما تشدَّها عصره وزمانه حتى بُعث بها وبُعثَ له ، وخلق منها وحُلِّقَ منه ؛ وكانت في هسها وجوهرها حليقة للإجلال والإكبار ، كما كان صاحبها قيساً بالجاح جديراً بالتوفيق ؛ لأنه لم يكن في وسعه ، بطبيعته واستعداده ومواهبه واستتمامه لأداة الحكم والسلطان ، إلا أن يوفق مظهرًا في مختلف خططه التي ارتسمها سديدة ناجحة ، لأنها قطعة من نفسه ؛ وكلُّ ما كان من نفس معاوية فهو بمثابة أصول السياسة في تشييد الملك بمجاء من الأعاصير التي تقطع كلُّ ملك قائم على غير طبيعة السنن الملكية الضرورية لها ولضمان حياتها ودوام قوَّة بيوتاتها .

إن معاوية ومن ضُربَ على قلبه وعِرارِه علموا الخفيات من أهواء النفوس ، فم لهم تملكها وقيادتها ، واتهجوا بها من المسالك ما أشع نهمتهم ونهمتها ، وحقَّق بُغيتهم وبغيتها ، ووحدوا بين تيار مصالحهم السياسية ومُختلف رعاتها ومُصطلِم مَنازِعها ، وفطِنُوا بثقوب بصائرهم الى استخدام كلِّ ما فيه القوَّة والحياة لمُلكهم من شتى العناصر : في أنفسهم وولاتهم وسائر شعبيهم .

أما في نفوسهم فباحذها ، مكروهة أو طائفة ، بالترام ما فيه النجح والتوفيق مع قصيد واعتدال ، فتحتار من الولاة والرعماء والقواد والبطانة من فيهم الغنية والكفاية وحسن

البلَاء ، يبحث عنهم أتى وُجِدُوا ، مهما كانت عصبياتهم وخفة ظلمهم أو كثافة نفوسهم ، ويُعْمَلون في مراكرهم بمعزل عن التغيير والتبديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملك .

وأما في ولايتهم فبعدهم عن جور الرعية وإصنافهم الناس جميعا ، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسى أو مذهبهم الدينى عسف ولا ظلم .

ولقد سأل الوليد عامله الحاج المعروف بعسفه وجبروته أن يكتب اليه بسيرته ، فكتب ما نثته ها ، وكنا نود أن يكون نرأسا حقا للحاج وعير الحاج ، قال :

” إني أيقظت رأى وأنمت هواى ، فأذيتُ السيد المطاع فى قومه ، ووليتُ الحرب الحازمَ فى أمره ، وقلدتُ الخراج الموفرَ لأمانته ، وقسمتُ لكل خصم من نفسى قسما يعطيه حظا من نظرى ولطيف عاتقى ، وصرفتُ السيف الى اللطيفِ المسىء ، والثواب الى المحسن البرىء ، نخاف المريبُ صولة العقاب ، وتمسكُ المحسُّ بحظه من الثواب “ .

وأما فى سائر شعبيهم فبان يستمتعوا بكل ما يرضى العدل والحق مع طمأنينتهم على ما لهم وأهسهم ، وأن تكون أبواب الولاة لشكايتهم مفتوحة ، وأداؤهم لمطالبهم مُضيعة ، وغيوبهم لخبرهم ناظرة . وكَم تُعيد تلك الصعأت مع حرم فى الولاة !

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدته لا يمتنع عن طالب حاجة وإن أتاه طارقا بليل . وهو الذى كانت عقوبته القتل للدخ ، وأحد المقبل بالمذبذب والمقيم بالطاعس . وقد وفق زياد الى استتباب الأمن فى روعه حتى قال المسدائى . « قَدِمَ قادم على معاوية بن أبى سفيان فقال له معاوية : هل من مُقربةٍ خير ؟ قال : نعم ، نزلت بقاء من مياه الأعراب فيها أنا عليه أورد أعرابى إبله ، فلما شربت ضرب على جوسها وقال : عليك زيادا ، قُلتُ له : ما أردت بهذا ؟ قال : هى سُدى ما قام لى فيها راع مذولى زياد . فسر ذلك معاوية وكتب به الى زياد » .

قلنا : إن معاوية ومن صُيرَ على قاله وِغِرائه فَعُطُوا بثقوب بصائرهم الى استعمال كل ما فيه القُوَّة والحياة للمكهم من شئى العاصِر فى أنفسهم وولاتهم وسائر شُعَبهم ، والآن يريد أن تَدْرُس بإيجار الأُسُس التى تابعاها تم الحاحُ فى تشييد البيت الأموى ، والتى باصطرابها والتسك عن سنتها وطبيعتها كان صَيَّاعُه وعاوُه .

(ب) اصطناع الأحزاب بالمال :

قال ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء : « إن أحمد بن يوسف الكاتب قال لأبى يعقوب الحريرى : مَدَّأَحْكَ لمحمد بن منصور بن زياد — يعنى كاتب الدرامكة — أشعرُ من مرثئيك فيه وأجودُ ، فقال : كُنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، وبينهما بونٌ بعيدٌ » .

واستطرد ابن قتيبة فقال : « وهذه عدى قصة الكُتَيْبِ فى مدحه بى أمية وآل أنى طالب فإنه كان يتشيعُ ويمحرف عن بى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه فى بنى أمية أحوذُ منه فى الطالبين ، ولا أرى عِلَّةَ ذلك إلا قُوَّة أساب الطمع وإيثار النفس لعاحل الدنيا على آحل الآخرة » .

صدقَ ابنُ قتيبة فيما ذهب اليه ، فإن أثر المال فى النفس الإنسانية غير قليل ، وإن أثره فى اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج الى تدليل ؛ وقد جُيِّلَت النفوس على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها وبِعِصَّ مَنْ أَسَاءَ إليها .

ولقد كان معاوية كَيْسًا فذاً فى استعمال المال واكتساب رصا الجمهور ، وكذلك كان كل من آتم بهديه وسنته ، فى البذل والعطاء ، وفى التوسعة على من آزرهم ، وعَمِلَ على نصرتهم ، ومدَّ ظلمهم وتثبيت عرشهم ، فقد زاد معاوية فى العطاء لمن شهد مواقفه ، كما فرضَ الأعطية للشعراء ، عاصًا طرْفَه عما فى ذلك من إعصاب المحافظين من رجال الدين ، إذ كان همه أن يملك الأنواق المداحة ويستترصيا بهامته ونواله ، لِتُنْشَرَ فى الآفاق ذكره وترفع الى السماكين فضله ، حتى قصده الشعراء واتجمعوه ، وناصروه وظاهره ، وحتى علم الخاص

والعالم أنه إن مدحه أثراه ، وإن آسرفده أغاه ، وإن ناصره رأسه وأعلى مكانه ، فأحصى
نُحمة الرُّؤادِ ومَقْصِدَهم ، وموئِلُ القُصَادِ ومَتَنَهم . وكانت الزوجة تستحث عَزَمَاتِ زوجها
أن يهرعَ إليه لِيُصِيبَ من نوافله ، وليُعوَدَ إليها بوائِلِه ، كما كانت رُعبُ نعلها أن يبيعَ إبلَه
وأن يفترَضَ في العطاء بشعره .

وقد حكى لنا أبو الفرج الأصفهاني^(١) شيئا من ذلك في أخبار جبهة الأشعثى في خبر
طويل انتهى بأن قال جبهة الأشعثى قصيدته التي فيها :

قالت أَيْسَةُ دَعْ مِلادَكَ وآتِمْسْ * دارا بِطَيْبَةِ رَبِّهِ الاطامِ
تُكْتَبُ عِيَالُكَ في العطاء وتُفَرَضُ * وكذلك يَقَعْلُ حازمُ الأقوامِ

وهالك مسألة مهمة من سياستهم في اصطلاح الأحرار ، وإلجام الأنواء بالمال ،
وفرض العطاء للشعراء الذي ظل معمولاً به إلا في أيام عمر بن عبد العزيز ، ذلك أنهم
كانوا يملكون رقاب المسلمين بإقراض من شاءوا من مال الصدقة ويكتبون صكاً عليهم .
ونحن نعلم أن الدين هم بالليل ومدلة بالنهار .

ويذكر لنا الأعاني في باب أخبار جعفر بن الزبير ما فرصه له سليمان بن عبد الملك
إد أمر له ألف دينار في ديبه ، وألف دينار معاوية على عياله ، وبرقيق من البيص
والسودان ، وكثير من طعام الجارى ، وأن يُدان من الصدقة بألئ دينار .

على أنه قد يُعترض علينا بأن الحادثة التي قدمناها حادثة فردية لا يصح أن نتخذ قاعدة
عامة أو أن يُستنبط منها وقوع مثيلاتها وذويوع نظيراتها .

بيد أن الأغاني يُجهز على هذا الاعتراض ، إذ يُثبت ما نصه : « كان السلطان بالمدينة
إذا جاء مال الصدقة أذان من أراد من قريش منه ، وكتب صكاً عليه يستعدهم به ويحتفلون
إليه ويدارونه ، فإذا غَصِبَ على أحد منهم استخرج ذلك منه ، حتى كان هارون الرشيد ،

(١) قال شارح القاموس في مادة « حة » : جبهة الأشعثى كعمراء : شاعر معروف كان في الصحاح .
وقال ابن دريد : هرجاء الأشعثى بالكثير .

فكله عبدُ الله بن مُصَنَّف في صكوك نقيت من ذلك على غير واحد من قریش فأمر بها فأحرقت .

فمثلُ هذا التصرف في استرضاء الناس واستعبادهم وفي إقراضهم المال ليكوبوا أولياء وتعجيرهم وإرهاقهم ان ححو للمأواة ولأه الأمور أو ما فسدتهم، له آثاره من خير وشر في المصلحة الحربية ليت بجى أمية، طبقا لما بيديه الرعاء من حُكْمَةٍ وحريم، وإصابة لمواقع الصواب .

ومعد، فإن هذا السلاح الماصي في يد الأقوياء هو أشد مَصَآء في القضاء على الصغفاء اذا أساءوا استعماله ، لأنه قد يُدَلُّ لشراء مثل «الدلاء» وعيرها من القيان، ولأنه قد يبدله الشبَاب من الخلفاء في صروب الخلالة والاستهتار، فيكون معولَ هُذْم ودمار، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سوره عليك .

وإنا لرى في أحرىات هذا البيت ذى الأثر الكبير في تحوّل المدينة العربية أن بعض الخلفاء قصّ الناس العطاء فعاوا صبقا بعد سَعِه ، وشطفاً بعد رفاهية . وشرّ السياسات أن نُصِيبَ صاحبَ عيشٍ رعيْدٍ بإصافةٍ وحرمانٍ، وأن تُنَزَلَ به عَصَاةُ التفتير والعسر .

ولسظر ما يقوله يعقوبى عن خليفة من هذا الطراز : طراز الإضافة في أرزاق الناس وعوايا اصمحلل الدولة اذا آدس مجها بالأقول، وآل أمرها الى الإفلاس .

يقول يعقوبى عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُمِّيَ يزيدَ ناقصَ لأنه ناقصَ الناس من أعطياتهم واصطربت عليه اللُدائن، وكان ممن خرج عليه العاس بن الوليد بمخص وشايه أهل حصص، وبشر بن الوليد قنَسِرِيَّ، وعمر بن الوليد بالأردن، ويزيد بن سليمان فلسطين، وساعد العباس أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام .

يريد يعقوبى أن يقول من عيرشك : إن هؤلاء الامراء اتهنزوا غضب الجند لنقصان الأعطية فثاروا .

ليس هذا لحسب ، بل إن سياسة بعض الخلفاء دفعتهم الى حرمان مُدِّيِ بحذاقيرها من عطائها ، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حُرِّمُوا سَةِ كاملة ، في حين نرى معاوية قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس الى ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة فضاءعها مائتي مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يحذر بنا بعد ما أسلفناه أن نقنع بأن المال كان سببا قويا لساء بيت معاوية ، وأن المال نفسه كان ، الى حدٍ غير قليل ، سببا له حطره وقيمته في اهيار هذا الساء ! .

(ج) العمال :

قال زياد : ما علمني أمر المؤمنين معاوية قط إلا في أمر واحد : طلبت اليه رجلا من عمالي كسر على الخراج فلما اليه ، فكتبت اليه : ”إن هذا فسادٌ على وعملك“ . فكتب إلي : ”إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة : لا تلين جميعا فيمرح الناس في المعصية ، ولا نشتد فنحمل الناس على المهالك ، ولكن تكون أنت للشدّة والفظاظة والغليظة ، وأكون أنا للرفاة والرحمة“ .

وكتب عبد الملك بن مروان الى الخجاج حين استأذنه في أحد تلك الصبابة من المال التي تُترك لأصحاب الأراضي يتعللون بها ولتكون لهم ردها وطهيرا اذا نزلت بساحتهم الوائب والجوائح ، قال : ”لا تُكنّ على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم حلوما يعقدون بها شجوما“ .

يمثل هذه السياسة بين العمال والخلفاء ، ويمثل اختيار معاوية وعمر معاوية ، كهشام وعبد الملك ، لعمال ذوي كفاية ودهاء ، وحذق وحسن بلاء ، كزياد ومن على شاكلته ، أُتيح لمعاوية وحلفاء معاوية تَبَوُّؤُ عرش المملكة العربية قوى الأركان لا تهتصره العواصف والأعاصير ، ثابتا لا تُزعزعه تَوَارُثُ الخوارج ولا حروبُ المنافسين .

كانت الدولة أيام معاوية ، أيام بانها وتشبيدها ، أيام تلك المصاعب الكداء التي اعتورت سبيلهم ، وتلك الشدائد التي تُسبب وتُفزع ، وتقض المضاجع ، وتجثث من النفوس

آمالها، ومن العزمات مَصَّاءها : ومن القلوب مَأمَها — كانت الدولة يومئذ عنيةً بالكفايات، خِصْبَةً بِمَهْرَةِ الْعَمَالِ وَحَدَايِ الْوَلَاةِ . ولعلها سة طعية أن يكون دَوْرُ بَاءِ الْعُرُوشِ وَالْمَمَالِكِ خِصْبًا بِرَحَالِهِ الْكِفَاءِ، كما يكون دور انحلالها قاحلا عقيا في كل شيء، وإن كانت الأُمم، وهى تُنْقَطِعُ أَنْفَاسُهَا، قد لا تحلومى لا يالو جهدا في سبيل إقالتها من عثرتها، وإنهاضها من سَقَطَتِهَا .

ألم يكن الى جاب معاوية في عصر الساء أصحابُ الكفايات البادرِ من العمال والولاء أمثال عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة الدين يقول فيهم بعضُ القَادِ : « ما رأيت أثقلَ حِلْمًا ولا أطولَ أناة من معاوية، ولا رأيتُ أغلَبَ للرجال ولا أبلُ لم حين يحتمعون من عمرو بن العاص، ولا أشبه سرًّا علانية من زياد، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخْرِجُ من باب منها إلا المكر لخرج من أبوابها كلها » .

على أنه يحذرُ بما أن نصوْرَ حالةِ الْوَلَاةِ الْكُفَاءَةِ أَيَّامَ الْقُوَّةِ، وما آل اليه أمرهم بعد ذلك حتى اصْحَوْا يَتَقَرَّبُونَ الى الخلفاء بالهدايا والألطف والرِّشَاءِ مع عَسْفِ الرِّعْيَةِ وَالْكِيدِ لها . ولتتركُ لليعقوبى التكلّمَ عى الحالة الأولى، ولأبى الأثير بيانَ الثانية، ثم تُرَدِّفُ ذلك ببعض الحقائق التاريخية لكي يُتَّاحَ لنا بعدئذ أن نطمئن الى تقدير هذا العصر — عصرِ العمال — وأنه لا يقلُّ عن المال قُوَّةً وأثرا، سواء أكان ذلك في الباء أم في الهدم، أما البناء فبحسن اختيار العمال وكفاياتهم، وأما الهدم فبعسف الولاة وخرْقِهِمْ، وسوء اختيارهم وقلة بصاعتهم في تدبير الممالك وسياسة الناس .

قال اليعقوبى في معرض كلامه عن زياد بن أبيه بعد أن وصف ماله من دهاء وحيلة ووصولة : « كان زياد يقول : مَلَأْتُ السُّلْطَانَ أَرْبَعُ خِلَالَ : الْعِمَافُ عَنِ الْمَالِ، وَالْقُرْبُ مِنَ الْمُحْسَنِ، وَالشَّدَّةُ عَلَى الْمُسِيءِ، وَصَدَقُ الْإِنْسَانُ . وكان زياد أوَّلَ من بسط الأرزاق على عماله ألف درهم ألف درهم ولعسه خمسة وعشرين ألف درهم . وكان يقول : ينبغي للوالى أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم » . وبعد أن ضرب اليعقوبى الأمثال

على معرفة زياد بدحائل رعيته قال مصوراً رأى زياد فيما يتطلّعه بعض الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولاه : كان زياد يقول « أربعة أعمال لا يليها إلا المسئ الذي قد عص على ناجذه : الثغر، والصائفة، والشّروط، والقضاء . ويدعى أن يكون صاحب الشّروط شديد الصّولة قليل الفعلة، ويبني أن يكون صاحب الحرس مُسياً عفيفاً مأموناً لا يُطعن عليه . ويدعى أن يكون في الكاتب خمس خلال : بُعد عور، وحسن مداراة، وإحكام للعمل، وآلا يؤخر عمل اليوم لغد، والنصيحة لصاحبه . ويدعى للملاحب أن يكون عاقلاً قطعاً قد حدم الملوك قبل أن يتولى حجابهم » .

ثم أنظر ما آل إليه الأمر أيام الوليد بن يزيد الذي رعى في اكتساب قلوب الناس بعد هورها، وإرصائها بعد تبرّمها، وإياسها بعد وحشتها، بأن يزيد في أعطياتهم ويصاعف أرزاقهم . بيد أن مَعين المال قد نصّت أوكاد، وإنخراثة قد استنرتها الملائد وحروث الخوارح وإنحداد الفتن، فعمد الى بيع الولايات . وإن آبن الأثير ليحبرها، في حوادث ستة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولّى نصر بن سيار خراسان كلّها وأفرده بها، ثم وفّد يوسف بن عمر على الوليد فاشترى منه بصراً وعمّالاً، فردّ اليه الوليد ولاية خراسان، وكتب يوسف الى بصير يأمره بالقدوم ويحمل معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يُقدم معه عمّالاه أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد الى نصر يأمره أن يتّخذ له برابطاً وطايراً وأما ريق ذهب وصفيه، وأن يجمع له كلّ صُحّاة خراسان، وكلّ بايز وريدون فارّه، ثم سير بكل ذلك بنفسه في وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغاني من عامل لعبد الملك بن مروان على خراسان، وهو أمية اس عبد الملك الذي كتب اليه يقول : « إن خراج خراسان لا يبي بمطخى »، وما أثنه القاصي آبن حلكان في تاريخه عن أبي خالد يزيد بن أبي المثنى عمر س هبيرة والى مروان ابن محمد على العراق : من أن رزقه كان ستمائة ألف درهم .

هذا الى ما نزل أهل الذمة وعيرهم من العسف وزيادة الضرائب، وما كان من تخليه أصحاب الأراضي لها بغير حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العمال في إهداء الخلفاء،

وزرعهم الى جمع الثروة واحترام المال، فإنك بعد كل هذا تطمئن معي الى الاقتناع بأن العمال الكفأة مصدر قوه في بناء الممالك وعُصْرُ يُحْفَلُ به في مادة حياتها، وأنهم عنوان مهابتها ووصلتها، وأن الولاة الظلمة الضعاف مصدر ويل وشبور، وأداة هديم وتخريب وانتثار وفناء .

وإنا نسوق هنا كلمة لبعض بني أمية حين سُئِلَ عن سبب زوال ملكهم لا تخلو من عظة واعتبار، قال : « قِلَّةُ التيقظ، وشغلنا بلداتنا عن التفرغ لمهماتنا، ووثقنا بكفائتنا فأثروا مراقبتهم علينا، وظلم عمالنا رعبنا ففسدت نيائهم لنا، ومجمل على أهل خراجنا قتل دحلنا، وبطل عطاء جدنا فرالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا فأعاوهم علينا، وقصدنا نعاونهم فجزنا عن دفعهم لقلة أنصارنا، وكان أول زوال ملكنا استنثار الأخبار عنا، فزال ملكنا عنا بنا » .

(د) الوجهة الدينية :

إن سمة معاوية في بناء دولته لم تكن، مع ما نعلمه من ترخصه في إقامة الحدود في بعض الأحوال لصعوبات سياسية، سمة استهانة بالدين ولا إيمان في ازدرائه أو الخروج عن حلّ مظاهر الاحتشام الديني، الخليفة بن يسوس أمور الدين والدنيا، هذه سمة معاوية وطريقته في سياسة الملك . أما حلفاؤه فقد تنكب جُلُهم سنته الحكيمية، وأطلقوا لشهواتهم العنان فيما ينبغي أن يكون حلفاء المسامحين وأئمتهم بنجوة منه . وقد كان لذلك آثاره في الدولة من حيث تأثر أخلاقها القومية، وما أصابها من انحلال وضعيف، ومن تفكك وفتر . وستعالج تصوير هذه العوامل بأبحاز واقتصايب في كلتنا هذه، فلا تُفرد لكل منها ما، وإن كما علم أنه يترتب على توضيحها لهذه الأصول فائدة حلي، بيد أن اتساع نواحي الموضوع وتشعب فروعه ومختلف أبوابه — كل ذلك يلزمنا إلزاما اتباع ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال .

لسنا بحاجة، على ما نظن، الى تصوير أخلاق من فيهم الكفاية من خلفاء معاوية من ناحية الدين والخلق العام، لأن فيما جالناه من تحليل أخلاق معاوية الفنية والكفاية .

وزيد الآن أن تُدرّس تلك الناحية العكسية ، ناحية أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا التكاليف الدينية فآذروا طقوسها ، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من خرق .

إن أئمة يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد . أما ابن معاوية فقد أصاب يعقوب بن سدر الصواب حين وصفه بأنه حُلِفَ نسوة وصاحب مَلَاة . ويكفى أن تُدرّس حياته — مع أن الدولة كانت في إمان قوتها وميعة شبابها — ليقنع بأنها كانت بمثابة معاوية هدم وتحريب ، وإن في المأساة بما كان من مسلم بن عقبة الذي انتهك المدينة لمقعة بما نقول . لقد كان جند يزيد بعد واقعة الحرة وغيرها يطلبون إلى الرجل القرشي أن يبيع ليزيد ، لا من ناحية اقتناعه الديني طبعاً ، ولا بدافع الترعيب والمال ، ولا بسياسة الرقة واللفظ التي قد يُسأل بها أكثر مما يُنال بالشدّة والعف ، بل من ناحية السيف والإرهاب ، يجب أن يبيع وأفقُه راغِمٌ ، ويجب أن يبيع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة . كانت حنيفة بن زيد تقول للقرشي : باع على أنك عبد قن ليزيد ، فإن أبي ضربَ عنقه ، فكانت مقتلة ذريعة . ثم انظر ما كان من حصارهم مكة التي إذا قال قائلها : « يا أهل الشام ، هذا حرم الله الذي كان مأمراً في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد فاتقوا الله يا أهل الشام » ، صاح الشاميون « الطاعة الطاعة » .

لترك يزيد حابياً ، محيل القارئ إلى ما في الأعاني وغيره من كتب الأدب والتاريخ ولتردد الطرف في حياة يزيد بن عبد الملك ، فجدد أماً الفرج الأصمهاقي يذكر لنا ، في غير موضع من حياة سلامة القس ، وحجابه وغيرهما ، شيئاً لا يستهان به عن إفساده في تهتكه ، فيقول لنا عن المدائني قوله : قدِمَ يزيد بن عبد الملك المدينة في خلافة سليمان ، فترجّح سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار ، ورُبِحة بنت محمد بن علي بن عبيد الله ابن جعفر على مثل ذلك ، واشترى الغالية بألف دينار . وفي رواية محمد بن سلام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول في موضع آخر : إن رُسِلَ يزيد بن عبد الملك فدمت المدينة فاشترى سلامة المعينة من آل رُمّانة عشرين ألف دينار .

ولعلك تميل الى مقابلة هذه الروايات مع تعدد رواياتها بتحفظ المؤرخ العلمى الذى لا يقنعهُ إلا الوسائل التحليلية المؤيدة لصديق الرواية . على أنك تستطيع ذلك باطلاعك على ما يقوله اليعقوبى مثلا عن طريقه جباية المال ، وعلى ما كتبه يزيد بن عبد الملك الى عمر ابن هبيرة ، وهو عامله على العراق ، يأمره : أن يمسح السواد فمسحه سنة ١٠٥ ولم يمسح السواد منذ مسحه عثمان بن حنيف في زمن عمر بن الخطاب حتى مسحه عمر بن هبيرة فوضع على السحل والشجر وأصر أهل الخراج ووضع على النانة وأعاد السحر والهدايا وما كان يؤخذ في البيروز والمهروحان . ليس هذا محسب بل أنظر الى تعلله في فرص الغرامات المالية على كبار رجال الدولة لا بحرّم إلا أن نفوسهم حدثتهم أن يترجوا بعض آل البيت ، فإن عبد الله بن الصحاك بن قيس الصهرى عامله على المدينة كان قد خطب لنفسه فاطمة بنت الحسين بطريقة حافة ، فعزل يزيد عن المدينة وولاهها عبد الواحد بن عبد الله الصرى ، وكتب اليه أن يأمره بأربعين ألف دينار ويعذبه ، ففعل ذلك . ويقول المؤرخ الذى قلنا عنه : إن عبد الله بن الصحاك قد رثى وفي عمقه حرفة صوف يسأل الناس .

ولم يكنف يزيد بن عبد الملك بهذا ، بل عزل عمال عمر بن عبد العزيز جميعا . ونحن نعلم من هو عمر وما عدله وما رقائته عماله . ويكفينا أن نذكر ما كان منه مع يزيد ابن المهلب عامله على خراسان ، فقد قال له عمر : « إني وجدت لك كتابا الى سليمان تذكر فيه أنه اجتمع قلك ألف ألف ، فأين هي ؟ » فأبكرها ثم قال : دعني أحملها ، قال : أين ؟ قال : أسعى الى الناس ، قال : تأخذها منهم مرة أخرى ! » ثم ولّى خراسان الجراح بن الحكيم . وإنه لمن المتعجب حقا تلك الماقتشة الوريعة الهادئة التي دارت بين عمر ويزيد ، وبين عمر ومحمد بن يزيد ، وتلك الصرامة التي لا تعرف في سبيل المحافظة على مال المسلمين ليّا ولا هواده ، وقد أنهتا ابن الأثير في كامله ولا حاجة بنا هنا الى الاستطراد بذكرها .



من أمثال ما قدمناه نستطيع أن نقتنع بأن روايات صاحب الأعلى عن إسراره قريبة من الواقع ، إن لم تكن صحيحة لا مبالغة فيها ولا غبار عليها . ثم لنظر الآن إلى مدى كان هذا الصف من الخلفاء تحت تأثير عشيقاتهم من القيان والمغنيات ، وما كان لهن من سلطان في أمور الدولة وتولية العمال وعزلهم ، فإن ذلك يعيدنا في تفهما دور الانتقال الذي نحن فيه تفهماً هو في نظرنا أشد اعتباراً من الاعتماد على رأى المؤرخين وسردهم للحوادث بغير عناية ولا استقراء للنفسية العربية وخاصة في أبهاء الخليفة . وجدا العاية بها ، سواء أكانت في بيت الخليفة أم في بيت العامل أم عند الرعية ، فإن لدراستها ومراقبتها تحولها نفعاً كبيراً جدوى .

يقول لنا أبو العرج الأصفهاني عن المدائني أن حبابة ، وهي عالية القبة ، « غلت على يزيد وتبني بها عمر بن هبيرة ، فعلت منزلته حتى كان يدخل على يزيد في أي وقت شاء . وحسد الناس من بني أمية مسلمة بن عبد الملك على ولايته وقد حووا فيه عبد يزيد ، وقالوا : إن مسلمة إن اقتطع الخراج لم يحسن يا أمير المؤمنين أن يعيشه ، وأن يستكشف عن شيء لسه وخفته ، وقد علمت أن أمير المؤمنين لم يدخل أحداً من أهل بيته في الخراج ، فوقر ذلك في قلب يزيد وعزم على عزله . وعمل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل حبابة فعملت له في ذلك . وكان بين ابن هبيرة والقعقاع بن خالد عداوة ، وكانا يتنازعا ويتحاسدان ، ف قيل للقعقاع : لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلة ، إنه لصاحب العراق غداً ، فقال : ومن يطيق ابن هبيرة ؟ حبابة بالليل وهداياه بالنهار ! مع إياه وإن كان بلغ فانه رجل من بني سكين . فلم تزل حبابة تعمل له في العراق حتى وليها . »

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية في تعريف حال الدولة العربية في ذلك الحين . ولو حاز لنا أن نحلل نظراً طويلاً في قول القعقاع بن خالد : « ومن يطيق ابن هبيرة ، حبابة بالليل وهداياه بالنهار مع أنه وإن كان بلغ فانه رجل من بني سكين » فانه لا يعيدنا

في تفهم وقوع الخليفة تحت سلطان عشيقته ، ولا في قبوله للرشا بحسب بل يفيدنا فهم تحول العصبية العربية الأخيرة وملع نظر العربي الى سواه .

أما استحقاق الوليد بن يزيد بالدين، ونحرياته التي فاقت نحريات يزيد بن معاوية، والتي نرى أن لها أثرا كبيرا في أبي نواس وحسين بن الصحاك ، وبركة الخمر التي احتواها قصره، فان أمهات كتب الأدب العربي ومطابق التاريخ مُفَعِّمَةٌ من ذلك بما لا نتعرض له في هذه المقالة بأكثر من إحالة القارئ على ما قاله الوليد في القرآن، وما أحصاه بعضهم له من عدد الأقذاح التي شربها في ليلة من ليالي شربه، إذ أثبت صاحب الأعالي أنها سبعون قدحا وإن كنا نفترض في مثل هذه الأحوال جوع الرواة الى المبالغة والإعراق . ثم لننظر معا فيما يقوله أب الأثير عه حين ولّاه هشام الخ، فانه يحبرنا : أنه لما أراد هشام أن يقطع عه ندماؤه ولّاه الخ ستة ست عشرة ومائة ، حمل معه كلالا في صاديق وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة ، وحمل معه الخمر وأراد أن تُصَبَّ القُصَّةُ على الكعبة وتُشَرَّبَ فيها الخمر . وقد أيد المؤرخون هذه الحادثة . ويقول البعقولي : إن الوليد بعث مهندسا ليقوم بذلك .

ثم أنظر الى بيعه حالدا القسري الى يوسف بن عمر بحسين ألف ألف، وما رواه المؤرخون من إرساله الى خالد قائلا له : « ان يوسف يشتريك بحسين ألف ألف، فان كنت تضمنها وإلا دفعتك اليه » فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له : ما عهدت العرب تباع، والله لو سألتني أن أحصى عودا ما صمته » ومع ذلك فقد دفعه الى يوسف معديه وقتله !

ثم لنسظر الى نظر الرأي العام اليه والى تصرفاته . وأماننا من ذلك شعر حمزة بن بيص فيه إذ يقول :

١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥٩٦ ١٥٩٧ ١٥٩

وَتَمَادَيْتَ وَاعْتَدَيْتَ وَأَسْرَفْتَ * تَوَاعُويتَ وَانْبَعَثْتَ فَسَوْفَا
أَبْدَا هَاتِ هَاتِ هَاتِ وَهَاتِ * ثُمَّ هَاتِ حَتَّى تَحْصِرَ صَبِيحَا
أَنْتَ سَكَرَانُ مَا تُفَيِّقُ فَاتَرَ * تُقُفُ فَنَقَا وَقَدْ مَتَقَتْ فُسُوقَا

وإنا نثبت هنا أيضا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصر في قصره ويزيد بن عبيدة السكسكى، فقد قال له الوليد : « يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم ! ألم أرفع المؤن عنكم ! ألم أعط فقراءكم ! ألم أخدم زماكم ! » قال . « إنا ما نقيم عليك في أنفسنا، وإنما سقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستحفافك بأمر الله ! » .

وننظر معي أيضا الى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطاباً لهذه الدولة، وإلى ما كان من حبروته وصعف الوازع الديني عنده، حتى استباح لنفسه أن يقول وهو على المنبر : « مَنْ قَالَ لِي بَعْدَ مَقَامِي هَذَا أَتَى اللَّهَ صَرَبَتْ عَقَبُهُ » .

وبعد، فإنه ليخيلُ لينا أن فيما قدمناه بعض المقع، بما كان من استهانة الخلفاء بالدين ومن إمعانهم في التهلك والخروج عليه . ونريد الآن أن ندرس تأثير الخلق العربي بما كان للخلفاء من تكبر عن سنن الدين وإمعان في التهلك والاستهتار . والبأس على دين ملوكهم، والملوك على سعة رعيّتهم؛ أو كما يقول عبد الملك بن مروان : « تطلون ما أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا سيعون أتم بسيرة الناس أيام أبي بكر وعمر ! » . على أننا نرغم أنفسنا إرغاماً على أن نكتفي في هذا الفصل، الذي كادت نشعبُ عليها فروعه وبواحيه، وكذا نصل في مهامه وبواديه، بمثلين قد لا يخلوان من البقع . وعمدتنا في ذلك الأغاني، وعيون الأخبار لأبن قتيبة، وإن كان المثل الأخير هو إلى الأدب والعظة، أقرب منه إلى التاريخ والتحليل العلمي . بيد أننا أثنا إيرادَه لأنه حسن في نفسه، ومصيبٌ لمحّة الصواب في جملة .

يقول أبو الفرج : إنه لما قدم عثمان بن حيان المزى وإلى يزيد بن عبد الملك

أن تُصلحُ فطهرها من العياء والرا الح . ونفهم من جملة الرواية أنه لم يَفز في مهمته بطلال ولم يُوقى الى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم .

أما ما يرويه لنا ابنُ قتيبة في عيون أخباره فما هو ذا بصبه وعبارته ، وهو حتام هذا الفصل بعد أن كدنا بطيل .

قال : « سَمَرَ المصور دات ليلة فذكر حلفاء بى أمية وسيرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم الى أبنائهم المترفين ، فكانت همهم من عظم شأن الملك وحلالة قدره قصده الشهوات وإيثار اللذات والدحوّل في معاصي الله ومساحطه ، جهلا منهم باستدراج الله وأما لمكره ، فسلمهم الله العزّ وقهّل عنهم النعمة . فقال له صالح بن عليّ : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض الوبّة هاربا فيمن معه سال ملكُ الوبّة عنهم فأخبر ، فركب الى عند الله فكلّمه بكلام عيب في هذا الحو لا أحفظه ، وأزعجه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحصرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك ! فأمر المصور بإحصاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرض الوبّة ثمانين سائلا فافتششتُ بها وأقمتُ ثلاثا ، فأتاني ملكُ الوبّة ، وقد حبر أمرنا ، فدخل على رجل ألقى طوال حسن الوجه ، فقعده على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلتُ له : ما يجمعك أن تقعد على ثيابنا ؟ قال : لأنني ملكٌ ، وحقّ على كلّ ملكٍ أن يتواضع لعظمة الله إذ رعبه ! ثم قال لي : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم ؟ قلتُ : احترأ على ذلك عييدا وأتاعنا لأن الملك زال عابداً ، قال : فلم تطوون الروع بدوابكم والفساد محترم عليكم وكنا بكم ؟ قلتُ : يفعل ذلك عييدا وأتاعنا بمجهلهم ؛ قال : فلم تلبسون الديباج والحريّر ، وتستعملون الذهب والفضة ؟ قلتُ : ذهب الملك ما وقلّ أنصارا ، فانتصرتنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا ، فلبسوا ذلك على الكُره منا ، قال : فأطرق مليا وحمل يُلَبُّ يديه ويسكت في الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعا ! دخلوا في ديننا ! وزال الملك عنا ! يردده مرارا ، ثم قال : ليس ذلك كما ذكرت ، بل أتم قوم استحلّم ما حرم الله

عليكم وركبتم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزَّ والبسكم الذلَّ بذنوبكم، والله فيكم نعمةٌ لم تبلغ غايتها، وأحاف أن يحلَّ بكم العذابُ وأتمَّ ببلدى فيصينى معكم وإيما الضيافة ثلاثة أيام، فترودوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

(هـ) التعسف المذهبي :

زيد أن ننظر الآن نظرةً عملياً في أمر التعسف المذهبي . ونحن نعلم ما أصاب جماعة على أيام معاوية وهو هو في حكمه وحلمه ومرونته، نعلم ما أصاب مُحَرَّبَ بنَ عديّ الكندي وجماعته ، كما نعلم ما أصابها أيام يزيد من قتل هاني بن عروة ومسلم بن عَقيـل والحسين ابن علي وزيد بن علي الذي صُلِبَ على شاطئ الفرات وذُرِيَ رماده في الماء . ولننظر نظرة حاصصة الى حياة بُسر بن أبي أرطاة وقتله الأطفال والرجال والنساء ، ولنترك معاوية ها يصوِّر لنا مبلعٌ تأثر نفوس بني هاشم من خُطِّه التعسف المذهبي هده ، فإن أبا المرج الأصفهاني يقول في كتابه : لما كانت الجماعة واستقر الأمر لمعاوية، دخل عليه عبيدُ الله ابنُ العباس وعده بُسرُ بن أبي أرطاة، فقال له عبيد الله : أأنت قاتلُ الصبيين أيها الشيخُ ؟ قال بُسرُ : نعم أنا قاتلهما، فقال عبيد الله : أما والله لو دِدْتُ أن الأرض كانت أنتننى عدك ! فقال بسر : فقد أنبتك الآن عدي ، فقال عبيد الله : ألا سيفٌ ؟ فقال له بسر : هاك سيفي، فلما أهوى عبيد الله الى السيف ليتناولَه أحده معاوية ثم قال لبسر «أنرك الله شيحا ! قد كبرتَ وزهد عقلُك ! وذلك رجل من بني هاشم قد وترته وقاتلتُ أبيه ، تدفع اليه سيفك ! إنك لنافلٌ عن قلوب بني هاشم ! ولو تمكَّى منه لداً في قملك » . قال عبيدُ الله : «أجل ! وكنتُ أثني به» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجلٌ من اليمن اتصل به حتى وثق به ، ثم احتال لقتل ابنه نجرج بهما الى وادي أوطاس فقتلهما وهرب .

(١) أوطاس : واد في ديار هوارن فيه كانت واقعة حنين ويومئذ قال الى صلى الله عليه وسلم «حي الوطيس» وهو أوَّل من قال ذلك . انظر معجم ياقوت في أوطاس .

على أنه يحذر بما أن نصوّراً إلى أى مدى بلغت نتائج خطط الأمويين السياسية ، من حيث تُهم العصاة في القوس لعلّ وشيعته ، وصرف الناس عن ذكرهم ، وما كان من لعنهم على المابر من تأثير حليقي معنايتنا . ومراحما في هذه الباحية عدّة مصادر، بيد أنّنا نجتريّ اجترأ ، ونُحِلّ القارئ إلى ما رواه ابن عائشة عن شعور رجل من الشام نحو حفيد عليّ وقد نقل ذلك المبرّد في الكامل .

ولسظركذلك إلى مدى الأحراب الدينية وأصدادها التي كانت نتيجة لارمة لآثار التعسف المذهبيّ والتحرّب الدينيّ، وقد ذكر البيروني في «الآثار الباقية» طرفاً من ذلك . ونجتريّ هنا بشيء مما جاء في «المواهب الفتحية» لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله . قال : ما أحسن قول أبي الحسين الجزار خصوصاً في بيتيه الثالث والخامس :

ويعود عاشوراء يذكّرني * رزء الحسين فليت لم يعد
أم ليت عيا فيه قد كُلت * بلأمد لم تحل من رمد
ويدا به لشماتة خُضبت * مقطوعة من زبدها بيدى
يوم سبيل حين أذكره * ألا يدور الصبر في خلدي
أما وقد قيلَ الحسبُ به * فأبو الحسين أحق بالكند

ولعص الهاشميين معتدراً من الكهل يوم عاشوراء :

لم أكتحل في صباح يوم * أهرق فيه دم الحسين
إلا لحزنى وذاك أنى * سودت حتى بياض عيني

إلى غير ذلك مما أثبتته المؤلف لعارة اليمنى والإمام ابن الجوزيّ - مما لا سبيل إلى الاستطراد فيه ههنا .

ولسظركذلك إلى حادثة رواها المسعوديّ في «مروج الذهب» قال : « لما طالب عبد الله ابن عليّ مروان ونزل بالشام، وجه إلى أبي العباس أشياحا من أهل الشام من أرباب العم والرياسة ، فخلّفوا لأبي العباس السفاح ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة ! فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناس اسمعوا خبركم * عجا زاد على كل العجب
عجا من عبد شمس إنهم * فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا * دون عباس بن عبد المطلب
كدبوا والله ما نعلمه * يُحرز الميراث إلا من قُرب

ولنلّم الآن الإمامة نحلى بما كان للتعسف المذهبي من الأثر في هوس الخوارج، محيلين إلى الكامل للبرد من أراد توسعا وتبصرا، وكفى هنا بنقل مثلي من الطبري يظهر لنا مقدار استماتتهم في سبيل نصره مذهبهم مهما نالهم من تقتيل . وأماما حوادث سنة خمسين التي يقول فيها الطبري : إن عبيد الله بن زياد اشتد فيها على الخوارج قتل منهم صبورا جماعة كثيرة وفي الحرب جماعة أخرى . ويقول عنهم في موضع آخر : نرح مر داس أبو بلال، وهو من بني ربيعة بن حنظلة، في أربعين رجلا إلى الأهواز فبعث إليهم ابن زياد جيشا عليهم ابن حصن التيمي فقتلوا في أصحابه وهزموه، فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة :

ألفا مؤمن مكم زعمتم * ويقتلهم ناسك^(١) أروعنا
كذتم ليس ذاك كما زعمتم * ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم * على الفئة الكثيرة ينصرونا

(١) ناسك . ولد من واحة الأهواز قرب أرحاح بين أرحاح ورامهرمز، بينها وبين أرحاح يومان وهي بلدة ذات نخيل ومياه . أطار ياقوت في ناسك وكامل المرد (ص ٥٨٧ طعة أورما) .

الفصل الرابع

ولاية العهد

نظام ولاية العهد واسـ خلدون — حظر نظام ولاية العهد الثاني وأثر البطامات — سلام ولاية العهد وعلاقته بالعصبة العربية .

(١) نظام ولاية العهد وأبن خلدون :

قال ابن خلدون في مقدمته : ”إن معاوية عَهِدَ الى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بو أمية لم يرصوا تسليم الأمر الى سواهم . فلو قد عَهِدَ الى غيره اختلفوا عليه“ ثم زاد هذا توصيحا في مكان آخر من مقدمته فقال : ”إن الذي دعا معاوية لإيثار أبنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم ، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية ، ادنو أمية يومئذ لا يرصون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل العرب منهم ، فأثره بذلك دون غيره ممن يُظَنُّ أنه أولى بها ، وعدل عن الفاصل الى المفضول ، حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء“ .

لسا هـما في موقف الراغب في تحليل أقوال مؤرخنا الكبير ، وهل أصاب محجة الصواب في تعليقه ما دفع معاوية الى عقد البيعة ليزيد ، ولكنا صَدَرنا هذا الباب بكلمة ابن خلدون لصوّر ستر قول العرب ، لأقول عهدهم ، نظام ولاية العهد عامة والوراثي خاصة . وما قبولهم إياه إلا لأن شوكة يزيد يومئذ مستمدة من عصابة بنى أمية كلها ، وجمهور أهل الحل والعقد من قريش ، وبذلك تستنع عصبية مصر أجمع ، وعصبيتهم أعظم من كل شوكة إذ لا تطاق مقاومتهم ، ومن هنا أقصى العرب عن يزيد وأقاموا على الدعاء بهديته والراحة منه . ولعل هذا يكشف عن سبب فشل الحسين بن علي وأبن الزبير في مطالبتهما بالخلافة ، كما بين ذلك ابن خلدون مما لا حاجة بنا للتعرض له الآن .

على أن التاريخ يقتضينا أن نظام ولاية العهد لم تقله العقلية العربية بسهولة مع اعتقادنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون من سبب استصرت به فكرة ولاية العهد وهو اعتمادها على العصبية. وربما جاز لنا أن نعزو سقوطها من بعض الواحى الى هذه العصبية أيضا مما لا نعرض له هنا الآن .

أجل ، يجبرنا التاريخ بتلك الأدوار العديدة ، التي مرت بها مسألة البيعة ليزيد ، وأن السياسة نهضت بصيب غير قليل في سبيل تذليل الصعوبات التي قامت بادية ذي بدء دون أن تجعل البيعة ليزيد سهلة ميسورة ، تؤتي ثمرها غير عاء كبير .

يجبرنا التاريخ بما فعله المعيرة بن شعبة وغير المعيرة بن شعبة ، وإيادهم الوفود الى معاوية . ويجبرنا ببلع ما أنفق معاوية من المال وما أبداه من احتيال وحرم ، وما بذله اسه يزيد من شدة وعسف ، وكل هذه العوامل تستدعى دراسة دقيقة لا نعرض لها لأنها لا تفتتيا في هذه المقدمة كثيرا .

نريد أن نقول شيئا واحدا ميسورا فهمه ، ذلك أن نظام ولاية العهد — الذى ربما كان ضروريا لمدوحة عه في أول عهد الدولة ، لما بينه لنا ابن خلدون — كان في نفسه سببا يعتد به من أسباب سقوط الدولة الأموية ، أو على أقل تقدير كان لنظام ولاية العهد أحياء أثره الكبير في ضعف سلطان بني أمية ودهاب ريمهم .

(ب) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لننظر نظرة عمتلى في تاريخ هذا النظام لنقع بما وصلت اليه بحوثنا ، فنرى مثلا أن مروان بن الحكم جعل ولاية العهد من بعده لأبنة عبد الملك بن مروان ثم من بعده لأبنة عبد العزيز بن مروان ومهما يكن الباعث لمروان على أن يجعل ولاية العهد لولدين من أولاده ، فإن جل حلفاء بني أمية من بعده اتخذوا صبيعه سمة متعة . سنرى في كلامنا عن العصر العباسى الى أى مدى كان خطر هذا النظام على حياة الدولة ، أو على الأقل ، ملع ما فيه من صغيف لها ، وإيذان بصحاحها ، واصطراب حلها .

لم يكن هذا الطام شراً مستطيراً وعاملاً كبيراً من عوامل الضعف ؛ إلا لما يستلزمه من نكث العهد ، ثم من أنشقاق البيت المالكي على نفسه ، وترك المجال واسعاً لوشايات تسعى بها بطانات السوء ممن نرجو أن يصور مثلهم ومثل صنيعهم السوء ومثل خطرهم على الدولة حين تعرض للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ما أذكت البطانة بينهما من حلاف — هذه البطانة ترقب دائماً أنشقاق البيت المالكي أو ما هو مركب في الطبيعة البشرية وولادة العهد من ترقب لتسلم مقاليد الأمور وتسهيل للذة الحكم والسلطان — فتستعمله لتقصي مآربها وتستمتع بأطاعها . وسرعان ما تجد الفرصة سانحة لها ومواتية لأطاعها ، اذا صار الأمر الى ولي العهد الأول الذي حاول ما هو طبعي من حلق من أشرك معه في ولاية العهد ، إما كراهية له ، أو إيثارة لغيره عليه ، ممن هم أسس منه رحماً وأقرب مودة .

سعم قد يجد ولي العهد كثيرين من الناصحين الذين يستنكرون الخلع ، بيد أنه لا يعدم أيضاً كثيرين ممن هواهم مع غيره هذا الذي يراد حلعه يُزينون له ما يحاول ، حتى اذا صار الأمر الى من أريد خالعه كما كلاً من الفريقين بما يستحق . وكانا أحياناً يفتك بكثير من ذوى البلاء الحسن في تشييد الملك . وهذا الفتك على ما فيه من خسارة قوم من ذوى الرأي والتعارب ، قد كان يندرج في قلوب أنصارهم وعشائهم بدور الحق وحت الانتقام . وبذلك صار سبب أمية يفقدون العشائر عشيرة بعد عشيرة ، وأخذ طغى سلطانهم على النفوس يخسر شيئاً فشيئاً ، حتى اذا قام لهم منافس عظيم لم يجدوا لديهم من القوة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلب عليه .

قد تطلب الى توضيح ما قدمته لك من المقدمات من حوادث التاريخ ، لأنك تعتبر الوشائج والصلات التي بين مانحن بصددده وبين عصرنا المأموني قوة من حيث ما وقع فيه الرشيد وغيره من خطأ في نظام ولاية العهد . وقد تطلب مني أن أمر مسرعاً بحسام الحوادث التي لها آثارها ونتائجها ، وأن أكون مجللاً لا مفصلاً وموجزلاً لا مسهباً .

على أنى سأترك الأدلة التي أفهم به الطبرى وأبن الأثير كل سمة من سنيهما مُحدث وحدها بصدق ما ذهبْتُ إليه . وأسمح لنفسي بأن أسأله ملياً : ماذا فعل عبد الملك لما وصل الحكم إلى يده ؟ لقد حاول ما هو طبعى من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده إلى الوليد . ولولا وفاة عبد العزيز لوقعت الأزمة وشجر الخلاف وعمد كل إلى سلاحه وحربه .

ثم ماذا فعل عبد الملك ؟ لقد ولى الوليد وسليمان . لحاول الوليد ما هو طبعى من عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمان ؟ لقد وقى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك . ثم ماذا فعل عمر بن عبد العزيز ، وماذا فعل يزيد ، وماذا فعل هشام ؟ إن التاريخ وحاتم عهد كل ليؤيدان ، بقوة ووصوح ، ليس بعدهما من مزيد ، صحة ما ذهبنا إليه مما يُبَيِّن لنا أن تختصر الحوادث والأدلة اختصاراً .

على أنه قد يُطلَب ما إثبات تلك الحال المؤهلة التي تنتج عن المبايعة لاثنتين ولاية العهد ، وملح حسارة الدولة من رحلتها المعدودين وأقطابها البادرين في هذا السبيل ، سبيل اصطدام صاحبي ولاية العهد . وسَجْمَلُ ذلك إجمالاً يستدعيه مقاماً .

إنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كُتِبَتْ لهشام ثم للوليد من بعده مثلاً . وربما فاتته أن لكل حرّاً ياصره ، وبطانة تُشردعوته . وربما تطوّفت في منهجها السياسى ، تطوّفا يؤكد العداوة في القلوب ، ويستثير السخائم في النفوس . ولماذا نذهب بعيداً وأماماً ما وقع بين هشام والوليد ، فإنَّ هشاماً مات قبل أن يُكَلَّلَ بالنجاح سَعَاهُ ، فَسَرَّحَانِ ما نَمَّتْ أقوال الوليد عن شديد مقتته لهشام ، فقال مثلاً :

هَلَكَ الْأَحْوَلُ الْمَشُورُ . م وَقَدْ أُرْسِلَ الْمَطْرُ

وَمَلَكْنَا مِنْ بَعْدِ ذَا . لَكَ فَقَدْ أَوْرَقَ الشَّجَرُ

فَاشْكُرِ اللَّهَ إِنَّهُ . زَائِدٌ كُلِّ مَنْ شَكَرَ

ولم يكتف الوليد بالقول دون الفعل، بل أندفع فيما يجبرنا المؤرّحون مع تيار بطانته ومُشايغيه، وشمر عن ساعد الانتقام، ممّن ناصر عمّه هشاماً مثل محمد وإبراهيم ابني هشام بن اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفيّ - وإلى المدينة ويوسف بن عمر حاكم العراق حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فصر به مائة سوط ومثّل به اذ حلق رأسه ولحيته، كما حبس يزيد بن هشام والكثيرين من البيت المالك . لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أخرج -الدا القسريّ-، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها، بأن يبيع لأبيه الحكم وعثمان ولاية العهد من بعده، فلما أبى عليه ذلك بعث به الى وإلى العراق يوسف بن عمر الثقفيّ فزع ثيابه وعذّبه عذاباً مبرّحاً، وهو يحتمل ذلك كلّ بصمت وإباء، ثم حمله الى الكوفة الى من أنزلوا به كلّ لون من ألوان العذاب حتى مات . وما مات إلا بئس باهظ دفعه الوليد . ذلك أنه كتب على نفسه عداوة قصاعة واليمن، وجلّ جند الشام من قصاعة واليمن، وهم هم الذين مثّلوا دورهم الخطير أحياناً مع الوليد، إذ بايعوا يزيد وثاروا معه، فكانت حاتمة الوليد ما قد علمناه من احتائمه بقصره وتقحّمهم عليه داره، وفعلهم به ما أصاب عثمان من مأساة اذ حرّوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم بصّوه على ربح وطيف به في دمشق .

على أنا نفترض المبالغة فيما يسببه الرواة الى هذا الخليفة المألوب على أمره، ولكنا نؤمن مع ذلك إيماناً صادقاً بالنتائج السيئة لطام ولاية العهد الثنائي أو الثلاثي .

وإنا نظنّ أنّ فيما قدمناه لك غنيّة وكفاية . وإن أردت ما مزيداً فانظر ما نال به سليمان قادة الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفيّ وقتيبة بن مسلم الباهليّ وموسى بن نصير، وما كان يعدّ للهباج وغيره : من قلّ أن يجتمع أمثالهم في عصر واحد . وإنا نحيل القارئ الى ابن الأثير ليقدر معنا الأسس التي بسببها عليها رأينا فيهم، وليقف بنفسه على كبريات فتوحهم وجسام أعمالهم التي كانت عزة في حيين عصرهم، بل في جبين تاريخ الدولة الأموية .

ومعد، أفليس من العدل أن يستنبط الفارئُ معاً ما يصيبُ الدولةَ من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسى، من جرّاء ذلك النظام المفقوت، ونظام ولاية العهد على هذا النحو فى غير قانون ولا سنة، وأن يمدّه معاً سبباً لا يستهان به، من أسباب سقوط البيت الأموى !

(ج) العصبية العربية :

الذى يهّمنا الآن هو أن نوجّه النظرَ الى تأثير نظام ولاية العهد فى صورته التى مستورناها لك من حيث مسأسه بالعصبية العربية التى كانت، كما تعلم، عيفةً محتدمةً بين المضرية واليمنية . وأنت تعلم أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يُصهرون الى قبائل مضر كما كانوا يصهرون الى قبائل اليمن، فكانت هذه القبائل تجد فى تأييد الأمير الذى يتصل بها نسبه . وهذه العكز نفسها تُعيدنا على أن نفهم، بسوع خاص، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تُعيدنا على أن نفهم ما ثار حول هشام والوليد بن يزيد من الخسومات التى قدما لك طرفاً منها . ولم يكده يهسى الأمر الى مروان بن محمد حتى كانت الخسومة بين المصرية واليمنية قد آتته الى أقصاها بحيث عجز هذان الفريقان من العرب عن أن يكونا وحدةً قويةً تثبتُ للطوائى، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب مُفترقين متحادين، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعاً . وستتكم على العصبية وآثارها بسطيةً فى القول أكثر مما تكلمنا هنا فى موضعها الطبيعى من الكتاب الثانى .

ولما كانت الدولة العباسية قد قامت بالموالى وأستهم، ومحاولتهم الانتقام لأنفسهم وكرامتهم من بنى أمية الدين سامهم سوء العذاب وساسوهم شرّ سياسةٍ فلما نرجى كلامنا عن هذا العنصر القوى من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطان الحكم وأسباب سقوطها الى موضعه الطبيعى من تنظيم كتابنا، وحين ذاك، يَحِقُّ لنا أن نبين تحوّل العصبية العربية الى تلك النواحي الشائكة الوعرة التى قضت على الدولة الأموية وأقامت دولة بنى العباس التى أدالت منها هى أيضاً . وحين ذاك أيضاً يحق لنا أن ندرّس نظرَ

العربي الى غير العربي في العصر الأموي وفي غير العصر الأموي مما كانت له نتائج خطيرة في حياة العرب وفي تحول مدنيت العرب .

فلتريث أدّا، وحير لنا وللتاريخ أن يكون موضعُ هذا الباب في كلامنا على الدولة العباسية . وحير لنا أيضا أن نتقل الآن الى تصوير الحياة الأدبية : من شعرٍ وخطابة، والى تصوير الحياة العلمية بصورها لذلك العصر الأموي، الذي كان بحق نواة طيبة للعصر العباسي، مُتَوَحِّينَ في ذلك الإيجاز والإجمال . ولعلنا نُوفِّقُ الى حسن الإصاغة فيما نريد .

الفصل النحوي

الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموي

توطئه — آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي — حركة النقل — الخطاة ومبراتها —
الكثافة — حالة الشعر في العصر الأموي وتحوله — المرل — الشعر السياسي .

(١) توطئة :

لسا نريد أن نذهبَ في بيان الحياة العلمية والأدبية في العصر الأموي ، لأن ذلك يكاد يجرح باس مقصداً أساسياً ، من اقتصار مقدماتنا هذه على توصيح موجز من غير إسراف ولا تطويل ، للعصر السابق لعصرنا المأموني الذي كان نتيجة لازمة لما تقدمه واكتسبه من عوامل متعددة ، توصيها معتدلاً يجعلنا نطمئن ، بعد فهمنا للآداب العباسية ، الى تبين الفروق والميزات والآثار التي خلفها لتاريخ المدينة الإسلامية ، بل لتاريخ المدينة الإنسانية ذلك العصر الذهبي وهو عصر المأموني الخالد .

لقد تغيرت حالة اللغة وآدابها في العصر الأموي عما كانت عليه في الدور الجاهلي تغيراً عظيماً ، إذ رقت الأساليب وقل الحوشي والمتناثر ، واتسعت الأغراض وكثرت باتساع مطالب الحياة الجديدة ووفرتها . وهذا يتمشى بوجه عام مع تغير حياة العرب الاجتماعية والدينية والسياسية ، وبعبارة أخرى : تغيرت حياة الآداب والعلوم في ذلك العصر طبقاً لما أعادته العرب في فتوحهم ومغازيهم في غنائم وأموال ، ووقوفهم على آثار المدينيات لأهم ذات حظ من العلم غير قليل . ولقد كان لكاتب الله ، المعجز بآياته وسحر بلاعته (كتابُ أُنحِكَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) أثره في فتح أذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لهجاتهم ، بل كان الكثر الذي يلجئون الى ما فيه من أدب جم وعظيمة بالغة وأساليب رائعة ، ويستمدون منه ما ينفعهم في معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

وإنه لجدير بنا أن نتساءل عن مدى ما أصاب الآداب العربية من تغيير في العصر الأموي، وهو تغير خطير يستدعي درسه عنايةً ودقيقاً ملاحظه، وتمتدّ عير قليل لما كانت عليه الآداب في العصر الجاهليّ .



إن تحوّل الآداب العربية في ذلك العصر أصاب التراث الجاهليّ القديم، من لغةٍ وخَطَاةٍ وشعرٍ وأمثال، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياة والوجود، بما أنه أحدث علومًا وآدابًا اقتصاها الإسلام . وقد كان لكتاب الله وسنه رسوله، وما للأئمة من تأويل في فهمهما، كان لذلك كله أثره في حلق علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظٌّ من قبل، فبشأ في هذا العصر علم التفسير وروايته الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما إلى النحو . على أن هذه العلوم الإسلامية المحدثه، التي كانت وليدة العصر الأموي خاصة وعصر صدر الإسلام عامة، لم تكن مولود هذا العصر الوحيد الذي أصبحت فيه البصره داراً للعلم والعرفان والمدنية ومسرحاً للهو والافتان، والشأم مقرّ الملك والسلطان، بل كان الى جانبها مولود آخر كان من شأنه وصع التاريخ والجغرافيا وغيرهما، واتخاذ دنوان الحام، ونقل الدواويس من لغة الى أخرى . وقد كان هذا المولود الآخر نتيجة الفتوح الإسلامية وخاصة تلك الأقطار التي كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونان، وبعبارة أدق: تلك العلوم التي أفادتها العرب أو الدولة الإسلامية من اعتناق الفرس وأهل الشأم ومصر وغيرهم من أسرى الروم للإسلام . وقد تستدعي هذه النقطة توصيحاً، ونظنّ أما اذا ما فسرناها بعض التفسير تتعجل بموضوعها الذي سَنَقِيلُ عليه أحياناً، وخاصة اذا علمنا أن عصر المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أدب وفنّ كان متأثراً بحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هذا كان الى مدى كبير يطعمه بطابع المدنية اليونانية والفارسية؛ ولكن هذا لا يبعثنا أن نلّم به إلماً ما .

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي

كانت آداب الفرس قبيل الاسلام آداباً يونانية في جملتها لأن التاريخ يُحدثنا أن آدابهم الفنية القديمة التي كانت مجموعة طيبة لتاج العقل الفارسيّ والهنديّ والأشوريّ —

هذه الآداب قد نقلها الاسكندر الأكبر الى بلاده، ثم تقلبت حياة الفرس بين ضعف وقوة وجهل وعلم، الى أن سَلِمَ كسرى صولجانت ملكه وَلَعِبَ دَوْرَهُ العَظِيمَ في تاريخ بلاده . ولعلَّ الأحوال العالمية عهدئذ ساعدته على مهمته في النهوض بالعقيلة الفارسية وفي تجديد معنها . ويقول لنا «جبون» : إن «يوستنيان» قيصر الروم حين أضطهد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الوثنية ، أقفل الهياكل والمدارس وطارد العلماء المفكرين ، فأضطر جماعة من هؤلاء الفلاسفة، الى الرحيل الى بلاد الفرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدرهم قدرهم . ويقول لنا الأستاذ «برون» في كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعترض لرأى المستشرق (نولدكه Noldké) في هذا الصدد : «إن شغف كسرى بالبحوث الدينية والمطارات الفلسفية وما كان يحد في ذلك من لداذة وإمتاع ليعيد اليها ذكرى المأمون والأمبراطور الأكبر مما نمسك عه الآن» .

على أننا مع إمساكنا عن التبسط في القول لا يسعنا إلا أن نذكر في هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسس مدرسة للطب والفلسفة في جَدَنَسَابُور كانت لها شهرة مدرسة الإسكندرية . وإنه ليحذر بها أن ننظر هل استفاد العرب حقاً من علوم الفرس عند ظهور الإسلام ؟ وهل استفادوا من عزوهم مصر وفيها مدرسة الإسكندرية ؟ ومن إحصاءهم الشام المتأثرة بآثار العقيلة الرومانية ؟ وهل وجدت حركة نقل في العصر الأموي ؟ لأن في توصيحا ذلك بعض البع لساً في دراسة التحول العلمي والأدبي في تاريخ التدين الإسلامي الذي وصل الى درجة حليقة بالإنجلال والإكبار في عصر المأمون، العصر الذي نصح فيه مختلف الفنون والآداب . فلنحاول توصيحه شيء من ذلك متوخين حد القصد والإيجاز .

(ج) حركة النقل في العصر الأموي :

يخبرنا ابن أبي أصيبعة في الباب الذي أوردته لأطباء العرب في إبان الإسلام : أن «الحارث بن كلدة» تعلم الطب بأحية فارس وتمتزن هناك وعرف الداء والدواء . ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أحر الكافى، الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان اميرا على مصر، كان طبيبا عالما ماهرا، وأنه كان فى أوّل أمره فى الاسكندرية لأنه كان المتولى التدريس بها من بعد العلماء الاسكندريين؛ وزاد بأن عمر بن عبد العزيز، لما أفضت الخلافة إليه، نقل التدريس الى أطاكية وحرّان وتفرّق فى البلاد. ثم ذكر ابن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة، وذكر أن الحكيم « وتمادوق » طبيب المحاج. وحسبنا هذا دلالة على ما أفاد العرب أو ما يمكن أن يُعبدوا من علم الطب. فلنتقل من هذا الى التكلم عن حركة النقل والترجمة. ويكفينا الآن أن ننظر فيما رواه صاحب المهرست عن ذلك إذ يقول .

« كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان ، وكان فاصلا فى نفسه ، وله همة ومجبة للعلوم ، خطر بهال الصنعة ، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى ، وهذا أوّل نقل كان فى الإسلام من لغة الى لغة ، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام المحاج والذى نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بج تميم ، وكان أبو صالح من سبى سِجِسْتَان ، وكان يكتب لراد إنفروخ بن يرى كاتب المحاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية تخف على قلب المحاج ؛ فقال صالح لراد إنفروخ : إلك أنت سبى الى الأمير ، وأراه قد استخفى ولا آمن أن يُقدّمنى عليك وأن تسقط منزلك ، فقال : لا تنظر ذلك هو الى أحوج منى اليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابا غيرى ؛ فقال : والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته ، قال : فحؤل منه أسطرا حتى أرى ، ففعل ؛ فقال له : تمارض ، فتمارض ، فبعث المحاج اليه تياروس طبيبه فلم يره علة ؛ وبلغ زادانفروخ ذلك فأمره أن يظهر . واتفق أن قُتل زادانفروخ فى فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله ، فاستكتب المحاج صالحا مكانه ، فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين صاحبه فى نقل الديوان ، فعزم المحاج على ذلك وقلّده صالحا ، فقال له مردانشاه

ابن زادا نفروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر ؛ قال : فكيف تصنع بويد ؟ قال : أكتب وأيضا قال : والويد : النيف والريادة تزداد ، فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . وبذلت له العرس مائة ألف درهم على أن يُطهر العجز عن نقل الديوان ، فأتى إلّا ثقله فقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله درُّ صالح ! ما أعظم مثته على الكتاب . وكان المحاج أحله أحلا في نقل الديوان .

فأما الديوان بالشام فكان مارومية ، والذي كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية ابن أبي سفيان ، ثم مصور بن سرجون . ونقل الديوان في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى محسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل : إن الديوان نُقل في أيام عبد الملك ، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر فتراحى فيه فأحفظ ذلك عبد الملك فاستشار سليمان ، فقال له : أنقل الديوان وأرتحل منه .

ثم مجده يتكلم في مكان آخر عن أصطص القديم وأنه نقل الخالد بن يزيد من معاوية كتب الصعة وغيرها . فنحن نجد من هذا وغيره أن اللغة العربية أحدث تحرى أشواطاً في حلة العلوم في هذا العصر .



ونريد أن نشرح شرحاً بسيطاً حال الخطابة والكتابة في العصر الأموي متوجّهين الاختصار على قدر الطاقة فنقول :

(د) الخطابة ومميزاتها :

لم تزدهر الخطابة في عصر من عصور الآداب العربية ، كما ازدهرت في هذا العصر ، لاعتماد الناس عليها في السياسة والدين . وقد جعلها الدين الإسلامي فرصاً من العروض في الدعوة إليه ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد كانت الوسيلة في قمع الفتن وردّ البدع ، وكانت لسان القائد في جنده يستنهض بها عزّ مآتهم ، والوالى في رعيته يستفز بها

حيثهم ، والزعيم في شفعه يجمع بها شتاتهم ، اذ لم يكن غيرها من وسائل التليغ ميسورا ،
لذوبوع الأمية وفقدان وسائل الشر .

وقد وَحَدَّثَ بعد مقتل عثمان رضى الله عنه ، بسبب اختلاف المسلمين ، وتعمدِ الرِّقِّ
واختلاف الأحرار ، محالاً واسعا للرقِّ والسبق ، لاعتماد كل حرب عليها في شر نخلته ،
وتأييد دعوته .

يميز الخطابة في هذا العصر ما يميز الآداب عامة ييه : من خامسة الألفاظ ومثانة
التركيب ، والتناعد عن حوشي الكلام . ويميرها أيضا أنها أقتبست من القرآن كثيرا ،
ونهجت نهجه في الارشاد والافناع ، وأنها تُبدأ بحمد الله والصلاة على رسوله ، حتى قبل
خطبة زياد المشهورة التي خطبها في العراق . " الخطبة التراء " إذ لم يحمد الله ولم يصل
على نبيه فيها . وقد كان هذا العصر أحفل العصور بالخطباء ، فقد كان حلُّ الخلفاء والقواد
وولاية الأمصار وزعماء الأحرار المختلِفِ خطباء مَصَاقِعَ . وفيما يحفظه تاريخ الآداب من
آثار الخلفاء ، ولا سيما الإمام عليّ ، ومن خطب المحاح س يوسف ، وزياذ بن أبيه ، وطارق
ابن زياد ، مصداق ما نقول .

ولسقل هنا حطة المحاج في أهل العراق بعد دبر الحماجم فهي حير مثال لصبح الخطا -
في العصر الأموى . قال :

« بأهل العراق ، إن الشيطان قد استنطك فخالط اللحم والدم ، والعصب والمسامع
والأطراف والشغاف ، ثم معى الى الأعواح والأصباح ، ثم ارتفع معشش ، ثم باش وفرج ،
فحشاكم نفاقا وشقاقا ، وقد اتخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائدا تطيعونه ، ومؤمرا تستشيرونه ؛
فكيف تنفعكم تجربة أو تعطكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يردكم إيمان ! ألستم أصحابي
بالأهواز حيث رمتم المكرو ، وسعيتم بالقدر ، وظنتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا أرميكم
بطرفي وأتم تسللون لواذا وتنهزمون سراعا . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان
فشلكم وتنازعكم ، وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم ، إذ ولّيتم كالإبل الشوارد الى أوطانها ،

النوازع الى أعطائها، لا يسأل المرءُ منكم عن أخيه ولا يُلَوِّى الشَّيْخُ على بديه، حتى عَضَمَ السلاحُ وقَصَصَتكم الرماحُ . يومُ دير الجماح، وما دير الجماح ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ ضربُ يزيل الهام عن مقلبه ، ويدهل الخليل عن خليله^(١) .

«يا أهل العراقِ أهلَ الكفريات والعدرات، والثورة بعد الثورات، إن أعتكم الى ثوركم علمتم وختم ، وإن أمنتُم أرجفتُم ، وإن خفتُم نافتُم لا تدكرون خشيةً ولا تشكرون نعمةً، هل استخفكم ناكثٌ، واستغواكم عاوي، واستصركم طالم، واستعضدكم حالع، إلا وثقتموه وآوتيموه ونصرتموه ورصيتموه ! . هل شَفَّ شاعُ أو نعب ناعُ أو نعنق ناعقٌ أو زور زافر إلا كنتم أشياءه وأنصاره ! ألم تنهك المواعظُ ! ألم تَزحُركم الوقائعُ ! » .

ثم نظر إلى أهل الشام فقال :

«يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظلم الذات عن فراخه، ينفى عنها المدر ويُعدُّ عنها المحر، ويُكنَّها من المطر . يا أهل الشام أتم الحنة والرداء ، وأتم العدة والنِطاء . » .

وقد يكون من المفيد حقاً أن ترجع الى "صبح الأعشى" وغيره من المظان الأدبية، لتقف بمسك على خطب القوم المتعة أسلوباً ، الفخمة لفظاً ، العية معنى ، فى ذلك العصر الزاهر .

(هـ) الكتابة :

الكتابة — سواء أكانت فى تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم فى إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المشور — لاترقى بل لا تكون إلا فى الأهم التى أخذت بقسط من التحصر ، فكانت لها حكومةٌ منظمَةٌ ، ودواوينٌ معددةٌ ، وصناعةٌ متنوعةٌ ، وزراعةٌ ناميةٌ ، وتجارةٌ رائجةٌ ، لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربية فى الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حظ من الحضارة .

(١) هاتان العقرتان مقتسان من قصيدة لبيدأ عبد الله بن رواحة التى أشدها بن يدي النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة فى عمرة القضاء وأصل البيت :
ضرباً يزيل الهام عن مقلبه * ويدهل الخليل عن خليله
اهـ من سيرة ابن هشام .

وقد كانت الكتابة معروفة عند التبابعة حنونا، والمأذرة والغساسية في الشمال، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحصار نصيبٌ. أما البدومس سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخط في أواخر العصر الجاهلي. وقد كان حفظ الكتابة فيهم حفظها في أمة نادية قليلة الشؤون، لذلك لم يسلها في الرق ما نال أحويها الشعر والخطابة. فلما جاء الإسلام وصار للعرب حكومة مُنظمة وفتح الله عليهم أقطار الأرض، اشتدت حاجتهم إلى الكتابة، فأخذت سبيلها إلى الرق والكال، حين صارت حاحة من حاجات الدولة.

بيد أن الكتابة لم تلح كالها المحكى، في التنسيق وإبلاغ الحاجة، وفي اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس، إلا بعد أن قُلت الدواوين التي كانت الفارسية في فارس، والرومية في الشام، والقبطية في مصر، إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وإلا بعد أن طهر في العربية كتاب صقلهم الاطلاع على آداب الفرس وغير الفرس من الأمم التي كانت لها قدمٌ واسعة في الحصار: كابن المقفع وعد الحميد الكاتب.

على أما لسا نرمي بذلك إلى أن لا بلاعة في ذلك العصر تغير اطلاع على بلاعة الأمم الأخرى، لأن في بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وتراث الجاهلية، الكثر الذي لا يضرب، والمعين الذي ينهل من أفاويقه كُتب العصر غير مُزاع ولا مدافع. وإما لنعرف مظان الأدب العربي على أمثلة ناجحة لما نقول. فهذا كلام أم الخير والزرقاء وعكرشة بنت الأطرش، فإنه لما يُتخذ حير مثال للنثر في العصر الأموي. وستثبت لك في باب المنشور من الكتاب الأول في المجلد الثاني رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنشور العربي، إحداهما تلك الرسالة المنسوبة لأبي بكر الصديق والتي قيل إنه كتبها لعل بن أبي طالب رضى الله عنه فهي تمثل عصرها بلاعة ونجامة. والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قيل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، فهي فريدة في نوعها رشاقة أسلوب وسمو معنى.

(و) حالة الشعر في العصر الأموي وتحوله :

لكي نلمس بأيدينا صحة قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأموي، كان عصر تجديد في الآداب العربية، وأنه كان عصر تجديد قوى طاهر في اللفظ والمعنى، يلزما أن نفهم فهما أوليا سداجة الشعر الجاهلي وصديق تعبيره عن الحياة الجاهلية .

علم أن العصر الجاهلي للعرب كان في مجموعه، ككل العصور الأولية للعقل البشري، ساذجاً فطرياً وعلومه وطُعمه وعاداته ولكه لم يكن كذلك في آدابه، فإن عرب الجاهلية بدءوا في شعرهم وآدابهم، في ذلك الطور الأول، بما كان عليه غيرهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأخرى في أطوارها الأولى وعصورها الجاهلية، مع ملازمتهم للفطرة، وصورهم من التكلف، وبعدهم عن الصنعة الكلامية .

إن العرب في جاهليتهم بطموا الشعر في كل حاجتهم وأبدعوا فيه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا في دور فوصاهم فقد بضجت لهم أفانيس كانت آية في بلاغة اللسان العربي . وكان الأدب الجاهلي فطرياً مُمثلاً خلق العصر ميماً استقلال الفكرة البدوية؛ وكان في ضروبه كافة من وصف ومدح ورناء وهناء باطفاً بما يجهش في نفس قائله حقاً، كما كان في بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبديع آية في بلاغة الفطرة وشاهدنا في مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسلّة عن شعور صاحبها في النفوس والأفهام .

على أنه يجدر بنا أن نقول : إن المعلقات وغيرها من آثار العقل العربي الجاهلي، قد لا تثيرها نفوس العصر الحاضر، لتغير اللغات والأفكار والمعتقدات، ولتشتت المديات والأدبيات، ولأن أذانتنا وأذواقنا قد تحكمن بنو ألفاظها وخشوتها، فكما أن الأدب الانكليزي قد لا يستعمل اليوم ألفاظا كان يستعملها شيوخ العقل الانكليزي « كما كون » و « شكسير » و « ملتون » من حيرة نتاج عصر الزباث الذهبي وقبلهما « شوسر » وشعراء المغاني، ويعتبرها البعض ناساً حافة، وأنها مئة ألفاظ مدرسة تاريخية، كما هم، الحال في نظر أدب العصر

الانكليزي أو العرسي أو الألمانى فى تراجعهم عن الكتاب المقدس، وإلى شعرائهم وأدبايهم المتقدمين، كذلك هو الحال فى أحكامنا عن نتائج العصر العربى الجاهلى .



إن المدنية ما وُنت ساعة ولا يوما، ولكن عاطفة الانسان تكاد تكون هى بنفسها فى كل العصور : يحرك لواعجه الجمال، ويفطر قلبه ريب الرمان، ويُنث شكاته الى أترابه وإخوانه، ويحاول أن يتوَأ حبات الأفتد بسحر بيانه، فهو يفجر ويشدو، وهو يمدح ويهجو، وهو يحط ويطم ويصيرُ الأمثال . وهو صادق فى ترجمة شاعره، وتبان مقاصده ما كان فى دَوْر سذاجته بعيدا عن صروب المدينيات التى كثيرا ما تُلازمها تقاليد خاصة وتصحبا آداب تُعورِف عليها تُقلل صراحته وتُقل من حدة شأته، وتحمل له سلطاما على ميوله وأهوائه . واللسان علة مصباح إن تركت له عانه، كُتمة مُصلل إن جعلت العقل والتقليد ميرانه .

من هنا نستطيع أن نُفسر سداحة العربى الجاهلى وجنوحه الى صوت الطبيعة، على العكس من حال زميله الاسلامى الذى قد صقلته لاعة القرآن وتعاليمه، وشدبته سمة الرسول ومهامته، وأفسح المجال لخياله ما وقف عليه أثناء الفتوح العربية من تراث المدينيات الفارسية فى العراق وفارس، والرومانية فى الشام ومصر، وناهيك بآثار الفرس والرومان الى ما حلف له أبأؤه العرب من حكمة وبيان .



كان شعراء الجاهلية يُسدّدون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يُخطئونها، ويقولون الشعر عن شعور حتى، ولا يُخطئون الى ما وراء مشهودهم ومعقولهم، بجاء شعرهم مثلا صادقا لبدائتهم وحضارتهم، حتى لو أندثرت جميع أخبارهم وآثارهم ولم يبق إلا شئ من شعرهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفا كاملا لجميع أحوالهم، كما استخرج الباحثون كثيرا من عوامس جاهلية اليونان من شعر «هوميروس» .

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السُلَّانِ اذ حصرها مع أخيه كليب وفرَّ ابن عتق الحية من وجههما :

لو كان ناهٍ لأبن حية زاجراً . لهاء دا عن وقعة السُلَّانِ
يومٌ لسا كانت رياسةُ أهله . دون القبائل من بني عدنان
عَضِبَتْ مَعْدُ غُثَا وَسَمِينُهَا . فيه مملأةٌ على عسان
فازالهم عاكليُّبُ بطعنة . في عُمرِ نائلٍ من بني قحطان
ولقد مضى عنها أبْنُ حية مدبراً . تحت العَمَاحَةِ والخنوفِ دواني
لما رآنا بالكلابِ كأننا . أَسْدٌ مَلَاوِنَةٌ على خفان
رك التي سَجِبَتْ عليه ذبولها . تحت العماح بدلةٍ وهوان
ونحاً بمهجته وأسلم قومه . متسرلين رواعف المزان
يمشون في حلقِ الحديد كأنهم . جُرْتُ الجمالِ طُلَيْنَ بالقطران
هم الفوارسُ لافوارسٍ مَدْحَج . يوم الهياج ولا بنو همدان
هزموا العُدَاةَ بكلِ أسمرِ مارين . ومهيدٍ مثل الغديرِ يمان

وبعد، فإننا بعد ما قدّمنا من موجز كلامنا عن تصوير حالة الشعر في الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته في العصر الأموي، لا نرى ممدوحة من الإشارة هنا الى أناسعنى عناية، خاصة، بهرعيّ العزل والشعر السيّاسي، لأنهما بحالتيهما الأموية يكادان يكونان وليديّ العصر وتناحه .

وليس معنى ذلك أنا نكر تلك المعاني الجديدة التي دخلت على الوصف والمدح والثناء والهجاء، ولكنا نلاحظ أن الفرق لا يعدو ملقومات المدنية، مع رقة اكتسبتها العصور الإسلامية، القريبة العهد من نزول القرآن واشتعال الناس بتلاوته وإقبالهم على دراسته، حتى انطمعوا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المفيد أن نُشير إلى شيء جديد أصاب فن المدح في العصر الأموي، لأنه خاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابن قتيبة في كتابه القيم «الشعر والشعراء» : أتى بعض الرُجَّازِ نصرَ بن سيار وإلى خراسانَ لني أمية، فمدحه بقصيدة تشبيهاً مائة بيتٍ ومدَّيْها عشرة أبيات، فقال نصرُ : « والله ما بقيت كلمةٌ عدته ولا معنى لطيفٌ إلا شغلته عن مديحي بتشبيك، فان أردت مديحي فاقصد في النسب، فأتاه فأشد :

هل تعرف الدارَ لأُمِّ العمرِ دع دا وحترِ مدحةً في نصر

فقال نصر . لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين .

(ز) الغزل :

كان عَزَلُ الجاهلية من عمو الخاطر وفيص البديهة، مطلقاً بصفاء قريحتهم، وكامل حريتهم، ووقد أدهانهم وتأثر طباعهم، وكان بريثاً من الصعة والكلفة .

ومع أنى من يدهبون إلى أن الشاعر الجاهليّ، كان يعالج الصون الشعرية كافة عبر مقصور على السبب بالذات، بيد أنى من يقول إن المعاني العرلية وألفاظها تكاد تكون مُعَادَةً فيما بعد العصر الجاهليّ، بتوسع تقتضيه المديّة، وطلاوة اكتسبها الألفاظ من بلاعه القرآن، وعدوبة اتجتها ثروة الأذهان من أفلاويق العرفان .

ولقد صدق زهيرٌ إذ يقول :

ما أَرَأَا نَقُولَ إِلَّا مُعَارَا * أَوْ مُعَادَا مِنْ لُغْظَا مَكْرُورَا

أجل . لقد كان العَرَلُ الأمويّ عيباً بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أنا نجد فيه لواعج الحب ولعنه، وشكايات العصب وأناته، وزفرات العاشق وعبراته .

ألسنا نلمس التوجع والأسى في قول ابن الدمينه الخنعمي :

أَلَا يَاصْبَا بِحَدِّ مَتَى هَجَيْتَ مِنْ نَجْدٍ * لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكُ وَجَدًا عَلَى وَحْدٍ

وفي قول الصَّعْمة بن عبد الله بن طفيل :

حَنَنْتُ إِلَى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ * مَسْرَاكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا

نريد أن ندرُس حالة الغزل في العصر الأموي الذي هو عصر الترف والرفى والثروة، عصرُ القصور والملاد، عصرُ الاندماح في غير العرب واتحاد السراري والساياء، تكاد مات ووصيفات وزوجات .

لقد كثر الترفُ كثرةً حمل معها الاندفاع مع الغزل وما يحزّه العزل، وحلق أنوعاً صريحةً من المباحى الشعرية في الحب والتشبيب بالنساء، رغبةً في الحب من حيث هو، وفي التشبيب من حيث هو : بمعنى أما كنا في العصر الجاهلي قلما نجد شاعراً وقف حياته الشعرية على معالجة فنّ الغزل حسُّ، لا يتكلف غيره ولا يُعنى بسواه، فإدبا في العصر الأموي نحد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعةً ومهنة .

وطاهرة أخرى ملاحظتها في الغزل الأموي تطهر بجلاء مقدار اختلافه عما كان عليه في العصر الجاهلي، تلك أنوعه المتباينة التي يصح لنا أن نقسمها إلى أربعة أبواب : عزل إباحي، ويصح لنا أن نقصد من عمر بن أبي ربيعة زعياً لهذا النوع الذي يجمع إلى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني العبث بها والاستمتاع باللذة المادية مما يميزه الأدب الجاهلي وما حظّره عليه الكثيرون من حلفاء الإسلام وأئمتهم .

ولقد صدق ابن جريح إذ يقول : "مادخل على العواتق في حدودهن شيء أصرت عليهن من شعر ابن أبي ربيعة" . ونحيل القارئ إلى حديث الزبير بن بكار عن عمه مُصعب في صفة هذا الشاعر الكبير، على أن نكتب الأعاني وغيره من أمهات كتب الأدب العربي مُترعةً بشعره وتشبيهه مما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان تبعَ ساء وحلّس عانيات، وصافاً لأحاديثهن، واقفاً على دحائلهن، مطلعاً على هوى نفوسهن . ولا حاجة بنا إلى التطويل هنا فيما هو مشهور مُتعارف، خصوصاً أنك ستجد طرفاً من شعره، في باب المنظوم من الكتاب الأول في المجلد الثاني، فراجعهُ ثمّة .

على أنه مع ذلك يذوب رقةً وحناناً في بعض مُقطعاته، ولا سيما مع الثريا بنت علي، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتح قلبه لأحد سواها .

كتب ابن أبي ربيعة الى الثريا وهى باليمن يقول :

كتبْتُ إليك من بلدى * كتاب مَوْلَه كَكَمِدِ

ولقد كانت مكة والمدينة مسرحاً لهذا النوع فى العصر الأموى . وسبب ذلك ميسور فهمه ، معقول لتأويله ، ذلك أن الخلفاء تعتمد جلتهم الإغداق على أهل المجاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوق ما ورثهم آباؤهم ، ليحولوا بينهم وبين ما يطمح اليه أمثالهم من منافسة فى الملك ، أو مشاكسة للسلطان ، وليشغلهم عن أمور الدولة بإرخاء العنان لهم فى لذاتهم ومسامحهم .

وهناك العزل العُدْرى البرىء ، غَزَلَ الحب الصادق ، والمواطن المتأججة ، والتمس التأملة المعاة ، تلك النفس التى تجد لذتها فى الكَلَف بمن تحب والتعلق به والشعور بالسعادة فى الإناء بحبه ، حباً يملك عليه لبه ويعذب رُوحه ويفنى جسمه كعزل جميل . وليس أدل على صدق حبه مما أئتمته صاحب الأعانى فى الجزء السابع ، اذ حاول أبوه أن يصره عن حبه وحاجته فى ذلك أجهل مُحاجة ، فكان من جميل ما كان مما نجده مصلاً ^(١) فى موضعه .

وغزل صباغى بين هذا وذاك ، همه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر ، لا فى الحب من حيث هو حب ، ولما فى كثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث ^(٢) .

وغزل قصصى ، حلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى العزل والى حياة القصص وما يتبع حياة القصص ، فظلموا قصائد نخلوها لشعراء لانستطيع أن نحتمل تبعه القول بوجودهم فى الحياة أو القول بأنهم أشخاص خياليون حلقهم الرواة أو زادوا من عدهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعياً هذا النوع . قيس بن الملقح وليلاه ، ^(٣) وقيس بن ذريح وليباه ^(٤) .

(ح) الشعر السيامي .

بداية عصر بني أمية معركةً سياسيةً ، لَعِبَ فيها معاوية وأنصاره دوراً مُثَمِّعاً طريفاً في سبيل استلاب الخلافة من عليّ ، وتأسيس ملك بني أمية ، على قواعدٍ وسننٍ تحالف قليلاً أو كثيراً ما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين .



الإنسانُ في سبيل تحقيق أطاعه السياسية، هو بعينه في عصر معاوية، وفي عصر يوليوس قيصر، وفي عصر نابليون، وفريدريك الأكبر أول عاهل لألمانيا، هو بعينه إنسانُ اليوم، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها، يستعمل المالُ في شراء الضمير الإنساني، ويعمل جهده على إذاعة دعوته، وتبيان فضائله، وتصويب خطئته، باتِّحاد الحملات الصحفية والخطابية وغيرها من وسائل الدعوة التي وصلت إليها المدنية الحديثة، والتي كانت في عصر معاوية وحلفاء معاوية وفي عصر المأمون وحلفاء المأمون، تَسْتَحْدِمُ ألسنة الشعراء، وهي أسرع انتشاراً، وأعمق أثراً، وأكثر روايةً، وأطول عمراً، مما يكتب اليوم، فلا يرويه من الناس إلا قليل .

إنك لتعلم ما لاستخدام الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية، وأستحضات العزمات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وما «للسلير» من أثر في نفوس الجند الفرنسيين، ادا حَيَّ وطيس الحرب واشتدَّ أوارُها . وأنت جدُّ عالم بما كان لقصائد «اللورد بيرن»، الواحدة تلو الأخرى، في سبيل استقلال اليونان الحديثة، وفي سبيل اجتذاب عطف أوروبا ومساعدتها وجاهيرها وملوكها ونوابها ومحممها، ليأخذوا باصر أمية مَهِيضَةٍ غُلِبَتْ على أمرها .

أنت جدُّ عالم بأن قصائد «بيرن» هذه فعَّات في المعركة السياسية ما لم تفعله جيوش مصر وأساطيلها وبذخيرة الترك وأنصارها، فكان الحكم «لبيرن» وكان الانتصار لشعره .



كذلك كان الحال في عصر بني أمية ، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن أبلغ وأوسع نطاقاً . ألم يُوعر معاوية ، في رواية يزيد ابنه ، الى مسكين الدارمي أن يقول أبياتا في معنى المايعة ليزيدَ ويشدها إياه في مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغاني : إن معاوية لما أراد البيعة ليزيد ، تهيّب ذلك وحاف ألا يمالئه عليه الناس لحسن الثقة فيهم وكثرة من يُرتجّ للخلافة ، وبلغه في ذلك درو^(١) كلام ، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر ، فأمر يزيد مسكيا ، وكان يؤثره ويصله ويقوم محاجاته عد أبيه ، أن يقول أبياتا ويشدها معاوية في مجلسه اذا كان حافلا وحصره وحوه بني أمية ، فلما اتفق ذلك دخل مسكين اليه وهو جالس وأبه يزيد عن يمينه وبو أمية حواليه وأشراف الناس في مجلسه ، فمّل بين يديه وأنشأ يقول :

إن أدع مسكيا فإني أبى معشير . من الناس أحبى عنهم وأدودُ
اليك أمير المؤمنين رحلتها * شير القطا ليلا وهن هودُ
وهاجرة طلت كأن طساءها * اذا ما آتقتها بالقرون سمود
ألا ليت شعري ما يقول أبى عامر . ومروان أم ماذا يقول سعيدُ
بى حلفاء الله مهلا وإنما * يُبوتها الرحمن حيث يريد
اذا المرء العربي حلاه ربه * فإن أمير المؤمنين يزيدُ
على الطائر الميمون والجد صاعدُ * لكل أناس طائر وجدودُ
فلارت أعلى الناس كعبا ولا تزل * وفود تُساميها اليك وفودُ
ولا زال بيتُ الملك فوقك عاليا * تُسيّد أطناب له وعمودُ
قدور أبى حرب كالجوابى وتحتها * أناف كأشال الرئال ركودُ

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله». قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذي أراده يزيد، ليعلم ماعدهم، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلًا صلته اهـ .

وأطنك لا تطلب ما حين مطالعتك لهذه القصيدة تحليها لإقامة الدليل على صدق ما ذهبوا إليه؛ فإيا أسلفناه لك من القول بأن شعر العصر الأموي عربي جاهلي في محاه وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأعراض ومقاصد تكاد تكون جديدة بالنسبة للعصر الجاهلي. وذلك لوضوح التحليل وخوف الإطالة فيما لا يعيبا كثيرا .

على أنه لزام في عقبا أن نصور، إلى مدى أوسع، استخدام الشعر الأموي في الأعراض السياسية، لأن لهذا النوع الطريف نتائجه وآثاره في هذا العصر والعصور التي تلتها، ولأن لهذه الميزة اصطبغ الشعر بالغرض السياسي واندفاع صاحبه في سبيل نصره دعوته مُعَدًا ما قد يعثور طريقه من صعاب، مُدَلِّلا ما يعترضه من عقاب، مُتَهَكَّا حرمة التقاليد والأشخاص، بل حارجا إلى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيرا، وربما لا يرضى عنه الشرع حقا، نزع أن لهذه الميزة آثارها ونتائجها. ولسا بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكننا بموقف المقيّد للموادح نجسب، المثبت لمبدأ وقوعها، ولها مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط ميدانها ما سيأتح لنا تفصيله فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصة، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين .



مثّل آخر ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركة مذهبية سياسية بين نصير معاوية ونصير علي، بين كعب بن جُعيل والنجاشي. وهاك قصيدة كل منهما، قال كعب بن جُعيل :

أرى الشام تكرو ملك المرا * ق وأهل العراق لم تاركوا
وكل لصاحبه مُبَغْض * يرى كل ما كان من ذاك دينا

وقالوا على- إمامٌ لنا * قفلنا رَضِيْداً أبْنَ هَند رَضِيْداً
 وقالوا نرى أنْ تدينوا لنا * قفلنا لهم لا نرى أنْ ندينَا
 وكلُّ يُسرُّ ما عده * يرى عَثُّ ما في يديه سَمِينَا
 وما في على- بِمَسْتَعْتَبِ مَالِ سَوَى صَمِّهِ المَحدثِنا
 وليس براصٍ ولا ساحِطِ * ولا في النَهاهِ ولا الآمِريَا
 ولا هو سَاءَ ولا هو سَرَّ * ولا بدَّ من بعدِ دَا أنْ يكونَا
 فلما قرأه على- رضى الله عنه قال للجاحشي- أحب، فقال :

دعْ مُعَاوِيَ ما لي يَكُونَا * فقد حَقَّقَ الله ما تَحدِرونَا
 أتاكم على- أهلُ العِرا * ق وأهلُ الحِمازِ فما تَصْعُومَا
 يرونَ الطَّعَانَ جَلالَ العِصَا * ح وضربَ القَوايسِ في السَّعْدِ دِيَا^(١)
 هم هزَمُوا الجَمعَ جَمعَ الزَيرِ * وطلَحَ والمُعشَرَ الناكِثِنا
 فان يَكِرْهُ القَومُ مُلْكَ العِراقِ * فَيَقْدِمَا رَضِيْداً الذي تَكْروهُنَا
 فقولوا لِكُعبِ أُمى وائلِ * ومن جَعَلَ الفِثْ يَوماً سَمِينَا
 حَلَمْتَ عَلِيّاً وأشِيعاهُ * نَظيرَ أبْنِ هَيدٍ ألا تَسْتَحْجُونَا



وهالك مثلاً آخر ذكره صاحب الأغانى في ترجمة العمان بن بشير قال : تشبب عبد الرحمن
 ابن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رَمَلْ هَلْ تَذكرينَ يَومَ عِزالِ * إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرَنا بِالتَّمَنَّى
 إِذْ تَقولِينَ عَمْرُكَ اللهُ هَلْ شَى * وإنْ جَلَّ سَوفَ يُسَلِّكُ عَنى
 أُمْ هَلْ أَطْمَعْتَ يا بَنَ حِسانَ في ذَا * كَ بِما قَدِ أَرَاكَ أَطْمَعْتَ مَنى

قال : فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فغضب ، ودخل على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ،
 ألا ترى الى هذا الطلج من أهل يثرب يتهمك بأعراضنا ويُشَبِّبُ بنسائنا ! فقال : ومن هو ؟
 (١) القوانس : جمع قونس وهو أعلى الرأس ، وأعلى بيضة الحديد أو مقدمها .

قال : عبد الرحمن بن حسان فأنشده ما قال ؛ فقال ، يا يزيد ليست العقوبة من أحد أقبَحَ منها بدوى المقدرة ، ولكن امهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم دكرنى به ، فلما قدموا ذكره به ؛ فلما دخلوا قال : يا عبد الرحمن ، ألم يبلغنى أنك تُسبِّ برملة بنت أمير المؤمنين ! قال : بلى ولو علمتُ أن أحدا أشرفُ بشعرى منها لذكرته ؛ قال : أين أنتَ عن أحتها هند ! . قال : وإن لها لأختا يقال لها هند ؟ قال : نعم ! وإنما أراد معاوية أن يشبَّ بهما جميعا فيكذب بهسه ، فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان مه معه ، فأرسل الى كعب بن جُعيل فقال له : أُمِّجُ الأنصارَ ، فقال : أفرقُ من أمير المؤمنين ، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل ، قال فدعاه فقال له ، أُمِّجُ الأنصارَ ، فقال : أفرقُ من أمير المؤمنين ؛ قال : لا تخف شيئا أما لك بذلك ، فهجاهم فقال :

واذا نسبْتَ أنَ القُرَيْمَةَ حِلَّتْهُ * كالحش برب حمارة وحمار
لعنَ الآله من المهور عصابةً * بالحزق بين صُلَيْصِلٍ وصُدَّارِ
قوم اذا هدر العصير رأيتهم * حمرا عيونهمو من المصطار
خلو المكارمَ لستموا من أهلها * وخذوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يعرفون ظهورهم * أولاد كل مقع أكَّارِ
ذهبت قريشُ بالمكارم كلها * واللؤم تحت عمام الأنصار

فبلغ ذلك العمان بن بشير ، فدخل على معاوية ففسرَ عمامته عن رأسه وقال : يا أمير المؤمنين ، أترى لوأما ؟ قال : لا بل أرى كرما وخيرا ، فإذا ؟ قال : زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمام الأنصار ! قال : أوفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : لك لسانه ، وكتب فيه أن يؤق به ، فلما أتى به سأل الرسول أن يدخله الى يزيد أولا ، فأدخله عليه ، فقال : هذا الذى كنتُ أخاف ؛ قال : لا تخف شيئا ، ودخل على معاوية فقال : علام أرسل الى هذا الذى يمدحنا ويرى من وراء حجرتنا ؟ قال : هما الأنصار ؛ قال : ومن زعم ذلك ؟ قال : النعمان بن بشير ؛ قال : لا تقبل قوله وهو المدعى لنفسه ، ولكن تدعوه بالبينة وإن أثبت شيئا أخذت له ؛ فدعاه بالبينة فلم يأت بها فخلَّاه ؛ فقال الأخطل :

ولمى وإن آستعرت أم مالك * لراض من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيد أن الملوك وسعته * تحلت جرأدا من الشر أنكدا

أما رد العمان على الأخطل فهاكه كما نقله أبو الفرج الأصبهاني عن خالد بن كلثوم :
معاوي إلا تعطى الحق تعترف * لى الأزد مشدودا عليها العائم

حتى قوله :

اليهم يصير الأمر بعد شتاته * من لك بالأمر الذى هو لازم
هم شرع الله الهدى فاهتدى بهم * ومنهم له هاد إمام وحائم

وإنما نُحِيل القارئ الى الكتاب الأول من المجلد الثانى ليقف على قصيدة العمار
هذه، وليقف كذلك على قصيدته الرائية الأخرى التى أشدها معاوية لما صرب
مروان بن الحكم، وعد الرحمن بن حسان الحد ولم يصرب أحاه حين تهاجيا وتقاذفا .
وتحرير الخبر فيها : أنه لما كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم
ابن أبى العاصى وتفاحشا، كتب معاوية الى سعيد بن العاصى، وهو عامله على المدينة،
أن يجلد كل واحد منهما مائة سوط . وكان ابن حسان صديقا لسعيد وما مدح أحدا
غيره قط، فكره أن يصرب أو يصرب ابن عمه فامسك عنهما، ثم ولى مروان، فلما قدم
أخذ ابن حسان فصر به مائة سوط ولم يصرب أحاه، فكتب ابن حسان الى العمار
ابن بشير وهو بالشام، وكان كبيرا أثرا مكيأ عد معاوية، قال :

ليت شعرى أعائب أنت بالش * مام خليلي أم راقد عمار
آية ما يكن فقد يرجع الذ * نائب يوما ويوقط الوسان
إبن عمرا وعامرا أوينا * وحراما قدما على العهد كانوا
أفهم ما يعوك أم قلة الك * ناب أم أنت عائب غضبان
أم جفاء أم أعوزتك القراطيد * من أم أمرى به عليك هوان
يوم أنبت أن ساق رضى * وأنتكم بذلك الركان

ثم قالوا إن ابن عمك في بلد . سوى أمور آتى بها الحدّثان
فسيّت الأرحام والود والصح * سة فيما أتت به الأزمان
إنما الرمح فأعلمس قساة * أو كمعص العيدان لولا السنان

وهي قصيدة طويلة . فدخل النعمان شير على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين، إنك
أصرت سعيدا بأن يصرب ابن حسان وابن الحكم مائة سوط فلم يفعل، ثم ولّيت مروان
فصرب ابن حسان ولم يصرب أحاه ! قال : فتريد ماذا ؟ قال : أريد أن تكتب اليه
بمثل ما كتبت إلى سعيد، فكتب اليه معاوية يعزم عليه أن يصرب أحاه مائة، فصره
حميس وبعث إلى ابن حسان بجملة وسأله أن يعفو عن خمسين، ففعل وقال لأهل
المدينة : إنما صرّبي حدّ الحز وصره حدّ العبد خمسين، فشاعت الكلمة حتى بلغت
ابن الحكم، فجاء إلى أخيه فأخبره وقال : « لا حاجة لي فيما عفا عنه ابن حسان » ؛ فبعث
إليه مروان : « لا حاجة لنا فيما تركت، فهلم فاقصص من صاحبك » . فحصر فصره مروان
خمسين أخرى اه .



ويجدر بنا الآن، بعد أن أوضحنا ميرة استعمال الشعر في الأعراض السياسية في الدولة
الأموية، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تحلو من نفع فيما سعالجه، وهي أن تلك
الأعراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود .
وقد سبق لنا أن أشرنا إلى كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم في صدد حدّ للشاعر
المناصر لسياسة بني أمية وهو عبد الرحمن بن أوطاة المعروف بابن سيجان وكان حدّ لشريه
الخنز . وابن سيجان هذا هو الذي قال في صعبته أبو الفرج الأصفهاني : « كان عبد الرحمن شاعرا
مُقلّا إسلاميا، ليس من الفحول المشهورين، ولكنه كان يقول في الشراب والغزل ومدح
أحلافه من بني أمية، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه، وكان مع بني أمية كواحد
منهم، إلا أن اختصاصه بآل أبي سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر، وخصوصه بالوليد
ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم، لأنهما كانا يتناوبان على الشراب » .

ونريد الآن أن نفسر هذه الحادثة تفسيراً معتدلاً لخرج منها بما عساه يمدنا وينفعنا فيما سَنُقدِّمُ عليه من مناقشة العصور التي تلت هذا العصر، تلك العصور التي تغدت، من غير شك، بأفوايق العصر الأموي الذي تقدّمها، فنبتت فيها بذوره حتى كادت تنمو في حديقته الأُفّ الحسانة دوحاتٍ خطيرة على الاعتبارات الخلقية التي تُوَصِّعُ عليها .

وإنك إذا رجعت إلى كتاب معاوية، ورجعت إلى كتاب الأعاني نفسه، ومولفه أموي كما تعلم، وحدته قد أقام الحجة في غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر الخمر . وهاك ما يؤيد ذلك ويعززه :

قال : « كان الوليد بن عثمان، ذا عِلَّةٍ في الحمار، يخرج إليها في زمان الثمر نمر من قومه، يحسون له ويعاوبونه، فكان إذا حصر خروجهم دفع إليهم سِقَاتٍ لأهلهم إلى رحمتهم؛ فخرج بهم مرةً كما كان يخرج ومهم ابنُ سيحان، فأتى ابنُ سيحانَ كَلْبٌ من أهله يسألونه القدومَ لحاجةٍ لا بدّ منها، فاستأذنه فأذن له، فقال له ابنُ سيحان : زودوني من شرابكم هذا، فزودوه إداوةً مألهاً له من شرابهم، فكان يشربها في طريقه حتى قدم على أهله، فالتقاها في جانب بيته فارعة، فكث زماناً لا يذكرها حتى كنسوا البيت فقرأها ملقاةً في الكُفَّاسة فقال :

لَا تَبْعِدِي إداوةً مطروحةً * كانت حديثاً للشراب العائِقِ
 إن تُصْبِغِي لا شئَ فيكَ فرما * أَثْرَعْتَ من كأسٍ تلدُّ لذائقِ
 أبى الوليدَ وأتمّ هُصْيَ كَلْبَا * بدت النجوم وندقرُ الشارقِ
 كم عده من نائيلٍ وسماحيةٍ * وشمايلٍ ميمونةٍ وحلائقِ
 وكراميةٍ للعصينِ إذا أعتقوا * في ماله حقاً وقولٍ صادقِ
 أنوى فأكرمَ في الثواء وقُصِّيتُ * حاجتُنا من عد أُرْوَعَ بأسقِ
 لما أتيناها أتينا ما جد السـ * أخلاق سبأً قَافاً لِقَرمِ سابقِ
 قال الوليدُ يدي لكم رهن بما * حاولتمو من صاميتٍ أو ناطقِ
 فإلى الوليدِ اليوم حنّت ناقتي * تهوى بمنغبر المتون سَمَاقِ
 حنّت إلى برق قفلت لها قري * بعض الحنين فإن شجوك شائقي

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته للحمر . ثم لُتِثِتْ هـا قصيدته التي مدح بها معاوية :

إني أمرؤ أنمى الى أفصل الورى * عديدا اذا رقصت عصا المتحلف
الى نصد من عد شمس كأنهم * هصاب أحأ أركأها لم تُقصَف
ميامين يرصون الكفاية إن كعوا . ويكفون ما وُلُوا نبر تكلف
عطَّارفةً ساسوا البلادَ فأحسوا * سياستها حتى أقرتْ لمردف
من يك منهم موسرا يُعشَّ فصله * ومن يك منهم معسرا يتعقِف
وإن تسط المعى لم بسطوا بها * أكفا سباطا فعها عير مُقرِف
وإن تُزَوَّعْ عنهم لا يصجُّوا وتلفهم . قلى التشكى عدها والتكلف
اذا انصرفوا للحق يوما تصرفوا . اذا الجاهل الحيران لم يتصرف
سموا فعلوا فوق البرية كَلَّها . ببيان عالٍ من مُبِف ومُشِرِف

وكان من حظها أن كتب معاوية أن يعطى أربعمائة شاة وثلاثين لقة ، مما يوطن
السيالة غير ما أعطاه سواه .

ومهما يكن الواقع الذى حدا أبى الحكم الى حده فإن السياسة الحزبية ومدائح
أبى سيجان فى معاوية ، واستعمال الأخير الشعراء فى ماصره بينه — كل ذلك دفع بمعاوية
الى كتابة ما كتب لأبى الحكم أولا ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اصطره لرفده بخمسمائة دينار
مما وصفه صاحب الأغاني ؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع ، وللغاية السياسية لا الدينية ،
فلقيد هذه الملاحظة فقط ، بلا توسع ولا إسهاب .



وبعد ، فلنلخص ما تقدّم عن شعراء السياسة ، وهم العصر الهاتم الذى لعب دوراً
بارزا فى الأدب العربى فى العصر الأموى ، والذى كان له أثره ونتائجه فى العصر العباسى ،
فى كلمة ختامية فى هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدور أمويين ، فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بنى أمية شعراء آخرين أحدوا باصرهم ودافعوا عن كيانهم مثل أبي العباس الأعمى هجاء ابن الزبير، وأبى قطيفة طريد اس الزبير، وأبى صخر الهدلى المتعصب لآل مروان وهجاء ابن الزبير، وعدى س الرقاع، والوليد بن أمية بن عائذ الهدلى ، وجبيهاء الأشجعي والحكم بن عدل الأسدي ، والسلوى ، وموسى شهوات، وغيرهم .

والشعراء العلويون ، وفي طليعتهم العمان بن شير الأنصاري ، والكُتَيْب بن يزيد، وأيمن اس حريم . على أن الأخيرين اضطرا الى امتداح بنى أمية ومسايرتهم ، فانا نجد الكيت قد مدح هشاما ، كما نجد أيمن مدح عبد الملك . ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلب ابن أبى صُفْرَةَ كزياد الأعجم وثابت قُطْنة وحمزة س بيص وكعب الأشقرى وغيرهم . وأخيرا نجد حرب آل الزبير ومن شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدي .

وصعوبة القول أن المعركة السياسية بين بنى أمية وماسيهم في الملك أو الجاه وما يتبعهما : من إعداق الأموال والعطايا على أنصار كل فريق ، جعلت هوى الشعراء مع من أحسن إليهم ، واللَّهُمَّ تَفْتَحُ اللَّهُمَّ .



من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربية من مَبَازٍ فيسيح في صروب شتى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل .

وقد آن لنا أن نتقل الى الكتاب الثاني من موضوعنا ، ورجو أن نُوفِّقَ الى إيضاح ما أوجراه ، ووسط ما أجلاه ، مبتهلين الى الله ألا نِصْلُ في شُعْبِهِ ومهامه ، وبُهِمِهِ ومفاوزه ، بمنه وكرمه .

الكتاب الثاني

عصر بني العباس

الفصل الأول

الوجهة السياسية

توطئة — دور الانتقال — الشيعة العلوية .

(أ) توطئة :

رأيا كيف كانت الحياة السياسية والعلمية والأدبية في العصر الأموي، وكيف ظهرت مواطنُ الصعفِ وعواملُ الأخطاطِ، وكيف وقعَ سُوءُ أُمّةٍ بين السّاحِطِينَ من العربِ والناثِرِينَ من الموالى، وكيف أَمَحَرَفَ حلفاءُ معاويةَ عن خُطتِهِ السّياسيّةِ، وذيّفَ عُرْفَ فريقٍ منهم بالدينِ وشُعِلَ آخرونَ بالعُتِّ والمُجُورِ . ونريدُ الآنَ أنْ نُلمَّ إلَمامةَ قصيرةٍ بدَوْرِ الانتقالِ إلى العصرِ العبّاسيّ، قبلَ التّكلمِ عن العصرِ نَفْسِهِ، لنرى كيف كانَ اتّجاهُ الأُمُكاري في ذلكَ الحينِ .

(ب) دور الانتقال :

إن الذي ينظر في كتب التاريخ الإسلامي عامة، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصة عن الدولة الفارسية في دور انحطاطها وصّباغ استقلالها وفناء أهلها في الإسلام، مع رسوخهم في المدنية وسبقهم إلى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب، ليدّكر حياة اليونان وعلماء اليونان، حين دالت دولتهم وخضعوا للرومان وهم دونهم في العلوم والعنون .

ولساها بصدد الإفاضة في بيان المباحي التي تعلت فيها الموالي على العرب فإن
لذلك مكانه الطبقي في هذا الكتاب . وقصّارانا الآن أن نجيّل القارئ الى الجزء الأول من
كتاب الأستاذ «ادوارد رور» الذي وضعه عن التاريخ الأدبي للعرب ، وهو من مجلدات
«مكتبة تاريخ الآداب» فإن فيه الكفاية لمن يريد تفصيل .

أدعّ الموالي صاعرين لعلّة العرب عامة والأمويين خاصة ، وداقوا ماداقوا من الذلّة
والمسكّة ، وعابوا ماعابوا من صروب الهوان ، فكان من المعقول أن يترقوا العرص لينقصوا
على سادتهم العرب ، وأن يتظفروا قول بارقة تلوح في أفق السياسة ليصاروا الباقيين على المملكة
الأموية : فقد كانت دولة بني أمية مكروهة عند الناس ، ملعوبة مدمومة ثقيلة الوطأة ، مُستهقرة
بالمعاصي والقبائح ، فكان الناس من أهل الأمصار يتظفرون زوال هذه الدولة صاح مساء .



أضف الى ما تقدم أن الشيعة كانت ، الى جانب قوة المحبة في أنها أحق بالخلافة ، إذ كان
أصاؤها يدعون الى بيعة صهر النبي أو أبناء بنت النبي ، تصم الى رحالاتها شخصيات بارزة
في الدين والكفاية والصلاح ، فكان خيار الناس يطيعونها تدينًا ، وكان غيرهم يطيعها رغبة
أو رهبة . وكان العلويون لا يفترون عن بث دعائهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من
البلاد النائية عن مركز الخلافة التي انفصمت عروتها وكان من آنحلالها ما وصفناه .
وكان العرس يستحدمون زملاءهم المتشربين في البقاع العربية في الدعوة الى مبايعة خصوم
الأمويين ومناصرتهم ، رعة في التخلص من ظلم بني أمية وعسفهم ، وطمعاً في أن يكون
لهم من تبدل الحال حظ من العزة والسلطان .

ولنذكر مع هذا ثورة الممالك الإسلامية عامة على الأمويين ، تلك الثورة الهادئة
الخفيفة ، التي كان من آثارها أن قُتِلَ بعض ولائهم في الأمصار وأن خرج فريق على
الخليفة . ولنذكر كذلك انشقاق البيت الأموي نفسه وتصدع أركانه ، فإن لذلك أثره
الفعال في ثلث عرش الأمويين . ولقد كانت بدايته ذلك الانشقاق ، مروج يزيدي بن الوليد على

عمه الوليد بن يزيد وتشهيره إياه أسوأ تشهير ووصمه أفتح الوصمات ، حتى تمثل بعض
بنى أمية بقول الشاعر :

إني أعيدُكم بالله من قتي * مثل الجبال تَسَامَى ثم تدفع
إني البرية قد ملّت سياستكم * فاستمكوا بعمود الدين وأرتدعوا
لا تُلَحِّمُ ذئبَ الناس أنفسكم . إن الذئب إذا ما ألحمت رُئُوعُ
لا تبقرتْ أيديكم بطونكمو * فتم لا حسرهُ تُغْنِي ولا جزع

ولما تمّ ليزيد الأمرُ خرج عليه مروان بن محمد ، وكان أميرَ الحزيرة وأرمينية ، ومعه
جيشٌ جرارٌ يأتمر بأمره ، ومعه الغمرُ من يريدُ للطالنه بدم أخيه ، فغلبَ يزيدُ على أمره
وانبسطت في البيت المالك يدُ الفرقة والانشقاق .

(ج) الشيعة العلوية :

لم تصل الخلافة الى معاوية إلا بدهائه وسعة حيلته وُعد نظره وحُسن تصرفه
للأُمور ، وإلا فقد كان هناك حرب قوى الشكيمه عزيزُ المكابِه ، يرى على بن أبي طالب
أحقُّ بالخلافة : ولولا دَهاؤُ معاوية ما نزل الحسنُ بن علي ولا أحلّ لحصمه الميدانَ
في سنة ٤١ هجرية ؛ وقد كان من نتيجة ذلك أن سَحِطَتِ الأحزابُ العلويةُ من تصرفه ،
بجمعوا الجموعَ وجنّدوا الجسودَ ، وثاروا على أمير الكوفة الأمويّ وهو زيادُ بن أبيه —
وكان يدَ معاوية التي بها يصول — ولكن زيادا يعرف كيف تُمجدُ الفتنة ، وتُطغى الثورة ،
فبادر الى استئصال الداء ، وقَتَلَ منهم حلقا كثيرا ، أشهرهم مُجَرَّبُ بن عدى وأصحابُ حجر
ابن عدى . بيدَ أن إراقة الدماء تهيّجُ الحاسة وتؤجج نارَ العداوة والغضاء في قلوب
المغلوبين ، وكذلك ظلت الفتنة تُبدِرُ الشرَّ المستطير .

رأى الدعاة العلويون أنه لا قِبَلَ لهم بمعاوية ولا برجاله ، فترىصوا بهم ريبَ الموب
وعلّلوا النفس بتقلبات الحوادث ومقَتِ الأيَّام ، راجين أن تعود الخلافة الى بيت النبي ،

ولكن شدّ ما مزعوا يوم أحد معاوية البيعة لأبيه يزيد المعروف بالميل الى اللهو والقصف والتلّهي بالصيد عن شؤون المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن همام السلوي :

حُشِيَا الغِيْظُ حَتَّى لَوْ شَرِبَا * دَمَاءَ بَنِي أُمَيَّةَ مَا رَوِيَا
لَقَدْ صَاعَتْ رِعْيُكُمْ وَأَنْتُمْ - تَصِيدُونَ الْأَرَانِبَ عَالِيَا

وإنا لعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بعده ابنه يزيد ، أوى الحسين أن يبايع له بالخلافة ، بل رأى أكثر أهل التقي ومبايعه يزيد نحرًا لحمة الدين . ثم قُتِلَ الحسين في كربلاء سنة ٦١ هـ . فألفت الشيعة « حرب التّوايين » بعد وفاة يزيد وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ ، وأخرجوا الى الكوفة الأمويّ عيّده الله بن زياد ، وولّوا عليهم رجلا منهم . ثم تألف حرب « شرط الله » بزعامه المختار بن أبي عبيد الله الثقفى . وانقسمت الشيعة العلوية الى فريق عِدّة ، أهمها الفرقة الإمامية ، وهى التى ترى أن أحقّ الناس بالخلافة هم ولد على بن فاطمة بنت النبى ، والأئمة فى نظرهم اثنا عشر إماما ، وهم : على ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد التقي ، وعلى التقي ، وحسن العسكرى ، ومحمد المهدي . ومنها الفرقة الكيسانية ، وهى التى تقول بتحوّل الخلافة بعد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية . ومنها الفرقة الريدية نسبته الى زيد بن علي بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة الى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وفرق أخرى أصغر من تلك شأنًا وأقل أثرًا .



على أنه كان يوجد بجانب أولئك الولاة المخلصين لبني أمية والمسرفين فى مطاردة الحزب العلوى ، فريق آخر ، على رأسه خالد القسرى ، يعمل لمناصرة العلويين سرًا لا علانية ، كما يعمل ، فى العادة ، فريق من موظفى الحكومة لحزب الأقلية المضطهد طمعًا فى المناصب ، أو نصرًا لعقيدة سياسية ، أو إثارة للعدل والإنصاف .

على أن الدعوة العلوية كانت فاترةً ضعيفةً ، إذا قُورنت بالدعوة العباسية التي ستكلم عليها في الكلمة الآتية . ولعلّ من أكبر أسباب ضعف الدعوة العلوية مبايعة زعماء العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، فقد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصور وغيرهما من أئمة الحزب العباسي .

وكذلك سارت الدعوة لآل محمد شوطاً بعيداً ، وطاهرتُها شخصياتٌ بارزةٌ، قويةُ الشوكة، وغيرةُ المال والجاه : أمثال أبي سلمة الحلّال العارسي المعروف .

ومستوى كيف تحوّلت الدعوة العلوية الى وجهة أخرى ، وكيف استغلّت لمصلحة العباسيين . .

(١) يحالفاً أسانداً الشيخ عبد الوهاب الحارثي دها اليه ويرى . « أن العلويين كانوا يتهافون على الحروب على الخلفاء فكثّر القتل فيهم فقتلوا بحلاف أولاد علي بن عبد الله ، فقد كثروا ولم يتناول القتل منهم أحداً الى ذلك العهد ، عهد القيام بالدعوة » .

الفصل الثانی

العصبية والموالى فى الدولة العباسية

توطئة — العصبية — الموالى .

(١) توطئة :

لقد مرت بك إشارة بسيطة حين تكلمنا عن العصر الأموى الى حَقِّ الموالى الذين ملهم فى ذلك العصر من الاحتقار والراية حطَّ غير قليل ، وبينا لك أن هذه الحاجة من المعاملة ، التى لا تنطق على المذهب الحديث « حرية . إخاء . مساواة » كانت عاملا قويا من عوامل الضعف والانحطاط فى دولتهم ، ووعداك أن ندرس حال العصبية والموالى فى هذا الفصل من الكتاب ، تَمْشِيًا مع النظام الذى وضعناه له .

والآن نعرض عليك حال الشعوب التى كانت خاضعة لسلطان بنى أمية حتى تبتين أحوالها النفسية والأهواء التى كانت عالة عليها . فإنه لا يكفى فى انتقال الملك من شخص الى شخص أو من بيت الى بيت بث الدعوة وتنظيمها وحرْمُ القائمين بها وإحلاص المشيرين وكفاية القواد ، بل لابد مع هذه الأمور أن تصادف الدعوة الجديدة نفوسا مستعدة لها ، راغبة فيها ، عاملة على إنعائها ، لى تزيهر وتؤتى ثمارها .

والحق أن الدعوة العباسية قامت فى وقت كانت قد توزعت فيه الحواصر الإسلامية أهواء مختلفة ، وتقسّمت القبائل العربية عوامل العصبية ، وأخذت الشعوب المغلوبة على أمرها والتى أصبحت خاضعة للنفوذ العربى ، تستفيق من الدهشة التى استولت عليها من العودة العربية التى أخضعها لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضر الإسلامية فكان قد غلب على كل حاضرة هوى أسرة أو شخص معين ، ولم تكن يتخضع لسلطان العرب الأموى لولا القوة القاهرة ، ولهذا لم يكد يضطرب أمر

بنى أمية فى الأطراف، ويظهر الخارجون من الدعا على ولايتهم، حتى أحدث هذه الحواضر تنسّل عن طاعة بنى أمية واحدة بعد أخرى . وتستطيع أن تلتبس هذه الظاهرة ببسطة واضحة من تقاعد الولايات عن نصرة آخر حلفاء بنى أمية عند ما حره الأمر وتعقبه مطاردوه .

(ب) العصبية :

العصبية هى مُاصرة من يُمث اليك بصلّة من صلات الحياه : كأن تجمعك رَحْمُ قريبة أو بعيدة، أو عقيدة دينة، أو هوى سياسى . ويظهر أها من طبعه الوجود، اذ لا تختص بها قبيلة دون قبيلة، ولا أمه دون أمه، ولا حنس دون حنس، ولا عصر دون عصر . وكما توجد فى الأمم البادية، كذلك توجد فى الأمم الحاضرة . وما الدعوات القومية والعراة الجنسية إلا نوع من العصبية معنّى أوسع .

والعصبية العربية، التى نحن بسبيل القول فيها، والتى كانت من الأسباب التى اصمحت لها سلطان بنى أمية، قديمة فى القبايل العربية : كانت فى الجاهلية قُل الإسلام، وكانت تصبى وتنسح بحسب الظروف والماسات، فبنا زها بين العدانية والقحطانية، وهو أوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية، زها بين ربعة ومصر وهى قائل عدناية، وزها بين بنى أمية وبنى هاشم، وقد يكون هذا من أضيق ميادينها . وكانت هذه العصبية تستند حيا وتفتر آخر .

فلما جاء الإسلام ودخل الناس فيه أواحا وتم له السلطان فى جيرة العرب، ألفت بين القبائل وأزال ما فى صدورهم من أحقاد، وذلك ما يشير اليه قول الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْأَفَّ يَنْ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ يَنْ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . ألفت الإسلام بين قلوب العرب، وأزال كل أثر للعصبية القديمة فى نفوسهم، ولكنه استبدلها بعصبية واسعة شاملة هى عصبية الإسلام، وجعل المؤمنين جميعا اخوة .

وبقي أمرُ العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين، وذلك راجع لا محالة الى عوامل شديدة الأثر في نفوسهم، كهيمنة الروح الدنيوية عليهم، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتح من عاثم، وكحزم الخلفاء وحكمتهم وشدة الولاة وقسوتهم .

فلما كان العصرُ الأمويّ واستقرّ الناسُ في الحواضر الإسلامية وشغلوا بعض الشيء عن الفتوح، راجعتهم الشنشة القديمة، فأخذ بعضهم يقتحر على بعض مما كان لأبائهم من مجدي والجاهلية وبلاء في الإسلام، وما لقبائلهم من قوته وأيد . وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة لذلك ، فقال الحارث بن عبد الله بن الحشر بن المغيرة بن الورد الجمعدى :

أبيتُ أرعى النجومَ مرتفعاً * اذا استقلتُ تجرى أوائلُها
من فتنةٍ أصبحت مجلّةً * قد عم أهل الصلاة شاملُها
من بحراسان والعراق ومن * بالشام كل شجاء شاعلُها
فالباس منها في لون مظلمةٍ * دماء ملتجة غياطلُها
يُمسي السفيه الذي يعنفها مال * جهل سواء فيها وعافلُها
والباس في كربةٍ يكاد لها * تنبذ أولادها حواملُها
يعدون منها في كل مبهمةٍ * عيباء تمنى لهم عوائلُها
لا يطر الناس في عواقبها * إلا التي لا يبين قائلُها
كرعوة البكر أو كصيعة حب * بل طرقت حولها قوايلُها
بهاء فيا أزرى بوجهته * فيها خطوبٌ حمزلازلُها

ولقد زاد في إذكاء العصبية بين القبائل العربية مُحقق بعض الولاة، وعدم أخذهم الأمور التي تقع بين أيديهم بالحزم والحكمة ، وأيضا استهانة بعض الخلفاء الأمويين ببعض الأمور وعروهم بما لم من سلطان، فكانوا لا يبالون شعور الناس في تعيين الولاة عليهم، مما كان له أبعد أثر في صرف النفوس عنهم واستجابتها لكل داعج الى الخروج عليهم . وحسبك

أن ترى هشام بن عبد الملك، مع حزمه ومُعدِّ نظره، يُعين نصر بن سيار والياً على خراسان، وهو يعلم أن عصبية بها ضعيفة، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد بن عبد الله القسرى، كان مستشاره يُسمي له أشخاصاً بما لهم من محامد ومدام، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال : إن اغترت له واحدة فإنه غفيفٌ مجزَّبٌ عاقلٌ ؛ قال هشام : وما هى ؟ فقال المشير : عشيرته بها ضعيفة ، فقال هشام : «أو تريدُ عشيرةً أقوى منى ! أنا عشيرته !» .

على أن كلمة هشام قد تُخفف من آثارها السيئة متانة حكومته، ونفاذ صولته ؛ وقوة شوكته ، ولكن الخلفاء جميعاً ليسوا كهشام حرماً واقتداراً ، وليست أيامهم كأيام هشام نجماً وانتصاراً .

ومهما يكن من شيء فإن تولية نصر بن سيار على خراسان ، كانت فى الواقع شؤماً على بنى أمية .

وقد لفت العصبية بين مُصرَ واليمن فى خراسان طوراً عنيماً ، جعل التراوح بين الفريقين موضع اضطهادٍ ومُحريةٍ وازدراء .

ولقد قالت أم كثير الصبية لما هدم اليمينيون دورَ المصرية أثناء الحروب التى كانت بين نصر والكرمانى بسبب العصبية :

لا نارك الله فى أننى وعدّها * تزوجت مُضرباً آخرَ الدهرِ
ألع رجالَ تميم قولَ مُوجعة * أحلّتموها بدار الدلّ والمقيرِ
إب أنتم لم تكروا سد جوتكم * حتى تُعيدوا رجالَ الأزْدِ والظهيرِ
إنى استحييتُ لكم من بذل طاعتكم * هذا المزونى يَحييكم على قهْرِ

وقال شاعر آخر :

ألا يا نصرُ قد رَحَّ الخفاءُ * وقد طال التقي والرحاءُ
وأصحت المزونُ بأرض مَرَوِ * تُقصي فى الحكومة ما تشاءُ
يُوز قضاؤها فى كلِّ حُكم * على مُصرٍ وإن جار القضاءُ

وخيّر في مجالسها قعود - ترقّق في رقابهم الدماء
فإن مصرّذا رصيت وذلت - فطال لها المذلة والشقاء
وإن هي أعتبت فيها وإلا - حبل على عساكرها العفاء

ولقد استغلّ الدعاة الماسيون العصبية ، التي فتت في عضد الأمويين ومرتقتهم أشتاتا وطرائق قديداً ، حير استعمال ، وهو ما كان له أبلغ أثر في القضاء على سلطان بني أمية . ذلك أن نصر بن سيار ، وهو عامل خراسان ، قد تحامل على اليمن وربيعة وقدم المضربة فوثب به حديع بن علي الكرماني الأزدي ، وكان رئيس الأزد يومئذ ورحلهم ، وقال له : ندعك وفعلك ومالت معه إليمايه وربيعة فأحذه نصر وحبسه ، فأتت اليمن وربيعة حتى أخرجوه من تحرى كيف ا ثم اجتمعوا . ورأى نصر أن يحده فيصير إليه ، فلم يفعل . وكان في نصر بعض الخرق . فلما علم حديع أن اليمن وربيعة قد اجتمع رأيهما معه على نصر وثب خار به ، وكان له العلو على نصر ، قال أبو مسلم إلى الكرماني فقال : ادع إلى آل محمد ، وحمل يمايل أصحابه ويدعوهم إلى ذلك ، حتى أظهروا دعوة بني هاشم بخراسان .

هذا ما كان من أمر العصبية بين العرب واستغلالها في إظهار الدعوة لدى العباس .

على أنه يحذر بك ، ألا يعرب عن ذهك ، أن العصبية وإن كانت قد حذمت العباسيين أحلّ الخدم فكانت مفعول هذيم وعامل فاء في صرح الأموية ، كان صرامها وأجيجها وحروبها وفتنها لم تُحمد سراعاً ، ولم ترجع أمور العباد إلى نصابها من الموادعة وحسن المصانعة بتيسير حال ، بل أخذت دورها المحتوم ، وكانت حسكاً وقنادا ، القبة بعد القبة ، في بعض الولايات والأمصار ، لنى العباس أنفسهم ، كما ستقف عليه فيما سنسرده عليك ، من خلاصة أخبارهم ، وبجمل تاريخهم .

(ج) الموالى :

لما أنصفت الخلافةُ الى الأمويين ، كان عددُ الموالى آخذًا فى الازدياد ، بسبب ما حلته الفتوحُ الإسلاميةُ من الأسرى ، وما كان يُهديه الولاة الى الخلفاء من الرقيق ، فإن الولاة كثيرا ما كانوا يبعثون الى الخليفة بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض أو الأسود هدية أو بدلًا من الخراج أو نحوه .

ومن كان يجرُّ من هؤلاء عتق أو مكاتبية أو تدبير يصير مولى ، وينسبُ الى أسرة مُعتقه أو قبيلته ، مع ملاحظة عدم أهليته للبناء على قرشية أو عربية .

كثُر عددُ الموالى حدًا ، فانصرف فريقٌ منهم الى الصناعة ، وآخر الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة ، واصرف فريقٌ آخر الى العلوم والفنون والآداب ، فكان منهم جلةُ الفقهاء ورواةُ الحديث ، كما كان منهم الشعراءُ والكُتَّابُ والمغنون ، وتولت طائفةٌ منهم الماصبَ السامية فى الدولة كالفضاء والحجابة وما الى ذلك .

على أنه مع ما كان لكثير من الموالى من قَدَمٍ راسخة ، ومنزلةٍ رفيعة ، فى العلم والأدب والصون ؛ كان العرب ينظرون اليهم دائما نظرة احتقارٍ وازدراء .

وكان هذا الاحتقارُ والازدراءُ . يظهرُ فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولما كان الموالى أهلَ عِلْمٍ وأدبٍ ، ويتمى كثيرٌ منهم الى دُوبٍ كان لها من السلطان ومظاهرِ الحضارة حظٌ عظيمٌ ، بل كان للفرس وحلّ الموالى منهم سيادةً ظاهرةً على العرب قبل الإسلام — لما كان كلُّ هذا عَظَمَ على الموالى أن يحتملوا كلَّ هذا الضيم من العرب فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهم . ومن ها نشأت الشعوبية . والشعوبيةُ مذهبٌ من يرى تمضيّلَ العجم على العرب أو التسوية بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارون فى إكبار كلِّ لفريقه والخطِّ من الفريق الآخر .

وكان نصيبُ الموالى فى حالة تمدّحهم لقومهم من الخلفاء الأمويين مدعاةً الى زيادة مقّتهم لهم وزيادة السخيمة فى قلوبهم عليهم . وإنا نثبتُ لك هنا مثلا استشهد به الأستاذ

«برون» في كتابه عن أدب الفرس نقلًا عن الأغاني قال : «إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في خلّاقته ، وهو بالرّصافة جالسٌ على بركةٍ له في قصره ، فاستنشد وهو يرى أنه يُنشدُ مديحًا له ، فأنشده قصيدته التي يتحرف فيها بالعجم :

ياربعَ رامةٍ بالعِلاءِ من ريم * هل ترجعن إذا حيثُ تسلمي
ما مال حتى غدت بزُلّ المطى بهم * تحدى لغربتهم سيرا بتقجيم
كأننى يوم ساروا شاربٌ سلبت * فؤاده قهوةٌ من حمرداروم
حتى انتهى الى قوله :

لأنى وحدك ما عودى بدى خور * عد الحفاظ ولا - بوصى بمهدوم
أصلي كريمٌ ومعدى لا يقاس به * ولى لسانٌ كحدّ السيف مسموم
أحمى به محد أقوام دوى حسب * من كل قرم بتاج الملك معموم
بحاجج سادة نلج مرآزة * جرد عتاق مسامح مطاعيم
من مثل كسرى وساور الجود معا * والهمرمراب لفحير أو لتعظيم
أسد الكائب يوم الرّوع إن زحفوا * وهم أدلّوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلقى المادى سابعة * مشى الصراخمة الأسد اللهايم
هناك إن تسألى تُبَيّ بأن لنا * جرمومة فهرت عرّ الجرائم

قال : فعصب هشام وقال له : يا عاصّ نظّر أمه ، أعلى - تفجر ، وإياى تشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ! عَطَوْهُ في الماء ، فَنَقَطُوهُ في البركة ، حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإحراجه وهو يشتر ، وعاء من وقته ، فأنّرح من الرّصافة منفيًا الى الحجاز . قال : وكان مبتلىً بالعصبية للعجم والفحريهم ، فكان لا يزال محرومًا مطرودًا .

ولما كان شأن الخلفاء الأمويين شأن سائر العرب في التعصب على الموالى حتى كانوا يستعملونهم في الحروب مشاةً ولا يعطونهم شيئًا من العائم والى ، نفرت نفوسهم منهم

وأصبح سلطانهم نقيضاً اليهم، وصاروا عوناً لكل من خلع الطاعة، أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدركون هذا الشعور فى الموالى، فاستغلّوه خيراً استفلالٍ، إذ آتحدوا حِلّة المبتشرين بدعوتهم منهم، واعتمدوا كلّ الاعتماد عليهم . ورأى الموالى فى الدعوة الجديدة شفاءً لما فى صدورهم من حقدٍ على بنى أمية خاصة وعلى العرب عامة، فأخلصوا للدعوة الجديدة، وبدلوا فى تحقيقها كلّ ما يملكون من نفوس وأموال .

على أن لهذا الموضوع نواحى متشعبة، يحول دون التحدث فيها ما رسمناه لأهمها من الترام القصد والإيجاز.

الفصل الثالث

الدعوة العباسية

توطئة — تأليف الجماعات السرية — الدعوة العباسية وأمو مسلم الحراسان .

(١) توطئة :

كانت الدعوة العلوية تسير حسا الى حب مع الدعوة العباسية ، فقد كان العريقان مُصْطَهَدَيْنِ مغلوبين على أمرهما ، وكان من المعقول والطبيعي أن ظلم بني أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمع ما تفرق من أهوائهم ويُقَلِّ حِدَةً ما يليهم من عوامل التافس والخلاف . وقد كان بو هاشم أعداء للأمويين قبل الإسلام بسبب التراحم على السيادة في قريش . ولشد ما كان طلبُ السيادة والرعاية مدعاةً الى العداوة والشجاء وسبباً الى التناحر والتقاتل بين بني الإنسان !

حدّ العباسيون في دعوتهم السياسية وهم في الحِجْمَةِ من أعمال اللقاء بالشام ، وزادوا حِجْمَةً وحماسةً تنزل أبا هاشم بن محمد بن الحنفية العلوي رعيم الحزب الكيساني لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس حين دس اليه سليمان بن عبد الملك من سمّه ، إذ رأى فيه من المهابة والوقار ما يؤهله للخلافة ويقربه من قلوب الجماهير . وقد كان في تنزل أبي هاشم هذا لصاحب الدعوة العباسية توحيداً لحزبين قويين : هما الحزب العباسي^(١) والشّيعَةُ الكيسانية ، وهذا التوحيد أو التقريب بين الحزبين كانت ثمرته لحزب العباسيين .

(ب) تأليف الجماعات السرية :

عمل العباسيون في تأليف الجماعات السرية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثني عشر نقيباً وهم : سليمان بن كثير الخزاعي ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمر بن أعين ،
(١) هذا رأياً ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار : « أنه لم يكن لبني العباس حرب قبل أبي هاشم » .

وعيسى بن أعين، وقطبة بن شبيب الطائى، ولاهز س قريط التميمى، وموسى بن كعب، والقاسم بن مجاشع، وأبو داود خالد س ابراهيم الشيبانى، وأبو على الهروى شبل ابن طهمان الحنفى، وعمران بن اسماعيل المعيطى .

واختار محمد بن على سبعين رجلا يأترون أمر هؤلاء الدعاة . وكتب اليهم كتابا يُوصيهم فيه بما يرجو أن يُوفقوا الى العمل به وهم يوجهون الدعوة ويحاورون الأحزاب .

وهذا الكتاب يدل على ما كان عليه هذا الزعيم العباسى من علم بأحوال الناس فى عصره، ونصير لأحلاق الشعوب التى كانت حاصعة للسلطان الاسلامى، وما كانت تحيى به النفوس فى كل صُقع وحاضرة . وبمثل هذا الرعيم الداهية ومن احتشام للدعوة العباسية، قد كُتِبَ العوز لهذه الدعوة آخر الأمر . ومما قاله هذا الزعيم فى كتابه :

« أما الكوفة وسوادها شيعية على ولده . وأما البصرة وسوادها عثمانية تدين بالكف تقول : كى عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الحريرة حرورية مارقة وأعراة كأعلاج ومسامون فى أحلاق البصارى . وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بى مروان، وعداوة راسخة وجهلا متراكما . وأما مكة والمدينة فقد علب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الطاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل، وهم جدد لهم أبدان وأجسام ومماكب وكواهل وهامات ويلي وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات نفخة تخرج من أجواف مكورة ... وعد، فإنى أتعامل الى المشرق، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .



(ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني :

كان الدعاة العباسيون يتقلدون في مختلف الأمصار ، وكانوا في ظاهر الأمر طلائع رزق يزاولون التجارة ، وكانوا في الواقع رجال سياسة ودهاء يثبثون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويدعون الناس الى مناصرتهم بشتى الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن توفى محمد بن علي ، وعهد بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام . فكتب هذا مشايخ خراسان ودهاقينها ، وبعث اليهم الدعاة ، وأرسل أبا مسلم الخراساني لبث الدعوة هناك ، فكان يدعو الى آل محمد ، يريد أهل البيت ، من غير أن يعين العباسيين ولا العلويين .

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة ، شديد الإخلاص للعباسيين ، مسرفاً في خدمتهم ، كثير الدهاء ، واسع الحيلة ، خبيراً بما يقتضى عمله من الحزم والقسوة ، فلا تعرف الرحمة قلبه ، ولا يتناول الأمور إلا بالحزم والبأس الشديد .

ونستطيع أن نتبين مرمى السياسة العباسية من الكتاب الذي بعث به ابراهيم الإمام الى أبي مسلم الخراساني ، فيما يرى أن عمله لتأيد الدولة الجديدة . قال : « إنك رجل مما أهل بيت ، احفظ وصيتي : انظر هذا الحى في اليمن فالزمهم وآسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يثم هذا الأمر إلا بهم . وأنتهم ربيعة في أمرهم . وأما مصر فأنهم العدو القريب الدار . وأقل من شككت فيه . وإن استطعت ألا تدع بحرسان من يتكلم بالعربية فافعل . وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فأقله » .

وقد حرص أبو مسلم على تفيذه هذه الوصية ، فكان يسرع الى قتل كل من يثمه ، ويقضى على كل من يرتاب في أمره ، حتى بلغت صحاها هذه الخطبة فيما يقول المؤرخون العرب ، ستمائة ألف نفس قُتلت صبرا .

ومهما اقتربت المبالغة والغلو في إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أَيْمًا إسراف في القتل وسفك الدماء تنفيذًا لوصية الإمام .

حلّ أبو مسلم خراسان سنة ١٢٨ هـ فساسها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام بقية من قري مرو يقال لها "سفدينج"، وقد كثُر أنصاره وأنشأ الناس عليه من كل صوب، فأعلن فيهم لبس السواد واتخذ شعارا للعاسيين ، ثم غيّر شكل صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بعير أدان ولا إقامة، وكانت سوامية تبدأ بالإقامة كصلاة يوم الجمعة، وأمر أن يكبر ست تكبيرات تباعا، وكاتب نصر س سيار الوالى الأموى . ولما صاقت "سفدينج" عليه ولم تسع لأنصاره، رحل إلى الماخوان، وكانت عدّه رحاله، فيما يقول المؤرخون، سبعة آلاف رجل . ثم آحتال في التفرقة بين نصر ورحاله ، حتى أحد بآء خصمه يهأر، ويتخلى عنه أنصاره واحدا بعد واحد . وفي هذا يقول نصر شعرا بعث به إلى مروان الحمار الخليفة الأموى :

أرى بين الرماد وميص نار * ويوشك أن يكون لها صرام
فإن لم تُطفأ عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين تُذكى * وإن الحرب أولها كلام
فقلت من التعجبلت شعري * أأيقاظ أمية أم نيام

فلما ورد هذا الشعر على مروان لم يُحبّ عليه بما يحب أن يُحبّ به الملك الحازم الحريص على ملكه المبقى على عرشه : من مبادرته بإرسال الكآتب والجيش لكبح التأثيرين على الملك أو إعداده المعدات لإرسالها، وإما كتب إلى نصر كتابا يمثل الصعف والاستسلام ، ويُبني بمجنوحه إلى سياسة القول والكلام ، في موضع يتطلب تقليد الرمح والحسام، يقول فيه :

(١) الماخوان بصم الحاء المعجمة وآخره نون قرية كثرة دات مارة وحامع من قري مرو ومباحرج أبو مسلم صاحب الدعوة إلى الصحراء .

« إن الحاصر يرى ما لا يرى الغائب، فاحسب أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك »
 فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده . »



يجب ألا يعوتنا أن نسيرها الى ناحية مهمة في حلق أبي مسلم تمثل ما يجب على
 القواد من الحرم والكتان ، فقد جاء في « كتاب المحاسن والمساوي » للبيهقي ما نصه :
 « قيل لأبي مسلم صاحب الدولة . نأى شيء أدركت هذا الأمر ؟ فقال : أردت
 بالكتان ، وأترت بالحرم ، وحالفت الصدر ، وساعدت المقادير ، فأدركت طي وحررت حد
 نعتي . وأنشد :

أدركت بالحرم والكتان ما عجزت * عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
 ما زلت أنسى عليهم في ديارهم * والقوم في عقله بالشام قد رقدوا
 حتى صر بهم بالسيف فانتبها * من لومة لم يمتها قبلهم أحد
 ومن رعى عما في أرض مسبعة * وبام عنها تولى رعيها الأسد اه

على أن مروان استيقظ أخيراً من غفوته ، وانه من عقلته ، وأمر بأخذ إبراهيم بن
 محمد . فلما قص عليه في الحيمة باللقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبي العباس ، وأمر أهله
 وأنصاره بالمسير الى الكوفة ، وحصمهم على السمع والطاعة لأبي العباس .

وقد حُسِسَ إبراهيم في بعض « حران » مع جماعة من حصوم مروان من بني أمية ، وظل
 في سجنه حتى مات . وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته ، فمنهم من قال : إنه سُقِيَ سُمًّا ،
 ومنهم من قال : هُذِمَ عليه بيتٌ مات .

على أن المؤرخين وإن اختلفت أقوالهم في كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات
 عيلةً وانتقاماً . وقد رثاه بعض الشعراء فقال :

قد كنت أحسبني جلدًا فضعفني * قبرٌ بمزاتٍ فيه عصمة الدين
 فيه الإمام وحيه الناس كلهم * بين الصفائح والأحجار والطين

فيه الإمام الذي عمّت مصيئته * وعيّت كلّ دى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة * لكن عفا الله عن قال آمين

ثم انتقل الأنصار إلى الكوفة، وقد ساعدتهم أبوسلمة الحلال المعروف "وزير آل محمد"،
ولكنه عدل عنهم أخيراً . وقيل : إنه كاتب ثلاثة من أعيان بني عليّ : يعرض الخلافة
على أحدهم وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبدالله المحض بن حسن، وعمر الأشرف
ابن زين العابدين ، وكانت حاتمة حياته القتل .

ونريد بعد الذي قدمناه أن نلمّ بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمون، لنرى كيف
كانت الحياة السياسية في عهدهم الذي كان بلا شك بؤاً صالحة لعصر المأمون . وإنا
لنرجو، إذا وفقنا إلى بيان الماضي التي امتاز بها هؤلاء ، أن يكشف الغطاء عن حقيقة
أمرهم ومكانتهم التاريخية ، كما نرجو أن يطهر من وراء تفهم أقدارهم وحقيقة عصورهم
بتفهم الأصول التي كوّن العصر الذي من أحله وُصّع هذا الكتاب .

الفصل الرابع

أبو العباس السفاح

كان أبو العباس السفاح أوّل من تولى الخلافة العباسية ونقل الملك من بني أمية الى بني العباس . وقد أجمع المؤرّخون على أنه كان وافر الكرم ، ظاهر المروءة ، حليّل الوقار ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق ، وصوّلاً لذوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السمحة الرصية ، يجمع قلباً ذكياً وأنفاً حمياً ، فى تعقب الأمويين وتبديد شملهم ، فى كل بقعة يحشى أن تُسمّع لم فيها كلمة ، أو يطاع لم رأى ، أو يؤثّر عنهم صنيعٌ . وكانت هذه الدولة الناشئة تحتاج الى مثل هذه القسوة من مثل أبي العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائماً فى مثل هذه الظروف ، أن جلّ الملوك الذين بُعثوا لإنشاء دولٍ جديدة ، وممالكٍ جديدة ، وأسراتٍ ملكيةٍ جديدةٍ ، مثل أبي العباس السفاح وغيره ، هم مُكرّهون لا محالة على استعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشدة ، دون إغفالهم المودعة والملاينة فيما لا يهدّد عروش ملكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان فى بعض أيامه حالسا فى مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سديف الشاعر وأنشده :

لا يقرّبك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داءً دويّاً
فضع السيف وأرفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويّاً

فقال له سليمان : قتلتنى يا شيخ ! ودخل السفاح وأحْدَ سليمان فقتل .

وهذا الذى صمعه السفاح أصبح سنةً عباسيةً فى تأييد الملك . وكان قليلٌ من الإغراء كافيّاً فى محق من تقع عليه العين من خصوم الخلافة ، فقد دخل شبيل بن عبد الله مولى

بنى هاشم على عبد الله بن عليّ، وعده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام، فأكل عليه فقال :

أصبح الملك ناث الآساس * نالها ليل من بى العباس
طلبوا وتر هاشم فشقوها * بعد ميل من الزمان وياس
لا تُقِلَّ عَدَ شمس عِثَارًا * واقطعن كل رقلة وعراس
خوفهم أظهر التودد منهم * وبهم منكم كحز المواسي
ولقد ساءنى وساء قبلى * قربهم من مكارى وكرايس
أزِلوها بحيث أنزلها الله * مدار الهوان والإعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد * وقتيلًا بحاس المهراس
والقتيل الذى تحزان أمسى * رهن رميس فى عرية وتامسى

فأمر بهم عبد الله فصرىوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط الطوع عليهم، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أين يعصم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشية عند حد التكبيل بالأحياء، بل تعدت إلى الأموات، فقد ذكر أن عبد الله بن عليّ أمر سبش قبور بى أمية بدمشق، فبش قبر معاوية بن أبى سفيان فوجدت فيه عظام كأنها الرماد . وبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدت فيه جمجمته . وكان لا يوجد فى القبر إلا العصب بعد العصى، غير هشام بن عبد الملك فقد وجد صحيفا لم يبل منه إلا أرنبة أنفه، فصر به بالسياط وصلبه وأحرقه وذراه والريح . ثم تعقب أولاد الخلفاء من بى أمية فلم يهلت منهم إلا من كان فى المهدي صبيا . وأدرك بعض الهاربيين إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبى فطرس^(١)، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والعمر

(١) نهر أبى فطرس هم الفاء وسكون الطاء وصم الزاء وسين مهملة . موضع قرب الرملة من أرض فلسطين .

كانت وقعة عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس مع بى أمية فقتلهم فى سنة ١٣٢ هـ .

ابن يزيد بن عبد الملك ، وعد الواحد بن سليمان ، وسعيد بن عبد الملك ؛ واستصنى بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَسَبٍ ومال ، فلما فرغ منهم تعقَى بيده الأبيات :

بني أمية قد أفيت جمعكو * فكيف لي منكوب بالأقول الماضي
يُطَيَّبُ العَسَّ أن السار جمعكم * عُوْصُوْهُ من لظاها شرُّ مُعْتَاضِ
مُيْتِمُوْ - لا أقال الله عثرتكم - * بليت عاب الى الأعداء نهاض
إن كان عيظي لعوت مسكو فقدد * مُيْتُ مسكم بما ربي به راضى

قلنا : إن السفاح كان الى حاب هذه القسوة ترا بدوى رحمه ، وَصُولاً لهم . ولد ذكر مثالا لذلك : تصرفه مع آل الحسن بن عليّ الذين بايع بعضُ العباسيين رجلاً منهم هو محمد ابن عبد الله كما بنا من قبل ، فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصرى عن عثمان بن سعيد اس سعد المدنى : أنه لما وَلِيَ الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن علي بن أبى طالب فأعطاهم الأموال وقطع لهم القِطائع ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم على ، قال : « يا أمير المؤمنين بألف ألف درهم ، وإنى لم أرها قط » ، فاستقرصها أبو العباس من ابن مقرئ الصيرفى وأمر له بها . قال عبد العزيز : لم يكن يومئذ بيت مال . ثم إن أبا العباس أتى بخوهر مروارى فجعل يقلبه وعبد الله بن الحسن عدده فبكى عبد الله ؛ فقال له : ما يُبْكِيكَ يا أبا محمد ؟ قال : هذا عد بئات مروارى وما رأيت بئات عملك مثله قط ! قال : عساه به ، ثم أمر ابن مقرئ الصيرفى أن يصل اليه ويتأعنه منه فاشتراه منه ثمانين ألف دينار .

على أب هذا الرفق واللين ، وهذه السياسة والحكمة ، لم تُسَّسْ أبا العباس السفاح ما يحب عليه من مراقبه الطالبيين ، والتسمع لما قد يَجِيشُ في خواطرهم ، من الخروج عليه أو الكيد له ، وإن صلة الرحم من مثل السفاح لا تكون ظاهرة حُلُقِيَّةً بقدر ما تكون حيلةً سياسيةً ، وكذلك رأياه يقول لبعض نقاته وقد خرج من عدده بنو الحسن :

« قُمْ بِأَزْلالهم ولا تألُ في لُطافهم ، وأظهر الميل اليهم والتحمل عليا وعلى ناحيتنا ، وأنهم

أحقُّ بالأمر منا كما خلوت بهم، وأحصى لي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومقدمهم» .

ومما ذكرناه يرى القارئُ معاً أن السفاح قد جمع حقاً بين القسوة واللين، وأنه لم يكن في عُنفه بأخطر منه في رفقته، وإنما كان يلين ليستلَّ بخيمة مدفونة أو ليستدرج بعض الحاقدين؛ ويقسوليرى أعداءه أن لا أمل لهم في الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شيء، فإن خلافة أبي العباس كانت أقصر من أن تسمح لحصانه وأحلافه بالظهور والتأثير القوي في سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عُمِّر السفاح لكان من الممكن أن يرسم لخلفائه خطة تُجَبِّهم بعض ما توزعوا فيه من الاضطراب .

الفصل النجمي

أبو جعفر المنصور

كان المنصور ملكاً، سديدَ الرأي، مُحْكَمَ التدبير، وكان قوياً العزيمة، جرىء القلب، يَمُصِي إلى عاينته مِصْيً السهم إلى الرميَّة لا يَتْبِيه عنها شيءٌ . سياسيٌّ حاذقٌ لا يقبل أن تُتَدخَّل في سياسته عاطفةٌ ولا حُلُقٌ ولا اعتبار آخر إلا فوزُه السياسي ليس غير . وهو إلى ذلك داهية، وربما اضطره الدهاء إلى شيء إن لم يكن الإثمَ لِلخُلُقِ فهو شبيهه في كثير من الأحياء .

وهو من هذه الناحية أحد أولئك الساسة الذين عَرَفَهُم التاريخُ من حين إلى حين بالإقدام في غير تَرَدُّدٍ ولا لينٍ ولا تَهَيُّبٍ للوسائل، والذين مثَّلَهُم «ميكافلي» أحسن تمثيل . فقد ذكر ابن الأثير أنه أحصر مرةً ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد بن عبد الله ، فقال : شاورَ عموماً يا أمير المؤمنين ، قال المنصور : فأين قول ابن هرمة :

نزور أمراً لا يحصى القوم سِرَّهُ * ولا يتجى الأذنين فيما يحاول
إذا ما أتى شيئاً مصى كالذي أتى * وإن قال إني فاعلٌ فهو فاعلٌ

ثم قال : امص أيها الرجل ! فوالله ما يراد عيرى وغيرك، وما هو إلا أن تشحص أنت أو أشخص أنا ، فسار وسيّر معه الجلود . وقال المنصور لما سار عيسى : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه ١ » .

وكان إلى جانب ذلك ، كما قال الجاحظ ، : مُقَدِّماً في علم الكلام ومُكثِّراً من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور في أيدي العارفين والوزاقين معروف عندهم .

وفى وصف المنصور يقول يزيد بن هبيرة : « ما رأيت رجلا قط فى حرب ولا سمعت به فى سِلْمٍ أمْكرو ولا أدعَ ولا أشدَّ تيقُّظا من المنصور، لقد حصرنى فى مدينتى تسعة أشهر ومعى فُرسائُ العرب، بجهدا كُلِّ الجُهدِ أن تنال من عسكره شيئا يكسِرُهُ به فما تنهيا ، ولقد حصرنى وما فى رأسى بيضاء، نخرجت اليه وما فى رأسى سوداء » .

وكان المنصور يعطى فى موضع العطاء ويمع فى موضع المع ، ولكن المع كان أعلت عليه ، حتى صرب المثل بشحه وسمى « أبا الدوانيق » ، لشدته فى محاسنة العمال والصباغ على الحبة والداق .

وقد يكون من المستطوف أن نذكر شيئا مما رواه الطبرى فى تمثيل هذه الناحية من أحلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واحما مولاة قال : « إني لواقف يوما على رأس أبى حمصر إذ دخل المهديّ وعليه قباء أسودٌ جديد، فسلم وحلس، ثم قام مصرا وأتبعه أبو جعفر بصرة، لحه له وإعجابه به، فلما توسّط الرواق عثر بسبعه فتحرّق سواده، فقام ومضى لوحه عير مكترثٍ لذلك ولا حافل به ، فقال أبو جعفر : ردّوا أبا عبد الله فرددناه ، فقال . يا أبا عبد الله، أستقللا للواهب ! أم نظرا للعمّة ! أم قلة علم بالمصيبة ! كألك جاهل بما لك وما عليك ! » .

فانظر اليه كيف لام ابنه وولىّ عهده، وقد كان عده أنيرا، ولامه بمحضير من حاشيته فى شيء ليس ذا نال عد أوساط الناس فضلا عن الخلفاء ! .

ومهما يُعْتذرُ للمنصور بحرصه على الاقتصاد فى أموال دولة ناشئه ، وأحد ولىّ العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هذه الحادثة وأمثالها مما سنزويه لك ، تُظهِرُ ناحيةً صغيرةً من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائلُ الأعمال فى الدولة يستطيع أن يُظهِرَ فيها ميله الى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسِفَّ الى هذه الصغائر .



على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقاربة بيه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقا من هذه الناحية ؛ فقد كان معاوية، كما رأيت،

أكرم الناس، وأشدّهم تسخيروا للأموال العامة والخاصة، في الأغراض السياسية. وكان المنصور أثنى الناس بالأموال العامة والخاصة، يؤثّر التصحية بالدماء والكفايات في سبيل أغراضه السياسيّة على التصحية بالأموال.

ولعلّ من الإنصاف أن نلاحظ الفرق بين العصرين، وبين الدعائم التي اعتمد عليها الرحلان في إقامة ملكهما. فقد كان معاوية في بيئة عربية، لم تحلّص بعد من البداوة ولا من سماحة الدين، فكان الحلم والكرم أليق به وأفع، بينما كان المنصور في بيئة من العرس والموالى، تأثّر بها بالحصاره شديد، وحظها من الدين قليل.

ولو بسط معاوية سلطانه بالسيف لهنّ، ولكما نرى أن لو بسط المنصور سلطانه بالمسال في شيء من الحرم لوقق ولحقس الدماء ولرسم لخلفائه حطة أقرب إلى اللين والعاوية من هذه الحطة العبيّة التي سترها في سيرة أكثرهم.

وحدث الوضيّ بن عطاء قال: «استراني أبو جعفر، وكانت بيني وبينه خالّة قبل الخلافة، فصرت إلى مديته السلام، فخلوا يوما فقال لي: يا أماه عدا الله، ما مالك؟ فقلت: الخير الذي يعرفه أمير المؤمنين، قال: وما عيالك؟ قلت: ثلاث بات والمرأة وحادم لمن؟ فقال لي: أربع في بيتك؟ قلت: نعم. قال: فوالله لردّد ذلك على حتى ظننت أنه سيؤنّني. قال: ثم رفع رأسه إلى فقال: أنت أيسر العرب، أربع معازل يدرن في بيتك!»

على أن شخ المنصور لم يكن يحلو أحيانا من بعض الظرف والفكاهة؛ فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلا على رجل يقال له أزهريّ السمان قبل خلافته، فلما ولي الخلافة زاره الرجل وطلب صلته، فوصله ثم عاوده فوصله، وجاء في الثالثة فقال له المنصور: يا أزهريّ ما جاء بك؟ قال: دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عسك؛ قال: لا تردّه فإنه غير مستجاب، لأنّي قد دعوت الله أن يرّبحني من خلقتك فلم يفعل! وصرفه ولم يعطه شيئا.

وربما كان من العدل التاريخي أن نحتاط أمام هذه الروايات الكثيرة التي أسرف المؤرخون في روايتها إثباتاً لحل المنصور وشعته ، فقد يكون مصدرها ما ألقوه من إسراف الخلفاء ، ولعل المنصور لم يبلغ أكثر من أنه كان شديد الميل الى الحرص والتدبير ، والبُصرة . من الملحفين ، وأحد أهل بيته بذلك كله .

ولم يفت المنصور أن يعلل ذلك الحل ، فقد جاء في عيون الأحرار أنه قال في مجلسه لقواده . « صدق الأعرابي حيث يقول : أَحِمْ كَلْبَكَ يَتَعَكَّ » فقام أبو العباس الطوسي وقال : « ما أمير المؤمنين ، أحشى أن يلوح له عيرك رعي فتنعه ويدعك ا » . وقد كان أبرويز أحكم من المنصور ، إذ قال لابنه شيرويه وهو في حبسه « لا تُوسَّعَ على حدك فيستمعوا عك ولا تُصَيِّقَ عليهم فيصيحوا بك ، أعطهم عطاء قصدا ، وأدمعهم معاً حيلة ، ووسَّع عليهم في الرجاء ، ولا تُسِرِف عليهم في العطاء » .



وليس أدل على الشخصية السياسية لهذا الخليفة من سيرته مع ثلاثة ، هم في حقيقة الأمر أكبر زعماء الدولة في عصره . فهذه السيرة تُبين لك ، في وصوح وحلا ، ما قدمناه من أن المنصور كان « ميكافلي » السياسة ، لا يُجِجُ عن العذر وقطع الرحيم وكفر النعمة ، إذا رأى منفعة في ذلك .

وهؤلاء الرعاء هم أولاً : أبو مسلم الذي أحلص في نُصره المنصور والسَّهر على ملكه ، فلم يَأُلْ جهداً في تعقب الخارجين على الملك ، لا يَفرُّ في ذلك بين أشياخ المنصور وأهله من بني العباس ، ولا خصومه الذين يكيدون له في السر أو في العلانية ، فقتل الشيباني والكرماني وأبا سلمة الخلال ، وحارب عم المنصور عبد الله بن علي واستولى على ما في عسكره من العاثم والأسلحة . وثانياً : عمه عبد الله بن علي ، وهو الذي فعل ما فعل في نُصرة الدعوة العباسية وتقتيل خصومها من بني أمية ، فصلا عن حروبه الموقفة في صَدِّ جيوش مروان ، ومع ذلك فقد سلط عليه المنصور أبا مسلم فخاربه وقهره ، ولم يَصِلْ الى قتله ، كلف ابن عمه عيسى

ابن موسى إلى الكوفة أن يقتله، فلما لم يقتله تولى المنصور قتله بنفسه، ليأمن ما قد يُحدثه من الثورة والاضطراب . وثالثا : ابن عمه وولى عهده عيسى بن موسى ، وقد رأيت كيف أشخصه المنصور لقتال محمد بن عبد الله مُلحاً في ذلك ، حتى إذا أُشخص قال المنصور : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه ! » ثم ما زال المنصور يَكِيدُ لهذا الأمير حتى حله من ولاية العهد ، وباع مكانه لاسه المهدي ، ثم مضى في الكيد له . وقد يكون من المفيد أن ننقل ما جاء في المستطرف عن حلح عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفته المنصور ، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن علي ، فإن فيما قاله تصويراً دقيقاً لسياسة المنصور ، وتمثيلاً لحرصه على الملك الذي كان لا يسالي في سبيل توطيده أن بكث بما عقد من عهد ، أو يقص ما أرم من ميثاق .

حاء في المستطرف : أن عيسى بن موسى لما عذره المنصور ونقل ولاية العهد منه إلى المهدي أبه أنشد :

أينسى بسو العباس دني عنهم * لسيى ونار الحرب زاد سعيها
فتحت لهم شرق البلاد وعمرها * فدلل مُعاديها وعز نصيرها
أقطع أرحاما على عزيرة * وأيدي مكيدات لها وأثيرها
فلما وصعت الأمر في مستقره * ولاحت له شمس تلالاً نورها
دفعت عن الأمر الذي أستحقه * وأوسق أوساقا من الغدر عيرها

وحاء في ابن الأثير : أن المنصور أحصر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وأمره بقتله وقال له : إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدي فاضرب عتقه ، وإياك أن تصعب فتقص على أمرى الذي دبرته . ثم مضى إلى مكة وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل في الأمر الذي أمره ، فكتب عيسى : « قد أنفذت ما أمرت به » ، فلم يشك في أنه قله . وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور ، دعا كاتبه يونس بن فروة وأخبره الخبر ، فقال : أراد أن يقتله ثم يقتلك ، لأنه أمر بقتله

سرّاً ثم يدعيه عليك علانية ، فلا تقتله ولا تدفعه اليه سرّاً أبداً وأكتم أمره ، ففعل ذلك عيسى . فلما قدم المصور وصبح على أعمامه من يحزّهم على الشّاعة في أخيهام عبد الله ففعلوا وشفّعوا ، فشفّعهم ، وقال لعيسى : إني كنتُ دفعتُ اليك عمي وعمك ليكوما في منزلك وقد كُنتي عمومك فيه ، وقد صفحتُ عه فاتنا به ، قال : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله فقتلته ، قال : ما أمرتك ، قال : بل أمرتني ، قال : ما أمرتك إلا بحبسه وقد كذبت . ثم قال المصور لعمومته : إن هذا قد أقرّ قتل أخيك ، قالوا : فادفعه إلينا يقيده به ، فسأله اليهم ونرحوا به الى الرحة واجتمع الناس وشهر الأمر وقام أحدهم ليقته ، فقال عيسى : أفاعل أنت ؟ قال : إني والله ! قال : ردوني الى أمير المؤمنين ، فردّوه اليه ، فقال له : إني أردت قتله أن تقتلني ، هذا عمك حتى سوى ، قال : أنتنا به فاتاه به ، قال : يدخل حتى أرى رأيي ، ثم اصرفوا فأمر فجعل في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات .

وهذه الرواية يؤيدها أكثر المؤرّخين من العرب . وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير ، وكان من أركان هذه الدولة ، ما يُصيّف حلقة ، الى سلسلة الاصطهادات التي ارتكبت تأييدا لهذا الملك ، فقد أحصره اليه وقال له : أتحبّ قول الإمام لي : « من اتهمته فاقه » قال : نعم ، قال : فإني قد اتهمتك ، تخاف سليمان وقال : أناشدك الله ! قال : لا تُشادني فأت مطوي على عش الإمام ، وأمر بصرب عقه .

وقد سمّ الناس هذه الحالة ، وثار بعض أمراء بني العباس أنفسهم احتجاجاً على ما أريق من الدماء ، فقد جاء في الأعاني في أخبار عبد الله بن عمر العقيلي الشاعر المخصر : أن محمد بن عبد الله لما سمع للعقيلي قصيدته التي مطلعها :

تقول أمانة لما رأت * تُسوّى عن المصجّج الأنفيس

والتي ختامها :

يا أنس لا أنس قتلاهم * ولا عاش بعدهم من بني

بكى واستعرب؛ فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علي : أتبكي على بى أمية، وأنت تريد بنى العباس ماتريد ! فقال . « والله ياعم لقد كما نَقَمًا على بنى أمية ما نَقَمْنَا ، ها ببو العباس إلا أقلّ خوفًا لله منهم ، وإنّ المحمّة على بنى العباس لأوجبُ منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاقٌ ومكارمُ ليست لأنى حمير » . وذكر الأصفهاني أيضًا : أن محمدا وآله وهوا للشاعر مالا يلدخته تلك . وهكذا تعيّرت هوسُ آل البيت من إسراف العباسيين في الفتك والقتل .^(١)



ومادا كان حظُّ أنى مسلم وكيف كان حراؤه على ذلك الإخلاص الدموي ؟
كان جراؤه أن قُتلَ بيد الخليفة هسه عملا بسنته المعروفة : « أقتل من آتتهمة » ، مع أنه كان لا يقطع أمرا دونه .

وقد ذكر الحافظ : أن المصور لما هم بقتل أبى مسلم ، سقط بين الاستدداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرق في ذلك ليلته ، فلما أصبح ، دعا باسحاق بن مسلم العقيلي ، فقال له : حدثني حديث الملك الذى أحرثني عنه بخزان ، قال : أحرثني أبى عن الحصين بن المدر : أن ملكا من ملوك فارس ، يقال له سابور الأكبر ، كان له وزير ناصح ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وشاب ذلك تفهم في الدين ، فوجهه سابور داعية إلى خراسان ، وكاوا قوماً عجا يُعظمون الدين جهالةً بالدين ، ويُجَلِّون بالدين استكانة لفقوه الدنيا وذُلا لجبابرتها ، بجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالب الدنيا ، واعتز بقتل ملوكهم لهم وتخوّلهم إياهم ، وكان يقال لكلّ ضعيف صولةٌ ، ولكل دليل دولةٌ . فلما تلاحت أعضاء الأمور التي لقع ، استحال حراماً عواناً ، شالت أسافلها بأعاليها ، فانتقل العز إلى أرضهم ، والساهة إلى أحملهم ، فأثيروا له حبا مع خفص من الدنيا افتتح بدعوه من الدين ، فلما استوسقت له البلاد ، بلغ سابور أمرهم وما أحال عليه من طاعتهم ، ولم يأمن زوال القلوب وغدرات الوزراء ، فاحتال في قطع رجائه عن قلوبهم ، وكان يقال :

وما قُطِعَ الرجاء بمثل يأس * تُبادهه القلوب على اعتار

(١) يحالما أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار في هذا الرأي قوله : (أحسب أن تعبر آل البيت على بنى العباس إنما كان سبه أهم هوسا عليهم ما أتيج لهم من ملك مع اعتقادهم أنهم أحق بذلك منهم) .

فصمّ على قتله عدد وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفرسانهم، فقتله ففتهم بحدث فلم يرعهم إلا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين العربية، وأبى الرحمة، وتحطّف الأعداء، وتفترق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستموا الدعوة بطاعة ساور، ويتعوضوه من الفرقة، فاذعوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حتف أنفه . فاطرق المصور ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذى الحلم قل اليوم ما تُقرّع العصا . وما علّم الإنسان إلا ليعبأ

وأمر إسحاق بالخروج، ودعا أبى مسلم فلما نظر اليه داحلا قال :

قد اكتشفتك ثلاث . حلب عليك محذور الجمام

حلافك وامتساؤك ترتبني . وقودك للجماهير العظام

ثم وثب اليه ووثب معه بعض حشمه بالسيوف، فلما رأهم وثب مدبره المصور نصرته ضربة طوحه بها، ثم قال :

إشرب بكأس كت نسق بها * أمر في الخلق من العلقم

رعمت أن الدين لا يقتضى * كدبت فاستوف أنا منحرم

ثم أمر بخر رأسه وبعث به الى أهل خراسان وهم بابه، فخالوا حوله ساعة ثم ردهم عن شغبهم انقطاعهم عن بلادهم وإحاطة الأعداء بهم . فدلوا وسلموا له . فكان إسحاق اذا رأى المصور قال :

وما صرخوا لك الأمثال إلا لتحذو إن حدثت على مثال

وكان المنصور اذا رآه قال :

وحلقها ساور للاس يُقتدى * بأمثالها في العضلات العظام

وما أجمل تلك الجملة التي قالها محمد بن عبد الله العلوي حين أقمه المصور على نفسه

فقد قال : إى أمان تعطينى : أمان أبى هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبى مسلم !

ولقد تنفس المصور حين قَتَلَ أبا مسلم ، حتى قال له بعض أقربائه ساعة قتله : عُدَّ هذا اليوم أوَّلَ يوم من خلافتك !



على أنه من الحق أن يقرَّر أن عدوان المصور وإسرافه في التشكيل بمحسومه له قيمته في الدلالة على عرفانه بحق الملك وحرصه على نجاة الدولة من أخطار البغي ، والخروج على الطام ، فهي سبيل هذه العاية أسرف في سبك الدماء وتقطيع الأرحام وقتل أمثال بني الحس والحسين ، والديباح الأصفر ، والنفس الزكية ، وقتل عمه وقائده ، وترك حرانة رؤوس فيما ترك ميراثا لابنه المهدي .

ولقد كان مع هذه القسوة ثاقب الرأي محكم التدبير ، وهو الذي يقول لأبيه المهدي : « يا أبا عبد الله ، ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكنه الذي يحتال للأمر الذي عَيشه حتى لا يقع فيه » .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان إذا جنى على أحد جناية أو أحد من أحد ما لا يجعله في بيت المال مفعدا وكتب عليه اسم صاحبه ، فلما أدركته الوفاة قال لاسمه المهدي : « يا بني إلى قد أمرت كل شيء أحدثته من لباس على وجه الحياة والمصادرة ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فإذا وليت أنت فأعذه على أربابه ، ليدعوك الناس ويحبوك » . وفي عهد المصور أنشئت "معدن" موئل العلم ودار السلام .

افضل الباس

المهدى

عياى واحدة تُرى مسرورة أميرها حذل وأخرى تدرف
تسكى وتصحك تارة ويسوءها ما أنكرت ويسرها ما تعرف
يسوءها موت الحليفه محرمًا ويسرها أن قام هذا يحلف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى شعرا أسرحه وآخر أنتف
هذا حباه الله فصل حلافة ولذلك حنات العيم تُزخرف

بهذه الأبيات الرقيقة كان أبو دلاله أول من تقدم بتعزية المهدى - وفاة والده المصور
وتهنته ارتقاء عرش الخلفه سة ثمان وحسين ومائة للهجرة .

وقد كان المهدى ، بما أجمع عليه الرواة ، شهماً قطعاً كريماً ، شديد البأس فى تعقب
الملاحدين والزنادقة ، لا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم .

وكان كثيراً ما يجلس لرد المظالم . وقد عُرف عنه أنه كان إذا جلس للظالم قال :
« أدخلوا على القضاة ، فلو لم يكن ردى للظالم إلا للحياء منهم لكفى » . وروى الطبرى
فى حوادث سنة تسع وستين ومائة أن مسورس مساور قال : « ظلمنى وكيل للمهدى
وغصبنى صبعة لى ، فأنستُ سلاماً صاحب المظالم فتطلعت منه ، وأعطيت رُقعة مكتوبة
فاوصل الرُقعة الى المهدى وعده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضى ، قال
فقال لى المهدى : أدنهُ فدنوتُ ، فقال : ما تقول ؟ قلت : ظلمتنى ، قال : فترضى بأحد
هذين ؟ قلت : نعم ، قال : فادنن منى ، فدنوتُ منه ، حتى الترتقت بالقراش ، قال : تكلم ،
قلت : أصلح الله القاضى ، إنه ظلمنى فى ضيعتى هذا ، فقال القاضى : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟
قال : ضيعتى وى يدى ، قال : قلت أصلح الله القاضى ، سله صارت الضيعة اليه قبل

الخليفة أو بعدها؛ قال : فسأله ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : صارت إلى بعد الخلافة؛ قال : فأطلقها له ، قال : قد فعلتُ ، فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين لهذا المجلس أحبُّ إلى من عشرين ألف ألف درهم !



أما كرمه فسحبة قديمة فيه ، ونسبه دال عتَب المصور عمره . وقد ذكر الطبري أن المؤمل بن أميل قال : قَدِمْتُ على المهديّ - نالِيّ - وهو وليّ عهد ، وأمر لي عشرين ألف درهم لأبيات امتدحتُه بها ، فكتبَ بذلك صاحبُ البريد إلى المصور ، وهو بمدينة السلام ، يخبره أن المهديّ - أمر لشاعر عشرين ألف درهم ، فكتب إليه المصور يَعُدُّهُ ويقول له : إنما كان ينبغي لك أن تُعْطِيَ الشاعرَ بعد أن يُقَمَّ بياك سِتَّةَ أَرْبَعَةِ آلاف درهم . قال المؤمل : فكتب إلى كاتب المهديّ أن يوحِّه إليه الشاعرَ ، فطَلَبَ فلم يُقَدَّرْ عليه ، فكتب إليه : إنه قد توجَّه إلى مدينة السلام ، فوجَّه المصور قائداً من قواده ، فأجلسه على جسر النهروان ، وأمره أن يتصفَّحَ اللباس رحلاً رحلاً من يتر به حتى يظفرَ بالمؤمل ، فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من رِوَّار الأمير المهديّ ؛ قال : إياك طلست ؛ قال المؤمل : فكاد قلبي يصدع خوفاً من أبي جعفر ، فقصص على ثم أتى بي بابَ المقصورة وأسلمني إلى الربيع ، فدخل إليه الربيعُ فقال : هذا الشاعرُ قد طَفِرْنَا به ؛ فقال : أدخلوه عليّ ، فأُدْخِلْتُ عليه ، فسأمتُ فردَّ عليّ السلام ، فقلت : ليس هاهنا إلا حيرٌ ، قال : أنت المؤمل بن أميل ؟ فقلت : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ؛ قال : هيه ! أتيت غلاماً عراً لخدعتَه ، فقلتُ : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، أتيتُ غلاماً كريماً لخدعتَه فانخدع ، قال : فكأنَّ ذلك أعجمه فقال : أشدني ما قلتَ فيه ، فأنشدته :

هو المهديّ - إلا أن فيه * مَشَايِهَ صورةِ القمرِ المير
تشابَّهَ ذا وذا فهما إذا ما * أمارا مشكلان على البصير
فهذا في الطلام سراحٌ ليل * وهذا في النهار سراحٌ نور

ولكن فصلَ الرحمن هذا * على ذا المنابر والسريـر
والمُلك العزيز هذا أمير * وما ذا بالأمير ولا الوريـر
ونقص الشهر يُحمد ذا وهذا * مُنيرٌ عند نقصان الشهر
ويابن حليفة الله المصطفى * به تعلو معانرةُ الفحور
لئن فت الملوك وقد توافوا * إليك من السهولة والوعور
لقد سبق الملوك أولك حتى * نقوا من بين كاب أو حسيـر
وحتت وراءه تحجى حثينا * وما لك حين تحجى من فتور
فقال الناس ما هذان إلا * بمنزلة الخلق من الجديـر
لئن سبق الكبير فأهل سيق * له فصلُ الكبير على الصغيـر
وإن بلغ الصغير مدى كبير * لقد حلق الصغير من الكبيـر

فقال : والله لقد أحسنت ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ! ثم قال لى :
أين المال ؟ قلت : ها هو ذا ، قال : ياربىع أنزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم ، وحد
الباقى ، قال : فخرج الربع لخط ثقل ووزن لى أربعة آلاف درهم وأحد الباقى . فلما
صارت الخلافة الى المهدى وتى ابن ثوبان المظالم ، فكان يجلس للناس بالرصافة . فاذا ملأ
كسائه رقاعا رفعها الى المهدى ، فرفعت اليه يوما رقعة أدكره قصتى ، فلما دخل بها
ابن ثوبان حمل المهدى ينظر فى الرقاع ، حتى ادأطرق رقعى صحبك ، فقال له ابن ثوبان :
أصلح الله الأمير ! ما رأيتك صحكت من شىء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ! قال :
هذه رقعة أعرف سبها ، ردوا اليه العشرين ألف درهم ، فردت لى وانصرفت .

ولترك هذه الساحة فى إحازة الشعراء لئرى كيف كانت أريحية المهدى فى الإحسان
الى الجماهير ، فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ستين ومائة أن المهدى قسم فى تلك السنة
ملا عظيما فى أهل مكة وفى أهل المدينة كذلك ، وأنه نظر فيما قسم فى تلك السفرة ، فوجد
ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه ، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليمن
مائتا ألف دينار ، فقسم ذلك كله ، وفرق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب .

+ +

وكان المهديّ الى جانب جوده وبخائه حيّاً مجولاً وبرّاً رحيماً . دخل عليه رجل فقال :
« يا أمير المؤمنين ، إن المصورَ شتمني وقدَفَ أُمِّي ، فإما أمرتني أن أحلّه ، وإما عوّصتني
وأستعفرتُ الله له ، قال المهديّ : ولم شتمك ؟ قال : شتمتُ عدوّه بحصرته فغضب ، قال :
وَمَنْ عَدُوُّه الَّذِي عَصَبَ لَشْتَمِهِ ؟ قال : ابراهيمُ بن عبد الله بن حسن ، قال : إن ابراهيمَ
أَمْسُ به رَجَمًا ، وأَوْجَبُ عليه حقًّا ، فإن كان شتمك كما زعمتَ فعن رَجَمِهِ ذَنْبٌ ، وعن عِرْصِهِ
دَفْعٌ ، وما أَسَاءَ مَنْ اتَّصَلَ بِرَأْسِهِ ، قال : إنه كان عدوّاً له ، قال فلم يتصرّ للعداوة وإِما
اتَّصَرَ لِلرَّحِمِ ، فأسكتَ الرجلَ ، فلما ذهب ليؤثّر قال : لعلك أردتَ : أمراً فلم تحدله دريئةً
عندك أُلْمَعُ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَى ! قال : نعم ، قال : فبسم المهديّ وأمر له بحسّة آلاف
درهم . »

وَنُظِرَ إِلَى مَا يَرَوِيهِ الرَّبِيعُ عَنْهُ ، قال : رَأَيْتُ الْمَهْدِيَّ صَلَّى فِي سَهْوٍ لَهُ فِي لَيْلَةٍ مُقَمَّرَةٍ
فَمَا أَدْرَى أَهْوَأَ أَحْسَنُ أَمْ الْهَوُ أَمْ الْقَمَرُ أَمْ ثِيَابُهُ ؟ قال : فقرأ هذه الآية : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ
تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ قال : فاتمّ صلاته والتفت الى فقال :
يا ربّيع ! قلتُ . ليك يا أمير المؤمنين ، قال : على موسى ، وقام الى صلاته قال : فقلت
من موسى ؟ أباه موسى أم موسى بن جعفر وكان محمّداً عدي ، قال : فجعلت أفكر قال
فقلت : ما هو إلا موسى بن جعفر . قال : فأحصرته ، قال : ففقط المهديّ صلاته وقال :
يا موسى ؛ إني قرأت هذه الآية : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا
أَرْحَامَكُمْ ﴾ فقلتُ أَنْ أَكُونَ قَطَعْتُ رَحِمَكَ ، فَوَقْتُ لِي أَنْكَ لَا تَخْرُجُ عَلَيَّ ، قال : فقال نعم ،
فَوَقْتُ لَهُ وَحَلَّاهُ . »

ومثل هذا ما حدث به علي بن صالح قال : غضب المهديّ على بعض القواد ، وكان
عتب عليه غير مرّة فقال له : الى متى تُذَنِّبُ اليّ وأعفو ! قال : الى أيدي نبيّي ويُوقِيكَ
اللهُ فتعفو عَنَّا ، ففكرها عليه مرّات ، فاستحى منه ورصى عنه .

ثم لتنتقل الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فرى النوفلى يحشدنا عن البيعة للمهدى وما كان من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيع تناول يد الحسن بن زيد فقال : قم يا أبا محمد فإيـع ، فقام معه الحسن فأنهى به الربيع الى موسى فأجلسه بين يديه ، تناول الحسن يد موسى ثم التفت الى الناس فقال : يا أيها الناس ، إن أمير المؤمنين المصور كان ضربنى واستصفى مالى ، فكله المهدى فرجى عنى وكلمه فى رد مالى على فأتى ذلك ، فأحله المهدى من ماله وأصعقه مكان كل علق علقين ، فمن أولى أن يبيع لأمر المؤمنين بصدر منشرج ونفيس طيبة وقلب ماصع منى ، ثم باع موسى للمهدى ثم مسح على يده .



وبعد ، فالمهدى من الخلفاء العباسيين فى الذؤانة . وقد صدق الأستاذ « ميور » اذ يقول : إن المهدى كان فى إدارته لشؤون رعيته كمن يعمل بوجه عام على رفاهية الأمة وإسعادها ، وكان ميعباً ومعملاً للعصر الدهى الذى تلا أيامه . وما أحد عليه من بعض الهنات لا يبيع المؤرج المصنف أن يرى فى عصره ترفيها للناس ، مما كانوا يعانون من الشدة أيام المصور . كان المهدى موقفاً فى اختيار ورائه ، وإن كانت السعاية أحلت سعضهم العذاب وسوء المصير ، وكان دقيقاً فى نظره للأمر . وقد بدأ حلاقته بإطلاق من كان فى سجن المصور ، إلا من كان قلبه ساعاً من دم أو قتل ومن كان معروفاً أنه يسعى فى الأرض بالفساد أو كان لأحد قلبه مظلمة ، وإنما أطلق من كان جرمهم سياسياً .

وكان محباً للأدب ، مشجعاً على التأليف فيه ، حاذى فى طلب الزادقة والبحث عنهم فى الآفاق ، محباً للغزوات والفتوح . وقد قيل : إنه كان لا يشرب البيرة وإن كان سماره يشربونه فى مجلسه ، وكان محباً للسماع ، ويحبنا الطبرى فى حوادث سنة تسع وستين ومائة ، أن المهدى مات مسموماً وقد لبست عليه قيأه المسوخ ، فقال أبو العتاهية فى ذلك :

رُحْنٌ فى الوثنى وأصبح * من عليهم المسوخ
كل طاح من الدهر * ر له يوم تطوخ

لَسْتُ بِالْبَاقِي وَلَوْ عُمِدَ * رَتَّ مَا عَمَّرَ رُوحُ
فَعَلَى بَسْكَ نُحْ إِنْ * كَتَّ لَا نَدُّ تَوْحُ

+

والظاهر مما قدمناه أن المهدي كان يحالف أمه المصور مخالفة شديدة من بعض
الوإحيى، ويلائمه ملاءمة ما من وواح آخر: كان كريما مهيأً للال، بينما كان أبوه بخيلاً
شحيحاً، ولكنه ورث عن أبيه بعض القسوة والميل إلى سفك الدماء.^(١)

ولم تكن السياسة لتعيبه على ذلك، فقد ثنت له المصور أركان الملك فالتبس الدماء
في نفع الرادقة والفك سهم، وأسرف في ذلك، حتى قتل بعض الأبرياء في قسوة تمثلها
قصته مع أس وزيره أي عيد الله.

وفي المهدي ناحية جديدة في حلفاء العاسيين، هي الميل إلى الاعتدال السياسي
في معاملة الطالبين، فقد كان على شيء من الرقيق هم والعطف عليهم، لا يجمعه من آتقائهم
والإشفاق منهم.

وهذه السياسة الرقيقة الحازمة تدكرنا بعض التذكير بما سيكون من سياسة المأمون.
ومن أظهر حصول المهدي الشحصية غيرته على النساء. تلك التي أعترته بشار
فصر به حتى مات، متعللاً بزندقته، وإن كانت العلة الحقيقية هي اسهتار بشار بالفضل.^(٢)
وقد أورث المهدي غيرته هذه أسه الهادي كما سترى.

(١) يحالها أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار في هذا الرأي بقوله: «قسوة المهدي في سفك الدماء، لم تكن
عامة وإنما كان ذلك في الرادقة خاصة».

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار: «أن قتل شار لم يكن سبه العيرة على النساء، وإنما كان تدبير
يعقوب بن داود الورير ودسيته. وبشار هو الذي يقول

ي أمة هوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود

صاعت حلامكم بأقوم فالتسوا * حليفة الله بين اللى والعود

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليفة أن أحمره بأن شاراً وقع في الخليفة وهما. فاستندبه المهدي وهما
فامنع مرم عليه فأتندبه.

حليفة يرى ماته * يصرب بالدف والصولحان

أدلسا الله وعيره * ودس موسى في حر الحيران

الفصل السابع

الهادي

قال محمد بن علي بن طَبَّاطَبَا في كتاب «الآداب السلطانية»: كان الهادي مُتَيَقِّظًا غيورا كريما شديداً البطش جريء القلب، محتَمَع الحس دا إقدام وعَزِيم وحريم .
وعن نخشي أن يكون في هذا البناء إسراف كثير، فلم يطل عهد الهادي بالخلافة
يَمَكِّن الحكم له أو عليه، وإماماً مرّ بها مرور الطيف .
ومع ذلك فقد أكثر المؤرخون من التحدث عنه بالخير . وليس يستوفى من سيرته كلها
إلا ثلاثة أمور :

الأول ما ذكره عنه عبد الله بن عبد الملك قال كَسْتُ أُنَوِّلُ الشُّرْطَةَ للمهدي وكان
المهدي يبعث إلى ندماء الهادي ومُعَيبِهِ ، ويأمرني بصرهم ، وكان الهادي يسألني الرَقَقَ
هم والترقية لهم ، ولا أُلْتَفْتُ إلى ذلك ، وأمضى ليَا أمرني به المهدي . قال : فلما ولي
الهادي الخلافة أيقنْتُ بالثَغْرِ ، فمَتَّ إلى يومنا ، فدخلتُ عليه متكففاً متحطفاً ، وإذا
هو على كرسى ، والسيْفُ وَالطُّعْ بين يديه ، فسَلَّمْتُ ، فقال . لا سَلَّمَ اللهُ على الآخر !
تذكُرُ يومَ بعثتُ اليك في أمر الخزانة وما أمر أمير المؤمنين به من صربه وحبسه
فلم تُجِبْنِي ؟ وفي فلان وفلان ، وجعل يُعَدِّد بدماءه ، فلم تَلْتَفِتْ إلى قولي ولا أمرى ؟ قلت : نعم
يا أمير المؤمنين ، أفنادُّنُ لِي في استيعاء المحبة ؟ قال : نعم ، قلت . ناشدتك بالله يا أمير المؤمنين ،
أيسرك أنك ولتيتني ما ولّاني أولك ، فأمرتني بأمرٍ فبعثتُ إلى بعض نبيك بأمرٍ يخالف به
أمرك ، فانتعتُ أمره وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا ، قلت : فكذلك أنا لك وكذا كنتُ لأبيك ،
فاستدنانِي فقتلتُ يديه ، فأمر يَحْلَعُ فُصْبَتُ عليّ ، وقال : قد وليتُك ما كنتُ نتولاه فامِص
راشداً ، فخرجت من عنده فصرت إلى منزلي ، مفكراً في أمرى وأمره ، وقلت : حَدَّثُ
يشرب ، والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماءؤه وورداؤه وتكلاه ، فكأنني بهم حين يَغْلُبُ

عليهم الشرائط قد أزالوا رأيته في وحملوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوف . قال :
 إلى الخالس وبين يديّ نبتة لي ، في وقتي ذلك ، وكأول من يديّ ، ورقائق أشطره بكاح
 وأستحمه وأصعبه للصبيّة ، وإذا صحّة عظيمة ، حتى توهمت أن الدنيا قد اقلعت وتزلزلت ،
 بوقع الخوافر وكثرة الضوابع ، فقلت هاهنا كان والله ما طبت ووافاني من أمره
 ما تخوفت ، فإذا اللاب قد فُتح ، وإذا الخدم قد دخلوا ، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار
 في وسطهم ، فلما رأيته ، وثنت عن مجلسي مُبادراً ، فقلت يده ورحله وحافر حماره ،
 فقال لي يا عبد الله ، إلى فكرت في أمرك ، فقلت يسق إلى قلبك أي إذا شربت وحولى
 أعدائك ، أزالوا ما حسّن من رأيي فيك ، فأقلقك وأوحشك ، فصرت إلى مراك لأونسك
 وأعلمك أن السحيمة قد رالت عن قلبي لك ، فهاتِ فاطمعي مما كنت تأكل فأفعل فيه
 ما كنت تفعل ، لتعلم أني قد تحزمت بطعامك ، وأست بمراك ، فيزول خوفك ووحشتك ،
 فأدبني إليه ذلك الرقاق والشكرجة التي فيها الكاخ فأكل منها ، ثم قال : هاتوا الرلة التي
 أزللتها لعبد الله من مجلسي فأدخلت إلى أربعائة غلة موقرة دراهم ، وقال . هذه رلتك
 فاستعين بها على أمرك ، واحفظ لي هذه العال عندك ، لعل أحتاج إليها يوماً لمعص أسفاري ،
 ثم قال . أطلبك الله بخير ، وانصرف راجعاً . ونحن وإن كنا نعتز في هذه الرواية وأمثالها
 المبالغ نرى أنها تدلّ في حملتها على بصير السياسة ، ووطية في العلم بالناس ، والاتجاع بكماياتهم .

الأمر الثاني وقوفه موقف حرم يعتقد أنه أنقذ القصر العباسي ، من شرّ عظيم ، أفسد
 على ملوك الفرس قصورهم ، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أموراً خلفه بعد عصر المأمون ،
 ذلك هو تدخل النساء في أمور الدولة .

فقد ذكر الطبري أن الخيزران والدة الهادي ، كانت في أول خلافته ، فتتأت عليه
 في أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله ، في الاستعداد بالأمر والنهي ، فأرسل إليها :
 ألا تحرجي من خفر الكفاية إلى بدآذ التبدل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض
 في أمر الملك ، عليك بصلاتك وتسبيحك وتبتك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك .

قال : وكانت الحيزرانُ فى حلافة موسى كثيرا ما تكلمه فى الحاجات ، فكان يجيبها الى كل ما تسأله ، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من حلافه ، واثال الناس عليها وطعموا فيها ، فكانت المواكُ تصدو الى بابها ؛ قال . فكلمته يوما فى أمر لم يجد الى إحابتها اليه سبيلا فاعتل بعلته ؛ فقالت : لاند من إحاسى ، قل . لا أفعل ، قالت : فإنى قد تضمنت هذه الحاحة لعبد الله بن مالك ، قال فعصب موسى وقال . ويل على أبى الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قصيرتها له ! قالت : إذا والله لا أسالك حاجة أبدا ؛ قال : إذا والله لا أنالى ، وحى وعصب ، فقامت مُغضبة ، فقال : مكانك تستوعى كلامى ، والله وإلا فانا نعى من قرابى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن لمعنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من حاصتى أو حدى لأصربت عنقه ولاقبصت ماله ، من شاء فليزِم ذلك ! ما هذه المواكُ التى تصدو وتروح الى بابك فى كل يوم ! أما لك مغزل يُشغلك ، أو مضحف يدركك ، أو بيت يصولك ! إياك ثم إياك ما فحيت بابك للملى - أولذى ! فانصرفت ما تعقل ما تطأ ، فلم تطيق عده بخلوة ولا مرة بعدها .

ولم يكتف المهادى بكلامه معها ، بل جمع قواده يوما وقال لهم : أيما حيرا أنا أم أتم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ، قال فأيما حيرا أتمى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ، قال . فأينكم يحى أن يتحدث الرجال بحبر أمه ويقولوا فعلت أم فلان وصعدت أم فلان وقالت أم فلان ؟ قالوا ما أحد ما يحى ذلك ، قال . فما نال الرجال يأتون أتمى فيتحدثون بحديثها ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ألبته ، فشق ذلك عليها ، فاعتزته وحلفت لا تكلمه ، ما دخلت عليه حتى حصرته الوفاة . وقد قالوا : إن المهادى حاول ستمها فلم يُفلح . على أن الحيزرانَ أفلحت فى القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكرنا أنها دسّت اليه من جواربها من قتله بالجلوس على وجهه .

لنتقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته العذر بأخيه الرشيد .

ولسفر في حوادث سنة سبعين ومائة، لرى كيف أحلص آل برمك للرشد، فقد هم الهادي بحويل الخلافة عنه لاسه جعفر، ولكن يحيى بن خالد ثنت في المحافظة على ولاية هارون، محتلا في ذلك كل مكروه. وكان لطانة الهادي أثر سيء في تشجيعه على حلج الرشيد ومبايعه جعفر، وكان فيمن بايعه يزيد بن مرید وعد الله بن مالك وعلى بن عيسى، ومن أشبههم، من أصحاب الأعراس.

ولم تزد الحوادث يحيى بن خالد إلا حرصا على حق الرشيد، فصار يعلله ويسرى عنه، ولولاه خلج الرشيد نفسه، بعد أن تقصوه في مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى طهر، وأمر الهادي ألا يسار قدّام الرشيد بحرية، فاجتده الناس.

أما الأحرار عن كرمه فكثيره. من ذلك ما رواه الطبري في حوادث سنة سبعين ومائة أنه أمر دات ليلة ثلاثين ألف دينار اميسى بن داب أحد حُلّاسه وكان - كما وصفه الطبري - لديد الفكاه، طيب المسامره، كثير النادره. ويقول على بن صالح: إنه كان يوما على رأس الهادي وهو علام، وقد كان حقا المطالم عامة ثلاثة أيام، فدخل عليه الخزان فقال له: يا أمير المؤمنين إن العامة لا تنقاد على ما أنت عليه، لم تطرف في المظالم مد ثلاثة أيام، فالتفت الى وقال: يا على - ائذن للناس على - بالحق لا بالقوى، فخرجت من عنده أطيروا على وجهي، ثم وقعت فلم أدر ما قال لي، فقلت: أراجع أمير المؤمنين فيقول: أتحنني ولا تعلم كلامي! ثم أدركني دهى، فبعثت الى أعرابي كان قد وفد، وسألته عن الحق والقوى فقال: الحق جفالة، والقوى بقر خواصهم، فأمرت بالاستور فرفعت، وبالأواب ففتحت، فدخل الناس على بكره أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم الى الليل، فلما تقوض المجلس مثلت من يده، فقال: كأنك تريد أن تدر شيئا يا على؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كتبتى بكلام لم اسمعه قبل يومى هذا، وخمت مراجعتك فنقول: أتحنني وأنت لم تعلم كلامي! فبعثت الى أعرابي كان عدنا ففسر لي الكلام، فكافته عنى يا أمير المؤمنين، قال: نعم، مائة ألف درهم فحمل اليه. قال: فقلت يا أمير المؤمنين،

إنه أعرابى حِلْفٌ وى عشرة آلاف درهم ما أغساه وكفاه ! فقال : ويلك يا على-
أَجُودُ وَتَجُلُّ !



وكان المهادى شديد العيرة، طاهر الشهامه . وهاك حديثاً لا يحلو من الأدب والمكاهيه،
حدث به السدي بن شاك قال : كنت مع موسى بجرحان، فأتاه بنى المهدي والخلافة،
فركب البريد الى بغداد ومعه سعيد بن سلم ووجهنى الى حراسان، فحدثنى سعيد بن سلم
قال : سرنا بين أبيات جرحان وبساتينها قال فسمع صوتاً من بعض تلك البساتين من
رجل يتعنى، فقال لصاحب شرطته : على بالرحل الساعة، قال : فقلت يا أمير المؤمنين
ما أشبه قِصَّةَ هذا الخائن، بقصه سليمان بن عبد الملك ! قال : وليف^١ قال : قلت له .
كان سليمان بن عبد الملك فى مُتَنَزِهٍ له ومعه حره، فسمع من بستان آحصوص رجل
يتعنى، فدعا صاحب شرطته فقال : على بصاحب الصوت فأتى به، فلما مثل بين يديه
قال له : ما حملك على العاء وأنت الى جنى ومعى حرى، أما علمت أن الرماك^(١) اذا مِمَعَتْ
صوت الفحل حَتَّ اليه ! يا علام جبه ! بحبُّ الرجل، فلما كان فى العام المقبل، رجع
سليمان الى ذلك المتبره فجلس مجلسه الذى جلس فيه، فذكر الرجل وما صنع به، فقال
لصاحب شرطته . على بالرحل الذى كا حباه، فأحصره، فلما مثل بين يديه قال له :
إما بعث فوفياك، وإما وهبت فكافأناك، قال : فوالله ما دعاه للخلافة ولكبه قال له :
يا سليمان ! الله الله ! إلك قطعت نسل فذهبت بماء وجهى، وحرمتنى لدنى، ثم تقول .
إما وهبت فكافأناك وإما بعث فوفياك ! لا والله ! حتى أقف بين يدي الله ! قال : فقال
موسى : يا علام رُدَّ صاحب الشرطة فردّه، فقال : لا تعرّض للرحل .



وأما حبه للحمدة فيحدثنا به عمر بن شبة، إذ ذكر أن على بن الحسين بن على بن الحسين
ابن على بن أبى طالب، وكان يلقب بالجزرى، تزوج رقية بنت عمرو العنانية، وكانت تحت

المهدى، فبلغ ذلك موسى الهادى فى أوّل خلافته، فأرسل اليه لجهله وقال : أعيالك النساءُ إلا امرأة أمير المؤمنين^١ فقال . ما حرّم الله على خلقه إلا نساءً حتّى صلى الله عليه وسلم ، فاما غيرهنّ فلا ولا كرامة؛ فشبهه بمحصّرة كانت فى يده وأمر بصره بحمالة سوط فصرّب ، وأراده أن يطلقها فلم يفعل ، فحمل من بين يديه و قطع فألقى ناحيه ، وكان فى يده حاتم سرى ، فراه بعض الخدم وقد عُثِيَ عليه من الضرب ، فأهوى الى الخاتم فقصّ على يد الخادم فدقّها ، فصاح وأتى موسى فأراه يده ، فاستشاط وقال : يفعل هذا بجادى مع استحفافه نأى وقوله لى ! ومثّ اليه : ما حملك على ما فعلت^٢ قال . قل له وسلّه ومُره أن يضع يده على رأسك وليصدّقك ، فععل ذلك موسى فصدّقه الخادم ، فقال : أحسن والله ! أنا أشهد أنه إن عمى لو لم يفعل لانتفيت منه وأمر بإطلاقه .



وقد كان الهادى مثل أبيه محباً للأدب مُشجعاً للشعراء ، وكان على سنته فى بعض الزادقة ومقتهم ، موفّقاً فى اختيار الوزراء ، مُصاناً كأبيه ببطانة سوء ، همها الوقيعه والوشايه وإمراء الخليفة والبيت المالک ماجترّاح المآثم وأقتراف المظالم .

قال الطبرى : إن عبد الله بن محمد المقرئ حدّث عن أبيه قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند مصّرفه من حج^(١) فوحده حائفاً يلتبس عدرا من قتل من قتل فقال له : أصلح الله الأمير، أُنشدك شعرا كتب به يزيد بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن على رضى الله عنه^٢ قال . أُنشدنى ، فأنشده :

يا أيها الراكب الغادى لِيُعطِيَه * على عُدَا فِرَةٍ فى سيرها حَقْمُ

(١) حج هتج أوّل وتشدّد ثابيه : وادى الزاهر ، ويوم حج كان أبو عبد الله الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه حرج يدعو الى هسه فى دى القعدة سنة ١٦٩ هـ وابعه حماة من العلويين بالخلافة فى المدينة ورحل الى مكة فلما كان حج لقيته حيوش بن العباس وعليهم العاص بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فالتقوا يوم التروية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا حماة من عسكره وأهل بيته ، ولم تكن مصيبة بعد كرم بلاد أشدّ وألحج من حج ووجه دعى عبد الله بن عمرو وهو من الصحابة الكرام هـ ملخصا من يافوت مادة « حج » .

(٢) العداومة . الافة الشديدة الامية الوثيقة الظهيرة ، أنظر لسان العرب مادة « عذر » .

ألمع قريشا على شحط المزار بها * بنى وبين حسين الله والرحم
وموقف فناء البيت أنشده * عهد الآله وما تُرعى له الذمم
عفتُم قومكم نغرا بأمهم * أم حصانٌ لعمري بزة كرم
هى التى لا يُداني فصلها أحد * بت التى توحير الناس قد علموا
وفصلها لكم فصلٌ وعيركم * من قومكم لهم من فصلها قسم
إنى لأعلم أو ظنا كماله * والظن يصدق أحيانا فينتظم
أن سوف يترككم ماتطلون بها - قتل تهادا كم العقبان والرخم
يا قومما لا تشبوا الحرب اذ حدث * ومسكوا بجبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البعى إن البنى مصرعة * وإن شارب كأس البنى يتغم
قد جرب الحرب من قد كان قلكم * من القرون وقد بادت بها الأمم
فانصموا قومكم لا تهلكوا دحا * ورب ذى بذج زلت به القدم

قال : فسرى عن موسى بن عيسى نَعَصُ ما كان فيه .

وإذا لم يكن بد من اختصار حياة المهادى فى كلمة جامعة فلنقل : إنه وُِرثَ عن أبيه
المهدى كرمه وغيرته وحبّه للأدب ، وورثَ عن حذّه المصور حرمه وشيئا من مَبيله الى الغدر .

الفضل الثمين

هارون الرشيد

يَا حَيْرَرَأْبَ هَآكِ ثُمَّ هَآكِ * أَمْسَى يَسُوسُ الْعَالَمِينَ أَسَاكِ

هذا يُعْلِنُ مروانُ بن أبي حمصةَ الشاعرُ البابُ تَوَأُّ الرشيدِ عرشَ الخلافةِ ، بعد أخيه المهدي ، يعهدُ من أبيه سبعةَ سبعةٍ ومائةٍ هجرية . وبهذا يَهْنِئُ الشاعرُ الخِيرَرَأْنَ يَتَوَقَّلُ الرشيدَ لعرشِ كَانَتِ الخِيرَرَأْنَ معدبةً مُعَبَّاةً بِمَنْ كَانَ يعتليه قبل الرشيد . وقد يكونُ من المستصوبِ أن تَرَكَ ليوسفُ بن القاسمِ بن صبيحِ كَاتِبَ الرشيدِ ، يُعْلِنُ اليَا مَا أَعْلَنَهُ بنفسه الى العالم العربي ، من حبرِ آعْتَلَاءِ الرشيدِ للخلافةِ ، فإنه ، بأسلوبه الرشيقي وبلاغته السهلةِ ومكائنه من الرشيدِ ، أَحَقُّ بِذلكِ وأَحَدَرُ ، ولا سيما وقد طُبِّرَتْ قَطْعَتُهُ لِلْحَافِقِينَ ، مُبَيَّنَّةٌ بِمَوْتِ حَلِيمَةٍ وَتَنْوِيحِ حَلِيمَةٍ .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :
«إِنَّ اللَّهَ بِمَنَّةٍ وَلَطْفِهِ ، مَنْ عَلَيْكُمْ مَعَاشِرَ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، بَيْتِ الْخِلَافَةِ وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَأَنَا كَمْ أَهْلُ الطَّاعَةِ ، مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانِ الدَّعْوَةِ ، مِنْ نَعْمَةِ الَّتِي لَا تُحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تُقْصَى مَدَى الْأُذَى ، وَأَيَادِيهِ الثَّامَةِ إِذْ جُمِعَ الْأَلْفَتُكُمُ ، وَأَعْلَى أَمْرِكُمْ ، وَشَدَّ عَصْدُكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوُّكُمْ ، وَأَطْهَرَ كَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَكُتِمَ أَوَّلَى سَآءِهَا وَأَهْلَهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ، فَكُتِمَ أَنْصَارُ دَرِّ اللَّهِ الْمُرْتَضَى ، وَالذَّائِبِ سَمِيْعِهِ الْمُنْتَصَى ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَبِكُمْ أَسْتَفِدُّهُمْ مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ أُمَّةِ الْجَوْرِ ، وَالْبَاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَالْآكِلِينَ الْهَيَاءَ ، وَالْمُسْتَأَثْرِينَ بِهِ . فَادْكُرُوا مَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَاحْدَرُوا أَنْ تُغَيَّرَ نِعْمَتُهُمْ . وَإِنَّ اللَّهَ حَلَّ وَعَزَّ اسْتَأْثَرَ بِحَلِيمَتِهِ مُوسَى الْمَهَادَى الْإِمَامَ فَبَقِصَهُ إِلَيْهِ ، وَوَلَّى بَعْدَهُ رَشِيدًا مَرْضِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَكَمَ رُؤُوفًا رَحِيمًا ، مِنْ مُحْسِنِكُمْ قَوْلًا ،

وعلى مسيئكم بالعمو عَطُوفاً . وهو — أمتعه الله بالعمّة ، وحفّط له ما استترعه إياه من أمر الأُمّة ، وتولّاه ما تولى به أوليائه وأهل طاعته — يَعدّكم من نفسه ، الرأفة بكم والرحمة لكم ، وقَسَمَ أعطياتكم فيكم ، وعد استحقاقكم ، ويدلّ لكم من الجائزة مما آفاه الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ، مايوبُ ع رزق كذا وكذا شهرا غير مُقاصّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحاملاً ما في ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث في السواحي والأقطار من العصاه المارقين الى بسوت الأموال ، حتى تعود الأموال الى حاميها وكثرتها والحال التي كانت عليها . فاحمدوا الله وحددوا شكرا يوجب لكم المزيّة من إحسانه اليكم بما حدّد لكم من رأى أمير المؤمنين وتخصّل به عليكم أيده الله بطاعته ، وأرغبوا الى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامه النماء ، لعلكم تُرحّمون : وأعطوا صفقة إيمانكم وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولّاكم ولاية عاداه الصالحين » .

هذا الكتاب القيمّ البليغ ، أشعر العالم العربيّ بابتداء خلافة هارون الذي نستطيع بحقي أن نقول إنه أصحُّ الخلفاء المسلمين اسماً ، وأعدُّهم صوتاً ، وأشدُّهم في الخيال تأثيراً ، فانت لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد ، حتى يُحدّث في نفسك صورة خيالية ، محتلفة النوع ، ولكنها متفقّة في القوّة ، فهو يَنشئُ في نفسك حياً صورة الخليفة المتّرف ، المسرّف في الترف ، الذي بلغ منه ما لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده . وينشئ في نفسك حياً آخر صورة الخليفة القويّ ، الذي أذلّ أعداء الإسلام وبسط سلطان الخلافة على أطراف الأرض ، وأخذ ملوك الروم بدفع الجزية . وينشئ فيها مرةً أخرى صورة الخليفة الحدير ، الذي بث الجوايس ، ليعرف من أمر الناس ما طهر وما حنى ، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو حاسوساً ، يطوف في الأسواق ، ويُوعلُّ في البيوت ، ويَنشئ المجالس والأندية ، حتى ألم بكل شيء ، وأحاط بكل خفية ، ثم بطش بأعدائه والمؤتمرين به بطشاً لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم يَنشئ في نفسك صورة الخليفة العالم الأديب ، الفقيه بالوان

العلم والدين والأدب ، المشجع للفقهاء والعلماء والشعراء والكُتّاب تشجيعاً أصبح فيه مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك في الشرق والغرب . ويُنبئُ في نفسك أيضاً صورة الخليفة الورع الزاهد، المتهاك نُسكاً وطاعةً وتقلّداً لله ، كما ينبئُ فيها صورة الخليفة الذي لا يكاد يخلو إلى نفسه ويسدّل الستار بينه وبين رعيته حتى يأخذ مع المحامى ومجموعهم ، فيُحِيلُ اليك أنه لا يدعُ من سُبُل اللذة سبيلاً إلا سلكها وحَنَى ثمارها ، فمن عَنَاءٍ ، إلى شَرَابٍ ، إلى عَبَثٍ ، إلى استمتاع بالنساء ، من حراير وإماء ، وهو بعد هذا كله سياسى ، ماهرٌ ، بعيدُ النظر في تصرّبه الأمور ، فيه حُرْمُ المصور وعُنفه وميله إلى الغدر والأثرة ، وكل ما يُشخصُ سياسة « ميكافلى » ، وفيه حلم معاوية ودهاقته اللين المرئى ، وبخاؤه المال واصطلاحه الناس .

ومن غريب الأمر أن كل هذه الصور المتناقضة التي تُتَين أشدّ التّين ، قد اجتمعت حقاً في شخص هذا الخليفة ، لا كما يصوّرها المؤرّخون والرواة والقصاص وأصحاب الأساطير ، بل اجتمعت اجتماعاً يختلف قوه وضعفا باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرة التي كوّنت مِراجَه وشخصيته ، وقصره ، وبيئته السياسية العامة ؛ فليس الرشيد في حقيقته الأمر . شخصاً كبيره من الأشخاص يمثل نفسه وما وِث عن أسرته ، ولكنه مرآة اجتمعت أمامها صورٌ مختلفة من الناس والكفايات والظروف فانعكست فيها هذه الصور .

فالرشيد يمثل كل هؤلاء الناس ، وكل هذه الأشياء ، وكل هذه الظروف التي شهدتها بغداد قرب آخر القرن الثاني للهجرة . ومن هنا كان من العسير حداً أن نستخلص منه صورةً تاريخيةً صادقةً ، بريئة من الغلو والإسراف .

فأما المؤرّخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم بكل ما عرَفَت أنهم تأثروا به ، من الإغراق والمبالغة والغلو في المدح تخلصين في أكثر الأحيان .

وأما المؤرخون من اليرنج فلم يسلم أشدهم احتياطا من التأثير هذه الطائفة الصحية من الأساطير التي شها في نفوس الجماعات تكلم " ألف ليلة وليلة " مد زمي طويل .

وقد طهر هذا التأثير مطهرين مختلفين ، مطهر المدح والإسراف فيه عند قوم ، ومطهر الدم والإعراق فيه عند قوم آخرين . وأولئك وهؤلاء محدوعون عن أنفسهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغ التي أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

ومحس مجتهدون — لا في أن يعطيك هذه الصورة الصادقة من الرشيد التي لا يرال التاريخ محتاحا إليها ، فليس ذلك عرصا في هذا البحث ، وليس في هذا الكتاب مُنْشَعُّ له ، بل في أن يعطيك صورة صادقة من فهم المؤرخين من العرب واليرنجية لعصر الرشيد ، غير مُهْيَلِينَ مع ذلك أن تُسَحِّلَ آراءَ لنا هنا وهناك حين شعر الحاجة الى ذلك ، لتوصيح مدھنا في فهم عصر المأمون الذي بضع فيه هذا الكتاب .



يجمع المؤرخون العرب على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وسطة يده بالحبر والعطاء ، وانطوائه على الجود والسعاء ، فقد ذكروا : أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة ، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان اذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبائهم ، وادا لم يحجّ أجم ثلاثمائة بالعقة الساعة والكسوة الباهرة . وكان يقتنى آثار المصور ويطلب العمل بها إلا في بدل المال ، نابه لم يُرْ حليفة قبله كان أعطى منه لئال ثم المأمون من بعده . وكان لا يصبغ عبده إحسان محس ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه . وكان يُحبُّ الشعراء والشعر ، ويميل الى أهل الأدب والفقه ، وكره المرء في الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له والحرى ألا يكون فيه ثواب . وكان يحبّ المديح ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشتره بالثمن العالي .

ولقد كانت دولة الرشيد — كما يقول الفخرى — : دولة من أحسن الدول وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا وأوسعها رقعة مملكة ، جبي الرشيد معظم الدنيا . ولم يجتمع على باب

حليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتّاب والدفء والمغنين من اجتمعوا على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجرل صلة ، ويرفعه أعلى درجة . وكان فاضلا شاعرا راوية للأحبار والآثار والأشعار ، صحيح الدوى والتميز ، مهياً عند الخاصة والعامة .



ولقد حاول الهادى أن برعم الرشيد على حلق نفسه من الخلافة بعده ، وأن يكتب ولاية العهد لأمه حمير ، وقد تم له شىء من ذلك . وإيا لحدى حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشىء الكثير من إحلاص آل برمك للرشيد لا سيما شدة محافظة يحيى البرمكى على حقوق الرشيد فى ولاية العهد ، فعُدَّت وحيس وأودى فى هذا السبيل إبداءً شديداً .

ولقد أظهر الرشيدُ ، وهو ولى عهد ، من الجرأة ومنانة الأخلاق والصراحة ، ما هو حقيق بالإعجاب . ولسا برى مدوحة من ذكر الرواية التى ذكرها محمد بن عمر الرومى ، هى تعطيل صورة دقيقة لما نحن سبيله ، فقد حدثت عن أبيه قال : جلس موسى الهادى بعد ما ملك فى أوّل خلافته حلوسا حاصا ، ودعا إبراهيم بن جعفر بن أبى جعفر وإبراهيم بن سلم ابن قتيبة والحزائى مجلسوا عن يساره ، ومعهم خادم له أسود يُقال له أسلم ويكنى أباً سليمان ، وكان يثق به ويقدمه ، فبنا هو كذلك ، إاد دخل صالح صاحب المصلّى فقال : هارون بن المهدي ، فقال : آتدن له ، فدخل فسلم عليه وقتل يديه وحلس عن يمينه بعيداً من ناحية ؛ فاطرق موسى ينظر اليه وأدمن ذلك ثم التفت اليه فقال : يا هارون كأنى بك تحدث نفسك بام الرؤيا ، وتؤمل ما أنت مه بعيد ، ودون ذلك خرط القتاد ، تؤمل الخلافة ! قال : فبرك هارون على ركبته وقال : يا موسى إلك إن تجرت وضعت ، وإن تواضعت رفعت ، وإن ظلمت خلت ، وإنى لأرجو أن نصي الأمر الى ، فأنصف من ظلمت ، وأصل من قطعت ، وأصير أولادك أعلى من أولادى ، وأزوجهم بناتى ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي . قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أباً جعفر! أدن منى ، فدنا

منه فقبل يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه ، فقال له : لا والشيخ الجليل ، والمملك البيل ، أعنى أذاك المصور، لا حلتست إلّا معي ! وأحلسه في صدر المجلس معه . ثم قال : يا حراثي إحمل الى أخى ألف ألف دينار، وإذا افتتح الحراج فاحمل اليه النصف منه وأعيرض عليه ما في الخزان من مالنا، وما أحد من أهل بيت اللغة، فيأخذ جميع ما أراد، قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصاح : أذن دانته الى البساط .

قال عمرو الرومي : وكان هارون يأس في فقلت اليه فقلت : ياسيدي ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهدي : أريت في مامي كأي دقت الى موسى قصيباً والى هارون قضيها، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً ، فأما هارون فأورق قصيبه من أوله الى آخره، فدعا المهدي الحكم بن موسى الصمري ، وكان يكنى أبا سفيان ، فقال له : عرّ هذه الرؤيا ، فقال : يملكك جميعاً ، فأما موسى فتقل أيامه ، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش حليلة وتكون أيامه أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر . قال ولم يلبث إلا أياماً يسيرة ثم اعتل موسى ، ومات وكانت علته ثلاثة أيام .

قال عمرو الرومي : أفصت الخلافة الى هارون فروح حمدونه من حمير بن موسى ، وفاطمة من إسماعيل بن موسى ، ووقى بكل ما قال ، وكان دهره أحسن الدهور .



ولقد كان الرشيد مشغولاً بالفنون والعلوم ، وكان قصره الراي الزاهر مركزاً لمختلف الثقافات . وأما ولعه بالشعر وصبوره الآداب وإحارته الشعراء بسجاء الحديث في ذلك طويل المالحى .

وكان الرشيد ، مع استمتاعه بمرافه الحياة ومناعمها : تزوج ست زوجات وتسرى عشرين أمة ذكر أسماءهن الطبري وأسماء أولاده منهن ، وكان ، مع تبرج المدنية في أيامه ، ومع إحيايه أندية اللغة والآداب والمادمة ، ورعاً متأثراً بالمواظع والزهديات . وسدرك لك طرفاً من مواقفه الدالة على خشيته لله ، وأدبه ، وورعه ، وتواضعه .

أما خشيتُه لله وأدبه، فقد ذكر بعضهم أنه كان من صحابة الرشيد بالرقة بعد أن شخص من بغداد، فخرج معه يوما الى الصيد، فعرض له رجلٌ من النساء فقال : يا هارون اتق الله، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك : خذ هذا الرجل اليك حتى أنصيرف، فلما رجع دعا غداثته، ثم أمر أن يُطعم الرجل من حاص طعامة؛ فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أيصمى في المحاطة والمساءلة قال : ذاك أقل مما يجب لك، قال : فأحبرني أما شر وأخبث أم فرعون؟ قال : بل فرعون، قال . (أَنَا رَأَيْتُكُمْ الْأَعْلَى) وقال : (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) . قال . صدقت، فأحبرني : من حير : أنت أم موسى بن عمران؟ قال : موسى كليم الله وصعيه اصطفاه لنفسه وأتمه على وحيه وكلمه من بين خلقه؛ قال : صدقت، أما تعلم أنه لما بعته وأحاه الى فرعون قال لها : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى) . — ذكر المفسرون أنه أمرها أن يكتياه — هذا وهو في عتوه وحبروته، على ما قد علمت، وأنت جنتني، وأنا بهذه الحالة التي تعلم أؤدي أكثر فرائض الله علي، ولا أعبد أحدا سواه، أقف عند أكر حدوده وأمره ونبيه، فوعظتني، أعلط الألفاظ وأشنعها، وأخشن الكلام وأفطعها، فلا أذب الله تأذبت، ولا أحلالي الصالحين أحدثت، فما كان يؤمك، أن أسطوبك، فاذا أنت قد عرصت بهسك لما كنت عنه عيا، قال الزاهد : أخطأت يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك؛ قال : قد غفر لك الله، وأمر له بعشرين ألف درهم؛ فأبى أن يأخذها وقال : لا حاجة لي في المال، أنا رجل سائح؛ فقال هزيمة وخره : ترد على أمير المؤمنين يا جاهل صلته ! فقال الرشيد : أمسك عنه، ثم قال له : لم نعطك هذا المال لحاجتك اليه، ولكن من عادتنا أنه لا يحاطب الخليفة أحد ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصله ومسحه، فاقبل من صلتنا ما شئت وصعها حيث أحببت؛ فأخذ من المال ألفي درهم وفزقها على الخجائب ومن حصر الباب .

وأما ورعه فقد ذكر، أن أبا مریم المدني كان مع الرشيد وكان مضطحا كما له محذاتا فكها، فكان الرشيد لا يبصر عنه ولا يمل محادثته، وكان ممن قد جمع الى ذلك المعرفة

بأخبار أهل المحاز، وألقاب الأشراف ومكايد المحان، فبلغ من حاصته بالرشيد أن يؤاه منزلاً في قصره، وغلطه بحرمه وطلانته ومواليه وعلمانه، بجاء دات ليلة وهو نائم وقد طلع المعجرُ وقام الرشيدُ الى الصلاة فالفاه نائماً، فكشف الخاف عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحتُ بعدُ، اذهب الى عملك، قال: ويلك! قم الى الصلاة، قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي، فضي وتركه نائماً وتأهب الرشيد للصلاة، بجاء علامه فقال أمير المؤمنين قد قام الى الصلاة، فقام فالتى عليه ثيابه ومضى نحوه، فاذا الرشيدُ يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى اليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وقال ابن أبي مریم: لا أدري والله! ما تمالك الرشيدُ أن يحك في صلاته، ثم ألفت اليه وهو كالمغصِب فقال: يا ابن أبي مریم في الصلاة أيضا! قال: يا هذا وما صنعتُ؟ قال: قطعتُ على صلاتي، قال: والله ما فعلتُ، إنما سمعتُ منك كلاماً عمنى حين قلت: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلت: لا أدري والله، فماد فضحك وقال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأما تواضعه فترك الكلمة فيه لأبي معاوية الصريري، وهو من علماء دولته، فإنه يقول: أكلتُ مع الرشيد يوماً، فصبَّ على يدي الماء رحلُ فقال: يا أبا معاوية أتدري من صبَّ الماء على يدك؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين؛ قال: أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين أتتُ تفعل هذا إجلالاً للعلم؟ قال: نعم. فتصوّر الى أي حد بلغ صنيعه^١.



ترك حانبا الآن التكلم عن البرامكة وبكبة البرامكة الى فصل مستقل. وربما كان من المصلحة الفنية للكتاب أن يُفرد لكل بحث من بحوثه باب خاص، نستوعب فيه ما يجدر بها استيعابه من تلك النواحي الهامة الشديدة الصلة بموضوعنا.

والآن نرى في عقننا أن نتحدت اليك في أمور أربعة قد تفيدك في عهد الرشيد عامة وربما أفادت في تفهم عصر المأمون خاصة وهي: (١) حقيقة السياسة الداخلية في عصر الرشيد؛ (٢) السياسة الخارجية، (٣) التكلم عن بعة الرشيد للأمين والمأمون والقاسم؛

(٤) التكلم عن الدولة الرمكية والمكة الرمكية . وسننتقئ الإيخاز المقع من غير إحلال بما لا يليق سا الإحلل به ، ولا سيما باب بيعات الرشيد ، وإنما لا يرى مدوحة من إثبات نصوصها لما لها من الخطر من حيث إنها أثر تاريخي حقيق بالدراسة والبحث .

١ - السياسة الداخلية

أنتَ حدِّ عالمٍ مما كان من تطلع الطالبين للخلافة . وقد مر بك القول في تحفظاتهم وخروجهم وحروبهم للخليفة العاسي ، الحالس على العرش ، كلبا واتهم الفُرص وأمكتهم الأحوال .

وأنتَ حدِّ عالمٍ أن الخلفاء ما كانوا يركنون الى حابهم يقاسا وتاغصا ، واصطداما للصلاحة الخاصة وتعارضًا . بيد أن الرشيد وهو الرعوم لسجيته ، المحوّل على الخير سرعته ، رأى في أوّل عهده ، أن تحديت عليهم ويسئل بحجيمة العداوة من قلوبهم ، ورفع المحرّعن كان منهم ببغداد ، وسيرهم الى المدينة ، ما عدا العاس بن الحسن بن عبد الله ، وكان أئوه مع ذلك فيمس أنخص الى المدينة .

لم يسجع الطالبون الرشيد على الاستمرار على خطته تلك ، بل كان من بعضهم ما دفعه الى تغيير خطته السديدة ، إذ حرج عليه يحيى بن عبد الله أحد الباحين من وقعة « ع » التي كانت في أيام الهادي ، ونزع الى بلاد الديلم ، حيث قويت شوكته واشتد ساعده ، وهرع اليه الداس من الأمصار والكُور ، فاعتم الرشيد لذلك أيما اغتنام وترك ، فيما يقول الرواة ، شرب البديد ، ثم بدت الى قتاله الفصل س يحيى س خالد في خمسين ألفا ، ومعه من القواد صاديدهم ومن الجند شعاعهم ، فسار سمت يحيى ، فكاتبه ورفق به واستماله وبسط أمله ، وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت اليه ، فأجاب يحيى الى الصلح والخروج ، على أن يكتب له الرشيد أمانا بحطه ، فادر الفصل برع ذلك الى الرشيد ، فالتج فؤاده وعظم موقعه لديه ، وكتب أمانا ليحيى بن عبد الله وأشهد عليه القضاة والفقهاء وحلة بنى هاشم ومشايخهم ، منهم عبد الصمد بن علي والعباس بن محمد ومحمد بن

ابراهيم ومن أشبههم ، ووجه به مع حوائز وكرامات وهدايا ، ووجه الفصل بذلك اليه فقدم يحيى بن عبد الله عليه .

و رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشيد قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدده ، وأنه قد اشدت في مطاردته ، واقتناء أثره ، طلب الأمان من الفضل ، فأقننه وحمله الى الرشيد .

ويحتشأ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وسبعين ومائة : أنه لما ورد الفصل بن يحيى البرمكي يحيى بن عبد الله العلوي بعداً ، لقيه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى عليه أرزاقاً سديّة ، وأزله مرلاً سرّياً بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياماً ، وكان يتولّى أمره بنفسه ولا يكلّ ذلك الى غيره ، وأمر الناس بماتياته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه ، وبلغ الرشيد العتبة في إكرام الفصل ، وفي ذلك يقول مروان ابن أبي حفصة :

طَفِرَتْ فَلَا شَلَّتْ يَدُ رَمَكِيَّةٍ * رَتَقَتْهَا الْفَتَقَ الدِّيَّ بَيْنَ هَاشِمٍ
عَلَى حَبِيبِ أَعْيَا الرَّاغِبِينَ الثَّامِيَّةُ * فَكَفُّوا وَقَالُوا لَيْسَ بِالْمُتَسَلِّمِ
فَأَصْبَحَتْ قَدْ فَازَتْ بِدَاكِ مَحْطِهِ * مِنْ الْمَحْدِاقِ ذِكْرُهَا فِي الْمَوَاسِمِ
وَمَا زَالَ قِدْحُ الْمَلِكِ يَمْجُجُ فَائِزًا * لَكُمْ كَلْبًا صُمْتُ قِدَاحُ الْمُسَاهِمِ

ووجه النظرها الى طاهرة في شعر مروان وأى قامه الخطيب الذي أنشد في هذا المعنى أحياناً له يُستدلُّ منها على اغتباط الشاعر ، وجمهرة الناس طبعاً ، والوفاق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك ، معجزة للعاملين على رتقي الفتق والثام الصدع . ولكن وأسفاه ! فإن للوجهة النفعية خطرهما بين الملوك وبين السعاة النخيمة ، ولها أثرها السيء في الصفاق تُهَمُّ بالأبرياء ، ولها مَقْبَهُ الصَّارِهُ في بدر دور الكراهية والغصاء ، بين الملوك والزعماء .

وقد بينا لك أن الأمان الذي كتبه الرشيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاء والقضاة وزعماء الشعب . وقد يكون من المفيد في تصوير ناحية من نواحي العصر أن نذكر

لك ها نصيب هذا الأمان وحطه من بعض الفقهاء ، في الفتيا ينقصه وآخرين بالوفاء له . ولدع لأنى خطاب أحد المعاصرين الكلمة قال . إن حعفر بن خالد حدثه ليلة وهو في سمره قال : دعا الرشيد اليوم يحيى بن عبد الله بن حسن ، وقد حصره أبو البحتري القاصي ، ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف ، وأحصر الأمان الذي كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول في هذا الأمان أصحح هو ؟ قال : هو صحيح ، فحاجه في ذلك الرشيد ، فقال له محمد بن الحسن : ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولى كان أمما ! فاحتملها الرشيد على محمد بن الحسن ، ثم سأل أبا البحتري أن يظفر في الأمان ، فقال أبو البحتري : هذا الأمان مُتَقَصُّ من وجه كذا وكذا ! فقال الرشيد . أنت قاصي القصاه وأنت أعلم بذلك ! رمزق الأمان وتفل فيه أبو البحتري !

ولك أن تعلق ما شئت على تصرف أبي البحتري ، الفقيه الديني ، الذي أصبح بغيته تلك قاصي القصاه ، ولك أن تستدبط ما أحببت في موقعه ومروسته حين رمق الأمان ، ولم ترد قيمته في نظره على "قصاصات الورق" حتى تفل فيه . ولك أن تقول ما أردت في موقف زميله محمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف وعدم ترخصه أو جموده . أمّا نحن فإننا لا نعدو حُطَنًا التي رسمها لأنفسا ، في مثل هذه المواقف ، من الترام الحيدرة التامة وعدم الرح بأنفسا في المزالق الخطرة ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى بالمهمة بين الرشيد ويحيى بن عبد الله الساعون ، وكلما رقى الرشيد له أثاروا في نفسه السحيمة عليه ، فقد ذكروا أن يحيى بن عبد الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن لنا قرابة ورحما ولسنا نترك ولا ذيلم ، يا أمير المؤمنين ، إنا وأتم أهل بيت واحد ، فاذكرك الله قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علام تحبسن وتعدن ! قال : فرق له هارون ، ولكن الريرى — وكان حاكما للمدينة أيام الرشيد ، وهو يعد من الأحراب المعادية للعلويين واشتهر بشدة الغضب لهم ، وكان حاصرا مجلسهما — أقل على الرشيد فقال : « يا أمير المؤمنين لا ينزك كلام هذا ، فإنه شاق عاين ، وإنما هذا مه مكر وخبث ، إن هذا أفسد علينا مدينتنا ، وأظهر

فيها العصيان؛ قال : فأقبل يحيى عليه ، فوالله ما استأذن أمير المؤمنين و الكلام حتى قال : أفسد عليكم مدينتكم ! ومن أتم عافاكم الله ! قال الزبيرى : هذا كلامه قدأماك ، فكيف إذا عاب عك ! يقول : ومن أتم استخفافا بنا ، قال : فأقبل عليه يحيى فقال : نعم ومن أتم عافاكم الله ! المدينة كانت مهاجرة عبد الله بن الربير أم مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ومن أنف حتى تقول أفسد عليا مدينتا ! وإنما بآثاى وآناه هذا هاجر أنوك الى المدينة . ثم قال « يا أمير المؤمنين إنما الناس محى وأتم ، فان خرحا عليكم قلنا : أكلتم وأحتمموا ولبستم وأعريتمونا وركبتم وأرحلتمونا ، فوحدا بذلك . مقالاً فيكم ، ووحدهم محررجا عليكم مقالاً فيا ، فتكافأ فيه العول ، ويعودُ أمير المؤمنين على أهله بالفضل ، يا أمير المؤمنين فلم تحترئ هذا وصرأؤه على أهل بتك تسعى بهم عدك ! إنه والله ما يسعى بنا اليك نصيحةً منه لك ، وإنما يأتيا فيسعى لك عدنا عن غير نصيحةٍ منه لنا ، إنما يريد أن يباعد بيننا ، ويستئى من بعض بعض - والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الى هذا حين قُتِلَ أنى محمد بن عبد الله فقال : لعن الله قائله ! وأنشدنى فيه مرثيةً قالها نحوا من عشر بن يتا ، وقال : إن تحزكت في هذا الأمر فانا أول من يابعدك ، وما يبعدك أن تلحق بالبصرة فايدبا مع يدك ! تعبيرٌ وحه الربيرى وأسود ، فأقبل عليه هارون فقال . « أى شى يقول هذا » قال : كادب يا أمير المؤمنين ما كان مما قال حرف ! قال . فأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله وقال : تروى القصيدة التى رثاه بها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أصلحك الله ! وأنشدها إياه ، فقال الزبيرى : والله يا أمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو - حتى أنى على آخر اليمين الغموس - ما كان مما قال شىء ، ولقد يقول على ما لم أقل . قال : فأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال : قد حلف فهل من يديه سمعوا هذه المرثية منه ؟ قال ، لا يا أمير المؤمنين ، ولكن أستحلعه بما أريد ؛ قال فاستحلعه ، قال : فأقبل على الربيرى فقال : قل أنا برئ من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنتُ قلته ؛ فقال الربيرى : يا أمير المؤمنين أى شىء هذا من الحلف ! أحلف له بالله الذى لا اله إلا هو ويستحلبنى

بشيء لا أدرى ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به ! فقال له هارون : احلف له وبلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولي وقوتي . ويقول الطبري : إنه اضطرب منها وأرعد ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أدرى أى شيء هذه اليمين التي يستحلفني بها وقد حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفن له أو لأصدقن عليك ولأعاقبك ! فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولي وقوتي إن كنت قتلته ، قال : نخرج من عند هارون فصر به الله بالفالج مات من ساعته .

وقد روى المؤرخون العرب في صدد موت ذلك الريري روايات لا نرى بأساً بإيرادها ، فقد ذكر الفجرى أنه ما انقضى النهار حتى مات ، حملوه الى القبر وحطوه فيه وأرادوا أن يطعموا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا البراء فيه ذهب التراب ولا ينظم القبر فعلموا أنها آية سماوية ، فسقموا القبر وراحوا . والى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان في ميمته اذ يقول :

يا جَاهِدًا في مَسَاوِيهِمْ يُكَنَّمُهَا * عَدُوُّ الرِّشِيدِ يَحْيَى كَيْفَ يَنْكُمُ
دَاقَ الرِّيرِيُّ عَنَ الْحِنِثِ وَانْكَشَفَتْ * عَيْنُ آبِي فَاطِمَةَ الْأَقْوَالِ وَالْثَنَمُ

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتِلَ يحيى في الحبس شر قتلة . على أن هالك رأيا آخر في موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكل به في الحبس منعه الأكل مات .

ولسَطُرُ ما برويه لنا مُعَاَصِرٌ وهو عاص بن الحسن عما كان من الرشيد بعد ما أصاب الريري مما أجمع رواة العرب على إصابته به إثر كذبه في قسمة ، فقد قال . دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال يا عاص بن الحسن أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذى صَرَعَهُ لِسَانُهُ ، ووقاك الله يا أمير المؤمنين قطع أرحامك ؛ فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحب ، ورفع الست فدخل يحيى وأنا والله أتينا الارتياح في الشيخ ؛ فلما نظر اليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الحبار ! قال : الحمد لله

الذى أمان لأمر المؤمنين كذب عدوه علىّ ، وأعهده من قطع رحمة ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر بما أطلته وأصلح له وأريده — فكيف ولست تطالب له ولا مريده — ولم يكن الطغرثه إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق في الدنيا عيرى وعيرك وعيره ، ما تقويت به عليك أبدا ، وهذا والله من إحدى آفاته — وأشار الى الفصل بن الربيع — والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ثم طمع معى في زياده ثمره لما عك بها ، فقال : أما العباسى فلا تقل له إلا حيرا وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعض يوم . قال أبو يونس : كان هارون حبسه ثلاث حبات مع هذه الحبسة وأوصل اليه أرسمائة ألف دينار .



وبعد ، فقد عنيّا بإثبات الروايات فيما كان من سيرة هذا الخليفة العباسى مع علوى من رجالات عصره لتبين نفسية المعاصرين والولاة ، وما اطوت عليه صدورهم من حث لآل علىّ وتوقر لأشخاصهم ، وعتهم بالكرامات والمعجزات . وإذا اعتبرت أب هذا كله قد حصل في عهد حليفه عظيم إسعائه وفواصله ، محبوب لما أثره وبوافه ، قوى في مملكته ، كثير الأنصار في شيعته ، أيقنت أن للحزب العلوى أنصارا يعتد بهم ، ومكانة في القوس يُحْفَلُ بها . وهذا معقول حدا ، وإلك لتستسيغه من نفسك وفهمك اذا ذكرت أن أنصار هذه الدولة هم من الفرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالى ونى أمية حاصة من عدا وئسجاري ، ومقت وكراهية ، وأنت تعلم أن الدعوة في بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم ، وأن القائمين بها كانوا من الفرس ، فمن المعقول أن تُشرب قلوبهم حب هذه الدعوة وأفراد هذه الدعوة ، والتغنى بمذهب هذه الدعوة ، مد الساعة الأولى ، ولا يزيد مرور الزمان كل دعوة أو مذهب حرى إلا قوة وانتشارا وكثرة أنصار ورسوخ عقيدة . فلاحظ ذلك جيدا ، فإنه قد يفيدا في تعليل بعض أفعال البرامكة .

وليرجع الى التحدث معك باختصار عن بقية الحوادث الداخلية في عصر الرشيد ، ولقسم القول الى ناحيتين : أولاها نوارت ناتجة عن العصبية ، وثانيهما فتوق ونوارت في شتى ولاياته .

أما الحوادث العصبية بين التزارية واليمينية وعيرهما ، فإن آنَ جرير الطبرى يَحْتَسِنُ أن قد وقع هياج في الشام سنة ست وسبعين ومائة بين التزارية واليمينية ، ورأسُ التزارية يومئذ أُوَ الهيدام ، فولى الرشيدُ موسى بن يحيى بن خالد ، وضم إليه القَوَادِ والأَجَادَ ومشايخَ الكتّاب ، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنتِ الفتنة .

وأما الثوراتُ الأتَرَفَا نَجِدُ في أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة ، وسنة ثمانين ومائة ، وسنة سبع وثمانين ومائة ، ما يدلُّ على حصولِ فتنٍ وحروبٍ من جرّاءِ العصبية أيضا . ولقد حصلتْ حروبٌ في نُرَاسَانَ والطالقانِ وحُورَانَ والجزيرةِ واليمنِ ومصرَ وأرمينية وحمصَ لراع بن ليث ، وكان الصُغُرِيُّ أكثرَها حليفَ حيوش الرشيد وولاته . على أن حُلَّ هذه الثوراتِ ناجمٌ في الواقعِ عن اتساع رقعة المملكة ، وسُرعة تبديل الولاء ، وسوء تصرف بعض هؤلاء الولاء ، ولا سيما في جباية الأموال ، ومحاولة إرضاء الخليفة من جهة ، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى .

وإما السحترى بما قدماه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد ونتقدّم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

٢ السياسة الخارجية :

أما ملخصُ السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمه الى نقطتين : الأولى علاقته بالروم ، والثانية علاقته بالأندلس .

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية ، في بحثها عن الرشيد ، الى أن حروبا بلغت نهاية الشدة قد وقعت بين الرشيد والبنظيين . وقالت : إن ولاية الرشيد عملوا مد بداية عهده على تقوية الحصون التي على الحدود ، وأنهم كانوا يقومون بغزوات في البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة ، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١ هـ (٧٩٧-٧٩٨ م) ، بيد أنه عَجَلَ بعودته ، ثم شبتْ حربٌ في السنة التالية كالعادة ، واذ كانت الأمبراطورة إيرين كانت تعاني متاعبَ داخلية فقد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية .

على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تنبأ الأمبراطور بيقوم أريكنة سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) فقد بعث الى الخليفة بكتاب مُهين طلب فيه أن يُعيد اليه الجزية التي أُدِّيت من قبل ، فلم يُخفّل الخليفة بشروط الصلح فعادت الحروب .

وفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) استولى هارون على "هرقلّة" واضطر الأمبراطور الى أن يدفع جريّة جديدةً ، عن نفسه وعن أسرته ، فوُجِ الحرية العامة . وفي السنة التالية هزَمَ الزطويون يزيد بن مقلد ، وكانت أغلاطُ هرثمة معهم ممائلةً لأغلاط « ابن مقلد » .

ويقول بعض المؤرّخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة بـشَرلمان ، وقد ذكر أن كليهما كان يبعث سفيراً عند الآخر . على أنه لم يرد ذكر لذلك في المراجع العربية ، وإنه ليشك كثيراً في صحة هذه الرواية . وأما علاقته بالأُمويين في الأندلس ، فلم يكن مرجحاً أن تكون علاقة صفاء ومودة ، فقد كان العباسيون يعدّونهم حارجين على سلطانهم ، ولا يروون في دولتهم نظيراً يستحقّ أن يعيش وإياهم في سلام وهدوء .

وقد ظهرت أيام الرشيد دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « صفّ » وهو أخو يحيى بن عبد الله ، فسار الى مصر وشخص منها الى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التفّ حوله براهة أوربة ، فأنشأ هناك أول خلافةٍ للعلويين وهي دولة الأدارسة .

وطهرت كذلك أيام الرشيد دولة الأغالبة في إفريقية ، وإنه ولّاها إبراهيم بن الأغلّب التميمي ، ليجمعل من مملكته حاجراً ميعاً بين الخلافة العباسية والأدارسية الذين بالمغرب الأقصى ، وكذلك بينه وبين الأندلسيين ، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة ، فعظم أمره ، وصار كملك مستقل ، إلا أنه كان يخاطب للرشيد .

٣ - التكلم عن البيعة

والآن نتحدث اليك عن أكرم أعلاط الرشيد، وأبعدا أثرا في حياته وفي الدولة العباسية، بل في حياة المسلمين السياسي بوجه عام، وهي بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأميين والمأمون والقاسم .

وقد قدما لك في الكتاب الأول رأيا في هذا النوع من احتياط الخلفاء لأسيهم ولأبنائهم ، وما كان له من الأثر السيئ في حياة القصور خاصة وفي السياسة عامة ، ولا سيما البيعة بولاية العهد لأكثر من واحد ، فقد كان ذلك يشئ بطانات مختلفه ، ويكوأ أحرانا لا تلتف حول مدبأ أو فكره وإنما تلتف حول الأشخاص والمناص التي تنتظرهم .

وهذه الطائئات والأحزاب ، تنافس في القصر ، فتفسد على الخليفة والأمراء حياتهم الخاصة ، وتقطع ما بينهم من صلات كان يحب أن ترضى حرمتها . كما أنها تنافس خارج القصر ، فتفسد على الدولة سياسها العامة فتصرفها عن مرافقها الداخلية ، كما تصرفها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهايتها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثنائية أو الثلاثية سئة أموية ، آتت ثمرها الخبيث ، وجرأت على الأمويين أنواع الومال فزقتهم وأضاعأت ملكهم ، كما قدما ، وكان المعقول أن يسفيد العباسيون من هذا الدرس ، ويعرضوا عن سئة مكره في نفسها ، وقد سنأ أعداؤهم السياسيون - مع هذا كله - تورط الرشيد فيما تورط فيه عبد الملك ، وخلفاء عبد الملك ، وتعرضت الدولة العباسية لما تعرضت له الدولة الأموية ، بل كان حطرها هذه السئة على العرب أيام بنى العباس أشد منه أيام بنى أميه . ذلك أن سقوط الدولة الأموية قد نقل السلطان من أسره إلى أسره واحتبط به لقر بنش . فاما أثر هذه السنة أيام بنى العباس فهو نقل السلطان الفعلي من العرب إلى الفرس ثم إلى الترك ، وحصل الخلافة بوطا من العبث والسحرة في أيدي المتعبلين من القواد والخدم والرقين .

ومهما نتمسك الأسانـب لتوزط الرشيد في هذه السنـة التي كان يحب أن يتحصها فلـ نستطيع أن نهمل سببين أساسيين . أحدهما تأثر القصر العاسي بسنـ الملك العارسي القديم وسياسته . والآخر تأثر الخلفاء بما كان للنساء ، حرائره وإمائهن ، من سلطان ويهود . فلولا هذان السببان لما توزط الرشيد في هذه السنـة التي توزط فيها أبوه المهدي ، وداى هو غير قليل من ثمرها .

ستقول : ولكن الرشيد احتاط ، فأخذ على أبسانه اليهود والمواثيق أن فى بعضهم لبعض ، ويبر بعضهم ببعض . ولكن ما قيمة هذا الاحتياط أمام سَطوة الملك وسلطانـه ، ومطامع الإنسان التي لا حد لها ؟ وما قيمة هذه اليهود والمواثيق وقد أثبت التاريخ في حلِّ مراحلـه أنها لا تُعتبر عهودا ومواثيق إلا عند الصعفاء من الأمم والأفراد ، أما الأقوياء ودوى السلطان والطش فهي عندهم ليست بعهود ولا مواثيق ، إنما هي « قِصاصات ورق » لا أكثر ولا أقل ، وقد بقي ناسها « قِصاصات ورق » أولئك الدس وكَدَّوها وشهدوا على صحتها ، وبصاموا في البر بها والوفاء لأصحابها ' .

وقد كالب الخلفاء قبل الرشيد بحتاطون لكل بيعه فيها أحد لليهود والمواثيق . ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياط أيام سى أميه ولا أيام سى العباس .

وإليك الآن أحاديث المؤرّخين من العرب وغير العرب في هذا الموضوع :

لما لاحظ الفصل من يحيى سبه خمس وسعين ومائة أن جماعة من سى العباس قد مدّوا أعناقهم الى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له وليٌ عهد ، أجمع على البيعه لمحمد ، ولما صار الفصل من يحيى الى خراسان فترق في أهلها أموالا وأعطى الجند أعطيات متتابعة ، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد ، فبايع الناس له وسماه الأمين . وفى ذلك يقول النمرى :

أمسى عمرو على التوفيق قد صَفَقَتْ * على بد الفصل أيدى العُجَم والعرب
بيعية لولى العهد أحكمها * بالمصح مه والإشفاق والحدب
قد وكّد الفصل عقدًا لا أنقاص له * لمصطفى من سى العباس مُتَحَب

ولما تنهى الخمر الى الرشيد بذلك وباع له أهل المشرك بايع، وكتب الى الآفاق
مُؤيِّع له في جميع الأمصار . فقال أمانُ اللاحق في ذلك :

عَزَمْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الرَّشْدِ . بِرَأْيِ هَدْيٍ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ دَى الْحَمْدِ

ويقول لنا اليعقوبى في هذا الصدد : إن هارون بايع لابنه محمد بالعهد من بعده
سنة ١٧٥ هـ ومحمد آن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّة، وأخرج محمد الى
القواد، فوقف على وسادة حمد الله وصلى على نبيه، وقام عبد الصمد بن علي ، فقال :
أيها الناس لا يعزكم صغر السن ، وإنما الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء .
وجعل الرجل من سى هاشم يقول في ذلك حتى اقصى المجلس ، وتبرّت عليهم الدراهم والدنانير
وفار المسك ويصص العبر .

ويقول لنا الطبرى في حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : أن فيها كان اصراف الرشيد
من مكة، ومسيره الى الرقة، وبيعته بها لآسه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأحد
البيعة له على الجند بذلك بالركة، وصمّه لياه الى حمصر بن يحيى وأنه قد بويع له بمدينة السلام
حين قدمها ، وولاه أوه خراسان وما يتصل بها الى همدان ، وسماه المأمون . وقد قال
في ذلك سلم بن عمرو الخاسر :

بايع هارون إمام الهدى * ليدى الحجا وأنخلق العايل
المخلف المتلف أمواله * والضامن الانتقال للعامل
والعالم الناقد في علمه * والحاكم الفاصل والعايل
والرائق الفائق حلف الهدى * والقائل الصادق والعايل
لخير عباس اذا حصّلوا * والمفصل المجيدى على العائل
أبرهم سزا وأولاهم * بالعرف عد الحدث البازل
لمشبه المنصور في ملكه * اذا تدجّت ظلمة البازل
فتم بالمأمون نور الهدى * واكشف الجهل عن الجاهل

وفي سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لأبيه القاسم بعد المأمون ، وحل أمر القاسم في حكمه وإقراره الى عبد الله إن أفصت الخلافة اليه .

وأراد الرشيد أن يوثق الأمر بين بنيه في ولاية العهد ، حتى يسدّ دونهم باب الفتنة ، فرأى أن خير وسيلة لذلك هي ما يحدثنا عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمد وعبد الله معه وقواده ووزرائه وقصائده في سنة ١٨٦ هـ ، وحلف بالرقه إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكي على الحرم والحرائن والأموال والعسكر ، وأشخص القاسم أباه الى مَنبج ، فأنزله إماما بن صَمَّ اليه من القواد والجديد ، فلما قصي ماسكته ، كتب لعبد الله المأمون أباه كتابين جهداً للفقهاء والقضاة آراءهم فيهما : أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وليَّ عبدُ الله من الأعمال وصيرَ اليه من الصَّياع والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخليفة والعالم والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وحل الكُتَّاب في البيت الحرام ، وبعد أحده البيعة على محمد وإشهادَه عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتَّابه وغيرهم ، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام ، وتقدّم الى المحبة في حفظهما ومع مَنْ أراد إخراجهما والذهابَ هما ، فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد النُمَيْمِيّ وإبراهيم المَخْنِيّ . أن الرشيد حصر وأحصر وجوه بني هاشم والقسّواد والفقهاء وأدخلوا البيت الحرام وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد وأشهدَ عليهما جماعة مَنْ حَصَرَ ، ثم رأى أن يُعلّق الكتاب في الكعبة . فلما رُفِعَ لُيُعلّق وقع فقيلاً : إن هذا الأمر سريعٌ انتقاصه قليل تمامه . وقد أثننا الكُتَّابين ، لعظيم خطرهما التاريخي ، في باب المنشور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وبعد ، فإن لعصر الرشيد مكانته وقدره ، فقد ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية أيما ازدهار ، وظهرت فيه آثارٌ تحقّل المدنية في العصور التي سبقتها ، كما أثر هو في العصور التي تلت . ولقد صدق صاحب «التجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبي علي صالح بن محمد الحافظ ،

قال : « اجتمع للرشد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه الرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، وديمه العاص بن محمد عم أبيه ، وحاحه الفصل بن الربيع أنبه الناس وأعظمهم ، ومعيه إبراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة بنت عمه جعفر » .

وإنا لحتم معحثاً في حياة الرشيد وعصره ، بكلمه تين وجهة نظر مؤرخ كبير المكانة في الشريقات وهو الأستاذ «ميور» ، ونتقدم بملاحظة واحدة وهي شدته على هارون الرشيد . وقد يكون الذي دفعه الى ذلك تأثره بمرجه العظيم الذي وصعه الأستاذ «ويل» . وقد اعترف «ميور» نفسه بأن «ويل» كان بالغاً في قسوته على هارون مبلغا عظيما على نقيص ما عهد فيه من الحدة والهدوء في أحكامه ، فقد اعتبره من الطم في الدروة ، ولم يكن الرشيد من الرذاه مملع من سقه ومن أتى بعده . ويظهر أن الفاحمة البرمكية هي التي أعطته هذه الأسبقية التي لا يُعْبَطُ عليها في حكاية الشرق وتاريخه .

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الرد على الأستاذ «ويل» في حاشية كتابه ، أن كتابته عن الرشيد ، مع حفظها العظيم من المتانة والإبصار ، لا تزال عليها غلالة من صرامة «ويل» وقوادع نقده .

ترجم لك رأى «ميور» ، لأنه يكاد يكون صورة صحيحة للرأى العلمى الأخير في الرشيد ، فهو لا يعدو الرأى الذى أبداه الأستاذ ك . ف . «زوتوسين» في العدد الثانى والعشرين من دائره المعارف الإسلامية . ونحن جدُ عالين بحظر المراجع العديدة التي استند عليها «زوتوسين» في رأيه في الرشيد . فلننقل لك الآن كلمة «ميور» فهي مثلُ الأخرى إن لم تكن أوسع وأبلغ .

قال الأستاذ «ميور» في كتابه عن الخلافة : «إن مكانة هارون الرشيد وأبنه المأمون في التاريخ لمي أسمى مكانة بلغها الخلفاء العباسيون ، وإن هارون لقيس بأن يكون في الدروة مع الخيرة من أفاضل ملوك أسرة بني أمية ، لولا شائبة القساوة المدطوية على الخلل التي وصمت سيرته جمعاء .

أفد كان الرشيد في قصوره محوطاً بصروب الرفاهية والرعد، وكان ملكاً في مكارمه وجوده، ومع ذلك قد ترك في أفسانه خرائط عامرة لعلت تسمائه مليون، جمعت وسائل العسف وعدم التدقيق. وإذا استنبينا ما ذكرناه فإن إدارته كانت عادلة موفقة.

ولما كان الرشيد قد اعتاد مد ميعه شبابه الحياة الحريسه فإنه كثيراً ما شاطر جدّه ميدان القتال. وقد كان من حراء انتصاراته العديده، لا سيما على اليونان (الروم)، أن طبع عصره بطابع المحيد والصيت.

ولم يظهر حليقة، من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الحمه والنشاط في مختلف حركاته، سواء أكانت في سبيل الحق أم الإدارة أم الحرب.

على أن أصل شهره هذا الخليفة، ومصدر صيته، راجع الى أن حكمه غلّ بدحول عصر الآداب، فقد كان عصره المثابة التي يهرع اليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم، وكانت سؤو البلاعه والشعر والتاريخ والفقه والطب والموسقى والصون نافقة، إذ يغالها الخليفة مقابلة من في سعيته السؤل والكرم، كل ذلك مما آتى أكله وممره الناصح في العصور الآتية.

أفد كان الرشيد يُحير العلماء في كل من حازاب ملكية نيلة، على أن الشعراء كانوا موضع كرمه الخاص. وهاك مثلاً ما أحاربه مروان س أبى حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فرفده الرشيد بكيس فيه خمسة آلاف دينار وكساه حلعتة تشريقاً له، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على بردون من حاص مراكه. ١٥

٤ — الدولة البرمكية والتكبة البرمكية

صدق الفجرى إدا يقول: إن دولة البرامكة كانت عرة في حبه الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدت اليها الرحل، ونيطت بها الآمال، وذلّت

لها الدنيا أفلاذ أجباده، ومسحتها أوفر إسعادها، فكان يحيى وبنوه كالجود زاهرة، والبحور زاهرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة؛ أسواق الاداب عندهم بافقة، ومراتب دوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبهة المملكة ظاهرة، وهم ملحا للهيئ ومعتصم الطريد، ولهم يقول أبو نواس :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم * بجى برمك من راحيل وعاد

ويؤخذ من المباحث التاريخية الحديثة للمستشرقين : أن البرامكة هم أسرة فارسية أنقحت أوّل الوزراء الفرس للحلافة . وليست لفظة برمك باسم لشخص ، وإنما تدل على رتبة وراثية خاصة برئيس الكهّان بمعد «نوهار» ببلغ . وكانت البرامكة تملك الأراضى التابعة للعبد، ويبلغ طولها ثمانية فراع وعرضها أربعة، فكانت مساحتها أربعين وسبعائة ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكات أو بعضها في حوزة البرامكة في الأيام التالية . ويقول ياقوت . إن قرية « روان » — الكبيرة الغنية — وهى شرق بلخ كانت في حوزة يحيى ابن خالد .

ومعنى الاسم بالسسكريبية : الدير الحديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذى . وقد وُصف كذلك بواسطة حاج صبي اسمه «هوان شايخ» في القرن السابع للسج في كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية «ست جوليان» . على أن هذا المعبد كان معروفا لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أنظر طبعة جوج ص ٣٢٢) إذ فُزر أن الوهار كانت محصنة لعباده الأوثان لا النار . وإذا تركنا جانباً بعض المبالغات في وصف ابن الفقيه، فإننا نجد وصفاً مطابقاً للبوذية .

فللاحظ هذه العبادة لأقطاب من زعماء المرس لموا دورا هاما في التاريخ العباسي . وللاحظها جيدا، فر بما أفادتنا في إمطة اللّثام قليلا عن عبادات لغثا عديدة اعتبرت زنادقة أو مانية أو ملحدين . ومهما كانت هذه الفئات موضع اضطهاد من خلفاء العصر، فإنه من المبالغة الكتابية التي لا تُرضى العلم ولا التاريخ في شيء، ألا يُحفل بها

أولا يشار إليها إشارةً طفيفةً، اذا لم يكن لدينا من المواد ما نسمح لنا بأن نفرد لدراسها بآناً، كما حفل بها الخلفاء فأوردوا لها إدارةً أتموا رئيسها «صاحب الرادقة» .

ولعل أول ذكرٍ لبرمكيٍّ حفل به التاريخُ واعتبره مؤسساً لتلك الأسره البرمكية الى نعت في تلك الأيام الراهية الزاهرة والتي امتدت الى أن أقصت في أيام الرشيد، وطُرد إليه باعتباره حذ البرامكة، هو خالد بن برمك الذي استورره السفاح بعد أن سلمه الحلال وأبى الجهم . كان خالد بن برمك من رحلات الدولة العباسية، فاصلاً حليلاً كما حارماً يقطاً، استورره السفاح وخف على قلبه، وكان يسمى وزيراً . وقيل . إن كل من استورّر بعد أن سلمه كان يتحسُّ أن يسمى ورياء، تطيراً مما حرى على أي سلمة، ولقول من قال :

إن الوزير وزير آل محمد - أودى من يتسكك كان وزيرا

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرا . كان خالدٌ عظيمَ المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوما . يا خالد ما رصيت حتى استحدثتني ، فعزع خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأما عبدك وحادمك ! فصحك وقال : إن ربطه ابنتي، نام مع انتك في مكانٍ واحدٍ، فأقوم بالليل فأحدهما قد سرح العطاء عنهما، فأردّه عليهما؛ فقتل خالد يده وقال . مولى يكتسب الأحرى عده وأمتيه .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشعراء، وانتجبه الناس . وكان الوافدون يسمون سُؤلاً، فقال خالد : إني أستقح هذا الاسم لمثل هؤلاء ومنهم الأشراف والأكابر، فسماهم الرؤار، وكان خالد أول من سماهم بذلك، فقال له بعضهم والله ما ندرى أى أياديك عدنا أحل، أصلتنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه شار بن برد فقال فيه :

لعمري لقد أجدى على ابن برمك * وما كل من كان العنى عده يُجدى
حلبت بشعري راحتيه فدرت * سمحاً كما در السحاب مع الرد
اذا جتته للحمد أشرق وجهه * اليك وأعطاك الكرامة الحمد

له بَعْمٌ فى القوم لا يستثبها حراءٌ وكيّلَ التاجرِ المذمّمُ
مُعِيدٌ ومِتْلَافٌ سبيلُ ثرائهِ ادا ما عدا أو راح كالجزرِ والمذ
أحالدُ إنَّ الحمدَ يبقى لأهلِهِ حمالا ولا تبقى الكنوزُ على الكدِ
فأطعمِ وكلِّ من عارةٍ مستردِّهِ ولا تُبقِها إنَّ العوارى للردِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وفادِهِ حَسَةً آلاف درهم ،
وأمر خالد أن يُكْتَبَ هذان البيتان ، الأخيران ، فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه .
وقال أسه يحيى : آخرما أوصانى به أبى العملُ بهدين البيتين .

واقعد أشربا فى كلمتنا عن الهادى الى ملع إحلاص يحيى بن خالد البرمكى للرشيد
فى أيام الهادى حينما شرع فى حلع هارون من ولاية العهد ، وإن الأخبار التى رواها الطبرى
فى ستة سعين ومائة ماطقةً بولاء يحيى وصدق إحلاصه .

ومجددُ ما هنا أن تقتطفَ موقعينِ كمثلِ لمواقفِ يحيى مع الهادى ذودًا عن الرشيد
وحقوى الرشيد ، فإنهما يعطيانا صورةً من إحلاص آل برمك للرشيد ومبلغ ما رُوِّعَ به
يحيى فى سبيل الرشيد .

ذكر أبو حصص الكرماني أن محمد بن يحيى البرمكى حدثه قال : بعث الهادى الى يحيى
ليلا فأيس من نفسه وودع أهله وتحفظ وحدد ثيابه ولم يشك فى أنه يقتله ؛ فلما أُدْحِلَ عليه
قال : يا يحيى مالى ولك ! قال : أنا عدك يا أمير المؤمنين ، ما يكون من العبد الى مولاه
إلا طاعته ! قال : فَلِمَ تدخل بيى وبين أخى تفسده على ؟ قال : يا أمير المؤمنين من أنا
حتى أُدْحِلَ بيكما ! إنما صيرنى المهدي معه ، وأمرنى بالقيام بأمره ، ففقت بما أمرنى به ،
ثم أمرتنى بذلك فانتبهت الى أمرك . قال . ما الذى صنع هارون ؟ قال : ما صنع شيئا
ولا ذلك فيه ولا عده ، قال : فسكى غضبه . وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع فقال له
يحيى : لا تفعل ، فقال : أليس يُتركُ لى الهنىء والمرئُ فهما يسعاني وأعيش مع أبنه عمى ،

وكان هارون يحبُّ أم جعفر وجداً شديداً، فقال له يحيى . وأب هذا من الخلافة ! ولعلك ألاَّ يترك هدا في يدك حتى يخرج أجمع ، ومعه من الإحابة .

وذكر الكرماني أنصاعاً عن خزيمة بن عبد الله قال : أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد ، على ما أرادته عليه من حلج الرشيد ، فرفع اليه يحيى رقعة : إن عندى نصيحةً ، فدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين أُلحني فأحلاه ، فقال . يا أمير المؤمنين أرايت إن كان الأمر — أسأل الله ألاَّ نسلُقه وأن يقدمنا قبله — أظن أن الناس يُسلّمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ، ويرصون به لصلاتهم وحجهم وعزهم ! قال والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين أقتام أن اسموا بها أهلك وحلهم مثل دنان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك ! فقال له : انتهى يا يحيى . قال وكان يقول . ما كلمت أحداً من الحلفاء كان أعقل من موسى . قال وقال له لو أن هدا الأمر لم يُعقد لأحيك أما كان ينبغي أن يعقده له ! فكيف ناب تحل عقده وقد عمده المهدي له ! ولكن أرى أن تُقر هدا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به أتيته بالرشيد فجام نفسه وكان أول من يُبايعه ويعطيه صفقةً بده ، فقال : فقبل الهادي قوله ورأيه ، وأمر بإطلاقه .

ولما ولي الرشيد الخلافة قلد يحيى بن خالد الوزارة ، وقال له : قد قلدتك أمر الرعية وأحرجته من عني إليك . فأحكم في ذلك مما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، وأعزل من رأيت ، وأمض الأمور على ما ترى . ودفع اليه حاتمته . ففى ذلك يقول اراهم الموصلى .

الم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هارون أشرق نورها

بين أمين الله هارون ذى السدى * فهارون واليا ويحيى وريها

وليس في مقدورنا أن نصوّر شخصية يحيى بن خالد بن برمك بأحسن من إثنائنا رأيته في الأحاديث ، فقد قيل له : أى الأشياء أقل ؟ قال : قاعة دى الهمة العبيدة بالعيش الدون ، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع ، وسكوت النفس الى المدح . وقيل له :

«ما الكرم» فقال . مَلِكٌ في زِيٍّ مَسْكِينٍ . وقيل له : ما الجود ؟ فقال . غفوَ بعد قدرة .
وقال مرة : اذا فُتِحَتْ بِنِكَ و بين أحدنا من المعروف فاحذرْ أن تُفْلَقَه ولو بالكلمة
الحميلة . وقال . «أحسنُ حملة الولاة إصابتهُ السياسة، ورأسُ إصابة السياسة العملُ بطاعة
الله، وفتحُ بابين للرعية، أحدهما رَأْفَةٌ ورحمة وبذل وتمنُّن، والآخر غِلْظَةٌ ومباعدةٌ
وإمساكٌ ومع» .

ويروي لنا "ياقوت الرومي" في "معجته" عنه : أنه لما كان الفضل بن يحيى والياً على
نحراسان، كتب صاحبُ البريد الى الرشيد كتاباً يذكر فيه : أن الفضل تشاعل بالصيد واللدات
عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب
واكتب الى الفصل كتاباً يردعه عن مثل هذا، فذبحي يده الى دواء الرشيد وكتب الى
انه على طهر الكتاب الذي ورد من صاحب البريد .

"حفظك الله يا بني وأمتع بك . قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل
بالصيد ومداومة اللدات، عن النظر في أمور الرعية ما أنكروه، فعاوِذ ما هو أزيُّ بك، فإنه
من عاد الى ما يزييه لم يعرفه أهل زمانه إلا به والسلام" وكتب تحته هذه الأبيات :

لِصَبِّ نَهَاراً فِي طَلَابِ الْعِلَالِ . وَأَصْبِرْ عَلَى فَقْدِ لِقَاءِ الْحَبِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ بَدَأَ مُقْبِلًا . وَعَابَ فِيهِ عَكَ وَجْهَ الرَّقِيبِ
فَادِرِ اللَّيْلَ بِمَا تَشْتَبِي . فَأَمَّا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ
كَمْ مِنْ قَتَى تَحْسَبُهُ نَاسِكًا . يَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبِ
أَلْقَى عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَسْتَارَهُ . فَبَاتَ فِي لَهْوٍ وَعَيْشٍ خَصِيبِ
وَلَذَّةِ الْأَحْمَقِ مَعْشُوفَةً . يَسْعَى بِهَا كُلُّ عَدُوٍّ مَرِيبِ

هذا هو يحيى الذي يقول عنه المأمون : «لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في البلافة
والكفاية والجود والشجاعة» . وهذا هو يحيى الذي كان يُجرى على سفیان الثوري رضي

الله عنه ألف درهم في كل شهر ، فكان اذا صلى سعيان يقول في سجوده : « الله إن يحيى كفاني أمر دنباى فاكفه أمر آخرته » .

هذا ، واذا علمت أن أم الفضل بن يحيى ، وهى زيب بنت مير ، كانت ظفرا للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزران . والده الرشيد ، الفضل بلبان الرشيد ، استطعت أن تمدر الى أى مدى كانت علاقه الرشيد بآل برمك ، وهو لم يدرج في مهده ، ولم يعرف بين أمسه ويومه .

ونجد في أخبار سنة ست وسعين ومائة أن الرشيد وتى الفصل بن يحيى كور الجبال وطبرستان ودشاوند وقومس وأرمبية وأذربيجان ، وندبه لحرب يحيى بن عبد الله الطالى حين خروجه بالدليم ، فوفق الفضل لأخذ أمان له من الرشيد وأصلح أيماء لإصلاح ونجح النجاش كلة في غزواته وحروبه ، حتى قال فيه أبو ثمامة الخطيب :

للفضل يوم الطالقان وقبله * يوم أناخ به على حاقان
ما مثل يوميه للذين تواليا * في عزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم * بعد الشتات فشعبها متدان
عصمت حكومتها جماعة هاشم * من أن يجرد بينها سعيان
تلك الحكومة لا التي عن لبسها * عظم الباء وتفزق الحكمان

فأعطاه الفصل مائة ألف درهم وحلح عليه .

ونجد في أخبار السيرة نفسها أن الفتنة هاجت بالشام بسبب العصبية التي بين التزارية واليمانية ، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام ، فهرع اليها موسى وأقام بها ، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها ، فهدحه الشعراء . ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشام هيجا * يُسبُّ رأس وليده
فصَّب موسى عليها * بخيله وجموده
فدانت الشام لها * أتى نسيج وحيد

هو الحوَادُ الذی نَدَّ كَلَّ حُوْدٍ بِجُوْدِهِ
 أعداه حُوْدٌ أبیه . یحیی وحوْدُ جُوْدِهِ
 حَادٌ مُوسَى بن یحیی بطارِفٍ وتلیدِهِ
 وبالِ موسی دُرَى المح . ید وهو حشوْ مُهوْدِهِ
 حصصْتُهُ بِمِدی . مَشُوْرِهِ وَقَصِیدِهِ
 مِنْ البرامک عُودٌ . له فَاکرم بُوْدِهِ
 حَوَّوْا عَلَى الشَّعْر طُرًّا . حَفِیفِهِ وَمَدِیدِهِ

وقد مدحه مثل ذلك استحقاق بن حسان الخريمي .

ويقول الطبري في أحوال سنة ثمان وسعين ومائة: إن الرشيد فوض أموره كلها إلى يحيى
 ابن خالد بن برمك، وقد ذكر فيها شحوص الفصل بن يحيى إلى خراسان وألبا عليها، فأحسن
 السيرة بها، وصى بها المساحد والرماطات، وعزها ما وراء الهر، فخرج إليه حارثه ملك
 أشروسة، وكان ممتعاً. وقد مدحه مروان بن أبي حفصة وغيره بقصائد عدي، وقد ذكر محمد
 ابن العباس أنه سمع مروان يقول: إنه أصاب في قدمته تلك على الفصل سبعمائة ألف درهم.
 وقد مدحه سلم الخاسر فقال .

وكيف يخاف من رؤس مدار تكفها البرامكهُ الحورُ
 وقوم مهم الفصل بن يحيى . صيرُ ما يوازهِ نفيرُ
 له يومان يومُ نَدَى وأيس . كَأَنَّ الدهرَ بينهما أسيرُ
 إذا ما البرمكي عدا ابنَ عشر . فهِمَّتْهُ وزيرُ أو أميرُ

ولسطر إلى مكانة الفصل وآل برمك من الرشيد، فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري
 يحدثنا أنه لما قدم الفصل بن يحيى من خراسان حرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله،

وتلقاه بوهاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف، حمل يصل الرجل ألف الألف ونعمائة الألف . ومدحه مروان بن أبي حفصة فقال .

حَدَا الدى أَدَى أَبِى يَحْيَى فَأَصْبَحَتْ بِمَقْدَمِهِ تَحْرِى لى الطَّيْرُ أَسْعَدَا
وما هَمَّتْ حَتَّى رَأَتْهُ عُيُونُنَا وما زِلْنَا ، حَتَّى آتَ ، بالدَّمْعِ حُسْدَا
ففى عَن نُّرَاسَانَ الْعُدُوكِ نَفَى مَحْجَى الصَّبِيجِ جِلْبَابَ الدَّبِى فَتَعَزَّدَا
لَقَدْ رَاعَ مِنْ أُمِّى مَكْرَ وَمَسِيرُهُ إِلَيَا وَقَالُوا شَعْسَا قَدْ تَسُدُّدَا
عَلَى حَيْنِ أَلْقَى قُفْلَ كُلِّ ظَلَامِهِ وَأَطْلَقَ بِالْعَمَى الْأَسِيرَ الْمُقْبِدَا
وَأَفْتَى بِلَا مَنْ مَعَ الْعَدْلِ فَبِهِمْ أَيَادَى عُرِفَ بَاقِيَاتِ وَعُودَا
فَأَدَهَتْ رَوْعَابِ الْمَخَافِ عِهِمْ وَأَصْدَرَ نَاعَى الْأَمْنِ فِيهِمْ وَأُورِدَا
وَأَجْدَى عَلَى الْإِيْتَامِ فِيهِمْ مَعْرِفِهِ فَكَانَ مِنَ الْآمَاءِ أَخْنَى وَأَعُودَا
إِذَا النَّاسُ رَامُوا غَايَةَ الْفَصْلِ فِي الدَّنَى وَفَى الْبَاسِ أَلْفُوهَا مِنَ النُّجْمِ أَعْدَا
سَمَا صَاعِدًا بِالْفَصْلِ بِحَيْ وَحَالِدٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ كَابَ أَسَى وَأَتَّحَدَا
يَلِينُ لَنْ أَعْطَى الْخَلِيفَةَ طَاعَةً وَيُسْقَى دَمَ الْعَاصَى الْكُفَّامَ الْمَهْدَا
وَشَدَّ الْقُوَى مِنْ تَبِعَةِ الْمُصْطَفَى الدَى عَلَى فَصْلِهِ عَهْدَ الْخَلِيفَةِ قَلْدَا
سَمَّى النَّبَى الْفَاتِحَ الْحَاتِمَ الدَى بِهِ اللَّهُ أَعْطَى كُلَّ حَيْرٍ وَسَدَّدَا
أَبْجَتْ جِبَالَ الْكَأْبِلَى وَلَمْ يَدْعُ بِهِ لِسِرَانَ الصَّلَاةِ مُوقِدَا
فَاطْلَمَتْهَا خَيْلًا وَطَنْ حَمُوعُهُ قَتِيلًا وَمَاسُورًا وَقَلًا مُشَرَّدَا
وَعَادَتْ عَلَى ابْنِ الْبَرَمِ مُعَاكَ عَدَمَا تَحْتَوَتْ مَحْدُولًا يَرَى الْمَوْتَ مُفْرَّدَا

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة، هاجت العصية بالشام، وتفاقم أمرها، واعتم الرشيد بذلك، فعقد لجمعهم بن يحيى على الشام، وقال له . إما أب تخرج أنت أو أخرج أنا ، فقال له جهمر : بل أفيك سمى . وشخص الهم جهمر فى حلة القواد والكراع والسلاح ،

فأصلح بينهم ، وقتل زواجيلهم والمتلصصة منهم ، فعادوا الى الأمن والطمأنينة ، وأطاعا تلك
الناثرة . وقد مدحه مصور النمرى بقصيدة مطلعها :

لقد أوقدت بالشام نيران فتية * فهذا أوان الشام يُنحَدُّ مارها
إذا حاش موج البحر من آل رميك * عليها خبت شهبانها وشرارها

ولما عاد حمصر موقفا من سفرته هذه ، وقد استحل على الشام مكانه عيسى بن
العكي ، دخل على الرشيد فزاده إكراما وإجلالا .

وإنا لسقل لك هذا ما قاله جعفر للرشيد ، حين مثل بين يديه ، لأنه يُعتبر أثرا قويا من
باحيه تحليل نفسية الطرفين ، ولزوعته وبلاغته في أدب العصر ، ولأنه في الوقت نفسه بمثابة
نص تاريخي للعصر الذي ندرسه .

قال الطبري : لما دخل حمصر على الرشيد قتل يديه ورجليه ، ثم مثل بين يديه فقال :
الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأحاب دعوتي ، ورحم نصرتي ، وأنسا
في أحلى حتى أراى وجه سيدي ، وأكرمنى بقربه ، وأمننى على بتقيل يده ، وردنى الى
خدمته ، فوالله إن كست لأدكر عيبى عنه ومحرجى ، والمقادير التى أزعجتى ، فأعلم أنها كانت
معاصي لحقتى ، وحطايا أحاطت بى ، ولو طال مُقامى عليك يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله
فداك ، نلقت أن يذهب عقلى ، إشفاقا على قربك ، وأسفا على فراقك ، وأن يُعجل بى عن
إدراك الاشتياق الى رؤيتك . والحمد لله الذى عصمنى في حال الغيبة ، وأمننى بالعافية ،
وعزمنى بالإحابة ، ومسكنى بالطاعة ، وحال بينى وبين استعمال المعصية ، فلم أشخص إلا عن
رأيك ، ولم أقدم إلا على إذك وأمرِك ، ولم يخترمنى أجلٌ دونك ، والله يا أمير المؤمنين ،
لأعظم من اليأس بالله ، لقد عابتُ ولو تُعرض لى الدنيا كلها ، لأخترت عليها قربك ولكأ
رأيتها عوضا من المقام معك . ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام : إن الله
يا أمير المؤمنين لم يزل يُليكنى في خلافتك ، بفدر ما يعلم من نيتك ، ويريك في رعيتك ، غاية

أمنيتك، فيصلح لك جماعتهم، ويجمع ألفتهم، ويلم شعبتهم، حفظاً لك فيهم، ورحمة لهم، وإعنا هذا للتمسك بطاعتك، والاعتصام بجبل مرصاتك . والله المحمود على ذلك، وهو مستحقه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهل كور الشام وهم مضافون لأمرك، يادمون على ما فرط من معصيتهم لك، ممسكون بجبلك، نازلون على حكمك، طالبون لعفوك، واثقون بجملك، مؤثقلون بفصلك، آمنوا بأدركك، حالمون وانتلافهم كالحلم كانت في احتلافهم، وحالمون وألفتهم كالحلم كانت في امتناعهم . وعفو أمير المؤمنين عنهم، وتنمذه لهم سابق لمعذرتهم، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لمساتهم . وآيم الله يا أمير المؤمنين لئلا كنت قد شخصت عنهم، وقد أخذ الله شرارهم وأطعاً بأرهم ونبي مرقهم وأصلح دهماءهم وأولاني الجميل فيهم ورزقني الانتصار منهم، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمك وريحك، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة، وتحوفهم منك ورحايمهم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقدمت اليهم إلا بوصيتك، وما عاملتهم إلا بأمرك، ولا سرت فيهم إلا على حد ما مثله لي ورسمته، ووقفني عليه . والله ما اتقادوا إلا لدعوتك وتوحيده الله بالصنع لك، وتحوفهم من سطوتك . وما كان الذي كان مني، وإن كنت قد بدلت جهدي وبلغت مجهودي، قاضياً ببعض حقلك على، بل ما ازدادت بعثتك على عظم إلا ازدادت عن شركك عجزاً وصعفاً . وما خلق الله أحداً من رعيته، أهد من أن يطمع نفسه في قضاء حقلك مني، وما ذلك إلا أن أكون نادلاً مهجتي في طاعتك، وكل ما يقرب إلى موافقتك، ولكنني أعرف من أياديك عدى ما لا أعرف مثلها عند غيري، فكيف بشكري وقد أصبحت واحداً أهل دهرى فيما صنعتني وبى ! أم كيف بشكري وإعنا أقوى على شركك بإكرامك إياي ! وكيف بشكري ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدى ! وكيف بشكري وأنت كهى دوى كل كهيف لي : أو كيف بشكري وأنت لا ترصني لي ما أرساه لي ! وكيف بشكري وأنت تجتهد من عمك عندي ما يسفرق كل ما سلف عندك لي ! أم كيف بشكري وأنت تُسيبي ما تهتم من إحسانك بما تُحده لي :

أَمْ كَيْفَ بَشَكْرِي وَأَنْتَ تُقَدِّمِي بَطْلُوكَ عَلَى حَمِيعِ أَكْفَانِي ! أَمْ كَيْفَ بَشَكْرِي وَأَنْتَ وَلِيّ !
أَمْ كَيْفَ بَشَكْرِي وَأَنْتَ الْمَكْرَمُ لِي ' وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ ، الَّذِي رَزَقَنِي ذَلِكَ مِنْ عَيْرِ اسْتِحْقَاقِي
لَهُ ، إِنْ كَانَ الشُّكْرُ مُقَصَّرًا عَنْ تَأْدِيَةِ بَعْضِهِ ، بَلْ دُونَ شَقِصٍ مِنْ عَشْرِ عَشِيرِهِ ، أَنْ يَتَوَلَّى
مَكَافَأَتِكَ عَنِّي ، عَمَّا هُوَ أَوْسَعُ لَهُ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَقْصِيَ عَنِّي حَقَّكَ وَحَلِيلَ مَنْكَ ، فَإِنْ ذَلِكَ
بِيَدِهِ وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ " .

وَفِي أَحْبَارِ سِتَّةِ ثَمَانِينَ وَمِائَةٍ نَفْسِهَا وَلَّى الرَّشِيدُ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى الْحَرَسَى . وَهَكَذَا تَحَدَّثَ
فِي أَخْبَارِ كُلِّ سِتَّةِ سَأْعٍ عَنْ آلِ بَرْمَكٍ ، وَتَمْدَاحًا لِآلِ بَرْمَكٍ وَأَثَرًا حَلِيلًا فِي حُدُودِ الدَّوْلَةِ مِنْ
آلِ بَرْمَكٍ ، وَمَكَانَةً سَامِيَةً نَوَّاهَا آلُ بَرْمَكٍ مِنَ الرَّشِيدِ .

وَبِإِنَّا لَا نَرَى نَذْحَةً مِنْ إِبْرَادٍ وَاقِعَةٍ حَالِ رَوَاهَا الصَّحْرَى - بَيْنَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى الْبَرْمَكِيِّ
وَعَدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحِ الدِّي سَعَى بِهِ كَاتِبُهُ قَامُهُ وَأَبُوهُ عَدِ الرَّحْمَنِ عَدِ الرَّشِيدِ تَهْمُهُ طَلَبُهُ
الْخِلَافَةَ لِنَفْسِهِ ، حَتَّى حَبَسَهُ الرَّشِيدُ عَدِ الْفَصْلِ بْنِ الرَّبِيعِ ، وَهُوَ مَنَاقِصُ لِّآلِ بَرْمَكٍ ، وَكَثِيرًا
مَا سَعَى السَّاعُونَ بَيْنَ صَالِحٍ وَالرَّشِيدِ . فَاذِمَّا تَعَرَّضَ الْبَرْمَكِيُّونَ بِالْخَيْرِ لِرَحْلِ مَنْ كَبَّرَ
رِحَالَاتِ الدَّوْلَةِ ، الْمُتَهَمِينَ بِالْتَّطَلُّعِ إِلَى الْخِلَافَةِ ، وَادِمَّا مَحَحَ الْبَرْمَكِيُّونَ فِي إِيصَالِ الْخَيْرِ لَهُمْ ،
وَفِي إِرْصَاءِ قَلْبِ الرَّشِيدِ عَلَيْهِمْ ، كَانَ فِي ذَلِكَ أَصْدَقُ دَلِيلٍ عَلَى مَكَانَتِهِمُ الرَّبِيعَةَ مِنَ الرَّشِيدِ ،
وَمَا نَالَتْ إِذَا مَا وَصَلُوا إِلَى أُنْبَى بْنِ أَحَدِ أَوْلَادِ صَالِحٍ عَلَى إِحْدَى نِسَائِ الرَّشِيدِ ، وَادِمَّا
مَا اقْتَضَعُوا لَهُ الْوِلَايَاتِ وَرَدَّوهُ بِأَجْرِ الْأَمْوَالِ ! .

عَلَى أَنَا نَزَكَ الْكَلِمَةُ لِأَنْ طَبَّاطَنًا لِيَقْصَّ عَلَيْكَ مَا يَرْوِيهِ فِيمَا بَحْنُ فِي صَدْدِهِ - قِيلَ : إِنْ
جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى الْبَرْمَكِيِّ حُلِسَ يَوْمًا لِلشُّرْبِ ، وَأَحْبَتِ الْخُلُوءُ ، فَأَحْصَرَ نَدْمَاءَهُ الدِّينَ يَأْسُ
بِهِمْ ، وَحُلِسَ مَعَهُمْ وَهَدَّيْتُ الْمَجْلِسُ وَابَسُوا الثِّيَابَ الْمَصْبُغَةَ ، وَكَابُوا إِذَا حَاسُوا فِي مَجْلِسِ
الشُّرْبِ وَاللَّهْوِ ، لَبَسُوا الثِّيَابَ الْحُمْرَ وَالصُّفْرَ وَالْحَصْرَ . ثُمَّ إِنْ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى تَقَدَّمَ إِلَى
الْحَاجِبِ أَلَا يَأْدَنَ لِأَحَدٍ مِنْ حَلَقِ اللَّهِ تَعَالَى سِوَى رَحِلٍ مِنَ الدِّمَاءِ كَانَ قَدْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ
اسْمُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ ، ثُمَّ جَلَسُوا يَشْرَبُونَ ، وَدَارَبَ الْكَاسَاتُ ، وَخَفَعَتِ الْعَيْسِدَانُ ،

وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبدُ الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديدَ الوقارِ والدينِ والحِشمةِ، وكان الرشيد قد التمس منه أن يبادمه ويشربَ معه، وبذل له على ذلك أموالاً حيلةً فلم يفعل، فاتفق أن عبد الملك بن صالح حصر إلى ناب جعفر بن يحيى ليحاط به في حوائج له، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدّم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجب له، فدخل عبد الملك ابن صالح العاصي على جعفر بن يحيى، فلما رآه جعفر كاد عمله بذهب من الحياء، وقطع أن القصبة قد اشتبهت على الحاجب، بطريق أشباه الاسم، وقطع عبد الملك بن صالح أيضاً للقصبة وطهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى، فاستطاع عبد الملك وقال: لا بأس عليكم، أحصروا لنا من هذه الثياب المصتعة شيئاً، فأحصر له قميص مصبوغ، فلبسه وحلس يأسط جعفر بن يحيى ويمارحه، وقال: اسقونا من شرابكم، فسقوه رطلاً وقال أرفقوا سا فليس لنا عادةً بهذا، ثم ناسطهم ومارحهم، وما زال حتى انسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحيائه، ففرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال له: ما حاجتك؟ قال: حننت، أصلحك الله، في ثلاث حوائج أريد أن تحاطب الخليفة بها. أولاًها أن عليّ دسا مبلغه ألف أتم درهم أريد قصاءه، وثانيها أريد ولايةً لأخي يشرف بها قدره، وثالثها أريد أن نزوح ولدي بابيه الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفء لها، فقال له جعفر بن يحيى: قد قصي الله هذه الحوائج الثلاث. أما المال فهي هذه الساعة يُجمل إلى منزلك، وأما الولاية فقد وليت أهلك مصر، وأما الزواح فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا، فأشرف في أمان الله. فراح عبد الملك إلى منزله فرأى المال قد سقاه. ولما كان من الغد، حصر جعفر عبد الرشيد وعرفه ما جرى وأنه قد ولّاه مصر، وزوجه ابنته؛ فموجب الرشيد من ذلك، وأمضى العقد والولاية، فخرج جعفر من دار الرشيد حتى كُتِبَ له التقليد بمصر، وأحصر الفضاة والشهود وعقد العقد.

أرأيت كيف لم ينقص الرشيد ما أبرمه جعفر في مسألة خطيرة الخطر كله، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد، وأسرره الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة !!

أليس في ذلك ما يقطع ربيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسامى منزلتهم ، عند الرشيد وفى الدولة التى هم معزى رجالها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألا يهوتك فى المثل المتقدم ، ما جاء فيه حاصبا بالملابس فإنه قد يعطيك فكرة ما عس تحصص بعضها للسهرات والرهات والمادامات مما لا يختلف عن نظام اليوم من « رديجوت » و « سموكج » و « فراك » الى غير ذلك مما بدل على مبلغ الثروه واستعمال أمر المدنية ، عند القوم فى تلك الأيام الخاليات ، فتأمل !



ربما تطلب الى مثلا على حودهم وعلق الناس بهم ، فألفك ، أرشدك الله ، أن كتبت الأدب مترعة بالمئات من ذلك ، بلا مبالغة ولا علو ولا تهويل ولا اغراق .

وسترك الكلمة فى هذا الباب لمعاصرين : أحدهما إسحاق الموصلى ، والآخر الاتليدى .
فما يروبه من حديث جرى بين المأمون والمدرن المغيرة . وإنا نكتفى بإيراد هذين المثليين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جلت عليه نفوسهم من المروءة ونقد الهمة وحب الخير .

أما مسألة إسحاق الموصلى فتفصيل الخبر فيها أن الفصل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى المكيّ وعلوية ومخارقا للاجتماع عده ، وذلك أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عه ، إلا أن حالة الفضل كانت ناقصة متضعصة ، فلما اجتمعوا عده كتب الى إسحاق الموصلى يسأله أن يصير اليه ، ويعلّمه الحال فى اجتماعهم عده ، فكتب إسحاق اليهم بحضوره ولكن جاءهم متأخرا ، وكان علوية يعنى فأحطا ، فقال له إسحاق : أحطأت ، فعصب علوية وعاتبه بكلام طويل ، ومسه قوله له : إنه من صنعة البرامكة ، فقال إسحاق : أما البرامكة وملازمتي لهم فأشهر من أن أجمده ، وإنى لحقيق فيه بالمعذرة ، وأخرى أن أشكرهم على صنيعهم وأن أديعه وأشره ، وذلك والله أقل ما يستحقونه منى . ثم أقبل على الفصل ، وقد عاطه مدحه لهم ، فقال : أنسمع منى شيئا أبهرك به مما فعلوه ، وليس هو كبير فى صنائعهم عدى ولا عد

أبي قبلي ° فان وحدت لي عدرا وإلا فلم . كست في استدء أمرى نازلا مع أنى في داره ، مكان لا يزال يحرى بين علمانى وعلمانه وحوارى وحواريه الخصومه ، كما يحرى بين هذه الطبقات ، فيشكونهم اليه ، فأتين الصجر والتكر في وجهه ، فاستأجرت دارا قربه ، وانتقلت اليها أنا وعلمانى وحوارى ، وكانت دارا واسعة ، فلم أرض ما معى من الآلة لها ، ولا لمن يدخل الى من إخوانى أن يروا مثله عدى ، ففكرت في ذلك وكيف أصنع ، وزاد فكرى حتى خطر قلبي قبح الأحداث من زول مثلى في دار أجرة ، وإنى لا آمن في وقت أن يستأذن على ، وعدى من أحششه ولا يعلم حالى ، فيقال صاحب دارك ، أو يوتيه في وقت فيطلب أجرة الدار وعدى من أحششه ، فضاق بذلك صدرى ضيقا شديدا ، حتى حاوز الحدة ، فأمرت علامى بأن تُسرج لي حمارا كان عدى لأمصى الى الصحراء ، أنفج فيها مما دخل على قلنى ، فأسرته وركت برداء وعل ، فأصصى في المسير ، وأنا مفكر لا أمر الطريق التى أسلك فيها ، حتى هم بي على ناب يحيى بن خالد ، فتوائب علمانه الى وقالوا : أين هذا الطريق ، فقلت : الى الوزير ، فدخلوا فاستأدوا لى ، ورحح الحاحب فأمرنى بالدحول ، وقيت نجيلا قد وقع في أمرين فاصحين : إن دخلت اليه برداء وعل وأعلمته أنى قصده في تلك الحال كان سوء أدب ، وإن قلت له كست مجتارا ، ولم أقصدك ، بفعلتك طريقا ، كان قسيحا ، ثم عزمت فدخلت ، فلما رآنى تسم وقال : ما هذا الزى يا أنا محمد ° احتبسنا لك نابرو القصد والتفقد ثم علمنا أنك جعلت طريقا ، فقلت : لا والله ياسيدى ، ولكنى أصدقك ، قال : هات ، فأحبرته القصة من أولها الى آخرها ، فقال : هذا حق مستو أهذا شغل قلبك ° قلت : إى والله ، وزاد فقال : « لا تشغل قلبك هدا ، يا غلام ردوا حماره ، وهانوا له حلة » ، فجاءونى بحلة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا بالطعام فأكلت ، ووصع البيدة فشربت وشرب فميتته ، ودعا في وسط ذلك بدواة ورقعة وكتب أربع رقاع طنت بعضها توقيعاً لي بمجانرة ، فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع اليه الرقاع وسازه بشىء فزاد طمعى في المجانرة ، ومضى الرجل وجلسا نشرب ، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم اتكأ يحيى

فنام، ففقت وأنا مكمسر حائب، فخرحتُ وقُدِّم لي حماري، فلما تجاوزتُ الدارَ قال لي غلامي:
 الى أين نغصى؟ فقلت: الى البيت، قال: قد والله يبعث دارك وأشهد على صاحبها
 وأتبع الدرُّ كله ووزن ثمنه، والمشتري حالسٌ على مالك ينتظرك ليعترفك، وأظله اشترى
 ذلك للسلطان، لأني رأيتُ الأمر في استعماله واستحاثه أمرًا سلطانيًا؛ فوَقعتُ من ذلك
 فيما لم يكن في حسابي، وجئتُ وأما لا أدري ما أعمل، فلم نزلت على باب داري ادا أما
 الموكيل الذي سازه يحجي قد قام الىّ، فقال لي: ادخل أَيْدِكَ الله دارك حتى أدخل الى
 محاطبتك في أمر أحتاج اليك فيه، فطاب نصبي بذلك، ودخلتُ ودخل الىّ فأقرأني
 توقيع يحجي: يُطَلَّق لأبي محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُتَّاعُ له بها داره وجميع ما يحاورها
 ويلاصقها، والتوقيع الثاني الى ابنه الفصل: قد أمرتُ لأبي محمد إسحاق بمائة ألف
 درهم يُتَّاعُ له بها داره، فأُطْلَق اليه مثلها ليُفَقِّها على إصلاح الدار كما يريد وبانها على
 ما يشتهي. والتوقيع الثالث الى حمير: قد أمرتُ لأبي محمد إسحاق بمائة ألف درهم
 يتَّاع له بها منزلٌ يسكه، وأمر له أحوك بدفع مائة ألف درهم يفعها على بانها ومزقتها
 على ما يريد، فأُطْلَق له أنت مائة ألف درهم يتَّاعُ بها فرشاً لمنزله. والتوقيع الرابع الى
 محمد: قد أمرتُ لأبي محمد إسحاق أما وأحوالك بثلاثمائة ألف درهم لمنزل يتَّاعه ونفعه ينفقها
 عليه وفرش يتنعله، فمرَّ له أنت بمائة ألف يصرّفها في سائر نفقته. وقال الموكيل: قد حملتُ
 المال واشتريتُ كلَّ شيء حاورك بسبعين ألف درهم، وهذه كتب الاببيعات باسمي
 والإقرار لك، وهذا المال بورك لك فيه فأقبضه، فقبضته وأصبحتُ أحسنَ حالاً من
 أبي في منزلي وفرشي وآلتي، ولا والله ما هذا ما كبرشني ففعلوه لي، أألا م على شكر هؤلاء!
 فبكى الفصل بن الربيع وكلُّ من حصره، وقالوا: لا والله لا تُلام على شكر هؤلاء!

أرأت الى أي مدى بلغت مكانة البرامكة من رجال العصر وأدبائه، حتى تملّكوا
 من القلوب أعنتها، ومن النفوس أزقتها، وكيف استحوذوا على السُّوداء والمهج، ولم
 لهجتِ الألسنة بمدحهم والإشادة بذكورهم!

أما حديث المأمون والمعروف المسند الذي رواه لنا الاتليديّ - فماكه محداهره : قال حادم المأمون : طلبي أمير المؤمنين ليلةً وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لي : حد معك فلانا وفلانا ، سماهما لي . وأحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم ، وأدھت مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغني أن شيحا يحضر ليلا الى آثار دور البرامكة ويُدشِدُ شعرا ويدكرهم ذكرا كثيرا ويُدبهم ويكي عليهم ثم يصرف ، فأمص أنت وعلى ودبار ، حتى تَرِدُوا تلك الخمرات ، فاستترتوا خلف بعض الجُدُر ، فادا رأيتم الشيخ قد جاء وكى وندب وأنشد أبيانا ، فأتوني به ، قال : فأحدنهما ومصيبا حتى أيدا الخمرات ، فادا نحن بعلام قد أتى ومعه بساط وكري حديد ، وادا شيخ قد أتى وله جمالٌ وعليه مهابةٌ ولطفٌ ، يجلس على الكرسيّ وجعل يكي ويتحب ويقول هذه الأبيات .

ولما رأيتُ السيفَ حذلَ جمعرا * وبأدى مَادٍ للخليعِ في يحيى
سَكَيْتُ على الديارِ وزاد تأسى عليهم وقلتُ الآن لا تنفع الديار

مع أبيات أطالها . فلما ورع قصصا عليه وقلنا له : أحي أمير المؤمنين ، ففرغ فرغا شديدا وقال : دعوني حتى أوصي بوصيه ، فإني لأؤقن بعدها نحياء ، ثم تقدم الى بعض الدكاكين ، واستفتح وأخذ ورقةً وكتب فيها وصيةً وسلمها الى علامه . ثم سرنا ، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين قال : من أنت ؟ وما اسوجت منك البرامكة ما فعله في خرائب دورهم ؟ قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادي حصرةً عدى ، أقادون لي أن أحدثك بحالي معهم ؟ قال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا المدرس المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عني بعني ، كما نزول عن الرجال ، فلما ركني الدين واحتجت الى بيع ما على رأسي ورءوس أهلي ، وبقى الذي ولدت فيه ، أشاروا عليّ بالخروج الى البرامكة ، فخرجتُ من دمشق ومعى ثلاثون رجلا وسيفٌ من أهلي وولدي ، وليس معا ما يباع ولا ما يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد ، فدعوتُ ببعض ثياب كنت أهدتها لأستتر بها ، فلبستها وخرجت ، وتركتم جياعا لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع

نغداد سائلا عن البرامكة، فاذا أنا بمسجد مزخرف، وفي جانبه شيخٌ بأحس زىً وزينةً، وعلى الباب حادمان، وفي الجامع جماعةٌ حلوسٌ، فطمعت في القوم، ودخلت المسجد وحلست بين أيديهم، وأنا أقدم رحلاً وأُخر أخرى والعرو يسيلُ مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم، فدحلو دار يحيى بن خالد فدحلت معهم، وإذا يحيى جالس على دكة له وسط دستان، فسلمنا وهو يعتدنا مائة وواحدًا وبين يديه عشرةٌ من ولده، وإذا بمائةٍ وأخى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينيةٌ من فضة على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجلٍ صينيتَه، فرأيتُ القاضي والمشايخ يضمون الدنانير في أكمامهم، ويعملون الصواني تحت أناطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي لا أحسُرُ على أخذ الصينية، فمزني الخادمُ بحسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كبي والصينية في يدي، وقتُ وجعلت أنلقت ورأى محافة أن أمتنع من الذهاب، فوصلت وأنا كذلك الى محض الدار ويحيى يلاحظني، فقال للخادم: ائتني بهذا الرجل: فأتاه بي فقال: مالي أراك تلتفتُ يمينا وشمالا؟ فقصصتُ عليه قصتي، فقال للخادم: ائتني بولدى موسى، فأتاه به، فقال: يا يحيى هذا رجل عريب، نخده اليك، واحفظه بمسك وبعمتك؛ فقبص موسى ولده على يدي، وأدخلني الى دار من دوره، فأكرمني غايةَ الإكرام، وأقمت عنده يومى ولبتي في الأذ عيش وأتم سرور، فلما أصبح دعا ناخيه العباس وقال له: الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى، وقد علمت اشتغالى في بيت أمير المؤمنين، فاقبضه اليك وأكرمه؛ ففعل ذلك وأكرمني غايةَ الإكرام، ثم لما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد. ثم لم أزل في أيدي القوم يتبادلونني مدة عشرة أيام، لا أعرف حبرَ عيالي وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء!، فلما كان اليومُ الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعةٌ من الخدم فقالوا: قم فانرج الى عيالك بسلام، فقلت: واويلاه! سُلِبَتِ الدنانيرُ والصينيةُ وأُخرجُ على هذه الحالة! إنا لله وانا اليه راجعون! فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادمُ الستَ الأخير قال لى: مهما كان لك من الخوايج فارفعها الى، فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به، فلما رُفِعَ الستُ

الأخير، رأيتُ حجرةً كالشمس حساً ووراً ، واستقبلني منها رائحةُ الدِّ والعود ونفحاتُ المسك ، واداً بصبياني وعيالي تنقلون في الحرير والديساج ، وحمل إلى مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بصيعتين وتلك الصيئة التي كنت أحدثها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلما حلتهم البلية ، ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل، أبجفتي عمرو بن مسعدة ، وألزمني في هاتين الصيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به ، فلما تحمل على الدهر كنتُ في آخر الليل أقصدُ خراماتِ دورهم ، فأندبهم وأذكر حسنَ صنيعهم إلى وأتكي على إحسانهم ، فقال المأمون : على عمرو بن مسعدة ! فلما أتى به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمتَه في صيئته ؟ قال : كذا وكذا ؛ فقال له : ردَّ إليه كلَّ ما أحدث منه في مدته وأفرغها له ، ليكون له ولعقبه من بعده ، قال : فعلا نحب الرجل ، فلما رأى المأمون كثرةً مكائده ، قال له : يا هذا قد أحسننا إليك ما يبيحك ؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنيع البرامكة ! لو لم آت خراماتهم فأندبهم وأندبهم حتى أتصلَ خبري إلى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعل ، من أين كنتُ أصل إلى أمير المؤمنين ! قال إبراهيم ابن ميمون : فرأيت المأمون وقد دمعتُ عيناه وظهر عليه حره ، وقال : «لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فألك ، وإياهم فاشكر ، ولهم قأوف ، وإلحسانهم فاذا كر» .

مما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضي يحيى بن أكرم قال : سمعت المأمون يقول : لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحدٌ في الكفاية والبلاغة والوجود والشجاعة ؛ قال القاضي : فقلتُ يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ، فميس الشجاعة ؟ فقال : في موسى بن يحيى ، وقد رأيت أن أوليه نثر السند .



مكانة عالية لا ريب مكانة آل رملك، وسلطان لا حد له سلطانهم، وغنى فاحش قل الاسلام، وصوله وهود قول في دولة الرشيد، ها الذي يا ترى غير قل الرشيد عليهم حتى نكهم °

لندكر ما يقوله المعاصرون وسقف عليه بكلمة هادئة حكيمة لاس حلدون .

أما بختيشوع الطيب المأمون، فانه يقول نقلا عن أبيه حبريل : إنه لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان بما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، رد عليه رداً صعباً، فلم يحيى أن أمرهم قد تغير . قال : ثم أقبل على الرشيد فقال : يا حبريل يدخل عليك وأنت في مملك أحد بلا إيدك ! فقلت : لا ولا يطمع في ذلك، قال : فما بالنا يدخل علينا بلا إذن ! فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قدمنى الله قملك، والله ما استدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجزداً حياً وحياً في عص إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإد قد علمت فإني أكون عده في الطقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك، قال : فاستحيا الرشيد، وكان من أرق الخلفاء وجهاً، وعباء في الأرض ما يرفع اليه طوقه، ثم قال : ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون، قال حبريل فظننت أنه لم يسح له جواب يرتضيه، فأجاب بهذا القول، ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

أما أحمد بن يوسف كانت عصرنا المأمون الباه، فانه يتحدث عن عمامة بن أشرس بحديث سنده لك . وقل إيراد هذا الحديث نود أن نذكر أن محمد بن الليث الذي سيرد فيه هو محمد بن الليث الذي اختاره المهدي كاتباً للسر في مجلس مشاورته لتدبير رأى في حرب نمراسان، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس وإثبات مقالاتهم في كتاب .

وربما كان من المفيد أن نزيد القارئ محمد بن الليث معرفةً ، لا لأنه من رحلات عصرنا ومن ذوى الأثر الادبى القيم فيه ، ولا لأنه صاحب تلك الرسالة الشاققة التى أُعِث بها من الرشيد الى ملك الروم التى أشتاها فى المجلد الثانى من هذا الكتاب ^(١) ، بل لأنها نرى فى توصيح قدره توصيحاً لقدرة البرامكة ، ولأنك حينما نرى الرشيد يقص على محمد بن الليث بسبب البرامكة وكرامتهم ومزلتهم من نفسه ، لصحة له أن يضع حداً لاستفحال شأن البرامكة ، وللرجل قدره ومزله ، تستطيع أن تتصور تصوراً صمياً مكانة البرامكة من الرشيد ومن الدولة ومن العصر الذى هم فيه ، ولأنك حينما تعلم أن الرشيد أطلق محمد بن الليث من حبسه واعتدله قيل نكته البرامكة تستطيع أن تعلم أداً مقدار التحول الذى نال نفسية الرشيد .

سنرى فى مشاورة المهدي التى ذكرها اسعد ربه فى العقد والثى أشتاها لك فى المجلد الثانى أن محمد بن الليث يتكلم فى المجلس — وكان الرشيد بلا شك ولى العهد — كلاماً يُرضى الرشيد . أداً محمد بن الليث كاتب الى جانب وظيفته كأمير لمجلس المشاورة ، صاحب رأى فى مجلس الاستشارة نفسه يعتد به . فهو ذو شخصية عظيمة من ذوى شخصيات الدولة الذين لكلامهم حطره ولقولهم أثره .

قال : أول ما أكره يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث روع رسالة الى الرشيد يعطه فيها ، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يعنى عك من الله شيئاً ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت اذا وقعت بين يديه ، فسألك عما عملت فى عباده وبلاده ، فقلت : يارب إني استكفيت يحيى أمور عبادك ، أترك نحتج بحجه يرضى بها ! مع كلام فيه توبيخ وتقرع ، فدعا الرشيد يحيى ، وقد تقدم اليه خبر الرسالة ، فقال : تعرف محمد بن الليث ؟ قال : نعم ، قال فأى الرجال هو ؟ قال : منهم على الإسلام ، — لاحظ كيف يتهمون فى الدين — فأمر به الرشيد فوضع فى المطبق دهرًا . فلما تكرر الرشيد للبرامكة ، ذكره فأمر بإخراجه

فَأُحْضِرَ، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أُنْحَنِي؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين؛ قال: تقول هذا!! قال: نعم وصعت في رجلي الإِ كَالْ وَحُلْتُ بِنِي وَيَس العيال، بلا ذنب أُنَيْتُ ولا حَدِيثُ أُحْدِثْتُ، سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله، ويجبُ الإِلْحَادُ وأهله، فكيف أُحِبُّكَ!! قال: صدقتَ، وأمر باطلاقه؛ ثم قال: يا محمد أُنْحَنِي؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر أن يُعْطَى مائة ألف درهم فَأُحْضِرْتُ؛ فقال: يا محمد أُنْحَنِي؟ قال: أما الآن نعم! قد أبعثت على وأحسنَت إلى؛ قال: انتقمَ الله من ظلمك وأحد لك بحقك من عثني عليك، قال ثمانية: فقال السَّاسُ في البرامكة فأكثرُوا، وكان ذلك أَوَّلَ ما طهر من تغير حالهم.

هَذَا حَدَثٌ بَعْدَ ذَلِكَ ۞

حدث — كما يحبرنا أحدُ المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبي جعفر — أن يحيى بن خالد دخل دار الرشيد في الآونة التي نحن في صدها، فقام الغلمانُ إليه احتراماً وإحلالاً، فما كان من الرشيد إلا أن قال لمسور الحادِمِ: مُرِ الغلمانَ ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار! قال: فدخل فلم يَقمْ له أحدُ فَارَبَدَ لَوْنُهُ، قال: وكان الغلمانُ والْحَتَابُ يَسُدُّونَ إذا رَأَوْهُ أَعْرَصُوا عَهُ، قال: فكان ربما استنشق الشَّربةَ من الماء أو غيره فلا يسقونه، والْحَرَى إِنْ سَقَوْهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ يَدْعَوْهَا مَراراً.

ولننظر في سبب آخريويه لنا أحدُ المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمد اليزيدي، قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سببٍ يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تُصَدِّقْهُ، وذلك أن الرشيد دَعَا يحيى إلى حفرة فحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالي، فسأله عن شيء من أمره فأجابته، إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمُكَ عَدَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوالله ما أحدثتُ حدثاً، ولا آويتُ محدثاً؛ ففرق عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله؛ قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أُوخَدَ بعد قليل فُأَرَدُّ إِلَيْكَ أَوْ إِلَى غَيْرِكَ! فوجه معه من آداه إلى مأمنه. وبلغ الخبرُ الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ مِنْ صَينَ

كانت له عليه من حاص خدمه، فبَلَّ الأمر فوجده حقا وانكشف عده، فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بجبره، وقال : وما أنت وهذا ! لا أم لك ! فمل ذلك عن أمرى ! فانكسر الفضل وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويمحاه، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأبكال، قال : بحياتى؟ فأحجم جعفر، وكان من أدنى الخلق دهاً وأحجهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم شئ من أمره، فقال : لا وحياتك ياسيدى، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عده، قال : يعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسى؛ فلما خرج أتبعه بصره، حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلى الله بسيف الهدى على عملي الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، وندكره لك هنا على علته، استكمالاً للوضوع من كل نواحيه . يقول الطبرى : إنه يطل أن المصدر للرواية هو زاهر بن حرب، قال : « إن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر على جعفر وعن أخته عاسه بنت المهدي ، وكان يحصرهما اذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره عه وعنها، وقال لجعفر تزوجها ليحل لك النظر اليها اذا أحصرتها مجلسى، وتقدم اليه ألا يمسها ولا يكون مه شئ مما يكون للرجل الى زوجته ، فزوجها مه على ذلك ، فكان يُحصرهما مجلسه اذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما ، فيشعلان من الشراب، وهما شابان فيقوم اليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت علما، تخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهت بالمولود مع حواصن له من مماليكها الى مكة، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون ، حتى وقع بين عاسه وبعض جواربها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبي الى الرشيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواربها وما معه من الحللى الذى كانت زيتته به أمه؛ فلما تخ هارون هذه الحجة — سة سبع وثمانين ومائة — أرسل الى الموضع الذى كانت الجارية أخبرته أن الصبي به، من يأتيه بالصبي ، ومن معه من حواصنه، فلما أحصروا

سأل اللواتي معهنّ الصبيّ، فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعة على عبّاسة، فأراد، فيما زعم، قتل الصبيّ ثمّ تحوّل عن ذلك، وكان حمير يتخذ للرشيّد طعاما كلما حجّ بعُسفان فيُقْرِيه ادا أنصرف شاحصا من مكة الى العراق، فلما كان في هذا العام اتحد الطعام حميرٌ كما كان يتخذُه هالك، ثم استأراره فاعتلّ عليه الرشيّد ولم يحضّر طعامه، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان .

أما نحن فلا نريد القطع بأنّ بكبه البرامكة كانت أثرا لسببٍ بعينه من هذه الأسباب، وربما كانت نتيجة لطائفة من الأسباب محتمة، منها ما نعرفه، ومنها ما لم نعرفه بعد، وبحبّ ألاّ يهوتا هنا أب نفترض فرضا نعرف أنّه فرض لا أكثر ولا أقل، ونعترف بأنّه في حاجة الى التحقيق العلمي، ولكنّا نعرف أيضا أنّ عرصه على علته لا يحلّو من البع، وهو أنّ البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية لمذهب المعتزلة^(١)، وهي الاعتدال بين أهواء الأحرار السياسيه المتطرفة وتلطيف الخصومة بين جاحي الحزب الهاشمي فلم يرصّ الرشيّد عن هذا النحو من السياسة، وماله على ذلك المفعيون من أنصار الجناح العباسي. وسرى بعد قليل أن المأمون كان يرى رأى البرامكة، في هذا النحو من السياسة المعتدلة، الموافقة بين وجهات الطر المختلفة .



أما كيفيه القبض على البرامكة، واحتياط الرشيّد وحدره قبل قتلهم، ومصادرتهم لأموالهم، وما قالته الشعراء في رثائهم، فحديثٌ طويل يتطلّب رسالة خاصة، وفقا لله لدراسه موضوع البرامكة ونكبتهم وأثرهم في الدولة العباسيه في موضوعا (عصر الرشيّد) في القريب العاجل إن شاء الله .

(١) مخالفا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب العار في هذا بقوله . " ليس الاعتدال مدها سياسيا ولم ترج سوق الاعتدال في زمن الرشيّد ولم يكن شيئا يعتد به على عهد " .

على أنسا نرى من المستصوب قل أن تم هذه العذلكة الموجهة أن نختتمها بكلمة
لاس حلدون ، لا تحمل من تحليل صحيح ، وهذه في الموارنة رحيح ، وناب في التاريخ
جميل المهج ، معقول التعليل .

قال اس حلدون : إنما نكَّ البرامكة ما كان من استدادهم على الدولة واحتياهم أموال
الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فعلبوه على أمره وشركوه
في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعُد صيتهم وعمروا
مراتب الدولة وحطَّطها بالرؤساء من ولدهم وصانعهم ، واحتاروها عن سواهم : من وزاره
وكتابة وقياده وحجابه وسيف وقلم . يقال . إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد
خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحوا بها أهل الدولة بالمناك
ودفعوهم عنها بالراح ، لمكان أنهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وحليفة ، حتى شت
في حجره ، ودرج من عشه ، وعله على أمره ، وكان يدعوهم يأت ، فتوحه الإيثار من السلطان
اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانسط الحاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوحوه ، وخصعت
لهم الرقاب ، وقُصرت عليهم الآمال ، وتمطت اليهم من أقصى التحوم هدايا الملوك ونُحِف
الأمراء ، وتسربت الى خرائنهم ، في سبيل الترف والاستمالة أموال الجبائية ، وأفاصوا
في رجال الشيعة وعطاء القراة العطاء وطوقوهم المن ، وكسوا من بيوتات الأشراف
المعديم ، وفكوا العاني ، ومدحوا بما لم يمدح به حليفهم ، وأسنوا لعقائهم الجوائز والصلوات ،
واستولوا على القرى والصياع من الصواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة
وأحققوا الخاصة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وحوه المناسبة والحسد ، ودبت
الى مهادهم الوثيرة من الدولة عفار السعاية ، حتى لقد كان سوق حطبة أخوال جعفر من
أعظم الساعين عليهم ، لم تعطهم ، لما وفر في هوسهم من الحسد ، عواطف الرحم ،
ولا وزعتهم أوأصر القراة ، وقارن ذلك عد مخدومهم نواشي العيرة والاستكاف من المحر
والأمنه وكامن الحقوق التي بعثها منهم صفائر الدالة ، وانتهى سهم الإصرار على شأنهم الى
بكاثر المخالفة .

الفصل التاسع

الحياة العلمية في العصر العباسي

توطئة — حركة النقل — العلوم القرآنية واللغوية والفقهية .

(١) توطئة :

هذه فذلكة بمجلة بمثابة توطئة لما سعرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح في العصر المأموني . مهمتنا الآن أن نبيان العاصر المهمة في الحياة العلمية العباسية .

نلم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان في الثقافة الإنسانية عظيم عميق ، لأنه الى جانب إمداد العالم بمتحات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومفكرهم قد أمدوه أيضا بالتخّيب والمُلج مما وقّف عليه اليونان من زُبد علوم الأشوريين والبابليين والمبقيين والمصريين واليهود والعرس واليونان والرومان . فاذا ما قلنا : إن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ، ومُتحات العقول اليونانية ، فكأننا نقول صما إنهم وقفوا على آثار العقلیات الإنسانية العامة ، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسية الى حدّ ما ، أو على الأقل كانت مُنسمة بالطابع الفارسي متأثرة به . ونعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «جبون» أن «جستنيان» اصطهد مدارس أثينا ، لأنه كان خَصماً للفلسفة الوثنية ، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حين دلك قد آتت ثمرتها ونَصِبَتْ ، ثم هرع أصحابها الى العرس ، واتصل بأنوشروان سبعة من علماء اليونان ما كرم وقادتهم ، وأوسع لهم مجال التأليف والنقل فيما هم أهله وأصحاب القُدح المعلّ فيه . ويقول ابن النديم في الفهرست : إن الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فقل ذلك الى اللسان العربي عبد الله بن المقفع . فن المعقول إذاً أن يكون

العرب حين اتصلت ثقافتهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها ، تأثروا في الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضا . ولم تكن الثقافة الفارسية مما يُستهان بأمره أو يُغْمَطُ قَدْرُهُ ، لأنك اذا استقصيت تاريخ ملوكهم الكبار ، مثل سابورس أردشير ، تجد أنه في حلال عهده بعث الى بلاد اليونان ، وحلب كتّ الفلسفة ، وأمر بقلها الى الفارسيه ، واحترنها في مدينته وأحد الناس في نسجها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربية أفادت أيما إفاده من مستجات الفرس وآثارهم وتراجمهم .

(ب) حركة النقل :

لشذرج الآل الى شيء من التوضيح ، فنقل لك ما يقوله ابنُ صاعد الأندلسي في هذا الباب ، لأنه مختصر عما تعرض له أمثال الأساتذة « بليو » و « ابن أبي أصيبعة » « والقفطي » « وابن النديم » وغيرهم ممن سيكونون عدتنا وموثنا حين نعرض لهذه البحوث في العصر المأموني .

يقول ابن صاعد : « إن أول علم أعني به من علوم الفلسفه علم المنطق والعجوم . فأما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي ، فإنه ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقيه الثلاثة التي في صورة المنطق ، وهي كتاب « قاطاعورياس » وكتاب « ناري أرمياس » وكتاب « أتولوطيقا » وذكر أنه لم يترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول ، و ترجم ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف « بإيساعوجي » « لفرور يوس الصوري » ، وعبر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ ، و ترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليله ودمنه ، وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية الى اللغة العربية

وأما علم العجوم فأول من عُني به في هذه الدولة محمد بن اراهيم الفزارى ، وذلك أن الحسين بن حميد المعروف بابن الأدمي ذكر في تاريخه الكبر المعروف بنظام العقد . « أنه قدم على الخليفة المنصور سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهد عالم بالحساب المعروف

بالسند هندی في حركات النجوم مع تعاديل معلومة على كروحات محسوبة لنصف نصف درجة مع صروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع الروح وغير ذلك، في كتاب يحتوى على آتى عشرانا، وذكر أنه اختصره من كروحات مدسوبة الى ملك من ملوك الهند يسمى قعر، وكانت محسوبةً لدقيقة، فأمر المصور ترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية، وأن يؤلف منه كتابٌ نتجده العرب أصلاً في حركات الكواكب؛ فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الغزاري، وعمل منه كتابا بسميه المنحومون "بالسد همد الكبير" وتفسير السد همد باللغة الهندية: الدهر الداهر .»

وقد يكون من المستصوب أن مهم حقيقة وجهة نظر العرب حين دأب الى علم الفلك، فهم كاليونانيين في رسم "تقليموس" كان عرُصهم في الهيئة تبيّن الحركات السماوية مع كل اختلافاتها المرئية، وأشكال هندسية، تمكنهم من حساب أوضاع الكواكب لأى وقت فُرض، فإن كانت تلك الأشكال تصلح لحساب الظواهر رُصوا بها وما اهتموا بالبحث في حقيقة حركات الأحرار السماوية، وذلك لطهم أن البحث عن حقيقة الحركات وعللها يكون على المشتغلين بالحكمة والطبيعة والحكمة الالهية .

ونحن نجد، نقطع الطر عن أحكام العجوم الى صارت غير مقبولة في أيامنا، أن الهيئة عند العرب كما يقول الأستاذ «المليو»، قد اشتملت على علم الهيئة الكروى والعمل، وقسم صغير من النظرى يحص الكسوفات واستتارات الكواكب السياره، مع علم التاريخ الرياضى وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الجغرافيه لتقليموس، فقد حرح من علم الهيئة عند العرب علم الميكانيكا الفلكية وعلم طبيعة الأجرام السماوية وأكثر علم الهيئة الطرى، إذ إنه يبحث عن حقيقة حركات الكواكب .

فلا مِرْيَةَ أَدَايَ أن العرب، الى جانب وقوفهم على الفلسفة الفارسية والحكمة اليونانية، قد وقفوا أيضا على آحر الآراء العلمية الخاصة بعلم الفلك في ذلك الحين، وأنهم وقفوا على آراء تطليموس فيما وقفوا عليه من الآراء . و تطليموس — كما قال البتاني — قد تقصى

علم الفلك من وجوهه، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسيّ والعديّ الذي لا تُدفعُ صحته ولا يُنكّ في حقيقته، فأمر بالحجّة والاعتبار بعده، ودكر أنه قد يجوز أن يُستدركَ عليه في أرصاده على طول الزمان، كما استدرك هو على أبرخس وغيره من نظرائه، لحلاّلة الصّاعة، ولأنّها سماويةٌ جسيمةٌ لا تُدركُ إلا بالتقريب .

ولا يهوتنا أن نشير هنا الى ترجمة كتاب زريح بطليموس المقول بأن أيوب وسمعان فسراه لمحمد بن خالد البرمكي . وزوجو حين تعرّضا لهذه الموضوعات في العصر المأمونيّ أن لم بها لماسا أدق وأوسع .

على أنه يحذر بنا في هذه المدلّة أن نشير الى الكتب البهلوية الثلاثة التي استطاع الأستاذ « لايو » أن يكتشف أثر قلها وما قبل انتهاء القرن الثاني للهجرة . فواحد منها في علم الهيئة الحقيقيّ وهو ربيع الشاه أو ربيع الشهر يار، والآحران في صّاعة أحكام النجوم وهما المبيزنج في المواليّد المسسوب الى بُزْجِيَهْمَزْ، وكتاب صور الوحوه لتسكلوس ؛ وكذلك يعحذر بها أن نشر الى أن كتاب المجسطي نقل في أيام الرشيد .

ولما نلخص لك هنا ما لاحظته المرحوم جورجي بك زيدان في أمر النقل من أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرّضوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهند، فقد نقلوا جملةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم وزوجوا الشاهامة، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا خُرافة استرابون ولا الإبادة هوميروس ولا أوديسسته . وسبب ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبته في الفلسفة والطب والنجوم والمسطق .^(١)

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبدالوهاب الحارث : « أنه يمكن ارجاع ذلك الى سبب يراه أمّ . وهو أن الراحين من اليونان أيام الاضطهاد الى حران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة وأطباء . فأسسوا في تلك البلاد مدرستهم وأحد أهل البلاد عنهم ما يعرفون . فالأدب والتاريخ والحرفا لم يهاجروا الى البلاد التي أحد عنها العرب وإنما هاجر الطب والفلسفة والهندسة والرياضة » .

ولا يُسَحَّفُ مما اقتضاه ذلك القل، عن أشهر أُم الأرض في ذلك العصر، من التأثير في الآداب الاجتماعية والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية، لأن معطمه في الأدب والتاريخ، فدخل الآداب العربية كثير من آداب الفرس الساسانية وأفكارهم، اقتبسها العرب من الكتب التي نُقِلَتْ عنهم، ولم يبق منها إلا ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وُسُفُّ متفرقة في بعض الكتب. وقد درس في هذا الموضوع المُتَشَرِّقُ «أيواستراشتيف» الروسي ووضع فيه كتابا طبع في بطرسبرج سنة ١٩٠٩ م.

على أني لاحظ أن تأثير هذا القل عن الفرس لا يزال قائما إلى الآن في بعض الكتب العربية التي وُصِفَتْ في عصور قريسه من عصر المأمون. بذكر منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأحرار» لأبن قتيبه، و«التاح» المسبوب للمحافظ. فعلى هذه المقولات وأمثالها بجى المسلمون ما ألفوه في هذه العلوم أشياء تُمَدِّينهم غير ما اختروه وأصافوا إليها من عدد أنفسهم.

وإن المطلع على ما جاء بالمهرست لأبن النديم حاصلا بتلك المقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جلها قد صاع، على أنه كان للقليل الباقي منها أثره الفعّال في هضبة أوروبا. وأهم ما بقي من ذلك التراث القيم هو كتابُ المَجَسَّطِي لطليموس، ترجمه المحاج بن يوسف وكتاب السياسة في تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن الطريق، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبكي وغيرها.

(ج) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية :

كان المؤرخون القدماء يقولون في العلوم القرآنية إنه قد تفرّع عن القرآن نحو ثلثمائة علم. ونحن نحيلك على أمثال «مفتاح السعادة» لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى راده المطبوع بمطبعة دائره المعارف النظامية بحيدر آباد، ومقدمة آبن حلاون و«مفاتيح العلوم» وغيرها. وأما الحاة وطبقاتهم واللغة وما دخلها من الألفاظ المستحدثة في العصر العباسي، فأمامك أمثال «شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدحيل» لشهاب الدين

الخفاحي "ودرة القواص" للحريري . وكاب "المعرب من الكلام الأعجمي" لأبي منصور الجواليقي المتوفى في منتصف القرن السادس وطبع في ليبسك سنة ١٨٩٧ م وكاب «طبقات النخبة» المعروف "نزهة الألباء في طبقات الأدياء" لأبي البركات عبد الرحمن ابن محمد الأنباري، وغيرها مما لا يقع تحت حصر .

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن في الجاهلية ولا في صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضِعَ في العصر العباسي - خاصة أمثال قولهم صيدلية ، وتذريج ، ونبص ، وهضم ، ومبرّدات ، وقانص ، ومسهل ، وششج ، وذات الرئة ، وسج ، والهيولى ، والقاموس ، والقانون ، إلى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذي تحده في مطاوعة . ولا يرى حاحه بها إلى الاستطراد فيه .

ويحدّر بها هنا أن نشير إلى أثر من أحل الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية في بداية العصر العباسي . ويمكن النظر إليه كما ينظر الاسكتلنديون إلى كتاب "جون سككر" عن تاريخهم الاقتصادي . وهذا الأثر القيم الحالد الذي نظم جباية الدولة أبجمل تنظيم وأدقه ، هو كتاب الخراج للمقيّة الأكبر أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنباري صاحب الإمام أبي حنيفة المال .

الفصل العاشر

الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس

توطئة — الخطأ والخطأ — الكانة — محالس الخلفاء والمطارة — الشعر .

(١) توطئة :

أسلفنا لك القول في الحالة الأدبية في عصر بني أمية التي كانت في الواقع، الى جانب ما بيناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلي، قريبة في جملتها من عضاضة البدو وخشونة المدر، فلم تنسح لها الاغراض ولم تفرج لها الجوانب إلا بقدر ما تنطبق عليه جزيرة العرب وبادية الشام من الأفكار والأخيلة، وما توحى به غياض دمشق ونبرات معبد، من صفاء الفكر ووضوحه، وجلاء المعنى وأقترابه، لا يبالي القوم الإمعان في الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنما كان همهم، كما يقول الرواة : أن تجود العاطفهم، وتجل تراكيهم . وفي الحقيقة أنهم قد اقتعدوا في ذلك من البلاغة ذروتها، ولفوا من الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يصع لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زياد وعبد الملك والمحاج، وما أرسله جرير والأخطل والمرزوق، لتعرف أين كان القوم من البلاغة، وكيف تملكوا أعينها في أيديهم . فلما جاءت دولة العباسيين وقامت أركانها على سواعد العجم، ودلّف اليها السريان واليهود والعرس، وصمّتهم الدولة الى أحصانها، وأفرجت لهم بين دراعها، وأزلتهم في كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيرات، وتقذّموا لها بتراث آبائهم وعصارة قرائع علمائهم، وحولوا ميراثهم الى ميراثها، أفادت لغة العرب، وأمتزجت المدينة السامية بالآرية، وآسعت دائرة المعارف، وتسعبت أغراض اللغة، وشتم كل ذي فضل في تدوين العلوم وأستنباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآداب ازدهاراً

الفنّاء والقوّّة، فانتظمت رخاء الدنيا وسعادة الإنسان، وآذيت بالحجج الحكّمية والبراهين العقلية. وتولّى كبر ذلك بشارٌ وأبُّ المقفع وأبو بواس وأصرابهم، وأدخلوا إليها الحديد عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم ينحزحوا من استعمال الألفاظ الأغمية في أسماء الألوان والانية والفرش، وتأقوا في صوغ العبارات وإحكامها، حتى مال بعضهم إلى السجع والأزدواج. ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة إلى سعيد بن مسلم إذ يقول: "أَسْتَسِيءُ اللهَ أحلك، وأسعيدهُ من الآفات لك، وأسعيه على شكر ما وهب من العمة فيك إله لذلك وليّ، وبه ملّى. أثنى علامك المليحُ قدّه، السعيد مملكك حدّه، نكّاب قرأته، غير مستكره اللفظ ولا مُزوّر عن القصد، ينطق بحكمتك ويُسّئ عن فصلك".

وجملة القول أن اللّغة قد تحدّد إهابها، وانهرحت شعابها، ووعت أساليبها، بما دخل عليها من عيم الدولة ورفّ الحصار، وما أحتوت من العلوم والفنون، حتى كانت سيّدة لغات العالم جميعا.

(ب) الخطابة والخطباء :

كانت الداعيّة إلى الخطابة في العصر العباسي قوّة متوافرة بليغة. كانت قوّة لأن طبيعة الانقلابات السياسية الخطيرة، والدعوات المذهبية الحادّة، والثورات الاجتماعية العسفة، من شأها خلق محالّات التكلّم وتقوية الملكات الخطابية وتمييزها وزيادة ثروتها والعمل على صقلها وبلاغتها. وكانت متوافرة لتعدد موضوعاتها وتشعب مباحيها ولائكبات الدعاة والمفيعين عليها لاّتهاز أمثال تلك المواقف. وكانت بليغة لقرب العصر العباسي من عصر البلاغة الإسلامية الأموية من ناحية الحرارة والتشيع إلى سى العباس، وقوة المحاجة في إنكار ما آتته الأمويون من حرّمات الدين، ولتعدد أسباب التفاضل بين آل العباس والعلويين.

وإن نظرة تحليليّة إلى خطبة المنصور التي خطبها حينما أخذ عبد الله بن الحس وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تُعزز قولنا وتؤيد حكما. قال: « يا أهل خراسان

أتم شيعةً وأصباراً وأهل دولتنا ، ولو بايعتم عيراً لم تبايعوا من هو خيرٌ مما ، وإن اهل
يبنى هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ركاهم ، والله الذي لا إله إلا هو ، والخلافة فلم تعرض
لهم فيها قليل ولا كثير ، فقام فيها علي بن أبي طالب فنطخ وحكم عليه الحكماء ،
فاقتربت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثت عليه شيعةً وأصبارُهُ وأصحابُهُ
وطائفةً وثمناه وقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برحاً ! قد غيرت
عليه الأموال فقلها فدرس اليه معاوية : إني أحملك وليّ عهدي من بعدى ، فخدعه
فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه ، فأقبل على النساء يترقح في كل يوم واحدة فيطلقها عداً ،
فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق
وأهل الكوفة أهل الشقاق والحق والإعراف في الفتن أهل هذه المدرة السوداء — وأشار
إلى الكوفة — فوالله ما هي بحربٍ فأحارها ولا سيلمٍ فأسلمها ، فترك الله بنيها ، فخذلوه
وأسلموه ، حتى قُتل . ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وعروه فلما أخرجوه ،
وأطهروه وأسلموه ، وكان قد أتى محمد بن علي فاشده في الخروج وسأله ألا يقبل أفاويل
أهل الكوفة وقال له : إنا نحد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يُصلب بالكوفة وأنا أحاف
أن تكون ذلك المصلوب ، وناسده عمي داود بن علي وحدره عذر أهل الكوفة ، فلم يقل
وتم على خروجه فقتل وصُلب بالكوفة . ثم وثب علياً بوأمية فأماوتوا شرفاً وأذلوا
عزاً ، والله ما كانت لهم عداً ترةً يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب حروجهم
عليهم ، ففجوا من البلاد فصرا مرةً بالطائف ومرةً بالشام ومرةً بالشرقة حتى استعظم الله لما
شيعه وأصباراً ، فأحيا شرفاً وعزاً بك أهل خراسان ودمع بمحكم أهل الباطل وأظهر حقنا
وأصار اليها ميراثاً عن نيتنا صلى الله عليه وسلم ، ففقر الحق مقره وأظهر مناره واعز أنصاره
وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور فبنا على قرارها

من فصل الله فيها وحكمه العادل لها وشوا عليها طلما وحسدا منهم لها وبها لما فصلا الله به عليهم وأكرمها به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلاً على- وجباً عن عدوهم . لئست الخلفان الجهل والجن

فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت محالة . بلعى عنهم بعض السقم والتعزم ، وقد دسست لهم رحالا فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ، فغرحوا حتى أتوهم بالمدييه فهدسوا اليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا يابهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بقصصهم بيعتي وطلهم الفتنة والتماسهم الخروح على فلا يرون أى أتيت ذلك على عير يقرب . ثم نزل وهو يتلو على درج المبر هذه الآية : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ .

ولقد يلاحظ على الخطابة العباسية اتسامها بطابع العرة الدينيه لماهاتهم بصلتهم من النبي ، كما يلاحظ عليها اللهمة « الأتوقراطيّة » التي لا تختلف في شيء عن لغة ماواوت رومة في العصور الوسطى ولغة الملوك الدين يديون سطرية « حقوق الملك المقدسة » وأنهم ورثة الله في أرضه وممثلوه بين حلقه .

خطبة للنصور الخليفة العباسي

خطب في مكة فقال :

أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وسديده وتأييده ، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه إذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني ، فارعبوا الى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فصله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أن يوفقي للرشاد والصواب ، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان اليكم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

خطبة للخليفة المهدي

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لمسه ، ورصى به من خلقه ، أحمده على آلائه وأُحمده
 لئلانه ، وأستعيه وأؤمى به وأتوكل عليه توكل راضٍ بقصائه وصابر لئلانه . أوصيكم
 عباد الله بتقوى الله فإن الاقتصارَ عليها سلامه ، والترك لها دامة . وأحكم على إحلال
 عظمته وتوقير كبريائه وقدرته ، والاتهاء الى ما يقرب من رحمته ، وينجى من سمطه ،
 ويُبال به ما لديه من كريم الثواب ، وجريل المآب . فاحتنبوا ما خوَّفكم الله من شديد
 العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب ، يوم تُوقفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على
 البار . يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فهم شقي وسعيد . يوم يعز المرء من أحيه وأتمه
 وبه لكل أمرئ يومئذ شأن يعيه . يوم لا تحزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها
 عدل ولا تسمعها شفاعته ولا هم يصرون . يوم لا يحزى والد عن ولده ولا مولودٌ هو جار
 عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تعزبكم الحياة الدنيا ولا يفتركم بالله الغرور . إن الدنيا
 دارُ غرور وبلادٌ وشورٍ وأصمحللٍ وزوالٍ وتقلبٍ وانتقالٍ . قد أفنت من كان قبلكم
 وهى عانده عليكم وعلى من بعدكم . من ركن إليها صرعته ، ومن وثق بها خانتها ، ومن أملها
 كدبته . ومن رحاها حدثته . عرَّها دُلَّ ، وعابها فقرٌ . والسعيدُ من تركها والشقيُّ من
 آثرها . والمعصون فيها من ناع حظُّه من دارٍ آخرته بها . فالله عَادَ الله ! والتوبة مقبولةٌ
 والرحمة مبسوطةٌ : وبادروا بالأعمال الركية في هذه الأيام الحالية قبل أن يؤخذ بالكُطُم
 وتدموا فلا تآلون الندم يوم حُسِرَ وتأسِفَ ، وكآبٍ وتلهُفَ . يومٌ ليس كالأيام وموقف
 صلك المقام .

خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله الذى نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ونؤمن به
 حقًا ونتوكل عليه مُفَوِّضِينَ اليه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكبيرَ
 السيئاتِ وتضعيفَ الحسابِ ، وفوزًا بالجنة ونجاةً من النار ، وأحذرکم يوماً تشخص فيه

الأبصار وتبلى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاقى ويوم التنادى . يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد في حسنة . يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحابجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم حائسة الأعين وما تحفى الصدور .. فاتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت . حصّوا إيمانكم بالأمانة وديكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . وإياكم والأمانى فقد غرّت وأردت وأوقفت كثيرا حتى أكدتهم ماياهم ، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون . فرغب ربكم عن الأمثال والوعد وقدم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائمه بالقرون الخوالى حىلا خيلا ، وعهدتم الآماء والأبناء والأحبة والعشائر اختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لاتدفعون عنهم ولا تحولون دونهم ، فرالت عنهم الدنيا واقطعت هم الأساأ ، فأسلمتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليعجزى الذين أساءوا عما عملوا ويعجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وإن نظرة تَحلى الى السَّحِبِ الصَّعِيرَةِ التى احترها لك عن المصور والمهدى والرشيد تعطيك فكرة صحيحة نأنا لم نعد نأب الصواب فيما ذهبنا اليه من "أوقراطيتها" و"ناويتها" في طبعه مجاها ، وطلاوتها وبلاغتها في مساهها .



على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوّة التى كانت عليها في صدر تلك الدولة حينا استقرت ورسخت ، اذ فترت عدد ذلك الدواعى وهدأت الدواعى ، وأحدثت حالتها في الاصمحلل لاشتداد احتلاط العرب بالأغنام ولأن الشخصيات البارّة في الدولة كانت في الغالب من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم تحرد ألسنتهم بالخطابة لما يصيبها أحيانا من الكسة التى وحصر العجمة وإد سمّت معلوماتهم وارتقت في البلاغة أساليبهم .

وربما كان من المعقول أن نقول : إن الخطابة في العصر العباسى كانت بوجه عام أقل منها في العصر الأموى من ناحية البلاغة والأسلوب ، مع وجود بعض خطباء مصّاقع

لا يقولون عن إخوانهم الأمويين بلاعة واقتدارا، سيد امها كانت متعددة الأنواب، لتشعب ما يبناه لك من الوجوه والمناحي .

(ج) الكتابة :

حرت الكتابة في العهد الأول من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بني أمية : من حودة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وحلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته، فلم يكن القوم يُعَمِّمُوا في التصوّر والتفكير، أو ينظروا الى السبأ فيستوحوها، أو الى الطبيعة فيستطيقوها، أو تستيشعوا ما وراء العالم، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلة يرمون فيها عن حاصر الديهة وعفوي الخطاير، فلم يشاركوا الحكماء في تفكيرهم، ولا الماطقة في محجهم، اذا استنبيا نفرا قليلا أمثال أبي المقفع، وإنما كانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيت بديع، أو مثل سائر، أو حكيه رائعيه، أو فكره سامية، أو معنى يصل الى القلب بلا استئذان، وأوعلوا في ذلك حتى صاروا فصحاء الناس وأمرء البياض . فكان الأديب منهم يُرسل الرسالة أمام مقصده فتعمل في الفموس ما لا تعمله الأسنة والرماح . وناهيك بما كانت تفعله تلك الرسائل في نفوس القوم ! .

فلما حقلت عداد، وأقلت الدنيا وأوسع السلطان وأمتدت أطرافه، وصميت الدولة الى أحصائها ألباء الفرس والشرين، وكانوا يحملون ثراث آباءهم وطُرف علمائهم، وأوسع الخلائف رحاهم لكل ذى فصل من رحال الدولة، وعرفوا للعلم مقامه رفوفه، وللأدب صولته فأكرموا، وقزوا العلماء والأدباء، وعقدوا مجالس المناظرة والمداومة — كما سبى لك — وأكث الناس على العلم والتأليف والترجمه، وتكشفت كل ذلك عن علوم ومفون لا عهد للعربية بها، فقلوا اليها الطب والسياسة والحكمة والعلك والمطلق والتنجيم، وألف المسلمون في الفقه والحو والحديث والتفسير — كان لكل ذلك أثره في أخيلة الكُتَّابِ وأساليب الأعلام ووحي القرائح، فتعددت الأغراض، وبوعت الأساليب، ومال الكُتَّاب الى السهولة في العبارة، والتأني في اللفظ، والجودة في الرصف، وأطالوا في المقدمات، وتوعوا البدء

واختتامَ والألقابَ والدعاء، ومالوا الى الغلو والمبالغه، وهالك مثلاً ما كتب أس سيابة الى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها . «لأَصْبَدِ الجواد ، الوارِى الزناد، الماحد الأُحْدَاد ، الوزير الفاضل ، الأشمُ البازل، اللباب الحُلاَّحِل ، من المستكينِ المستجيرِ ، الناسُ الصريرِ، فإنى أحمدُ الله ذا العزة القدير، اليك والى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة ، أما بعد، فاعلم وأسلم وأعلم، إن كنت تعلم، أن من يَرْحَمُ يَرْحَمُ ، ومن يَحْرِمُ يَحْرِمُ ، ومن يُحْسِنُ يَنْفَعُ ، ومن يَصْغُحُ المعروف لا يَعدَمُ ، قد سبق الى عَصْكَ على ، وأطْرأكَ لى ، وعَقَلْتُكَ عَنى بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنبى ولا أرقد، فلستُ بحى صحيح ، ولا بميت مُستريح ، فمرتُ بعد الله منك اليك، وتَجَلَّتْ بك عليك . »

أما الإطبا في الكتابة فكان صمّة غالبية في كل ما شمل بيعةً، أو عهداً، أو احتجاجاً أو انتصاراً، أو تقريراً للمذهب أو استهواءً، أو دفعا لشبهة أو طلدا لعممة، أو ما يقوم نصالاً أو ما يدعو نزالاً . وستجد طرفاً من رسائل القوم في ذلك العصر الراهى الزاهر في باب المشور بالكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وقد بالعوا في مدح مدحهم وذم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المصور العباسى والفس الركة، فقد جاء مما كتبه الأؤل قوله : «أما بعد، فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك ، فإذا حُلَّ حرك بالنساء لتُصل به الحفاه والعواء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومه، ولا الآماء كالعصّة والأولياء ، وقد جعل العمّ أما وبدأ به على الوالد الأدى، فقال جل شأؤه عن . بيه عليه السلام : «وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائى إبراهيم وإسماعيل ويعقوبَ .» . ولقد عَلِمْتُ أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم وعمومهُ أرسنةً ، فأجابه اثنان أحدهما أبى ، وكَفَرَ به اثنان أحدهما أنوك . فأما ما ذكرت من النساء وقراتهن فلو أُعْطِينَ على قرب الأنساب وحقّ الأحساب لكان الخير كله لآمة بيت وهب ، ولكن الله يختار لديه من يشاء من خلقه . »

غير أن ذلك لم يكن ليجمع أن الميل الى الإيحاء له في نفوس القوم مقامه، وفي قلوب البلغاء عزه وسلطانه، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أمير أو وزير أو ذى حايه وسلطان، فقد رُفِعَ الى المصور شكاة من أهل الكوفة لأعوحاج في عاملهم، فوقَّع عليها «كيما تكونوا يؤلّ عليكم». وكتب جعفر الى عامل سُكِّيَ له منه: «قد كثر شاكوك وقلّ شاكوك، فإما اعتدلت وإما أعتلت».

وقد أجمع الرواة أن الحال قد بقيت على ذلك من المتأه وحسن الإشاره ولطف المدخل وفراة المعنى وحسن الابتداء، حتى حلف من بعدهم حلف ضعفت فيهم ملكة اللغة وأعوزهم اليان، هالوا الى الألفاظ وصاعتها، والانحجاج (وزحرفتها)، وبقيت الكتاة تُثقل في أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسها مع رأس العباسيين في القرن السابع الهجرى.

(د) مجالس الخلفاء والمناظرة :

للخلفاء العباسيين محكم طبيعة دعوتهم السياسية واستمحال أمر المدنية في أمامهم محالّس حافلة بالأدباء والشعراء والمفيس والماديين قد أُنِزَعَتْ بذكرها كتب الآداب واستوعب الشيء الكثير منها أبو الفرح الأصفهاني في أعانيه.

وكاوا يُجِلُّون العلماء، كما يبا لك في موقف الرشيد مع أبى معاوية الصرير، ويعتون بالشعر وللغة، ويحِرُّصون على تعليم أولادهم بواسطة نُحْجَةٍ من رحالات عصرهم؛ فالمصورُضمّ الشَّرقَ بن القطامى الى انه المهدي وأوصاه أن يعالمة أحرار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار. والرشيدُ عيّدَ تعليم ابه الأمين الى الأحمر النحوى ثم الكسائي، وعيّد بتأديب المأمون الى اليزيدى وسيبويه وغيرهما. وللرشيد وصيةٌ يقال إنه أوصى بها الأحمر حينما عيّد اليه بتأديب الأمين، ونحس نثبها هما لتقفّ مها على نوع التربية التى كان يتطلبها خلفاء ذلك العصر لأبنائهم، ولأنها تدلّ في الوقت نفسه على مبلغ التحول الذى وصلت اليه المدنية العربية في العصر العباسى وكيف استمادت من نُظُم اليونان والعرس وغيرهم ممن وقف العرب على آرائهم ومؤلفاتهم.

أما الوصية فهي : « يا أحمراً، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطاً، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وصعت أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن ، ونصّره بمواقع الكلام وبدنه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حصروا مجلسه . ولا تزن لك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتُميت دمه، ولا تُمين في مسامحته فيستحلى الفراغ ويأله . وقوم ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أمانهما عليك بالشدة والغلظة » .



وكانوا يعنون للمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة كما كانوا يعنون أيّما عناية بحفظ الأشعار وروايتها، ويعتبرون عدم حفظها مصيبةً وكارثةً، فقد روى الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: لما مات جعفر المصورس الأكبر مشى المصور في جنازته من المديّة الى مقابر قريش ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه ثم أنصرف الى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال : يا ربيع أنظر من في أهلي يُشددني :

* آمِنَ المنون ورَبِهَا نتوَحَّعُ *

حتى أتسلّ بها عن مصيبتى، قال الربيع : نخرجت الى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور، فسألهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال : والله لمصيبتى أهل بني آل يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقلّة رعبتهم في الأدب، أعظم وأشدّ على من مصيبتى بابي . ثم قال : أنظر هل في القواد والعوام من الجند من يعرفها، فإني أُحِبُّ أن أسمعها من إنسان يُشدها، فخرجت فاعتصمت الناس فلم أجد أحدا يُشدها إلا شيعاً كبيراً مؤدباً قد أنصرف من موضع تأديبه، فسألته هل تحفظ شيئاً من الشعر ؟ فقال . نعم شعر أبي ذؤيب فقلت : أنشدني ، فابتدأ هذه القصيدة العينية ، فقلت له : أنت يعنى، ثم أوصلته الى المصور فاستنشدته إياها، ثم أجازه بمائة درهم .



أما التحول العظيم الذي حصل في أبهاء "صالونات" الخلفاء الخاصة بالمنادمة، فالحديث عه يطول . وحسبك في ذلك ما يدلى به إسحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسيين ، فإنه يحذرك بما سَقَعُ الغَلَّةَ إذ قد سُئِلَ عن أحوال الأمويين في الشراب واللهو فتكلم بإيجاز عن حالتهم ، وسُئِلَ عن العباسيين موصَفَ وأحدَ وصوَرٍ وأفاد قال :

« أما مُعَاوِيَةُ وَمَرْوَانُ وَعَدُ الْمَلِكِ وَالْوَلِيدُ وَسُلَيْمَانُ وَهَشَامٌ وَمَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ فَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدِّمَاءِ سِتَارٌ ، وَكَانَ لَا يَطْهَرُ أَحَدٌ مِنَ الدِّمَاءِ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ الْخَلِيفَةُ إِذَا طَرَبَ لِلْفَنِّ وَالْتَذُّهُ حَتَّى يَبْقَلِبَ وَيَمْشِي وَيَحْتَرِكُ كَتَمِيهِ وَيَرْقُصُ وَيَتَجَرَّدُ حَيْثُ لَا يَرَاهُ إِلَّا خَوَاصَّ حَوَارِيهِ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ إِذَا ارْتَفَعَ مِنْ خَلْفِ السِّتَارِ صَوْتُ أَوْ نَمِيرٌ طَرِبَ أَوْ رَقَصَ أَوْ حَرَكَةٌ زَفِيرٌ يُجَاوِزُ الْمَقْدَارَ قَالَ صَاحِبُ السِّتَارِ : حَسْبُكَ يَا جَارِيَةُ كُفِّي ! انْتَهَى ! أَقْصِرِي ! يَوْمَ الدِّمَاءِ أَنَّ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ بَعْضُ الْحَوَارِي . فَأَمَّا الْبَاقُونَ مِنْ حُلَءَاءِ بَيْ أُمِيَّةٍ ، فَلَمْ يَكُونُوا يَتَحَاشَوْنَ أَنَّ يَرْقِصُوا وَيَتَجَرَّدُوا وَبَحْصُرُوا عُرَاءَ بِحَصْرَةِ الْخُلَعَاءِ وَالْمَغْنِيِّينَ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي مِثْلِ حَالِ يَزِيدَ بْنِ عَدَدِ الْمَلِكِ وَالْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدٍ فِي الْمَجُورِ وَالرَّوْثِ بِحَصْرَةِ الدِّمَاءِ وَالتَّجَرُّدِ مَا يَبَالِيَانِ مَا صَعَا .

قلت : فعمربن عبد العزيز^٩ قال : ما طلق في سمعه حرف عتاء منذ أفضت الخلافة إليه الى أنف فارق الدنيا ، فأما قلبها ، وهو أمير المدينة ، فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجليل . وكان ربما صفق بيديه ، وربما تتمتع على فراشه وضرب برجليه وطرب ، فأما أن يخرج عن مقدار السرور الى السخف فلا .

قلت : خلفاؤنا (حلاء بى العباس) .

قال : كان أبو العباس في أول أيامه يظهر للدماء ثم احتجب عنهم بعد سنة ، أشار بذلك عليه أسيد بن عبد الله الخزاعي . وكان يطرب ويتبجح ويصيح من وراء الستار :

« أحسنت والله ! أعذ هذا الصوت » فيعاد له مراراً ، فيقول في كلها : « أحسنت » . وكانت فيه فصيلةٌ لا تحدها في أحد ، كان لا يحصره ديمٌ ولا مثنٌ ولا مثله يصرف إلا بصيلةٍ أو كسوةٍ قلت أو كثرت ، وكان لا يؤخر إحسان محسٍ لغد ، ويقول : « المحب ممن يفرح إنسانا فيتعجل السرور ويحمل ثواب من سره تسويها وعده » فكان في كل يوم ليلة يقعد فيه لشعله لا يصرف أحدٌ من حصره إلا مسرورا ، ولم يكن هذا العربي ولا غمى قبله . غير أنه يحكى عن بهرام حور ما يقارب هذا .

« فاما أبو حمير المصور فلم يكن يظهر لديم قط ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء . وكان يسه وبين الستار عشرون ذراعا ، وبين الستار والدماء مثلها . فاذا عاه المثنى فاطربه حركت الستار بعض الحواري ، فاطلع اليه الخادم صاحب الستار فيقول : قل له « أحسنت مارك الله فيك » وربما أراد أن يصق بيديه فيقوم عن محله ويدخل بعض حجر دسائه فيكون ذاك هناك . وكان لا يئيب أحداً من ندمايه وعيرهم درهماً فيكون له رثماً في ديوان . ولم يقطع أحداً من كان يضاف الى ملهية أو صيح أو هزل موصع قديم من الأرض ، وكان يحفظ كل ما أعطى واحدا منهم عشر سنين ويحسبه ويذكره له .

« وكان المهدى في أول أمره يحتجب عن الدماء متشبهاً بالمصور محواً من ستة ثم طهر لهم ، فأشار عليه أبو عوي أن يحتجب عنهم فقال : « إليك عني يا جاهل ! إنما اللذة في مشاهد السرور وفي الدتو من سرتي ، فأما من وراء وراه ما حيرها ولدتها ! ولو لم يكن في الطهور للدماء والإخوان إلا أني أعطيتهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم لجمعت لهم في ذلك خطأ مؤقراً » . وكان كثير العطايا يواترها ، قل من حصره إلا أعناه ، وكان لين العريكة ، سهل الشريعة ، لذيد المادامة ، قصير الماومة ، لا يمل نديما ولا يتركه إلا عن ضرورة ، قطع الخنا ، صبوراً على الجلوس ، صاحك السن قليل الأذى والبذاء .

« وكان المادى شَيْكَسَ الأخلاق، صَغَبَ المرام، قَلِيلَ الإغصاء، سَيَّءَ الظَّن، قَلَّ مَنْ تَوَقَّاه وعرف أخلاقه إلا أعاد، وما كان شَيْءٌ أَعْصَى إليه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للعنى بالمال الخطير الحريل فيقول « لَا يُعْطِي بعدها شيئا » فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

«ويقال : إنه قال يوما وعده اس حامع و ابراهيم الموصلى ومُعَاد بن الطيب — وكان أول يوم دخل عليه مُعَاد وكان حادقا بالأغاني عارفا بها — : مَنْ أَطْرَبْنِي الْيَوْمَ مَعَكُمْ فَلَهُ حُكْمُهُ فعاه اس حامع عاء لم يحتره . وكان ابراهيم قد فهم عرْصَه فعناه .
سُلَيْمَى أَجْمَعَتْ بِنَا ۞ قَائِنَ تَقُولُهَا آيْنَا

وطرب حتى قام عن مجلسه ورفع صوته وقال « أَعِذْ نالته وبحياتى ! » فأعاد فقال : «أنت صاحى فاحتجكم» . فقال إبراهيم : يا أُمير المؤمنين ، حائطُ عبد الملك - مروان وعينه الحزاةُ بالمدينة ، قال : فدارت عيابه ورأسه حتى صار ما كأههما حرثان . ثم قال : «يا بن الحناء ! أردت أن تَسْمَعَ العامةُ أنك أطرب بنى ، وأنى حَكْمُكَ فاقطعتك ، أما والله لولا بادرهُ حهلك الى علت على صحيح تنقلك وفكرك ، لصرتُ الذى فيه عيالك ' » ثم سكت هنيهة . قال إبراهيم : فرأى مَلَكَ الموت قائما بينى وبينه ينتظر أمره . ثم دعا إبراهيم الحزائى ، فقال : «حُدْ بيده هذا الحاهلِ فأدِجْله بيتَ المالِ فليأخذْ منه ما شاء ' » . فأحد الحزائى بيده حتى دخل بي بيتَ المال ، فقال كم بأحد فملت مائه بديره ، فقال : دعى أوامرَه ، قلت : فأحد تسعين ، قال . حتى أوامرَه ، قلت : فثمانين ، قال : لا ، فأنى إلا أن يؤامرَه ، فعرفت عرْصَه ، فملت له : أخذ سبعين لى ولك ثلاثون ، قال : شَأْلك ؟ قال : فابصرْتُ بسعين أُلعا وانصرف مَلَكُ الموت عن الدار .

قال : وكان الرشيدُ فى أخلاق أى جعفر المصور يمثُلها كُلُّها إلا فى العطايا والصَّلات والحلج . فانه كان يعفو فعَلْ أى العباس والمهدى ، وَمَنْ خَرَّكَ أَنه رآه قط وهو يشرب

إلا الماء فكذبته، وكان لا يحضر شره إلا حاض جواريه، وربما طرب للعناء فتحرك حركة بين الحركتين في القلة والكثرة.

«وهو من بين حلفاء بني العباس من حمل للعين مراتب وطاقات، على نحو ما وضعهم أردشير بن مالك وأبو شروان، فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع، وزلز مصور الصارب في الطبقة الأولى، وكاب رلزل يضرب ويغني هذان عليه. والطبقة الثانية سليم بن سلام "أبو عبيد الله الكوفي"، وعمرو العزال ومن أشبههما. والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والصبح والطاير. وعلى قدر ذلك كانت تحرح جوازهم وصلاهم. وكان اذا وصل واحدا من الطبقة الأولى الممال الكثير الخطير حمل لصاحبه اللدين معه في الطبقة نصيبا منه، وحمل للطبقين اللتين تلياه منه أيضا نصيبا. وادا وصل أحد من الطبقتين الأخرين بصلة لم يقبل واحد من الطبقة العليا منه درهما، ولا يحترى أن يعرض ذلك عليه.

«قال فسأل الرشيد يوما برصوما الرامر، فقال له: يا إسماعيل! ما تقول في اس جامع؟ حرك رأسه وقال: تحمّر قطر^(١)ل يعقل الرجل وبذهب القل. قال: فما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: استأن فيه حوح وكثرى وتماح وشوك وتروب. قال: فما تقول في سليم بن سلام؟ قال: ما أحسن حصابه. قال: فما تقول في عمرو العزال؟ قال: ما أحسن بانه. قال: وكاب مصور زلز من أحسن وأحدق من رأى الله الحس. فكان اذا حس العود فلو سمعه الأحف ومن تحالم في دهره كله لم يملك أن يطرب.

«قال إبراهيم. فغيت يوما على صربه، خطأني، فقلت لصاحب الستار: هو والله أخطأ. قال: فرقع الستار ثم قال: يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأت! فحمت رلزل وقال: يا إبراهيم تحطئي! والله ما فتح أحد من المغنيين فاه غير لعل إلا عرفت عرصه.

(١) قطر بل بالهم ثم السكون ثم فتح الراء واء. موحدة مشددة مصمومة ولام. اسم قرية بين بغداد وعكرا بسبب البها الحروما رالت مبرها للطلالين وحانة صمايرين وقد أكثر الشعراء من ذكرها. أنظر ياقوت في معربل.

فكيف أخطأ وهذه حالي ! فأذاها صاحبُ الستار . فقال الرشيد : قل له صدقت ، أنت كما وصفت نفسك وكذب ابراهيم وأخطأ . قال ابراهيم : فمَنى ذلك ، فقلت لصاحب الستار : أبلغ أمير المؤمنين سيدي ومولاي ، أن فارس رحلا يقال له سُيدٌ ، لم يحلق الله أصرت منه يعود ولا أحسنَ محسًا ، وإن بعث اليه أمير المؤمنين حملة عرف فصله وتعتيتُ على صربه ، فإن زلزلًا يكادى مكيدة القصاص والقترادين . قال : فوجه الرشيد الى الفارسي فحبل على الريد فأقلق ذلك زلزلًا وعمه . فلما قدم الفارسي ، أحصرنا وأحدا محالسا وحاءوا بالعبدان قد سُويت ، وكذلك كاذب يفعل في مجلس الخلافة ليس يُدفع الى أحد عودُه فيحتاجُ الى أن يحرَّكه لأنها قد سُويت وعُلفت مآثلها مشاكلة للزَّيرِ على الدقة والعلط . قال . فلما وُصِّع عودُ الفارسي في يديه ، نظر اليه منصور زلزل ، فأسفر وجهه وأشرق لونه ، فصرت وبعى عليه ابراهيم . ثم قال صاحبُ الستار لزلزل : يا منصور اضرب ! قال . فلما حسَّ العودَ ما تمالك الفارسي أن وثب من مجلسه بعرايد حتى قبل رأس زلزل وأطرافه ، وقال : مثلك ، جعلتُ فداك ! لا يمتنُّ ويستعمل ، مثلك يُعبَّد . فعجب الرشيد من قوله وعرف فصيلة زلزل على الفارسي . فأمر له بصلة وردة الى بلده . « وكان منصور زلزل من أسنى الناس وأكرمهم ، نزل بين طهراني قويم وقد كان يحل لهم أحد الركاة فما مات حتى وحبب علمهم الركاة .

« وكان اصحاق رُضومًا ، في الطقة الثانية . قال : فطرب الرشيد يوما لرُمره ، فقال له صاحب الستار : يا اصحاق أرُمر على عاء ابن حاتم . قال : لا أعل . قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ! قال : إن كنت أرُمر على الطقة العليا رُفعت اليها ، فأما أن أكون في الطقة الثانية وأرُمر على الأولى فلا أعل ! فقال الرشيد لصاحب الستار . ارمعه الى الطقة الأولى ، فادفع اليه البساط الذي في مجلسهم اليه . فرفَّع اصحاق الى الطقة العالية وأحد البساط وكان يساوي ألفي دينار . فلما حمله الى منزله استبشرت به أمه وأحواته وكانت أمه نَبِيَّة لكَاه فخرج برصوما عن منزله لبعض حاجاته ،

وجاء نساء جبرانه يُهَيِّئْنَ أمه مما حُصِّصَ به دون أصحابه وبدعون لها ، فأحْدَب سَكِينَا
وجعلت تَقْطَعُ لكل من دخل عليها قطعةً من البساط حتى أنت على أكثره . فجاء رصوما
فاذا البساط قد تُقَسِّمَ بالسكاكين . فقال : ويلك ما صنعتِ . قالت : لم أدر ، طبتُ
أنه كذا يقسم . فحُلَّتْ الرشيد بذلك فصحك ووهب له آخر .

«وزعم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصلي عني أمير المؤمنين هارون صوتا فكاد يطير
طرما فاستعاد عاتمة ليله ، وقال : ما رأيتُ صوتا يجمع السحَاء والطربَ وحوده الصبغة
والخفّة غير هذا الصوت ، فأقبل ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين ، لو وهب لك إنسانٌ
مائة ألف درهم أو لو وحدت مائة ألف درهم مطروحه ، كنت أسرّ بها أو بهذا الصوت ؟
قال : والله لأنا أسرّ بهذا الصوت منى نألف ألف وألف ألف . قال : فلو فقدت من بيت
مالك مائة ألف كان أشدّ عليك أو لو فقدت هذا الصوت وفاتك هذا السرور ؟ قال : بل
ألف ألف وألف ألف أهون عليّ . قال : فلم لا تهب مائة ألف أو مائتي ألف لمن أتاك بشيء
فقد ألتى ألف أهون عليك مه ! فأمر له بمائتي ألف درهم .



امتاز العصرُ العاميُّ بتقدّم محالّس الماطرة وروّيقها وتنظيمها وقيّد المساقشات
فيها . وقد يكون من المعيد إعطاؤك صورةً صحيحةً للماطرة وعِظَمها ، واهتمامهم بترويق
عارتها ، وطلاوة أساليبها ، وبلاغه تراكيبها ، وملاحظه قوّة المحجّه فيها ، بأن ننقل اليك مشاورة
المهدى لأهل بيته . وهي إن صحت تعتبر أثرًا أدبيًا له قيمته وحطّره ، وأثرًا سياسيًا
لمساقشات القوم السياسية ولتصمّمها خُطَطًا وبصائغ لا يزيد عليها إلا تلك البصائغ التي
تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأموني لأبيه عد الله ، وستراه في موضعه من باب
المشور بالكتاب الثالث في المجلد الثالث من هذا الكتاب . أما المشاورة فستجدها في الكتاب
الثاني من المجلد الثاني .

(هـ) الشعر :

لا يُقدَّسُ العرب من علوم الحياة ومونها شيئاً أكثر من تقدسهم الشعر الذى استودعوه أفكارهم وأخبارهم ، وحفظوا به نغمهم ومسابهم وساقوا به الحيوش والمحافل ، فذُكَّتْ عروشاً وأُمدت ممالك ، وصمموه من أخلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ما جعله مكان نغمهم ومفزع أمرهم ، فكتت تحت العرى يسمع البيت من الشعر فيترنخ وترنخ الشوان ، ويشور حتى كأنه حلل نار وكثيراً ما سمحوا أمامه ، لمكانه من نفوسهم . وقد روى الأصمعى وغيره من ذلك شيئاً كثيراً .

وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كل عصوره العربية ، ولم يَلَّ منه ان دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس ، وحلوا منها مكان الصدور والحكام ، فإن الخلفاء والسادة وجمهرة الأمراء والأدباء ، كانوا يحملون فوق أكفهم ربوعاً عربية حفظوا فيها ثراث آباءهم ومفاخر أجدادهم ، وأقبلوا على الشعر وإنشاده ، وكانوا هم أنفسهم يقرصون الشعر . وإليك ما جاء في عيون الأخبار عن المصور قال : "كان عمرو بن عُبيد اذا رأى المنصور يطوف حول الكعبة في قرطين يقول : إن يُرد الله نأمة محمد حيراً يول أمرها هـد الشاة من سى هاشم . وكان له صديقاً . فلما دخل عليه بعد الخلافة وكتبه وأراد الانصراف قال : يا أبا عثمان ، سل حاجتك ، قال : حاجي ألا تعث الى حتى أنيك ، وألا تعطيني حتى أسألك . ثم هص فقال المصور :

* كلهم ماشى رُويد . * كلهم حائل صيد *
* غير عمرو بن عُبيد *

فلما مات عمرو رثاه المصور فقال

صلى الاله عليك من مُوسد * قرا مرات به على حراب
قرا تصبى مؤمناً متحقاً * صدق الاله ودان بالقراد
وإذا الرجال تنازعوا في سنة * فصل الحديث بحكمة وبيان
فلو أن هذا الدهر أبى صالحاً * أبى لسا حياً أبا عثمان



ولقد أحصروا لأسانهم المؤدبين يقفونهم على الشعر وأستطهارة، وحلسوا للشعراء محالس
أثابوا فيها وأعطوا، ووهوا من المبح ماوهوا . روى الفصل بن الربيع : « أن مروان بن
أبي حفصه دخل على المهدي بعد وفاة مع بن زائدة الشيباني في جماعه من الشعراء فهم
سَلَمُ الخاسر وعيره، فأنشد مديحاً فيه، فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرك يا أمير المؤمنين
وعدك مروان بن أبي حفصه ، فقال له المهدي . ألسن القائل

أقبا باليمامة بعد معي * مَقَامًا لا نريد به زوالا

وقلنا أين رحل بعد معي * وقد ذهب الوال فلا ووالا

قد ذهب الوال فما رعمت، فلم حثت تطلب واليا ! لاشيء لك عدنا، خروا رحله
حزوا رحله حتى أخرج . فلما كان من العام المقبل تطف حتى دخل مع الشعراء فمثل
بن يديه وأنشد .

طرقتك زائرة حتى خيالها . بيضاء تحلط بالجمال دلالها

قادت فؤادك فاستقاد وثلها * قاد القلوب الى الصبا فامالها

قال : فأنصت له الناس حتى بلغ قوله .

هل تطمسون من السماء نجومها * ما كفكم أو تسترون هلالها

أو يتحدثون مقالة عن ربكم * حبريل تلقها النبي فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية * ثرائهم فأردتمو إبطالها

قال : فرأيت المهدي قد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعظاما عما سمع،

ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالها وقعت لكثير من الأمراء والوزراء الذين عرفوا للشعر منزلته ،
فاستعانوا به على أغراضهم السياسية، كما كان الأمويون يستعينون به فيها . وحسبك أن نقول
لك : إنهم استعملوه في المفارقة وفي إثارة العصبية واستحقاق الخلافة ، وفي الهجاء

والتحريض ، فقد دخل سديف على عبد الله بن علي العباسي وعده جماعة من بني أمية فأنشده قوله :

لَا يَغُرُّكَ مَا تَرَى مِنْ أَتَاسٍ * إِنْ تَحْتَ الضَّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَصَحَّ السِّيفُ وَأَرْفَعَ السُّوْطُ حَتَّى * لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُيًّا
فَأَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ فَذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ هَاءً .

وكثيرا ما كانوا يستشعرون بالشعر والشعراء ويحتالون به على قضاء حاجاتهم ، ويُقدِّمونه أمامهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند القصب ، فقد روي أن الرشيد عد رجوعه من حرب الروم أتاه كتاب ، وهو في الطريق ، من ملك الروم ”تَقْفُور“ يفيد نقض الصلح الذي عقد معه ، فهاب القوم إخبار الرشيد وامتنعوا عن مكاشفته ، وقدموا لمكلمته من الشعراء المخاح بن يوسف التيمي واسماعيل بن القاسم أما العنايه وعيرها ، فأنشده المخاح بن يوسف :

نَقَضَ الَّذِي أُعْطِيَ تَقْفُورُ * وَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ
أَبْشِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ * عُنْمُ أَتَاكَ بِهِ الْإِلَهِ كَبِيرُ
فَلَقَدْ تَبَاشَرَتِ الرَّيَّةُ أَنْ أَتَى * بِالْقَصِّ عَنْهُ وَاعْدُ وَبُشِيرُ
وَرَحْتُ يَمِينِكَ أَنْ تُعْجَلَ عَزْوَةٌ * تَشْفِي النَّفُوسَ مَكَانَهَا مَذْكُورُ
أَعْطَاكَ حِرْزِيَّتَهُ وَطَاطَا خَدَهُ * حَذُو الصَّوَارِمِ وَالرَّدَى مَحْدُورُ
فَاجْرَبْتَهُ مِنْ وَقْعِهَا وَكَأَنَّهَا * بِأَكْفَا شُعْلِ الصَّرَامِ تَطِيرُ
وَصَرَفْتَ بِالطُّولِ الْعَسَاكَ قَافِلًا * عَنْهُ وَحَارَكَ آيِنٌ مَسْرُورُ
تَقْفُورُ إِنَّكَ حِينَ تَغْدِرُ أَنْ مَأَى * عَمَكَ الْإِمَامُ لِحَاظَهُ مَغْرُورُ
أَخْلَسْتَ حِينَ غَدَرْتَ أَنَّكَ مُغْلَتٌ * هَلَيْتَكَ أَمَكَ مَا طُنْتَ غُرُورُ
أَلْفَاكَ حِينَكَ فِي زَوَانِرِ بَحْرِهِ * فَطَعَمْتَ عَلَيْكَ مِنَ الْإِمَامِ بِحُورُ
إِنَّ الْإِمَامَ عَلَى أَقْتَسَارِكَ قَادِرُ * قُرْبَتِ دِيَارِكَ أَمْ نَاتَ بِكَ دُورُ

ليس الإمام وإن علفا عافلا * عما سوس بحرمه ويُدير
ملك تحزّد للجهاد نفسه * بعدوه أندا به مقهور
يامس يريد رصا الإله بسعيه * والله لا يعي عليه صير
لا يصح بيع من يغش إمامه * والصح من نصحاته مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة * ولأهلها كفارة وطهور

فكر الرشيد راحما في أشد محبة وأعطى كلفة حتى أراح بصائه، فلم يرح حتى رضى وبلغ
ما أراد . فقال أبو العتاهيه :

ألا نأذت هرقلة بالخراب * من الملك الموفق بالصواب
عدا هاروب يُرعدُ بالمبايا * ويرقُ بالمدكرة القصاب
ورايات يحل الصر فيها * تتزكأها قطع السحاب
أمير المؤمنين طفرت فاسلم * وأبشر بالقيمة والإياب



وكان الشعراء يلعبون دوراً هاماً في الحياة الحزبية . وحسبك أن تعلم أن للخلقاء شعراء
اختصوا بهم كأبي دلالة ، وحماد عمرد ، وشار بن بُرد ، ومروان بن أبي حفصة ، وسلم
الخاصر ، وأبي نواس ، ومصور التمرى ، وغيرهم . وللرامكة شعراء أمثال أنان بن عبد الحميد ،
وأبن منادر والرقاشي وغيرهم ، ولسائر الأمراء شعراء . وهناك شعراء لم يكتسوا بالشعر
كصالح بن عبد القدوس ، وشعراء للشعبة كالسيد الحميري وسلمان قتة ودعيل ، وشعراء
لم يحصروا كربيعة الرقي وكلثوم بن عمرو العتاني وغيرهم . وإياها يحلحلكها الى ما أشتاه
لك من منظوم العصر العباسي ، في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وجمّاع المقال أن الشعر العباسي قد تصمّم موباً عديدة ، ولكنه لا يحتج به في اللغة
كلاً . ومثلاً ، لأن القعدة في الشعر والأدب جعلوا حذهم شاراً ولم يتعدوه بسبب
تقش الحس واستفحال اختلاط الأنعام بالعرب .

على أن الشعراء العباسيين قد تصبوا في أنواعه أيما تفنن من قول في المهاجاة إلى قول في الأخلاق، إلى مُلح إلى تصرُّع، إلى وصف، إلى تجوُّد الخلفاء، برضاهم إلى مدحهم . وعلى الجملة فقد استعملوه في كل عرض من أعراض الحياة من مُفانحة ونحريات وزهریات ورتاء، كما أن منهم من ذكر الوقائع العربية في شعره ؛ فأثرى الشعراء وأثروا . وحسبك أن تعلم أن سلمًا الخاسر حلف ثروة مقدارها ٥٠,٠٠٠ دينار، ١٠٠,٠٠٠ درهم غير الصباغ . ومثله مروان بن أبي حفصة وغيرهما . وسكى الشعراء الاطام والقصور ، وأقنوا الأنف الحسانة من الحدائق وشاهقات الدور ، واستخدموا الجوارى والغلمان ، وأمعوا في شهواتهم ولذاتهم وتتعموا بحطام الدنيا ومرافقها، فسَهَلَت أَلْطَافُهم ، وركت طباعهم . وقل أقتصابهم ، وحاولوا الخروج على الطريقة القديمة، وأرادوا أن يستبدلوا الخمر وساقيةا من الدار ومايها . وتقدم في ذلك الواسي يحمل علمهم فقال .

صِفَةُ الطَّلُولِ بِلَاعَةُ الْقُدَمِ * فاجعل صفاتِكَ لأَبْسَةِ الْكِرَمِ

وقد بالغ في ذلك حتى سبَّه الخليفة وأخذ عليه ألا يذكر الخمر في شعره، فقال :
أَعْرِ شِعْرَكَ الْأَطْلَالَ وَالْمَنْزَلَ الْقَعْرَا * فقد طالما أزرى به ننتك الخمر
دعاني إلى بيت الطلول مُسَلِّط * تصيقي ذراعي أن أرد له أمرًا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة * وإن كنت قد حشمتي مربكا وغرا

وسج كثير من الشعراء نهج أبي نواس، وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة محبوا حتى الآن .



هذا الترف الذي شمل القوم، يضاف إليه اختلاطهم بالأعاجم، وما كان لهم في ذلك الوقت من حرية في التصور والتفكير، جعلهم يفتحون في اللغة العربية فتحا جديدا يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان، فيدخلونها في أشعارهم وآثارهم، وتمتد أيديهم إلى كثير من اللفظ الأعجمي يصورون ما جاد به النعم وما استلزمته الحضارة . فيقول أبو نواس في ذلك :

وذا ت خد مُورَّد * قُوْهِيَّة المتجرَّد
 تأمَّل العين منها * محاسناً ليس تتقد
 ببعضها قد تنهى * وبعضها يتولد
 والحسن في كل عَصو * منها مُعَادُّ مُرَدَّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصفوا ماطرَ الطبيعة ورعدَ العيش وبعيمه، وصحة الإخوان
 وغياء اليقين، ومصايد الوحش والطير، ومحاسن الأيس والسرور، وآسَدَعُوا كثيراً من
 المعاني الجديدة، كقول بشار :

يا قوم أذني لعص الحى عاشقة * والأذنُ تعشُّقُ قل العين أحيانا
 قالوا من لا ترى تهدي فقلت لهم * الأذنُ كالعين تُوقِي القلبَ ما كانا
 وقال أبو تمام .

وإذا أراد الله شرَّ فصيلة * طُوبَت أتاح لها لسانَ حَسود
 لولا اشتغال السارميا حاورت * ما كان يُعرفُ طيبُ عَرِفِ العود

نقبت هالك أمور حديره بالاهتمام، كان يصح أن نقف عندها قليلا، فقد بالغوا
 في الوصف، وفتحوا باب القصص، ونزلوا بالغلمان، ولكن المقام يضيق عن ذلك .

الكتاب الثالث

عصر المأمون

الفضل الأول محمد الأمين

توطئة — مولده — نشأته وأحلافه .

(١) توطئة :

في التاريخ الأمويّ مأساة مروّعة، وهي أن حدّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتلوا حليفهم، وحروا رأسه، وذهبوا به الى يزيد، فقصه على ربح وطيف به في دمشق^١ كانت تلك المأساة المروّعة نتيجة دعوى سياسية حاذه، على الخليفة الوليد الذي نُسيه حالته السياسية من حلّ وحوها حالة الأمن، فقد كان من صحايا نظام ولاية العهد الثنائي، ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعله خليفة بعده، فاضطر الى توليه أحبه هشام، ثم ابسه الصغير الوليد بعد هشام . فحاول هشام أن يولي ابنه مسلمة بدل الوليد، كما حاول يزيد من قبل تولية ابنه الوليد، فلم يُفلح هذا ولا داك . وكانت النتيجة المعقولة لخطتهما السياسية : من محاولة كليهما حلع وليّ العهد واليعة لولده، أن انضم الى كلّ بعض القوّاد والزعماء والأنصار، تأييدا له فيما يريد . وكان هؤلاء القوّاد والزعماء والأنصار يصبحون موضع المقت والاصطهاد من وليّ العهد المصطهد متى ولي الخلافة وصار الأمر

إليه . فاذا ما اصْطَهَدَ الخليفةُ نفسه وَحَبِطَتْ خُطَّتُهُ كَانَ نصيبُ سيرته من الرواة نصيبَ الوليد بن يزيد، وهو نصيب محمد الأمين .

ريد أن يقول، إرصاداً للعلم والتاريخ والمطلق، أن الرواة إذا قالوا مثلاً : إن الوليد كان كافراً أو كاتباً مجموعة قبائح، أو أنه سلم يوسف النقيّ - كلا من محمد وإبراهيم ابني اسماعيل المخرومي - موثقين في عباةتين ، وأن يوسف أقامهما للناس وحلدهما وعذبهما وأماتهما، أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام، وقرى بين رَوْحِ بن الوليد وبين امرأته، أو ذكروا أنه عَذَّبَ خالد بن عبد الله القسريّ - سيدَ اليمن - وأنه سلمه للنقيّ - فزع ثيابه وعذبه مُرَّ العذاب حتى أماته ، أو وصّوا مُنَافِسَهُ ريدَ بالنسك والورع — فإن من واحد المؤرّخ المصنف، المتحرّي للحقائق التاريخية، والرابع في الصفة العلمية، والمتشني في أناة ورو وحكمة مع الاقتصار على التحليلية، والخاص لأحكام المطلق والحيدة والتعقل، أن يطر بتحقيقٍ وتحزيرٍ كبير، الى مثل تلك الروايات التي يوصف بها الخليفةُ المصْطَهَدُ والمعلوبُ على أمره ، وكل من أشلَّ عرشه وصاع ملكه ، وَحُتِمَتْ بالقتل أو الحرمان حياته .

على أنه يحذر بما أن نتساءل، قل أن نفتحم موضوعاً في هدوءٍ وسكون : ما هو الروح الذي يعلب على الرواة المعاصرين، والشعراء المعاصرين، والكُتَّاب المعاصرين، والمُحدِّثين المعاصرين ؟ وما النهج الذي تسلكه الصحافة المعاصرة ؟ أليس هو الى حدٍ غير قليل، مُبَاصِرَةُ الحزبِ القويّ أو الرعيِمِ القويّ - مباصرةً حازّةً قويةً حاذّةً، وقد لا تخلو من مبالغةٍ في تمّذحها بمحاسنه ، وإعراقٍ في ررايتها على خصمه بقائضه .

فهمة المؤرّخ إذاً — حين يقرّص لحياة خليفة مصْطَهَدٍ انتهت حياته بجرّ رأسه : مثل حياة الوليد بن يزيد الأمويّ ، ومحمد الأمين العباسيّ، وحين يعرض لتحليل حياة خليفة منصر : مثل حياة يزيد حصم الوليد في العصر الأمويّ، وحياة عبد الله المأمون حصم محمد الأمين في العصر العباسيّ — ليست ميسورةً معدّة بل هي جدّة شائكة .

وقد يكون من الحصافة والمصصة العلمية أن يُعرَض ما يرويه الرواة المعاصرون من مَدَجِّ للغالب وانتقاصٍ للغلوب، على بساط البحث التحليل . ولسا رمى بذلك الى أن تُرَقَّص مقولاتهم وتُنقَص بلا حق وجاهة رواياتهم ، وإما بوصى الحيلة والاحتِراس لا أكثر ولا أقل .



(ب) مولده .

بعد هذه التوطئة الوحيدة التي لم نَزِدْهَا عن إشارات في هذا الموضع ، بدأ كلمتنا عن محمد الأمين ، من الناحية التحليلية لأحلافه . أما ناحية النزاع الذي شجر بينه وبين أخيه المأمون ، فلها موضعها التاريخي من كتابنا .

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد ، ولد سنة سبعين ومائة هجرية ، وهي السنة التي استُخْلِفَ فيها والده الرشيد . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بسنة أشهر . وولِدَ المأمون في الليلة التي استُخْلِفَ فيها والده .

وأم الأمين أم جعفر بن عبد الله بن جعفر بن المصور ، وهو هاشمي الأب والأم . وقيل إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسي غيره .

واذ كان أحواله هاشميين ولهم في الدولة نفوذ قوي وكلمة مسموعة . فقد سَعَوْا ، فيما تحدثنا التاريخ ، حين مَدَّ جماعة من بني العباس أعناقهم الى الخلافة ، الى أن يكون الأمر الى أب آختهم ، وقد نحجوا .

سعى حائل الأمين عيسى بن جعفر بن المصور الى الفصل بن يحيى الذي بعثه الرشيد على رأس جيش الى خراسان ، لمحاربة بعض الخارجين على الخلافة ، وتسكين الاضطراب في تلك البوارج ، وقد كان التوفيق حليقه في ذلك الوجه . فقال عيسى للفصل . «أَسْئِدُكَ اللهَ لَمَّا عَمِلْتَ في البيعة لابن أخي ، فانه ولدك وحلافه لك» ، فوعده الفصل أن يفعل .

فلما كان الفضل بجراسان ، يُدَلِّ بِمَا وَاثَاهُ فِيهَا مِنْ طُهُورٍ عَلَى الْخَارِجِينَ ، وَهُوَ بَعْدُ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ وَزُرَّاءِ الرَّشِيدِ ، وَأَصْحَابِ السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ فِي الدَّوْلَةِ ، بَايَعَ لِمُحَمَّدِ الْأَمِينِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْقَوَادِّ وَالْحَدَثِ ، بَعْدَ أَنْ فُرقَ أَمْوَالًا عَظِيمَةً ، وَأَعْطِيَ أَعْطِيَّاتٍ كَثِيرَةً . وَتَغْنَى بِذَلِكَ شَعْرَاءَ الْعَصْرِ ، أَمْثَالُ أَمَانَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْلاحِقِ ، وَالْمُرِّيِّ وَسَلْمِ الْخَاسِرِ وَغَيْرِهِمْ . وَلِبَيَانِ وَجْهَةِ نَظَرِهِمْ فِي الْبَيْعَةِ قُتِلَتْ لَكَ شَيْئًا مِمَّا قَالَهُ سَلْمُ وَالْمُرِّيُّ .

قَالَ سَلْمٌ :

قَدْ وَفَّقَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ إِذْ بَيَّ * بَيْتَ الْخَلِيفَةِ لِلْهَاجِلِ الْأَزْهَرِ
فَهُوَ الْخَلِيفَةُ عَنْ أَبِيهِ وَحَدَّهُ * شَهِدَا عَلَيْهِ بِمَطَرٍ وَبَحْرٍ
قَدْ بَايَعَ الثَّقَلَيْنِ فِي مَهْدِ الْهَدَى * لِمُحَمَّدِ بْنِ رَبِيدَةَ أَسَهِ جَعَرَ

وَقَالَ الْمُرِّيُّ .

أَمَسْتُ بِمِرْوَعِ التَّوْفِيقِ قَدْ صَفَقْتُ * عَلَى يَدِ الْفَصْلِ أَيْدِي الْعُجْجِ وَالْعَرَبِ
بِنَيْعَةٍ لَوْلَى الْعَهْدِ أَحْكَمَهَا * بِالصَّحْحِ مِنْهُ وَبِالْإِسْمَاعِيلِ وَالْحَدِيدِ
قَدْ وَكَّدَ الْفَصْلُ عَقْدًا لَا انْتِقَاصَ لَهُ * لِمُصْطَفَى بْنِ الْعَبَّاسِ مُتَحَبِّ
فَلَمَّا تَنَاضَى أَمْرُ الْبَيْعَةِ إِلَى الرَّشِيدِ ، وَوَحْدَ نَفْسَهُ أَمَامَ « الْأَمْرِ الْوَاقِعِ » ، إِذْ قَدْ بَايَعَ لِمُحَمَّدِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ، بَايَعَ لَهُ بِلَايَةَ الْعَهْدِ ، وَكُتِبَ إِلَى الْأَقْبَاقِ فَبَوَّعَ لَهُ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ . وَمِنْ هَذَا يَعْلَمُ مَا يَصِحُّ أَنْ يُعْتَبَرُ سِرًّا فِي أَنَّ الْأَمِينَ كَانَ وَلِيَّ عَهْدِ الرَّشِيدِ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ وَلَدِهِ سَا .



(ج) نشأته وأخلاقه :

تَقْرَأُ مَا سَطَرَهُ أَمْثَالُ « كَارِلِيل » عَنْ « كَرِيمُول » وَ« فَرْدَرِيكُ الْأَكْبَر » وَمَا كَتَبَهُ « تَرْفِيلْيَان » عَنْ « مَاكُولِي » وَ« نُزُول » عَنْ « جُونْسُون » وَ« اللورد موري » عَنْ

”جلادستون“، وغيرهم من الكتاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حياة الملوك أو الساسة أو العقريين، فنلاحظ، في حل كتبهم، وفي الدقيق المستوى منها على الأخص، أنهم يحملون أيما احتفال، بقصد ملاحظاتهم عن تاريخ بطلهم في طفولته، وكيف كانت ثقافته في ميعه شبابه وطراوة إهابه، وما هي الأوائد والفرائب أيام كان حدثاً صغيراً. وقد لا تُدهشك مناته ”ما كولى“ وقوة سكه وارتفاعه الى دروة اللاعة في أساليه، ولا يهولك كثرة ما حفظ ووفرة ما أطلع، اذا علمت مثلاً أنه وهو لم يعد السادسة أو السابعة كانت محوطاته في طفولته، تشر بعقريته في رحولته. وكذلك يقال عن ”شارلس دكز“ وسبع الاطلاع في صباه على جل ما سطر وكتب، حتى صار في مقتل حياته وقد ملك ناصية اللاعة، وتسم الدروة في تعرف المسيات وتحليل روح الطبقات كافة: من أنسین معورين الى أشراف مترفين. وكذلك يقال عن ”سپسر“ الفيلسوف العظيم والمربي البابه الذي كان يحفل في مدأ نشأته، وهو لم يعد العاشرة مثلاً، بالدوينيات وغريب الهوام التي كانت على شاطئ الهر، فعكف على دراستها، فتولدت في نفسه صفات الخلد والأناة والمواطنة، حتى أصبحنا نراه، وهو في شجوحته، يجرح للباس المعجز المطير في علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حد له ولا حصر. كذلك يقال عن ”حوسون“ في صباه، وكيف كان يعال المرض والمرص يُغالسه، وكيف كانت أحاديثه في مطامعه، وكيف كان سحرُ يابه وتدفقه في محالسه، وكيف كان ألياً عيوفاً، مترفعاً أبواً، مرفص في شتم وإباء حذاءً جديداً اشتراه له من لاحظ تحرق حذائه وقصر يده عن جديد. الى آخر ما يقيدته كتاب العصر عن نشأ أبطالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال في إثبات شبيهه ومثيله، مما يهيد في تعرف أحوالهم، ويساعد على تفهم حقيقة أمورهم. لأن القارئ اذا زامل الزعيم في طفولته وصباه، ووقف على عبثه وجته، وحلده أو ترمه، وتعلمه أو تعزمه، وشاطله أو نحوله، وورزانتة أو تبدله، ووقف كذلك

على نقائصه وفصائله ، وهو حَدَّثُ بعدُ ، يستطيع أن يفهمَ فهما صحيحا ، حكمة تصرفاته
في مستقبل حياته ، كما يفهم الصديقُ صديقه وإلحدلُ خِدَنَه .

ولتسائل الآن . هل سَجَلُ لما التاريخ شيئا قَبِيًّا عن نشأة الأُمِين وطمولته ؟

أظن أرى لا أعدو الحق كثيرا اذا قلت لا ، إذ قلنا يعرض المؤرخون القدماءُ لشيء
من طفولة العظماء ورحال التاريخ .

على أننا قد وقفنا من طفولة الأُمِين على شذرات ليست بدات عَمَاءَ كبير ، نثبتها
لك وندرسها معك ، وربما ساعدتنا بعض المساعدة على تفهم حدائنه الأُمِين ، وأستخلاص
بعض الحقائق عنه .

يحدثنا البيهقي في « المحاسن والمساوى » بما سلخصه لك خاصا بنشأة الأُمِين التعليمية ،
لتقف على البيئة التي كان فيها الأُمِين ، ولأن روايته ، خصوصا ما جاء عن حُلْم زبيدة
وفزعها منه ، مما رواه المسعودي في « مروج » أيضا ، قد تجعلنا نلعل بحق أثر الوسط
والوراثة في حَلَق ما كان للأُمِين من استعداد لحب الاستحارة ، مما كانت له نتائج السيئة ،
ولأنه يفهمها بوجه عام لَمْ كان الأُمِين فصيحاً ، أدبياً ، طليعاً ، ولَمْ كان عابثاً مستهتراً ، ولم كان
وادعا متبها . الدماء ، ولأنه يفسر نشاطه في ترف الخلافة ونعيمها ، ومَرَجِ الحدائنة
ونهبها ، والاستمتاع بمال زبيدة والإدلال بها شيتها !



أنت حَدِّدْ عالم أن الرشيد حمل الأُمِين في حجر الفصل بن يحيى ، والمأمونَ في حجر
جعفر بن يحيى . وأنت حَدِّدْ عالم أن الفصل بن يحيى قال له شيم بن شر الواسطي : « ليكن
أكثرنا تأخذ به ولي العهد الأُمِين تعظيم الدماء ، فإني أُحِبُّ أن يُشْرِبَ الله قلبه الهيبة لها ،
والعفاف عن سفكها » . وأنت حَدِّدْ عالم بوصية الرشيد للأحمر الحويّ تأخذ الأُمِين
بالشدّة ، إن لم تنفع الملايكة في تقويمه . وقد آن لنا أن نترك للأحمر فرصة التكلم ، فيروى
لك ما كان من أمره مع تلميذه الأُمِين .

يقول الأحمر : « كنت كثيرا ما أشدد على الأمير في التأديب ، وأمعه الساعات التي يتفرغ فيها للهو واللعب ، فشكا ذلك الى حاصنة — ولعلها كانت كبيرة وصبيات أو أميات القصر الزبدي — فأنتى برسالة من أم حمير تعزم على الكف عنه ، وأن أجعل له وقتا أحبه فيه لتوديع بدنه ، فقلت : الأمير قد عظم قدره ونعد صوته ، وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد ، لا يحتملان التقصير ، ولا يقبل منه الخطأ ، ولا يرضى منه بالزلل في المطلق ، والجهل بالشرائع ، والعمى عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام السياسة ، قالت : صدقت ، غير أنها والده لا تملك ههنا ولا تقدر على كفى إشعاقها ، ومع حذرهما أمر إن شئت حدثتك به ، فقلت : وما داك ؟ قالت : حدثتني السيدة أنها رأت في الليلة التي حملت بها به كأن ثلاث نسوة دخلن عليها ، فقعدت مهن ثنتان ، واحدة عن يمينها ، وواحدة عن يسارها ، فأمرت إحدى الثلاث يدها على بطنها ، ثم قالت : ملك رحل ، عظيم البدل ، ثقيل الحمل ، سريع الأمر ! وقالت الثانية : ملك قصير العمر ، سليم الصدر ، منهتك الستر ! وقالت الثالثة : ملك قصاف ، عظيم الإلتاف ، يسير الخلاف ، قليل الإنصاف ! فابتنت وأنا فرعة فلم أحس لمن أثرا ، حتى كانت الليلة التي وصعته بها ، أتيتني في الخلق الذي رأيتن فيه ، فقعدت عند رأسه ، وأطلعن جميعا في وجهه ، ثم قالت واحدة منهن : شجرة نصره ، وريحانة حبه ، وروضة زاهرة ، وعين غدقة ، قليل لثها ، عجل دهابها ! وقالت الثانية : سفيه عارم ، طالب للغارم ، جسور على المخاصم ! وقالت الثالثة : احفروا قبره ، وشقوا لحده ، وقربوا أكفانه ، وأعدوا جهازه ، فإن موته خير له من حياته ! قالت : فقيت متحيرة ، وسئت الى المعجمين والمعبرين ومن يجر الطير ، فكل يشرفني بطول عمره ، ويعدني بقاءه وسعاده ، وقلبي يأبى إلا الحذر عليه ، والتهمة لما رأيت في مامى . وبكت خالصة وقالت : يا أحمر وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحترق واقع الصدر ، أو يقدر أحد على أن يدفع عن أحبائه الأحل ! . قلت : صدقت ، إن القصاص لا يدمعه شيء . »

ويحدثنا التاريخ أن الرشيدَ اتحدَ فيمن اتحدَ لتربية الأُميين وتعليمه ، قطرباً النحوى .
 وكان حمادُ عمرد يتعشق الأُميين ، ويطمع أن يقضه الرشيد عليه مؤذماً . فلم يتبأ له ذلك
 لتهتكه وقبح ذكره فى الساس ، وقد كان رام ذلك فلم يُحْتِ اليه . فلما سمع أن قطربا
 قد استوى أمره وأجيب الى ذلك لستره وعفاهه ، أحد حماداً المقيمُ المقعدُ ، حسداً على
 ما ناله قطرب من ذلك وبلعه من المنزلةِ الرِيعَةِ والدرحة السنية ، فأحد رقعةً وكتب فيها
 أبياتاً ، ودفعها الى بعض الخدم ، الذين يقومون على رأس الرشيد ، وحمل له على ذلك
 جُعلاً ، وسأله أن يُودع الرقعة دواة أمير المؤمنين ، ففعل . فما كان بأسرع من أن دعا
 الرشيدُ بالدواء ، فادا فيها رقعةً فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جراك الله معصرة * لا يُجَمِّع الدهر بين السَّحْلِ والذَّيبِ
 السَّحْلُ عِرٌّ وَهَمُّ الدَّيْبِ عَقْلُهُ * والديبُ يعلم ما بالسَّحْلِ من طيبِ

فلما قرأ الرشيدُ الرقعة قال : أنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطياً ! أهوه من الدار ؛
 فأخرجوه عن ناديب الأُميين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأُميين حراساً ، واتحد عليه حمادا
 وكان عليه رهاء سبعين أو ثمانين '

رئنا كان من الحق أن تقول : إن هذه الشأه كانت لها آثارها السيئة ، خصوصاً أنا
 نلاحظ ، أن الأُميين تنقصه الدرَّةُ السياسية . وأنت تعلم أن الدربة السياسية هى ناحية
 يُؤَبُّه لها كثيراً ، فى تنمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الإدارية ، وتنظيم ملكات السلطان
 فى ولى العهد ، خصوصاً ذلك العصر الذى لم تكن فيه وسائل الثقافة الملكية متوافرة
 توافرها اليوم : من سياحه لولى العهد الى الممالك المتمدينه ، ووقوف على مبلغ الحضارة
 العالمية ، كما هى حال ولى عهد انجلترا ونظرائه مثلاً ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسية
 فى ذلك العصر كانت أشدَّ منها اليوم ، لأن الملكَ حين داك كان صاحبَ سلطانٍ فعلى
 مطلق ، غير مقيد بقانونٍ أو دستورٍ إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

نريد أن نقول إنه إذا كان نَدْبُ الهادي الرشيد، حين ولاء قياده الجند لحرب الروم، قد أوحى الرشيد في مركز القيادة العامه، وفيها من الشيوخ المحكيين والقادة المذترين والزعماء المظمين، مجموعة صالحة للثقافة السياسية، وفرص تسع، في القبة بعد القبة، للرائة السياسية ولتحريج حليبه مُدْزِب في فنون الملك، وإذا كان المأمون قد نَدَبَ للحكم في خراسان وغير خراسان، حتى نكثت به ظروف الأحوال عن مفاسد مال الخلافة وعمه اس زبيده ودلال الهاشيميين - يريد أن نقول إنه إذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه هي نتائجُ الدُرْبَةِ السياسية، فمن الميسور أن نفهم معه افتقادها، كما أنه من الميسور أن نستنتج أن عصرًا هاما من عناصر تكوين رحال السياسة والحكم كان يقص الأمين الذي لم تستطع عاشيته من الخدم وطلانته من الموالي وأحواله من الهاشيميين وأساتيده من المربين، أن يحولوا بينه وبين ما تشتهيه نفسه وتهوى طفولته .

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ بهه مخزيم في أموره، ويسدّد في تصرفه، وقع لميوله، وتقويم لأعوجاجه، وبما يجعله رجلا كاملا ! أظن لا . وأظن أنك محق في نفيك هذا عن كان في ظروفه وبيئته .

على أنه من العدل والحق، أن نقرر أن الأمين لم يكن بليد الذهن أو ثقييل الظل، بل كان نقبض ذلك على حظّ من توقّد الذهن وفصاحة اللسان، وخفة الروح والطل . وحسبك أن ترى شيئا مما كان يصحّ به في مجالس اللهو والمناذمة : من سرعة البديهة، وطرافة السكتة، وحلاوه التندر، ورقة الدعابة، وعدوبة الفكاهة، لتؤمن بما نقول .

وكل ما أجمع عليه المؤرخون العِرنَجَةُ « كبور » ونُجَاب دائرة المعارف الإسلامية، واتفقت عليه كلمة المؤرخين العرب جميعا، أنه كان مستهترا، مُسرّقا، مع خور حُلُقٍ، وعدم تصير في العواقب، ولا ترو في مهمات الأمور، مما يرجع في الواقع الى عدم العناية بثقافته السياسية، كما أسلفنا .

وإنّا محقون إذا ما قررنا أنه لو وحدَ الأمينُ يدًا حكيمةً تقسو عليه أحياناً فتفعل من شاةٍ نفسه العاشيةَ المريحة ، وتقوم اعواح حلقه الرحو ، وتقوى سحايه المسحلة ، وتبعث به الى الحروب ، ليظهر لظئ أوارها ، ويصقل من حلادها وسحالها ، ويهيد منه من جبره كُتاتها ، ودربة شيوخها ، وحِدَع مدبريها ، وحُطَط مُشيرِها ، وتولييه حكم صُقع من الأصقاع ، للراة فيه على معصلات الحكم ومشكلاته ، والاحتكاك قناده وقصاته ، إذاً لكان للمأمون منه حصم لا يستهان به ولا تلين قناته لغامر .

على أنا وإن قلنا إن الأمين كان مستهترا ، لا يستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبر الذى رواه الطبرى وغيره والذى صر به الفحرى مثلا على إهمال الأمين وعقلته وحمله ، إلا بشئ من التحفظ كثير . وهاك خلاصه الخبر لى تقدّر معا ما لهد الملاحظة من وجاهة وقيمة :

لما اشتد الخلاف بين الأمين والمأمون ، حتى انتهى الى عايته ، أرسل الأمين لمحاربة أخيه حيشا ، لم يرى بعداد قل ذلك أكتف منه ، قوامه أربعون ألفا وقيل خمسون ، وزوده بالسلاح الكثير والأموال الوفيرة ، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولة ، حليل القدير ، مهيب الجلب ، هو على بن عيسى بن ماهان . وقد خرج معه الأمين الى طاهر المدينة مشيعا مودعا . وكان فى حكم اليقين أن الطمر سيكون حليفه ، لكثرة عديده ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التقي بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره فى حدود أربعة آلاف — ثم كانت الغلة لطاهر ، وورد الخبر بعمى على بن عيسى الى الأمين وهو يصيد ، قال للذى أخبره بذلك : دعنى فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين وأنا الى الآن ما اصطدتُ شيئا ! وكان كوثر هذا حادما من الحصيان ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيرا .

نقول — ولعلك توافقنا فيما نذهب اليه — إننا لا نستطيع أن نقبلَ هذا الخبرَ وأمثالَه ، إلا بشيء من التحفظ كثير . فإن خليعةً يسمع مثل هذا السأ العظيم ويعلم أن وراءه الفصل في مصير سلطانه ثم لا يأبه له ، لا يكتفى أن يوصف بالإهمال والجهل ، بل هو جديرٌ بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسعيه الأبله أولُ المجر عليه مه أن يكون ذا سلطانٍ مطلقٍ في دولةٍ بعيدة الأطراف والنواحي . ومحالٌ على الرشيد الذي عُرف بالحرم ، وجودةِ الحُدس ، والثاني في الأمور ، أن يُسَيِّدَ هذا السلطانَ العظيمَ من بعده لسعيه أبله .

لهذا نَميلُ الى الافتراض كثيرا ، بل الى الترجيح ، أن هذا الخبرَ ، والكثيرَ من أمثاله ، ليس إلا أثرًا من آثار الدعوة المأموية التي كان لها من الأثر في ثل عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقل عن أثر عساكر المأمون وحرم قواده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأسقطَ في أيدي حوِّدها ، لغتورهم في الدفاع عن الأمين وعَدِم استبسالهم في الذود عنه . ويعزو مؤرِّحُه الأستاذ "ويل" أسباب ندمهم هذا الى سخاء الأمين وإسرافه فيما كان يُغدِّقُ عليهم من الأموال والخيرات .

أما أنه كان سخيا بل مسرفا في السخاء فما لا ريب فيه . ومهما افترَصَتِ المبالغة فيما سنزويه لك نقلا عن المطان الأدبية والمصادر التاريخية ، فإن الصورة التي ستقع من نفسك ، مهما جعلتها متواضعةً مقتصدةً — وهذا ما بوصيك به دائما — كافيةٌ للاقتناع بأنه كان سخيا ، بل مسرفا في السخاء .

يقول الأصمهاني في أعانيه : عني إبراهيم بن المهدي ليلة محمد الأمين صوتا في شعر أبي نواس :

يا كثيرَ الوج في الدَّمنِ * لا عليها بل على السكي
سُنَّةُ العشاق واحدة * فإذا أحبت فاستكني

طَنَّ نِي مَنْ قَدْ كَلَفْتُ بِهِ هُوَ يَحْمُونِي عَلَى الظَّنِّ
رَشْأً لَوْلَا مَلَاَحَتُهُ حَالِ الدُّنْيَا مِنَ الْفِتَنِ

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أخرجتني إلى هذه الغاية عشرين ألف ألف درهم ، فقال الأمين : هل هي إلا خراج بعض الكُور ! . هكذا ذكر إسحاق .

أما محمد بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكاية عن إبراهيم فقال : لما أردتُ الانصراف قال : أَوْقِرُوا رَوْرَقَ عَمِي دُمَايِرَ فاصرفتُ بمالٍ حريِل .
ثم تعال ، أَرشِدَكَ اللهُ ، لنظرة ما فيما يرويه أحدُ المعاصرين ، وهو سعيد بن حميد فإنه يقول .

لما ملك محمد وَّحَهُ إلى جميع السُّلْدَانِ في طلب الملَّهِينَ وصمَّهم إليه ، وأجرى عليهم الأرزاقَ ، ونافس في ابتِئاعِ قُرَى الدُّوَابِ وأحدَ الوحوشِ والسباعِ والطيرِ وغير ذلك ، واحتجَّ عن إخوانه وأهل بيته وقَزَّاه واستحَفَّ بهم ، وقَسَمَ ما في بيوت الأموال وما بحصرته من الجوهر ، في حصايه وحلسائه ومعدنيه ، وحَمَلَ إليه ما كان في الرِّقَةِ من الجواهر والخراثنِ والسلاح ، وأمر ببناء محالِسٍ لمتنزهاته ومواضع حلوته ولطوه ولعسه ، بقصر الخلد والحيزرانية ، ولستانِ موسى ، وقصر عدونه ، وقصر المعل ، ورقة كلوادي ، وباب الأنار ، وتبارى والهُوب ، وأمر بعمل خمس حُرَاقَاتٍ في دِجْلَةٍ ، على حِلْقَةِ الأَسَدِ ، و"مَيْل ، والعقاب ، والحية ، والفرس ، وأنفق في عملها مَالاً عظيماً . فقال أبو نواس يمدحه :

تَحَرَّ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا * لَمْ تُسَحَّرْ لَصَاحِبِ الْمَحْرَابِ
فَإِذَا مَا رَكَاهَ سِرَرٌ رَآ * سَارَى الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثَ عَابِ
أَسَدًا نَاسِطًا دِرَاعِيهِ يَهْوِي * أَهْرَتَ الشَّدِيقِ كَالْحِ الْإِنْيَابِ
لَا يَمَانِيهِ بِاللَّحَامِ وَلَا السُّو * ط وَلَا عَمَزَ رَحْلَهُ فِي الرِّكَابِ
عَجَبَ النَّاسِ إِذَا رَأَوْكَ عَلَى صَو * رَةِ لَيْثٍ تَمَرَّمُ السَّحَابِ

سَحَوا إِدْ رَأوْكَ سِرَتْ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَبْصَرْتُكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
دَاتِ رَوِيٍّ وَمَسْرُوحٍ وَحَاحِيٍّ تَسْقُ الْعُبَابَ بَعْدَ الْعَابِ
تَسْقُ الطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا أَسْتَعْمَلُوهَا بِجِيئَةٍ وَدِهَابِ
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِيرِ وَأَبْقَا * هـ وَأَبْقَى لَهُ رِثَاءُ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَاشِمِيٌّ مُوَفَّقٌ لِلصَّوَابِ

على أنه يصح التساؤل : من أين الخليفة ما يكفيه من الأموال الطائلة ، والثروات الوفيرة لسد مطامعه وإلحاحته الى شئ ماعمه ٥ .

وإما بطل أنه يكفيك أن تطرأ أيضا ، فيما تنظر اليه من مختلف مصادر المال : من حراج ربما كان طامعا ، وجايا هائلة مرقعة ، وموازين عتية ، وصرائب مبالغ في فرضها ، الى باب الاستصماء وحده وما يجمع عنه وعن نكدة الوزراء والكبراء . وجبدا لو وُفِّقَ لدراسته بعض الباحثين في التاريخ الاسلامي فهو هام وهو خطير .

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الصحاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم ، قال : ابنتي الأمير سفيانة عطيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم ، واتخذ أخرى على حلقة شئ يكون في الحر يقال له « الدلمين » . فقال في ذلك أبو نواس :

قَدْ رَكَبَ الدَّلْمِيْنَ بَدْرُ الدَّبَجِ . مَقْتَحِمًا فِي الْمَاءِ قَدْ بَلَغَا
فَاشْرَقَتْ دِحْلَةُ فِي حَسْبِهِ * وَأَشْرَقَ السُّكَّانُ وَأَسْنَبَهَا
لَمْ تَرِ عَيْنِي مِثْلَهُ مَرْكَبًا * أَحْسَنَ إِنْ سَارَ وَإِنْ أَحْمَا
إِذَا اسْتَحْتَمْتَهُ مَجَادِيْفُهُ * أَسْبَقَ فَوْقَ الْمَاءِ أَوْ هَمَلَا
خَصَّ بِهِ اللَّهُ الْأَمِينَ الْدِي * أَصْحَى بَتَّاحَ الْمَلِكِ قَدْ تَوَّحَا

ثم لتندرمعي ما يرويه لنا أحد الأسماء بقصر الرشيد ، وهو حسين حادم الرشيد ، فإنه يقول : إن الخلافة لما صارت الى محمد هُيَّيْ له منزل من مسازله على الشط برش أجد ما يكون من فرش الخلافة وأسواه ، فقال : ياسيدي ، لم يكن لأبيك فرش يباهي

به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسن من هذا، فأحببتُ أن أفرسه لك؛ قال :
فأحببتُ أن يُصرّش لي في أول حلاقتي المردراج !! وقال . مَرَقوه ! قال : فرأيتُ
والله الحدمَ الفَرَّاشين قد صيروهُ ممرقا وفرقوه .

وهناك مئات من الشواهد التي يرويها المعاصرون، أمثال محارق المعنى ، وأى عادة
الاحتراى عن مشيخته، والعماس س الفصل س الرابع، وكوثر وعيرهم ، عن سَرَف الأُميين
وبدحه وهو وعثه، يصح أن ترجع إليها في مطانها، وكلها تؤيد صدق اللاب والجوهر .
من ذلك ما يرويهِ لنا حميد بن سعيد، من أن محمدا الأُميين لما ملك، وكانته عند الله
المأمون، وأعطاه بيعته، طلب الخُصيانَ وأتاعهم، وعلى سَهم، وصيرهم لحلوته، في ليله
ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، وفرص لهم فرسا، سَماهم الجرادية، وفرسا
من الحبشان، سَماهم العرابية، وفرص النساء الحرائر والإماء، حتى رمى سَهم، وحتى قال
في ذلك بعضُ شعراء العصر، وقد ذكر أسماء بعضهم وحال الأُميين معهم .

ألا يا مُزْمَنَ المشوى بطوس * عَرِيْبًا ما يهادى بالعوس
لقد أنقيتَ للخُصيانَ نَعْلًا * تَحْمَلُ منهم شَوْمَ البَسوس
فأما بوقلُّ فالشأن فيه * وفي يدِ رِيالك من حليس
وما العُصْمى شَأْرٌ لديه * إذا ذكروا بدى سَهم خسيس
وما حَسُّ الصغِيرُ أحسنَ حالًا * لديه عند محترق الكؤوس
لهم من عُمرِهِ شَطْرٌ وشَطْرٌ * يعاقرُ فيه شربَ الحَسَدَريس
وما للغانياتِ لديه حَظٌّ . سوى التقطيب بالوجه العويس
إذا كان الرئيسُ كذا سَقِيًّا * فكيف صلاحًا بعد الرئيس
فلو علمَ المقيمُ بدار طويس * لَمَزَّ على المقيمِ بدار طويس



وفي الحق أنت قصف الأمين، وأنهما كآه في لهوه، وعلوه في عبثه، وأستهتاره في مرآحه، وأشتغاله بوحه حاص بمخدمه، قد جرّ عليه وبالأكثر، وشراً مستطيراً، وقر منه قلوب العقلاء من مشاييعه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه .

من أمثال ذلك ما ذكروه عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجال بني هاشم، جلدًا وعقلًا، وصنيعًا، وكان يتخذ الخدم، كطبيعة حياة المترفين في ذلك العصر، قالوا: كان له خادمٌ من آخر خدمه عنده، يقال له مصور، فوجد الخادمُ عليه فهرب إلى محمد، وأناه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قول، وحطى عنده حُظوةً مجيبة . فركب الخادم يومًا، في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيفاء، فتر بباب العباس بن عبد الله، يريد بذلك أن يرى خدم العباس هيئته وحاله التي هو عليها، ولم ذلك الخبر العباس فخرح إليه، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس، وقبض الأمين على العباس، وهم أن يقتله، لولا وساطة أم جعفر من ناحيته، وأشتغاله بمحروج الحسين بن علي بن مهران عليه وأصباه إلى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وعاشيته، ذوى السلطان، من المقترين والرماء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأمناء، أسوأ أثر في تاريخ المدييه الإسلامية .



وهناك ظاهرة حُلقيّة في أخلاق الأمين، وهي حبه للاستحارة واحتفاله بالبحث عن أمر طالعه، وركوبه، حتى في آخر لحظة من حياته وهي لحظة التقرير في مصيره أيُسلم نفسه إلى طاهر أم إلى هرثمة، إلى مام رآه . وربما كانت هذه الحلة فيه، من أثر البيعة، كما أسلفنا، أو من روح العصر نفسه، وإن كان أن مامان قائده يحتقرها . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفل في مهام أموره بالاستحارة ووحى الأحلام، بل كان يجعل جلّ اعتماده على مشورة رجاله وذوى النصيحة من أنصاره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأميين لم يكن يستشير، ولكنه كان في كل شؤونه يغله هواه على وجه الصواب من أمره . وكان لرياء حاشيته وتأثير بطائته فيه النتيجة السيئة، فكان لا يعمل مما يدل به إليه من نصيح . وحسبك دليلا على ظهور هذه الحالة فيه ما رواه عمرو بن حفص مولى محمد، إذ يقول . « دخلت على محمد في خوف الليل، وكنت من خاصته، أصل إليه حيث لا يصل أحد، من مواليه وحشمه، فوجدته والشمع بين يديه، وهو يفكر، فسأمت عليه، فلم يرد عليّ، فعلمت أنه في تدبر بعض أموره، فلم أزل واقفا على رأسه، حتى مضى أكثر الليل، ثم رفع رأسه إلىّ فقال : أحضرني عبد الله بن حازم، فضيت إلى عبد الله فأحضرته، فلم يزل في مآظرتي، حتى انقضى الليل . وسمعت عبد الله وهو يقول . « أشدك الله يا أمير المؤمنين ! أن تكون أول الخلفاء بكث عهده، وقص ميثاقه، وأستحف بيمينه، ورد رأي الخليفة قلبه . » فقال : « أسكت الله أبوك ! فعبد الله كان أفضل منك رأيا وأكمل تطرا، حيث يقول : لا يجتمع خللان في همه . » ثم جمع وجوه القواد، فكان يعرض عليهم واحداً واحداً ما أعتزمه بإيوانه، ورعما ساعده قوم، حتى بلغ إلى حريمه بن حازم، فشاورة في ذلك، فقال : « يا أمير المؤمنين لم يصحك من كذبك، ولم يشك من صدقك، لا تحترئ القواد على الخلع فيجعلوك، ولا تحملهم على نكث العهد فيكنثوا عهدك وبيعتك، فإن العادر مخدول، والناكث مغلول ! » .

ولكن الأميين — كما قلنا — كان هواه يعنى عليه وجه الصواب من أمره، وكان واقفا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطائته، وهم الذين كان رياؤهم سما زعافا، ونفاقهم واء فتاكاً، وليس كلامهم حسكا وقتاداً، والذين لم يخلصوا لملكهم أو بلادهم، فيما يدلون به من الآراء، وما يقدمونه من النصائح، وإنما يخلصون لعائل مصلحتهم، فزينوا له نكث العهد، وسهلوا له أمره، حتى أقدم عليه، وكان ما كان من النزاع على ما سصفه لك في مابه .

على أننا لا نغنى بما ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان لبيد الذهب ، وإنما معنى أنه كان ضعيف الإرادة ، عديم التربية . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا نتوقد دهبه ، وفصاحه لسانه ، ومرمر أيضا ، إحقاقاً للحق وإصافاً للتاريخ ، أنه كان بليغا ، متعهدا ، الى حد غير قليل ، قواده بالصح والرأى ، فقد ذكر أحد معاصريه ، وهو عمرو ابن سعيد ، أن محمدا الأمين لما حارب باب حراسان ترجل وأقبل يوصى على بن عيسى بن ماهان : «امنع جندك من العث والرعية ، والعارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، واتهاك النساء ، وول الرى يجي بن على ، وأصم اليه حدا كنيفا ، ومُرّه ليدفع الى جده أرزاقهم مما يجي من نراحها . وول كل كورة ترحل عنها رجلا من أصحابك . ومن حرج اليك من حد أهل حراسان ووحوها فاطهر لإكرامه ، وأحسن حائزته ، ولا تعاقت أحأ بأخيه ، وصنع عن أهل حراسان ريع الحراح ، ولا تؤم أحدًا رماك بسهم ، أو طعن في أصحابك بريح» .

ولم تكن هذه الوصية هي الوصية الوحيدة للأمين مقلوب : فلتة من عابث ، فإن هناك ثانية وثالثة وهلم جرا . وما هو ذا أحمد بن مزيد أحد قواده يجبرنا أنه لما أراد الشخصوص في مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصى أكرم الله أمير المؤمنين ؛ فقال : «أوصيك بحصان عده : إياك والبعى ، فإنه عقال الدومر ، ولا تقدم رجلا إلا لاستحارة ، ولا تشهر سيفا إلا بعد إعدار ، ومهما قدرت عليه بالليل ، فلا تتعده الى الخرق والشر ، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالعتي بأخارك في كل يوم ، ولا تحاطر بنفسك طلب الزلفة عدى ، ولا تستقها فيما تخاف رجوعه على...» الى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان الى آخر لحظة من حياته محاولا الانتصارا ، باذلا مقدوره في الحرب ، ولكن عبته ولوه كانا يقعدان به .

وكان طبيب القلب ، يدعو حتى عن الخارجيين عليه ، والمسيئين اليه . وإن موقفه مع حسين بن على بن ماهان المعروف مشهور . وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما طلب اليه أن يدفع له ولدى عبد الله المأمون ليكونا أسيرين في يده ، فإن أعطاه المأمون

الطاعةَ فيها، وإلا عمل فيهما بحكمه وأعد فيهما أمره! فقال له الأمين: «أنت أعرابي عنون، أَدْعُوكَ إلى ولاء أعة العرب والعجم، وأطعمك حراج كور الجبال إلى خراسان، وأرفع منزلتك عن بطرائك، من أساء القَوَاد والمملوك، وتدعوني إلى قتل ولدي، وسفك دماء أهل بلقي! إن هذا لخرقٌ والتحليط! !

هذا الموقف البليل، دليلٌ على سلامة طويته، وطُهرِ سَحيته. ولكنَّ حفظَه الحالك، وحججه الآفل، ورياء مشيريه، وصعف إرادته، وخور عزيمته، وطمع وعشه، ونصيب المغلوب من الدعوة عليه، والحلمة الموحشه إليه، قد صرت بجرانها على سيرته، فإذا بها شوهاء مُرَرِيَّةٌ، وإذا بها مقسحةٌ مُعَرَّةٌ، حتى قيل فيه ما قيل مما يحذر بنا ألا نغلي كتابنا من إثبات بعضه.

حاء في الجزء السادس من كتاب بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور: «قال المأمون لطاهر بن الحسين: يا أبا الطيب! صف لي أخلاق الخلوغ، قال: كان يا أمير المؤمنين واسعَ الطرب، ضيقَ الأدب، ينبج بهسه ما تعافه هم ذوى الأقدار! قال: فكيف كانت حروبه؟ قال: كان يجمع الكائنات ويضعها بسوء التدبير، قال: فكيف كنتم له؟ قال: كما أسداتيت وفي أشداقها أعاقق الكائنين، وتسبح وفي صدورها قلوب المواقين، قال: أما إنه أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة، لست أنا ولا أنت راعهم ولا حامسهم، وهم الفضل بن الربيع، وبكر بن المعتز، والسدي بن شاذك! هم والله نار أحي وعندهم دمه...! !» .

وقال المسعودي في التنبيه والإشراف: «إن الأمين كان باسطاً يده بالعطاء، قبيحَ السيرة، صعيّف الرأي، سفاكاً للدماء، يركبُ هواه، ويُهمل أمره، ويتكل في جليلات الخطوب على غيره، ويتق بن لا يصححه، واستوزر الفضل بن الربيع، إلى أن استر الفصل لما تبين من اختلال أمر محمد، ووهى أمره، فقام بوزارته من حوهر من كتابه كإسماعيل بن صبيح، وعاب عليه عدة من الأولياء منهم علي بن عيسى، والسندي

ابن شاك، وسليمان بن أبي جعفر المصور . وقال غيره: « إنه كان كثيرَ اللهو واللعب، منقطعاً الى ذلك مشغلاً به، عن تدبير مملكته .

ويقول ابن الأثير . « لم يحد للأمين شيئاً من سيرته، نستحسسه مدركه . وهذا حق في حملته عن الأمين كدّر مملكة وحليفة ؛ فإن فتى عراً، لم يُثَقِّف الثقافة السياسية اللازمة، ثم يصحح ذا سلطانٍ مُطْلَقٍ، في ملكٍ كبير يشع ذوى المطامع النهمة، ثم تحوطه حاشيةٌ من الدهاء، ذوى المطامع الواسعة، والأعراض الكبيرة : كالفصل بن الربيع، الذى أفسد ما بينه وبين أخيه، وكره من المعتمر الذى زَيْنَ له حلمه، ثم هو فوق ذلك، يصرف الى حدٍّ كبير، عن معالجه تدبير الملك . الى اللهو، والى اللهو بكل ألوانه وضروبه، فقد ذكر الطبرى في حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن علي بن إسماعيل أحد معاصريه : أنه لما أفصت الخلافة الى محمد، وهذا الناسُ بعدد، أصبح صبيحة السبت، بعد بيعته بيوم، فأمر بناء ميدانٍ حول قصر ألى جعفر في المدينة للصوالة واللب، فقال في ذلك شاعرٌ من أهل بغداد :

حَيَّ أَمِيرُ اللَّهِ مِيدَانَا * وَصِيرَ السَّاحَةِ بُسْتَانَا

وكانت العِزْلَانُ فِيهِ مَأَا * يُهْدَى إِلَيْهِ فِيهِ عِزْلَانَا

يقول ابن مثل هذا الفتى الذى يولى وجهه منذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التى كان يحذر به ومن كان في مكانه ألا تكون صاحبةً الصيب الأول من عاينته واهتمامه، حليق ألا يحد المؤرّخ له عملاً صالحاً في شأن من شؤون الدولة، وقين، على ذلك أن يكون موضع استغلال كبير للدعوة المأموية .

وقال غير ابن الأثير : « كان الأمين فصيحاً بليغاً كريماً » . وكيف لا يكون تلميذُ الأحمر والكسائى وقطرب وحماد وغيرهم من حول اللغة وحمادة البيا وأساتذة الأدب من منشور ومظوم فصيحاً بليغاً ! .

على أنه من الحق والعدل، أن نقرر أيضاً، أن هذه الصفات، تكاد تكون من سمجيا كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة العياة . ومن أجل هذا، دهبنا الى ما ذهبنا اليه، من

أن الأُميين لم يكن كما صوّروه لنا من البُلَه والسُّحف ، ومن الجَول والبلادة . ومحالُّ أن يكون كذلك ، وتصرفاته في بعض شؤون الدولة على ما وصفنا . ومحالُّ أن يكون لبيدًا بغيره وأستعداده ، أو جاهلاً عيياً ، لأنّه في الدرّة من الهاشميّة . وأنت تعلم مقدار آهتّام الخلفاء العباسيّين ، والأمرّاء الهاشميّين ، بالثقافة الأدبيّة ، كما ينال ذلك في كلمتنا عن الحياة الأدبيّة والعلميّة في العصر العباسيّ . وإنما طرؤ حيّاه الأُميين ، والبيئَةُ التي أحاطت به ، وما إلى ذلك ممّا فصلناه لك ، جعلت صورة الأُميين كما أراها التاريخ ، ثم هي في الوقت نفسه حنّحت به إلى الاستهتار وإلى العيب والمجانة .

وقد يكون أحسن ما نحتّم به كلمتنا عن تحليل الأُميين وسيرته ، وأصدق وصف له ، مادّ كره الفصل بن الرّبيع ، وزيره وورير أبيه من قلبه ، والذي سيعرض لشيء من دقيق تصرفاته ، وحكيم تدبيراته ، عند ما نعرض لتفصيل النزاع بين الأُميين والمأمون ، فهذا الوصف ربما كان أقلّ تحاملاً من غيره على الأُميين ، وربما كان حياً من سواه في تصوير الأُميين وتحليل أخلاقه وبصيرته .

ذكر الطبريّ : « أن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن الفصل بن الرّبيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأُبّاريّ ، قال : فأتيتّه ، فلما دخلتُ عليه ، وحدته قاعداً في محض داره ، وفي يده رقعة قد قرأها ، وأحمرّت عيابه ، وأشتدّ عصبه ، وهو يقول : يام نَوْمَ الطَّيرِ بَانَ ، لا يهكرى زوالِ بعمّة ، ولا يتروى في إمضاء رأي ولا مكيدٍ ، قد ألهاه كأْسُه ، وشغله قدْحُه ، فهو يجرى في لُهوّه ، والأيام تسرع في هلاكه ، قد شَمَرَّ عبدُ الله له عن ساقه ، وفوق له أَصِيبَ أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحنف النافذ والموت القاصد ، قد عني له المايا على متون الخليل ، وناط له البلاء في أسه الرماح وشِقار السيوف ، ثم استرجع وتمثل بشعر البَيْعِث :

وَتَجْدُولَةُ حَدَلِ الْعَبَانِ خَرِيدَةٌ * لَهَا شَعْرُ جَعْدٍ وَوَحْهٌ مَقْسَمٌ
وَتُفَرِّقُ اللَّوْنِ عَدْبٌ مَذَاقُهُ * تُصَيُّهُ لَهُ الظُّلُمَاءُ سَاعَهُ يَبْسَمُ

وَتَدْيَانِ كَالْحَقِّينِ وَالطَّنْ ضَامِرٌ . تَحِيصٌ وَحُهُرٌ بَارُهُ تَنْصَرِمُ
لَهَوْتُ بِهَا لَيْلَ التَّمَامِ ابْنِ خَالِدٍ عَلَى مَمَرِ الرَّوْدِ عِظًا تَحْرِمُ
أَظْلُ أَنَا عِيَا وَنَحْتَ ابْنِ خَالِدٍ أَمِيَّةَ نَهْدِ الْمَرْكَلَيْنِ عَنَّمُ
طَوَاهَا طِرَادُ الْخَيْلِ وَكَلَّ عَارِيهِ * لَهَا عَارِضٌ فِيهِ الْأَسَةُ تُرْزِمُ
يُقَارِعُ أَتْرَاكَ ابْنِ حَقَانَ لَيْلَهُ * إِلَى أَنْ يَرَى الْإِصْبَاحُ لَا يَتَلَعَّمُ
يُصْبِحُ مِنْ طُولِ الطَّرَادِ وَجَسْمُهُ * نَحِيلٌ وَأُضْحَى فِي الْعِيمِ أَصْنَمُ
فَشْتَانُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ خَالِدٍ * أَمِيَّةَ فِي الرَّزْوِ الدِّيُّ اللَّهُ قَاسِمُ

م التفت إلى فقال : « يا أبا الحارث ، إنا وإياك لجرى إلى عاية ، إن قصرنا عنها
دُئِماً ، وإن اجتهدنا في بلوعها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قويا ، وإن
ضعف ضعفنا ؛ إن هذا قد ألقى بيده ، إلقاء الأمة الوثقاء ، يشاور النساء ويعترن على
الرؤيا ، وقد أمكن مسامعه ما معه من أهل اللهو والحسرة ، فهم يعدونه الطفر ، ويمسونه
عُقب الأيام ، والمهلك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل . وقد خشيت والله أن
تهلك بهلاكه ونمطب بمطبه ! » .

افصل الثباني

المأمون

توطئة - مولده - نشأته وأحلافه .

(أ) توطئة :

لننتقل الآن الى حادثة المأمون ، ولنتبع في دراستنا له نفس الطريقة التي ترسمها حين دراستنا لحادثة الأمير ، فتكلم عن مولده ، كما نتكلم عن نشأته وأحلافه ، محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخية في هذا الصدد ، وأن ننظر فيها نظرة تفهم واستيعاب وإمعان ومقارنة وموارد بما يقتضيه المقام من إحمال وإيجاز .

(ب) مولده :

ولد عبد الله المأمون ، لأربع عشرة ليلة حلت من شهر ربيع الأول ، سنة سبع ومائة هجرية ، وهي التي استحل فيها الرشيد ، فلما أُشّر بمولده سرّ به سروراً عظيماً ، وسماه المأمون تيمناً بذلك . وأمه أم ولد بادهشيه تسمى «مرآحِل» ونقال : إنها نمت الى أسره عريقة في المجد من الأسر الفارسية .

نشأ المأمون في حجر الحلافه وتباً له من وسائل التربية والتثقيف ما لم يتباً إلا لأخيه الأمين . وكانت ظاهرة عليه مخالُ الدجاة والدكاء وبعد الهمة والتعالى بنفسه عن سفساف الأمور .

ومع كبر سن المأمون ، وظهور هذه الخلال فيه ، وثقة الرشيد به ، ومحبة له لم يتح له ما أُتيح للأمين ، من البيعة بولاية العهد ، إذ كان لأم الأمين من المكانة لدى الرشيد ، وهي زوجه ، ما لم يكن لأم المأمون . وقد سبق أن بيانا لك ، في كلامنا على الأمين ، ما قام به أخواله من المسعى الموفق ، في أن يكون أمر الدولة من بعد الرشيد ، لأبن أختهم ،

وما قام به الفضل بن يحيى و خراسان : من البيعة للأمين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيد أمام الأمر الواقع، فأعلن بولاية العهد للأمين راضياً أو مُكرهاً .

(ج) نشأته وأخلاقه :

وكل الرشيد كماله المأمون، والنظر في شؤونه، ومراقب أحواله، حمير بن يحيى وزيره، كما جعل الأمين، في كفالة الفضل أخى حمير . ونحن نحس، عند ذكر كفالة الفضل للأمين، إحساساً قد لا يعدو الواقع كثيراً، أن بين هذه الكفالة، وبين إعلان الفصل، بولاية العهد للأمين في خراسان، صلة .

فلما نما المأمون وترعرع، أحد المؤرّخون بدكروا لنا من مظاهر تحايّسه وحرّيه، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفته بمن كانت أحوالهم معه أو عليه، ووقوفه على ما يجرى حوله من شؤون وأحوال، مما سقّصه عليك، ما ينبغي بما سيكون لهذا العلام من شأن عظيم . ولعل أظهر ما يدل على تحايّبه المأمون في صباه ما يقصّه علينا التاريخ عن أبى محمد اليزيدى مؤدّبه الذى يقول « كنت أؤدّب المأمون، وهو في كماله سعيد الجوهري، بحث دار الخلافه، وسعيد قادم اليها، فوجهت الى المأمون بعصّ حديمه يعلمه بمكانى، فأبطأ على، ثم وجهت آخر فأبطأ، فقلت لسعيد : إن هذا الفتى ربما تشاعل بالبطالة وتأنر، فقال : أجل ! ومع هذا فانه اذا فارقك تعرّس^(١) على خدمه، ولقوا منه أذى شديداً، فقومه بالأدب . فلما خرج تناولته بعصّ التأديب، فانه ليدلّك عينيه من البكاء، إديقيل : جعفر بن يحيى الوزير قد أقبل، فأحد مندبلاً مسح عينيه وجمع ثيابه، وقام الى فراشه فقعده عليه متربماً، ثم قال : ليَدْخُل . فقممت عن المجلس، وخبّثت أن يشكونى اليه، فالتى منه ما أكره . قال : فأقبل عليه بوجهه وحدّثه حتى أصحكه، وضحك اليه . فلما هم بالحركة، دعا المأمون بداية جعفر ودعا غلماناً فسَعَوْا بين يديه، ثم سأل عنى فبحثت، فقال : حدّ على بقية حربى ! فقلت : أيها الأمير، أطال الله بقاءك ! لقد حَفّت أن تشكونى الى حمير

(١) أصابهم شراسة وأذى .

ان يحيى، ولو فعلت لَتَنَكَّرَ لى، فقال تَرَأَى يا أبا محمد كمت أطلع الرشيد على هذه ! فكيف بحميرى حتى أطلعه على أى أحتاج الى أدب ! حد فى أمرى، عافاك الله ! فقد خطر سالك ما لا تراه أبدا، ولو عدت الى نادى مائه مره !

وكذلك مما يدل على دكاء المأمون، ونعوب بصره، وأصانته وحصافه، ومد نعمه أطهاره، ومبغى صباه، ما يحكى من أب أم جعفر عانت الرشيد، فى تفریطه للمأمون، دون الأُميين ولدها، فدعا حادها وقال له . وَحَهْ الى الأُميين والمأمون حادما، بقول لكل واحد منهما على الحلوه ما تفعل اذا أفصت الخلافة اليك " فأما الأُميين فقال للخادم : أَقِطْعُكَ وَأُعْطِيكَ، وأما المأمون فانه قام الى الخادم بدواه كاس من يديه وقال . أَنَسَأَنى عما أفعل لك يوم موت أُمير المؤمنين وحليفه رب العالمين ' إنى لأرحو أن نكون جميعا فداه له ! فقال الرشيد لأُم حميرى . كيف رَئيتَ، فسكتت عن الجواب .

وأعدل الشواهد على تقدير هذا العلامة لنفسه، كأُمير وآس حليفه، وشعوره بما له من منزلة اجتماعيه حاصيه، وبما يسعى أن يكون له، فى نفوس الناس من إحلال واحترام، وما يح لمثله، فى آداب التحية وحسن الخطاب، ما حبه به الحسن اللؤلؤى، وهو الذى اتخذه الرشيد مؤدبا للمأمون، بعد أبى محمد البردى، حين كان يطارحه شيئا من الفقه، وأحدث المأمون سبه من اليوم، فقال له اللؤلؤى : مَتَ أَمَا الأُميرُ فقال المأمون : سوقى ورب الكعبة حدوا سده ! حياء العاهلان فأقاموه . فلما بلغ الرشيد ماصع قال ممثلا : وهل يُنْبِتُ الحَطَّيَّ إِلَّا وَشِجَّهُ . وَتُعَرَّسُ إِلَّا فى مابتها الحُلَّ

ويتحدثنا التاريخ أيضا عن المأمون صبيا، أن الرقاشى هجاه حين مدح الأُميين بقوله :

لم تُلده أُمهُ تُعرِفُ فى السوق التمارا

لا ولا حد ولا حاء * ن ولا فى الحزى حارا

يعترض بالمأمون، لأن الرشيد كان قد حدّه فى حارية أو فى حمير .

ومهما يكن من شىء، فى صبا المأمون، فقد كانت ظاهرة فيه، مخايل البجاية والذكاء

والخزيم، وحسن التدبير وجودة الحدس، والطموح الى الكمال .

وقد محمد الذس يدهون ، الى أن في تلقيح الأحناس بحسباً للنوع ، محبة طاهرة
في المأمون لمدهم ، إذ لا تُعَوِّرُهُم الوسيلةُ في أن يرجعوا نحاحتها الى أنه من أم فارسية وأب
عربي ، أو بعارة أخرى . الى أنه قد جمع بين الدم الآري والدم السامي .

هذه المحاملُ حبته الى الرشيد ، وحملته يقدره قدره ، بجعله ولي عهد الخلافة بعد
أخيه الأمين ، وجمعت حوله طائفة من دوى الهمم الشماء الذين توسموا فيه محققا
لأطماعهم الواسعة .

ومن أظهر هؤلاء الذين التمسوا حوله ، لتحقيق مطامعهم ، الفصل من سهل الذي اُخذ
يحيى بن خالد البرمكي وسيلة الى الرشيد ، في أن يكون في خدمه المأمون . وحسبك أن تعلم
من أمر الفصل هذا ، أنه القاتل حين سئل عن السعادة : إنها أمر حائر وظلم نافده ! .
وأنه الذي قال له مؤذّب المأمون يوماً في أمام الرشيد : إن المأمون بلجبل الرأي فيك ، وإني
لا أستبعد أن يحصل لك من جهة . ألف ألف درهم ، فاعاط من ذلك وقال له : ألك
على حقدٌ ألى اليك إساءةُ ' فقال المؤذّب . لا والله ماقلت هذا إلا محبة لك ' فقال :
أقول لى . إنك تحصل منه ألف ألف درهم ' والله ماصحته لأكتسب مالا قلّ أو حلّ ،
ولكن صحبه ليصيّ حكم حاتمى هذا في الشرق والعرب ! قال . فوالله ما طالت المدة
حتى بلغ ما أمل .

حسبك أن تذكر لك هذا ، من أمر الفصل من سهل . لتعلم ما لهذا الرجل من هم
وتأبى ، وعزيمه مرهقة مضاه ، ومطامع واسعة . وحسبك أن تذكر لك ما وضعه به أحد
معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته . قال

بمضى الأمور على بدته * وزنه فكركه عواقمها
فيطل يضدّها ويوردها فعم حاصرها وعائنها

(١) كتب أستاذنا الشيخ عبدالوهاب البحار عن هذا ما يسه « كذلك كان الرشيد ، كان يجمع بين الدم الآري
والدم السامي . فهل التحسين يجمع في الطبقة الأولى فقط ويهمل في الثانية ؟ ومع هذا فان حور تاف لورون يخالف
هذا الرأي على اطلاقه ويقول : إن أمة كل أروادها مولدون لاساس و يعل ذلك تصدر السحايا والحصال
والعقائد التي يرثها من آوويه واصطراطها في نسه » .

وَإِذَا أَلَمْتُ صَعَةً عَظُمْتُ * فِيهَا الرِّزْيَةُ كَانَ صَاحِبَهَا
 الْمُسْتَقْلُ بِهَا وَقَدْ رَسَبَتْ وَلَوْتُ عَلَى الْأَيَّامِ جَانِبَهَا
 وَعَدَّتْهَا بِالْحَقِّ فَاغْتَدَلْتُ * وَوَسَّعَتْ رَاعَهَا وَرَاهِبَهَا
 وَإِذَا الْحُرُوبُ بَدَتْ نَعَتْهَا * رَأْيَا تَقُلُّ بِهِ كَتَائِبَهَا
 رَأْيَا إِذَا نَبَتْ السُّيُوفُ مَضَى . عَزَمْتُ بِهَا فَشَفَى مَصَارِبَهَا
 وَإِذَا الْخَطُوبُ تَأَلَّثَتْ وَرَسَتْ * هَدَّتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
 وَإِذَا جَرَتْ بِصَدِيرِهِ يَدُهُ أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

يقول الفحري قالوا لما رأى رأى الفصل بن سهل نجابة المأمون في صباه، ونظر في طالعه، وكان حيرا يعلم الحجوم، فدلته الحجوم على أنه سيصير حليفه، لم نأحيته وحده ودبر أوره، حتى أفصت الخلافة إليه فاستوزره.

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون، إلى حرته بالحجوم، أم إلى جودته حذسه، فقد اتصل بالمأمون وهو صبي، وكان الحامل له على أن يكون في خدمته تحقيق آمال كبار، رأى بكاسته وحده في نجابة المأمون حبر كميل بتحقيقها.

ولقد كان استعداد المأمون الفطري مد نشأته أن يكون رحل جماعة، وقائد أمة، إذ قد حبته الطبيعة فيما حته من شتى المواهب موهبة الخطابة والتربية فيها. فقد أحبرا محمد بن العباس اليزيدي قال حدثني عمي عبد الله وأخى أحمد قالا: لما بلغ المأمون وصار في حد الرجال، أمرنا الرشيد أن نعمل له حطة يقوم بها يوم الجمعة، فعملنا له حطته المشهورة، وكان جهر الصوت، حسن الالهجة. فلما خطب بها رقت له قلوب الناس، وأبكى من سمعه، فقال أبو محمد اليزيدي يمدح المأمون:

لَتَهْنِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَرَامَةً . عَلَيْهِ بِهَا شُكْرُ الْإِلَهِ وَحُوبُ
 أَنْ وَلَّى الْعَهْدِ مَأْمُونًا هَاشِمًا * بَدَأَ فَضْلُهُ إِذْ قَامَ وَهُوَ خَطِيبُ
 وَلَمَّا رَمَاهُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَايٍ * أَنْصَارِهِمُ وَالْعُودُ مِنْهُ صَلِيبُ

رَمَاهُمْ يَقُولُ أَصَبْتُوَا نَحْمًا لَهُ * وَفِي ذُوْنِهِ لِلْسَّامِعِينَ عَجِبُ
وَلَمَّا وَعَتَ آذَانُهُمْ مَا أَتَى بِهِ * أَنَابَتْ وَرَقَتْ عِندَ ذَلِكَ قُلُوبُ
فَأَبْكَى عِيُونَ النَّاسِ أَلْعُوعًا وَاعْظُ * أَعْرُ بِطَاحِي النَّجَارِ نَحْبُ
مَهِيْبٌ عَلَيْهِ لِلْوَقَارِ سَكِيهٌ * حَرَى حَنَانٍ لَا أَكْعُ هَيُوبُ
وَلَا وَاجِبٌ قُوَى الْمَسَابِرِ قُلُوبُهُ * إِذَا مَا اعْتَرَى قَلْبَ الْحَبِيبِ وَجِبُ
إِذَا مَا عَلَا الْمُمُوءُ أَعْوَادَ مِيزَرٍ * فَلَيْسَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ صَرِبُ
تَصْدَعُ عَنْهُ النَّاسُ وَهُوَ حَدِيثُهُمْ * تَحَدَّثَ عَنْهُ بَارِزٌ وَقَرِيبُ
شِبْهُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامَةٌ * إِذَا وَرَدَتْ يَوْمًا عَلَيْهِ خُطُوبُ
إِذَا طَابَ أَصْلُ فِي عُرُوقِ مِشَاحِهِ * فَأَعْصَاهُ مِنْ طَيْبِهِ سَتِيبُ
فَقُلْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي بِهِ * يَقْدُمُ عِنْدَ اللَّهِ فَهُوَ أَدِيبُ
كَأَن لَمْ تَبْعَ عَنْ بِلَادَةٍ كَانَ وَالِيَا * عَلَيْهَا وَلَا التَّدْيِيرُ مَكَعِيبُ
فَنَنَعَ مَا يُرْصِيكَ فِي كُلِّ أَمْرِهِ * فَسِيرَتُهُ شَخْصٌ إِلَيْكَ حَبِيبُ
وَرِثْتُمْ بِي الْعِيسَى إِرْثَ مُحَمَّدٍ * فَلَيْسَ لِحَيٍّ فِي التُّرَاثِ نَصِيبُ

فلما وصات هذه الأبيات الى الرشيد أمر لأبي محمد بحسب ألف درهم ، ولأبيه محمد
ابن أبي محمد بمثلها .



« وبعد ، » فليس من شك في بحاية المأمون وتبرزه . ولعل هذه البحابة الحارقة ،
كانت من الأسباب التي حملت الرشيد ، على أن يستوثق له الأمر في ولاية العهد من أحيه ،
ولأخيه منه ، بجمعهما في بيت الله الحرام . حين حج عام ست وثمانين ومائة ، ومعه بكار
رجال الدولة ، وحل الطاهرين من الأسرة المالكة ، واستكتب كلهم عهداً بما له وعليه
قَبْلَ الْآخَرِ ، وأشهد عليهما جماعة من دوى المكانة والعود ، ثم علق العهدين في الكعبة ،
ليكونا في مكان الاحترام الديني . وقد أثبتنا لك العهدين في باب المنشور من الكتاب الثالث
في مجلدنا الثالث .

نقول : اهل هذه الحجابة الحارقة كانت من الأسباب التي حملت الرشيد على أن يفعل ما فعل ، من استيثاق الأمر بين الأخوين ، خوفاً على المأمون ومه . ولسنا ننكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضه : من أن الرشيد كان يُقدّر قوة حربي المأمون والأمين ، وبعبارة أخرى ، حربي الفرس والعرب ، أو العلوية والهاشمية ، أو الشيعية والسنية .

ومن لا يستطيع أن نزع مظاهر العطف المحتله ، وفي مناسبات كثيرة من الرشيد على المأمون ، إلى الأتوه وحدها ، فان للرشيد أولاداً غير المأمون ، وغير الأمين ، لم يالوا شيئاً من هذه الخطوة العظيمة لديه . لذلك نرى — وقد ترى معنا رأياً — أن هذه الخطوة ، التي يالها المأمون من الرشيد ، في مناسبات كثيرة ، دون إحوته ، ترجع إلى ما امتاز به المأمون ، من نخاية حارقة ، وميل إلى حدّ الأمور ، وترفع عن سفسافها ، وسمو عن دنايها ، واصطلاح بما يكلف القيام به من أعاء ومهاتم .

ولعل أظهر مظاهر العطف من الرشيد على المأمون ، ما فعله الرشيد حين واقته مبيته ”بطوس“ ، من وصيته بجميع ما كان معه ، من جيد وسلاح ومالٍ للمأمون ، دون أن يكون تخليعه من بعده ، ليشدّ بذلك من أزر المأمون ، ويقوى من حانه . وأنت حدّ عالم بما قدماه لك من الكلام في العصر الأمويّ ، عن أثر المال فتقدّر معاً ما كان يرومه الرشيد ، ولسّت في حاجة لأن أقول لك ، إن أثر المال وسلطانه في نفوذ الكلمة ، وقوة الشوكة ، دونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا نعدو الواقع كثيراً ، حين نذهب إلى القول بأن الرشيد كان يحذر الخلاف بين الأخوين ، ويحاف كليهما على الآخر : يحاف الأمين على المأمون ، لأن الأمين سيُصبح الخليفة الذي بيده قوة الدولة من جيد ومال ، وتصحبه مزايها من عظم الهيبة ونفوذ الكلمة ، وسيكون مطمح آمال الأمين وموضع رجاء الراعي .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعاً ، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتقون حوله ، رغبة أو رهبة . وجدير بمن كان هذا شأنه أن يُحتسى ويُتقى .

ويحاف المأمون على الأُميين، لأن ما امتاز به المأمون، من نجابة حارقة، وحدّ وحنكة، وعرفان بشؤون الحياة واصطلاح، واعتداد بنفسه، يجعل منه خطراً شديداً على الأُميين جديراً بأن يحشى ويبقى أيضاً . ويظهر أنّ كل هذا وقرى نفس الرشيد الذي كان معروفاً الحزم وحوذَه الحدس، وقوّه البصر بالعواقب، فأراد أن تنقيه، ورأى أن جبر وسيلة لاتقائه، أن يستكتبهما العهدين، كما قدّما، ويمطع بذلك أساب الخلاف بين الأخوين، ويحول دون دس الدسائس، وسعاية الساعين، ويعهم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأُميرين من حرمة وتوقير .

غير أن تصرفات الأيام، وآثار الطغاة، وتنازع السعاة، ومعات الرِياء والحقا، كانت فوق ما كان يقدر الرشيد، فوقع الخلاف بين الأخوين أعف ما يكون . ولم يكن ما اتحدّه الرشيد من وقاية وحيلة ليصدّ بياره الجارف .

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق في اختيار حاشيته ومشرّيه، فجمع حوله طائفة، من ذوى الدهاء والحكمة، وهؤلاء وإن كانوا من ذوى المطامع والأعراض، قد أحصلوا له الصبح، وثقّموه التثقيف الذى يكفل له الحاح، فان تحقيق أطعاهم الواسعة، وقوف على محاحه . فإحلاصهم له إحلاص في الواقع لأنفسهم أيضاً . ولما كانت أم المأمون فارسية فرما حار لنا أن نقول : لعل لكونها فارسية أثرا في أن نخلص له هؤلاء المشبرون إذ كانوا كلهم من الفرس واد كانت له بهم هذه العراة .

وهذا يفسر لنا عاطفة من عواطف المأمون، وهى ميله الى حراسان، ونعصّه بعض التعصب للحراسانيين، إذ يحدّثنا التاريخ أن رجلا من الشام اعرض طريقه مرارا وقال « يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم حراسان، فقال له . أكثرت على والله ما أنزلت قيسا عن ظهور حيولها إلّا وأنا أرى أنه لم يسبق في ناب الى درهم واحد، يعنى فتنه آب العاصرى، وأما البحر فوالله ما أحبها ولا أحتنى قط، وأما فصاعة فساداتها تنتظر السفىانى حتى تكون من أشياعه، وأما ربيعة فساحطة على ربهها

مد بعث الله نبيه من مصر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارقاً . اعرف ! فقل
الله بك ! »

وإيه ليحوز لنا أن نرجع هذا الميل، لا الى ما ذكره المأمون وحده، بل الى التربية وأثر
البيئة الفارسية في نفسه ، والى مقالة حسن الصنيع بمثله ، فأم المأمون فارسية ، والدين
كفلوه وقاموا بتثقيفه فارسيون ، والدين أحاطوا به وبصروه فارسيون . ومن هنا نستطيع
أن نفهم الرأي الذي يقول به بعض المؤرخين الفرنجة : إن انتصار المأمون على الأُميين كان
أيضاً انتصاراً للفرس على العرب ، كما كان انتصاراً للفرس على العرب انتصاراً للعاسيين على
الأُمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضاً ما ذهب اليه بعض الباحثين . من أن المأمون
كان شيعياً وهو عباسي ، لأن البيئة الفارسية التي نشأ فيها كانت إلى حدٍ غير قليلٍ مهتدة
التشيع للعلويين ، ويحور أن تكون قد صبغت المأمون بشئ من ألوانها ، وقد كان لذلك
آثاره ، لا في سياسته و نظام الملك بحسب ، بل في الآراء والمذاهب مما سذكره حين عرض
للكلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قدمناه لك عن شأن المأمون وصاه ، قد رسمنا لك صورة واضحة لهذا
الأمير الذي سيكافح كفاحاً شديداً في سبيل الملك ، والذي كان له أكبر أثر في إحصاره
الإسلامية .

أما شتى مواهب المأمون وآراؤه ، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر
بالسياسة ، وحوّده الحدس ، وكهانة الطائفة ، وشغفه بالعلم والأدب والجدال ، وما كان
لهذا الشغف من ثوره علمية وفكرية وكلامية في عصره ، فسرجى الكلام فيها الى موضعها
من كتابنا ، وهو الكلام على الخليفة المأمون ، بعد أن استقر له الأمر في بغداد ، وحين
صبغت فيه هذه الخلل وآتت كل ما لها من ثمرات .

(١) في اس الأثير (سائسا) وهو علط ، والصحيح ما أثناه عن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب العار . والشرارة

الفصل الثالث

النزاع بين الأمين والمأمون

توطئة — بيعة الأمين وعلافة — مبدأ البراع وكيف تحوّل — الوعود السياسية — دور الرأى العام واستمرار الوعود السياسية — إعلان الحرب — انتصار الحشوش المأمونية ومقولات الشعراء — عود على بدء .
مجهودات الأمين فى سبيل العود — الثورة وحطاطها — قبل الأمين .

(١) توطئة :

عرفت مما ذكرناه لك فى مجل كلامنا عن الرشيد والأمين، أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأمين فى سنة ١٧٥ هجرية، وسنّ الأمين فيما قبل وقتئذ خمس سنين، ثم أشرك معه المأمون فى ولاية العهد سنة ١٨٣ هجرية، ثم استوثق لكليهما من أحبه سنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : ناب استكتب كلا منهما عهدًا بما عليه وله قِلّ الآخر، وعلّى العهدين بالكعبة كما قدّما .

ويؤخذ من بصوص العهدين، وما نودل بعد ذلك من الرسائل بين الأمين والمأمون، مما سورد لك بعصه لما تصمته من «الدبلوماسيقيه العباسيه» : وهى نين فى حرم، وتينيس فى تأميل طويل الأهل، - ويؤخذ منها أن حراسا وبواجها الى الرى-كاتب تحت إمرة المأمون، تصرف فى جميع شؤونها، من سياسيه وحريه واقتصاديه وفصائيه تصرفًا تامًا، لا تربطه محاصره الخلافة إلا رابطه الدعاء للخليفة . وقد صارت اليه إمرة هذه الواحى فى عهد الرشيد، وهى من الأمور التى أحد الأمين بالوفاء بها، فيما أحده من عهود ومواثيق .

وكان الرشيد قد أشرك فى سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخوه فى ولاية العهد، وحمل من نصيبه العمل على الشام وقدير بر والعواصم والشور .

وكانت الأمور جارية محرّاه الطبعي آحر أيام الرشد، ثم شرطاً كبيراً من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كسّاً، دُرْبَةً مِنْهُ وسياسة، وحصافة ويكاسه، وتريناً وتعقلاً، وحرامةً وتمهلاً .

ولم تنقص السنة الأولى من خلافة الأمين حتى كآب الدسائس قد فعلت فعلها، وحتى كآت المامسة العيفة بين البطانتين قد بلغت عايتها، وأحد كل من الأخوين يحذر أحاه ويتقيه، وآمتلات الصدور حفاظ وإحنا، ولم سق إلا أب تلمس تنفجر . وسهصل لك كل ذلك تفصيلا .



(ب) بيعة الأمين وخلافته :

لما خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار محراسان، وكنف أنصاره، وقوبت شوكته، وعظم حطره، رأى الرشيد أن يحرج اليه بنفسه لمحارسته وتسكين حبل الأمن الذي اضطرب في تلك المواحي . فأصابه من مشاق السفر، وتغير الطقس، وشدة التمهكر، ما أعلّ صحته . وبدا له من ظروف الأحوال ما حمّله على تحديد البيعة للمأمون، الذي كان يبرو، وأوصى أن يصير ما معه، من قوادٍ وحيدٍ وسلاحٍ ومالٍ الى حاسه، وأحد المواثيق على من معه أن يؤفوا بهده الوصية .

ثم أخذت تشتد به العلة، حتى وافقه مبييه بطوس سنة ١٩٣ هجرية . وبيع للأمن بالخلافة، في عسكر الرشيد، ووصله نعى الرشيد في عداد يوم الأربعاء لآخر عشره ليلة، حلت من حمادى الآخرة، وقيل ليلة الصف من هذا الشهر، فكم الخبر بقاء يومه وليته، ثم أطهره يوم الجمعة .

(١) هو حميد نصر بن سيار آروال لى أمية خراسان اد دالت بعد ذلك دولتهم . وسب حروح رافع هذا أنه طمع في رواح امرأة يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائى لشرفها ومالها وكانت معاصلة لزوجها، فعملها على أن تلبى الكمر لتطلق ثم تزوج بها . فلع أمره الرشيد الذى كلف مامله أن يهزق بينهما وأن يعاقب رافعا ويخلده الحد ويقيد ويطوف به في مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون علة لميره . فدرأ عنه العامل الحد وطاف به ثم سمحه فهرب من الحرس طارده عمال الرشيد . وما زال أمره يشتد حتى اضطر الرشيد الى الذهاب اليه بنفسه .

ويحدثنا التاريخ أن الأمين لما بلغه اشتداد المرض على الرشيد، وتوقع وفاته، بعث بكتب المتمر رسولاً الى مقر الحليفة، ليوافيه بالأحبار كل يوم . وكتب معه كتاباً، وحملها في قوائم صناديق مقوره، ألبسها حلد القرم، ليخفى أمرها، وكلفه ألا يظهر أحداً على شيء من أمره، وما توجه فيه ولو قتل، حتى اذا بعد أمر الله في الرشيد، دفع الى كل من له كتاب كتابه . فلما وصل رسول الأمين، راب الرشيد قدومه، فسأله عما جاء به، فلما لم يجد في جوابه ما يُزيل ربه، أمر سفتيسه وحبيه . ولعلك تصيب لآب الصواب، أولاً تعدوه كثيراً، اذا افترضت أن هذا الرب الذي حامره من رسول الأمين، كان من العوامل الى حملته على تحديد البيعة للمأمون، وأن بوصى له بما معه من جيد وسلاح ومال .

لث رسول الأمين في الحبس شهراً، إذ ناربح الكعب التي يحملها الى من أرسلت الهم شوال سنة ١٩٢ هـ . ووفاء الرشيد كان في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . ثم بدا للرشيد أن يحمل نكراً على الإقرار، فكلف الفصل س الربيع ذلك، وأن يهتده بالموت اذا لم يقتر . وقد حالت وفاة الرشيد في ذلك اليوم، دون تمام هذا الإقرار . ثم لما وثق الرسول من وفاه الرشيد دفع الى كل كتابه .

وقد أنبأنا لك من هذه الكتب كتابه الى أخيه المأمون وكتاباً الى أخيه صالح في موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب، لما لهما من حظير في موضوع النزاع، فاهما يدلان على أن الأمين لم يكن ليكتب ما عقد من عهود ومواثيق، وإنما طائفة السوء هي التي زينت له أن يفعل ما فعل، فراجعهما ثمة . وتأمل طويلاً فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين الأشقاء، والرعماء، والأمراء، وما نخره على البلاد من انتشار العقد وتشتت الشمل، وتشتت الألفة، وفرقة الجماعه، وسريان الفتى وذبوع الفوصى، وانتشار الاضطرابات، واندلاع يران الثورات، ومن ترجيع كفة الأشرار على الأبرار، الى غير ذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التي سحذت عنها، وستراها واضحة جلية في كلمتنا الآتية .



(ج) مبدأ النزاع، وكيف تقلب، ونتيجته :

قد تطلب الى ، وفقك الله ، أن تقف على ما كان لتلك الكتب ، من أثر في نفوس من أرسلت اليهم ، وإني شافٍ عليك ، مجيئك الى سُؤلك ، محيئك الى الطبرى في هذا الصدد إذ يقول :

”لما قرأ الدين وردت عليهم كتب محمد بطوس ، من المؤاد والجيد وأولاد هارون ، تساوروا في الخاق محمد ، فقال الفصل بن الربيع : لا أدع ملكاً حاصراً لاخر لا يذرى ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، محسه منهم للفقو بأهلهم ومبارهم سعداد ، وتركوا اليهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون “ .

أما المأمون - بعد أن انتهى اليه بمرو خبرُ نكت العوم لليهود الى أخذت عليهم ، وهرارهم الى بغداد مما كان الرشيد أوصى بأن يكون له ، من حديد ومالٍ وسلاح - فقد اجتمعت كلمة الرواه على حسن تقظهِ وسرعته مادرتة لشئى أموره ، وأنه شد لها حيازيمه ، وحسر لها عن ساقه . ويحدثنا التاريخ أنه قد جمع من معه من قواد أبيه ، وأخبرهم الخبر وشاورهم في الأمر ، فأشاروا عليه أن يلحق القوم في ألبى فارس ، ويحول بينهم وبين ما أرادوا .

ولكى المأمون عمل مشوره الفصل بن سهل ، الذى كان يثق به و تكفائته ، ويؤم بكياسته وحسن سياسته ، ويقنع بثقوب بصره وصدق نظره ، فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هديةً الى محمد ، ولكن الراى أن تكتب اليهم كتاباً ، وتوجه اليهم فتدكرهم البيعة ، ونسألم الوفاء ، ونمهدهم الحش وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين ، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك ، فتستبرئ ما عد القوم . وتوجه سهل ابن صاعد - وكان على قهرمته - فانه يأملك ، ويرجو أن ينال أمله ، فان يألوك نصحا ، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين ، وكان عاقلاً . فلم ير المأمون ، وهو

الحاذق الفطن ، ندحة دون صدوره عن رأى ابن سهل ، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفصل الى القوم فلحقاهم سيساور ، فقال الفصل بن الربيع لما وصله كتاب المأمون معتذرا متعللا : ” إنما أنا واحد منهم “ ! وقد مال بعضهم من المأمون وأعظم لرسوليهِ ، ثم رجع الرسولان بالخبر .

وكان ممكناً ، بعد أن طوى المأمون كشحاً على ما وقع من القوم من نكث للمهود واعتصاب لما أوصى به الرشيد له . من حيد ومال وسلاج ، وبعد أن أحْدَيْهْدِي الى أخيه حَيْرَما وصلت اليه يَمَاسُهِ من تحيف نراسان وهائِيهِما ، أن تسير الأمورُ في محراها الطبيعيِّ ، وأن يستقرَّ الأمرُ بين الأخوين على ما أراد الرشيد ، لولا أن بطانة الأُميين أَوْغَرَتْ صدره على أخيه ، ولولا أن بطانة المأمون حفزته الى مقابلة العدوان بمثله ، وأفعمت قلبه ثقه بالغلبة والظفر وإيمانا بالصوز والجمع .

وإن كلمة الفصل بن الربيع ” لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يُدْرِي ما يكون من أمره “ فيها العنِيَةُ والكفَايَةُ في تفهيمهما الأساس الذي تُبَيِّنُ عليه تصرفانه بين الأخوين ، فهو بنظر لمصلحة من بيده الملك اليوم ، لا يحفلُ ببيعِهِ ولا عهدِهِ ، ولا يكثرُ لوحدة قوميهِ ولا يحصل بإحلال الوفاق بين العباد ، ولا يعمل على مصافاه ولا وِدَادِهِ ، وإنما همه الملكُ الحاضر ، والإِمعانُ في إرضاء الملكِ الحاضر .

كذلك كانت حال الفصل بن سهل في موقفه مع عبد الله المأمون ! ومهما كانت صورةُ المأمون التي صورتها لما التاريخ بأنه المعلوم على أمره ، في النزاع الذي نشب بين الأخوين ، وأن الأُميين هو الباكت الغادر . ومهما كانت القلوبُ الإنسانية تحو على المعلوم وتعطف على المعلوم — مهما كان كل ذلك ، مما يجعلنا نستسيع تصرفات الفصل ابن سهل مع المأمون ، بل مما يدفعنا الى الاقتناع بها وعزرو الحصفاة ، والأصالة ، والكياسة ، الى صاحبها ، وأن ليس هناك من هو أنهدُّ منه في مثل مواقفه ولا أجرى ، ولا أحكم من تديراته ولا أوفى ، ولا أرهف غرأرا من عزيماته ولا أمضى ، ولا أقدر منه

في حُطَّطِهِ وَلَا أَعْيَ . تَبَدُّدُ أَمَّا مَعَ ذَلِكَ ، إِذَا جَرَّدْنَا الْمَسَّ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ بَعْضِ صِفَاتِهَا ، وَبَطَرًا ”رَدُّد“ — عَلَى حَدِّ التَّعْبِيرِ الْإِنْخَائِرِيِّ — وَبَجْدِهِ وَنَصْفِهِ مِنْهُ وَلَهُ ، فَمَا نَقَرُّ ، مِنْ عِبَرٍ أَنْ يَبْدُوَ الْحَقُّ وَالْوَاقِعُ ، أَنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ سَهْلٍ لَبِّ مَعَ الْمَأْمُونِ ، ذَلِكَ الدَّوْرَ الْخَطِيرَ بِدَانِهِ الَّذِي لَعَنَهُ الْفَصْلُ بَيْنَ الرَّبِّعِ مَعَ الْأُمِّيِّ ، وَأَنَّ كَلَّا قَدْ تَوَدَّ عَلَى أَمْرِهِ لِفَاتِهِ ، وَاسْتَغْلَهُ فِي سَبِيلِ تَنْجِيحِ سِيَاسَتِهِ ، وَدَفَعَ بِهِ إِلَى حَيْثُ رَدُّدٌ .

أَنْظُرْ إِلَيْهِ ، وَفَدَّ عَادَتِ وَفُودِ الْمَأْمُونِ مِنْ مَقَابِلَةِ الْفَصْلِ بَيْنَ الرَّبِّعِ وَمِنْ لَحْقٍ بِهِ مِنْ حَدِّ وَاسْلَاحٍ ، تَرَاهُ يَصَارِحُ الْمَأْمُونُ عَنْهُمْ يَقُولُهُ : أَعْدَاءُ قَدْ اسْتَرَحَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ أَفْهَمَ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ . إِنَّ هَذِهِ الدَّوْلَةَ لَمْ تَكُنْ قَطُّ أَعَزَّ مِنْهَا أَمَامَ أَبِي جَعْفَرٍ ، نَخْرَجُ عَلَيْهِ ”الْمَقْعُ“ وَهُوَ يَدْعِي الرُّبُوبِيَّةَ ، وَقَالَ بِمَعْصِيَتِهِمْ طَلَبَ دَمَ أَبِي مُسْلِمٍ ، فَصَعَصَعَ الْمُسْكِرُ ، مَخْرُوحُهُ بِخِرَاسَانَ ، فَكَبَى اللَّهُ الْمُؤَنَّةَ ، ثُمَّ حَرَّحَ بَعْدَهُ بَوَسُفَ الْبَرَمِ ، وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ الْمَسَامِينِ كَافِرٌ ، فَكَبَى اللَّهُ الْمُؤَنَّةَ ، ثُمَّ نَخَرَ أَسْتَاذَ سَيْسٍ ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ ، فَسَارَ الْمَهْدِيُّ مِنَ الرِّبَا إِلَى دَسَاوِزَ فَكَبَى اللَّهُ الْمُؤَنَّةَ . وَلَكِنْ مَا أَصْنَعُ أَكْبَرُ عَلَيْكَ ، أُخْبِرُنِي كَيْفَ رَأَيْتَ النَّاسَ حِينَ وَرَدَ عَلَيْهِمْ خَبَرُ رَافِعٍ ؟ قَالَ الْمَأْمُونُ : ”رَأَيْتُهُمْ اصْطَرَبُوا اصْطِرَابًا شَدِيدًا“ فَقَالَ لَهُ الْفَصْلُ : وَكَيْفَ وَأَنْتَ نَازِلٌ فِي أَخْوَالِكَ وَبَيْعَتِكَ فِي أَعْقَابِهِمْ ، كَيْفَ يَكُونُ اصْطِرَابُ أَهْلِ نَغْدَادٍ ؟ اصْبِرْ وَأَنَا أَصْبِرُ الْخِلَافَةَ ! قَالَ الْمَأْمُونُ : ”قَدْ فَعَلْتُ وَجَعَلْتُ الْأَمْرَ إِلَيْكَ فَقُمْ بِهِ“ .

عَلَى أَنَّهُ إِذَا صَدَّقَ الرِّوَاةُ بِمَا يَرْوُونَهُ لَنَا : مِنْ أَنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ سَهْلٍ قَالَ لِلْمَأْمُونِ فِي حَدِيثِهِ مَعَهُ : ”لَأَصْدُقَنَّكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَالِكٍ ، وَيُحْيِي بَيْنَ مَعَاذٍ ، وَمِنْ سَمِينَا مِنْ أَمْرَاءِ الرُّؤَسَاءِ ، إِنْ قَامُوا لَكَ بِالْأَمْرِ كَانَ أَنْفَعَ مِنِّي لَكَ ، بِرِيَاسَتِهِمْ الْمَشْهُورَةِ ، وَلَمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْحَرْبِ ، مِنْ قَامَ بِالْأَمْرِ كُنْتُ حَادِمًا لَهُ ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَيَّ مَحْبُوكٌ ، وَتَرَى رَأْيَكَ فِي“ . وَصَدَّقُوا فِي أَنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ سَهْلٍ لَقِيَ هَؤُلَاءِ الرِّعَاءَ فِي مَازِلِهِمْ ، وَذَكَرَهُمُ الْبَيْعَةَ الَّتِي فِي أَعْقَابِهِمْ ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَفَاءِ ، وَأَنَّ الْحَبِيَّةَ كَانَتْ بَصِيْبَ دَعْوَتِهِ لَهَا وَتَذَكُّرِهِ لَهَا ، وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَمْ تَصْدِفْهُ عَنْ قَصْدِهِ الَّذِي نَهَدَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ تَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَصِيبِهِ قُدُّمًا فِي سَبِيلِ غَايَتِهِ ، الَّتِي

نادى لها بأداته ، وتذرع لها بدرائعه ، وأحد لها عُذته ، وأرهف لها عزيمته . وأنه قال للمأمون
 "لقد قرأت القرآن ، وسمعت الأحاديث ، وتفقهت في الدين ، فالرأى أن تبعث الى من
 بالحصرة من الفقهاء ، فتدعوهم الى الحق والعمل به ، وإحياء السنة ، وتقعده على اللود ، وترد
 المظالم". وصدقوا حقاً في أن المأمون والفصل معاً ذلك ، وأنهما بعثا الى الفقهاء ، وأكرما
 القواد والمملوك وأبناء المملوك . وصدقوا في أن الفصل كان نقول للتمسك . "تُقيمك مقام
 موسى س كعب ، وللرعى مقام أبى داود خالد س إبراهيم ، وللمائى مقام خطسة ومالك
 ابن الهيثم . وصدقوا في أنها كانا بدعوان كل قبيلة ، الى قضاء ورؤساء الدولة ، كأستمالتهم
 الرؤوس . وصدقوا في أن المأمون والفصل قد خطا عن حراسان ربح انخراح حتى حس
 موقع ذلك من انخراسانيين وسرّوا به وقالوا . «اس أخننا وابس عم سيبا صلى الله عليه وسلم»
 وصدقوا في أن المأمون تواترت كنبه الى أخيه محمد الأمين ، بالتعظيم والهدايا اليه من
 طرف نخراسان ، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح ، حتى أوائل سنة أربع
 وتسعين ومائة التى عزل فيها الأمين أحاه القاسم عما كان أبوه ولده من عمل قسّيرين
 والشام والمواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمة بن حارم ، والتى أمر فيها بالدعاء لأبسه
 موسى على المأبر بالإمرة ، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وطهر بينهما الفساد — ادا
 صدق الرواة في كل ذلك ، فانا نرى من الصفة العالبيه والتاريخية ، أن نقرر حينئذ أن
 الفضل بن سهل كان دهباً حقاً ، وممعا في الدبلوماسية ، وكان موقعه لا يقل عن موقف
 «وارن هاستنج» و «كليف» في الهند ، وعبرهما من حهابه السياسة ، وأقطاب الدهاء .
 ور بما كانت مكانته أسمى منهما وأرفع وأخلق بمقارنتها بمن شار اليه بالناس من سياسة هذا الزمان !

ولسظرمعاً ، وهبنا الله وإياك الجسد والأناة ، ووفقا الى ما نرومه من تمحيص
 وتحقيق ، وتمهم وتدقيق ، في حوادث سه أربع وتسعين ومائة لتكون ملتين بحول النزاع
 الذى شجر بين الأخوين ، ولؤم الإيمان كله أن الطائفة قد لست دورا شيعا ، في إشغال
 حذوة الحقد والسعيمة بينهما ، وعملت على إصرام أوارها ، وسعت حُدها في توسيع مساهم

الحلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نحد أن الفصل بن الربيع، فيما برويه لما المؤرخون، سعى بعد مَقْدَمِهِ العِراقَ على محمد، مصرفاً عن طُوسَ، واثناً للجهود التي كان الرشيد أحدها عليه لأبيه عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أوصت إلى المأمون يوماً وهو حتى لم يُنقِ عليه، وكان يترقب في طفره به عَطَلَه — سعى حُجَّه في إعراء محمد به، وأعمل قريحته في حثه على حله، وَرَّيَ له، مما في مقدوره، أن يصرف ولاية العهد من بعده إلى أبيه موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه، بل كان عزمه، فيما ذكر الرواه عنه، الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أحد عليه لما والدّه من الجهود والسرّوط. فلم يزل به الفصل ابن الربيع يُصعِّرُ في عييه شَأْبَ المأمون، ويُرْزَرُ له حَلَمَه، حتى قال له: "ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعد الله والقاسم أحولك، فإن السعة لك كاتب مَعْدَمَه قَلَمَها، وإما أَدْحَلَا فيها بعدك، واحدا بعد واحد". قال ذلك آس الربيع، وصم إلى أنه معه على بن عيسى ابن ماهان والسدي وعمرهما من خصرنه.

ومن المعقول أن تقرص أن الفصل مصى في الإيقاع على هذه النغمة، ثَبَّأ بعد ثنى ومرة إثر أخرى، وقدح في ذلك قريحته، وأستخدم شتى وسائل أمثاله وبطرائه، حتى أزال محمداً عن رأيه. وقد ذكر المؤرخون. أن أول ما بدأ به محمد عن رأى الفصل بن الربيع فيما دَبَّرَ من ذلك، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها، بالدعاء لأبيه موسى بالإمرة بعد الداء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد.

والآن، بعد أن وقفت على تصرف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجماعه المأمون، لك أن تستدبط ما يعمله الفريق الآخر، إحاطة على تصرف الفريق الأول. ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تديراً من يرى أن أحاه يدبر عليه حله. ولك أن تنتظر مثل ذلك من جماعة المأمون وأبصاره.

وهكذا تسلسل حوادث السيرة نفسها، إذ ينبثق الطبري أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وفيها أسقط اسمه من الطرز، وفيها لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار، لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون، وحس سيرته في أهل عمله، وإحسانه إليهم، فيما يرويه المؤرخون، أوسى المأمون ورجالاً المأمون، كهرثمة وطاهر، في إصلاح ما بينه وبين المأمون، وطلب الأمان له ليكون عُدَّةً وطهراً للحرب المأمونية، كما نستسيغه نحن واستخلصه، وفيها ولي المأمون هرثمة رئاسة الحرس، وهرثمة مكائته وشهرته، وله سيرته ونجدته، وراعى بيته وأنصاره، وكأش فرسانه، كما أن لطاهر ابن الحسين حرمه وشجاعته وفروسته ومرانه، ولأب سهل بلا ريب جدته في تصرفاته التي بمنزلة ترقد الأهواء الشاردة، وتُستصرف الأنصار الطامع. وعلى رأسهم، أو إلى جانبهم إن شئت المأمون، وقد تسربل بالثوب الذي يُصَحَّ إليه بلبسه، فأصحى محمود السيم مرضى الخلال، وهو باستعداده ونزعة ذلك الرجل السياسي، المعتدل المراح، الهادئ الأعصاب، السديد التصرف، السمع الأخلاق، اللين العريكة، الكريم المهزة، مع أناة وحلي وعزم وكرم، ونفاذ ومضاء.

ومن المعقول أيضاً أن يكر الأميين ذلك من ناحيته أيضاً. والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدف عنه قلوب رحاله، وأن تسلسل الحلقات، وتستطرد الإجراءات، المحتومة الوقوع، في مثل هذه الحالات^١.

وربما كنا على حق، إذا قلنا: إن النزاع أضحى بين الفصيلين ابن سهل وأب الربيع. وأقبل عينا أعظم العنف فقد كان بين كفايتين لا يعرفان الونية والتصحيح^{١١١}. ولهما من الحصافة وثقوب البصيرة، ومن سعة الحيلة وقُدْح الحُتْل، ومن وفرة الحُكْمَة وعاء الاحتار، ومن مضاء العزيمة وثروة الذه. لهما من ذلك كله، وما إلى ذلك من شتى الصفات السياسية، ما لا قَلَّ لأحدهما به من صاحبه، فلكل من صاحبه بواءً وبديد، ومأزل عَيْدٌ، وكَيْ صَيْدٌ!

أنظر إلى الأميين، قد كتبت إلى العباس بن عبد الله بن مالك، وهو عامل المأمون على الرى، وأمره بأن يعث إليه بغرائب عروس الرى، فعثت إليه المسكين بما أمره به غير

عالم أن لأمون ورحاله عيونا وأرصادا، ولهم، قل ذلك، يَقْظَتُهُم إلى لا تى ولا تفعل .
 ماذا كان من للأمون ؟

بلغ المأمون ما كان من عامله السادح المسكين . فعزله ، ووجه مكانه الحسن بن عليّ المأمونى ، وأردفه بالرُشعيّ . على البريد . وهكذا حاولت الديلوماتيقية ”الرابعة“ أن تصرف قلبَ عاملٍ كبيرٍ عن أمر المأمون . والعصه المأموسة ، نكابة الديلوماتيقية ”السهلية“ التى آكتسبت رافعا وصمت إلى حربها بتّ أبى سيار . وهايك بيت أبى سيار ! ولتنطق الآن إلى التكلم عن الحرب الكلامية التى نُسبت بن الأخوين ، والتى كانت . بلا ريب ، مقدّمة لوقوع الحرب العامة . وبعاره أدق لتكلم عن الوفود السياسية محاولين ، على قدر استطاعتنا ، وآستنادا إلى ما بن أندس من مصادر ووثائق ، وصف الكفايات السياسية فى ذلك العصر العيّ حقا برحالاته ودهاته .



(د) الوفود السياسية :

استسأل أوّلًا ماذا حدث فى السنة التى نحن فى صدددها وهى سنة أربع وتسعين ومائة ، فانها مليئة . والحق يقال ، ممتحات هاتين العقليتين ، العاتيتين حقًا ، الجارتين بلا مباله ولا إغراء ، وهى هما عقليتى الفصل بن الربيع ، والفصل بن سهل .

حدث أن وحه الأيمن وهذا سياسيًا إلى المأمون ، قِوَامُهُ العاسّ بن موسى . وصالح صاحب المصلى . ومحمد بن عيسى بن هيك ، وطلّوا إليه تقديم موسى بن الأيمن الذى سماه ”الداغ الحلق“ على نفسه . وقد يكون من الطريف المتبع حقا ، أن نوحّج ما كان من أمر هذا الوفد ، وهل وُفِّقَ الحزبُ المأمونى فيها حاول من الأحاد قلوب رحاله . أو بعضهم على الأقل . فإن فى توضيحها لذلك ما يمدّنا بصوره لا نأس فى حملتها . من صور الديلوماتيقية فى ذلك العصر ، وإن فى تمههما هذه الصورة ووقوفها عليها ، نعمًا عظيمًا يعيننا ، بلا ريب ، على تمههم العصر وروح سياسته .

يحدثنا التاريخ أن العباس بن موسى أحد رجال الوفد الأمي قال للمأمون "وما عليك أيها الأمير من ذلك - أي من تقديم موسى عليه - فهذا حدّى عيسى بن موسى قد حلق ، وما صرّه ذلك " ، ويحدثنا أيضا بأن الفصل بن سهل كان موحودًا ، كما هو المستطر ، في ذلك المؤتمر السياسي . وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به : "أسكت بكذلك كان في أيديهم أسيرًا وهذا بين أحواله وشيعته ! " .

أنتعرف ماذا كان من أمر الوفد .

إنه قد أنصرف ، ولكن لا إلى الأمين ، بل إلى مارل حصصها لهم المأمون ، حيث أفرّد لكل واحد من أعضاء الوفد منزلًا ، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسي الذي تلتقي به الحكومات الحاصره الوفود السياسية . فتأمل ! .

ثم لسطر معًا - معتمدين بالأناه والصبر قليلًا - في تصرّف العربي الآخر في السنة عيها ، فنرى أن الوفد قد عاد إلى الأمين . وأحبره بامتياح المأمون ، فألح عليه الفصل بن الربيع وعلى بن ماهان ، في البيعه لأبيه موسى "الناطق بالحق" وحلع المأمون ، فأجاب الأمين إلى ذلك ، وأحصن اسمه على بن موسى الذي ولّاه العراق . وتصارع بعض ولاه الأمين في آتهار الفرصه ، للتقرّب منه والتحبب إليه ، بالمساده بأحد البيعه له قتلهم . وقد كان أول من فعل ذلك شر السعيد الأردى . وصاحب مكة وصاحب المدينة .

لم يكتف الفصل هذا ، ولا بالكثير من أمثاله ، مما يتطر من مثله في مثل تلك الظروف ، من سبه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد ، وحظر الدعاء لها على شئ . من المبار ، بل دس من ذكر المأمون بسوء ، وحط من قدره ، ولصق به أقبح النقائص والمثالب ، ووصمه بأشنع الوصمات والمعاب .

ولم يكتف الفصل هذا ، بل وحده إلى مكة كائنًا مع محمد بن عبد الله ، أحد سديّة البيت الحرام ، فأتاه بالكلاس اللدين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين .

وكان حُطهما من الأُمس، لما صارا إليه، حُطَّ غيرهما من العهود في ذلك العصر، ”والمجاهدات“ و”قصاصات الورى“ في عصرنا الحاضر فمرقهما وأظلهما، وأحاز سارقهما !

ثم تعال معي لسطر معا، نظره إبعام وتروى في مشاوره المأمون لشيئته، حينما حربه الأُمَر، وصاق به السبيل، فهي، أعمرك، آية في الحكمة والمهارة السياسية .

يقول الطبري . ”كان محمد، فيما ذكر، كتب الى المأمون، قتل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يحاى له عن كور من كور حراسان سماها، وأن يوجه العمال اليها من قبل محمد، وأن يَحْتَمِل توحيه رحل من قبله، يوليه البريد عليه ليكتب اليه بجمعه . فلما ورد الى المأمون الكتابُ بذلك، كُتِر ذلك عليه وأشتد، فبعث الى الفصل بن سهل والى أخيه الحسن، فشاورهما في ذلك، فقال الفصل : ”الأمر خطير، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة ولهم تأنيسٌ بالمشاورة . وفي قطع الأمل دونهم وحشةٌ وطهورٌ قلةٌ ثقة، فرأى الأمير في ذلك“، وقال الحسن . كان يقال ”شاور في طلب الرأي من تثق بصيحبته، وتألف العدو فيما لا أكتنام له بمشاورته“ . فأحضر المأمون النخاسة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا جميعا له . ”أيها الأمير! تشاور في مخطر، فاجعل لبدبتهنا حظًا من الروية“، فقال المأمون . ذلك هو الحرم، وأجلهم ثلاثا . فلما آتَمَعُوا بعد ذلك قال أحدهم : ”أها الأمير قد حملت على كرهين، ولست أرى خطأ مدافعة مكرهه أولها عفاة مكرهه آخرها“ . وقال آخر . ”كان يقال، أيها الأمير أسعدك الله، اذا كان الأمر مخطرًا فإعطاؤك من نازعت طرفا من بعته أمثل من أن تصير المانع الى مكاشفته“ . وقال آخر : ”إنه كان يقال : اذا كان علم الأمور مُعَيًّا عك، فخذ ما أمكك، من هدية يومك فانك لا تأمن أن يكون فسأد يومك راحعًا بقساد عدك“ . وقال آخر، ”لئن خفت للبلذ عاقبة، إن أشد منها لما يبعث ألا تأمن العرقه“ . وقال آخر : ”لا أرى مفارقة منزلة سلامة، فلعلني أعطى معها العافية“ . فقال الحسن : فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأي على مخالفتكم . قال المأمون . فاطرهم، قال : لذلك ما كان الاجتماع . وأقبل الحسن

عليهم فقال . هل تعلمون أن محمدا تجاوز الى طلب شيء ليس له بحق ؟ قالوا . نعم ، ويحتمل ذلك لما يخاف من صرعه . قال : تنقون نكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب الى غيرها ؟ قالوا لا ، ولعل سلامة تقع من دون ما يخاف وتوقع . قال . فان تجاوز بعدها بالمسألة أمّا تروبه قد توهى بما بدل منها في نفسه ؟ قالوا : ندفع ما يعرض له في عاقبته بمدافعة ما تحزون في عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قلنا ، قالوا : استصالح عاقبه أمرك باحتمال ما عرص من كره يومك ، ولا تلمس هدية يومك بإحطار أدخلته على نفسك في عدك . قال المأمون للفصل : ما تقول فيما أحتفلوا فيه ؟ قال : ” أيها الأمير ! أسعدك الله : هل يؤمن نحمد أن نكون طالك بفصل قوتك ، ليستطهر بها عليك عدا على محالفتك ! وهل يصير الحارم الى فصلة من عاجل الدعة ، بحظر بتعصر له في عاقبته ! بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم “ . فقال المأمون : ” بل يثار العاحلة صار من صار الى فساد العاقبة ، في أمر دينا وآخرة “ . قال القوم قد فلما بملح الرأي ، والله يؤبد الأمير بالتوفيق . فقال . اكتب ما فصل اليه فكتب “ .

وبستطرد الطبرى بعد ذلك في القول بأن المأمون أملى على الفصل هذا الكتاب ليعث به الى أحياه وهو . ” قد لعلنى كتاب أمير المؤمنين . لسأل التحاق عن مواضع سماها ، مما أثنته الرشيد في العهد ، وحمل أمره الى “ ، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يحاوز أكثره . غير أن الذى حمل الى الطرف الذى آناه لا طيب في الطراماتمه ، ولا جاهل بما أسد الى من أمره ، ولو لم يكن ذلك . ثبتنا بالعهود والمواثيق المأخوذة ، ثم كتبت على الحال الى أنا عليها : من إشراف عدو محو الشوكه ، وعامة لا تتألف عن هضمها ، وأحادي لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال ، وطرف من الإفعال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامتة ، وما يح من لم أطرافه ، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عايتة . وأن يستصلحه ببدل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ، وكدته مأخوذة العهد . وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب بمسألته إلى . ثم أنا على ثقهِ من القبول بعد البيان إن شاء الله .

ألا يحذر بنا — وقد أطلعنا على تلك المشاورة السياسية ، التي يحور لك أن تقول عنها ، بالنسبة لوقتها وحيلها ، وموضوعات وقتها وحيلها ، إنها لا تنقل في دقتها ، وحدقتها ، وقوة مناحيها ، عما يحرى حول المائدة الحصراء ، من ساسة اليوم — أن نقول : إن المأمون قد حصّن بساسة عتاه ومشيرين دهاه ' .

ثم أنظر الى معالمة المأمون في حدره ، أو معالمة حربه في الحَيَطة والحدر ، فقد أنبت المؤزحون أهمهم قد وحنوها خراساً من قبّاهم على الحدود ، حتى لا يتركوا للأُميين أو لرجالهم فرصة الاتصال رعية المأمون . وبالغوا أيما مبالغه في تديريهم ، حتى جاء ، كما يقول الرواة ، « تديراً مؤيداً ، وعقداً مستحصداً متأكداً ، فصموا بذلك ألا تحمل رعيتهم على منوال خلاف أو مفارقة » .

وهنا لا رى مدوحة ، من إثبات ذلك المجهود العظيم ، الذي بذله الفضل بن الربيع أو الأُميين ، كيما شئت التعبير ، في استمالة القلوب البائرة من الجماعة المأمونية ، فقد كان ، والحق يقال ، طلقّ الديدس ، ندّى الكعس ، كثيرة حدواه ، وافرّة حُذياه ، عظيمة عطاياه ، ولم يألُ حهداً في إرسال دعاته وأنصاره ، لست الدعوة الأُميية في العامه وإطهارهم على رحمانها وحقها وعدلها ، وإظهار المحمة المارقة ، والدعاء لأهل القوّة الى المحاملة . وكان هؤلاء الدعاة سُدُلون المآل . ويصمنون للأنصار معطم الولايات والقطائع . وصفوّة القول أن تصرّف الأُمس وجماعته ، من هذه الحاجة ، كان قرب الشبه بتصريف المأمون وجماعته .

ولكن هؤلاء الدعاة وجدوا جميع ذلك مموعاً محسوماً ، حتى صاروا الى ناب المأمون . وهما يجب أن نقول . إن الحرب الكلامية قد بدأت تشتد بين الأخوين ، والحرب الكلامية ، أيّدك الله ، هي مَيّزة هامة من ميراث العصر العباسي . وقد صدق « كشاحم » في قوله مشيراً الى عداوة أصحاب الأقلام في تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :

هنيئاً لأصحاب السيوف نطالاً * تقصّى بها أوقاتهم في التعم
فكم فيهم من وادع العيش لم يهج : لحرب ولم يهد لقرن مصمم
يروح ويغدو عاقداً في نحاده . حساماً سليم الحد لم يتسلم
ولكى ذوو الأقدام في كل ساعة .. سيوفهم ليست تحف من الدم

وان المطلع على تاريخ العصر، المستقصي لدقائقه وحلائله، الواقف على أسرارهِ وخفياته وآدابه ومشاوراته، ليوافق أولئك الذين يدهون في القول بأن قِيَامَ السياسة في هذه الدولة كان على التحيل والمخادعة، أكثر مما كان على القوة والشدة .

لنتقل الآن الى ذكر الكتاب الذي بعث به الأُمَيُّ الى أخيه، مع رسله الذين بعثهم للدعوه، وإثارة رحالات المأمون، قل كل اعتسار، مهاكه . « أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد، وإن كان أوردك بالطرف، وصم ما صم اليك من كور الجبل، تأييداً لأمرك، وتحصينا لطرفك، فإن ذلك لا يوجب لك فصله المال عن كفايتك، وقد كان هذا الطرف وحراجه، كافياً لحديثه ثم يحاور بعد الكفاهه الى ما يفصل من رده . وقد صم لك الى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال، لاحاحه لك فيها، فالحق فيها أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها . فكتبت اليك أسألك رد تلك الكور، الى ما كانت عليه من حالها، لتكون فصول ردها مصروفة الى مواضعها، وأن تأدب لعائم بالخبر، يكون محصرتك يؤدي اليسا علم ما يعني به، من حر طرفك، فكتبت تلظ دون ذلك، بما إن تم أمرك عليه، صيرنا الحق الى مطالبتك، فاش عن همك أش عن مطالبتك، إن شاء الله . »

ورد الكتاب على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فسرعان ما رد المأمون وحره عليه بهذا الكتاب . « أما بعد، فقد لمعي كتاب أمبر المؤمنين، ولم تكتب فيما جعل فاكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجه حق فيلرمي المحه ترك إحاسته، وإما يحاور الماطران منزلة الصفة ما صاقت الصفة عن أهلها، فتى تجاوزها متجاوز، وهى موجوده الوسع، لم يكن تجاوزها إلا عن نقصها، وأحتمال ما في تركها، فلا تعنى بأن أى على مخالفتك،

وأنا مُدْعٍ بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ماتحت من صلتك ، وأرض بما حكم به الحق في أمرك ، أكنى بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك . والسلام“ .

ثم انظر الى نعوته المأمون السياسيه — وننقأها ستروك كثيرا ، وأنت ستشهد بعلو كعب صاحبها فى الصون السياسيه — فان التاريخ يحدثنا أنه أحصر رسل أخيه ، وقال لهم : «إن أمير المؤمنين ، كتب اليه ، فى أمر كتب الى جوابه . فألموه الكتاب ، وأعلموه أى لا أزال على طاعته ، حتى يصطرنى ترك الحق الواجب الى مخالفته» . فأراد أعضاء الوفد الأسمى أن يذهبوا فى أفاى القول ، وأرادوا المحامه والمدافعه ، وأرادوا المفاوضه والمناقشه ، ولكن المأمون ، السياسى المتيقظ حارَ العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير اذ حاهم بقوله « قِعُوا أَنْفُسَكُمْ حَيْثُ وَقَعْنَا بِالْقَوْلِ نَكْمُ ' وَأَحْسِنُوا تَأْذِيَةً مَا سَمِعْتُمْ . فقد ألعنوا من كتابنا ما لا عسى أن تقولوه لنا . »

انصرف أعضاء الوفد ، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأنفسهم محه قتل المأمون ، ولم يؤفَّقوا الى حمل جبر يؤذونه الى صاحبهم ، ورأوا من المأمون وجماعه المأمون ، كما يقول الطبرى ، « حذاً غير مشوب مهزل ، فى مع ما لهم من حقهم الواقع رعمهم» .

وصل الخبر الى الأئمن فارعى وأربد . وأسئرت الحرب الكلاميه على حداثها بين الأخوس ، شأن المال الذى ركه الرشيد ، وشأن غير المال ، مما يصح الاطلاع عليه ، وعلى مارواه سهل س هارون وأصرانه وصفاً لذلك فى مطانه .

على أنه محدّر ساها أن تشير الى ما كان من نصيحه قدمها للأئمن ، أحد رحلات عصره ، المشهود لهم بالخزم وبصوح الرأى ، وهو محى بن سليم ، حينما عزم على حل أخيه ، اعلقتها بما نحن فى سبيل القول فيه من ناحيه ، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على تفهم ”الدبلوماسيه العباسيه“ فى ذلك العصر من ناحيه أخرى ، وأخيرا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأئمن والمأمون فى تقدير المشورة والأحد بالصيحه .

قال يحيى بن سليم للأميين حين مشاورته له في حلق المأمون : « يا أمير المؤمنين ، كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشيد من بيعته ، ووثوق بها من عهده ، والأحد للايمان والشرائط في الكتاب الذي كتبه » فقال له محمد : « إن رأى الرشيد كان فلتة ، شهها عليه جعفر بن يحيى بسحره ، وأستأله بُرقاه وعُقده ، فعرس لما عرسا مكروها ، لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه ، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتنائه والراحة منه » ، فقال : « أما اذا كان رأى أمير المؤمنين حله ، فلا تحاشره محاهره ، فستنكرها الناس ، وستسئعها العامة ، ولكن تستدعى الجمد بعد الجمد ، والقائد بعد القائد ، ونؤسه بالأطاف والهدايا ، ونمزق في ثقاته ومن معه ، وربعهم بالأموال ، وتسميلهم بالأطماع ، فادا وهت قوتُه واستعرت رحاله ، أمرته بالتقدم عليك ، فان قدم صار الى الذي تريد منه ، وإن أئى كنت قد تناولته ، وقد كَلَّ حُدّه ، وهيص حاحه ، وصعب ركه ، وأقطع عره » . فقال محمد : « ما أقطع أمرا كصريمه ! أنت مهذار حطيط ، ولست بدئ رأيي ، فزل عن هذا الرأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح ، قم فالحق بمدادك وأقلامك ! »

ونرى من المستصوب ، بعد هذا الاستطراد ، أن تشيرنا الى ما رواه الطبري من أن الفصل بن سهل ، كان قد دسّ قوما آحثارهم ممن يثق بهم من القواد والوجوه سعداد ، ليكاتوه بأخبار الأميين وجماعه ، يوما فيوما . وكان التحسس لذلك العهد ما مظلما متقدما ، فكان للأميين ، وهو ولي عهد ، على والده الرشيد عيون ، وكان لأحبه حين ذاك عيون ، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون ، ولولاته وعماله عليه عيون ، وكان للوزراء والكبراء والرعماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ديوع الجاسوسية وأسفحال أمرها . من المعقول اذا شاور الأميين أو الفصل بن الربيع أحدا ، وقال بما فيه مصلحة القصيه المأمونية ، أن يصل خبر ذلك من فوره الى المأمون ، فيقف بذلك المأمون وجماعته ،

على حليته الجبر وحقيقة الحال عد حصومهم السياسيين . ونكاد نرجح من احيننا أن لتقدم من الجاسوسيه عد المأمون أثره العظيم في علته وطهوره على أخيه .

ولنتقل الآن الى أحارسه خمس وتسعين ومائة ، ولسطر في حوادثها الحسام نظره نحلى فيما يهتما مما نحن في صددده من نحوثا هذه ، فمحد أن الخصومه السياسيه بين الأخوين حمل الأمين على أبى يأمر بإسقاط ما كان صُرب لأخيه عد الله المأمون من الدناير والدرهم بحراسان في السه التي قلها ، وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يثبت فيها أسم محمد . وقال بعض المؤرخين . إن تلك الدناير والدرهم كانت لا محور في بعض الأخايين وكانت بدعى بالرابعة .

وقد سبق لنا القول إن الأمين أمر بالامتناع عن الدعاء لأخويه : المأمون والقاسم ، وإنه أمر بالدعاء لنفسه ولطفله الصغير من بعده ، وإنه صَدَرَ ذلك كله عن رأى الفضل ابن الرُبيع وجماعة الفصل بن الربيع ، مما كان من نتائج شوب الحرب الكلاميه بين الأخوين ، وإبدارها بوقوع شر مستطير بين الأميرين .



(هـ) نفور الرأى العام وأسّ رار الوفود السياسية :

وريد الآن أن نقفك على ملح نفور الرأى العام من فعل الأمين وجماعته ، مما رواه لنا المؤرخون ، وسلخصه لك كطريقتنا ، التي أحدا بها أنفسنا ، والتي لم نَحْذَ عنها ، إلا إذا دعت الضروره والمصلحه الى تصوير امر هام يحتاج الى الشرح والإيضاح . ونعتمد في تلخيصنا هذا على مصادر عدّه ، منها الطبرى وآب الأثير واليعقوبى وغيرهم من الفرجه الدين كتبوا في التاريخ الاسلامى في العصر الذى نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرخون أن محمدا الأمين عقد في السه التي نسرده عليك مجمل أحارها اعلى بن عيسى بن ما هان على كُور الحل كلها : هَآؤَدَ ، وَهَمْدَان ، وَقُمَ ، وَأَصْغَهَان ، حَرِيهَا ونحراجها ، وصم اليه جماعة من القواد وأمر له ، بها ذكر بمائى ألف دينار ، ولولده

بحسين ألف دينار، وأعطى الجسد مالا عطيا، وأمر له ألفى سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب للخلع . وقيل : إن محمدا الأمين أحصر بعد ذلك رجال بيته ومُشِيريه ، وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين ، وكان من المنتظر ، لو أن للأمين طهيراً من الرأي العام ، أن يجد من يمدح فعلته ، أو يحط في نشر الدعوهِ له وبأن أنه على حق فيما يريد أن يفعل ، ولكننا نجد أنه انتهى إلى آخر كلامه فلم يتكلم بعده إلا ثلاثة من حماة الطاهرين ، ممن عرفوا مصالحهم في الرُّقَى إليه والتقرب منه ، وهم سَعِيد بن الفضل الخَطِيب ، ومحمد بن عيسى ابن نهيك ، والفصل بن الربيع .

على أنا يجب أن نقول إن الفصل بن الربيع كان ما كرا أعظم ما كر ، ولكن مكروه كان مقصوحا في هذا الموقف ، فقد قال في معرض كلامه : « إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم ما معاصر أهل حُرَّاسان من صُلب ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينكم » .

نقول إن مكروه كان مقصوحا . لأننا نعلم أن موسى كان طفلا عِزًّا ، لا يفهم هذه الأمور ولا يعقلها ، ولكن الفصل أراد أن يُقَرِّعَ عَيْنَ الأمين ، ولا يمكن أن يكون حادثا في رعته في إثارة الحراسيين بهذه الطريقة المكشوفة ، ولكنها الطائفة ، نأى عليها رباؤها ورفاقها وتزلها إلا أن تصور لولي نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعدل ، وأنه الساعة والعقوبة ، وأن سلالاته قد جمع أحداثها مرآة الشيوخ وكفايتهم ، وأصالة المحترس ودرايتهم ، ودكاء الدواع ومواهمهم . وهكذا تستمر الطائفة على نفمتها هذه ، لا صفة عن عداها وعدا حَامَتِهِ وحاصَّتِهِ ، ما شاء هوى الخليفة ، حتى تقع في رُوعِهِ أرب حاشيته لا تطنى إلا حقا ولا تقول إلا صدقا ' .

ولنسأل الآن : ماذا كان من المأمون إراء تصرفات أخيه ؟ .

إنه لم يتهاون ألبتة في أموره : صغيرها وكبيرها ، وكان يقابل كل تصرف من أخيه بمثليه ونظيره ، مع وضع كل شيء موضعه ، وأستقصاء المصلحة والصواب في تصرفه .

وقد تراسل الأخوان بعد ذلك بكتب عدّه . وإما ثبت ها نص كتاب المأمون ردّا على كتاب بحث به اليه الأمين مع وفد سياستى فى شأن البيعة لأبنة موسى ، قال : « أما بعدُ فقد انتهى إلى كتاب أمر المؤمنين مكرًا لإثباتى مرة تَهْصِمى بها وأرادنى على خلاف ما يعلم من الحق فيها . ولعمري ان أورد أمر المؤمنين موارد الصفة ، فلم يطالب إلا بها ولم يوح نكرة تركها ، لآسقطت ماخجه مطالعُ مقالته ، واكتُت محجوجًا بمفارقة ما يوجب من طاعته . فأما وأنا مُدْعٍ بها ، وهو على ترك أعمالها ، فأولى به أن يدير الحق في أمره ، ثم يأخذ به ويعطى من نفسه ، فان صرْتُ الى الحق فرعت عن قلبي ، وإن أُنيتُ الحق قام بمعدرتي . وأما ما وعد من رطاعته وأوعد من الوطأه مخالفتي ، فهل أحدٌ فارو الحق في فعله ، فأبقى للثنين موضع ثقة بقوله ! والسلام » .

ولقد كان من تصرفات المأمون إراء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب الى علي بن عيسى ، قائد الحيوش الأيمية ، لما بلغه ما عزم عليه .

”أما بعدُ ، فإنك في ظل دعوه لم رل أنب وسلّك بمكان دث عن حريمها ، وعلى العباية لحفظها ، ورعاية لحقها ، توحون ذلك لأثمتكم ، وتعتصمون بحمل حمايتكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يدا على أهل مخالفتكم ، وحرًا وإخوانا لأهل موافقتكم ، تؤثرهم على الآباء والأبناء ، وتصرّفون فيما تصرّفوا فيه من منزلة شديدة ، ورحاء ، لا ترون شيئًا أبلغ في صلاحكم من الأمر الجامع لألفتكم ، ولا أجرى لواركم مما دعا نّسات كلمتكم ، ترون من رعب عن ذلك حائرًا عن القصد ، ومن أمة على منهاج الحق . ثم كسم على مباح الحق ، ثم كسم على أولئك سيوفًا من سيوف نعم الله . فك من أولئك قد صاروا وديعةً منسعه وجررًا حامده ، قد سفت الرياح في وجهه ، وتداعت السباع الى مضرعه ، غير متمهيد ولا موسيد ، قد صار الى أمة . وغير عاجل حقله . فمن كانت الأئمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم في أمورها ، والتقديمه في آثارها . وأنت مستشعرٌ دون كثير من ثقافتها وخاصتها ، حتى بلغ الله بك في نفسك

أن كنت قريع أهل دعوتك . والعالم القائم بمعظم أمر أمتك ، إن قلت ادنوا دنوا ، وإن أشرت أقبلوا أقبلوا ، وإن أمسكت وقفوا وقفوا ، وإنمأ لك وآستصاحا ، ويزداد نعمة مع الريادة في نفسك ، ويزدادون نعمة مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حلت المحل الذي قرئت به من يومك ، وأقرض فيما دونه أكثر مدتك ، لا ينظر بعدها إلا ما يكون حتام عملك : من حير برصى به ما تقدم من صالح فعلك ، أو حلا فيصل له مقدم سعيك . وقد ترى ما أنا يحيي حالا عليها حلوت أهل نعمتك ، والولاء القائمة بحق إمامتك ، من طعن في عقده كنت القائم بشدها ، وبمهود بوليت معاقد أحدها ، بدأ فيها بالأخصيين ، حتى أفضى الأمر الى العامة من المسلمين ، بالأيمان المحرحة والموائبي المؤكده ، وما طلع مما يدعو الى نشر كلمه ، وتعريض أمه ، وشت جماعه ، وتعرض به لتبديل نعمة ، وروال ما وطأت الأسلاف من الأئمه . ومي رالت نعمة من ولاد أكرمك ، وصل زوالها اليكم في خواص أنفسكم . وإن يعير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأهسهم . ولنس الساعى في شرها لساجع فيها على نفسه ، دون السعى على حملها القائمين بحرمتها ، قد عرصوهم أن يكووا جرحا لأعدائهم ، وطعمه موم ، نتظفر محالهم و دماهم . ومكانك المكان الذى إن قلت رجع الى قولك ، وإن أشرت لم تهم في بصيحتك . ولك مع إشار الحق الخطوة عدد أهل الحق ، ولا سواء من حطى بعاجل مع فرائ الحق فأوبى نفسه في عاقبته ، ومن أعان الحق فأدرك به صلاح العاقبة مع وفور الخط في عاجله . وليس لك ما تستدعى ، ولا عليه ما تستعطف ، ولكنه حق من حق أحسانك يحب نوابه على ربك ثم على من قمت بالحق فيه من أهل إمامتك . فإن أعرك قول أو فعل ، فصر الى الدار التى تأمن فيها على نفسك ، وتحكم فيها برأيك ، ونجاوز الى من يحسن تمبلا لصالح فعلك ، ويكون مرحمك الى عهدك وأموالك ، ولك بذلك الله . وكفى بالله وكيلا . وإن بعدد ذلك بقيه على نفسك فإمساكا بيدك وقولا بحق ، ما لم تحف وقوعه بركهك ، فلعن مقتديا بك ، ومعتظا بهيك . ثم أعلمني رأيك ، أعمره إن شاء الله . »

على أن ما يرى إليه الرواه من تحقير شأن الأُميين، لا يَحُولُ بِسبْكَ وبين تَبَيَّن حقيقة الأُميين ورحاله ، لأنك ستلاحظ بلا ريب ، في شأيا سطورهم ، وقَلَّتِ الحوادث التي يروونها لك ، ما قد يُتَبَيَّن لك أن تؤمن أن عبد الأُميين معص رجاليت أقدادٍ ، فان الطبرى يتحدثنا في حوادث سنة خمس وتسعين ومائة : أن ابن الربيع أشار على الأُميين ، بأن يكتب لأخيه كَنَانًا ، تستطیع به نفسه ، وسكن وحشته ، فان ذلك أبلغ في التدبير ، وأحسن في القالة ، من مكاترة الخوَد ، ومعاقلته بالكيد ، وإنه لذلك أحصر له إسماعيل بن صُبَیح ، للكتابة الى عبد الله ، قال : ”يا أمير المؤمنين ، إن مسألتك الصَفَحَ عما في يديه ، توليدٌ للطن ، وتقويةٌ للثَّمة ، ومدعاةٌ للحدَر ، ولكن آكتبُ اليه فأعلمه حاجتك اليه ، وما نَحَت من قرنه والاستعانة برأيه ، وسلَّه القُدوم اليك فإن ذلك أطلع وأخرى أن يبلغ فيما يوجب طاعته وإحسانه“ .^(١)

فقال الفضل : القول ما قال يا أمير المؤمنين .

قال : فليكتب بما رأى . قال : فكتب اليه « من عبد الأُميين محمد أمير المؤمنين ، الى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين ، رأى في أمرك والموصع الذي أنت فيه من فُتْرِكَ ، وما يؤمل في قلبك من المعاونة والمُكَانَفة على ما حمله الله وقلده من أمور عباده وبلاده ، وفُكِّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية ، وأمر به من إفرادك على ما يصير اليك منها ، ورحا أمير المؤمنين ألا يدخل عليه وَكَفَّ في ديبه ولا نَكْثٌ في يمينه ، إذا كان إشتغاصه إياك فيما يعود على المسلمون نفعه ، ويصل الى عامتهم صلاحه وفضله .

(١) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار . «أن هذه المكيدة التي دبرها الفصل من الربيع حات مصوحة مهتوكة الأستر . وكان أحدر نكاسته أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر بعد أن يرد على المأمون ما أوصى به الرشيد من مال وكراع وسلاح — فأما بعد نكت الخوَد والوزير والأمرء . وبعد طلب الكور . وبعد طلب تقديم القائم على المأمون وبعد تلك العود السياسية وتمزيق العهد التي كانت في بطرهم مقدسة ومؤكدة فأخذها وتعلتها في حوف الكعبة ، فإن الأمر أتى بعد أوانه ولا يخطر منه سوى الخلية والعشَل»

وعلم أمير المؤمنين أن مكاتك بالقرب منه أسد للثعور، وأصلح للجنود، وأكد للفقراء، وأرد على العامة، من مقامك ببلاد خراسان مقطعا من أهل بيتك، متعبيا عن أمير المؤمنين، وما يحث الاستماع به من رأيك وتديرك. وقد رأى أمير المؤمنين أن يوتى موسى أب أمير المؤمنين، فيما يقلده من حلافتك، ما يحدث إليه من أمرك ونهيك، فأقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، أبسط أمل، وأفسح رحا، وأخذ عاقبه، وأنفذ بصيرة، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح أهل بيته ودمته. والسلام“.

ولسفر الى ما يرويه لنا آس حريير الطبري عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول:

لما وصلوا الى عبد الله أدب لهم، فدهموا اليه كتاب محمد، وما كان بهت به معهم، من الأموال والألطاف، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى حمدا لله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الأمير! إن أحلك قد تجمل من الخلافة ثقلا عظيما، ومن الطرقي أمور الناس عشا حليلا، وقد صدقت بيتته في الخير فأعوزه الوزراء والأعوان والكفأة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه وشقيقه، وقد فرغ اليك في أموره، وأتملك للوزارة والمكانة، ولست نستطع في ربه إهاما لمصرك له، ولا تحصصك على طاعته تحوفا لخلافك عليه، وفي قدومك عليه أنس عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فأجب أيها الأمير دعوة أحبك، وآثر طاعته، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره، فإن في ذلك قصاء الحق، وصلة الرحم، وصلاح الدولة، وعز الخلافة. عزم الله للأمير على الرشد في أموره، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر فقال: إن الإشكار على الأمير، الله! الله! في القول خرق، والافتقار في تعريفه ما يحث من حق أمير المؤمنين تقصير، وقد عاب الأمير، أكرمه الله، عن أمير المؤمنين، ولم يستثن عن قربه من شهد عيره من أهل بيته، ولا يحد صده عنى، ولا يحد منه حلفا ولا عوصا. والأمير أولى من بر أحاه

وأطاع إمامه، فليعمل الأميرُ فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقرب، من موافقة أمير المؤمنين ومحبة، فإن القدوم عليه فصلٌ وحط عظيم، والإبطاء عنه وكَفٌّ في الدين، وصرر ومكروه على المسلمين.

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك فقال: أيها الأمير! لا تزيدك بالإنكار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين، ولا تُشعِدْ نبتك بالأساطير والخطب فيما يلزمك من الطر والعناية بأمور المسلمين. وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والصحة بمحصرتة، وتناولك فرعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره. فان تُحْبِ أمير المؤمنين فيما دعاك إليه فعمدة عظيمة يتتلاقى بها رعيتك وأهل بيتك، وإن تقعد يُعَيِّ الله أمير المؤمنين عنك، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك، والاعتدال على طاعتك وبصيححتك.

وتكلم صالح صاحب المصلى، فقال: أيها الأمير، إن الخلافة ثقيلة، والأعوان قليل، ومن يَكِيد هذه الدولة ويطوى على عشاها والمعاونة لأوليائها من أهل الخلاف والمعصية كثير. وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه، وصلاح الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه، إذ أنت وليّ عهده والمشارك في سلطانه وولايته، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابته، ووثق بمعاومتك على ما استعانك عليه من أموره، وفي إحابك إياه إلى القدوم عليه صلاحٌ عظيم في الخلافة، وأنس وسكون لأهل الملّة والدّم، وفق الله الأمير في أموره، وقصى له بالدى هو أحب إليه وأنفع له.

ثم اطر، رعاك الله، إلى مبلغ دهاء الفصل، ودقة سياسته، ومُحْكَم أمره، وما يرويه نفسه عن صديعه مع أحد أعضاء الوفد، في إحدى الدّعيات التي أُرسل فيها إلى المأمون، لأنما ملاحظ وفود الأميين قد أُرسلت إلى أحبيه المأمون أكثر من مرة — قال: «عجبي ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى، خلوت به فقلت: يذهب عليك بعقلك وسنك، أن تأخذ بحفظك من الإمام! — أي المأمون، إذ سُمّي بذلك بسبب خلع الأمين له — فقال له العباس: قد سَتِمْوه بالإمام! فأحابه الفضل: «قد يكون إمامُ المسحد والقبيلة!

فان وقَّيتُ لم يصركم، وإن غدرتُم فهو ذاك». ثم وصل الى أن قال للعباس: «لك عدى ولاية الموسم، ولا ولاية أشرف منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت ..». وصل الفصل الى ذلك القول وما ربح به حتى أخذ عليه البيعة للمأمون بالخلافه. وتحول الأمر الى أن أصبح للحزب المأموني من العباس العين التي تلهمهم الأحبار، والمتفاني في المأمونية يمتدحهم بالأفكار ويشير عليهم بالآراء، وحتى أضحى منه الشخص الذي يقول لعلى بن يحيى السرحسي: إن دا الرياستين أكبر مما وصفت، وإنه قد صالح المأمون الامام، وإبه لذلك يمسح يده على رأس على بن يحيى لتاوله البركة والخير. وتأمل!

وابه جميلٌ حقا أن نرى المأمون يترئث في أمره تريث العاقل الحكيم، لما جاءه الوفد الأميني، ويتصرف تصرف الكيس الحاذق، إذ قال لهم، فيما أثنت الرواه، بعد أن حاجوه وناقشوه في أمر الأمين: قد عرّتموني من حق أمير المؤمنين، أكرمه الله، مالا أنكره، ودعوتكموني من الموالاة والمعونة الى ما أوثره ولا أدفعه، وأما لطاعة أمير المؤمنين مقدم، وعلى المسارعة الى ما سرته وواقفه حريص، وفي الروية ثياب الرأي، وفي إعمال الرأي بصح الاعترام. والأمر الذي دعاني اليه أمير المؤمنين أمر لا أناحرعه ثبُطا ومداعة، ولا أتقدم عليه اعتسافا وتخلّة، وأما في نزع من نزع المسلمين كلب عدوه شديد شوكته، وإن أهملت أمره لم آمن دخول الصرر والمكروه على الجود والريعة، وإن أقت عليه لم آمن فوت ما أحبت من معوية أمير المؤمنين ومؤارته وإيثار طاعته. فاصبروا حتى أنظر في أمري ونصح الرأي فيما أعترم عليه من مسيري إن شاء الله، ثم أمر بإزالمهم وإكرامهم والإحسان اليهم.

ترئث المأمون مع الوفد تريث العاقل الحكيم، وإن كان في الواقع قد هاله الأمر وخشى سوء مغبته. ويذكر لنا أحد المعاصرين، وهو سُفيان بن محمد، أن المأمون لما قرأ الكتاب سَقَطَ في يده، وتعاظمه ما ورد عليه منه، ولم يدر ما يرد عليه، فدعا الفصل بن سهل فاقرأه الكتاب، وقال: ما عندك في هذا الأمر؟ قال: أرى أن نتمسك بموضعك، ولا

تجعل علينا سبيلا وأنت تجحد من ذلك بدا . قال : وكيف يمكنى التمسك بموصى ومحالفة محمد وعظم القواد والجلود معه ، وأكثر الأموال والحرائن قد صارت اليه ، مع ما قد فرق في أهل بغداد من صلاته وفوائده ، وأما اللاس مائلون مع الدراهم مقادون لها ، لا يسيطرون اذا وحدوها حفظ بيعة ولا يربعون في وفاء عهد ولا أمانة ! . فقال له الفصل : اذا وقعت التهمة حق الاحتراس ، وأنا لعذر محمد متحوف ، ومن شرهه الى ما في يدك مشفق ، ولأن تكون في جندك وعزك مقيماً بين طهراني أهل ولايتك أخرى ، فان دهمك منه أسر حررت له واجرته وكايدته ، فلما أعطاك الله الطمأنينة فوائك ويسك ، أو كانت الأخرى فت محافظاً مكماً ، غير ملتي بيدك ولا يمكن عدوك من الاحتكام في هسك ودمك . قال . إن هذا الأمر لو كان أتانى ، وأنا في قوة من أمرى وصلاحي من الأمور ، كان خطه يسيراً والاحتياط في دفعه ممكناً ، ولكنه أتانى بعد إفساد خراسان ، واضطراب عامريها وعامرها ، ومعارفة جميعويه الطاعة ، والتواء حاقان صاحب التبت ، وتبهيؤ ملك « كابل » للعاره على ما يليه من بلاد خراسان ، وامتناع ملك أترابده الصربية التي كان يؤدبها ، وما الى بواحدة من هذه الأمور يد . وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قدومي إلا لشرير يده ، وما أرى إلا تحلية ما أنا فيه والحقاق بخاقان ملك الترك والاستحارة به وببلاده ، فألحزى أن آدن على نفسي وأمتنع من أراد قهرى والغدر بي . فقال له الفصل : أيها الأمير ، إن عاقبة العدر شديدة ، وتبعة الظلم والبنى غير مأمون شرها ، ورُب مستدلل قد عاد عزيزاً ، ومقهوهر قد عاد قاهراً مستطيلاً ، وليس المصير بالقلية والكثرة ، وخرج الموت أسلم من حرج الذل والصيم ، وما أرى أن تعارق ما أنت فيه ، وتصير الى طاعة محمد ، متحزداً من قوادك وجندك كالرأس المختزل عن بدنه ، يجرى عليك حكمه ، فندخل في حملة أهل مملكته ، من غير أن تُثلي عدرا في جهاد ولا قتال ، ولكن اكتب الى جميعويه وحاقان ، فوئها بلادها ، وعندها التقوية لها في محاربة الملوك ، وابعث الى ملك كابل بعص هدايا خراسان وطرقها وسله الموادعة تجنده على ذلك . هريصا ، وسلم الملك أترابنده صريته في هذه السنة ، وصيرها صلة منك وصلته بها ، ثم اجمع اليك أطرافك ، واصمم اليك من شد من جندك ، ثم

أصرب الخليل بالجيل والرحال بالرحال ، فان طفرت ، وإلا كنت على ما تريد من الخلق بخافان قادرا . معروف عند الله صدق ما قال ، فقال : اعمل في هذا الأمر وغيره من أموري بما ترى ! فتدبر ، وفقك الله ، هذا التفكير الدقيق ، وهذه السياسة المحكمة الأطراف من كليهما .

ثم انظر الى تصرف المأمون الحكيم ، بعد ما قدمناه لك ، فانه أُنشد الكتب الى رحاله وأصاره ، وعمل على لَمْ شَعْنِهِ ورَأْبِ صَدْعِهِ ، واستقدم طاهر س الحسين ، عامله على الرّى ، ليعهد اليه في قيادة حده ، ثم مكث يدّر الرأى فيما يحيب به أخاه ، واستقر رأبه على مباحرة أخيه ومنازلته ، بعد أب أعلمه أنّ سهل أن النصر له وأن الحوم تنى ذلك . وانظر ما يرويه لنا المؤرخون من أنه كتب الى الأُميين : « أما بعد ، فقد وصل الى كتاب أمير المؤمنين ، وإما أنا عامل من عماله وعاون من أعوانه ، أمرنى الرشيد ، صلوات الله عليه ، بلزوم هذا الثغر ، ومكايد من كايده أهلَه من عدو أمير المؤمنين . ولعمري إن مُقامي به أردُّ على أمير المؤمنين ، وأعظم غناء عن المسلمين من الشخصوس الى أمير المؤمنين ، وإن كنتُ معتبطاً بقربه ، مسرورا بمشاهدة نعمه الله عنده . فان رأى أن يُقرّنى على عملى ويُعفينى من الشخصوس اليه فعل ان شاء الله والسلام » . ثم دعا العباس بن موسى ، وعيسى س حمير ، ومجدا ، وصالحا ، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسن اليهم في حوائزهم ، وحمل الى محمد ما تهيأ له من أنطاف خراسان ، وسألمهم أن يحسنوا أمره عنده وأن يقوموا بعبده لديه .



(و) إعلان الحرب :

ولنتقل الآن الى الكلام عن الحرب العملية التي تلت هذه الحرب الكلامية ، كما هو المنتظر : إن التاريخ يحدثنا أن الأُميين ورجال الأُميين ، بدءوا في تعبئة الحود ، كما بدأ المأمون ورجال المأمون في حشد الكتائب . وإنا لنرتاب كثيرا ، في صحة ما ذكره الرواة : من أن طاهر بن الحسين القائد العام للجيش المأمونية كان في حيش عدته ثمانمائة وثلاثة آلاف ،

بينما كان علي بن عيسى بن ماهان القائد العام للجيش الأُمينية في زُهاء أربعين ألفاً !
وزُبح كثيراً أن الرواة قد نقصوا عدد الجُود المأمونية، ليُظهروا للناس مبلغ كفاية طاهر،
وأنه استطاع بحمد قليل عددهم أن يُسأل جيوشاً حزاره ويغلبها على أمرها، لأنهم
كثيراً ما يُخسرون إلى الإغراق والمالفة في مثل هذه المواقف: من مظاهرتهم للأقوياء،
وانتقاصهم للصعفاء كما أسلفنا .

نشك في صحة ذلك كثيراً . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيوش المأمونية
قد عثرت في عسكر ابن ماهان على سعمائة كيس ، في كل كيس ألف درهم، وأنها عثرت
كذلك على صناديق عدة فيها خمر سَوَادِيّ وقَنَائِيّ عدة !

قد يكون أمر الأموال صحيحاً ، ولكننا نميل إلى الاقتراض بأن أمر الصناديق العدة،
إن لم يكن مكذوباً في جملة، بقصد الرّابة بالجماعة الأُمينية، فهو مُغَالَى فيه كثيراً .

ويذهب ابن الأثير في بيان عرور علي بن عيسى بن ماهان إلى أنه، لما قُرب من
الريّ، طرأ أن طاهر بن الحسين قائد القوّات المأمونية لا يثبت له، وإن طبا قال :
« ما طاهرٌ إلا شوكة من أغصان وشرارة من نارٍ، وما مثل طاهر يؤمر على جيش،
وما بينه وبين الأُميين إلا أن تقع عينه على سَوَادكم، فإن السَّخَال لا تقوى على نِطَاح الكباش،
والشعالب لا تقوى على لقاء الأسد، وأن علي بن عيسى بن ماهان قال لابنه، لما أشار عليه
أن يبعث طلائع ويرتاد موصعاً لعسكره : ليس طاهر يُستعد له بالمكاييد والتحفظ، إن
حال طاهر يؤدي إلى أمرين : إما أن يتحصن بالريّ، فينبّه أهلها، ويكفوننا مؤنته،
أو يحلبها ويذّر ! فقال له أبه : إن الشرارة ربما صارت صِراماً ! » فأجابه : « إن طاهراً
ليس قِوْناً في هذا الموضع، وإنما تحترس الرجال من أقرانها ! » .

ونحن نقول : إن من الجائز أن يكون شيء من هذا قد وقع . ومن الجائز أن يكون
علي بن ماهان زهو وعرور، وقصر نظره وسوء بدير . وقد يكون ذلك حين المقارنة والموازنة

أقل شأنا من مُنازِلِه وخصمِه طاهر س الحسين . ولكما مع ذلك يُحس إحساساً لا يعدو الواقع كثيرا أن هذا الحديث المعروف اليه من قبل الروايات المُحوّلة، والقِصص المُختَرع، التي كثيرا ما تُختَرع وتُحَل في مثل تلك الظروف .

على أنا مع ذلك نقرر أن الجيوش المأمونية كانت على أتم تعية، وأكل كفاية، وأدق نظام، وأحسن حال، وأن حديعة طاهر وقواد طاهر : من حَمَل صورة البيعة على أسنة رِمَاحهم^(١) يُعيد الى الأدهان ما كُتب بين حد معاوية وحد علي من حمل حد معاوية المصاحف على الرماح .

لنتقل الآن الى مسألة أخرى لها علاقة بعلي بن عيسى بن ماهان من ناحية ، كما أن لها علاقات بما يقع فيه القصاص والمؤزحون والرواة من تناقص من ناحية أخرى . تلك المسألة هي ما يُعزى الى رُبَيْدَة من نصيحته لابن ماهان باحترام المأمون وإحلاله ، وأنها قالت له : « يا علي ! إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى ، اليه تاهت شفقتي ، وعليه تكامل حذري ، فإني على عهد الله متعطفة مُشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابى ملك نافس أحاه في سلطانه ، وغاره على ما في يده ، والكريم يأكل لحمه ويمعه غيره ، فاعرف اهد الله حق والده وإحوته ، ولا تُجبهه بالكلام ، فانك است نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا تُرهقه بقيد ولا عُل ، ولا تمنع منه حارية ولا حادما ، ولا تعف عليه في السير ، ولا تُساوه في المسير ، ولا ترك قلبه ، ولا تستقل على دانتك حتى تأخذ بركانه ، وإن شمتك فاحتمل منه ، وإن سَفِه عليك فلا تُردّه » .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار في هذا قوله : « لم يكن كل الخدم المأمون حاملا صورة البيعة ولا كثير منهم ولكن الأمر في ذلك أن أحمد س هشام علق البيعة للأمون على رمح وكان علي س عيسى هو الذي أحدها للأمون على أهل حراسان أيام كان واليا بها ليقم بذلك الحجة على علي س عيسى هذا مه أحد بن هشام سد أن طلب الأمان وأمه علي س عيسى وقال له أحمد . ألا تنق الله عر وحل » أليس هذه سعة البيعة التي أحدثها أنت خاصة اتق الله فقد طعت باب قرك ، فلم ياه له علي س عيسى بل قال : من أناني به فله ألف درهم فشتمه أصحاب أحمد .. الخ من اس الأثير » .

معقول أن يكون ذلك من زُبيدة لابن زوجها الرشيد . ولكن التاريخ يتحدثنا عن قيد من الفضة قيل إنها أعدته ليقيد به المأمون ، كما يتحدثنا أن المأمون نفسه اعترف بمسألة هذا القيد . بيد أن نصّ الصبيح ، وما اشتملت عليه من الأوامر ، وما جُلبت عليه نفسية السيدة زبيدة ، مما يرحح عدم صحة القول بإعدادها قيدَ فضة أو ذهب ، ليقيد به المأمون .



(ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتب الله للجيوش المأمونية الفلج والصر على الجيوش الأُمينية . وتركها الكلمة لطاهر بن الحسين قائد المأمون ، فانه ينسب حقيقته عن ذلك الانتصار بقوله . «أطال الله لقاءك، وكنت أعداءك، وحمل من يسؤك فداءك، كتبتُ اليك ورأس عليّ ابن عيسى بن يديّ، وحاتمته في أصغى، والحمد لله رب العالمين» .

وذكر بعض أهل خراسان أن المأمون لما أتاه كتاب طاهر بن خنجر عليّ بن عيسى بن ماهان، وما نالته حيوشه من فوز وانتصار، وما أوقع الله بمحمد حصمه من قتل وانكسار، قعد للباس، فكانوا يدخلون عليه فيهنّو به ويدعون له بدوام العز والصبر، وأن المأمون ، في ذلك اليوم ، أعلن حلف محمد ، كما أعلن خلافته في جميع كُور خراسان وما يليها ، وسرّ بذلك أهل خراسان، وحطت الخطاء، وأشدت الشعراء . وفي ذلك يقول الشاعر :

أصحت الأُمّة في عِطلة * من أمرِ دُنياها ومن دينها
اد حفظت عهدَ إمام الهدى * حير بنى حواءَ مأمونيا
على شقا كانت، فلما وقت * تخلّصت من سوء تحيينها
قامت بحق الله اذ دُرّت * في ولده كُنت دواوينها
ألا تراها كيف بعد الردى * وفقها الله لترينها

وهي أبيات كثيرة .

وذكر على بن صالح الحرثي أن علي بن عيسى لما قُتل ، أَرْجَفَ الناسُ بيغداد إرحافاً شديداً ، وندم محمد على ما كان من نكثه وعدَّره ، ومشى القواد بعضهم الى بعض ، وذلك يوم الخميس للصف من شوال سنة ١٩٥ ، فقالوا : ان علياً قد قتل ، ولستنا نشارك أن محمداً يحتاج الى الرجال واصطباع أصحاب الصائع ، وإعما يحزك الرجال أنفسهم ، ويرفعها بأسها وإقدامها ، فليأمر كل رجل منكم جسده بالشغب وطلب الأرزاق والجوائز ، فلعلنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يصلحنا ويصلح جدنا .

حبرني ، لعمرك ! أليست هذه بوادر الوصي وعلامات الانتقاص ! أو ليست هذه هي عينها مبادئ الثورة وأمارات زوال الملك وسقوط العروش ، وأقول نعم أصحابها ! أجل ! إنها لكذلك ، وإن في أنقسام كلمة الرعاء ، وإثارتهم الميوس بالاضطراب والقتال ، وإصرارهم بيران العتس ، وتحريكهم الجند وما الى الحد للشغب والهياج ، تقطيعاً لأوصال البلاد ، وبيدراً لهدم والماء .

ولسظنر ماذا كان من حماقات رجال الأيمن ؟

ان التاريخ ليحدثنا أن رأيهم قد اجتمع على الشعب والاصطياد في الماء العكر ، وأنهم أصبحوا قنواوا الى باب الحسر وكبروا ، فطلخوا الأرزاق والجوائز ، وبلغ الخبر عبد الله بن حازم ، فركب اليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قواد الأعراب ، فقرأوا بالشباب والحجارة واقتلوا قتالا شديداً ، وسمع محمد التكبير والصحيح ، فأرسل بعض مواله أن يأتيه بالخبر ، فرجع اليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشغوا لطلب أرزاقهم ، قال : فهل يطلون شيئاً غير الأرزاق ؟ قال لا ، قال : ما أهون ما طلبوا ! ارجع الى عبد الله ابن حازم مُرَّةً فليصرف عنهم ، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ، وورع من كان دون الثمانين الى الثمانين ، وأمر للقواد والخواص بالصلوات والجوائز !

ولتسأل الآن ، إزاء إجابة الأيمن لسؤل القادة والجند ، ومادرتهم الى رَفْدِهِم ، وإسراعه بمحهم الأعطيات والمهمات ، والجوائز والصلوات ، أكان في تصرفه حكمة ، وفي عمله مستدداً ، وفقاً ؟

لا نطق ذلك . وكان الحزمُ به أولى ، ليقْدَعِ الفتنة ، وليَضَعَ حدًا صارما لشهوات
دوى الغايات والمستمعين الذين يكثر وجودهم وتوافر جماعتهم في إمانها وفتراتِها .



وقد كان اختيار الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان ، خطأً سياسياً ، لأن سابقة
ابن ماهان في خراسان أيام الرشيد كانت ساقطة سوء ، فهو ممقوت أشد المقت عندهم .
وتقرر هذه المناسبة ، أنه يحيل الياء ، الى حدٍ غير قليل ، اختلاق تلك القصة التي تعزى
الى الفصل بن سهل : من أنه كتب الى الديسيس الذي كان ممن يشاورهم الفصل بن الربيع
في أمره : أنه ان أبى جماعه الأمين إلا عزيمة في الخلاف ، فالطف لأن تجعل أمرهم
لعلي بن عيسى . وقال الطبري : وإنما حصّ دو الرياستين علماً بذلك ، لسوء أثره في أهل
خراسان ، واجتماع رأيهم على كرهه ، وأن العامه قائلة بحربه . فشاور الفصل الديسيس
الذي كان مشاوره ، فقال : علي بن عيسى ! وإنه إن فعل فلم يرمهم بمثله في بعد صومة ،
وسحاوة نفسه ، وكان في بلاد خراسان في طول ولايته وكثرة سائعه ، ثم هو شيخ الدعوة
ونقية أهل المشايعة . فأجمعوا على توجيهه .

يميل الى القول بأن نسبة اختيار ابن ماهان الى تدبير اس سهل ، وإسناد كل فصل
اليه ، من باب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقرّ بذكائه وسعة حيلته ، كما أسلفنا . ولكنا
نقرّ أيضا أن صلة ابن ماهان بالأمين ، وبدولة الأمين ، ووابن الربيع ، كانت مما يحتم على
الأمين لا محالة تقليده أمر جيوشه وتفضيله على غيره من القادة ، لا أن ديسيس جماعة
المأمون هو الذي أشار بسدبه واختياره . فلحترس كثيرا من مألعة المؤرّحين والرواة ،
ولحمل من عقولنا ومطبقنا محكاً وحكماً .

ولفّت النظر هنا الى تناقص وقع فيه الرواة من الحزب المأموني ، فبينا نراهم يقرّرون
أن حيش المأمون عثر على صاديق عدّه من الحر ، فيما غنمه من علي بن عيسى بن همام ،
إذ بالديسيس يصفه بقوله : « ليس مثله في بعد صومة وسحاوة نفسه ! » .

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الختل والخديعة ، وأنه كان في حقيقة الأمر
سَكِينًا مُعَرِّبًا ، فما نرى أثر التأليف القصصى في الروايتين طاهرًا حليًا .

وسبق لنا أن قد فندنا ، حينما كنا بسبيل القول في الأمين ، ما رواه محمد بن يحيى بن
عبد الملك النيسابورى من أن الأمين قال لما نعى الناعى إليه قائده . « ويلك دعنى فإن
كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئاً بعدا » . وترك الناعى وجهه ، وأقبل
على الصيد وكوثره ، فلصم هذه الى تلك .



ويمجد بنا الآن أن نطلعك على بعض مقولات الشعراء في موقف الأخوين ، مع
ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم في تمداحهم للقوى ، وعلوهم في زرايتهم على الضعيف .
قال أحد الشعراء البغداديين :

أصاع الخليفة عيش الوزير . * وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزيرٌ وبكرٌ مشيرٌ * يُريدان ما فيه خف الأمير
وما ذاك إلا طريقُ عُرورٍ * وشرُّ المسالك طرقُ العرورِ
لِوَاطِءِ أَخْلِيَّةِ أَعْوَبَةٍ * وأعجبُ مه حَلَّاقُ الوزيرِ
فهذا يدوسُ وهذا يداسُ * كذاك لعمري اختلافُ الأمورِ
فلو يستعيان هذا بذاك * لكانا عُرْصَةَ أَمِيرٍ سَتِيرِ
ولكن ذا لَجَّ في كوثِرٍ * ولم يَشْفِ هذا دِعَاسُ الحَمِيرِ
فَشُعَّ فعلاهما منهما * وصارا حِلَاقًا كَبَوِيَ العِيرِ
وأعجبُ من ذا ودا أننا * نابع للطميل فيا الصعيرِ
ومن ليس يُحْسِنُ عسل آستِهِ * ولم يحل مَنُّهُ من جحر طيرِ
وما ذاك إلا مضلٌ وبكرٌ * يريدان نقصَ الكتابِ الميرِ
وهذان لولا انقلابُ الزمانِ * أَى العيرِ هذان أم فى النِّفيرِ

ولكنها قن كالحال * ترفع بها الوصيع الحخير
 فصراً في الصبر خير جميل * وإن كان قد ضاق صدر الصبور
 فيارب فاقضهما عاجلاً * اليك وأورد عذاب السعير
 ونكل بفصل وأشياعه * وصلهم حول هدى الجسور



(ح) عود على بدء ، مجهودات الأمين في سبيل الفوز :

ولقد سبق أن قلنا لك : إنه مع ما يرى اليه الرواه من تحقير شأن الأمين
 ورحالات الأمين ، يمكننا مع ذلك تبين حقيقة أمره ، مما يلاحظ في شأيا السطور
 وفتلات الحوادث ، وقلنا : إن تلك الفتلات قد نتيج لنا أن نؤمن بأن عهد الأمين
 بعض رحالات أعدد . وزيد الآن أن ثبت لك ذلك . وهذا الطبري يتحدث ،
 في حوادث سنة ست وتسعين ومائة ، أنه لما قوى طاهر واستعلى أمره ، وهزم
 من هزم من قواد محمد وحيوشه ، دخل عهد الملك صالح على محمد — وكان عهد الملك
 محوسا في حبس الرشيد ، فلما توفى الرشيد وأصبى الأمر الى محمد ، أمر بحلية سبيله ،
 وذلك في دى القعدة سنة ١٩٣ ، فكان عهد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوح به على نفسه
 طاعته وبصيحته — فقال : ” يا أمير المؤمنين ! إني أرى الناس قد طمعوا بك ، وأهل
 العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فان أتممت على أمرك أفسدتهم
 وأطرتهم ، وإن كفت أمرك عن العطاء والبدل أطمطمتهم وأعصبتهم ، وليست تملك الجود
 بالإمساك ولا تبقى بيوت الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فان جندك قد رعتهم
 الهزائم ، ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وانتلأت قلوبهم هبة لعدوهم ، وكوّلوا عن
 لقائهم وماهضتهم ، فإن سيرتهم الى طاهر ، غلب قليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته
 ضعف نصائحهم ونياتهم . وأهل الشام قوم قد ضمرتهم الحروب ، وأدبهم الشدائد ،
 وجلهم منقاد الى مسارع الى طاعتي ، فان وجهني أمير المؤمنين ، اتحدت له منهم جدا ،

تعظم بكايتهن في عدوه و يؤبد الله هم أوليائه وأهل طاعته . فقال محمد : فإنني مؤيّدك أمرهم ، ومؤيّدك بما سألت من مال وعدّه ، فعمل الشحوص الى ما هالك ، فاعمل عملا يظهر أثره ، وتُحمد بركته ، برأيك ونظرك فيه ، ان شاء الله . فولاه الشام والجزيرة واستحثّه بالخروج استحثاثا شديدا ، ووجه معه كَتفا من الجند والأبناء .

حاول الأميين بعد ذلك أن يتصر على أخيه بكل ما في مقدوره ، وبعث له الجند تلويح الجند . وإنما مع اعترافا بكفاية قاده ، أمثال عبد الرحمن بن جبلة الذي نذب أهل البأس والحدود والعماء ، فقرر أن طريقة الإرجاف وبث الدعاة الى اتباعها القادة المأمونيون كانت حِطْرَةً جدّا .

انظر الى من يقول لأهل حصص : ” يا أهل حصص ! الحرب أهون من العطب ، والموت أهون من الدل ! إنكم تعدتم عن بلادكم ، ونرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعمرة بعد الدلة ، ألا وفي الشر وقعتم ، والى حومة الموت أنتم . إن المنايا في شوارب المسوودة وقلاصهم ، المعير المعير ! قبل أن يقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليل ، ويقوت المطلب ، ويعسر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقتر الأجل ! “ ، وقام رجل من كلب في عرذ بافته ثم قال .

شؤبوت حرب حاب من يصلّاها * قد شرعت فرسانها قها
فأورد الله لطي لطاها * إن عمّرت كلب بها لحاها

ثم انظر لمن يقول : ” يا معشر كلب ! إنها الزاية السوداء ، والله ما ولّت ولا عدلت ، ولا دلّ بصيرتها ، ولا صعب وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل حراسان في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم ، وتحطّوه قبل أن يصطرم ، شامكم ! داركم داركم ! الموت الفلسطيني حير من العيش الجزري ! ألا وإلى راجع من أراد الانصراف فليصرف معي ! “ ثم سار وسار معه عامة أهل الشام .

أرايت الى أى مدى كان أثر الدعاية المأمونية ؟

لقد كان المأمون موفِّقا بلا ريب، وكانت ظروف النصر والاقبال تُؤاتيه من هنا ومن هناك، وتُطاهره على السجاح من حَزاء حكمته وكماية رجالاته، كما كانت تُطاهره من جَرَاء حَمَاقَة خصومه وقَلَّة عَنَائِهِمْ .

ثم انظر ما كان من أمر العَصِيَّة في حوادث سِتِي خَمْسٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةٍ وَسِتٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةٍ ، وما كان من اشتطاط حَسَدِ الأُمَيِّين في طَلَبِ المال ، وما كان من عَدَمِ قَدْرَتِهِ على إِحَابَةِ طُلُباتِ القَادَةِ الكُبَّاءِ ، أَمثالِ أَسَدِ بْنِ يَزِيدَ ، وما كان من تَقَلُّبِ الحُسَيْنِ اسَـ عَلَىـ مَعَهُ وَعَلَيْهِ ، وما كان من لَيَّانِ الأُمَيِّين مَعَهُ بَعْدَ أَنْ حَبَسَهُ ؛ فَانِ التَّارِيخُ يَحْدِثُنَا بِأَنَّ كُلَّ مَا فَعَلَهُ الأُمَيِّين مَعَهُ ، هُوَ أَنَّ لَأَمَهُ على حِلَافِهِ ، وَقَالَ لَهُ : ” أَلَمْ أَقْدِمُ أَبَاكَ عَلَى النَّاسِ ! وَأَوَّلُهُ أَعْنَةُ الْخَلِيلِ ' وَأَمْلَأُ يَدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ ! وَأَشْرَفُ أَقْدَارَكُمْ فِي أَهْلِ خِرَاسَانَ ! وَأَرْفَعُ مَا زِلْمَكُمْ عَلَى عَيْرِكُمْ مِنَ الْقَوَادِ ! “ . فَقَالَ لَهُ : بَلَى ! قَالَ : ” مَا الَّذِي اسْتَحَقَّقْتُ بِهِ مِنْكَ أَنْ تَحْلَعَ طَاعَتِي وَتَوَلَّى النَّاسَ عَلَىـ ، وَتُدْبِيَهُمْ إِلَى قِتَالِي ؟ “ قَالَ : الثِّقَةُ بِعَفْوِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَسَنِ الطَّنْصِصَةِ وَتَفَضُّلِهِ . قَالَ : ” فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِكَ ، وَوَلَاكَ الطَّلَبُ بِثَارِكَ وَمَنْ قَتَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ! “ ثُمَّ دَعَا لَهُ بِجَلْعَةٍ نَحْلَعُهَا عَلَيْهِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى مَرَاكِبَ ، وَأَمَرَهُ بِالْمَسِيرِ إِلَى حُلُوانَ . وَوَلَّاهُ مَا وَرَاءَ بَابِهِ .

أنظر إلى ذلك كله ، فإنك تستطيع أن تقتنع معاً ، بأن لسوء التدبير حظاً غير قليل في جِدْلانِ الأُمَيِّين وَصَيَّاعِ مَلِكِهِ .



(ط) مظاهر الثورة وخطبائها :

على أن هناك ظاهرة في الجيش الأُمَيِّين والأطراف الأُمَيِّية ، مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من بعض وجوهها ، يحذر بنا أن تقيدها لك ، ولو « على الهامش » كما يقولون . ذلك أن الرُّوْاقِيلَ ، والاصْصُوصَ ، والتَّوَارَ . لعبوا دورهم الخطير ، كما أن العوضى ضربت

يجرئها على كل البقاع الأُمِيَّة ، ولم يكن ثمة من طاعة ولا نظام ، لا في الجسد الأُمِينِي ولا في قاده الجسد الأُمِينِي !

وقد كان هناك خطأ ، كما كان في الثورة العرسية . وإن الطبرى ليحدثنا أن محمد بن أبي خالد قام بباب الشام ، فقال : أيها الناس ! والله ما أدرى ماى سبب يتأمر الحسين بن على عليه ! ويتولى هذا الأمر دوننا ! ما هو بأكبرنا ساء ، ولا أكرما حسبا ، ولا أعظما منزلة . وإن فيما من لا يرضى بالدينية ولا يُقاد بالخذامة ! وإنى أولكم قصا لمعهده ، وإظهارا للتغير عليه والاكثار لعله ، فمن كان رأيه رأيي ، فليعتزل معي . وقام أسد الحربى فقال : يامعشر الحربية ! هذا يوم له ما بعده ، إنكم قد نتم وطال بومكم ، وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوامٌ بذكر حلق محمد وأُسره ، فأذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه . يحدثنا التاريخ عن ذلك كله ، كما يحدثنا أن شيخا كبيرا ، من أهل الكهامة ، قد أقبل على فريس ، فصاح بالناس : اسكتوا ! فسكتوا ، فقال : أيها الناس ! هل ستدّون على محمد قطع مسه لأرزاقكم ؟ قالوا . لا ! قال : فهل قَصّر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عَزَل أحدًا من قوادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ! . قال : فما نالكم حَدَثتموه وأعتم عدوه على اصطهاده وأُسره ! أما والله ما قَتَلَ قومٌ حليفهم قط إلا سَلَطَ الله عليهم السيفَ القاتلَ والخنَفَ الجارف ! انهمضوا الى حليفكم وادفعوا عه ، وقاتلوا من أراد حَلَعَه والفتك به ! — .

أما ما أصاب بعداد من سَلَب ونَهَب ، وبحريق وتحريب ، وقتة شعواء ، وقتل ودماء ، فإننا نترك الكلمة في ذلك لشعراء العصر ، مما أثبتناه لك في باب المنطوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث ، فلتراجع ثمة .

(ى) قتل الأمين :

ولقد صَيَّق طاهرٌ وهرثمة على الأمين الخماق ، وفكروا فيمن يتسلم الأمين ليكون له قَصَبُ السُّبْق . وإنه لمن المؤلم حقا أن ترى الأمين وهو يقسل أولاده . ومن المؤلم أن

الفصل الرابع الخليفة المأمون

توطئة — السياسة الداخلية — ملخص الحالة العامة في المدة الخراسانية — المدة العدادية — ثورة نصر
ابن شبت، الرط، ثورة مصر، مالك الحريم، مدهاب ومحل، اهترامات — السياسة الخارجية : عزوة
المأمون للروم — كلمة ختامية .

(١) توطئة :

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله المحرر وغيره : من أن المأمون كان من أفاضل
الخلفاء وعلمائهم ، وحكامهم وحكامهم ، أو أنه كان ديناً ، عارفاً بالعلم ، فيه دهاء وسياسة
أو أنه كان فطناً ذكياً ، أو أنه كان كاملاً عالماً حواداً ، عظيم العموم ، ميمون البقية ، حسن
التدبير ، جليل الصانع ، لا تحدّعه الأمانى ، ولا تحور عليه الخدائع ، علمه بما بعد عه
كعلمه بما حصر ، أو أنه كان متصفاً بالعدل والحلم .

من تحصيل الحاصل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من ناحيته ، ولأن خطتنا
في كتابتنا ، ومنهجنا في بحوثنا ، أن نترك للحوادث الكلمة العاصلة في تحليل صغاته ، اتباعاً
للطريقة التحليلية التي اتبعناها فيما كتبناه عن سواه .

وقد أسلفنا لك القول في بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، وفصلنا لك ما كان من أمر
النزاع بين الأخوين ، ووصلنا بك الى مأساة تلك الحرب الشعواء والفتنة العمياء ، ألا وهي
قتل محمد الأمين في ٢٥ محرم سنة ثمان وتسعين ومائة والآل ننقذ الى القول بأن
المأمون بُويع له بالخلافة العامة في ذلك التاريخ ، واستمر كذلك الى أن توفى عازياً
في ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ . فتكون خلافته ، قد أفاضت على عشرين سنة . أقام منها
في خراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل الى بغداد ، مقر الخلافة العباسية .

فيمكما إذا أن تقسيم كلاماً عن حكم المأمون الى مديتين: المدة الخراسانية، والمدة البغدادية. وفي بيان هاتين المديتين، بيانٌ للحالة السياسية الداخلية في عصره، وهو ما سنعالج الكلام فيه الآن :



(ب) السياسة الداخلية :

١ - ملخص الحالة العامة في المدة الخراسانية

اطلعنا في دور النزاع بين الأخوين على شيءٍ غير قليل من بصرفات الفصل بن سهل وتديراته، ووقفنا على أثره العظيم في الدولة؛ كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين وهرثمه بن أعين، في حروبهما للجيوش الأمينية .

ونسأل الآن، بعد أن تم الأمر للمأمون وحربه، وحلا الجؤ الى حد كبير للفصل ابن سهل، أم المعقول أن تستطيع هذه الشخصية البارزة، الفارسية المنيّة والزّعة، ذات البيت الكبير، والحماة والأصدقاء، والعطاء والأخبار، أن تحتل أب يكون الى جانبها شخصيات بارزة من العرب كهرثمه بن أعين، وأبطال من ذوى الفصل العظيم والدور الأول في الجاح كطاهر بن الحسين^٥ .

نحن نعلم ما كان من أبي مسلم الخراساني مع أمثاله من القادة والحماة، كما نعلم ما كان نصيبه من الخليفة المصور . نعلم ذلك، كما نعلم الكثير من أمثال ذلك . وإنه يلوح لنا، من غير أن يبدو الصواب كثيراً، أنه في مقدورنا أن نحيب عن تساؤلنا هذا . إن المعقول، في طبيعه هذه الشخصيات العدة، في تلك الأزمان المطلقة الحكم، أنها تعمل على إزالة كل الشخصيات البارزة من طريقها، ليكون ذلك لأطاعها ممتداً، ونخططها ممتداً .

يلوح لنا أياً لا يبدو الصواب إذا قلنا ذلك . إذ أن هذا هو ما فعله الفضل بن سهل مع الظاهرين وأصحاب الكلمة في الدولة؛ فإن التاريخ ينبئنا أنه رأى مستقبله ومستقبل حربه، يكون مهتداً، إذا بقي طاهر وهرثمة في العراق، فاستصدر أمرين

ملكيين : أولها تولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فتح بجهود طاهر ، وقيادته الحكيمة ، وإخلاصه للقضية المأمونية . يلدنا بأنه نصّب على كُور الجبال وفارس ، وعلى الأهواز والبصرة ، وعلى الكوفة والمحاز واليمن ، كما يبلّغنا بأنه ولى طاهرا الموصل والجزيرة والشام والمغرب . ولكي يتم الأمر بابعاده ، كتب إليه أن يسلم الحسن بن سهل جميع ما بيده من الأعمال ، وأن يبادر في الشخصوس الى الرقة لمحاربة نصر بن سُبَث . وثانيهما الى هَرثمة أس أعين يكلفه به أن يشخص الى خراسان .

ولتسأل الآن : هل كان من المصلحة السياسية ، هذه الصدمة العيفة لزعميين قويين ، أحسا البلاء في الدولة ، ولهما مكاتهما ، ولهما حزبهما ؟ وهل كان من المصلحة السياسية إحلاء العراق ، وهو مصدر الشقاق والمقاق والعصيان والعدوان ، من هَرثمة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية ، أن يترك المأمون مسألة ، كمسألة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هَرثمة وطاهر ، يتركا ، فيستعملها الدعاة على ملكه من بني هاشم ممن لم يكن لهم حظ في دولته ، ومن غير بني هاشم ممن يودون زوال الملك الهاشمي ، يقول — فيما يقولون عنه — إنه عُلب على أمره ، أو أت العرس ملكوا زَمَامه ، أو أت الفضل بن سهل أنزله قصرا فحسه عن رجالات دولته ، وأن السلطان ومقاليد السلطان ، قد نُزِعت منه ؟ .

نعود لتسأل : أكان ذلك كله من مصلحته السياسية ؟ .

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طعنا ، لا سيما أنه لم تسكن الفتى والثورات ضد في الأقطار المأمونية . وإنما نميل الى اعتقاد أن المأمون كان مرعما على الوقوع في هذه العلطة السياسية ، وهو ذلك السياسي المحكم والداهية القدير ، كما رأيت وكما ستري في موضعه ، لأن لظروف الأحوال نصيبها في ذلك التصرف منه ومن غيره ممن يكون في مكانه ، ولأنه ربما تحاشى بتصرّفه ذلك خطراً أجسم ، وأوسع نطاقا ، وأبعد مدى ، وهو خطر إعصاب الفضل بن سهل وجماعة الفصل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فإن هذه التصرفات التي كانت من الفضل بن سهل، وإقرار المأمون لها، وبقاء المأمون، بعد أن تم له الأمر، في مرّو دون تعداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة في شيعه المأمون وأنصاره من جهة، وفي أعدائه والراعيين عن سلطانه من جهة أخرى. ذلك أن أنصار المأمون وقوّاده، ونحّص بالذّكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كسّر قلوبهم وقلّ من عزائمهم، أن يكون جرائهم على فوزهم وحس بلائهم وإحلاصهم، تلك التصرفات السيئة التي كانت نصيبهم من المأمون ومن حاشية المأمون.

هذا كان أثرها في شيعته وخاصة أنصاره. وأما غير هؤلاء، فقد جعلت هذه التصرفات ألسنتهم تطلق باتهام المأمون بأنه يميل إلى الحراسانيين، وأنه أصبح آلة في أيديهم يحزكونه كما يشاءون وقد حدث من حرّاء هذه الإشاعات وتورّمة أنصار المأمون الذين لم يحازوا الحزاء الأوفى، أن اضطربت الأمور، وكثُر الفتن، ووَجَد أعداء المأمون الفرصة ساحة لتحقيق أطماعهم. ومن تلك الفتن ما يتحدثنا التاريخ عنه: من حروح محمد بن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا بالكوفة، وقد قام بتدبير أمره رجلٌ من رجالات هرثمة بن أعين وبكار أنصاره، وقد خرج لأنه حبس عنه ما كان يُعطاه من رزق: هذا الرجل هو أبو السرايا السريّ بن مصور، وكان هو الخارج على المأمون في الواقع لا ابن طباطبا وقد بلغ من أمره أن صرّب الدراهم وجَدّ الحدود، حتى اضطُرّ الحسُّ بن سهل أن يسترعى هرثمة، ويستعيّنه، ليكفيّه شرّ هذا الخارج القويّ.

و يظهر أن موت الرعاء، كان طُلُماً من الطلاسم، أو سرّاً من الأسرار، أو صاعاً من الصناعات الخفية وإنا نجد أن محمد بن إبراهيم هذا، الذي سَمّت مزلّة بين أتاعه، وعظمت طاعتهم له، قد مات، بعد أن كُتِب النصر للقيام بتدبير أموره على سليمان بن جعفر وإلى الكوفة من قِبَل المأمون، ثم نرى هذا المنتصر يولّي مكانه غلاماً أمرد حدّثاً، هو محمد بن محمد بن زيد العلوي.

وتَعَالَ مَعِي لِنَظَرِي فِي حَوَادِثِ سِتَّةِ سَنَةٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةً ، فِيهِمَا مَا يَكْشِفُ الْقِنَاعَ عَنْ أُمُورِ جِسَامٍ ، تُعِيدُنَا فِي تَهْمِهِمُ الرُّوحَ الْحَزِينَةَ بَيْنَ الْعُلُوِّينَ وَالْعَاسِيِينَ وَتُعِيدُنَا أَيْضًا فِي إِمَامَةِ اللَّثَامِ عَنْ سَبَبِ هَامٍّ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا تَبَرُّمُ بَعْضِ الْوَلَاةِ الْكُفَّاءِ بِدَوْلَةِ الْفَصْلِ بْنِ سَهْلٍ وَافْرَادِهِ هُوَ وَجَمَاعَتُهُ بِمَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَوُظَائِفِهَا .

تَعَالَ نَظَرِي فِي حَوَادِثِ تِلْكَ السَّنَةِ ، فَحَدِّثُنِي أَنَّ هَرِثْمَةَ حَدَّثَنِي أَنَّ أَبِي السَّرْيَا صَدِيقَهُ بِالْأَمْسِ وَمُارِلُهُ الْيَوْمَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا وَقَعَةٌ شَدِيدَةٌ ، قُتِلَ فِيهَا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي السَّرْيَا حَلَقٌ كَثِيرٌ ، أَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَقَعُّكَ نَأْنُ إِيمَانُضَةٍ رَصَاً وَأَسْمَامَةً تَشْجِيعٍ ، لِرَحْلِ مَنْ رَحَالَابِ الدَّوْلَةِ ، كَافِيَةٌ لِأَنَّ يَنْهَضَ فِيحَارِبَ زَمِيلِهِ وَيَقَاتِلَ حِدْنَهُ . ثُمَّ تَحَدَّثَ فِي ذَلِكَ السَّنَةِ فِيهَا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَثَبَ ، وَمَعَهُ الْحِزْبُ الطَّالِبِيُّ ، عَلَى دُورِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَدُورِ مَوَالِهِمْ وَأَتْنَاعِهِمْ بِالْكُوفَةِ ، فَاتَّهَبُوهَا وَحَرَّبُوهَا ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْكُوفَةِ ، وَأَسْتَجَرُوا الْوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ فَأَحْدَوْهَا ، وَعَمِلُوا فِي ذَلِكَ عَمَلًا قَبِيحًا . وَتَحَدَّثَ كَذَلِكَ فِيهَا أَنَّ مَسْرُورًا الْكَبِيرَ الْخَادِمَ الرَّشِيدِيَّ ، قَدْ حَمَّ تِلْكَ السَّنَةِ فِي مَائَتِي فَارِسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُ عَنَى لِحَرْبٍ مِنْ يَرِيدُ دُخُولَ مَكَّةَ وَأَخْذَهَا مِنَ الطَّالِبِيِّينَ ، وَأَنَّهُ قَالَ لِعَامِلِ مَكَّةَ دَاوُدَ بْنَ عَيْسَى : أَقِمْ لِي شَخْصَكَ أَوْ شَخْصَكَ بَعْضَ وَلَدِكَ وَأَنَا أَكْفِيكَ قِتَالَهُمْ ! فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : لَا أَسْتَحِلُّ الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ ، وَاللَّهِ لَئِنْ دَخَلُوا مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، لَأُخْرِجَنَّ مِنَ الْفَجِّ الْآخَرَ . فَقَالَ لَهُ مَسْرُورٌ : تُسَلِّمُ مَلِكَكَ وَسُلْطَانَكَ إِلَى عَدُوِّكَ وَمَنْ لَا تَأْخُذُهُ فَيْكَ لَوْمَةٌ لَائِمٌ فِي دِينِكَ وَلَا حُرْمَتِكَ وَلَا مَالِكَ ! قَالَ لَهُ . أَيْ مَلِكٌ لِي ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَقْبَتُ مَعَهُمْ حَتَّى شَحَبْتُ ، وَمَا وَلَوْنِي وَلَايَةً ، حَتَّى كَثُرَتْ سَيِّئَاتِي ، وَفَنِي عَمْرِي ، فَوَلَوْنِي مِنَ الْحِجَازِ مَا فِيهِ الْقُوَّةُ ، إِعْمَا هَذَا الْمَلِكُ لَكَ وَلَا شَاهَكَ ! فَقَاتَلَ إِنْ شِئْتَ أَوْ دَعُ !

هَذِهِ حَالَةُ نَفْسِيَةِ لِبَعْضِ الْوَلَاةِ الْعَرَبِ ، قَدْ يَكُونُ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ تُلَاحِظَ تَرَمُّهَا وَبُخْطَهَا مِنْ سِيَاسَةِ الْعَصْرِ ، أَوْ مِنَ الْهَيْمَنَةِ الْفَارْسِيَّةِ عَلَى شَقٍّ أُمُورِ الدَّوْلَةِ عَامَةً وَالْحَسَنَاتِ مِنْهَا خَاصَّةً فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ . وَرَبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ النَفْسِيَّةُ تَمَثَّلُ لَكَ حَالَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ نَفْسِيَّاتِ الْعَرَبِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ .

ثم لسطرى حوادث سنة مائتين، فوجد أن زيد بن موسى الطالبيّ المعروف "زيد النار" كان بالنصرة، وإما سُمِّيَ "زيد النار" لكثرة ما حرقه من دُور العباسيين وأتباعهم في البصرة. وكان إذا أُتِيَ برجل من المسوَّدة العباسية، كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار. ونجد فيها أن ابراهيم بن موسى الطالبيّ قد حرق باليمن. ونجد أيضا أن الكمة ونرائنها وأحمارها الكريمة، لم تسلم من أوى السرايا وأتاعها العلويين، وكَم حبس من العباسيين وكَم آذى! حتى نَدَّتْ محمد بن مسَلَمَة الكوفيّ لتولَّى عذاب العباسيين، فأشرف في ذلك، حتى سُمِّيت داره "بدار العذاب". ونجد أيضا أن حارجياً آخر، وهو حسن ابن حسين، أراد اقتناء ما رَسَمه أبو السرايا، فذهب الى علوىّ وداع محبّ معروف في مكة والمدينة، وهو محمد بن جعفر، ونَصَبه حليقةً اسماً، وجعل السلطان بيده فعلاً. ونجد فيها قناخ وفصائح لحسن بن حسين هذا، مع زوجة قرشية من بى بهر، وروجها من سى محروم، ولها حمالٌ نارغ، فاعتصمها من زوجها. ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المعيب من على بن محمد الحليفة المصوب، مع ابن القاصي إسحاق بن محمد، وكان حبيلاً نارعا في الجمال!

نجد ذلك كله، ونجد الكثير من أمثاله، مما أدى الى إثارة الرأى العام في مكة، فاحتجوا، حتى ردَّ الصبيّ لأبيه مكرهاً مرعماً! ونجد فيها أمثلة عدّة لاستلاب أموال الناس، كما نجد فيها رحلاً عاسياً موتوراً من العلويين، وهو محمد بن الحكيم، ممن كان الطالبيون قد انتهوا داره وعدبوه عذاباً شديداً، عثر على محمد بن جعفر الطالبيّ الخليفة المصوب، وقد طُرِدَ شَرّاً طردة، وكان في مقدوره أن يقتله فلم يفعل. فلقيده هذه الحادثة، فها تعفما في تفهم السر الذي كان كثيراً ما يحدو بالمأمون الى احترام العلويين، وتقدير مكاتهم والعمل على إرضائهم لأن لهم حرمة في نفوس حرب غير قليل من الشعب. ونجد في السه ذاتها أن الخ قد تولاه أكثر من شخص، لتعدي السلطات. فندب المأمون أبا إسحاق بن هارون الرشيد. ووجه ابراهيم بن موسى الطالبيّ، الذي خرج

ياجن ، رجلا من ولد عَقِيل بن أَبِي طالب ، كما وجه غيره من يمثله ، مما بدل على الفرقة والانقسام ، وعلى الفوضى والاضطراب . فلتعزى ذلك جيدا .

ويحذر بها هـا أن نين نتائج الحالة الحزبية بين الفريقين ، فقد بلغ أبا اسحاق بن الرشيد أن الجماعة الطالبية اتى أتت من اليمن للحج ، قد مرر بها قافلة من الحاج والتجار ، وفيها كسوة الكعبة وطيبها ، فاستلست أموالهم وطيبهم ، فندت لهم محمد بن عيسى بن يزيد الحلودي الذي أحرق بهم فأسرا أكثرهم ، وهرب من هرب منهم ، وأحد منهم الطبيب وأموال التجار والحاج ، فوجه به الى مكة . ودعا من أسر من أصحاب العَقِيلِيّ العلويّ ، فأمر بهم فقنع كل رجل منهم عشرة أسواط ، ثم قال لهم : ” أعزُّوْا يا كلاب السار ! فوالله ما قتلكم وعمر ، ولا فى أسركم جمال “ . وحلّى سبيلهم . ولملاحظ تسميته لهم ” بـكلاب السار “ !

وإنا لنحصى لك الحوادث التى وقعت بعد أن قنع هرثمة ثورة أبي السرايا ، التى انتهت بقتله عام ٢٠٠ هـ . وإجماع فتنته ، معتمدين فى ذلك على الطبرى والأستاذ «ميور» خاصة :

لما قنع هرثمة ثورة أبي السرايا ، عاد الى نهروان ، دون أن يعرج على والى بغداد ، وهناك وافاه أمرُ الخليفة بتوليّه حكم سوريا وبلاد العرب ، وكان قد اعترم الذهاب بعد ذلك الى « مرو » مباشرة ، ليكشف للخليفة عن حقيقة الموقف وحرجه ، الذى يخفيه عنه وزيره الفضل ، بسبب بقاء الخليفة فى « مرو » وأن الغرب سيتنقص عليه سريعا ، ويخرج من يده اذا هو لم يبادر الى العوده الى بغداد . فلما أحسن الفصل عزم هرثمة على القدوم قط إلى ما يتوّه ، فدس له عبد المأمون ، حتى أوعر صدره عليه ، وكادب السة تنتهى قبل أن يذهب هرثمة الى « مرو » . فلما ذهب حتى أن يكتم الفصل خبر قدومه عن المأمون ، فدق الطبول عند دخوله المدينة . فلما علم الخليفة الموعر الصدر بقدومه أمر باحصاره ، فلما مَثَل بين يديه نال فى تقريره وتأنيبه على توانيه فى تسكين ثورة أبي السرايا ، وفى مخالفة ما أصدره اليه من أمره بالذهاب الى ما ولّاه من أعمال

وما كاد هذا القائد يهَمُّ بالكلام ويشرح لمولاه الحالة، حتى همَّ عليه الحرَّسُ الذين أسَرَّ اليهم الفصلُ أن يُعْلِطُوا في تعديده، فاهالوا عليه صراً ولَكْجاً، على وجهه وجسمه، ثم سَحَّوه بسرعة إلى السجن حيث مات به بعد زمنٍ قصير، متأثراً بجراحه . ولقد اعتقد عاقبة الناس أن الذي أَمَاتَهُ هو الفصل .

وهكذا انطوت صحيفةُ هذا الداسل العظيم الذي ذُتَّ عَنْ مُلْكِ المأمون، وكَلَفَ في توطيد دعائم الدولة، من أفرريقية إلى خُرَّاسان، والذي رجع إليه الفصلُ الأَكْبَرُ في انتصار المأمون على أخيه المخلوع . ومات هذا القائد العظيم صحياً للسعادة وبكرًا الجميل، كما مات أمثاله من قبل من صادد هذه الدولة من حُرَّاء السعادة والمناصفِ، ومن حُرَّاء أعمالِ البطانة ودسائس الحاشية .

ولتساءل ما ذا كانت نتيجة قتل هرثمة ؟

محدثنا التاريخ أن هرثمة كان محبوا في الغرب، وأن موته أحدث قتلاً وقلاقل في بغداد، وثارَت الجُودُ في وجه الحسن بن سهل، إذ عدَّوه آلَ في يد أخيه الفصل الذي كانوا يعتنونه بالمجوسية . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، فلبَّجوا إلى «المدائن» ثم آرْتَدَّ إلى «وَأَسِط» . وأسْمَرَتِ الْعَيْنُ والقلاقلُ بعد ذلك قائمةً ببغداد شهوراً عدَّة، نشطت في حلالها عصاباتُ اللصوص وشرادمة الصعاليك، وثمرت عن ساعدها في أعمال النهب والسلب، حتى طغى سَيْلُ عاراتهم على تلك المدينة المنكودة، التي أصبحت تحت رحمتهم . ويحدثنا التاريخ أنهم قد أسرفوا في ذلك إسرافاً عظيماً، مما فَرَّعَ له أعيانُ المدينة ووجهاؤها، فأجمعوا أمرهم على صدِّ هؤلاء السُّفْلَةِ الأشرار ودفع عائلتهم عن المدينة وأهلها . ولما تَمَّ لهم ما أرادوا، احتاروا من بينهم رحلين من دوى الفضل والمكانة فيهم، وولَّوْهما تدير الحكم، ريثما تستقر الحال ويعود الأمن إلى بَصَابِهِ . ثم عَرَضُوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدي والبيعة له، فتأبَّى عليهم، ولكنه عاد وقبِلَ أن يتولَّى الحكم باسم الخليفة المأمون . ولم تُؤَشِكْ هذه السنة أن تنتهي حتى كان قُوَاد الجند في بغداد قد سمَّوا القتالَ،

فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالى فعاد الى بغداد بعد أن أصدر عفواً عاماً ، ووعد بأنه يدفع للمجد رواتبهم عن ستة أشهر، وبأن يدفع كذلك لدوى المعاشات أوراقهم حسبما هو مُدرج بقوائمهم .



ولتسائل الآن ما ذا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر ينتهى على هذه الشروط ، حتى عادت الفتنة والاضطراب أشد مما كانا عليه . ذلك بأن المأمون، لغرض سياسى ، أو لزعزعة شيعيه، أو لتفدير كفاية خاصة، استدعى واحداً من سلالة سيدنا علىؑ، وهو «على الرضا» رضى الله عنه ، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين، الى «مرو»، وأختاره ولياً لمهد الخلافة، مع أنه يكبره بأثنتين وعشرين سنة . و بما كان المأمون فى رأيه هذا صادرا عن رأى وزيره الفضل الذى رآى له أن هذه أنجح وسيلة لتسكين ثوره العلويين فى الغرب . وربما كانت تتحجج هذه الوسيلة فى التوفيق بين البيت العلوى والعاسىؑ، قبل استحصال الخلف بينهما . أما وقد استطار الشر بينهم ، وقلب بعضهم بعض ظهر المحجج ، ولبسوا جلد الخمر ، وتحفزوا للقتال ، وتداخوا للحلاد، فإن أمر الوفاق بينهم صار حُلماً، وعاد الإقدام عليه سخماً وحماسة مُهلكة ! .

وما ذا ترتب على إفساد ولاية العهد لعرد من العلويين ؟ .

إن التاريخ يحدثنا أنه ترتب على إفساد ولاية العهد على الرضا أن أمر الخليعة ولاته فى جميع أنحاء الدولة بأحد البيعة لولى عهده . ولكى يجعل المأمون الدولة يصططع بصيغة العلويين، حلع الشعار الأسود، شعار العباسيين، وأرتدى الشعار الأحمر، شعار الشيعة، وأمر عماله بالانقياد به . وفى أواخر هذه السه تلقى الحسن بن سهل من أخيه الفضل أمراً بإعلان ذلك وتفيذه، فكان لذلك الأمر أسوأ أثر فى أهل بغداد، إذ وقع عليهم كالصاعقة، لأن أهلها كانوا يحافون الشيعة ويمقتونهم، وكذلك شعر العباسيون بأن الصربة موجهة للقضاء على خلافتهم ، فشقوا عصا الطاعة، وهُموا بحلم المأمون واختيار خليفة

سواه ، ولم يعارض زعماء البيت الملكي من العباسيين في ذلك . فلم تأت آخر جمعة من هذه السنة حتى دعى لإبراهيم بن المهدي على المبار خليفة بدلاً من المأمون ؛ وسرعان ما أُوبِيع له بالخلافة . وكان إبراهيم بارعا في الموسيقى والعناء والشعر ، ولكن كانت تنقصه المؤهلات التي يستطيع بها أن يصطلع بأعناء الملك التي أُلقيت على عاتقه ، والتي ناء بمحملها مدته سنتين .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟

نَسِبَ القتالُ بين حنود المأمون وحنود إبراهيم المقتصب للخلافة ؛ فاضطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يرتد إلى وَاِسْطِ مرةً أخرى ، وَخُيِّلَ إليه أنه إذا جرى أهل الكوفة في مُيُولَمِ الشيعية ، يستطيع أن يصمّمها إليه ، وبدأ ذلك بأن وُلِّيَ عليها أحد إخوة عليّ الرضا ولم يدر أن التوفيق بين عائلتي عليّ والعباس في مدينة كهده متقلبة الأهواء ، صرَبٌ من المستحيل . فان أهلها كانوا على استعداد ، في أول أمرهم ، للقاء الحسن كقائدي من صميم العلويين ، ولكنهم انتقصوا عليه باعتباره الوالي الفارسي من قَبْلِ المأمون ، وعلى ذلك قامت الثورات في هذه المدينة أيضا كما قامت في غيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

إن التاريخ يحدثنا أنه بينما كان الغرب عارقاً في لحج هذه الفوضى ، حدث في مَرَوْ تَغْيِرٌ حديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تنبه في آخر الأمر ، لحرج الموقف ، وخطورة الحالة ، ومن العرب أد أول من نبّه الخليفة إلى هذا الخطر المُحْدِقِ به ، وبعرش آبائه وأجداده ، هو عليّ الرضا نفسه ، فتبين المأمون أن ولايته للعهد كانت شؤماً على الدولة ، إذ سارت الأمور فيها من سييء إلى أسوأ ، زُهاء عام منذ توليه .

ويحدثنا التاريخ أن عليّاً الرضا حلاً بالخليفة ، وكاشفه أن الفضل وزيره يُكَاثِمُهُ حقيقة الحال ، ويخفي عنه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أى الخليفة) : إنه مجنون أو مسحور ، وأن الخلافة توشك أن تُقْلِت من يده بين إبراهيم والعلويين ، وأن الحسين

أخا الفضل يعمل في القضاة على الغرب ، بنينا طاهر ذلك القائد الباسل الذى يستطيع أن يقود سعية الدولة الى شاطئ البجاه مبهوذى سوريا .

وقد أبد هذه الحقائق للمأمون جماعة من قواد الدولة وزعمائها ، بعد أن أختنهم المأمون من غضب وزره ، ونصحوا اليه بأن حير علاج لسلامة الدولة أن يعمل بالعودة الى بغداد ، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحة هرمة ، التى جاء من أهلها منذ ستين لسنها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فأيقن المأمون أخيرا أن استسلامه للفصل واقباده له ، كانا سببا لكل ما حدث من الفتن والثورات ، فأمر بانتقال بيت الخلافة الى بغداد ، وماكادوا يحلّون سرّخس وهم فى طريقهم الى بغداد ، حتى وحدوا الفصل قتلا فى حمامه ، وكان الفصل ، قبل ذلك قد اصطهد جماعة القواد والرعاة الذين كشفوا أمره عند الخليفة ، فوعد الخليفة بمكافأة لمن يأتيه بالقتلة ، ولما قص عليهم دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنما قتلوه بأمر مولاهم الخليفة ، ولكن لم ينعهم دفاعهم شيئا ، وضربت أعاقهم ، وبعث الخليفة براء وسهم الى الحسن بن سهل مشفوعة بكتاب تعزية منه ، ووعد فيه بأنه سيستوزره خلفا من أخيه ، ولعل من عطف الخليفة عليه ، أو من سياسته وحكيم تديره ، أن عقد زواجه من ابنته بوران ، التى كانت اد داك وما قبل طفلة فى الحول العاشر من عمرها ، ولم يدخل بها إلا بعد ثمان سنين بعد ذلك . وفى الوقت نفسه زوّج إحدى بناته لعلّ الرضا الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ الراسة والحسين من عمره ، كما زوّج بنتا له أخرى من اس على الرضا ، وكذلك ولّى أحد إخوة على الرضا إمرة الحج . وهذه المصاهرة تمت مظاهر حسن العلاقات وتوثيق العرا بينه وبين الحزب العلوى . وكانت هذه المصاهرة فى ذاتها تصرفا سياسيا آية فى الحكمة والسداد .

لم يمض بعد ذلك غير قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعا : ذلك انه فى أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل طُوس فى فصل الحريف ، وهناك مات على الرضا فجأة ، وقيل : إن

موته كان بسبب إفراطه في أكلة عنب، فدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشيد، فاهترت الدولة لموته الفحاشى الذى جاء عقب مقتل الفصل، وإياه لمن المعقول في مثل هذه الأحوال أن تنتشر الإشاعات، وتكثر الأراجيف في سبب موته . كما أنه من المعقول أيضا في مثل هذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل فيما قيل : إن المأمون دس له السم في العنب، بيد أن الرعاية التى أطهرها المأمون لعل الرضا، خصوصا بعد توثيق عرا العلاقات بعد المصاهرة، قد تدفع هذه الشبهة عن الخليفة .

إنا لا نملك من أن تمنع من جهة أخرى: أن الفصل وعليها كما عقبة كاداء في سبيل المأمون، لا يزيلها من سبيله إلا موتهما، ويحوز لك أن تذهب في التذليل على أن المأمون كان يعد عليا عقبة في سبيل إرساء أهالى بغداد، إلى أنه في الوقت الذى كتب فيه كتاب تعزية الى الحسن بن سهل يتبع فيه موت علي أرسل كتابا آخر الى أهل بغداد يقول لهم فيه : إن عليا الذى أطهروا سمخطهم وترثمهم من إساد ولاية العهد له قد قصى، فلا شئ اذا يجمعهم الآن من العودة الى طاعته وموالاته .

على أنا لا نحاريك في هذا الافتراض، لما يباه لك من ناحية، ولأن نفسية المأمون وحلقه، مما ستقف عليه قريبا، لما يجعل هذا الافتراض واهنا ضعيفا .

أما فيما يختص بكتاب المأمون الى البغداديين بشأن موت علي الرضا فنقول لك : إنه وإن لم يُحدث أثره المطلوب تماما في نفوس البغداديين، لأنهم احابوا عنه بكتاب جاف فاتر، إلا أنه قد خطاه به خُطوة ما في سبيل استمالة أهل بغداد، وفي هذا الوقت أخذ أنصار ابراهيم القلائل يتنفصون من حوله، لضعفه وسوء تديره في إدارة الحكم، وتخلّى عنه جوده، ولم يتقدموا المدافعة لجود المأمون، وسقطت المدائن التى كان فيها مقر خلافته، في أيدى جود المأمون، وساءت أحواله، واضطرب نظام ملكه في فصل الشتاء. ولما دنا قواد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها، خرج اليهم قواد المدينة وزعمائها، يُظهرون ولائمهم وطاعتهم للمأمون .

وما كادت تتصف السنة حتى استولى قواد المأمون على المدينة ، وحتى اختفى إبراهيم كما اختفى غيره ، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون ، وذلك بعد أن عانت ماعانت من ضروب الموضى واختلال الأمن وسقم الحال مدة سنتين تقريبا ، وبقى محتفيا فيما يقال ثمانى سنين ثم قُبِضَ عليه متنكرا فى زى امرأة ، ثم عفا عنه المأمون وسندكر ذلك فى موضعه .

٢ — ملخص الحالة العامة فى المدة البغدادية — دخول المأمون بغداد

فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م)

لما نحدت ثورة بغداد ، وفزع ابراهيم بن المهدي محتفيا ، واستقرت النظام وعاد أهلها الى الطاعة والولاء لخليفتهم ، تقدم اليها المأمون مُتَّيِّدا فى سبره ، إذ كان يقف فى أثناء سفره بالمدائن التى يمر بها كي يعيد اليها الأمن ويُقر فيها النظام ، فأقام فى جُرحان شهرا كما أقام فى النهرَوان ثمانية أيام ، فخرج لاستقباله أهل بغداد ، يتقدمهم أهل بيته وقواده ووحوه المدينة احتفاء بقدومه اليهم .

وكان المأمون قد كتب فى أثناء سفره ، الى طاهر وهو فى الرقة أن يوافيه فى النهرَوان فوافاه بها ، ثم تقدم بعد ذلك ودخل بغداد فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م) .

وكان لا يزال الشعارُ الأخضر ، شعار العلويين الذى اتخذه المأمون وهو فى مرو ، شعار الدولة ، فما زال به بكار قواده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشعار الأسود : شعار العباسيين . ويحدثنا يحيى بن الحسن : أن المأمون لبس الخُضْرَة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوما ثم مُرِّقَتْ ، ثم حُلِيَ الخَلَعُ السِّنِّيُّ على من حصر من القواد والأشراف ورجال الدولة ، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير الأُميين ، الذى كان اختفى بعد مقتله ، ثم ظهر مساعداً لإبراهيم بن المهدي فى ثورته ، وكذلك عفا عن عيسى وزير إبراهيم ، مع انهما كانا رأسى الفتن والقلاقل التى أثيرت على حكم المأمون ، فكان موقف المأمون معهما غايةً فى التسامح والكرم .

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام في جميع أنحاء الدولة، بدخول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نَصْر بن شَبَث حارحا في سوريا، وكانت لا تزال مصر مسرحا للفتن والقلاقل، وبأنك الخرمي يعظم خطرَه في شمال فارس، والزُّط لا يزالون يعيشون في الأرض مسادا على الخليج الفارسي. وسقّص عليك في موضعه ما وصلت اليه هذه الثورات وكيف أُخمدت.

ثم ولي المأمون طاهرا حاكما على بغداد، وأقام ابنه عبد الله واليا على الرقة حلفا من أبيه. غير أن المأمون لم يلبث أن تنكر طاهر وأظهر له الجفوة. ثم نرى بعد قليل أن طاهرا ولي حاكما على خراسان.

وقد كنا نكون في حيرة من أمر هذا التنكر المضحك من الخليفة على رحله العظيم من غير سبب طاهر، ثم ينتهي ذلك بأن يكون حاكما على خراسان، أولا أن أبى طهمور بروى لنا أسباب كل هذا في قصبة مُتمتعة ملحقها: أن طاهرا دخل على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون فيما قيل في مجلس شراب، فأمر له برطلين من البسند ثم بكى المأمون وتغرّعت عياه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين لم تبكي لأنكى الله عيك! فوالله لقد دانت لك البلاد، وأدع لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمر، فقال: أبكي لأمرٍ ذكره ذلّ، وستره حرن، ولن يحلو أحد من شجّ: فتكلم بحاجة إن كانت لك. فما زال طاهر بعد ذلك يتجدد الوسائل إلى معرفة السبب حتى وفق بالمأل إلى إعراء ساقى المأمون أن يتعزف كُتة ذلك السبب. فلما تعدى المأمون ذات يوم قال لساقيه: يا حسين، اسقي، قال: لا والله لا أسقيك أو تقول لم بكيت حين دخل عليك طاهر! قال: يا حسين، وكيف عُنيت بهذا حتى سألتني عنه؟ قال: لغنى بذلك، قال: هو أمرٌ إن خرج من رأسك قتلُك، قال: ياسيدي، ومتى أخرجت لك سرّا! قال: إني ذكرت محمدا أنى، وما ناله من الدّلة لمحقنتي العبرة، فاسترحت إلى الإفاضة. وإن يفوت طاهرا متى ما يكره. قال: فاجبر حسين طاهرا بذلك، فركب طاهر إلى أحمد

ابن أبي خالد - وهو وزير المأمون - فقال له : إن الثناء متى ليس برخيص ، وإن المعروف عدى ليس بضائع ، فغيبني عن عييه . فقال له : سأفعل فبكرت على عدا . قال وركب ابن أبي خالد الى المأمون ، فلما دخل عليه قال له : ما نمت الليلة ، فقال له : ولم ويحك ! قال : لأنك وليت غسان خراسان ، وهو ومن معه أكلة رأس^(١) ، فأحاف أن يخرج عليك حارجة من الترك فيصطلمه ؛ قال : لقد فكرت فيما فكرت فيه ، قال . من ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ؛ قال : ويلك يا أحمد ! أهو والله خالع ! قال : أنا الصامن له ؛ قال له : فأضده ، قال : فدعا طاهر من ساعته .

ويظهر أن المأمون ، فيما ذكر الرواة ، لم يكن مطمئنا ، مع صمان وزيره لطاهر ، الى تعيينه حاكما على خراسان ، فان بعض الرواة يقول : ان المأمون أسر الى خصى له أمين بمرافقة طاهر ، حتى اذا رأى منه خروجا دس له السم .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولى شؤون خراسان ، وأدارها بحزم وسداد رأى ، حتى طهر منه ما كان يحشاه المأمون ، من حروج وعصيان ، فقد أسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة ، ودكر دماء مبهما لصرة الدين ، فأنفذ عن المأمون عامل البريد هورا بكتاب الى المأمون ، يحبره فيه بما وقع من طاهر ، ثم نرى المأمون يتوقع محي كتاب آخر ويتنظره بفارغ الصبر في اليوم التالى لورود الكتاب الأول ، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا يئى طاهرا الذى وجد ميتا فى فراشه .

ونحن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شئ من الغموض فى هذه اللاحية من عصر المأمون ، وأن تصرفات المأمون مع طاهر ، ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك ، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نمشئ الأستاذ « ميور » الذى يرى أن على هذه الحوادث جميعها عشاء من الغموض كثيفا .

(١) يريد أنهم قليل عددهم يشتمهم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولى مكانه ابنه طلحة، وأن يستبق ابنه عبد الله والياً على الجانب الغربي من الخلافة، ليقمع ما فيه من ثورات، ويسكن مابه من اضطراب. ثم أرسل وزيره مع طلحة ليقوى دعائم سلطانه في ولايته، فشخص الوزير الى ما وراء النهر، وقام بحملة موفقيه على بعض العصاة، ثم قفل راجعاً الى بغداد مرؤداً — فيما يقول الرواة — بهدية نفيسة له من طلحة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم ولكاتبه أخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم.

أما طاهر الذي تولى في فراشه، وربما كان الذي يعلم سر وفاته قبل سواه هو المأمون وطلحاته، فقد قدما لك شيئاً في كتابنا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحس بلائه وحبرته بالحروب، ولا يقل خطره في تدبير الحكم وشؤون السياسة عن خطره في الحرب، وكان مع ذلك مشعوراً بالعلم والأدب، مشجعاً لأربابهما، حاثاً على تعلمهما. وليس أدل على تربيته في العلم والأدب، وحبرته بشؤون السياسة، وبصره بتصرف الأيام، من عهده الذي كتبه الى ابنه عبد الله. ولسنا نرى ما تقدم به اليك هذا العهد، حيراً من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له، واحتفائه به، واستنساخه، ثم إرساله الى عماله في الولايات. قال ابن طيفور: لما عهد طاهر بن الحسين الى عبد الله ابنه هذا العهد، تارعه الناس، وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به، وقرئ عليه وقال: ما بقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعيه وحفط البيعه وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدم فيه، وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال في نواحي الأعمال.

وكانت كتابة هذا العهد من طاهر لابنه عبد الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ومحاربة نصر بن شبيب لما رآه فيه من حرم وفطية وكفاية وحسن بلاء. وكان عهد أبيه اليه قابولاً يطبقه على نفسه أحرم تطبيق، وكان لا يؤرد شيئاً في شأن من شؤونه أو يصدره إلا على منبهه وفي حدود إرشاداته.

ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره، وقد أشتناه في باب المنشور من الكتاب الثالث في المجلد الثالث مراجعته .

٣ - ثورة نصر بن شيث

أما نصر بن شيث ، الذي وحّه عد الله س طاهر لمحارسته بعد أن وجّه إليه أبوه ، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة ، وكثرت الأراجيف ، ونشط أعداء المأمون خاصة والعباسيين عامة لقاء المأمون في مرو بعيدا عن عاصمة الملك وحاضرة الخلافة . وكان من الممكن أن يكون مصير ثورة نصر مصير غيرها من الثورات ، التي نيمدت بسرعة ، لولا أن طاهرا لم يحد في محارسته . وقد ذكر أنه قال للحس س سهل حينما ندبه للمحروح الى محاربة نصر س شيث : حاربْتُ حليفة ، وسُقت الخلافة الى حليفة ، وأؤمر بمثل هذا ! وإما كان يسعى أن توحه لهذا قائدا من قوادى ! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرا فر كالمهزم أمام نصر بعد معارك حامية بين جديهما ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقى في يده من البلاد أن يعبر نصر عليها .

ويظهر أن ما يقوله بعض المؤرخين من أن فتور طاهرا في محاربة نصر س شيث ، يرجع الى الصدمة التي صدمه بها آل سهل . حين حرموه من ثمار فتوحه في العراق ، له حظ كبير من الحق ، فاسا لا تسبيح عجز طاهرا عن مهادنة نصر ، واحصاءه ، مع ما هو معروف عنه من الدهاء ، والبصر بالحرب ، وحسن بعثته للجيوش ، ووضع أدق الخطط لمجاراتها ، ومع أن وراء الدولة ثمّده بما يحتاج اليه من حديد وسلاح وهال .

ومهما يكن من شئ ، فقد كثف أنصار نصر وعظم خطره ، حتى ذهب اليه نفر من شيعة الطالبين فقالوا له : قد ورت بجى العباس وقتلت رحالهم ، فلو باعت حليمه لكان ذلك أقوى لأمرك ! فقال : من أى الناس ؟ فقالوا : تباع لبعض آل على بن أبى طالب ،

فقال : أبايَ بعض أولاد السُّوداوات فيقول إنه حلقني ورزقني ! قالوا : فتابع لبعض
 بجى أميه ، قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم ، والمُذِير لا يُقِيل أبداً ، ولو سلم على رجل
 مدر لأعدائى إداره ، وإمّا هواى فى سى العباس ، وإمّا حاربهم محاماة عن العرب ،
 لأنهم يقدّمون عليهم العجم . فأقل قوله هذا طويلاً ، فهو يُمِيط لما اللثام عن حقائق يحب
 أن نقف عليها .

يروى لنا التاريخ أن عبد الله بن طاهر ، الذى نهّد لمحاربة بصرى شَبَثَ كتب
 الى المأمون يعلمه أنه حصّره ، وصيَّق عليه ، وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاد بالأمان
 وطلّته ، فأمره أن يكتب له كتاباً آمناً ، فكتب اليه أماناً بسجته «أما بعد ، فان
 الإعذار بالحق محمّد الله المقرون بها البصر ، والاحجاج بالعدل دعوه الله الموصول بها
 العر . ولا رال المُعِدِر بالحق ، المحمّج بالعدل ، فى استفتاح أبواب البأسد ، واستدعاء
 أسباب التمكس ، حتى يسهح الله وهو حر الفاحس ، وعمّكى وهو حر المتكس .
 ولست بعدو أن تكون فيما لمحت به ، أحد ثلاثة : طالب دين ، أو مليمس دسا ،
 أو مهوّرًا بطلب العلّنه طاماً ، فان كسب للدين نسعى بما نصعب فأوضح ذلك لأمر المؤمنين
 يعنّم قولّه إن كان حقاً ، فاعمرى ما همته الكبرى ولا عايته القصوى إلا الميل مع الحق
 حيث مال ، والروال مع العدل حيث زال . وإن كنتَ للدنيا تقصد ، فأعلم أُمير المؤمنين
 عايك فيها . والأمر الذى تستحقها به ، فان استحقها وأمكنه ذلك فعله بك ، فلعمرى
 ما ليسحير مع خلق ما تستحقه وإن عظم . وإن كنتَ متهوراً فسيكفى الله أمير المؤمنين
 مؤنك . وبعجل ذلك كما عجل كفايته مؤن قويم سلكوا مثل طريقك ، كانوا أقوى يداً ،
 وأكثف حمداً ، وأكبر حمداً وعدداً وبصراً منك ، فيما أصابهم اليه من مصارع الحاسرين ،
 وأنزل هم من حوائج الطامس . وأمر المؤمنين يحمّ كتابه شهاده أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له . وأن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وصمانه لك فى دينه وذمته
 الصفيح عن سوائف حرائك ، ومقدّمات حرائك ، وإنزالك ما يستأهل من مبارل العز
 والرفعه ، إن أنتَ وراجعت إن شاء الله ، والسلام .

وقد ذهب عبد الله بن طاهر الى وجهه في محاربة نصر، ولث في ما هديه، حتى اضطره الى التسليم نحو خمس سنين، وفي أثناء هذه المدة سعى المأمون الى إخماد الثورة من طريق الصلح، فكتب جعفر بن محمد العامري، ليؤدى رسالةً منه الى نصر، يطلب منه فيها ترك الحرب والخروج الى السلم.

وقد كاد يتم الصلح بين الفريقين، ونُحس الدماء، ويذهب عن الناس في تلك الواحي ما أصابهم من فرج وهلع، لولا خبر واثقه في رأس نصر قائلها أخرى، فيما يقول الرواه، في رأس المأمون، حالنا دون هذه الغاية الساميه: ذلك أن نصرًا قيل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطأ بساطه. فلما بلغ المأمون هذا الشرط قال: لا أحبيه والله الى هذا أبداً ولو أضيفت الى بيع ميصي حتى يطأ بساطي! ثم كتب اليه المأمون بعد ذلك كتاباً هذه سخته:

أما بعد، فانك يا نصر بن شيبث قد عرفت الطاعة وعزها ورد طلبها وطيب مرعبها، وما في خلافها من الدم والخسار. وان طالبت مدة الله بك، فإنه إنما يُملي لمن يلمس مظاهره المحه عليه، لتقع عبره ناهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إداركك وبصيرك، إنما رجوت أن يكون لي أكتب به اليك موقعٌ منك، فان الصدق صادق والباطل باطل، وإنما القول بجمارحه وأهله الدس يُعنون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أشع لك في مالِك وديك وبهيسك، ولا أحرص على استنقاذك والانتبش لك، من خطائك مني، فأى أول أو آخر أو سطره أو أمره إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، أحد أمواله، وتوتى دونه ما وآلاه الله، وزيد أن نيبَ أما أو مطمنا أو وادعا أو ساكنا أو هادئا، فوعالم السر والجهر، ان لم تكن للطاعة مراحعا، وبها حاجعا، لتستوِلن وحم العاقبه، ثم لا تُدأّن بك قبل كل عمل، فإن قروا الشيطان ادا لم تقطع،

(١) الخبرات، الكه.

(٢) استنقاذك من الهلكة.

كانت في الأرض فتنة ومسادا كبيرا، ولأطاعت بمن معي من أنصار الدولة كواهل رِجَاع
أصحائك، ومن تأثت اليك من أداني السلدان وأقاصيها، وطغامها وأوئاشها، ومن^(٢)
انصوى إلى حورتك من حُرَابِ الناس، ومن أعطه بلده ونفثه عشيره لسوء موضعه^(٣)
فيهم، وقد أقذرت من أندر، والسلام.

ثم أحد عبد الله يَحْدَى في محاربه وحصره حتى صبق عليه، واصطره إلى طلب
الأمان. وقد احتفى سمر. وهو داهب إلى بغداد حاصبا للخليفة، احتفاء عظيما، بيد أن
حماة من كانوا نائمين على المأمون، لم يرهم أن ينهى الخلاف بينه وبين نائرقوى، فأرادوا
أن يكتدروا صفاء السرور فدرؤوا مؤامره. وهي أن يقطعوا حسر الروار، عند اقتراب
بصر بموكبه الحافل، فقص عايهم، ولأمر ما كان المأمون، على عبر عادته، قاسيا في عقابهم.
فقد جاء رعيهم اس عائشه، فيما قال الرواد، وهو من سى العاص، ووضع على باب داره،
في أشعة الشمس المحرقة ثلاثة أيام، ثم أمر بصر به بالسياط ثم أمر بصر بعقه مع كثير
من كانوا معه.

يقول لأمر ما كان المأمون قاسيا في عقابهم. لأن الرجل الذي يصل به عفو وحاميه
إلى أن يعفو عن إبراهيم بن المهدي والفضل بن الربيع وغيرهما، من أصحاب الكبائر ومن
كادوا له حما. وسعوا في صياح ملكه، وأستلاب عرشه، لا بد أن يكون الدافع له إلى
التسوية في عقاب هؤلاء الأشخاص حاحه في نفسه غميب عليا. ونحن نعرف بأن المصادر
التي بين أيدينا لم تفسر لما نصبرنا معها، السر في هذا الأشتطاط وهذه المبالغة في العقوبة
من المأمون الوديع الحليم.

على أن هذه الحادثة نحتاج إلى تحقيق دقيق ولم تتح لنا المصادر الحاصرة القيامَ سَعَرَفِ
وحه الحق فيها. ولا يستبعد البته أن يكون المأمون منها برأ. وليت أعضاء المجمع العلمي
العربي وغيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يسون بتحخيص مثل هذه البقط المهمة
في تاريخ أزهي عصورنا الإسلامية.

(١) أي احتظرتك وانصم اليك. (٢) الطغام. (٣) جمع حارب وهو اللص.
وحقه الأصمى بشارق الابل.

٤ -- الزط

أما الرُطّ، فهم المعروفون بالثَّورَة^١، وقد قال ابن خلدون عنهم . إنهم قوم من أحلاط الناس علوا على طريق البصرة، وعانوا فيها، وأفسدوا البلاد .

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء العموم في سلك أصحاب الثورات ، أو الخارجين على الخليفة، لِحِلْهِ دِيبِهِ ، أو مذهب سياسي، وانما هم طائفة من هود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي، قد وُحِدُوا به حين اضطراب الأمن في أطراف الدولة، وضعف سلطان الحكومه، وانصراف القائمين بتدبير الشؤون العامة ، الى أمر القنص القائمة بين الأميين والمأمون، التي انتهزها الزط وأمثال الرط فرصه للسلب والنهب والعيث في الأرض فسادا، فتجمعوا واسولوا على طريق البصرة ، فهم يُقْرِصَانِ البحر وقطاع الطرق أشبه مهمم بالناثرين وأصحاب المبادئ^٢ .

ويظهر أنهم ، كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الحصري لك ، كانوا اذا أخرجهم الحد، هزقوا في تلك العيالي ، فاسا يرى المأمون يكلف غير مره أكثر من قائد أمر القنصاء عليهم، ثم نراهم لا يزالون يعيشون في الأرض فسادا، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم ، الذي كلف أحد قواده : تُخَيِّفَ مَنْ عَنَسَهُ الْقَنَصَاءُ عَلَيْهِمْ ، فاهتم تخيف محرمهم ، وصبق عليهم طريق البر والبحر ، وحصرهم من كل وجه ، ثم حاربهم وأسر مهمم نحو خمسمائة رجل ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة ، وقطع رؤوس الأسرى وبعث بالرؤوس جميعا الى المعتصم ، وجدّ في حربهم حتى اضطروهم الى التسليم ، فاذا عُدَّتْهُمْ سبعة وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأه وصبي، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل ، ثم حملهم في السفن

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب العار : « إن الوردية من القائل الأسبوية كالفاحار الذين سميهم الصحر والتاتار أو التتر ، وهم يعرفون بالشلحت في الهند وألمانيا ، وفي بلاد الانكليز اسمهم حسون ، ويسمى الترك باسم (قبط) ويرفق منهم يسمى سحابة وهم سكان تراقيا ، وفي مصر يسمون تارة عمرا وتارة حلا » .

الى بغداد، ثمزوا على المعصم بأواقهم وهيئتهم الحربية، ثم يُقلوا آخر الأمر الى قرية تسمى عين رربة^(١).

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٤١ هـ في عهد المتوكل أن الروم أعارت على عين رربة هذه، فأحدثت من كان فيها أسيرا من الرط مع لسائهم ودرارهم ودوسهم.

٥ - ثوره مصر

أما مصر، فقد كانت مسرحا للقلقل والفتن، وكان رأس الفتنه وزعيمها عبيد الله بن السريّ بن الحكم الذي عظم خطرته ناشعال عبيد الله بن طاهر بخارطة نصر بن شبت وإحصاءه، ومما زاد في اضطراب الطام في مصر قدوم حجاجه من أفافى الأندلس الى الاسكندريه، يتحدثنا عنهم الطبري بقوله حدثني غير واحد من أهل مصر أن مراكت أقفلت من بحر الروم، من قبل الأندلس، فيها جماعة كبره، أيام شعل الناس قتلهم نهته الجحروى واس السريّ، حتى أرسلوا مراكبهم بالاسكندريه، ورأسهم يومئذ بدعى أناحفص، فلم يرالوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر.

ويحدثنا عن العبة التي كانت مصر بقوله - قال لى يونس بن عبد الأعلى: قدم علينا من قبل المشروق فنى حدثت - يعنى عبد الله بن طاهر - والدنيا عندما مفتونة، قد علب على كل ناحيه من بلادنا عالت، والناس منهم في لاء، فأصلح الدنيا، وأمس البرى، وأحاف السقيم، واستوثقت له الرعية بالطاعة.

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر في مصر، فان التاريخ يحدثنا أنه لما انتهى أمر نصر بن شبت، كما قدما، كتب المأمون الى عبد الله يأمره بالتوجه الى مصر لإنقاذ ما فيها من فتنه، فذهب اليها، وحادث الثائرين القتال، حتى اضطرتهم جميعا الى طلب الأمان، فأحاهم اليه.

(١) صطلها باقوت منج الراى وسكود الراء وباء موحدة وألف مقصورة وقال إنها بلد الثغر من بواحي

المصيصة ساها الرشيد سنة ١٨٠ هـ وبذ اليها بدنة من أهل حراسان وعيرهم وأقلتهم لماها.

وأما الأندلسيون الذين حصرهم جماعة كبيرة منهم إلى الإسكندرية ، فقد طلبوا الأمان ، على أن يرتحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم ، فرحلوا إلى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها .

وأما ما كان من ابن السري ، فإنه طلب الأمان إلى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف ، وانهزامة شرهزيمة .

ولما أجدت الفتنة في مصر ، وبلغ المأمون الخبر ، كتب إلى عبد الله بهتة ، وحمل في أسفل كتابه أبياتا من الشعر ، إن ثبت صدورهما من المأمون حقا ، ولم يكن من وضع القصاص والرواة ، فإنها تعتبر آية في كرم أخلاق المأمون . وقد ذكرناها في علاقه المأمون مع عماله .

وقد كتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون بهتة بهذا الفوز كابا بليغ اللفظ ، رشح الأسلوب ، هذه نسخته . بلعي ، أعر الله الأمير ، ما فتح الله عليك ، ونروح ابن السري إليك . فالحمد لله الباصير لديه ، المعر لدوله حليفته على عاده ، المذل لمن عده وعن حقه ، وزع عن طاعته ، وسأل الله أن يطاهر له النعم ، ويفتح له بلدان الشرك ، والحمد لله على ما وليك مد طعنت لوحبك . إنا ومن قبلنا نتذكر سيرتك في حرك وسلمك ، وكثير التعجب لما وقفت له من الشدة واللبان في مواضعهما ، ولا تعلم سائس حديد ورعيه عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عن أسفه وأصغعه عموك ، ولقلنا رأسا أن شرف لم يبق بيده . نكلا على ما قدمت له أنوته ، ومن أوتي حظا وكفاة وسلطانا وولاية ، لم يجحد إلى ما عفا له حتى يحل بمساماه ما أمامه ، ثم لا يعلم سائسا استحق التمجح لحسن السيرة ، وكف معز الأتباع استحقاقك ، وما سحير أحد من قبلنا أن يقدم عليك أحدا هوى عند الحاقه والبارلة المفضله . قلنك ممة الله ومريده . ويسوعك

(١) عدد من الشيء . مال عنه وعدل .

(٢) آسفه : أعصه .

الله هذه النعمة التي حوّاها لك ، بالمحافظة على ما به تمت لك ، من النسيك بحبل إمامك ، ومولاك ومولى جميع المسلمين ، وملاك وإماما العيش ببقائه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندما وعد من قِلْمًا مكرّمًا مقدّمًا مَعْظًا ، وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلالة وبحالة ، فأصبحوا رَحُوك لأفئدتهم ويُدُّوك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرحو أن يوفقك الله لحماة ، كما وفق لك صُنعَه وتوفيقه ، فقد أحسنت حوار النعمة ، فلم تُطغيك ولم تردّد إلا بدلائل وبواصعا ، فالحمد لله على ما أملك وأملك وأودع فيك ، والسلام .

وقد خرج المأمون الى مصر في ١٦ المحجة سنة ٢١٦ هجرية ، أثر شخصوه الى دمشق لره الثانيه . وكان حروحه الى مصر ، بما يقول الرواة ، لإخماد ما قام فيها من فتنة واضطرابات ، وذلك أن أهالي الوجه البحري خرجوا ومعهم أقباط السلاط على عيسى بن منصور عامل مصر ، لسوء سيرته فيهم ، ولقّح صبيعه معهم .

ويحدثنا التاريخ أن عيسى هذا قد بدّل ما في مقدوره لإخماد الفتنة والقضاء على الثورة . فلم يحالعه الطمر ، وأحره الثوار أقبح مُحَرِّج من البلاد . فقدم القائد التركي المعروف بالأفسين وعمل على قمع الفتنة وإخماد الثورة ، وقتل مقلّة دريعة من الأهلين ، فسكت الفتنة الى حين .

ثم عادت الفتنة ثانية واندلع لهيبها ، واستدعت خطورتها قدوم المأمون الى مصر ، لحاء إليها ، ونظري شكاه الأهلين . وعمل على إصابتهم ، وتخطيط على عيسى بن منصور ، وتَسب إليه وإلى سبأ أعماله كلّ ما حدث في طول البلاد وعرضها من فتن وثورات .

ويظهر أن الثورة المصرية لم تُتخذ تماما ، وأنها بطلت من المأمون ، الى حاس ما أظهره من رعية في إحقاق الحق وإجراء العدل ، شيئا من الحزم واستعمال القوة ، بجاذ النافرين القتال ، حتى أذعوا أحيرا : ويقول المؤرخون : إنه امت في مصر أربعين يوما أو يزيد ، إذ قدمها في الخامس من محرم سنة ٢١٧ هـ وبقي بها الى الثامن عشر من صفر .

ويظهر أنه قصى هذه المدة، الى جانب اشتغاله بجرب أهلها، بالنقل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل (سجّار وحلوان وعبرهما) .

ومن أعماله في مصر تعمير ميماس النيل، وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تجاه السطاط . وعاد المأمون أحرا الى دمشق بعد أن شهد المصريين وحرّبهم وعدم احتمالهم طمّ الحكام والولاة .

٦ - مالك الحزمي

يحمرا المؤزحون أن مالك الحزمي، قد ظهر من كوره في شمال بلاد فارس تُسمى «الد» ، وقد كان خروجه للدعوة الى مذهبه الإباحي سنة ٢٠١ هـ ، وكان المأمون لا يزال في «مرو» قل أن ينتقل الى عاصمه ملكه بغداد . وقد امتدت فتنة مالك عنيقة، طوال عهد المأمون، وصدرًا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي، في كتاب الانساب^(١) الحزمي: هذه النسبة الى طائفة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدييه، قوم يديسون بما يريدون وشتهون ، وإما لقوا بذلك لباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات وبكاح دوات المحارم وفعل ما يتلذدون به، فلما شابهوا في هذه الاباحة المزدكية من الخمر، الذين خرجوا في أيام قباد وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات ، الى أن قتلهم أنو شروان س قباد، قيل لهم بهذه المشابهة خرمدييه كما قيل لازدكية .

وقيل أن نحوص في تفصيل حوادث هذا الرجل ، وما بدله المأمون ، ثم المعتصم في قتاله ، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأفشين فائد المعتصم التركي سنة ٢٢١ هـ — قل كل هذا، محب أن يورد لك ما ذكره ابن الزديم في فهرسته عن مذهب الخرميه الباطنية وما يتعلق به، لتكون على بصيرة من مذهب الرجل . وما كان يدعو اليه من تحلة وبذعة .

(١) حاد في القاموس وشرحه « حمة » كسكرة قرية هارس بها مالك الحزمي الطاعة الذي كاد أن يستولى على المسالك من المعتصم . ثم قال . وتحزم الرجل دان بدين الحزمية أصحاب التامع والحلول والاباحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخزمية صفهان . الخزمية الأولون ، وبُسمون المَحْمَرَّة ، وهم منتشرون ببواحي الحسالم فيما بين أذربيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وحمّدان ، وديسور ، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس في الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقطة ، وصاحبهم مردك القدم ، أمرهم بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواساة والاحلاط ، وترك الاستعداد بمعصم على نص ، ولهم مشاركة في الحريم والأهل لا يتمتع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا معه . ومع هذه الحال وروى أفعال الخير وترك القسل وإدخال الآلام على النفوس . ولهم مذهب في الصّياغات ليس هو لأحد من الأمم . إذا أصابوا الإنسان لم يمعوه من شيء لتتمسه كائنا ما كان . وعلى هذا المذهب مردك الأحمر الذي طهر في أيام قاذس من مرور وقتله أبو شروان وقتل أصحابه . وحرره مشهور معروف . وقد استقصى الملخي أخبار الخزمية ، ومذاهبهم ، وأفعالهم ، في شهرهم ولذاتهم وعاداتهم ، في كتاب "عيون المسائل والحوانات" ولا حاجة سا إلى ذكر ما قد سبقنا إليه عرنا . »

« فأما الخزمية الباكية ، فإن صاحبهم بانك الخزمي . وكان يقول لمن استغفوا : إنه إله . وأحدث في مذاهب الخزمية القتل والعصب والحروب والمثلة ، ولم يكن الخزمية يعرفون ذلك . »

ثم ذكر صاحب الفهرست بعد ذلك نشأته وما وقع له في بدء أمره حتى صار إمام هذه الحلة التي تنسب إليه بقلاص واقدس عمرو التميمي الذي عمل أحبار بانك ، فقال . وكان أبوه رجلا من أهل المدائن دهانا ، نزع إلى نمر أدر بيجان ، فسكن قرية ندعى « بلال آباد » من رُستاق (ميميد) ، وكان يحمل دهبه في وعاء على ظهره ويطوف في قرى الرستاق ، بهوي أمرأه عوراء ، وهي أم بانك ، وكان يفجر بها برهة من دهره ، فينهاي وهو مُتدنان عن القرية ، متوحّداً في عَيْضَةٍ ، ومعهم شراب يعتكفان عليه ، إذ خرج من القرية نسوة يستقين الماء من عين في الفيضة ، فسمعن صوتاً يتطيا يُترنم به فقصدن إليه ، فهجم عليهما ، فهرب

عبد الله وأحمد شعراً أم ناك ، وحش بها الى القرية ووصفها فيها . قال واقد ثم إن ذلك الدهان رعب الى أيها ، فزوجه منها فأولدها "بابكا" . ثم خرج في بعض سفراته الى جبل سيلان واعتصره من استغفاه وجرحه فقتله ، مات بعد مُدَّة . وأقبلت أم ناك تُرْصِع للناس أحده ، الى أن صار لملك عشر سنين ، فيقال . أنها خرجت في يوم من الأيام تلتبس ناك ، وكان يرعى مراً لقوم ، فوجدته تحت شجرة قانلاً وهو عُريان ، وإياها رأت تحت كل شجرة من صدره ورأسه دماً ، فانتبه من نومه . فاستوى قائماً وحال مارأت من الدم فلم تحده قال : فعلم أنه سيكون لاجي نأ حليل .

«قال واقد وكانت أيضا ناك مع الشبل من الملق الأردى رستاق سراه ، يعمل في سياسة دوابه ، وتعلم صرب الطُّشور من علمانه ، ثم صار الى تبريز من عمل أذربيجان ، فاشتعل مع محمد بن الرقاد الأردى نحو ستين ، ثم رجع الى أمه ، وله ثمان عشرة سنة ، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو . وكان يحمل البد وما يليه من حاله رجال من العلوج ، متحزمين ولها حدة وثروة ، وكان متشاجرين في التملك على من يحال السد من الحرمية ليتوحد أحدهما بالرياسة ، يقال لأحدهما « حاويدان بن سهرك » ، والآخر علت عليه الكيه يعرف « نأى عمران » وكانت تقوم بينهما الحرب في الصيف ، وتحول بينهما الثلوج في الشتاء لانسداد العقاب . فإن حاويدان ، وهو أستاذ ناك ، خرج من مدينته بألف شاه ، يريد بها مديه ربحان من مدائن ثعور قرويس ، فدخلها وابع عمه وانصرف الى جبل البد ، فأدركه الثلج والليل رستاق ممد ، فعاح الى قرية "للال أباد" ، فسأل جررها إنزاله . فعصى به ، فاستحلف منه بحاويدان ، فأزله على أم ناك وما تستيت من صنك وعُدم ، فقامت الى دار فأجبتها ، ولم تقدر على غيرها ، وقام ناك الى علمانه ودوائه فخدمهم وأسقى لهم الماء ، وبعث به حاويدان . فابتاع له طعاما وشرابا وعلفاً وأناه به . وحاطبه وناطقه ، فوجده ، على رداءه حاله وتفقّد لسانه بالانخميه ، فهما ، وراه حينئذ شهما ، فقال لأمه : أيتها المرأة ! أنا رحل من جبل البد ، ولى به حالٌ ويسار . وأنا محتاج

الى أبسك هدا ، فادفعه الى لأمصى به معى ، فأوكله بصياعى وأمواى ، وأبعث بأجرته اليك فى كل شهر خمسين درهما ، فقالت له : انك لشبيه بالخير ، وان آثار السعة عليك ظاهرة ، وقد سكن قلبى اليك ، فأنهضه معك اذا نهضت . ثم إن أنا عمران نهض من جبله الى حاويدان فخاره وهُزِمَ ، فقتل حاويدان أنا عمران ، ورحع الى حبله وبه طعنةٌ أحافسه ، فأقام فى مرله ثلاثة أيام ثم ماب . وكاتب امرأه حاويدان لتعشق مانكا ، وكان يصعُجُ بها ، فلما مات حاويدان ، قالت له : لىك حَلْدٌ شهيم ! وقد ماب ! ولم أرفع بذلك صوتى الى أحد من أصحابه . فتبياً لعد ، فانى حاميتهم اليك ، ومُعَلِّمتهم أن حاويدان قال . انى أريد أن أموت فى هذه الليلة ، وإن روى تخرج من بدى وتدخل فى بدن بابك وتشتري مع روجه ، وانه سيميل بنفسه ونكم أصرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد ، وانه يملك الأرض ، ويقتل الحسرة ، ويرد المردكية ، ويعز به دليلكم ، ويرتفع به وصيعةكم ؛ فطعم ناك فيما قالت له ، واستبشر به وتبها له . فلما أصسحت ، تجع اليها حيش حاويدان ، فقالوا كيف لم يدعُ سا ويؤص السا ! قالت : مامعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرقين فى منارلكم من الصرى ، وانه إن بعث وجمعكم انشحره ، فلم يأمس عليكم سيرة العرب ، فعهد الى بما أنا أوذيه اليكم ان قيتموه وعلمتم به ؛ فقالوا لها : قولى ما عهد اليك ، فانه لم تكن ما مخالفة لأمره أيام حياته ، وليس ما مخالفة له بعد موته ، قالت : قال لى : انى أموت فى ايلقى هذه ، وان روى تخرج من حسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى ، وقد رأيت أن أملكه على أصحابى ، فادامت فاعلمهم ذلك ، وانه لا دى لى خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى ، قالوا : قد قبلنا عهدك اليك فى هذا العلام ! فدعت ببقرة فأمرت بقتلها وسنحها وتسط جلدها ، وصيرت على الجلد طستاً مملوءاً نخرا وكسرت فيه حبزاً ، فصبرته حوالى الطست ، ثم دعت رجل رجل فقال : طما الجلد برحلك ، وحذ كسرة واعمسها فى الحر وكفلها ، وقل : آمنت بك يا روح بابك كما آمنتُ بروح جاويدان ، ثم خد بيد بابك فكفر عليها وقفلها ، ففعلوا ذلك الى وقت ما نيا لها فيه طعام ، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأقعدته على فراشها وقعدت معه ظاهرة لهم ، فلما شربوا ثلاثاً ثلاثاً ، أخذت طاقةً ريحان ، فدفعها الى ناك ، فتناولها من يدها ، وذلك تزويجهم ، فنهضوا وكفروا لها رصاً بالترويح ، والمسلمون عريهم ومواليهم .



وبعد ، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن الديق وعيره ، عن نشأة بانك ومدهه وتعاليمه : إن الباعث الذى دفعه الى الخروج ، غير البواعث التى دفعت نصر ابن شَبث فى الشام ، وبرايم بن المهدي فى بغداد ، ومحمد بن ابرايم المعروف بابن طباطبا فى الكوفة ، وعيرهم . ممن كانوا مقادين بفكره سياسية أو عامل حسنى ، واما كان خارجا على النظم السياسيه والاجتماعيه والاقتصاديه فى ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهه نظر بغداد فى قتاله ومطاردته .

أحل ! لم تكن العاية فى نظر بغداد من قتاله ، إحصاءه لسلطان الخلافة ، حتى اذا أُتيح لها إحصاءه رصيت عه وكفت القتال دونه ، واما كانت العاية التى ترمى إليها القضاء على مدهه وتعاليمه الصارِه بنظم الحياة والاحتناع .

وربما حازلنا أن نقول . إن موقفه من الخلافة الاسلاميه فى ذلك العصر أشبه شئ بموقف البلاشفة من الأمم المتحصرة فى عصرنا الحاضر .

وهاك ما فعله الخليفه المأمون مع بانك والبابكيين ، بعد ما عاثوا فى الأرض فسادا وأحافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمون لمحاربتهم ، بعد أن انتقل الى بغداد ، يحيى بن معاد ، فكانت بينهما وقعه ، لم يُتَجِ الفوزُ فيها لأحدهما على الآخر . ثم اختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد ، فولاه أرميه وأذر بيجان ومخارنَه ناك ، فَنُكِبَ وفُشل . ثم وجهَ اليه صَدَقَه بن على المعروف بزريقى ، ونَدَبَ للقيام بأمره أحمد بن الجعيد الاسكافى ، فأمره ناك . ثم بعث اليه محمد بن حميد الطوسى ، فقتله ناك سنة ٢١٤ هـ بهشتادسر ووص عسكره ، وقتل جمعا كثيرا من كان معه .

وهكذا كان أمر بابك . كلما وُجِّهت إليه حملة هزَّما^١ لمكانه الحصين ، وقوته الكبيرة ، وشدته تأثيره في قلوب أتباعه وأبصاره . وأخيرا انصرف عنه المأمون لانشغاله بماواة الروم ، حتى اذا شعر بدق ميته كتب في وصيته الى المعتصم بشأن بابك يقول : « والخزمية فأعزهم دأ حرامه وصرامه وجَلَدِه ، واكفَّه الأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرحالة ، فان طالت ممتتهم ، فتحزذ لهم بمن معك من أنصارك وأولائك ، واعمل في ذلك مقدّم الية فيه ، راحيا ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك ، وكثر الداحلون في مدهه ، في أوّل عهد المعتصم (سنة ٢١٨هـ) . وما زال به المعتصم يحزذ اليه الحملات تلو الحملات ، حتى انتهى أمره في سنة ٢٢١هـ بأسره وقتله « نسروا رأى » ، هو ورهطا من أتباعه ، على يد قائد المعتصم الركني العظيم حيدر بن كاوس الأشروستي المعروف بالأفشين .



٧ - مدهاب ونحل

ويحسب سا أن نشرها الى أن هذا العصر من العصور الاسلاميه ، قد كثرت فيه الاختلاط بين أُمم الشرق والغرب ، فظهرت في العالم الاسلامي مقالات دينيه وفلسفيه كثيره عربيه ، أشار اليها مؤرّحو الآراء والمدهاب ، نحد طرفا منها في فهرست آيب الديلم ، وطرفا في كتب « الملل والنحل » ، وطرفا في كتاب الأستاذ « روى » الذي وضعه عن « تاريخ الفرس الأدنى » فقيه شئ عن المسألة^(١) وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعزى عند هذه الآراء والمدهاب في « رسالة الغفران » وقته ممتعة .

(١) المسألة واتاعها يقال لهم المساوية هي المسألة التي في ما من وجود يهين إله الخير وإله الشر ، وكان وجوده قبل الاسلام عمدة طويلة ، وقد اء رديقا وول سلاح وحشى حله وعلق على أحد أبواب بيساور ويعرف باب ماى ، ولكن عنه م تكن تعدم أنصارا بعد موته ، فكانت تظهر ويقعها أناس في قرات مختلفة :

ولم تلام الليل سلك من يد * تحقق أنّ المساوية بـكـد

وقاك ردى الأعداء تسرى إليهم * وراك فيه در الدلال المحب

على أن لا يحب أن تعرض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل، لأنها تحس إحساساً صادقاً، وربما تكافيه على حق، أب الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال عامصاً، لقلة المصوص وعدم عماء المصادر وكلماتها. ونظراً أن الاحتياط في مثل هذا الموقف أسلم وأبقى. وكل ما نأمله هنا ونرجوه حقاً، أن يتجوز لمثل هذا البحث المنع النافع، بعض الدين يُعَوّن بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية في الإسلام.



٨ - افتراضات

أما وقد انتهينا من كلتنا الموجهة عن السياسة الداخلية في عصر المأمون، فقد حق علينا أن نسأل: لماذا مكث المأمون شطراً طويلاً من سبي حكمه في حراسان دون بغداد عاصمه الخلافة الإسلامية؟

أما أن نزم لك أنا سحبيك إجابة ديمية مصعة، فهذا ما لا نقبله لك ولولا لأنفسنا. لأن المصادر التي بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب في ذلك.

إذن فسندم لك آراءً لنا في هذا الصدد، بحذر بما أن اعتبارها بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل.

نفرض أن الفصل بن سهل وجماعه الفصل بن سهل، وخوفهم خوفهم وسلطانهم سلطانهم، آثروا لقاء المأمون في "مرو" عاصمة حراسان حيث بقي أموال الدولة إليه، ليكون نصيب القناع الفارسية والشيعة الفارسية من هذه الأموال أوور.

وبفرض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساساً، ربما كان صادقاً، أن كبار رحالات الدولة من العرب القاطنين ببغداد، لم يكن هواهم مع دولته الفارسية الطابع والميول، وأهم كانوا لذلك يحشون الروح إلى بغداد قبل أن تشعهم وتقوية سلطانهم.

وبفرض أنهم آثروا القرب من الولايات التي تمتد بهم نحوها ورحلتها، كما آثروا أن يكونوا في أوساطهم الفارسية التي من مصلحة نصره المأمون وبوطيد دعائم ملكه، والعمل على خذلان معاوئيه.

هذه افتراضات رأينا أن قيدها لك لتأمل فيها . وربما كان بعضها سائفا معقولا؛ على أن تكون حذرا كل الحذر ، فلا نتورط في اعتبار كل فرض سائع معقول . لازم الوقوع في التاريخ . فكثيرا ما يقع في التاريخ غير المعقول من الحوادث !



(ج) السياسة الخارجية :

نعتقد أن الوقت لم يَأْنِ بعدُ ، لدرس السياسة الخارجية في أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين ، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هو الروايات العربية التي تناقلها المؤرخون ، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأجنبية التي كانت العلاقات متصلة بينها وبين المسلمين ، كما كانوا متأثرين بالحرص على رفع شأن الدولة الإسلامية ، والتبويه عهدها وسلطانها ، فاصطنعوا هذا كله إلى الغلو حيا ، وإلى التقصير حيا آخر .

ولم يطرأ البحث بعدُ صبوص تاريخيه واضحيه معاصره ، كتبت في غير اللغة العربية . ومع أن الباحثين في تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الروم) حاذون في التدقيق على النصوص والآثار التي تحمل تاريخ هذه الدولة في القرون الوسطى فهم لم يصلوا بعدُ ، إلى شيء ذي غناء فيما يمسّ علاقتها بالدول الإسلامية . فأما الأمم الشرقية الأخر التي كانت على اتصال بالمسلمين ، فلم تترك لنا شيئا ، أو لم نطفر من آثارها التاريخية شيء ذي قيمة . وإذا نحن مضطرون إلى أن نعتد اعتمادا مؤقتا ، ملؤه الاحتياط والتحفظ ، على ما كتبه العرب .

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية في عصر المأمون كانت تنقسم إلى قسمين متميزين : الأول سياسته مع دول إسلامية مستقلة عن الخلافة . والثاني سياسته مع دول أجنبية غير إسلامية .

وليس هناك شك في أن سياسة المأمون، مع الدول الإسلامية المستقلة، كانت واضحةً بنية الأسلوب ؛ فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائماً أن المسلمين جميعاً يجب أن يُذعنوا لسلطانها ، وإذاً فلم تعترف، في وقتٍ من الأوقات ، استقلال الأمويين في الأندلس ، ولا الأدارسة في المغرب الأقصى ، وأما اعتبرتهم مُغاةً، وعجزت مع ذلك عن إخصاعهم لسلطانها ، فعلاً أو اسماً . فاصطرت الى أن تنقيهم من ناحية ، وتؤلب عليهم من ناحية أخرى .

على ذلك نستطيع أن نفهم شجيعها دولة بني الأعلب في إفريقية وعطوها عليها ، فقد كانت هذه الدولة تستمتع بسوء من الاستقلال غير قليل ، وتظهر بحماية الخلافة ، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامي الذي يرد عن الخلافة عارات هؤلاء البُغاة ، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

نستطيع أن نفهم هذا ، وأن نفهم أيضاً ما يلزمه لها في الفصل من اتصال علاقات ودية بين بغداد وملوك المرخ الذين كانوا باوئوون جي أميه في الأندلس .

أما القسم الثاني من السياسة الخارجية ، فيقسم أيضاً الى قسمين : أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يحصعوا لسلطان المسلمين ، كالترك والديلم . وهذه السياسة واضحة أيضاً ، على قلة النصوص ، فقد كانت سياسة توسع وسيط للسلطان ، ولعكس في احتياطٍ وتحفظٍ ومصاعه . وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذ ، تسلك في استغلالها وإغاثتها عند الحاجة ، طريقاً كلها حكمة وفطنه . فبينما زارها تهاجم فتفتح وتأسر ، زارها مره أخرى موادعةً محالفة مستخدمة . وهي تستفيد في الحالين . ولكذلك تعلم حق العلم ما أنتجت هذه السياسة ، آخر الأمر ، حين ضعف الخلفاء ، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة ، وعيبتهم بمظلمة الخلافة .

والقسم الثاني هو سياسة الخلافة مع قياصرة « قسطنطينية » . وهذا القسم هو الذي نستطيع أن نقول ، في غير ترددٍ ، أنه احتاج حقاً الى جهود الخلفاء وكفالياتهم . فقد كانت

العلاقة بين «قسطنطينيه» و«دمشق» أيام الأمويين وبنها وبين «بغداد» أيام العباسيين ،
شديدة الاضطراب والتعقد ، لا تكاد تستقر على حال ، وإنما هي حربٌ حياً وسلمٌ حياً آخر .
ومهما نكس من شيء ، فقد كانت القاعده الأساسيه لهذه السياسة ، أن الحرب هي
الحال الطبيعي بين الدولتين ، فأما السلم فحال عارٍ ، ولذلك كانت تسمى دائماً هدبة .
وربما كان من المعقول أن نقول : إن أصحاب «قسطنطينيه» و «بغداد» كانوا يصطرون
إليها اضطراباً .

غزو المأمون للروم

قدّمنا لك في الكلام عن مالك الحزمي أن المأمون أرسل إليه آخر حملة ، بقيادة محمد
ابن حميد الطوسي سنة ٢١٢ هـ ، وأن هذه الحملة ماتت بالهريمه والفشل ، كما ماء غيرها ،
مما سقها من حملات ، وأن المأمون اصرف عن مالك مؤقناً ، لأشغاله بعزو الروم الذين
يعطل بعضهم سبب تحفّز المأمون الى عزوهم ، بعد أن طل السلم المسلح بينه وبينهم زهاء
ست عشرة سنة ، بما تأكده المأمون من مشاعرهم لملك وإمدادهم إياه بالمعونة .

ويقول الأستاذ «ميور» ، في بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة
والروم ، وعدم انتهاز المسلمين فرصه الثوره ، التي شبت في بلاد الروم بين «توماس»
و«ميخائيل» لغزو آسيا الصغرى : "إنه لاشك أن ريث العرب عن اقتحام بلاد الروم ،
في ذلك الوقت ، يرجع الى أن بطريق أنطاكية بسلاسل سوريا ، كان قد توجع توماس
امبراطورا ، ولو نجح في تأميره وسلطانه ، لكنى العرب مؤونة القتال ، ولكان توماس هذا
تأخراً للحليفة المأمون " .

على أن المأمون قد تَخَصَّص سنة ٢١٥ هـ الى بلاد الروم ليغزوها سالكا إليها طريق
الموصل ، ثم منبج ، ثم دابق ، ثم أنطاكية ، ثم المصيصة ، ومنها خرج الى طرسوس ،
وهي الثغر الاسلامي ، ومن طرسوس دخل بلاد الروم ، في منتصف جمادى الأولى
(يوليو سنة ٨٣٠ م) ، ففتح وغنم كثيراً من الحصون ، ثم شخص الى الشام . وورد عليه

في دمشق الخبر أن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة ، فأعاد الكره الى بلاد الروم ، وكان الظفر والتوفيق حليقه في هذه الكزة أيضا .

وفي المدة التي قضاها المأمون في مصر ودمشق ، بدأت المناوشات بين عماله وملك الروم ، ثم اشتدت حتى أصطُرَّ الى أن يشحَصَّ الى بلاد الروم لثمة الثالثه ، وهي المزمه التي تُوِّفِي فيها .

وفيما هو سائر إليها ، معترفا بتحقيق خطئه رسمها لنفسه ، إذ يقول : أُوِّحَه الى العرب ، فأتي بهم من البوادي ، ثم أُنْزِلهم كل مدينة أفتتحتها ، حتى أصرب الى القسطنطينية ، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل اليه كتاب مولاه ، يطلب فيه الصلح والمهادنة . وهذه نسخته ، فيما يقول الرواة العرب : ” أما بعد ، فإن اجتماع المحتلمين على خطئهما ، أولى بهما في الرأي مما عاد بالصرر عليهما . ولست حرياً أن تدع لحط يصل الى غيرك حظاً تحوزه الى نفسك ، وفي علمك كاف عن إحارك . وقد كنت كتبت اليك ، داعياً الى المسالمة ، راجباً في فصيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عما ، ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحرماً ، مع اتصال المراق ، والفسح في المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطرق والبيضة . فان أبيت ، فلا أدب لك في الحر ، ولا أنزف لك في القول ، فإن لخائنك اليك عمارها ، آخذ عليك أسداها ، شأن حيلها ورحالها . وان أفعل فعد أن قدمت المعيرة ، وأقتت بنى وبينك علم المحمة . والسلام “ .

أما رد المأمون عليه فيقول المؤرخون العرب إن نسخته كانت : ” أما بعد ، فعد بلعني كمالك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت اليه من الموائد ، وحطت فيه من اللين والشدة ، مما استعظفت به من شرح المتاجر ، واتصال المراق ، وفك الأسارى ، وروع القتل والقتال . فلو لا ما رجعت اليه من أعمال التؤدة والأحد الحظ في تقليب العكرة ، وآلا أعتقد

الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أُورِى مُعْتَمَته ، بلعلتْ جواب كتابك خيلاً نخل
 رجالاً من أهل اللأس والحدّه والمصيره ، سارعونكم عن نُكلكم ، وبنقزبون الى الله بدمائكم ،
 ويستقلّون فى ذات الله ، اللهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل اللهم من الأمداد ، وأبلغ لهم
 كافياً من العُذّه والعنّاد ، هم أظلمأ الى موارد المايامكم الى السلامه من محوف معتزتهم
 عليكم ، موعدهم إحدى الحُسَيْنين : عاحل علّه ، أو كريمة مُنْقَلَب . عراى رأيب أن أتقدّم
 اليك بالموعظة التى شُيبت الله بها عليك المحمّه من الدءاء لك ولمن معك الى الوجدانية ،
 والشريعه الحقيقية ، فان أريب ، فيصدّه بوحب دقة ، وتثبت بظرده . وان ركب ذلك ،
 هى يقين المعاسة لبعوتها ما يغنى عن الإللاج فى القول والإعراج فى الصعه ، والسلام
 على من اتبع الهدى .



(د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاحلت الملية المأمون ، دون تحقيق خطمه ، بموضع يقال له « السدندون » س
 « لؤلؤة » و « طرسوس » . وكالت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ
 وسه ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون وولّاته ، فيقول اليعقوبى . وكان الغالب عليه فى حلاته
 دو الرياستين ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى خالد ، وأحمد بن
 يوسف . وكان على شُرطته العباس بن المسيّب بن رهير ، ثم عزله وولّى طاهر بن
 الحسين ، ثم عبد الله بن طاهر الذى استخالف اسحاق بن ابراهيم سغداد ، فوجه اسحاق
 أخيه خليفة له على شُرطته . وكان على حرسه شيب بن حميد بن قُطَيبه ، ثم عزله
 وولاه قُومس ، واستعمل مكانه هرثمة بن أعين ، ثم عبد الواحد بن سلامة الطحلاوى ،
 قرابة هرثمة . ثم على بن هشام ، ثم قتله وولّى مُحَيّف بن عَبْسة . وكانت حجابته الى أحمد
 ابن هشام ، وعلى بن صالح صاحب المصلّى . قال : وخلف من الولد الذكور ستة عشر

ذكرنا، وهم محمد، واسماعيل، وعلى، والحسن، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى،
واحمد، والعاس، والفصل، والحسين، ويعقوب، وجعفر، ومحمد الأكبر، وهو ابن
معلقة وتوفى في حياته، ومحمد الأصغر، وعبيد الله، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادى .

أما صاحب « نهاية الأرب » ، فقد ذكر في الجزء العشرين من كتابه : أن حُجَّابه هم
عبد الحميد بن شَبَث ، ثم محمد وعلى اسما صالح مولى المصور ، ثم اسماعيل بن محمد بن
صالح . وذكر أن قصاته هم . محمد بن عمر الواقدي ، ثم محمد بن عبد الرحمن المخرومى ، ثم بشر
ابن الوليد . وكان نقش حاتم ، فما ذكره المسعودى في التبيين والإشراف : « الله معه
عبد الله به يؤمن » .



وقد يكون من المفيد لنا ، من وجهه نظر آثار مخ المصرى ، أن نقف على ولاية مصر
وقصاتها في عهد المأمون ، وذلك يسره لنا كتابان مُتمِّعان وأحياناً في هذا الموضوع ،
وهما كتاب « الحجوم الزاهرة » لابن يعزى بردى الأتاتكى وكتاب « الولاة والقصاه »
الدين ولوا أمر مصر وقصاهها للكندى . ونحن نذكر لك هؤلاء الولاة والقضاة على
وجه الاختصار .

أما الولاة فهم : مالك بن دهم . وحاتم بن هرمته ، وحارس الأشعث ، وعبد بن محمد ،
والمطلب بن عبد الله ، والعاس بن موسى . والسرى بن الحكم ، وسليمان بن غالب ، ومحمد
ابن السرى ، وعبيد الله بن السرى ، وعبد الله بن طاهر ، وعيسى بن زيد ، وعمر بن الوليد ،
وعديويه بن حيلة .

واحد حدثنا المؤرخون في أيامه عما سمى في معمر بالدع المأمونية الأربع : فالبعدة
الأولى منها هي لبس الخضره وتقريب العلوية وإعسادُ بني العاس . والثانية القول بخلق
القرآن . والثالثة ما كتبه المأمون الى نائيه سعداد أن يأخذ الجسد بالتكبير اذا صلوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أتاح المأمون في هذه السنة وهي سنة ٢١٥ هـ «المتعة» فقال الناس : هذه بدعة راعه ، وبعد ولاية اس حله هذا ، ولاية عيسى بن منصور ، ونصر بن عبد الله ، وشهرته كيدر ، والمطفر بن كيدر .

أما قصة مصر في عهده فهم : عبد الرحمن العمري ، وهاشم بن أبي بكر البكري ، وإبراهيم بن السكاء ، وطبيعة بن عيسى الحصري ، والفصل بن عاتم ، وإبراهيم بن اسحاق العاري ، وعطاف بن عزوان ، وحمله عبد الله بن طاهر على المطالم ، وبعثه إلى القضاء من قبله عيسى بن المكدر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أما معاصروه ، فقد كان يعاصره في الأندلس الحكم بن هشام ، ثالث أمراء بني أمية ، ثم ابنه عبد الرحمن . وفي عهدهما سمعا رأى الأندلس ، في القول بحلق القرآن ، فقد قال أبو خلف المعافري :

لَا وَالَّذِي رَقَعَ السَّمَاءَ * لَا عِمَادَ لِلطَّرِ
مَا قَالَ حَلَقُ فِي الْقُرْآنِ * بِحُلُقِهِ لَا كَفَر
لَكِنْ كَلَامٌ مَزَلُّ * مِنْ عَدِ حَلَاقِ النَّشْرِ

وكان يعاصر المأمون في بلاد المغرب الأقصى : إدريس بن إدريس بن عبد الله ، ثم ابنه محمد بن إدريس . ويعاصره في إفريقيا من بني الأغلب عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ، فاتح صقلية . ويعاصره في فرنسا « شارلمان » صديق أبيه ثم « لويز الأول » الملقب بالليل . ويعاصره في القسطنطينية « ليون الأرمني » و « ميخائيل » الملقب بالتمتام ، ثم ابنه « بوفيل » .

أما صفته فهي ، كما ذكرها صاحب « نهاية الأرب » ، « كان المأمون ربة ، أبيض ، طويل اللحية ، رقيقها قد وحطه الشيب . وقيل : كان أسمر ، تعلوه صفرة ، أجنى ، أعين ، صبق الجبهة ، بحمده حال أسود » وكذلك وصفه الطبري وغيره .

ولما حصرتة الواه أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلل بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس لأن الثاني كان متغيبا عنه ساعة وداته .

ولقد أثبتنا لك في باب المشور من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث وصيته التي أوصى بها حين مماته ، اقيمتها التاربخية ، ولأنها توصل بعض آرائه ، وتفصح عن السر في بعض تصرفاته ، فراجعها ثمه .

الفصل النجاشي

الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة عن تاريخ الوزارات المأمونية — وزارات الفصل بن سهل وأخيه الحسن — وزارة أحمد بن أبي خالد —
وزارة أحمد بن يوسف — وزارة يحيى بن أكرم — وزارات أخرى — الحد والفقراد في عصر المأمون —
القصة وديوان المطامير .

(١) توطئة :

لسنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ، ومكانها في العصر العباسي ، فقد تعرض
لدرسها كثيرون ، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ «رون» في كتابه تاريخ الفرس الأدبي ،
والمؤرخ آس طباطبائي في الآداب السلطانية ، وانما قصارى ما رمى اليه ، كتابة فدلكته موحرة
عن حياة البارزين من وزراء المأمون ، حتى نقف بذلك على صورة كاملة قدر المستطاع ،
عن العصر الذي تصدروا للكتابة عنه ، ومكانة رحلاته البارزين فيه ، فقول :

١ و ٢ — وزارات الفصل بن سهل وأخيه الحسن

نجدنا التاريخ أن أول وزراء المأمون الفصل بن سهل ، وهو من رجال جعفر البرمكي ،
فلا عرو اذا نزع في سياسة الملك مروع البرامكة ، ولا عرو اذا اتم بهم وتلا تلومهم
في تدبير أمور السلطان ، ولا عرو اذا كانت دولة بن سهل عره في جين الدهر ، ودرة
على مفرق العصر ، لأنها كانت ، كما يقول الفخرى ، مختصرة الدولة البرمكية .

أما طريقة اتصاله بالمأمون ، فان المطامير التاريخية والأدبية تحدثنا أن جعفرا البرمكي
لما عزم على استخدامه للمأمون ، وصحه يحيى بن خالد محصرة الرشيد ، فقال له الرشيد :
أوصله الى ، فلما وصل اليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظراً منكراً

لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمر المؤمنين ، إن من أعدل الشواهد على قرآنة المملوك أن يملك قلبه هيئة سيده ، فقال الرشيد . لئن كتب سكت لتصوع هذا الكلام ، فلقد أحسنت ، وإن كان بذهبة إنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعد ذلك عن شئ ، إلا أحانه بما يصدق وصف يحيى له .

ويروى لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو كما تعلم ، شيخ من مشيخ الأدب والبيان في عصرنا المأموني ، في كتابه «الحيوان» . أن حمصا الصبي ، وصف الفضل بن سهل بقوله . أيها الأمير ، أسكتني عن وصفك نساوي أفعالك في السؤدد ، وحيرني فيها كثرة عددها ، فليس لي ذكر جميعها سبيل ، وإن أردت وصف واحدة ، اعترضت أختها إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر ، ولست أصعبها إلا ناطهار العجر عن وصفها .

ويقول ابن طباطبا . إن الفصل كان سحيا كراما ، يحارى الرامكة في حوده ، شديد العقوبة ، سهل الاعطاف ، حلينا ليغا . علما نآداب المملوك ، بصيرا ، جيد الحدس ، محصلا للأموال ، وكان يقال له الورير الأمر .

وكان الفصل بن سهل يتشبع كذهب غالب الفرس ، وكانت له إصابة حسنة ، يعلم الهجوم كما أسلمها لك القول في كلمتنا عن المأمون في صباه ، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسين علي بن أحمد السلامي في تاريخ ولاء حراسان : أن المأمون لما عزم على إرسال طاهر بن الحسين إلى محاربة أخيه محمد الأمين ، نظر الفصل بن سهل في مسألته ، فوجد الدليل في وسط السماء ، وكان ذا يمين . فأحمر المأمون أن طاهرا يطفّر بالأمين ويلقب بدى اليمين ، فتعجب المأمون من إصابة الفصل ولقب طاهرا بذلك .

وكان الفصل بن سهل شبيها ناسأذنه الرامكة في رقد الشعراء ، وتشجيع الشعر . وكان منتج القصائد مهم قبل وراثته ، فإن كتب الأدب تحدثنا أن مسلّم بن الوليد ، قال فيه حين ذاك ، وكان من ندماؤه وسماره :

وقائيل ليست له همه * كلا ولكن ليس لي مأل
وهمه المُقْتَرِ أُمِّيَّة * عَوْنٌ عَلَى الدَّهْرِ وَأَتَقَالُ
لَا حِدَّةَ يَنْهَضُ عَزَمِيهَا . وَالسَّاسُ سُؤَالُ وَبُحَالُ
فَأَصْبِرْ عَلَى الدَّهْرِ إِلَى دَوْلَةٍ . يَرْعِ فِيهَا حَالَكَ الْحَالُ

ويقول لنا الصَّحْرَى : إِذَا الْفَصْلُ لِمَا عَلَتْ حَالُهُ وَتَوَلَّى الْوَارَاهُ ، قَصَدَهُ مُسْلِمٌ بِنَ
الْوَلِيدِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ سُرَّ بِهِ ، وَقَالَ لَهُ . هَذِهِ الدَّوْلَةُ الَّتِي يَرْعِ فِيهَا حَالَكَ الْحَالُ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِثَلَاثِينَ
أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَوَلَّاهُ رِبْدَ خُرْحَانَ ، فَاسْتَفَادَ مِنْ تَمِّ مَالًا طَائِلًا .

وَمُحَدَّثًا آسَ حِلَّكَانَ . أَنَّ الْفَصْلَ بِنَ سَهْلٍ ، قَالَ يَوْمًا لِنِثْمَامَةَ بِنِ الْأَشْرَسِ الْمُنْتَكِمِ
الْمَعْرُوفِ مَا أَدْرَى مَا أَصْبَحَ بَطْلَابُ الْحَاخَاتِ ، فَقَدْ كَثُرُوا عَلَيَّ وَأَصْغَرُوا ! فَقَالَ لَهُ :
رُزِّ عَنْ مَوْصِعِكَ ، وَعَلَيَّ أَلَّا يَلْقَاكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ! فَقَالَ صَدَقْتَ ! وَانْتَصَبَ لِقِصَاءِ
أَشْعَالِهِمْ . وَكَانَ قَدْ مَرَضَ بِحِرَاسَانَ وَأَشْفَى عَلَى التَّلَفِ ، فَلَمَّا أَصَابَ الْعَافِيَةَ ، جَلَسَ لِلنَّاسِ
فَدَحَلُوا عَلَيْهِ وَهَثُوهُ بِالسَّلَامَةِ وَتَصَرَّفُوا فِي الْكَلَامِ ، فَلَمَّا فَرَعُوا مِنْ كَلَامِهِمْ أَقْبَلَ عَلَى
النَّاسِ وَقَالَ : إِنْ فِي الْعِلَالِ لِمِمَّا لَا يَدْعَى لِلْعُقْلَاءِ أَنْ يَجْهَلُوهَا : نَمِجِصُ الدِّيُوبِ . وَالتَّعْزِضُ
لِثَوَابِ الصَّبْرِ ، وَالْإِيقَاطُ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَالْإِدْكَارُ بِالْعَمَةِ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ، وَاسْتِدْعَاءُ
التَّوْبَةِ ، وَالْحَصَصُ عَلَى الصَّدَقَةِ .

وَقَدْ مَدَحَهُ حَمَاهُ مِنْ أَعْيَانِ الشُّعْرَاءِ ، وَفِيهِ يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَاسِ الصُّبُولِيُّ .

لِلْفَصْلِ بِنَ سَهْلٍ نَدُّ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلُ
مَائِلُهَا لِلْعَبَى . وَسَطَوْتُهَا لِلْأَحْلُ
وَمَا طَنُهَا لِلدَّيْ . وَظَاهَرُهَا لِلْقُبْلِ

وَيَقُولُ آسَ حِلَّكَانَ : إِنْ أَبَانَ الرُّوحَى أَخَذَ مِنْ قَوْلِ الصُّبُولِيِّ هَذَا مِدْحَتَهُ الَّتِي
صَاعَهَا فِي الْوِزْرِ الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الَّتِي فِيهَا :

أصحت بين خصاصه وتحمل ، والحر بينهما يموت هريلا
فامدّد الى يدا يعود طئها * بدل السوال وطهرها التقيلا
وفيه يقول آخر :

لعمرك ما الأشراف في كل بلده وان عظموا للفصل إلا صانع
تري عطاء الناس للفصل خشعا اذا ما بدا والفصل لله حاشع
تواضع لما راده الله رعة * وكلّ حليل عده متواضع

وحكى الخهشياري : أن الفصل بن سهل أصيب ناس له يقال له العباس فخرع عليه
أشد الجزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوي وأنشده .
خير من العباس أحرك مده والله حر منك للعباس

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :
لو نطق الناس أو أثنوا عليهم * ونبات عن معالي دهرك الكت
لم يبلغوا ملك أدى ما يمت به * اذا تفاخرت الأملاك وانتسوا
فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة ألف درهم .

وانه ليلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين
كانوا يمتدحون البرامكة — وما أكثرهم — هم بأنفسهم الذين امتدحوا آل سهل ، واتحدوا
منهم برامكة آخري . كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم في امتداحهم واطهار قوتهم
واستعمال سلطانهم ، بعض الأثر في كتبهم . لأنه غير معقول آلتة أن يمتز على المأمون قول
. نيل قول القائل :

أقمت حلالة وأزلت أخرى ، حليل ما أقمت وما أزلت

من غير أن يترك في نفسه بعض ما كانت تتركه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال في نفس
الرشيد ، ومهما قدل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعه صدره فان النفس
الانسانية هي هي .

وقد مرّ بك فيما أحسّاه لك من الحوادث التي وقعت في حكم المأمون ، أنه جعل في سنة ٢٠١ هـ على بن موسى العلوي وليّ عهد المسلمين والخليفة من بعده ، وسمّاه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه أمر حده بطرح السواد ولبس الحُصْره وبنياً ما كان لذلك من ثورات وقت لم تهدأ إلا بعد أن عاد الى مقرّ ملكه ، وأعلم آلّه وأنصاره بوفاء الرضا ، وعاد الى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

ويرد الآن أن نسير هنا الى ما كان من الفصل بن سهل فيما نحن في صدره ، ويعتمد على ما رواه الطبري ، قال . إن على بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ أحرّ المأمون بما فيه لباس من الفتنه والقتال مدّ قُتل أخوه ، وما كان الفصل بن سهل يستريحه من الأحار ، وإن أهل بيته والباس قد تقمّوا عليه أشياء . وإيهم يقولون : إنه مسجور محبوس ، وإنهم لما رأوا ذلك مايعوا لعمّه ابراهيم بن المهدي بالخلافه ، فقال المأمون إني لم سايعوا له بالخلافه . وإنما صيروه أميراً بموم أمرهم ، على ما أحبر به الفصل ، فأعلمه أن الفصل قد كذّبه وعشّه ، وأن الحرب قائمه بين ابراهيم والحسن بن سهل ، وأن الباس يتقمّون عليك مكانه ومكان أخيه . ومكانى ومكان يتبعك لى من بعدك ، فقال ومن يعلم هذا من أهل عسكرى " فقال له : يحيى بن مُعَاد ، وعد العزيز بن عُمَران ، وعدّة من وحوه أهل العسكر ، فقال له . أدخلهم علىّ حتى أسألتهم عما ذكرت ، فأدخلهم عليه . وهم يحيى بن معاد ، وعد العزيز بن عمران ، وموسى ، وعلى بن أبى سعيد ، وهو ابن أحب الفصل ، وحآف المصريّ . فسألم عما أحبره ، فأبوا أن يجبروه حتى يحمل لهم الأمان من الفصل بن سهل . ألا يعْرِضْ لهم . فصم ذلك لهم ، وكتب لكل رجل منهم كتاباً بخطّه ودفعه اليهم ، فأحبروه بما فيه لباس من الفتن ، وبنّوا ذلك له ، وأحبروه بعصب أهل بيته ومواليه وقوّاده على في أشياء كثيرة ، وبما مَوْه عليه الفصل ، من أمر هَرَمَة ، وأن هَرَمَة إنما جاء ليصحه وليّين له ما يحمل عليه ، وإنه ان لم يتدارك أمره خرجب الخلافه منه ومن أهل بيته ، وإن الفصل دس الى هَرَمَة من قتله ، وأنه

أراد بصره، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعه ما أبلى، وافتتح ما افتتح، وقاد إليه الخلافة مزمومة حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله، وصير في رابطة من الأرض بالرقعة، قد حُطرت عليه الأموال حتى صُعب أمره، فسُلب عليه حسده، وأنه لو كان على خلافك بعدد اصسط الملك ولم يُجبراً عليه مثل ما احتريه به على الحسن بن سهل، وإن الدنيا قد بقتت من أقطارها، وإن طاهر بن الحسين قد سوسى في هذه السنين، منذ قتل محمد في الرقة، لا يستعان به في شيء من هذه الحروب، وقد اسعس بين هو دونه أصعافاً، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد، فإن حاشم والموالي والقواد والحسد لو رأوا عرثك سكبوا إلى ذلك، ويجمعوا بالطاعة لك. فلما تحقق ذلك عند المأمون، أمر بالرحيل إلى بغداد. فلما أمر بذلك علم الفصل بن سهل بعض ذلك من أمرهم، فمعتهم حتى صرب بعضهم السياط وحبس بعضاً ونف ليحيى بعض، فعادوه على بن موسى في أمرهم، وأعلمه ما كان من صمائه لهم، فأعلمه أنه يُدارى ماهو فيه، ثم ارتحل من مرو، فلما أتى سرخس، شد قوم على الفصل بن سهل وهو في الخيام فصرروه بالسيوف حتى مات. وذلك يوم الجمعة لليلتين حلتا من شعبان سنة ٢٠٢ فأحدوا. وكان الدين قتلوا الفصل من حشم المأمون، وهم أربعة نفر: عالت المسعودى الأسود، وقسططين الرومى، وقرح الديلبى، وموق الصقلى، وقتلوه وله ستون سنة وهربوا، فمعت المأمون في طلبهم وحمل لمن جاءهم عشرة آلاف دينار، بجاءهم العباس بن الهيثم بن برجمهر الدسورى، فقالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله، فأمرهم فصيرت أعناقهم، وقد قيل إن الدين قتلوا الفصل، لما أحدوا سألهم المأمون، فمنهم من قال: إن على بن أبى سعيد بن أخب الفضل دسبهم، ومنهم من أنكز ذلك. وأمر بهم فقتلوا، ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمر بن علي وموسى وحلف، فسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك، فلم يقبل ذلك منهم، وأمر بهم فقتلوا، وبعث رءوسهم إلى الحسن بن سهل في واسط، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفصل، وأنه قد صبره مكانه. وترجح المأمون من ابنته ثوران، وأظهر الحسن في حملة

رواجها من الكرم الحارق ، والحدود الحاتمي ، ما دعا المأمون الى أن نسبه فيه الى السرف ، ولقد قَدِمَ على الحسن بن سهل شاعر يلتمس صلته وعارفته ، فأشعل عنه مُدِيْدَةً فكتب اليه :

المال والعقل مما يُستعان به على المُقَامِ ما نواب السلاطين
وأنت تعلم أنّي مهما عَطِلُ اذا تأملتني يا س الدهاقين
أما تدلُّك أنثوانى على عَدَمِي والوجه أنى رُئُس في المحابين
والله يعلم ما لَلَّذِك من رحل * سواك يصلح للدينى وللدين

فصيل : إن الحسن أمر له ، بعنبره آلاف درهم ، ووقع فى رقعته :

أَعْلَنْتَ فأناك عاحِل رِزَا قُلًّا ولو أَنْظَرْتَا لم يُقْلَلِ
خُذ القليل وكُنْ كَأَنك لم تَلْ * ويكون محى كَأَس لم تُسْأَلِ

ويظهر لما مما قرأناه عن الحسن بن سهل فى أمالى أبى على - القالى وعده من مظان الكتب الأدبية ، أن له بصرا بالأدب عظيما ، ومكانة فى الكفاة سامية ، وحظا نافعا فى القول ومناحيه وهيرا .

فقد روى عنه أنه كتب الى محمد بن سَمَاعَةَ القاصي « أما بعد ، فانى احتججت لبعض أمورى الى رحلي جامع لحصال الخير ، دى عفيف وزأه طُغْمِيهِ ^(١) ، قد هدّسه الأخلاق ، وأحكمته التحارب ، ليس بطيب فى رأيه ، ولا بمطمعون فى حسبه ، إن أقمت على الأسرار قام بها ، وإن قُلْدُ مُهِمًا من الأمور أحرأ فيه . له سن مع أدب ولسان ، يُقْعِدُهُ الرزانة ، ويسكته الحلم ، قد فُرِغَ دكاء وفطه ، وعص على قارحه من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السكته ، قد أنصر خدمة المملوك وأحكمتها ، وقام فى أمورهم حُجْمِدَ فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلاء ، وفهم الفقهاء ، وحوار الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بجرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال محلوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه

(١) الطعمة صم الطاء وكسرها وحه الكسب الطيب أو الحديث .

لائحه ، وأماراب العلم له شاهده ، مصطلحاً بما استُخِص ، مستعملاً بما حُمل ، وقد آثرْتُك طلبه ، وحبَّوْتُك بارياده ، ثقةً بفصل اختيارك ، ومعرفةً بحسن تأنيك .

وقول اس طباطبا : إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس مِرلةً عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان إذا حصر عسده طاولة فى الحدث ، وكلما أراد الانصراف معه ، فاقطع رمان الحسن بذلك وثقلت عليه الملامه ، فصار يترانى عن الحضور مجلس المأمون ، ويستحلف أحد تلاميذه ، كأحمد بن أبى خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ، ثم عَرَصَتْ له سَوداءُ كتاب أصلها جَرعته على أخيه ، فكان سبب انقطاعه فى داره واحتجابه عن الناس . وقد هاهن حين داك بعض الشعراء فقال :

تولَّتْ دولُهُ الحسن بن سهل * ولم أُللْ لَهَا نِي من نَدَاهَا

فلا تحزغ على ما فات منها - وأبكى الله عيني من بكائها

وقد قرأنا فى كتاب الأغانى ما يسدّد منه على أب الحسن بن سهل هو صاحب الوَسَاطة فى العفو عن ابراهيم بن المهدي ، وذلك يختلف مع ما رواه البعض من أن بوران ابنته هى التى طلبت العفو عنه ، وما رواه البعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة . وتفصيل الرواية . أن الحسن بن سهل دخل على المأمون ، وهو يشرب فقال له : نحياتى وبحقّ عليك يا أبا محمد إلا شربت معى قدحاً ، وصبّ له من بيده قدحاً ، فأحده بيده وقال : من تحب أن يعيّنك ؟ فأوماً الى ابراهيم بن المهدي ، فقال له المأمون : عنه ناعم ، فعاه . . . نسمع للحلى وسواساً اذا انصرف * يُعرّص به ، لما كان لحقه من السّوداء أو الاحتلاط . فعصّب المأمون حتى طنّ ابراهيم أنه سيوقع به ، ثم قال له : أبيت إلا أكفراً ، يا أكفّر حاق الله ليعمه ، والله ما حقّ دمك غيره ، ولقد أردتُ قتلك ، فقال لى . ان عموت عنه فعلت فعلاً لم يسبقك إليه أحد ، فعفوت والله عنك لقوله ، حقّه أن تُعرّص به ! ولا تدعُ كيدك ولا دَعْلَكَ ! أو أبيت من إيمانه اليك بالعناء ! فوثب ابراهيم قائماً وقال . يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيث طبتّ ولستُ عائد ، فأعرص عنه .



٣ - وزارة أحمد بن أبي حالد

يظهر أن المأمون كان قد صُدِمَ صدمةً عيقة، من وراثة الفضل بن سهل ومن أحبه، لاستبدادهما بِحُلِّ الأمور من دونه، ويظهر أنه فكرَ جِدًّا في ألا يستور بعد الفضل أحدا، ويقال إنه لما دعا إليه أحمد بن أبي حالد - وكان أبوه كاتب سرّ ابن عبيد الله، كاتب المهدي ووريه - قال له: إني كنت عرمت ألا أستوزر أحدا، ثم عرض عليه الوزارة، فنصل أحمد منها، وقال يا أمير المؤمنين: أعفى من التسمي بالوزارة، وطالبي بالواحد فيها، واحمل بي وبس العامة مرله يرحون لها صديقي، ويحافى لها عدوي، فما بعد الغارات إلا الآفات.

وتدل هذه المناقشة، وإن كانت قصيرة، على أن أحمد بن أبي حالد قد وحد العره في تاريخ الفضل بن سهل - وأمثاله - فرأى أن يكون مقتصدا في مكانته وسلطانه، وقد أعجب المأمون بكلامه واستورره.

وسترى في كتابنا المحمله التي عهداها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبية، طرّفا من تصرفات أحمد بن أبي حالد، وحسن محله، في حادثه عمرو بن مسعدة، وكيف كان شجاعا وصادقا، وكيف كان مخلصا للمأمون، عاملا على إصلاح ما به وبس رحلات دولته.

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الإسلامية: إن المأمون لما ولي طاهر بن الحسين خراسان، استشار فيه أحمد بن أبي حالد، فصوّب أحمد الرأي في بوليّة طاهر، فقال المأمون لأحمد: إني أخاف أن يغدر ويحلّج ويقارق الطاعة، فقال أحمد: الدرك في ذلك على - ويجب أن تشيرها إلى ما جاء بكتاب عيون الأخبار عن دقة المأمون في مثل هذا الموقف، فإن المعلق بن أيوب أحد المعاصرين يتحدثنا عن ذلك بقوله: سمعت المأمون يقول: من مدح لنا رجلا، فقد تضمّن عيّه - فولاه المأمون، فلما كان

بعد مده، أنكر عليه المأمون أمورا، وكتب اليه تحكما يتهدده فيه؛ فكتب طاهر جوابا، أغلظ فيه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد ابن أبي خالد: أنت الذي أشرت بتولية طاهر، وصمت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطة ومعارفة الطاعة، فوالله لئن لم نتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا صربتُ عنقك؛ فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، طِبْ نفساً، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه. ثم إن أحمد بن أبي خالد أهدى لطاهر هدايا، فيها كَوَايِخُ مَسْمُومَةٌ، — وكان طاهر يحب الكَايِخَ^(١) — فأكل منها فمات من ساعته^(٢).

فإن صححت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورحاله لم يَكُونُوا قد صرفوا أنفسهم يومئذ عن التذرع إلى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم.

قال المعري: إن أحمد بن أبي خالد لما تولى طاهر خراسان، حسَبَ هذا الحساب، فوهب له حامدا وباوله ستما، وقال له: متى قطع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم في بعض ما يحب من المأكَل، فلما قطع طاهر خطبه المأمون جعل الحامد له السم في كَأَخ، فأكل منه فمات في ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته إلى المأمون بعد أيام، فكان ذلك مما عظم به أمر أحمد بن أبي خالد. فتأمل طريقة التخلص من الزعماء في ذلك الحين، ولا تحط كيف كانت عدوهم حاتمة الحياه لمن يتبرمون لهم من كبار القواد والوزراء. ولتأمل بعد ذلك لم أقفرت البلاد من قادتها وكُجائها، ولم أَسَحَتْ الكلمة الباعدة فيما بعد للغلبة الأتراك وغيرهم من الغرباء!

وكان أحمد بن أبي خالد، إلى جانب كفايته، وبصره بالأُمور مصابا بالشَّرِّ. وقد قال أحد المعاصرين — لما ناقب المأمون أحمد بن أبي خالد هذا —: ما أظن أن الله خلق

(١) هو إدام يؤتد به وقيل هو حرجل. معرف كاهه بالعارسية وحسه معصم بالخطلات التي تستعمل لتشهى الطعام.

(٢) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب البحار «يلوح لي أن هذه الحكاية مصوغة فكيف يجترئ أحمد بن

أبي خالد على هذا الأمر وهو يعلم مكانة عبد الله بن طاهر ومكيدته وأهته وحسن تأنيه للأُمور. فهل يأمن أن يعتريه سد الله مما يؤقته ويحل هلاكه. وبعد هذه الرواية ناقص الرواية الأخرى. وهي أن صاحب البريد

كتب إلى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدماء له وكتب إليه في اليوم الثاني بموته.»

في الدنيا نفساً أنبل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لماذا ؟ قال : لأنه عرف نفس الرجل — يعني أحمد بن أبي خالد — وشهره فكان اداوجه الى رجل برسالة أوى حاجة ، قال : ائنه بالفداء واحلّ نيابك واطمنّ عده ، فان اصرفت وقد مت فاكنت الى نحواب ما جئت به في رُقعته وادفعها الى فتح يوصلها الى .

ومما يندب اليه أنه ولّى رجلاً كورة عطيمة القدر يحوّل فآلودج أهده اليه . وقيل . إن حماءه من أهل كوره الأهوار شكوا عاملاً كان عليهم ، فُعل وصار الى مدينة السلام ، فتكلموا فيه . فأنهى حرهم الى المأمون ، فأحصّهم وحصّهم ، وأمر أحمد بن أبي خالد بالطرفى أمورهم ، فقال رجل من خصوم العامل . يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، تقدّم الى أحمد ألا يقبل من هذا العار هدية حتى يقطع أمرنا ، فوالله لئن أكل من طعامه رعيماً ومن فآلودجه حاماً ، ليدحصّ الله محنتنا على يديه . وليبطل حقاً على يديه . فكان من حزاء ما قاله متكلم الجماعة أن المأمون طلب اليهم أن يحضروا اليه يوم الأربعاء ، ليطرفى شكاتهم بنفسه ، وكان من حزاء . مثل هذه الشكاوى وما قيل في أس أبي خالد من أنه « يقتل المعلوم ويعين الظالم بأكله » أن آخرى المأمون عليه في كل يوم ألف درهم لمائته ، لئلا يشتره الى طعام أحد من بطانته أو من طعام الناس .

ومن طريف حوادثه مع المأمون — وهى تؤيد لنا صحة ما يُرى به من هذه الحاجة وتدل على اقتناع المأمون بإصاحها — ما روي له ابن طيمور في تاريخه ، قال : « حدثني بعض أصحابها قال قال المأمون يوماً لأحمد بن أبي خالد : أغد على باكر لأخذ القصص التي عندك ، فانها قد كثرت لقطع أمور أصحابها ، فقد طال انتظارهم إياها . فبكر ، وقعد له المأمون ، فجعل يعرضها عليه ويوقع عليها ، الى أن مرّ بقصة رجل من البريديين يقال له فلان البريدي فصحف ، وكاب جائعاً فقال : التريدي ؛ فضحك المأمون ، وقال . يا علام ! تريدة محمّة لأبي العباس ، فانه أصبح جائعاً ! فخبّل أحمد ، وقال : ما أنا بخائف يا أمير المؤمنين ، ولكن صاحب هذه القصة أحمق ، وصعب نسبته ثلاث

تقطب قال . دَعَّ هذا عك فالجوع أصرَّ بك حتى ذكرت الثريد، بلخاوه بصَحْمَةٍ عظيمة، كثيرة العراق والدوك، فاحتشم أحمد، فقال المأمون : بحياتي عليك ! لَمَّا عَدَلْتُ نحوها، موضع القصص ومال الى الثريد، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر اليه، فلما فرغ دعا بَطْنَسْت فغسل يده ورجع الى القصص، فترت به قصة فلان الجَنَبي، فقال : فلان انجيسى^(١) ! فصحك المأمون، وقال : يا علام ! حَامًا صَحْمًا فيه خَبِيسٌ، فان عَدَّأَ أبى العباس كان متورا، فحجل أحمد، وقال : يا أمير المؤمنين، صاحب هذه القصة أحق ! ففتح الميم فصارت كأنها سِنْتَان قال : دع عك هذا، فلولا حقّه وحق صاحبه لمتَّ حوفاً بلخاوه بحام خبيص، ففحل، فقال له المأمون : بحياتي عليك إلَّا مَلْتُ إليها ! فانحرف فانتنى عليه، وغسل يده، ثم عاد الى القصص، فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

«و بعد»، فاما تستمط — من هذه الرواية ومما جرى من الحديث بينه وبين المأمون في شأن أكلة ابن أبي خالد عند دينار بن عبد الله التي كلفت المأمون ألف ألف — شَرَّه هذا الوزير الجليل . ومحمد سا أُنْ بغيرها ملاحظه أخرى، وهى طول احتيال المأمون، وكثير حله، وقوة اصطباره، على مطالعه شكاوى الجمهور ومطالبهم، غير مكترِبٍ لألم الجوع ولا حاج إلى الرعد والراحة، في سبيل نظرها وإصاف أصحابها .

على أن هذه الهمة في هذا الوزير وإن كانت عاتية للرحل ناقصة من كرامته، فكمايته مقطوع بها . وليس أدلُّ على عظم قدره، وسمو مكانته، من حضور المأمون جنازته، وصلاته بنفسه عليه، وقوله عنه . بعد أن دُلِّي في حُفْرته وترَّحم عليه، أنت والله كما قال القائل :

أخو الحِلْدِ إن حدَّ الرَحْلُ وشمروا ۖ ودو باطلٍ إن كان في القوم باطلُ

(١) العراق . جمع عرق وهو القطعة من اللحم وهو أحد الجموع البادرة (وقد سَدَّ هذه الجموع ابن السكيت في لسان العرب مادة عرق فراحها) والدوك . الدم .

(٢) نوع من الحلوى .

(٣) أظن هذه الحكاية في تاريخ بغداد لاس طبعور ص ٢٢٢ — ٢٢٤



٤ - وراة أحمد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد أن أبى خالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما تكا ساعد له
ببحثا خاصا فى قسم الآداب والعلوم ، فستحد ثمة طرفا عن حياته وأثره .



٥ - وراة يحيى بن أكرم التيمى

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكرم . وهو من أصحاب ثمانية بن أشرس المنتكلم
المعروف ، ولآه المأمون وطيقى الوزارة وقاصى القضاء .

ولم أحد احتلافا قويا ، هو اختلاف القيصين ، كاختلاف القدماء فى يحيى بن أكرم .
ولما كان له مظهر بارز فى الدولة المأمونية من الوجهه العلميه والأدبيه — لأنه كان ،
كما يقول أحمد بن حبل رضى الله عنه ، متعسا فيها : فكان اذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سأله
عن الحديث ، واذا رآه يحفظ الحديث سأله فى النحو ، واذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام ،
ليقطعه ويحمله — أثرا أن نلم بجيانه وأقوال الناس فيه من قاذح ومادح ، ونين قدره على
وجه الإجمال لا التفصيل . وسورد كلاما فيه أيضا فى قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب .



٦ ، ٧ ، ٨ - وزارات أخرى

وقد ذكر أن المأمون استوزر ، بعد من قدماء لك ، أبا عبّاد ثابت بن يحيى بن يسّار ،
وأما عبد الله بن يزداد ، وقد آثمتا فى سيرتهما بمن سبقهما ، كما أنه ذكر أنه استوزر
عمرو بن مسعدة وهو صنو أحمد بن يوسف نباهة وكفاية وكثابة . وإما لا نرى مدعاة
لإثبات ما هو من لون واحد ، فى ذلك إضاعة للوقت وتكرار للقول .



(ب) الجند والقواد في عصر المأمون :

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرتبات الجند وتحولهم ، مسد العهود الأولى ، فان ذلك يطول كثيرا . على أنا نحيلك مع ذلك الى ما جاء بالحزء الأول من تاريخ التمدين الاسلامى في هذا الباب . وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجندى الراحل ، وهو مثل « العر » في النظام العسكرى الحديث ، هو ٢٤٠ درهما في السنة ، فضلا عن حصته في العائم عدد العروات . ويظهر أن حصه الجند من الغائم كانت قد حُيست عنهم ، حتى ردها عليهم الأُميين سنة ١٩٨ هجرية ، فأصاب الرجل ستة دناير .

ولما قام النزاع بين الأُميين والمأمون جعل المأمون راتب الجندى ثمانين درهما في الشهر ، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة . أما القواد العظام في هذا العصر ، فاما نكتفى بما وقفت عليه أثناء النزاع بين الأخوين ، لأن من التكرار في القول أن يعيد هنا ما قلناه هناك .



(ج) ديوان القضاء والمظالم والحسبة :

ستقف من بحوثنا التي أفردها لتحليل أخلاق المأمون على شيء من سلطان القضاء في ذلك العهد . ونحيلك هنا الى المحاصرة القيمة التي أقيمت في المجمع العلمى بدمشق عن تاريخ القضاء في الاسلام ، كما نحيلك الى الفصل المُسمَّي الذي أفرده في هذا الموضوع صاحب التمدين الاسلامى .

ويكفيها هنا أن نقول . إن نظام الحكم أو المصل في الدعاوى ، في ذلك العهد ، كان متشعبا بقدر ما كان محكما ، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظالم وديوان نظر الحسبة ، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

ويطول بنا الحديث، في هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه .

على أنه يحور لك، أن تعرض الى حد ما، أن ديوان المظالم كان يشبه في بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كحاكم الاستئناف والنقض والارام، كما يشبه الى حد غير قليل المجالس التأديبية .

وأما يحيلك هنا الى الفصول المتعة التي أفردتها أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي في كتابه القيم " الأحكام السلطانية " فقد عالج فيها الكلام عن القصة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاية المظالم وما يختصون به أيضا، وكذلك عن ولاية الحسبة وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب في نهاية الحزء السادس جملة صالحة منه فراجعها .

أما راتب القصة فنقول . إن راتب القاضي بلغ في أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم في الشهر، أى حوالى ٣٧٠ ديناراً . وهذا الراتب في ذاته يدل على ما وصلت اليه الثروة في ذلك العصر . وقد كما نود أن نختص الولاية وراتبهم بكلمة لولا أن المصادر في ذلك تنقصنا . وفيما بيناه عن القصة مقياس لمن كان في مكاتبتهم ولمن كان أرفع منهم أو أقل مرتبة . فعليك أن تفكر وتوازن .

الفصل الثمانون

خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية

توطئة — حكمة الورداء — الاستصماء — ثروة الخلفاء ورجال الدولة ودمهم — الحراج في عهد المأمون — الحراج في عهد المعتصم — السعيات والحاسوبية — الدعاوة (إلى واحد) — صعوبة مهمة المؤرخ .

(أ) توطئة :

أما أثر المال في القوس ، وأثر الأحزاب السياسية ، وكيف تعبر وجهات النظر في كثير من الأمور الديني ، فإليك قد وقعت على شيء من ذلك وبها سردناه لك .

على أن نلاحظ أنه قد آت لنا أن ندون بعض ملاحظتنا في هذا العصر ، وآت لنا أن نكلم عن نصيب الورداء والقواد والرعاء في هذه الدولة ، التي كان للوزراء والقواد والرعاء الأثر الكبير في تدعيم بيانها ، وتقوية أركانها ، وتشديد سلطانها .

(ب) نكبة الوزراء :

نريد أن نلاحظ أن حياة الورداء وحياة القواد والرعاء كانت تنتهي ، في الغالب ، بكتبتهم في حياتهم ، أو استصماء أموالهم .

ومع أن يحيلك إلى بعض المصادر القيمة في هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، لأبي الحسن الهلالي بن المحسن بن إبراهيم الصافي الكاتب ، وإلى ما كتب من الفصول في غيره ، نريد أن نلاحظ أن حُلهم قد نكبه حليفته ، مثل نكبة المنصور لأبي مسلم ، وعبد الله بن علي ، وأبي سلمة الخلال ، وأبي الجهل ، ونكبة لأبي أيوب المورياني ، ونكبة الربيع بن يونس الذي سمّه الهادي ، ونكبة المهدي يعقوب ابن داود ، ونكبة الرشيد للبرامكة ، والمأمون لمن رأيت .

نلاحظ ذلك . ونلاحظ أن عدد الخلفاء بوزرائهم في ذلك العهد قد لاكنه الألسنة وتكلمت فيه الشعراء ، فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلب من جرع يطير * اذا ما قيل قد قُتل الوزيرُ
أمر المؤمنين قتلَ شخصا * عليه رَحَاكم كانت تدور
مهلاً يا بى العباس مهلاً * لقد كُوتَ بعدكم الصدورُ

كما نلاحظ أيضا سَـلَّ شخصيات عظيمه من قول الوراره في ذلك العهد ، لما عهدوه من وَحَم عواقبها ، وسوء مَعْنَى الاصطلاح بها . فقد ذكر ابن طيعور أن ثَمَامه اس أَشْرَسَ المتكلم المعروف ، قال : لما قُتِلَ الفضل بن سهل بعث الى المأمون وكست لا أنصرف من عده إلا الوقعة الى منزلى ، ثم يأتينى رسوله في حَوْف الليل فأتية ، وكان قد أَهْلَى لِمَكَانِ الفصل بن سهل من الوراره ، فلما رأيته قد أَلَحَّ على في ذلك تعاللتُ عليه ، فقال لى : إما أردتلك لكدا وكدا ، قلت : يا أمير المؤمنين ، إني لا أقوم بذلك ، وأحرِبى أن أصَّ بموصى من أمير المؤمنين وحالى أن تزول عده ، فاني لم أر أحدا تعزص لخدمه والوزارة ، إلا لم يكن لتَسَلَّمَ حاله ولا تدوم منزلته . ورشَّح له أحمد بن أبى خالد الأحوال . ثم انظر الى اعتلاله عليه مره أخرى حينما رشَّح له يحيى بن أكرم ، فانك توقن معا بفسور رجال الدولة من الوزارة ، وهرهم من شَرَكها وسوء عَـقْـلها .

(ج) الاستصفاء :

هم ينهرون من الوزارة ، لأن حاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت . وينهرون منها ، لأن مصير أموالهم وأموال دوابهم كان ، فى الغالب ، الى الاستصفاء والاعتصاب . ولقد عمَّ الاستصفاء سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت ، بتوالى الأيام ، المصدر الأول لتحصيل المال .

فالعامل يستصفي مما للرعيه ، والورير يستصفي مما للعمال ، والحليفه يستصفي مما للوزراء ، ومما للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى لقد أنشوا للاستصفاء ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يُداول بالاستصفاء كما يتداول بالمتاحرة .

أما أنواع الاستصفاء ومقاديره في ذلك العصر ، فترك الكلمة في هذا للوزير ابن الفرات قريب العهد بالأموي ، قال : « تأملتُ ما صار الى السلطان من مالى ، فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وحسبتُ ما أحذنه من الحسين بن عبدالله الجوهريّ بن الحصّاص فكان مثل ذلك . فكانه لم يحسر شيئا ، لأنهم كانوا يقصّون الاستصفاء ويدفعون بالاستصفاء . وإذا استصفي أحدهم من مال لم يكن في وسعه أدائه كله معطلا ، أحلوه بالناق وساعده على تحصيله أو جمعه ردّ حاجه وتعيين زيه ، وإنزاله في دار كبيره فيها الفرش والآلة الحسنة ، ليستطيع التدخل في جمع الأموال من الناس .

وتعددت أسباب الاستصفاء وحجته ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرصه له . وهاك سائلا قبضه ابن الفرات من الاستصفاء ، على أيام الراصي بالله ، نشرها لك لتكون أنموذحا لأنواع الاستصفاءات ومقاديرها .

ديار

٧٣٠٠ من أحمد بن محمد بن ابراهيم البسطامي ، عن الصف مما بقى عليه من استصفاائه في سنة ٥٣٠٠ .

- ١١٠٠٠ من علي بن الحسين الباديّ الكان ، عما تولاه من الموصل .
- ٣٠٠٠٠ « محمد بن عبدالله الشافعيّ ، عما تصرف فيه لعليّ بن عيسى .
- ٨٠٠٠٠ « محمد بن علي بن مُقَلّة ، عما تصرف فيه .
- ١٠٠٠٠٠ « محمد بن الحسن المعروف بأبي طاهر .
- ١٣٠٠٠ « الحسن بن أبي عيسى الباقدا ، عما ذكر أنه وديعه لعليّ بن عيسى .
- ٤٠٠٠ ومنه أيضا صلحا عن نفسه .
- ٢٠٠٠٠ من ابراهيم بن أحمد المادرائي .

٢٦٥٣٠٠

دينار	ما قبله
٢٦٥٣٠٠	
٣٦٣٣٠	من عبد الواحد بن عبيد الله بن عيسى، عن بقيه استصفااء والده .
١٠٠٠٠	» أحمد بن يحيى بن حانى الكاتب عن مصلحه وجبت .
٦٠٠٠	» اراهيم بن أحمد بن أدريس الجهبذ، عن صلحه .
٤٠٠٠	» محمد بن عبد السلام بن سهل ، عما عده من الوديعه لمحمد بن على و ابراهيم بن أحمد المادرائى .
٤٠٠٠٠	» عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله، عن صلحه .
١٠٠٠٠	» محمد بن عبد الله بن الحارث، عن صلحه .
٢٥٠٠٠٠	» محمد بن أحمد بن حماد، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها .
١٥٠٠٠	» ابراهيم بن أحمد المادرائى، عن الباقي عليه من جملة خمسين ألفا .
٣٠٠٠	» أنى عمر محمد بن أحمد الصباح الحرجاى، عن صمانه الساقى على أبى العباس أحمد بن محمد بن على المعروف بقرقر .
٧٠٠٠٠٠	» على بن محمد بن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠	» هارون بن أحمد الهمداني .
٢٠٥٠	» عبد الله بن زيد بن ابراهيم .
١٥٠٠٠	» عبد الله بن زيد، صلحا عن نفسه .
٦٠٠٠٠	» على بن مأمون بن عبد الله الاسكافى كاتب ابن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠٠٠	» يحيى بن عبد الله بن إسحاق، عما تصرف فيه مع حامد .
١٣٠٠٠٠٠	» حامد بن العباس، وقتل .
١٥٠٠٠٠	» محمد بن محمد بن حمدون الواسطى .
٣٢١٠٠٠	» أبى الحسن على بن عيسى .
١٠٠٠٠٠	» ابراهيم بن يوحنا جهبذ حامد بن العباس .
١٢٠٠٠٠٠	» أبى محمد الحسن بن أحمد المادرائى .

ديار	٥٢٩٤٦٨٠	ما قبله
١٠٠٠٠٠	ومه أيضا .	
١٠٠١٠٠٠	من أنى بكر محمد بن علي المادرائي .	
١٠٠٠٠	ومه أيضا .	
٧,٣٠٥,٦٨٠		
درهم	٥٠٠٠٠	من أبي الفصل محمد بن أحمد بن بسطام .
٢٠٠٠٠٠	» علي بن الحسن الباذيني، صلحا عما بصرف فيه بالموصل وقتل .	
١٠٠٠٠٠	» أنى عمر محمد بن أحمد بن الصلاح الحراري، عن صمان الباقي من استصفاء أنى ياسر بن أحمد .	
١٠٠٠٠٠	» عبيد الله بن أحمد اليعقوبي .	
١٠٠٠٠٠	» الحسن بن إبراهيم الخرائطي، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .	
١٠٠٠٠٠	» الحسن بن علي بن نصير أنى نصير بن علي .	
٢٥٠٠	» علي بن محمد بن أحمد بن السمان، عن ورثة قرق .	
١٠٠٠٠٠	» أبي بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرحاني، عن صياح علي بن عيسى .	
١٣٠٠٠٠	» الحسين سعد بن القطريلي .	
١٥٠٠٠٠٠	» محمد بن أحمد .	
٣٠٠٠٠٠٠	» أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .	
٥٠٠٠٠	» أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .	
١٣٠٠٠٠	» سليمان بن الحسن بن محمد .	

ومن المعقول أن تستنبط من ذلك أن الوزير أو العامل ، لابد أن يَحْجَّحَ الى الرشوة ، يعوّض المال الذي سيستصفى منه ، والثروة التي ستغتصب منه . ومن المعقول أيضا أن نعلل لم تعدد الثورات في بعض الولايات ، ولم كثرت الشكايات من بعض الولاة في ذلك العهد . وإذنه وإن لم يهتم المؤرخون القدماء بإثبات شكايات العامة

وأَسباب ثوراتهم، فقد عثرنا بين السطور على العبارة الآتية في الجزء الثاني من اليعقوبي، نثبتها لك ببصها . « أحد الرشيد العمال والثَّاء^(١) والدَّهَّاقين^(٢) وأصحاب الضَّياع والمتاعين للعلات والمُقلِّين^(٣)، وكان عليهم أموال محتمة، فولى مطالبَهم عبد الله بن الهيثم أس سام، فطالهم بصوف من العذاب، وكان ذلك سنة ١٨٤ وَاغتَل الرشيد في تلك السنة علة شديدة وشفى منها، فدخل إليه الفصيل، فرأى الناس يعدُّون في الخراج، فقال : ارفعوا عنهم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . "من عَدَّ النفس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة" فأمر بأن يرفع عن الناس، فارتفع العذاب من تلك السنة^(٤) . »

ويحوز لنا أن نستدل من هذه العبارة ومما ذكره الطبري وسواه : من تقييد بعض الخلفاء لخراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعية أو زيادته ملكية، على أن العمال كانوا يحسبون إلى الشدة والعسف وجمع المال بشتى الوسائل، وكل ذلك من حزن النظام المتبع معهم كما أسلفنا . فتأمل كيف يكون عسف الولاة للرعية بسبب عسف المملوك للولاة والعمال .

^(٥) يَسْبَمُونَ ويَطْلَمُونَ، والرعية وحدها هي التي تحتل وتصبر . يَبْدُ أن التاريخ يحدثنا دائماً، في كافة الدول وكافة الأجيال، أن نهاية هذا الاحتمال وذلك الصبر هي يقظة الأمم وانتهاؤها، ونهضة الشعوب ونصوحها، ورفضها في إباء وشميم وفي عقيدة وإيمان، وفي شجاعة وحرية، وفي تصميم وقوة لإرادته، احتمال أمثال هذه الأدران والمآثم، وتلك الإساءات والمظالم، ممن تسلبوا مبادئ الرعية : من الحكام ودوى السلطان .

(١) الثاء (دراهم سكان) جمع ثاء، والثاء : الدهقان . أطر القاموس . (٢) الدهاقين جمع دهقان وهو التاجر أو رئيس الاقليم وهو فارسي معرب . (٣) هم ملتمو حياة الخراج للولاة . (٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الحارث أن عمل الرشيد هذا لم يكن من قبيل الاستصماء وإمسا هو من قبيل الإعانات في استيعاء الحقوق . (٥) يلاحظ الأستاذ الحارث أيضاً أن كل ما ذكر في هذا الباب لا يتناول رس المأمون وإنما كان ذلك بعده . والرشيد لم يحيط عليه إلا استصماء البرامكة حين تكلمهم وأن المأمون وعتت إليه رقعة فيها أن فلانا مات وترك لورثته كذا وكذا وكان المال يبلغ الملايين من الدراهم فكتب في الرقعة : هذا قليل لمن تقلب في دولنا وطالت خدمته لنا فشارك الله لورثته مما ترك لهم .

(د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نقيّد ملاحظة أخرى ، وهى نتيجة لازمة من نتائج الاستصماء والاعتصاب . تلك الملاحظة هى استفعال ثروه الخلفاء طبعاً ، واستفعال ثروة كبار رجالهم والمقربين من أفراد البيت الملكى من بطانة وحاشية ، واستفعال بدخهم ، واستفعال أعطياتهم . ونحن وإن كنا لم نجد مصدراً مطّام في هذا الموضوع ، وخاصة في العصر المأمونى ، فقد عثرنا في كتاب لطائف المعارف للثعالى ، أن « المكثفى » وهو قريب الصلة بعصر المأمون ، قد خلف مائة مليون دينار ! وهذا تفصيلها :

دينار

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من العين والورق والأواني المعمولة .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الفرش .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الكراع والسلاح والغلمان .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الضياع والعقار والأملأك .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الجوهر والطيب وما يجرى معهما .

ومن المعقول أن نتخذ من حالة هذا الخليفة العاسى مقياساً لغيره ، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطاناً وأكثر أعواناً ، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنًا ، ليسا بأقل منه بالثروة مكاناً !

أما ثروة كبار رجالهم ، فإننا نذكر لك هنا على سبيل المثال نصّاً هاماً ، يصح أن نخذه أساساً لتقدير ثروه أسرة الفضل بن سهل ، أو أسرة طاهر بن الحسين ، أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة . وهو النص الذى رواه سهل بن هارون أحد المعاصرين حاصداً ثروه البرامكة . وكلامه حجة لا محالة ، لأنه الى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على ما جرى أب الامور ووطنها في ذلك العهد ، فقد كان يشعل وطيفسة خازن دار الحكمة في أيام المأمون . قال . « .. وأمر الرشيد بضم أموالهم ، فوجد من العشرين ألف ألف

التي كانت مبلغ حياتهم ، اثني عشر ألف ألف مكتوبٌ على يَدِها صكوكٌ مغمومة
تفسيرها رقما ، حواشيها ، ما كان منها حياءً على غريسة أو استطرافٍ مُلحة بصتق به
يحيي . وأنت ذلك في ديوانها ، على تواريج أمانها ، فكان ديوان إفاق واكتساب فائدة ،
وقص من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسعين ألفا ، الى سائر
صياعهم وعلاتهم ودورهم وريآشهم والدقيق والجليل من مواعينهم ، فانه لا نصف أقله ،
ولا يعرف أيسره ، إلا مَنْ أَحصى الأعمال ، وعرف منتهى الآحال .

ويحوز لنا كذلك أن نستخلص مما صرف على رواج بُورَان المأمون ، مبلغ ثروه
الحسن بن سهل . كما يحور لنا أن نبين مقدار ثروه عبد الله بن طاهر من روايه
صاحب العجوم الزاهره الخاصة بإحدى واقفه في الكرم . ومؤداها . أنه اقتدى الأسرى
من الترك بنحو ألى ألف درهم . ثم أنظر ما رواه المسعودي في مُروجه حاصا بما
فعله ابراهيم بن المهدي ، في رباره للرشيد له ، اد أصطع له طَاهِيه حمله أطمعه نخمه .
وكان من حملتها حَامُ سَمَكٍ مقطوع ، فاستصعر الرشيد قِطْعَه ، واستفسر منه عن حقيقتها ،
فأحابه ابراهيم بن المهدي : يا أمير المؤمنين ، هذه أسنهُ السمك . وقدّرت نفقة ما في ذلك
الجمام نألف درهم !

ثم أنظر بدّحهم في لباسهم . وقد سبق لنا أن أشربا الى ما كانوا يلبسونه في المادامه ،
من مختلف الثياب وعاليها . ويرد أن نبين هنا ما وقفنا عليه من مخلفات بعض المعاصرين
من الخلفاء والقواد ، ايكُون مثالا تقر بيا لحالة مَنْ لم يصل الى علمها خبره . فقد دُكر أن
ما حلله المُكْتَنِي من الألبسة هو :

عدد

٤٠٠٠٠٠ من الشاب المقصوره سوى الخمامات .

٦٣٠٠٠ » الأثواب الخراسانية المروية .

٨٠٠٠ » الملاءات .

عدد	
١٣٠٠٠	العائم المروية .
١٨٠٠	الحُلل الموشاة النيمانية وغيرها منسوحة بالذهب .
١٨٠٠٠٠	البطائن التي من كِرْمان في أنابيب القصب .
١٨٠٠٠	الأبسطة الأرمية .

وذكروا أن دا اليميين توى وى حراسته ألف وثلاثمائة سراويل ديق لم يستعملها . وقيل لهم وجدوا فى كسوة بختيشوع الطيب ٤٠٠ سراويل ديق .

وقد اطلعنا فى الجزء العشرين من « كتاب نهاية الأرب » على أن ملك التُّبَّت قديم على المأمون، ومعه صَمٌّ من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجواهر، فأسلم الملك، وأخذ المأمون الصم وأرسله الى الكعبة . وطالما فيه أيضا أن ملك الهسد أهدى اليه هدية نفيسة، وكتب اليه معتدا أمواله وثروته، مما يدل على بدح العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البدح فى ذلك العصر، حتى أصبحنا نرى أبا العنَّاهيه مثلاً، وهو المعروف ببخله، يهدى الى الرشيد، فى سبيل طلبه لعتنه، ثلاث مَرَّاح، وكان العباسيون قد نفَّسوا فيها وى المَدَّات الى احتُرعت فى أيامهم، وكتب على كل مروحة بيتاً، قال فى مجموعها :

ولقد تَنَسَّمْتُ الرِّيحَ لِحَاقِي * فادأ لها من راحتيه شَمِيمُ
أعلقتُ نفسى من رحائك ماله * عَقُّ يَحْتُ اليك فى ورَسِمُ
ولربما استيأستُ ثم أقول لا ، * إن الذى ضمن الرِّيحَ كَرِيمُ

ولعلك اذا تذكرت أمر سُنَّ الأمين وبدخه وإسرافه مصافاً اليه ماذكرناها وغيره، تؤمن بما نقول من بدح العصر واستفحال ثروته . على أننا قد عثرنا على مصدرين، نشرهما مع الحيلة والحدرد، لبيان ثروة العصر . يتضمن الاول بيانَ الحَياة فى أيام المأمون، ويتضمن الثانى حالتها فى أيام أخيه المعتصم . مفترضين فى كلتا الحالتين حوازَ المبالغة

في التقدير ، ذلك لأن ديدن المؤرخين القدماء ، أن يمحّوا في الغالب الى المبالغة والغلو .
وإننا مع اقتراضنا المبالغة في التقدير والمصدرين ، نرى مع ذلك أن أى تقدير متواضع
للمخراج ، في ذلك العصر ، لابد أن يكون عطياً ودالاً على الثروة والعنى والندح .

(هـ) الخراج في عهد المأمون :

يمتاز عهد المأمون بوحود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية في جميع
الأقاليم التي كانت تحت حكم الدولة العباسية ، وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون
في تاريخه ، وقد أحببنا ، لما في ذلك الثبت من الفائدة ، أن نقله عنه . وها هو ذا :

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروش
السواد	درهم ٢٧٨٠٠٠٠٠	٢٠٠ / حلة نحرانيه
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠	٢٤٠ / رطلا من طين الحتم
كوردحلة ...	٢٠٨٠٠٠٠٠	
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠	
الأهواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ / رطل سكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ / فاروره ماء ورد
كرمان	٤٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ / رطل زيت أسود
مكران	٤٠٠٠٠٠٠	٥٠٠ / ثوب متاع يمانى
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ / رطل نمز
مخستان	٤٠٠٠٠٠٠٠	١٥٠ / رطل عود هدى
		٣٠٠ / ثوب معين
		٢٠ / رطل من الفانيد

(تابع) الخراج في عهد المأمون

الإقليم	الحياه من الدراهم والدنانير درهم	الحياه من العروش
نخاسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠ نقرة فضة ٤٠٠٠ ردون
جرحان	١٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق ٢٠٠٠ ثوب متاع ٣٠٠٠ رطل إهليلج ١٠٠٠ شقه إريسم ١٠٠٠ نعره فضة
قومس...	١٥٠٠٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبرى ٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل و ٣٠٠ جام
طبرستان والريان و دماوند	٦٣٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل غسل ١٠٠٠ رطل رب الرواين ١٢٠٠٠ رطل غسل
الري	١٢٠٠٠٠٠	
همدان	١١٣٠٠٠٠٠	
ماها البصره والكوفه	١٠٧٠٠٠٠٠	
ماسندان والريان	٤٠٠٠٠٠٠	
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل غسل
أدر بيجان	٤٠٠٠٠٠٠	
الجزيره وما يليها من أعمال الفرات	٣٤٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق ١٢٠٠٠ زق غسل ١٠ بزاه ٢٠ كساء

(تابع) الحراج و عهد المأمون

الحماية من الدراهم والدناير درهم	الإقليم	الحماية من العروض
٢٠ قسط محصور		
٥٣٠ رطل رقم		
١٠٠٠٠ رطل من المساج		
١٣٠٠٠٠٠ السراهي	أرمينية	
١٠٠٠٠ رطل صوغ		
٢٠٠ عمل		
٣٠ مهرا		
١٠٠٠٠٠	برقة	
١٢٠ لسط	إفريقية	
٣١٨٦٠٠٠٠ درهم	المجموع	
٤٠٠٠٠٠ من الدناير	قنسرين	
٤٢٠٠٠٠	دمشق	
٩٧٠٠٠	الأردن	
٣١٠٠٠٠	فلسطين	
٢٩٢٠٠٠٠	مصر	
٣٧٠٠٠٠	اليمن	
٣٠٠٠٠٠	الحجاز	
٤٨١٧٠٠٠		
٧٢٢٥٥٠٠٠	فيكون المجموع بالدراهم ..	
٣١٨٦٠٠٠٠	يضاف إليه جباية الأقاليم	
٣٩٠٨٥٥٠٠٠ درهم	المدكورة أعلاه ..	
	الجملة	

ديار وسواى ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم
باعتار الدينار ١٥ درهما وهو
تقدره في ذلك العصر



(و) الخراج في عهد المعتصم :

أما جباية الدولة في أيام المعتصم فهناك هي نقلا عن قدامه س جعفر ، كانت جباية السواد معظمها من الحطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد ، أي نواحيه في الشرق والعرب .

اسم الناحية	مقدار الحطة مالكتر	مقدار الشعير مالكتر	الدراهم
طساسيج السواد في الجانب الغربي :			
الأنبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن . .	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
» قطريل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
» بادوريا . .	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهر سبر	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوئي	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
هر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر حوير	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
ماروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابي الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
العلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
القلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠

(تابع) الحراج في عهد المعتمد

الدرهم	مقدار الشعر بالكتر	مقدار الحطه بالكتر	اسم الناحيه
(تابع) طساسيج السواد في الجانب الغربى			
٤٥٠٠٠	٤٠٠	٣٠٠	طسوح النهرين ..
٤٥٠٠٠	٤٠٠	٣٠٠	» عين التمر
١٥٠٠٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠	» الحيه والداه
٢٥٠٠٠٠	٤٥٠٠	١٥٠٠	سورا وبرسيا ...
١٥٠٠٠٠	٥٥٠٠	٥٠٠	البرس الأعلى والأسفل
٦٢٠٠٠	٢٥٠٠	٢٠٠٠	فرات نادقل .
١٤٠٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	طسوج السيلحين..
٢٠٠٠٠	٥٠٠	٥٠٠	رودستان وهرمزجرد . .
٣٠٠٠٠٠	٢٠٠٠	٢٢٠٠	تستر
٢٠٤٨٠٠	٢٠٠٠	١٢٠٠	ايعار يقطين
٢٧٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	كسكر

طساسيج السواد في الجانب الشرقى .

٣٠٠٠٠٠٠	٢٢٠٠	٢٥٠٠	طسوح برر جساور .
١٢٠٠٠٠٠	٤٨٠٠	٤٨٠٠	» الراذابين
١٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠	٢٠٠	» نهر يوف
٣٣٠٠٠٠٠	١٥٠٠	١٦٠٠	كلواذى ونهرين
٢٤٠٠٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	حازر والمدينه العتيقه
٢٤٦٠٠٠٠	١٤٠٠	١٠٠٠	روستقباد
١٥٠٠٠٠٠	١٥٠٠	٢٠٠٠	سلسل ومهرود
١٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	جلولا وجلالتا.. . .

(تابع) الحراج في عهد المعتمد

الدرهم	مقدار الشعير بالكتر	مقدار الحطة بالكتر	اسم الناحية
(تابع) طاساج السواد في الجانب الشرقى :			
٤٠٠٠٠	١٣٠٠	١٩٠٠	الذيين
٦٠٠٠٠	١٤٠٠	١٨٠٠	الدسكرة
٣٥٠٠٠	٥٠٠	٦٠٠	السديجين
١٢٠٠٠٠	٥١٠٠	٣٠٠٠	طسوح رار الرود
٣٥٠٠٠٠	١٨٠٠	١٧٠٠	الهروان الأعلى
١٠٠٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠	النهروان الأوسط
٣٣٠٠٠٠	٥٠٠٠	٤٧٠٠	بدرايا ونكسايا
٤٣٠٠٠٠	٤٠٠٠	٩٠٠	كور دحلة
٥٩٠٠٠	٣١٢١	١٠٠٠	مهر الصلة
٥٣٠٠٠	١٣٠٠	١٧٠٠	الهروان الأسفل
٨٨٢١٨٠٠	١٢٣٩٢١	١١٥٦٠٠	مجموع حراج السواد

فمجموع حياية السواد ماعشار نواحيه ١١٥٦٠٠ كتر حطه و ١٢٣٩٢١ كتر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامه المذكور بعد أن أورد نراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم ، فقد قال في إيراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات الصره من الحطه ١٧٧٢٠٠ كتر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كتر ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم » وقد قال المرحوم جرحى بك ربدان ولمل سبب هذا الفرق خطأ في قراءه بعض الأعداد ، على أن الفرو على كثرته لا يعتد به فيما نحن فيه . بقي علينا أن نقول الحطه والشعير الى دراهم ، وقد فعل جمعهم ذلك لحولها ماعتار ثمن الكثرين المقرويين من الحطة والشعير ٦٠ ديسارا والديار على صرف ١٥ درهما بديسار مبلغ ذلك

١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فإذا جمعت ذلك كله ، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصورة .

الدراهم المجموعة ورقا	٨٠٩٥٨٠٠
قيمة الحطة والشعر بالدرهم	١٠٠٣٦١٨٥٠
صدقات البصرة	٦٠٠٠٠٠٠
درهما	١١٤٤٥٧٦٥٠

هذا هو ارتفاع السواد ، فليستم الى إيراد حانات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب وهي مع السواد

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	ما قبله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠	الري ودمابود	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠	قزوین وريحان وأهر	١٨٢٨٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠	حراكان	٤٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
سجستان	١٠٠٠٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٥٠٠٠٠٠٠	قردي وبديدي	٣٢٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠	ديار ربيعة	٩٦٣٥٠٠٠
همدان	١٧٠٠٠٠٠	أرزن ومياقارقين	٤٢٠٠٠٠٠
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠	طروند	١٠٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠	ديار مصر	٦٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠٠٠٠
أذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠	المجموع	٣١١٥٨١٣٥٠
نقل بعده	٢٤٢٢٥٧٦٥٠		

(تابع) ارتفاع السواد وإيراد جبايات سائر الأقاليم

أقاليم المغرب	دماير	أقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم ..	٣٦٠٠٠٠	ما قبله ...	٣٥٩٢٠٠٠
جد حصص .	٢١٨٠٠٠	الحرمين .	١٠٠٠٠٠
» دمشق ..	١١٠٠٠٠	انيس .	٦٠٠٠٠٠
» الأردن	١٠٩٠٠٠	اليمامه والحريين .	٥١٠٠٠٠
» فلسطين..	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
مصر والاسكندرية .	٢٥٠٠٠٠٠	المجموع	٥١٠٢٠٠٠
نقل بعده	٣٥٩٢٠٠٠		

وإذا ما حولنا هذه الدماير الى دراهم ، باعتبار الديار ١٥ درهما فانها تساوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيره ، يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامه .



(ز) السعاليات والحاسوسية :

وهناك ملاحظه أخرى حديره بالقيده ، وهى انشار السعاليات والدسائس فى ذلك العصر انتشارا مرقعا . ولعل سبب ذلك حووح العباسيين الى استعمال الحواسيس والرقاء نكثريه هائله . فاطر مثلا ما جاء فى الجزء العشر من كتاب « نهابة الأرب » عن المأمون إذ يقول : إنه كان يحب سماع أحبار الناس حتى جعل يرسم الأخبار بعدد ألف محووز وسبعائة محووز . وتأمل حاسوسيه العصر التى لا سعد التة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصة ^١

وبعد ، فهما يكن من افراضك للمالعه والغلو فيما رويه لنا صاحب هاية الأرب ، فان اطلاقك على كتاب اس طيعور الذى كان معاصرا لكثير من رواته ، والذي كان

قرب العهد بالمأمون وعصره ، فبعك بكثرة العيون وكثرة الأرصاد، كثره قد تهولك حقاً وتدهشك صدقاً ! .

وقد سبق أن قلنا إن حل الساسة العباسيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار، ويحسون الرجل الكُتْمَةَ الفُكْلَةَ . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . وملك اذا نظرت الى قول المأمون « تحتل الملوك كلُّ شئ، إلا ثلاثة . إيشاء السر، والقدر في الملك، والتعزُّص للحرم » علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم، وأنها في المنزلة الأولى من اعتبارهم، واستطعت أن تغلظ لم كانت حططهم غير واضح ولا حليه، وربما كانت مُعَاهَ مهمة .



(ح) الدعاوة ” البر وياخذنا “ :

وهناك مسألة أخرى محدثك بها ، وهي حديره بالملاحطة قَيْسَه بالحث ، تلك هي عنايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه . فقد كان إيتاقهم لأمرها وعلمهم بأفانيها ووقوفهم على نُظْمِها ، نالها مملعا عطيا ، إذ كان في مُكْتَنِمِ وطوع سانهم ، أن يصوروا الحق باطلا والباطل حقا . وإن فيما رواه الطبري وغير الطبري عن سى حياة المأمون ، واستخدامه للرقاع تعلّق على طهر من يُقتل أو يُعاقب من رحلات دولته ، العيبة والكفاية فيما نحن بسبيل القول فيه .

وأنا نسوق اليك مثلي لتأبّد ما دهما اليه

فقد ذكر الطبري أن المأمون لما قتل على س هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلّق على رأسه ليقرأها الناس ، فُكِّت - وقد ذكرنا هذا الكتاب فيما سبق لماسية أخرى - : « أما بعد ، فان أمير المؤمنين كان دعا على س هشام فيمن دعا من أهل حراسان ، أيام المخلوع ، الى معاوئته والقيام بحقه ، وكان فيمن أحاب وأسرع الإحابة ، وعاون فأحسن المعاونة ، فرغى أمير المؤمنين ذلك له ، واصططعه ، وهو يطن به تقوى الله

وطاعته ، والانهاء الى امر أمير المؤمنين في عمل إن أسد اليه في حسن السيرة وعفاف الطَّعْمة . وبدأه أمير المؤمنين بالإفصال عليه ، فولَّاه الأعمال السديّة . ووصله بالصلوات الجريئة الى امر أمير المؤمنين بالطرف في قدرها ، فوحدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم . فزيدته الى الخيانة والتصنيع لما استرعا من الأمانة ، فاعده عنه وأقصاه ، ثم استقال أمير المؤمنين عَثْرُهُ ، فأقاله إياها ، وولاه الجبل وأذَرَ بِحاج وكور أَرْمِيدَهُ ، ومحاربه أعداء الله الخونة ، على ألا يعودَ لما كان منه ، فعاود أكثر ما كان بتقديمه الديار والدرهم على العمل لله ودينه ، وأساء السيرة ، وعَسَفَ الرعيه ، وسفك الدماء المحترمة . فوحه أمير المؤمنين مُخِيفَ بن عنبسة مباشرة لأمره ، وداعيا الى تلاقى ما كان منه ، فوثب بعجيف يريد قتله ، فقوى الله عجيما بيته الصادقة في طاعه أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه . ولو تم ما أراد بعجيف لكان في ذلك ما لا يُستدرك ولا يُستقال ، ولكن الله اذا أراد أمرا كان معمولا . فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في عليّ بن هشام ، رأى ألا يؤاخذ من حلفه بدنسه ، فأمر أن يحرق لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يحرق عليهم ، مثل الذي كان جاريا لهم في حياته . ولولا أن عليّ بن هشام أراد العظمى بعجيف لكان في عداد من كان في عسكره ممن حالف وحان ، كعيسى بن منصور وبطرائه والسلام .

فأنت ترى من هذا الى أبة درجة من العناية والاهتمام وصلت الدعاءة « البرواحدة » المأمونية !

ولا عرو فقد أفاد المأمون أيما إفاده . وقد كان المسلمون ، بسبب نشاط العباسيين والدعوة لأنفسهم ، أطوعَ لهم مما كانوا لنبي أميه ، واعتقدوا أن حلالهم تنقئ أمد الدهر حتى يأتي السيد المسيح . وعُرسَ في أذهان الناس . تنوال الأرماء ، أن الخليفة العباسي اذا قُتِل احتل نظام العالم واحتجحت الشمس وامتع القطر وحفّ السات ! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعاءة لأنفسهم . واهتمامهم أعمى اذتمام بتبوير تصرفاتهم وتركية أعمالهم .

ثم أنظر ماذا حصل لأبراهيم بن المهدي، ترأى الدعوه المأمونية أئت إلا أن تقعد في دار المأمون ليضطرا اليه سواهشم والقواد والجد، وصير الدعاة المقتعة الى كان متقفا بها في عتقه، والملحمة الى كان ملتحقا بها في صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أحد.

واطر أحرا - رعاك الله ووفقك - الى ما يتحدثنا به أحمد بن أبي دؤاد عن كلمة المأمون في هذا الصدد، قال « قال لي المأمون : لا يستطيع الناس أن يصفوا الملوك من وررائهم، ولا يستطيعون أن يظفروا بالعدل بين الملوك ومخائهم وكفائهم، ومن صانعهم ويطائهم، وذلك أنهم يرون طاهر حرمه وحده واحتياج وصيحه، ويرون إيقاع الملوك بهم طاهرا، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رعة في ماله أو رعة في مص ماله بخود العوس به. ولعل الحسد والملافة وشبهه الاستبدال اشتركت في ذلك. وهناك حياتات في صلب الملك أو في بعض الحرم، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك. ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الدب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه، لما في ذلك من الفساد على علمه أن عدده غير مسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة».



(ط) صعوبة مهمة المؤرخ :

والحق أنها مهمة صعبة أن تستكشف حقيقة الظالم من المظلوم، والغالب من المعلوم، والهادي والصالح، في هذه الدولة التي لعت فيها الأقلام والألسنة دورا عظيمًا، ولولا ما حجا الله من الاطلاع على شتى المصادر، وقصينا في ذلك تمهيدا طويلا ودرسا مملا متعا، فطالما أقوال الأحرار المتصارعة، ووازنا بين كلمة هذا ودفاع ذلك، لما كانا الفين بعض ما بلغناه من إمالة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية. وفي هذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة، وآل لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية.

الفصل الثمانون شخصية المأمون

توطئة — كرمه وسخاؤه — كيف ملك المأمون قلوب طلائع — مدبره لرحال دوله — قدره للشعاع
الأدبية — عدله وابطاعه — عمره — نصره بالأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مدهه
الدين — كلمة ختامية .

(أ) توطئة :

زيد هذا أن محلل أخلاق المأمون ، ويريد أن يستقصى كل ما قيل عنه وأن يدرس
شئى بواحيه الخلقية بما يستجهم من العاية والتعليق والتوصيح . وسعتمد فيما سكته على
الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . ورحو أن يوفق فيما سعانيه .

(ب) كرمه وسخاؤه :

يقول صاحب الحجوم الزاهرة : انه لم يقرز ملك ولا سلطان فى يوم واحد مثل
ما قرزه المأمون يوم ولّى ولده العباس على الخزيه ، اد أمر لكل من المعتصم والعباس
بمئة ألف دينار ، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من نافلة القول أن تذكر أن المأمون كان من أكثر حكام العباسيين حودا
وأسطهم يدا ، وأسمهم نفسا ، بعد أن برى كتّ التاريخ والأدب معمة بما كان له من
حوادث عريه فى السعاء والحدود .

والدى يتبع ما ذكره المؤرّحون من حوادث حوده وفيص إعامه ، يرى أن كرم
المأمون وسخاءه يرجع الى عاصر محتله فى نفسه ، فمنها ما يرجع الى ما فى فطرته من أريحية
واهتزاز للعروف ، ومنها ما يرجع اليه كسياسى يريد أن تطهر ويملك القلوب ، ويوطّد
أركان سلطانه بالمال .

ونحن اذا بطرنا الى الدوحة الهاشمية الى هتزع عنها المأمون، وأنه شأ في حجر الخلافه في العيم والترف. ومن هذا شأنه قل حرصه على المال، وادا بطرنا أيضا الى أنه حاض معه سياسةً وحربيةً كان المال من أفعل آلاتها وأبعدها أثرًا — وقد بنا لك في العصر الأموي ما كان لئال من أنزقوى في إقامه سلطان بني أميه وبوطيده — لم نزلوا كثيرا فيما أُرعت به كتب الأدب والتاريخ من حوادث حود المأمون وكرمه. ولسطر فيما رونه لنا اس طيعور في هذا السبيل، فانه قال. إن المأمون لما فتح « حصن قُزه » وعَم ما فيه اشترى السني بسته وحمسين ألف دينار، ثم حَلَّ سبيلهم وأعطاهم دينارًا دسارا .

وهاك مثالًا مما يصح أن تكون من آثار أرحية المأمون وإرادته بوطيد سلطانه

نحدثنا اس الأنير والطبري، أن العسني صاحب اسحاق بن اراهيم قال كُت مع المأمون بدمسق، وكان قد قل المال عنده حتى أصاب وشكا ذلك الى أبي اسحاق المعتصم، فقال له يا أمير المؤمنين، كألك المال وقد وافاك بعد حُجْمه، وكان قد حَمَل اليه ثلاثين ألف ألف ألف درهم من حراح مايتولاه له. قال: فلما ورد عليه ذلك المال، قال المأمون ليحيى بن أكرم. أخرج ساطر الى هذا المال، قال. فخرحا حتى أصحرا ووفعا يطرانه، وكاب قد هُتَّى بأحسن هيئه وحُلَّت أناعرُهُ وألبست الاحلاس الموشاه والحلال المصعنه وقُلِدَّت العيَن، وجُعِلَت الدَرُّ بالحرر الصيبي الأحمر والأحصر والأصغر، وأُنْدِيت رؤسُها، قال. فطر المأمون الى شيء حسن، واستكثر ذلك فَعَطَّم في عيسه، واستشفوه الناس ييطرون اله وبعجون منه، فقال المأمون يحيى. يا أنا محمد، يصرف أصحابنا هؤلاء الدين را هم الساعه حاشين الى مارلهم، وسصرف هذه الأموال وقد ملكناها دونهم. إنا إذا للثام ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له. وَقَّع لآل فلان مَألف ألف، ولآل فلان مئلهما، ولآل فلان مئلهما، قال: فوالله إن زال كذلك حتى فرَّق أربعه وعشرين ألف ألف درهم، ورحله في الركاب، ثم قال. ادفع الباقي الى المعلق يعطى جدنا. قال العيسى: بختت (١) يقول أسادنا الشيخ عد الوهاب الحار « أحسب أن ألقا رائدة في أاراتهم المقولة لأن حساب ذلك يزول الى مليارين من الدنانير، وعلة بني العباس في عشر سنوات لا تبقى بذلك، فكيف بمصر وحدها » .

حتى قُتُّ نَصَبَ عِيْهَ ، فلم أرَدَ طرقِ عِها لا يلحطى إلا رَأَى سَتَكَ الحَالِ ، فقال
يا أبا محمد : وَقَعَ لَهِدَا بِمِخْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مِنْ سِتِّهِ أَلْفِ أَلْفٍ . قال : فلم يَأْتِ عَلَى
لَيْتَانِ حَتَّى أَهْدَتْ الْمَالَ » .

ومما يدل على كرم نفس المأمون وحُسنِ تَسْطِطِهِ ، ما رواه القاسم بن محمد الطيعورى .
قال : «شكا اليريدى الى المأمون حَلَّةَ أَصَابِهِ وَدَسَّ لِحْقَهُ ، فقال ما عندنا في هذه الأيام
ما إن أعطسنا كِهْ بَلَعَتْ بِهِ مَاتَرِدَ ، فقال . ما أمر المؤمنين . إن الأمر قد صاق على- ، وإن
عُرِمَ مَائِي قَدْ أَرَهَقُونِي ، قال « فَرَمْتُ لِمَفْسِكَ أَمْرًا سَلَّ بِهِ نَعْمًا ، فقال لك مَادَمُونَ فِيهِمْ
مَنْ إِنْ حَرَكْتَهُ لَبَّ مِمَّ مَا أَحَبَّ ، فَأَطِيقُ لِي الْخَيْلَةَ فِيهِمْ . قال فل ما بدا لك ، قال .
فإذا حصروا وحصرت مُرْمَرًا فَلَا مَالَ الْخَادِمِ أَنْ يُوصَلَ إِلَيْكَ رَقْعَتِي . فإِذَا هَوَّأَهَا فَأَرْسَلَ إِلَى
«دَحْوَلُكَ فِي هَذَا الْوَقْتُ مُتَعَدِّرٌ ، وَلَكِنْ احْتَرَلِمَفْسِكَ مِنْ أَحَدٍ » . قال : فلما علم أبو محمد
بمجلوس المأمون واجتماع ندمائه اليه وسيق أنهم قد تَمَلَّوْا مِنْ سِرِّهِمْ ، أتى الباب فدفع
الى ذلك الخادم رَقْعَةً قَدْ كَسَهَا ، فَأَوْصَلَهَا إِلَى الْمَأْمُونِ ، فَمَرَّأَهَا فإِذَا فِيهَا .

يا حَيْرَ إِحْوَانِي وَأَصْحَابِي * هَذَا الطَّقِيلُ لَدَى الْبَابِ
حَرَّ أَبِ الْعُومِ فِي لَدِّهِ يَصْنُو إِلَيْهَا كَلَّ أَوَابِ
فَصَبَّرُونِي وَاحِدًا مَعَكُمْ أَوْ أَحْرَحُوا لِي بَعْضَ أَتْرَانِي

قال : فَمَرَّأَهَا الْمَأْمُونُ عَلَى مَنْ حَصَرَهُ ، فقالوا : ما ندعى أن يدخل هذا الطَّقِيلُ عَلَى مِثْلِ
هَذِهِ الْحَالَةِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ . « دَحْوَلُكَ فِي هَذَا الْوَقْتُ مُتَعَدِّرٌ ، فَاحْتَرَلِمَفْسِكَ مِنْ
أَحَبِّتِ تَادِمِهِ » . فقال : ما أرى لنفسي اختيارًا عِزَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، فقال له المأمون :
قد وقع اختياره عليك فسرُّه له ، قال : يا أمير المؤمنين ، فما أكونُ شَرِكَ الطَّقِيلِ . قال .
ما يمكن ردَّ أُنَى مُحَمَّدٍ عَنْ أَمْرِي ، فإن أَحَبِّتِ أَنْ تَحْرُجَ وَإِلَّا فاعْدِ بِمَفْسِكَ . فقال .
يا أمير المؤمنين ، له عَلَى عَشْرَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ! قال : لا أَحْسَبُ ذَلِكَ نُقْصَةَ مَالِكَ وَمَنْ
بِجَالِسَتِكَ ، قال . فلم يَزَلْ يَزِيدُهُ . عَشْرَةَ عَشْرَةٍ ، وَالْمَأْمُونُ يَهْوِلُ لَهُ . لا أَرُصِي لَهُ بِذَلِكَ ،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون . فعَلَّها له ، قال . وكتب له بها الى وكيله ،
 ووجه معه رسولا . فأرسل اليه المأمون « قَنَصْ هذه في هذه الحال أصلح لك من
 مادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبه » .

ويجتلي سحاء المأمون ، مع الوفاء وطيب النفس ، في موقفه مع علام سَعِيدِ الجوهريّ
 الذي كان قد لُرَّ بالمأمون في الكُتَّاب ، فكان اذا احتاح المأمون الى نحو لَوْحِه نادر اليه
 فأخذ اللوح من يده فحاه وعاب على عَنانِ المأمون ومسحَه وحاه به فوصعه على
 المدبيل في حجره . فلما سار المأمون الى حراسان وكان من أحبه محمد الأُمس ما كان ، خرج
 اليه علام سعيد هذا فوقف بالناب حتى جاء أبو محمد اليربُدي . فلما راه عرفه ، فدخل
 فأحبر المأمون ، فقال له مستبشرا بقدمه لك النشري ' ثم أدِن له فدخل عليه ، فضحك
 اليه حين رآه ، ثم قال . أتذكر وأنت تادري الى نحو لوحى ! قال : سمعنا سيدي . فوصله
 بمائة ألف درهم .

واظهر فيما يحدثنا به الطريّ عن محمد بن أيوب ، قال . إنه كان بالصره رجل من
 بجي ميم وكان شاعرا طريفا ، حيثما ما كرا ، وكنت أنا وآلِي الصرة آنس به وأستعليه ،
 فأردت أن أحدهه وأستزله ، فقلت له . أنت شاعر ، وأب طريف ، والمأمون أجود من
 السحاب الحافل والريح العاصف ، فما يبعك منه ؟ قال : ما عدى ما يُقَلِّتي ، قلت : فأما
 أعطيك مجيئا فارها ونفقة سامة وتخرج اليه وقد امتدحتة ، فإني إن حَظَّيت بلفائه ،
 صِرْتُ الى أُميتك ، قال والله أيها الأمير ، ما إحالك أعدت ، فأعد لي ما ذكرت ، قال :
 فدعوت له بجيب فاره ، فقلت : شألك به فأمَظَه . قال : هذه إحدى الحُسَيْنَيْن ، فإما ل
 الأخرى ؟ فدعوت له بثلاثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسك أيها الأمير قصرت
 في النفقة ، قلت : لا ، هي كافيه إن قصرت عن السرف ، قال : ومتى رأيت في أكابر سَعَد
 سرفا حتى تراه في أصاعرها ! فأخذ الجيب والنفقة ، ثم عمل أرحورة ليست بالطويلة ،
 فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء على ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ، قال :

وكيف؟ قلت: تأتي الخليفة ولا تأتي على أميرك! قال: أيها الأمير أردت أن تحدى موحدي
 هذا! أما والله ما لكرامتي حملي على بحبك ولا حدث لي بمالك الذي ما رايه أحد
 قط إلا جعل الله حذاه الأسفل، ولكن لأذكرك في شعري وأمدحك عند الخليفة، أهم
 هذا، قلت قد صدقت، فقال: أما ادأدت ما في صميرك، فقد ذكرت وأثبت
 عليك، قل: فأنشدني ما قلت، فأنشده، فقلت أحسنت، ثم ودعي وخرج، فأتى الشام
 وإذا المأمون «سَلَمُوس». قال: فأحبرني، قال: «بينا أنا في عمرة قُزَّة، قد ركتُ نحبي
 داك، ولبست مُقْطَعاتِي وأنا أروم المسكر، فإذا أنا تكهل على حل فاره، ما يَقَرَّ قراره
 ولا تدرك حُطاه، قال: فتلقاني مكافئة ومواحهه وأنا أردد نسيد أرجوزي، فقال: سلام
 عليكم! بكلام حَهْوَرِيّ ولسان سَيط، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!
 قال: في إب شئت، فوقف. فتصوّعتُ منه رائحة العبر والمسك الأذفر، فقال:
 ما أولك؟ قلت: رَجُلٌ من مُصرٍ، قال: ونحن من مصر، ثم قال: ثم ماذا؟ قلت: رحل
 من بني تميم، قال: وما بعد تميم؟ قلت: من بني سَعْد، قال هيه! فإقْدَمَكَ هذا
 البلد؟ قال: قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أُنْدَى رائحةً، ولا أوسع راحةً،
 ولا أطول باعا، ولا أمدّ معا، قال: فما الذي قصدته به؟ قلت: شعر طيب يلد
 على الأهواء وتقفيه الرواة ويحلّو آذان المستمعين، قال: فأنشدني، فعصبتُ وقلت:
 ياربيك! أحررتك أُنَى قصدت الخليفة شعر قلته ومدح خبرته، تقول أشدّيه! قال:
 فتغافل والله عنها وتطامن لها وألني عن حواها، قال: وما الذي تأمل منه؟ قلت:
 إن كان على ما ذكر لي عنه، ألف دينار قال: فإنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر
 جيّداً والكلام عدا، وأصع عنك العاء وطول الترداد، ومتى تصل إلى الخليفة وبيك
 وبه عشرة آلاف راح وبابل! قلت: في الله عليك أن تفعل، قال: نعم، لك الله على
 أن أفعل، قلت: ومعك الساعة مال؟ قال: هذا على، وهو خير من ألف دينار. أنزل لك
 عن طهره، قال: فعصبت أيضاً وعارصني نَزَى سَعْد وحمه أحلامها، فقلت: ما بساوى

هذا العمل هذا الحبيب، قال - فدرع عنك الغل، ولك الله على- أن أعطيك الساعة ألف دينار، قال . فاشدنه :

مأمونُ يادا الميَّ الشَّريفة * وصاحبَ المرتبةِ الميَّفة
وقائدَ الكتيبةِ الكثيفة * هل لك في أَرْحُوزَةِ طَريفة
أَطْرَف من فقه أُنَى حَيَفة * لا والدي أُنْت له حَلِيفة
ماطَلِمْتُ في أَرْصا صَعيقة * أَمِيرًا مُؤتته خَفيقة
وما أَحتَى شَيْثا سَوَى الوَطِيفة * فالدُّثُّ والمعْه في سَمِيفة
* واللصُّ والتَّاحِرُ في قَطيقة *

قال : فوالله ما عدا أن أشدته، فادا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق، يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته ! قال : فأحدي أُنْكَلَّ، ويطرأى بتلك الحالة فقال : لا بأس عليك أي أحي، قلب . يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أتعرف لغات العرب؟ قال إني لَعَمْرُ الله ! قلت : من جعل الكاف منه مكان القاف؟ قال : هذه حَمِير، قلت . لعننا الله ولن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم ! فصحك المأمون وعلم ما أردت، وألتمت إلى خادم إلى حاسه فقال : أَعْطِه ما معك، فأخرج إلى كيسا فيه ثلاثة آلاف دينار، فقال . هاك، ثم قال . السلام عليك ومصى، فكان آخر العهد به .

أما عن كرم نفسه فان ابن طيمور يحدثنا أن محارقا قال . كنا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعَريبُ معا، فقال : عَنَّ يا محارق، فقلت . أنا محمود، فقال : يا عَريبُ حُسيه، فوصفت يدها إلى عصدي، فقال لها المأمون . قد اشتبهته، تحب أن أَرْجُكِ؟ قالت . نعم ! فقال مَن تريد؟ قالت : هذا، وأَوْمَأَتْ إلى محمد بن حامد، فقال : أشهدوا أني قد زوّجتها منه . ثم انظر ما استطرد به محارق من أن المعتصم لما وَلِيَ، كتب إلى اسحاق ابن ابراهيم : أن مَرْ محمد بن حامد أن يُطَلِّقَ عَريبًا ، فأمره فتأبى، فكتب إليه : أن

أضر به ، فصر به بالمقارع حتى طلقها . ففى هذه الرواية ما يساعد على الوصول الى تنظير فى هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما كرم بطانته واقتفاؤهم أثره ، وترشيمهم خطواته ، فإن الحديث فى ذلك يطول ، وقصارانا أن نحيل الى ما فعل طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وعيرهما ، فاطلب ذلك فى مطانة .

« وبعد » فانه لمن الجليل المتع حقاً أن يكون الملك كريماً بسجيته ، جواداً ببرعته ، وقد يكون أجمل وأمتع ، وأبلغ وأوقع ، أن يكون من وراء فواصله وإنعاماته تشجيع الكفايات على الطهور ، واستحثاث أصحاب الهمم والعزمات ، والمواهب والعقريات ، على التبريز والإحسان ، والإحادة والإتقان ، خدمة لنى الإنسان ، ورفعة للأوطان .



(ج) كيف تملك المأمون قلوب بطانته :

زيد أن ترك الكلمة فى تصور هذه الناحية ، لما يرويه لنا ولادة المأمون أنفسهم ، فقد قال رجل من إحوه المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أى طالب ، وكذا كان أبوه فله ، فدفع المأمون ذلك وأكروه ، ثم عاد بمثل هذا القول ، فدخل الى رحله ثم قال له : امص فى هيئة القراء والنسك الى مصر ، فادع جماعة من كبارها الى العاسم بن ابراهيم بن طاطا ، وأذكر مناقبه وعلمه وفصائله ، ثم صر بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائبه فادعه ورعبه و استجابته له ، وانحس ع دفين نيته بحثاً شافياً ، وأثنى بما سمع منه . قال : فعلى الرجل ما قال له وأمره به ، حتى اذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام ، قعد يوماً ساب عبد الله بن طاهر ، وقد ركب الى عيد الله س السرى بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام اليه الرجل فأخرج من كته رقعة فدفعها اليه ، فأحدها بيده ، فها هو إلا أن دخل فخرج الحاجب اليه ، فأدخله عليه ، وهو قاعد على نساطه ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مدّ رجله وحفاه فيهما ، فقال له : قد فهمت ما فى رُقعتك

من جملة كلامك ، فهات ما عندك ؛ قال : ولى أمانك وذمة الله معك * قال : لك ذلك . قال :
 فإظهر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأحبره بفضائله وعلمه وزهده ، فقال له عدالله : أنصفني *
 قال نعم ، قال : هل يحب شكر الله على العباد ؟ قال نعم ، قال : فهل يحب شكر بعضهم لبعض
 عند الإحسان والمنة والتفضل ؟ قال نعم ، قال : فتجىء الى وأما في هذه الحال التي ترى :
 لي حاتم في المشرق جائز وفي المغرب كذلك ، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول ، ثم
 ما التفت يميني ولا شمالي وورائي وقدامي . إلا رأيت بعمه لرحل أعمها على ومته حتم
 بها رقبتي ويداً لائحة ببضاء ابتدأني بها مفصلاً وكرماً ، فتدعوني الى الكفر بهذه العمه
 وهذا الاحسان ! وتقول اعدرب من كان أولاً لهذا وآخراً ! واسع في إزالة خيط عققه وسفك
 دمه ! رالك لو دعوى الى الجسه عياناً من حيث أعلم أكان الله يحب أن أعذربه وأكفر
 إحسانه ومته ، وأنكث بيعته ! فسكت الرجل ، فقال له عد الله أمّا إنه قد بلغني
 أمرك ، وتالله ما أحاف عليك إلا نفسك ، فارحل عن هذا البلد ، فإن السلطان الأعظم إن
 بلغه أمرك ، وما آمن ذلك عليك . كنت الجاني على نفسك ونفس عيرك . فلما أيس الرجل
 مما عده حاء الى المأمون فأحبره الخبر ، فاستنشر وقال : ذلك عرس بدى ، وإلّف أدبي ،
 وترت تلقحي ، ولم يظهر من ذلك لأحد شيئاً ولا علم به عد الله إلا بعد موت
 المأمون .

وانظر الى تلك النصيحة التي تقدم بها عد الله بن طاهر لمصور بن طلحة ، يهاه
 عن الكلام في الإمامة اذ يقول : ” إماما نت شعرنا على رعوسا بنى العباس “ . ثم انظر
 الى ما كتبه المأمون الى عد الله المذكور :

أخي أب ومولاي * ومن أشكر نعماء
 فما أحببت من أمير * فإني الدهر أهواه
 وما تكره من شيء * فإني لست أرساه
 لك الله على ذاك * لك الله لك الله

واظر الى ما رواه الطبري عما قاله عبد الله بن طاهر وهو مُحاصر بمصر عبيد الله
ابن السري إذ قال :

بَكَرْتُ نُسْلُ دَمْعًا * أَنْ رَأْتُ وَشَكَ بَرَّاحِي
وَتَدَلْتُ صَمِيلًا * يَمِيًا يَوْشَاحِي
وَتَمَادَيْتُ بِسِيرٍ . لَغٍ - لَدَوْ وَرَوَّاح
زَعَمْتُ حَهْلًا نَانِي * بَعْتُ عَيْرُ مُرَّاح
أَقْصِرِي عَنِّي فَإِنِّي * سَالَكُ قَصْدِ فَلَاحِي
أَنَا لِلْأَمُونِ عَبْدٌ * مَهْ فِي طَلِّ حَنَاج
إِنْ يُعَايِ اللَّهَ يَوْمًا . فَهَرِيبٌ مُسْتَرَّاحِي
أَوْ يَكِي هُلُكُ فُقُولِي * مَعْوِيلٌ وَصِيَّاح
حَلٌّ فِي مَصْرَ قَبِيلٌ * وَدَعَى عَنكَ التَّلَّاحِي

ألا يحوز لنا أن نستخلص مما قدمناه لك أن المأمون كان محبوا ما عبد بطاقته ! ولنا
نمى بذلك أن الأئمة لم تكن محبوا ، وأن موته ألم أهل بغداد وجدها ، ولا ننكر أن بعضا
من جنود طاهر بن الحسين انضم إلى الأئمة طمعا في ماله وحبا في سخائه مما يتناه
لك في موضعه ، ولكننا الآن بموقف الدرس يحللون أخلاق المأمون ، وفي عقننا ألا تترك
ماحيه من بواحيه من غير أن يقيها حقها من البحث ، ومعطيا بصبها من الاستقراء .

« وبعد » فانه مما لا مدوحة لليك عه أن تكون وادعا محبا الى بطاقته وحاشيته ،
باحسانه اليهم ، وتعهدده إياهم بعطفه ورعايته ، وأن يحدد عليهم ويرعاهم بعباية تشملهم
الطافها وتقلد أعناقهم منها ، وتكون أشمل للرعية وأرعى للأفراد لحقهم من شخصه الخليل ،
إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتباين مراتبها ، وهو عظيم البعة أمام الله
والتاريخ عمن تملك عليهم وتولى أمر ديارهم وأحترهم .



(د) تقديره لرجال الدولة :

كان المأمون أكثر توفيقاً من أخيه الأمين ، وكفاية بطاقته ، وقُدرة قادته ، وحريم مشيريه ، ونَصير وُلاته . وكان ، مع طهره بالصحاح من حاصته ، كثير التأمل لما يحرى في ملكه من مظاهر الصعف والقوة ، حريصاً على تدبر ما يتر به من مختلف الشؤون ، و تعزف الشخصيات القوية التي رحو أن يستند اليها الملك ويتأد بها النظام .

ولقد حدثنا الطبري في تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له : يا إسحاق في قلبي أمرٌ أنا معك فيه مد مدّه طويلة . وإنما سطنت في هذا الوقت لأفشيهِ اليك ، فقلت : قل يا سيدي ما أمير المؤمنين ، فاما أنا عبدك وابن عبدك قال بطرت الى أنى المأمون وقد اصطع أربعة أمحوا ، واصطعت أنا أربعة لم يُفلح أحدٌ منهم ، قلت : ومن الذين اصطعهم أحوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعتَ ، وعبدُ الله اس طاهر ، فهو الرجل الذي لم يَر مثله ، وأت ، فأنت والله الذي لا يمتاض السلطان ملك أبداً ، وأحوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثلُ محمد ! وأنا فاصطعتُ الأميين ، فقد رأيتَ الى ما صار أمره ، وإشساس ففَسِل رأيه ، وإيتاح فلا شئ ، ووصيفا فلا مُعي فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين . جعلني الله فداك ، أجب عن أمان من غصبك ؟ قال : قل ؛ قلت : ما أمر المؤمنين . أعرك الله ، نظر أحوك الى الأصول فاستعملها فأحب فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تُحب ، إدا لا أصول لها . فقال . يا إسحاق ، لمقاساة ما مرّ في طول هذه المدة أسهل على من هذا الحواب .

ولقد كان المأمون ، الى جانب هذه الخبرة بما يحتاج اليه من صفوة الرجال ، بصيرا بما في مملكته من ألوان المكر ووصوف الرياء . فقد حدثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدي ، قال : قال المأمون يوما ، وفي مجلسه جماعه ، هاتوا من عسكرنا مَنْ يطلب ما عدنا بالرياء ، قال : فقال كل واحد بما عده : إما أن يقول في عدو بما يقدح فيه ، أو يقول

بما يعلم أنه بسرّ خليفته، فلما قالوا ذلك، قال : ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يتحدث عن أهل عسكره أهل الرياء، حتى والله لو كان قد أقام في رحل كل واحد منهم حولاً محرماً ما زاد على معرفته . قال . فكان مما حفظت عنه في تلّب أصحابه أن قال، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس . تسبيح حميد الطوسي، وصلاة فحطه، وصيام البوشخاني، ووصوه المريسي، وباء مالك بن شاهي المساحد، وكاء إبراهيم بن ريهة على المبر، وجمع الحسن بن قريش اليتامى، وقصص محبا، وصدقه علي بن الحفيد، وحملاں إسحاق بن إبراهيم في السبيل . وصلاه أبي رحاء الصبحي، وجمع علي بن هشام القصاص . قال : حتى عددا جماعة كثيرة، فقال لى رحل من عطاء العسكر، حين نرحلنا من الدار، بالله هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشدّ تقيرا من هذا ؟ قلت : اللهم لا ! فحدث بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأحرار والعلم، فقال : وما يصنع بهذا، قد شهدت رسالته الى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء، يحبر بما يهيم رجلا رجلا، حتى لهوها أعلم منهم بما في منازلهم . وإن في ذبوع هذه الأخبار عن المأمون دليلا على عابته بشعر دعوه الملك الموطلد الذي يئس المحاتلون من التكرله والخروج عليه، فان طهور الملوك بالقاذ الى سرائر الرعية، يزيدهم قوة الى قوة، وسلطانا الى سلطان .

ولما ادا بطريرا الى من استورره وأعلى مكانه واستحلصه لنفسه من رحالات دولته وقواد ملكه، لم تردّد في الحكم للمأمون، وأنه كان الموقّق المسند في اختيار أهل الكفايات والنبوع .

وقد كان، الى حاسب هذا، قدّر الكفاية في خصوصه . ونظره فيما رواه ابن طيعور عن الحسن بن عبد الخالق خاصا رأى المأمون في الفصل بن الربيع، وهو الذي تعلم مقدار إساءته اليه، تلك على هذا؛ فقد قال المأمون في معرض الحديث عن الفصل : « كان يدبر الخطأ فيقع صوابا، ويبعث بالجوش الضعيف فيقع به النصر، وأدبراً نافع غير ذلك . فلما وقعت على البصيرة من أمرى، وفكرت في نفسي، وعملت بالأحرز

فى ذلك، ملّت الى الحرم فوردتُ العراقَ . وإن الفصلَ من الربيع بقية الموالي . فلا تخفّره بذلك عني، فاني أكره أن يبلغه عني ما يسره» .

ويؤيد صحة هذه الرواية ما ذكره بشر السامانيّ من المعاصرين اذ يقول : «سمعت أحمد ابن أبي خالد يقول : كان المأمون اذا أمرًا بأمر فطهر من أحدا فيه تقصيرٌ، يقول : « أنزول أنى لا أعرف رجلًا يباني ، لو قلدته أموري كلّها لعم بها ! » فقال بشر : فقلت لأحمد بن أنى خالد : يا أبا العباس، من يعنى » قال . الفصلُ من الربيع .

ويظهر أن خطه المأمون فى تقدير الكفايات أنى وُحِدَتْ، قد اتبّعها قادة المأمون نفسه . فان ابن طيغور يحدّثنا أنه لما وُلّي طاهر بن الحسين على شرطه المأمون سه أربع ومائين، وكان عليها من قبل العباس بن المسيّب بن رهير، كسب طاهر الى الفصل من الربيع . « إنّى رأيتُ الرّكبة، وفى مشورتك الصواب، فان رأيتَ أن تختارلى رجلين للحسرة » فكتب الى ابن الربيع . « قد وُحِدَتْ لك، وهما خيار السّندى من يجي وعيّاش ابن القاسم » . فولّاهما طاهر الحسين .

« وبعد » فاما بطل أن فى هذا القدر الكفاية لاثبات ما كان من تقدير المأمون ورحاله، لأهل الكفاية والافتدار، وحرصهم على استعمال أصحاب المواهب، والاستعانة بهم وبكفاياتهم، فى خدمة الدولة .

(هـ) قدره للشجاعة الأدبية :

كان المأمون يريه أن يكون الرجل بقى السريّة، رابطًا الجأش، يُقدّم على كلمة الحق غير هَيَّاب . وقد حدّثنا ابن أنى طاهر طيغور عن روى عنه قال : « حدّثنى أحمد بن أبي خالد الأحوال بحراسان، فيما كان يحبرنى به عن كرم المأمون وفصله واحتماله وحسب معاشرته، أنه سمع المأمونَ يوماً، وعنده علىّ بن هشام وأخوه أحمد والحسين، ذكّر عمرو بن مسعدة فاستبطاه، وقال : أيحسبُ عمرو أنى لا أعرف أخباره

وما يُجئى إليه وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ثم نَعَثَهُ أَلَا سَقَطَ عَلَى مَهْ شَيْءٍ ! ونَهَضَ
واصرَفْنَا قَقَصَدْتَ عَمْرًا مِنْ سَاعَتِي ، فَنَزَنَهُ بِمَا حَرَى ، وَأُنْسِيْتُ أَنْ أُسْتَحَلَّهُ مِنْ حِكَايَتِهِ
عَنِّي . فَرَاخَ عَمْرُو إِلَى الْمَأْمُونِ ، فَظَنَّ الْمَأْمُونُ أَنَّهُ لَمْ يَحْصُرْ إِلَّا لِأَمْرِ مَهْمٍ ، لَمَوْقَعِهِ مِنَ الرِّسَائِلِ
وَالْمِظَالِمِ وَالْوِزَارَةِ ، فَأَدْنَى لَهُ . فَخَبَّرَنِي عَمْرُو أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَصَعَ سَبْعَةَ بَنِي يَدِيهِ ،
وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا عَائِدٌ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ ، ثُمَّ عَائِدٌ بِكَ مِنْ سَخَطِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا
أَقْلَمُ مِنْ أَنْ يَشْكُوهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَحَدٍ أَوْ يُبَيِّنَ عَلَيَّ صِغْمًا بَعِثْتَهُ بَعْضُ الْكَلَامِ عَلَى
إِطْهَارِهِ مَا يَطْهَرُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِي وَمَا دَاكَ ؟ فَخَبَّرْتُهُ بِمَا بَلَغَنِي وَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ مُخْبَرِي ، فَقَالَ لِي : لَمْ يَكُنِ
الْأَمْرُ كَمَا تَلْعَكُ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ حَمْلَةٌ مِنْ تَفْصِيلِ كَسْتُ عَلَى أَنْ أُحْرِكَ بِهِ ، وَإِنَّمَا أُرْجَى مِنْ
مَا أُرْجَى مِنْهُ تَحَارِيثُهُ . وَلَيْسَ لَكَ عِدَى إِلَّا مَا نَحْتُ ، وَلِيُفْرِجَ رُوعُكَ وَلِيَخْسُنَ طُغْيَاكَ ،
فَاعْدَتْ الْكَلَامَ ، هَذَا زَالِ بَسْكَ مِنْي وَيَطِيبُ مِنْ نَفْسِي ، حَتَّى تَحْتَلَّ بَعْضُ مَا كَانَ
فِي قَلْبِي ، ثُمَّ بَدَأَ فَصَمَّنِي إِلَى نَفْسِهِ ، وَقَلَّتْ بَدْوُهُ ، فَاهْوَى لِعَانَقَتِي فَشَكَرَنِي ، وَتَبَيَّنَتْ فِي وَجْهِهِ
الْحَيَاءُ وَالْخَجَلُ مِمَّا تَأْدَى إِلَيَّ . قَالَ أَحْمَدُ : فَلَمَّا غَدَوْتُ عَلَى الْمَأْمُونِ ، قَالَ لِي : يَا أَحْمَدُ أَمَّا لِمَجْلِسِي
حَرَمَةٌ ؟ فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَلِ الْحَرَمُ إِلَّا لِمَا فَصَلَ عَنْ مَجْلِسِكَ ! قَالَ : مَا أَرَأَيْكَ تَرَوْنَ
بِهَذِهِ الْمَعَامِلَةَ فِيمَا بَيْنَكُمْ ؟ قُلْتُ : وَأَبُوهُ مُعَامِلُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ هَذَا كَلَامٌ لَا أَعْرِفُهُ ، قَالَ : بَلَى ،
أَهْ سَمِعْتَ مَا كَانَ فِيهِ أَمْسَ مِنْ ذِكْرِ عَمْرُو ! ذَهَبَ بَعْضُ مَنْ حَصَرَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَخَبَّرَهُ بِهِ ،
فَرَاخَ إِلَى عَمْرُو مُظْهِرًا مِنْهُ مَا وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يُظْهِرَهُ ، فَدَفَعْتُ مِنْهُ مَا أَمَكُنْ دَفْعُهُ ، وَحَمَلْتُ
أَعْتَدَرُ إِلَيْهِ مِنْهُ بَعْدَ قَدَرَتَيْنِ فِي الْجَمَلِ مِنْهُ ! وَكَيْفَ يَكُونُ اعْتِدَارُ إِنْسَانٍ مِنْ كَلَامٍ قَدْ تَكَلَّمَ
بِهِ إِلَّا كَذَلِكَ يَدْبِسُ فِي عَيْبِهِ وَشَقِيئِهِ وَوَجْهِهِ ، وَلَقَدْ أُعْطِيَتْهُ مَا كَانَ يَقَعُ مِنِّي نَاقِلٌ مِنْهُ ،
وَمَا حَدَّثَنِي عَلَيْهِ إِلَّا مَا دَخَلَنِي مِنَ الْحَسَّاسَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ تَفْلُقُ بِهِ اللِّسَانُ عَنْ عَيْرِ رُويَةٍ
وَلَا احْتِمَالٍ مَكْرُوهٍ بِهِ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا أَخْبَرْتُ عَمْرًا بِهِ لَا أَحَدًا مِنْ وَلَدِ هَاشِمٍ ،
فَقَالَ : أَنْتَ ! قُلْتَ أَنَا ! فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : الشُّكْرُ لَكَ وَالصَّحْحُ وَالْحُبَّةُ
لِأَنْ تَمَّ نِعْمَتُكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ وَحَدَمَكَ ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّ أَنْ يَصْلُحَ لَهُ الْأَعْدَاءُ

والبعداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطل الله لقاءه سمعت أمير المؤمنين أنكرمه شيئاً، فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها أسيدته ومولاه، ويتلاقى ما قرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل الماء فيه، وإنما كان يكون ما فعلت عيياً، لو أشعت سرّاً فيه قدح في السلطان، أو نقص بدير قد استتب، فأما مثل هذا فما حسبته يلع أن يكون ذنبا على. فمظر إلى ملياً ثم قال: كيف قلب فاعدت عليه، ثم قال. أعذ، فاعدت الثالثة، فقال. أحسنت والله يا أحمد! لما حترى به أحت إلى من ألف ألف وألف ألف وألف ألف، وعقد خصره ونصره وأوسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلميك عى سوء الطل وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصديق إياى عن نفسك، وأطلق النصر، وأما ألف ألف فلحس حوايك، وأطلق الحصر، وأمر لى بمال.

وهذه الشجاعة من أتباع المأمون تدلنا على ما كان فيه من الاستعداد لتدرك كرام الحلال. فلو أنه كان معروفا بالاستعداد لما أمكن هذه العوس أن نلع ما كانت تطمح إليه من السل والكرامه. وفي استماعه لاحتجاج حليسه حرص على استبقائه واستكناه ما في نفسه، فصلا عما يتوقعه من عواقب هذا التشجيع المقصود، من التعاف حول شخصه، وتفان في الوفاء له، وإمعان في خدمته وخدمه بلاده، خدمة الحر للحر بعات وحناني، لخدمة العبد للسيد معاملة الإرهاب والإكراه. ولن تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالارهاب والاكراه، ولن تكون خدمة الملوك على وجهها الصحيح بدافع السف والإعنات، وأما يكون ذلك جميعه بحس الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء العوس من عوامل البغضاء والغل والعدوان.

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشماح، قال: "قال لى المأمون وعده الزيدى والتقى مولى الخيزران، واسماعيل بن توبخت، وتذاكروا الشعراء، فقالوا: النابغة، وقالوا: الأعشى، وخاضوا فيهم، فقال: لا أشعرهم إلا واحداً كان خليعاً: الحسن بن هانىء، فقالوا:

صديق أمير المؤمنين ، قال : الصديق على المظاهرة أحسن من الصديق على الهيبة ، فقالوا :
فيم قدمته ؟ قال بقوله .

يا شقيق النفس من حكم * يمت عن ليل ولم أنم

ثم لم يسقه الى هذا البيت أحد

ثم دت في عروقتهم * كديب الرء في السقيم

و في عبار «الصدق على المظاهرة أحسن من الصدق على الهيبة» دلالة على رغبته
في إحياء العرائز الأديسة التي تميّتها المصاعبة ، ويقترها الرياء . ولا يفوسا أن نشر الى أن
تقدمه ابن هاني ، لتحويده في وصف الراح ، له دلالة وله معزاه ، فهو يدل ، الى حد
غير قليل ، الى جانب ما علمناه عن المأمون ، أصيد المهمة ، مستحصداً العرم ، على أنه كان
في أوقات أسسه ومرحه الرجل المرح الطروب ، الذي يتدقّق المعاني الصريحة ، وما لها من
محاملات وأفانيس .

« وبعد » فإن ربسه الشعوب على قدر كرامتها الخاصة ورفعة شأها بين الأمم ،
لتنطلب معهداً خاصاً ممن يتولّى أمرها في هذا السبيل ، فيعمل على أن يُحسّ الافراد
والحكام ، ممن هم في عهده وتحت هيمنته ، ما لهم من مكانة ومبرلة ، وما لآرائهم وتصرفاتهم
من احترام وقدر ، أحدا لهم الشجاعة في المحاهره بمعتقداتهم ، وتمية للروح الذي تهيده
هذه الألفاظ : « حرية . إحاء . مساواة » في نفوسهم . وإن في آتياحهم هذا السبيل
لأحلّ خدمة لملكهم وشعوبهم وعروشهم .



(و) عدله وإنصافه :

كان المأمون عدلاً مصصاً الى حد بعيد . وقد عرّف فيه الناس هذه الحلة ، فكانوا
يطمّعون في أنصاره والمقترين اليه ، ويمجرون بالشكوى من كل من يسوءهم طمعه أو يفد
اليهم عدوانه .

حدث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب الشَّيْاسِيَّة وخلف طهره أحمد بن هشام . فصاح به رجلٌ من أهل فارس : الله الله يا أمير المؤمنين ! فان أحمد بن هشام ظلمني واعتدى عليّ ! فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى ، فلما جاز الموضع عدّوة التمت الى أحمد ، فقال : ما أقبح بنا ولك أن تفعلك وصاحك هذا رؤوس هذه الجماعة ، ويقعد في مجلس خَصَمك ، ويُسمع منه كما تُسمع منك ، ثم تكون محقّقاً ، ثم تكون مبطلاً ، فكيف إن كُنتَ في صفته لك ، فوحّه اليك من يحوِّله من بابا الى رحلك ، وأنصفه من نفسك وأعطه ما أنفق في طريقه اليها ، ولا تحمل لها دربعة الى ما تكره من لائمتك ، فوالله لو طلمت العباس اجي كنتُ أقلّ كبيراً عليك من أن تغلم صعيقا لا يحدنى في كل وقت ، ولا تحلّوا له وحهى ، وسيما من تحثّم السعر البعيد وكابد حرّ الهواجر وطول المسافة » . قال المحدث المعاصر : فوحه اليه أحمد بجاء به وكتب الى عامله رد عليه ما أحد منه ، ويشتمه ويعصمه ، ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم ، وأمره بالخروج من يومه .

وهناك الكثير من هذا المثل ، كواقعه مع موسى بن الحسن ، وإصافه بأن أخذ حقه من محمد بن أبي العباس الطوسي ، ومواقفه مع الصراني الذي من أهل كَشْكُر^(١) .

ثم انظر واقعه المشرف له وللقضاء في أيامه ، فقد قالوا : إن رجلاً دخل على المأمون ، وفي يده رقعة فيها مطيعة من أمير المؤمنين ، فقال : أمطمة مني ؟ فقال الرجل : أفأخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك ؟ قال : وما هي طلامتك ؟ قال : إن سعيداً ويحك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار ، قال : فإدا اشترى سعيدٌ منك الجواهر تشكو الطلامة مني ! قال نعم ، إذا كانت الوكالة قد صحّت له منك ! قال . لعل سعيداً قد اشترى منك الجواهر وحمل اليك المال أو اشتراه لنفسه ، وعليه فلا يلزمني لك حق ولا أعرف لك طلامة ؟ فقال له (بعد كلام طويل) : إن في وصيه عمر بن الخطاب لقضاتكم "البينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر" قال المأمون : إليك قد عِدِمَت البينة ؟ فما يجبُ لك إلا حَلْفَةٌ ، ولئن حلّفتها لأنا

(١) أطر هذه الحكاية في الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٠١

صادق اذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمي . قال : فاداً أدعوك الى القاصي الذي نصبتَه لرعيتهك ، قال : نعم ! يا علام ، على يحيى س أكتم ، فاداً هو قد مثّل من يديه ، فقال له المأمون . اقص بيديا ! قال : و حكم وفصية ! قال نعم ، قال إني لم تجعل ذلك مجلس قضاء ، قال : قد فعلت ، قال . فاني أبدأ بالعامه أولاً ليصلح المجلس للقضاء . قال . افعل ، ففتح الباب وقعد في ناحية من الباب وأذن للعامه ، ثم دُعي بالرجل المنظّم ، فقال له يحيى ما تقول " قال : أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون ، فادى المادى ، فاداً المأمون قد حَرَحَ ، ومعه علامٌ يحمل مصلياً حتى وقف على يحيى وهو حالس ، فقال له : احلس ، فطرح المصلي ليقعد عليها ، فقال له يحيى يا أمير المؤمنين ، لا تأخذ على حصّتك شرف المجلس ، فطرح له مصلياً آخر ، ثم نظّروا دعوى الرجل ، وطالب المأمون باليمين خلف ، ووئى يحيى بعد فراق المأمون من بيمه فقام على رحليه ، فقال له المأمون . ما أقامك " فقال : إني كنت في حق الله حل وعمر حتى أحدثه منك ، وليس الآن من حقي أن أنصتدرك عليك ، ثم أمر المأمون أن يحصره . أأدعى الرجل من المال ، فقال له . حده لك ، والله ما كنت أحلف على بخرّة ثم أسمع لك فأفسد دى ودنياى ، والله يعلم ما دعتُ اليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعيه ، اعلمها ترى أنى تناولتُك من وحه القدره ، وإسها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمع لك باليمين وبالمال .

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمه القضاء في تلك الأيام ، واحترام الخلفاء أو من تمت الى الخلفاء لشعائره وأحكامه . ولا نستعد الاثنته صحه تلك الرواية ، لأن تصرفات المأمون العباسى تجعلنا نقرها ونؤمن بصدقها من جهة ، ولأننا قرأنا شبهاتها من جهة أخرى ، فقد قيل . إن ابراهيم بن المهدي تازع وأبى بختيشوع الطيب ، بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في مجلس الحكم في عقّار ساحية السواد . فأرى عليه ابراهيم وأعطى ، فأحفظ ذلك أمر أبي دؤاد ، فقال : يا ابراهيم ادا ما زعت في مجلس الحكم محصرتنا أمراً فلا أعلم أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد ، ولكن قصدك أتماً وريحك ساكمة ، وكلامك

معتدلاً ، وَوَفَّ مجالس الخليفة حقوقها : من التعظيم والتوقير ؛ والاستكانة والتوجه الى الواجب ؛ فان ذلك أشكلُ لك وأشمل لمذهبك في محنتك وعظيم خطيره ، ولا تعجلنَّ فربَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رِيثًا ، والله يعصمك من خلل القول والعمل ، وأن يتم نعمته عليك كما أتمها على أويك من قبل إن رك حكيم عليم ، فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى ، أمرت بسداد وحصصت على رشاد ، ولستُ عائدا لما يتلُمُ مروءتي عندك وُسُقُطني من عينيك ويُخرجني من مقدار الواجب الى الاعتدار ، فهأيدا معتدرا اليك من هذه البادرة اعتدار مقررٌ بدنبه معترفٌ بخبره ، ولا يزال العصب يستمرق بمواده فيردني مثلك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعدنا منك ، وقد جعلتُ حقِّي من هذا العقار لابسٍ بحتيشوع فليت ذلك يكون وافقاً مارَّش الحماية عليه ، ولم يتلف مالٌ أفاد موعظه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فترى مما قدماء لك مبلغ سلطان القضاء وحرمة عد البيت المالك .

وقد يكون أحمل من هداكـه — فيما لو صح — ذلك الموقف الروائي الذي تقدمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم أبه العاس فقد شكت اليه أبيات رقيقة فلم يسعه إلا أن يعدها الإصاف أبيات رقيقة على الوزن والقافية ، وكانت تلك الأبيات في خفتها وجوده الخاطر بها في ساعتها ردا وسلاما على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الشَّيْبَانِي : جلس المأمون يوما للظالم ، فكان آخرُ من تقدَّم اليه ، وقد هم بالقيام ، امرأة عليها هيئة السمر ، وعليها ثياب رثة ، وقفت بين يديه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون الى يحيى بن أسَّثم ، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمي في حاجتك ، فقالت :

يا حيرَ متصِفٍ يُهْدِي له الرِّشْدُ * ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو اليك عَمِيدُ القومِ أَرْمَلَةً * عدا عليها فلم يُترك لها سَبْدُ
وَأَبْتَرُ مَنَى صِيَّاعِي بَعْدُ مَنَعَتَهَا * ظَلَمًا وَفُوقَ مَنَى الأهلِ والولَدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دُونِ ما قَلَّتِ زَالِ الصَّبْرُ وَالْحَلْدُ * عَنِّي وَأُقْرِحَ مَنِّي الْقَلْتُ وَالْعَكْبُدُ
هَذَا أَذَانُ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَانصَرَفِي * وَأَحْضِرِي الْخِصَمَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَعِدُّ
وَالْمَجْلِسُ السَّبْتُ إِنْ يُقَصَّ الْحُلُوسُ لِي * تُنْصِفُكَ مِنْهُ وَالْأَمْرُ الْمَجْلِسُ الْأَحَدُ

فلما كان اليومُ الأحدَ جلسَ ، فكان أوَّلُ من تقدَّم إليه تلكَ المرأةُ ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ، أين الخِصَمُ ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومات إلى العباس ابنه ، فقال لأحمد بن أبي طالب : حدِّ بيده فأحلبه معها مجلسَ الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلامَ العباس ، فقال لها أحمد ابن أبي طالب : يا أمة الله ، إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإليك تكلمين الأميرَ ، فأخفِضِي من صولك ، فقال المأمون : دَعِهَا يا أحمد ، فإن الحقَّ أطقها وأنحرس ! ثم قمى لها بردة صيغتها إليها ، وطلم العباسُ نظمه لها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها ، أن يوقرَها صيغتها ويحسن معاومتها وأمر لها ببقعة .

وبعد فإن المؤرَّخ المصنف ، لجذب به أن يقف أمام هذه المثلِّ العليا وقفةَ احترام واحلال ، وعطيه واعتبار ، وأن يعرب رعه صادق في إدانته هذه المثلَّ ونشرها ، والعمل على تداولها ودكورها ، لأنها قدوة صالحة لخملة التَّيْحان ، في إنصاف زميلهم الانسان . وإن قدس العدالة لواجب احترامه ، وأحقُّ الناس باحترامه هم الولاء وحملة التَّيْحان ، وإن في شعور الرعية وعامة الناس بأنهم وحُكَّامهم سَوَاسِيَّةٌ ، لمدعاة للرِّضا والاعتباط ، والإيمان في خدمة الأوطان ، والذَّبُّ بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .



(ز) عَفْوُهُ :

كان المأمون مَضْرَبُ المثل في العفو ، حتى لقد كان يَحْشَى أن لا يُؤْجَرَ عليه ، إذ صار فِطْرَةً فيه ، وأطُرِفُ أنواع عفوهِ تعااضيه عما كان يحدث في قصره .

قالت شُكْرُ مَوْلَاةٍ أُمِّ حُمْفَرٍ بَلَّتْ حُمْفَرُ بْنُ الْمَصُورِ، سَمِعَتْ الْمَأْمُونُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ :
 وَكَانَتْ عِنْدَهُ أُمُّ حُمْفَرٍ، فَدَعَا بِمَقَارِيضٍ^(١)، فَقَالَ الْغَلَامُ: قَدْ دُهِبَ بِالْمَقَارِيضِ إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ
 قَالَ بِإِعْلَامٍ: بَلِّ لَنَا الْخَيْشَ^(٢) فَوْقَ، فَقَالَ الْغَلَامُ: لَا، قَالَ: يُبَلِّ، فَقَالَتْ أُمُّ حُمْفَرٍ: سَحَانَ اللَّهِ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!، مَا هَذَا! وَأَكْرَهْتُ أَنْ يَكُونَ سَأَلَ عَنْ شَيْئَيْنِ فَلَمْ يُعْمَلَا، فَقَالَ الْمَأْمُونُ:
 هُنَّ قَدَرْتُ عَلَى عَقُوبَتِهِ، لِسُوءِ فِعْلِهِ، وَفِيحِجِّ جُرْمِهِ، فَقَدَرْتُكَ عَلَيْهِ كَافِيَتُكَ نَصْرًا لَكَ مِنْهُ،
 وَلَا مَعِيَ لِعَقُوبَةٍ بَعْدَ قَدْرِهِ، الْحِلْمُ عَلَى الدَّنْبِ أَلْطَعُ مِنَ الْأُحْدَهْ بِهِ .
 وَهُوَ هُنَا يَطْلُ الْعَفْوَ تَعْلِيلًا مَقْبُولًا حَذِيرًا أَنْ يَكُونَ دَرْسًا فِي الْأَخْلَاقِ .

ثم انظر ملحق عموه وحلمه وسماحه معه، فيما يرويهِ أَبُو الْفَصْلِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ
 طَيْفُورٍ فِي كِتَابِهِ، قَالَ: «كَانَ لِلْمَأْمُونِ خَادِمٌ تَوَلَّى وَصُوءَهُ، فَكَانَ يَسْرِقُ طَسَاسَهُ، فَلَمَعَ
 ذَلِكَ الْمَأْمُونُ نَعَاسَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ يَوْمًا وَهُوَ يَوْصِيئُهُ . وَيَحْكُ! لِمَ تَسْرِقُ هَذِهِ الطَّسَاسَ،
 لَوْ كُنْتَ إِذَا سَرَقْتَهَا أَسْتَيْتِي بِهَا اشْتَرَيْتُهَا مِنْكَ، قَالَ: فَاشْتَرَيْتُ هَذَا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، قَالَ: بِكُمْ؟
 قَالَ بِدِيَارِي، قَالَ الْمَأْمُونُ: أَعْطُوهُ دِيَارِي، قَالَ: هَذَا الْآنَ فِي الْأَمَانِ .
 وَمَهْمَا يَكُنْ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ مِنْ مَسْحَةِ الْمُبَالَغَةِ، أَوْ أَنَّهَا أَقْصُوصَةٌ أَكْثَرُ مِنْهَا حَقِيقَةٌ،
 فَإِنَّ طَبِيعَةَ الْمَأْمُونِ وَبَحِيئَتَهُ، وَجُوحَهُ إِلَى الْعَفْوِ، وَأَحَدَهُ الْحِلْمَ، لِمَا يُؤَدِّي لَهَا وَعُصَارَتَهَا،
 وَيَقَرَّرُ حَوْصَهَا وَحِلَاصَتَهَا، وَلَمَّا يَصْدُقُ فِيهِ قَوْلُ مَنْ قَالَ لَهُ .

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَصَوْتَ حَتَّى * كَأَنَّ النَّاسَ أَيْسَ لَمْ دُبْتُ

أَمَّا حَدِيثُ حَلْمِهِ مَعَ عَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِّيِّ فَتَعَارَفَ مَشْهُورٌ، وَمُدَّاعٌ مَذْكُورٌ، فَقَدَّ
 أَبُو إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَبَايَعَهُ، ثُمَّ دَهَبَ إِلَى الرَّيِّ، وَادَّعَى فِيهَا الْخِلَافَةَ لِنَفْسِهِ، وَأَقَامَ مَالِكُهَا سَهْ
 وَأَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَاثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، وَالْمَأْمُونُ بَتَوَقُّعٍ مِنْهُ الْإِنْقِيَادَ إِلَى الطَّاعَةِ، وَالْإِنْتِظَامِ

(١) جمع مقراض وهو ما يتطلع به الثوب أو غيره وهو المعروف بالمقراض .

(٢) العادة كانت حارية في العراق أن يوصع الخش فوق سطح المذبل ويبل وقت الحر ليكون تأثير الشمس

واقعا عليه دون السقف وهكذا كانت تعمل ملوك فارس . فلب كان رمن المأمون يحمل بطاقة للسقف استعمل بها
 عن الخيش وله وهي ما سمي (بعدادلى) وفي بعض اللاديسى المأمون .

في سلك الجماعة ، حتى يئس من عَوْدِهِ ، فركب بِحَيْلِهِ وَرَجَلَهُ ، وذهب الى الرى وحاصر المدينة وافتتحها ، فهرب ابراهيم وتكرَّم اِحْذَ بعد لَأَيِّ ، وقدم الى المأمون في زى امرأة . فلما مثل بين يديه ، سَلَّمَ عليه بالخلافة ، فقال المأمون : لاسَلَّمَ الله عليك ، ولا حِيَاكَ ولا رعاك ! فقال ابراهيم : مهلاً يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! ان ولىَّ التَّارَ حَكْمَهُ فى القِصَاصِ ، ولكن العفو أَقْرَبُ للتعفوى ، ومن تناوله الاغترارُ بما مُدَّ له من أسباب الشقاء ، أمكن عَادِيَةَ الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كلِّ ذى ذنب ، كما جعل كلَّ دى ذنب دُونَكَ ، فان أهدت مُحَقِّقَكَ ، وإن عفوت ففضلك ، ثم أنشد .

دَتْنِي اليك عَظِيمٌ * وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
نَفْذُ بِحَقِّكَ أَوْلاً * فَاصْصَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي * مِنَ الْكَرَامِ فَكُنْهُ

فقال المأمون : شاورْتُ أبا اسحق والعاسَّ فى قتلِكَ ، فأشارا به ، فقال : فما قلت لهما يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قال المأمون . قلت لهما : ببدؤهُ باحسان ، وتَسْتَأْمِرُهُ فِيهِ ، فإن عِيرَ فأنه يَغْيِرُ ما به . قال : أما أن يكونا قد نصحا فى عظيم ما جرت عليه السياسة فقد فعلا ، ولَمَّا ما يلزمهما ، وهو الرأى السديد ، ولكك أبيت أن نستحل البصر إلا من حيث عَزَدَكَ الله ، ثم استعبر ما يكى ، فقال له المأمون : ما يُنْجِيكَ ؟ قال : حَدَلًا اذ كان دى الى من هذه صفته فى الإنعام . ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جرمى استحلال دى ، فلم أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وفضله بِلَغَانِي عَوَّهُ ، ولى بعدهما شِماعَةَ الاقرار بالذنب ، وحق الأوبة بعد الأب ، فقال المأمون : يا ابراهيم ، لقد حَسَّبَ الى العفو حتى خَفْتُ ألا أُؤْجَرَ عَلَيْهِ . أما لو علم الناس ما لى العفو من اللذة ، لتَقَرَّبُوا اليها بالحيات لا تَثْرِيْتُ عَلَيْكَ ، يَعْرِفُ الله لك . ولو لم يكن فى حق سببك ، ما يَبْلُغُ الصَّعْصَعِ عن جرمك ، لَمَلَّكَ ما أَقْلَمْتَ حَسَنُ تَفَضُّلِكَ وَلَطْفُ تَوَصُّلِكَ . ثم أمر رَدَّ صِيَّاعَهُ وَأَمْوَالَهُ ، فقال ابراهيم :

رددت ما لى ولم تجل على به * وقل ردك ما لى قد حقت دى
 وقام علمك بى فاحتج عدك لى * مقام شاهد عدل غير منهم
 فلو بذلت دى أبني رساك به * والمال حتى أسأل النعل من قدمى
 ما كان ذاك سوى عارية سلعت * لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم

« و بعد » فشد ما يحتاج الولاية والقاده والزعماء ، الى خلة العفو والاحسان ، فى حزم وحسن مواناة ، ليستلوا من القلوب عداوتها ، وليستأصلوا من النفوس سحيمتها ، وليضمنوا من الرعية والأتباع الاحلاص المحص والود الصحيح .



(ح) احتماله :

ومن الدلائل على صلاحه المأمون لما أعدته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذى لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو خلق يراه العصف سماسه ، وزاه من المأمون سياسه ، هى من الصميم فى آداب الملوك ، وإبه ليحتمل ، حتى اتحسبه من الغافلين ، ولكن الرجل كان يعرف أن للملك مصاعب ومتاعب ، أقلها مداراه الناس ، والنزول لهم عن بعض ما يشتهون .

روى بعضهم عن قثم بن جعفر أنه قال : قال المأمون فى يوم الخميس ، وقد حضر الناس الدار لعل بن صالح ادع اسماعيل قال : فخرج ابن صالح ، فأدخل اسماعيل بن جعفر ، وأراد المأمون اسماعيل بن موسى ، فلما نصر به من بعيد ، وكان أشد الناس له بعضا ، رفع يديه ماذهما الى السماء ، ثم قال : اللهم أبدلنى من ابن صالح مطيعا فاه لصداقته لهذا أثر هواه على هواى ، قال : فلما دنا اسماعيل بن جعفر ، سلم فرد عليه ثم دنا فقبل يده ، فقال : هات حوائك ، قال : صبيعى بالمعينة ، غصبتنا وقهرت عليها ، قال : فأمر ردها عليك ، ثم قال : حاجتك ، قال : يادنى أمير المؤمنين فى الخ ، قال : قد أذنا لك ، ثم قال : حاجتك ، قال : وقف أبى أخرج من يدى وصار الى قثم والقاسم أبى جعفر ، قال : فزيد مادا ؟ قال : يرت الى ، قال :

أما ما كان يُمكننا من أمرِك فقد حُدنا لك به ، وأما وقفُ أبيك فذاك الى وراثته ومواليه ، فان رَضُوا بك واليا عليهم وقيّاً لهم رَدَدناه اليك ، وإلا أقررناه في يد من هو في يده ، ثم خرج ، فقال المأمون لعلي بن صالح : مالي ولك عافاك الله ، متى رأيته تَسِطُّ لاسماعيل بن جعفر وعُنيته به وهو صاحبي بالأمس بالبصرة ! قال : ذهب عن فكري ما أمير المؤمنين ، قال : صدقت ، لعمرى ذهب عن فكرك ما كان يحب عليك حفظه ، وحفظ فكرك ما كان يحب عليك ألا يخطُر به ، فاما اذْ أخطأتَ فلا تُعلم إسماعيل ما دار بيني وبينك في أمره . فظن على أنه غنى بقوله هذا إسماعيل بن موسى ، فأحبر إسماعيل بن جعفر القصة حراً حراً ، فأذاعها ، وبلغ الخبرُ المأمونَ فقال : الحمد لله الذي وهب لي هذه الأخلاق ، التي أصبحتُ أحتمل بها علي بن صالح وابن عمران وابن الطوسي ومحمد بن عبد الحميد ومصور ابن النعمان ورعامش .

« وبعد » فلاحتمال حلة محبة الى العوس ، تدعو الى الوفاق والوئام ، وهي بالملك أولى وأجدر لمكانهم من الرعامه والقيادة ، ولتزلتهم من الرياسة والسلطان . ولأنهم أحق الناس بكل محبة تحبهم الى الناس ، وتكون قدوة يرثسُمها من عداهم من يتصرفون في شؤون العباد ومستقبل البلاد .



(ط) بصره بالأدب :

سترى فيما نعرض له ، في القسم الأدبي ، من آثار المأمون وكتابته ، مبلغ تبريزه في الفنون الأدبية ، وتملكه أعمة البلاغة ، وحسن تصرفه لكل أفانين الثقافة العربية ، الى جانب حسن تصرفه ، لشتى أمور ملكه .

والآن — وسنبينا تحليل شخصية المأمون ، نرى من الواجب لتوفية البحث حقه من مختلف وجوهه ، أن نشير الى كلفه بالأدب ، مفترصين على كل حال ، ما قد يكون بمنثله ، من تشيع المغالين من الولاء له ، وما قد يضاف اليه من الآثار .

ولكن ذلك كله، لن يؤثر في اللب والجوهر، وهو أب المأمون كان أدبياً، عالماً
 بأفانيس القول ومباحيه، وليس ذلك ببعيد، على من نلهمذ على شيوخ الأدب العربي،
 كسيبويه واليريدى ويحيى بن المارك بن المِعْرَة، الذي أحد العربية عن أمثال أبي عمرو
 ابن العلاء واس أبي اسحاق الحَصْرَمي، وأحد اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد، والذي
 ألف كتاباً في النحو لبعض أولاد المأمون .

فقد أفاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أيتماً إفادة .
 قال عِمارة بن عَقِيل . أشدّت المأمون قصيدة مائة بنت ، فأتدئ بصدر البيت ،
 فيبادرنى الى قافيته كما قفيته ، فقلت . والله يا أمير المؤمنين ، ما سمعها منى أحد قط ! فقال
 هكذا يدعى أن يكون ، ثم قال لى أما بلعك أن عمرى أى ربيعه أشدّ عند الله بن عباس
 قصيدته التى يقول فيها * تَسْطُ عداً دارُ حبراسا * فقال ابن عباس * ولأدار بعد غدٍ أبعدُ *
 حتى أنشدته القصيدة يقيها ابن عباس ثم قال أنا أب داك . ورووا أن المأمون قال :
 بعثك مُرتادا فصرّت سطره وأغواني حتى أسأتُ لك الطّا
 فاجيت من أهوى وكنتُ ماعدا . مالميت شعري عن دنوك ما أغنى
 أرى أنرا مه بعيدك منّا * لقد أحدث عيباك من عيه حسنا
 ومهما قيل إن المأمون أحد هذا المعنى من العباس بن الأخف الذى يقول .
 إن تشق عيى بها فقد سعدت . عيى رسولى وورث بالخبر
 وكلما حاءنى الرسول لها * ردّدت عهدا فى عيه نظرى
 حد مقلتى يا رسول عاربه فأنظرها وأحتكم على بصرى
 فان شعر المأمون يدل فى حملته . على تدوّقه الحسى ، بالشعر الحسى ، والخيال الحسى .
 ثم لتنظر معى فى الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبى السّمط وعِمارة بن عَقِيل ، فان
 أولها يقول لعارة : أعلمت أن المأمون لا يصبر الشعر ؟ فقال عِمارة : ومن يكون أعلم منه ؟
 فوالله إنا لنشده أول البيت فيسبّحنا الى آخره ، قال عبد الله : إني أنشدته بيتا أجدتُ
 فيه فلم يتحرك له ، فقال عِمارة : وما هو ؟ قال :

أصحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً * بالدين والسُّر بالدين مَشَاعِلُ
فقال عماره : والله ما صنعتَ شيئاً ' هل ردتَ على أن جعلته عجوراً في محرابها ، فإذا مَن
الذي يقوم بأمر الدنيا إذا تساعَلَ عنها ، وهو المَطْوَى بها ° ألا قلتَ كما قال حتى جرير
في عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو في الدنيا مصيغٌ بصيغِهِ ولا عَرَضُ الدسِّ عن الدسِّ شاعِلُهُ

فقال عبد الله : الآن علمتُ أيَّ قد أخطأت .

ولقد كان المأمون واقفاً أتم وقوف وأكله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع
حسن بصر ، وأتم حدق ، وأدق تمهم ، بذلك على ذلك ، ما ذكره أبو نزار الصيرير الشاعر قال :
قال لي عليّ بن حنّلة قلت لحُميد بن عبد الحميد . يا أبا عامر ، قد امتدحتُ أمير المؤمنين
بمدح لا يُخس مثله أحد من أهل الأرض ، فاذكرني له ، فقال : أشدته ، فأشدته ، فقال :
أشهد أنك صادق ، فأحد المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا عامر ، الخواب في هذا واضح ،
إن شاء عفوا عنه ، وحملنا ذلك ثواباً لمديحه ، وإن شاء حملنا بين شعره فيك وفي أبي دلف
القاسم بن عيسى ، فإن كان الذي قال فيك وفيه أجود من الذي مدحنا به ، صرنا ظهروه
وأطلقنا حبسه ، وإن كان الذي قال فيما أجود أعطيته بكل بيت من مديحه ألف درهم ،
وإن شاء أقفناه ، فقلت : يا سيدي ، ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا أجود من مديحك !
فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة في شيء ، فأعرض ذلك على الرجل . قال
علي بن جبلة : فقال لي حُميد : ما ترى ؟ قلت : الإقالة أحبّ إليّ ، فأحر المأمون ، فقال :
هو أعلم ، قال حُميد ، فقلت لعليّ بن جبلة : إلى أي شيء ذهب في مدحك أبا دلف
وفي مدحك لي ؟ قال : إلى قولي في أبي دلف :

إنما الدنيا أبو دلف * بين مُسَداه ومُخَصِّره

فإذا ولي أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

والى قولى فيك :

لولا حميد لم يكن * حسّ يعدّ ولا نسب
يا واحد العرب الذى * عزّت بعزته العرب

ثم انظر سعة عطفه، وكثير تسامحه، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم، فيما رواه أحد قرابة دِعْبِل الشاعر، حيث قال : إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيسومنى المأمونُ خطّةَ عاجر * أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يؤبى على هامِ الخلائف مثل ما * توفى الجبال على رؤوس التردد^(١)
ويجلى فى أكاف كل ممّع * حتى يدلّ شاهقا لم يصعد
إن التّرات مسهد طلابها * فكفّ لُعائك عن لعاب الأسود

فلم يتقدّم المأمون بإيداء دعبل، وكل ما فعل أن قال : هو يهجو أبا عبّاد، ولا يهجونى .
يريد حدةً أبى عبّاد .

وكان بصيرا بأحمار العرب ، واقفا على تاريخ محاورهم وعطاريهم ، فقد ذكر عماره ابن عيّيل قال : « قال لى المأمون يوما ، وأنا أشرب عسده ، ما أحبّك يا أعراى » ، قال قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ، وهمتنى نفسى ، قال كيف قلت :

قالت مَفْداة لما أن رأته أرقى * والهَمّ يعتاده من طيِّفه لم
نَهَبَ مالَكَ فى الأدنينِ أصرّة * وفى الأبعاد حتى حَقَّكَ العدم
فاطلب اليهم ترى ما كنت من حسس * تُسدى اليهم فقد باتت لهم صرم^(٢)
فقلتُ عدلك قد أكثرتِ لائمتى * ولم يمت حاتمٌ هزلا ولا هيرم

فقال لى المأمون : أين رميتَ بعسك الى هيرم بن سنان سيد العرب ، وحاتم الطائي .
ملا كذا وفلا كذا وأقبل يتنال على^(٣) بفضلهما ، قال : فقلت يا أمير المؤمنين : أنا حير منهما ،
أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

(١) التردد : ما ارتفع وعطى من الأرض . (٢) الصرم : جمع صرمة وهى القلعة من الإبل محو الثلاثين .

(٣) يعدّد محاسنها ويذكرها .

ثم انظر بلاعته ومثانة عبارته ، في مشافهاته ومباداته . فقد روى ابراهيم بن عيسى قال : لما أراد المأمون الشحوص الى دمشق هَيَّأَ له كلاما ، مكثت فيه يومين وبعض آخر ، فلما مثلت بين يديه ، قلت : أطال الله بقاء أمير المؤمنين في أدوم العز وأسنع الكرامة ، وحلني من كل سوء فداء ، إِنْ مَنْ أَمْسَى وأصبح يتعزف من نعمة الله — له الحمد كثيرا — عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه ، وحسب تأنيسه له ، حقيق بأن يستديم هذه النعمة ، ويلتمس الزيادة فيها ، شكر الله . وشكر أمير المؤمنين — مد الله في عمره — عليها . وقد أُحِبَّ أن يعلم أمير المؤمنين أيده الله ، أني لا أرغب بنفسى عن خدمته ، أيده الله بشئ من الخَفِضِ والدَّعَةِ ، إذ كان هو أيده الله ، يتجشَّم خشونة السفر ، ويَصَبَّ الطَّعْن ، وأولى الناس بمواساته في ذلك ، وبذل نفسه فيه أنا ، لِمَا عَرَفَنِي الله من رأيه ، وجعل عسدى من طاعته ، ومعرفة ما أوجب الله من حقه ، فان رأى أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن يكرمنى لمزوم خدمته ، والكيثونة معه فعل . فقال لى المأمون مستدنا من عبر زوية : لم يعزم أمير المؤمنين في ذلك على شئ . وإن آستصحب أحدا من أهل بيتك ، بدأ بك وكنت المقدم عده في ذلك ، ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه ، وإن ترك ذلك من غير قِلِّ لمكانك ، ولكن مالحاة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداءه أكثر من تروينى .

قال أبو العتاهية : وحه الى المأمون يوما ، فصرتُ اليه ، فالفيتهُ مُطَرِّقا مفكرا ، فأجمعت عن الدتوميه في تلك الحال ، ورفع رأسه ، فمظر الى ، وأشار بده أن آذن ، فدبوت . ثم أطرق مليا ، ورفع رأسه ، فقال : يا أبا اسحاق ، شأن النفس الملل ، وحب الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . قلت : أحل يا أمير المؤمنين . ولى في هذا بيت قال : ما هو ؟ قالت .

لا يُصْلِحُ النفسَ إِذْ كَانَتْ مَدْبِرَهُ . - إِلا التَّمَلُّ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

ثم انظر الى بلاغة المأمون ، التي كانت سليقة فيه ، وإن رلت بساحته الهموم والفوادح ، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب ناسه له ، كان يَجِدُ عليها وَجدا شديدا . فجلس وأمر أن

يؤذن لمن بالباب، فدخل عليه العباس بن الحسن العلوي، فقال له: يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك معزّين، ولكن أنناك مقندين. ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن لسانى يطلق بمدحك عائلاً. وأحت أن تريد عك حاصراً. أفأذن فأقول، قال المأمون: قل فإني تقول فتحسب، وتشهد بقرى، وتعيب فتؤتى، فقال العباس له، وصدق فيما يقول: يا أمير المؤمنين ما أقول بعد هذا! لقد بلغت من مدحى إلا أبلغه من مدحك.

وانظر إلى حلاوته في ملاعته، ومراحتة في طلائوته، ومناشاته في عبارته، حين يصح لاسه العباس فقال له: يدعى يا حى لمن أشنع الله عليه بعمه، وشركه في ملكه وسلطانه، ووسط له في القدره، أن ينافس في الحبر، بما يبق ذكره، ويحب أحره، ويرضى نوانه. وأن يجعل همته في عدل ينشره، أو حور بدقه، وسية صالحة بحبيها أو بدعه يميها. أو مكمة يعتددها، أو صدعه سددها، أو يد يودعها ويوليها، أو أثر محمود يتبعه.

ويقول لنا الملاحظ في الياض والتبليس. كان سهل بن هارون شديد الإطباب في وصف المأمون، والبلاغة والحجارة، والخلالوة والفعامة، وحوده اللهجة والطلاوة. ويقول ثمانية بن أشرس النمرى: ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون. وإن فيما ذكره آس الحورى والعالمى وعمرهما في طرب المأمون للطرف واللعة. لما ثبت بصره بالأدب وحده للغة، وبمكة في الحو. وإنا نحتم كلمتا هذه مما قاله المأمون لولده وعده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكنم فإها في السجك بلاعة ودقه معنى وحلاوة أسلوب وسمو سخما وحسن تدبر وبصوح ذرة، ولا يقولها إلا من كان إلى جانب ما وصفناه حمال أعاء، نهاضاً بلاء، قصياً مرعى همته، ربيعاً منطاً عربته، وهى مع كل ذلك من عفو الخاطر، ونتاج الديهة.

قال: «اعتبروا في علو الهمة من ترون من وزرائى وحاصنى، إسم والله ما تلفوا رراتهم عدى إلا ناههم. إنه من تع معك صغار الأمور، سمه التصغير والتحقيق وكان

قليل ما يفتقد من كآرها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار ، فترفعوا عن داءة المهمة ، وتفزعوا لحلائل الأمور والتدبير ، واستكفوا الثقات ، وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشغل بصغار الطير والوحش بل تحليها وكآرها . واعلموا أن أقدامكم ان لم تتقدم بكم ، فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يعي الولي عكم شيئا ما لم يعطوه حقه . وأنشده

نحن الذين اذا تمحط عصبه من معشركم لها أنكالا
ونرى القروم محالة لقرومنا قل اللقاء تقطر الأنوالا
يرد المية لا نحاف وزودها بح العاصحه والعيون تلالا
عطي الحرمل فلا يمن عطاءا قل السؤال ونحمل الأنقالا
وإذا البلاد على الأنام ترلزلت كما لرلة السلالا

« وبعد » فشد ما يروو الرعيه تبريز ولاتها في البلاعه والبيان ، وشد ما يثلج الأفئدة ويُقز العيوب تملكهم لأعمه القول ، واطلاهم على العرر والملح وتسجميعهم لدوى الاحسان .

وجميل حدا أن تشر الكهايات ، وأن تتخذ الولاة من كلمة المأمون . « إن وزرائي والله ما ملغوا مراتهم عسدى إلا أنعمهم » سمه يرسنمونها ، وقاعده يتعنونها ، وحكمة نديعونها لترفع القوس وتسمو الرعاب وليال الاحسان أهل الاحسان .

(ى) علم المأمون :

كان المأمون وافر العلم ، عرير الاطلاع وليس ذلك بعزير على حايفة ملأ عصره بأنواع المعارف الانسانية ، وضح فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يسميه بسميته ، وأن يرجع فضل الحصاره العباسية اليه .

ولكن المأمون في علمه وثقافته لم يقف عند حد الثقافة الداتية ، وإنما وجه حرصه الى أن يثير في نفوس أصحابه كوامن الرعة الى اتعمق في الدرس ، والشوق الى إدراك حقائق الأشياء ، وكانت له في ذلك طريقة معروفة ، هي توجيه السمر والحديث الى فنون

العلم، وصروب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المائدة يفتح لجلسائه أبواباً من القول ما كانت تحظر لهم سال .

قال جعفر بن محمد الأنماطي . إن المأمون لما دخل بغداد، وقربها قراره، وأمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة، يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد في صدر ساره على لُؤْدٍ في الشتاء وعلى حصير في الصيف، ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد للطالم وكل جمعة مرتين، لا يتمتع منه أحد، قال : واحتير له من الفقهاء لمجالسته، فأتته رجل، فإزال يختارهم، طمة بعد طمة، حتى حصل منهم عشرة، كان أحمد بن أبي دؤاد أحدهم، وبشر المريسي . قال جعفر بن محمد الأنماطي : وكنت أحدهم، قال فتعدت يوماً عده، فطست أنه وضع على المائدة أكثر من ثلثمائة لون، فكلمنا وضع لون، نظر المأمون إليه، فقال هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا، فمن كان معكم صاحب بلم ورطوبه، فليحتب هذا، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن علبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة العدا فليقتصر على هذا، قال : فوالله إن زالت تلك حاله في كل لون يقدم، حتى رُفعت الموائد . قال فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين، إن خضاً في الطب كنت حاليوس في معرفته، أو في الجوم كب هزميس في حسابه، أو الفقه كنت على أنى طالب صلوات الله عليه في علمه، أو ذكرنا السحاء فانت فو حاتم في حوده، أو ذكرنا صدق الحدث كنت أنا دز في صدق لهجته، أو الكرم كب كعب بن مامة في إثارة على نفسه، قال : فسر بذلك الكلام، وقال : يا أبا محمد، إن الإنسان إنما فصل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتيميره، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم . وانك اذا قلت : إن يحيى بن أكثم، قد بالغ في تحليل المأمون، وعلا في صفته، فأنا معك في ذلك، ولكني ألاحظ أن هذا الغلو لا يخلو من آثاره من حق وصدو .

ولنتنظر معى نظرة مُستقيص لاطلاع المأمون ، وتدفق المعانى اليه ، ومواناة الأفكار له جيبا ارتدّ رحل من أهل حراسان ، وأمر المأمون بحمله الى مدييه السلام ، فلما أُدخل عليه أقبل بوجهه اليه ، ثم قال له : « أحرزى . ما الذى أوحشك مما كنت به آنسا من دينا ، فوالله لأؤ أستحييك بحق أحب الى من أن أقتلك بحق ، وقد صرت مسلما بعد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مسلما . فإن وَحَدت عندنا دواء دائك ، تعالجت به اد كان المريض يحتاج الى مُشاورة الأطباء . فان أخطأك الشفاء وبأ عن دائك الدواء ، كنت قد أعدرت ولم رجع على نفسك بلائمة ، فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك الى الاستنصار والثقة ، وتعلم أنك لم تُقَصِّر فى اجتهاد ، ولم تدع الأحد الحريم » . فقال المرتد . « أوحشى ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم » فقال المأمون « وإن لنا اختلافين : أحدهما كالاختلاف فى الأدان وتكبير الحمازء . والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد ، وتكبير التشريق ووجوه القراءات ، واختلاف وحوه الفُتيا ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تحيير وتوسعة وتحصيف من الجُحى ، من أذنَ مَنّى وأقام فرادى لم يؤمّ من أذن مَنّى وأقام مَنّى ، لا يتعايرون ولا يتعابسون ، أنت ترى ذلك عيانا ، وتشهد عليه باناء ، والاختلاف الآخر كبحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابا ، وتأويل الحديث عن نبيا صلى الله عليه وسلم ، مع إجماعا على أصل التبريل واتفاقا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابا ، فقد يدعى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التواره والإنجيل متفقا على تأويله ، كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والصارى اختلاف فى شىء من التأويلات ، وينبى لك ألا ترجع إلّا الى لغة لا اختلاف فى ألقاطها ، ولو شاء الله أن ينزل كُتُبُه ويعمل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لعل ، ولكما لم نر شيئا من الدين والدنا دُع البيا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك اسقطت التلوى والجُحى ، ودهبت المسابقة

والمنافسة ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا سبى الله حل وعز الدنيا » فقال المرتد : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقا ! » قال : فانحرف المأمون نحو العلة نخز ساجدا ، ثم أقبل على أصحابه فقال : « وقرؤا عليه عِزْرَه ، ولا تترؤه في يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوه إنه سلم رعة ، ولا ناسوا بصيكم من ره وبصرته وتأنسه والعائده عليه » .

وهذا المحي الذي نحاه المأمون ، في إصناع ذلك المرتد يدلنا على حاجتين من نواحي تفكيره :

الأولى : بصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وبديقه في فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويكاد هذا التقسيم يقضى على كل شبهة ، عدم من يربهم هذا النزاع الذي طال بين الفرق الإسلامية ، وتشعبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية . تعمقه في درس المصنوعات . واستقصاء حلقات القلب ، وهسات الصمير ، وذلك ظاهرا في مراحمته لحياه الرجل الروحية ، وتأمله لما ألفتته نفسه وسكن اليه وجدانه قبل إسلامه ، فقد بجى على هذه السائقة طريقه التألف والتسامح التي قصى بها على مأمني به الرجل من الكفر بعد الإيمان .

« وبعد » فان المأمون في علمه وعرفانه أهل للاحتذاء والارتسام من أقرانه ، فمين بالتمثل به والافتقاء من أحدانه ، ليكون رءانهم عُرّة في جبين الدهر كرمانه ، وليكون بصيهم بصيه في مهاته ورفعة شأنه ، ورسوح عُرْشه وقوه بديانه .



(ك) احترامه للدين :

كان المأمون شديد الاحترام للتقاليد الدينية ، يرى فيها صيانته لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يشتط في ذلك ، فيعاقب على هفوة مرّ عليها عشرات السنين ، وسنقص عليك حادثة ، هي دلالة على هذا الإسراف ، وهي أيضا عنوان على ذوقه في نقد

الشعر ، وإما لترجح أن للظرف الذى وقعت فيه هذه الحادثة تعليلاً لما أُحْرِحَ فيها ، فلولا مجلس العناء ولعبه بالمس ، لما عُزِلَ قاضٍ لطفوه لفظية ، طال على عهدها الزمان ، واليك الحديث .

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حشيشة محمد بن على بن أمية بن عمرو قال . كما قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، ففنى علويّه :

رَبِّتْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي * أَتَاكَ بِهِ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا
وَلَكْتَهُمْ لِمَا رَأَوْكَ سَرِيعَةً * إِلَى تَوَاصُّوا بِالنِّعَةِ وَأَحْتَالُوا

فقال : يا علويّه ، لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاصي ، قال : أى قاضٍ ويحك ؟ قال : قاضي دمشق . فقال . يا أبا اسحاق ، اعزله ، قال : قد عَزَزْتُهُ ، قال : وَيُحْضِرُ السَّاعَةَ ، قال : فأحضر شيخ محبوص قصير ، فقال له المأمون : مَنْ تَكُونُ ؟ قال : فلان بن فلان الفلاني . قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كُتُّ أَقُولُهُ ، فقال : يا علويّه ، أُنْشِدْهُ الشَّعْرَ فَأَنْشَدَهُ ، فقال . هذا السُّعْرُ لَكَ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وسأؤد طوائى وكل ما يملك في سبيل الله ، إن كان قال الشعر مند ثلاثين سنة إلا في رُحْدٍ ، أو معاته صديق . فقال : يا أبا اسحاق ، اعزله ، فما كنت أولى رِقَابَ الْمَسْلُومِ مِنْ يَدِهِ فِي هَرْبِهِ بِالْبِرَاءَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ ثُمَّ قَالَ . يا علونه ، لا تقل ربئت من الاسلام ، ولكن قل .

حُرِّمْتُ مَنَاسِكَكَ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي * أَتَاكَ بِهِ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا

وهذا الموقف من المأمون شبيه كل السه بموقفه مع يحيى بن أكرم وريه وقاصيه ، حيث قال له المأمون : « لا أترك قاصيا سُرب البید » .

ثم لنظر ما يُروى عن سعيد بن رِيَاد أحد المعاصرين ، فانه يدلّك على تقدس المأمون لآثار النبی واحترامه لها ، وتمه بها ، مع وَرَعٍ وحشوع ، فقد قيل . إنه لما دخل الماء وون دمشق قال له : « أَرِنِي الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكُمْ ، فَأَرَاهُ سَعِيدٌ إِذَاهَا ، فقال له : « إِنِّي لَا أَشْتَمِي أَنْ أُدْرِىَ أَيْ شَيْءٍ هَذَا الْعِشَاءُ عَلَى هَذَا الْخَلَاءَمِ » فقال له أبو اسحاق :

حُلُّ المُقَدِّه حتى ترى ما هو فقال المأمون : ما أشكُّ أن النبي صلى الله عليه وسلم عقد هذا العَقْدَ ، وما كنت لأحلَّ عقداً عَقَدَه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال للوائق : حده فضَّعه على عبيدك ، لعل الله أن يَشْفِيكَ . وجعل المأمون يصعه على عينيه ويبكى .

على أنا نرى من الوفاء للنقد العلمى أن يحيل القارئ هب الى كلمتنا عن سياسة المأمون ، والى مدهسه الدينى والاعتزال ، كما يحيله الى مبحثنا فى الحياة العلمية والأدبية فى عصره ، ونظن أنه سيلاحظ معنا أن هذه السداحة الطيبة ، وذلك الإيمان الخميل فى تقدير المأمون للآثار النبوية لاتتفق فى حقيقه جوهرها مع ما أجمع عليه المؤرخون فى سياسته ، ولا مع اعتزاله^(١) أو توَعَّله مما ترك الفلاسفة الأولون . ولا مع ما أحده المأمون بعض معاصريه من ألوان النقد فى شؤون دينهم ودُنياهم .

والمأمون عند صحة هذه الرواية بين اثنتين : إما أن يكون قوى العاطفه الدينية ، رقيق الحس ، يحرص لوحده وإيمانه ، وإما أن يكون فى مثل هذه الأخوان رحل سياسة ودهاء ، يحسب ألف حساب لعواطف الجماهير ويحترم مُيُول الجماعات الدينية .

« و بعد » فالَّذين للديان حل حلاله ، وأنهم بالوَلَاة الذين يحسرون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات .



(ل) سياسته :

ولقد كان المأمون سياسياً فذاً ، وليس أدل على « دِيْلُومَاطِيَّتِهِ » ، من حُطَّتْه التى لا محد لها فى عصره ما هو أحكم منها ولا أسد ، مع رُكُونه الى مُشاورة شيعته وأنصاره اذا حَرَبُهُ أمر . ولا أدل على كجاسته وكبر مهارته من تصرّفاتِه مع سمره أخيه الأمين مما وقفتك على طرف منه ، فى فصل التزاع بين الأخوين .

(١) يقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الحار : « الاعتزال مذهب من مذاهب التوحيد أراد القائلون به نبيه الله عن الأشياء معوا أن يكون لله صفات تشبهاً بتد القدماء ، ثم انتقلوا الى الأصوال معوا أن يكون لله أثرى فعل الشر فقالوا إن الله مره عن الشر وإن الانسان يحلق أصوال هذه الاختيارية قدرة أودعها الله فيه الخ ما قالوا . وليس فى هذا ما ينافى إجلال المأمون لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان سياسياً فذاً ، في تزوجه من بُورَان بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحزب الفارسيّ ، وفي تزويجه عليّ بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، ومحمد بن علي بن موسى ابنته أم الفضل ليكتسب الحزب العلويّ ، وأما ذلك كلّهُ الى صمان تأييد الأحرار له . عارفاً لنفسيات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسياً فذاً ، مصيباً لثبات الصواب في قوله لأحمد بن أبي دؤاد عن أهل بغداد : « الناس على طمقات ثلاث في هذه المدينة ، ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلّا عفوّاً وإسقاطاً ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن يُنصف إلّا بيناً ، ومن كان لا ظالم ولا مظلوماً فبئس ما يَسعه » .

وكان سياسياً فذاً ، في مداراته عمّاله ، وليس أدلّ على ذلك من تصرفه مع إبراهيم بن السّديّ صاحب الأخبار ، وقد رَفَعَ اليه حراً عن حادثة عصر ، فكذّبه عبدالله بن طاهر ، فعسف المأمون السّديّ آلم التعسف ، أمام ابن طاهر ثم بعث اليه ، وقال له . « إني أمر وأدأري عمّالي وعمّالهم ، مداراة الخائف ، والله ما أحد الى حملهم على المحمة البيضاء سبيلاً ، فاعملْ نِي على حسب ما نراي أعمل ؛ وإن لم تسلمْ لك أيامك ، ويَقْصُ دِيك » .

وكان سياسياً فذاً ، حينما رَفَعَ اليه صاحب خبره « إما أصبها يا أمير المؤمنين رِقاعاً ، فيها كلامُ السفهاء والسّفلة ، وفيها تهديدٌ ووعيد ، وبعضها عدواً محمّوط ، الى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره ، فكتب المأمون بخطه : « هذا أمر إن أكرهه أكثر عمّالهم ، وأتسع عليا تحرقه ، فُرُصُحات أخبارك ، متى وحدوا من هذه الرّقاع رُقعة أن يُمزّقوها ، قبل أن ينظروا فيها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم يَرُها أثرولاً عين » ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال .

وتعال سطر نظره تحليليه قصيره ، فيما برويه لنا زبد بن علي بن الحسين ، قال : « لما كان في العيد ، بعد قدوم المأمون سه أربع ومائتين والمأمون يتقدّى ، وعلى مائته طاهر بن الحسين وسعيد بن سلّم ومُحمّد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقترطه ، ويذكر مناقبه ، ويصف سيرته ومجلسه . اذ أنهملت عينا المأمون بالدموع ، فرفع يده عن الطعام ، فأمسك القوم حين رأوه بتلك الحال ، حتى اذا كَفَ ، قال لهم : كلوا ، قالوا : يا أمير

المؤمنين، وهل تُسبغ طعاما أو شرابا وسُتدنا هذه الحال. قال : أما والله ما ذلك من حَدَث ولا لمكروه حَمَمْتُ به أحد، ولكنه حس من أحاس الشكر لله اعطمته ، ودكر بعته التي أتمها على، كما أتمها على آتوى من قبلى، أما تَرَوْنَ ذلك الذى فى حصن الدار، يعنى الفصل س الرابع - قال وكانت الستور قد رفعت ، ووُضعت الموائد للباس على مراتبهم ، وكان مجلس العضل مع أصحاب الحرس - وكان فى أيام الرشيد وحالُه حاله يرانى روحه أعرف منه العصاء والشآب ، وكان له عسدى كالدَى لى عده، ولكنى كنت أداريه خوفا من سِباعه وحَدَرًا من أكاديبه، فكنت اذا سَأَمْتُ عليه، فردّ على أَطْلُ لذلك فِرَحا، وبه متبها، وكان صَعُوهُ الى الخلوغ، فعمله على أن أعراه لى، ودعاه الى قتلى، وحرك الآخر ما يَحْتَرِك القَرَاة والرحم الماسّة، فقال : أَمَا القتل فلا أَقْتله، ولكنى أحمله بحيث اذا قال لم يُطْع، وادادعا لم يُحَب، فكان أحسن حالانى عده، أَنْ وَحّه مع على بن عيسى قَيْدَ قصبة، بعد ما تنازعا فى الفِضّة والحديد يُقَيِّدُنِي به، وذهب عنه قول الله حَلْ وَعَزْ : ﴿ ثُمَّ بَعِيَ عَلَيْهِ لَيْبَصُرُهُ اللَّهُ ﴾ فذاك موضعه من الدار فأخس مجالسها، وأدى مراتبها، وهذا الخطيب على رأسى، وكان الألامس يهف على هذا المبر، الذى بإزائى مرّة، وعلى المنبر الغربى أخرى، فيزعم أنى المأمون ولستُ بالمأمون، ثم هو الساعة يقترطنى تقريطه المسيح ومحمدا عليهما السلام، فقال طاهر بن الحسين : يا سيّدا، فما عدنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دمائهما، فحَصَنَتَهُما بالعفو والحلم ! قال . فعلتُ ذلك لموضع العفو من الله . ثم قال المأمون : مُدُّوا أيديكم الى طعامكم، فأكل وأكلوا .

ألا يسوع لسا أن نستسط مما قَدَمناه لك أن المأمون كاتب سياسيا ذَهَنًا، حادقا فى تصرفه مع الفصل " ألم يكن للفصل مكانة عند الرشيد، وفود بعيد المدى فى الدولة " ألا يجوز أن سِعايته بالمأمون وأكاديبه عليه، إن لم يُداره، تحد أذانا مُصْغِيَةً . وأنها قد تحز عليه من الشرور ما ليس فى حاجة اليه "

ألم يكن حير سبيل لآتقاء شائته أن يداريه، عملا بقول أبى الدرداء « إنا لنَبْشُ فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم »

فهل ترى سياسة أحكم ، و بصرا بالأمور أتم ، من تصرف المأمون ومداراه ، ثم انظر ما كان من مداراه للفضل بن سهل ، كما صرح بذلك لولى عهده على بن موسى الرضا ، ومداراته لطاهر بن الحُسن قاتل أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأممية ، تؤمن معا أن المأمون كان سياسيا ، ولعل لأطلاعه على ما ترجم من المؤلفات اليونانية والعربية ، مع استعداده الخاص وروعه الى البحوث الكلامية عامة ، وحسه للشاورة واكتشافه للرؤوس المفكرة الباصحة ، امل لهذا وأمثاله الفصل في تكوين المأمون على ما رأيت ، وتحريجه على ما شاهدت .

« و بعد » فإن للحياه تقاليدها . وإن لسياسة الشعوب أسرارها . كما أن للصراحة محامدها ، وللمداراه صرورتها ، وأعم بمن يصنع الأمور في مواضعها ، ويرن المواقف ميزانها ، ويطب لكل حاحه دواءها وعلاجها .



(م) مذهب المأمون الديني :

أما مذهب المأمون الديني أو السياسي إن شئت ، وهل كان يميل للفُرس حقا ويؤثرهم على غيرهم من العرب في خدمة الدولة ، وهل كان شيعيا علويا ، أو معتدلا في التشيع ، أو معتزليا ، فهذا ما يُستقيص القول في شتى بواحيه ، ورددحم معانيه ، لاختلاف وجهات النظر فيه . ولعلك تبيّن مما كتبناه عن المأمون السياسي ، بعض ما يُساعدك على تفهم مذهبه الديني .

ولما كان قد أرحانا الكلام في موضوع المحسة والقول بخلق القرآن الى قسم العلوم والآداب ، فنحن نلّف الطرهما الى ذلك .

بيد أننا نرى من واجنا أن نشيرها ، الى أن المأمون كان مُحوطا بسُيُوح الاعتزال والكلام ، أمثال مُمامه بن أَثَرَس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه ، فان ياقوتا الرومي قد ذكر

عه ، في الحزء السابع من معجمه ، : أنه كان يُتهم بالميل الى الاعتزال ، فلا يستعد اذا ، وصلته بالمأمون صلة الأستاذ بتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثر بميله خصوصاً ، أنه اتصل به مد صاه في أمام الرشيد . وكذلك كان محوطاً بشيوخ آخرين ، لهم آثارهم ومكانتهم في الدولة ، مثل يحيى بن أكرم وعبر يحيى بن أكرم .

وكان على ذلك ، متأثراً بما نُرحم من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وموسم . كما كان . الى حدٍ غير قليل ، تحت سلطان الفرس وورائهم أمثال الفصل بن سهل . وكان يحسب للعلويين حسابهم ، وللعباسيين حسابهم . فلا عرو أداً أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل في تكييف مراعاة الديني . وقد يفتقر بعض هذه العوامل حياً وقد يستند حياً آخر ، طبقاً للأحوال .

هذا هو رأيي في مذهبه الديني أو السياسي على وجه عام . على أن هذا لا يمنعنا ، وقد اتحدنا لأنفسنا خطّة الحيدة في تدوين التاريخ ، من أن نُثبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر طرّفاً مما جاء منها في هذا الصدد .

قال ابن الأثير في كامله : « قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون شديد الميل الى العلويين ، والإحسان اليهم ، وحره مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طمعاً لا تكلفاً ، من ذلك أنه توفّى في أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي ، فحصر الصلاة عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولداً لريب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهي ابنة عم المصور توفّى بعده ، فأرسل له المأمون كفنّاً ، وسير أحماء صالحاً ليصلّ عليه ويعزّي أمه ، فاسألت كانت عند العباسيين بمثلة عظيمة ، فأتى إليها وعزّاها عنه واعتذر عن تحلقه عن الصلاة عليه ، فظهر غصها وقالت لابن ابنها : تقدّم فصلّ على أبيك ، وتمثلت :

سَبَّكَاهُ وَنَحَسَّاهُ بَحَيْنَا * فَأَبْدَى الْكَبِيرُ عَنْ خَبَثِ الْحَدِيدِ

ثم قالت لصالح : قل له يا بنِ مَرَّاجِل ، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لو صعدت ذلك على فيك ، وعدوت حلفَ جازته .

ثم تَمَّالَ معي تندبَ ما يرويه لنا التعلِّي أحد المعاصرين ، قال : سمعت يحيى بن أكرم يقول : أمرني المأمونُ عند دحوه عداد ، أن أجمع له وجوهَ الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وحلّس لهم المأمون فسأل عن مسائل ، وأفاض في فروع الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس ، الذي جعلناه للنظر في أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد ، كره هذا المجلس الذي جعلناه للطرطوائف من الناس ، بتعديل أهوائهم وتركيز آرائهم ، فطائفةٌ عابوا علينا ما نقول في تفصيل على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وطنوا أنه لا يجوز تفصيل على إلا ما تنقص غيره من السلف ! والله ما أستحير أن انتقص المحتاج فكيف السلف الطيب ! وإن الرجل ليأتيني بالقطيعة من العود أو بالحشبه أو بالشئ الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحو ، فيقول : إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه ، وما هو عدى بثقة ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أنى يفرط الية والمحة أقبل ذلك فأشتره بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أصمه على وجهي وعيني ، وأتبرك بالطراليه وبسمه ، فأستشفي به عند المرس يصيبني أو يصيب من أهتم به ، فأصونه كصباى نعى ، وإنما هو عود لم يفعل شيئاً ، ولا فضيلة له يستوح المحبة ، إلا ما دُرِّك من من رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه ، وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه أيام الشدة وأوقات العُسرة ، وعادى العشائر والعائز والأقارب ، وفارق الأهل والأولاد ، وأغترب عن داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته ، يا سحاح الله ! والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً ، لكان في الأخلاق جحيراً ! وإن من المشركين من يرى في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا . معاذ الله مما نطق به الجاهلون . ثم لم ترخص هذه الطائفة بالغيب لمن حالفها ، حتى نسبته إلى البدعة في تفصيله رجلاً على أحبه ونظيره ومن (١) هذه القطعة منقولة كما هي عن تاريخ بغداد ح ٦ ص ٧٥ وما بعدها .

يقاربه في الفضل، وقد قال الله حل من قائل : ﴿ وَلَقَدْ فَصَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(١) ثم وسع لنا في جهل الفاصل من الموصول، فما قرّض علينا ذلك ولا ندبنا إليه، إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة، من دون البين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل آملين لو جهله جاهل رجونا ألا يكون احتراح إنما . وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وشك الآخر واحتج في كسره وإبطاله من الأحكام في الفروع والدماء والأموال التي الطر فيها أوحى من النظر في التفصيل . فيغلط في مثل هذا أحد يعرف شيئا ، أوله روبة أو حسن نظر ، أو يدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الإلطاط ، أو متبع لهواه ، دأب عن رياسة اعتقدها . وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسا، اعتقد به رياسة، لعله يدعو فئة إلى صرب من البدعة، ثم لعل كل رجل منهم يُعادى من حاله في الأمر الذي قد عقد به رياسة بدعة، ويُشيط بدمه، وهو قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك، إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فيه، فسأله عليه وأمسك عنه ، عد ذكر محالته إياه فيه ، فاذا خولف في نخلته، ولعلها تما وسع الله في جهله بها، أو فيما اختلف السلف في مثله ، فلم يُعاد بعضهم بعضا، ولم يروا في ذلك إثما، ولعله يُكفّر محالته ، أو يُبدعه أو يرميه بالأمر التي حرّمها الله عليه من المشركين دون المسلمين ، نغيا عليهم . وهم المترقون الفتن ، والراسخون فيها، لينهبوا أموال الناس ويستحلّوها بالغلبة، وقد حال العدل بينهم وبين ما يُريدون، يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فرائسها . وإنى لأرجو أن يكون مجلسا هذا — بتوفيق الله وتأيدته، ومعونته على إتمامه — سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين ، إنا شاك فيتين ويتثبت فينقاد طوعا، وإما مُعاند فيردّ بالعدل كرها .

ولقد هم في سبيل علويته هذه أن يلص معاوية ، وأن يكتب بذلك كتابا، يُقرأ يوم الدار، وحفل الناس، فناه عن ذلك يحيى بن أكرم ، وقد يكون من المتع الطريف حقا أن يذكر لك ما قاله يحيى وعيره، لتبين نفسية الزعماء فيما نحن بسبيله .

(٢) يشيط بدمه : يهدره .

(١) الإلطاط : الاشتداد في الأمر والحصومة .

قال يحيى بن أنس : يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هذا ، ولا سيما أهل نحرآسان ، ولا تأمن أن تكون لهم بقرة وإن كانت لم تدري ما عاقبتها ، والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تبذل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح في السياسة ، وأحرى في التدبير . فركب المأمون إلى رأيه ، ثم دخل عليه ثمانية أحد المعاصرين ؛ فقال له المأمون : يا ثمانية ، قد علمت ما كاد برآه في معاوية ، وقد عارصا رأى هو أصلح في تدبير المملكة ، وأبقى ذكرآ في العامة ، ثم أحره أن ابن أكرم خوفه إياها ، وأحبره بغيرها عن هذا الرأي ، فقال ثمانية . يا أمير المؤمنين ، والعامة في هذا الموضع الذي وصفها به يحيى ! والله لو وجهت إسماعا على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ! والله يا أمير المؤمنين ، ما رضى الله حل شأوه أن سواها بالأعام ، حتى جعلها أضل منها سيلا ، فقال تارك وتعالى . **زُ** أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۖ والله يا أمير المؤمنين ، لقد مررت منذ أيام في شارع الخلد ، وأنا أريد الدار ، فادا لإنسان قد سطر كساءه ، وألقى عليه أدوية ، وهو قائم ينادى عليها : هذا الدواء لياص العين والعشا والنفاوة والظلمة وضعف البصر ، وإن إحدى عييه لمطموسة ، وفي الأخرى مؤنسى له ، والناس قد اسألوا عليه وأجفلوا إليه يستوصفونه ، فزلت عن داتى حاجية ودخلت في عمار تلك الجماعة فقلت : يا هذا ، أرى عينك أحوج هذه الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلم لا تستعمله ؟ فقال : أنا في هذا الموضع منذ عشرين ما مر في شيخ أجهل منك ، فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أيس اشتكت عيني ؟ قلت : لا أدري . قال : بمصر ، فأقلت على تلك الجماعة فقالوا : صدق الرجل ، أنت جاهل ، وهموا ، فقلت : لا والله ، ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، فما تحلصت منهم إلا بهذه الحجة .

نريد بعد ما قدمناه لك أن نقول لك : إن مذهب المأمون الديني كان متمشيا تماما مع مذهبه السياسي ، وإنه اذا كان يريد من وراء خطئه السياسية من التزوج من هذا

الحزب وذاك، ومن إرضاء هذا الطرف وذاك، أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدى ذلك أن يكون من العلويين حليعة، ثم من العباسيين حليعة ما دامت غيته متحققة من استئجاب الأمن، وامتزاج الأحزاب، وتوحيد القوى، فكذلك كان يريد أن يخضع من مذهبه الديني مدها وسطاً . ويحيل إليها من النتائج التي وقعها عليها من دراسته هذا العصر أن المأمون لم يظفر بمايته لا من الوجهة السياسية كما علمت من انتهاء حياته الرضا من آل محمد، ولا من الوجهة الدينية .

وبعد، فقد قلنا لك : إن الدين للديان حل حلاله، وأكبرها وأكبرت معها أولئك الولاة الذين يحترمون ما للجبايات من آراء ومعتقدات وديابات، ويظهر أن المأمون لم يكن فيها رامة في هذا السبيل موفقا توفيقه فيما عداه، وأن له رلة كان يحذر ألا يقع مثله في مثلها، وسترى ذلك موضعا في الفصل الذي عقدهاه عن « محم القرآن » .



(ن) كلمة ختامية عن المأمون :

وإنا بعد أن حللنا شخصية المأمون بما يحس من التفصيل والتوصيح، رى من المستصوب أن نضم إلى آراء المؤرخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغة في تمديحهم بمصائله، رأى مؤرخ مشرق عكف على دراسته عصر المأمون وهو السيروليم موير، فربما أفادنا كثيرا من ناحية استيعاب وجهات النظر عند الفرنجة من المؤرخين، ذلك لأن الحقيقة العالمية لا نخدم بمثل ما يحدها تبائن الآراء واختلاف المصادر وتناقض الروايات . وليس من مهتنا أن نعرض للرد على « السير موير » وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا .

قال الأستاذ موير في كتاب الخلافة في مختم بحثه عن المأمون ما ترجمة لك بنصه :

« فمما لا راع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفا بالعدل والحلم، وإنما يؤحد أنه كان متقلبا في آرائه وشعوره، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية .

ويرجع السبب في ذلك الى نزعه الفارسية التي ورثها عن أمه ، والبيئة التي رُبي فيها من جهة ، والى غريزه حبه للاستسلام متأثر من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أناس مع اعترافا عدله ، لا يستطيع أن ينزعه عن الحواح في بعض الأحيان الى الجور وأستعمال القسوة من غير مسوق ، فإنه قد تصرف في بعض الحوادث تصرف الجارية والقساة من أسلافه الذين أتوا من المكرات ما سودوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشية عربية ، ذلك أن أبا دأف — وكان بطلا من أشرف العرب وزعيما لإمارة همدان ، إذ كان من أسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسعا بين عشائرها ودوى البيوتات فيها — كان من الذين اصبموا الى نصرة الأُميين وشايعوهم ، فلما قُتل وأستقل المأمون بالخلافة ، أبى أبو دأف أن يدخل في طاعته ، وأثر العودة الى مَسْقِطِ رأسه في فارس ، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة ، وعالى في مدحه وإطرائه ، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدم عليهم ، فاعتاط المأمون من الشاعر عيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصد إهانته ، فأمر بتعديسه وقتله شر قتلة ، ولكن لم يمض على ذلك غير قليل من الزمن حتى دخل أبو دأف في طاعة المأمون فاحتفل به وقربه اليه ، فان كان تحاوزه عن أى دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صدره ، فهذا التحاوز لا يغير حكما عليه بالقسوة الوحشية في قتل ذلك الشاعر الأعمى ، ولو أعضبنا عن الشبهات التي حامت حول مقتل الفصل وموت علي الرضا عدرا وعيلة ، فاننا لا نستطيع أن نعصى عن معاملته الجائرة لاس عائشة ، وما لقيه هزيمة وطاهر مع تمانيهما في نصرته وتوطيد حكمه ، واصطهاده لكثير من أحرار المفكرين ، وأصحاب الآراء المخالفة لرأيه في بعض مسائل الدين ، في مجلس المناظرة ، مما يدل على قسوته ، إلا أننا اذا راعينا طول مدته حكمه وموقفه الببيل في عموه عن الخارجين عليه في عداد ، نرى كفة عدله وحلمه أرحم من كفة جورهِ وقسوته ؛

وقصارى القول أن عصر خلافته كان بوحه الإحمال من أزهى عصور التاريخ
الاسلامى « اه .

+ +

وبعد ، فلقد حللنا شخصية المأمون الفدة البارزة بما استحقته من الاستقصاء
والاستيعاب ، والدرس والتحليل ، وأعتمنا كل كلمة عن سجاياه ما اعتبره موضع العظة
والاعتبار من دراسة هذا العصر المتزعج المثل العليا . ونأمل أن نكون قد وفقنا فيما
رُمناه من إصابة شاكلة الحق ولئلا يصواب .

افضل الثامن

الحياة العلمية في عصر المأمون

توطئة — حركة القل — الترجمة — كتب العصر — آثار الهبة المأمونية — القول بحلق القرآن .

(١) توطئة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولّى المهيمّة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونية في بغداد، وكانت تعرف بيت الحكمة، كما كان يتولى تنظيم خزانة المأمون .
وقيل : إن بيت الحكمة هذا أنشئ في العال أيام الرشيد، حيث قد جمع له فيه البرامكة من الكتب ما وُفقوا إليه، هدية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيل : إن يحيى بن أى منصور الموصلى المنعم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد في العصر المأمونى ، ومحمد بن موسى الخوارزمى صاحب الأزياج وصورة الأرض، كما من خزانة دار الحكمة المأمونية، كما كان جدّ أحمد الطيّب المعروف بالصوّبرى الحلى والفضل ابن توجّحت وأولاد شاكر وغيرهم من رحالات بيت الحكمة في العصر المأمونى ، أو من كان يتردّد على هذه الدار للعمل فيها بصفة رسمية أو للطالعة أو للنسخ أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسابة المعروف علان الشعونى العارمى الأصل، كان ممن ينسخ في بيت الحكمة ، أو في أحد بيوت الحكمة هذه، إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيل : إن المأمون بعث الى حاكم صقلية المسيحي أن يبادر بأن يرسل اليه مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، وإن الحاكم تردّد في إرسائها، وكان بين الضنّ بها والحرص عليها والخوف من القوة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى اليهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها إليه ، فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أسدتها » فأدعى الحاكم لمشورته وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علي : إن المأمون هو الذي جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه ، ودُعيت الصورة المأمونية ، صوّروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه و برة و بحره وعامره وعامره ومسكن الأئمة والمدن الى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من حفرافية بطليموس ، وحفرافية ماريوس ، وقد وضع له علماء رسم الأرض - وقال الرهري : إنهم كانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق - كانوا في الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرف الى البلاد والأئمة ، التي أطلتها الراية العاسية ، هذا الى عايتة بالعلك ، وفلكيّه الفزارى أول من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وعُي بالطبيعة والرياصيات فوق عايتة بالطلب ومعرفة العقاقير والسات والحيوان ، الى ما شا كل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس في إدخال المدنية على دولة العرب ، وفتح به المأمون باب العقل على مضراعيه في كل مطلب وشأن .

قيل هذا ، وقيل أكثر من هذا ، مما بدلا دلالة صحيحة أو دلالة تقريدية على كثرة الكتب في العهد المأموني ، وما يشير الى عدم قلتها في أيام من سقه من الخلفاء العاسيين . والان يحق لنا أن نتساءل ، هل أفاد المأمون من هذه الكتب ؟ وما اذا أفادنا المأمون خاصة ؟ وما هي الحركة العملية المأمونية ، ومن هم رجالها وما هي مؤلفاتها ؟
يحقق لنا أن نتساءل عن ذلك ، وعن مثل ذلك ، ويحقق لنا أن نعريض لهذه البحوث ، وأن نوضح بعض ما كما أجملاه في كتبنا عن الحياة العلمية في العصر العباسي .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية ، أو غيرهما ، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبيته فيا ومحصاه لك عدد تعرضا لتحليل شخصيه المأمون ، وحين تكلمنا عنه تلميذا ، وولى عهد ، وخليفة ، وأديبا ، وطبا ، وسياسيا ، وباحثا دينيا .

وأما أن المأمون أفاد عصره مؤلفاته الخاصة ، فهذا مالا ريب فيه أيضا ، وهاك ابن الـديم يحدثنا في فهرسته أنـف للمأمون من الكتب كتاب جواب ملك البرغر فيما سأل عـه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسائله في إعلان النبوّة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورحالاتها ومؤلفاتها فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدثنا ابن أنى أصبغة في طبقاته عن أوكد الأسباب عد المأمون لاستخراج الكتب فيقول : قال يحيى بن عدى : قال المأمون : رأيت فيما يرى السائم . كأن رحلا على كرسى حالسا في المجلس الذى أجلس فيه فتعاطفته وتهايتته وسألت عـه ، فقيل لى هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله عن شىء ، فسأله . فقلت : ما الحس ؟ فقال : ما استحسنته العقول ، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الشريعة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسسه الجمهور . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المام من أوكد الأسباب في إنـراج الكتب . فان المأمون ، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم . فأحـاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم المحتاج بن مطر ، وابن البـطريق وسـلم صاحب بيت الحكمة وعيرهم فأخذوا مما وحدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه أمرهم بقله فقل ، وقد قيل . إن يوحنا بن ماسويه من وفد الى بلد الروم . وأحصر المأمون أيضا حنين بن إسحاق وكان قتي السّ وأمره بقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العـرى وإصلاح ما يقله غيره فامتثل أمره .

ومما يحكى عـه أن المأمون كان يعطيه من الذهب رنة ما يقله من الكتب الى العربى مثلاً مثل . وقال أبو سليمان المـطقى : إن بى شاكر ، وهم محمد ، وأحمد ، والحس ، كانوا يرزقون جماعة من النـقلة . مهم حنين بن إسحاق ، وحنيش بن الحس ، وثابت ابن قرة وعيرهم ، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة .

ويقول القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي : إن العرب في صدر الإسلام لم تُغن بشيء من العلوم، إلا لُبَّعُها ومعرفة أحكام شريعتهَا، حاشا صاعا الطب . فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير مسكرة عند حمايرهم، لحاجة الناس طُرًا إليها . فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية . فلما أدَّالَّ الله تعالى للهاشمية، وصَرَفَ المُلْك اليهم ثابتَ المهمم من عطلتها ، وهتَّ العِطْل من مَوْتها ، فكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المصور، وكان مع راعته في الفقه ، كَلِمًا بالفلسفة وعلم الحجوم . ثم لما أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة الساجد عبد الله المأمون س هارون الرشيد، تم ما بدأ به جده المصور ، فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، وداحل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه مما حصرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وحاليبوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فاستحاد لها مَهَرَةً التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها . فترُحمت له على عاية ما أمكن، ثم حصَّ الناس على قراءتها ورتبهم في تعليمها . وكان يحلوا بالحكاء ويأُسُّ بما ظرتهم، ويلتذ بمداكراتهم، علما منه أن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ، وتُحِبُّته من عاده، وأنهم صرفوا عنايتهم الى تَبِيل فضائل النفس الباطنة ورهدوا فيما يَرع في الصَّيْن والترك ومن نزع مَنَوعهم من التنافس في دَقَّة الصاعدة العمليَّة، والتأهى بأخلاق النفس والتفاحر بالقوى . إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتَفْضُلُهُمْ في كثير منها . فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى، وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم .

فهذا الحلم الذي قيل إنه دفع بالمأمون الى الاستهامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو، أو عبارة علمية أدق، هذا الميل الى الفلسفة والمطلق عند المأمون، كان من آثاره حركة نقل وتأليف عيفة قوية . ويحِيل اليها أن المأمون لاتساع دائرة معارفه العامة، ورعته في القياس العقلي، وتأثره بمذهب الاعتزال كما سترى في كلماته التي عقدناها لك في القول بخلق القرآن،

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل في انتشار حركة الترجمة والتأليف. وخاصة في مؤلفات أرسطو، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

(ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «سنتلانه» في مفتتح محاضراته في تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة في عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأول من خلافة أبي جعفر المنصور الى وفاه هارون الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ وهى الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحيى بن البطريق مترجم المجسطى في أيام المنصور . وجورجيس بن حريثيل الطبيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفع الذى مات نحو سنة ١٤٣ وترجم بعض الكتب المقتبحة لأرسطوطاليس . ويوحنا بن ماسويه ، وكان في أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكل ، واعتنى في الأغلب بالكتب الطبية . وسلام الأبرش ، وكان في أيام البرامكة . وماسيل المطران .

والدور الثانى ، من ولاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠ ، وهى الطبقة الثانية من المترجمين ، منهم يوحنا بن البطريق . والنجاش بن مطر الذى عاش سنة ٢١٤ . وقسطا ابن لوقا العلبكى وعاش سنة ٢٢٠ . وعبد المسيح بن ناعمة الحمصى وعاش سنة ٢٢٠ . وحسين بن اسحاق وتوفى سنة ٢٦٠ وقيل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حسين ، وتوفى سنة ٢٩٨ . وثابت بن قرة الصابى المتوفى سنة ٢٨٨ . وحيش بن الحسن ، ويدعى حبش الأعسم ابن أخت حسين ، وتوفى سنة ٣٠٠ ، ومما ترجم في هذا العصر أغلب كتب أفقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وشيء من كتب أفلاطون ومن التفسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهى تاريخ وفاة حيش ، الى منتصف القرن الرابع ، ومن مترجمي هذه الطبقة ، متى بن يونس ، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

نذكر عنه أنه كان سعداد من سنة ٣٢٠ وسنة ٣٣٠ . ومنهم سنان بن ثات بن قزة ، المتوفى سنة ٣٦٠ . ويحيى بن عدى وتوفى سنة ٣٦٤ . وأبو على بن زرعة ، من سنة ٣٣١ الى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الجصى . وعيسى بن سهرنخت ، وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المطبقة والطبيعية لأرسطو ، والمفسرين كالاسكندر الأفروديسى ويحيى المجوى وغيرهما اه .

وبعد ، فقد سبق لنا أن بينا لك طرّقا عن الحياة العلمية فى العصر الأموى وفى صدر العصر العباسى ، وأن لما الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت فى علم الفلك أم الطب أم الفلسفة ، ترجمة وتأليفا فى العصر المأمونى ، معتمدين فى ذلك على الفهرست لابن النديم ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، وكتاب أخبار الحكماء للقفطى . وهاك جملة منهم وهم . أحمد بن محمد بن كثير الفرغانى أحد منجمى المأمون ، وبتختيشوع حورحيس ، وحراثيل بن بختيشوع ، وحراثيل الكدال المأمونى ، والحارث المتحم صاحب الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن توتخت ، وركيا الطيفورى ، وسهل بن ساور ابن سهل المعروف بالكنز الذى كان يجتمع مع يوحنا بن ماسويه وحورحيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وركيا الطيفورى ، ثم سند بن على المنجم المأمونى ، وسلمويه بن سان صاحب المعتم ، وصالح بن هلة الهدى صاحب الرشيد ، والعباس بن سعيد الجوهرى المنجم صاحب المأمون ، وعبد الله بن سهل بن توتخت المنجم المأمونى ، وأبو حفص عمر ابن الفرخان الطبرى أحد رؤساء التراجمه والمتحققين بعلم النجوم ، وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن من منجمى المأمون ، وكان بنوه الثلاثة فيما ذكره القفطى من أنصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ، وموسى بن إسرائيل صاحب أبى اسحاق بن ابراهيم بن المهدي ، وما شاء الله المحم اليهودى ، وميخائيل بن ماسويه ، ويحيى بن أبى منصور المنجم المأمونى ، ويعقوب بن اسحاق وتلاميذه : حسنويه ونعطويه وسلمويه ورحمويه وأحمد بن الطيب ، ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصرانى السريانى ،

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العظيمة لنخرجنا
عن صِغَرِ كتاب في العصر المأموني، إلى وضع موسوعة أو معجم، وإذا لم نكتب عنهم فقد
رُئِيَيا بالتقصير المعيب ولم يصوِّر العصر بما ينبغي أن يصوِّره ، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة
عن هـبـرا ئيل بن مـحـتـشـوع ، وقدرُّه في العصر قدره ومنزلته ومنزله ، لتكون مثلا وتوضيحا
لسواء من رحالات العلم في ذلك العصر الفنى حقا، والعنى برحالاته صدقا، وستقف على
هذه الكلمة في موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب .

وإنا نقل لك هنا طرّفا من أسماء الكتب التي تُرجمت في ذلك العصر من اليونانية ،
والفارسية، والهندية ، والقبطية، والعبرانية، واللاتينية، والبطية ، معتمدين في ذلك على
البحث الطريف الذي كتبه صاحب التّمدّن الاسلامي، ولخص فيه ما كتبه ابن الديم ،
وصاحب الطبقات، وتراجم الحكماء، مؤهين بجهده أمانة للعلم واعترافا بالفصل .

كتب أفلاطون :

- (١) كتاب السياسة نقله حُسين بن إسحاق
- (٢) » المناصبات . . . » يحيى بن عدى
- (٣) » النواميس » حنين ويحيى
- (٤) » طماوس . . . » ابن البطريق وأصلحه حنين

(٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيى بن عدى

(٦) » التوحيد » » » » »

(٧) » الحس واللذة ... » » » » »

(٨) » أصول الهندسة .. » قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس :

(١) قاطيغورياس (المقولات) .. نقله حين بن إسحاق

(٢) كتاب العبارة . . » الى السريانية وإسحاق الى العربية

(٣) تحليل القياس .. . » ثيادورس وأصلحه حين

(٤) كتاب البرهان . .. » إسحاق الى السريانية ومتى الى العربى

(٥) » الجدل » » » » » ويحيى »

(٦) » المغالطات أو الحكمة الممؤهة » ابن ناعمة وأبو بشر الى السريانية ويحيى الى العربى

(٧) » الخطابة .. . » إسحاق وإبراهيم بن عبد الله

(٨) » الشعر » أبو بشر من السريانية الى العربى

(٩) » السماع الطبيعى » أبو روح الصابى وحين ويحيى وقسطا وابن ناعمة

(١٠) » السماء والعالم ... » ابن البطريق وأصلحه حين

(١١) » الكون والفساد » حين الى السريانية وإسحاق والدمشقى الى العربى

(١٢) » الآثار العلوية » أبو بشر ويحيى

(١٣) » النفس » حين الى السريانية وإسحاق الى العربى

(١٤) » الحس والمحسوس ... » أبو بشر متى بن يونس

(١٥) » الحيوان » ابن البطريق

(١٦) » الحروف أو الإلهيات ... » إسحاق ويحيى وحين ومتى

(١٧) » الأخلاق » إسحاق

(١٨) كتاب المرأة نقله المحاح بن مطر

(١٩) » أثولوجيا » » » »

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته ، أو من جاء بعده ، ثاوفرستس ،
وديدوخس برقلس ، والاسكندر الأفروديسي ، وفرفور يوس ، وأمونيوس ، وتامسطيوس
ونيقولاوس ، وفلوطرخس ، ويحيى الحوى وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة ،
وكلها في الفلسفة وفروعها ، وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها ، فأعصينا عن
ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا لجالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بصعلة كتب في الفلسفة والأدب ،
وهي كتاب ما يعتقد رأيا ، ترجمه ثابت ، وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه ، نقله توما
وأصلحه حين ، وكتاب الأخلاق نقله حيش ، وكتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم ، نقله
حيش ، والمحرك الأول لا يتحرك ، نقله حيش وعيسى ، وغير ذلك .

(٢) كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط :

(١) كتاب عهد أبقراط نقله حنين الى السريانية وحيش وعيسى الى العربية

(٢) » المصول » حين لمحمد بن موسى

(٣) » الكسر » » » » »

(٤) » مقدمة المعرفة » وعيسى بن يحيى

(٥) » الأمراض الحادة عيسى بن يحيى

(٦) » أيديما » » » » »

(٧) » الأخلاط » » » » » لأحمد بن موسى

(٨) » قاططيون » حين لمحمد بن موسى

(٩) » الماء والهواء » » وحيش

(١٠) » طبيعة الانسان » » وعيسى

كتب جالينوس :

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشرو هي : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب
النفس، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، ذات المزاج، القوى
الطبيعية، العلل والأمراض، تعزف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النص الكبير،
كتاب الحمايات، البحران، أيام الحران، تدير الأحمقاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها
حنين بن إسحاق الى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النص الكبير، وكتاب
تدير الأحمقاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حيش، أما ما بقي من كتب جالينوس الطبية،
فإليك أسماءها مع أسماء ناقليها :

(١)	التشريح الكبير	حيش الأسم	(١٧)	الحث على تعليم الطب حيش الأسم
(٢)	اختلاف التشريح	» »	(١٨)	قوى النفس ومزاج البدن » »
(٣)	تشريح الحيوان الحى	» »	(١٩)	حركات الصدر { نقله أصفهان وأصلحه حنين
(٤)	» » الميت	» »	(٢٠)	علل النفس أصفهان وأصلحه حنين
(٥)	علم أبقراط بالتشريح	» »	(٢١)	حركة العصل » » »
(٦)	الحاجة الى البض	» »	(٢٢)	الحاجة الى النفس » » »
(٧)	علوم أرسطو	» »	(٢٣)	الامتلاء » » »
(٨)	تشريح الرحم	» »	(٢٤)	المزة والسوداء » » »
(٩)	آراء أبقراط وأفلاطون	» »	(٢٥)	علل الصوت حنين
(١٠)	العادات	» »	(٢٦)	الحركات المجهولة »
(١١)	خصب البدن	» »	(٢٧)	أفصل الهيئات »
(١٢)	المنى	» »	(٢٨)	سوء المزاج المختلف »
(١٣)	مافع الأعضاء	» »	(٢٩)	الأدوية المفردة »
(١٤)	تركيب الأدوية	» »	(٣٠)	المولود لسبعة أشهر »
(١٥)	الرياضة بالكرة الصغيرة	» »	(٣١)	رداءة التنفس »
(١٦)	» » الكيرة	» »		

(٣٢) الديول	حين	(٤١) أفلاطون في طيماوس حين واصلح
(٣٣) قوى الأعديبة	»	(٤٢) تقديمة المعرفة عيسى
(٣٤) التدبير الملقف	»	(٤٣) الفصص عيسى وأصطفاف
(٣٥) مداواة الأمراض	»	(٤٤) صفات لصنى يصرح ابن الصلت
(٣٦) أقراط في الأمراض الحادة	»	(٤٥) الأورام » »
(٣٧) الى تراسوبولوس	»	(٤٦) الكيموس ثابت وحيش
(٣٨) الطبيب والفيلسوف	»	(٤٧) الأدوية والأدواء عيسى
(٣٩) كتب أقراط الصغية	»	(٤٨) الرماق ابن الطريق
(٤٠) محه الطبيب	»	

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب المهرست ولم يذكر ناقلها .
وأما مؤلفوها فمها بصعه وعشرون كانا لروفس من أهل أفسس كان قفل حاليسوس ،
ولعلها لم تقبل كلها . ومما ذكر ناقلوه بصعه كتب لأورياسيوس ، وهى كتاب الأدوية
المستعملة ، نقله أصطفاف بن ناسيل . وكتاب السمين مقالة نقله حين وعيسى بن محي الى
السرماية ، وكتاب الى اسه أسطاف نقله حين ، وكتاب الى أبيه أوأافيس نقله حين .
ولديسقوريدس العيس ررى ، ويقال له السائح في السلاذ اسياحته و طلب العقاقير
والخشائس ، كتاب في الخشائس سياتى تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن
الطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

٣ - كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويستمل الطرقى ذلك على علم النجوم والمهندسه والحساب والموسيق والميكانيكات ،
وهناك خلاصه الكلام فيها .

(١) كتب أفليدس ، منها أصول الهندسه ، نقله المحاج بن مطر نقلين الهارونى
والمأمونى . ونقله اصحاب بن حين ، وأصلحه ثابت بن قره ، ونقله أبو عثمان الدمشقى ،
ولا يزال هذا الكتاب ماقيا الى الآن . ومن كتب أفليدس التى لم يعرف مترجموها كتاب

الظاهرات، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والحصه .

(٢) كتب أرخميدس، وهى عشرة ولم يعرف بأقلوها .

(٣) البوليبيوس ، صاحب كتاب المخروطات ، وكتاب قطع السطوح ، وقطع الخطوط، والنسبة المحدودة، والدوائر المماسه، ولم يعرف بأقلوها .

(٤) مالاوس ، له كتاب الأشكال الكروية ، وكتاب أصول الهندسه، نقله الى العربى ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلودى، صاحب كتاب المحسطى الشهير، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى اليرمكى . ولطليموس أيضا كتاب الأربعة، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حين، وكتاب جغرافيا المعمور وصفه الأرض، نقله ثابت الى العربى بقلا جيدا، ولطليموس ١٥ كتابا أخرى الجغرافيا وغيرها، لم يعرف بأقلوها .

(٦) أبرحس، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود، وكتاب قسمه الأعداد لم يعرف بأقلهما .

(٧) ديوفطس، له كتاب صناعة الجبر، لم يعرف بأقله .

وهناك كتب عديدة فى الرياضيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن الديق ولم يذكر بأقلها، منها : كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون الطريق، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس، وكتاب العمل بدات الحلق، وكتاب حدادى زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالأسطرلاب، وكلها لتاوان الاسكندرى .

أصف الى ذلك كتب الرياضه التى تقدم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفه رعه فى إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للسلمين من كتب الموسيقى عن اليوفايه كتاب الموسيقى الكبير ليقوماحس الحهراسينى، وكتاب الموسيقى المنسوب لأفيلدس، وقد تقدم ذكره،

ومقالات في الموسيقى لفيناغورس وغيره، وكتاب الريموس، وكتاب الايقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصنوعة السماء بالأرض البوق، والأرض الزمرى، لمورطس .

ونقل لهم من كتب الميكانيكات غير ما جاء في كتب أرحميدس، كتاب الحيل الروحانية، وكتاب رفع الأثقال لأيرن، وكتاب استخراج المياه لبادروعويا، وكتاب الآلات المصنوعة على ستين ميلا لمورطس .



ثانياً - الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبل الآداب والأخبار والسير والأشعار وبعضها في النجوم مما نقله آل تونحت وعلى بن ريد التيمي وغيرهم . أما ما بقي من كتبهم المنقولة إلى العربية فهي مع أسماء ناقلها .

(١) كتاب رسم وأسعديار حيلة بن سالم

(٢) » بهرام شوس . . . » »

(٣) » حدابامه في السير . . . » عبد الله بن المقفع

(٤) » آيين نامه . . . » »

(٥) » كليله ودمه .. » »

(٦) » مزدك .. . » »

(٧) » التاج في سيره أبوسروان » »

(٨) » الأدب الكبير .. . » »

(٩) » الأدب الصغير . . . » »

(١٠) » اليتيمة . . . » »

(١١) » هزارأفسانه . . . » لم يذكر ناقله

(١٢) » شهرزاد مع أبرويز . . . » »

- (١٣) كتاب الكاربايج أو شروان . لم يذكر ناقله
 (١٤) » دارا والصم الذهب . »
 (١٥) » هرام وريسي »
 (١٦) » هراردستان »
 (١٧) » الدب والتعلب . . . »
 (١٨) سير ملوك الفرس ، وهى غير كتاب ، ترجم أحدها محمد بن حنبل الرمكى ، وآخر
 رحمه رادويه بن شاهويه الأصمهاينى ، وآخر محمد بن هرام بن مطيار الأصمهاينى .
 ومما يحى ذكره من مترجمات الفرس — وإن كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن
 الاسلامى — كتاب « شاهنامه » التى نظمها الفردوسى للسلطان محمود الغزنوى سنة ٣٨٤ هـ
 فى نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق إلياده هومروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم ،
 نقلها الى العربية الفتح بن على السدارى الأصمهاينى ثرا لملك المعظم عيسى الأيوى . أم
 ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية
 وأدبية وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .



ثالثاً — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السسكربيه) كثيراً من كتب الطب والحوم
 والرياضيات والحساب والأشجار والوارنج . والكتب الطيبة المنقولة عنها كثيرة وإن لم
 يصل إلينا من أخبارها إلا القليل ، لأن أعداد كتاب فى إبان الزهو العباسى ، كعه العلماء
 والأطباء والتجار والسيّاح من كل الملل . وكان للبرامكة عناية باستقدام أطباء الهند إليها .
 وقد بحث يحيى بن خالد فاستقدم بصغة صالحة منهم : “كنكه” و “نازيكر” و “قليرل”
 و “سدناز” وغيرهم .

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسى فى الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السير
 أنهم اعتمدوا فى جملة مصادرهم على كتب هندية الأصل ، فالك إذا راجعت مثلاً قانون ابن سينا

أو الملكي للراى أو غيرهما من كتب الطب الكبرى ، رأينهم يدكرون بعض الأمراض ويشيرون الى أن الهود يسمونها مثلاً كذا وكذا أو يعالجونها كذا وكذا . واذا قرأت العهد الفريد لاس عند ربه أو سراح الملوك للطرطوشى أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وفي كتاب الهند كذا وكذا » .

كتب الطب وفروعها

على أننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالى العصر العباسى جماعة من علماء الهند والطب والحجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كسكة الهندى ، وهو من متقدميهم وأكابرهم ، وخصوصاً في علم الحجوم فصلاً عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها . كتاب الحمددار في الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب القرائات الكبير والصغير ، وكتاب في الطب بحرى بحرى الككاش ، وكتاب في التوهم ، وكتاب في إحدات العالم والدور في القرآن ، ومنهم أيضاً صجهل وناكهر ، وغيرهما .

وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في الحجوم والطب الى اللغة العربية ، إما رأساً أو بواسطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتاب من الهندى الى الفارسيّ ، ثم ينقل من الفارسيّ الى العربى ، منها كتاب سيرك الهندى ، وقد نقله من الفارسيّ الى العربى عبد الله بن على . وكتاب آخر في علامات الأدوية ومعرفه علاجها ، أمر يحيى بن خالد البرمكى بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد ، وقوى الأدوية . وكتب أخرى في فروع الطب .

ومن مشهورهم مكه الهندى المتقدم ذكره بين المترجمين . وقد أتى بعدد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجه الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد ررقاً واسعاً . وكان مكه يعرف الفارسية أيضاً ، فكان ينقل من الهندى الى الفارسيّ ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهندى ، جاء العراق في أيام الرشيد أيضاً ، وبال شهرة واسعة

وحالط أطباءها يومئذ واحتلطوا به ، فان لم يكونوا بقلوا شيئا من كتبه فلا بد أن يكونوا قد اقتبسوا شئنا من آراء الهد فيه .

ومن مشهورهم أيضا شافى ، وله كتاب في السموم خمس مقالات ، نقله من اللسان الهدى إلى الفارسي منحه الهدى ، وأوعر يحيى بن خالد إلى رجل يعرف بأبى حاتم اللجى نقله إلى العربى ، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه . ولجود الحكيم كتاب في المواليد نقل إلى العربى أيضا .

ومن الكتب الطيبة التى نقلت من الهندية إلى لسان العرب في العصر العباسى غير ما تقدم ذكره .

- (١) كتاب سسرذ في الطب نقله منحه .
- (٢) « أسماء عقاقير الهد نقله منحه لاسحق بن سليمان .
- (٣) « استانكر الحامع » اس دهر .
- (٤) « صفوة النجح » »
- (٥) « مختصر الهد في العقاقير لم يذكر ناقله .
- (٦) « علاجات الحبالى للهد » » »
- (٧) كتاب روسا الهندية في علاجات النساء لم يذكر ناقله
- (٨) « السكر للهد » »
- (٩) « التوهم في الأمراض والعلل » »
- (١٠) « رأى الهد في أحاس الحيات وسمومها » »

كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فالهد شأن كبير فيه ، وقد ذكرنا حبر السددهد فيما تقدم ، وكان لقل هذا الزيج تأثير في علم النجوم عند العرب ، وقد قلّدوه وألّفوا على مذهبه . فمن ألّف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزارى ، وحش بن عبد الله البغدادى ،

ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم . والفزارى أول من عمل إسطرلابا في الاسلام . وما من فلكي من فلكي المسلمين أراد التوسع في علم النجوم إلا طالع كتبهم ، إما في اللغة الهندية أو في ترجمتها إلى العربية . وأكثر المسلمين عناية في ذلك وإطلاعا على آداب الهند وعلومهم ، أبو ريمحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فإنه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ، ثم ألف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، وله من المؤلفات ما يعد العشرات ، ومنها كثير في علوم الهند إما ترجمة أو تصحيحا أو نقدا .

ومما ذكره من كتبه التي ألفها في هذا الصدد قوله . وعملت في السد هند كتابا سميته حوامع الموجود لحواضر الهند في حساب التنجيم حاء ماتم منه ٥٥٠ ورقة . وهذت زيج الاركد وحصلته ألفاظا اذ كانت الترجمة الموحودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتابا في المداريس المتحدين والمتساوين ، وسميته بحيال الكسوفين عند الهند ، وهو معنى مشتهر فيا بينهم لا يحلو منه زيج من أزياجهم وليس بمعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السد والهند في ٣٠ ورقة وكيفيه رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في أب رأى العرب في مرانف العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفي راسكات الهند وترجمة ما في ابرهم سد هاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الرمان عند الهند . ومقالة في الجوانات على المسائل الواردة من محمى الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب باره ، وهي مقالة للهند في الأمراض التي تحرى محرى العنوة وعير ذلك .

فيؤحد من هذا أن الهود أهل علم ورأى في النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

كتب الأدب

وأما ما يُقِل إلى العربية منها : كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والأسمار والخرافات :
(١) كتاب كليلة ودمنة ، وقد نُقل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وسعد نقله إلى العربية

نظموه شعرا كما نظمهم الفرس من قبلهم . وبمن نظمهم في العرسه أنان بن عسك الحميد
ابن لاحق بن عمير الرقاشي وعلى بن داود . (٢) كتاب سدياد الكبير (٣) كتاب سدياد
الصغير (٤) كتاب السد (٥) كتاب يوداسف (٦) يوداسف معرد (٧) كتاب أدب الهند
والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق
(١١) كتاب دبك الهندى في الرجل والمرأه (١٢) كتاب حدود مطنى الهند (١٣) كتاب
ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسلاح (١٥) كتاب بيدنا في الحكمة .

ومما نقله العرب عن الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية «نيافر» ومعناه ثمار
الحكمة، وفيه أصول الألحان وحوامع تأليف العم .



رابعاً - الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتبنا كثره فلسفية وطبية نقلت من اليوناني الى العربي بواسطة
اللغة السريانية أحب النبطية أو هي عنها فلا تتعرض لدكرها ، وإما يربدها الكتب
التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية ، ونقلت الى العربية رأساً ، ولولا نقلها
لصاعت . وأهم تلك الكتب . (١) كتاب الفلاحه النبطية ، فانه فريد في نابه ، وقد نقله
الى العربية أحمد بن علي بن المختار السطى ، المعروف بأن وحشية سنة ٢٩١ هـ وظل معتمداً
أهل الزراعة الى أميد عربعيد ، وقد نُقل الى اللغات الافريقية ، ولولا نقله الى العربية
لصاع وخسر العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال آس وحشيه ، وهو يلى الكتاب
على علي بن محمد بن الربات سنة ٣١٨ هـ «إعلم يا حى أنى وجدت هذا الكتاب في كتب
الكسديين (الكلدان أو السطى) ترجم معاه في العرسه كتاب فلاحه الأرض وإصلاح
الرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها ، وكان هؤلاء الكسديون أشد عبء عليها ، لثلا
يظهر هذا الكتاب ، فكانوا يحفونه بمجهدهم ، وكان الله عز وجل قد رزق المعرفة لهم
ولسانهم ، فوصلت الى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل

متميز، فأخى عنى علمه، فلما اطلعت عليه لُنته و إحقاء الكتاب عى، وقلت له : إنك إن أحييت هذا العلم دُثِرَ وهى ولا يبقى لأسلافك ذكر، وهى يصنع الانسان نكت لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها، فهى عنده بمنزلة المحارة والمدر، فصَدَّقَنى و ذلك وأخرج الى الكتب، فحملت أقل كتابا بعد كتاب، فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناى البابلى فى معرفه أسرار الفلك والأحكام على حوادث الحجوم، وهى كتاب عظيم المحل، ونقلت كتاب العلاجة هذا بتمامه» الخ... (٢) كتاب طرد الشياطين، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب السط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين فى الأصنام (٧) كتاب الإشارة فى السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب العلاجة الصغير (١٠) كتاب فى الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت فى علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصنام (١٣) كتاب القرائن (١٤) كتاب الطبعة (١٥) كتاب الأسماء، وأكثرها من نقل آس وحشيه، غير ما لا بد من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء.



خامسا - الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة فى التلمود وغيره من كتبهم قد نُقِلَ الى العربيه، وإن كنا لا نرى شيئا منها مدقوبا على أنه من ترجم، لأنهم كانوا يقولونها شفاه للصحابة وغيرهم على ما تقدم، وربما دقوبوا منها شيئا وصاع، وأما ما وصل اليها حبره من المنقول عن العبرانية، فترجمه أسفار التوراة، نقلها سعيد الفيومى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ، وهى أقدم من نقل التوراة الى العربيه، مما وصل اليها حبره، وله أيضا شروح وتفسير عليها.

ولا سعد أب يكون قد نُقِلَ الى العربيه بعض الكتب عن اللاتينية، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفيه والتاريخيه والسرعة وغيرها، وربما فات نقله الأخبار ذكر ما نقل عنها، وقد رأينا فى جملة المترجمين يحيى بن الطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية، وأنه ترجم عدة كتب، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية.

وأما القبطية فإذا لم يقل العرب عنها رأساً - فلا شك في أنهم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطى واليونانى معا بأمر خالد بن يزيد .

(د) آثار النهضة المأمونية :

هذه هى بعض كتب العصر وكانت لها آثارها ونتائجها فى العقلية العربية أولا، وفى المدينة العربية ثانيا، حتى أصبحنا نرى المأمون يُصرّب به المثل فى عِظَم الحركة العلمية، وحتى نرى «بولدكا» ومحرمى دائرة المعارف الريطانيه وعيرهم، يمثّلون المأمون مأوشروان وعيره من حِدَمَة الإنسانية ورُسُل الثقافة العامة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقدّمين عن زمنهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية وذلك الحس ، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا . ويقول الدكتور «طوطح» فى رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : «إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكاً على مطالعته رسائله مع أترابه فى مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفه ومناقشة أقصيتها هناك فى بغداد» . ويقول فى مكان آخر من رسالته القيمة : «إن المأمون أوفد عميد بيت الحكمة الى بلاد اليونان لقلل حكمة اليونان وعلوم اليونان الى اللغة العربية» . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية، وهى لا تحرج عما قدّمناه لك من رأى السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف فى عصر المأمون .

فكتفى بما قدّمناه عن التبسط فى القول فى هذه الناحية الهامة حقاً .

على أن لهذه النهضة المأمونية آثارها ونتائجها أيضا فى زيادة الثروة اللفظية فى اللغة العربية، وقد بينّا لك طرفا منه فى كلمتنا عن حالتها فى الصدر العباسى ، فلا حاجة إذا بنا الى تكراره هنا، وقصارى ما نقوله أنا نحيك الى بعض المصادر القيمة فيما نحن فى صدده من بيان تأثير اللغة بهذه النهضة التى تشه فى كل وجوها حركة التجديد «رينساينس» فى أوروبا، وهى : كتاب خطى منسوب للمحافظ عن الألفاظ الفارسية فى اللغة العربية، وبحوث العلامة

أستانس الكرملي البغدادي في السة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانيه في اللغة العربيه ، كما أحيلك الى بحوث « محلة المجمع العلمى » في شأن تفسير الألفاظ العاسية الواردة في كتّاب « نشوار المحاصرة » .

أما في التاريخ والجغرافيا ، فلم تبدأ العاية الحديثة بهما إلا منذ أيام العقوى ، وابن خرداذية في هاية القرن الثانى .

وأما العلوم القرآنية وما تفرّع عنها ، فقد سبق أن أشرا إليها في بابها من العصر العاسى . ويظهر أن عاية المأمون بها لم تكن مثل عايته بالفلسفه اليونانيه ، وما إليها ، اللهم اذا كانت موجهة الى الباحية الاعتزالية الكلاميه .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره في الحياة العلميه والعقليه في عصر المأمون .

(هـ) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير في تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الجعد بن درهم قد أظهر مقائله بخلق القرآن أيام هشام ، فأحده وأرسله الى خالد القسرى ، وهو أمير العراق ، وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله ، فلع الخمر هشاماً فكتب الى خالد يلومه ويعزيم عليه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه ، فلما صلى العيد يوم الأضحى ، قال في آخر خطبته : إنصرفوا وصحوا يقبل الله مكّم ، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول . ما كلم الله موسى ، ولا اتحد ابراهيم خليلاً . تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل وذبحه . ويقول ابن الأثير في حياه مروان بن محمد : إن سبب تسميته بالجعدى ، دهابه مذهب الجعد بن درهم في القول بخلق القرآن ، والقدر ، وعير ذلك .

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن ، بدعه ننت في العصر الأموى ، ثم لم نحد الحق الذى تموفيه وترعرع ، حتى كان عصر المأمون فوحدت من شخصيته العالمه ومن هؤذه العظيم ونفوذ علمائه ، خسر متعهد لنمائها ، حريص على نُصرتها ، شديد اليد بالبطش على مخالفيها .

(١) أطر القاموس وشرحه في مادة « روم » فانه صبطه بالياء المشاة بعد الدال المعجمة وبعد الياء ها .

ولعلك 'تساءل لم وجدَ القولُ محلَّ القرآن من المأمون الصدرَ الرحب والعامل على نصرته،^١ وهل كان مُوفقاً فيما أحده على عاتقه أو قد اشتدَّ به العلو في تأييد وجهة نظره حتى نخرج به عن القصد^٢ .

ونحن قل أن يُحْيِكَ عن هذه الأسئلة، وقبل أن نعرض للموضوع من وجهاته المختلفة، يريد أن ننقل لك كلمة للأستاذ «ميور» في هذا الصدد، وهي وإن لم تكن تتفق مع وجهة نظرنا في هذا المحث، تين لنا وجهة نظر مُتَشَرِّقٍ تحاثُّ كبيرهما نحن بصدده .

يقول الأستاذ «ميور» في الفصل الذي عقده عن المأمون في كتابه المتع "الخلافة" :
 «وإن الحق أن المأمون كان متعصباً لعارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شديد الميل إلى العلويين، ونشأ عن ذلك في السوات الأخيرة من حكمه، مَنَيجٌ من حرية الأفكار والتعصب .
 وكان المأمون في بعض هذه المسائل واسع الحزبية حقاً لدرجه مذهبه . وقد ألقى من صمم سوات مصت، الأمر الذي كان أسلافه قد أصدروه، يحزمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بخير، وأباح للسيحيين حرية المناقشة في أيّ الدين أفضل : الإسلام أم المسيحية .
 غير أن ميوله الفارسية التي كان يسمح إليها دائماً، دفعته أخيراً أن يتناقش بحماسة في نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة ، وأباح لهم المناقشة في حصرته في نظريات كان البحث مموعا فيها ، كعلاقة الانسان بحالقه ، وطبيعته الألوهية وغير ذلك . وأخيراً أعلن تحوُّله إلى عقائد تحالف تعاليم الدين الصحيحة، من ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالخبر، وأن القرآن وإن كان وحياً إلا أنه مخلوق ، بدلا من العقيدة التي كانت لا تُنَازَع^(١) وهي أن القرآن أزلّ

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار « ما كان عند المسلمين عقيدة هذا الوصف ولكن القول بحلق القرآن . نكراً لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا للتابعين قول ينافيه أو يوافقه فلما أعزم المأمون بهذه المقالة وعرضها على العلماء لحاروا إلى كتاب الله يسطرون فيه حكم المقالة التي لا عهد لهم بها لم يحدوا . فطروا إلى السمة فلم يحدوا . والقوم في ذلك المهدي يردون كل شيء إلى الكتاب والسنة . فلما لم يحدوا فيها حكما توقفوا في هذا القول احتياطاً لديهم أن يقولوا على الله ما لا يعلمون . فلم يرض المأمون هذا التوقف واعتقدوا أنهم يرمون بهذا إلى اعتقاد أن مع الله قديماً سواء وأنه يوحد موحود ولا أثر لله في إيمانهم وتواوهم بالحسد والإيداء . »

غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضا أن عليا أشرف الخلق بعد النبي ، وعلى هذه النظرية بُنيت نظرية الإمامة المقدسة أو الزمامة الدينية التي كانت تنتقل من عصو الى آخر من بيت علي . وبدأ في تلقين الساس أنه يوحد مصادر أخرى غير القرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين ، وفسّر القرآن تفسيراً من غير تقييد لفظه ، وبذلك دُلّت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير أو توقف عثره في تقدم العمران ، كما ماحة شرب الخمر (كذا !) وزواج المتعة ^(١) . وعلى ممر السنين تحولت فكره المأمون في حلق القرآن من محمّد رأى الى إعلايه المشعوم الذي حَمَل فيه رعاياه بالاصطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدته لهم . وقد أرسل الى والى بغداد ، وهو في حملته الأخيرة على الروم ، أمرا بأن يجمع كبار العلماء والعقهاء ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ويرسل اليه إجابهم ، وقد تأثر كثير من العلماء في مجلس الماطرة الذي كان أشبه بمحكمة التعئيس ، حتى أظهروا القول بحلق القرآن ، إلا أن البعض بقي ثابتاً على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق ، كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبل ، الذي حملوه مبعجلاً بالحديد الى معسكر الخليفة . ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُذدا بالقتل ، وأُرسل عشرون منهم تحت حِفَارِهِ حُرّاس لينتظروا في "طَرَسُوس" عوده الخليفة من حروبه ، ولكن جاءتهم الأناء في أثناء سبرهم في الطريق بموت المأمون . ولقد سُوّدت أمثال هذه الفظائع سُمّعه المأمون في سنوات كثيرة « اه .

ذلك هو رأى المتشوق « ميور » . وليرجع الآن الى معالجة الإحالة عمّا نساءلت عنه ، فنقول : إنك حدّ عالم بأن المأمون كان تلميذاً ليحيى بن المبارك الرّيدى المتهم بالاعتزال . حدّ عالم بصلته بجمّاه بن أسرم ، زعيم المذهب النمامى في الاعتزال ، وإعجابه به . حتى عرض

(١) يقول أستاذنا الشيخ عد الوهاب الحار : « قد رجح المأمون عن هذه المقالة بعد أن أقام أحد بن دواد الحجة عليه في ذلك بما ملخصه . أن روعة المتعة ليست الروعة التي يحب عقبتها وترث وينت نسب الولد منها كما هو شأن الروعة الشرعية فهي ليست روعة وليست ملك بين والله تعالى يقول (والذين هم لمرحهم حاصلون إلا على أرواحهم أو ما ملكت أيمانهم فهم غير ملمين في اتنى وراء ذلك فأولئك هم العادون) فهي بما وراء ذلك و يكون رواح المتعة ربا — ومائة أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة الزاهية » .

عليه الوزارة مرتين، كما أسلمنا لك القول في باب الوزارة . حُدِّثَ عالم بأن المأمون كان يعتقد مجالس للكلام في مختلف البحوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قُرِبَ إليه كل متكلم حاذق، أو مُفَكِّر بصير بمداحل القول ومخارجة، مثال أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم اس سيار وغيرهم . وأنت حُدِّثَ عالم بأن ثُمَامَةَ والعلاف وإبراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال . أنت جُدِّثَ عالم بهذا كله، فلا عرو أن حُبَّ هؤلاء القوم إلى المأمون مدهمهم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معدة، لأنهم وجدوا من المأمون ذلك التأييد المتأثر بمذهب أستاذه آس المبارك .

كل هذه العوامل كانت في الواقع ناحيه واحده، ولها أثرها القوي في تنمية البرعة، الاعتزاليه في نفس المأمون . بيد أن هنالك ناحيه قوية أخرى لها أثرها القوي- أيضا، تلك الناحية هي حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التي حبت إلى المأمون الفلسفه وما إلى الفلسفه، ووجهت عنايته إلى المطلق وما إلى المنطق، وبعثت في نفسه حبَّ أرسططاليس، حتى أصبح موضوع تفكيره يقطنه ويومه . وصغوه القول أن الناحية الثانية لم تكن لتقلَّ عن الأولى أثرا، فقد هيأت معه ذلك التسامح الذي ينع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسترى في أحده بالقول بحلق القرآن إلى أي مَدَى دعت به حرية التفكير حتى وصلت به إلى ما يباقر حرية التفكير، لأنه ليس من حرية التفكير في شيء تلك الطريقة الشاذة في إلزام العلماء وحلِّه الفقهاء الأُحد بمذهبه . وليس من حرية التفكير في شيء تلك النتائج السيئة التي انتهت إليها مأساه القول بحلق القرآن . في أيام المعتصم وأمام غير المعتصم . وقد أشتنا لك في باب المنشور في الكتاب الثالث من مجلدا الثالث مثلا مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأُحد بمذهبه في القول بحلق القرآن، وهو كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم؛ كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبري مما حصل وقتئذ . فراجعهما مَعًا .

الفصل الرابع

الحياة الأدبية في عصر المأمون

توطئة : المحادثة أو لمة التعاطف ، الخطابة ، النكاهة ، محال الماطرة وأهواء الأدب ، الشعر .

(١) توطئة :

لكتاب الخلافة «للسير وليام ميور» ، مكانة رفيعة في التاريخ العربي ، ولا سيما عصر المأمون ، ساحيته العلمية والأدبية . ذلك لأن الرجل ، الى جانب دراسته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب ومجوت المؤرخين العرب ، لم يترك مصدرا من مصادر المشرقين أمثال : «ولدكه» و«كريم» و«هرزلد» و«أمرر» و«برياد» و«مبارد» و«جوج» وغيرهم من عشرات المؤرخين إلا وقد استوعبه واستقصى البحث فيه . كذلك لم يترك مصدرا من مصادر التاريخ الفارسي ، وهو كما نعلم ، شديد الصلة بعصر المأمون ، من غير أن يدرسه حتى دراسته ويفهمه حق فهمه ، فطالع فيما طالع في ذلك الباب ، آثار «ماكولم» و«فرارر» و«برون» و«سيكس» و«جوجيس» وغيرهم .

من أجل هذا ومن أحد ذلك المؤرخ البعثة بالدقة في كل ما تصدّر له ، جاءت حلّ بحوثه أفضل من سواء وأرفع مكانة من غيره . ونحن نستبج لأنفسنا أن نقل اليك ما ذكره في هذا الباب . قال : «كان حكم المأمون مجيدا عادلا ، وكان عصره مزدهرا بأبواب العلوم والفنون والفلسفة ، وكان أديبا مولعا بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرة أن شاعرا كان يشد بين يديه قصيدته من مائة بيت ، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر ، حتى دهش الشاعر وحار في سرعة بديته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، إذ كان يقتربهم اليه ويجزل لهم العطاء ، وكان عصره عامرا بالعلماء والأدباء والحماة ، فإنه كان كذلك حافلا بجماعه المحدثين والمؤرخين والعقهاء

(١) كالحارثي ، والواقدي ، الذي نحن مديون له بأوثق السَّير عن حياة النبي ، والشافعي واس حبل . وكان المأمون يُحِلُّ علماء اليهود والنصارى ، ويحتج بهم في مجلسه ، لا لعلمهم بحسب ، بل لثقافتهم في لغة العرب وحديثهم في معرفه لغة اليونان وآدابها . ولقد أخرجوا من أديره سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين ، كتبنا خطيه في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ، ثم ترجموها الى العربية بدقة وعناية عظيمة . وبهذه الوسيلة انتقلت علوم العرب الى العالم الإسلامي . ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهادة على نقل هذه الكتب القديمة الى اللغة العربية ، بل توسعوا وأضافوا اليها ما اكتسوه من مباحثهم واطلاعاتهم . وأقاموا مرصدا في «سهل تدمر» مُجهَّزا بجميع الآلات التي نملكهم من السلاح في دراسة علمي الفلك والهندسة والتوسع فيهما . وقد صفوا كتبنا في الرحلات والتاريخ ، ولا سيما كتب الطب ، وعُتِبوا عناية كبرى ببعض علوم تافهه ، إلا أنها كانت أكثر ديوعا وانتشارا ، كالنجوم والكيمياء . وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر في نهضة أوروبا التي كانت عارقه في بحار الجهالة في العصور الوسطى ، حيث أيقظتهم من عفلتهم وأمارت لهم سبل علومهم التي كانوا أعفلوها ، وهي علوم اليونان وفلسفتها » اه .

ويقول الأستاذ الحائث "كرد علي" في بحث طريف له . إن عصر المأمون قد ازداد كثير من حملة الشريعة والأدب ، منهم : مجي بن أكرم ، وأبو محمد البريدي ، والحسن ابن زياد ، وأبو داود الطيالسي ، وأبو عُبيد القاسم بن سلام ، واس الأعمراني ، والنصر اس شميل ، وأبو عمرو الشيباني ، ومحمد بن عمر الواقدي ، وأبو عبيده ، والفراء ، والأخفش ، والأصمعي ، والصغاني ، والصبي ، والشافعي ، وابن سعد ، وأبو داود ، واس أبي دواد ، وابن حرب ، وابن حبل ، والجاحظ ، والقواريري ، وقُتَيْبَة ، وسعدويه الواسطي ، واس الجعد ، واس عُليّة الأكبر ، وأبو نصر التمار ، وأبو مَعَمَر القَطِيعِي ، وأبو العوام البزاز ، واس شجاع ، وبشر المريسي ، وبشر بن الوليد ، ومُحَمَّد ، ومحمد بن بوح ، وأبو هارون

(١) يقول أستاذا الشيخ عبد الوهاب الحارثي « لم يكن للشافعي إتصال بالمأمون » .

ابن البكاء، والمهذيل محمد بن المهذيل، وأبو زكريا المُرّى ومحمد بن مهشر، إلى مئات غيرهم، كانوا غرّ الدولة وعنوان نبوغ الأمة. أما الشعراء والكُتاب فكانوا طبقة عالية، كثيرة العدد كالخصى، جيّدة المتحنّي والأسلوب، غلب الرقة والجرالة على أهل هاتين الصّاعتين. تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة، حتى غدا الشعر المدني المديح طاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلي، بعيدا عن وصف الأطلال والدّمن والركاب، وطلب الثّار، والمفانرات الفارعة. هذا، وكان الجمهور يُشارك الأداء في فهم الشعر، وقدّر الخطب والرسائل قدرها، فلم يكن الشعراء في وادٍ والأمة في آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، إذا قرّض شعرا أو حبر خطابا، يُناقله الأيدي في الحال، وتُتعاوره الرواة فيفسّو في الأمصار. وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الأديب وشعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحتّه على تجويد مقاله. ١٠ هـ

ومعد، فقد بيّنا في كلمتنا عن الحياة الأدبية في صدر العصر العباسي ما أحدث تحوّل إليه الآداب العربية عامة في الألفاظ والأساليب والمعاني والأعراض، وبيّنا لك الأسباب التي كانت تبتّع على هذا التحوّل، من شدّة الامتزاج بين العاصر المختلفة التي حصصت لسلطان العرب بالغرب، وما استتبعه هذا الامتزاج من إضافة ثقافات ومدنيات جديدة، إلى ما كان للعرب من ثقافة ومدنية، ومن اتساع السلطان، وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف همهم أولى الفصل إلى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات الناس وتنوعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بيّناه لك، أن تفرج جوانبها، لتسع هذه الأعراض، ولتقوم بحاجات الناس، طبقاً لمقتضيات العصر، وخصوصا لسنة التحوّل.

بيّنا لك كلّ هذا. وقد يكون من التعسف أن نعزّض لتحوّل الآداب في أيام المأمون خاصّة؛ فانه إذا افترضنا أن الآداب تحوّلت تحوّلًا خاصًا في أيام المأمون، فقد يكون من العسير تبين هذا التحوّل وتحديد مداه، ذلك بأن محوّل الآداب نطى، ولا يمكن

تبيينه إلا بعد ظهور آثاره ظهوراً لا سبيل إلى الشك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية ، فانك تستطيع أن تؤقت الحوادث السياسية بالنسبة إلى الشهر بل باليوم ، ولا تستطيع ذلك في الآداب إلا بعشرات السنين .

إذاً رأينا في الآداب لعصر المأمون هو رأينا في الآداب لصدر العصر العباسي . وإما الذي حدث أن السبيل التي سلكتها الآداب في صدر العصر العباسي قد بلغت عايتها في أيام المأمون ، فعصر المأمون إذاً هو النثر الناصح لتغيير الآداب في العصر العباسي ، أو عبارته أخرى . يعتبر عصر المأمون العصر الذي بلغت فيه الآداب العربية الذروة من الكمال المقذور لها .

وسنبينا الآن أن ورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليلاً على هذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار في المجلد الثالث ما فيه الكفاية .

(ب) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغة التخاطب تتحدّر مدارحةً عن الفصحى منذ الفتوح الإسلامية ، بسبب اتصال العرب بعرب العرب ، ثمّ دان لسلطانهم وانتظم في ملكهم .

ولقد لاحظنا أثناء مطالعنا في الطبري وفي غير الطبري في القرون المأمونية ، أن بعض جُدد نُرّاسان كانوا لا يفهمون العربيّة فيقولون مثلاً (يُسرّز بيده) (ومكّي) وغيرها من الألفاظ الفارسية التي أنشأها المؤرّحون .

وقد يكون من الممتع حقاً أن يُخصّص باحث من لهم اطلاع على لغات البلدان التي فتحها العرب مكاناً لدراسة مبلغ تأثير اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب في الأجزاء المختلفة . ونُصّارى ما نقرّره هنا أن اللغة العربية تأثرت حقاً من أثر الفتوح سواء أكانت فتوح سيف أم فتوح ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغة اللسان ومثانة اللفظ بقدر ما أعنت من ثروة ذهنية عظيمة .

ولمّا إذا ذكرت ما كتبناه في الفصل السادس وفي نظيره من كتابنا عن الصدر العباسي في شأن ما زيد في الألفاظ العربية، من ألفاظ العلوم المترجمة في ذلك العصر، وذكرت أن الموالى الفرس وغيرهم، هم الذين قد عُهد إليهم بالترجمة والنقل والتحرير، إذا ذكرت هذا، إلى جانب ما قدمناه لك، فإنك تسوق معنا ما نذهب إليه من القول بتأثر اللغة في ذلك العصر.

وفي هذا القدر الكفاية، ولندرج إلى ذكر كلمة عن الخطابة.

(ج) الخطابة :

قلنا فيما سبق: إن عصر المأمون كان الثمرة الباصحة للاداب العربية في العصر العباسي، فهل كان الأمر كذلك في الخطابة أيضا ؟

أنت تعلم أن قوة الشيء ترجع إلى قوة عوامله وأسبابه . ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابه لهذا العصر، أن أسباب الخطابة وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثمّ لم تُماشِ الخطابة سائر أنواع الآداب في سبيلها إلى الكمال المقدور لها. ولعل ذلك يرجع إلى صيق مجالها وضعف الحاجة إليها، فبعد أن تكاثرت في العصر الأموي، الوسيلة إلى قمع العتس وردّ البدع، ولسان الخليفة في رعيته، والقائد في جنده، والزعيم في أتباعه، وبعد أن تكاثرت خطبها في عصر الاستقلال وصدر العصر العباسي لا يقل عن حظها في العصر الأموي، لحاجة الدعاة والزعماء إليها، أصبحنا نرى مجالها في عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقصر على التهنية والتعزية والخطب الدينية كالجمعة والعيد . وصيّق مجالها يرجع إلى استغناء الخلفاء العباسيين وعمّالهم وقوادهم عنها بالمنشورات العامة، حيث يتسخطون فيها ويضمونها ما يريدون من أغراض، ثم تُتلى على من يُراد أن تُتلى عليهم. ولعل ذلك لاصطباع الخلافة العباسية بالصيغة الفارسية، واحتجاب الخلفاء عن مخالطة الجماهير، ولأن جُلّ عمّال بني العباس في ذلك العصر كانوا من الموالى وهؤلاء وإن أُوتوا

حطاً عظيماً من بلاعة القول وحسب البيان ، فقد كانت لا تزال بالسببهم لؤنة من العجمة ، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفعها .

لعل لكل هذا أو بعضه أثراً ما في تضيق محال الخطابة والاستغناء عنها بالرسائل والمنشورات العامة . ومهما يكن من شيء ، فقد أُلقيت في عصر المأمون خطبة قليلة القدر والقيمة ، نشر لك منها على سبيل المثال خطبتين . إحداهما للمأمون في عيد الفطر ، والأخرى تهنئة بمقدم المأمون الى بغداد .

خطبة المأمون :

ألا وإن يومكم هدايوم عيد وسه وآتاهل ورعبة ، يوم حتم به الله صيام شهر رمضان ، وافتتح به فتح بيته الحرام ، بفعله أول أيام شهور الحج ، وجعله معقلاً لمفروض صيامكم ومُتَقَلِّ قِيَامِكُمْ ، فاطلبوا الى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم ، فانه يقال : لا كثير مع ندم واستغفار ، ولا قليل مع تمادٍ وإصرار . اتقوا الله عباد الله ، وبادروا الأمر الذي لم يحصر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فانه لا يستقال بعده عثرة ، ولا يُحْطَرُّ قبله توبة . واعلموا أنه لا شيء بعده الا فوقه ، ولا يُعِيس على جرحه وعَلَّزِه وكُرْبِه ، وعلى القصر وظلمته ، ووحشته وضيقه ، وهول مطلعه ومسألة مَلَكِكِه ، إلا العمل الصالح الذي أمر الله به ، فن زَلَّتْ عند الموت قدمه ، فقد طهرت بدامته وفانته استقائته ، ودعا من الرجعة مالا يُحْيَا اليه ، وبَدَل من الفدية مالا يُقْبَل منه ، فالله الله عباد الله ، كونوا قوما سألوا الرَّجْعَةَ فَأَعْطَوْهَا إِذْ مِيعَهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا ، فانه ليس يتخى المتقدمون قبلكم ، إلا هذا الأجل المبسوط لكم . فاحذروا ما حذركم الله منه ، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم . فليُنْظَر عَبْدٌ ما يَضَع في ميزانه مما يُثْقَل به ، ومما يُثْقَل في صحيفته الحافظة لما عليه . ولستُ أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهيتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كل ما بها يُحْدَرُّ منها وَيَنْهَى عنها ، وكل ما فيها يدعو الى غيرها . وأعظم ما رآته أعينكم من بوائعها وزوالها ذم الله لها والنهي عنها ، فانه يقول تبارك

وتعالى : ﴿ فَلَا تَفْرَنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَقْرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْعُزْرُورُ ﴾ وقال ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ . فانتصموا بمعرفتهم بها وبإخبار الله عنها . واعلموا أن قوما من عباد الله ، أدركتهم عصمة الله ، لحِدروا بمصارِعِها ، وحانبوا حدائِعِها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

خطبة التهئة :

قال أسبج أبي طاهر : دخل المأمون سداد فلقاه وحوهها ، فقال له رحل مهم : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك في مَقْدَمِكَ ، وزاد في نعمتك ، وشكرك ع رِعيتك ، تقدمت من قَبْلِكَ ، وأتمت من بعدك ، وأياست أن يُعَايَنَ مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما يبقى فلا نرجوه ، فحس حميما ندعو لك ونُثْنِي عليك . خَصَبَ لنا حائلُك ، وعدب ثوابُك ، وحسنت نظرتُك ، وكُرِّمت مقدرتُك ، حبرتَ الفقير ، وفككتَ الأسير ، والخيرُ فضائلُك ، والشرُّ بساحة أعدائك ، والصبرُ مَوْطٌ بلوائك ، والخذلانُ مع أَلْيَةِ حُسَّادِكَ ، والبرُّ مِعْلَك ، قد طَحَطَحَ عدوك غصنُك ، وهزَمَ معايبهم مشمِدُك ، وسار في اللاس عدلُك ، وشَسَعَ بالصر ذكرك ، وسَكَّن قَوَارِعَ الأعداء ظَفْرُك ، والذهب عَطَاؤُك ، والدواة رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .



(د) الكتابة :

قلنا في كلمتنا عن الكتابة في صدر العصر العباسي : إن أسبابا كثيرة وقوية — ذكرها هناك — دفعت الكتابة فتمعددت أغراضها ، وتنوعت أساليبها ، ومال الكتاب الى السهولة في العبارة ، والتأنيق في اللفظ ، والجودة في الرصف ، وأطالوا في المقدمات ، وتوعوا المدأ والختام ، والألقاب والدعاء ، ومالوا الى الغلو والمبالغة . ثم قلنا بعد كلام : أما الإطباب في الكتابة فكان صفة غالبية في كل ما شَمِلَ بَيْعَةً ، أو عهدا ، أو احتجاجا ، أو انتصارا ، أو تقريرا لمدب ، أو استهواء أو دفعا لشبهة ، أو طلبا لعملة ... الخ . وقد أثننا لك بجملة صالحة

من آثار العصر المأموني مما يقوم حجة على ما ذهبا إليه . ونحيلك الى رسالة أبي الربيع محمد بن الليث ، الى قسطنطين ملك الروم ، والى رساله يحيى بن زياد الحارثي في تقرير أمير المؤمنين الرشيد ؛ وقد أثبتناهما لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمشهور لابن طيفور — في باب المشور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني . كما أثبتنا لك في الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالة قيّمة للمأمون تسمى رسالة الحميس ، كان بعث بها الى أهل خراسان كمشور من الخليفة . ورسالة مُتَمِّعة لسهل بن هارون حازن بيت الحكمة في عهده ، فراجع ذلك ثمة .

ولو قد ذهبنا بورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لعدّونا القصد وأملنا ، حسبنا ما أحلناك الى مراجعته الآن ، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبا إليه . وقد أوردنا هذه الرسائل من غير أن نعرض لها تحليل أو بيان . فهي في وضحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .



(هـ) مجالس المناظرة و"أبهاء" الأدب والغناء والمنادمة :

أما مجالس الماطرة ومكاتها السامية في العصر المأموني ، فقد وقفت على طرف عظيم منه في الفصول التي عقدناها لك عن المأمون وعلمه ، وأدبه ، ودينه ، وسياسته . من ماعلة القول وتكراره أن نقلها لك ها . وقصارانا أن نقول : إن المباحثات الحادّة بين سيمويه واليكسائي في شأن مسألة نحوية ، وبين الشعراء والأدباء في تفصيل شاعر على شاعر ، وبين السنيين والمعتزلة في القول بخلق القرآن ، وأبهاء الأدب عند الأُميين والمأمون وأنصارهما ، وأمرء العرب كابى دلف وعبد الله بن طاهر وغيرهما ، لتدلّ أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة في هذا العصر من مكانة ، حتى أصبحت من أهم مميزات وكبريات آثاره .

وأما المنادامة والغناء ، فقد سبق أن نقلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادامة في الصدر العباسي . وقد آن لنا أن تُتمّ لك القول في حالتها في العصر المأموني ،

وتُحملك في الوقت نفسه الى كتاب حَلَبَةِ الكُتَيْت، والأعاني، ونهاية الأرب، وغيرها من كتب الأدب، فهي مُترعة بأخبار العناء والمادامة، غيبةً لأحار الماديين والمعس .

سئل إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن رأيه في حال المادامة في تلك الأيام ، فقال عن الأُميين: ما كان أعجب أمره كلّه، فأما تبدُّله فما كان يُبالي أين قعد ومع من قعد، وكان لو كان بيده وبين ندمائه مائةُ حِجَابٍ حَرَقَهَا كُلُّهَا وألقاها عن وجهه، حتى يقعدَ حيث قعدوا، وكان من أعطى الخَلْقَ لدهبٍ وفضّةٍ، وأسهبهم للأموال إذا طَرِبَ أو لَمَسَ. وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته في ليلةٍ يوقِرُ زَوْرَى ذهناً فاصرف به، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحُمِلتْ أمامي. ولقد عناه إبراهيم بن المهديّ عِاءً لم أرتضه، فقام عن مجلسه فأكّت عليه فقبِلَ رأسه، فقام إبراهيم فقتل ما وطئت رحلاه من بساطه فأمر له بمائتي ألف دينار. ولقد رأيته يوماً وعلى رأسه بعضُ غُلَمائه فطرا إليه، فقال ويلك! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل، إنطلق نحد ثلاثين بَذَرَه فاغسل بها ثيابك .

ولقد حدثني علّويه الأعسر، وهو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سيف عنه قال . لما أُحيط به وولفت حجارةُ المسجيقِ بساطه، كذا عده، ففتته حارية له بعاء تركت فيه شيئاً لم تُحَدِّ حكايته، فصاح: يارانية، تُفَيِّئني الخطأ! حدوها فحُمِلت، وكان آخر العهد بها .

وسئل عن حال المادامة عند المأمون، فقال: أقام بعد قدومه عشرين شهراً، لم يسمع حرقاً من الغناء، ثم سمعه من وراء حِجَابٍ مُتَشَبِّهاً بالرشيد، فكان كذلك سبعَ حِجَجٍ، ثم طهر للندماء والمفنيين . قال: وكان حين أحسَّ السماعَ ظاهراً بعينه، أكبرَ ذاك أهل بيته وبنو أبيه .

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فغمره بعضُ من حصر وقالوا: ما يغادر تيمناً وبأواً، فأمسك عن ذكره . قال بهاء زُرْزُر يوماً، فقال له: يا إسحاق نحن اليوم عند أمير المؤمنين، فقال إسحاق: ففتته بهذا الشعر:

يَا سَرَحَةَ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ * أَمَّا إِلَيْكَ طَرِيقُ غَيْرِ مَسْدُودٍ
لِحَائِمٍ حَامٍ حَتَّى لَا حَرَكَهَ بِهِ * مُحَايٍ عَنِ سَبِيلِ الْمَاءِ مَطْرُودٍ

فلما عَنَاهُ بِهِ زُرْزُرُ أَطْرِبِهِ وَبَهْجِهِ ، وَحَرَّكَ لَهُ جَوَارِحَهُ ؛ وَقَالَ : وَيْلَكَ ! مِنْ هَذَا ؟ قَالَ :
عِنْدَكَ الْمُحَقَّقُ الْمُطْرَحُ . يَا سِيدِي إِسْحَاقُ ! قَالَ يَحْصُرُ السَّاعَةَ ! بَجَاءِهِ رَسُولُهُ ، وَإِسْحَاقُ مُسْتَعِدٌّ ،
قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ إِنْ سَمِعَ الْعَاءَ مِنْ مُجِيدٍ مُؤَدٍّ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ إِلَيْهِ ، بَجَاءِهِ الرِّسُولُ ، لِحَدَّثَتْ أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ
عَلَيْهِ ، وَدَا مَنَّهُ ، مَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : اذْنُ مَيِّ فَاكَّتْ عَلَيْهِ ، وَاحْتَصَصَهُ الْمَأْمُونُ وَأَدْبَاهُ ،
وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَوَحَّهَ مُضْغِيًا إِلَيْهِ ، مَسْرُورًا بِهِ .

وحسبنا هذا القدر . وإن أردت زيادة وإفاصة فانا نُحْيِيكَ إِلَى بَعْضِ أَخْبَارِهَا فِي الْجُزْءِ
السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع .



(و) الشـعر :

أَشْرْنَا فِي كَلِمَتِنَا عَنْ حَالَةِ الشَّعْرِ وَمَوْنِهِ فِي صَدْرِ الْعَصْرِ الْعَاسِيِّ ، إِلَى مَا أَخَذَ يَحْوِلُ هُوَ
إِلَيْهِ أَيْضًا ، تَعَا لِمُقْتَصِبَاتِ الْعَصْرِ وَطُرُوفِ الزَّمَانِ ، وَمَسَايِرَةِ لِحْيَاهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ ،
وَلَمَّا حَدَّ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ وَمَعَايِشِهِمْ مِنَ الْعَنَى وَالْتَرَفِ ، وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ الْغِنَى وَالتَّرَفُ مِنَ
الِاسْتِمْتَاعِ بِالْوَانِ اللَّهْوِ وَاللَّذَاتِ ، وَالِانْقِشَانِ فِي سَاءِ الْقُصُورِ وَالسَّمَنِ وَإِنْشَاءِ الْحَدَائِقِ
وَالْمُنْتَرِهَاتِ . وَلَقَدْ كَانَ فِي مَرَحْوَنَانَا أَنْ نَعْرِدَ لَكَ فَبَصُلًا حَاصِبًا نَصَمَّمَهُ مَا كَانَ مِنَ الْحُلَفَاءِ
فِي إِقَامَةِ مَبَانٍ وَقُصُورٍ وَحَدَائِقٍ وَدُورٍ ، لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ بِهَا وَلَا بِنِظَائِرَاتِهَا سَابِقَةٌ عَهْدٍ ، وَإِنَّمَا
أَلْبَاتِمُهُمُ إِلَيْهَا الْمَدْنِيَّةِ وَالْبَدْخُ ، وَمَا أَصَابُوهُ فِيهَا مِنْ رَفَاقَةِ عَيْشٍ ، وَسَعَةِ يَدٍ ، وَوَفْرَةٍ عَنَى .
يَسِدُ أَنْ ذَلِكَ يَطُولُ ، وَيُخْرِجُ بَنَاءَ عَمَّا رَسَمَاهُ لِأَنْفُسَانَا مِنَ الْقَصْدِ وَالِإِيحَازِ ، مَعَ الْإِلْمَامِ
بِكَاثَةِ الْبَوَاحِي لِهَذَا الْعَصْرِ .

على أنه من الميسور لك أن تتصور مبلغ ما وصل إليه الخلفاء العباسيون وأمرأء البيت المالِك ورحالات الدولة من الثروة والبَذخ، بما أوَمَّأنا إليه في كلمتنا عن نجاج الدولة، وما كان فيها من استصغاءٍ وأعطيات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والفكرية حادَّة عبيقة، فقد اشتدت المُلَّاخاة بين شيعة العلويين والعباسيين، وبلغ النزاع غايته بين أصحاب المداهب وزعماء الآراء. ولا تنس أن تضيف الى ما تقدّم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد في أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة في تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، الى حدّ ما، مرآة صادقة لأحواله وما كان يحى فيه من شؤون .

أسرف الناس في شرب الخمر فاقنّ الشعراء في وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتخيّر الناس السُّقاة من الغلمان ومن في زيّ الغلمان، فوصف الشعراء السقاة وتغزلوا في الغلمان . وولّع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يحى في مجال الصيد . وأقنّ الناس كما قلنا في بناء القصور وعير القصور، ففتحوا المجال واسعا لخيال الشعراء في شتى الأبواب . واشتدت المنافسة السيامية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كل فريق ينفضّحون عن رأيهم ويؤيّدون مذهبهم . وألّف العلماء في الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نظم الفقه والأخلاق والكلام . وهكذا تعدّدت أغراض الشعر وتنوّعت ألوانه . وتحصّر الناس في بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية، فرقت طباعهم، ولانت أخلاقهم، ونبت عن الحوشية أذواقهم، فرق شعر أهل الحواضر، وسليست ألفاظه، وعبّدت من الحوشية . وتُرجمت العلوم اليوبانية وعير اليوبانية، من فلسفة ومسطق وأخلاق، فكان لهذه العلوم أثرها في تغليم أفكار الشعراء ودقّة خيالهم .

ولودهبنا نُورد لك شواهد على كل هذا وغيره، لأطلنا وأملنا . وإنما نُحملك على آثار شعراء هذا العصر، كأبي نوّاس في الخمر وكؤوسها، وأوقات شرايها وسُقاتها، والغزل

بالغلمان، والصيد، والطرْد، ووصف مظاهر الحَصَّارة العباسية. وكِدْعِل الخَزَاعِيّ والسيد الحِمَيْرِيّ في التّراع السياسي بين العلّويين والعباسيين . وكأى العَنَاهِيَّة في الأخلاق، وأَنان ابن عبد الحميد في نظم العلوم كالْفَقْه وغير الفقه . وهذه الإحالة لا تمنعنا أن نورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية .

وهنا تعرض لنا ملاحظة نرى إيرادها حتّا عليا ، وهذه الملاحظة هي أن الشعر في عصر المأمون كان مرآة صادقة للحياة وما يجري فيها من شؤون الى حدّ ما .

نقول «إلى حدّما» . ويدفعنا الى هذا القول مُعْتَقَدُنا القويّ الذي تكوّن لنا من دراستنا لروح هذا العصر . ذلك بأننا نرى كثيرا من شعراء الحاصرة المُحْدِث في هذا العصر وفي العصر الذي قبله ، يَحْلُون نتائج أفكارهم وما تحوّد به فرائضهم ، شعراء الجاهلية وأعراب البادية . ورى أيضا أن كبار الرّواة وأهل الأدب، يُشَدُّون الشعر الجديد مُحَدَّث، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرافيّ، حتى اذا تبين لهم أنه مُحَدَّث أنكروه وأزورّوا عنه .

هذا يدلّنا على أن جماعة قوية يُعْتَدُّ بها في هذا العصر، كانت تَمِيل الى إثارة الشعر القديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشعر الجديد . واذا كان هذا حقا كان من الطبيعي أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية في غير عصرهم ، وأن يكونوا بأخيلتهم في غير حاصرهم ، لكي يَحْلُوا الرّوح العالمة وَيَطْفُرُوا برضا العلماء . وقد يكون لهؤلاء العلماء والرّواة حطّ كبير في صرف أذهان الناس الى الشعر القديم .

وليس معنى ذلك أن شعر المحدثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم ، بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة في النفوس .

لذلك نحن نميل الى القول بأن حير من يمثّل هذا العصر أولئك المحدثون الذين لم يتقيدوا بكاء الأطلال، والحين الى الرسوم، كأبي نواس وأضراب أبي نواس .

على أنه يحذر بنا أن نورد لك مثلي مما كانوا يتذوّقونه في هذا العصر من شعر المحدثين، وما قاله أبو ذؤلف ناعيا منهمج التّعزُّر، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر في شتى الأنحاء .

وقد نشرنا لك في باب المظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث أمثلة من شعر هذا العصر كما نشرنا لك تلك القصيدة التي أنشدتها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرضه فيها على قتل ابراهيم بن المهدي حين طفر به ، فقال المأمون : لا ! والله أَثْبِتْهُ به بل أعفو عنه . واطر الى مطلع القصيدة ، ترالفلسفة اليونانية حاثمة فيه :

ألم تر أن الشيءَ للشيءِ علَّةٌ * يكون له كالدار تُقَدَح بالزَّيدِ

وكان للمأمون حارية تسمى عَرِيب ، كانت تشق جعفر بن حامد ، وكان يتعشقها ، فلما وجدت من المأمون غفلةً ، وصعت على فراشها مثال رحام ، يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى حانب قصر المأمون . فصعدت الى السطح ونزلت في زَيْبِل ، فلما قصي نَهْمَتَ منها قعدت في الزنيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطلما المأمون قل أن ترجع الى فراشها فلم يجدها ، فعلم الى أين صارت . فقال أبو موسى حاكيا لهذه القصة :

قاتل الله عَرِيبًا * فعلت فعلا عجيبًا

ركبت والليل داج * مركبا صعبا مهيبا

فارتقت متصلا بالسمج أومه قريبا

صبرت حتى اذا ما * أقصد النوم الرقيا

مثلت بين حشايا * ها لكي لا يستريا

خلفا منها اذا نو * دى لم يُلَفَّ يُجيبا

ومصت يملها الخو * و قصيبا وكثيبا

مُحَّةً لو حُرَّكت خفَّتْ عليها أن تدوما

فتدلَّت المحبُّ * فتلقاها حبيبًا

جَدِلًا قد نال بالد * نيا من الدنيا رغبًا

أيها الظبي الذي تسحر عيناه القلوبا

والذي يأكل بعضا * بعضه حسنا وطيبًا

كست ههنا لدناب * فلقد أطمعت دينا
وكدا الشاة ادا لم * يك راعيا لينا
لايالى وبأ المر * عى اذا كان حصيا
ولقد أصح عد * الله كشعنا^(١) حريا
قد لعمري لطم الحد * وقد شق الحيوا
وحرث مه دموع * بلت الذق الخضيا

ومما يعتر من الهعاء السياسى قصيده محشويه الشاعر و يحيى بن أكنم قاضى المأمون
بالبصرة، إد فيه أيضا هجو لآل العباس وحلافهم . قال :

أطلقني الدهر بعد إخراس * بمجادات أطلن وسواي
يا نؤس للدهر لا يزال كما * يرقع ناسا يحط من ناس
لا أفلحت أمة وحق لها * بطول لعرب وطول إتماس
ترضى بيجي يكون سانسها * وليس يجي لها بسواس
فاض يرى الحد في الرأ ولا * يرى على من يلوط من بآس
يحكم للأمرد الظريف على * مثل جويي ومثل عداس^(٢)
فالحمد لله قد ذهب الوجود وقل الوفاء في الس
أميرنا جائر وقاضينا * يلوط والرأس شر ما راس
لو قصد الرأس واستقام لقد * قام على المصد كل مرتاس
ما أحسب الجور ينقصي وعلى الساس أمير من آل عاس

وقد أثبتنا لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث مثالا آخر من
الهعاء قاله بعض الشعراء و يحيى بن أكنم ، فراجعه ثمة .

(١) الكشاح منق الكاف ونكسر : الديوث .

(٢) كذا في تاريخ بغداد و ابن حلكان ح ٢ ص ٣٢٦ : « مثل حرير ومثل عاس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من واحة العصبية بين القبائل وهو الى حد ما يعتبر من الشعر السياسي . وهذا النوع مثل ما قاله مُسْلِم بن الوليد في هجاء قريش والافتحار بالانصار، ورد ابن قنبر عليه . وإنا نحملك على موضع ذلك من مجلدنا الثاني للاطلاع عليه، لصيق المقام عن إirاده ها .

وفي هذه القصة الآتية طرفة من الفِرَاسة في العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهي :

قال أبو السَّمرَاء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين الى مصر ، حتى اذا كنا بين الرَّمْلة وِدِمَشْق ، إذ نحن أعرابي قد اعترض ، فاذا شيخٌ فيه بَقِيَّةٌ ، على بَعِيرٍ له أَوْرَقٌ ، فسَلَّم علينا فرددنا عليه السلام ، قال أبو السمراء : وأما وإسحاق بن إبراهيم الرافقي ، وإسحاق بن أبي ربيع ، ونحن نُسَائر الأمير ، وكنا يومئذ أقره من الأمير دَوَاتٌ ، وأجود منه كُتُبا . قال : فجعل الأعرابي يظفر وجوها ، قال : فقلت : يا شيخ ، قد أَلَحَّتْ في الطر! أعرفت شيئا أم أنكرته ؟ قال : لا والله ما عرفتم قبل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراءه فيكم ، ولكنى رحل حَسَّ الفِرَاسة في اللاس جيد المعرفة بهم ؛ قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبي ربيع ، فقلت : ما تقول في هذا ؟ فقال :

أرى كَاتِبًا دَاهِي الكُتَابَةِ يَنْ * عليه وتأديبُ العراق مِيرُ
له حركاتٌ قد يشاهدن أنه * عَلِيمٌ بتقسيط الخراح بصِيرُ

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرافقي فقال :

ومظهر نَسِكٍ ما عليه صمِيرُهُ * يحبُّ الهدايا بالرجال مَكُورُ
أحال به جُبْنًا وبجلا وشِمَّةً * تحبَّر عنه إنه لوزير

ثم نظر الى وأنشأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنسٌ * يكون له بالقرب منه سرورُ
وأحسبه للشعر والعلم راوياً * فبعضٌ بديم مرةً وسَمِيرُ

ثم نظر الى الأمير وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المرتضى سبَّ كفه * فما إن له فيمن رأيت نظير
عليه رداء من جمال وهيبه * ووجهٌ بإدراك السجاح بشير
لقد عَصِمَ الاسلامُ منه بذائد * به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبدُ الله بن طاهر * لنا والدٌ برٌّ بنا وأمير

قال : موقع ذلك من عند الله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بحماسة
دينار وأمره أن يصحبه .

هذا ، وقد حدث بعضهم قال : احتج أصحاب المأمون عده يوما ، فأفاصوا في ذكر
الشعر والشعراء ، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسلم بن الوليد حيث يقول ،
قال : ماذا قال ؟ قال : حيث يقول ورثي رجلا :

أرادوا ليحفوا قبره عن عدوه * فطيبُ ترابِ القبر دلَّ على القبر
وهجا رجلا بقبج الوجه والأحلاق فقال :
قُبِّحَتْ مَاطِرُهُ حينَ حَبْرته * حُسِنَتْ مَاطِرُهُ اقْبَحَ المحبر
ومدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إن صَنَّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وتغزل فقال :

هوَى يَحْدُ حبيبٌ يلعبُ ^(١) . أنت لقي بينهما مُدَبِّب

ومما كان يستحسه المأمون من دُعيل الحزاعي هَماهُ المأمون المعروف قوله :

ألم يأنِ للسَّفر الذين تَحْمَلُوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوعُ
فقلتُ ولم أملك سِوَا بَقِ عَبرَةٍ * نَظَقَ بما صمَّت عليه ضلوعُ

تَيْنَ فَمِ دَارٍ تَفْزُقُ سَمْلَهَا * وَشَمْلَ شَتِيَّتِ عَادَ وَهُوَ جَمِيعُ
طَوَالَ اللَّيَالِي صَرَفْنَهُنَّ كَمَا تَرَى * لِكُلِّ أُنَاسٍ جَدْبَةٌ وَرَبِيعُ

وقد حدث ابن طيمور عن مشيخته أن مصورا الثمري، والحسن بن هاني، وأبا العتاهية^(١) وأنا زعبة احتمموا فتذاكروا أبا ناسا على وزن واحد، ففصل أبو العتاهية عليهم. فقال الثمري:

أَعْمِيْرُ كَيْفَ بِحَاجِيهِ * طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصَّحُورِ
لَهُ دَرَّ عُدَاتِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى الْغُرُورِ
وَلَقَدْ تَيْتُ أَمَامِي .. يَحْيَى رُمَانَ السُّحُورِ

وقال أبو العتاهية :

لَهْفِي عَلَى الرَّمْسِ الْقَصِيرِ * بَيْنَ الْخَوَرَقِ وَالسَّيْرِ
إِدْنِي فِي عُرْفِ الْجَمَا * نَ نَعُومُ فِي بَحْرِ السَّرُورِ

وقال الحسن بن هاني .

وَعِظْنُكَ وَاعْظُهُ الْقَتِيرِ^(٢) * وَعَلْنُكَ أَمَةُ الْكَبِيرِ
وَرَدَدْتَ مَا كَتَبْتَ أَسْتَعِرَ * تَ مِنْ الشَّابِّ إِلَى الْمَعِيرِ
وَلَقَدْ تَحَلَّ بِعَقْوِهِ الْآلِبَابِ مِنْ نَقَرِ الْقُصُورِ^(٣)
صُورُ إِلَيْكَ مَوْثِقَا * تَ الدَّلُّ فِي زَيْ الدُّكُورِ
أُرْهِقَنَّ إِرْهَافَ الْأَعْمَشِ وَالْجَمَائِلِ وَالسُّيُورِ
أَصْدَاعُهُنَّ مَعْقَرَا * تَ وَالشَّوَارِبِ مِنْ عَيْرِ

قال المحدث : ولا أحفظ ما قال أبو زعبة ، ففصلوا أبا العتاهية ، وأبو نواس عدى
أشعرهم .

(١) كذا في تاريخ بغداد ، وعلق عليه ماشره بأنه في ديوانه « ابن رعيب » .

(٢) القنير : الشيب .

(٣) العقوة : ساحة الدار .

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبي دلف قد قصر في أمره ، فبعث إليه من عزله
وقيده وحبسه ؛ فكتب الى أبي دلف من السجن كتاباً تنطع فيه وقعر وطول ؛ فكتب
إليه أبو دلف :

يا صاحبَ التَّطويلِ في كُتُبِهِ * وصاحبَ التَّقْصيرِ في مَعْلِهِ
وراكِبَ الغامِضِ من جَهْلِهِ * وتاركِ الواضِحِ من عَقْلِهِ
لم يُحِطْ من أَلْزَمِهِ قَيْدَهُ * بل صَيَّرَ القَيْدَ إلى أَهْلِهِ
قَيْدَهُ لِلْخَيْسِ تَقْعِيرُهُ * فالقَيْدَ لَنْ يَحْجَرَ من رِجْلِهِ
والله لا فارقَه قَيْدُهُ * أو يَقْطَعَ التَّقْعِيرَ من أَصْلِهِ

و في الختام نرى لزماً في عقبا ، أن نحيلك على ما قاله الشعراء وصفاً لثورة بغداد
وحريقها ، وعلى رثائهم للأمين ونماذج أخرى لمختلف مقولاتهم في مختلف الماحى .
وقد نشرنا لك من هذا جملة صالحة في باب المظوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث ،
فإنها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشعر في ذلك العصر ، فراجعهُ ثمة .

الفصل العاشر

نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني

توطئة — حرائيل بن مجتيشوع — المحاظ — أمان بن عبد الحميد اللاحق — أحمد بن يوسف الكاتب — يحيى بن أئتم القاصي — اسحاق بن ابراهيم .

(١) توطئة :

أعترف أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رجالات العصر من الناهة والكفاية بمكان ، وقد كان يحلوا حقا ويسرى أيما سرور لو أسمعنا رسالتى للكافة عن رجالات العصر من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء وكُتاب وأطباء ومعينين وندماء ، بيد أن ذلك يتطلب سعة لا يحتملها هذا المقام .

على أنما قد رأينا أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن مجتيشوع » من أطباء العصر ، وعن « المحاظ » من ملوك الكُتاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أمان اللاحق » الشاعر وصاحب نظم كَلِيلةٍ ودِمنةٍ ، وعن « أحمد بن يوسف » الوزير المأمونى ومدبج رسالاته ، وعن « يحيى بن أئتم » قاصى قصائنه وأحيرا عن « اسحاق بن ابراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

وعترف لك بأن فى كتابنا شيئا من التقصير نحسّه ، وسببه حاجة هذه الموضوعات الى الإفاضة فى الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب مما لا قَلَّ لرسالتنا به .

« وعد » فليبدأ بهذه النماذج فقول :

(ب) جبرائيل بن مجتيشوع الطبيب النسطورى :

لَسنا نريد أن نستطرد فى الحديث عن مجتيشوع الطبيب الشهير وإئما نريد أن نلمّ للمامة به يتعرف منها القارئ ما كان للرحل من أثر فى عصره فنقول : إن هذه

الأُسرة هي الأُسرة الوحيدة التَّسْطُورِيَّة ، التي استقام دور عِزِّها ثلاثة قرون ، كان لها خلالها حُظٌّ وحده ، وكانت لأفرادها حُطُّوه ، فاستعملهم الخلفاء العباسيون ، فاستفَعُوا من الخلفاء ، وبعثوا الطب وغير الطب من العلوم آثارهم ومُتَّحَات عقولهم .

أما هذه التسمية فسرِّيانية ، وهي مركبة من لفظتين سريَّانيتين ، بُحَّت ومعاها العدد ، ويُسْوَع ومعاها يسوع أى عدد يسوع ، وكانت هذه الأُسرة من مدينته حُمْدَيْسَابُورَ ، وأوَّل من عرفه التاريخ منها هو ديورحس بن حبرائيل بن يحيىشوع وكان يزاول مهنة الطب فترع فيها ، وسَهَّ ذكره ، وأَقَمَ رُئُسا لمستشفى مدينته حتى إن أنا جمع المصور قد أرسل وفدا من قِبله الى حنديسابور يستدعيه إليه إذ كان قد ابتابه مرض ففجرت عن شفائه نُطْسُ الأَطْمَاء فتأى بِمُحْيِشُوع نادى الرأى حتى اعقله العامل ، ولكن أعيان بلده من مَقَارِيَّةٍ وَقَسَائِسِهِ وغير هؤلاء بصحوا له بأن يمثل للآمر ، فانقاد لمصيحهم ووتى وجهه شَطْرَ دار السلام ، ثم كانت له حُطُّوه عند المصور . وما كما لمستطرد فى الحديث عن هذه الأُسرة ، وإِنَّمَا سَقَا هذه الكلمة لما تى على شئ من أحوار أسرة حبرائيل ، لُظْهَر ما لهذا الرجل من المكانة فى عالم الطب ، وأنه من سُلَّالَةٍ كانت تتوارث أحلاؤها عن أسلافها هذه الصَّاعَةِ .

يقول : إن حبرائيل هذا ، قد بيع على مثال دَوِيَّه ، وطهرت فيه عوامل الوراثة ، فورث عن آبائه الصفات الأدبية ، ورَّع فى صِباعه الطب ، وكان الى جانب هذا وديع الخلق ، لطيف المُخَصَّر ، كريم السَّحَايا ، عُرِفَ فى حق الطب سنة ١٧٥ هـ - سنة ٧٩١ م . ذلك أن جمع بن خالد بن بَرْمَك ، بعد أن أَلَّ من مرضه ناعتاء يحيىشوع ، رعب اليه أن يبقى معه طبيا له ، فاعتذر وأبى عه ابه حبرائيل هذا ، فلقى منه كل رعاية . وكاشفه جعفر بدءا خمي كان قد أصابه ، فعالجه حبرائيل فى ثلاثة أيام ، وشفى جعفر فرادت مكانة حبرائيل عنده ، وقربه منه فكان حليسه ، وكان نديمه ، وكان لا يفارقه ساعه واحدة . وحدث أن حارية من جوارى هارون الرشيد قد يئست ذراعها ، فأبرأها جبرائيل بحيلة لطيفة بعد أن

أخفق الأطباء في معالجتها، فحماه بمحسين ألف درهم، وقد عظم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له إلى حاحه فليحاطبها حبرائيل لأنى أقلل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى، وكان في صحبة الرشيد أبما حلّ وحيثما ارتحل، فقد ذهب معه إلى الرقة وصار معه إلى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافة عرّص حبرائيل على الخليفة أن يكون له حادما، فقبله ورحّب به، ولم يكن يأكل شيئا إلا مادنه، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل حبرائيل ولم يُطلق سراحه حتى شفع فيه الحسن بن سهل . وفي سنة ٢١٠ هـ - ٨٢٦ م مرض المأمون مرضا أعجز أطباءه وكان في مقدمتهم ميخائيل صهر حبرائيل، فأحد حبرائيل على نفسه شفاء المأمون، وكان موفقا، ولم تمض أيام حتى شفى المأمون، وبعمره سمانه وانجده أنيسا ونديما، ولم يقف احترام المأمون لحبرائيل وإكرامه له عند هذا الحد بل قد عدّاه إلى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره إلى الموظفين والعمال والقواد، بأن يوقروا حبرائيل ويحلّوه، وكان الرجل يتدخل في شؤون طائفته كلها، حتى الشؤون الكنسية، وبتأثيره انتخب الطريرك جيورجيس المعروف بأن الصانع فتولى الرئاسة الدينية في طائفته وهو في سنّ الشيخوخة . ولما كانت سنة ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م . مرض حبرائيل، واتفق أن الخليفة المأمون كان في ذلك العهد قد سافر إلى بلاد الروم، فأقعد المرض حبرائيل عن ملازمته، ولكنه أناب عنه ابنه بختيشوع، ولم يرجع المأمون وبختيشوع من رحلتهما حتى كان حبرائيل قد توفى . فاقبم له . وأنتم حافل، فلما كان ليله في ذلك العصر . ودس في مدهن القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالا كثيرا، وملكا واسعا، فكانت له صياغ مُخَنَّدَسَانُور والسوس والبصرة والسواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والهدايا الكثيرة في المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة في المطعم والمشرب قدّمها إلى المأمون، وكتاب المذلل إلى صناعة المنطق، ورسالة مختصرة في الطب وهي مختصر تأليف ديروكوريدس وحاليوس وولس الايجنى، وله أيضا كتاب في صناعة البحور وقد نسب إليه السمعاني في مكتبته الشرقية معجما سريانيا على أن هذا مشكوك في روايته .



(ج) الجاحظ :

«الكتاب وعاءٌ مليءٌ علماً، وظرفٌ حُشِي طَرَفًا، وبستانٌ يُجَلُّ في رُذْنٍ، وروضةٌ تَقْلَبُ في حَجَرٍ، يَسلُقُ عَنِ المَوْتِ، وَيَترَحَّمُ كَلَامَ الأَحْيَاءِ، وَلَا أَعْلَمُ حَارًا أَبَرَّ، وَلَا خَلِيطًا أَنْصَفَ، وَلَا رَفِيقًا أَطْوَعَ، وَلَا مَعَلًا أَخْصَعَ . وَلَا صَاحِبًا أَطْهَرَ كِفَايَةً، وَأَقْلَ جَنَابَةً ، وَلَا أَقْلَ إِمْلَاقًا وَإِرَامًا، وَلَا أَقْلَ حِلَاقًا وَإِجْرَامًا، وَلَا أَقْلَ غِيَّةً ، وَلَا أَعْدَ مِنْ عَظِيْمَةٍ ^(١) ، وَلَا أَكْثَرَ أَعْمُوَّةٍ وَتَصَرُّفًا . وَلَا أَقْلَ صَلَفًا وَتَكَلُّفًا، وَلَا أَعْدَ مِنْ مِرَاءٍ، وَلَا أَتْرَكَ لَشَفٍّ، وَلَا أَزْهَدَ فِي حِدَالٍ، وَلَا أَكْفَ عَنْ قِتَالٍ مِنْ كِتَابٍ . وَلَا أَعْلَمُ قَرِيبًا أَحْسَنَ مَوَاتَاةٍ، وَلَا أَجْعَلُ مَكَافَأَةً، وَلَا أَحْصِرُ مَعُونَةً، وَلَا أَقْلَ مَوْوَنَةً ، وَلَا شَجَرَةً أَطْوَلَ عُمْرًا، وَلَا أَجْمَعَ أَمْرًا ، وَلَا أَطِيبَ نَمْرَةً، وَلَا أَقْرَبَ مُخْتَنًى، وَلَا أَسْرَعَ إِدْرَاكًَا فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَلَا أَوْحَدَ فِي عِيرِ إِبَانٍ مِنْ كِتَابٍ . وَلَا أَعْلَمُ نَتَاجَا فِي حَدَاثَةِ سَهٍّ، وَقَرَبِ مِيلَادِهِ، وَرَخْصِ ثَمَةٍ، وَإِمَّاكَانِ جَوْدِهِ، يَجْمَعُ مِنَ التَّدَايِيرِ الْحَسَنَةِ ، وَالْعُلُومِ الْغَرِيبَةِ ، وَمِنْ آثَارِ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ ، وَمَجْمُودِ الْأَخْبَارِ اللَّطِيفَةِ ، وَمِنْ الْحُكْمِ الرَّقِيقَةِ ، وَمِنْ الْمَدَاهِبِ الْقَوِيْمَةِ ، وَالتَّجَارِبِ الْحَكِيمَةِ ، وَالْإِخَارِ عَنْ الْقُرُونِ الْمَاصِيَةِ ، وَالدَّلَادِ الْمُتَرَاخِيَةِ ، وَالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ ، وَالْأَنْثَمِ النَّائِدَةِ مَا يَجْمَعُ الْكُتُبُ » .

هَذَا الأسلوبُ الْحَسَنُ فِي مَنَاحِهِ ، الْبَاصِعُ الْبَيَانُ فِي مَبَاهِهِ ، الدَانِي الْقَطُوفِ ، السَّيْدُ فِي مَنَهِجِهِ ، الْعَدَبُ فِي مَوْرَدِهِ : يَخَاطِبُنَا شَيْخُ الْكُتُبِ عَيْرِ مَدَافِعِ ، وَالْمَتَقَنُّ فِي الرِّسَالَاتِ عَيْرِ مَنَازِعِ ، أَبُو عَثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرِ الْجَاحِظِ بِعِبَارَاتٍ تُسْتَسَاعُ فِي عَيْرِ مَوْوَنَةٍ وَلَا كَدَّ ذَهْنٍ ، وَتُسْتَوْعَبُ بِهَا إِرْهَاقُ حَاطِرٍ وَلَا إِمْعَاتُ رَوِيَةٍ . وَالْجَاحِظُ أَيْذُكَ اللَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ كِتَابَاتِهِ — كَمَا تَعْلَمُ — مَذْهَبٌ لِمُسْتَمِيدٍ ، وَلَا مَرَادٌ لِرَاغِبٍ قَرَّهَا مَتَنَابَسَةٌ مُتَرَاصِفَةٌ ، وَالْعَظَاظُهَا مُتَنَخِّلَةٌ مُتَحَبَّرَةٌ . وَعَارَاتُهَا مُطَّرَدَةٌ مُنْشَجَةٌ ؛ وَجَمْلُهَا مِمَّا يُوطَأُ لَهُ مِهَادُ الطَّبِيعِ ، وَيَرْتَفَعُ لَهُ حِجَابُ السَّمْعِ ، وَهِيَ — وَأَنْتَ حِدُّ عَلِيمٍ — مِنْ ذَلِكَ الْوَعْدِ الَّذِي يَدْخُلُ الْأَذَانُ بِهَا اسْتِئْذَانًا ، لِمَكَلَّهَا

من الألباب، وهو من أحل ذلك يتطلب ما درسا تحليليا مطولا، وليس هذا في مقدورنا لتعدد الموضوعات التي عالجها، ولأنها تستلزم عناية بحثها، والاشارة اليها، بقدر ما يتطلبه الجاحظ من عناية ودرس، فلنكتف بلماعة موجزة عن حياته هذا الباعه العبد الذي تسم ذروة الكمال، وبلغ غاية النصح في الأدب العربي وفنونه، وكان الى حاسب هذا صاحب مذهب في الاعتزال، هو المذهب الجاحظي، معتمدين فيها على ما كتبه ان حلكان وصاحب معجم الأدياء ومؤلفات الجاحظ نفسه .

نسأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . ولم تكن أسرته رفيعة القدر ولا سامية المكانة، بل على البقيص كانت حردما وخولا لمولاهم أبي القلمس عمرو بن قلع الجكاني ثم الفقيمي النسب . وقد قيل : إن فرارا حد الجاحظ كان حمالا، وإن الجاحظ نفسه كان يبيع الخبز والسك بسينان .

قال الجاحظ : أنا أس من أئ نواس بسة، ولدت في أول سنة ١٥٠ هـ وولد في آخرها . وابتك الجاحظ على العلم مد طفولته انكبنا عطيا، وشغف بالمطالعة والقراءة . وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هقان أحد معاصريه : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كالنا ما كان، حتى إنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت للنظر فيها، ثم ثى أبو هقان بالفتح بن حاقان، وذكر بعده اسماعيل بن إسحاق القاضي .

سمع الجاحظ من أبي عبيده، والأصمعي، وأبي زيد الأنباري . وأحد الجوع صديقه أبي الحسن الأحفش . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون، والسري بن عبدويه، وأبي يوسف القاضي، والجهاج بن محمد بن حماد بن سلمة . والكلام عن أبي إسحاق ابراهيم بن سيار النظام المعتزلي النابه الذكر، وبه تأثر، وعليه تخرج في مذهبه في الكلام والاعتزال .

وإذ كانت ميوله الى الاطلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا ، وكان قَصَارَى همه ، في مَعَدَّاته ومَرَاحته وتُكْوِره وأصاله ، أن يحفظ كتاباً أو يفهم باباً ، وكان العصر الذي فيه دَرَجَ وعَمَّ على ما علمت من عزارة المادة ، وتعَدُّ التأليف ، وازدحام المعارف ، ووفره مختلف الثقافات ، فلا عَرُو إذا أحمرنا الجاحط عن نفسه بقوله : «لقد نسيتُ كسيتي ، لقد تعيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم : بِمِ أُنْكِنِي؟ فقالوا : بأبي عثمان» . ولا غَرُو إذا كان الجاحط قد اتَّصل بكثير من علماء وبواع عصره ، وشهيري الكتاب والمترجمين من فرس وسُريان ، فتأثر بلا ريب دَكاؤُه بهذا الاختلاط ، وطالَعَ حِجَامَ ما تُرجم في أرومان المصور والرشد والمأمون ، فما كان يقع بيده كتاب إلا استوى قراءته كاشما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوزاقين ويسيت فيها للنظر — كما قلنا أنفاً — فكان لذلك من بواع العالم .

وعلى عليه أُمُراة اثنان : الكلام على طريقة المعرلة ، والأدب ممزوجاً بالفلسفة والفكاهة . ولقد قصى عاقمة عمره بالصرة موفور الكرامة ، مَحْمُوماً من حلائق الله ، سَيِّئاً رؤساء الموالى وأعيان الهاشمية والعنابية بالعطايا والمسخ ، لما كان يصفه لهم من الرسائل التي كاتبت بتعمد و كَانَهَا التَّشْيِيعَ لمذهبهم ومعاصده مزاعمهم وقصص أقوال محالفيهم . وكاتب له مهاره في البلاع بعقولهم وانترازا أموالهم . واقتداراً على التعمر في كل ما يعالجه وفي كل موقف . وكان يحج كثيرا الى بغداد في أواخر عصر المأمون وعبره ، فكان المأمون يُرفِده . ثم انقطع الى الانتجاع الى محمد بن الريات طَوَالَ وزاراته الثلاث ، ثم أقام بعد موت ابن الريات بالبره حتى أُصيب بالفلح ، فمضى معلوحاً حتى أسلم الروح .

دكاؤُه وخلقُه :

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشعور ودقة العاطفة . وله في ذلك نوادر هي من حوارق الطبيعة . وكان غريب الأطوار ، به شذوذ في أحواله وأطواره . ذلك لأنه كان يجمع بين الجِدِّ والفكاهة ، حاصر الكتبة ، حاضر البديهة ، سريع

الخطا . وكانت به دُعابة وتظرف وتماجن . وكان لا يحتمل لما يأخذ الناس به أنفسهم وما يتواصعون عليه من العادات والرسوم وأنواع العصبية والمدهية والجنسية . وكان كريم الأخلاق ، كريم اليد ، سخيّا ستمحا ، ولطيف المتخَصّر ، حفيف الروح ، وكان على ما به من دَمَامه ، عاية في الطُرف وحلاوه اللقط ، وهو من أهل ذلك كان يجمع بين الصّدين .

اعتقاده ومذهبه :

قلنا إنه تخرج على أى إسحاق إبراهيم بن سيار النّظام رعيم الفرقة التى تنسب اليه من المعتزلة ، وكان يلازم أستاذه هذا ويتوقّر على دروسه . من أهل ذلك كان الجاحظ معتزليا ، وزعيم الفرقة الجاحظية في الاعتزال . وقد انتفع مواهبه وما حباه الله من فصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان ، في ترويح مذهبه والدّعاوة له ، فكان لسان المعتزلة اللاطق ، وسلاحهم القاطع . وبرع في الكلام ، وحلّطه بالفسلفة اليونانية . ويرميه كثيرون بالضلالة ، وأنه مَاجِنٌ مَهْدَار ، متناقض نقال ، يتلاعب بالناس ، ويمصّ اليوم ما بهاء أمس . وقد دافع عنه أبو الحسن الخياط في كتابه "الانتصار" على انتقادات ابن الرّاوندى العيفة المزة التى تناول فيها عقيدة الجاحظ بالتجريح الشديد .

ومما قاله أبو الحسن الخياط فيما يفتد به هجمات ابن الرّاوندى : «وأما رءيك للجاحظ بيغص الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو دليل على أنك لا تعرف المحب من المبعص ، ولا الولي من العدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحدا منهم نصر الرسالة وأحتج للسوء ، بلع في ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كُتّاب في الاحتجاج لطعم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه محمّد لمحمد صلى الله عليه وسلم على نؤوته غير تآب الجاحظ . وهذه كتبه في إثبات الرسالة ، وكتبه في تصحيح محمّد الأحبار مشهوره . وهل يُستدلّ على حب الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به وتصديقه فيما جاء به بشيء أوكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه ! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهري ، والمسعودي ،
والبيديع الهمداني ، وأبي العباس أحمد بن يحيى ، وأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد ،
والفتح بن حاقان ، والرئيس أبي الفصّل بن العميد وغيرهم شخصية الجاحظ بما تستحقه
من العناية والدرس ومن النقد والتقريط ، مما لا ننته لك هنا محافه الإطالة والملل ،
فلتراجع في مطاها ومواضعها .

عليه :

يقول صاحب المعجم . « كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الحاطر والحفظ بحيث
شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستعنى عن الوصف » . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بصون
الكلام ، كثير التحريه ، شديد الصبغ لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم
الدين والدنيا . ولا عرو فان مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقاً ، غزير
المادة ، خصّصَ الدهن ، كثير المحصول العقليّ ، وقد أكثر التصنيف في الأدب واللطائف
والمكاهات ، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار السّما .

ويقول الفتح بن حاقان في كتاب له الى الجاحظ : « إن أمير المؤمنين يحدّ بك ، ويهشّ
عدّ دكرك ، ولولا عظمُك في نفسه ، لعلمك ومعرفتك ، لحال بك وبين بُعدك عن
مجلسه ، ولعصك رأيك وتديرك فما أنت مشغول به ومتوقّر عليه . ولقد كان ألقى إلى
من هذا عنوانه ، فزدتك في نفسه رباذه كفّ ها عن تحشيمك ، فاعرف لي هذه الحال
واعتقد هذه المنة على كتاب « الردّ على الصباري » وافزع منه وعجل به إلى ، وكُنْ من
حدا به على نفسه ، وتال مشاهرتك . قد استطلقته لما معي ، واستسلمت لك لسنة
كاملة مستقلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في « بصيرة غمام » ،
ولولا أني أزيد في تحيلتك لعرفتُك ما يعتريني عند قراءتها ، والسلام » .

رسائله :

لجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها ، منها : أنه كتب الى عبد الله بن حاقان في يوم
عيد : « أنترتني العلة عن الوزير ، أعزّه الله ، فحصرت بالدعاء في كتابي ليوب عنى ،

وَيَعْمُرُ مَا أَخْلَفْتَ الْعَوَائِقُ مِنِّي ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعِيدَ أَكْبَرُ الْأَعْيَادِ السَّالِفَةِ
بِرَكَةٍ عَلَى الْوَزِيرِ ، وَدُونَ الْأَعْيَادِ الْمُسْتَقْلَةِ فِيمَا يُحِبُّ وَنَحْتُ لَهُ ، وَيَقْلُ مَا مَا تَوَسَّلَ بِهِ إِلَى
مَرْضَاتِهِ ، وَيَصَافِ الْأَحْسَانَ إِلَيْهِ عَلَى الْأَحْسَانِ مِنْهُ ، وَبِمَتَّعَ بِصَحَّةِ الْعَمَةِ وَلِبَاسِ الْعَافِيَةِ ،
وَلَا يُرِيهِ فِي مَسَرَّةٍ نَقْصًا ، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهُ مَزِيدًا ، وَبِجَعَلِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ مَدَاءً ، فَيَصْرِفُ عَيُونَ
الْغَيْرِ عَنْهُ وَعَنْ حَقِّي مِنْهُ .

وكتب الى محمد بن عبد الملك الزيات تستعطفه . « أعادك الله من سوء العصب ، وعصمك
من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة الى حب الإصاف ، ورتج في قلبك إيثار
الآفة ، فقد حفت ، أيدك الله ، أن أكون عندك من المسوين الى تزق السفهاء ، ومحانة
الحكام . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن أمراً أمسى وأصبح سالماً * من الناس إلا ما جئني لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق والباطل

فإن كنت احترأت عليك ، أصلحك الله ، فلم أحرئ إلا لأن دوام تفألك عني
شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعمو المتتابع يؤيس من المكافاة . ولذلك قال عينية
ابن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمرُ كان حراً لي منك ! أرهني فاتقائي ، وأعطاني
فأغاني . فإن كنت لا تهت عفاي ، أيدك الله ، لخدمة سلّفت لي عندك ، فهذه لأيديك
عندي ، فاب العمة تشفع في النعمة . وإلا تفعل ذلك لذلك ، فعُدْ الى حسن العادة ،
وإلا فافعل ذلك لحسن الأحذونة ، وإلا فأب ما أنت أهله من العمودون ما أبا أهله
من العقوبة . فسيحان من جعلك تعمو عن المتعمد ، ونجاف عى عقاب المُصِرِّ ، حتى إذا
صرت الى من هفوتُه ذكراً ، وذنتُه نسيان ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والانعام إلا منك ،
هجمت عليه بالعقوبة . واعلم ، أيدك الله ، أن شينَ عصبك على ، كزينَ صفحك عني ،
وأن موتَ ذكرى مع انقطاع سببى منك ، لحاة ذكرى مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك
فطنةً عليماً ، وغفلةً كريم . والسلام .

وللحافظ رسائل في الاستعطاف وشكوى الزمان الهمداني في المقامه الحاحطية . «إن الحاحط في أحد شق
من هذا الكتاب .

وقد قال فيه بدع الزمان الهمداني في المقامه الحاحطية . «إن الحاحط في أحد شق
البلاغة يَقِطِف ، والآحريقف ، والبيع من لم يَقْصِرْ بَطْمُهُ عن ثره ، ولم يُزِرْ كَلَامُهُ بشعره ،
فهل تَرَوْنَ للباحط شعراً رائقاً قلنا لا . قال : فَهَلُمُّوا الى كلامه ، فهو بعيد الاشارات ،
قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، مقادُ لَعْرِيَانِ الكلام يستعمله ، نَفُورٌ من مُعْتَاصِه
يُهْمِلُهُ ، فهل سمعتم له لفظاً مصبوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ ” .

شعره :

قيل : إن للباحط شعراً ، ولكنا نظربا فيما ينسبه له يموت بن المَرْزُوع وأبو العيَّاء
وأبو الحَسَّ البَرْمكي وغيرهم فوجدناه أقل طقة من بلاغته . فما ينسب اليه قوله .

يَطِيبُ العَيْسُ أَنْ تَلْقَى حَكِيماً * عَدَاهُ الْعِلْمُ وَالْعَهْمُ الْمَصِيبُ
يَكْشِفُ عَنْكَ حَيْرَةَ كُلِّ حَيْلٍ * وَفَصَّلَ الْعِلْمُ يَعْرِفُهُ اللَّيْبُ
سَقَامُ الْحِرْصِ لَيْسَ لَهُ شِعَاءٌ * وَدَاءُ الْجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طِيبُ

مصنفاته :

صنف الحاحط أكثر من ماى كتاب . قال المسعودى : وَكُنْتُ الْبَاحِطُ مَعَ انْخِرَافِهِ
تَحْلُو صَدَأُ الْأَذْهَانِ ، وَتَكْشِفُ وَاصِحَ الْبَرْهَانِ ، لِأَنَّهُ نَظَّمَهَا أَحْسَنَ نَظْمٍ ، وَرَصَفَهَا أَحْسَنَ
رَصفٍ ، وَكَسَاهَا مِنْ كَلَامِهِ أَحْسَنَ وَأَجْرَلَ لَفْظٍ . وكان اذا تمخَّوْفَ مَلَلِ الْقَارِئِ وَسَامَةِ
السَّمْعِ ، خَرَجَ مِنْ حِدِّ إِلَى هَزَلٍ ، وَمِنْ كَلِمَةٍ بَلِيغَةٍ إِلَى مَادِرَةٍ طَرِيفَةٍ . وَلَهُ كُتُبٌ حَسَنَةٌ فِيهَا
«البيان والتبيين» وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه من المشور والمطوم ، وعرر الأشعار ومستحسن
الأخبار وبلغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مُقْتَصِرٌ لَأَكْتَفَى ، «وكتاب الحيوان» و«كتاب
الطليين» و«كتاب الحلاء» . وسائر كتبه في هاية الكمال مالم يقصد منها الى تصعيب
ولا الى دفع حق . ولا يُعْلَمُ مِنْ سَلَفٍ وَحَلَفٍ أَفْصَحُ مِنْهُ .

وقال ابن العميد : كتب الحاحط تَعْلَمُ الْعَقْلَ أَوَّلًا وَالْأَدَبَ ثَانِيًا .

أخباره :

حدثنا أبو معاذ عبد الله الخولي المتطّط قال : دخلنا يوما «بُسْرَمَنْ رَأَى» ، على عمرو بن بخر الجاحظ بعوده وقد فُلِجَ ، فلما أخذنا مجالسا ، أتى رسول المتوكل فيه ؛ فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بِشَقِّ مائل ، ولُعَابِ سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، أحدهما لو عُرِزَ بالمسأل ما أحسّ ، والشق الآخر يمتز به الدباب فيُغَوِّثُ ، وأكثر ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتاً من قصيدة عَوْف بن محمّل الخزاعي . قال أبو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عَوْفاً دخل على عبد الله بن طاهر ، فسلم عليه عبد الله فلم يسمع ، فأعلم بذلك ، فزعموا أنه ارتحل هذه القصيدة ارتحالاً .

يا بى الدى دَانَ له المشرقان * طُرّاً وقد دان له المغربان
إِنَّ الثمانينَ وُلِعَّتْها * قد أحوجتُ سَمي إلى ترجمان
وبدلتني بالسطّاطِ احنا * وكستُ كالصعدة تحت السنان
وبدلتني من زَماعِ الفتى * وهمتي همّ الجبان الهدان
وقارتُ مني خُطأ لم تكن * مقارباتٍ وثنت من عنان
وأنشأت بيني وبين الورى * عانة من غير نسج العنان
ولم تدع في المستمتع * إلا لسانى ، وبحسبى لسان
أدعوه الله واثى به * على الأمير المُصعبيّ الهيجان
فقرّاني ، ماى أنما ، * من وطني قبل أصفرار البنان
وقبل منعاى الى نسوة * أوطأنها حران والزفتان

والجاحظ ، أيدك الله ، قد جمع الى مواقفه الكبارى الحدل والتناظر ، ومثانة الأسلوب وتدقيقه ، وسمو المنحى وبلاغته ، وقوة اللفظ ونغمته ، حوساً عظيماً الى الدعابة واللطائف والتندر والطرائف ، والمُلح والتَّحَب ، والكت مع الأدب ، مع خفة ظل ، وظرف روح حبيّه الى النفوس ، ومع نباعة وعبقريّة جعلناه فوق الهام والرموس ، وعدوبة عبارة ، ومائية أسلوب ، كأنهما الراح في الكؤوس !

ومن حملة أجباره أنه قال . ذكرت للتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظرى، فأمر لى عشرة آلاف درهم وصرفنى، فخرجت من عنده، فليقت محمد بن ابراهيم، وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام، فعرض على الخروج معه والاحمدار فى حرافته، وكما ستر من رأى، وركنا فى الحرافه، فلما اتبها الى م نهر القاطول، صرب ستاراً وأمرنا بالغناء، فاندفعت عوادة ففتت :

كَلْ يَوْمَ قَطِيعَةٍ وَعِثَاُ * سَقِضْ دَهْرًا وَمَحْ عِصَاُ
لَيْتَ شَعْرَى أَنَا خُصِصْتُ بِهِدَا * دُونَ ذَا الْخَلْقِ أَمْ كَذَا الْأَحْصَاُ
وَسَكْتَتْ، فَأَمَرَ الطُّشُورِيَّةَ فَعَتَتْ :

وَأَرْحَمَتَا لِلْعَاشِقِيَا * مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ مُعِيَا
كَمْ يُنْجَحِرُونَ وَيُضَرِّمُونَ * نَوْ يُقَطِّعُونَ فَيُضَبِّرُونَ

قال : فقالت لها العوادة : فيصعون ماذا؟ قالت : هكذا يصعون، وصربت بيدها الى الستار فهتكته، وبرزت كأنها فلقة قر، فألقت نفسها فى الماء، وعلى رأس محمد علامٌ يصاهيها فى الجمال وبيده مذبذبة، فألقى الموصع وطر البها وهى بين الماء وأنشد :

أَيُّ التِّى عَرَّفَتْنِى * بَعْدَ الْقَصَا لَوْ تَعَلَّمِيَا

وألقي نفسه فى أثرها، فأدار الملاح الحرافة، فإذا بهما متعانقان، ثم عاصا فلم يربا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما، ثم قال : يا عمرو لتحدثنى حديثاً يُسَلِّى عَن فَعْلِ هَذَيْنِ وَإِلَّا أَخَفْتُكَ بِهِمَا، قال : لخصرنى حديثٌ يزيد بن عبد الملك وقد قعد للظالم يوماً، وعُمر صت عليه القصص، فترت به قصةٌ فيها . « إن رأى أمير المؤمنين أن يُخرجَ إلى جاريته فلانة حتى تعتنى ثلاثه أصوات فعل » فاعتاط يزيد من ذلك وأمر من يبحر اليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسولك رسولاً آخر، يأمره أن يدخل اليه الرجل فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقة بحملك والاتكال على عموك؛ فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا نرح، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعهما عودها، فقال لها
الفتى عني :

أَقَاتِمَ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ * وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزَمْتِ صِرْمِي فَأَجْمَلِي
فَعَنْتَهُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قُلْ، فَقَالَ : عَنِّي :

تَأْتِي الْبَرْقُ مَحْدِيًّا قُلْتُ لَهُ * يَا أَيُّهَا الْبَرُّ إِنِّي عِنْدَكَ مَشْغُولُ

فَعَنْتَهُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قُلْ، فَقَالَ : يَا مَوْلَايَ، تَأْمُرُنِي بِرُطْلِ شَرَابٍ ! فَأَمَرَ لَهُ بِهِ،
فَاسْتَمْتَمَ شَرِبُهُ حَتَّى وَثَبَ وَصَعِدَ عَلَى أَعْلَى قَبْهِ لِيُرِيدَ فَرَمِي نَفْسَهُ عَلَى دِمَاعِهِ مَاتَ، فَقَالَ
يَزِيدُ : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاْجِعُونَ) أَتَرَاهُ الْأَحْمَقُ الْجَاهِلُ طَرَفَ أَنْ أُحْرَجَ إِلَيْهِ حَارِجِي وَأَرَدَهَا
إِلَى مِلْكِي ! مَا عَلِمَانِ، حَدُّوْهَا بِيَدِهَا وَأَحْمِلُوْهَا إِلَى أَهْلِهَا إِنْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ وَإِلَّا فَيَعْمُوْهَا
وَتَصْدُقُوا بِمَنْهَا، فَانْطَلَقُوا بِهَا إِلَى أَهْلِهَا، فَلَمَّا بَوَسَطَتِ الدَّارَ نَظَرَتْ إِلَى حَفِيرِهِ فِي وَسْطِ الدَّارِ
يَزِيدُ قَدْ أُعِدَّتْ لِلطَّرِيقِ، فَحَدَّثَتْ نَفْسَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَنْشَدَتْ :

مَنْ مَاتَ عَشَقًا فَلَيْمَتْ هَكَذَا * لَا حَيْرَ فِي عَشَقٍ بَلَا مَوْتَ

فَالْقَتِ نَفْسَهَا فِي الْحَفِيرَةِ عَلَى دِمَاعِهَا مَاتَتْ، فَسُرِّيَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُجْرِلَ صَلَاتِي .

«وبعد» فإن رسالتنا لاتسع التبسط في القول، ولا سيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ،
التي نطلب كما قلنا رسالة مُسَهَّبة، لمكانة الرجل، فعيا قدمناه لك عه العُيَّة والكُمَاية. ورى
واجبا عليها قل أن محم كلمتنا أن يحيلك هها، على رسالة حطية . مسو به اليه عثرا عليها
مدار الكتب المصريه . قيل إنه كتبها عن سى أميه : وسبق أن أشرنا اليها في كلمتنا عن
العصر الأموي . وهى وحدها تطق بوجهة نظر الرجل ومدبه والاعتزال، وتشهد بطول
باعه في التبسط والإسهاب، مع نخامة اللفظ وحلاوته، وفراة الأسلوب وطلاوته، وسمو البيان
ومكانته. وقد أشتناها لك في باب المنشور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث . فراجعها ثمة .

(د) أبان بن عبد الحميد اللاحق :

هو أَنَانُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ لَاحِقِ بْنِ عَفْرِ مَوْلَى سَيِّدِ رَقَاشَ . كَانَ بِالْمَصْرَةِ، ثُمَّ رَحَلَ
إِلَى الْبَرَامِكَةِ بِبَغْدَادَ، فَاتَّصَلَ بِهِمْ وَمَدَحَهُمْ وَنَالَ جَوَائِزَهُمْ، ثُمَّ قَوِيَ الصَّلَةُ بَيْنَهُمْ

وبينهم حتى اتحدوه لهم معلماً ونصبوا، يستشيرونه في مهام أمورهم وتدير شؤونهم .
 وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له ، أن جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون
 من الجوائز والصلوات لكن هذا المنصب . جعله عَرَضاً لَهْجُو الشعراء وذمهم ، لأنه
 ليس في مقدوره أن يرصيهم جميعاً من جهة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حَكماً
 من جهة أخرى .

وكان أبو نواس من أشد هؤلاء الشعراء بِقَمَّةً على أبا ن ، فان أما المرح الأصبهاني
 يحدثنا أن أما نواس لم يرَ المرتبة التي جعله فيها أبا ن ، فقال يهجو هذه الأبيات :

حَالِسْتُ يَوْمًا أَمَامَا * لَادَرْتُ أَمَانِي
 ونحن حَصْرُ رَوَايَ الـ * أَمِيرَ النَّهْرَوَانِ
 حتى إذا مَا صَلَاةُ الـ * أَوَّلَى دَنْتْ لِأَوَانِ
 فقام مُنْذِرُ رَبِّي * نَالِيَّ وَالْإِحْسَانِ
 فكلمنا قال فلما * إِلَى أَنْقِصَاءِ الْإِذَانِ
 فقال كيف شَهِدْتُمْ * بَدَا عِيرَ عِيَانِ
 لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى * تُعَارِنَ الْعِيَانِ
 فقلت سَبَحَاتُ رَبِّي * فَقَالَ سَبَحَاتُ مَانِي^(١)
 وقيه القصيدة في ديوان أبي نواس .

فقال أبا ن يحببه : —

ان يكن هذا السَّوَا * سَيِّئًا لَا ذَنْبَ هَمَّانَا
 فلقد ... حِينَا * وَصَفَعَاهُ زَمَانَا
 هَانِي الْجَوْنِ أَبُوهُ * زَادَهُ اللَّهُ هَوَانَا
 سَائِلِ الْعِبَاسِ وَاسْمِعْ * فِيهِ مِنْ أَمْكِ شَانَا
 عَجَّنُوا مِنْ حُلْبَانٍ * لِيَكِيدُوكَ عَجَّانَا

(١) اسم لصاحب طائفة من الملحدين .

وحلّار هذه هي أم أنى نُوّاس، كاب قد تزوّجها العباس بعد أبيه . ورتما كان
لباعث هذه المَهاتَرَة بين أنى نُوّاس وأمان أثَرَ كَثيرَ فيما كان بين أنى نُوّاس والبرامكة من
كرَاهِيه وبغضاء ، فإن أمان نُوّاس كان معروفاً بسمو المكالمة في الشعر ، فلا يستطيع مثل
أمان أن يُرْلِه عن مبرليهِ التي هو حَديرها ، إلا إذا كان في ذلك هَوًى للبرامكة ، وقد يكون
نوحى منهم . لكن أمان نُوّاس لم يجد مَصْدَرًا للحكم غير أنان فَهَحَاهُ ، ولم يكن هُوَ أَبَان لِيَشْفَى
عليه وإنما يَشْفَى عليه لو استطاع أن يبال بالهجو من راهم حليقيين مهجوه ، وهم البرامكة
ولكنه لا يستطيع أن يباهم بالهجو ، وهم أصحاب الدولة والسلطان .

كان أنان شدد الإغاث بنفسه ، مُدلاً لعلمه وأدبه . والقصيدة التي قدّمها للبرامكة ،
حيث حاول أن يتصل بهم ، على زعم أن يكون له شيع من ترعيتهم فيه ، نُعْطِيا صورة
واضحة عنه . وهذه هي القصيدة —

أنا من نُبّة الأمير وكَنَز * من كُوز الأمير دو أرباح
كانت حاسّة حطيت أدب * ناصح زائد على النّصاح
شاعر مُفْلِق أخف من الرّيسه مما يكون تحت الحماح
لى في الحوِطَة واتّقَاد * أنا فيه قِلَادَة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلم نقوب مَور الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعر وقول السّيب والأمّداح
وطريف الحديث في كل فن * ونصرتُ نُهُاتِ المِلاح
كم وكَم قد حَنَّتْ عدى حديتاً * هو عد الملوك كالنّقاح
فيمثلُ نَحْلُ الملوك وتلهو * وتناحى في المشكل الفداح
أَيَمَّنُ الساس طائراً يوم صيد * لعدوّ دُعِيْتُ أو لرواح
أَصْرُ الساس بالجوهر والخيل وبالحرّ الحسان الصّباح
كلّ ذا قد جمعت والحمد لله على أنى طريف المِزاح

لَسْتُ بِالنَّاسِكِ الْمَشْمَرِ ثَوْبِي* وَلَا الْمَاجِنِ الْخَلِيعِ الْوَقَاحِ
لورمى نى الأمير أصلحه الله رماحا نلمت حد الرماح
ما أنا واهر ولا مستكن * لسوى أمر سيدى ذى السماح
لست بالصخم يا أميرى ولا القز * م ولا بالمحدر الدخاح
لينة جفده ووحه صيحج * وانتقاد كشعلة المصباح
إن دعانى الأمير عاين متى : شمرياً كاللؤل الصياح

على أن أنان ، مع إعجابه نفسه ، وإدلاله عليه وأدبه ، لم يكن فى مقدوره أن يسار
بكار معاصريه من الشعراء ، كأبى نؤاس وأضرابه ، فى قوة الشعر واختلاف دونه ،
وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعل ذلك رجع الى أنه كان يتقصه حب النفس ، وقوة الحس ، والخيال
المدع للصور الشعرية ، أى قوة الابتكار والاختراع ، فان هذه القوى جميعا لا بد منها
للشاعر ، لكى يُحسّ وسترع . وهذا يقضى بها الى إحدى نتيجتين : إما أن نشك
فما وصف به نفسه : من جمال الظرف ، وجملة الروح ، وانتقاد الدهس ، نشك فى آتصافه
حقا بهذه الصفات ، التى تملأ النفس شعورا بما فى الحياة من صور للشعر ، وإنا أنه
كان قصير الباع فى تصوير ما تحس به نفسه . وكلا الأمرين يبعد البؤن منه وبين أبى نؤاس
وأضراب أبى نؤاس . ولئن نقصته القوى التى تمتد بالصور الشعرية ، فقد وفق إلى
فن حديد تحسب أنه لم يسبق إليه ، وهذا الص لا يبطره الى كد القريحه وإعمال الفكر
فى تصيد المعانى الخيلة ، وإبرارها فى أثواب راهية حدابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من
أن تكون لديه ملكة النظم ووزن الكلام ، اذ المعانى بين يديه ، لا يتكلف فى سبيلها
سعيًا ، أو كد قريحه . وهذا الفن الحديد هو النظم التعليمى ، وهو أن يعتمد الشاعر
الى كتاب معروف منشور فيطمه ، أو الى قواعد عامة فى الشريعة أو فى اللعبة أو فى فرع
من فروعها ، فيطمها أيضا ، ليسهل حفظها ويقرّب تناولها . وهذا ما فعله أبان ،

وما جعلنا نُؤثِّره بالكلام، فإن هذا النوع من النظم، يُمثل ناحية طريفة من نواحي الأدب الجديدة في عصرنا المأمونى. فقد تكون مُقصرين كل التقصير، إذا أغفلنا ذكر مُبدعه ومُبْتَكِرِهِ. نقول « وهذا ما فعله أَنَان » فإن الصولى وأما الفرح الأصفهاني يحدّثنا بأن أَنَانًا نَظَمَ للبرامكة كِتَابَ كَلِيلَةِ وِدْمَنَةِ، ليسهل عليهم حفظه، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفصل بن يحيى حمسة آلاف دينار، ولم يعطه جعفر شيئا، وقال له: يكفيك أن أحفظه فأكون رَاوِيَتَكَ. وقد قل الأصفهاني من هذا الكتاب بيتين هما:

هذا كِتَابُ أَدِبٍ وَعِجْنَةٍ * وهو الذى يُدْعَى كَلِيلَةَ دِمْنَةٍ
فيه أَحْتِيَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ * وهو كِتَابُ وَضَعْتَهُ الْهِنْدُ

وقد أادت الأيام هذا الكتاب، كما أادت كثيرا غيره من الكتب العربية القيمة، حتى يئس الأدباء والمؤرخون في العصر الحديث، من العثور على شيء منه. وقد يكون من حسن الحظ أن نعلن سرورنا أَنَانًا قد وُقِّعَ إلى جزء كبير من هذا الكتاب، في جزء أو أوراق من جزء من كِتَابِ الأوراق المسبوبة للصولى، إذ عثرا عليه بدار الكتب المصرية. مسد أمد طويل حينما كنا نبحث فيها عما وصّعه العرب من الموسوعات والمعالمات. وسنذكر في المجلد الثانى ما وحدناه فيه.

ويحدّثنا أبو العرج أنه عمل أيضا القصيدة التى ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق، وسمّاها دات الحُلُل، ومن الناس من يَسُبُّها إلى أبى العتاهية، والصحيح أنها لَأَنَان. وسياق أبى العرج هذا، لا يدع سبيلا إلى الشك في وجود هذه القصيدة، ومع الأسف لم ينقل اليها منها شيئا.

ويحدّثنا الصولى بسده أن أَنَانًا، لما عمل كِتَابَ كَلِيلَةِ وِدْمَنَةِ شعرا، في قصيدته المُرْدُوحة أعطاه البرامكة على ذلك مالا عظيمًا، ف قيل له بعد ذلك: ألا تعمل شعرا في الزهد؟ فعمل قصيدة مُرْدُوحة في الصيام والزكاة، وقد وحدت هذه القصيدة،

وترجمتها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أمان من ثم الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقد نشرنا ذلك كله في موضعه من المجلد الثاني .



(هـ) أحمد بن يوسف الكاتب :

هو أبو حمزة أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالى بى غل . كان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وزره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد ، فقد كان يتولى ديوان الرسائل له ، وكان معروفا بين أهل عصره بسمو المكانة فى العلم والأدب ، والكثافة والشعر . حكى عن المأمون ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلى بن سليمان الأخفش ، وغيرهما .

كتابه :

أما مكانته فى الكتابة فرسائله وتوقيعاته التى تحلت بها صدور الأدب ، وزيت بها كتب التاريخ ، تحمله فى مقدمة الكتاب ومن أتمتهم ، وهى بما فيها من حودة وإحكام ، وتخيلا لفظا ، وسلاسة فى المعانى ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخاطر ، وعلى أنه مالك أعة المعانى وبواصى الكلام . ولقد شهد له السق فى الكتابة والرسائل كبار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولى : لما مات أحمد بن أبى خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فبمن يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليه بأحمد بن يوسف ، وأبى عباد ثابت بن يحيى الرازى ، وقال : هما أعلم الناس بأحلاق أمير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرصيه ، فقال له : احترلى أحدهما ؛ فقال الحسن : إن صبر أحمد على الخدمة ، وجفا لدته قليلا ، فهو أحبهما الى ، لأنه أعرف فى الكتابة وأحسهما بلاغة ، وأكثر علما ! فاستكنه المأمون .

وروى الصولى بسنده : أن الكتاب اجتمعوا عند أحمد بن إسرائيل ، فذكروا الماصين من الكتاب ، فأجمعوا أن أكتب من كان فى دولة بى العباس : أحمد بن يوسف ،

وابراهيم بن العباس؛ وأن أشعر كتّاب دونتهم : ابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ؛ فابراهيم أجودهما شعرا ، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب ، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى - أعزك الله - أن هؤلاء الكتّاب لم يقدّموا أحدا من كتّاب دولة بني العباس على أحمد بن يوسف في الكتّابة . وإن قدّموا عليه في الشعر . والحق أن نبوغه في الكتّابة هو الذي كان سببا إلى طهوره ورفعته ، فقد روى العلماء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكتّاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ' فوصف له أحمد بن يوسف فأحضره لذلك ، فكتب :

«أما بعد، فإن المخلوع، وإن كان قسيم أمير المؤمنين في التسبب والمنفعة، فقد تفرق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمة، لمعارفته عصمه الدين، وحروجه عن إجماع المسلمين؛ قال الله عز وجل لولح عليه السلام في آبيه ﴿لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولا صلة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمر المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، فالأرض بكافها أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شيء لمسيئته، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع، وبالآخرة وهي الردة والقصيب، والحمد لله الأحمد لأمر المؤمنين بحقه، والكائد له من حال عهده ونكت عقده، حتى رد الألفة، وأقام به الشريعة . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .»

قيل : فرضى طاهر ذلك وأهذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه .

وقيل : إن المأمون لما حُل رأس المخلوع إليه ، وهو بمرو ، أمر بإنشاء كتّاب عن طاهر ابن الحسين ، ليقرأ على الناس فكتبت عدة كتب لم يرصها المأمون ولا الفصل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عُرضت السحرة على ذى الرياستين ، رجع نظره فيها ، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أضعفك ، ودعا بقهرمانه ، وأخذ القلم والقرطاس ،

وأقبل يكتب بما يُقرع له من المازل، ويعتد له فيها من الفُرُش، والآلات، والكسوة،
والكُراع، وغير ذلك؛ ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له: اذا كان في عد، فاقعد
في الديوان، وليقعد جميع الكتّاب بين يديك، واكتب الى الآفاق .

قيل : ومما كتبه لأماون حين كثرت الطلاب للصلوات ساه : «داعى نداءك يا أمير المؤمنين،
ومُبادى جَدّواك، جمعا الوفود ببابك يرجون نائلك المعهود، فهم من يمت بحُرمة، ومنهم
من يُبدل بحُدمة، وقد أبجف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام، وإن رأى أمير المؤمنين أن
يُنعمهم بسبيه، ويحقق حُسن ظنهم بظوله، فمل إن شاء الله تعالى». موقع المأمون : « الخير
مُتّع، وأواب الملوكة معانٍ لطالبي الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشاعر :

يَسْقُطُ الطيرُ حَيْثُ يَلْتَقِطُ الْحَبَّ * وَتُنْفِىْ مَنْارُ الْكِرْماءِ

فاكتب أسماء من بابايا منهم، وأحك مراتهم، ليصل الى كل رجل قدر استحقاقه،
ولا تتكدر معروفا عدهم بطول المحجاب، وتأخير الثواب، فقد قال الشاعر :

فإك لى ترى طرداً لحتر * كالصايق به طَرَفَ الهواى

وقال ابراهيم بن العباس : سمعت أحمد بن يوسف يقول : أمرى المأمون، أن أكتب
الى السواحى والاسكناخ من القناديل والمساحد، ميت لا أدري كيف أفتح الكلام،
ولا كيف أحد به، فأتى آت وماسى، فقال : قل : فإن ذلك أنسا للسائلة، وإصاءة
للمتهجدة، ونفياً لمكامس الرّيب، وتزويها لبيوت الله عن وحشة الظلم، فابتغت وقد أفتتح لى
ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه .

ومن رسائله أيضاً : "لقد أحلك الله فى الشرف أعلى ذروتة، وتلعت من الفضل أبعد
عايته؛ فالأمال اليك مصروفة، والأعاق اليك معطوفة؛ عندك تنتهى الهمم السامية،
وعليك تقف الظنون الحسنة، وبك تُنتهى الخناصر، وتُسْتَفْتَح أغلاق المطالب؛ ولا يُستترت
السُّجج من رحالك، ولا تعروه النوايب فى دارك" وإنا نخيلك على ما أشتاده لك فى المجلد
الثالث من آثاره المتعة .

شعره :

كان أحمد بن يوسف شاعرا مُعَرِّقاً في الشعر كما كان مُعَرِّقاً في الكتابة، إلا أن حطّه من الشعر كان دون حطّه من الكتابة، فإن تُقَاد عصره لم يقدّموا عليه أحداً في الكتابة من كتاب بنى العباس ووزرائهم، وقد قدّموا عليه كثيراً في الشعر. وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجماع فريق من الكتاب على سقّه في الكتابة دون الشعر. وقد روى الصولي بسنده أن قَعَب بن مُحَرَّز الباهلي قال: كما يقول لم يل الوراثة أشعر من أحمد بن يوسف، حتى ولي محمد بن عبد الملك، فكان أشعر منه !

ولم يكن المدح كثيراً في شعر أحمد بن يوسف، فإنه كان بحكم مركزه كورير للأمون ورئيس ديوان رسائله، غير محتاج إلى أن يتكسّب بشعره، أو يمدح الناس، ولذلك لا نرى في شعره مدحا لغير المأمون وليه وربّ نعمته. وكذلك كان هجاؤه قليلا، فإن مروءته، وأدبه، ومركزه، واعتداده بنفسه، كل ذلك كان يرفعه عن أن يكون هجاء مُقَدِّداً، وإنما كان يُصْطَرّ أحيانا إلى ذمّ أعدائه ومباصيه، في غير إقْداع ولا خش. فمن ذلك قوله في سعيد بن سالم الباهلي وولده — وقد كانت بينهم وبينه عداوة — فذكرهم يوما فقال: "لولا أن الله عز وجل ختم رسالته محمد صلى الله عليه وسلم، وكُنْتَه بالقرآن، لبعث فيكم نبيا نَقْمَةً، وأزل عليكم قرآن غدر، وما عَسَيْتُ أن أقول في قوم، محاسنهم مساوي السّفَل، ومساوئهم فصائح الأمم". وقال يهجوهم :

أَبْنَى سَعِيدٍ إِنَّكُمْ مِنْ مَعْشَرٍ * لَا تُحْسِنُونَ كَرَامَةَ الْأَصْيَافِ
قَوْمٌ لِبَاهِلَةٍ بَنَ أَغْصُرُ إِنْ هُمُو * نَفَرُوا حَسْبَتْهُمْ وَلَعْدَ مَنْافٍ
مَطَلُوا الْعِدَاءَ إِلَى الْعِشَاءِ وَقَتُّوا * زَادَا لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِكَافٍ
بَيْنَا أَتَاكَ أَنَاهُمْ كِبَارُهُمْ * يَلْحَوْنَ فِي التَّبْدِيرِ وَالْإِسْرَافِ
وَكَاثِنِي لَمَّا حَطَطْتُ إِلَيْهِمْ * رَحَلِي حَطَطْتُ بِأَبْرِقِ الْعِزَافِ

أخلاقه وسيرته :

كان أحمد بن يوسف قبطاً ، بصيراً بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ديكاً سريع الخطا طردا مروءة وكرم ، وكان مع ذلك يصرب في المجون واللغو بسهم . ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبدالله بن طاهر حين خرج من بغداد الى حراسان لأبنته محمد ، وما وقع بين محمد هدا وبينه بعد ذلك . قال عبدالله لابنه . إن عاشرت أحدا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءة . فما عرح محمد حين أنصرف من توديع أبيه على شيء حتى هم على أحمد بن يوسف في داره ، فأطال عده ، فَعِطَنَ له أحمد فقال : يا جارية عديا ، فأحصرت طبقا وأرعمة نقيّة وقدمت ألوانا يسيرة وحلاوه وأعقب ذلك بأواع من الأشرية في زجاج فانروآية حسنه وقال : يتناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يُشرف عبده ويحيته في عِد فأنعم بذلك . فهص وهو متعجب من وصف أبيه له ، وأراد فصيحته ، فلم يترك قائدا حليلا ولا رجلا مدكورا من أصحابه إلّا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالقدوم معه ، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبطه وأطهر مروءته ، فرأى محمد من الصائد والفُرّش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه ، ونصّب ثلثائة مائدة وقد حُفّت ثلثائة وصيغه ، ونقل الى كل مائدة ثلثائة لون في صحاف الذهب والفضة ومثارد الصين ، فلما رُفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل من الباب ؟ مطروا ، فادا جميع من الباب قد نُصبت لهم الموائد فأكلوا ، فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن ! (كذا في هذه الرواية كتابه نأى الحسن) فقال : أيها الأمير ، ذاك قُوتى وهذه مروءتى .

أما اللغو والمجون فقد كان حظّه منهما غير قليل . وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سهل ، حين شاورة المأمون فيمن يختاره ، بعد أحمد بن أبي خالد ، فأشار عليه بأحمد ابن يوسف وأبى عباد ثابت بن يحيى الرازى ، فقال له . احترلى أحدهما ؛ فقال الحسن : إن صبر أحمد وجفا لذته قليلا فهو أحبهما الى .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه ، من الكُتّاب والشعراء والادباء ، من ميل الى الغلمان .. ! لذلك لم يكن عزله بريئا ، ولم يعالجه على أنه فنٌّ من فنون الشعر ، وإنما كان عزله يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه ؛ فإليك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطحب الغزل فمّا من فنون الشعر ؛ فقد كان موسى هذا في ناحيته ، وهو الذي قدمه وحرّحه ، وكان يرى بما كان يُرى به مما ممسك عن ذكره .

حدث موسى نفسه ، فقال : وهب لي أحمد بن يوسف ألف ألف درهم في مَرّات .

وقد لامة محمد بن الهيثم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه ، فكتب اليه أحمد اس يوسف شعرا يلتمس اليه فيه أن يكفّ عن عدله . وقد أسكنا عن ذكره أيضا لما فيه من محو .

ومن عزله ما قاله في محمد بن سعيد بن حماد الكاتب ، وكان يميل اليه ، وقيل عنه إنه كان صبيّا مليحا :

صَدَّ عَنِّي مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ * أَحْسَنُ الْعَالَمِينَ ثَانِي حَيْدٍ
صَدَّ عَنِّي لِغَيْرِ جُرْمٍ إِلَيْهِ * لَيْسَ إِلَّا لِحُسْنِهِ فِي الصَّدُودِ

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه ، فظفر الى عارصه قد احتط في حذّه ، فأخذ رقعة وكتب فيها :

لَحَاكَ اللَّهُ مِنْ شَعْرٍ وَزَادَا * كَمَا أَلْبَسْتَ عَارِصَهُ الْحَدَادَا
أَغْرَتَ عَلَى تَوَرَّدِ وَجْهِهِ * فَصَبَّرْتَ أَحْمَرَاهَا سَوَادَا

ورمى بها الى محمد بن سعيد ، فكتب مجيبا : عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ فِي يَاسِيدِي وَأَحْسَنَ لَكَ الْعَوْصِ مَيَّ !!

وكان لظرفه وفطنته وصره بالأمر موصعا لرصا المأمون وعطفه عليه . و يظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وملء يديه منه جعلته لا يتحزّز في كلامه كثيرا ، فكان يسقط السقطة بعد السقطة حتى أتلف نفسه في معص سَقَطَاتِهِ ؛ فقد حُكي : أن المأمون كان اذا تجفّر

طُرِحَ له العود والعبر، فاذا بَحْرُ أمرٍ بِإِخْرَاجِ المِجْمَرَةِ وَوَضْعِهَا تَحْتَ الرِّجْلِ مِنْ حِلْسَانِهِ إِكْرَامًا لَهُ . وَحَصَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ وَتَجَرَّ المَأْمُونُ عَلَى عَادَتِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِوَضْعِ المِجْمَرَةِ تَحْتَ أَحْمَدَ بْنِ يُونُسَ ، فَقَالَ : هَاوَا ذَا المَرْوَةَ ! فَقَالَ المَأْمُونُ : أَلَا يَقَالُ هَذَا ؟ وَنَحْنُ نَصِلُ رَحَلًا وَاحِدًا مِنْ حِدْمَا بَسْنَةِ آلِافِ دِيَارٍ ! إِمَّا قَصْدًا إِكْرَامًا ، وَأَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَنْتَ قَدْ اقْتَسَمَا بِحُورًا وَاحِدًا ، يُحْصَرُ غَيْرُ ! فَأَحْصَرَ مَسْئِئًا فِي الْغَايَةِ مِنَ الْجُودَةِ ، فِي كُلِّ قِطْعَةٍ ثَلَاثَةَ مِثْقَالٍ ، وَأَمَرَ أَنْ تُطْرَحَ الْقِطْعَةُ فِي المِجْمَرَةِ يَتَحَرَّيْهَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ ، وَيُدْخِلُ رَأْسَهُ فِي رِيقِهِ حَتَّى يَسْقِدَ بِحُورِهَا ، وَفِعْلُهُ بِهِ ذَلِكَ بِقِطْعَةٍ ثَانِيَةٍ وَثَالِثَةٍ ، وَهُوَ يَسْتَعِيثُ وَيَصْبِيحُ ، وَاصْطَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَقَدْ أَحْتَرَقَ دِمَاعُهُ ، وَأَعْلَى وَمَاتَ سَنَةَ ٢١٣ وَفِي سَنَةِ ٢١٤ هـ .

وَكَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ يَقَالُ لَهَا نَسِيمٌ ، لَهَا مِنْ قَلْبِهِ مَكَانٌ حَاطِرٌ ، فَقَالَتْ تَرْثِيهِ :
 وَلَوْ أَنَّ مِيتًا هَابَهُ المَوْتُ قَلْبَهُ * لَمَّا حَاءَهُ المِقْدَارُ وَهُوَ هَيَّوْتُ
 وَلَوْ أَنَّ حَيًّا قَلْبَهُ هَابَهُ الرَّدَى * إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْأَرْضِ فِيهِ نَصِيبُ
 وَقَالَتْ أَيْضًا تَرْثِيهِ :

نَفْسِي فِدَاؤُكَ لَوْ بِالنَّاسِ كُلِّهِمْ * مَا بِي عَلَيْكَ تَمَنَّوْا أَهْمَ مَا تَوَا
 وَلِلْوَرَى مَوْتُهُ فِي الدَّهْرِ وَاحِدُهُ * وَلِي مِنَ الِأَهْمِ وَالْأَحْرَانِ مَوَاتُ

(و) يَحْيَى بْنُ أَكْثَمِ القَاضِي :

هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ بْنِ مُحَمَّدٍ قَطَنِيٌّ يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ التَّمِيمِيِّ
 حَكِيمِ الْعَرَبِ المَعْرُوفِ .

عَرَفَ التَّارِيخُ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ حَدَّثَنَا فِي مَجْلِسِ سَمْعَانَ بْنِ عُيَيْيَةَ ، المَعْرُوفِ بِعَلَمِهِ
 وَوَرَعِهِ وَنُفُودِهِ ، إِذْ يَقُولُ ابْنُ حِلْكَانَ فِي تَكْوِينِهِ ” وَفِيَاتُ الْأَعْيَانِ “ : وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ
 المَجَامِيعِ أَنَّ سَمْعَانَ نَجَحَ يَوْمًا إِلَى مَنْ حَاءَهُ يَسْمَعُ مِنْهُ وَهُوَ مَحْصَرٌّ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ مِنَ الشَّقَاءِ
 أَنْ أَكُونَ حَالِسْتُ مَحْصَرِّ بْنِ سَعِيدٍ وَحَالِسٌ هُوَ أَمَا سَعِيدُ الْخُدْرِيِّ ، وَجَالِسْتُ عَمْرُو
 ابْنَ دِيَّارٍ ، وَحَالِسٌ هُوَ عَسَدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ اللَّهِ عَنْهُمَا ، وَجَالِسْتُ الزُّهْرِيَّ وَجَالِسُ

هو أنس بن مالك، حتى عد جماعة، ثم أنا أحاسنكم ! فقال له حَدَّثْ في المجلس : إِنْ تَصِفْ
يَا أُمَامَةَ ، قَالَ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَشَقَاءُ أَصْحَابِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ مَنْ
أَشَدَّ مِنْ شِقَائِكَ بَا ! فَأُطْرُقُ سَفِيَانُ وَأَنْشُدُ قَوْلَ أَبِي نُوَّاسٍ :

حَلَّ جَنِيكَ لَرَامَ * وَأَمِصْ عَهْ بِسَلَامٍ

مُتَّ بَدَاءَ الصَّمْتِ حَيْرٌ * لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

إِنَّمَا السَّالِمُ مِنَ النَّجْمِ مَا هُوَ لِلْحَامِ

فتفرق الناس وهم يتحدثون راحة الحديث، وكان ذلك الحدث يحيى بن أكرم التميمي،
فقال سفيان : هذا العلام يصلح لصحبة هؤلاء، يعني السلاطين . اهـ

هذا كل ما علمه عن حدائث يحيى بن أكرم . وهي حدائث تبشر بما سيكون لهذا
الباشي من مكانة وفود حديرين بما وهبه الله من دكاء وسرعة خاطر ، وقوة قلب وسلطنة
لسان . تلك المخايل كانت واضحة فيه ، وقد جعلته حديث حاصري مجلس سفيان ، وحملت
سفيان على أن يقول عه . هذا العلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيراً الى ولاية الأحكام) !
لقد صدقت الأيام حَدْسَ سفيان فيه ، فقد انحدرت يحيى في سِلْكِ الْقُصَاةِ صَغِيرًا
لِحَاثَتِهِ ، ثُمَّ دَرَجَ فِي مَنَاصِبِ الْقَضَاءِ حَتَّى تَوَلَّى أَسْمَى مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ ، تَبَوَّأَ مَنَاصِبَ قَاضِي
القِصَاةِ ، وَمَنَاصِبِ الْوِزَارَةِ لِلْأُمُومِ ، مَطُورًا إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَا تَوَلَّاهُ مِنَ الْمَنَاصِبِ بِالْتَجَلَّةِ
وَالْإِكْرَامِ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ .

ونحن ذاكرين لك حياته وما تَوَلَّاهُ مِنْ مَنَاصِبَ ، وَمَكَانَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ ، وَمَا كَانَ
مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ الْحَزْمِ وَحَسَنِ السِّيَاسَةِ ، وَأَقْوَالِ النَّاسِ فِيهِ وَفِي أَحْلَاقِهِ ، وَوَجْهَةِ نَظَرِ كُلِّ
فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ فِيهِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْ مَصَادِرٍ تَارِيخِيَّةٍ وَأَدَبِيَّةٍ ،
مُنْبَهِينَ عَلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا مِنْ خِلَافٍ كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ .

أَوَّلُ عَمَلِ تَوَلَّاهُ :

أَمَّا أَوَّلُ عَمَلِ تَوَلَّاهُ فَيُحَدِّثُنَا عَنْهُ ابْنُ طَلْفُورٍ يَقُولُهُ : « قَالَ حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ الْأَنْجَمِيُّ ،
قَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا كَانَتْ سَبَبَ يَحْيَى بْنِ أَكْرَمٍ ؟ قُلْتُ : لَا وَإِنِّي أَحَبُّ أَنْ أُعْرِفَهُ .

قال : يحيى بن حاقان هو وصّله بالحس س سهل وقتربه من قلبه وكثره فى صدره ، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استورره المأمون فعمل عليه . وحذثنى عبد الله س أبى مروان الفارسيّ ، قال : كان ثَمَامه سبب يحيى س أكرم فى قضاء البصرة مرتين وسبب تحلّصه من الخادم الذى أمر بتكشيفه بالبصرة ، ويقال إنه قطع حُصْبَتَه فى تعذيبه بالقصب اه .

ويقول ابن حلكان فى سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يؤتّى رجلا القضاء ، فوصّف له يحيى س أكرم فاستحصره ، فلما حصر دخل عليه ، وكان دَمِيم الخلق فاستحقّره المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى فقال . يا أمير المؤمنين سلّنى إن كان القصد علمى لا حلقى ، فسأله المأمون المسألة المعروفة والميراث والمسئلة المأمونية ، وهى أروا وبنتان لم تُقسم التركة حتى ماتت إحدى البنّتين وحلّقت من فى المسألة ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، الميت الأول رحل أم امرأه ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر لنا ابن حلكان بعد ذلك قولا عن تاريخ بغداد للحطّيب . أن يحيى بن أكرم ولى قضاء البصرة وسهه عشرون سنة أو نحوها ، فاستصعّره أهل البصرة فقالوا : كم سنّ القاصى ، فعلم أنه قد استصعّر فقال . أنا أكبر من عتّاب بن أسيد الذى وَحّه به البّيّ صلى الله عليه وسلم قاصيا على مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من مُعَاد س حلّ الذى وحّه به البّيّ صلى الله عليه وسلم قاصيا على اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سور الذى وَحّه به عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قاصيا على أهل البصرة ، فجعل جوانه احتضاها .

قد عَرَفْتَمَا دكرناه عن ابن طيفور المعاصر ليحيى وعن ابن حلكان أن بين روابقى المؤرّخين فى سبب اتصال يحيى بالقضاء خلافا ، فابن طيفور يروى لنا أنه اتصل أولا بالحس س سهل نائب الخليفة المأمون فى بغداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وإن خلكان يروى لنا أنه اتصل بالمأمون وبعد أن امتحنه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما .

يُخَيَّلُ إلَيْنَا أَنَّ كُلَّتا الرِوَايَتَيْنِ صَحِيحَةٌ، حُصُوصًا إِذَا دُكِرَ مَا رَوَاهُ ابْنُ طَيْفُورٍ مِنْ أَنَّ ثَمَامَةَ كَانَ سَبَبَ يَحْيَى بْنِ أَكْرَمٍ فِي قَضَاءِ الْبَصْرَةِ مَرَّتَيْنِ، إِذْ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ تَوَلِيَّتُهُ قَضَاءَ الْبَصْرَةِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى كَأَنَّ عَنْ طَرِيقِ اتِّصَالِهِ بِالْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ، وَأَنْ تَوَلِيَّتُهُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ كَأَنَّ عَنْ طَرِيقِ اتِّصَالِهِ بِالْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ، وَأَنْ مَا دُكِرَ ابْنُ حُلَكَاكٍ فِي تَارِيخِهِ مِنْ اسْتِصْفَارِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ لَهُ ثُمَّ احْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ بِمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا فَعَلَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى .

وَبِهَذَا التَّحْلِيلِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ مَا يَدْكُرُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَنَّهُ عُزِّلَ مِنْ قَضَاءِ الْبَصْرَةِ لِأَمْرِهِ بِتَعْذِيبِ حَادِمٍ مَالِقَصَبٍ بَعْدَ تَكْشِيفِهِ حَتَّى قَطَعَتْ حَصْبَتُهُ، ثُمَّ مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ أَنَّهُ عُزِّلَ لِقَوْلِهِ أَيْبَاتَا مِنْ الشَّعْرِ تَغْزَلًا فِي أَيْ مَسْعَدَةٍ، وَكَأَنَّ عَلَى نَهَايَةِ الْحَمَالِ .

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ، فَحَسَّ زَرْحُ أَنَّهُ تَوَلَّى قَضَاءَ الْبَصْرَةِ مَرَّتَيْنِ : الْأُولَى عَنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ ثُمَّ عَزِّلَ لِأَحَدِ السَّبَبَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ أَوْ عِبرَهُمَا مِمَّا لَا تَقْطَعُ بِهِ ، وَالثَّانِيَةِ عَنْ طَرِيقِ الْمَأْمُونِ .

بَقِيَ شَيْءٌ آخَرُ مِمَّا يَرَوِيهِ ابْنُ حُلَكَاكٍ زَيْدٌ أَنْ نَلَفَتْ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ، فَقَدْ يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ التَّنَاقُضِ أَوْ السُّهْوِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَرَوِي لَنَا أَنَّ يَحْيَى حِينَ وُلِّيَ قَضَاءَ الْبَصْرَةِ كَانَتْ سَنَةُ نَحْوَ عَشْرِينَ سَنَةً وَأَنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ اسْتَصْفَرُوهُ فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ وَعُمَرُ . وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ تَوَلِيَّتُهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ أَمْ عَنْ طَرِيقِ الْمَأْمُونِ فَهِيَ لَا بَعْدَ أَوَائِلِ الْقُرْنِ الثَّالِثِ الْهَجْرِيِّ، ثُمَّ يَذْكُرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَوَلَّى مَالِئَةَ سِتِّينَ أُمَّةً وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَقَبْلَ غُرَّةِ ثَلَاثِ وَأَرْبَعِينَ وَعُمُرُهُ ثَلَاثُ وَثَمَانُونَ سَنَةً . إِذْ مَهْمَا مَالَعْنَا فِي سَنَةِ مِائَتَيْنِ مَعَ رِوَايَةِ ابْنِ حُلَكَاكٍ نَقْلًا عَنْ تَارِيخِ بَغْدَادٍ مِنْ أَنَّهُ تَوَلَّى قَضَاءَ الْبَصْرَةِ وَسَنَةَ نَحْوَ الْعِشْرِينَ فَلَنْ يَبْعُدَ بِهِ السِّتِينَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ التَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا يَقُولُهُ ابْنُ حُلَكَاكٍ مِنْ أَنَّهُ تَوَلَّى وَعُمُرُهُ ثَلَاثُ وَثَمَانُونَ سَنَةً ! وَلَوْ فَرَضْنَا صَحَّةَ مَا يَقُولُهُ ابْنُ حُلَكَاكٍ فِي عُمُرِهِ حِينَ الْوَفَاةِ ، وَفَرَضْنَا أَيْضًا صَحَّةَ مَا نَقَلَهُ عَنْ تَارِيخِ بَغْدَادٍ مِنْ أَنَّهُ تَوَلَّى قَضَاءَ الْبَصْرَةِ وَسَنَةَ نَحْوَ

العشرين لكانت توليته قضاء البصرة في الصف الأول من عهد الرشيد لا في عهد المأمون ، وهو خلاف المجمع عليه وحلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت ستة اثنتين ومائتين .

ثم رى يحيى بعد أن عُزل من قضاء البصرة في بغداد ثاوي في دار شادها له صديقه الحميم ثمامة بن أشرس بحضرته ؛ وكان ثمامة بن أشرس هذا عالما متكلما سليط اللسان قوى المحجة ذا آراء في الاعتزال واليه تنسب الطائفة الثمامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محببا اليه ، موثوقا به منه ، فكان حير وسيلة لاتصال صديقه يحيى بالخليفة المأمون ، ثم عرف المأمون ما في يحيى من علم وذكاء وحرم فأدناه اليه وقربه منه وحصنه برعايته وعطفه حتى علب عليه دون الناس جميعا .

ويحدثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكرم قال للمأمون : أظهر لكل قاص ما تريد أن توليه إياه وأمره بكتابه ، ثم أظفر أيفعل أم لا ، وصنع عليهم أصحاب أحمار ، فقال له المأمون : أولئك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يوليه ، فشاع ذلك كله إلا حبر يحيى فإنه أتاها أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قضائها ، فدمتهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن الى البصرة^٩ قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتاب شيء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه ، قال : صدقت وحده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكرم كان قاضي القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل تَوَزَّر له لم يدركه الفجرى في وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيما نقلناه عنه أن المأمون استوزره . فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طاحه بن محمد بن جعفر إذ يقول في آحروصفه لفضل يحيى بن أكرم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون من برع في العلوم فعرف من حال ابن أكرم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيى بن أكرم . ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد . على أن قد عددناه من وزراء المأمون فى كلمتنا المجملّة عن وزرائه .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان يحيى بن أكرم قاصى القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر النافذ فى الدولة ، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكى تقدّر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيى بن أكرم نفسه . قال :

«بِت ليلة عد المأمون فانتبه فى بعض الليل فطّق أنى نائم ، معطش ولم يدعُ الغلام لئلا أنبّه ، وقام متسللاً حائثاً هادئاً وحُطاه حتى أتى البرّادة ، فشرّب ثم رجع وهو يُخفى صوته كأنه لصّ حتى اصطجع ، وأحدّه سُهمال فرأيتّه يجمع كفه فى مهِ كى لا أسمع سُعاله ، وطلع الصجر فأراد القيام وقد تناومت فصَبَرَ أنى أن كادت تموت الصلاة ، فتحرّكت ، فقال : الله أكبر ، يا علام نَبّه أبا محمد . فقلت : يا أمير المؤمنين رأيت بعينى جميع ما كان الليلة من صنيعك وكذلك جعلنا الله لكم عيداً وجعلكم لما أربابا » .

وهالك حكاية أخرى تدلّ على أدب المأمون وحُظوة يحيى لديه ، وهى مَرْوِية عن ثُمّامة ابن أشرس صديق يحيى وثقة المأمون . قال ثُمّامة : « كان يحيى بن أكرم يماشى المأمون يوماً فى سِتان موسى والشمس عى سار يحيى والمأمون فى الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحدّثان حتى طلع حيث أراد ، ثم كرّ راجعا فى الطريق التى بدأ فيها ، فقال ليحيى : كانت الشمس عليك لأنك كُتّ عى سارى وقد نالت منك ، فكى الآن حيث كُتّ وأتحول أنا الى حيث كُتّ ، فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين لو أمكننى أن أقيك هَوّل المطلع بنفسى لمعلت ؛ فقال المأمون : لا والله ما بُدّ من أن تأخذ الشمس منى مثل ما أخذت منك ، فتحوّل يحيى وأحد من الظل مثل الذى أحد منه المأمون » اه .

ولم يزل فى هذه الرعاية من المأمون والحظوة لديه ، يفوّض اليه المأمون جليل الأعمال ويرسله فى مهامّ الأمور ، حتى كانت سنة ٢١٦هـ إذ نرى المأمون بمصر يَسَخِّط على يحيى بن أكرم الذى كان فى حاشيته ويرسله مفصوباً عليه الى العراق ، ثم يبلغ من حَقِّقه عليه أن يكتب

في وصيته الى ولّى عهده المعتصم محدّرا إياه من اصطلاح الوزراء والركون اليهم ضاربا بيحيى ابن أكرم مثلاً في سوء السيرة وقبيح الفعال . ونحى تلقى على مسامعك ما كتسه في وصيته متعلقا بيحيى : « ولا تتخذن بعدى وزيراً تلقى اليه شيئاً ، فقد علمت ما نكبتى به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وخسث سيرته ، حتى أمان الله ذلك منه في صحة منى ، فصرت الى مفارقتة قالياً له غير راض بما صرع في أموال الله وصدقاته ، لا حراه الله عن الاسلام حيرا » .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيى بن أكرم بعد ذلك ، وتتقلب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله ، فلما عزل القاضي محمد بن القاصى أحمد بن أبى دؤاد فوض ولاية القضاء الى القاضي يحيى وحل عليه خمس حلق ، ثم عصب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وألزم مرله . ثم حج بعد ذلك وأحد معه أخته واعتزم أن يحاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، فدا له في المحاوره ورحع يريد العراق ، فلما كان بالرّيدة في طريقه الى العراق واقفه المية يوم الجمعة منتصف ذى الحجة سنة أربعين ومائتين ، وقيل عمرة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هناك . وقد قدّما لك ما ذكره ابن خلّكان في عُمره حين الوفاة وشفعاه بما يمكن أن يكون في كلامه من تناقص أو سهو أو تحريف .

كان يحيى بن أكرم فقيها عالماً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، وقد عدّه الدارقطنى في أصحاب الشافعى رضى الله عنه ، راوياً للحديث ، أحداً بحظ كبير من كل فنّ ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ويروى عنه الترمذى وغيره من رجال السّنة وحفظة الحديث . وكانت له منزلة سامية لدى رجال الدين وعلماء الجماعة . ومما رفع منزلته لدى الناس جميعاً موقعه المشهور ، مع المأمون بما يدلّ على سعة علمه وقوة حجته وعظيم جراته . ذلك بأن المأمون رأى وهو في طريقه الى الشام جواز نكاح المتعة فوقف له يحيى موقفاً أكسبه حمداً أئمة الدين وشاءهم عليه . ونحن نرجى اليك هذا الحديث نقلًا عن ابن خلّكان . قال : « حدث محمد بن مصور قال : كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر فودى بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكرم لى ولأى العيباء : بكراً غدا اليه فإن رأيتما للقول

يحيى بن أكرم القاصي

وجها فقولا وإلا فأمسكا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك و
 متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضي
 أنهي عنها! ومن أنت يا جعل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله
 رضي الله عنه! فأومأ أبو العبياء إلى محمد بن مصور وقال رجل
 ما يقوله بكلمة نحن! فأمسكا. فجاء يحيى بن أكرم مجلس وحلسا. يحيى: مالى
 أراك متعيرا؟ فقال: هو عم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام. وما حدث
 فيه؟ قال: الداء تحليل الربا، قال: الربا؟! قال: نعم، المتعة ربا، ال. ومن أين قلت
 هذا؟ قال: من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال
 الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِعُرْوَجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، فسن استعنى وراء ذلك فأولئك هم العادون
 يا أمير المؤمنين، روحه المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهي الروح التي عند الله ترث
 وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هدي من العادين،
 هذا الزهرى. يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن أبي محمد بن الحنفية عن أبيهما
 بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
 أنأدى بالنهي عن المتعة ومحريمها سد أن كان قد أمر بها، فالتفت إليها المأمون فقال:
 أمحفوظ هذا من حديث الزهرى؟ قلنا: نعم يا أمير المؤمنين رواه حمادة منهم مالك
 رضي الله عنه، فقال: أستغفر الله! مادوا بتحريم المتعة فادأوها. “ اه

أما آراء يحيى الكلامية فإن المؤرخ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام، ويحتاج إذا أراد
 أن ييسر رأيا فيها إلى شيء غير قليل من الأمانة والروية. ذلك بأن يحيى كان يقف موقفا
 قريبا من الفتنة العيفة التي كانت مصطرمه في وقته، فهو قاصي قصاص المأمون، ومنزلته منه
 منزلة يُقْبَطُ عليها، والمأمون زعيم القائلين بخلق القرآن، وهي مدعة اعتزالية، ثم هو في الوقت
 نفسه مرضى عنه من الجماعة وأهل السنة، ثم نراه حينما يقف موقف المعارضة من صديقه

شرس المقرئ وزعيم الطائفة الثمانية، معارضة تشتد في بعض الأحيان

رة . وأنت تعلم من هو ثمانية وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به، ثم تعلم

نفسه وكم له من يدٍ عليه . أصف الى كل هذا ما يرويه اس خلكان ما كانت

من أنه آ، كلام الله، فمن قال : إنه محلول يستتاب، فإن تاب وإلا

صرت ع ن المأمون زعيم القائلين بذلك .

فهل يمكن ب إبداء رأى في عقيدة يحكي الكلامية؟ وهل يمكن أن تكون كل

هذه الروايات . يتج مع ما يبدو عليها من شه تناقص ؟

نظن أنه استعمال شيء من التحليل يمكن إبداء الرأى، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك

بأن يمي ب أكم كان كيسيًا حازما ، حفيف الروح حلو اللسان ، فاستطاع بذلك أن

يدارى الناس جميعا، خاصتهم وعامتهم، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حوور وخودل

فاشتد أحيانا فإنما يكون ذلك الى الحد الذى لا يمس مكانته ونفوده، فبقى في حطوة

لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل خطوة ، وكان فى الوقت نفسه بموضع الكرامة

والرضا من أهل السنة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن ندى شيئا في رأيه . وكل ما يمكن أن يستنتج مما تقدم أنه كاد

حسن التقية، بارعا في المداراة والمصانعة والرّياء . وكانت هذه الخلّة من أظهر تميّزات العصر،

فالخليفة يدارى فيقابل قاتل أخيه بالترحاب، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن

عمره استعبرها كانت إجابته : «قتلنى الله إن لم أقتل طاهرا»، ثم هو بعد يوصى صاحب

أخباره بالرّياء، ويعتد لما أهل الرّياء في عصره، وهالك مثلا قاصى قصاته كما ترى من سيرته .

ولكن هل من الممكن أن تستسيغ مشاقته العبيقة أحيانا في محاوره صديقه ومصططعه

نمّاة بى أشرس ، مع ما فى هذه المشاقّة من نُكْزَان للحميل ومن تعريض نفوده للصّياح ،

نون أن يكون على حُلف معه فى الرأى، ودون أن يميل الى صحّة ما يرويه المؤرخون من أنه

كان سليما من الدعة، يتحلل مذهب أهل السنة ؟

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبي دؤاد ويحيى بن أكرم في أخلاقهما وآرائهما ونفوذهما لدى الملوك فيقال: إن كليهما علب على سلطانه في عصره . ووصفهما بعض اللغاة وقد سئل عن أيهما أنبل فقال : كان أحمد يحدّ مع جاريته وآبنته ، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوّه .

سيرته :

أما سيرته فلم نر حلا في مركزه الديني والاجتماعي حامت حوله الرّيب والإشاعات مثّل ما حامت حول هذا القاضي ، ومع هذه الرّب والإشاعات فقد كان مرعى الجانب ، موفور الكرامة . ويظهر أن حلّ الناس حتى أحصّ أصدقائه به ، كانوا ينجحون الى تصديق هذه الإشاعات ، إلا أئمة الدين فقد كانوا يكبرونه ويسكرون أن يكون لهذه الاشاعات ظلّ من الحق ، فقد سئل أحمد س حبل عن هذه الإشاعات فأبكرها إنكارا .

ولعل الذي يفسر موقف رجال الدين من هذا الموقف ، وإنكارهم ما ينسب اليه من إشاعات ، موقف يحيى من المأمون يوم (المتعة) وعير يوم المتعة ، مما جعله في بطرهم بطلا من أبطال الدين ، وحليفا ممثله أن يكون تتحوّ من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدثنا ابن خلكان قلا عن ابن الأنباري أنه قال لرحل كان يأنس به ويمارحه : ما تسمع الناس يقولون في . قال : ما أسمع إلا حيرا . قال : ما أسألك لتركني . قال : أسمعهم يرمون القاضي . قال : فصحك وقال : اللهم عفرّا المشهور عما غير هذا .

ويقال : إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأحلى له مجلسا وأستدعاه ، وكان قد أسرّ الى علام حرّري أن يكون في خدمتهما وحده ، حتى اذا خرج المأمون عابث القاضي ، فلما استقرّ بهم المقام وخرج المأمون ، أحد العلام يعابث القاضي ، فسمع المأمون — وكان يستمع حديثهما — القاضي يقول : ” لولا أنتم لكنا مؤمنين “ فدخل عليهما منشدًا قول أبي حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وَكَا تُرَبِّحِي أَنْ نَرَى الْعَدْلَ ظَاهِرًا * فَأَعْقَسَا بَعْدَ الرَّهَاءِ قُنُوطُ
مَتَى تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ أَهْلُهَا * وَقَاصَى قُصَاةَ الْمُسْلِمِينَ يَلُوطُ

وقد قلنا : إن أحصَّ أصدقائه به كان يمنح الى تصديق هذه الإشاعات ، فقد قيل : إن صديقه أبا عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد انتهى بعد أن مات يحيى أن يراه في المنام ليعلم ما فعل الله به ! فأوحى اليه الأحلام أن الله عفر له بعد أن وجهه على تحليطه ، وأن يحيى حاج ربه بالحديث المشهور : « إني لأستحي أن أعذب ذا شيبة بالنار » فهل يستوحى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه من يعتقد براءته ! .

تأليفه :

يحدثنا المؤرخون أن يحيى بن أكرم ألف كتباً في الفقه ، وأخرى في الأصول ، وله كتاب أوردته على العراقيين أصحاب أبي حنيفة سماه : « كتاب التنبيه » . وهذا يؤيد ما قاله الدارقطني من أنه كان من أصحاب الشافعي .



(ز) إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

قد يكون حظ المعبين وأهل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرخين في العصور الإسلامية أكثر من حظ غيرهم ، وقد عُني المؤرخون بتسجيل حوادثهم وأحوالهم وإيقاعاتهم ، وما كان يقع بينهم من خلاف مدشؤه المافسة والحسد ، أو التقرب الى ذوى السلطان ، وما كان يتفق لهم من معاكمات لطيفة ، وبكات طريقه . وهذه العناية طاهرة من الكتب الكثيرة التي أُرصدت لهذه الحاجة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، وقد عثت الدهر بجل هذه الكتب ، ولم يبق منها إلا القليل ، وعلى رأس هذا القليل الباقي ، وهو المحطة في هذا الموضوع « كتاب الأغاني لأبي الرّج الأصفهاني » .

وقبل أن نعرض للكلام على إسحاق وتفصيل حياته ، نقرر أسا عاجزون كل العجز عن أن نخلو الحاجة القية من شخصيته ، فإن حلاء هذه الحاجة وكشفها لا يتسق إلا لرحل أوتي حظاً كبيراً من الموسيقى ، يستطيع به أن يقدر مواهب أهل الفن وما وقوا اليه من إحاده ، وزجو أن يتاح لإسحاق من يتوافر له هذا الخط ، ويحلوا لنا شخصيته القية ، ومبلغ

المدى الذى قطعه فى سبيل الكمال الموسيقى، كما أتيح "لبنهوفن" وغير "تهوفن" من أصحاب المواهب الكبيرة فى الموسيقى، من أبرز شخصياتهم العناية للباس، وأمان ما لعقوماتهم من آيات حالات فى الفن .

ولن يستطيع أحد مهما أوتى من مواهب، واتخذ من أسباب أن يحلو شخصية إسحاق الصيه، ما بقيت مصطلحات الموسيقى العربية مغلقة لم تفتح، وما بقيت تعاليمها أعازا لم تُحل .

واذ كان هذا هو موقفنا من الحاجة الصيه إزاء شخصية إسحاق، فلكن مؤرخين ليس غير . نُورد لك الحوادث كما رواها المؤرخون، مع تحليل ما نُوفق الى تحليله من أحلاقه وأعماله، ومقول :

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون بن هاشم بن نسيك . ووالده إبراهيم وهو ماهان ، وسبب سبته الى ميمون أنه كتب كتابا الى صديق له فعصونه : من إبراهيم بن ماهان فقال بعض إخوانه من فتيان الكوفة : أما تستحي من هذا الاسم ؟ قال : هو اسم أبى قال : فعبره ؛ قال : فكيف أصيره ، فأخذ الفتى الكوفى الكتاب فحما ماهان ، وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أسرة إسحاق من فارس ، من بيت شريف فى العجم ، كان هرب حده . ماهان من حور بعض عمال بى أمية نخرأح طولب بأدائه ، فنزل الكوفة . وأتم إبراهيم والد إسحاق من سات الدهاقين الذين هربوا كما هرب ماهان ، وتزوجها ماهان بالكوفة ، فولدت له إبراهيم ثم مات وسن إبراهيم ستان أو ثلاث فكمل إبراهيم آل حريمة س حازم ، ومن هذا صار ولأؤه الى تميم .

وقد سأل الرشيد إبراهيم عن السبب فيه وبن تميم فقال له : رَوْنَا يا أمير المؤمنين ، فأحسوا تربيتنا ، ونشأتُ فيهم وكان بيديا وبينهم رصاع فتولونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفتخر بأصله وبيته وكافى أبيه :

إذا كانت الأشراف أصل ومَصْبَى * ودافع صبي حازم وأبن حازم
عَطَسْتُ نَافِ شامح وتاولت : يَدَايَ الثَّرِيَا قَاعِدًا عَيْرَ قَائِمِ

وسبب قولهم الموصلى أنه لما اشتد إبراهيم وأدرك صحب الفتيان وأشتهى العناء
وطلبه، فاشتد أحواله عليه في ذلك، ولعلوا منه، فهرب إلى الموصل، وأقام بها سنة، فلما
رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان : مَرَحًا بالفتى الموصلى، فغلبت عليه .

ثم ما زال إبراهيم يأخذ بأساب العناء حتى حَدَقَه، وأتصل بأحد عمال المهدي، ثم
بلغ المهدي أمره، فطلبه إليه، وبقى بعد ذلك متصلًا بالخلفاء ورحلات الدولة حتى توفى
في عهد الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

أما ابنه إسحاق الذي عَقَدَا هذا الفصل لتحليل شخصيته، وللكشف عن مواهبه
وأخلاقه، فوُلِدَ سنة ١٥٠ هـ . ولم يظهر شأنه، وتَمَّ منرائته إلا في أيام الرشيد، ثم أحد تجرئه
يتألق في سماء الخلافة العباسية أيام الرشيد والأُميين والمأمون والمعتمد والواثق، ثم توفى
سنة ٢٣٥ هـ في صدر أيام المتوكل . وكان يحلُّ من هؤلاء الخلفاء جميعاً بموضع العطف
والتحلية، وسند كرشينا من صلته بكل حليفة، وما كان يُغْدِقُه عليه كلُّ حليفة من
عطف ومال .

نشأته :

كان حظ إسحاق من وسائل التهذيب والتثقيف حيرا من حظ والده إبراهيم، وإن
والده نشأ يتيمًا فكَمَلَه غير أبيه حتى إذا شَت وترعرع، وطهر ميله إلى نوع خاص من
الصون، لم يجد من القائمين بأمره ومن لهم سلطانٌ عليه من يقدّر استعداداته الفطرية،
وتزاعياته النفسية، حتى أصطر من إلحاح صمغ أحواله عليه، ومطالبهم إياه أن يترك العناء،
وآلا يأخذ في شيء من أسباب الموسيقى أن يهيم على وجهه في الأرض، في سبيل تحقيق
ما تميل إليه نفسه، ويهيئه له استعدادُه .

(١)
أما إسحاق فقد نشأ في بيت أبيه، وشب وترعرع ببيته، وقد وحده من أبيه الذي فهم الحياة ولدعته الأمها، من يهتم بتثقيفه، ويحترم نزاعاته الفطرية، وميوله المسية . وإسحاق بعد ابن رحل أثير عند الخلفاء، مقدم لدى رجال الدولة، وفي وفرة من الثراء، وحظ عظيم من الترف، مما يصله به الخلفاء وغير الخلفاء، فاستطاع إسحاق لجاء أبيه وماله أن يختلف إلى حلة العلماء، ويكر رحال الفن، وأب يرتاد حير البيئات والأوساط التي لا يقل أثرها في تهذيب النفوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظ الموسيقى والآداب أن تنهيا الأسباب وتستوى الوسائل لرحلها القدر وابعثها العظيم .

وبجئنا إسحاق عن شيء من تربيته وتثقيفه، فيقول : «أقمت دهرًا أغلُس كل يوم إلى هشيم ، فأسمع منه ثم أصير إلى الكسائي أو إلى الفراء فأقرأ عليه جزءًا من القرآن، ثم آتي منصور زرل، فيصاربي طريقتين أو ثلاثًا، ثم آتي عائكة بنت شهدة، فأخذ منها صوتًا أو صوتين، ثم آتي الأضمي وأما عبيدة، فأناشدهما وأحادثهما وأستفيد منهما، ثم أصير إلى أبي، فأعلمه بما صغت وأحدث، وأتغذى معه وأروح معه عشاء إلى أمير المؤمنين» .

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فترة من فترات نشأته وتثقيفه، أنه كان يختلف كل يوم إلى رحال الحديث، ثم رحال القرآن والحو، ثم أهل الفن الضاربين على الآلات والملحين، ثم يذهب بعد ذلك إلى أهل الأدب والرواية، فيناشدهم ويحادثهم، ويستفيد منهم، ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كله يخبره بما صغ وأخذ، حتى إذا جاء المساء ذهب مع أبيه إلى دار الخلافة، وهي — أيده الله — خير مُتَدَي لرحال العلم والأدب والسياسة في الدولة .

هذه التربية المنظمة، والبيئات الراقية، أخرجت من طفل إبراهيم الموصلي : ذلك الطفل الذكي النشيط، رحلا يصفه صاحب الأغاني بقوله : «موصعه من العلم، ومكانه

من الأدب، ومحلّه من الرواية، وتقدّمه في الشعر، ومنزلته في سائر المحاسن، أشهر من أن يُدّلّ عليها بوصف، وسترى في مطاوي ما نوره عليك من أحاديثه، ونوادره أنه ما عالج علما من العلوم، أو فنا من الفنون، إلا برّع فيه وبرّز.

فاما الغناء، فحدثنا أبو الفرج صاحب الأعالي أنه كان أصغر علومه، وأدنى ما يؤسم به، وإن كان العال عليه وعلى ما كان يُحسسه، فإنه كان له في سائر أدواته، نظراء وأكفاء، ولم يكن له في هذا بطير لِحَقَّ مِمَّ مَصَى فيه، وسقى من قد بقي، وسهل طريق العناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا، وقدوتهم ورأسهم ومعلمهم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد له المؤاقر والمُفارق، على أنه كان أكره الناس للغناء، وأشدّهم بُغْضا له، لثلا يدعى عليه ويُسمّى به.

وهذه الجملة الأخيرة، وهي أنه كان من أكره الناس للغناء الخ، تدلّا بوضوح على نفسية إسحاق ومطامحه من حجة، وعلى ما كان للغنين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومنزلة من حجة أخرى، كما تدلّا على أن المغنين وأهل الموسيقى، كانت منزلتهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون مدركة الرواة وأهل الأدب، من الفقهاء ورجال الحديث، وتدلّا أيضا على أن إسحاق كان على النفس، بعيد الهمة، يكره أن يتصل بهنّ يقعد به دون ما هو حليق به من منزلة ومكانة، ومادا يصعب لإسحاق وقد أُوتِيَ موهبه لم يؤتَها أحدٌ غيره، وهي موهبة تُتَابَى إلا أن تُعلَنَ نفسها، كما يُعلَنُ الزهر نفسه بأريجِه، والقُمُريّ بهديله، ومادا يُجِدَى عليه كرهه للغناء ونفصه له، وقد يطالبه به من لا يرى سبيلا الى مخالفته.

ولقد كان إسحاق في كراهيته للغناء صادق الشعور، صادق الحسّ، فإنه لم يحُلْ بين المأمون وبين أن يُؤَيِّيه أسمى المصائب إلا شهرته بالغناء، إذ يقول المأمون: «لولا ما سبق لإسحاق على أليسه الناس وشهرته عندهم بالغناء، لوليتُ القصاء بحصرقي، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القصاة». وقد يكون من حق إسحاق أن يكره الغناء، ويألم لارتباطه به، إذ يرى المناصب السامية في الدولة، يتزوّها قوم

هم دونهم فيما وصلوا إليها به، وهم وصلوا إليها بالعلم، وقد كان هو عالمًا بالغة والحديث وعلم الكلام، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس، وكان لا يدع فرصة دون أن يُعلِّمَ مُحَظَّهُ وما ناله من طلم، فقد حدثنا ابن حلكان أن محمد بن عطية العَطَوِيّ الشاعر قال: كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكرم، فوالى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأحد ياطر أهل الكلام، حتى انتصف منهم ثم تكلم في الفقه فأحسن، وقاس واحتج، وتكلم في الشعر واللغة فهاق من حصر، ثم أقبل على القاضي يحيى فقال: أعر الله القاضي، أي شيء مما طارت فيه وحكيته نقص أو مطنّ، قال: لا، قال: فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأنتسب إلى قن واحد، قد اقتصر الناس عليه، يعني الفناء، قال العَطَوِيّ: فالتفت إلى القاضي يحيى، وقال لي: الجواب في هذا عليك، وكان العَطَوِيّ من أهل الحدل، فقال للقاضي يحيى: نعم—أعر الله القاضي—الجواب على، ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، أنت كالعزّاء والأخفش في النحو؟ فقال: لا، فقال: أنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعيّ وأبي عبيدة؟ قال: لا، قال: فأنت في علم الكلام كأبي الهذيل العلاف والطّام اللّحيّ؟ قال: لا، قال: فأنت في الفقه كالقاضي؟—وأشار إلى القاضي يحيى— فقال: لا، قال: فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نؤاس؟ قال: لا، قال: فمن هاهنا تُسبِت إلى ما تُسبِت إليه، لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهلنا، فصيحك وقام واصرف، فقال القاضي يحيى للعَطَوِيّ: لقد وقيت المجنة حقها، وفيها طلم قليل لإسحاق، وإنه ممن يقلّ في الزمان نظيره. اهـ.

ومهما يكن من شيء فقد اشتهر إسحاق بالفناء دون غيره، مما كان يُحسنه من سائر العلوم، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه، وعلوّ نفسه، وُعد همتته، مهيباً كريماً، حمّ الأدب، غفيف اللسان. أما عن كرمه فيروى لنا صاحب الأغاني، أنه كان يُجرى على أبي عبد الله الأعرابي في كل سنة ثلاثمائة دينار، وأن ابن الأعرابي هدا وقف على

المدائني يوماً؛ فقال له المدائني : الى أين يا أما عبد الله ؟ فقال : أمضي الى رحل هو كما قال الشاعر :

نزىي ماشباحنا الى ملك * نأخذ من ماله ومن أدبه

قال : ومن ذلك ؟ قال : إسحاق بن إبراهيم ! .

وإنا نسوق اليك قصة أخرى وهي مع دلالتها على شغف إسحاق بالعلم ، والحرص على استنباته ، تدل أيضاً على سخاء نفسه وكرمه .

قال إسحاق : جئت يوماً الى أبي معاوية الضير، ومعى مائة حديث، فوحدت حاجبه يومئذ رجلاً صيرياً، فقال لي : إن أبا معاوية قد ولّاني حِجَابَتَهُ لِيَفْعَنِي، فقلت له : معى مائة حديث، وقد جعلتُ لك مائة درهم اذا قرأتها، فاستأذن لي، فدخلتُ على أبي معاوية فلما عرّفني دعاه، فقال له : أخطأت، إنما جعلتُ لك ذلك على الصعفاء من أصحاب الحديث، فانما أبو محمد وأمثاله فلا، ثم أقبل على يُرْعِنِي في الإحسان اليه، ويذكر صفعه، وعيابه به، فقلتُ له : احتكم في أمره، فقال : مائة دينار، فأمرتُ الغلام بإحضارها، وقرأتُ عليه ما أردتُ والصرفت . وهذه القصة تدل على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الهيثم : كنت يوماً حالساً «بسرّ من رأى» عند إخوان لي، وكان طريق إسحاق في مضيئه الى دار الخليفة، ورجوعه علينا، بخاف في الغلام يوماً، وعدى أصدقائي، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصليّ بالباب، فقلتُ : يدخل، آوفى الأرض من يُستأذن عليه لإسحاق، فذهب الغلام يأذنه، وبادرتُ الى تلقيه، فدخل وحلّس مُبَسَّطاً آتساً، وعرّضاً عليه ما عندنا، فأجاب الى الشراب، فأحضروا بيذاً مُشمساً، فشرب منه، ثم قال : أتحبون أن أغنيكم؟ قلنا : إى والله ! أطال الله لقاءك، إنا نُحِبُّ ذلك؛ قال : فلم لا تسألوني؟ قلنا : هَبْنَاكَ، قال : فلا تفعلوا، ثم دعا مُود، فأحضروا فاندفع يُقْنِي، فشربنا وطربنا، فلما قرّغ قال : أحسنت أم لا ؟ قلنا : هَلْ والله ! جعلنا فداك، لقد أحسنت، قال : فما

منكم أن تقولوا لى أحسنت^٩ قلنا : الميثة والإجلال لك ، قال : فلا تعملوا هذا فيما تستأنفون ، فإن المقتى يحب أن يقال له : أحسنت ، ثم غنى :

حليلى هباً تضطيطح بسواد * وزرو قلوأ هامهت صوادى

وقولا لساقيا زياد يرقها * فقد هدّ بعض القوم سقى زياد

فقلت : يا أبا محمد ، من هو زياده قال : علامى الواقف على الباب ، أدعه يا علام ، فدخل فإذا هو غلامٌ حلايى^(١١) ، قيمته عشرون ديناراً أو نحوها ، فقال : أتسالوننى عنه ، فأعرفكم إياه ، وأدحله اليكم ، ويخرج كما دخل^١ وقد سمعتم شعري فيه وعانى ! أشهدكم أنه حرٌ لوجه الله تعالى ، وقد زوّجته أختى فلانة ، فأعيوه على أمره ، قال : فلم يخرج حتى أوصلنا اليه عشرين ألف درهم . ولعل في هذه القصة المتقدمة أيضاً ، ممقعا لك بما كان لإسحاق في نفوس الناس من هبة وكرامة .

منزلة إسحاق في الغناء :

قدّمنا لك أننا نعتز بالمعز عن أن نحلو الناحية الميثة من حياة إسحاق ، وأن ذلك لا يتسقى إلا لرحل أوتى من المواهب الفنية حظاً عظيماً ، وقدّمنا لك أن إسحاق كان يُحسّن كثيراً من العلوم إحساناً ، قل أن يتسقى لغيره ، وأنه كان مع إحادته الغناء وتبريزه فيه ، وسقّه أقرانه ، يكرّه أن ينتسب اليه أو يُسمّى به ، لأنه كان على النفس ، بعيد مرامى المهمة ، ويرى أن انتسابه الى الغناء يقصر به عن بلوغ مرامى همته . والآن نقول : إنه كان مع هذا شديد الغيرة على الغناء ، كثير الدبّ عنه ، وله العدر ، فإن صاحب الفن أيا كان الفن ، لا يحد الى الصبر سبيلاً ، اذا عيبت به العابثون أو تهجم عليه المتهجمون .

وإذا كنا نعتز بالمعز عن أن نحلو الناحية الفنية لإسحاق ، فإن ذلك لا يعمما من أن ننقل اليك شيئاً مما رواه المؤرخون ، لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الخلفاء ، ورجال الدولة ، وأصحاب الفن ، لبوعه في فنه ، وتبريزه فيه ، ولتعلم — أيضاً — ما كان

(١) الخلامى : الولد بين أبرين أسوداً بيض .

يُبديه من مُلاحظات - مَلَعَ ما كان له من دِقَّة حِس ، وقُوَّة دَوَق ، وَحِدَّة شَعُور ،
وسلامة فِطْرَة .

ويعمد بنا الكلام عن القَصْد، لو أطلقنا لأنفسنا العِنان، في إيراد كل ما رآه حسا
وطريفا من أحاديث إسحاق ومخالسه ، وما كان يتفق له من مفاكهات وبوادر ، لذلك
نكتفي بإيراد بعض حوادثه ، مما يتصل بالخلفاء الذين عاشهم ، وما كانوا يحيطونه به من
عطف ورعاية .

وقدما لك أن إسحاق طهر في عهد الرشيد ، وتَوَقَّى في صدر أيام المتوكل ، فلندكر لك
شيئا من تاريخه ، وبادره مع كل خليفة من حلفاء هذه الفترة من العصر العباسي .

أما الرشيد فقد كان يُلقَّبه من إغماحه به ، بأبي صَهْوان ، ولقبه «إسحاق أبو محمد» كما
رأيت ، وقد بلغ من إغماحه به أن استأثر به لنفسه ، ونهاه عن أن يُفنى أحدا غيره ، ويحدثا
إسحاق عن هذا بقوله : نهاني الرشيد أن أعنى أحدا غيره ، ثم استوهني حمير س يحيى ، وسأله
أن يأذن له في أن أعنيه ففعل ، واتفقا يوما عند حمير وعنده أحوه الفصل ، والرشيد
يومئذ عقيب عِلَّة قد عوفي منها ، وليس يشرب ، فقال لي الفصل : انصرف الليلة ، حتى
أهَب لك مائة ألف درهم ، فقلت له : إن الرشيد نهاني أن أعنى إلا له ولأخيك ، وليس
يخفى عه خرى ، وأنا مُتَّهم بالميل اليكم ، ولست أتعرض له ولا أعرضك ، فلما بكهم
الرشيد ، وقال : إياه يا إسحاق تركتني بالرَّقَّة ، وحلست بغداد تُعنى الفصل بن يحيى ، خلفت
بجياته إنني ما جالسته قط إلا على الحديث والمذاكرة ، وإنه ما سمعني قط إلا عند أخيه
وحلفته تربة المهدي أن يسأل عن هذا في دارهم من نسائهم ، فسأل عنه فحدثت مثل
ما ذكرته وعرف خبر المائة ألف الدرهم التي بذلها لي ورددتها ، فلما دخلت عليه ضحك ،
ثم قال : سألت عن أمرك ففرقتك مثل ما عرفتني ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ،
عوصا عما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعي : دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يوما على الرشيد، فرأياه لقس^(١)
القس فأنشده إسحاق :

وأمره بالبحل قلت لها أقصرى * فذلك شيء ما إليه سبيلُ
أرى الناس حُلَّانَ الكرام ولا أرى * بجيلا له حتى المات حليلُ
وإني رأيتَ البحل يُرى بأهله * فأكرمْتُ نفسي أن يُقالَ بجميلُ
ومن حير حالات القتي لو علمته * ادا مال حيرا أن يكون يُبيلُ
فعالي مَعَالِ المُكْثِرِينَ تَحَلَّأَ * ومالي كما قد تَعَلَّيَبَ قليلُ
وكيف أخاف الفقرَ أو أحرَمَ الغنى * ورأى أمير المؤمنين حَمِيلُ

قال فقال الرشيد : لانحف إن شاء الله، ثم قال : لله درُّ أبيات تأتيها بها، ما أشدَّ
أصولها، وأحسنَ فصولها، وأقلَّ فصولها، وأمر له بحمسين ألف درهم، فقال له إسحاق :
وَصَفُّكَ والله يا أمر المؤمنين أحسنُ منه ، فعَلَّامُ آخذِ الجائزة؟ فصحك الرشيد،
وقال : آجعلوها مائة ألف درهم، قال الأصمعي : علمت يومئذ أن إسحاق أحدقُ بصيد
الدراهم مني ! .

وكان من أشدَّ مفاصي إسحاق في العياء إبراهيم بن المهدي أحو الرشيد الذي كان يعتزُّ
عليه بجأهه ، وبأله من حظِّ في الص كبير، ومن أشدَّ الملاحاة التي حدثت بينهما، ما كانت
في مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماءؤه وحاصته، وميهم
إبراهيم بن المهدي، فقال الرشيد عن :

أعادل قد نُهِيتُ فما انتهيتُ * وقد طال العتاب فما أروعيتُ
أعادل ما كبرتُ وفي مَلَهَي * ولو أدركت غايَتَكَ آتَنَيْتُ
شَرِبْتُ مُدَامَةَ وَسَقَيْتُ أُخْرَى * وراحَ المُتَشَوُّونَ وما أَتَنَشَيْتُ

فغيته، فأقبل على إبراهيم بن المهدي فقال لي : ما أصبت يا إسحاق ولا أحسنت، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسسه، وإن شئت فغته، فإن لم أجذك أنك مخطئ فيه مد ابتدائك الى اسهائك، فدمى حلال ! ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين، هذه صاعتي، وصاعة أُنَى، وهى التى قَرَبَتْنا منك، وأوطأَتْنا بِساطك، فاذا نازعا أحد بلا علم، لم نجد بُدًّا من الإيصاح والدب، فقال : لا لومَ عليك، وقام الرشيد ليبول فأقبل إبراهيم بن المهدي على وقال لي : ويلك يا إسحاق، أتجتري على وتقول ماقلت يَأْن الرانية ! فداخلى ما لم أملك نفسى معه، فقلت له : أنت تستمنى، ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة، وأخو الخليفة، ولو لا ذلك لقلت لك : يَأْن الرانية، كما قلت لى يابن الرانية، أو ترائى لأُحسن أن أقول لك يَأْن الرانية، ولكن اقولى لك ذلك يصرف الى حالك، ولو لا ذلك لذكرت صاعته ومدهبه، قال : وكان يَتَطارا، ثم سكت، وعلمت أن ابراهيم سيشكونى الى الرشيد، وسوف يسأل من حصر عما حَرَى، فيخبرونه فتلايبت ذلك بأن قلت : أنت تظن أن الخلافة لك، فلا تزال تهددنى بذلك، وتعادينى كما تُعادى سائر أولياء وِغلمان أخيك حسداً له ولولده على الأمر، وأت تصعُفُ عه وعهم وتستحفأ أوليائهم تَشْفِيًا، وأرجو ألا يُخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده، وأن يقتلك دوسها، فإن صارت اليك — والعياذ بالله تعالى — حرامٌ على العيش حينئذ ! والموت أطيب من الحياة معك، فأصع حينئذ ما بذاك ! فلما خرج الرشيد وثب ابراهيمُ مجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين، شَقَى ود كرأى واستخفنى ! فنصب الرشيد، وقال لي : ويلك ما تقول ؟ قلت : لا أعلم، قَسَل من حضر، فأقبل على مَسرور وحسين، فسألما عن القصة، فجعلا يُخبرانه ووجهه يَرَبد الى أن اتهايا الى ذكر الخلافة، فسرى عنه ورجع لونه، وقال : لا ذنب له، شتمته فغرتك أنه لا يقدر على جوابك، ارجع الى موضعك، وأمسك عن هذا ! فلما اتهمى المجلس وانصرف الناس، أمر بالآبَرَج، وخرج كل من حصر حتى لم يبقَ غيرى، فساء ظنى وأوهمتنى نفسى، فأقبل على

وقال : يا إسحاق أتراني لم أفهم قولك ومرادك ! وقد زبته ثلاث مررات ، أتراني لا أعرف وقائمتك وإقدامك وأين ذهبت ! ويلك لا تعد ! حدثني عنك : لو ضربك إبراهيم أكنت أضربه وهو أنحى يا جاهل ! أتراه لو أمر غلامانه فقتلوك أكنت أقتله بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قتلتنى بهذا الكلام وإن بلغه ليقتلننى ، فما أشك في أن بلغه الآن ، فصاح بمسور وقال : على إبراهيم ، فأحصر فقال لى : قم فانصرف فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لى حبيبا ، والى مائلا ، ولى مطيعا — : أحبرونى عما يجرى ، فأحبرونى من غد ، أنه لما دخل عليه وبجته وجهه وقال له : أنتستحف بمجادمى وصنيعتى ، وابن خادى وصنيعتى ، وصنيعة أبى فى مجلسى ! وتقدم على وتستحف بمجلسى وحصرقى ! هاه هاه ! وتقدم على هذا وأمثاله ! وأنت مالك وما للغناء ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أحذك به وطارحك إياه حتى نؤمهم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذى غذى به وعلمه ، وهو من صاعته ؟ ثم تظن أنك تحطته فيما لا تدريه ويدعوك الى إقامة المحبة عليه ، فلا تثبت لذلك ، وتعتصم بشتمه ، هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل ، وسوء الأدب ، من دخولك فيما لا يشبهك وعطية لذتك على مروءتك وشرفك ، ثم إظهارك إياه ولم تحكه ، وإدعائك ما لا تعلمه حتى ينسبك الى إفراط الجهل ، ألا تعلم أن هذا سوء أدب ، وقلة معرفة ، وعدم مبالاة للخطأ والرد القبيح والتكذيب ثم قال : والله العظيم ، وحق رسوله ، وإلا فانا برىء من المهدى إن أصابه أحد بمكروه ، أو سقط عليه حجر من السماء أو وقع من دابته ، أو سقطت عليه سقيفة ، أو مات بجأة ، لأقتلنك به ، والله والله وأنت أعلم . قم الآن فاحرج ولا تعرض له . فخرج وقد كاد أن يموت ، فلما كان بعد ذلك ، دخلت عليه وإبراهيم عنده ، فجعل ينظر اليه مرة ، والى مرة ، ويضحك ، ثم قال له : إني لأعلم شبتك لإسحاق وميلك اليه ، والى الأخذ به ، وإن هذا لا يبيحك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن أحسن إليه وأكرمه ، وأعيرف حقه ويصله ، فاذا فعلت ذلك ، وخالف ما تنواه ، عاقبتك بيد

مستطيلة ولسان مطّاق، ثم قال لى : قم الآن الى مولاك، وابن مولاك، فقبّل رأسه، فقامت اليه، وقام الى واصطلحا .

ولعل ما قدّمناه لك يعطيك صورة واضحة، عما كان لاسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حذب عليه ورّبه .

أما مكانة إسحاق عند الأيمن وبطانتة، فإها لا تقلّ، أيدك الله، عن مكانة عد الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى حيرا في الدلالة على هذه المكانة، من كلام إسحاق نفسه قال إسحاق : استدأني الأيمن يوما، وهو مُسْتَلْقٍ على فراش، حتى صارت ركتي على الفراش، ثم قال : يا إسحاق، أشكو اليك أصحابي، فعلت بفلان كذا ففعل كذا، وفعلت بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدت جماعة من خواصه، فقلت له . أب يا سيدى لتفصل عنيّ ونحس رأيك في! طبت أنى من يُساور في مثل هذا الحديث، نجاوزت في حدى ومقدارى، وهذا رأى يحل ولا يبلعه قدرى، فقال : ولم؟ أنت عدى عالم عاقل ناصح . قلت : هذه المنزلة عد سيدى ! علّمتنى ألا أقول إلا ما أعرف، ولا أطلب إلا ما أنال، فصحك وقال : بلغنى أنك عملت في هذه الأيام لحافا في شعر الراعى، فلم أسمعك منك، فقلت : يا سيدى ما سمعه أحد إلا حوارى، ولا حضرتُ عدك مدُ صعتّه . فقال : عنه فقلت : الهيبة والصّخو يمعانى من أن أؤديه كما أريد، فلو أنس أمير المؤمنين عدّه بشيء يطربه ويقوى طبعه كان أحود . قال : صدقت، ثم أمر بالفداء فتغدينا، وأمر بالسائر فُتّت، وعنى من وراءها وشربنا أفداحا، فقال : يا إسحاق، ما جاء أوان الصوت؟ فقلت : بلى يا سيدى، وعيت في شعر الراعى :

ألم نسأل بمارمة الدّياراً * عى الحى المفارق أين سارا
بلى ساء لُتها فأبث جواباً * وكيف تسائل الدّمس القفارا

فاستحسنه وطرب عليه، وقال : يا إسحاق، لا تطلب بعد النّية ووجود النّية، وما أشرب بقية يومى إلا على هذا الصوت، ووصلنى وخلع على من ثيابه .

ومما حدث بين الأمين وإسحاق أن الأمين اصطحب دات يوم ، وأمر بالتوجه الى إسحاق ، فوجه اليه عده رسل كلهم لا يصادفه ، حتى جاء أحدهم به ، بجاء مُتَشَبِّهاً ومحمد مُغَضَّب ، فقال له : أسكت " وملك ! قال . أصبحت يا أمير المؤمنين شيطاً ، فكرت الى بعض المتبرهات ، فاستطعت الموضع فأقت فيه ، وسقاي رباد فدكرت أبيانا للأحطل وهو يسقيني ، فدارك فيها لحن حس ، فصعته وقد حثت به ، فبسم وقال : هاته ، فما ترال تأتي بما يرضى عنك عند السخط ، فعناه .

إذا ما ربادُ عاَي ثم علي * ثلاث زحاحات لمن هدير
رحرتُ أحر الديل حتى كأبي * عليك أمر المؤمنين أمبر

فقال : بل على أيك قبح الله فملك ! فما زال إحسانك في عنائك يحو إساءتك في فملك ، وأمر له بألف دينار . وأصل قول الأحطل :

* اذا ما نديبي على *

وراد هذا علام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعقه وزوجه من أخته بدافع من أريحيته وأثر الشراب فيه .

أما عبد الله المأمون ، فيحدثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته ، وهي موقفه من العناء وسماعه ، وقد ألعنا اليها حين عرصا للكلام عن المادمة في عصره ، ثم سوق اليك بعد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضا .

قال إسحاق . أقام المأمون بعد قدومه بعداد عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الأعاني ، ثم كان أول من تعق بحصرته أبو عيسى س الرشيد ، ثم واطب على السماع مُستتراً ، متشبهاً في أول أمره بالرشيد ، فأقام على ذلك أربع حجج ، ثم طهر للدماء والمعنين . وكان حين أحب السماع سأل عني ، فخرجت بحصرته ، وقال الطاعس علي : ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلافة ، وما أتى من التيه شيئا حتى استعمله ! فأمسك المأمون عن ذكرى ، وجعاني من كان يصلي لسوء رأيه في ، فأصر ذلك بي ، حتى جاءني علويته يوما فقال لي :

أناذني في ذكرك عند المأمون^١ ، فإنما قد دُعينا اليوم ، فقلت : لا ولكن عنه الشعر ، فإنه سيبعثه على أن يسألك لمن هذا الشعر ، فإدا سألك فتح لك ما تريد ، وكان الجواب أسهل عليك من الابتداء ، فقال : هاب ، فألقيت عليه لحي في شعري :

يَاسْرَحَةَ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ * أَمَا إِلَيْكَ طَرِيقُ عَيْرِ مُسَدَّدِ

لِحَائِمِ حَامٍ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ مُحَلَّيْ عِصْ طَرِيقِ الْمَاءِ مَطْرُودِ

ومضى علويه ، فلما استقر به المجلس عماء ، قال عدا المأمون أن يسمع الغناء حتى قال . ويحك يا علويه ! لمن هذا الشعر ؟ قلت : ناسيدى احمد من عيدك حفوته وأطرحته بغير جرم ، فقال : إسمحاق تني^٢ ؟ فقلت : نعم ، فقال : محصر الساعة ، فغادى رسوله ، فخصرت فلما دخلت ، قال : أدن ودوت ، ورفع بديه ماذها إلى ، فأكبت عليه فاحتصني بيديه ، وأظهر من ربي ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لسره^(١) .

ثم ما زالت تعظم مكانته عند المأمون ، حتى سأله يوما أن يكون دحوله مع أهل العلم والأدب والزواة لا مع المغنين ، فإذا أراد الغناء عماء ، فأحابه الى ذلك . ثم سأله بعد مده طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له ، فدخل يوما مع يحيى بن أكثم متماسكين ، وعلويه ومحارو في شجرة لهما حالسين ينتظران جلوس المأمون ، ورأياهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدي المأمون ، فكاد علويه أن يئجن ، وقال : يا قوم سمعتم بأعجب من هذا ! يدخل قاضي القضاة ويده في يد معن حتى يحلسا بين يدي الخليفة ! ثم مصت مده فسأل إسمحاق المأمون و لبس السواد يوم الجمعة والصلوة معه في المصنوعة ، فضحك المأمون وقال : ولا كل هذا يا إسمحاق ! وقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم ، وأمر له بها . وهذا الخبر يؤيد ما ذكرناه في أول كلامنا على إسمحاق من أنه كان يطمح الى أن يكون في مرتبة غير مرتبة المغنين .

(١) أنظر كتاب بصاد (ح ٦ ص ٣٢٨) وقد سبق أن ذكرنا هذه القصة في فصل المادة صبيحة أخرى

مقلا عن كتاب الناح .

وانظر الى دقة إحساس إسحاق وقوة دوقه في تبيه الخطأ في وتر واحد بين ثمانين وترًا، وكان ذلك في مجلس المأمون، قال إسحاق : دعائى المأمون يوما، وعده إبراهيم بن المهدي، وفي مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عشرا عن اليمين وعشرا عن يساره، فلما دخلت، سمعت من اللاحية اليسرى خطأ فأكرهه، فقال المأمون . أسمعْتَ خطأ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدي : هل تسمعُ خطأ؟ قال لا، فأعاد على السؤال فقلت : بلى يا أمير المؤمنين . فإنه لم ي الجانِب الأيسر، فأعاد إبراهيم سمعه الى اللاحية اليسرى، ثم قال : لا، والله يا أمير المؤمنين ما في هذه اللاحية خطأ! فقلت : يا أمير المؤمنين مر الجوارى اللاتي على ايمين يُمسكنَ، فأمرهن فأمسكنَ، ثم قلت لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمع ثم قال : ماها هنا خطأ، فقلت : يا أمير المؤمنين، يُمسكنَ ويصير التامه، فأمسكنَ وصرت التامه، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين هاها خطأ، فقال المأمون عند ذلك لابراهيم اس المهدي : لا تُمارِ إسحاق بعدها، فان رحلا عرف الخطأ بين ثمانين وترًا وعشرين حلما لحدبُ الرأى ماريه ! قال : صدقت يا أمير المؤمنين، وكان في الأوتار كلها منى فاسد التسوية، فطرب المأمون وقال : لله درك يا أبا محمد ! فكأنى يومئذ .

وحبر آخريدل على حذق إسحاق بعه في مجلس آخر للأهوان، قال إسحاق : دخلت على المأمون يوما، وعقيد يُعَيِّه مرتحلا وغيره يصرب عليه، فقال : يا إسحاق كيف تسمع مُعَيِّنا هذا؟ فقلت . هل سأل أمير المؤمنين عيرى عن هذا؟ فقال . نعم، سألت عمى إبراهيم فقرطه، واستحسسه، فقلت : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا في أمرى، حتى نستنى فرقه الى الريث في علمى، قال : فلا يملك ذلك من قول الحق اذا لزمك، فقل لعقيد : أردد الصوت الذى عيَّته، فردّه وتحقق فيه وصرب عليه صاربه، فقلت لإبراهيم بن المهدي . كيف رأيته؟ فقال : ما رأيْتُ شيئا أنكرُ مما سمعته، فأقبلتُ على عقيد، وقلتُ له لما استوفاه : في أى طريقه عيَّته؟ فقال : في الرمل، فقلت للضارب : في أى طريقه صربت؟ فقال : في المَزج الثقيل، فقلت : يا أمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

في صوت يُعَيِّهِ مُعَيِّهِ رَمَلًا ، ويصره صاربه هَرَجًا ثَقِيلًا ، وليس هو صحيحًا في إيقاعه
الذي صُيرَ عليه^٥ قال وتَهَمُّه إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ ، فقال : صَدَّقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، والأمر
فيه يَنْ ! فَعَجِبَ الْمَأْمُونُ مِنْ ذَلِكَ كَيْفَ حَيَّى عَلَى كُلِّ مَنْ حَصَرَ .

أَمَّا مَنَزِلَتُهُ عِنْدَ الْوَائِقِ ، فيقول ابن خَدَّوْنِ : سَمِعْتُ الْوَائِقَ يَقُولُ . مَا عَنَّا فِي إِسْحَاقَ قَطُّ
إِلَّا طُنْتُ أَنَّهُ قَدْ رِيدَ فِي مَلِكِي ، وَلَا سَمِعْتُهُ قَطُّ يُعْنِي عِبَاءُ ابْنِ سُرَيْجٍ إِلَّا طُنْتُ ابْنَ
سُرَيْجٍ قَدْ لُشِرَ ، وَأَنِّي لَيَحْضُرُنِي عِيْرُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ حَاصِرًا فَيَتَقَدَّمُهُ عَدُوُّ طَيْبِ الصَّوْتِ ،
حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ عَدُوُّ رَأْيِ إِسْحَاقَ يَعلُو وَرَأَيْتُ مِنْ طُنْتُ أَنَّهُ يَتَقَدَّمُهُ يَقْصُصُ ، وَإِنْ
إِسْحَاقَ لَعَمَهُ مِنْ نَعَمِ الْمُلُوكِ الَّتِي لَمْ تَحْطَ أَحَدٌ بِمِثْلِهَا ، وَلَوْ أَنَّ الْعُمَرَ وَالشَّابَّ وَالنَّشَاطَ
مِمَّا يُشْتَرَى لِأَشْرَافِهِمْ لَهَ شَطْرُ مَلِكِي .

أَمَّا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي تُوقُّ إِسْحَاقُ فِي أَوَّلِ عَصْرِهِ ، فيحدثنا ابن خَدَّوْنِ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ إِسْحَاقَ ،
مَعْرُوفٍ أَنَّهُ كُتِبَ وَأَنَّهُ بِمَنْزِلِهِ بِعَدَادِ ، فَكُتِبَ فِي إِحْصَارِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رَفَعَهُ حَتَّى
أَحْلَسَهُ قُدَّامَ السَّرِيرِ ، وَأَعْطَاهُ مِحْدَه . وقال : لَعَلِّي أَنْ الْمُعْتَصِمَ دَفَعَ إِلَيْكَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ حَلَسَتْ
بَيْنَ يَدَيْهِ مِحْدَةٌ ، وقال . إِنَّهُ لَا يَسْتَحْلِبُ مَا عَدَا حُرْمَتُ إِكْرَامِهِ . ثُمَّ سَأَلَهُ : هَلْ أَكَلْتُ ؟ فقال :
نَعَمْ ، فَأَمَرَ أَنْ يُسْقَى ، فَلَمَّا شَرِبَ أَقْدَاحًا قَالَ هَاتُوا لَأَنِّي مُحَمَّدٌ عَوْدًا ، لَعَلِّي بِهِ فَاذْفَعُ يُعْنِي
نَشْعَرُهُ :

هَذَا عِلَّةُ الشَّيْخِ عِيَاهُ بَارِعِهِ . تَعَرُّوْكَ بِدَمْعٍ ثُمَّ تَنْسِكُ

قال ابن خَدَّوْنِ . فَمَا بَقِيَ عِلَامٌ مِنَ الْعِلْمَانِ الْوُفُوفِ إِلَّا وَحْدَتُهُ يَرْفُصُ طَرَأًا ، وَهُوَ
لَا يَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُ ، فَأَمَرَ لَهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . ثُمَّ أَحْدَرَ الْمُتَوَكِّلَ إِلَى الرَّقَّةِ ، وَكَانَ يَسْتَطِيبُهَا
لِكَثْرَةِ تَعْرِيدِ الطَّيْرِ فِيهَا ، فَغَنَاهُ إِسْحَاقُ :

أَنَّ هَتَفَتْ وَرَقَاءُ فِي رَوِّقِ الصُّحَى عَلَى فَنَ عَصَ النَّبَاتِ مِنَ الرَّيْدِ

بَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدُ فَلَمْ تَكُنْ * جَلِيدًا وَأَبْدَيْتَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ تُبْدِي

فَصَحَّكَ الْمُتَوَكِّلُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا إِسْحَاقُ ، هَذِهِ أَحْتُ فِعْلِكَ بِالْوَائِقِ لَمَّا عَيَّنْتَهُ بِالصَّالِحِيَّةِ :

طَرِبْتُ إِلَى أَصْيَبِيَّةِ صَعَارٍ * وَدُكِّنِي الْهَوَى قُرْبَ الْمَزَارِ

فكم أعطاك لما أدرك في الانصراف قال . مائة ألف دينار ، فأمر له بمائة ألف دينار وأذن له بالانصراف .

وإنما أودعنا نذكر لك من أخبار إسحاق . وما كان له من نوادر في مجالس الخلفاء وغير مجالس الخلفاء من رحلات الدولة لعدونا حد القصص ، وإنما يُجمل من يريد التريّد من أمر إسحاق على كتاب الأغاني . ونحن هذا الفصل من أخبار إسحاق عما قاله محمد بن عمران الجرجاني ، حين ذكر عهده . قال . كان والله إسحاق عُمره في زمانه ، واحداً في عصره ، علماً وفهماً ، وأدباً ووقاراً ، وحَوْده رأى ، وصحّه مودّه ، وكان والله بُعس الماطق إذا بطق ، ويُخبّر السامع إذا محدث ، لا تملّ حليسه في مجلسه . ولا تمنح الآذان حديثه ، ولا تنبو النفس عن مطاوعه ، إن حدثتك أهلك ، وإن طارك أفادك ، وإن عاك أطرك ، وما كان حصلة من الأدب ولا حدس من العلم ، يتكلم فيه إسحاق فيقدم أحد على مساحلته أو معاوآته فيه .

قال إسحاق بن إبراهيم . رأيت في ماضي حريراً حالسا يسند وأنا أسمع . فلما فرغ أحد كبة من شعري فلقاها في في فابتلعها . فأول ذلك بعض من ذكرته له أنه وزّني الشعر . قال زيد بن محمد المهلب . وكذلك كان ، لقد مات إسحاق وهو أشعر أهل زمانه .

وقال أبو العرح الأصمهاقي . وكان إسحاق حيد الشعر ، كان يقول وينسيه للعرب ، من ذلك قوله :

لَعَطَ الْحُدُورُ عَلَيْكَ حُورًا عِيَا * أَنْسَيْنَ مَا جَمَعَ الْكِئَاسُ قَطِيَا
فَإِذَا بَسَحْنَ وَمَنْ كَبَلَ عَمَامِهِ * أَوْ أَلْقُوْنَ الرَّمْلَ نَاتِ مَعِيَا
وَأَصَحَّ مَا رَأَتْ الْعَيُونُ مَحَارِهَا * وَلَطَنَ أَمْرُصُ مَا رَأَتْ عَيُوبَا
مَكَانَنَا تِلْكَ الْوَحْشُوهُ أَهْلُهُ * أَقْرَنَ بَيْنَ الْعَسِيرِ وَالْعَشِيرِيَا
وَكَاثِبِينَ إِذَا نَهَضْنَ لِحَاجَةِ * يَهْصِنُ بِالْعَقْدَاتِ مِنْ يَبْرِ يَا

وأشعاره في هذا النوع كثيرة. ولعل الذي كان يدفع أولئك الشعراء إلى أن يسبوا خير ما تحود به قرائحهم إلى العرب الجاهليين أو أعراب الصحراء، رُوح ذلك العصر، وأنها كانت رُوحاً تميل إلى القدم، ولا سيما إذا رُتس هذا التهديم، بإطار من خيال الرواة والمقاصدين ويظهر أن ما كانوا يظفرون به رِوَاةً للسَّعر العربي أكثر مما كانوا يظفرون به شعراء مجيدين، وإلا فهل تصوّر أن تنسب المرء ستاح قريجنه إلى غيره، ما لم يكن ممن ذلك عطياً.

ومن شعر إسحاق ما اعتذر به إلى الواثق حين عاتب عليه في تأخره عنه، وهو قوله :

أشكو إلى الله نُدَى عن حِلْمَتِهِ . وما أُنالُحُ من سَقَمٍ ومن كِبَرٍ

لا أستطيع رَحِيلاً إن قَمَمْتُ به * إليه يومًا ولا أقوى على السَّمرِ

أنوي إليه رَحِيلاً ثم بَمَعِي * ما أُنحِثُ الدهرُ والأُمانُ في بَصري

ومن شعره أيضا عند علوّ سه .

سَلَامٌ على سِرِّ القِلَاصِ مع الزَكَبِ * ووضِلَ العِوَايى والمُدَامَه والشَّرِبِ

سَلَامٌ امرئٍ لم يبقَ مَهْ نَقِيه * سوى بَطَرِ العِيْنِ أو شَهْوِ القَلْبِ

ومن جيد شعرا إسحاق ما كان يستحسسه ابن الأعرابي و يعجب به أيما إعجاب، وهو قوله .

هَلْ إلى أن سَامَ عني سَبِيلُ * إن عهدي باليوم عهدٌ طويل

عاب عني من لا أُنْتَمي فَعِي . كل يومَ وَحْدًا عليه تَسِيلُ

إن ما قَلَّ منك يَكْثُرُ عِدي . وكَثِيرُ من تُحِبُّ القَلْبُ

وكان إسحاق إذا عني هذه الأبيات تَمِضُ عِيَادُه . ولما سُئِلَ عن بُكَائِهِ أجاب :

تَعَفَّفْتُ حارِيةً فقلت لها هذه الأبيات، ثم ما لَكُنْتُها، فكنت مشعُوفًا بها، حتى كَبُرْتُ

واعْتَلَّتْ عيني، فإذا غَيَّتْ هذا الشعر ذكرْتُ أنا مَيَّ المتقدِّمه، وأنا أنكى على دهرى

الذى كُتُّ فيه .

وقال إسحاق. أشدّت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة، فجعل يعجب بها ويرددها. فقلت له. إنما بتُّ ليلتها، فقال. لا حَرَمَ أن أثر التوليد فيها طاهر، فقال إسحاق. ولا حَرَمَ أن أثر الحسد فيك طاهر! ولعل هذا هو سبب الحقوه التي كانت بين إسحاق والأصمعيّ. فإن ابن مطور يروى لنا في مختصره أن إسحاق كان نأخذ عن الأصمعيّ وذكر عنه الروايات، ثم فسد ما بينهما، فهجاه إسحاق وتلّاه، وذكر عند الرشيد أنه قليل الشكر، خيل، ساقط النفس، لا زكو الصنعة عنده، وذكر له أنا عُبيدَه مَعْمَر بن الْمُثَنَّى بالثقة والصدق والسباحة، واشتماله على جميع علوم العرب، وفعل مثل ذلك عند النعل بن الربيع، ولم يرل هما حتى وضع مرة الأصمعيّ عندهما، ثم أنقذا إلى أنى عُبيدَه مالا حايلا واستقدّماه. فكان إسحاق سبب ذلك. وكان إسحاق قليل المحو، فإذا هما رأيت في محوِّه عنه اللسان، وجمال التعريض. وزيد أب ذكر لك من هذا الباب قوله في أحد من هشام. وكان إسحاق يألف أحمد هذا وأباه علّا وسائر أهله إلّفا شديدا، ف وقعت بينهم نبوةٌ ووحشه فهجاهم. وهذا مما قاله في أحمد :

وصايفه تُعْشِي العُيُونَ رِقِيْقَه . رهيبه عام في الدنابِ وعام
أدرباها الكأس الرونة مَوْهِنًا . من الليل حتى انمَحَتْ كُلُّ ظَلَامِ
فما دَرَّ قُرْؤُ الشمس حتى كأننا . من العيِّ يحكى أحمد بن هشام

ويقال إن أحمد سألَه ما دى ؟ فقال . لأنك قعدت على طريق القافية .. !

وكان إسحاق يسأل الله ألا يتلّيه بالقولنج، لما رأى من صُعُوبته على أبيه، فأرى في مامه كأن قائلًا يقول: قد أُحِبَّتْ دعوتك، ولسب موت بالقولنج، ولكنت تموت بصدته، ثم أصابه دَرٌّ في شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدق في كل يوم بمكة صومه بمائة درهم، ثم ضَعُف عن الصوم فلم يَطْفِه ومات في الشهر .

ولما نُي إلى المتوكل عمه وحرب عليه، وقال . ذهب صدر عظم من حال الملك وبهاته وزينته !

مؤلفاته :

علمت مما أوردناه لك في الكلام على إسحاق أنه كان نجس كل ما كان عاجله من العلوم إحساناً قل أن يستوى لغيره، ولكنه قصر تأليفه على ما قصرته عليه وطبقته، وعمله، فآلف في الأعاني، والإيقاع والنعم، وآداب الشراب، والدماء. والمبادمات، وأحجار الشعراء، وأهل الصن من المعين والمعينات . فمن مؤلفاته . كتاب الأعاني الكبير، وكتاب المحظ والإشارات، وكتاب الرقص والرقص، وكتاب النعم والإيقاع، وكتاب الدماء والمبادمات. وله مؤلفات غمى سعة من أهل الصن. رجالاً ونساء، أمثال . عمدة، وابن مسحح، وعزّه الميلاء، وعبرهم . وله أيضاً كتاب الهدى، وكتاب تفصيل الشعر، وكتاب أحجار ذى الرمة، وكتاب حواهر الكلام . وله كتاب مناديه الإخوان . وتسامر الخلق، وكتاب القيان، وغير ذلك مما يطق بعلو كفه في شتى الصن، ونشهد أنه دائرة معارف عاقه .

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٢٧ م

فهرست

المجلد الثاني من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول — عصر بني أمية

صفحة	باب المشهور :
١	رسالة أنى تكرو على
١٢	كلام عائشة رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها
١٤	كلمة أم الخير بنت الحريش
١٧	كلمة الزقاء بنت عدى
١٨	كلمة عكرشة بنت الأطرش
٢٠	رسالة لعبد الحميد الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لعص من ولاد
٥٣	رسالة توبة لعبد الحميد الكاتب أوصى فيها الكتاب
٥٧	رسالة تالفة لعبد الحميد الكاتب فى الشطرنج ..
٦٠	رسالة زاهدة لعبد الحميد الكاتب وصف بها العبد

باب المعلوم :

٦٣	أنواع العزل ورعيه كل نوع
٦٤	العزل الإناسى — عمر بن أبى ربيعة
١٠٣	العزل العدرى — جميل
١٢٤	العزل الصاعى — كثير
١٣٨	العزل القصصى — قيس بن الملقح (المحمود)
١٥٢	قيس بن دريج ..
١٦٤	الشعر السياسى — العباد بن شيبه

ملحق الكتاب الثانى — عصر بني العباس

باب المشهور .

١٦٩	مشاورة المهدي لأهل بيته فى حرب حراسان
١٨٨	رسالة أنى الربيع محمد بن الليث التى كتبها للرشد الى قسطنطين ملك الروم

صفحة	
٢٣٧	رسالة يحيى بن ر ياد فى تقريب الرشيد
٢٤٤	كتب الرشيد
٢٤٤	كتاب عهد الية
٢٤٧	سجة الشرط الذى كتب عبد الله بن أمير المؤمنين خط يده فى الكلمة . . .
٢٤٩	سجة كتاب الرشيد الى العمال
	باب المطبوع .
٢٥٢	نشار بن ر
٢٧٧	حد د عرد
٢٨٧	مروان بن أنى حمصة
٣٠٠	يو دلامة
٣١٧	أمان بن عبد الخيد اللاحق
٣٢٦	حار حمدان بن نان
٣٣٣	مصور النمرى
٣٣٩	السيد الحيزى
٣٤٩	سلم بن عمرو الحامير
٣٥٤	ربعة الرق
٣٥٩	الرفاشى
٣٦١	أنو العناهيبة
٣٧٤	مسلم بن الوابد
٣٩٣	العاس بن الأحف
٤٠٠	ان مبادر
٤٠٣	صالح بن عبد القدوس
٤٠٧	سعيد بن وه
٤١١	الحسن بن وه
٤١٩	أشمع السلى
٤٢٣	على بن الجهم
٤٣١	على بن حلة

مُلْحَقَاتُ الكتاب الأول

باب المنشور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثاني الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، وعينا عناية خاصة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب حاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . واتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة أنموذحا أمويًا ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن بُرد مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نُؤاس أنموذحا لتصوير الحياة الكُتّابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان — اللهم إلا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة — فهي في وصورها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .
وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ — رسالتنا أبي بكر وعلى

(١) قال أبو حيان على بن محمد التوحيدى البغدادي : سَمَرْنَا لَيْلَةً عد القاصي أبي حامد أحمد بن بشر المروزي ببغداد، فتصرف في الحديث كُلِّ متصرفٍ ؛ وكان غزير الرواية ،

(١) اطلع كتاب صح الأعشى ص ٢٣٧ ح ١

لطيف الدّراية، بغير حديث السّقيفة، فركب كلّ مركبا، وقال قولا، وعرض بشيء، ونزع الى فن . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصّدّيق^(١)، رضى الله عنه، الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وحواب علىّ عنها، ومبايعته إياه عقيب تلك المناطرة؟ فقال الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من بنات الحقائق، وعجبات الصادق، ومذ حِفْظُهَا ما رويتها إلا لأبى محمد المهلبى فى وزارته ، فكنتها عني بيده . وقال : لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أئين، وإنما لتدلّ على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وتُعد غور، وشدة عوص . فقال له العبادانى : أيها القاصى، فلو أتممت المسّة عليها بروايتها ! أسمعناها، محس أوعى لك من المهلبى، وأوجب ذمّا ما عليك، فاندفع وقال :

حدّثنا الخُزاعى بمكة عن أبى مبصرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيْح عن عيسى بن دُوّاب بن المتّاح ، قال سمعت مولاى أبا عُبَيْدة يقول : لما استقامت الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرّها ويسّر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة صاحب رسول الله وأوّل خليفة له فى الإسلام وحطّيب يوم السّقيفة .

ويجتمع معه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتين وصعده أشهر . ونشأ من أكرم قريش خلقا ، وأرحمهم حلما ، وأسماهم بدا ، وأشدّهم عمة . وكان أغلبهم بالأنساب وأيام العرب ومفارها . صحب رسول الله قبل النبوّة . وكان أوّل من آمن به من الرجال صدّقه فى كل ما جاء به ، ولذلك سمى الصّدّيق ، وأتفق أمواله فى تأييد دعوته ، وهجرته الى المدينة مؤثرا صحته على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر العروات . وما زال يثق ماله وقوّته فى معاصرة رسول الله حتى استقلّ صلى الله عليه وسلم الى الزبيق الأعلى . واحتلقت العرب ، وارتدت عن الإسلام ، ومعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف ، لحقد عليهم الحيوش حتى قعهم ، وجمع العرب على الإسلام ، وساقهم توا إلى فتح ممالك كسرى وقيصر . وما مات إلا وحيوشه تهرم حيوش العرس والزوم وتسنّت على مدائنهم وحصوبهم . وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً ، حطّيباً مقوّهاً ، حاصر الدّية ، قوى الحجّة ، شديد التأثير ، يشهد بذلك حطّبه يوم السّقيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله احتلقت الصحابة فيس يابعوه خليفة له عليهم ، فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم . واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن يابعوه خليفة . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلْكُؤْ وشِمَاس^(١) ، وتهم^(٢) ونِفَاس^(٣) ، فكَرِهَ أن يَتِمَّادِيَ الحَالُ فتَبَدَّ العورة ، وتَشْتَعَلَ الجَمرة ، وتُتَفَرَّقَ ذَاتُ الْبَيْنِ ، فدَعَانِي بِمَحْصَرَتِهِ فِي حَلْوَةٍ ، وكانَ عِنْدَهُ عَمْرُ ابْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَدَّثَهُ ، فَقَالَ : يَا أبا عُبَيْدَةَ ، مَا أَتَيْنَ بِأَصِيَّتِكَ ، وَأَتَيْنَ الْحَيْرَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ ، وَطَالَمَا أَعَزَّ اللَّهُ بِكَ الْإِسْلَامَ وَأَصْلَحَ شَأْنَهُ عَلَى يَدَيْكَ ، وَلَقَدْ كُنْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَكَانِ الْمُخَوِّطِ ، وَالْمَحَلِّ الْمَغْشُوطِ ؛ وَلَقَدْ قَالَ فِيكَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ : "لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ" ، وَلَمْ تَزَلْ لِلدِّينِ مُلْتَمًا ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ مُرْتَجًى ، وَلَا هَلْكَ رِكَا ، وَلَا إِخْوَانَكَ يَرُدُّ . قَدْ أَرَدْتُكَ لِأَمْرِ خَطَرِهِ مُحُوفٌ ، وَإِصْلَاحُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعْرُوفِ ، وَلَنْ لَمْ يَنْدِمَلْ جَرْحُهُ بِسَارِكٍ وَرِفْقِكَ ، وَلَمْ تُجِبْ حَيْثَ بَرَقْتِكَ ، وَقَعَ الْيَأْسُ ، وَأَعْصَلَ الْيَأْسُ ، وَأَحْتِيجُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَمْرٌ مَعَهُ وَأَعْلَقُ ، وَأَعْسِرَ مَعَهُ وَأَغْلِقُ ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ تَمَامَهُ بِكَ ، وَنِظَامَهُ عَلَى يَدَيْكَ . فَتَأْتِ لَهُ أبا عُبَيْدَةَ وَتَلَطَّفَ فِيهِ ، وَأَنْصَحَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِهَذِهِ الْعِصَابَةِ عَيْرَ آلٍ جَهْدًا ، وَلَا قَالٍ حَمْدًا ، وَاللَّهُ كَالْكُلْثِ وَنَاصِرُكَ ، وَهَادِيكَ وَمُبْصِرُكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . امْصِ إِلَى عَلِيٍّ وَاحْفِضْ لَهُ جَبَاحَكَ ، وَأَغْضُضْ عِنْدَهُ صَوْتَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُلَالَةُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمَكَانُهُ مِمَّنْ فَقَدْنَاهُ بِالْأَمْسِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — مَكَانُهُ ، وَقُلْ لَهُ : الْبَحْرُ مَفْرَقَةٌ ، وَالْبَرُّ مَفْرَقَةٌ ، وَالْجَوْاءُ كَلْفٌ^(٦) ، وَاللَّيْلُ أَعْدَفُ^(٧) ، وَالسَّمَاءُ حُلُوءٌ^(٨) ، وَالْأَرْضُ صَلْعَاءُ^(٩) ، وَالصُّعُودُ مُتَعَذِّرٌ ، وَالْهَبُوطُ مُتَعَسِّرٌ ، وَالْحَقُّ عَطُوفٌ رَعُوفٌ ، وَالْبَاطِلُ عَنُوفٌ عَسُوفٌ ، وَالْعُجْبُ قَدَّاحَةٌ الشَّرِّ ، وَالضُّغْنُ رَائِدُ الْبَوَارِ ، وَالتَّعْرِيزُ شِجَارُ الْفِتْنَةِ ، وَالْقِيَّةُ تَقُوبُ الْعِدَاوَةِ ، وَهَذَا الشَّيْطَانُ مَتَكِيٌّ عَلَى شِمَالِهِ ، مُتَحِيلٌ بِيَمِينِهِ ، نَافِخٌ حِصْنِيهِ لِأَهْلِهِ ، يَنْتَظِرُ الشَّتَاتِ وَالْفُرْقَةَ ، وَيَدِيَّتْ بَيْنَ الْأُمَّةِ بِالشَّخْءِ وَالْعِدَاوَةِ ، عَادَاً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

(١) الشِّمَاسُ : المَعَادَاةُ وَالْمَعَادَاةُ . (٢) تَهْمٌ الشَّيْءُ . طَلَعَهُ وَتَحَسَّسَهُ . (٣) نَافَسَ : دَامَسَ فِي الشَّيْءِ . مَاسَاةٌ : رَعَبٌ فِيهِ عَلَى وَجْهِ الْمَارَاةِ وَالْمَعَارَاةِ . (٤) تَحَبُّ : تَقَطُّعٌ . (٥) تَأْتِي فُلَانٌ لَأَمْرٍ : تَهَيَّأَ لَهُ وَأَتَاهُ مِنْ وَجْهِهِ .

(٦) الْجَوْاءُ كَلْفٌ : أَسْوَدَ تَلَوُّهُ حَمْرَةً . (٧) اللَّيْلُ أَعْدَفُ : مَرِحَ سِدُولُهُ مَعْظَمٌ . (٨) السَّمَاءُ حُلُوءٌ : مَعْصِيَةٌ . (٩) خَالِيَةٌ لِأَشْجَرِهَا . (١٠) أَيْ مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يَفْعَلَ عَمَلَهُ مِنَ الشَّرِّ .

أولاً، ولآدمَ نانياً، ولبيّه — صلى الله عليه وسلم — وديّه ثالثاً، يُوسُوسُ بالفُجُورِ، ويُذِلُّ بالغرورِ، ويميّ أهلَ الشرورِ . يُوحى الى أوليائه زُخُوفُ القولِ غُرُوراً بالباطلِ، دُباباً له مُدْكَانٌ على عهدِ أبينا آدمَ صلى الله عليه وسلم، وعادةً له مسدُّ أهانه الله تعالى في سالف الدهرِ، لا مَنجى منه إلا بعضُ الباحدِ على الحقِّ، وعَصَّ العُظُمُ عن الباطلِ، ووطءُ هامةٍ عدوّ الله بالأشدِّ فالأشدِّ، والآكِدُ فالآكِدُ، وإسلامُ النفسِ لله عز وجل في آستِفاءِ رضاه . ولا بدَّ الآن من قولٍ يجمع إذا صرَّ السكوتُ وخيفَ غيبُهُ، ولقد أرشدك مَنْ أفاء ضالتك،^(١) وصافاك من أحيا مودته بعنايك، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثر البقاءَ معك ؛ ما هذا الذي تُسَوِّلُ لك نفسُك، ويتوى به قلبُك، ويتوى عليه رأيُك، ويخاوضُ دونه طرْفُك، ويتسرى فيه طعْنُك، ويرادُّ معه نفسُك، وتكثرُ عسده صُعداًؤُك، ولا يفيضُ به لسانُك . أعجمهُ بعد إفصاح ! أتلبسُ بعد إيصاح ! أدينُ غيرَ دينِ الله ! أخلقُ غيرَ خلقِ القرآن ! أهدى غيرَ هدىِ الهى صلى الله عليه وسلم ! أمثلُ ”تمثلى له الصِّراءُ وتذبُّ له الحمَرُ!“ أم مثلكُ يَبْقِضُ عليه الفصاء، ويُكسِّفُ في عيه القمرُ ! ما هذه القعقةُ بالسَّنانِ !^(٢) وما هذه الوعوعة بالسَّنانِ ! إلك والله جدُّ عاربٍ بأستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبحروجا عن أوطانا وأموالنا وأولادنا وأحبِّتنا ، هجرةً الى الله عز وجل ، وبصرةً لديه في زمان أنت فيه في كِنِّ الصِّبَا ، وحذرِ العرارة ، وعُقُوقِ الشَّيْبَةِ ، عاقلٌ عما يُشيب ويريب ، لا نعي ما يُرادُّ ويُنادُّ، ولا نحصلُ ما يُساقُّ ويُقادُّ ، سوى ما أنت جارٍ عليه الى عاتيك التي اليها عُدلُك، وعدّها حُطَّ رَحْلُك، غيرَ مجهولِ القدرِ ولا مجهودِ الفصلِ ، ونحن في أثناء ذلك نُعاينُ أحوالاً تُزِيلُ الرِّوْاسِيَّ ، ونُقايسَ أهوالاً تُشيبُ الوُأصَى ، حائِصِينَ عِمَارَها ، راكِبِينَ تِيَارَها ، نتَجَرعُ صابِها ، ونُشْرَجُ عِبابِها ، ونُحْكِمُ آساسَها ، وبرِمِ

(١) أفاء : أرحم . (٢) يخاوض : يعض من بصره . (٣) الصراء : الاستحمام . والحر :

ما وارك من شجر، وهو مثل يصرب لم يحدع صاحبه . (٤) الشان جمع ش وهو القرعة الحلق

الصميرة . والقعقة : الصوت ، يريد أنه لا يخوف مثل هذا . (٥) شرح عيابه : نصدها وصم بمصها

الى مصص . والعياب : جمع عبة ، وهي ربيل من آدم تحمل فيه التياب .

أَمْرَ أَمْسَاءَ ، وَالْعَيُونُ تَحْدِجُ بِالْحَسَدِ ، وَالْأَنْوْفُ تَعِطُسُ بِالْكِبَرِ ، وَالصَّدُورُ تَسْتَعِيرُ بِالْعَيْطِ ،
وَالْأَعْيُنُ لِنُطَاوِلِ الْفَجْرِ ، وَالشَّفَارُ تُشْعَذُ بِالْمَكْرِ ، وَالْأَرْضُ تَمِيدُ بِالْخَوْفِ ، لَا نَنْظُرُ عِنْدَ
الْمَسَاءِ صَاحَا ، وَلَا عِنْدَ الصَّبَاحِ مَسَاءَ ، وَلَا نَدْفَعُ وَتَحْرِ أَمْرٍ إِلَّا نَحْنُ الْمَوْتِ
دُونَهُ ، وَلَا نُلْعِمُ مُرَادًا إِلَّا بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ ، فَادِينَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَبِّ وَالْأُمِّ ، وَالْحَالِ وَالْعَمِّ ، وَالْمَالِ وَالنَّسَبِ ، وَالسُّدِّ وَاللَّدِّ ،
وَالْهَلَةِ وَالْبَلَّةِ ، يَطِيبُ أَنْفُسَ ، وَقُرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَرَحِبَ أَعْطَانٍ ، وَثَنَاتِ عِزَائِمٍ ، وَهَجَّةِ عَقُولٍ ،
وَطَلَّاقَةِ أَوْحِهِ ، وَدَلَّاقَةِ أَلْسُنٍ ، هَذَا مَعَ خَفِيَّاتِ أَسْرَارِهِ ، وَمَكْنُونَاتِ أَحْصَارِهِ ، كَتَبَهَا
عَافِلًا ، وَلَوْلَا سِيْكُ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاقِلًا ، كَيْفَ وَفَوَاضِلُكَ مَشْهُومٌ ، وَعُودُكَ مَخْجُومٌ .
وَالْآنَ قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بِكَ وَأَنْهَضَ الْخَيْرَ لَكَ ، وَحَمَلَ مُرَادَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَعَنْ عِلْمِ أَقْوَلٍ
مَا تَسْمَعُ ، فَارْتَقِ زَمَانَكَ ، وَقَلِّصْ أَرْذَانَكَ ، وَدَعْ التَّعَقُّسَ وَالتَّحَسُّسَ لِمَنْ لَا يَنْطَلِعُ لَكَ إِذَا
حَطَا ، وَلَا يَتَرَحَّجْ عَنْكَ إِذَا عَطَا ، فَالْأَمْرُ عَصَ ، وَالْفَوْسُ فِيهَا مَصَ ، وَإِلَيْكَ أَدِيمُ هَذِهِ
الْأُمَّةِ فَلَا تَحْمِلْ بِلَحَاحٍ ، وَسِعْفُهَا الْعَصَبُ ، فَلَا تَنْبُ أَعْيُوحَاحًا ، وَمَاؤُهَا الْعَذْبُ فَلَا تَحْمِلْ أَحَاحًا .
وَاللَّهُ لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، فَقَالَ لِي : « يَا أَبَا بَكْرٍ
هُوَ لِمَنْ يَرْعَى عَمَهُ لَا لِمَنْ يُجَاحِشُ عَلَيْهِ ، وَلِمَنْ يَتَضَاعَلُ عَمَهُ لَا لِمَنْ يَتَنَفَّحُ إِلَيْهِ ، هُوَ لِمَنْ يَقَالَ
هُوَ لَكَ لَا لِمَنْ يَقُولُ هُوَ لِي » .

وَلَقَدْ شَاوَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّهْرِ ، فَذَكَرْتُ بَيِّنَاتًا مِنْ قُرَيْشٍ ،
فَقُلْتُ : أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ ! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي أَكْرَهُ لِعَاطِمَةَ مَيْعَةَ شَبَابِهِ ،
وَحَدَائِثَ سَنَةِ . فَقُلْتُ لَهُ : مَتَى كَفَفْتَهُ يَدُكَ ، وَرَعْتَهُ عَيْكَ ، حَقَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَةُ ، وَأُسِفَتْ عَلَيْهِمَا
الْبَعْمَةُ ، مَعَ كَلَامٍ كَثِيرٍ حَاطَتْهُ بِهِ رَغْبَةً فِيكَ ، وَمَا كُنْتُ عَرَفْتُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوْحًا

(١) جمع مرس ككتف وهو الخلل . (٢) السد الشعر . واللذ : الصوف . (٣) يقال حاء ما
فلان فلم يأتا بهلة ولا لمة أى لم يأتا شئ . فالهلة من العرح والاستهلال ، واللمة من اللل والخير . (٤) مشهور
(بالشئ المعجمة) د كى متوقد . (٥) عطا : مذل لك عقه وأقلل بحوك (٦) حلم الخلد
(من ناب مرق) . صد وتقب . (٧) أى يظله ويداع عه . (٨) يتطلع إليه ويعتبر به .
(٩) أى ما كنت عرفت منك شيئاً .

ولا لَوْحَاء، قُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَمَا أَرَى مَكَانَ غَيْرِكَ، وَأَجْدَ رَائِحَةَ سِوَاكَ؛ وَكَتُبْتُ إِذْ ذَاكَ خَيْرًا لَكَ
مِنْكَ الْآنَ لِي . وَلَئِنْ كَانَ عَرَضُكَ بِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ
يَكُنْ مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِكَ: وَإِنْ كَانَ قَالَ فَيْكَ فَمَا سَكَتَ عَنْ سِوَاكَ؛ وَإِنْ تَلَجَّجَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ
فَهَلُمَّ، فَالْحَكْمُ مَرَصِيٌّ، وَالصَّوَابُ مَسْمُوعٌ، وَالْحَقُّ مُطَاعٌ . وَلَقَدْ نُقِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ عَنْ هَذِهِ الْعِصَابَةِ رَاضٍ، وَعَلَيْهَا حَذَرٌ، يَسْرُهُ مَا سَرَّهَا
وَيُسْوءُهُ مَا سَاءَهَا، وَيَكِيدُهُ مَا كَادَهَا، وَيُرْصِيهِ مَا أَرْصَاهَا، وَيُسِخِطُهُ مَا أَسْخَطَهَا. أَمَّا تَعْلَمُ
أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَقَارِبِهِ وَتُجَرَّائِهِ^(١)، إِلَّا أَنَّهُ بِفَضِيلَةٍ، وَخَصَّه بِمِزْيَةٍ، وَأَفْرَدَهُ
بِمَجَالَةٍ! أَتُظَنُّ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الْأُمَّةَ سُدًى بَدَدًا، عَبَّاهِلَ مَبَاهِلَ، طَلَّاحَى
مَفْتُونَةً بِالْأَاطِلِ، مَغْبُونَةً عَنِ الْحَقِّ، لَا رَائِدَ وَلَا دَائِدَ، وَلَا صَابِطَ وَلَا حَائِطَ، وَلَا سَاقَ
وَلَا وَاقَ، وَلَا هَادِيَّ وَلَا حَادِيَّ! كَلَّا! وَاللَّهِ مَا أَشْتَقُّ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى وَلَا سَأَلَهُ الْمَصِيرَ
إِلَى رِضْوَانِهِ وَقُرْبِهِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ صَرَبَ الْمَدَى، وَأَوْصَحَ الْهَدَى، وَأَمَانَ الصُّوَى، وَأَمَّنَّ^(٢)
الْمَسَالِكَ وَالْمَطَارِحَ، وَسَهَّلَ الْمُبَارَكَ وَالْمَهَاجَ،^(٣) وَإِلَّا بَعْدَ أَنْ شَدَحَ يَافُوحُ الشَّرِكِ بِإِذْنِ اللَّهِ،^(٤)
وَشَرَّمُ وَحَةِ الْبِقَاقِ لَوْحَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَجَدَّعَ أَنْفَ الْفَتْنَةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَتَقَلَّ فِي عَيْنِ
الشَّيْطَانِ بَعُونُ اللَّهِ، وَصَدَّعَ بِمَلْءِ فِيهِ وَيَدِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَبَعْدَ، فَهَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عِنْدَكَ وَمَعَكَ فِي بَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَدَارِ جَامِعَةٍ، إِنْ
اسْتَقَالُوا لَكَ وَأَشَارُوا عَسَدِي بِكَ، فَأَمَا وَاضِعَ يَدِي فِي يَدِكَ، وَصَاثِرِي رَأْيِهِمْ فَيْكَ .
وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَادْحَلْ فِيمَا دَحَلَ فِيهِ الْمَسَامُونَ، وَكُنِ الْعَوْنَ عَلَى مَصَابِلِهِمْ، وَالْعَاجِزَ
لِمَعَالِفِهِمْ، وَالْمُرْشِدَ لِصَالَتِهِمْ، وَالرَّادِعَ لِعَوَاثِمِهِمْ . فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْتَعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى،
وَالْتَأَصُّرِ عَلَى الْحَقِّ . وَدَعَا بِقِصَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِصُدُورِ بَرِيئَةٍ مِنَ الْغِلِّ، وَتَلَقَّى اللَّهُ تَعَالَى
بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ مِنَ الضُّغْنِ .

(١) سحرائه أصدقائه . (٢) عاهل ماهر (بالا، الموحدة في الكلبيين) : مهمة . (٣) الصوى :
الأعلام . (٤) المهائج : الطرق . (٥) الياووح (يهرو ولا يهرو) حره الرأس الذي يحررك في الطفل .
(٦) في صح الأعتى : «مهده» .

وبعد، فالناس ثَمَامَةٌ فافترق بهم وأحن عليهم ولين لهم، ولا تُشَقِّقَ نَفْسُكَ بِمَا حَاصَةٌ فِيهِمْ،
وَأَتْرَكَ نَاجِمَ الْحَقْدِ حَصِيدًا، وَطَائِرَ الشَّرِّ وَاقِعًا، وَبَابَ الْفِتْنَةِ مُعْلَقًا، فَلَا قَالَ وَلَا قِيلَ وَلَا لَوْمَ
وَلَا تَبَيِّعَ، وَاللَّهِ عَلَى مَا نَقُولُ شَهِيدٌ، وَبِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ بَصِيرٌ .

قال أبو عبيدة : فلما تَأَهَّبْتُ لِلنَّهْوضِ ، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لَدَى الْبَابِ
هَنِيئَةً عَلَى مَعَكَ دَوْرٌ مِنَ الْقَوْلِ ؛ فَوَقَعْتُ وَمَا أَدْرَى مَا كَانَ بَعْدِي ، إِلَّا أَنَّهُ لَحِقَنِي بَوَاجُ
يَسْدَى تَهْلًا ، وَقَالَ لِي : قُلْ لِعَلِّي : الرَّقَادُ مَحَلَّةٌ ، وَالْهُوَى مَقْصَمَةٌ ، وَمَا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ
مَعْلُومٌ ، وَحَقٌّ مَشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ ، وَبِنَا طَاهِرٍ أَوْ مَكْتُومٍ ؛ وَإِنْ أَكَيْسَ الْكَئِيسُ مِنْ مَحْ
الشَّارِدِ تَأَلَّفَا ، وَقَارِبَ الْبَعِيدِ تَلَطَّفَا ، وَوَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ بَمِيرَانِهِ ، وَلَمْ يَحِلِّطْ حَبْرَهُ بَعْيَانِهِ ،
وَلَمْ يَحْمِلْ فِتْرَتَهُ مَكَانَ شِبْرِهِ ، دِيًّا كَانَ أَوْ دُنْيَا ، صِلَالًا كَانَ أَوْ هُدًى . وَلَا حَيْرَى فِي عِلْمِ
مُسْتَعْمِلٍ فِي جَهْلٍ ، وَلَا حَيْرَى مَعْرِفَةِ مَشُوبَةٍ بِمُكْرٍ . وَلَسَا كَحَلَّةٍ رَمَعَ الْعَيْرُ بَيْنَ الْعِيَانِ
وَالذَّنْبِ . وَكُلُّ صَالٍ فَبِنَارِهِ ، وَكُلُّ سِيلٍ فإِلَى قَرَارِهِ . وَمَا كَانَ سَكُوتُ هَذِهِ الْعَصَاةِ إِلَى
هَذِهِ الْغَايَةِ لَعْنِي وَشَيْءٌ ، وَلَا كَلَامُهَا الْيَوْمَ لِفَرَقِي أَوْ رِفْقِي . وَقَدْ حَدَّعَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْفَ كُلِّ ذِي كِبَرٍ ، وَقَصَمَ طَهْرَ كُلِّ جَبَّارٍ ، وَقَطَعَ لِسَانَ كُلِّ
كَدُوبٍ ، فَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ . مَا هَذِهِ الْخُنُزُونَةُ الَّتِي فِي قَرَائِشِ رَأْسِكَ ! مَا هَذَا
الشَّعَا الْمَعْتَرِضُ فِي مَدَارِجِ أَنْفَاسِكَ ! مَا هَذِهِ الْقِدَادَةُ الَّتِي تَغَشَّتْ نَازِلَتَكَ ! وَمَا هَذِهِ
الْوَحْرَةُ الَّتِي أَكَلَتْ شَرَّاسِفَكَ ! وَمَا هَذَا الَّذِي لَيْسَتْ بِسَبَبِهِ جِلْدَ الْبَمْرِ ، وَأَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
مَالِ الشُّحْتَاءِ وَالشُّكْرُ ! وَلَسَا فِي كِسْرِيَّةٍ كِسْرَى ، وَلَا فِي قِيسْرِيَّةٍ قِيسْرٍ ! تَأَمَّلْ لِإِخْوَانِ فَارِسٍ
وَأَبْنَاءِ الْأَصْفَرِ ! قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَرَرًا لِسَيُوفِنَا ، وَدَرِيئَةً لِرِمَاحِنَا ، وَمَرْمَى لِبَطْنَانِنَا ، وَتَبَعًا
لِسُلْطَانِنَا ، بَلْ نَحْنُ فِي نُورِ نُبُوءَةٍ ، وَضِيَاءِ رِسَالَةٍ ، وَثِمَرَةِ حِكْمَةٍ ، وَأَثَرَةِ رَحْمَةٍ ، وَعُيُونِ رِيعَةٍ ،

(١) الرِّيعُ : أَصْلُ الْعِدَمِ مِنْ مَاطِنٍ . وَالْعِيَانُ : الْإِسْتِ . يَرِيدُ أَنْ يَمُرَّ بِهِمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ . وَالْعَاشَائِرُ لَيْسَتْ
حَقِيرَةً مَهِيَّةً . (٢) الشَّيْءُ بِالْكَسْرِ تَبَاعٌ لِلْعَيْنِ . (٣) الْحِرْوَانَةُ . الْكَبَرُ . (٤) الْوَحْرَةُ
(بِالتَّحْرِيكِ) : وَالْحَقْدُ الْمَدَارَةُ وَالشَّرَاسِيفُ : جَمْعُ شَرَسُوفٍ ، وَالشَّرَسُوفُ مَقَطُّ الصِّلَعِ .

وطُلَّ عِصْمَةٌ ، بين أئمة مهديّة الخلق والصدق ، مأمونية على الرِّقِّ والعَقِّ ، لها من الله قلبٌ
أبى ، وساعدٌ قوى ، ويدٌ ناصره ، وعينٌ باصرة . أنظن طمأ ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا
الأمر مُفْتَاتًا على الأمة حادًا لها أو متسلطًا عليها ! أترأه حلَّ عقودها وأحال عقولها ! أترأه
حمل نهارها ليلا ، ووزَّنها بكلا ، ويَقْطَعُها رُقَادًا ، وصلاحيها فسادًا ! لا والله ! سَلَا عنها فَوَلِهَتْ
له ، وَتَقَطَّاسَ لها فَصِصَتْ به ، ومال عنها هالت إليه ، وأَشْتَمَّازَ دونها فَاشْتَمَلَتْ عليه ، حَوَّةٌ
حَبَّاهُ الله بها ، وعَاقِبَةٌ لَعَنَهُ الله إليها ، ونعمه سَرَّ لَه جَمَالُهَا ، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها ،
وأئمةٌ نظر الله به إليها . والله أعلم بحلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيرة . وإليك
بجيت لا يُجْهَلُ موضعك من بيت السَّوءِ ، ومَعِينُ الرسالة ، ولا يُجَحِّدُ حَقَّك فَمَا آتَاكَ الله ،
ولكن لك مَنْ يزاحمك بِمَنِيكَبٍ أَصْحَمَ من سِجِّكَ ، وقُرْبِ أَمْسٍ من قرابتك ، وسنَّ أعلى من
سَنِّكَ ، وشِيعةٍ أَرْوَعَ من شِيعَتِكَ ، وسيادةٍ لها أَصْلٌ في الجاهلية وفرعٌ في الإسلام ،
ومواقفٍ ليس لك فيها حِجْلٌ ولا نَاقَه ، ولا تُذَكَّرُ منها في مقدمة ولا سَاقَة ، ولا تُصِرُّ فيها
بذراع ولا إصبع ، ولا تَحْرُجُ منها بِيَاظٍ ولا هُجْ . ولم يزل أُو كَرَجَّةً قلب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعِلَاقَةً نفسه ، وعِيَّةَ سِرِّه ، ومَفْزَعَ رأيه ومشورته ، وراحَة كَفِّه ،
ومَرَمَقَ طَرَفِه . وذلك كله بِمَحْصَرِ الصَّادِرِ والوَاردِ من المهاجرين والأنصار ، شهرته مغنيةٌ
عن الدليل عليه . ولعمري إلك أقربُ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ، ولكه
أقربُ منك قرابةً ، والقِرابَةُ لَحْمٌ ودم ، والقُرْبَةُ نَفْسٌ وروح . وهذا فرق عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ ،
ولذلك صاروا إليه أَجْمَعُونَ . ومهما شَكَّكَتَ في ذلك ، فلا تَسْكَ أن يَدَّ الله مع الجماعة ،
ورضوانه لأهل الطاعة . فادْحُلْ فيما هو حَيْرُكَ اليوم وأَنْهَعْ لك غدا ، وَأَلْفِطْ مِنْ فِكَ
ما يَتَعَلَّقُ بِلَهَائِكَ ، وَأَنْفِثْ سَخِيمَةَ صَدْرِكَ عَن ثِقَاتِكَ ، فَإِنَّ يَكُ في الأمد طَوْلٌ ، وفي الأجل
فُسْحَةٌ ، فسْتَأْكُلُهُ مَرِيثًا أو عَيْرَ مَرِيءٍ ، وستَشْرِبُهُ هَبِثًا أو غَيْرَ هَنِءٍ ، حين لا رَأْدَ لِقَوْلِكَ إِلَّا
مَنْ كَانَ أَيْمَانًا مِنْكَ ، ولا تَأْبَعُ لَكَ إِلَّا مَنْ كَانَ طَامِعًا فَيْكَ ، يَمُضُ إِمَابُكَ ، وَيَعْرُكُ أَدِيمُكَ ،

(١) الازل الحمل القوي الذي دخل في سنة الامة والهج : الفصل الذي ينخ في الصبف يكون ضعيفا .

(٢) يمض إمامك : يحرق جلدك . (٣) يعرك : يدلك .

ويزرى على هديك . هالك تفرع السن من ندم ، وتجرع الماء ممزوجا بدم ، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ودارج قوتك ، فتود أن لو سقيت بالكأس التي أبتها ، ورديت إلى حالتك التي آستغويتها . والله تعالى فيا وفيك أمر هو بالغه ، وعيب هو شاهده ، وعاقبة هو المرجو لسراتها وضراتها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فتمشيت مترملاً أنوء كأتما أخطو على رأسي ، فرقا من الفرقة ، وشققا على الأمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلأ ، فانتنته شئ كله ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به . فلما سمعها ووعاها ، سرت في مفاصله حياها ، قال : "حلت معلوطة" (١) وولت محروطة" (٢) ، وأنشأ يقول :

إحدى ليليك فيهيسي هيسي * لا تغمي الليلة بالتعريس (٣)

نعم يا أبا عبيدة ، أكل هذا في أنفس القوم ، ويحسون به ، ويضططعون على ! قال أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عدى ، إنما أنا قاص حق الدين ، ورائق فق المسلمين ، وساد ثلثة الأمة ، يعلم الله ذلك من جلال قلبي ، وقرارة نهي .

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب . واسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروح الله . ورابع الخلفاء الراشدين . وإمام الخطاء من المسلمين ولد رحمه الله بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعا لا يشق له عار . أيدا حليدا . شهد العروات كلها مع النبي إلا عروة توك . وأمل في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يله أحد . ولما قتل عثمان ما به الناس بالخيار وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة من أمية عصا منهم لقتل عثمان وقلة عايسته والحث عن القتل على حسب اعتقادهم ، لحدث من حراء ذلك الفتنه الطمى بين المسلمين وافتراقهم إلى طائفتين فتعارىا مدة من غير أن يستتب الأمر لعل أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج عليا عيلة بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علما ورهبا وشدة في الحق : وهو إمام الخطاء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوطة . مفتحة من غير روية . (٣) محروطة . مسرعة . (٤) هيسي : سبى أى سير كان . (٥) أى يطرون على الصن وهو الحقد . (٦) جلال قلبي ، أى حته .

فقال عليّ رضى الله عنه : والله ما كان قُعودى في كِنِ هذا البيتِ قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعروف ، ولا زِريّةً على مسلم ، بل لما قد وقَدَرَنِي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِرَاقِهِ ، وأودعني من الحزن لفقده . وذلك أحي لم أشهد بعده مَشْهَداً إلا جدد عليّ حزنا ، وذكّرني شجبا . وإن الشوق إلى اللّحاق به كَافٍ عَنِ الطمع في غيره . وقد عكمتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تهقّر ، رحاء ثواب مُعَدٍّ لِمَن أحلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومَشيئته ، وأمره ونهيّه . على أنى ما علمت أن التظاهر عليّ واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع . وإذ قد أُفِيعَ الوادى بي ، وحُشِدَ البادى من أحلى ، فلا مرحبا بما ساء أحداً من المسلمين وسرتنى . وفي المس كلاً لولا سائق عقد وسالف عهد ، لَشَقِيتُ غِظى بِنَحْصَرى وبِصَرى ، وحُضْتُ لِحُتّه نَأْمَحِصى ومَفْرِقى ، ولكننى مُلْجَمٌ إلى أن ألقى الله ربي ، وعده أحتسب ما رل بي . وإني عادٍ إلى جماعتكم ، فبائعٌ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءنى وسرتكم ، لِيَقْصَى الله أمرا كان مفعولا .

قال أبو عُبَيْدَةَ : فعدتُ إلى أنى بكر رضى الله عنه فقَصَصْتُ عليه القولَ على عمره ^(١) ، ولم أخترل شيئا من حُلُوهِ ومُمرّه ، وبَكَرْتُ عُدُوهُ إلى المسجد ، فلما كان صباحُ يومئذ وإذا عليّ مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضى الله عنهما فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف حبيلا ، وجلس زَمِينًا ، وأستاذن للقيام فقصى وتبعه عمر مُكْرِمًا له ، مستائرا لما عده .

فقال عليّ رضى الله عنه : ما فعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيته فِرَاقًا ، ولا أقول ما أقول تَلَعًا . وإني لأعرف منتهى طَرَفى ، ومَحَطَّ قَدَمى ، ومتَرَعَّ قوسى ، وموقعَ سهمى ، ولكن قد أَرَمْتُ على فَأَسَى ثِقَةً بِرِى في الدنيا والآخرة ^(٢) .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفَيْكَ غَرْبَكَ ، وآسَتَوْفَ سِرْبَكَ ، ودَعَ الْعِصَى بِلِحَائِهَا ، والدَّلَاةَ عَلَى رِشَائِهَا . فإنما من حَلَفِهَا وورائِهَا ، إن قَدَحْنَا أَوْ رَيَّا ، وإن مَتَحْنَا أَوْ رَوَيْنَا ،

(١) على عمره ، أى كما هو وكما نص عليّ . (٢) رمينا : حليا وقورا . (٣) يقال :

أرم العرس على رأس العام إذا عصها وقص عليها . ورأس العام : الحديدة المعترسة منه في الحنك . يريد أنه ألهمه ثقة الخ .

وإن قَرَحْنَا أَدَمِيْنَا . ولقد سمعتُ أُمَاثِيْلَكَ الَّتِي لَعَزَّتْ بِهَا عَنْ صَدْرِ أَكِلٍ بِالْحَوَى ، ولو شئتُ لقلْتُ على مقالِكَ ما إن سمعته يَدِمْتُ على ما قلت . وزعمتُ أنك قعدتُ في كَنِّ بيتِكَ لما وَقَدَكَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقيده ، فهو وَقَدَكَ ولم يَقْدُ غَيْرَكَ ! بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حق مُصَابِهِ ألا تُصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيدُ الشيطان في نقاتها . هذه العرب حولنا ، والله لو تَدَاعَتْ عليا في صبح نهار لم نلتقي في مسانه . وزعمتُ أن الشوق إلى الخلق به كأي عس الطمع في غيره ! فن علامة الشوق إليه بصره دينه ، ومؤازرة أوليائه ومعاوتهم . وزعمتُ أنك عكمتُ على عهد الله تجمع ما تفرق منه ، فمن العكوف على عهد الله البصحة لعاد الله ، والرأفة على خلق الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشدون عليه . وزعمتُ أنك لم تعلم أن الظاهر واقع عليك ، وأى حق لظ^(١) دوك ! . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار للأمس سراً وجها ، وتقبلت عليه بطبا وطهرا ، فهل ذكرتُ أو أشارتُ بك ، أو وجدتُ رضاهم عك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوما بعينه أو هم في نفسه ؟ أنظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كفارا زهدا فيك ، وابعوا الله تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عَقِيل ابن زياد الخرزجي في نَفَرٍ من أصحابه ومعهم سُرخيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، ويُبكر على من يُعقد الخلافة ، فأكرتُ عليهم ، ورددتُ القول في نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوكف^(٢) ماحاة الملك ؛ فقلت : ذلك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أكان الأمر معقودا بأشوط^(٣) ، أو مشدودا بأطراف ليط^(٤) ؟ كلا ! والله لا عجماء بحمد الله إلا أفصححتُ ، ولا شوكاء إلا وقد تفتححت . ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشقيتُ غيظي » وهل ترك الدين لأهله أن يشقوا عيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك حاهلية وقد استأصل الله شأقتها وأقتلع جُروماتها ، وهو ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان .

(١) لط : جهد . (٢) يتوكف : يحطر . (٣) الأشوط : عقدة يسهل إصلاها ،

إذا أخذ أحد طرفيها امتحت . (٤) البطة قشرة القصة التي تليط بها أي تترك .

وزعمت أنك مُلحَمٌ؛ ولعمري إن من آتق الله، وآثر رِصاه، وطلب ما عده، أمسك لسانه وأطلق فاه، وحمل سعيه لما وراه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حَفْص، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريد سكتَه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حَولاً عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله من آثر الفُتاق، وأحتصن الشُّقاق، وفي الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص الى تحريك نايق القلب، مبرود الغليل، فسيح اللسان، فصيح اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشذ الأزر، ويحطّ الوزر، ويصع الإصر، ويجمع الأله بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو هيدة رضى الله عنه : فأنصرف على وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .



٢ — ومن كلام عائشة^(١) رضى الله عنها في الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما ينادون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلت الى أرقلة^(٢) من الناس، فلما حصروا، أسدلت أستارها، وعَلَّتْ سَآدَها، ثم قالت : أبى، وما أبىه ! أبى والله لا تَعْطُوهُ الأيدي، ذاك طودٌ مُبِيف، وفرعٌ مَديد، هيبات، كدبِ الطنون ! أُنْحِ إِدْ أَكْذَبْتُمْ، وَسَبِّ إِدْ وَتَيْتُمْ، سَنُقِ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوَى عَلَى الْأَمْد . فتي

(١) اللبان . الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخلها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من السّنة، وأُمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقتها أربعمائة درهم، وكانت أحبّ سائمه إليه، وكتبها أم عبد الله، كبت ما أحبها أسماء، ولها حطب ووقائع . وكانت من أكرم العائلات فى رقعة الحبل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطلحة . وكانت أصبح أهل زمامها وأبنهم منطلقاً وأحفظهم للحديث وأفهمهم . توفيت سنة سبع وخمسين وهدت ليل بالقيص وصل عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .

(٣) الأرقلة . الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تاله .

قريش ناشئا، وكهفها كنهلا، يكأ عايها، ويريش ثملقها، ويرأب شعبها، ويلم شعنها، حتى
 حليتة قلوبها، ثم استشرى في دين الله ما برحت شكيمة في ذات الله عز وجل حتى اتحد
 بهائه مسجداً يحيى فيه ما أمان المبتلون . وكان رحمه الله عزير الدمة، وقيد الجوانح،
 نحي النشيج، فانقصت اليه يسوان مكة وولدائها يسخرون منه ويستهنون به (١) الله يستهزي
 بهم ويدهم في طغيانهم يعمهون) فأكبر ذلك رجالاً من قريش حست قبيها، وفوقت
 سهامها، وانه ثلوه عرصاً، فما ثلوا له صعاة، ولا قصعوا له قاة، ومر على سيسانه (٢) حتى
 اذا صرب الدين بجرانه، ورست أوتاده، ودخل الناس فيه أواجاً، ومن كل مرقاة أرسلوا
 وأشتاتا، احتار الله لبيته ما عده، فلما قبص الله بيه صلى الله عليه وسلم صرب الشيطان
 رواقه، ومد طسه، ونصب حائله، وأحل تحيله ورحله، وأصطرب حل الإسلام،
 ومرج عهده وماج أهله، ونبي العوائل، وطست رجال أن قد أكتبت أطلعهم نهرها،
 ولات حين الذي يرحون، وأنى والصدق بين أظهرهم ! فقام حاسراً مشتمراً، بجمع
 حاشيته ورفع قطريه، فرد رس الإسلام على عربيه، ولم شعته يطبه، وأتاش الدين
 فعمشه، فلما أراح الحق على أهله، وقزر الرعوس على كواهلها، وحس الدماء في أهيا،
 أنه ميتة، فسدت ثلته بظيره في الرحمة، وشقيقه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب،
 لله دز أتم حلت به ودرت عليه ! لقد أوجدت به، ففسخ الكفرة وديجها، وشرّد الشرك
 شدر مدره، وسع الأرض وجمعها، فقاءت أكلها، ولظفت خباها (٣) ترأمة ويصيف عنها،
 وتصدى له ويأماها . ثم وزع فيها فيتها وودعها كما صحبها . فارونى ماذا ترتنون، وأي
 يومى أبى تقيمون : أيوم إقامته اذ عدل فيكم، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هذا
 وأستعفر الله لى ولكم . ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت : أنشدكم الله هل أنكرتم مما
 قلت شيئا ؟ قالوا : اللهم لا .

(١) على سيسانه، أى على دأه وطأته . (٢) فح : غلب وقهر . (٣) حاشا :



٣ - كلمة أم الخير بنت الحرث^(١)

ومن كلام أم الخير بنت الحرث البارقية يوم صمى فى الانتصار لعلّ رضى الله عنه :
 يروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير بنت الحرث البارقية
 برسلها، وأعلمه أنه يجازيه قولها فيه بالخير حيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب
 اليها فاقراها الكتاب، فقالت : أنا أأفغير زائعة عى طاعة ولا معتلة بكذب ! ولقد كنت
 أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تحتلج فى صدرى . فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها :
 يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب الى أنه يجازى بقولك فى بالخير حيرا وبالشر شرا ،
 فما عندك ؟ قالت : يا هذا لا يطعمك ركبى أن أسرك باطل ، ولا تؤسك معرفتى بك
 أن أقول فىك غير الحق . فسارت حير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأترها مع حريمه ثلاثا ،
 ثم أدخلها عليه فى اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين
 ورحمة الله وبركاته ، قال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، وبالرمم مك دعوتى بهذا الاسم ؛
 قالت : مة يا أمير المؤمنين ! فإن يديها السلطان مدحضة لما يحب علمه ولكل أجل كتاب ،
 قال : صدقت ، فكيف حالك يا حالة ؟ وكيف كنت فى مسيرك ؟ قالت : لم أزل فى عافيه
 وسلامة حتى صرت اليك فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رقيق ؛ قال معاوية : بحسن نيتى
 طفرت بكم ؛ قالت : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحس المقال وما تردى عاقته ،
 قال : ليس هذا أردنا ، أحيرى كيف كان كلامك يوم قبيل عمار بن ياسر ؟ قالت :
 لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نقهن لسانى حين الصدمة ،
 فان شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى
 أصحابه فقال : أيكم يحفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
 كحفظى سورة الحمد ؛ قال : ها به ؛ قال : نعم كفى بها يا أمير المؤمنين فى ذلك اليوم عليها

(١) مقولة عن صح الأعتى ح ١ ص ٢٤٨ (٢) رور الكلام فى هه : هياه .

بِرْدُ زَيْدِي كَثِيفَ الْحَاشِيَةِ، وَهِيَ عَلَى جَمَلِ أَرْمَكُ^(١) وَقَدْ أَحِيطَ حَوْلَهَا، وَبَيْدَهَا سَوَاطٍ مُنْتَشِرَ الصَّعْر، وَهِيَ كَالصَّلِ يَهْدِرُ فِي شِقَاقِهِ تَقُولُ :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) ! إِنْ اللَّهُ قَدْ أَوْضَحَ الْحَقَّ، وَأَنَا الدَّلِيلُ، وَتَوَرَّ السَّبِيلَ، وَرَفَعَ الْعِلْمَ، فَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي عَمْيَاءٍ مُهْمَةٍ ! وَلَا سُودَاءَ مُدْهِمَةٍ، فَالِ أَيْنَ تَرِيدُونَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ! أَفِرَارًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَمْ فِرَارًا مِنَ الزَّخْفِ، أَمْ رَغْبَةً عَنِ الْإِسْلَامِ، أَمْ ارْتِدَادًا عَنِ الْحَقِّ ! أَمَّا سَمِعْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿وَلَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ نَحْنُ وَنَحْنُ﴾ .

ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ تَقُولُ :

قَدْ عَيْلَ الصَّبْرُ، وَصَعَّفَ الْيَقِينُ، وَانْتَشَرَ الرَّعْبُ، وَبَيْدَكَ يَا رَبَّ أَرِمَةُ الْقُلُوبِ، فَاجْمَعْ الْكَلِمَةَ عَلَى التَّقْوَى، وَأَلْفَ الْقُلُوبَ عَلَى الْهَدْيِ . هَلَمُّوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَالْوَصِيِّ الْوَفِيِّ، وَالصَّدِيقِ الْأَكْبَرِ ! إِنَّمَا لِحْنُ بَذْرِيَّةٍ، وَأَحْقَادُ حَاهِلِيَّةٍ، وَصَفَائِنُ أُحْدِيَّةٍ، وَتَبَّ بِهَا مَعَاوِيَةَ حِينَ الْفَلَةِ لِيُذْرِكَ بِهَا ثَارَاتُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ .

ثُمَّ قَالَتْ : قَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . صَدْرًا مَعَشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، قَاتِلُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَثَبَاتٍ مِنْ دِيَارِكُمْ، وَكَأَنِّي بِكُمْ عَدَاً قَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ الشَّامِ كَحُمُرٍ مُسْتَنْفِرَةٍ، قَرَّتْ مِنْ قَسْوَةِ، لَا تَدْرِي أَيْنَ يُسَلِّكُ بِهَا مِنْ بِلْجَاجِ الْأَرْضِ، بَاعُوا الْآخِرَةَ بِالْأُولَى، وَاشْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدْيِ، وَبَاعُوا الْبَصِيرَةَ بِالْعَمَى، وَعَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْهِقُنَّ مَادِمِينَ، حِينَ تَحُلُّ بِهِمُ الدَّمَامَةُ، وَيَطْلُبُونَ الْإِقَالَةَ ! إِنَّهُ وَاللَّهِ مَنْ ضَلَّ عَنْ الْحَقِّ وَقَعَ فِي الْبَاطِلِ، وَمَنْ لَمْ يَسْكُنِ الْجَسَةَ نَزَلَ فِي الْبَارِ . أَبْهَا النَّاسِ، إِنَّ الْأَيْكَاسَ اسْتَقْصَرُوا عَمَرَ الدُّنْيَا فَرَفَضُوهَا وَاسْتَبْطَظُوا مَدَّةَ الْآخِرَةِ فَسَعَوْا لَهَا . وَاللَّهِ أَبْهَا النَّاسِ لَوْ لَا أَنْ تَبْطُلَ الْحَقُوقُ، وَتُعْطَلَ الْخُدُودُ، وَيُظْهَرَ الظَّالِمُونَ، وَتَقْوَى كَلِمَةُ الشَّيْطَانِ، لَمَا احْتَرْنَا وَرُودَ الْمَايَا عَلَى خَفْصِ الْعَيْشِ وَطَيْبِهِ، فَالِ أَيْنَ تَرِيدُونَ — رَحِمَكُمُ اللَّهُ — عَنْ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وزوج ابنته وأبى آبنه^١ خلق من طينته، وتفرع عن نعته، وخصه بستره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحجة المسلمين، وأمان بغضه المافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمصى على سنن استقامته، لا يعترج لراحة اللذات. وهو مُفَلِّقُ الهام، ومكسّر الأصنام، إدا صلتى والناس مُشركون، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مُبارِزى بذر، وأفنى أهل أحد، وقرق جمع هوازن، فإلهة وقائع زرعت في قلوب قوم نفاق، وردة وشقاقا. وقد آجهدت في القول، وبالمث في المصيبة، والله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوءنى يا ابن همد أن يُحْرِىَ الله ذلك على يدي من يُسعدنى الله بشقائقه؛ قال: هيات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راصون؛ فقال: إياها يا أم الخير، هذا والله أصلك الذى تدن عليه، قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردت عثمان نقصا، ولقد كان ساقا إلى الخيرات، وإنه لرفع الدرجة. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، اغتيل من مأمته، وأتى من حيث لم يتحدر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعنى كرجيع الصبيغ يُعرك في المِرْك^(١)؛ قال: حقا لتقولن ذلك وقد عزمْتُ عليك؛ قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان ساقا إلى كل مكرمة في الإسلام. وإني

(١) المِرْك: الإحالة وهي إياه تعمل فيه الثياب. ويرك: يحك. والرجع المردود. أى لا تخطئ كالنوب المصروع يحك في الإياه مرة بعد أخرى لإحراج صممه: أنه شبه محاوره معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما فيها مما يعمل من الثياب المصوعة لاستخراج صبغها منها.

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قریشاً تحدثت ألك من أحلمها، أن تَسْعَنِي بفضل حلمك، وأن تُعَفِّنِي من هذه المسائل، وأَمِصْ لِمَا شئتَ من غيرها، قال: نعم وكرامةً، قد أعفيتُك، وردّها مكرمة إلى بلدّها .



٣ - كلمة الزرقاء بنت عدى

ومن كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ما قالته يوم صغى أيضا :

يروى أنها دُرِكت عند معاوية يوما، فقال جلسائه . أَيْكُمْ يَحْفَظُ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين، قال : فأشيروا علىّ في أمرها، فأشار بعضهم بقتلها، فقال : شئس الرأي ! أَيْحَسُنُ بِمَثَلِ أَنْ يَقْتُلَ امرأة ! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُودعها إليه مع ثقة من ذوى تحرّمها وعده من فرسان قومها، وأن يمهّد لها وطاءً ليا، ويستترها بستر حصيف^(١)، ويوسع لها في الفقة . فلما دخلت على معاوية، قال: مرحباً بك وأهلاً ! قَدِمْتَ حَيْرَ مَقْدَمٍ قَدِمَهُ واحد، كيف حالكِ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة ! قال : كيف كنت في مسيركِ؟ قالت : ريدةً بيتٍ أو طِفلاً ممهداً، قال : بذلك أمرناهم . أتدريين فيم بعثتُ إليك؟ قالت : وأنى لى أعلم ما لم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل؛ قال: ألسيتِ الراكبةَ الجمل الأحمر، والواقفةَ بين الصقيّينِ بصقيّينِ تحصينِ الناس على القتال، وتوقدين الحربَ؟ فما حملك على ذلك؟ قالت . يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وُبر الدّيب، ولن يعود ما ذهب؛ والدهر ذو غير، ومن تفكّر أبصر، والأمرُ يحدث بعده الأمر؛ قال

(١) هي الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة فائقة، وبلاغة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدة حيل تحرض الناس بها على القتال ضد معاوية . وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب إلى عامله بالكوفة ناسداً لها، فأحصرت إليه، وبعد محاورته به وبها سألها حاجتها، فقالت « يا أمير المؤمنين، أليت على مني ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً؟ ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية حائزة . (٢) حصيف : غليظ .

لها معاوية: أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أنسيته؛ قال: لكني أحفظه،
 لله أبوك حين تقولين:

أيها الناس، إرْعَوْوا وَاَرْجِعُوا! إنكم أصحتم في فتنَةٍ غَشَّتْكم جلايبُ الظلم، وحارت
 بكم عن قصد المحمَّة. فإلها فتنه عُمياء، صَمَاءٌ بَنَاءٌ، لا تسمع لناعقها، ولا تَسْلُسُ لقائدها.
 إن المصاح لا يُصَيء في الشمس، والكواكب لا تُبِير مع القمر، ولا يقطع الحديد
 إلا الحديد. أَلَا مَنْ أَسْتَرَشِدَ أرشدناه، وَمَنْ سَأَلَنَا أَخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها! فصبراً يامعاشر المهاجرين والأنصار
 على الغُصص، فكان قد أدمل شَعْبُ الشَّات، وآتامت كلمةُ التقوى، ودَمَعَ الحقُّ باطله!
 فلا يحلن أحدٌ يقول: كيف العبدُ وأنى! ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. أَلَا وإن خضاب
 النساءِ الحِباء، وخِصَابَ الرجالِ الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خيرٌ في عواقب
 الأمور. أيها إلى الحرب قُدماً غيرنا كصين ولا مُتَسَاكِين.

ثم قال لها: يا زرقاء، لقد شَرِكْتَ علياً في كل دم سَفَكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك،
 وأدام سلامتك، فمثلك من بشر بغير وسرّ جلسه؛ قال: ويسرك ذلك؟ قالت: نعم سُررتُ
 بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل! فصحك معاوية وقال: لو فَاؤُكم له بعد موته أعجبُ عدى
 من حبكم له في حياته! أذكرى حاجتك، قالت: يا أمير المؤمنين، أليتُ على نفسي أَلَا
 أسأل أميراً أعنتُ عليه أبداً، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلبه؛ قال:
 صدقت، وأمر لها وللذين حاءوا معها بجوائز وكسا.

٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالته يوم صِفِّين أيضاً:
 يُروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسأمت عليه بالخلافة ثم جلست؛
 فقال لها معاوية: الآن صرْتُ عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا على-سى! قال:

ألسيت المتقلدة حائل السيف بصيبي وأنت واقفة بين الصبيين تقولين : أيها الساس ، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا آهتديتم . إن الحجة لا يحزن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دحائها ، فابتاعوها بدار لا يدوم بيمها ، ولا تصرف همومها . وكووا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهرين على حقهم ، إن معاوية دلف إليكم معكم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم إلى الدنيا فلبّوه . فآله الله عباد الله في دين الله ! وإياكم والتواكل فإن ذلك يقص عرى الإسلام ، ويطفى نور الحق . هذه بذرة الصغرى ، والعقصة الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ، أمضوا على بصيرتكم ، وأصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر اللاحقة تقصع قصع البعير^(١) .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكها عليك العسكران يقولون هذه عكرشة بنت الأطرش ، فإن كدت لتعلي أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللييب إذا كره أمراً لا يحث إعادته ، قال : صدقت ، فاذكري حاجتك ، قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يُجبر لنا كسبر ، ولا يُنعش لنا فقير ، فإن كان عن رأيك فمثلك من أنتبه من العملة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالخونة ، ولا استعمل الظلمة ، قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبنا من أمور رعيتنا نفور نتفتق ، وبحور نتدقق ، قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً جعل فيه صرراً لغيرنا وهو علام الغيوب ، قال معاوية : هيات يا أهل العراق ، نبهكم على فن تطاقوا . ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير يحزنه يقصع قصا . مصمها .

٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب^(١)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لعص من ولّاه^(٢) :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين - عد ما أعتزّ عليه من بوجيهاك الى عدوّ الله الحلف الجاني الأعرابي ، المتسكّع في حيرة الجهالة ، وطلم الفتنة ، ومهاوى الهلكة ، ورعاعه الدين عاثوا في أرض الله فساداً ، وأتتهكوا حرمة الإسلام استحقافاً ، وذلّوا نعمة الله كفراً ، وأسّحلوا دماء أهل سلّمه جهلاً - أحبّ أن يعهد اليك في لطائف أمورك ، وعوامّ شؤونك ، ودحائل أحوالك ، ومضطّرف تنقّل عهدا يحلّك فيه أدبه ، ويشرّع لك به

(١) هذه الرسالة منقولة عن صحيح الأغني ح ١٠ ص ١٩٥ (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامريّ - ولّاه ، الشامي داراً ، شيخ الكتّاب الأوائل ، وأوّل من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بني عامر ، وتخرّج في اللادة والكتابة على حبه أبي الصلاء سالم . وولى هشام بن عبد الملك وكانت دوله وأحد علماء العالم والبقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد في أوّل أمره معلّم صبيان ينقل في البلدان حتى فطّل له مروان بن محمد أيام تولّيه أرمينية وانتداه لتسكين فتنتها ، فكنت له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه ما به أهلك الشام له بالخلافة سمع مروان الله شكرًا وصحبه أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسعد ؟ نال . ولم أسمع ؟ أبلّ أن كنت معاً فطرت عا ! قال : إذا تطير معي ؛ قال : الآن طاب لي السجود وسمعت ، فاتخذ مروان كاتب دوله ، فصدر عنه من الرسائل ما صار عودها يحاكم به من بعده من العلماء .

ولما ذهبت مروان حيوش حراسان أضاء الدعوة العاسية وتوالّت عليه المراثم كان عبد الحميد يلازمه في كلّ هذه الشدّة ؛ فقال له مروان - عد احتجت أن تصير مع عدوّي وتطهر العدرى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاحتهم إلى كتابتك ، تحوّلهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تمنعني في حياتي وإلا لم تنصّر عن حبط حرمي بعد وفاق ، فقال له - إن الذي أشرت به علىّ أجمع الأمرين لك وأقبحهما في ، وما عدى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأشد :

أمرّ واه ثم أظهر عذرة * منى مئذ يوسع الناس طاهره

وبقي معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ وهو احتجاً عند صديقه ابن المذيع فعاداه الطلب وهو في بيته ، فقال الدين دخلوا عليهم أياً عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، حوا على صاحبه ، وحاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المذيع فقال - ترقوا ما فانت كلا ما له علامات ، هوكلوا ما معكم وبمضي بعض آخر ويذكر تلك العلامات لم يوحكم فعملوا وأحد عبد الحميد إلى السماح فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته في ابن حلكان (ح ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الصهاك بن قيس الشيباني الحارثي .

عِظَتُهُ ، وَإِنْ كُنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَحِلَاثَتِهِ بِحَيْثُ أَصْطَلَعَكَ اللَّهُ لَوْلَايَةِ الْعَهْدِ مُحْتَصًّا
لَكَ بِذَلِكَ دُونَ مُحْتَمِكَ وَتَنِي أَيْسِكَ . وَلَوْلَا مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دَالًّا عَلَيْهِ ، وَتَقَدَّمَ فِيهِ
الْحِكْمَاءُ أَمْرَيْنِ بِهِ : مِنْ تَقْدِيمِ الْعِظَةِ ، وَالتَّذْكِيرِ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ، وَإِنْ كَانُوا أَوْلَى سَاقِهِ
فِي الْفَصْلِ وَحِصِّصَاءِ فِي الْعِلْمِ ، لِاعْتِمَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَصْطِلَاعِ اللَّهِ إِيَّاكَ وَتَفْصِيلِهِ لَكَ
بِمَا رَأَى أَهْلُهُ فِي مَحَلِّكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَيْفِكَ إِلَى رَعَائِبِ أَحْلَاقِهِ ، وَأَنْتَرَاكِ مَجْمُودِ سَبِيهِ ،
وَأَسْتِيلَاكِ عَلَى مَسَاشِيهِ تَدْبِيرِهِ . وَلَوْ كَانَ الْمُؤَدُّونَ أَحْدُوا الْعِلْمَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِمْ ، أَوْ لَقَوْهُ
إِلْهَامًا مِنْ تِلْقَائِهِمْ وَلَمْ يُصِبْهُمْ تَعَلُّمًا شَيْئًا مِنْ عَيْرِهِمْ ، لَحَلَّاهُمْ عِلْمَ الْعَيْبِ ، وَوَصَعَاهُمْ بِمِرْلَةٍ
قَصَّرَهَا عَنْهُمْ حَالِقُهُمُ الْمُسْتَأْثِرُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ عَنْهُمْ بَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي فِرْدَانِيَّتِهِ وَسَابِقِ لَاهُوتِيَّتِهِ ،
أَحْتِنَانًا مِنْهُمْ لَتَعَقُّبٍ فِي حَكْمِهِ ، وَنُثْبِتَ فِي سُلْطَانِهِ وَتَفْغِيزِ إِرَادَتِهِ ، عَلَى سَابِقِ مَشِيئَتِهِ .
وَلَكِنَّ الْعَالِمَ الْمَوْفِقَ لِلْخَيْرِ ، الْمُحْصُوصَ بِالْفَضْلِ ، الْمُخَوِّ مِزِيَةَ الْعِلْمِ وَصَبُونَهُ ، أَدْرَكَهُ مُعَاً عَلَيْهِ
لَطْفَ بَحْثِهِ ، وَإِذْلالَ كَمَفِهِ ، وَصِحَّةَ فَهْمِهِ ، وَتَجَرُّ سَامِيَتِهِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، أَحَدًا بِالْحُجَّةِ عَلَيْكَ ، مُؤَدِّيًا حَقَّ اللَّهِ الْوَاحِدَ عَلَيْهِ
فِي إِرْشَادِكَ وَقِصَاءِ حَقِّكَ ، وَمَا يَنْظُرُهُ الْوَالِدُ الْمَعْنِيُّ الشَّفِيقُ لَوْلَدِهِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَحُو أَنْ
يَنْزُكَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ قَيْحٍ سَهْشَ لَهُ طَمَعٌ ، وَأَنْ يَفْصِمَكَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ حَاقٍ بِأَحَدٍ ، وَأَنْ
يَحْصِبَكَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ أَسْتَوْلَتْ عَلَى أَمْرِيٍّ فِي دِينٍ أَوْ حُلُقٍ ، وَأَنْ يَنَافِهِ فَيْكَ أَحْسَنَ مَا لَمْ يَزَلْ
يَعُودُهُ وَيُرِيهِ مِنْ آثَارِ بَعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ ، سَامِيَةً لَكَ إِلَى ذِرْوَةِ الشَّرَفِ ، مَتَبَحِّحَةً لَكَ بِسَطَّةُ
الْكَرَمِ ، لِأَمْنَةِ لَكَ فِي أَزْهَرِ مَعَالِي الْأَدَبِ ، مُورِثَةً لَكَ أَهْسَ ذُحَاثِ الْعِزِّ ، وَاللَّهُ يَسْتَحَابُّ
عَلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْأَلُ حَيَاطَتَكَ ، وَأَنْ يَعْصِمَكَ مِنْ زَيْغِ الْهَوَى ، وَتُحْصِرَكَ دَائِعَى
التَّوْفِيقِ ، مُعَاً عَلَى الْإِرْشَادِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُعِينُ عَلَى الْخَيْرِ وَلَا يَوْقُقُ لَهُ إِلَّا هُوَ .

إِلْمُ أَنْ لِحَكْمَةَ مَسَالِكِ تَفْصِيٍّ مَضَائِقُ أَوَائِلِهَا بِمِنْ أَهْمَا سَالِكَا ، وَرَبِّكَ أَحْطَارَهَا
قَاصِدَا ، إِلَى سَعَةِ عَاقِبَتِهَا ، وَأَمِنْ سَرَحِهَا ، وَشَرَفِ عِزِّهَا . وَأَنَّهَا لَا تُعَارِ بِسُخْفِ الْحَقَّةِ ،
وَلَا تُنْشَأُ بِتَفْرِيطِ الْعَمَلَةِ ، وَلَا يُتَعَدَّى فِيهَا بِأَمْرِيٍّ حُدُّهُ . وَرَبِّهَا أَطْهَرَتْ بِسَطَّةِ النَّفَى

مستور العيب . وقد تلقّنتك أحلاق الحكمة من كل جهة بمصلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، ولا مُتَطَوِّلٍ لمساولة ذُرْوَتِها ، بل تأثّلت منها أكرم نَبَاتِها ، وأستخلصت منها أعتق حوايرها ، ثم سموت الى كُباب مُصَاصِها ^(١) ، وأحرزت مُنَيَسَ ذَآئِرِها ، فأقتعد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

وأعلم أن احتواءك على ذلك وسَبَقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً لها ، وإصمار طاعته منطوياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له ، مرتبطاً فيه للريد بحس الحياطة له والدّب عنه من أن تدّلك منه سامة ملال ، أو غفلة ضياع ، أو سيّس تهاون ، أو حَمالة معرفة ، فإن ذلك أحق ما يديئ به ويُطَر فيه ، معتمداً عليه بالقوة والآلة والمعدة والأهراد به من الأصحاب والخاصة . فتمسك به لاجئاً إليه ، واعتمد عليه مؤثراً له ، واتّجى إلى كَمفه متحيراً إليه : فإنه أُلْع ما طُلب به رضا الله وأنجحه مسألة ، وأحرله نوانا ، وأعوذه بها ، وأعنه صلاحاً ، أرشدك الله لحظك ، وفهمك سداده ، وأخذ قلبك إلى محموده . ثم أجعل لله في كل صباح يُعِم عليك ببلوعه ، ويُظهر ملك السلامة في إشرافه ، من نفسك بصياً تجعله له شكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن ، وسبوع بعم ، وظهر كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — حراً تُرَدّد رأيك في آيه ، ونزّل لفطك قراءته ، وتُحصِر عقلك ناظراً في مُحكمه ، وتنفهمه معكراً في مُتشابهه : فإن في القرآن شفاء الصدور من أمراضها ، وحلاء وساوس الشيطان وصعاصيعه ^(٢) ، وضياء معالم السور ، تيانا لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . ثم تعهّد نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مغلاق الحسّات ، ومفتاح السيئات ، وخَصم العقل .

وأعلم أن كل أهوائك لك عدوٌّ يحاول هلكتك ، ويعترّض غفلتك ، لأنها خُدع إبليس ، وخَوَائِل مكره ، ومصابدٌ ميكيدته ؛ فاحذرْها مجانباً لها ، وتوقّها محترساً منها ؛ وأستعد

(١) المصاص . حاصر كل شيء .

(٢) كذا في صح الأعمى وفي مفتاح الألوكار (ص ٢٨٢) وغيره « وترى » . (٣) الصعاصع :

جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الخنازير ، شبه وسوسة الشيطان به . وفي بعض المؤلفات « وسعاسفه » .

بالله عز وجل من شرها، وحامدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية^(١) فيه، وحريم
 نافذ لا مشيئة^(٢) لأريك بعد إصداره، وصديق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومصائب صارمة
 لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها: فإن ذلك طهرى صديق لك على ردها
 عك، وقمعها دون ما نتطلع إليه منك؛ فهي واقية لك من سخطه، داعية إليك رصا
 العاقبة عك، سارة عليك عيب من دوك؛ فازدن بها متعليا، وأصب بأحلاقك مواضعها
 الحميدة منها، وتوق عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها، وتقصر بك دون شأوها: فإن
 المؤونة إنما أشتدت مستصعبة، وقدحت باهظة أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المستحليين
 سمو القدر. بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومجودها، حتى فترط أهل التصدير في بعض
 أمورهم، فدخلت عليهم الآفات من جهات أسوها، فأنسبوا إلى التفريط، ورضوا بذلك
 المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، تهمين عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة
 أهل الجاه. فحاول بلوغ غايتها محمرا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصيا
 أعمالك من العجب: فإنه رأس الهوى، وأول العواية، ومقاد الهلكة، حارسا
 أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب وذميم تأبزها، من حيث أتت الغفلة،
 وانتشر الضياع، ودخل الوهن. فتوق غلوب الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق
 ستظهر بآماراتها تصديق آرائك عند دوى المحمالة حال الرأي وخص الطر. فاحتل
 لنفسك محمود الذكر وفاق لسان الصديق الحذر لما تقدم إليك فيه أمير المؤمنين،
 متحرزا من دخول الآفات عليك من حيث أسك وقلة يفتك تحكها. من ذلك أن تملك
 أمورك بالقصد، وتدارى جندك بالإحسان، وتصون سرك بالكتان، وتداوى حقدك
 بالإنصاف، وتذل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول
 الآفات عليه بالعجب المردى. وأنتك فوقها الملأل وموت العمل، ومصائبك فدرعها
 روية النظر وأكثفها بأناة الحليم. وخلوتك فأحرسها من الغفلة وأعتاد الراحة، وصمتك

(١) لاوية : لا توانى . (٢) أى لا اشتد .

فَانِفَ عَمَّا لَفِظَ ، وَخَفَ سَوَاءَ الْقَالَةِ ؛ وَاسْتَمَاعَكَ فَأَرْعَهُ حُسْنَ التَّفْهَمِ ، وَقُوَّةَ الْإِشْهَادِ الْعَكْرِ ؛ وَعَطَاكَ قَامَةً لَهُ بَيَوَاتِ الشَّرَفِ وَذِي الْحَسَبِ ، وَتَحَوُّزَ فِيهِ مِنَ السَّرَفِ وَاسْتِطَالَةِ الْبَذْخِ وَآمَنَانِ الصَّبِيحَةِ ؛ وَحَيَاكَ قَامِعَهُ مِنَ الْخَمَلِ وَبِلَادِهِ الْحَصْرِ ، وَحِلْمَكَ فَرْعَهُ عَنِ التَّهَوُّنِ وَأَخْصِرَهُ قُوَّةَ الشَّيْكِمَةِ ، وَعَقُوبَتَكَ فَقَصَّرَ بِهَا عَنِ الْإِفْرَاطِ ، وَتَعَمَّدَ بِهَا أَهْلَ الْإِسْتِحْقَاقِ ، وَعَفُوكَ فَلَا تُدَحِّلُهُ تَعْطِيلَ الْحَقُوقِ ، وَحَذَبَهُ وَاجِبَ الْمَعْتَرِضِ ، وَأَقِيمَ بِهِ أَوْدَ الدِّينِ ، وَاسْتِنْسَاسَكَ قَامِعَ مِمَّا الدَّاءِ وَسُوءِ الْمُنَاقَاةِ ^(١) . وَتَعَهَّدَكَ أُمُورَكَ حُدَّةً أَوْقَاتًا ، وَقَدَّرَهُ سَاعَاتٍ لَا تَسْتَفْرِغُ قُوَّتَكَ ، وَلَا تَسْتَدْعِي سَامَتَكَ ، وَعَزَمَ مَا يَكُ فَايِفَ عَنْهَا مَحْمَلَةُ الرَّأْيِ ، وَبَلْجَاةَ الْإِقْدَامِ ؛ وَفَرَحَاتِكَ فَاشْكُكُنَّهَا عَنِ السَّطَرِ ، وَقَيَّدَهَا عَنِ الرَّهْوِ ؛ وَرَوَعَاتِكَ لِحُطْمِهَا مِنْ دَهْشِ الرَّأْيِ وَاسْتِسْلَامِ الْخُضُوعِ ، وَحَدَرَاتِكَ فَاسْمَعِهَا مِنَ الْجَنِّ ، وَأَعْمِدَ بِهَا الْحَزْمَ ؛ وَرَحَاءَكَ فَقَيَّدَهُ بِخَوْفِ الْفَاتَةِ ، وَاسْمَعِهِ مِنْ أَمْرِ الْطَّلَبِ .

هذه جوامع حلال ، دحَّالُ الْقَيْصِ مِمَّا وَاصِلٌ إِلَى الْعَقْلِ لِمَطَائِفِ أَتْنِهِ ، وَتَصَارِيفِ ^(٢) حَوِيلِهِ ، فَأَحْكِيهَا عَارِفًا بِهَا ، وَتَقَدَّمْ فِي الْحِفْظِ لَهَا ، مَعْتَرِضًا عَلَى الْأَخْذِ بِمَرَاشِدِهَا وَالْإِتْنَاءِ بِهَا إِلَى حَيْثُ بَلَّغْتَ لَكَ عِطَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدْبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ اتَّكَيْ بِطَانَتِكَ وَحُلَسَاؤِكَ فِي حُلُوتِكَ وَدَحْلَاؤُكَ فِي سِرِّكَ ، أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْوَرَعِ مِنْ حَاصَّةِ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَعَامَّةِ قَوَادِكِ مِمَّا قَدْ حَكَّمْتَهُ السُّبُوتُ بِتَصَارِيفِ الْأُمُورِ ، وَحَمَطْنَهُ فِصَالُهَا بَيْنَ فَرَاسِ الْبُرْلِ مِمَّا ، وَقَلْبَتِهِ الْأُمُورَ مِنْهَا ، وَرَبَّكَ أَطْوَارَهَا ، عَارِفًا بِمَخَاسِنِ الْأُمُورِ وَمَوَاصِعِ الرَّأْيِ وَعَيْنِ الْمَشُورَةِ ، مَأْمُونِ الصَّبِيحَةِ ، مَطْوِيٍّ الصَّبِيرِ عَلَى الطَّاعَةِ . ثُمَّ أَخْصِرْهُمْ مِنْ مَسَلِكٍ وَقَارًا يَسْتَدْعِي لَكَ مِمَّ هَيْبَةٍ ، وَاسْتِنْسَاسًا يَعْطِفُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ الْمُوَدَّةَ ، وَإِنْصَابًا يُقِلُّ إِفَاصَتَهُمْ لَهُ عِنْدَكَ بِمَا تَكْرَهُ أَنْ يُنْشَرَّعَكَ مِنْ مَخَافَةِ الرَّأْيِ وَصَيَاحِ الْحَزْمِ . وَلَا يَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ هَوَاكَ فَيَصْرِفَكَ عَنِ الرَّأْيِ وَيَقْتَطِعَكَ دُونَ الْعِكْرِ . وَتَعَلَّمْ أَلَمَكَ وَإِنْ خَلُوتَ بِسِرِّ

(١) يقال . نأقت فلان فلانا بالكلام . آذاه (٢) الحويل : الخدق والقدرة على الصرف .

(٣) الفراس : واحدا فرس وهو طرف جب المعير .

فألقيتْ دونه سُتورك، وألقتْ عليه أبوانك ، فذلك لا محالة مكشوفٌ للعامة ، ظاهرٌ عنك وإن آسترت برّما واملأ وما أرى إذاعة ذلك وأعلم ، بما يرون من حالاتٍ من ينقطع به في تلك المواطن . فتقدّم في إحكام ذلك من نفسك ، وأسدد حلله عنك : فإنه ليس أحدٌ أسرعُ إليه سوء القالة ولعطُ العامة بحيرٍ أو شرٍّ من كان في مثل حالِك ومكايك الذي أصحّت به من دينِ الله والأملِ المرجو المتظنّ فيك . وإياك أن يَغِيزَ فيك أحدٌ من حانتك وبطانة حدمتك بضعةٍ يحد بها مساعا إلى الطق عندك مما لا يعتريك عيه ، ولا تحلو من لائمتِه ، ولا تامنُ سوء الأحدثوة فيه ، ولا برخصُ سوء القالة به إن نعم طاهرا أو علَنَ ناديا ، ولن يحترثوا على تلك عندك إلا أن برؤا منك إصغاء إليهما وقبولا لها وترخيصا لهما في الإفاصه بها . ثم إياك وأن يُخاصَ عندك بشيءٍ من الصكاهات والحكايات والمراح والمصاحك التي يَسْتَحِفُّ بها أهلُ البطالة ، ويتسرّع نحوها دؤو الجهالة ؛ ويحد فيها أهلُ الحسد مقالا لعب يدبونه ، وطعنا في حق يحدونه ، مع ما في ذلك من نقص الرأي ، ودَرَبَ العِرض ، وهذم الشرف ، وتأنيل العقلة ، وقوّه طِباع السوء الكاسيه في بي آدم كَكُؤون السار في المجرر الصلْد ، فادا قُدِحَ لاح شرُّه ، وتلَهَبَ وميَّصُه ، ووَقَدَ تصرمه . وليست في أحد أقوى سطوة ، وأظهر توقُّدا ، وأعلى كُؤونا ، وأسرع إليه بالعب وتطرؤ الشين منها لمن كان في مثل سِك : من أفعال الرحال ودوى السُفوان في الحدائث الدين لم يقع عليهم سِمات الأمور ، ماطقا عليهم لائحتها ، طاهرا فيهم وشُمها ، ولم تتمحصهم شهامتها ، مظهرة للعامة فصلهم ، مُدبِعة حسنَ الذكر عنهم ، ولم يبلُغَ هم الصَّيت في الحُكْمَة مستمعا يدفعون به عن أنفسهم واطقَ السُن أهل النعي ، ومواداً أنصار أهل الحسد .

(٢) ثم تمهّد من نفسك لطيف عيب لا يرم لكثير من أهل السلطان والقدرة : من إظهار الدرغ ونخوة الشرف والتّيه وعيب الصلّف ؛ فإنها تُسرّع بهم إلى فسادٍ وتهجين

(١) الأفعال جمع فعل وهو الذي لم يجرر الأمور . (٢) يقال : أطره درعه اذا حمله فوق

ما يطبق . وفي صح الأعتى (ح ١٠ ص ٢٠١) « إظهار الدرغ » . وقد توقّف فيها مصححه .

عقولهم في مواطنَ جمة، وأنحاءَ مُضْطَرِفة، منها قلةٌ آتقدارهم على ضُبط أنفسهم في مواكبتهم ومسائرتهم العامة: من مُثْقَلٍ شغصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تَزْدِيهِهِ الخِلمة، ويُطِطِرُهُ لِجَلَابِ الرِحالِ حوله، ومن مُثْقِلٍ في موكبه على مداعبة مسائره المفاكهة له والتضاحك إليه، والإيحاء في السير مَرَّحاً، وتحريك الجوارح متسرّعا يحال أب ذلك أسرع له وأحثُّ لمطيبته. فلتَحَسَّ في ذلك هَيْئَتَكَ، ولتُجَمِّل فيه دَعَتَكَ، وليَقِلَّ على مسارك إقبالُك إلا وأنت مطرِقُ الطر، غير ملتفتٍ إلى محدث، ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك لمحدثه، ولا مُوجِف في السير مَقْلِقٍ لجوارحك بالتحريك والاستنهاض، وإن حسنَ مسيرة الوالى وأتداعه في تلك الحالة دليلٌ على كثير من عُيوب أمره ومستترِ أحواله.

وأعلم أن أقواما يتسرّعون إليك بالسَّعاية، ويأتونك على وجه التَّصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعوك بالإعراء والشبه، ويوطئوك عَشْوَه الحيرة: ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامة بموصيهم منك في القول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظن؛ فلا يصل^(١) إلى مشاهمتك ساج بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة فيعرضك لإيتاج^(٢) دبك، ويملك على رعتك بما لاحقيقة له عندك، ويُلِحُّمك أعراص قوم لاعلم لك بدخلهم، إلا بما أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم مُنْصِحا. وليكن صاحبُ شُرطتك المتولَّى لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقاويلهم، والمأخض عن نصائحهم، ثم ليُنْه ذلك إليك على ما يُرْفَع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتَقَع على رأيك من غير أن يطهر ذلك للعامة: فإن كان صواما نالتك حيرته، وإن كان خطأ أقدم به عليك حاهل، أو قُرْطَةً سعى بها كاذب، فالت الساعي منها أو المظلوم عقوبة، أو بدر من واليك إليه عقوبة ونكال، لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تُنسب إلى تفریط، وحلوت من موضع الدَم فيه مُحْصِرا إليه ذِهْكَ وصواب رأيك.

(١) أوقع دبه بالإثم أصده . (٢) ألجمه عرض ملائ : أنكه منه يشتمه . (٣) دخل

الرجل (الفتح والكسر) يته ومدده . (٤) لم يعصب أى لم يلحق .

وتقدّم الى من تَوَلَّى ذلك الأمرَ وتَعَمِدَ عليه فيه ألا يُقَدِّمَ على شيءٍ طارِئاً فيه ، ولا يحاول أخذَ أحدٍ طارِئاً له ، ولا يُعَاقِبَ أحداً مُكَلَّلاً به ، ولا يُجَلِّ سَبِيلَ أحدٍ صَاحِباً عَهْدٍ لِصَحْفَارِ^(١) براءته وصِحَّةِ طَرَبَتِهِ ، حتى يَرَعَ لِيكِ أمره ، ويُنْهِيَ إِلَيْكَ قَصِيَّتَهُ على جِهَةِ الصَّدَقِ ، وَمَنْحَى الْحَقِّ ، وَيَقِينُ الْخَبَرَ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ عَلَيْهِ سَبِيلاً لَتَحْبَسَ أَوْ مَجَازاً لِعُقُوبَةٍ ، أَمْرَتُهُ بَتَوَلَّى ذلك من غيرِ إِدْحَالِهِ عَلَيْكَ ، ولا مِشَاهِدَةٍ لَكَ مِنْهُ ؛ فَكَانَ الْمَتَوَلَّى لذلك ولم يَحْرِ على يَدَيْكَ مَكْرَهُ رَأَى وَلَا غِلْظَةً عَقُوبَةٍ . وَإِنْ وَحَدْتَ إِلَى الْعَفْوِ عَنْهُ سَبِيلاً ، أَوْ كَانَ مِمَّا قُرِفَ بِهِ خَلِئاً ، كَتَّ أَنْتَ الْمَتَوَلَّى لِلْإِعْامِ عَلَيْهِ بِتَغْلِيَةِ سَبِيلِهِ ، وَالصَّفْحِ عَنْهُ بِإِطْلَاقِ أَمْرِهِ ؛ فَتَوَلَّيْتَ أَجْرَ ذَلِكَ وَأَسْتَحَقَّقْتَ دُخْرَهُ ، وَأَنْطَقْتَ لِسَانَهُ بِشُكْرِكَ ، وَطَوَّقْتَ قَوْمَهُ حَمْدَكَ ، وَأَوْجَبْتَ عَلَيْهِمْ حَقَّكَ ، فَفَرَّتْ بَيْنَ حَصَلَتَيْنِ ، وَأَحْرَزْتَ حُطُوتَيْنِ : ثَوَابَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَحْمُودَ الدَّكْرِ فِي الدُّنْيَا .

ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ جَنْدِكَ وَجَلَسَائِكَ وَحَاصَتِكَ وَبِطَانَتِكَ بِمَسْأَلَةٍ يَكْشِفُهَا لَكَ ، أَوْ حَاجَةٍ يَسُدُّهَا بِطَلِبِهَا ، حَتَّى يَرْفَعَهَا قَسْلَ ذَلِكَ إِلَى كَاتِبِكَ الَّذِي أَهْدَفْتَهُ لذلك وَبَصَبْتَهُ لَهُ ، فَيَعْرِضُهَا عَلَيْكَ مُنْهِيًا لَهَا عَلَى جِهَةِ الصَّدَقِ عَنْهَا ، وَتَكُونُ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنْ قُدْرَتِهَا : فَإِنْ أَرَدْتَ إِسْعَافَهُ بِهَا وَنَجَّاحَ مَا سَأَلَ مِنْهَا ، أَذِنْتَ لَهُ فِي طَلِبِهَا ، بِأَسْطَأْ لَهُ كَفِّكَ ، مُقْبِلاً عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ ، مَعَ ظَهْوَرِ سُرُورِكَ بِمَا سَأَلَكَ ، وَفُسْحَةٍ رَأَى وَبَسْطَةِ ذَرْعٍ ، وَطِيبِ نَفْسٍ . وَإِنْ كَرِهْتَ قِصَافَ حَاجَتِهِ ، وَأَحْبَبْتَ رَدَّهُ عَنْ طَلِبَتِهِ ، وَثَقُلَ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ إِلَيْهَا وَإِسْعَافُهَا بِهَا ، أَمَرْتَ كَاتِبَكَ فَصَفَحَهُ عَنْهَا ، وَمَعَهُ مِنْ مَوَاحِيثِكَ بِهَا ؛ تَغَفَّلْتَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ الْمَوْثُونَةِ ، وَحَسُنَ لَكَ الدَّكْرُ ، وَلَمْ يَنْشُرْ عَنْكَ تَحْمُهُمُ الرَّدَّ ، وَبَيْنَكَ سُوءُ الْقَالَةِ فِي الْمَعِ ، وَحُمِلَ عَلَى كَاتِبِكَ فِي ذَلِكَ لِأَمْنَةٍ أَنْتَ مِنْهَا بِرِيءٌ السَّاحَةِ .

وَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ رَأْيُكَ وَأَمْرُكَ فِيمَنْ طَرَأَ عَلَيْكَ مِنَ الْوَفُودِ وَأَتَاكَ مِنَ الرُّسُلِ ، فَلَا يَصِلَنَّ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بَعْدَ وَصُولِ عِلْمِهِ إِلَيْكَ ، وَعِلْمَ مَا قَدِمَ لَهُ عَلَيْكَ ، وَجِهَةً مَا هُوَ مُكَلَّمُكَ

(١) أى لوصوح راءته ، هى حديث على . فاصحح لمدرك ، أى كى من أمره على أمر واضح .

(٢) صمعه عنها ، رده عنها .

به، وَقَدِّرْ ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك، فأصدرت رأيك في حوائجه، وأحلت فكرك في أمره، وأخترت معترفا على إرادتك في حوابه، وأعدت مصدور روييتك في مَرَحُوع مسألته قبل دخوله عليك، وعلمه بوصول حاله إليك، فرفعت عك مؤوبه البديهة، وأرخيت عن هسك خياخ الروية، وأقدمت على رد حوابه بعد النظر وإحالة الفكر به . فإن دخل إليك أحد منهم فكلتك بخلاف ما أنهى إلى كاتيك وطوى عنه حاجته قبلك، دفعته عك دفعا جميلا، ومعتة جوانك معا وديعا، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له واليلطة عليه، ومنعه من الوصول إليك، فإن صَبَطَكَ لذلك مما يُحْكِم لك تلك الأسباب، صارقا عك مؤوتها، ومسحلا عليك مُستضعها .

إحذر تصييع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب واعتوارهما إياك، فلا يَزِدْهَبُكَ إفراطُ غُب تستحقك روائعه، ويستهيوك مَطَرُهُ، ولا تَسُدُّرَتْ مَكْ ذلك خطأ وَزَقْ خِفة لمكروه إن حل بك، أو حادث إن طرأ عليك . وليكن لك من هسك طهرى ملحا تَحْزُزْ به من آفات الردى، وتستعصده في مهم نازل، وتنعقب به أمورك في التدبير . فإن أحتحت إلى مادة من عقلك، وروية من فكرك، أو أبساط من ميطك، كان أنجبارك إلى طهرىك مُزدادا مما أحببت الأمتياح منه والامتيار، وإن أستدبرت من أمورك بوادرُ جهل أو مصى زلل أو معاندُه حق أو خطلُ تدبير، كان ما أحتحت إليه من رأيك عدرا لك عند نفسك، وطهرىا قويا على رد ما كرهت، وتخفيا لمؤونة الباخين عليك في القالة وأنتشار الذكر، وحضا من علوب الآفات عليك، وأستعلاها على أحلافك .

وَأَسْعُ أَهْلَ بطانتك وحاصّة حديمك من أستلعام أعراض الساس عندك بالغبية، والتفريب اليك بالسعاية، والإغراء من بعض ببعض، أو النيمة اليك بشيء من أحوالهم

(١) في صح الأعي . « وتستعص في موم النازل » . وفي رسائل الملاء . « وتستعصده في مهم نازل » .

وأغترا من العاريتين ما ياسب المقام (٢) كذا في صح الأعي والمفتاح ورسائل البلاء ، ولعله

وإن انتدرت ... الخ .

المستتره عك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه التصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أطلع بك سمْوا الى مَنَالَةِ الشرف ، وأعورُ لك على محمود الذكر، وأطلق ليمان الفضل في جَرَالَةِ الرأى وشرف الهمة وقوة التدبر .

وأملك نفسك عن الانسباط في الصحك والافهاى ، وعن القطوب بإظهار الغضب ونخله . فإن ذلك صَعَفَ عن ملك سَوْرَةِ الجهل ، ونروحُ من آتِحال آسِمِ الفصل .
وايكن صَحِكَك تَسْمًا أو كَثْرًا أو أَحْيَايِ ذلك وأوقاته ، وعد كل رائع مستَحِفُّ مُطْرِب ، وقطوبك إطرارقا في مواضع ذلك وأحواله ، بلا عَجَلِه الى السَّطوة ، ولا إسراع الى الطَّيْرَة ، دون أن تكسُفها رِوْبَةً الحلم ، وتملك عليها بإدره الجهل .

اذا كَسَتْ في مجلس مَلَكْكَ ، وحيث حضور العاقبة محلسك ، وإياك والرمي بطرك الى حاص من قُوداك ، أو دى أثره عندك من حشمك . وليكن بطرك مقسوماً في الجميع ، وإراعتك سمعك دا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتَمع ، وقلة تصحجر بالمحدث . ثم لا برح وجهك الى بعض حرسك وقُوداك متوحها بنظر ركين ، وتفقد محص .
وإن وجه اليك أحد مهم نظره محدقا ، أو رماك بصره مُلَمَّعا ، فاحصص عنه إطرارقا جميلا ناتداع وسكور . وإياك واتسرع في الإطراق ، والحقة في تصريف المطر ، والإلحاح على من قصد اليك في محاطته إياك رامقا بنظره .

واعلم ان تصفحك وجوه حلساتك وتفقدك محاليس قُوداك من قوة التدبير، وشهامة القلب ، ودكاء العظمة ، وآبياه السه . فتفقد ذلك عارفا بمن حصرك وعاب عك ، عالما بمواضعهم من مجلسك ، ثم أعدبهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التي معتهم من حضور مجلسك ، وعاقبتهم بالتخلف عك .

إن كان أحد من حشمك وأعواريك تثق منه بنيب صمير ، وتعريف منه لى طاعة ، وتُشْرِف منه بلى صحة رأى ، وتأممه على مشورتك ، وإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظر عد طوارق ذلك ، وأن تُريه أو أحدا من أهل مجلسك أن

لك حاجة إليه مُوحِشة ، أو أن ليس بك عه عني في التدبير، أو أنك لا تقصّي دونه رأيا،
إشراكا منك له في رويتك، وإدخلا منك له في مشورتك، وأصطارا منك الى رأيه
في الأمر يَعرُوك : فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك، فإيفها
عن نفسك حائفا لأعتلاقها ذكرك، وأحجبها عن رويتك قاطعا لأطاع أوليائك عن مثلها
بمُندك ، أو غلوهم عليها منك .

وأعلم أن للشورة موصع الخلوة وأفراد الطر، ولكل أمرٍ عاية تحيط بمحدوده، وتجمع
عالمه . فإيفها تحمّزا لها، ورُمها طالبا لئليها ؛ وإياك والقصور عن عايتها أو العجز عن
تركها، أو التمريط في طلبها . إن شاء الله تعالى .

إياك والإعرام عن حديث ما أنحك، أو أمر ما أزدهاك بكثرة السؤال، أو القطع
لحديث من أزداك بحديثه حتى تقصّه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس مه : فإن
لك عند العامة منسوب الى سوء الهم وقصر الأدب عن تأول محاسن الأمور والمعرفة
بساوئها ، ولكن أنصت لمحدثك وأزرعه سمعك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه، وأحطت
معرفة بقوله ، فإن أردت إجابته فمن معرفة بجاحته وبعد علم بطلته ، وإلا كست عند
نقضاء كلامه كالتعجب من حديثه بالتبسم والإعصاء، فأجرى عك الجواب، وقطع عك
لس العتب .

إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، أو تصحّر ممّن حصرك، وعليك بالثبّت
بد سوره النصب ، وحمية الآف، وملال الصبر . في الأمر نستعمل به والعمل تأمر
إنفاذه، فإن ذلك يخفف شائن، وخفة مُردية ، وجهالة يادية . وعليك بثبوت المنطق ،
وقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام، والتترك لفصوله والإعرام
لزادات في منطقك، والترديد للمظك : من نحو أسمع، وأفهم عني، ويا هاهنا، وألا ترى،
وما يُلْهَج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل، الشائنة لذوى الحجا في المنطق،
لنسوبة إليهم بالعي، المُردية لهم بالذكّر . وخِصال من معايب الملوك، والسوقة عنها غيبة

ظهِرَ إِلَّا مِنْ عَرَفِهَا مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ ، وَقَلَمًا حَامِلٌ لَهَا ، مَضْطَلَعٌ بِهَا ، صَابِرٌ عَلَى نِقْلِهَا ،
فَدَلَّفَ لِنَفْسِهِ بِجَوَامِعِهَا ، فَأَتَتْهَا عَنْ يَمِينِكَ بِالتَّحْقِيقِ مِنْهَا ، وَأَمَلِكْ عَلَيْهَا أَعْيَادَكَ إِيَّاهَا مَعْتَنِيَا
سَ ، مِمَّا كَثُرَتْ التَّحَنُّمُ ، وَالتَّبَضُّعُ ، وَالتَّشَعُّعُ ، وَالتُّؤَاءُ ، وَالتَّمَطُّ ، وَابْجُشَاءُ ، وَتَحْرِيكُ
قَدَمٍ ، وَتَقْيِصُ الْأَصَابِعِ ، وَالعَبَثُ بِالْوَجْهِ وَالْقَلْبِ أَوْ الشَّارِبِ أَوْ الْمُحْصَرَةِ أَوْ ذَوَابَةِ السِّيفِ ،
وَإِلْيَاضُ بِالطَّرِ ، أَوْ الْإِشَارَةُ بِالطَّرْفِ إِلَى مَعْصِ حَدَمِكَ بِأَمْرٍ إِنْ أَرَدْتَهُ ، أَوْ السَّرَارِ
بِجَلْسِكَ ، أَوْ الْأَسْتِمْعَالِ فِي طَعْمِكَ أَوْ شُرْكٍ . وَلِيَكُنْ طَعْمُكَ مَتَدِّعًا ، وَشُرْكُكَ أَفْهَامًا ،
بِجَزَعِكَ مَصًّا . وَإِيَّاكَ وَالتَّسَرَّعَ إِلَى الْإِيمَانِ فِيمَا صَغُرَ أَوْ كَثُرَ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالتَّشْتِمَةَ بِقَوْلِ :
أَبْنِ الْهَمَاءِ ؛ أَوْ الْغَمِيزَةَ لِأَحَدٍ مِنْ حَاصَتِكَ بِتَسْوِيفِهِمْ مُقَارَفَةَ الْفُسُوقِ بِحَيْثُ مَحْصَرُكَ
وَدَارُكَ وَمَاؤُكَ : فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمَّا يَقْبَحُ ذِكْرُهُ ، وَيَسُوءُ مَوْقِعُ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَتَحْمَلُ عَلَيْكَ
بَعَائِيَهُ ، وَيَالِكَ شَيْئُهُ ، وَيَتَشَرُّ عَلَيْكَ سُوءُ الْبَلَاءِ بِهِ . فَأَعْرِفْ ذَلِكَ مَتَوَقِّيًا لَهُ ، وَاحْذَرِهِ
بِجَانِبِهَا لِسُوءِ عَاقِبَتِهِ .

أَسْتَكْثِرُ مِنْ فَوَائِدِ الْخَيْرِ : فَإِنَّهَا تَنْشُرُ الْمُحَمَّدَةَ ، وَتُقِيلُ الْعَثْرَةَ ؛ وَأَصِيرُ عَلَى كَظْمِ الْغَيْطِ :
فَإِنَّهُ يُوْرِثُ الرَّاحَةَ ، وَيُؤَمِّنُ السَّاحَةَ ، وَتَعْهَدُ الْعَامَّةُ بِمَعْرِفَةِ دَخْلِهِمْ ، وَتَطْمَئِنُّ أَحْوَالُهُمْ ،
وَأَسْتَأْثَرَةِ دِفَائِهِمْ ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهَا عَلَى رَأْيِ عَيْنٍ ، وَيَقِينِ خَبْرَةٍ ، فَتَنْعِشَ عِدِيمُهُمْ ، وَتَحْبُرَ
كَيْبَرُهُمْ ؛ وَتَقِيمَ أَوْدَهُمْ ، وَتَعْلَمَ حَافِلَهُمْ ، وَتَسْتَصْلِحَ فَاسِدَهُمْ : فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِكَ بِهِمْ
يُورِثُكَ الْعِزَّةَ ، وَيَقْدِمُكَ فِي الْفَصْلِ ؛ وَيُنْقِصُ لَكَ لِسَانَ الصَّدْقِ فِي الْعَاقَةِ ، وَيُحْزِرُكَ لَكَ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ ، وَيُرْدُّ عَلَيْكَ عَوَاطِفَهُمُ الْمُسْتَنْفِرَةَ مِنْكَ ، وَقُلُوبَهُمُ الْمُنْتَحِيَةَ عَنْكَ .

قِسْ بَيْنَ مَازِلِ أَهْلِ الْفَصْلِ فِي الدِّينِ وَالْحَيَاةِ وَالرَّأْيِ وَالْعَقْلِ وَالتَّوْبَةِ وَالصَّبْرِ
وَالْعَامَةِ ، وَبَيْنَ مَازِلِ أَهْلِ الْقَصِّ فِي طَبَقَاتِ الْفَصْلِ وَأَحْوَالِهِ ، وَانْجَمِ عَدْمَ مَبَاهِةِ
النَّسَبِ ؛ وَأَنْظُرْ بِصَحْبَةِ أَهْلِ تَالِ مِنْ مَوَدَّتِهِ الْجَمِيلِ ، وَتَسْتَجْمِعْ لَكَ أَقَاوِيلَ الْعَامَةِ عَلَى
التَّفْضِيلِ ؛ وَتَبْلُغْ دَرَجَةَ الشَّرَفِ فِي أَحْوَالِكَ الْمُنْتَصِرَةِ بِكَ . فَاعْتَمِدْ عَلَيْهِمْ مُذْحِلًا لَهُمْ
فِي أَمْرِكَ ، وَآثَرَهُمْ بِجَاهِاسْتِكَ لَهُمْ مُسْتَمِعًا مِنْهُمْ ؛ وَإِيَّاكَ وَتَصْبِيحَهُمْ مَقْرَطًا ، وَإِهْمَالَهُمْ مُضِيْعًا .

(١) يُقَالُ أَقْصَى أَصَاحِهِ . صَزَتْهَا وَلَيْسَ فِي كِتَابِهَا الْقَصَصُ بِالتَّصْنِيفِ . (٢) الْعَبِيرَةُ : الْخَطْبُ .

هذه جوامع خصال قد لحصها لك أمير المؤمنين مصفراً، وجمع لك شواذها مؤلفاً، وأهداها إليك مرشداً، فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وثبتت في مجامعها، وحذت بوثائق عراها، تسلم من معاطب الردى، وتسل أنفوس الحطوط، ورغبت الشرف، وأعلى درج الذكر، وتأثلت سطر العز. والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد، ونتائج المزيد، وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى عنة يسوعك إياها، وعافية يهلكك أكلها، ونعمة يلهمك شكرها : فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد، مه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسات، عده معاتيج الخير، ويسده الملك وهو على كل شيء قدير.

فاذا أفضيت نحو عدوك، وأعزمت على لقائهم، وأحذت أهبة قتالهم، فاجعل دعائمك التي تلحأ إليها، وثقتك التي تأمل البجاة بها، ورؤيتك الذي ترتجى مالة الطفر به وتكتشف به لمعالى الحذر، تقوى الله مستشيراً لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبعاً لأمره، محتذياً لسخطه، محتذياً سنته، والتوقى لمعاصيه فى تعطيل حدوده، أو تعدى شرائعه، متوكلاً عليه فيما صمدت له، واثقاً بصبره فيما توجهت نحوه، متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من طفر وتلقاك من عز، راعباً فيما أهاب لك أمير المؤمنين إليه من فصل الجهاد، ورمى بك إليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين، أكلهم عليه وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقل لعائتهم، وأحدّه بريقهم، وأعلاه عليهم نبأ، وأظهره عليهم فسقاً وبهوراً، وأشدّه على فيثهم الذى أصاره الله لهم وقتحه عليهم مؤونة^(٥) وكلاً. والله المستعان عليهم، والمستصمر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصريح عليهم، وإليه يقوض أمره، وكفى بالله ولياً وناصرًا ومُعياً، وهو القوى العزيز.

ثم حذ من معك من تباعك وجندك بكف معرفتهم، ورد مشتعل جهلهم، وإحكام صياع عملهم، وصمّ مبشّر قواصيمهم، ولمّ شعث أطرافهم، وتقيدهم عن مروا به من

(١) تأمل ثمت . (٢) اكتم الكهف دله . (٣) أهاب بك : دعك .

(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله إذا اشتد وألح . (٥) الكل : النقل .

أهل ذِمَّتِكَ ومَلَّتِكَ بِحُسْنِ السَّيْرِ، وَعِفَافِ الطَّعْمَةِ، وَدَعَةِ الْوَقَارِ، وَهَذَى الدَّعَةِ، وَحِمَامِ
الْمُسْتَجِمِّ، عَمَّا ذَلِكْ مِنْهُمْ، مُتَفَقِّدًا لَهُمْ تَفَقُّدَكَ إِيَّاهُ مِنْ نَفْسِكَ . ثُمَّ أَصْبَحَ لِعَدْوِكَ الْمُسْتَعْمَى
بِالْإِسْلَامِ، الْخَارِجُ مِنْ جَمَاعَةِ أَهْلِهِ، الْمُسْتَحِلُّ وَلَايَةَ الدِّينِ مُسْتَحِلًّا لِدِمَائِهِ أَوْلِيَائِهِ، طَاعِنًا
عَلَيْهِمْ، رَاغِبًا عَنْ سُنَّتِهِمْ، مُعَارِفًا لَشَرَائِعِهِمْ، يَبْغِيهِمُ الْغَوَائِلَ، وَيَنْصِبُ لَهُمُ الْمَكَائِدَ؛ أَصْرَمَ
حَقْدًا عَلَيْهِمْ، وَأَرْصَدَ عِدَاوَةً لَهُمْ، وَأَطْلَبَ لِفِرَاقِ قُرُصِهِمْ مِنَ التُّرْكِ وَأَمِّ الشَّرْكِ وَطُلُواعِي
الْمِلَلِ؛ يَدْعُو إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْفِرْقَةِ، وَالْمُرُوقِ مِنْ دِينِ اللَّهِ إِلَى الْفِتْنَةِ، عَظَمْتَ بِهِوَ الْأَدْيَانِ
الْمُسْتَحَلَّةِ وَالِدِّعِ الْمُنْفَرَقَةِ خَسَارًا وَتَحْسِيرًا، وَضَلَالًا وَتَضَلُّلًا، بَغِيرَ هَدًى مِنْ اللَّهِ وَلَا بَيَانَ .
سَاءَ مَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاهُ وَمَا اللَّهُ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، وَسَاءَ مَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ،
وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِ بِالْمِرْصَادِ : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصَّنَ جَنْدَكَ، وَأَشْكَمَ نَفْسَكَ طَاعَةَ اللَّهِ فِي عَاهِدِهِ أَعْدَائِهِ، وَأَرْحُ نَصْرَهُ، وَتَجَبَّرَ
مَوْعِدُهُ، مُتَقَدِّمًا فِي طَلَبِ نَوَائِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ، مُعْتَرِمًا فِي آيْتَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ عَلَى لِقَائِهِمْ :
فَإِنْ طَاعَتِكَ إِيَّاهُ فِيهِمْ، وَمَرَّاقِبَتِكَ لَهُ وَرَحَامَتِكَ نَصْرَهُ مُسَهِّلٌ لَكَ وَعُورُهُ، وَعَاصِمُكَ مِنْ كُلِّ
سُبَّةٍ، وَمُسَحِّيكٌ مِنْ كُلِّ هُوَةٍ، وَبَاعِثُكَ مِنْ كُلِّ صَرَعَةٍ، وَمُقِيكَ مِنْ كُلِّ كِبُوءَةٍ، وَدَارِيٌّ
عَمَّا كُلِّ شَبْهَةٍ، وَمُذْهِبٌ عَمَّا كُلِّ لَطْمَةٍ كُلِّ شَكٍّ، وَمُقَوِّبٌ بِكُلِّ أَيْدٍ وَمِكِيدَةٍ، وَمُعَزِّكٌ
فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ قِتَالٍ، وَمُوَيْدٌ فِي كُلِّ تَجَمُّعٍ لِقَاءٍ، وَكَالِئُكَ عَسَدُ كُلِّ فِتْنَةٍ مُعْشِيَةٌ، وَحَاطِطُكَ
مِنْ كُلِّ شَبْهَةٍ مُرِيدِيَةٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّكَ وَوَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَيْكَ، وَالْمُسْتَحَلْفُ عَلَى جَسَدِكَ
وَمِنْ مَعِكَ .

إِعْلَمْ أَنَّ الظُّفَرَ ظَفَرَانِ : أَحَدُهُمَا — وَهُوَ أَعَمُّ مُنْفَعَةٍ، وَأَبْلَغُ فِي حُسْنِ الذِّكْرِ قَالَةً، وَأَوْحُوهُ
سَلَامَةً، وَأَتَمُّهُ عَاطِيَةً، وَأَحْسَنُهُ فِي الْأُمُورِ وَأَعْلَاهُ فِي الْفَضْلِ شَرَفًا، وَأَحْسَنُهُ فِي الرِّوَايَةِ حَرَمًا،
وَأَسَانُهُ عِنْدَ الْعَامَةِ مَصْدَرًا — مَا نِيلَ بِسَلَامَةِ الْخَنُودِ، وَحُسْنِ الْحِيلَةِ، وَلُطْفِ الْمِكِيدَةِ
وَيُمْنِ الْبَقِيَّةِ، وَاسْتِزَالِ طَاعَةِ ذَوِي الصُّدُوفِ غَيْرِ إِخْطَارِ الْجِيُوشِ فِي وَقْدِهِ بِحِمْرَةِ الْحَرْبِ،

(١) الْأَيْدِ الْقُوَّةُ . (٢) أَيُّ مَلْعَمَةٍ سَوْدَاءَ، مِنْ قَرْنَمٍ أَعْنَى اللَّيْلِ إِذَا أظلمَ .

ومبارزة الفرسان في معترك الموت؛ وإن ساعدتك طُلُوق الظفر، ونالك مزيد السعادة في الشرف، ففي مخاطرة التلّف مكروه المصائب، وعضاض السيوف وألم الجراح، وقصاص الحروب ويحاطها بغاورة أظالها^(١). على أنك لا تدري لأئى يكون الظفر في البديهة، ومي المعلوم بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوب بالتحيص. لحاول إصابة أبلنهما في سلامة جندك ورعتك، وأشهرهما صيتاً بدؤ تديرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأعونهما على صلاح رعتك وأهل ملتك، وأقوأهما شكيمة في حرمك، وأبعدهما من وضم عزمك، وأعلقهما بزمام السقاء في آحرتك، وأجرلها نوابا عد ربك .

وأبدأ بالإعذار إلى عدوك ، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعزّ الألفة، أحداً بالحجة عليهم ، متقدماً بالإندار لهم ، باسطاً أمانك لمن لجأ إليك منهم ، داعياً لهم إليه نائيب لطفك وألطف حيلك ، متعطفاً برأفتك عليهم ، مترقفا بهم في دُعائك ، مشفقاً عليهم من علّة القواية لهم وإحاطة الهلكة بهم ، متعذراً رُسلك إليهم بعد الإندار : تبعدهم إعطاء كلّ رغبة يهش إليها طمّعههم في موافقة الحق ، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم ، موطناً نفسك فيما تسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك ، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك؛ قابلاً توبة بازعهم عن الضلالة، ومراجعة مُسيئهم إلى الطاعة، مُرصدًا للُنحاز إلى فئة الماسدين وجماعتهم إجابةً إلى مادعوته إليه وبصرته إياه من حَقك وطاعتك ، بفصل المنزلة، وإكرام المثوى، وتشريف الجاه . وليظهر من أترك عليه وإحسانك إليه ما يرعب في مثله الصادفُ عنك ، المُصرُّ على حلافك ومعصيتك؛ ويدعو إلى اعتلاق جبل البجاة وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً، وأنجي له من العقاب أجلاً، وأحوطه على ديه ومهجته بدءاً وعاقبة؛ فإن ذلك مما يستدعى به من الله نصره عليهم، ويعتصده به في تقديمه المحجة إليهم، مُعذراً أو مُنذراً، إن شاء الله .

(١) المأورة : المقاتلة . (٢) كذا في صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضى معمولاً لهذا العمل

أما صميراً أو أستا طاهراً .

ثم أَذِكْ عِيونَكَ على عِدْوِكَ متعلِّعاً لعلِّ أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومازِلْهم التي هم بها، ومطاميعهم التي قد مَدُّوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور أَدْعَى لهم إلى الصلح، وأقوِّدْها لرضاهم إلى العافية، وأسهِّلْها لِاسْتِئْزَالِ طاعتهم، ومن أىِّ الوجوه مَأْتَاهُمْ : أَمِنْ قِلِّ الشَّدَّةِ والمُسَاوَةِ والمَكِيدَةِ والمُبَاعَدَةِ والإِرْهَابِ والإِيعَادِ، أم التَّرْغِيبِ والإِطَاعِ، مُتَنَبِّئاً في أَمْرِكَ، مُتَحَيِّراً في رِوَيْتِكَ، مُسْتَمِيعاً من رَأْيِكَ، مُسْتَشِيرَا لدِوَى الصَّبِيحَةِ الذين قد حَكَمَتْهم السَّنُّ، وَخَبَطَتْهم التَّجَرِبَةُ، وَنَجَّدَتْهم الحُرُوبُ، مُتَشَبِّهَةً في حَرْكِكَ، أَخْذَا بِالْحَزْمِ في سِوَةِ الظَّنِّ، مُعَدَّةً لِلْحَدَرِ، مُحْتَرِسَةً مِنَ الْغَرَةِ، كَأَنَّكَ في مَسِيرِكَ كُلَّهُ وَنَزْوِلِكَ أَجْمَعَ مُوَاقِفٌ لِعِدْوِكَ رَأْيَ عَيْنٍ تَنْتَظِرُ حَمَلَاتِهِمْ، وَتُخَوِّفُ كَرَاتِهِمْ، مُعَدَّةً أَقْوَى مَكَايِدِكَ، وَأَرْهَبَ عَنَادِكَ، وَأَنْكَأَ حَذِّكَ، وَأَحَدَّ تَسْمِيرِكَ، مَعْقِلاً أَمْرَ عِدْوِكَ لِأَعْظَمِّ مِمَّا بَلَغَكَ، حَذَرًا يَكَادُ يَهْرُطُ : لُتَعَدِّ لَهُ مِنَ الْإِحْتِرَاسِ عَظِيماً، وَمِنْ الْمَكِيدَةِ قُوَّيًّا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَهْتَاكَ ذَلِكَ عَنْ إِحْكَامِ أُمُورِكَ، وَتَدْيِيرِ رَأْيِكَ، وَإِصْدَارِ رِوَيْتِكَ، وَالتَّأْهِبِ لِمَا يَحْزُبُكَ، مُصَغِّراً لَهُ بَعْدَ اسْتِشْعَارِ الْحَدَرِ، وَأَصْطِطَارِ الْحَرَمِ، وَإِعْمَالِ الزَّوِيَّةِ، وَإِعْدَادِ الْأُخْبَةِ . فَإِنْ أَلْفَيْتَ عِدْوَكَ كَلِيلَ الْحَدِّ، وَقَمَّ الْحَزْمُ ^(٣) ، يَضْبِصُ الْوَفْرَ ^(٤) ، لَمْ يَضُرَّكَ مَا اعْتَدَدْتَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَأَحْذَتْ لَهُ مِنْ حَرَمٍ، وَلَمْ يَزِدْكَ ذَلِكَ إِلَّا بُرْءاً عَلَيْهِ، وَتَسَرُّماً إِلَى لِقَائِهِ . وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ مُتَوَقِّدَ الْحَرْبِ، مُسْتَكْنِفَ الْجَمْعِ، قَوِيَّ التَّبَعِ، مُسْتَعْلِي سَوْرَةِ الْجَهْلِ، مَعَهُ مِنْ أَعْوَالِ الْفِتْنَةِ وَتَبَعِ إِبْلِيسَ مِنْ يُوقِدُ لَهَبَ الْقِتَّةِ مُسْعِراً، وَيَتَقَدَّمُ إِلَى لِقَاءِ أَبْطَالِهَا مُتَسَرِّعاً، كُنْتَ لِأَخْذِكَ بِالْحَزْمِ، وَأَسْتِعْدَادِكَ بِالْقُوَّةِ، عَيْرَ مِهْمِينَ بِالْحَدِّ، وَلَا مَفْرُطٍ فِي الرَأْيِ، وَلَا مُتَلَهِّفٍ عَلَى إِضَاعَةِ تَدْيِيرِ، وَلَا مُحْتَاجٍ إِلَى الْإِعْدَادِ وَعِجَلَةٍ النَّاهِبِ مِبَادِرَةَ تَدَهُّشِكَ، وَحَوْقًا يُقْلِقُكَ . وَمَتَى تَغْتَرَّبَ بِتَرْقِيقِ الْمُرَقِّقِينَ، وَتَأَخَذَ بِالْهُوْبَا فِي أَمْرِ عِدْوِكَ لِتَصْغِيرِ الْمُصْغَرِّينَ، يَنْتَشِرُ عَلَيْكَ رَأْيُكَ، وَيَكُونُ فِيهِ انْتِقَاضُ أَمْرِكَ وَوَهْنُ تَدْيِيرِكَ، وَإِهْمَالٌ لِلْحَزْمِ وَجِدْكَ،

(١) تَشْرُنُ لِلْأَمْرِ : اسْتَعْدَلَهُ .

(٢) يَهْتَاكَ (بِالْهَاءِ وَالْثَاءِ الْمُتَلَتِّةِ) أَيْ يَكْسِرُكَ وَيُزْجِرُكَ . (٣) كَذَا فِي صَحِّ الْأَعْنَى . وَلَعَلَّهَا

مَوْقُومَ الْحَرَمِ أَيْ مَقْهُورَةً أَوْ لَعْلَهَا مَحْرُومَةً عَنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى عَنِ الصَّفِّ أَوْ الْقِلَّةِ . (٤) يَضْبِصُ : قَلِيلٌ .

وتصییع له وهو مُمَكِّي الإصحار، رَحْبُ المَطْلَب، قِوَى العِصمة، فسيحُ المضطرب؛ مع ما يَدْخُل رعيك من الإغترار والفلة عن إحكام أحراسهم، وضبط مراكرهم، لما يرون فيه من استيانتك إلى العزة، ورُكوكك إلى الأمن، وتهاونك بالتدبير، فيعود ذلك عليك في انتشار الأطراف، وصياع الأحكام، ودخول الوهن عما لا يُستقال محذوره، ولا يُدفع محوؤه.

احفظ من عيونك وحواسيسك ما تأتوك به من أخبار عدوك. وإياك ومعاقبة أحدٍ مهم على خبر إن أتاك به آتته فيه أو سُوتَ به ظلاً وأتاك غيره بحلافه، أو أن تكذبه فيه فترده عليه، ولعله أن يكون قد محصك النصيحة وصدقت الحر وكذتك الأول، أو خرج حاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عد عدوك، وقد أبرموا لك أمراً، وحاولوا لك ميكده وأرادوا منك عِرةً وأزْدَلَعُوا إِلَيْكَ في الأهنة، ثم آتَمَص بهم رأيهم وأختلف عه حامعهم، فأرادوا رأياً، وأحدثوا ميكدة، وأطهروا قوة، وصرخوا موعداً، وأموا مسلكاً لمدد أناهم، أو قوة حدثت لهم، أو بصيرة في صلالة شغلتهم، فالأحوال بهم متقلبة في الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن ألبسهم جميعاً على الانتصاح، وأرضع لهم بالمطامع، وإتاك لن تستعدهم بمثلها. وعندهم جرالة المتأوب، في غير ما استدامة مسك إلى ترفيقهم أمرَ عدوك، والاعتذار إلى ما يأتوك به دون أن تعمل رويتك في الأحذ بالحزم، والاستكثار من العدة. وأجعلهم أوثق من تقدر عليه، وآمن من تسكن إلى ناحيته، ليكون ما يُبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك إن استطعت ذلك، فتقص عليهم برأيك وتديرك ما أبرموا، وتأيتهم من حيث آمنوا، وتأخذ لهم أهنة ما عليه أقدموا، وتستعد لهم بمثل ما حذروا.

وآلم أن حواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك، وربما كانوا لك عليك: مصححو لك وعشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك؛ وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه. فلا تبدرن منك قرطة عقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظن إلى من آتته على

ذلك؛ واستنزل نصابهم بالمِياحة^(١) والمآلة، وأنسط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أخذت من قوله أخذَ العامل به والمتَّبع له، أو عملت على رأيه عمَل الصادر عنه، أو ردَّدته عليه ردَّ المكذَّب به، المتهم له، المستحِفِّ بما أتاك منه، ففسدَ ذلك نصيحته، وتُستدعى غشُّه، وتَحترَّ عداوته. وأحذر أن يُعرفوا في عسكرك أو يُشار إليهم بالأصابع. ولكن مزيهم على كاتب رسائلك وأمين سرك، ويكون هو الموحَّه لهم، والمُدخل عليك من أردت مشافهته منهم.

وأعلم أن لعدوك في عسكرك عيونًا راصدة، وحوايس متجسِّسة^(٢)، وأنه لن يقع رأيه^(٣) عن ميكدتك مثل ما تُكايده به، وسيحتمل لك كآخِيالك له، ويُعدُّ لك كعاديك فيما تُراوله منه، ويُحاولُ كحاوليك إِياءه فيما تقارعه عنه، فأحذر أن يُشهر رجلٌ من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه، فيُعدُّ له المراسد، ويحتمل له بالمكايد. فإن طَفِر به فاطهر عقوبته، كثر ذلك ثقات عيوك، وخدلم عن تطلُّب الأخبار من معادنها، واستقصائها من عيونها، واستعداد اجتثاثها من يبايعها، حتى يصيروا إلى أحدها مما عَرَض من غير الثقة ولا المُمانية، لقطًا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المُرَّحة. وأحذر أن يعرف بعض عيونك بعضًا: فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، ومُمالأتهم عدوك، واجتماعهم على غشك، وتطائهم على كذبك، وإصفاقتهم على خيانتك، وأن يورط بعضهم بعضا عند عدوك. فأحكم أمرهم فإنهم رأس ميكدتك، وقوامُ تدبيرك، وعينهم مدار حركك، وهو أول ظفرك. فاعتمل على حَسَب ذلك وحيث رحاؤك به، تَلَّ أملك من عدوك، وقوتك على قتاله، وآخِيالك لإصاة غرائه وأتهاز فرسه، إن شاء الله.

فإذا أحكتَ ذلك وتقدمتَ في إقامته، واستظهرت بالله وعونه، قولَ شُرطتك وأمرَ عسكرك أوثقَ قوادك عدك، وأظهرهم بصيحةً لك، وأنفذهم بصيرةً في طاعتك، وأقوام

(١) المياحة الإعطاء.

(٢) في مفتاح الأمكار ورسائل اللعاب: «كاسمة». (٣) في رسائل اللعاب: «وأن رأيه

في ميكدتك مثل ما تُكايده به». (٤) إصفاقتهم: اجتماعهم.

شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة^(١)، وأصدقهم غفا، وأجراهم غناء، وأكفاهم أمانة، وأصحهم صميرا، وأرضاهم في العامة دينا، وأحمدهم عند الجماعة خلقا، وأعطاهم على كآتهم رافة، وأحسنهم لهم نظرا، وأشدهم في دين الله وحقه صلابة. ثم فوض إليهم مَقْوِيَا له، وأبسط من أمله مظهرًا عنه الرضا، حامداً منه الابتلاء. وليكن عالما بمرآة الجنود، بصيرا بتقدم المنازل، محروبا، ذا رأى وحرم في المكيكة؛ له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية؛ معروف البيت، مشهور الحسب. وتقدم إليه في ضبط معسكره، وإذكاء أحراره في آتاء ليله ونهاره؛ ثم حذرته أن يكون منه إندب لجنوده في الانتشار والاضطراب، والتقدم لطلانك، فتصاب لهم غرة بحتري بها عدوك عليك، ويسرع إقداما إليك، ويكسر من إباد جندك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جندك أو عبيدهم مطيع لم يفك، مقو لهم على شدة اتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك، وتوهمهم تديريك. لحذرته ذلك وتقدم إليه فيه، ولا يكون منه إفراط في التصيق عليهم، والخصر لهم، فيجمعهم أزل^(٢)، ويشملهم ضكك، وتسوء عليهم حاله، وتشتد به المؤونة عليهم، وتجبث له ظنونهم. وليكن موضع إزاله إياهم صامما لجماعتهم، مستديرا بهم جامعا لهم؛ ولا يكون مبسوطا منتشرا متندا، فيشق ذلك على أصحاب الأحرار، وتكون فيه النهضة للعدو، والعد من المادة إن طرق طارق في بقاء الليل وفتاته. وأوعز إليه في أحراره، وتقدم إليه فيهم كأشد التقدم وأبلغ الإيعاز. ومرة فليول عليهم رجلا ركبيا مجربا حريء الإقدام، ذا كى الصرامة، حلد الجوارح، بصيرا بمواضع أحراره، غير مصاع ولا مشق للناس في التحي إلى الرفاهية والسعة، وتقدم العسكر والتأخر عنه، فإن ذلك مما يضعف الولى ويؤهبه لاسنامته إلى من ولآه ذلك وأمه به على جيشه.

وأعلم أن مواضع الأحرار من معسكرك، ومكانها من جندك، بحيث النساء عنهم والرد عليهم، والحفظ لهم، والكلالة لمن بينهم طارقا، أو أرادهم خاتلا، ومراصدها المنسل

(١) الصريمة: العريضة. (٢) في معناه الأفكار وغيره: «أطدة». وإياد كل شيء: ما يقوى به من حايه ومه إبادا العسكر وهما ميمته وميسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصال: الذكر والشهرة. (٤) الأزل: الصيق والشدة. (٥) المادة: كل مدد تستعين به في حرب أو غيره.

منها والآتي من أرقامهم وأعبدهم؛ وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم. وأحذر أن تضرب على يديه أو تشككه عن الصرامة بمؤامراتك في كل أمر حادث وطارئ إلا في المهم النازل والحدث العام : فإنك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك ، وأستوليت على محصول صميره في طاعتك ؛ وأجهدت نفسه في ترتيبك ، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك ؛ وكان يمتك وِرْدَاك وقوتك ودعامتك ، وتفرغت أنت لمكايده عدوك ، مُريحا لنفسك من هم ذلك والعناية به ، مُلقيا عنك مؤونة باهظة وكلفة فادحة .

وأعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ، ولا يمثل محله أحد من الولاة : لما يجري على يديه من مغاليط الأحكام ومجاري الحدود . فليكن من توليه القضاء في عسكريك [من ذوى]^(١) الخير والقناعة والعفاف والتزاهة والمهم والوقار والعصمة والورع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها ، قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمه الأمور ، ممن لا يتصعق للولاية ويستعد للأنهزة ، ويمتري على الحباة في الحكم ، والمداهمة في القضاء ، عدل الأمانة ، عفيف الطعمة^(٢) ، حسن الإصاف ، فهم القلب ، ورع الصمير ، متحشع السم ، بادى الوقار ، محتسبا للخير . ثم أبر عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه ، وفرعه لما حلت ، وأعنه على ما وليته : فإنك قد عرضته لهلكة الدنيا وتوار الآخرة ، أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة ، إن حسنت يته ، وصدقت رويته ، وصحت سريره ، وسلط حكم الله على رعيته ، مُطلقا عانه ، منعذا قضاء الله في حلقه ، عاملا بسنته وشرائعه ، آحداً بحدوده وفرائضه .

وأعلم أنه من جندك بحيث ولايتك ، الجارية أحكامهم عليهم ، البائدة أقصيته بهم ؛ فأعرف من توليه ذلك وتُسند إليه . ثم تقدم في طلائعك فإنها أول ميكدتك ، ورأس حربك ، ودعامة أمرك ، فأختب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوى تحدة وبأس ، وصرامة وحبرة ، حمة كفاة ، قد صلوا بالحرب وذاقوا بحملها ، وشيروا مرار كؤوسها ، وتحزعو

(١) الزيادة عن مفتاح الأمكار (ص ٢٥٠) وعبره . (٢) الطعمة بالمص والكسر وجه الكسب

الطيب أو الحديث . (٣) في مفتاح الأمكار وعبره : « بحيث ولايتك وفي الموضع الحادية » الخ .

عُصَصَ دِرَّتِيهَا؛ وَزَبَّتَهُمْ بِتَكَرُّرِ عَوَاطِفِهَا، وَحَمَلَتْهُمْ عَلَى أَصْعَبِ مَرَاكِبِهَا، وَذَلَّتْهُمْ بِتَقَافِ
 أَوْدِهَا . ثُمَّ أَنْتَقَيْتُهُمْ عَلَى عَيْبِكَ، وَأَعْرِصَ كُرْأَتَهُمْ بِنَفْسِكَ، وَتَوَخَّخَ فِي أَنْتَقَاكِ ظَهْوَرَ الْجَلْدِ،
 وَشَهَامَةِ الْخُلُقِ، وَكَمَالِ الْآلَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِّهِمْ إِلَّا الْإِمَاتَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَهْلُوبَةِ،
 فَلَمَنْتَ أَسْرَعُ طَلْمًا، وَأَنْحَى مَهْرًا، وَأَلَيْنَ مَقْطَعًا، وَأَعَدُّ فِي الْمُتَّحِقِ غَايَةً، وَأَصْبَرُ فِي مَعْتَرِكِ
 الْأَطَالِ إِقْدَامًا . وَحُذِّمَ مِنَ السَّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدَّرُوعِ، مَازِيَّةُ الْحَدِيدِ، شَاكَّةُ النَّسِجِ، مُتَقَارِبَةُ
 الْحَلِاقِ، مُتَلَاحِيَةُ الْمَسَامِيرِ وَأَسْوَقُ الْحَدِيدِ، مُمَوَّهَةُ الرِّكَبِ، مُحْكَمَةُ الطَّبْعِ خَفِيفَةُ الصُّوْغِ،
 وَسَوَاعِدُ طَبْعِهَا هِدْيَتٌ، وَصَوْغُهَا فَارِسِيٌّ؛ رَقَائِي الْمَعَاطِفِ نَاكِفٌ وَاقِيَةٌ وَعَمَلِيٌّ مُحْكَمٌ .
 وَيُلَمِّقُ الْبَيْضَ مُدْعَبَةً وَمَحْزُودَةً، فَارِسِيَّةَ الصُّوْغِ، حَالِصَةَ الْجَوْهَرِ، سَائِفَةَ الْمَلْهَسِ، وَاقِيَةَ
 الْجَنْحِ، مُسْتَدِيرَةَ الطَّبْعِ، مُبْهَمَةَ السَّرْدِ، وَاقِيَةَ الْوِزْنَ كَثْرِيكَ الْعَامِ فِي الصَّعَةِ وَأَسْتَدَارَةِ
 التَّقْيِيبِ، وَأَسْتَوَاءِ الصُّوْغِ، مُعَلِّمُهُ بِأَصْصَافِ الْحَرِيرِ وَأَلْوَانِ الصَّنِيعِ؛ فَإِنَّمَا أَهْيَبُ لِعَدُوِّهِمْ،
 وَأَقْتُ لَأَعْصَادِ مَنْ لَقِيَهُمْ، وَالْمَعْلَمُ غَنِيٌّ مَحْذُورٌ، لَهُ بَدِيهَةٌ رَادِعَةٌ، وَهِيَّةٌ هَائِلَةٌ؛ مَعَهُمْ
 السِّيُوفُ الْهِنْدِيَّةُ، وَذُكُورُ الْبَيْضِ الْإِمَامِيَّةِ؛ رِقَاقُ الشَّفَرَاتِ، مَسُونَةُ الشُّحْدِ، مَشْطَبَةُ
 الصَّرَاطِ . مَعْتَدِلَةُ الْجَوَاهِرِ، صَائِيَّةُ الصَّفَاخِ؛ لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّبْعِ، وَلَا عَابَهَا أَمْتُ
 الصُّوْغِ، وَلَا شَانَهَا حِقَّةُ الْوِزْنِ، وَلَا فَدَحَ حَامِلُهَا هُورُ الثَّقَلِ، قَدْ أَشْرَعُوا لُذْنَ الْقَمَاءِ،
 طَوَالَ الْهَوَادِي، مُقَوِّمَاتِ الْأَوْدِ، زُرْقُ الْأَسِنَّةِ، مُسْتَوِيَةُ الثَّعَالِبِ، وَمِيصْبُهَا مَتَوَقَّدٌ،
 وَسِنْجَحُهَا مَتَلَهَّ، مَعَاقِصُ عَقْدِهَا مَحْجُوتَةٌ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مَقَوِّمَةٌ، وَأَجَاسُهَا مُخْتَلِفَةٌ،
 وَكُعُوبُهَا جَمْعَةٌ، وَعُقْدُهَا حِكْمَةٌ؛ شَطْبَةُ الْأَسْنَانِ، مُمَوَّهَةُ الْأَطْرَافِ، مُسْتَحِدَّةُ الْجَبَابَتِ،
 دِقَاقُ الْأَطْرَافِ، لَيْسَ فِيهَا آتِيَاءُ أَوْدٍ، وَلَا أَمْتُ وَصَمٍ، وَلَا بِنَا مَسْقَطُ عَيْبٍ، وَلَا عَنِهَا

(١) المهلوبة المتوترة الخلب، وهو شعر الدب أو الشعر كله . (٢) أى حالصة وحيدة .

(٣) البليق . القواء المحشوق . (٤) التريك . بيعة العام حاصة، ومه قوله :

* وتلقى بها بيض العام ترانكا *

(٥) سيف شطب : دوشطب وهي طراقة التي في منته . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .

(٧) الثعلب : طرف الرمح الداحل في حة الدنان . (٨) في مفتاح الأفكار وعيره : «ومخجها منهل»

وسح الصل : الحديدية التي تدحل في رأس السهم . (٩) المعاقص : السهام المعوجة .

وقوع أُمّية؛ مُستَحْفِي بخائِنِ القَبْلِ وقِيئِ الشُّوْحِطِ^(١) والنَّبْعِ؛ أَعْرَاسِيَةِ التَّعْقِيبِ، رُومِيَةِ النُّصُولِ، مَسْمُومَةِ الصُّوْعِ، وَلَتَكُنْ سِيَاهَمَا عَلَى خَمْسِ قَبْصَاتِ سِوَى النُّصُولِ، فَإِنَّمَا أُلْبَغُ فِي الْغَايَةِ، وَأَنْفَذُ فِي الدَّرُوعِ، وَأَشْكُ فِي الْحَدِيدِ، سَامِطِينَ^(٢) حَقَائِبَهُمْ عَلَى مَتُونِ خِيُولِهِمْ، مُسْتَحْفِينَ مِنَ الْآلَةِ وَالْأُمْتِ وَالزَّادِ، [إِلَّا مَا لَا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْهُ] .

وأحذر أن تكل مباشرة عَرَضَهُمْ وَآتَخَابَهُمْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَعْوَانِكَ وَتَحَابِكَ : فَإِنَّهُ إِنْ وَكَانَتْهُ إِيْلَهُمْ أَصْعَتٌ مَوَاصِعَ الْحَرَمِ، وَفَرَطَتْ حَيْثُ الرَّأْيِ، وَوَقَفَتْ دُونَ حَزَمِ الرُّومِيَةِ، وَدَخَلَ عَمَلُكَ صَيَاغُ الرَّهْنِ، وَخَلَصَ إِلَيْكَ عَيْبُ الْمَحَامَةِ، وَوَالِهَ فُسَادُ الْمُدَاهَةِ، وَعَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ طَلِيعَةً لِلْسَّامِينَ وَلَا عُدَّةً وَلَا حِصْنًا يَدْرُكُونَ بِهِ، وَيَكْتَفُونَ بِمَوْضِعِهِ. وَالطَّلَامُ حَصُونُ الْمُسْلِمِينَ وَعِيُونُهُمْ، وَهُمْ أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ، وَغُرُورُ أَمْرِكَ، وَزِمَامُ حَرْبِكَ. فإِذَا أَعْتَاؤُكَ بِهِمْ، وَأَنْتَقَاؤُكَ إِيَّاهُمْ بِحَيْثُ هُمْ مِنْ مُهْمِ عَمَلِكَ، وَمَكِيدَةِ حَرْبِكَ، ثُمَّ أَنْتَقَبَ لِلْوِلَايَةِ عَلَيْهِمْ رَحْلًا بَعِيدَ الصَّوْتِ، مَشْهُورَ الْأَسْمِ، طَاهِرَ الْفِصْلِ، نَبِيَهُ الذِّكْرِ؛ لَهُ فِي الْعَدُوِّ وَقَعَاتٌ مَعْرُوفَاتٌ، وَأَيَّامٌ طَوَالٌ وَصُّوْلَاتٌ مُتَقَدِّمَاتٌ، قَدْ عُرِفَتْ نَكَائِشُهُ، وَحُذِرَتْ شَوْكَتُهُ، وَهَيَّتْ صَوْنُهُ، وَتُسَكَّبَ لِقَاؤُهُ؛ أَمِينَ السَّرِيرَةِ، نَاصِحَ الْحَبِيبِ، قَدْ بَلُوتَ مِنْهُ مَا يُسَكِّتُكَ إِلَى مَاحِيَتِهِ : مِنْ لَيْسَ الطَّاعَةِ، وَخَالِصِ الْمُوَدَّةِ، وَرَكَانَةِ الصَّرَامَةِ، وَغُلُوبِ الشَّهَامَةِ، وَاسْتِجَاعِ الْقُوَّةِ، وَحَصَافَةِ التَّدْيِيرِ. ثُمَّ تَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حَسَنِ سِيَاسَتِهِمْ، وَأَسْتِزْزَلْ طَاعَتَهُمْ، وَاجْتَلَابِ مَوَدَّاتِهِمْ وَأَسْتَعِدَادِ صِمَاتِهِمْ، وَأَجْرِ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ أَرْزَاقًا تَسْمُهُمْ، وَتُمَدُّ مِنْ أَطْعَامِهِمْ سِوَى أَرْزَاقِهِمْ فِي الْعَامَّةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَّةِ لَكَ عَلَيْهِمْ، وَالْإِسْتِنَامَةِ إِلَى مَا قَبْلَهُمْ .

وَأَعْلَمْ أَنَّهُمْ فِي أَهَمِّ الْأَمَاكِنِ لَكَ، وَأَعْظَمِهَا غَنَاءً عَنْكَ وَعَمَّنْ مَعَكَ، وَأَقْمِعْهَا كِتَابًا مُهَادِّدًا، وَأَشْجِأَهَا غِيظًا لَعْدُوكَ : وَمَنْ يَكُنْ فِي الثَّقَةِ، وَالْجَلَدِ، وَالْبَاسِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْقُوَّةِ، وَالنَّصِيحَةِ وَالْعُدَّةِ، وَالتَّجَدَةِ حَيْثُ وَصَفَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرَكَ بِهِ، يَضَعُ عَنْكَ مَوْوَنَةَ الْهَمِّ، وَيُرْبِخُ

(١) الشُّوْحِطُ : شَجَرٌ تَحْلُمُهُ الْقَيْسَى . (٢) الرِّيَادَةُ عَنْ مَفْصَاحِ الْأَمْكَارِ (ص ٢٥١) .

(٣) يُقَالُ : فُلَانٌ نَاصِحٌ الْحَبِيبِ يَرَادُ ذَلِكَ قَلْبُهُ وَصَدْرُهُ أَيْ أَمِينٌ .

من حِماكَ رَوْع الخوف ، وتَلَجَّيْ إلى أمرٍ مَبِيع ، وطَهَّر قَوِي ، ورَأَى حَازِم ، تَأَمَّن به
بِحَقَاتٍ عَدُوْكَ ، وَعِرَاتٍ بَقَاتِهِمْ ، وطَوَارِقَ أَحْدَاثِهِمْ ، وَيَصِيرُ أَيْلِكَ عِلْمُ أحوالِهِمْ ، وَمتَقَدِّمَاتِ
خِيولِهِمْ ، فَاتَّخِذْهُمْ رَأَى عَيْنٍ ، وَقُوْهُمْ مِمَّا يُصْلِحُهُمْ مِنَ الْمَنَالَتِ وَالْأَطْعَامِ وَالْأَرْزَاقِ ، وَأَجْمَلُهُمْ
مَكَ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي هُمْ به مِنْ حَمَارِزِ عِلَاقَتِكَ ، وَحَصَابَةِ كَهْوَفَتِكَ ، وَقُوَّةِ سَيَّارَةِ عَسْكَرِكَ .
وإِيَّاكَ أَنْ تُدَحِّلَ فِيهِمْ أَحَدًا بِشَفَاعَةٍ ، أَوْ تَحْتَمِلَهُ عَلَى هَوَادَةٍ ، أَوْ تَقَدِّمَهُ لِأَثَرَةٍ ؛ أَوْ أَنْ يَكُونَ
مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَعْلٌ نَقِيلٌ ، أَوْ فَصْلٌ مِنَ الطَّهْرِ ، أَوْ ثَقْلٌ فَادِحٌ ، فَتَشْتَدَّ عَلَيْهِمْ مَوْزُونَةُ أُنَاسِهِمْ ،
وَيَدْخُلُهُمْ كَلَالُ السَّامَةِ فِيمَا يَبَالُغُونَ مِنْ أَتْقَالِهِمْ ، وَيَسْتَعْلُونَ به عَنْ عَدُوِّهِمْ إِنْ دَهَمَهُمْ مِنْهُ
رَائِعٌ ، أَوْ لِحَاقُهُمْ مِنْهُ طَلِيعَةٌ . فَتَقَعْدُ ذَلِكَ مُحْكَمًا لَهُ ، وَتَقَدِّمُ بِهِ أَحَدًا مَالِحِزْمٍ إِلَى مَصَابِيهِ ؛
أَرْشِدَكَ اللَّهُ لِإِصَابَةِ الْحِظِّ ، وَوَقْفَكَ لِيَمْنِ التَّنْدِيرِ ، وَقَصْدَكَ بِكَ لِأَسْهَلِ الرَّأْيِ وَأَعُوْدِهِ نَفْعًا
فِي الْعَاحِلِ وَالْآجِلِ ، وَأَكْتَنِيهِ لِعَدُوِّكَ وَأَشْجَاهُ لَهُمْ ، وَأَرْدَعِيهِ لِعَادِيَتِهِمْ .

وَلْ دَرَّاجَةِ عَسْكَرِكَ وَإِنْخِرَاجِ أَهْلِهِ إِلَى مَصَافِّهِمْ وَمَرَاكِزِهِمْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيَوَاتِ
الشَّرَفِ ، مَحْمُودٍ لِحَبْرَةٍ ، مَعْرُوفًا بِالْحَدَّةِ ، دَاسِسٌ وَتَحْرِيْرٌ ، لِيَسَّ طَاعَهُ ، قَدِيمٌ الْمَصِيحَةِ ،
مَأْمُونٌ السَّرِيْرَةِ ، لَهُ بِصِيْرَةٌ بِالْحَقِّ نَاعِدَةٌ تَقَدِّمُهُ ، وَنِيَّةٌ صَادِقَةٌ عَنِ الْإِدْهَانِ تَحْجُزُهُ . وَأَضْمُمْ
إِلَيْهِ عِدَّةً نَفَرٍ مِنْ ثِقَاتِ جِدْكَ وَدَوَى أَسَانِيهِمْ يَكُونُونَ شُرْطَةً مَعَهُ ؛ ثُمَّ تَقَدِّمُ إِلَيْهِ فِي إِنْخِرَاجِ
الْمَصَافِّ ، وَإِقَامَةِ الْأَحْرَاسِ وَإِدْكَاءِ الْعِيُونِ ، وَحِفْظِ الْأَطْرَافِ ، وَشِدَّةِ الْحَدَرِ ؛ وَمِنْهُ
فَلْيَصْبِحِ الْقَوَادُّ أَنْفُسُهُمْ مَعَ أَصْحَابِهِمْ فِي مَصَافِّهِمْ ، كُلُّ قَائِدٍ بِإِرَاءِ مَكَانِهِ ، وَحَيْثُ مَنْزِلُهُ ،
قَدْ سُدَّ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ بِالرَّمَاكِ شَارِعَةً ، وَالتَّرْسَةِ مَوْصُومَةً ، وَالرَّحَالِ رَاصِدَةً ، ذَاكِيَّةُ
الْأَحْرَاسِ ، وَحِلَّةُ الرُّوْعِ ، حَائِمَةٌ طَوَارِقَ الْعَدُوِّ وَبَيَاتِهِ . ثُمَّ مِنْهُ فَلْيُخْرِجْ كُلَّ لَيْلَةٍ قَائِدًا
فِي أَصْحَابِهِ أَوْ عِدَّةً مِنْهُمْ إِنْ كَانُوا كَثِيرًا ، عَلَى غَلْوَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ مِنْ عَسْكَرِكَ ، مَتِينًا عَلَيْكَ مُحِيطًا
بِمَنْزِلِكَ ، ذَاكِيَّةُ أَحْرَاسِهِ ، قَلِيقَةُ التَّرْدِدِ ، مُفْرِطَةُ الْحَدَرِ ، مُعِدَّةُ اللُّزُوعِ ، مُتَاهِبَةٌ لِلْقِتَالِ ، آخِذَةٌ
عَلَى أَطْرَافِ الْمَعْسُكِرِ وَنَوَاحِيهِ ، مُتَعَزِّزِينَ فِي آخِثْلَانِهِمْ كُرْدُوسًا كُرْدُوسًا ؛ يَسْتَقْبِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

(١) المل محركة : العبيبة والهبة . (٢) الثقل : متاع المسافر . (٣) الإدْهَانُ : المداهة وهو أن يظهر
الإنسان خلاف ما يظن . (٤) الترس موصومة ، أى مسوغة حلقين حلقين . (٥) أى كنية كنية .

[في الاختلاف ^(١)] وَيَكْسَع تَالٍ مُتَقَدِّمًا فِي التَّرَدُّدِ ؛ وَاجْعَلْ ذَلِكَ بَيْنَ قُودَاكِ وَأَهْلِ عَسْكَرِكَ نُوْبًا مَعْرُوفَةً ، وَحِصَصًا مَقْرُوضَةً ، لَا تُعْرِ مِنْهَا مُزْدَلِفًا مَكَ بَمُودَةٍ ، وَلَا تُتَحَامَلُ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمُوجِدَةٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوْضٌ إِلَى أُمَرَاءِ أَجْدَاكِ وَقُودَاكِ خَيْلِكَ أُمُورَ أَصْحَابِهِمْ ، وَالْأَخْذَ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ، رِيَاضَةً مَكَ لَمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأُمَرَائِهِمْ ، وَالْإِكْتِبَاعِ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفَ عِنْدَ نَهْيِهِمْ ؛ وَتَقَدُّمَ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْدَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أَلْزَمْتَهُمْ إِيَّاهَا ، وَالْأَعْمَالَ الَّتِي أَسْتَجَدَّتْهُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةَ وَالْكِرَاعَ الَّتِي كَتَبَتْهَا عَلَيْهِمْ ؛ وَأَحْذَرِ أَعْتِلَالَ أَحَدٍ مِنْ قُودَاكِ عَلَيْكَ بِمَا يَحْوِلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جَدِّكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَمْعِهِمْ عَنِ الْإِحْلَالِ بِمَرَاكِمِهِمْ لَشَيْءٍ مِمَّا وَكَلَّوَابِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ لِلْجَدِّ ، مَقْتَنَةٌ لِلْقُودَادِ عَنِ الْحَدِّ وَالْإِيثَارِ لِلنَّاصِحَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ فِي اسْتِخْفَافِهِمْ بِقُودَاهُمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ رُؤَسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضَّيَاعِ عَلَى أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتُمُّونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْفُئُ . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقُودَادِ أَلَّا يُقَدِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عِقَابَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا عِقَابَةً تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ، وَتَثْقِيفِ أَوْدٍ ، فَمَا عِقَابَةُ تَبْلُغُ تَلَفَ الْمُهْمَةِ ، وَإِقَامَةُ حَدٍّ فِي قِطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطٌ فِي ضَرْبٍ ، أَوْ أَحَدُ مَالٍ ، أَوْ عِقَابَةُ شَعَرٍ ، فَلَا يَلِيَنَّ ذَلِكَ مِنْ جَدِّكَ أَحَدٌ عَيْرُكَ ، أَوْ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنْ رَأْيِكَ وَإِدْنِكَ ، وَمَتَى لَمْ تُدَلِّلِ الْجَسَدَ لِقُودَاهُمْ ، وَتَضَرَّعَهُمْ لِأَمْرَائِهِمْ ؛ تُوجِبُ لَمْ عَلَيْكَ الْحَقَّةَ بِتَضْيِيعِ - إِنْ كَانَ مِنْهُمْ - لِأَمْرِكَ ، أَوْ حَلَلٍ - إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ - مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عِزٍّ - إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ - فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلَّتْهُمْ بِهِ أَوْ أَسْنَدَتْهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا تَجِدْ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِاللَّوْمِ وَعَصِّ الْعِقَابَةِ عَلَيْهِمْ مَجَازًا تَصِلُ بِهِ إِلَى تَعْنِيفِهِمْ ، بِتَمْرِيطِكَ فِي تَذْلِيلِ أَصْحَابِهِمْ لَمْ ، وَإِسَادِكَ إِيَّاهُمْ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمْ

(١) الرِّبَادَةُ عَنْ مِصَاحِ الْأَمْكَارِ (ص ٢٥٢) . (٢) أَيْ يَقَعْدُ بِهِمْ عَنِ الْحَدِّ الْخ .

فيه برّفك تقدما بليعا، وإياك أن يدخل حرمك وهنّ، أو يشوب عزمك إيثار، أو يخلط رأيك صياع، والله يستودع أمير المؤمنين نفسك وديك .

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنّ لقاءٍ محتصر، وكان من عسكريك مُقترِباً قد شامت طلائعك مقدماتِ صلاته وحمّةِ فنته، فهاه أهة المأجر، وحُدّ اعتداد الحذر، وكَتَبْ^(١) خيولك، وعَتَّ جددك . وإياك والمسير إلا في مقدمة وثيمة وميسرة وساقه ، قد شَهَرُوا الأسلحة، ونَشَرُوا السود والأعلام . وعَرَّفَ حدك مراكرهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهة القتال، واستعدُّوا للقاء، ملتجئين إلى مواضعهم، عارفين مواضعهم في مسيرهم ومُعسكرهم . وليكن ترحلهم وتزُّمهم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكرهم، قد عَرَّفَ كُلُّ قائد منهم أصحابه مواضعهم : من الميمة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، لازمين لها ، غير مُخلين بما استُحِدوا له ، ولا مُتهاوئين فيما أُهيبَ بهم إليه ، حتى تكون عساكرُك في متيل تصل إليه ، ومسافةٍ تختارها، كأنها عسكرٌ واحد في اجتماعها على العدو، وأحدها بالخزم، ومسيرها على راياتها ، ونزولها في مراكرها ، ومعريقها بمواضعها : إن صلت دابةٌ من موضعها، عرف أهلُ العسكر من أي المراكز هي ، ومن صاحبها ، وفي أي المحل حلُّه منها ، فُرِدت إليه ، هداية معروفة لِسَمْتِ صاحبِ قيادتها ، فإن تقدّمك في ذلك وإحكامك له طارحٌ عن جددك مؤونة الطلب ، وعناية المعرفة ، وانتفاء الضالة .

ثم أجعل على سافتك أوثق أهل عسكريك في نفسك صرامةً وفأذا ورضا في العامة ، وإنصافاً من نفسه للرعية ، وأخذاً بالحق في المعدلة ، مستشعراً تقوى الله وطاعته ، آخذاً بهديك وأدبك ، واقفاً عهد أرك ونيك ، معتزماً على مناصحك وتزيديك ، نظيراً لك في الحال ، وشيهاً بك في الشرف ، وعديلاً في الموضع ، ومقارباً في النسب ، ثم أكثف^(٢) معه الجمع ، وأيدّه بالقوة ، وقوّه بالظهور ، وأعنه بالأموال ، وأعمده بالسلاح ، ومُرّه بالتعطف على ذوى الضعف من جنودك ومن أرحف^(٣) دابته وأصابته نكمة : من مريض أو رجله أواقة ،

(١) كتب الجيش أو الحيل . حملها تخائب . (٢) في متاع الأفكار وعيره : « في الصيت » .

(٣) الرحلة المصم : أن يشكو رحله وقد رحل كعرج أصابه في رحله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحد منهم في التسحى عن عسكره، أو التحلف بعد ترحله، إلا لليهود سقاً،
أو لمطروق تافيه حائجه . ثم تقدم إليه محذراً، ومُره زاجراً، وأنه مُغلظاً في الشدة على من
مرت به مصيراً عن معسكرك من جسدك غير جوازك، شاداً لهم أسراً، وموقراًهم حديداً،
ومعاقبهم موجعاً، وموحهم إليك متنهكهم عقوبة، وتجعلهم لغيرهم من جسدك عظة .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه وانقفاً بنصيحته قد بلوت منه أمانة
تُسكك إليه، وصرامة تؤمك مهانتَه، وساداً في أمرك يُزني عنك خِناق الخوف
في إصاعته — لم يَأمن أمير المؤمنين تسأل الجسد عنك لوأداً^(١)، ورَفَصهم مراكرهم، وإحلالهم
بمواصمهم، وتحلفهم عن أعمالهم، آمين تمييز ذلك عليهم، والشدة على من أجترمه منهم،
فأوشك ذلك في وهك، وحدل من قوتك، وقفل من كثرتك .

إجعل حلف ساقينك رحلام وحوه قوادك، حليداً، ماضياً، عفيماً، صارماً، شهم
الرأى، شديد الحذر، شكيم القوة، غير مُداهٍ في عقوبة، ولا مَيَّيٍ في قوة، في خمسين
فارساً يحشُر إليك جِدتك، ويُلقح بك من تحلف عنك بعد الإبلاع في عقوبتهم، والنهك
لهم، والتسكيل بهم . وليكن بعقوتك في المنزل الذي ترحل عنه، والمنهل الذي تنقوض منه،
مُفْرِطاً في القِص له، والتنبع لمن تحلف عنك به، مشتداً في أهل المنزل وساكبه بالتقدم،
موعِزاً إليهم في إزعاج الجسد عن منازلهم، وإخراجهم عن مكائهم، وإبعاد العقوبة الموجعة
والسكال المُبْسِل في الأشعار والأبشار، وأستصفاء الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً
أو ستر موضعه، أو أخفى محله . وحدّره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والحاماة
لدى قرابة، والاحتصاص بذلك لذى أثره وهوادة . ولكن فرسانه متحّين في القوة،
معروفين بالحدة، عليهم سوايع الدروع دونها شعار الحشو وجُبُّ الاستحجان، متقلّدين
سيوفهم، سامطين^(٣) كائنتهم، مستعدين لهيَج إن بدّهم [أو كيّن إن يظهر لهم^(٤)] . وإياك

(١) لوادا : مراوعة أى مستحقين يستتر بهم بعض . (٢) القوة : ماحول الدار أو ساحته .

(٣) سامطين : مطلقين . (٤) الرابدة عن معنات الأفكار وغيره .

أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرسا قويا أو رِدْوَناً وَنِجْماً : فإن ذلك من أقوى القوى لهم ، وأعون الظهري على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً : لتجف المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا أوان رحيلهم ، فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأغلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأي الى إبان الرحيل . ومتى يكن رحيلك مختلماً ، تنظم المؤونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذوو السقم [والرق] يترحلون بالإرحاف ويترلون بالتوهم ، حتى لا يتفجع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إياك أن تظهر استقلاً ، أو تُتأدى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تمثلك بالوقوف بأصحابه على معسكرك أخذاً بجنبتي فوهته ، بأسلحتهم عدّة لأمر إن حصر أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأت منك نهزة ، أو لحّت عدك عمرة . ثم مري الناس بالرحيل وخيلك واقفة ، وأهنتك معدّة ، وجنتك واقفة ، حتى إذا استقلت من معسكرك ، ونوَجَّهت من منزلك ، سرتهم على تمثلك بسكون ريج ، وهدو حمله ، وحسن دعة . فإذا انتهت الى منزل أردت نزوله أو همت بالمعسكره ، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمراقفه ؛ ومري صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستثيرك علم دفينه ، ويستبطن علم أموره ثم ينهيها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتماله لمعسكرك ، وكيف ماؤه وأغلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك — إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك أو مكايده فيه — قوة تحملك ومدد يأتيه ، فإياك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه صيق مكانه ، وقلة مياهه ، وأقطع مآذيه ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو أحتجت من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلت منه كست غرضاً لعدوك ، ولم تحمد الى المحاربة والإخطار سيلاً ؛ وإن أقت به أقت على مشقة وحصر وفي أزل

(١) ردوا ونجما : كثير العلم .

(٢) كما في صح الأعشى (ح ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفاً صوابه : قوة تصلك وبدد يأتيك .

وصِيق ، فَأَعْرِفْ ذَلِكَ وَتَقَدَّمْ فِيهِ . فَإِنْ أُرِدْتَ نَزُولًا أَمَرْتَ صَاحِبَ الْخَيْلِ الَّتِي وَكَلْتَ بِاللَّاسِ فَوَقَفْتَ خَيْلَهُ مَتَنَحِيَةً مِنْ مَعْسُوكَ ، عُذَّةً لِأَمْرٍ إِنْ غَالَكَ ، وَمَقَرَّعًا لِيَدِيهِ إِنْ رَاعَنَكَ ، فَقَدْ أَمِستَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ بَهَاءَ عَدُوِّكَ ، وَعَرَفْتَ مَوْقِعَهَا مِنْ حِزْرِكَ ، حَتَّى يَأْخُذَ النَّاسُ مَازِلَهُمْ ، وَتَوَصَّعَ الْأَنْثَقَالُ مَوَاصِعَهَا ، وَيَأْتِيَكَ خِرَ طَلَائِعُكَ ، وَمُخْرِجَ دَبَابَتِكَ مِنْ مَعْسُوكَ دَرَاجَةً وَدَنَاءًا مُحِيطِينَ بِمَعْسُوكَ ، وَعُذَّةً إِنْ أَحْتَجَجْتَ إِلَيْهَا . وَلَتَكُنْ دَبَابَاتُ جَدِّكَ أَهْلَ جَلَدٍ وَقُوَّةٍ ، قَانِدًا أَوْ آثِينَ أَوْ ثَلَاثَةً مَاصِحَاهُمْ ، فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ نَوْتًا بَيْنَهُمْ . فَإِذَا عَرَبَتِ الشَّمْسُ وَوَجَبَ^(١) نُورُهَا ، أَنْعَجَ إِلَيْهِمْ صَاحِبُ تَعْيِينِكَ أَبْدَالَهُمْ ، عَسَسًا بِاللَّيْلِ فِي أَقْرَبَ مِنْ مَوَاصِعَ دَبَابِي النَّهَارِ ، يَتَعَاوَرُ ذَلِكَ قَوَادُكَ جَمِيعًا بِلَا مُحَامَاةٍ لِأَحَدٍ فِيهِ وَلَا إِدْهَانٍ .

إِيَّاكَ وَأَنْ يَكُونَ مِثْلُكَ إِلَّا فِي خَنْدَقٍ وَحِصْنٍ تَأْمَنُ بِهِ بَيَّاتُ عَدُوِّكَ وَتَسْتَنِيمُ فِيهِ إِلَى الْحَزْمِ مِنْ مَكِيدَتِكَ . إِذَا وَصَعْتَ الْأَنْثَقَالُ وَحَطَّتْ أَبْيَةُ أَهْلِ الْعَسْكَرِ ، لَمْ يُمَدِّدْ طُبُّ ، وَلَمْ يَرْعَ حِجَابٌ ، وَلَمْ يُنْصَبْ بِنَاءٌ حَتَّى يَقْطَعَ لِكُلِّ قَانِدٍ ذَرْعًا مَلُومًا مِنَ الْأَرْضِ يَقْدِرُ أَصْحَابُهُ ، وَيَحْفِرُوهُ عَلَيْهِمْ خَنْدَقًا يُطِيعُونَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَادِقِ الْحَسَكِ^(٢) ، طَارِحِينَ لَهَا دُونَ أَشْتِجَارِ الرَّمَاحِ ، وَنَصَبِ الثَّرَسَةِ ، لَهَا بَابَانِ قَدْ وَكَلْتَ بِحِفْظِ كُلِّ بَابٍ مِنْهُمَا رَحْلًا مِنْ قَوَادِكَ فِي مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَإِذَا فُرِعَ مِنَ الْخَنْدَقِ كَانَ ذَاكَ الرَّحْلَانِ الْقَانِدَانِ بَيْنَ مَعْمَا مِنْ أَصْحَابِهِمَا أَهْلُ ذَلِكَ الْمَرْكَرِ ، وَمَوْصِعِ تِلْكَ الْخَيْلِ ، وَكَانُوا هُمُ الْبَوَايِينِ وَالْأَحْرَاسِ لَذَيْنِكَ الْمَوْصِعَيْنِ ، قَدْ كَفَّوْهُمَا وَصَطَوْهُمَا وَأَعْفَوْا مِنْ أَعْمَالِ الْعَسْكَرِ وَمَكْرُوهُ عِيَرَهُمَا .

وَأَعْلَمُ أُنْكَ إِذَا كَسَتْ فِي خَنْدَقٍ ، أَمِستَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ طَوَارِقَ عَدُوِّكَ وَتَقَاتَيْتَهُمْ ، فَإِنْ رَامُوا تِلْكَ مِثْلَكَ ، كَسَتْ قَدْ أَحْكَمْتَ ذَلِكَ وَأَحْدَثْتَ بِالْحَزْمِ فِيهِ ، وَتَقَدَّمْتَ فِي الْإِعْدَادِ لَهُ ، وَرَفَقْتَ غُخُوفَ الْفَتَقِ مَعَهُ ، وَإِنْ تَكُنِيَ الْعَاقِبَةُ أَسْتَحَقَّقْتَ حَمْدَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَارْتَبَطَتْ شُكْرُهُ بِهَا ، وَلَمْ يَضُرَّكَ اخْتِذُكَ بِالْحَزْمِ : لِأَنَّ كُلَّ كُفْلَةٍ وَنَصِيبٍ وَمُؤُونَةٍ إِنْهَاقٍ وَمَشَقَّةٍ عَمَلٍ مَعَ

(١) أَي دَهَبَ وَغَابَ . (٢) الْحَسَكُ : أَسْلَاحٌ كَالشُّوْكِ تَعْمَلُ مِنَ الْحَدِيدِ تُلْقَى حَوْلَ الْعَسْكَرِ لِنَشَبِ

فِي رَجُلٍ مِنْ يَدِيهِمَا مِنَ الْخَيْلِ وَاللَّاسِ الطَّارِقِينَ لَهُ ، وَهِيَ الْمَرْوَةُ الْآتِيَةُ : « بِالْأَسْلَاحِ النَّاشِئَةِ » .

السلامة غُفٍّ وغير خَطَرٍ بالعاقبة، إن شاء الله . فإن أَبْتَلَيْتَ بِبِدَاتِ عَدُوِّكَ أَوْ طَرَقَكَ رَائِعًا فِي لَيْلِكَ، فَلْيُلْفِكَ حِذْرًا مُشْمَرًا عَنْ سَاقِكَ، حَاسِرًا عَنْ دِرَاعِكَ، مُنْشَرَّنًا لِحَرْبِكَ؛ قَدْ تَقَدَّمْتُ دَرَجَاتُكَ إِلَى مَوَاصِعِهَا عَلَى مَا وَصَفَهُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَدَنَابَتُكَ فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي قَدَّرَ لَكَ، وَطَلَأْتُكَ حَيْثُ أَمَرَكُ، وَجَدُّكَ عَلَى مَا عَمَّا لَكَ، قَدْ خَطَرَتْ عَلَيْهِمْ بِفَسْكَ، وَتَقَدَّمْتُ إِلَى جَنْدِكَ، إِنْ طَرَقَهُمْ طَارِقٌ أَوْ فَاجَأَهُمْ عَدُوٌّ، أَلَّا يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَافِعًا صَوْتَهُ الْكَبِيرَ مُفْرَقًا فِي الْإِجْلَابِ، مُعَلِّيًا بِالْإِرْهَابِ لِأَهْلِ الْبَاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْعَدُوُّ طَارِقًا، وَلِيُشْرِعُوا رِمَاحَهُمْ نَاشِينَ بِهَا فِي وَجُوهِهِمْ، وَيَرْشِقُوهُمْ بِالْبَلْبَلِ مَكْتَتِينَ تَرَسَهُمْ، لِأَزْمِنٍ لِمُرَاكَهُمْ، غَيْرَ مُزِيلٍ قَدَمٍ عَنْ مَوْصِعِهَا، وَلَا مُتَعَاوِزِينَ إِلَى عَيْرِ مَرَكَزِهِمْ، وَلِيَكْبُرُوا ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ وَسَاوَرُ الْجَسَدِ هَادُونَ، لَتَعْرِفَ مَوْصِعَ عَدُوِّكَ مِنْ مَعْسَرِكَ، فُتَمَدَّ أَهْلُ تِلْكَ الْبَاحِيَةِ بِالرِّجَالِ مِنْ أَعْوَالِكَ وَشَرِطَتِكَ، وَمَنْ آخَضَتْ قُلُوبُكَ ذَلِكَ عَدُوَّهُ لَلشَّدَائِدِ بِمَحْصَرَتِكَ، وَتُدَسَّ إِلَيْهِمُ الشَّابَّ وَالرَّمَاحُ .

وإياك وأن يشهروا سيفًا يتجالدون به، وتقدم إليهم ألا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرقتهم إلا بالرمح مُسْنِدِينَ لَهَا إِلَى صَدُورِهِمْ، وَالنَّشَابَ رَاشِقِينَ بِهِ وَحُوهَهُمْ، قَدْ أَلْبَدُوا بِالْأَتْرِسَةِ، وَأَسْتَجَبُوا بِالْبَيْصِ، وَأَقْبَوْا عَلَيْهِمْ سَوَابِغَ الدَّرُوعِ وَجِبَابَ الْحِشْوِ . فَإِنْ صَدَّ الْعَدُوُّ عَنْهُمْ حَامِلِينَ عَلَى حِمَّةٍ أُخْرَى، كَبَّرَ أَهْلُ تِلْكَ الْبَاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا كِفْعَلُ الْبَاحِيَةِ الْأُولَى، وَبَقِيَّةُ الْعَسْكَرِ سَكُوتٌ وَالْبَاحِيَةُ الَّتِي صَدَّ عَنْهَا الْعَدُوُّ لَارِمَةً مَرَاكَهُمْ مُنْطَلِقَةً الْهَدُوءِ سَاكِنَةً الرِّيحِ، ثُمَّ عَمِلَتْ فِي تَقْوِيَتِهِمْ وَإِمْدَادِهِمْ بِمِثْلِ صَبِيْعِكَ فِي إِحْوَانِهِمْ .

وإياك أن تُجِدَّ أَرْوَاقَكَ؛ وَادَا وَقَعَ الْعَدُوُّ فِي مَعْسَرِكَ فَاجْجِهَا سَاعِرًا لَهَا وَأَوْقِذْهَا حَطْبًا جَرَلًا يَعْرِفُ بِهِ أَهْلُ الْعَسْكَرِ مَكَانَكَ وَمَوْضِعَ رِوَاظِكَ، فَيَسْكُنُ نَافِرُ قُلُوبِهِمْ، وَيَقْوَى وَاهِي قُوَّتِهِمْ، وَيَسْتَدُّ مَخِذْلَ ظُهُورِهِمْ، وَلَا يَرْجُمُونَ بِكَ الظُّنُونَ، وَيَعْمَلُونَ لَكَ آرَاءَ

بِعَيْتٍ وَاحِدٍ، كَانَ مُعَدًّا لَمْ تَحْتَجْ إِلَى اتِّخَابِهِمْ فِي سَاعَتِكَ تِلْكَ، فَقَطَّعَ الْبَيْتَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَا يَرْتَهِّقُ . وَإِنْ أَحْتَجْتَ إِلَى أَثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، وَجَّهْتَ مِنْهُمْ إِرَادَتَكَ أَوْ مَا تَرَى قُوَّتَكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكُلُّ بِحْرَانِكَ وَدَوَاوِيكَ رَجُلًا نَاصِحًا أَمِيًّا، دَاوَرَعَ حَاجِرٍ، وَدَبِي فَاصِلٍ، وَطَاعَةِ حَالِصٍ، وَأَمَانَةٍ صَادِقَةٍ، وَأَحْمَلٍ مَعَهُ حِيلًا يَكُونُ مَسِيرَهَا وَمَنْزِلَهَا وَمَرْحَلَهَا مَعَ حِرَانَتِكَ وَحَوْلَهَا . وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ فِي حِفْظِهَا، وَالتَّوَقَّى عَلَيْهَا، وَأَتَاهُمُ كُلُّ مَنْ تُسَيِّدُ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى إِصَاعَتِهِ وَالتَّهَوُّبِ بِهِ، وَالشَّدَّةِ عَلَى مَنْ دَا مِنْهَا فِي مَسِيرٍ، أَوْ صَامَتِهَا فِي مَنْزِلٍ، أَوْ حَالِطَهَا فِي مَنْهَلٍ . وَلَيْكِنْ عَامَّةُ الْجُدِّ وَالْحَيْشِ — إِلَّا مَنْ اسْتَحْلَصَتْ لِلْسَّيْرِ مَعَهَا — مُتَحَبِّبٌ عَنْهَا، مُحَابِسٌ لَهَا فِي الْمَسِيرِ وَالْمَنْزِلِ، فَانْهَ رَبَّمَا كَانَتْ الْجَوْلَةُ وَحَدَّثَتِ الْفَرْعَةَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْخِرَاسُ مِمَّنْ يُؤَكِّلُهَا أَهْلُ حِفْظِهَا وَذَتْ عَنْهَا، وَحِيَاطِهَا دُونَهَا، وَقُوَّةٌ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَنْتَابَهَا، أَسْرَعَ الْجُدُّ إِلَيْهَا وَتَدَاعَوْا مَحْوَهَا، حَتَّى يَكَادَ يَتَرَامَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَنْتَابِ الْعَسْكَرِ وَأَصْطِرَابِ الْعَتَةِ، فَإِنْ أَهْلُ الْفِتَنِ وَسُوءِ السَّيْرِ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا هُمُتُّهُمْ الشَّرَّ، فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي حِرَانِكَ وَدَوَاوِيكَ وَسَيُوتِ أَمْوَالِكَ مَطْمَعٌ، أَوْ يَجِدَ سَبِيلًا إِلَى اغْتِيَالِهَا وَمَرْزَأَتِهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَكِيدَتِكَ أَثَرًا فِي الْعَامَةِ، وَأَعَدَّهَا صَبَاتًا فِي حَسَنِ الْقَالَةِ، مَا لَبَّتِ الظُّفَرَ فِيهِ بِحَزْمِ الرُّوِيَةِ، وَحَسَنِ السَّيْرِ، وَلُطْفِ الْحِيلَةِ . فَلْتَكُنْ رَوِيَّتُكَ فِي ذَلِكَ وَجَرُّكَ عَلَى إِصَابَتِهِ الْحَلِيلِ لَا بِالْقِتَالِ وَأَحْطَارِ النَّافِ؛ وَأَدْسُسْ إِلَى عَدُوِّكَ، وَكَاتِبْ رُؤْسَاءَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَعِزَّهُمُ الْمَالَاتِ، وَمَتِّهِمِ الْوَلَايَاتِ، وَسَوِّعْهُمْ الثَّرَاثَ، وَصَغِّعْ عَنْهُمْ الْإِحْنَ، وَأَقْطَعْ أَعْقَابَهُمْ بِالْمَطَامِعِ، وَأَسْتَدْعِهِمُ بِالْمَثَاوِبِ، وَأَمْلَأْ قُلُوبَهُمْ بِالْتَرَهيبِ إِنْ أَمَكَّتْكَ مِنْهُمْ الدَّوَاثِرُ، وَأَصَارَتَهُمْ إِلَيْكَ الرُّوَايَجُ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الْوُثُوبِ بِصَاحِبِهِمْ أَوْ أَعْتَازِلِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْوُثُوبُ عَلَيْهِ طَاقَةٌ، وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرَحَ إِلَى مَعْصِهِمْ كَتَبًا كَأَنَّهَا جَوَابُ كِتَابٍ لَهُمْ إِلَيْكَ، وَتَكْتُبْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كَتَبًا إِلَيْكَ تَدْفَعُهَا إِلَيْهِمْ وَتَقْمِلُ بِهَا صَاحِبَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتُتَرَلِّمُ عَدُوَّهُ بِمَنْزِلَةِ التَّهْمَةِ وَمَعْلَى

الْقَلْبَةُ ؛ فَلَمَل مَكِيدَتَكَ فِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَقْتَرَأُ كَلِمَتِهِمْ ، وَتَشْتَبِهُتُ جَمَاعِيهِمْ ، وَإِخْنُ قُلُوبِهِمْ ، وَسَوْءُ الظِّلِّ مِنْ وَالِيهِمْ بِهِمْ ، فَيُوحِشُهُمْ مِنْهُ خَوْفُهُمْ لِمَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أَيْقَنُوا بِأَتِيهِمْ إِيَّاهُمْ ، فَانْ بَسَطَ يَدَهُ فَقَتَلَهُمْ ، وَأَوَّلَعَ سَيْفَهُ فِي دِمَائِهِمْ ، وَأَسْرَعَ الْوُثُوبَ بِهِمْ ، أَشْعَرَهُمْ جَمِيعًا الْخَوْفَ ، وَشَمِلَهُمُ الرُّعْبَ ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْكَ الْحَرْبَ ، فَتَهَاقَتُوا نَحْوَكَ بِالصَّبِيحَةِ وَأُمُوكَ بِالطَّلَبِ . وَإِنْ كَانَ مَتَانِيًا مُحْتِمِلًا رَجَوْتَ أَنْ يَسْتَمِيلَ إِلَيْكَ بَعْضُهُمْ ، وَيَسْتَدْعَى الطَّمْعَ دَوَى الشَّرِّ مِنْهُمْ ، وَتَنَالَ بِذَلِكَ مَا تُحِبُّ مِنْ أَحْبَابِهِمْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

إِذَا تَدَانَى الصَّفَّانِ ، وَتَوَاقَفَ الْجَمْعَانِ ، وَاحْتَصَرَتِ الْحَرْبُ ، وَعَبَّاتِ أَصْحَابُكَ لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ ، فَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلٍ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَالتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّمْوِصِ إِلَى اللَّهِ ، وَمَسْأَلَتِهِ تَوْفِيقَكَ وَإِرْشَادَكَ ، وَأَنْ يَعْزِمَ لَكَ عَلَى الرَّشْدِ الْمُنْجِي ، وَالْعِصْمَةِ الْكَائِلَةِ ، وَالْحَيَاظَةِ الشَّامِلَةِ . وَمَنْ حَسَدَكَ بِالصَّمْتِ وَقَلَّةِ التَّلَفُّتِ عَدَا الْمُصَاوَلَةِ ، وَكَثْرَةِ التَّكْبِيرِ فِي أَهْلِهِمْ وَالتَّسْبِيحِ بِصَمَائِرِهِمْ ، وَلَا يُطْهِرُوهَا تَكْبِيرًا إِلَّا فِي الْكِرَاتِ وَالْحَمَلَاتِ ، وَعَدَا كُلَّ زُلْفَةٍ يَزْدَلِيهِمْ ، فَأَمَّا وَهُمْ وَقُوفٌ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْفُشْلِ وَالْجُبْنِ ، وَلَيْدُ كُرَا اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَيَسْأَلُوهُ بَصَرَهُمْ وَإِعْزَازَهُمْ ، وَلْيُكْثِرُوا مِنْ قَوْلٍ : ”لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، حَسْبَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، اللَّهُمَّ أَنْصُرْنَا عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّكَ الْبَاعِي ، وَأَكْهَبَا شُوكَتَهُ الْمُسْتَحِدَّةَ ، وَأَيِّدَا بِمَلَائِكَتِكَ الْغَالِيَيْنِ ، وَأَعِصِمَا بِعُوكَ مِنَ الْفُشْلِ وَالْعِجْزِ إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ“ .

وَلَيْكُنْ فِي مَعْسَرِكَ الْمَكْبُورُونَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَبْلَ الْمَوَاقِعَةِ ، وَقَوْمٌ مَوْقُوفُونَ يُحْصُونُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَيَحْرُصُونَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَيَصِفُّونَ لَهُمْ مَازَالَ الشُّهَدَاءُ وَثَوَائِهِمْ ، وَيَذْكُرُونَهُمْ الْجَنَّةَ وَدَرَجَاتِهَا ، وَيُعِيمُ أَهْلُهَا وَسَكَانَهَا ، وَيَقُولُونَ : أَذْكُرُوا اللَّهَ يَذْكُرْكُمْ ، وَأَسْتَنْصِرُوهُ يَنْصُرْكُمْ ، وَالتَّجَنُّوا إِلَيْهِ يَمْنَعَكُمْ . وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَمْتُ الْمُبَاشَرَةِ لَعْنَةِ جَنْدِكَ وَوَصِيهِمْ مَوَاضِعَهُمْ مِنْ رَأْيِكَ ، وَمَعَكَ رَحَالٌ مِنْ ثِقَاتِ فِرْسَانِكَ دُورُ سَنٍّ وَتَحْرِيبَةٍ وَتَجَنُّدَةٍ عَلَى التَّعْبِيَةِ الَّتِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصُّهَا لَكَ فِي آخِرِ كِتَابِكَ فَافْعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَيْدِكَ اللَّهُ بِالنَّصْرِ، وَعَلَيْكَ عَلَى الْقُوَّةِ، وَأَعَاكَ عَلَى الرَّشْدِ، وَعَصَمَكَ مِنَ الزَّيْغِ،
وَأَوْجِبْ لِمَنْ أَسْتَشْهَدُ مَعَكَ ثَوَابَ الشَّهَادَةِ وَمَآزِلَ الْأَصْفِيَاءِ، وَالسَّلَامَ عَلَيْكَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ
وَبَرَكَاتِهِ .

وَكُتِبَ سِتَّةَ تِسْعٍ وَعَشْرِينَ وَمِائَةً .

٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتاب^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد، حَفِظَكُمُ اللَّهُ يَا هَلْ صِنَاعَةُ الْكُتَّابَةِ، وَحَاطَكُمُ وَوَقَّفَكُمُ وَأَرْشَدَكُمُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ جَعَلَ الدَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمِنْ تَعَدِّ الْمُلُوكِ
الْمَكْرُمِينَ أَصْفَاءًا، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سُوءًا، وَصَرَّفَهُمْ فِي صُوفِ الصَّاعَاتِ، وَصُرُوبِ
الْمَحَاوِلَاتِ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَايِشِهِمْ، وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ، لِيَجْعَلَ لَكُمْ مَعَشَرَ الْكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ
الْحِمَاهَاتِ، أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَاتِ وَالْعِلْمِ وَالزَّيَّانَةِ، نَكْمٌ تَنْتَظِمُ لِمَخْلَافَةِ مَحَاسِنِهَا، وَتُسْتَقِيمُ
أُمُورِهَا، وَبِنَصَائِحِكُمْ يُصْلِحُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ، وَتَعْمُرُ لِدَائِنَهُمْ، لَا يَسْتَغْنَى الْمَلِكُ عَنْكُمْ،
وَلَا يُوحَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ، مَقَوِّعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ، وَأَنْصَارُهُمْ
الَّتِي بِهَا يُنْصَرُونَ، وَالسُّتَهْمُ الَّتِي بِهَا يَطِيقُونَ، وَأَيْدِيهِمْ الَّتِي بِهَا يَنْطِشُونَ، فَاثْمَعَكُمْ اللَّهُ مِمَّا حَصَّكُمْ
مِنْ قَصَلِ صِبَاغَتِكُمْ، وَلَا نَزَعُ عَنْكُمْ مَا أَصْفَاهُ مِنَ النِّعَةِ عَلَيْكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
الصِّبَاغَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى أَجْتِنَاعِ حِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ، وَحَصَالِ الْفَصْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ
مَعَكُمْ . أَيُّهَا الْكُتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ، فَإِنَّ الْكُتَّابَ يَخْتِاجُ
فِي نَفْسِهِ، وَيَخْتِاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ فِي مُهْمَاتِ أُمُورِهِ، أَنْ يَكُونَ حَلِيلًا فِي مَوْضِعِ
الْحِلْمِ، فَهِيَ فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، مَقْدَامًا فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ، مَحَامًا فِي مَوْضِعِ الْإِنْخَامِ، مُؤَثِّرًا

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق) . (٢) أصعاه . أنه

للعفاف والعذل والإنصاف، كَتُومًا للأشْرار، وفيًا عند الشدائد، عالمًا بما يأتي من الواصل؛
يَصْعُحُ الأمور مَوَاصِعُهَا، والطَّوارق في أَمَّاكُمَا، قد نَظَرَ في كل فن من فُنون العلم فأَحْكَمَهَا،
وإن لم يُحْكَمْ أَحَدٌ مِنْهُ بِمَقْدَارِ مَا يَكْتَسِبُ بِهِ، يَعْرِفُ بِعَرِيرَةِ عَقْلِهِ، وَحُسْنِ آدَبِهِ، وَفَضْلِ
تَحَرُّبِهِ، مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُجُودِهِ، وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ؛ فَيُعَدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ
وَعَتَادَهُ، وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَحَةٍ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ . فَتَأَفَّسُوا يَا مَعْشَرَ الْكُتَّابِ فِي صُوفِ الْآدَابِ،
وَتَهَمَّعُوا فِي الدِّينِ، وَابْدُؤُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعِرَائِصِ، ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا تَقَافُ
أَلْسِنَتَكُمْ، ثُمَّ أَجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ، وَأَزْوَوا الْأَشْعَارَ وَأَعْرِفُوا عَرَبِيَّهَا وَمَعَانِيَهَا،
وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمْمُكُمْ،
وَلَا تُضَيِّعُوا الطَّرْقَ فِي الْحِسَابِ، فَإِنَّهُ قَوَامُ كُتُبِ الْحَرَجِ، وَأَرْغَعُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيهَا
وَدَنِيهَا، وَسَقِّسَافِ الْأُمُورَ وَمَحَاقِرَهَا، فَإِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلرَّقَابِ، مَقْسَدَةٌ لِلْكُتَّابِ، وَزَهْوٌ صَاعَتَكُمْ
عَنِ الدَّنَاءَةِ، وَأَرْثُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالْبَيْمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْحِمَالَاتِ .

وَيَاكُمْ وَالْكَثْرَ وَالسُّخْفَ وَالْعِظْمَةَ، فَإِنَّهَا عَدَاوَةٌ مُجْتَمِلَةٌ مِنْ عَيْرِ إِحْسَنَةٍ، وَتَحَارُّوا فِي اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ فِي صَاعَتِكُمْ، وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ لِأَهْلِ الْفَصْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ
سَلَامِكُمْ، وَإِنْ تَنَا الزَّمَانُ رَجُلٌ مِنْكُمْ، فَاعْظِفُوا عَلَيْهِ وَوَأْسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ، وَيَثُوبَ إِلَيْهِ
أَمْرُهُ، وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكَثْرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ، فَزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوُرُوهُ؛
وَأَسْتَظْهَرُوا بِفَضْلِ تَحَرُّبِهِ، وَقَدِّمِ مَعْرِفَتَهُ، وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَبَعَهُ وَأَسْتَظْهَرَ
بِهِ لَيَوْمٍ حَاجَتُهُ إِلَيْهِ أَحْوَطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ، فَإِنْ عَرَّصَتْ فِي الشُّغْلِ تَحَمُّدَةً فَلَا يَصْرِفُهَا
إِلَّا إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ عَرَّصَتْ مَدَّةً فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ؛ وَلْيَحْتَدِرِ السَّقْفَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ
عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ، فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْكُتَّابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْفِرَاءِ، وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ
لَهَا، فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا مَحَبَّتُهُ مِنْ يَدُلُّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ، مَا يَحِبُّ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ؛
فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ، وَأَحْتِمَالِهِ وَنَصِيحَتِهِ، وَكَيْفَانِ سِرِّهِ وَتَدْيِيرِ أَمْرِهِ،

ما هو جرأً لحقه ، ويصدق ذلك فعله عند الحاجة اليه ، والأصطرار الى ما لديه ، فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم في حالة الرِّحاء ، والشدة والحرمان والموااة والإحسان والسراء والضراء ؛ فعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصبغة الشريفة ، وإذا ولي الرجل منكم أو صبر اليه من أمرٍ خلق الله وعيلاً أمرٌ ، فليراق الله عز وجل وليؤثر طاعته ؛ وليكن على الصعيف رفيقاً ، وللاظلم منصفاً ، فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم اليه أرفقهم بعباله ؛ ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مكرماً ، وللقوى مؤقراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية مثاقماً ، وعن أدام متحلفاً ، وليكن في مجلسه متواصلاً حليماً ، وفي سجلات خراجه وأستقضاء حقوقه دقيقاً ، وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختار حلائقه ، فإدا عرّف حسنّها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن ، وأحتال على صرفة عما يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجمل وسيلة .

وقد علمت أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً لم يهيجها إذا ركبها ، وإن كانت شوا أنقاها من بين يديها ، وإن حاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرّوا قع برفق هواها في طرقيها ، فإن استمرت عطفاً يسيراً ، فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجرّبهم وداحلهم .

والكاتب لفصل أدبه وشريف صغته ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويباطره ، ويهيم به أو يحاف سطوته ، أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقوم أوده ، من سائس البهيمة التي لا تحير جواناً ، ولا تعرف صواناً ، ولا تفهم خطايا ، إلا بقدر ما يصبرها اليه صاحبها الراكب عليها ، ألا فاروقوا رحمكم الله في الطر ، وأنعموا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر ، تأمّوا بإذن الله من محبّتهمو النبوة والاستئفال والحقوة ، ويصير منكم الى الموافقة ، وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله ، ولا يُجاورن الرجل منكم في هيئة مجلسه ، وملبسه ومركبه ، ومطعمه ومشربه وحذمه ، وغير ذلك من فنون أمره قدر حقّه ، فإنكم مع ما فصلكم الله به من شرف صنعكم ، حذمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير ، وحفظه

لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّصْبِيحِ وَالتَّبْدِيرِ، وَاسْتَعْبُوا عَلَى أَعْمَالِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَاحْدَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ، وَسُوءَ عَاقَةِ التَّرَفِ، فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ، وَيُذَلِّلَانِ الرِّقَابَ وَيَقْصَحَانِ أَهْلَهُمَا، وَلَا سِيَّامَا الْكُتَّابَ وَأَرْبَابَ الْآدَابِ . وَالْأُمُورُ أَشْبَاهُ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ، فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مُؤْتَفِ أَعْمَالِكُمْ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرُّبَتُكُمْ، ثُمَّ اسْأَلُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّدْبِيرِ أَوْصَحَّهَا حَخَّةً، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً، وَأَحْمَدُهَا عَاقِبَةً .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتَلَفَةً، وَهِيَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ، عَنْ إِنْفَازِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ، فَلْيَقْصِدِ الرَّحْلَ مِنْكُمْ فِي عِلْسِهِ، قَصْدَ الْكَافِي فِي مَسْطَقِهِ، وَلْيُوحَرْ فِي آبَتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ، وَلْيَأْخُذْ بِجَمَاعِ حُجَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفَعْلِهِ، وَمَدَقَّةٌ لِلشَّاعِلِ مِنْ إِتْكَارِهِ، وَلْيَصْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيْقِهِ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ، بِخَافَةٍ وَقُوعِهِ فِي الْفَلْطِ الْمُصَرِّ بَدَنِهِ، وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَائِلًا: إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ حِمِلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ، إِنَّمَا هُوَ فِصْلُ حِيلَتِهِ وَحُسْنُ تَدْبِيرِهِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِحُسْنِ ظَنِّهِ أَوْ مَقَاتِلِهِ إِلَى أَنْ يَكَلِّهَ اللَّهُ عِزُّهُ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى عَيْرِ كَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ عَيْرُ حَافٍ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَنْصَرَّ الْأُمُورَ، وَأَحْمَلَ لَأَعْيَاءِ التَّدْبِيرِ، مِنْ مُرَافَقَةٍ فِي صِبَاغَتِهِ، وَمُصَاحَبَةٍ فِي خِدْمَتِهِ، فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّحُلَيْنِ عَسَدُ دَوَى الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْمُحِبِّ وَرَاءَ طَهْرِهِ، وَرَأَى أَنَّ أَحْسَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَلُ فِي طَرِيقَتِهِ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ مِنْ عَيْرِ اعْتِرَارِ رَأْيِهِ، وَلَا تَرْكِيَّةَ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُكَاثِّرَ عَلَى أَحْيَاهِ أَوْ نَظِيرِهِ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرَتِهِ، وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِعَمَلِهِ، وَأَمَّا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ: "مَنْ تَلَزَمَهُ الْمَصِيحَةُ يَلْزَمَهُ الْعَمَلُ" وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَعُرَّةُ كَلَامِهِ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزُّهُ وَجَلَّ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَةً وَتَمَّتْ بِهِ . تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِزْشَادِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

٨ - رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشطرنج^(١) :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سُبله ، وإيصاح معالِمه بإظهار فرائضه ، وبعث رسَلَه الى خلقه دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومقدمة اليهم بإنذاره ووَعيدَه ، لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن يَدِه ، ويَحْيَا من حَيَّ عن يَدِه ؛ ثم حتم سبيله صلى الله عليه وسلم وحجبه ، وقَفَّى به رسَلَه ، وأبتعته لإحياء دينه الدارس مرتصباً له على حين اطمست الأعلامُ محفية ، وتشتت السبل متفرقة ، وعَفَّت آثارُ الدين دارة ، وسَطَعَ رَجَحُ الفتن ، وأَعْتَل قَنَامُ الظُّلم ، وأسْتَهْدَ الشُّرْكُ ، وأَسْدَفَ الكُفْرُ ، وظَهَرَ أوليَاءُ الشَّيْطَانِ لطموس الأعلام ، ويطقُ زعيمُ الباطل بسكينة الحق ، وأَسْتَطَرِقَ الحورُ وَأَسْتَنْكِحَ الصُّدُوفَ عن الحق ، وَأَقْمَطُ سَلْتَهُبُ الفتنَةِ ، وَأَسْتَضِرِمَ لِقَاحُهَا ، وَطَبَّقَتِ الأرضُ طامة كُفْرٍ وَغَيَاةَ مَسَادٍ ، فَصَدَعَ خالقُ مأمورا ، وأبْلَغَ الرسالةَ معصوما ، ونصح الإسلامَ وأهلَه ، دَالاً لهم على المَرَأْسَدِ ، وَقَانِداً لهم الى الهداية ، وميراً لهم أعلامَ الحق صاحبة ، مرشداً لهم الى استفتاح باب الرحمة وإعلاق عُزْوَةِ النُّجَاةِ ، مُوَصِّحاً لهم سُلَّ الْفَوَايِدِ ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، مُحَذِّراً لهم الهلكة ، مُوعِزاً اليهم في التَّقْدِيمَةِ ، صَارِئاً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صَارِئاً بفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترعيب والترهيب ، حريصاً عليهم ، متحسناً على كآبتهم ،

(١) هذه الرسالة من تخات « اختيار المظوم والمشور » لأثر طيعور المحفوظ مدار الكتب المصرية تحت

رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى من مخطوطة رقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الخلة في رسائل اللغاء هكذا « على حين اطمست له الأعلام » زيادة "له"

وليس لها محل من السياق طلبها من زيادات الساج .

(٣) أسدوف الكفر أظلم وعم الواح والأرحاء كالليل . (٤) اقطر اشدة .

(٥) العياية ، ما أطل الإنسان من فوق كالسحابة والعبرة ومحوها .

(٦) في رسائل اللغاء وإعلان بالون بدل القاف ، وهو محرف .

عزیزاً علیہ عَثَمَ ، رِعْوَقاً بِهِمْ رَحِیماً ، تَقَدَّمَهُ شَفَقَتُهُ عَلَیْهِمْ وَعَايَتُهُ بِرَشْدِهِمْ إِلَى تَحْرِیدِ
الطَّلَبِ إِلَى رَبِّهِ فِیَا فِیهِ بَقَاءُ الْعَمَةِ عَلَیْهِمْ ، وَسَلَامَةُ أَدِیَانِهِمْ ، وَتَحْفِیْفُ أَصَارِ الْأَوْزَارِ عَنْهُمْ ،
حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَیْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَیْهِ وَسَلَّمَ - مَاصِحاً مُتَنَصِّحاً ، أُمِیاً مَأْمُوماً ، قَدْ نَلَّغَ الرِّسَالَةَ ، وَأَدَّى
النَّصِیْحَةَ ، وَقَامَ بِالْحَقِّ ، وَعَدَّلَ عُمُودَ الدِّینِ ، حَتَّى اعْتَدَلَ مِیلُهُ ، وَأَذَلَّ الشَّرْكَ وَأَهْلَهُ ، وَأَنْجَزَ
اللَّهُ لَهُ وَعْدَهُ ، وَأَرَاهُ صَدَقَ أَنْبَاءُهُ^(١) فِی إِكْمَالِهِ لِلسَّالِمِینَ دِینَهُ ، وَأَسْتَقَامَةَ سُنَّتِهِ فِیْهِمْ ، وَطُهور
شُرَائِعِهِ عَلَیْهِمْ . قَدْ أَبَانَ لَهُمْ مُوَقَاتِ الْأَعْمَالِ ، وَمَقْطَعَاتِ الدُّنُوبِ ، وَمِهْبَطَاتِ الْأَوْزَارِ ،
وَطَلَمَ الشُّبُهَاتِ ، وَمَا يَدْعُو إِلَیْهِ نَقْصَانُ الْأَدِیَانِ ، وَتَسْتَهْوِیْهِمْ بِهِ الْغَوَايَاتِ ، وَأَوْصَحَ لَهُمْ أَعْلَامَ
الْحَقِّ ، وَمَازَلِ الْمُرَاشِدِ ، وَطُرُقَ الْمُهْدَى ، وَأَبْوَابَ الْحَاةِ ، وَمَعَالِقَ الْعَصْمَةِ ، عِیرَ مَذْهِبٍ لَهُمْ
نَصْحاً وَلَا مَبِیْعٍ فِی إِرْشَادِهِمْ عُنَا . فَكَانَ مِمَّا قَدَّمَ إِلَیْهِمْ فِیهِ نَبِیَّهُ ، وَأَعْلَمَهُمْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ ،
وَحَدَّرَهُمْ إِمْرَهُ ، وَأَوْعَزَ إِلَیْهِمْ نَاهِیاً وَوَاعِظاً وَزَاجِراً ، الْأَعْتِكَافُ عَلَى هَذِهِ التَّمَاتِيلِ مِنْ
الشُّطْرُنِجِ وَالْمَوَاصِلَةِ عَلَیْهَا ، لَمَّا فِی ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الْإِثْمِ ، وَمُوقِ الْوِزْرِ ، مَعَ مَشْغَلَتِهَا
عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ ، وَإِصْرَارِهَا بِالْقَوْلِ ، وَمَتَّعَهَا مِنْ حَصُورِ الصَّلَوَاتِ فِی مَوَاقِبَتِهَا مَعَ جَمِيعِ
الْمُسْلِمِینَ .

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ، ممن قبلك من أهل الإسلام ، قد ألحجهم الشيطان
بها ، وجمعهم عليها . وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صحتهم إلى
ثمسأهم ، ملهية لهم عن الصلوات ، شاعلة لهم عما أصرؤا به من القيام بسن دينهم ،
وأفترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها . وإن ذلك من
دعاهم طاهر في الأندية والمجالس ، غير منكّر ولا معيب ولا مستفزع عند أهل الفقه ،
وذوى الورع والأديان والأستاب منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكرهه

(١) آمار : جمع إصر وهو الثقل . وفي رسائل العلماء واختيار المطوم والمنثور لآل طيعور «أواصر» بدل

آصاره ، وهو منحرف . (٢) في رسائل العلماء واختيار المطوم والمنثور لآل طيعور «أسابه» وهو منحرف ،

وأستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما ينس منه من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل ،
 بمصر المسلمين ويجمعهم صُراخاً وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، ورى لهم وَرْطَةً
 موقفة ، وعزهم بمكيده جيلة ، إرادة لاستهوائهم بالخدع ، واحتياهم بالشبه والمراسد^(١)
 الخفية المشكلة . وكل مقيم على معصية الله ، صغرت أو كبرت ، مستحلاً لها مُشيداً بها ،
 مظهرًا لأرتكابه إياها ، غير حدير من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا حائِف مكرهاً فيها ،
 ولا راعٍ من حلول سَطوته عليها ، حتى تلحقه الميبة ، فتحتلحه وهو مُبصر عليها ، غير
 تائب الى الله منها ، ولا مستغفر من أرتكابه إياها ، فكَم من أقام على موبقات الآثام
 وبكائر الدوب ، حتى مدته ومحرم أيامه .

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم اليهم ، فيما بلغه عنهم ، وأن يُدبرهم ويُوعز إليهم ،
 ويُعلمهم ما في أعاقهم عليها ، وما لهم في قول ذلك من الحفظ ، وعليهم في تركه من الورر ،
 فأذن بذلك فيهم ، وأشده في أسواقهم وجميع أديتهم ، وأوعر اليهم فيه . وتقدم الى عامل^(٢)
 شُرطتك في إنهاك العقوبة لم رُفِع اليه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها ،
 وإطالة حبسه في ضيق وضك ، وطُرِج اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وأفطمهم عما
 هُجُوا به من ذلك . وألتمس شدتك عليهم فيه وإنهاكك بالعقوبة عليه ، ثواب الله
 وجراه ، وأتاع أمير المؤمنين ورأيه . ولا يحدن أحد عدك هواده في التقصير في حق الله
 عز وجل ، والتعدى لأحكامه ، فتحل بنمسك ما يسوءك عاقبة معبته ، وتعرض به
 لعير الله عز وجل وبكاله . وأكتب الى أمير المؤمنين ما يكون منك ، إن شاء الله
 والسلام .

(١) اجتاهم . حوّلهم عن طريق تصدم ويحتل أن يكون : واحتاهم ، والاحتال : الاصطياد .

(٢) آداه الأمر به : أطله .

رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب

٩ - ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد ^(١):

أطال الله لقاءَ أمير المؤمنين مؤيدًا بالعر، محصوفاً بالكرامة؛ ممتعاً بالعمّة، إنه لم يلق ^(٢) أحدٌ من المقتضين، ولا يُسح متطرفٌ من المتصيدين، إلا دون ما لقانا الله به من ^(٣) اليمن والبركة، ومتّحنا من الطفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتنص، وتمكين الجاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة، إلا ما كان من محاولة ^(٤) الطلب، وشدة النَّصب، لافر الصيد، وقائد الطريدة التي أمعاً في الطاب لها، وأعجزنا ^(٥) البهر عن الخاق بها، لتفاوت سبقها، ومقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى ^(٦) حسن الظفر، وتواي الأرب، ونهاية الطرب.

وإني أخبر أمير المؤمنين أننا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأنقِف الصواري؛ أكرمها أحناساً، وأعظمها أحساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاء، قد تَنَقَّتْ بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلامَ المواقف، وحبرت المحاثم، ^(٧) مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبّت. ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة، ^(٨) من الشهيرة الموصوفة بالنعابة، والجرى والصلابة. فلم نزل نأخض سير، وأنقِف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً، فربّت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتائم من مئار ^(٩) السابك، ومتشعبات الأعاصير، مُهَلَّة أنف سِرنا علويات، ثم برزت الشمس طالعة، وأكتشفت [من] السحاب مسفرة، فتلاّلت الأشجار، وصحك النوار، وأنجلت الأبصار، فلم نر منظرًا أحسن حسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من ابتسام نور الشمس عن أخصرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المطوم والمنثور » لأبي طيعور .

(٢) في الأصل : " يلف " . (٣) في الأصل : " العانا " . (٤) كذا في الأصل ولعلها

محرفة عن الحالة . (٥) القدورة القدرة، وفي الأصل : " المقدورة " . (٦) الفراهة .

الشاطي في السير . (٧) الشهيرة . الراديين . (٨) في الأصل . هكذا " مسا " .

(٩) في الأصل " متسعات " .

زهرة الرياض . واخيلُ ترحُّبُ بنا نشاطا ، وتجتنبُنَا أعنتَهَا أنبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علَّنا ضبابَهُ تَقْصُرُ طَرَفَ السَّاطِرِ ، وَتُخْفِي سُبُلَ السَّلامِ ، تغشانا تارةً وتكتشف أخرى ، ونحن نأري ضِدْمَةَ التُّرابِ ، أَشْبَهَ الْأَطْرَافِ ، مُفِدَّةَ الْعِجَاجِ ، مملوءة صيدا من الطُّبَاءِ والشَّعَالِ والأَرَانِبِ ؛ فَأَذَانَا الْمَسِيرُ إِلَى غَايَةِ دَوْهَا مَالُفُ الصَّيْدِ ، وَجَمْعُ الْوَحْشِ ، وَنَهَايَةُ الطَّلَبِ ؛ قَدْ حَاوَزْنَا وَنَحْسَ عَلَى سَبِيلِ الطَّلَبِ مَمْعُونٌ ، وَبِكُلِّ حَرَّةٍ جَوْنَةٍ مُتَفَرِّقُونَ ، فَرَجَعَ بَا الْعُودِ عَلَى الدَّاءِ ، وَقَدْ انْحَلَّتِ الضَّبَابَةُ ، وَأَمْتَدَّ الْبَصَرُ ، وَأَمَكْنَ النَّظَرُ ، فَأَدَا نَحْنُ رِعْلَةً مِنْ طُبَاءٍ ، وَحِلْفَةً آرَامٍ يَرْتَعْنَ آنَسَاتٌ ، قَدْ أَحَالَتْهُنَّ الضَّبَابَةُ عَنْ شَعْصَعَا ، وَأَذْهَلَهُنَّ أَنْيَقُ الرِّيَاضِ عَنْ أَسْتِمَاعِ حَسَّاسٍ ، فَلَمْ نَجْعْ إِلَّا وَالضُّوَارِي لِأَنْتَعَةٍ لَمْ تَنْبُذْ مِنْ بُعْدِ الْغَايَةِ ، وَمَنْتَهَى نَظْرُ الشَّاحِصِ ، ثُمَّ مَدَّتِ الْجَوَارِحُ أَجْنَحَتَهَا ، وَاجْتَدَبَتْ الضُّوَارِي مَقَاوِدَهَا ، فَأَمَرَتْ بِإِرْسَالِهَا عَلَى التَّقَةِ بِمُحْصِرِهَا ، وَسُرْعَةِ الْجَوَارِحِ فِي طَلَبِهَا ، فَزَتْ تَحْفٌ حَفِيفَ الرِّيحِ عَدُّ هُوبِهَا ، تُسِفُّ الْأَرْضَ سَفَا ، كَاشِفَةً عَنْ آثَارِهَا ، طَالِبَةً لِنِجَارِهَا ، حَارِشَةً لِمَظَارِهَا ، قَدْ مَرَّقَتْهَا تَزْيِيقُ الرِّيحِ الْجَرَادِ ؛ هُنَّ صَانِعٌ بِهَا وَبَاعِرٌ ، وَهَاتِفٌ بِهَا وَوَاقِعٌ ، يَدْعُو الْكَلْبَ بِأَسْمِهِ ، وَيَفْدِيهِ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ؛ وَرَاكِبٌ تَحْتَ مُعْرَهُ ، وَحَافِيٌّ يَطْلُهُ الرِّيحُ ، وَطَالِحٌ يَمْعُهُ ، وَسَانِعٌ قَدْ عَارَصَهُ مَارِحٌ ، قَدْ حَبَّرَتْهُ الْكَثْرَةُ ، وَالْهَجْنَةُ الْقُدْرَةُ ، حَتَّى آمَنَلَتْ أَيْدِينَا مِنْ صَوُوفِ الصَّيْدِ ، وَاللَّهُ الْمَعْمُ الْوَهَّابُ .

ثم ملأنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمت التجارب ، وَحَبَّرَ أَعْلَامَ الْمَدَانِبِ ، إِلَى عَدِيرِ أَفْجَحٍ ، وَرُوصَةِ خَصْرَةٍ ، مُسْتَأْجِمَةً بِتَلَاوِينِ الشَّجَرِ ، مُلْتَمَّةً بَصُوفِ الْحُمْرِ ، مَمْلُوءَةٍ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّيْرِ ، لَمْ يَذْعُرْهُنَّ صَائِدٌ ، وَلَا أَقْتَنَصَهُنَّ قَانِصٌ ، نَخْفِقُ لَهَا طَبُولٌ ، وَصُفْرٌ بِعَمِيرِ الْخَنْفِ ، فَتَارَ مِنْهَا مَا مَلَأَ الْأَفُقَ كَثَرَتُهَا ، وَرَاعَتْ الْجَوَارِحُ خَفَقَاتُ أَجْنَحَتِهَا ، ثُمَّ أَنْبَرَتْ الْبُرْزَاةُ

(١) فِي الْأَصْلِ : «فَنَصَرَ» . (٢) فِي الْأَصْلِ : «وَيَحْيِي» .

(٣) الْأَشْبَةُ الْمَلْمَعَةُ الشَّجَرِ . وَفِي الْأَصْلِ «آسَهُ» . (٤) الْحَرَّةُ . أَرْضُ دَاتِ هِمَارَةٍ مَحْرَةٍ سَوْدٍ ،

وَفِي الْأَصْلِ «حَر» . (٥) الْحَوِيَّةُ : السَّوْدَاءُ ، وَفِي الْأَصْلِ هَكَذَا : «حَوِيَّة» . (٦) رِعْلَةٌ . حِمَاةُ

مَعْرُوقَةٍ . (٧) فِي الْأَصْلِ : «يَمْحُ» . (٨) الْحَرُ : الشَّجَرُ .

لها صائدة، والعقور كاسرة، والشواهي صارية، يرفع الطلب لها، ويحفظن الظفر بها، حتى سئما من الدخ، وأمتلأنا من الصبح، ^(١) كأننا كنيئة طُفِرت ببيعتها، وسيرة يُصرت على عدوها، وألحقت صعيها بقويها، وعلبت محسنا بمسيتها، لا نملك أنفسنا مراحا، ولا نستطيع من الجدل بها فرحا، بقية يوما، والله المنعم الوهاب .

ثم عدوا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصف لها صيدها بالكثر، ورياضها بالنزهة، فزل واصفها عن الطريقة، وأعتمد سا على غير الحقيقة، فأتياها فلم نرصيدا ولا عسبا، ولا نزهة ولا حسا، جعلنا نسلك منها حروا ووُعورا، وحُدوا وقفرا، حتى قصربنا اليأس عن الطلب، وقطع با عن الطمع النَّصَب . مينا نحن كذلك، إذ بدا لنا حاب ^(٢) قد أوفى با على حائل دل على غابة من ورائها حير وحيش كثيرة، فأمسأها، فلما تطرأ مشيا وتقريبا ^(٣) الى غاباته، توالى نيقه، وكثر شقيقه، فالتفت اليه، فرمقن بأعين مآ ما استكثرن شخصه، وأستمولن أمره، حتى اذا كنا بمرأى ومسمع أنحدبن موليآت، وهربن مسينات، فاجهدنا الركض في طلبهن . منع آثارهن، وستشف بلاء بين أحجار ودكادك ^(٤) وخاذيد ^(٥)، حتى أشفى بسا الطلب لها على واد هائل سائل، بحسنيه غابة أشسة ^(٦) قد سقن اليها، واستحفين فيها، مطمأها بالخليل نظم الحرر، ثم أوعلت عدّه فرسا في نصيها ومعرفه أحوالها، والطبول حافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

(١) الصبح العرق .

(٢) في الأصل : "قت" . (٣) الحاب . العليط من حمر الوحش . (٤) في الأصل :

"ميسا" . (٥) القريب صرب . العدو . (٦) الغابة . القطيع من حمر الوحش .

(٧) الأحجار جمع حجر وهو التراب المخرج من المهور . (٨) الدكادك . جمع دكك ودككاد وهو أرس فيها

علط . (٩) الحاديدي . جمع حديد وهو رأس الحبل المشرف ، والذي يتفق والسياق "أحاديد"،

وهي جمع أحردود . الحفرة المستطيلة في الأرض .

باب المنظوم

الغزل

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة ما نجد فيه من لوائح الحب ولقعاته، وشكايات الصب وأناته، وزفورات العاشق وعبراته. وبدأ أنواعه المتباينة التي قسمناها الى أربعة أقسام :

(١) غزل إباحي : ويصح لنا أن نقصد من عمر بن أبي ربيعة زعما لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني القسّ والاستمتاع بالذمة المادية مما يثير منه الأدب الجاهل، وما حظّره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمة. وقد كانت مكة والمدية مسرحا لهذا النوع في العصر الأموي. وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعه ثمة .

(ب) غزل عذري : وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألّمة المعناة، تلك النفس التي تحدّ لذتها في الكفّ بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في الصفاء وحماها، حياء يملك عليه لبه ويعذب روحه ويهيئ حسمه، كعزل جميل زعيم هذا النوع. وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغاني اد حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاحه في ذلك أجمل مُحاجة، فكان من جميل ما كان مما تحدّه مفضّلا في هذا الباب .

(ج) غزل صناعي : بين هذا وذاك، همّة الإجازة في الشعر من حيث هو شعر، لا في الحب من حيث هو حب، ولنا في كثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث .

(د) غزل قصصي : حلقة الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف وما ينبع حياة القصف، فظلموا قصائد نحلوها لشعراء لا نستطيع أن نحتمل تبعه

القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأصافوها إلى شعرهم . وزعيا هذا النوع : قيس بن الملوّح وليلاه، وقيس بن دريج ولّسناه .

وإيفاء بما وعدناك به ذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(١) الغزل الاباحي

عمر بن أبي ربيعة^(١)

« راق عمرُ س أنى ربيعة السّاس وفاء نظراءه ورعهم سهولة الشعر وشده الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصواب المصدر، والقصد للحاجة، وأستطاع الرّنع، وإطلاق

(١) هو أبو الخطّاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي، أشعر قريش وأرق أصحاب العزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطّاب رسول الله عليه ، وكانت أمه بصرية ، وكان أبوه تاجرا موسرا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب في بعم وزفر ، وقال الشعر صغيرا ، وسلك فيه طريق العزل ، ووصف أحوال النساء وتراورهن ومداعسة بعضهن لبعض ، وما يعدن قوله من الكلام ، مما يتوقر الشعراء الصحول عن الخوص فيه ، ولذلك لم يحملوا شعره وعدوه من هذيان حلما المدينة ، فما زال يخالج الشعر والشعر يقد له ، حتى ملك ماصيته ، وقص على رماحه ، ورر الشعراء ، وقال رائيته المشهورة على طريقته المستكة وهي التي أولا

أمن آل هم أت عاد فكر : عداة عد أم رانح مهجر

والتي قال فيها حرير حين سمعها . ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر .

ثم استنطاز شره في التشبيب بالنساء . من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتعرض لأصوات المتعمعات من ساء قومه ومن غيرها ، فوقف منه في بلاء عظيم وصرن يحسن الخروج إلى الحج لأنه كان يتلقاها من عكة ، ويترق حروجهن للطواف والسعي ويصمهن وهن محرمات . وحلفت عليه رجالات قريش لمكاته منه مبهم وتلرقن توتنه وإقلاعه ، فلما تنمذى في أمره وشب بنات السادات والخلفاء ، عصب عليه عمر بن عبد العزيز وبناه إلى ذلك : (وهي حرية أمام مدينة متصوّع) . ثم رأى أن ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالنوبة والجهاد فها في الحر فاحترقت السمعية التي كان فيها واحترق هو أيضا سنة ٩٣ هـ وقد اقتنسا تصدير بخشا عه عن أنى الفرح الأصغها في وتحد ترجمته مطولة في الأغاني ح ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن حلكان (ح ١ ص ٣٧٨) والدميري (ح ١ ص ٣٢٦) والمقد الفريد (ح ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع في لبرح سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومه مستخان حطينان بدار الكتب المصرية .

القلب، وحسن العزاء، ومخاطبه النساء، وعفة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات المحبة، وترجيح الشك في موضع اليقين، وطُلاوة الاعتذار، وفتح العزل، ونهج العِلل . وعَطَفَ المساءَ على العُدال، وحسن التمتع، ومُحل المازل، واحتصار الخبر، وصَدَقَ الصَّقاء، إن قَدَحَ أَوْرى، وإن أعذر أبرأ، وإن تَسَكَّى أَثْنَى، وأقدم عن جِبره، ولم تَعْتَدِر بعِزّه، وأسر اليوم، وعمّ الطير، وأعدّ السير، وحير ماء الشَّبَاب، وسَهْل وقول، وقاس الهوى فأرَى، وعَصَى وأحلى، وحالف بِسَمْعِهِ وطَرَفِهِ، وأبْرَمَ بَعَثَ الرُّسُلَ وحدّر، وأعلل الحُب وأسر، واطن به وأظْهر، وألح وأسَف، وأكبح اليوم، وجنى الحديث وصرب طهره لبطيه، وأدلّ صَعْنه، وقَسِعَ بالرحاء من الوفاء، وأعلّى قاتله، وآسَنَكِي عادِلَه، ونَقَصَ اليوم، وأعاق رَهَنَ مَنَى وأهدر قَتْلَه، وكان بعد هذا كله قصيحا .

من سهولة شعره وشده أسره قوله ^(١) :

فلما تواقفا وسلمتُ أشرقَتْ * وجوهُ زَهاها الحسُّ أن تُتَقَمَّا

تَبَاهَنَ العِرْفانُ لما رَأَيْتَنِي * وَقُلَّ أَمْرُؤُ بَاجٍ أَكَلٌ وَأَوْصَعًا ^(٢)

ومن حُسْنِ وصفه قوله :

لها من الرِّيمِ عِناهُ وَلَفَّتُهُ ^(٣) * وَخَوَّةُ السَّاقِ الْمُحْتَالِ إِدْ صَهْلًا

ومن دَقِّه معناه وصوابِ مَصْدَره قوله :

عَوًّا مُخَيَّ الطَّلَلِ الْمُخَوَّلَا ^(٤) * وَالرَّيْعِ مِنْ أَسْمَاءَ وَالْمِرَلَا ^(٥)

بَسَائِعِ الْبُوبَاةِ لَمْ يَعُدَّهُ ^(٦) * تَقَادُمَ الْعَهْدِ نَأَى يُؤَهَلَا

(١) المراد من شدة الأسرها إحكام السج ومائة التركيب . (٢) أكل . أعيأ وأوصع أسرع

في السير . (٣) الرِّيم . الطي . (٤) عرجا : قفا . (٥) المحول والمحيل : الذي أتت

عليه أحوال كثيرة فغيرته . (٦) البوباة : الصلاة واسم لصحراء بأرض تهامة إذا حرحت من أطل

وادي النحلة الجبائية وهي بلاد بني سعد بن بكر هوازن . (معجم البلدان لياقوت) .

ومن قصيده للحاجة قوله :

أيها المُنحُ الثَّريُّ ^(١)سَهيلًا * عَمَرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هي شاميّة إذا ما استقلتُ * وسهيل إذا استقلَّ يَمَانِي

ومن استنطاقه الرّع قوله :

سَأَلَا الرَّعَ بِالْبَلَى ^(٢)وقولا * هَجَتْ شَوْقًا لِي الْعِدَاءَ طَوِيلَا
أَبْنَى حَىَّ حُلُوكُ إِذْ أَتَ مَحْفُو * فَبِهِمْ أَهْلُ أَرَاكَ جَمِيلَا
قَالَ سَارُوا فَاثْمَعُوا وَأَسْتَقْلُوا ^(٣) * وَبُرْنَعِي وَلَوْ وَجَدْتُ سَبِيلَا
سَمَّيُوبَا وَمَا سَمَّيْنَا جَوَارَا * وَأَحْوَا دَمَانَةً ^(٤)وُسُوهَلَا

قال إسحاق : أنشد حرير هذه الأبيات فقال : إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه .
ومن إبطافه القلب قوله :

قال لي فيها عَتِيقٌ مَقَالَا * بَحِثْتُ مِمَّا يَقُولُ الدَّمُوعُ
قال لي ودّعْ سُلَيْمَى ودّعْهَا * فَأَجَابَ الْقَلْبُ : لَا أَسْتَطِيعُ

ومن حسن عزائه قوله :

أَلْحَقْنِي إِنْ دَارَ الرَّابِ تَبَاعَدْتُ * أَوْ أَنْتَ حُلٌّ أَتَ قَلْبِكَ طَائِرُ
أَفَقِي قَدْ أَفَاقَ الْعَاشِقُونَ وَفَارَقُوا ^(٥)ال * يَهْوَى وَأَسْتَمَرَّتْ بِالرَّحَالِ الْمَرَاثِرُ
زَجَّ ^(٦)الْقَمَسَ وَاسْتَبَقَ الْحَيَاءَ فَلَأَمَّا * تُبَاعِدُ أَوْ تُدْنِي الرَّابَّ الْمَقَادِرُ
أَمِيتَ حُبَّهَا وَاجْعَلْ قَدِيمَ وَصَالِهَا * وَعِشْرَتَهَا كَشَلٍّ مَنْ لَا تُعَايَشِرُ

- (١) هي الزّيا أمة عد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عدشمس بن عد مناف الأموية . ترحها سهيل
بن عبد الرحمن بن عوف الزهري رضى الله عنه ونقلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) اللّى — بصم
وفتح و ياء مشددة — تل قصير أسفل حادة بينها وبين دات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا . واصلوا
السير وحدوا في الأرجال . (٤) يقال : دمنت الأرض دمانة . سهلت ولات . (٥) امت :
اقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عرائثهم وهو يريد أن يسلم سلقهم .
(٧) رع المس ، أى أرحمها وكفها عن هواها .

وهبها كشيء لم يكن أو كزاج * به الدار أو من غيبته المقابر
وكلناس علقت الرأب فلا تكن * أحاديث من يندو من هو حاصر^(١)

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكثير، ويرويها الكوفيون للكثير من معروف
الأسدي، وذكر بعض الزبير بن نكر عن أبي عبيدة لكثير في أخاره .

ومن حسن عزله في محاطبة النساء — قال مضعب الزبيري : وقد أجمع أهل بلدا
ممن له علم بالشعر أن هذه الأبيات أعزل ما سمعوا — قوله :

تقول عداة ألقيا الرأب أياذا أفلت أفلول السماك
وكفت سواق من عبه * كما أرقص بطم ضعيف السلاك
فقلت لها من يطع في الصديق أعداءه يحببه كذاك
أعرك أنى عصبت الملا * ثم فيك وأب هواها هواك
وأن لا أرى لذة في الحياة * تقر بها العين حتى أراك
فكان من الدين لي عدم * مكارمني وأتاعي رصاك
وليت الذي لآم في حبك * وفي أن تباري بقرين وقاك^(٢)
هموم الحياة وأسقامها . وإن كان حنف جهيز فذاك

ومن عفة مقاله قوله :

طال ليلى وأعادني اليوم سقم * وأصاب مقليل القلب نعم
حرة الوحه والشمائل والجو * هير تكليمها لمن نال عثم
وحديث بمنله نزل العضم^(٣) * ثم رحيم يشوب ذلك حلم
هكذا وصف ما بدا لي منها * ليس لي بالذي تغيب علم
إن تحوذي أو تخلي محمدا * لست يا نعم فيهما من يدم

(١) أي من يقيم في السدو والمحصر . (٢) المراد به قرن المارل، وكثيرا ما يذكره في شعره .

(٣) حمير . سرج . (٤) العضم : جمع أعصم وهو من العاظم والوعول ما في ذراعيه يباح ،

وهي تنضم غالبا من الحمال .

ومن قلة أنتقاله قوله :

أيها القائل غير الصواب * أمسيك الصبح وأقل عتاني
وأحيتني وأعلمن أن ستعصى * ونحير لك طول أجتاني
إن تقل نصحا فم طهر عشي . دائم العمر بعيد الذهاب^(١)
ليس في عني بما قلت إني . عالم أفقه رجع الحواب
إما قره عيني هواها * فدع اللوم وكفني لماي
لا تلمني في الرباب وأمست * عدلت للنفس برد الشراب^(٢)
هي والله الذي هو ربّي * صادقا أحلف غير الكذاب
أكرم الأحياء طرا عليا * عند قرب مهم وأجتاب
حاطتني ساعة وهي تبكي * ثم عزت حلفتي في الخطاب^(٣)
وكفني في مذرهما لخصوم * لسواها عند حد تبائي^(٤)

ومن إسناته الخجة قوله :

حليل بعض اللوم لا ترحلا به^(٥) * رفيقا حتى تقول على علم
حليل من يدف نأخر كالدي * كلفت به يدمل فؤادا على سقيم^(٦)
حليل ما كانت تُصاب مقاتلي * ولا عرري حتى وقعت على نعم
حليل حتى لفت حلي بجادع^(٧) * موق إذا برمي صبيد إذا برمي^(٨)
حليل لو رقي خليل من الهوى * رقيت بما يذني النوار من الضيم^(٩)
حليل إن باعدت لاث وإن أل * تباعد فلم أنبل بحرب ولا سلم^(١٠)

(١) العمر (بكر العين) : الحقد والعل . والعمر (فتح العين) . الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحمله البيت

(٢) عدلت ساوت . (٣) أي علنت صدقتي في الخطاب قال تعالى : (وعر في الخطاب)

(٤) يريد حسى عال لكل حصم سواها إلى حد هلاك . (٥) يقال : رحل فلان فلانا مما يكر

والمراد أنه ينقله باسماءه إياه . (٦) يدمل : يطوى . قال في اللسان : ويقال : أدمل القوم

أي أطولهم على ما فهم . (٧) يكنى هذا عن الوقوع في شركها . (٨) الوار : النافرة من العدا

(٩) لم أنبل لم أصب ، أو لم أحس الرمي .

ومن ترجيعه الشك في موضع اليقين قوله :

نطرتُ إليها بالمُخَصَّبِ مِنْ مِي * ولى نطرتُ لولا التحرُّج عَارِمٌ^(١)
 فملت . أشمسُ أم مصابيحُ بيعه * بدت لك حلفت السَّجِفُ أم أنب حالمٌ^(٢)
 بعيدةٌ مهوى القُرْطِ إقنا لوفل * أسوها وإما عبدُ شمسٍ وهائِمٌ^(٣)
 ومدَّ عليها السَّحَفِ يومَ لقيتها * على تحلٍ تُناعها والحوادِمُ
 فلم أستطعها غيرَ أبٍ قد بدا لها * عشيّة راحَت وجهها والمعاصِمُ
 معاصِمُ لم تُضرب على الهِمِّ بالصَّحَى * عصاها ووجهه لم تلحه السَّامُ^(٤)
 نُصَارَتُرى فيه أسارىع مائه * صبيحٌ تُفاديه الأكف السَّواعِمُ
 إذا مادعت أترابها فأكتشفها * تاملن أو مالت هن المائِمُ^(٥)
 طلن الصَّبَا حنى إذا ما أصبته * رَغَن وهن المسلمات الطوالمُ^(٦)

ومن طلاؤه أعتداه قوله :

عَاوَدَ الْقَلْبَ مَعْصُ مَا قَدْ شَاحَهُ * من حبيب أَمسى هواها هَوَاهُ
 يَلْقَوْنِي فَكَيْفَ أَصْدُرُ عَنْ * لا تَرَى الْفَسْ طِبَّ عَيْشٍ سَوَاهُ
 أُرْسَلْتُ إِذْ رَأْتُ بَعَادَى آلَا * يَقْلُنْ نِي مُحَرَّشًا ابَّ أَنَاهُ^(١)
 دُونَ أَنْ يَسْمَعَ الْمَقَالَةَ مَا * وَلِيُطْعِي فَإِنْ عَدَى رِصَاهُ
 لَا يُطِيعُ بِي قَدْتُكَ هَمِي عَدْوَا * لِحَدِيثٍ عَلَى هَوَاهُ أَفْأَرَاهُ
 لَا يُطِيعُ بِي مَنْ لَوْ رَأَى وَإِيَا * لَكِ أَسِيرُ صُرُورَةٍ مَا عَاهُ
 مَا صِرَارِي هَمِي يَهْجُرِي مَنْ لِي * سِمْسِيَّةً وَلَا بَعِيدًا ثَرَاهُ^(٢)
 وَأَحْتَابِي بَيْتَ الْحَبِيبِ وَمَا خَلَّ * لَدُنِّي نَأْتِيهِ إِلَى مَنْ أَنْ أَرَاهُ

(١) عارم : حاذق . (٢) السَّحَف : السَّحَاب . (٣) كناية عن طول العشق ، وبه هجر في المثل
 السائر (طبعة نولاق ص ٣٨٣) . (٤) الهِم : جمع همة ، وهي الصعير من أولاد الصَّان والمعر والبقر
 (٥) لم تلحه . لم تعبره . (٦) أسارىع الماء : طرائقه . والمراد أنه يترقق منه ماء الشاة
 (٧) المائِم : جمع مأكة وهي العجيرة . (٨) المحرَّش : المعري ، من التحريش وهو الاعراء والامصاد .
 (٩) الثرى : الحير .

ومن نَهَجَ الْعَلَلِ قَوْلُهُ :

وآيَةُ ذَلِكَ أَنْ تَسْمَعِي * إِذَا جِئْتُكُمْ نَاشِدًا يَنْشُدُ
فُرْحَنَا سِرَاعًا وَرَاحَ الْهَوَى * دَلِيلًا إِلَيْهَا بِنَا يَقْصِدُ
فَلَمَّا دَسُونَا لِحَرْسِ السَّاءِ^(١) * ح وَالصَّوْتِ، وَالْحَيُّ لَمْ يَرْقُدُوا
بَعَثَا لَهَا نَاقِيًا نَاشِدًا * وَفِي الْحَيِّ بُغْيَةٌ مِنْ يَنْشُدُ

ومن فَتَحَهُ الْغَزَلَ قَوْلُهُ .

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعَشِقِي وَلَمْ تَدْرِي مَا أَهْوَى * وَكُنْ حَمْرًا مِنْ يَاسِ الصَّخْرِ حَامِدًا
وَمَنْ عَطَفَهُ الْمَسَاءَ عَلَى الْعُدَالِ قَوْلُهُ :

لَا تَأْمَنِي عَيْتُقُ حَسَنِ الدِّي بِي * إِنْ نِي يَاعْتِيقُ مَا قَدْ كَفَى بِي
لَا تَأْمَنِي وَأَنْتِ زَيْنَتَهَا لِي * أَنْتِ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

ومن حُسِّنَ تَفْجُّعُهُ قَوْلُهُ :

هَجَرَتِ الْحَبِيبَ الْيَوْمَ مِنْ عَيْرٍ مَا أَحْتَرَمَ * وَقَطَعْتَ مِنْ ذِي وَدَّكَ الْجَبَلَ فَاغْصَمَ
أَطْلَعْتَ الْوُشَاهَ الْكَاشِحِينَ وَمَنْ يُطْعَمَ * مَقَالَةً وَأَيْشَ يَقْرَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمَ
أَنَا نِي رَسُولٌ كَتُّ أَحْسَبَ أَنَّهُ * شَهِيقُ عَلِيٍّ نَاصِحٌ كَالَّذِي زَعَمَ
فَلَمَّا تَنَاقَشْنَا الْحَدِيثَ وَصَرَّحْتَ * سَرَّارُهُ عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ كَتَمْتَ
تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْمُحَرَّشَ كَادَتْ^(٢) * فَعَدَى لَكَ الْعُتْبَى عَلَى رَغَمٍ مِنْ رَغَمِ
وَمِلَّالٍ لَمْتُ الْفَسَّ بَعْدَ الدِّي مَعَى * وَبَعْدَ الدِّي آتٍ وَأَلَيْتُ مِنْ قَسَمِ
طَلَمْتَ وَلَمْ تُعْتَبْ وَكَانَ رَسُوهُمَا * إِلَيْكَ سَرِيعًا بِالرَّصَا لَكَ إِذْ ظَلَمْتَ

(١) الحرس الصوت . (٢) ث الحديث . إشارته . (٣) المحرّش : المعري ، يقال :

حرّش من القوم . أفسد بهم .

ومن تخيله المنازل قوله :

ألم تسأل الأطلالَ والمترنما * بيطين حليات دَوَّارَسَ نَلَقَا
إلى السرح من وادى المغمِسِ بُدَّتْ * معالمها ونَّلا وَكُنْأَ زَغْرَا^(٥)
فيسئل أو يُخَيِّرَنَ بالعلم بعد ما * نَكَانَ قَوَادَا^(٦) كَانَ قَدَمًا مَهْجَا

ومن اختصاره الخبر قوله :

أَمِ آلِ نَعِيمٍ أَنْتَ عَادِ مُسَكَّرُ * عَدَاهُ عِدَّ أَمِ رَاغٍ مُهَجَّرُ
بِحَاحَةِ نَعِيمٍ لَمْ تُقَلِّ فِي جَوَابِهَا * فَتُبْلِعَ عَذْرًا وَالْمَقَالَةُ تُعْدِرُ
أَشَارَتْ بِمَذْرَاهَا وَقَالَتْ لِتَرْيَا^(٧) * أَهْدَا الْمُفِيرَى الَّذِي كَانَ يُذَكِّرُ
لَنْ كَانَ إِيَّاهُ لَقَدْ حَالُ بَعْدَنَا * عَنِ الْعَهْدِ وَالْإِسَانُ قَدْ يَتَغَبَّرُ

قال الرِّبْرِ حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ الْمُوَصِّلِيُّ قَالَ : قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا مَعْنَى قَوْلِ أَنْ أَى رُبْعِيَّةَ :

بِحَاحِهِ هَيْسَ لَمْ تُقَلِّ فِي جَوَابِهَا^(٨) * فَتُبْلِعَ عَذْرًا وَالْمَقَالَةُ تُعْدِرُ
فَقَالَ : قَامَ كَمَا جَلَسَ .

ومن صِدْقِهِ الصَّفَاءَ قَوْلُهُ :

كُلُّ وَصِيلٍ أَمْسَى لَدَيْكَ لِأَنْتَى * غَيْرِهَا وَصَلُهَا إِلَيْهَا أَدَاءُ
كُلُّ أَنْتَى وَإِنْ دَتَّ لِوِصَالٍ * أَوْ نَأَتْ فَهِيَ لِلرَّبَابِ الْعِدَاءُ

- (١) حليات (بضم الحاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره الكرى وياقوت ولم يبياه ، ولعله موضع قرب مكة قربة ذكره مع المعمرس الوارد في البيت بعده . (٢) السرح موضع قرب (٣) المعمرس (تشديد الميم وفتحها كما في ياقوت ، وسطه الكرى في محمه بكسر الميم وتشديدها) . موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال وقره يرسم لأنه كان دليل أرواح صاحب العليل . (٤) الكاء : الريح التي تكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : ريج رعرع ، أى شديدة ، وكذلك رعرع ورعرع . (٦) يقال : نكا الحرج : قشره قل أن يلقم . (٧) المدرى والمدرة : حديدة يحك بها الرأس . (٨) أى هي في غاية من السر لا يحاب عليها إذا سئل عنها ، والإعداد : هي المدر .

وقوله :

أَحِبُّ لِحُبِّكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ * صَبِيحاً لِنَفْسِي وَلَا صَاحِباً
وَأَبْذُلُ مَا لِي لِمَرْصَاتِكُمْ * وَأَعْتَبُ مِنْ حَاءِكُمْ عَاتِباً
وَأُرْعُ فِي وَدٍّ مَنْ لَمْ أَكُنْ * إِلَى وَدِّهِ قَلْبُكُمْ رَاعِياً
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي حَافٍ * مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْتَرَلَتْ حَانِياً
لَيَمُتُّ طَيْتَهَا^(٢) إِيَّاسِي * أَرَى قُرْبَهَا الْعَجَبَ الْعَاجِياً

ومما قدَحَ فيه فأورَى قوله .

طَالَ لَيْلِي وَتَعَانِي الطَّارِ^(٣) * وَأَعْتَرَانِي طَوْلُ هَمٍّ وَوَصَتْ^(٤)
أَرْسَلْتُ أَسْمَاءَ فِي مَعْتَبَةٍ * عَتَبَتْهَا وَهِيَ أَحْلَى مِنْ شَتَبِ
أَنْ أَتَى مَهَا رَسُولٌ مُوَهَّماً^(٥) * وَحَدَّ الْحَيَّ نِيَاماً فَأَنْقَلْتُ
صَرَ السَّاتِ فَلَمْ يَسْعُرْ بِهِ * أَحَدٌ يَفْتَحُ مَا إِيَّادُ صَرَتْ
قَالَ : أَبْقَاظُ، وَلَكِنْ حَاحَةً * عَرَصَتْ تُكْنِمُ مَا فَاحِجَتْ
وَلَعَمْرُدَا رَدِّي، فَاحْتَدَتْ * بَيْنَ حَلَقَةٍ عَسَدِ الْغَضَبِ
يَسْهَدُ الرَّحْمَنُ لَا يَجْعَلُهَا * سَقْفَ بَيْتِ رَحَا بَعْدَ رَجَتْ
قُلْتُ حَلًّا فَأَقْبَلِي مَعْدِرِي * مَا كَدَا يَجْرِي يُحِبُّ مَنْ أَحْبَتْ
إِنْ كُنْتِي لِكَ زَهْنٍ بِالرَّصَا * فَأَقْبَلِي يَا هَبْدَا، قَالَتْ قَدُوحَتْ

قالوا ومن شعره الذي اعتدَر فيه فأراً قوله :

فَالْتَقِيَا وَرَحَّتْ حِينَ سَلَّمَا * سَتْ وَكَفَّتْ دَمْعاً مِنَ الْعَيْنِ مَا رَأَا^(٦)
ثُمَّ قَالَتْ عَدِ الْعِتَابِ رَأْبَا * مَسَكَ عَنَّا تَحَلُّداً وَأَزْوَارَا^(٧)

(١) يقال . أعشه إذا أعطاه العشي وأرماه . (٢) طيتها . ناحيتها وقصدها . (٣) تعانى .

أوقعى في الماء . . (٤) الطرب . حقة تغترى الإنسان عند شدة الفرح أو الحزن والحلم . (٥) الموهن .

بحو من نصف الليل . (٦) مار . حرى وسال . (٧) الأزورار : الإهراس .

قُلْتُ كَلَّا لِأَنَّهُ أَرُوعَمَكِ بِلِحْفٍ * سَا أُمُورًا كَمَا هِيَ أَعْمَارًا^(٢)
 بَجَعَلْنَا الصَّدُودَ لَمَّا حَشِينَا * قَالَةَ السَّائِسُ لِلْهَوَى أَسْتَارَا
 لَيْسَ كَالْعَهْدِ إِذْ عَهِدْتَ وَلَكِنْ * أَوْقَدَ السَّائِسُ بِالنِّيمَةِ مَارَا
 فَلِدَاكِ الْإِعْرَاضُ عَلَيْكَ وَمَا آ * ثَرَقَلِي عَلَيْكَ أُخْرَى اخْتِيَارَا
 مَا أَنَالِي إِذَا الْبَوَى قَرَّبَتْكُمْ * فِدُونُكُمْ مَن حَلَّ أَوْ مَن سَارَا
 فَالْيَالِي إِذَا نَأَيْتَ طَوَالَ * وَأَرَاهَا إِذَا قُرْنَتْ قِصَارَا
 وَمَنْ تَسْكِيهِ الدِّي أَنْجَبِي فِيهِ قَوْلُهُ .

لَعَمْرُكَ مَا حَاوَرْتُ عُمْدَانُ طَائِعًا * وَقَصَرَ شَعُوبُ^(٥) أَدَا كُونَ بِهِ صَا
 وَلَكِنْ حُمِّي أَضْرَعْتِي ثَلَاثَةً^(٦) * مُحْرَمَةٌ ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ بِهَا عَيْبًا^(٨)
 وَحَتَّى لَوْ أَنَّ الْخُلْدَ يَعْزِضُ إِنْ مَسَّتْ * إِلَى الْبَابِ يَحُلِي مَا نَقَلْتُ لَهَا إِرَابًا^(٩)
 فَإِنَّكَ لَوْ أَنْصَرْتَ يَوْمَ سُوَيْقِيهِ^(١٠) * مُنَاخِي وَحَبْسِي الْعَيْسُ دَامِيهِ حَدَا^(١١)
 وَمَضَرَغٌ إِخْوَانٌ كَانَتْ أُنْيَتُهُمْ^(١٢) * أَيْبُنْ مَكَائِي فَارْقَنْتُ لَهَا خِصْمًا
 إِذَا لَأَقْشَعَرَّ الْخُلْدُ مَسِكَ صَسَامَةً * وَلَا اسْتَفْرَعْتَ عَيْبَاكَ مِنْ عَهْدٍ سَكَا
 وَمِنْ إِقْدَامِهِ عَنِ حِزْبِهِ وَلَمْ يَغْتَدِرْ بَعْدَهُ قَوْلُهُ :

صَرَمْتُ وَوَاصَلْتُ حَتَّى عَرِدَ * سَتُ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ دَاكِ حَتَّى عَرِدَ * سَتُ مَا أَتَوَقَّى وَمَا أَعْمَدُ

- (١) لاه بمعنى لله . (٢) العدر (ضم العين) ومعها مع سكون الميم ، و«حتين» ، وفتح فكسر
 العز الحاحل الذي لم يحجز الأمور . (٣) أي ليس الأمر كما تعهد من قبل .
 (٤) عمدان قصر بالين ماه « يشرح من يحصب » . (٥) قصر شعوب قصر عال مرتفع بالين
 (٦) أضرعني . أصعقني وأدلتني . (٧) محزومة كعظمه . تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .
 (٨) الف من الحى ما تأخذ يوما وتدع يوما . (٩) أي ما حركت له عصوا . (١٠) سويقة .
 موضع . (١١) حدما جمع حداء ، وأصل الخلد ما أرتفع من الأرض ، يريد أنه أعياها السير بهي دامية
 متقوسة الطهور هزالا . (١٢) المكائي : جمع مكاء ، وهو طير يشبه الفقة إلا أن في حناحيه لقا ، وهو حس
 الصوت في تعريده .

ومن أسيره اليومَ قوله .

نام صحبي ووات بوي أسيرا * أرقب الجَمَ موها أن يغورا

ومن عمه الطيرَ قوله :

فرحنا وقلنا للغلام آقِض حاجة .. لا ثم أدركنا ولا نتغير^(٢)

سِرَاعاً نغم الطير إن سَحَتْ لـ^(١) . وإن تَلَقَّا الرُّجَانُ لا تَنَغَّرِ

نتغير من قولهم : غبر فلان ، أى لث .

ومن إعداده السيرَ قوله^(٣) :

قلتُ سِيراً ولا تُقِيَا بُصْرِي^(٤) * وَخَفِيرٍ^(٥) هـ أَحِبْ حَفِيرًا

وإذا ما مررتُا بِمَعَابِ^(٦) * فَأَقِلَّا به التَّوَاءَ وَسِيراً

إنما قصرتُا إذا حَسَرَ السَّيْرُ^(٧) * رُ بَعِيرًا أَب تَسْتَحِدُّ بَعِيرًا^(٨)

ومن تحييره ماءَ الشباب قوله :

أُبرُّوها مِثْلَ المَهاةِ تَهَادَى * بين تَحْمِيسِ كَواعِبِ أَتْرَابِ

ثم قالوا نَحْبُها قَلْتُ مَهْرًا * عَدَدَ القَطْرِ والحصى والأترابِ

وهى مَكُونَةٌ تَحْيِرُ مِنْهَا * فى أَدِيمِ الخَدَّيْنِ ماءُ الشَّبابِ

ومن تَقْوِيلِهِ وتَسْيِيلِهِ قوله :

قالتُ على رِقْبَةٍ يوماً لِحارِثِها * ما تَأْمُرِينَ فإن القَلْبَ قد تَيَلَّأَ^(٩)

وهل لى اليومِ مِن أُخْتٍ مُوَاحِيةٍ * مَكْنَى أَشْكُو إليها بَعْضَ ما فَعَلَا

(١) لعله يريد . محبها بالسق ، أو بهرها وعلها ، من قولهم . عم القمر الحوم : بهرها وكاد يستر صوءها .

(٢) التصر : السؤال عن الخبر . (٣) أعد السير وأعد فيه . أسرع . (٤) بصرى بلد بالشام .

(٥) حفير : هـر بالأردن بلاد الشام . (٦) معان : مدينة فى طرف مادية الشام تلقاء الحار من واحة

اللقاء . (٧) قصرا ، أى قصارا وعاطنا . (٨) حسر السير بعيرا . أحهداه وأعباه .

(٩) المتبول من أسقمه الهوى وعله الحب على أمره .

فراجعتها حصاناً غير فاحشية ^(١) * رَجَعَ قَوْلِي وَلُبٌّ لَمْ يَكُنْ خِطْلًا ^(٢)
 لَا تَذْكُرِي جَبَّهَ حَتَّى أُرَاجِعَهُ - إِنْ سَأَلْتُكِ عَنْهُ لَمْ أَمُتْ عَجَلًا
 فَأَقْنِي حَيَاةَكَ فِي سِتْرِي وَكَرِيم ^(٣) * فَلَسْتُ أَوَّلَ أَمْرٍ عُلِّقَتْ رَحْلًا
 وَأَمَّا مَا قَاسَ فِيهِ الْهَوَى فَقَوْلُهُ :

وَقَرَّبَ أَسْبَابَ الْهَوَى لِمَتِّمْ
 يَقْبِسُ دِرَاعًا كَمَا قَسَنَ إَصْبَعًا
 وَمِنْ عِصْيَانِهِ وَإِحْلَانِهِ قَوْلُهُ :

وَأَنْصُ الْمَطْيَ يَنْبَغِ بِالرُّكْ * بِ سِرَاعًا تَوَاعِمَ الْأَطْعَانِ ^(٤)
 فَمَصِيدُ الْغَرِيرِ مِنْ تَقَرُّ الْوَحْدِ * شِشْ وَلَهُوَ لَذَّةُ الْفَتْيَانِ ^(٥)
 فِي زَمَانٍ لَوْ كَسَتْ فِيهِ صَحْبِي * غَيْرَ شَكٍّ عَرَفْتُ لِي عِصْيَانِي
 وَتَقَلُّتِي فِي الْغِرَاشِ وَلَا تَذْ * رَيْنَ إِلَّا الطُّونَ أَيْنَ مَكَانِي
 وَمِنْ مَخَالَفَتِهِ بِسَمْعِهِ وَطَرَفِهِ قَوْلُهُ :

تَسْمِي وَطَرَفِي حَلِيفَاهَا عَلَى جَسَدِي * فَكَيْفَ أَصْبُرُ عَنْ سَمْعِي وَعَنْ نَصْرِي
 لَوْ طَاوَعَانِي عَلَى إِلَّا أَكَلَمَهَا * إِذَا لَقِصْتُ مِنْ أَوْطَارِهَا وَطَرِي
 وَمِنْ إِمْرَانِهِ بَعَثَ الرِّسْلَ قَوْلُهُ :

فَبَعَثْتُ كَاتِمَةَ الْحَدِيدِ * بِ رَفِيقَةٍ بِحَوَائِيهَا
 وَحَشِيَّةَ إِنْسِيَّةَ * نَرَّاحَةً مِنْ بَابِهَا
 فَزَقَّتْ مَسْهَلَتِ الْمَعَا * رُصٌّ مِنْ سَبِيلِ تَقَائِيهَا
 وَمِنْ تَحْذِيرِهِ قَوْلُهُ :

لَقَدْ أُرْسَلْتُ حَارِيقِي * وَقُلْتُ لَهَا حُدِّي حَدْرَكَ
 وَقُولِي فِي مُلَاطَفَةٍ * لَرَيْبَ نَوَلِي عُمَرَكَ

(١) حصان - عجيبة . (٢) الحطل : العاسد المصطرب . (٣) اقنى حياك : الزميه .

(٤) نص المطي : استراح أقصى ما عدها من السير . (٥) الرير : العاقل .

إِنْ دَاوَيْتَ ذَا سَقَمٍ * فَأَحْرَى اللَّهُ مِنْ كَفَرِكَ
 مَهَزَّتْ رَأْسَهَا عَجْبًا * وَقَالَتْ مَنْ بَدَأَ أَمْرَكَ
 أَهَذَا يَخْرُكُ النَّسْوَ * نَ، قَدْ حَرَّيْتُ حَرَّكَ
 وَقُلْتُ إِذَا قَصَى وَطَرًا * وَأَذْرَكَ حَاحَةً هَجَرَكَ

ومن إعلانه الحب وإسراره قوله :

شَكَوْتُ إِلَيْهَا الْحَبَّ أُعْلِلُ بَعْضَهُ * وَأَخْفَيْتُ مِنْهُ فِي الْعَوَادِ عَلِيلًا
 وَمَا أَطْبَقَ فِيهِ وَأَطْهَرَ قَوْلُهُ :

حُكْمٌ يَا آلَ لَيْلَى قَاتِلِي . طَهَرَ الْحَبُّ بِجَسْمِي وَبَطْنُ
 لَيْسَ حَبٌّ هَوَى مَا أَحْبَبْتُكُمْ * عَيْرَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي أَوْ أُحَرِّقُ
 وَمَا أَلَحَّ فِيهِ وَأَسْفَ قَوْلُهُ :

لَيْبَ حَظِّي كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهَا الْقَلِيلُ الْمُهْتَا
 أَوْ حَدِيثٌ عَلَى خَلَاءٍ يُسَلَّى . مَا يُبَيِّضُ الْعَوَادُ مِنْهَا وَمَا
 كَبُرَتْ رَبِّ نِعْمَةً مَكَ يَوْمًا * أَنْ أَرَاهَا قَبْلَ الْمُنَابِ وَمَا
 وَمِنْ إِنْكَاحِهِ الْيَوْمَ قَوْلُهُ :

حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ طَلَامُهُ * وَطَرْتُ عَقْلَهُ كَاثِمٌ أَنْ يَغْفَلَ
 وَاسْتَنْجَحَ الْيَوْمُ الدِّينَ نَحَافَتُهُمْ * وَسَقَى الْكَرَى تَوَابَهُمْ فَاسْتَنْقَلَ^(١)
 نَحَرْتُ تَأَطَّرُ فِي الثِّيَابِ كَانَهَا * أَيْمٌ يَسِيْبُ عَلَى كَثِيبٍ أَهْيَلَا^(٢)
 وَمِنْ جَنِيهِ الْحَدِيثِ قَوْلُهُ :

وَجَوَارِ مُسَاعِمَاتٍ عَلَى اللَّهِ . وَ مُسِيرَاتٍ طَاطِي الْأَصْفَانِ
 صَيْدٍ لِلرَّجَالِ يَرْشُقْنَ بِالطَّرْ . فِي حِسَانِ كُحْدَلِ الْغَزْلَانِ^(٣)

(١) يقال : أظفله اليوم فهو مستقل صعبة المفعول . (٢) تأطرها أصله تأطرها فحدث إحدى تاءه ومعناه

نننى . والأيم : الأهى . ويسبى : يمشى . والكثيب الأهيل . الرمل المبال . (٣) الخذل : جمع

خادل وهو الطية تلحف عن صواحباتها أو أولادها .

قد دَعَايَ وقد دَعَاهُنَّ لِلَّهِ * وَتُجِبُونَ مُهِمَّةَ الْأَشْحَانِ
فَاجْتَنِبْنَا مِنَ الْحَدِيثِ ثِمَارًا * مَا جَنَى مِثْلَهَا لِعَمْرُكَ حَانِي
ومن صريره الحديث طهره لطمه قوله :

فِي حَلَاةٍ مِنَ الْأَيْدِيسِ وَأَمْرِ * قَبْتُنَا عَلِيلًا وَأَشْتَفَيْنَا
وَصَرَبْنَا الْحَدِيثَ طَهْرًا لِبَطْلِ * وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا أَشْتَهَيْنَا
فَكُنَّا بِذَاكَ عَشَرَ لَيَالٍ * فَمَصِيدَا دِيوَسَا وَأَقْتَصَيْنَا

ومن إذلاله صعب الحديث قوله :

هَلُمَّا أَقْصَا فِي الْهَوَى نَسْتَبِيهِ * وَعَادْ لَنَا صَعْبُ الْحَدِيثِ ذُلُولًا
شَكُوبُ إِلَيْهَا الْحُبُّ أَظْهَرُ مَعْصِهِ * وَأَخْفِيَتْ مِنْهُ فِي الْفَرَادِ غَلِيلًا
ومن قَنَاعِهِ بِالرَّحَاءِ مِنَ الْوَفَاءِ قَوْلُهُ :

فَعِدَى نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُبِيلِي * لِمَا يَفْعُ الْحُبُّ الرِّحَاءُ

قال الرير : هذا أحسن من قول كثير :

ولست براص من حليل سائل * قليل ولا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلِ

ومن إعلائه قاتله قوله .

فَبَعَثْتُ جَارِيِي وَقُلْتُ لَهَا أَدْهِي * فَأَشْكِي إِلَيْهَا مَا عَلِمْتَ وَسَلْمِي
قَوْلِي يَقُولُ تَحْرِيجِي فِي عَاشِقِي * كَلِيفَ بَكْمِ حَتَّى الْمَمَاتِ مُتِمِّ
وَيَقُولُ لِمَنْكَ قَدْ عَلِمْتَ بِأَنْكُمْ * أَصْبَحْتُمْ يَا بَشَرُ أَوْجَهَ ذِي دِمِ
فُكِّي رَهِيَّتَهُ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلِي * فَأَعْلِي عَلَى قَتْلِ أَبِي عَمَكَ وَأَسْلَمِي
فَنَضَّا حَكْتَ عَجَبًا وَقَالَتْ حَقُّهُ * أَلَا يَسْلَمُنَا بِمَا لَمْ تَعْلَمِ

(١) أى منيرة الأشحان . (٢) أى كفى من الحرج والالام .

(٣) أى أحق إسان أحد منه دعى .

علمي به والله يفرّ ذنبه * فيما بدا لي ذوهوى متقسم
طريف يازعه الى الأدنى الهوى * ويثّ خلة ذى الوصال الأقدم
ومن تفيصه اليوم قوله :

فلما فقدت الصوت منهم وأطعنت * مصايح شبت بالعشاء وأنور
وعاب فميركست أرجوعيوه * وروح رعبات ويوم سمر
وهضت عنى اليوم أقلت مشية الـ * حجاب ورثني حشية القوم أزور
ومن إعلقه رهى مئى وإهداره قتلاه قوله :

هكم من قتييل ما يئاء به دم * ومن علي رهّا إذا لقه مئى
ومن مالى عيده من شئ عيره * ادا راح نحو الجمره البيص كالدمى
وكان بعد هذا كله فصيحاً شاعراً مقولاً :

ومن شعره المشهور قوله :

أمن آل نعيم أنت عاد فبكر * عداة عيد أم رائح فهجر
لحاجة نفيس لم تقفل فى جواها * فتبلغ عُدراً والمقالة تُعذر
أشارت بمذراها وقالت لأحتيا * أهدا المعيرى الذى كان يدكر
وقالت نعم لا شك غير لوه * سرى الليل يطوى نصه والتهجر
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت * فيضحي وأما بالعشي فيخصر

(١) الطرف من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) رَوْح من الرواح وهو وقت العشي . والرعياى :

جمع راع كالرعاة والرعاة والزعماء . وقوم الرجل توبعا . مالة فى نام . (٣) الحباب : الحية . وأرور
كأحس . مائل من رور يرور إذا مال . (٤) يقال : أناه القاتل بالقتيل : قتله به ، والمرادها : حكم
من قتل يطل دمه ولا يؤخذ له ثأر . (٥) يقال : علق الرهن فى يد المرتهن يعلق علقا . لم يقدر
الراهن على أحتكاكه فى الوقت المشروط . يريد : ولم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على أحتكاكها .

(٦) الدمى : جمع دبة وهى الصورة المقتشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المصح المين .

(٨) ص السرى : إسراره ، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أحـا سـفـر جـواب أـرض تـقـاذفـت . به فـلـوات فـهـو أشـمـت أظـهـر
قـلـيـلاً عـلى ظـهـر المـطـيـة ظـلـه . سـوى ما تـقى عـه الرـداء المـخـبـر^(١)
وأنـعـبـها مـن عـيـشـها طـل عـرـفـة * وريـان مـلـتـف الحـدائـق أـخـصـر
وواي كـفـأها كـل شـيء يـهـمـها * فـلـيـسـت لـشـيء آخـر الـبـيـل نـسـهـر
ولـيـلة دى دـوران جـشـمـنـي السـرى^(٢) * وقـد يـخـشـم الهـول المـحـب المـعـرـر^(٣)

ومن شعره قوله في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندي :

تـشـطُّ غـداً دار حـيـرانـنا^(٤) * ولـلـدأـر بـعد عـد أـعـد
إـذا سـلـكـت عـمر ذى كـنـدة^(٥) * مـع الرـكـب قـصـد لها الفـرـقـد^(٦)
وحتـ الحـدأة بها عـيـرها * سـرأعاً إـذا ما وـنت تـطـرد^(٧)
هـالـك إـما تـعـزى العـواد * وإـما عـلى إـثـرـها تـعـمـد
ولـيـسـت بـسـدج إـدا دارها * نـات والعـزاء إـدا أجـلد
صـرمت وواصـلت حـتى عـلم * تـأبـن المـصـادـر والمـورـد
وجـرئت مـن ذاك حـتى عـرف * تـأبـن ما أتـوقى وما أـحـد
فلـما دـنـونا لـجـرس البـا^(٨) * جـ والضـوء والـحـى لم يـرـقـدوا
نأبـنا عـن الحـى حـتى إـذا * تـودـع مـن نارها المـوقـد^(٩)
وباموا مـعـتنا لها مـاشـداً * وى الحـى يـعـية مـن يـشـد

(١) المخبر : المرسى المحسى . (٢) دو دوران — هتج أوله وسعد الواو راء مهملة وآخره

دون — : موضع بين قديد والحمعة (ياقوت) . (٣) أى كلمتى السريلا .

(٤) تشط تعد . (٥) عمردى كدة . موضع وراء ورة يسه وبين مكة مسيرة يومين .

(٦) كذا في ديوانه ، وفي الأغانى « الصبح » . (٧) الفرقد : بحار في السماء من بحوم الدب الأصغر

وعى في الشمال ، ويقال لها : الفرقد بالإفراد ، والفرقدان بالثنية . ولعله يريد أنها تسيح جهته ، لأن العراق التي

تقصده في الشمال الشرقي من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المعنى للابل لتشط في السير ، وقد يراد به

الزاحر والسائق . والعير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . ووت : صمعت وتطاعت . وتطرد . تساق .

(٩) الجرس : الصوت . (١٠) تودع . سكنت بابه وأطلعت .

أَتَنَّا تَهَادَى عَلَى رِقْبَةٍ ^(٢) * من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ
تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَحْدَا سَا ^(٣) * وَوَحْدَى وَإِنْ أَطْهَرْتُ أَوْحَدُ
لَمَّا شَقَائِي تَلَقُّكُمْ ^(٤) * وَقَدْ كَانَ لِي عَمَّ مَقْعَدُ
وَكَفْتُ سَوَاقٍ مِنْ عَرِي ^(٥) * عَلَى الْحَدِّ حَالُهَا الْإِمْدُ
فَإِنَّ الَّتِي تَبِعَتْنَا الْغَدَاةَ ^(٦) * مَعَ الْفَجْرِ قُلِي هَا مُقْصَدُ

وَشَبَّ عُمُرِي أَبِي رُبَيْعَةَ بَزِيْبَ بَيْتِ مُوسَى الْجَحِيَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يَا حَلِيلِي مِنْ مَلَامٍ دَعَايَ * وَأَلَا الْعَدَاةَ بِالْأَطْعَابِ
لَا تَلُومَا فِي آلِ زَيْنَبَ إِنَّ أَلَا * قَلْبَ رَهْرٍ بَالِ زَيْتٍ عَابِي
مَا أَرَى مَا نَقِيْتُ أَنْ أَذْكَرَ الْمَوَ * قَفَ مِنْهَا مَا خَيْفَ إِلَّا شَحَابِي ^(٧)
لَمْ تَدْعَ لِلنِّسَاءِ عَمْدِي حَظًّا * عَبْرَ مَا قُلْتُ مَا زِيحًا لِسَانِي
هِيَ أَهْلُ الصَّفَاءِ وَالْوُدِّ مَنَى * وَإِلَيْهَا الْمَوَى فَلَا تُعْذِلَانِي
حِينَ قَالَتْ لِأَخْتِهَا وَلَا أُخْرَى * مِنْ قَطِينٍ مُؤَلِّدٍ : حَدَّثَانِي ^(٨)
كَيْفَ لِي الْيَوْمَ أَدَّ أَرَى عُمَرَ الْمُرَّ * سِلَّ سِرًّا فِي الْقَوْلِ أَنْ يَلْقَانِي
قَالَتَا : بَتَّيْ رَسُولًا إِلَيْهِ * وَبِمِثِّ الْحَدِيثِ بِالِكْتَامِ
إِنَّ قَلْبِي بَعْدَ الَّذِي بَلَّتْ مِنْهَا * كَالْمَعْمَى عَنْ سَائِرِ النَّسَوَابِ ^(٩)

- (١) تهادى : تمشى في تمايل وسكون . (٢) الرقة : الجمط والفرق . (٣) الوجد : الشغف والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لي عى عن حكم (٥) الإيتمد : حمر للكحل وأحوده بأصهار . (٦) أقصده : رماه سهم فقتله . (٧) الخيف : ما أرتفع عن محرى السيل وأخمدد عن غلط الجبل . قال أس سيدة : وحيف مكة موضع فيها عد منى ، سمى بذلك لأعذاره عن العلط وأرتفاعه عن السبل . (٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء : من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم . (٩) كذا في الأغاني . وفي ديوانه " كالعمى " أى المأسور المحبوس عن غيرها .

وكان سبب ذكره لما أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبب بها ، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق ، فلامه فيه وقال له : أتطيق الشعر في أبة عمي ؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي * إن بي يا عتيق ما قد كفاني
لا تلمني وأنت زيتها لي . أنت مثل الشيطان للإنسان
إن بي داخلا من الحت قد أد * لي عظامي مكوته وبرأي
لو بعيدك يا عتيق نظرنا * ليلة السفع قوت العباب
إدبدا الكشح والوشاح من الد * وقصّل فيه من المرجان^(١)
وقل قاي النساء سواها * بعد ما كان مغرمًا بالنواني
لم تدع للنساء عدى نصيباً * غير ما قلت مازحاً للساني

وأنشد ابن أبي عتيق قول عمر :

من لسقيم يكتم الساس ما به * لزينب تجوى صدره والوساوس^(٢)
أقول لمن يبغي السماء متى تجي * بزينب تذكرك بعض ما أنت لائس
فإك إن لم تشف من سقي بها * فإني من طب الأطباء آيس^(٣)
ولست بناس ليلة الدار مجلسا * لريد حتى يعلو الرأس رامس^(٤)
حلّاء بدت قراؤه وتكشفت * دحّته وعب من هو حارس
وما نلت منها محرماً غير أسا * كلا ما من الثوب المورد لايس^(٥)
يحيين قضي الهوى غير مأثم * وإن رعمت الكاشحين المعاطس

(١) الكشح . ما بين الحبة — وهي رأس الورك الذي يشرف على الحاصرة — إلى الإبط . والوشاح :

شبه قلادة يسبح من أديم عريص يرمع بالخواه . تشده المرأة بين عاتقها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الحرم وهو حذف الغاء من مولى . (٣) الرامس : الدامن في الرمس وهو القبر .

(٤) المورد . الذي صنع على ود الورد .

قال : فقال أربنُ أبي عتيق : أينما يسحرُ ابنُ أبي ربيعة ؟ فأى محرمٍ بئى ! ثم أتى عمرَ فقال له : يا عمرُ ، ألم تُخبرنى أنك ما أتيتَ حراماً قط ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرنى عن قولك :

كَلَانَا مِنَ الثَّوْبِ الْمُرْدِ لَا بُسْ *

ما معناه : قال : والله لأخبرك : خرجتُ أريد المسجدة وخرجتُ زينبُ تريده ، فالتقينا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشعب أخذتنا السماء ، فكريهتُ أن يرى بثيابها بكل المطر ، فيقال لها : ألا استترتِ بسقائف المسجد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غلمانى فسترونا بكساء نرَّ كان على ، فذلك حين أقول :

كَلَا مَا مِنْ آثَوَابِ الْمَطَارِيفِ لَا بُسْ *

فقال له : أسُ أبو عتيق : يا عاهرُ ! هذا البيت يحتاج الى حاصة ! .

ومن جيد شعره قوله فى زينب بنت موسى :

يَا مَنْ لَقِيتُ مُتَمِّمَ كَلِيفٍ * يَهْدِي بِحُودِ مَرِيضَةِ النَّظَرِ^(١)
تَمْشِي الْهُوْبَا إِذَا مَشَتْ فُضْلًا * وَهِيَ كَيْثِلُ الْعُسْلُوجِ^(٢) فِي الشَّجَرِ
مَا زَالَ طَرْفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزَتْ * حَتَّى رَأَيْتُ النِّقْصَانَ فِي بَصِيرِي
أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنَسَوْتُهَا * يَمِشُّ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْمَجَرِ
مَا إِنْ طَمِعْنَا بِهَا وَلَا طَمِعَتْ * حَتَّى آتَقَيْنَا لَيْلًا عَلَى قَدَرِ^(٣)
يَضُّ حِسَانًا نَحْرًا إِذَا قُطِفَ^(٤) * يَمِشُّ هَوْنًا كَمِشْيَةِ الْبَقْرِ
قَدْ فُزْنَ بِالْحُسْنِ وَالْجَمَالِ مَعًا * وَفُزْنَ^(٥) بِرِسَالِ الدَّلِّ وَالْخَفْرِ

(١) الخود . العانة الحسة الخلق الشاة مالم تصرصعا ، والصف : المرأة بين الحدة والمسة .

(٢) الفصل بصمتين . الختالة التى تفصل من ديلها . ويروى : «قطعا» والمراد به تقارب الخطو .

(٣) العسلوج : المص الى الأحصر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه

مقدرى الأول لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

حاه الخلالة أوكات له فدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

(٥) جمع قفوف وهى الطيعة فى السير . (٦) الرسل بالكسر : الرق والتؤدة . والحمر : شدة الاستحياء .

يُنِصْنَن يَوْمًا لَهَا إِذَا نَطَقَتْ * كَيْمَا يُشَرِّفَهَا عَلَى الْبَشَرِ
 قَالَتْ لَشَرِّبَ لَهَا تُحَدِّثَهَا * لَتُفْسِدَنَّ الطَّوَافَ فِي عُمْرِ
 قُوَيْي تَصَدَّى لَهُ لِيَعْرِفَا * ثُمَّ أَعْمَزِيهِ يَا أُخْتِ فِي خَفَرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ عَمَزْتُهُ فَأَبَى * ثُمَّ أَسْبَطْتُ^(١) تَسْعَى عَلَى أَثَرِ
 مِنْ يُسْقَ بَعْدَ الْمَامِ رِيْقَهَا * يُسْقَ بِمِسْكٍ وَارِدٍ خَصِرِ^(٢)

وقوله فيها أيضا :

أَلَيْمَ بَزِيبَ إِنْ الْبَيْتَ قَدْ أَفْدَا^(٣) * قَلَّ التَّوَاءُ لَيْنَ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا
 قَدْ حَلَفْتُ لَيْلَةَ الصُّورَيْنِ جَاهِدَةً^(٤) * وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحِلْفُ مَحْتَبِدَا
 لِأَخْتِهَا وَلَا أُخْرَى مِنْ مَنَاصِيهَا^(٥) * لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَحَدَا
 لَوْ جَمَعَ السَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوُهُمْ * شَخْصًا مِنَ الْبَاسِ لَمْ أُعْدِلْ بِهِ أَحَدَا

ومن شعر عمر في تشوقه الى مكة بعد أن حرج منها الى اليمن قوله :

هِيَمَاتٌ مِنْ أَمَةِ الْوَهَابِ مَنَزْلًا * إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ عَدَنِ^(٦)
 وَأَحْتَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَادًا^(٧) وَلَيْسَ لَنَا * إِلَّا التَّدَكُّرُ أَوْ حَظٌّ مِنَ الْحَزَنِ
 لَوْ أَنَّهُ أَنْصَرْتُ بِالْحَرْعِ عَبْرَتَهُ * مِنْ أَنْ يُفَرِّدَ قُرَيْرِي عَلَى فَنَنِ
 إِذَا رَأَتْ غَيْرَ مَا ظَلَّتْ بِصَاحِبِهَا * وَأَيَقُنْتُ أَنْ تَحْتَأَ لَيْسَ مِنْ وَطَنِ
 مَا أَتَسَّ لَا أَتَسَّ يَوْمَ الْخَلِيفِ مَوْقِفَهَا^(٨) * وَمَوْقِفِي وَكَلَانَا ثُمَّ دَوْشَجْنِ
 وَقَوْلَهَا لِلثُّرَيَّا وَهِيَ بَاكِئَةٌ * وَالِدَمْعُ مِنْهَا عَلَى الْخَلْدَيْنِ ذَوْسُنَنِ^(٩)

(١) اسطرت : أسرع . (٢) الحصر : البارد . (٣) أهد كحرج : عمل وأسرع .

(٤) الصوراب : موضع بالمدينة بالقيع ، وقد ذكره ياقوت وأسنشد البليت . (٥) المصعب كبر

ومعقد : الحادام ، والأبى الهاشم ، جمعه ماصف .

(٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أحياد : موضع بمكة ، سمي بذلك لأن تما لما قدم مكة ربط

حبله فيه فسمى بذلك ، وهما موضعان : أحياد الكبير وأحياد الصغير . (٨) الحيف : موضع بمى وبه

سمى مسجد الخليف . (٩) دوسس : دو طرائق .

ناله قول له في غير معتبة * ماذا أردت بطول المكث في اليم
إن كنت حاولت دنيا أو طهرت بها * فما أخذت ترك الح من ثمن
وقال أيضا :

حلي ما بال المطايا كأنما * نراها على الأدبار بالقوم تكص^(١)
وقد قطعت أعافهن صباة * فأنسا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادي سراهن وأتقى * هن ما يالو عول مقلص^(٢)
يزدن با قراما فيزداد شوقنا * إذا زاد طول العهد والبعد يقص
ومن شعره قوله :

جرى صاح بالود بيني وبينها * فقرني يوم الحصاب إلى قتي^(٣)
وطارت بمذ من فؤادي وقارنت * قريبتها جبل الصفاء إلى جبل
فلما توافقنا عرفت الدي بها * كمثل الذي بي حدوك العل بالنعل
فقلن لها هذا عشاء وأهلبا * قريب الما تسمى مركب البغل
وقالت ما شئت قل لها أنزلي * فلا أرض خير من وقوف على رخل
حوم^(٤) دراري تكف صورة * من الدر وامت غيروج ولا غل^(٥)
فسلمت وأسألت حيفة أن يرى * عدو مقامي أو يرى كاشع فعلي
فقلت وأزحت جانب السرايما * معي فتكلم غير ذي رقية أهلي
فقلت لها ما بي لم من ترقب * ولكن سرى ليس يحمله مثلي
فلما أقصرنا دونن حديثنا * وهن طيبات بحاجة ذي الشكلي
عرفن الدي تهوى قلن أنذني لما * تطف ساعة في برد ليل وفي سهل

(١) تكص . ترجع وتول وتحجم . (٢) مقلص : مشرحاذا في السير . (٣) الحصاب
كالخصب . موضع رى الحمار . (٤) دراري جموعة من الصرف وثقت لضرورة الشعر . (٥) هوج :
جمع هوجاء وهي المتصلة في السير كأنها هوجاء وحفا .

فَقَالَتْ فَلَا تَلْبِثَنَّ قُلْنَ تَحَدَّثِي * أَتَيْنَاكِ، وَأَنْسَيْنَ آسِيَابَ مَهَا الرِّمْلِ
فَقَصَّ وَقَدْ أَهْمَمَنَ ذَا اللَّبِّ أَمَّا * أَتَيْنَ الَّذِي يَأْتِينَ مِنْ ذَاكَ مِنْ أَهْلِ

وقد كان عمر حين أسَّ حلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقعة، فانصرف عمر
إلى منزله يحدث نهمه، فجعلت حارية له تكلمه فلا يرد عليها جوابا، فقالت له : إن لك
لأمرأ، وأراك تريد أن تقول شعرا، فقال :

تَقُولُ وَلِيَدِي لِمَا رَأَيْتِي * طَرِئْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حَيَا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا * وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءَ دَفِيَا
وَكُنْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ ذُو عَزَاء * إِذَا مَا شِئْتَ فَارْقَتِ الْقَرِيَا
بَرِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ * مَشَاكَ أَمْ لَقِيتَ لَهَا حَدِيَا^(١)
فَقُلْتُ شَكَا لِي أَحْ مُحِبٌّ * كَبِصَ زَمَانِي إِذْ تَعَالِيَا
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بَهْنَد * مَدَّكَرَ مَعْ مَا دَنَا نَسِيَا
وَدَوَ الشُّوقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى * مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِيَا
وَكَمْ مِنْ خُلَّةٍ أَعْرَضَتْ عَنْهَا * لَغِيرِ قَلِيٍّ وَكُنْتُ مَهَا ضَبِيَا
أَرَدْتُ بِمَادَهَا فَصَدَدْتُ عَنْهَا * وَلَوْ جُنَّ الْمَوَادُّ بِهَا جَمُونَا
ثُمَّ دَعَا تِسْعَةً مِنْ رَقِيقِهِ فَأَعْتَقَهُمْ بِكُلِّ بَيْتٍ وَاحِدًا .

وله :

يَقُولُونَ : إِنِّي لَسْتُ أَصْدُقُكَ الْهَوَى * وَإِنِّي لَا أَرَاكَ حِينَ أَعْيُ
وَمَا بَالُ طَرْفِي عَفَّ عَمَّا تَسَاقَطْتُ * لَهُ أَعْيُنٌ مِنْ مَعْشَرٍ وَقُلُوبُ
عَشِيَّةٍ لَا يَسْتَكْبِكُفُ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا * سَفَاهَ أَمْرِيٍّ مِمَّنْ يُقَالُ لَبِيبُ

(١) الحدين : الصديق الذي يحاذيك فيكون ملك في كل أمر طاهر وناظر، ومنه حدن الحارية محدثها،
وكان العرب في الحاضرة لا يمتنعون من حدن يحدث الحارية لها. الاسلام مهدهم . وفي الأرييل العرير : (اليوم أحل
لكم الطيبات) الى قوله . (والخصومات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتهم أحورهم محصبين غير مسلمين
ولا متحدين أحدان) الآية . (٢) الحلة : الحليلة .

ولا فتنَةً من ناسِكَ أَوْ مَصَّتْ لَهُ ^(١) * عَيْنَ الصَّامَا كُنَلَى الْقِيَامِ لَمُوبُ
تَرَوَّحَ يَرْجُو أَنْ تُحَطَّ ذُنُوبُهُ * فَابَ وَقَدْ زِيدَتْ عَلَيْهِ ذُنُوبُ
وَمَا النَّسْكَ أَسْلَافِي وَلَكِنِّ لِلْهَوَى * عَلَى الْعَيْنِ مَيِّ وَالْمَوَادِرِ رَقِيبُ
وله :

أَلَمْ تَسَالِ الْمَتْلَ الْمُقْفِرَا - بَيَانًا فِيكُمْ أَوْ يُخْبِرَا
ذَكَرْتُ بِهِ مَعْصَ مَا قَدْ شَجَاكَ * وَحَقَّ لَذَى الشَّجْوِ أَنْ يَذْكَرَا
مَيِّتَ الْحَبِيبِينَ قَدْ ظَاهَرَا ^(٢) * كِسَاءَ وَرَدْبِنَ أَنْ يُمَطَّرَا
وَتَمَتَّى الثَّلَاثِ بِهِ مَوْهَبَا * نَرْجِنَ إِلَى زَائِرِ زُورَا
إِلَى مَحَلْسٍ مِنْ وَرَاءِ الْقَبَا * بِ سَهْلِ الرُّثَى طَيْبَ أَغْفَرَا ^(٣)
عَقَلَنْ عَنِ اللَّيْلِ حَتَّى بَدَتْ * تَبَاشِيرُ مِنْ وَاصِحِ أَسْفَرَا
فَقَمَسَ يُعَقِّبِينَ آثَارَا * مَأكْسِيَةِ الْخَزَّانِ تُقَفَّرَا ^(٤)
مَهَانَاتٍ شَيْعَتَا جُودَرَا ^(٥) * أَسِيلًا مَقْلَدَهُ أَخَوَرَا
وَقُنَّ وَقُنَّ لَوَافَتْ النِّهَا * رَمَدٌ لَهُ اللَّيْلُ فَاسْتَأْخَرَا
قَضَّيْنَا بِهِ بَعْضَ أَشْجَانِيَا * وَكَانَ الْحَدِيثُ بِهِ أَحَدَرَا

وله :

أَيَّ رَسْمٍ دَارَ دِمْعُكَ الْمَرْتَفِقُ ^(٦) * سَفَاهَا ! وَمَا أَسْتَنْطَاقُ مَا لَيْسَ يَنْطِقُ !
بَحِثُ أَتَقَى "جَمْعٌ" وَأَقْصَى "مُخَسِّرٌ" ^(٧) * مَعَالِيهِ كَادَتْ عَلَى الْعَهْدِ تُخْلِقُ
ذَكَرْتُ بِهِ مَا قَدِمَ مَعَى مِنْ زَمَانَتَا * وَذَكَرْتُكَ رَسْمَ الدَّارِ مِمَّا يُسَوِّقُ

(١) أومصت له : سارقه الطر .

(٢) يقال : طاهر بين الثوبين إذا لمس أحدهما على الآخر . (٣) أعمر : دى رمل أحمر .

(٤) يقال : قمر الأثر قمرًا : اضماء وتبته . (٥) الخوذ (نصم أوله وصم الدال وفتحها) : ولد البقرة .

والررب : القطيع من قمر الوحش وقيل من الطاء ، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة

ويراد به الحيد . (٧) ترقق الدمع : سال . (٨) جمع ، هي المزدلفة . (٩) محسر : موضع

بين مي والمزدلفة .

لِيَالِي مَنْ دَمِيرُ إِذْ الْحَيُّ جَبْرَةٌ * وَإِذْ هُوَ مَا هَوْلُ الْخَبِيلَةِ مُؤَنَّقُ
مَقَامًا لَأَسَدِ الْعِشَاءِ وَمَجْلَسًا * بِهِ لَمْ يُكَدِّرْهُ عَلِيًّا مَعْوَقُ^(١)
وَمُتَمَتِّي قَنَاقَةَ بِالْكَسَاءِ تُكْنُّهَا * بِهِ تَحْتَ عَيْنِ^(٢) بَرْقُهَا يَتَأَلَّقُ
يُئِلُّ أَعَالَى الثَّوْبِ قَطَرٌ وَتَحْتَهُ * شُعَاعٌ بَدَأَ يُعْشِي الْعَيُونَ وَيُشْرِقُ
فَأَحْسَنُ شَيْءٍ بَدَأَ أَوَّلَ لَيْلِنَا * وَأَخْرَهُ حُرْنٌ إِذَا تَفَرَّقُ

وروى أن ليلي كانت جالسةً في المسجد الحرام، فرأت عمرَ س أبي ربيعة فوجهت
إليه مَوَلَّى لها بجاءها به، فقالت له : يَا بَنَ أَبِي ربيعة، حَتَّى مَتَى لَا تَزَالُ سَادِرًا فِي حَرَمِ اللَّهِ^(٣)
تُسَبِّبُ بالنساء وتُشِيدُ بذكرهن ! أما تخاف الله ! قال : دعيني من ذلك وآسئني ما قلتُ ،
قالت : وما قلتُ ؟ فأنشدها الأبياتَ المذكورة، فقالت له القول الذي تقدم أنها أحاطته به .
قال : وقال لها : آسئني أيضا ما قلتُ فيك ، ثم أنشدها قوله :

أَمِنْ الرِّسْمِ وَأَطْلَالِ الدَّمْرِ * عَادِلِي وَجَدِي وَعَاوَدْتُ الْحَزْنَ
إِنْ حَيَّيْ آلَ لَيْلَى قَاتِلِي * ظَهَرَ الْحُتُّ بِمِجْمَى وَبَطْنِ
يَا أَمَا الْحَارِثُ قَلْبِي طَائِرٌ * فَأَتَمِّرُ أَمْرَ رَشِيدٍ مُؤْتَمِنِ
الْتِمِسْ لِلْقَلْبِ وَصَلًّا عَمْدَهَا * إِنْ خَيْرَ الْوَصْلِ مَا لَيْسَ يَمِينِ^(٤)
عَلَقَ الْقَلْبُ، وَقَدْ كَانَ صَحَا، * مِنْ بَنِي بَكْرِ غَزَا قَدْ شَدِنِ^(٥)
أَحْوَرَ الْمُقْلَةِ كَالْبَدْرِ، إِذَا * قُلْدُ الدَّرِّ قَلْبِي مُمْتَحِنِ^(٦)
لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُمْ * غَيْرَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي أَوْ أُجَنِّ
حُلِقْتُ لِلْقَلْبِ مَتَى فِتْنَةً * هَكَذَا يُخَلِّقُ مَعْرُوضُ الْفِتَنِ

(١) معوق : غائق ومانع . (٢) العين : السحاب .

(٣) السادر : الذي لا يهتم ولا يبالى ما صنع .

(٤) كذا في الديوان ، ومساء ما ليس يقطع ، ومنه قوله تعالى : (وَإِنْ لَكَ لَأَخْرَأُ عِرْمُونَ) .

(٥) شدين : شب وترعرع . (٦) منحن : واقع في حمة .

وفيه يقول :

إِنَّ لَيْلِي وَقَدْ بَلَغْتُ الْمَشْيَا * لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عَمْدِي بَصِيْبَا
هَارِجٌ يَبْتَهِا لِأُنْفِي عَنْهَا * قَوْلُ ذِي الْعَيْبِ إِنْ أَرَادَ عِيَوَا

وله في الوَارِ وقد شغلت قلبه :

عَلَيْكَ الْوَارَ فَوَّادُهُ جَهْلَا * وَصَبَا فَلَمْ تَتْرَكْ لَهُ عَقْلَا
وَتَعَرَّضْتَ لِي فِي الْمَسِيرِ مَا * أَمْسَى الْفَوَادُ يَرَى لَهَا مِثْلَا
مَا نَحْنُ مِنْ وَحْشٍ دِي تَقِيرِ^(١) * تَعْدُو لَسَقَطِ صَرِيْمَةٍ طِفْلَا^(٢)
بَالِدٌ مِنْهَا إِذَا تَقُولُ لَهَا : وَأَرَدْتُ كَشَفَ قِبَاعِهَا مَهْلَا
دَعْنَا فَإِنَّكَ لَا مُكَارِمَةَ * تَحْزِي وَلَسْتَ وَاصِلِ حَبْلَا
وَعَلَيْكَ مَنْ تَبَلَ الْفَوَادَ وَإِنْ * أَمْسَى لِقَلْبِكَ ذِكْرُهُ شُغْلَا
فَاجِبُهَا إِنْ الْمَحَبَّ مَكْلَفٌ^(٣) * فَدَعِيَ الْعَتَابَ وَأَحْدِثِي بَدَلَا

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتداكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وطرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سَكْبَةُ بنت الحُسَيْنِ عليهما السلام : أنا لكنن به ، فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصَّوْرَيْنِ ، وسمت له الليلة والوقت وواعدت صواحباتها ، فوافاهنَّ عمرُ على راحلته ، فحدثهنَّ حتى أصاء الفجر وحنَّ أنصرافهنَّ ، فقال لهنَّ : والله إنني لمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ولكن لا أحيط بزيارتكن شيئا ، ثم أنصرف إلى مكة وقال :

(١) دوقة . موضع . (٢) مقط الصريمة . متها . والصريمة . الرملة المنصرفة من الزمان دات الشجر . (٣) مكاف : لمع الحب ، يقال : كاف بالشيء كلها ، أي لمع به فهو كاف ومكاف ، والأبيات من الكامل الأحد ، وهو ما حذف من عروضه وصره الوند المبحوح «عل» من «متاعل» . وقد جاء عروض هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وطاهر أن حذف الوند في اصطلاح علماء العروض علة ، والعلّة إذا لحقت بعروض أو صرف لم استعمالها في سائر الأبيات ولو قال : * فأحتبا إلى نكم كاف * خلت القصيدة من هذا العيب .

قالت سَكِينَةُ والدموعُ ذَوَارِفُ * منها على الخدين والجلاب
 ليت المُنْفِرِيُّ الذي لم أجْره * فيما أطال تصبُّدى وِطْلَابِي
 كانت تردُّ لنا المُنَى أياما * إذ لا نُلَامُ على هوى وَتَصَابِي
 حُبْرْتُ ما قالت فَبْتُ كَأَنَّمَا * رُبِّي الحشَا بوافد النُّشَابِ^(٢)
 أَسْكِنَ ما ماءُ العرايِ وطِيبُهُ * مِنِّي على ظمإٍ وفقد شَرَابِ
 نالِدُك منك وإن مَيتَ وقَلْبَا * ترعى السَّاءَ أمانةَ العِيَابِ

وقال فيها :

أَحْبُ لحسك من لم يكن * صَفِيًّا لنفسي ولا صاحِبَا
 وأبْدُلُ نفسي لمرصاتكم * وأُعْتَبُ^(٣) من حاءكم عَاتِيَا
 وأرَعُ في وُدِّ من لم أكن * الى وُدِّه قِبالكم راغِيَا
 ولو سَلَكَ النَّاسُ في حانِبِ * من الأرض وأعترلت جانبَا
 لَيَمَمْتُ طِيبَهَا ، إسنَى * أرى قمرها العَجَبَ العاجِبَا
 ها ظليَّةٌ من طباء الأَرَا * لك تَقَرُّو دَمِيثَ الرُّبِّي عَاشِبَا^(٤)
 أحسَّسَ منها عِدَاةَ الغَمِيمِ * وقد أبدت الخَلَدَ والخاصَا^(٥)
 عِدَاةٌ تقولُ على رِقَّة * لخادِمْهَا : يا أَحْبِسِي الرَّاكِبَا^(٦)
 فقالت لها : فيمَ هذا الكلامُ * وأبدت لها عَابِسًا قَاطِبَا^(٧)
 فقالت كَرِيمٌ أتَى رَاثِرًا * يُرُّ بِكُمْ هَكَذَا جانِبَا^(٨)
 شَرِيفٌ أتَى رَعَا رَاثِرَا * فَأَكْرَهُ رَجَعَتَهُ حَاشَا

- (١) الجلاب - القميص أو هو الحمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها . (٢) الشاب . الل .
 (٣) أعتب : أزال سب العتب ، فالهجرة للبلد . والمعى أعد . (٤) قراء بقروه : تنعم .
 (٥) دميث الربى : سهلها وليها . (٦) الغميم كأمير . موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم :
 واحد الخدم علاما كان أو حارية . (٨) قاطبا من القلوب . وهو تروى ما بين العينين من العوس .

وقال في حارثته بنوم :

صَرَمْتُ حَبْلَكَ الْغُومُ وَصَدَّتْ * عَكَ فِي عَيْرِ رِيَّةِ أَسْمَاءُ
وَالْقَوَانِي إِذَا رَأَيْكَ كَهَلًا * كَانَ فِيهِنَّ عَنْ هَوَاكَ أَتَوَاءُ
حَدًّا أَيْتِ يَا عُومُ وَأَسْمَا * وَعَيْصُ يَكْنُا وَخَلَاءُ
وَلَقَدْ قَاتُ لَيْلَةَ الْجَزَلِ لَمَّا * أَخْضَلْتُ رِيْطِي عَلَى السَّمَاءِ^(١)
لَيْتَ شَعْرِي سَوْهَلِ يَرُدُّنَّ لَيْتَ * هَلْ لَهَا عَدَّ الرَّبَابُ جَرَاءُ
كُلُّ وَضَلٍ أَمْسَى لَدَى لَأْنِي * عَيْرَهَا وَضَلُّهَا إِلَيْهَا أَدَاءُ
كُلَّ خَلْقٍ وَإِنْ دَمَا لَوْصَال * أَوْ هَايَ فَهِيَ لِلرَّبَابِ الْفَدَاءُ
فِيمَدِي نَائِلًا وَإِذَا لَمْ تُنَلِّ * إِنَّمَا يَتَقَعُ الْحَبُّ الرِّجَاءُ

وكان يهوى حميدة حارثية أبن ثَفَّاحَةَ، وفيها يقول :

حُمِّلَ الْقَلْبُ مِنْ حَمِيدَةٍ ثَقْلًا * إِنْ فِي ذَاكَ لِلْفُرَادِ لَشُقْلًا
إِنْ فَعَلْتُ الَّذِي سَأَلْتَ فَقُولِي * حَمْدُ حَيْرٍ وَأَتَّبِعِي الْقَوْلَ فَعْلًا
وَصِلِّيْنِي وَأَشْهَدُ اللَّهَ أَنَّي * لَسْتُ أَصْنِي سِوَاكَ مَا عَشْتُ وَضَلًا

وفيها يقول :

يَا قَلْبُ هَلْ لَكَ عِ حَمِيدَةَ زَاخِرُ * أَمْ أَتِ مُدَّكِرُ الْحَيَاءِ فَصَابِرُ
فَالْقَلْبُ مِنْ دَكْرِي حَمِيدَةُ مُوَحَّعُ * وَالِدَمْعُ مِنْ حَدْرٍ وَعَظْمِي فَاتُرُ
فَدَكْتُ أَحْسَبُ أَنَّي قَلْبُ الَّذِي * فَعَلْتُ عَلَى مَا عَدَّ حَمْدَةَ قَادِرُ
حَتَّى بَدَأَ لِي مِنْ حَمِيدَةَ خُلِّي * بَيْنَ وَكُنْتُ مِنَ الْفِرَاقِ أَحَازِرُ

(١) الجزل . موضع قرب مكة . وأحصل . مل . والريطة : ملاءة كلها مسح واحد وقطعة

وله في همد :

أَرَبْتُ إِلَى هَمْدٍ وَتَرَيْنِ مَرَّةً * لَهَا إِذَا تَوَاقَفَا بَرَعَ الْمُقْطَعُ
 لَتَعْرِيجَ يَوْمٍ أَوْ لَتَعْرِيسَ لَيْلَةٍ * عَلَيَا يَجْمَعُ الشَّمْلُ قَبْلَ التَّصَدُّعِ
 فَقُلْنَ لَهَا لَوْلَا أَرْتَقَابُ صَحَابَةٍ * لَأَحْلَفْنَا نَحْنَا وَلَمْ نَتَوَرَّعِ
 فَقَالَتْ فَتَاهُ كَسْتُ أَحْسَبُ أَنَّهَا * مُقَقَّلَةٌ فِي مَثَرٍ لَمْ تُدْرِعِ
 لَهَنَ - وَمَا شَاوَرْنَاهَا - لَيْسَ مَا أَرَى * بِجُسْنٍ جَرَاءٍ لِلْجَبِيبِ الْمَوْدِعِ
 فَقُلْنَ لَهَا لَا شَيْءَ قَرْنُكَ فَافْتَحِي * لَنَا بَابَ مَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ تَسْمَعِ

- (١) يقال : أرب تكدا : كلف به ، وأرب الى كذا : احتاح اليه . ولعل المراد : دعاني الشوق اليه .
 (٢) التعريس : قيل هو ردول القوم في السر أحر الليل يستر يحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو الردول
 أَوَّلَ اللَّيْلِ . وقيل : الردول في أى وقت كان من ليل أو سهار . والمراد ها : لإقامة يوم أو لإقامة ليلة .
 (٣) لم تدرع : لم تلبس الدرع ، يقال : درعت الصبية اذا ألبست الدرع ، والدرع : حة مشقوقة المقدم .
 (٤) قال الأصمعي : يقال أشبه الله وأشب الله قربه معنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب ويكبر) ، والقرن
 زيادة في الكلام اهـ . والقرن : الصغرة . والمراد التمجيد من حديثها كما يقال في هذا المقام : قاتلك الله .
 (٥) الامة : الوحة والطريق ، قال تميم بن مقبل :

يا عامر ما تأمرؤن شاعر * تحير مانات الكتاب هائيا

أى تحير هائيا من وحوه الكتاب ، كما فسره صاحب اللسان . وللمانة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهى : القليل
 والوع - كما قال الخاسط في « كتاب الحيوان » ح ٢ ص ٤٥ : « عليس الديك من مائة الكلب لأنه إن ساوره قتله
 قتلا ذريعا » وقال أيضا في ح ٧ ص ٤٣ . « وقد أيقنا أهما لينا من مائة » . وقال في كتاب السلاء ص ٥٥ ،
 ١٤٣ : « أنت من دى الامة .. وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه الامة » . ومثل ذلك في فتح الطيب
 ح ١ ص ٥٥٩ طبع ليدن ، ح ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضي محمد بن بشير الأندلسي :

إمما أدرى بقدرى أحمى * لست من مائة أهل البلد

واذا قال الالباس « من ماتى » فمناه من الوحة الذى أريده ويصلح لى .

والشرط — ومنه ما فى « تاج العروس » . هذا مائة أى شرطه .

والعالية — ويستعمل ذلك فى الحساب والحدود . وفى « شعفاء العليل » أهم يقولون للعب حيال الطل بامة
 فيقولون : بامات حيال الطل ، وعلى ذلك قول آس إلباس المؤرخ المصرى : فكانوا مثل مانات حيال الطل فشى . يحى .
 وشفى . يروح (بذائع الزهورى وقائع الدهور ح ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للملاحظ ص ٣٨

وله :

لَيْتَ هَذَا أَجْزَيْتَنَا مَا تَعِدُ * وَشَفْتُ أَنْفَسَنَا مِمَّا نَحِدُ^(١)
وَأَسْتَبَدْتُ مَرَّةً وَاحِدَةً * إِنَّمَا الْعَاجِرُ مَنْ لَا يَسْتَبْدُ
وَلَقَدْ قَالَتْ لِبَارَاتٍ لَهَا * ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَسْرِدُ^(٢)
أَكَّا يَنْعُيُّ تَبْصِرَتِي * عَمَّرَكُنَّ اللَّهُ أَمْ لَا يَقْتَصِدُ
قَتَاهُنَّ^(٣) وَقَدْ قُلْنَ لَهَا * حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدُّ
حَسَدًا حُمَلَهُ مِنْ أَجْلِهَا * وَقَدِيمًا كَانَ فِي الدَّاسِ الْحَسَدُ

وله :

يَا مَنْ لِقَلْبٍ ذَنِيفٍ مُغْرِمٍ * هَامٌ إِلَى هِنْدٍ وَلَمْ يَنْظَلِمِ^(٤)
هَامٌ إِلَى رِيمٍ هَيْصِمٍ الْحَشَى * عَذِبِ الثَّنَائَا طَيْبِ الْمُبْسِمِ^(٥)
لَمْ أَحْسِبِ الشَّمْسَ لَيْلِي بَدَتْ * قَبْلِي لَدَى لَحْمٍ وَلَا دَى دِمِ^(٦)

- (١) وحده بمحمد وحدا : أحده حاشديدا، ووحده عليه يوحد وحدا حرد . (٢) تنرد .
تمنسل بالماء البارد . (٣) كذا في الكامل للرد طبع ليبرح ص ٥٩٤ وهي رواية جيدة . والتهافت كالأهاف
والمهافة صحك فيه مور كصحك المستزى . وفي الأعاني والديوان : « فتعا حكن » . وقد رجحنا الرواية الأولى
لأنها تقوى تمام المعنى المراد . (٤) هَامُ تَعَدَى الْوَالِدَ وَقَدْ صَحَّتْ هَا مَعْنَى صَا وَلِهَذَا تَعَدَّى نَالِي .
(٥) كذا في الأعاني ، وفي ديوانه « رنم » بالهمز . والرنم : الطلي الأبيض الخالص الياص ، وقيل ولد الطلي ،
يهر ولا يهر . (٦) كذا في الأعاني ، وبين هذا البيت والذي قبله في ديوانه
كالثمن بالأسعد إذا شرفت * في يوم دحى نارد مقتم
يريد بالأسعد هاهنا سعود الحوم ، وهي عشرة : أربعة منها في ربح الحدى والدلو يرلها القمر وهي سعد الدامح وسعد
طع وسعد الأخية وسعد السعود وهو كوكب مفرد ير . وأما السة التي ليست من المارل فسعد فاشرة وسعد الملك
وسعد الهام وسعد الهام وسعد الرابع وسعد مطر . وكل سعد من هذه السة كوكبان بين كل كوكبين في رأى العين قدر
دراع وهي متناصفة . وأما سعد الأخية فثلاثة أعجم كالأهاني وأما في رابع تحت واحد من . أطوار المرتضى والمقاصد
البحوية في شرح شواهد شروح الألفية للإمام العيني المطبوع هاهنا الحرارة ح ١ ص ٨ في الكلام على البيت
إذا دران مسك يوما لقيته * أوتل أن ألقاك عدوا بأسعد
وقال في اللسان في مادة « سعد » عد أن ذكر هذه السعود . فأحسن ما تكون الشمس والقمر والحوم في أيامها
لأنك لا ترى فيها عرة ، وقد ذكرها الناعة الدياني فقال :
قامت تراءى بين صحى كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
وقد ضبط خطأ في اللسان فتح العين . وقال :

بصاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تود أهلا ولم تهنش على حار

قالت ألا إنا ذوملّة * يصيرُك الأذنَى ع الأقدم
قلت لها بل أنتِ معتلة * في الوصل ياهدلكي نصيري

ببسا عمرُ بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحةَ بن عبيد الله ،
وكانت من أجل أهل دهرها ، وهى تريد الركنَ تسلمه ، فبهت لما رآها وراثة ، وعلمت
أها قد وقعت في نفسه ، فبعثت إليه بجمارية لها وقالت : قولى له : أتق الله ولا تقل هجراً ،
فإن هذا مقامٌ لا بد فيه مما رأت ، فقال للجمارية : أقرئها السلام وقولى لها : ابن عمك
لا يقول إلا حياء ، وقال فيها :

لعائشة أبة التيمى عدى * حى والقلب لا يُرعى حماها
يدكرى أبة التيمى طي * يرود بروصة سهل رآها
فقلت له وكاد يرأع قلبي * فلم أرقط كالיום أشدباها
سوى حميش إساقك مستبين ^(١) * وأن شواك لم يُشيه شواها ^(٢)
وأناك عاطل عار وليست * عارية ولا عطل يداها
وأناك غير أروع ^(٣) وهى تدلى * على المتنين أنعم ^(٤) قد كساها
ولو قعدت ولم تكلف نود * سوى ما قد كلفت به كفاها
أطل إذا أكلها كائى * أكلم حية غلت رقاها
تبيت إلى بعد الموم تسرى * وقد أمسيت لا أخشى سراها

وله :

إنى وأول ما كلفت بجهها * عجب وهل والحب من متعجب
نعت النساء فقلت لست بمبصر * شها لها أبداً ولا بمقرب

(١) الحش : دقة السابق . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأرمع : طويل شعر الرأس .

(٤) الأنعم : الأسود ، يريد به الشعر .

فَكَثُرَ حِينَئِذٍ ثُمَّ قُلْتُ تَوَحَّهْتُ * لِلحَّجِّ ، مَوْعِدُهُا لِقَاءُ الْأَخْشَبِ^(١)
 أَقْبَلْتُ أَنْظُرَ مَا زَعَمَنَ وَقُلْتُ لِي * وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكْذِبٍ
 فَلَقِيْتُهَا تَمَثَّلَتْ بِيَا بَغْلَانُهَا * تَرِي الْجَمَارَ عَشِيَّةً فِي مَوْكِ
 عَرَاءٍ يُعْنِي الطَّاطِرِينَ بِيَاصُهَا * حَوْرَاءَ فِي غُلُوَاءٍ عَيْشٍ مُعْجِبٍ^(٢)
 إِنَّ الَّتِي مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَائِهَا * جُلَيْتُ لِحَيْسِكَ لَيْتَهَا لَمْ تُجَلِّبْ

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كَلَّمَ بَتَّ سَعْدَ الْمُخْزُومِيَّةَ ، فأرسل إليها رسولا فصربتها وحلققتها وأحلققتها ألا تُعَادِرْ ، ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثل ذلك ، فتحامهاها رسله ، فابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن إليها وكساها وآسها وعرفها حره وقال لها : إن أوصلت لي رُقعةً إلى كَلَّمَ فقرأتها فأتيت حرَّه ولكِ معيشتك ما بقيت ، فقالت : اكتب لي مَكْتَبَةً وَأَكْتُفِ حَاحَكَ فِي آخِرِهَا ، ففعل ذلك ، فأخذتها ومصت بها إلى باب كَلَّمَ فاستأذنت فخرجت إليها أمة لها فسألته عن أمرها ، فقالت : مَكْتَبَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِ مَوْلَانِكَ جئتُ أَسْتَعِينُهَا فِي مَكَاتِبِي ، وحادثتها واشدتها حتى ملأت قلبها ، فدخلت إلى كَلَّمَ وقالت : إن بالبَابِ مَكْتَبَةٌ لَمْ أَرَقُطْ أَجَلَ مِنْهَا وَلَا أَكَلْ وَلَا آدَبَ ، فقالت : ائذني لها ، فدخلت ، فقالت : من كَاتِبِكَ ؟ قالت : عمر بن أبي ربيعة الفاسق ! فافترق مَكَاتِبِي ، فذت يدها لتأخذها فقالت لها : لي عليك عهد الله أن تُقَرِّبَهَا ، فإن كان منك إلى شيء مما أُحِبُّهُ وَإِلَّا لَمْ يَلْحَقْنِي مِنْكَ مَكْرُوهٌ ، فعاهدتها وقطعت وأعطتها الكتاب ، فإذا أوله :

من عاشقٍ صَبَّ سِرُّهُ الْهُوَى . قد شَمَّه الْوَجْدُ إِلَى كَلَّمَ
 رَأَيْتُكَ عَيْنِي فِدَاعِي الْهُوَى * إِلَيْكَ لِلْحَيِّ وَلَمْ أَعْلَمْ

(١) الأخشب : مفرد الأخشين وهما حلال مكنة أحدهما أوقيس والآخر قبيعان ، ويقال : هما أوقيس والحل الأحمر المشرف هالك ، وقد تعمد هذه الشبهة فيقال لكل واحد منهما : الأخشب ، قال ساعدة بن جؤية .
 ومقامهن إذا حسس بأرم * صيق ألف وصدهن الأخشب
 (٢) في علواء عيش : في أصره وأروده . (٣) المكاتبة : أن يكتب الرجل عبده على مال يؤدیه إليه منها (مقسطاً) إذا أذاه صارحراً ، وسميت كذلك لأنه يكتب على هسه لمولاه منه ، ومولاه يكتب له عليه عهده .

قَتَلْنَا ، يَا حَبْذَا أَنْتُمْ * فِي عَيْرٍ مَا جُرِّمَ وَلَا مَأْتُمْ
وَاللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي وَحْيِهِ * مُبَيَّنًا فِي آيَةِ الْمُحْكَمِ
مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَذَا ظَالِمًا * وَلَمْ يَقْدَحْهَا نَفْسَهُ يَظْلِمِ
وَأَنْتَ تَأْرَى فَنَلَقَى دَمِي * ثُمَّ أَجْعَلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
وَحَكْمِي عَدْلًا يَكُنْ بَيْنَنَا * أَوْ أَمِتْ فِيمَا بَيْنَنَا فَاحْكِي
وَجَالِسِي مَجْلِسًا وَاحِدًا * مِنْ عَيْرٍ مَا عَارٍ وَلَا مُحَرَّمِ
وَحَبْرِي مَا الَّذِي عَدَمَ * نَالَهُ فِي قَتْلِ أَمْرِي مُسْلَمِ

فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خداعٌ مليٌّ وليس لما شكاه أصلٌ، قالت : يامولاتي،
فما عليك من أمتعانه ؟ قالت : قد أذنتُ له وما زال حتى ظَهَرَ بُغْيَتِهِ ! فقولِي له : إذا كان
المساء فليجلس في موضع كذا وكذا حتى ياتيهِ رسولي ، فأصروا الجارية فأخبرته فتأهب لها ،
فلما جاءه رسولها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيأت أجمال هيئة ، وزينت نفسها وجلسا
وجلست له من وراء ستر ، فسلم وجلس ، فتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عك
يا فاسق ! أَلَسْتَ القائل :

هَلَّا أَرْعَوَيْتَ قَتْرَحِي صَبَا * صَدَيَانِ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبَا
جَسَمَ الزَّيَارَةِ فِي مَوَدَّتِكُمْ * وَأَرَادَ أَلَّا تُرْفِعِي دَنْبَا
وَرَجَا مُصَالَحَةً فَكَانَ لَكُمْ * سَلَمًا وَكَيْتَ تَرْبِنَهُ حَرْبَا
يَا أَيُّهَا الْمُصْنِفِي مَوَدَّتِهِ * مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خُطْبَا^(١)
لَا تَجْعَلْنِي أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا * أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَأَا
وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شَغِفَتْ بِهِ * وَأَطْوِ الزَّيَارَةَ دُونَهُ غِيَا
فَلَذَّاكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاطَبَةٍ * لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبَا
لَا لِي يَمْلِكُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ * يَقُولُ هَاهُ وَطَالَمَا لَيْتِي^(٢)

(١) الخطب : الحاطب . (٢) وهاء : كلمة وعيد ، وحرك لصرورة الشعر وقد روى البيت في ديوانه :

لَا لِي يَمْلِكُ ثُمَّ تَدْعُو بِاسْمِهِ * يَقُولُ هَاهُ وَطَالَمَا لِي

ورأى عمرُ لبابة بنتَ عبدِ الله بنِ العباسِ أمراءَ الوليدِ بنِ عُتبة بنِ أبي سفيانٍ تَطْلُوفُ
 البيتِ فرأى احسنَ خلقِ الله ، فكاد عقلُه يدهُبُ ، فسألَ عنها فأخبرَ بنسبِها ، فنسبَ بها
 وقالَ فيها :

وَدَّعْ بُبَاةَ قَبْلَ أَنْ تَتَرَحَّلَا * وَأَسْأَلُ فَإِنْ قُلَّالُهُ أَنْ نَسْأَلَا
 إِلْتِ بَعْمَرِكَ سَاعَةً وَتَأْتِيَا * فَلَمَّ مَا بَحِثْتُ بِهِ أَنْ يُنْدَلَا
 قَالَ أَتَمَّرَ مَا شِئْتَ عَيْرُ حَالِي * فَمَا هَوَيْتَ إِنَّمَا لَنْ تَمَحَّلَا
 لَسْنَا نُنَالِي حِينَ تَقْصِي حَاجَةً * مَا نَاتَ أَوْ ظَلَّ الْمِطْيَ مُعَقَّلَا
 حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ طَلَامُهُ * وَرَقَّتْ عَمَلَةٌ كَأَنَّ شَيْخَ أَنْ يَحْمَلَا
 نَرَجَتْ تَأْطُرُ فِي الثِّيَابِ كَأَنَّمَا * أَيْمُ يُسَيِّبُ عَلَى كَيْتِيبِ أَهْيَلَا
 رَجَبْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا فَتَبَسَّمتْ * لَتَحِيَّتِي لَمَّا رَأَيْتُي مُقْبِلَا
 وَجَلَا الْقِيَاعُ سَحَابَةً مَشْهُورَةً * عَرَاءُ تُعْشِي الطَّرْفَ أَنْ يَتَأَمَّلَا
 فَلَبِثْتُ أَرْقِيهَا بِمَا لَوْ عَاقِلُ * يُرْقَى بِهِ مَا أَسْطَاعَ إِلَّا يَنْزَلَا

وَحَجَّتْ رَمْلَةً بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلِيفِ الْخَزَاعِيَّةِ فَقَالَ فِيهَا :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْحِبَالِ رَهِيئًا * مُقْصِدًا يَوْمَ فَارَقَ الظَّاعِيَا
 عَجَلْتُ حُمَةً الْمِرَاقِ عَلِيَا * بَرَحِيلٍ وَلَمْ نَحْفِ أَبْ تَبِيَا
 لَمْ يَرْغُنِي إِلَّا الْفَتَاءُ وَإِلَّا * دَمْعُهَا فِي الرِّدَاءِ سَحَابَا سَبِيَا
 وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا * قَبْلَ وَشِكٍ مِنْ بَيْنِكُمْ بُولِيَا
 أَنْتِ أَهْوَى الْعَسَادِ قُرْمًا وَدَلًّا * لَوْ تُبَيِّلِينَ عَاشِقًا مَحْزُونَا
 قَادَهُ الطَّرْفُ يَوْمَ مَرٍّ إِلَى الْحِيَا * مِنْ حِيَارًا وَلَمْ يَحْفِ أَنْ يَحِيَا

(١) اللقال كمراب وسحاب : القليل . (٢) اتمر ما شئت : اصل ما شئت إنما لا يعصى لك أمرا .

(٣) تأطر : محدودة إحدى تاءيه ، أى تتلى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل

يعقل عقولا . امتنع في الحل ، وه سمي الوعل عاقلا على حد التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كمارح

الأروى قليلا ما يرى » . والأروى : جمع أروية وهى نىوس الحبل البرية

فادا سمعةً تراعى نِعامًا * ومَهَا بِهِجَ المِساطِرِ عِبا
 قلتُ مَنْ أَنتُمْ فَصَدَّتْ وَقَالَتْ * أُمَيْدُ^(١) سَؤَالِكَ الْعَالَمِيَا
 قلتُ بالله ذى الحِلالة لما أن تَلَّتِ العُودَ أن تَصْدُقِيَا
 أَيْ من تَجْمَعُ المَواسِمُ قَوْلِي - وَأَبْنِي لِي وَلَا تَكْثُمِيَا
 نحن من ساكني العِراقِ وَكُنَّا * قَدْلَهُ قَاطِئِي مَكَّةَ حَيَا
 قد صَدَقْنَاكَ إِذْ سَأَلْتَ مَنْ أَد * سَتَ عَمِي أَنْ يَجُرَّ شَأْنُ شُؤُونَا
 وَنَرَى أَنْتَا عَرَفْنَاكَ بِالْعَد * يَتِ نَظَرًا وَمَا قَتَلْنَا يَقِيَا
 سَمَوَادِ الثَّيْتَيْنِ وَنَعَيْتَ * قَد رَأَاهُ لِبَاطِرٍ مُسْتَبِيَا
 وقال في الرِّثَا وقد صَرَّمَتْهُ .

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَا فِلَايَ * صِفْتُ ذَرْعًا يَهْجُرُهَا وَالْكَثَابِ
 سَلَسْنِي مَحَاحِهُ^(٢) الْمِسْكِ عَقْلِي * فَسَلُّوْهُمَا مَاذَا أَحَلَّ اعْتِصَابِي
 وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحِيَّرُ مِنْهَا * فِي أَدِيمِ الْخَدَّيْنِ مَاءُ الشَّابِ
 أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ نَهَادِي * بَيْنَ خَمْسِ كَوَاعِبِ أَثَرِ
 ثُمَّ قَالُوا تُحِبُّهَا قُلْتُ بِهِرًا * عَدَدَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالزَّابِ
 أَزْهَقْتُ أَمْ تَوَلَّى إِذْ دَعَتْهَا * مُهَجِّي^(٣) ، مَا لِقَائِي مِنْ مَتَابِ
 حِينَ قَالَتْ لِمَا أَحْبَبِي فَقَالَتْ * مَنْ دَعَانِي قَالَتْ أَبُو الْخَطَّابِ
 فَاسْتَحَابَتْ عِدَّ الدَّعَاءِ كَمَا لِي جِيَّ رَحَالٌ يَرْحُونَ حَسَنَ الثَّوَابِ

(١) قال في اللسان مادة مدد مد أن أورد هذا الشطر : «معناه أمقم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى نعمهم» . من الدداد وهو أن يَدَّ المال القوم فيقسم بينهم ، وأدَّهم المال والعتاء . مره بهم ، والمراد لمادا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : «أأت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه يد» ، والمراد : أأت ملزما الإجابة عن سؤالك ! بما لا نحيك . (٢) محاحة المسك ، يريد بذلك وصفها طيب ويقها وأنه كالسك . (٣) تهادى ، يريد يهذى مصها نصا في مثنيا (الكامل للبرد طبع ليبرح ص ٣٧٩) . (٤) في الكامل للبرد طبع ليبرح ص ٣٧٩ . أرهقت : أطلت وأدعت قال الله عز وجل : (فبدمه فاذا هو راقي) اه . يريد : أدعت أم بول هني إذ دعت الثريا لوصال فلم تحبها .

ومن شعره :

كُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنْ لَدَى كَتَبَ مُوَلَّهُ كَيْدِ
 كَثِيبٌ وَأَكِيفُ الْعَبِيدِ : ^(١) بِنِ الْحَسَرَاتِ مَصْرِدِ
 يُؤَرِّقُهُ لَيْبُ الْأَشْوِ ^(٢) فِي بَيْنِ السَّحْرِ وَالْكَدِ
 فِيمَنْسِكَ قَلْبَهُ بَيْدِ * وَتَمَسُّحُ عَيْنِهِ بَيْدِ

لما تزوج سُمَيْلُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الثُّرَا ونقلها الى الشام، بلغ عمرَ بَنِ أَبِي رُبَيْعَةَ الْخَبَرِ،
 فَأَتَى لِلْمَنْزَلِ الَّذِي كَانَتْ الثَّرِيَا تَنْزِلُهُ، فَوَحَدَهَا قَدْ رَحَلَتْ مِنْهُ يَوْمئِذٍ، وَخَرَجَ فِي أَثَرِهَا فَلَحِقَهَا
 عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ، وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ مُهَاجِرَتَهُ لِأَمْرِ أُكْرَمَتْهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُمْ زَلٌّ عَنْ فَرَسِهِ
 وَدَفَعَهُ إِلَى عِلَامِهِ وَمَشَى مُتَنَكِّرًا حَتَّى مَرَّ بِالْحَيْمَةِ، فَعَرَفَتْهُ الثَّرِيَا وَأَثْنَتْ حَرَكَتَهُ وَمِشْيَتَهُ،
 فَقَالَتْ لِحَاصَتِهَا : كَتَبِيهِ، فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ وَسَأَلَتْهُ عَنْ حَالِهِ وَعَاتَشَتْهُ عَلَى مَا بَلَغَ الثَّرَا عَهْدَهُ،
 فَاعْتَدَرَ وَتَكَّى، فَكَبَّتِ الثَّرِيَا، فَقَالَتْ : لَيْسَ هَذَا وَقْتُ الْعِتَابِ مَعَ وَشَكِ الرَّجُلِ، لِحَادِثِهَا
 إِلَى وَقْتِ طُلُوعِ الْفَجْرِ ثُمَّ وَدَّعَهَا وَتَجَا طَوِيلًا، وَقَامَ فَرَكٌ فَرَسَهُ وَوَقَفَ يَطْرُقُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ
 يَرْحَلُونَ،^(٥) ثُمَّ اتَّبَعَهُمْ بَصَرَهُ حَتَّى عَابُوا، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا صَاحِبِي قَبْلَ تَسْتَحِيرِ الظُّلَلَا .. عَنْ حَالِ مَنْ حَلَّهَ بِالْأُمَيْسِ مَا فَعَلَا
 فَقَالَ لِي الرَّعْبُ لِمَا أَبَ وَقَفْتُ بِهِ * ^(٦) إِنَّ الْحَلِيطَ أَجَدَ الْبَيْنِ فَاحْتَمَلَا
 وَخَادَعْتُكَ الْوَى حَتَّى رَأَيْتَهُمْ * ^(٧) فِي الْفَجْرِ يَحْتَثُّ حَادِي غَيْبِهِمْ رَحِلَا^(٨)

(١) يقال : وكمت العين : سالت دموعها . (٢) السحر الرثة .

(٣) أى عرفتها حى المعرفة . (٤) لحاصتها لمريتها . (٥) يرحلون يشدون على المهنم
 الرحال . (٦) أحد البين . اعترمه . (٧) احتمل . ارتحل . (٨) الوى : العراق
 والعدو . ويحث : يسوق . وزحلا : راحها صوته في حذاء الإبل لتسرع في السير، وأصل الرجل الحلبة وربع
 الصوت وحصن به التطريب، وأنشد سيويه في وصف حمار وحش :

له رحل كأنه صوت حاد * إذا طلب الوسيقة أو زبير

ودكره في باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة، وهى هنا حذف الواو الميمية لحركة الهاء في قوله : كأنه .
 والوسيقة : أنثاء التي يصمها ويجمعها ، من وسقت الشيء : جمعت .

لما وقفنا نُحْيِيهِمْ وقد صرخت هَوَانُفُ الْبَيْنِ وَأَسْتَوَتْ بِهِمْ أَصْلًا^(١)
 صَدَتْ بِعَادَا وَقَالَتْ لَاتِي مَعَهَا ، والله لَوَيْبِهِ فِي بَعْضِ الَّذِي فَعَلَا
 وَحَدِيثِهِ بِمَا حَدَّثْتِ وَأَسْمَعِي * ماذا يقول ولا تَعْبِي بِهِ جَدَلَا^(٢)
 حَتَّى يَرَى أَنْتَ مَا قَالَ الْوُشَاهُ لَهُ ، فِينَا لَدَيْهِ إِلَيَا كُلُّهُ يُفَلَا
 وَعَرَّيْبِهِ بِهِ كَالْمَزَلِ وَأَحْفَيْطِي فِي بَعْضِ مَعْتَبِهِ أَنْ تُعْصِيَ الرَّحْلَا
 فَإِنَّ عَهْدِي بِهِ وَاللهُ يَحْفَظُهُ ، وَإِنْ أَتَى الذَّنْبَ مِنْ يَكْرِهِ الْعَدَلَا
 لَوْ عِنْدَنَا أَغْتَيْبَ أَوْ نَيْلَتْ قَيْصَتُهُ ، مَا آتَ مُغْتَابُهُ مِنْ عِنْدِنَا حِدَلَا
 قُلْتُ أَسْمَعِي فَلَقَدْ أَلْمَغَتْ فِي لَطِيفِ^(٣) ، وَلَيْسَ يَحْتَمِي عَلَى دِي اللَّثِّ مِنْ هَزَلَا
 هَذَا أَرَادَتْ بِهِ مُحَلًّا لِأَعْدِيدِهَا ، وَقَدْ أَرَى أَنَهَا لَنْ تَقْدَمَ الْعِلَلَا
 مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ ، وَلَا الْعُودُ فَوْادًا عِبْرَانُ عَقْلَا^(٤)
 أَمَا الْحَدِيثُ الَّذِي قَالَتْ أَتَيْتَ بِهِ ، مَا عَبَّاتُ بِهِ إِدْ حَائِي حَوْلَا
 مَا إِنْ أَطَعْتُ بِهَا بِالْغَيْبِ قَدْ عَلِمْتُ ، مَقَالَةَ الْكَاشِخِ الْوَاشِي إِذَا مُحَلَّا
 إِنِّي لِأَرْجِعُهُ فِيهَا بِسَخَطَتِهِ * وَقَدْ يَرَى أَنَّهُ قَدْ غَرَنِي زَلَا
 وَهِيَ قَصِيدَةُ طَوِيلَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي شِعْرِهِ .

(١) فِي دِيَوَانِهِ

لما وقفنا يُحْيِيهِمْ وقد شخطت * عامة البين فاستولت بهم أصلا
 وشخطت عامة البين : ارتحلوا ووزعهم البين ، وفي اللسان مادة هم وشال يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم
 أو تفرقوا : قد حمت عامتهم وشالت عامتهم ، والأصل : جمع أصيل وهو العشي وقيل هو معدد ، أشد طلب :
 وتعمدت هسى لذلك ولم أرل * بدلا بهاري كله حتى الأصل
 بقوله : بدلا بهاري كله ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعبي به جدلا . لا تعجري ومجادلة .
 (٣) اللطيف لسة في اللطف . (٤) قال في اللسان : والتؤد . التوقد ، والعود : القلب لتؤده
 وتوقده . وقال في القاموس وشرحه : والتؤد . التحرق والوقد ، ومنه العود القلب ، لأن عقل العود للعلوم
 نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وحوله فيها حتى يحصها ، ويميز الصحيح من العاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تعرف الدار والأطلال والدما • زدت المؤاد على علاته حرا
 دار لأسماء قد كانت تحل بها * وأنت إذ ذاك قد كات لكم وطنا
 لم يحب القلب شيئا مثل حكم • ولم رالعن شيئا بعدكم حسا
 ما أبأ مالي أدام الله قرنكم • من كان شط من الأحياء أو طعا
 وإن تأتم أصاب القلب نايكم • وإن دنت داركم كنتم لنا سجا
 إن تحلى لا يسئل القلب محلكم • وإن تحودى فقد عييتني زما
 أمسى المؤادكم ياهند مرها • وأنت كنت الهوى والهم والوسا
 إذ تستيك بمصقول عوارصه • ومقلتي حؤذير لم بعد أن شدا

وقال :

أعبد ما ينسى مودتك القلب • ولا هو يسليه رحاء ولا كرب
 ولا قول وإش كانح دى عداوة • ولا تعد دار إن نأيت ولا قرب
 وما ذاك من نعى لديك أصابها • ولكى حأ ما يقاربه حأ
 فإن نقلى ياعبد توبة تأيب • يت ثم لا يوحده أدا دنت
 أدل لكم ياعبد فيما هويتم • وإن إذا ما رانى غيركم صغ
 وأعدل نفسى فى الهوى فتعوقى * • ويأصرى قلب بكم كلف صب
 وفى الصرع لا يؤاتيك راحة • ولكنه لا صبر عدى ولا ل
 وعبد بيهاء المحار طفلة • منعمة نضى الحليم وما تصبو
 قطوف من الحور الأوانس الصحى • متى تمش قيس الباع من بهر ترو
 فلتست ببايس يوم قالت لأربع • نوايم غر كلهن لها ترب
 ألا ليت شعرى فيم كان صدوده * • أعلق أخرى ! أم على به عتب

وقال :

إِنْ طَيْفَ الْخِيَالِ حِينَ الْمَا هَاجَ لِي ذُكْرَةٌ وَأَحْدَثَ مَهَا
 جَدْدِي الْوَصْلَ يَأْسُكَيْنَ وَجُودِي لِحُبِّ رَحِيلِهِ قَدْ أَحْمَا
 لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَرُدُّوا جَمَاهُمْ فُتْرَمَا
 وَلَقَدْ قُلْتُ مُخْفِيًا لَغَرِيصَ هَلْ تَرَى ذَلِكَ الْغَزَالَ الْأَحْمَا
 هَلْ تَرَى فَوْقَهُ مِنَ الدَّاسِ شَخْصًا أَحْسَنَ الْيَوْمِ صُورَهُ وَأَتَمَّا
 إِنْ تَيْسَلِي أَعِشْ بِجَبْرِ وَإِنْ لَمْ تَسُدِّي الْوَدَّ مَتَّ مَاهَمَّ عَمَّا

وله أيضا :

أَيَا مَنْ كَانَتْ لِي بَصَرًا وَتَمَعًا وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْ بَصِيرِي وَتَمَعِي
 وَعَمَنْ حِينَ تَذْكُرُهُ فُؤَادِي يَبِيعُ كَمَا يَبِيعُ الْعَرَبُ دَمَعِي
 يَقُولُ الْعَادِلُونَ نَأَتْ قَدَعَهَا * وَدَلَّكَ حِينَ تَهَيَّأِي وَوَلَبِي
 أَأَهْجُرُهَا فَأَقْعُدَ لَا أَرَاهَا * وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِقَطْعِي
 وَأَضْرِمُ حَسَاهَا لِمَقَالٍ وَاشِ * وَأَلْجَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِفَجْعِي
 وَأُقْسِمُ لَوْ حَلَوْتُ بِهَجْرِ هِنْدٍ * لَصَاقَ بِهَجْرِهَا فِي السُّومِ دَرْعِي

وهو القائل .

مَا سَكُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مُدَّ عَرَفَتَكُمْ أَنْ الْمَصَاحِعَ تَمْسِي تُثَبِّتُ الْإِبْرَا
 لَقَدْ شَقِيتُ وَكَانَ الْحَيْنُ لِي سَبًّا * أَنْ عُلِقَ الْقَلْبُ قَلْبًا يُشْبِهُ الْحَجْرَا
 قَدْ لَمْتُ قَلْبِي فَأَعْيَايَ وَاحِدَةٍ * وَقَالَ لِي لَا تَلْمِي وَأَدْفَعِ الْقَدْرَا
 إِنْ أَشْرَهَ الطَّرْفَ يَحْسَرُونَ عَيْرَكُمْ * وَلَسْتُ أَحْسِنُ إِلَّا أَنْحَوَكَ النُّظْرَا
 قَالُوا صَوْتُ فَلَمْ أَكْذِبْ مَقَالَتَهُم وَلَيْسَ يَنْسَى الصَّمَا إِنْ وَالِهَ كِرَا

وقال أيضا :

أَلَا لَيْتَ قَبْرِى يَوْمَ تُقْصَى مَيْتِى * بَتَلَكِ الَّتِى مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ وَالْمِيعِ
وَلَيْتَ طَهْوِرِى كَانَ رِيْقِكَ كُلُّهُ * وَلَيْتَ حَوْطِى مِنْ مُشَاشِكَ وَالْدَمِ
أَلَا لَيْتَ أُمَّ الْعَصَلِ كَانَتْ قَرِيْنَتِى * هُنَا أَوْ هُنَا وَى جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمَ

نظر عمر بن أبي ربيعة في الطواف إلى امرأة شريفه رأى أحسن خلق الله صورة،
فذهب عقله عليها وكتبها فلم يُجِبْهُ ، فقال فيها :

الرَّيْحُ نَسَحَ أَذْيَالًا وَنَشَرَهَا يَا لَيْتَنِى كَسْتُ مِنْ نَسَحِ الرِّيحِ
كَيْفَا تَجْرُسُ أَذْيَالًا تَطْرَحُهَا * عَلَى الَّتِى دُونَهَا مُغْفَرُهُ سَوْحٌ
أَتَى بِقُرْبِكُمْ أَمْ كَيْفَ لِي بِكُمْ * هَيْهَاتَ ذَلِكَ مَا أُمَسْتُ لِمَا رُوِحُ
فَلَيْتَ صِغْفُ الدِّى أَلْتَى يَكُونُهَا * لَلِى لَيْتَ صِغْفُ الدِّى أَلْتَى تَبَارِيخُ
أَحْدَى بُيَّاتٍ عَمَّى دُونَ مِنْهَا أَرْضٌ يَقْبَعَاتِهَا الْقَيْصُومُ وَالشَّيْخُ

فلما شعره فجزعته منه ، فقبل لها : ادكره لزوحك ، فإنه سيترك عليه قوله ، فقالت :
كلًا والله لا أشكوه إلا إلى الله . ثم قالت : اللهم إن كان نوءه ناشي ظالمًا فاحمله طعامًا
للريح ، فصرت الدهر من صريره ؛ ثم إنه عدا يومًا على فرس فهبت ريح ففرل فاستتر
بسنامة ، فعصفت الريح فحدهه عَصْنٌ منها ، فدعى وورم به ومات من ذلك .

(١) هذا أحد الوجهين في الفعل الواقع سدكيا . الريح على أن ما كافته لها من العمل ، والنصب على أن
ما رائدة وكى عاملة فيما سدها ، وقد روى الوجهين .

إذا أنت لم تمنع مصرعًا ما . يرحى القى كيا يصير ويجمع

(٢) معرة ، يريد بها العلة المحدة . (٣) سوح . جمع ساحة وهي القصاص . (٤) تباريح
الشوق : توهجه ، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجوع التي لا مرد لها وتقل : معرده تريج
وأستعمله المحدثون وليس شئت . (٥) قال في اللسان : القيصوم : ما طال من العشب ، ثم قال :
والقيصوم من سات السهل قال أبو حبيبة . القيصوم من الدكور ومن الأمراء وهو طبيب الراحة من رياحين البر
وورقه هذب وله نورة صمراء وهي تهص على ساق وتطول .

(ب) الغزل العذريّ

(١)
جَمِيلٌ

قال نُصَيْبٌ مولى عبد العزيز مروان: قَدِمْتُ المَدِينَةَ فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لى: الْوَلِيدُ بْنُ سَعِيدِ الْأَنْصَحِيِّ، فوحدته بِشَيْءٍ سَلَعُ مع عبد الرحمن بن حَسَّانٍ وعبد الرحمن بن أَزْهَرَ، فَإِنَّا بِلُحُوسٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيَّا رَحْلَ طَوِيلٍ بَيْنَ الْمَكِيِّينَ يَقُودُ رَاحِلَةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر بن عدرة، وكان شاعرا فصيحاً مقدّماً حامداً للشعر والرواية. اشتهر بحبه شبة أسة عمه، ولذلك عرف بجميل شبة، وكانا يقيان في وادي القرى، وكان أول عهدهما وهي صغيرة. ومن أوائل نطمه فيها قوله:

وأول ما قاد المودة يساً * بوادي بعبس يا شين ساس

وقلت لها قولاً خات مثله * لكل كلام يا شين حواب

ولم يمكن يراها حتى صارت شابة، فأحد يعلم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. وأتفق مرة أن توبة بن الحميز صاحب ليل مر بنى عدرة فرائه شبة فجعلت تطرأ إليه وجميل حاصر فرائد المعيرة في قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أما توبة بن الحميز، قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فأعطته شبة ملاءة حراء فأترسها. ثم صار به مصرعه جميل. ثم قال: هل لك في الصال؟ قال: نعم، فاصله فاصله جميل. ثم قال: هل لك في الساق؟ قال: نعم. فساهه فسقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك ربح الحالسة، ولكن اهبط ما الوادي، فهبط، فصرعه توبة واصله وسقه.

وكان عبد شبة مثل ما عند جميل، ولما رأت ماصلة عبا رادت شعاعه، ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا جلسة على موعد. ولم يكن جميل يحلوس الرقاء، لكنهم لم يستطيعوا رمية رية. وأحاده معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، فهرز إلى أين حتى عرل العامل. وانجفع أهل شبة الشام، فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فصعده أهله وهددوه، فاقطع عبا، وأحجرا لحاً إلى مصر، وعاملها عند العرير مروان، فأحس وباده، ومرص هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المكيين جميل الحلقة حسن الرة، توفي سنة ٨٢ هـ.

ولجيل ديوان شعر كبير كان مشهوراً في أيام أس حلكان ولم يقف على حده، ولكن منه أشعاراً بمجموعة في كتابه منه نسخة خطية في مكتبة برلين.

أظهر الكلام على جميل في الأناج ح ٧ ص ٧٧ وح ١ ص ٨٠ وابن حلكان ح ١ ص ١١٥ وجرانة الأدب ح ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها زينة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أذهر: يا أماه جئت، هذا جميل فادع له لعله يُشَدُّنا، فصاح به عبد الرحمن: هيا جميل، فالتفت فقال: من هذا؟ فقال: أنا عبد الرحمن بن أذهر، فقال: قد علمت أنه لا يجترئ على إلامتك، فأناه، فقال له: أنشدنا، فأنشدهم:

ومحى متعاً يوم أول نساءنا * ويوم أقي والأسنة ترعف^(١)
يُحِيت العوايا البيض طلل لوائنا * ادا ما أتاها الصارح المتلف
نسير أمام الناس والناس حلما * وإن نحى أوأنا الى الناس وقفوا
فأى معد كالقوى رماحه * كما قد أفانا والمناخريصف
وكما ادا ما معشر نصبوا لنا * ومررت حواري طبرهم وتبعوا^(٢)
وصعنا لهم صاع القصاص رهبة * بما سوف يُوفىها ادا الناس طفقوا^(٣)
اذا استبق الأقبام مجداً وحدنا * لا معروفا محيد وللناس معرف

ثم قال له: أنشدنا هزجاً، قال: وما الهرج؟ لعله القصير! قال: نعم، فأنشده:

رسم دارٍ وقفت في طلله * كدت أقصى الحياة من حلله^(٤)
موحشاً ما ترى به أحداً * بسج الرياح ترب معتدله
وصريعاً بين الثمام ترقى * عازفات المدب في أسله
بين علياء رائيش فلى * فالعيم الذى الى حله
واقفاً في ديار أم حسير * من صهى يومه الى أصله
يا حلى لمت أم حسير * حين يدنو الصبح من علله^(٥)
روصة ذات حنوة ونعراى * حاد فيها الربيع من سله^(٦)
بينما نحن بالأراك معاً * اذ بدا راكب على جملة

(١) ترعف: تغرد ما . (٢) تبعوا: من العيافة، وهى رحل الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيتسعد أو يتشام . (٣) الصلغ: قصص الكيل . (٤) من أحله . (٥) الطل: جمع علة، وهى ما يتوارى فيه أو شعار تحت الثوب . (٦) السل: المطر .

فَنَاطَرْتُ^(١) ثُمَّ قُلْتُ لَهَا * أَكْرِمِهِ حُبِّي فِي نُزُلِهِ
 فَظَالِمًا بِعَمِيَّةٍ وَأَتَكْنَا * وَشَرِبَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَّةِ
 قَدْ أَصَوْنُ الْحَدِيثَ دُونَ أَحْج * لَا أَخَافُ الْأَذَاهُ مِنْ قِبَلِهِ
 غَيْرَ نَفِصٍ لَهُ وَلَا مَلَقٍ * غَيْرَ أَنِّي أَتَمَحْتُ^(٢) مِنْ وَحَلِهِ
 وَخَلِيلٍ صَافِيٍّ مَرْتَصِبَا * وَخَلِيلٍ فَارَقْتُ مِنْ مَلَلِهِ

ثم افتاد راحلته موليا، فقال ابن الأزهري . هذا أشعر أهل الإسلام، فقال ابن حسان :
 سم والله وأشعر أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيه، فقال عبد الرحمن
 ابن الأزهري : صدقت .

قال محمد بن سَلَام : كَانَ لَكُنْثَرٍ فِي السَّيْبِ حَطٌّ وَافِرٌ ، وَجَمِيلٌ مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ وَعَلَى
 أَصْحَابِ السَّيْبِ فِي السَّيْبِ ، وَكَانَ جَمِيلٌ صَادِقُ الصَّبَابَةِ وَالْعَشْقِ ، وَلَمْ يَكُنْ كُنْثَرٌ يَعَاشِقُ
 وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ ، وَكَانَ الْبَاسُ يَسْتَحْسِنُونَ بَيْتَ كُنْثَرٍ فِي النَّسَبِ ، وَهُوَ :

أُرِيدُ لِأَنْسَى دَكْرَهَا مَكَا * تَمَثَّلُ لِي لَيْسَى بِكُلِّ سَبِيلِ

وَرَأَيْتُ مِنْ يَمُصِّلُ عَلَيْهِ بَيْتَ جَمِيلِ :

حَلِيلِي فَمَا عَشْتَا هَلْ رَأَيْتُمَا * قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

قِيلَ إِنَّ بَنِيَّةً وَعَدَّتْ جَمِيلًا أَنْ يَلْتَقِيَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ ، فَأَتَى لَوْعَدَهَا ، وَهَاءَ أَعْرَابِي
 يَسْتَصِيفُ الْقَوْمَ ، فَأَنْزَلُوهُ وَقَرُّوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ رَأَيْتُ فِي بَطْنِ هَذَا الْوَادِي ثَلَاثَةَ مَرْمَتَيْنِ
 مُتَوَارِسَيْنِ فِي الشَّجَرِ وَأَنَا حَائِفٌ عَلَيْكُمْ أَنْ يَسْلُبُوا بَعْضُ الْبَعْضِ ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ جَمِيلٌ وَصَاحِبَاهُ ،
 فَخَرَسُوا بَنِيَّةً وَمَعَهَا مِنَ الْوَفَاءِ بَوْعُهُ ، فَلَمَّا أَصْفَرَ لَهُ الصَّبْحُ انْصَرَفَ كَثِيرًا سِيَّ الظَّلِّ سَهَا
 وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَبَعَثَ نِسَاءَ الْحَيِّ يَقْرَعْنَهُ بِدَلَكٍ وَيَقْلَنَ لَهُ : أَمَّا حَصَاتُ مِنْهَا عَلَى الْبَاطِلِ
 وَالْكَذْبِ وَالْفُغْدَرِ ، وَغَيْرُهَا أَوْلَى بِوَصْلِكَ مِنْهَا ، كَمَا أَنَّ عَيْرَكَ يَحْطِي بِهَا ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

فأجبتها بالقول بعد ستر * حبي بُيِّنَة عى وِصالكِ شاعلى
 أُبَيِّنُ إلكِ قد مَلَكْتِ ^(١) فاصحى * وخُذِى بِحُطَّكِ من كَرِيمِ واصل
 فارتِ عارِصِهَ عَلياً وصلها * بالحدِّ تحلِطه نقول المارل
 لو كان فى صدرى كَقَدْرِ قَلَامِه * فضلاً وصلِّكِ أو أنتكِ رسائلى
 ويقلن إلكِ قد رصيتَ بيا طيل * مها مهل لكِ فى اجتنابِ الباطل
 لِيُزِلَنَّ عَلكِ هَوَاىَ ثم يَصِلْتِى * وادا هَوَيْتُ ما هَوَاىَ بَرائل
 صادت فَوادى ما تُبَيِّنُ حالكم * يومَ المَحْجُونِ وأخطأتكِ جبالى
 مَتَيْتِى فَلَوَيْتِ ما مَتَيْتِى * وجعلتِ عاحِلَ ما وعدتِ كآحل
 وتناقلتُ لما رأتِ كَلِمِى ها * أَحِبُّ الىَ ذاكِ من متناقل
 وأطعتِ فى عوادِلًا مَهْجَرْتِى * وَعَصَيْتُ بِكِ وقد جَهَدَنَ عوادلى
 حاولتِ لِأُبَيِّنَ حَلَّ وصالكم * مَتى وَلَسْتُ وإِنْ جَهَدَنَ بفاعل
 ورددتُهنَّ وقد سَعَيْنَ بهجركم * لما سَعَيْنَ لَهُ بِأَفْوَقِ مَاصِلِ ^(٢)
 يَعْصَصُصُ من عِيطِ على أَمَامًا * وَوَدِدْتُ لو يَعَصَصَنَّ صُمٌّ جَادِلِ
 ويقلن إلكِ يا بُيِّنَ مَحِلَّةً * نَفْسِى فداؤُكِ من ضييينِ باحل

وقال حميل فى وعد شبيه بالطلاق وتأخرها قصيدةً أولها :

يا صاح عى بعض الملامة أَقْصِرْ * لِمِ المُنَى لِلِغَاءِ أَمْ الْمَسْجُورِ

ومها :

وكانَ طارِقها على عَلاَ الكَرَى * والنَّجْمُ وَهّا قد دنا لَتَعَوِّرِ
 يَسْتَأْفُ ^(٣) رَيحَ مُدَامِه مَعْجُونِه * بِدَكىَ مَسكِ أو يَحْيِيقِ العَبرِ

(١) أضحى . أحمى المعوى . (٢) الأفوق . السهم الذى كمر فوقه ، وهو مشق رأس السهم حيث

يقع الوزر . واصل . لا يصل فيه . (٣) يستأف . ينم .

ومنها :

إِنِّي لَأَحْفَظُ عَيْنَكُمْ وَيُسْرَتِي * اذْ تَذْكُرِينَ بِصَالِحٍ أَنْ تَذْكُرِي
وَيَكُونُ يَوْمٌ لَا أَرَى لَكَ مُرْسَلًا * أَوْ تَلْقَى بِهِ عَلَى كَاشِهٍ
يَا لَيْتَنِي أَلْقَى الْمَيِّتَةَ مَتَةً * إِنْ كَانَ يَوْمُ لِقَائِكُمْ لَمْ يُقْدَرِ
أَوْ اسْتَطِيعَ تَجَلُّدًا عَنْ ذِكْرِكُمْ * فَيُفِيقَ بَعْضُ صَبَابِي وَتَعْمُرِي

وفيه يقول :

لَوْ قَدْ نَحْنُ كَمَا أَجَبَ مِنَ الْهَوَى * لَعَذَرْتَ أَوْ لَطَمْتَ إِنْ لَمْ تَعِذِرِ
وَاللَّهِ مَا لِلْقَلْبِ مِنْ عِلْمٍ بِهَا * عِزُّ الطُّبُونِ وَعِزُّ قَوْلِ الْخَيْرِ
لَا تَحْسَبِي أَنِّي هَمَزْتُكَ طَائِعًا * حَدَّثْتُ لَعْمُكَ رَائِعًا أَنْ تُهَجَّرِي
فَلْتَكِينِ الْبَايَاتُ وَإِلَّا أُخْ * يَوْمًا سَرَّكَ مُعْلِيًا لَمْ أُعْذِرِ
يَهْوَاكَ مَا عَشْتُ الْوُؤَادُ إِنْ أَمْتُ * بَدَعَ صَدَايَ صَدَاكِ بَيْنَ الْأَقْبَرِ
إِنِّي إِلَيْكَ بِمَا وَعَدْتُ لَسَاظِرُ * نَظَرُ الْمُقِيرِ إِلَى الْعَنَى الْمُكْثَرِ
يَعْدُ الدِّيُونَ وَلَيْسَ يُجْزَى مَوْعِدًا * هَذَا الْغَرِيمُ لَسَا وَلَيْسَ بِمُعْسِرِ
مَا أَيْتِ وَالْوَعْدُ الَّذِي تَعِدِينِي * إِلَّا كِبَرِي سَحَابَةٍ لَمْ تُنْطَرِ
قَلْبِي بَصَحْتُ لَهُ فَرْدَةً نَصِيحَتِي * فَتَى هَجْرَتِهِ هَمَّ نَكْرَتِي

وقال في إخلافها إِيَّاهُ هذا الموعد :

أَلَا لَيْتَ رِيْعَانَ الشَّبَابِ جَدِيدُ * وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُشَيْنَ يَعُودُ
فَمَنْعَنِي كَمَا كَانَا نَكُونُ وَأَنْتُمْ * قَرِيبٌ وَادٍ مَا تَذْكُرِينَ زَهِيدُ
وَمَا أَنْسَ مِلْأَشْيَاءٍ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا * وَقَدْ قَرَبْتَ نِصْوِي أَمَّهْرَ رِيدِ
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعِيُونَ الَّتِي تَرَى * أَتَيْتُكَ فَاعْذِرْنِي فَدَتْكَ جَدُودُ
حَلِيلِي مَا أَخْفَى مِنَ الْوُجْدِ ظَاهِرُ * وَدَمْعِي بِمَا قُلْتُ الْغَدَاةَ شَهِيدُ

أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ رَبَّ عَثَرِهِ * إذا الدار شَطَطَتْ بَيْنَا سَتَرِيدَ
 إذا قُلْتُ مَا بِي يَا شَيْثَةً قَاتِلِي * من الحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
 وإن قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ * مع اللّاس قَالَتْ ذَاكَ مَكَ بَعِيدُ
 فلا أَنَا مُرْدُودٌ مِمَّا حَثْتُ طَالِمًا * ولا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
 جَرَّتْكَ الْجَوَازِي يَا بَشِينَ مَلَامَةً * إذا مَا حَلِيلٌ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
 وَقُلْتُ لَهَا بَنِي وَيَسِيكَ فَاعْلَمِي * من الله مِيثَاقٌ لَهُ وَعَهْدُ
 وَقَدْ كَانُ حُبِّكُمْ طَرِيقًا وَتَالِدًا * وما الحُبُّ إِلَّا طَارِفٌ وَتَلِيدُ
 وَإِنْ عَرَّوْضُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * وإن سَهْلَتُهُ لَمَنَى لَصَعُودُ
 فَأَمِيتُ عَيْشِي بِاسْتِطَارَى وَهَلَا * وَأَبْلَيْتُ ذَاكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ
 فَلَيْتَ وَشَاةَ اللّاسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * يَدُوفُ لَمْ سُمَّا طَلِطُمُ سُودُ^(٢)
 وَلَيْتَ لَمْ فِي كُلِّ مُتَمَتِّي وَشَارِقِ * تصَاعَفُ أَكْبَالُ لَمْ وَقِيُودُ
 وَيَحْسَبُ سِوَانُ مِنَ الْجَهْلِ أَنِّي * إذا جَثْتُ لِمَا هُنَّ كَسْتُ أُرِيدُ
 فَأَقْسِمُ طَرَفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي * وفي الصَّدْرِ بَوْتُ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَ لَيْلَةً * بَوَادِي الْقُرَى إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ
 وَهَلْ أَهِيْطُنَّ أَرْضًا تَطْلُ رِيَا حُهَا * لها بِالنَّشَايَا الْقَاوِيَا وَثِيدُ^(٣)
 وَهَلْ الْقَتْنُ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً * وَمَا رَثُ مِنْ حُلِّ الصَّمَاءِ جَدِيدُ
 وَقَدْ تَلَقَى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسِيهِ * وَقَدْ تُطَلَّبُ الْحَاثُ وَهِيَ بَعِيدُ
 وَهَلْ أَزْحَرَنْ حَرَقًا عَلَاةً شِمْلَةً * بِحَرْقِ ثُبَارِيهَا سَوَاهُمُ قُودُ^(٤)
 عَلَى طَهْرٍ مَرْهُوبٍ كَأَنَّ شَوْزَهُ * إذا جَازَ هَلَاكُ الطَّرِيقِ رُقُودُ

(١) العروض الطريق في عرص الحل في مصيق . يريد الطريق الى مملها .
 (٢) يدوف : يحلط . وطاطم . جمع ططم وهو من في لسانه عجمة ، وأراد ما يطاطم ها : الموال . (٣) القاويا :
 الخاليات . (٤) الوئيد . الصوت العالي الشديد . (٥) الحرف : الناقة الصامرة الصلبة . والعلاة :
 المشرفة الصلبة . والشملة : المريمة . والحرق : الأرض الواسعة . والساهمة : الناقة الصامرة .

سَبَّحْتَنِي بِعَيْنِي جُودَرٍ وَسَطَ رَبِّ رَبِّ * وَصَدِرَ كَمَا تَوَرَّ اللَّجِينِ وَجِيدٌ ^(١)
 تَزَيْفٌ كَمَا زَاغَتْ إِلَى سِلَاحَاتِهَا * مُنَاهِيَةٌ طَلِبًا الْوُشَاحِ مَبُودٌ ^(٢)
 إِذَا حَثَّتْهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا * تَعَرَّضَ مَقْوُضُ الْيَدَيْنِ صَدُودٌ
 يَصُدُّ وَيُقِضَى عَنْ هَوَايَ وَيَجْتَنِي * دُؤُونًا عَلَيْهَا إِنَّهُ لَعَسُودٌ
 فَأَصْرِمُهَا حَوْفًا كَأَنِّي مُجَانِبٌ * وَيَمُكِّلُ عَا مَرَّةً مَعُودٌ
 مَنْ يُعْطَى فِي الدُّنْيَا قَرِيبًا كَثَلُهَا * فَدَلِكُ فِي عَيْشِ الْحَيَاةِ رَشِيدٌ
 يَمُوتُ الْمَهْزُومُ مَتَى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا * وَيَحْيَا إِذَا فَارَقَتْهَا مِعُودٌ
 يَقُولُونَ حَاحِذًا يَا جَمِيلُ نَزْوَةٍ * وَأَيُّ حِمَادٍ عِبْرَةٍ أُرِيدُ
 لِكُلِّ حَدِيثٍ يَنْهَنُ بِشَاشَةٍ * وَكُلُّ قَتِيلٍ يَبْهَرُ شَهِيدٌ
 وَمَنْ كَانَ فِي حَيٍّ بُنْيَةً يَمْتَرِي * فَبِرَقَاءِ دِي صَالٍ عَلَى شَهِيدٍ
 أَلَمْ تَعْلَمْ يَا أُمُّ دِي الْوَدْعَ أَنِّي * أَصَاحِكُ دَكَرَاكُم وَأَيْتَ صَلُودٌ

بعثت أمةً لثيمة إلى أبيها وأحبها وقالت لهما: إن حميلاً عدها الليلة، فأتياها مشتملين
 على سيمين، فرأياه جالسا منها حجرةً يحدّثها ويشكو لها به، ثم قال لهما: يا شئمة، أرايت وذي
 إياك وشقي بك ألا تنجز بيديه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحايين، فقالت له:
 يا جميل، أهدا تبعي! والله لقد كست عدى بعيداً منه، ولئن عاودت تعريضا بريئة لا رأيت
 وجهي أبداً! فصحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمتُ
 أنك تجيبيني لعلمتُ أنك تجيبين غيري، ولو رأيتُ منك مساعدةً لصبرتك بسبي هدا
 ما استمسك في يدي، ولو أطاعتني هسي لهجرتك هجرة الأبداً، أو ما سمعتِ قولي:

وَإِنِّي لِأَرْضَى مِنْ بُنْيَةٍ مَالِذِي * لَوْ أَنْصَرَ الْوَاشِي لَقَرَزْتُ بَلَايِلَهُ
 بَلَا وَمَالَا أَسْتَطِيعُ وَبِالْمُنَى * وَالْأَمَلِ الْمَرْحُوقِ قَدْ حَابَ آمَلُهُ
 وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى وَبِالْحَوْلِ يَقْصِي * أَوْ أَخْرَهُ لَا نَلْتَقِي وَأَوَائِلُهُ

(١) الماتور: الحوان من رحام أرملة أودع. (٢) في البيت إقراء، وهو اختلاف حركة الزوى

مارع والدر. (٣) زاف. يهجر. (٤) أي ماجة.

فقال أوبها لأخيها : قم بنا ، ها ينبغي لنا بعد اليوم أن ننع هذا الرجل من لقائنا
فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إِنَّ الْمَازِلَ هَيَّجَتْ أَطْرَافِي * وَأَسْتَعْجَمَتْ آيَاتُهَا بِحَوَائِي
قَفَرًا تَلُوحُ بِذِي اللَّحَيْنِ كَأَنَّهَا * أَنْصَاءُ رَسِيمٍ أَوْ سَطُورُ كِتَابٍ
لَمَّا وَقَعْتُ بِهَا الْقُلُوصَ تَادَرْتُ * مَنَى الدَّمُوعُ لِفُرْقَةِ الْأَحْصَاءِ
وَدَكَّرْتُ عَصْرًا يَا بَنِيَّةُ شَاقِي * وَدَكَّرْتُ أَيَّامِي وَشَرَحَ شَبَابِي

لَمَّا نَدَرْتُ أَهْلَ بَنِيَّةِ دَمَ جَمِيلٍ وَأَهْدَرَهُ لِمَ السُّلْطَانُ صَاقَتْ الدُّنْيَا بِجَمِيلٍ ، فَكَانَ يَصْهَرُ
الَّيْلَ عَلَى قَوْزٍ رَمَلٍ يَنْتَسِمُ الرِّيحَ مِنْ نَحْوِ حَيِّ بَنِيَّةٍ وَيَقُولُ :

أَيَا رِيحَ الشِّمَالِ أَمَا تَرَنِّبِي * أَهْمِي وَأَيُّ يَدِي الْحَوِيلِ
هَيَّ لِي تَسْمَةً مِنْ رِيحِ نَشْرِ * وَمُنَى الْمَهْبُوبِ إِلَى جَمِيلِ
وَقُولِي يَا بَنِيَّةُ حَسْبُ نَفْسِي * قَلِيلُكَ أَوْ أَقْلُ مِنْ الْقَلِيلِ

ومن قوله :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سُوءٍ أَمَّا لَهُ * لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ أَلَيْكَ رَسُولٌ
وَقَدْ قَلْتُ فِي حُجِّي لَكُمْ وَصَبَاتِي * مَحَاسِنَ شَعْرِ دَكْرَهْنٍ يَطُولُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِصَاكَ فَعَلَيْي * هُبُوبَ الصَّبَا يَأْتُنْ كَيْفَ أَقُولُ
فَمَا غَابَ عَنِ خَيَالِكَ لِحْطَةٌ * وَلَا زَالَ عَنْهَا وَالْخِيَالُ يَزُولُ

ومنه :

حَلِيلِي تُعَوِّحَا الْيَوْمَ حَتَّى تُسَلِّمَا * عَلَى عَذْبَةِ الْأَنْيَابِ طَبِيبَةِ النَّشْرِ
أَلِمَّا بِهَا ثُمَّ اشْفَعَا لِي وَسَلِّمَا * عَلَيْهَا سَقَاها اللهُ مِنْ سَائِعِ الْقَطْرِ

إذا ما دنتُ زِدْتُ اشتياقًا وإن نأتُ * حرَّعتُ لِمَا بالدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حُبَّ بثنة لم يرد * سواها وحتَّ القلب شنة لا يحدى

وفيها يقول :

سلى الركب هل غمًا لمغناك مرة * صُدور المطاما وهى مُوقرةٌ تحدى^(١)
وهل فاضتِ العينُ الشروقُ بمائها * مِن أحلكِ حنى أحصلَ من دعمها يُردى
وإني لأستحري لكِ الطبرَ حاهدًا * لتَحْرِى ثَمَنِي من لِقَائِكَ أو سَعْدِ
وإني لأستكى إذا الركبُ غَرَّدوا * بذكرالك أن يجياك الركبُ إدا يحدى
فهل تحزبى أُمِّ عمرو بودها * فان الذى أحى بها فوق ما أمدى
وكل محبٍّ لم يَرِدْ فوق عهدِهِ * وقد ردتُها فى الحتِّ مى على العهدِ

ومن قوله فيها :

لها فى سواد القلب حُبٌّ ومعةٌ * هى الموتُ أو كادت على الموتِ تُشرفُ
وما دكرتِ النفسُ يا بَشْرُ مره * من الدهرِ إلا كادت النفسُ تملفُ
وإلا اعترتْ زَفرةٌ واستكانةٌ * وحاد لها سَحْلٌ من العينِ يذرفُ
وما استطرفتِ نفسى حديثًا حليلةً * أُسْرُبه إلا حديثك أطرفُ

وأقول هذه القصيدة .

أَمِنْ مَزلٍ فقيرٍ تعفَّتْ رِسومُهُ * شَمَّالٌ تُعَادِهِ وبكاءُ حَرْحَفٍ^(٢)
فأصبحَ فقيرًا بعد ما كانَ أَهْلًا * وَجُمْلُ المُنَى تَشْتَوِ بِهِ وَصِيفُ
ظَلَيْتُ وَمُسْتَرْ من الدمعِ هَامِلٌ * من العينِ لما عَفْتُ بالدار نِزِفُ
أَمْنِصِفِي جَمْلَ فَعْدِلَ بَيْنَا * إذا حَكَمْتُ والحاكمُ العَدْلُ يُصِفُ
تَعْلَقَتْهَا والجِسْمُ منى مَصْحَحٌ * فما زالَ يَتَمَنَّى حُبَّ جَمِيلٍ وَأَصْعَفُ

(١) موقرة . محملة الوقور وهو الحمل . وحدى العبري يحدى أسرع ورح قوائمه .

(٢) الحرف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُلَّ حَسْمِي وَشَفَّنِي * وَأَنْكَرْتُ مِنْ نَفْسِي الَّذِي كُنْتُ أَعْرِفُ
 قَاءً مِنَ الْمَزَانِ مَا هُوَ حَقُّهَا ^(١) * وَمَا تَحْتَهُ مِنْهَا تَقًا يَتَقَصَّفُ ^(٢)
 لَهَا مُقَلَّتَا رِيمٍ وَجِيدٌ جَدَايَةٍ ^(٣) * وَكَشَّحْتُ كَطَيَّ السَّابِرِيَّةِ أَهْيَفُ
 وَلَسْتُ بِبَاسٍ أَهْلَهَا حِينَ أَقْبَلُوا * وَجَالُوا عَلَيَا مَالِ السِّيُوفِ وَطَوَّفُوا
 وَقَالُوا بِحَمِيلٍ مَاتَ فِي الْحَيِّ عَدَا * وَقَدْ حَارَدُوا أَسْيَافَهُمْ ثُمَّ وَقَفُوا
 وَفِي الْبَيْتِ لَيْثُ الْعَابِ لَوْلَا مَخَافَةُ * عَلَى نَفْسِ حَمِيلٍ وَالْإِلَهِ لِأَرْعَعُوا
 مَمَمْتُ وَقَدْ كَادَتْ مَرَارًا تَطْلُعُ * إِلَى حَرْبِهِمْ نَفْسِي وَفِي الْكَفِّ مُرْهَفُ
 وَمَا سَرَّتْنِي غَيْرُ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ * وَمَنِي وَقَدْ حَاءُوا إِلَيَّ وَأَوْجَعُوا
 فَمَكْمُ مُرْتَجِحٍ أَمْرًا أُتَبِعُ لَهُ الرَّدَى * وَمِنْ حَائِفٍ لَمْ يَنْتَقِصْهُ التَّحَوُّفُ
 مِنْهَا :

أَنْ هَمَمْتُ وَرَقَاءُ طَلَّتْ سَفَاهَةً * تُكَيُّ عَلَى حَمِيلٍ لُورِقَاءُ تَهْتَفُ
 فَلَوْ كَانَتْ لِي بِالصَّرْمِ بِاصْبَاحِ طَاقَةً * صَرَمْتُ وَلَكِنِّي عَنِ الصَّرْمِ أَصْعَفُ

قيل : إن مروان طلب الى حميل أن ينزل فيبرج به ، وهو يريد أن يمدحه ، فبرل
 حميل فقال .

أَمَا بِحَمِيلٍ فِي السَّامِ الْأَعْظَمِ : الْعَارِجُ الْبَاسِ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ
 أَحْيَى ذِمَارِي وَوَجَدْتُ أَقْرَمِي ^(٤) * كَانُوا عَلَى عَارِبٍ طَوْدٍ حَصْرَمِ ^(٥)
 * أَعْيَا عَلَى الْبَاسِ فَلَمْ يُهْزَمِ *

فقال : عَدَّ عَنْ هَذَا ، فَقَالَ بِحَمِيل :

لَهْفًا عَلَى الْبَيْتِ الْمَعْدَى لَهْفًا * مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ قَدْ اسْتَكْفَا
 وَلَوْ دَعَا اللَّهَ وَمَدَّ الْكَمَا * لَرَجَعَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ رَجْفًا

(١) الحقو : الحصر . (٢) يتقصف ويتقطع بضمه عن مصر . (٣) الهداية :
 المرأة . والساير : ثوب من أحوال الثياب منسوب الى ساور على غير قياس . (٤) يرحره : ينشده
 أرحوزة . . (٥) أقرم : جمع قرم (المنج) وهو السيد العظيم . (٦) حصرم : عظيم .

وطلب ذلك اليه الوليد فقال :

أنا جميلٌ في السَّامِ من مَعْدُ * في الذروة العليا والركن الأشدُّ
والبيت من سعد بن زيد والعددُ * ما يتنى الأعداءُ مئى ، ولقد
أُصِرَّيَ بالشَّتمِ لسائى ومَرَدُ * أفودُ من شئتُ وصَغْبُ لم أَقْدُ
فقال له الوليد : اِرْكَبْ لاجلِكَ الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل في مُرَاجِرَةِ جَوَّاسِ بْنِ قُطَيْبَةَ ، وكان ذلك بوادى القُرَى .

يا أُمَ عبدِ المَلِكِ أَصِرْ مِني * فَبَيَّنِي صِرْمِي أَوْ صِلِينِي
أُنْكِ وما يُدْرِيكَ ما يُكْبِي * أَبْكِ حِذَارَ أُنْ تُفَارِقِينِي
وتَعْمَلِي أَسَدَ مَنِي دُونِي * إِنْ بَجِي عَمَّكَ أَوْ عَدُونِي
أَنْ يَقْطَعُوا رَأْسِي إِذَا لُقُونِي * وَيَقْتُلُونِي ثُمَّ لَا يَدُونِي ^(١)
كَلَّا وَرَبَّ الْبَيْتِ لَوْ لُقُونِي * شَفَعًا وَوَتْرًا لَتَوَاكَلُونِي ^(٢)
قَدْ عَلِمَ الْأَعْدَاءُ أَنَّ دُونِي * صِرْبًا كَأَيِّزِ الْخَاصِ الْجُونِ ^(٣)
أَلَا أَسْتُ الْقَوْمِ إِذَا سُونِي * نَلَى وَمَا مَرَّ عَلَى دِينِ
وَسَاجِدَاتٍ يَلْوِي الْمُخُونِ * قَدْ جَرَّبُونِي ثُمَّ جَرَّبُونِي
حَتَّى إِذَا شَاوُوا وَشَيَّبُونِي * أَنْزَاهُمُ اللَّهَ وَلَا يَحْزُونِي
أَشْبَاهَ أَعْيَارٍ عَلَى مَعِينِ * أَحَسَّنَ حَسَ أَسَدِ حَرُونِ
فَهَنَ يَضْرِبُنَ مِنَ الْبَقِيرِ * أَنَا جَمِيلٌ فَتَعَرَّفُونِي
وَمَا تَقَعَّتْ فَتَنُكُرُونِي * وَمَا أُعْنِيَكُمْ لَتَسَالُونِي

(١) يدونى : من الدية وهي ما يعطى لولى القاتل من المال بدل العسر . (٢) تواكلونى . تركونى .

(٣) أوردت الياقوتة سولها . رمت به دعة دعة . ومه الطعمة تورع بالدم أى ترى به كذلك .

أُمِّي إِلَى عَادِيَّةٍ طَحُونُ * يَنْشَقُّ عَنْهَا السَّيْلُ ذُو الشُّوْنِ
عَمْرُؤُفُ رُحَّ السَّيْمِينِ * ذُو حَدَدٍ إِذَا يَرَى جَحُونُ^(٢)
* تَحَلُّ أَحْقَادُ الرِّجَالِ دُونِي *^(٣)

ومن قوله يمدح أخواله من جُدام :

حُدَامُ سِيُوفِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنِ * إِذَا أَزِمْتُ يَوْمَ اللِّقَاءِ أَزَامُ^(٤)
هُمْ مَسْعُوا مَا بَيْنَ مِصْرَ فِدَى الْقُرَى * إِلَى الشَّامِ مِنْ حِلٍّ بِهِ وَحَرَامِ
نَصْرِي يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَنَاتِهِ * وَطَعْنٍ كَأِزْزَاعِ الْخِطَافِ تُؤَامِ
إِذَا قَصُرْتُ يَوْمًا أَكُفُّ قَبِيلَةَ * عَنْ الْمَجْدِ نَالَتْهُ أَكُفُّ جُدَامِ

اجتمع جميل وعمرس أبى ربيعة بالأطح، فأنشده جميل قصيدته :

لَقَدْ فَرِحَ الْوَأَشُونُ أَنْ صَرَمْتَ حَنِي * بُثْنَةً أَوْ أَبَدْتَ لَنَا جَانِبَ الْخُلِ
يَقُولُونَ مَهْلًا يَا جَمِيلَ وَإِنِّي * لَأُقْسِمُ مَا بِي عِشْبَةً مِنْ مَهْلِ
أَحِلًّا فِقْبَلُ الْيَوْمِ كَانَ أَوَانُهُ * أَمْ أَخْشَى فِقْبَلُ الْيَوْمِ أُوْصِدْتُ بِالْقَتْلِ
لَقَدْ أَنْكَحُوا حَرْبِي نُبَيْهَا طَعِينَةَ * لَطِيفَةَ طَى الْبَطْنِ ذَاتِ شَوَى جَرَلِ
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا سَاعِيًا بِمِيمَةٍ * لَأَخْرَجُ لَمْ يَعْمِدْ نَكْفٌ وَلَا رَجَلِ
إِذَا مَا تَرَجَعْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بَشِيَّةً بِالْكُمَلِ
كَلَانَا بَنَى أَوْ كَادَ بَيْنِي صَبَابَةً * إِلَى الْفَيْهِ وَأَسْتَعَجَلْتُ عَبْرَةً قَبْلِي
فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَسْتُهَا * وَلَكِنْ طَلَّابِيهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي
فَيَا وَخْ نَفْسِي حَسْبَ نَفْسِي الَّذِي بَهَا * وَيَا وَيْحَ أَهْلِي مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي
وَقَالَتْ لَا تُرَابٍ لَهَا لَا زَعَافٍ * قِصَارُ وَلَا كُفْسُ الثَّنَايَا وَلَا تُعْلِلِ^(٥)

(١) يرف . يجعلها تسرع . (٢) ذو حداد . دو موح . (٣) حوون : موح .

(٤) أرمت . اشتدت . (٥) الكس مسخرة : قصر الأسان أو صعرها أو لصوقها مسوغها .

نعلت سه ولته هي نعلاء : تراكت أسانها .

ادا حَيْثُ شَمْسُ الْهَارِ أَتَقِيهَا * ناكِيةً الدِّبَاجِ وَالخَزْدَى الْخَمَلِ
 تَدَاعَيْنِ فَاسْتَعْجَمْنَ مَشْيًا بَدَى الْعَصَى * دَيْبُ الْقَطَا الْكَذْرَى فِي الدَّمْتِ الْبَسَلِ
 ادا آرْتَعْنَ أَوْ فَرَعْنَ فَنَ حَوَالَهَا * قِيَامَ سَاتِ الْمَاءِ فِي حَانِبِ الصُّحْلِ^(٢)
 أَجْدَكَ لَا أَلْقَى ثُنِينَ مَرَّةً * مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا حَانِئًا أَوْ عَلَى رَجُلٍ
 حَلِيلِي فَيَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا * قَتِيلًا نَكِي مِنْ حَبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي
 أَيْتُ مَعَ الْمُهْلَاكِ صَبَقًا لِأَهْلُهَا^(٣) * وَأَهْلِي قَرِيبِ مُوسِعُونَ دَوُو فَصْلٍ
 أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الْوَدَى حِيلَ دُونَهُ * يَا أُمَّتَ مِنْ بَيْتِي وَأَهْلِكَ مِنْ أَهْلِي
 ثَلَاثَةُ أَبْيَاتٍ فَبَيْتُ أَحَبَّهُ * وَبَيْتَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلَا شَكْلِي

وقال في هجرته إياها بنية :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّعَّ الْقَوَاءَ فَيَطِيقُ * وَهَلْ تُحَرِّنُكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمَلِ^(٤)
 وَقَعْتُهَا حَتَّى تَحُلَّتْ عَمَائِي * وَمَلَّ الْوُقُوفَ الْأَرْحَى الْمُتَوَقِّ^(٥)
 تَعَزَّوْا وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَرِيمَةٌ * لَعَلَّكَ مِنْ رِقِّ لَبَنَةٍ تُعْتَقُ
 لَعَمْرُكَ إِنْ الْعَادَ لَشَانِقِي * وَبَعْضُ بَعَادِ الْبَيْتِ وَالْبَايَ أَشَوْقُ
 لَعَلَّكَ مَحْزُونٌ وَمُنْدٍ صَابَةٌ * وَمُظْهَرُ شَكْوَى مِنْ أَنْاسٍ تَفَرَّقُوا
 وَبَيْصُ غَيْرِي رَأَيْتُ نَدَى خُصُورِهَا * إِذَا فُئِنَ أَعْجَارٌ ثِقَالٌ وَأَسْوَقُ
 عَزَائِرُ لَمْ يَلْقَيْنِ نَوْسَ مَعِيشَةٍ * يُحَيِّنُ بَهْرَتِ السَّاطِرِ الْمُتَوَقِّ^(٦)
 وَغُلْغُلْتُ مِنْ وَجْدٍ إِلَيْهِنَّ بَعْدَ مَا * سَرَيْتُ وَأَحْشَانِي مِنَ الْخُوفِ تَحَقُّقُ
 مَعِيَ صَارِمٌ قَدْ أَحَاصَ الْقَيْنُ صَقْلَهُ * لَهُ حِينَ أُعْشِيهِ الصَّرِيَّةَ رَوْنُ
 فَلَوْلَا أَحْتِيَالِي صِبْغَنَ دَرْعًا بَزَائِرِ * بِهِ مِنْ صَابَابَاتٍ إِلَيْهِنَّ أَوْلَقُ^(٦)

(١) سَاتِ الْمَاءِ . مَا يَأْلِفُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَكِ وَالطَّيْرِ وَالصَّاعِدِ (أَطْرَافُ الْمَصَافِ وَالْمَصَافِ إِلَيْهِ) .

(٢) الصُّحْلُ . الْمَاءُ الْقَلِيلُ عَلَى الْأَرْضِ لَا عَمَقَ لَهُ . (٣) الْهَلَاكُ : الصَّالِكُ . (٤) السَّمَلُ :

الْقَاعُ الصَّفْصَفُ . (٥) الْأَرْحَى : الْعَجَلُ الْعَجِيبُ سَمِعْتُ إِلَى أَرْحَبَ وَهِيَ قَبِيلَةٌ مِنْ هَمْدَانَ تَسَبُّ

إِلَيْهَا الْعَائِلَةُ الْأَرْحِيَّةُ . وَالْمَتَوَقِّ : الْمَحْسُوسُ الْمَرِيدُ . (٦) أَوْلَقُ : حَوَنُ .

تَسُوكُ قُضْبَانِ الْأَرَاكِ مُفْلَحًا * يُسَعِّعُ فِيهِ الْفَارِسِيُّ الْمُرُوقَ
 أَنْشَةَ لِلْوَصْلِ الذِي كَانَ بَيْنَنَا * بَصَا مِثْلَ مَا يَنْصَوِ الْحَصَابَ فَيَحْطِقُ
 أَنْشَةَ مَا تَبَايَرَ إِلَّا كَأَنِّي * بِحُجْمِ الثَّرِيَا مَا نَايَتْ مُعَلَّقُ
 قَالَ الرَّشِيدُ لِإِسْحَاقَ الْمُوصِلِيَّ : أَنَشِدْنِي أَحْسَنَ مَا تُحِبُّ فِي عَنَابِ مُحِبٍّ وَهُوَ طَالِمٌ
 مَتَعَّبٌ ، فَأَنَشَدَهُ قَوْلَ جَمِيلٍ :

رَدِ الْمَاءَ مَا حَادَثَ بَصْفُودَنَاثُهُ * وَدَعَهُ إِذَا خِصَّتْ بِطَرَقِ مَشَارُهُ ^(١)
 أَعَابُ مَنْ يَحْلُو لَدَى عَنَابِهِ * وَأَتْرَكُ مَنْ لَا أَشْتَهِي وَأَحَابُهُ
 وَمَنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَتَمْتَ طَالِمًا * عَاقُكَ مَظْلُومًا وَأَتَّ تَعَاتِبُهُ
 وَمِنْ قَوْلِهِ فِي زِيَارَةِ لَهُ :

زُورًا بَشِيَّةً فَالْحَبِيبُ مَزُورُ * إِنِ الزِّيَارَةُ لِلْحَبِيبِ يَسِيرُ
 إِنِ التَّرَحُّلُ أَنْ تَلْبَسَ أَمْرًا * وَأَعْتَقْنَا قَدَرًا أَحْمَ مَكُورُ
 إِلَى عَشِيَّةٍ رُحْتُ وَهِيَ حَرِينَةٌ * تَشْكُو إِلَى صَابَةِ لَصُورُ
 وَتَقُولُ بَنِي عَدَى وَدَيْتُكَ لَيْلَةً * أَشْكُو إِلَيْكَ فَإِنْ دَاكَ يَسِيرُ
 عَرَاءُ مَسَامٍ كَأَنَّ حَدِيثَهَا * دُرٌّ تَحْتَدِرُ نَظْمُهُ مَثُورُ
 مَخْطُوطَةُ الْمَتْنَيْنِ مُصَمَّرَةُ الْحَشَى * رِيًّا الرُّوَادِفِ حَلَقُهَا تَمَكُورُ ^(٢)
 لَا حُسْبِيَا حُسْنٌ وَلَا كَدَالَهَا * دَلٌّ وَلَا كَوَقَارَهَا تَوْقِيرُ
 إِنِ السَّانَ بَذَرَهَا لَمَوْكَلٌ * وَالْقَلْبُ صَادٍ وَالْخَوَاطِرُ صُورُ
 وَإِنْ حَرِيتِ الْوَدَّ مَنَى مِثْلَهُ * إِنِّي بِدَلِّكَ يَا سَيِّدِي جَدِيرُ

وَعَدَلَهُ فِيهَا أَبْنُ عَمِّهِ رَوْقٌ ، فَقَالَ :

لَقَدْ لَامَنِي فِيهَا أَحْ ذُو قَرَابَةٍ * حَبِيبٌ إِلَيْهِ فِي مَلَامَتِهِ رُشْدِي
 وَقَالَ أَوْقِ حَتَّى مَتَى أَنْتَ هَائِمٌ * بَشِيَّةً فِيهَا قَدْ تُعِيدُ وَقَدْ تُنْشِدِي

(١) الطَّرَقُ الْمَاءُ الَّذِي حَوْصَهُ الْأَدْلُ وَتَوَلَّتْ فِيهِ وَصَرَتْ .

(٢) مَخْطُوطَةُ الْمَتْنَيْنِ مَمْدُودَتُهُمَا . وَالْمَكُورَةُ : الْمَطْوِيَّةُ الْحَلْقُ .

فقلتُ له فيها قصي الله ما ترى * على وهل فيما قصي الله من رَدِّ
فإن بك رُشدًا حبها أو عَوَايَةً * همد حُتُّه، ما كان مني على عَمْدٍ
لقد بَلَغَ ميثاقُ من الله بيننا * وليس لمن لم يُوفِ الله من عَهْدٍ
فلا وأبها الحَيْرُ ما خُتَّ عَهْدُهَا * ولا لي عِلْمٌ بالذي فعلتُ بعدى
وما رادها الواثُون إلا كرامةً * على وما زالت مَوَدَّتُها عدى
أى الناس أمثالى أَحَبَّ لِحَالِهِمْ * كحالى أم أَحَبَّتْ من بينهم وحدى
وهل هكذا يَلْقَى المحيَّون مثل ما * لَقِيتُها أم لم يَجِدْ أَحَدٌ وحدى

وقال فيها :

حليلى عوِحا اليومَ حتى تُسَلِّمًا * على عَذْبَةِ الأَنْيَابِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
ألياً لها ثم أَشْفَعَا لي وَسَلِّمًا * عليها سَقَاها الله من سَائِعِ القَطْرِ
وَبُوحَا مذكرى عِدَّةٍ شَتَا وَأَنْظُرَا * أترتاح يوماً أم تَهْشَى إلى دَكْرَى
فإن تلك لم تقطع قُوَى الودِّ بيننا * ولم تَسْ ما سَلَفْتُ في سَالَفِ الذَّهْرِ
فكيف يُرى منها أَشْتِيَاقٌ وَلَوْعَةٌ * بَيْنِي وَعَرَّتْ من مدامعها يَحْرَى
وإنَّكَ قد حَالَتْ عَنِ العَهْدِ عَدْنَا * وَأَصَعْتُ إلى القَوْلِ المؤنَّبِ والمُزْرَى
فصوف يُرى منها صُدُودٌ ولم تكن * - بِنَفْسِي - من أهلِ انْخِلَايَةِ والعَدْرِ
أعوذُ بك اللَّهُمَّ أَنْ تَشْحَطَ الْوَى * بثَنَةِ في أدنى حَيَاى ولا حَشْرَى
وَجَاوِزَ إذا مَا مِثَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * فيا حَدَا مَوْتِي إذا حَاوَرْتُ قَرَى
عَدِمَتِكَ من حُبٍّ أَمَا مِنْكَ رَاحَةٌ * وما بك عَنِّي من تَوَانٍ ولا قَتَرٍ
ألا أيها الحبُّ المَبْرُحُ هل ترى * أَمَا كَلَيْفَ يُغْرَى بِحَبٍّ كَمَا أُغْرَى
أَجِدُّكَ لَا يَتَلَّى وقد بَلَى الهوى * ولا يَنْتَهَى حَتَّى شَبَنَةَ للزُّخْرِ

(١) هكذا وردت «مكيب» ولعلها صوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

فَفِي تَسْلُ عَكَ النَّفْسُ بِالْخَطَّةِ الَّتِي * تُطِيلُ تَحْوِيفِي بِهَا وَوَعِيدِي
فَقَدْ طَالَمَا مِنْ عَيْرِ شَكْوَى قَبِيحَةٍ * رَصِيحًا بِحُكْمِ مَكٍّ غَيْرِ سَدِيدِ

ومنه :

شُيِّنَ سَلِيلِي بَعْضَ مَالِي فَإِنَّمَا * بَيْنَ عَدِّ الْمَالِ كُلِّ بِحِيلِ
إِنِّي وَتَكَرَّرَ الرِّبَاةُ بِحُكْمِ * لَيْتَ نَدَى هَجَرِ شَيْئٍ طَوِيلِ
فِيالَيْتِ شَعْرِي هَلْ تَقُولِينَ بَعْدًا - إِذَا نَحْنُ أَرْمَعْنَا عَدًّا لِرَحِيلِ
أَلَا لَيْتَ أَيَّامًا مَضَيْنَ رَوَاجِعُ * وَلَيْتَ النَّوَى قَدْ سَاعَدَتْ بِحِيلِ

ومنه :

أَتَمَحَبُّ أَنْ طَرِئْتُ لَصَوْتِ حَادٍ - حَادًا بُزْلًا يَسْرُنَ بِطَيِّ وَادٍ
فَلَا تَمَحُبْ إِذَا الْهَيْتَ أُمْسَى - لَشَيْءٍ فِي السَّوَادِ مِنَ الْهَوَادِ

ومنه :

حَلِيلٌ عَوْحًا بِالْحَلَّةِ مِنْ جُحْلِ - وَأَتَرَاهَا بَيْنَ الْأَصْفَرِ وَالْخَلِيلِ
تَقِفْ بِمَفَانٍ قَدْ مَحَا رَسْمَهَا إِلَيَّ * تُعَاقِبُهَا الْأَيَّامُ بِالزَّيْجِ وَالْوَبْلِ
هَلْ وَدَّرَحَ الْفُلُ الصِّغَارُ بِحِلْدِهَا * لِأَنْدَبَ أَعْلَى جِلْدِهَا مَدْرَحُ الْفُلِ
وَأَحْسَنَ خَلَقَ اللَّهُ حَيْدًا وَمُقَلَّةً * تُشَبِّهُ فِي النَّسْوَانِ بِالشَّادِنِ الْفُلِ^(١)

ومن قوله :

أَمِنْكَ سَرَى يَا نَثْنُ طَيْفٍ تَأْوَمَا * هُدُوءًا فَهَاجَ الْقَلْبَ شَوْقًا وَأَنْصَبَا
عَمِيتُ لَهُ أَنْ زَارَنِي الْيَوْمَ مَصْجَعِي - وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِظًا كَانَتْ أَعْجَابَا

لَمَّا قَدِمَ بِحَمِيلٍ مِنَ الشَّامِ بَلَغَ بَشِينَةَ حَبْرِهِ ، فَرَأَسَلَتْهُ مَعَ بَعْضِ نِسَاءِ الْحَيِّ تَذَكُّرُ شَوْقِهَا
إِلَيْهِ وَوَجَدَهَا بِهِ ، وَطَلَبَهَا لِلْحَيْلَةِ فِي لِقَائِهِ ، وَوَعَدَتْهُ لِمَوْصِعٍ يَلْتَقِيَانِ فِيهِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا وَحَدَّثَهَا

(١) الطلل : الرحمس الناعم من كل شيء .

طويلاً وأخبرها خبره بعدها ، وقد كان أهلها رَصَدوها ، فلما فَقَدوها تَبِعَها أبوها وأحوها حتى هجا عليهما ، فوثب جميلٌ فانتصى سيفه وشد عليهما ، فأَتَقِيَاهُ بالحرب ، واشدتهُ بشيةُ الله إلا أنصرف ، وقالت له : إن أَقَمْتَ فصحتي ، ولعلَّ الحى يَلْحَقُوكَ ، فأبى وقال : أنا مقيمٌ وأمضى أنتِ وليصنعوا ما أَحَبُّوا ، فلم تزل تَتَأَسَّدُ حتى أنصرف وقال فى ذلك ، وقد هجرته وأقطع التلاقى بينهما مدة :

هى الدرُّ حسناً والنساءُ كواكبٌ * وشتان ما بين الكواكب والدر
لقد فُصِّلَتْ حسناً على الناس مثل ما * على ألف شهر فُضِّلَتْ ليلةُ القدر

وقال :

لقد خِفْتُ أن يغتالنى الموتُ عَنَوَةً * وفى النفس حاجاتُ اليك كما هِياً
وإنى لثُبِّينى الحفيظةُ كلَّما * لِقَيْتُكَ يوماً أب أبْتُكَ ما يـاً
ألم تعلمى ياعدبَةَ الرِّيقِ أنى * أَظَلَّ إذا لم أُسْقَ ريقك صَاديـاً

ورحل الى مصر فأدركته بها منيته ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صَدَعَ البعُى وما كُنْى بِجَمِيلٍ * وثوى بمصر ثَوَاءً عيرِ قُفُولٍ
واقْدَ أَجْرَ الذِّلِّ فى وادى القرى * نَشْوانَ بين مزارع ونَحِيلٍ
قوى بشية فأندبى بِعَوِيلٍ * وأبكى حليلك دون كلِّ حليلٍ

ولما أُشِيدَتْ بشية قول جميل قالت :

وإن سُلوَى عن جميل لساعةٌ * من الدهر ما حانت ولا حانَ حِيهاُ
سَواءٌ علينا يا جميلَ بن مَعْمَرٍ * إذا مَتَّ بأَساءَ الحياةِ وإيهاُ

وقال :

رَحَلَ الخَلِيطُ جِمالهم بسُود * وَحَدَا على أثرِ البَخيلةِ حادى
ما إن شَعَرْتُ ولا سَمِعْتُ بَيْنَهُم * حتى سمعت به الغراب ينادى

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَيْنَ قُلْتُ لِصَاحِبِي * صَدَعَتْ مُصَدَّعَةُ الْقُلُوبِ فَوَادِي
نَانُوا وَعُودِرَ فِي الدِّيارِ مُتَمِّمٌ * كَلَّفَ مَذْكَرِكَ يَا بَثْنَةَ صَادِي

وقال أيضا :

حَلِيلِي هَلْ فِي نَظْرَةٍ مَعْدُ تَوْبَةٍ * أَدَاوِي بِهَا قَلْبِي عَلَى جُحُورٍ
إِلَى رُجْحِ الْأَكْمَالِ هَيْبَ حُصُورِهَا * عَذَابِ النَّسَايَا رِيْقُهُنَّ طُهُورُ
تَدَكَّرْتُ مَنْ أَصَحَّتْ قُرَى اللَّذِّ دُونَهُ * وَهَضْبُ لَيْتِيَا وَالْهَضَابُ وَعُورُ
فَطَلْتُ لَيْسِيكَ الْجُوحَيْنِ عَبْرَةً * يَهْجِجُهَا بَرْجُ الْمَوَى قَتْمُورُ
عَلَى أَنْيِ الْمَبْرَقِ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهَا * إِذَا قَصُرَتْ عَهْدَ الْعَيُونِ بَصِيرُ
وَأَيُّ إِذَا مَا الرِّيحُ يَوْمًا تَسَمَّتْ * شَامِيَّةٌ عَادَ الْعِطَامُ قُنُورُ
أَلَا يَا عَرَابَ الْبَيْتِ لَوْ أَنَّكَ شَاحَتْ * وَأَنْتَ بَرَوَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرُ
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ فَاصْبَحْتُ * هُمُومُكَ شَتَّى وَالْجَاحُ كَبِيرُ
وُدَّرْتَ نَاعِدَاءَ حَبِيكَ فِيهِمْ * كَمَا قَدْ تَرَانِي مَالِحِبِ أَدُورُ
وَكَيْفَ نَاعِدَاءَ كَأَنَّ عَيُونَهُمْ * إِذَا حَابَ لَيْتَانِي بُثْنَةَ عُورُ
فَإِنِّي وَإِنْ أَصَحْتُ مَالِحِبَ عَالِمَا * عَلَى مَا نَعَيْتَنِي مِنْ قَدَى نَحِيرِ

وله أيضا :

فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا شَيْئَةً تَنْتَحِي * يَمِينِي وَلَوْ عَزَّتْ عَلَى يَمِينِي
لَأَعْطَيْتُهَا مَا حَاءَ نَتْنِي رَسُولُهَا * وَقُلْتُ لَهَا مَعْدُ الْهَيْمِ سَلِيلِي
سَلِيلِي مَالِي يَا بَثْنَةَ فَايَمَا * يُبَيِّنُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ ضَبِينِ
فَمَا لَكَ لَمَّا حَبَرَ النَّاسُ أَنْي * أَسَأْتُ نَظْهَرَ الْغَيْبِ لَمْ تَسَلِيلِي
فَأَنْتِ عُدُّرَا أَوْ أَجَىءَ بِشَاهِدِ * مِنَ النَّاسِ عَدْلٍ أَنَّهُمْ ظَلَمُونِي
وَلَسْتُ وَإِنْ عَرَّتْ عَلَى قَائِلِ * لَهَا بَعْدَ صَرِيمِ يَا بَثْنَةَ صَالِيلِي

وَبُنْتُ قوماً مِثْلَكَ قَدْ تَدْرُوا دَمِي * فليت الرجال المؤعدين لقوفى
إذا ما رأوني مُقْبِلًا عَن حَيَاتِي * يقولون مَنْ هَذَا وَقَدْ عَرَفُونِي

وله أيضا :

تَأْدَى آلُ بَنِيهِ بِالرَّوَّاحِ * وَقَدْ تَرَكُوا فُؤَادَكَ عَرَصًا
فِيَالِكَ مَنْظَرًا وَمَسِيرَ رَكْبٍ * تَتَحَانَى حِينَ أَمْعَنَ فِي الْقِيَاحِ
وَيَالِكَ حُلَّةً طَفِرَتْ بِعَقْلِي * كَمَا طَفِرَ الْمُقَامِرُ بِالْقِدَاحِ
أُرِيدُ صِلَاحَهَا وَتُرِيدُ قَتْلِي * فَشَتَّى بَيْنَ قَتْلِي وَالصِّلَاحِ
لَعَمْرُ أَيْبِكَ لَا تَحِيدِينَ عَهْدِي * كَعَهْدِكَ فِي الْمَوَدَّةِ وَالسَّامِاحِ
وَلَوْ أُرْسَلْتِ تَسْتَهْدِينَ نَفْسِي * أَنَاكِ بِهَا رَسُولُكِ فِي سَرَاحِ

وله أيضا :

فَإِنْ يَكُ جُثَايَ بَارِصَ سِوَاكُمْ * فَإِنْ فُؤَادِي عَسَدُكَ الدَّهْرَ أَجْمَعُ
إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو وَأَحْتَرِي * عَلَى صِرْمِهَا ظَلَّتْ لَهَا النَّفْسُ تَشْفَعُ
وَإِذَا رُمْتُ نَفْسِي كَيْفَ آتَى لَصْرْمِهَا * وَرُمْتُ صَدُودًا ظَلَّتْ الْعَيْنُ تَدْمَعُ

وله أيضا :

أَلَمْ تَعْلَمِي بِأَعْدَةِ الْمَاءِ أَنِّي * أَطَّلْتُ إِذَا لَمْ أُسْقَ مَاءُكَ صَادِيَا
وَمَا زِلْتِ بِي يَأْتِي حَتَّى لَوْ آسَى * مِنَ الْوَحْدِ أَسْتَسْكِي الْحَمَامَ بَكِّي لِيَا
وَدِدْتُ عَلَى حُبِّ الْحَيَاءِ لَوَ أَنَا * يُزَادُ لَهَا فِي عَمَرِهَا مِنْ حَيَاتِيَا

وله أيضا :

وَقُلْتُ لَهَا أَعْتَلَّتْ بَعِيرُ ذَنْبٍ * وَشَرُّ النَّاسِ ذُو أَلْعُلِّ الْبَحِيلِ
فَقَاتِنِي إِلَى حَكَمٍ مِنْ أَهْلِي * وَأَهْلِكَ لَا يَجِيفُ وَلَا يَمِيلُ
فَقَالَتْ أَبْتَنِي حَكَمًا مِنْ أَهْلِي * وَلَا يَذْرَى بَنَى آلِوَانِي الْخَوَلِ
فَوَلَّيْنَا الْحُكُومَةَ ذَا مُجْجُوفٍ * أَحَا دُنْيَا لَهُ طَرَفٌ كَكَلِيلِ

فقلنا ما قَصَيْتَ به رَصِيحا * وأنت بما قَصَيْتَ به كَفِيل
 قضاؤك مامد فأحكم عليا * بما تهوى ورأيك لا يَفِيل
 فقلت له قُتِلْتُ بغير جُرم * وعِبُّ الظلم مَرْتَعَهُ وَيَل
 فَسَلْ هَذِي متى تَقْصِي دُيُونِي * وهل يَقْصِيكَ ذُو الْعِلَلِ الْمُطُول
 فقالت إن ذا كَيْدٍ وَطَلَّ * وَشَرُّ مَنْ خُصِمَتِ طَوِيلُ^(١)
 أَقْتَلُهُ وَمَالِي مِنْ سِلَاح * وما بِي لو أَقَاتِلُهُ حَوِيلُ^(١)
 ولم أَحْضِدْ لَهُ مالا فَيُلْقِي * له دَيْنٌ عَلَى كَمَا يَقُول
 وعند أميرنا حُكْمٌ وَعَدْل * ورأى بعد ذلكُ أَصِيل
 فقال أميرنا هاتوا شهودا * فقلت شهيدنا الملك الجليل
 فقال يَمِيحُهَا وبذاك أَقْصَى * وكلُّ قِصَانِهِ حَسٌّ جَمِيل
 فَبَتُّ حَلْفَةً مَالِي لَدِيهَا * بَقِيرٌ أَدْعِيهِ وَلَا قَتِيل
 فقلت لها وقد عَلِبَ التَّعْزَى * أما يَقْصِي لَهَا يَا بَشَّ سُوْلُ
 فقالت ثم زَجَّتْ حَاجِبِيهَا * أَطَلَّتْ وَلَسَتْ فِي شَيْءٍ تُطِيل
 فلا يَحْدِثُكَ الْأَعْدَاءُ عَدَى * فَتَشْكَلَنِي وَإِيَّاكَ التَّكْوَل

وله أيضا :

حَلَفْتُ يَمِيحًا يَا بُنْيَّةُ صَادِقًا * وإن كُنتُ فِيهَا كَاذِبًا فَعَمِيْتُ
 إِذَا كَانَ جِلْدُ عَيْرِ حِلْدِكَ مَسْنِي * وَاشْرَبِي دُونَ الشَّعَارِ شَرِيْتُ^(٢)
 ولو أن رَاقِي المَوْتِ يَرْتِي حَازِي * بِمَنْطِقِهَا فِي النَّاطِقِينَ حَيِّتُ

وقال أيضا :

فقد لَانَ أَيَّامُ الصَّبَا ثُمَّ لَمْ يَكْد * مِنَ الدَّهْرِ شَيْءٌ بَعْدَهُنَّ يَلِينُ
 طَعَانُنْ مَا فِي قُرْبَيْنِ لَذِي هَوَى * مِنَ الْبَاسِ إِلَّا شِقْوَةٌ وَفُتُونُ

(١) الحويل . القوة والحدق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شربى حله : خرج عليه الشرى ،

وهو شور صغار حمر حكاكة مكرمة تحدث دعة واحدة غالبا وتشتد ليلا لحار حار يثور في البدن دعة .

وواكلته والمم ثم تركه * وفي القلب من وحدهم رهين
 فواخسرتا إن حيل بيني وبينها * وياحين نسي كيف فيك تحين
 فشيب روعات العراق مفارق * وأشزن نفسي فوق حيث تكون
 شهدت بأن لم تغير مودتي * وأنى لكم حتى المات صين
 وأن فؤادي لا يلي إلى هوى * سواك وإن قالوا نلى سليلين
 وإني لأستعشى وما بى نعة * لعل لقاء في المسام يكون
 ولما علوت الأبتين تشوقت * قلوب إلى وادي القرى وعبون
 كأن دموع العين يوم تحلت * بثينة يسقيها الرشاش معين
 ورحن وقد دعى عدى لبانة * لثمة سر في العواد كين
 كسر الثرى لم يعلم الناس أنه * نوى في قرار الأرض وهو دفين
 فإن دام هذا الصرم منك فإني * لأعبر هاري الجانين رهين
 لكما يقول الناس مات ولم أهر * عليك ولم تبت منك قرون

(ج) الغزل الصناعي

كثير^(١)

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصد القصيدة ولا نعت المملوك مثل كثير.
وقال إبراهيم بن سعد: إني لأروى لكثير ثلاثين قصيدة أو رُفِي بها محوُّ لأفاق، وكان
بعض أصحاب الحديث يأتونه، وهو خيث النفس، فيسألونه عن شعر كثير فتطيب نفسه
ويعدّتهم. وقال عبد الله بن أبي عبيدة: من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع
شعره. وكان أن أبي عبيدة يُملئ شعره ثلاثين ديواراً. وسئل مُصَعَّب: مَنْ أشعر الناس؟
فقال: كثير بن أبي جُمعة، وقال: هو أشعر من حرب والفرزدق والراعي وعائشهم، يعني الشعراء.
ولم يدرك أحد في مدح المملوك ما أدرك كثير. وقال محمد بن سلام: كان كثير شاعراً أهل
المحاز، وهو شاعر لعل ولكنه مقوَّصٌ حفظه بالعراق. وقال يونس الجحوى: كثير أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن حراة، ويعرف بكثير عزة، فسه إلى عشيقته التي كان يشبها. وكان يدخل
على عبد الملك ويشده، وكان راصياً شديد النصب لآل أبي طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا يكرهه،
فإذا أراد أن يصدقه شيء حلفه على. وكان له صديق اسمه حديق الأسدى، شديد التشيع مثله، وبلغ من حراة حدق
هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس مردحون وقال «أيها الناس، إنكم على عير حق، قد تركتم بيت بديك والحق
لم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس، فصر يود ورموه حتى قتلوه، ودمى حديق فثبوا، فقال إذاك كثير يريه.

أصادرة حجاج كعب ومالك * على كل محلى صامر الطل محق

بحريثة فيها شاء محب * لأرهر من أولاد مرة معرق

والقصيدة طويلة. أما معشوقته عزة فهي بنت حميد بن وقاص من صيرة، وكانت من أحبل النساء وأدهن
وأعقلهن. ويقال إنه لم ير لها وحياً إلا أنه استهم بها قلته لما ذكر له عبا. وعائش بعض أهلها فقالوا: «قد شبرت
هسك وشبرت صاحباً فأكعب هسك» فقال «إني لا أدكرها بما تذكرون»

وأنفق حروجهم إلى مصر في عام الحلا، فتمهم على راحته فحروهم فأبى إلا أن يلحقهم، فترص له بعضهم
في بعض الطريق وقصوا عليه وحملوه في جعة حمار وروطوها عليه فتره صديقه حديق فأطلقه وألحقه سلاوة. وكان
كثير دميلاً قليلاً أحمر أبيض عظيم الهامة قبيحاً. وأكثر أشارته في عزة هذه. توفي سنة ٥١٠ هـ، وأخاره كثيرة
تجدها في الأغاني (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) و
حلجان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد المريد (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وحرارة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان
شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية في الاسكوريال.

أهل الإسلام، وكان أبى أبى حَفْصَة يعجبه مذهبه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره حَظْلٌ وعُجْب. وقال المِسْوَر بن عبد الملك: ما ضَرَّ مَنْ يروى شعر كثيرٌ وجميلٌ ألا تكون عدده معنيتان مطربتان .

وكان قصيرا، قال الوَقَّاصِي : رأيتُ كثيرا يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبهُ . وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول : طَأْطِءُ رَأْسَكَ لَا يُصِصْهُ السَّقْف . وقال كثير : في أي شيء أعطى هؤلاء الأخوص عشرة آلاف دينار ؟ قالوا : في قوله فيهم :

وما كان مالى طارفاً من تحارة * وما كان ميراثا من المال مثلدا
ولكن عطايا من إمام مبارك * ملأ الأرض معروفا وجودا وسودا
فقال كثير : إنه لصريح قبحه الله ! ألا قال كما قلت :

دع عك سلمى إدفات مطلبها * وأد كر حليلك من سى الحكيم
ما أعطيانى ولا سألتهما * ألا وإني لحاجرى كرمى
إنى متى لا يكن بواهما * عدى بما قد فعلت أحشم
مئدى الرضا عهما ومصرف * عن بعض ما لو فعلت لم ألم
لا أنزr اللائل الخليل إذا * ما أعتل نزر الظؤود لم ترم

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضا له يقال لها : غُرب، وقدم بين يدي طلبه تلك الأبيات :

جرتك الجوازي عن صديقك نصره * وأدامك ربى في الرقيق المقرب
إليك لا يعطى عليك ظلامه * عدو ولا تنأى عن المتقرب
وإليك ما تمنع إنيك ما بع * بحق وما أعطيت لم تتعقب

فقال له : أترعب عُرما ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، قال : أكتبوها له ، ففعلوا .

(١) يقول . لا ألح عليه بالمسألة ، يقال : ررته أنزره إذا ألحت عليه . والظؤور : العاطة على أولاد

عيرها . ولم ترم . لم تزام .

وُسِّيتَ كَثِيرَ لَكثَرَةٍ نَسِيهِ مَرَّةَ الصَّمْرَةِ إِلَيْهَا، وَعُرِفَ بِهَا قَقِيلٌ : كَثِيرَ عِزَّةٍ، وَهِيَ عِزَّةُ ابْنَةِ حَمِيدِ بْنِ وَقَاصٍ. وَكَانَ أَبْتَدَأَ عَشَقَهُ إِيَّاهَا أَنَّهُ مَرَّةً بِسُوءٍ مِنْ بَنَى صُفْرَةٍ وَمَعَهُ جَلَبٌ عَنَمٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عِزَّةً وَهِيَ صَغِيرَةٌ، فَقَالَتْ : يَقْلَنُ لَكَ الدَّسُوءُ : بَعْدًا كَبِشًا مِنْ هَذِهِ الْغَنَمِ وَأَنْسِنَا بَنَمَهُ إِلَى أَنْ تَرْجِعَ، فَأَعْطَاهَا كَبِشًا، وَأَعْتَحْتَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ حَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ بِدِرَاهِمٍ، فَقَالَ : وَأَيْنَ الصَّبِيَّةِ الَّتِي أَحَدْتُ مِنِّي الْكَبِشَ ؟ قَالَتْ : وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَهَذِهِ دِرَاهِمُكَ ؟ قَالَ : لَا أَحْذِرُ دِرَاهِمِي إِلَّا مِمَّنْ دَعَمْتُ الْكَبِشَ إِلَيْهَا، وَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ :

قَصَى كُلُّ ذِي دِينَ فَوْقَ عَرِيْمَةٍ • وَعِزَّةٌ مَمْلُوءٌ مُعْنَى غَرِيْمِهَا
مَكَانَ أَوَّلِ لِقَائِهِ إِيَّاهَا • ثُمَّ قَالَ فِيهَا :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً وَهِيَ عَاتِقِي * عَلَى حِينِ أَنْ شَبَّتْ وَبَانَ نُهْودُهَا
وَقَدْ دَرَعُوهَا وَهِيَ دَاتُ مُؤَصِّدٍ * مَحُوبٌ وَلَمَّا يَلْبَسُ الدَّرْعَ رِيْدُهَا
مِنْ الْخَيْصَرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ حَالِيسُهَا • اِدَا مَا أَنْقَصَتْ أَحْدُوْنَهُ لَوْ تَبِعِيْدُهَا
نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً مَا يَسْرَى * بِهَا حُمْرُ أَنْعَامِ الْبِلَادِ وَسُودُهَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا حَنَنْتُ سَعْدِي نَارِصَهَا * أَرَى الْأَرْضَ تُطَوِّى لِي وَيَدْنُو بَعِيْدَهَا
ثُمَّ أَحْبَبْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ عِزَّةً أَشَدَّ مِنْ حُبِّهِ إِيَّاهَا •

قال محمد بن صالح الأسلمى : دخلت عِزَّةٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَقَدْ عَجَّزَتْ ؛ فَقَالَ لَهَا : أَيْتِ عِزَّةٌ كَثِيرٌ ؟ فَقَالَتْ : أَمَا عِزَّةُ بِنْتِ حَمِيدٍ ؛ قَالَ : أَنْتِ الَّتِي يَقُولُ لَكَ كَثِيرٌ : لَعِزَّةٌ مَارٌّ مَا تَبُوحُ كَأَنَّهَا * إِذَا مَا رَمَقْتَاهَا مِنَ الْبَعْدِ كَوَكَبُ
فَمَا لَدَى أَعْجَبَهُ مِنْكَ ؟ قَالَتْ : كَلَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي عَهْدِهِ أَحْسَنَ مِنَ الْبَارِ فِي اللَّيْلَةِ الْقَرَّةِ • وَيُرَوَّى أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ : أَعْجَبَنِي مَا أَعْجَبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ حِينَ صَبَرْتُكَ حَلِيفَةً، وَكَانَتْ لَهَا سِسُّ سُودَاءٍ يَحْمِيهَا، فَصَحَكَ حَتَّى بَدَتْ، فَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ أَنْ أَبْدِيهِ ؛ فَقَالَ لَهَا : هَلْ تَرَوِينَ قَوْلَهُ :

(١) مؤد • ألس الأردة (بالعم) وهي قيص صمير يلبس تحت أثوب • والمحبوب : القميص ذو الجلب •

والرند (يهر ولا يهر) : الترب • (٢) توح : محمد •

وقد زَعَمْتُ أنى تَغَيَّرت بعدها * ومن ذا الذى يا عَزْرَ لا يَتَعَيَّر
تَعَيَّرَ جَسْمى وَالْخَلِيقَةُ كَالْتِ * عَهْدَتِ وَلَمْ يُحَيَّرْ سِرْكَ تُحَيَّرْ

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قوله :

كأنى أنادى صخرة حين أَعْرَضْتُ * من الصَّم لو تَمْشَى بها العُصْمُ زَلْتُ
صَفُوحًا مَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِحِيلَةٍ * من مَلَّ منها ذلك الوصل مَلْتُ

فأمر بها، فأدخلت على عاتكة بنت يزيد، فقالت لها : أرايت قول كثير :

قصى كل دى دىن فوقى عريمه * وعزرة مَمْطُول مُمْتَى عريمها

ما هذا الذى ذكره ؟ قالت : قُبْلَةٌ وَعِدَّتُهُ لَهَا، قالت : أنجزها وعلى إثمها .

ومما قال فيها :

حليلي هدا رَسْمُ عَزْرَةٍ فَأَعْقِلَا * قَلُوصَيْكَا ثُمَّ أَنْكِمَا حَيْثُ حَلَّتْ
وما كنتُ أدرى قبل عَزْرِهِ ما الْبُكََا * وَلَا مُوْجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتْ
فقد حَلَفْتُ جَهْدًا بِمَا نَحَرْتُ لَهُ * قَرِيشُ عِدَاةِ الْمَازِمِينَ ^(١) وَصَلَّتْ
أُنَادِيكَ مَا حَاجَّ الْحَجِيجُ وَكَبَّرَتْ * نَقِيفًا عَرَائِلَ رُقُقَةٍ وَأَهَلَّتْ ^(٢)
وكانت لَقَطْعِ الْجَبَلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * كَنَازِرَةٍ نَذْرًا وَفَتْ فَاحَلَّتْ
فقلت لها يا عَزْرُ كل مصيبة * ادا وَطَّئْتُ يَوْمًا لَهَا الْعُسَّ ذَلَّتْ
ولم يَلْقُ إِنْسَانٌ مِنَ الْحَبِّ مَيْعَةً * تَعْمُ وَلَا عَمَاءَ إِلَّا تَجَلَّتْ
كأنى أنادى صخرة حين أَعْرَضْتُ * من الصَّم لو تَمْشَى بها العُصْمُ زَلْتُ
صَفُوحًا مَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِحِيلَةٍ * من مَلَّ منها ذلك الوصل مَلْتُ ^(٣)
أباحثِ حِمَى لَمْ يَرَعَهُ النَّاسُ قَبْلَهَا * وَحَلَّتْ تِلَاعًا لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حُلَّتْ

(١) المازمان : بين عرفة والمردلة . (٢) فيما عرّال . مكة حيث يرل الناس فيها

الى الأطلح . وأناديك : أحالك، مأخوذ من التدى والادى حميا ومما المجلس .

(٣) الصعوح . المرصعة .

فَلَيْتَ قُلُوصِي عِدَ عَزَّةٍ قَبِدَتْ * بجملٍ صَعِيفٍ عَزُّ مِنْهَا فَضَلَّتْ
وَعُودِرٍ فِي الْحَيِّ الْمُقِيمِينَ رَحْلُهَا * وَكَانَ لَهَا بَايَعٌ سِوَايَ قَبَلَتْ^(١)
وَكَيْتَ كَدَى رِحْلَيْنِ رَحِلٍ صَحِيحَةٍ * وَرَحِلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتْ
وَكُنْتُ كَذَاتِ الظَّلَمِ لَهَا حَامَلَتْ * عَلَى طَلْعِهَا بَعْدَ الْعِتَارِ اسْتَقَلَّتْ
أُرِيدُ الثَّوَاءَ عِدهَا وَأَطْنَهَا * إِذَا مَا أَطْلَمْنَا عِدهَا الْمُكْتَمَلَتْ
فَمَا أَنْصَفْتُ، أَنَا النِّسَاءَ فَمَعْصَتْ * إِلَى وَأَنَا بِالْأَسْوَالِ فَصَأْتُ
يُكَلِّمُهَا الْعَمِيرَانُ شَتَّى وَمَا هِيَ * هَوَانِي وَلَكِنَّ لِيكَ اسْتَدَاتْ
هَبَيْتَا مَرِيئًا عِيرِدَاءَ مُحَامِرٍ * لَعَزَهُ مِنْ أَعْرَاصِهِمَا مَا اسْتَحَلَّتْ
فَوَاللهِ مَا قَارَنْتُ إِلَّا تَنَاعَدْتُ * نَصْرُمُ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلْتُ
إِنْ تَكُنِ الْعَنِي^(٢) فَاهْلًا وَمَرْحَا * وَحَقَّتْ لَهَا الْعَنِي لَدَيْنَا وَقَلْتُ
وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى إِبَابَ وَرَابَا * مَنَادِحَ^(٣) لَوْ سَارَتْ بِهَا الْعَيْسُ كَلَّتْ
حَلِيلِي إِنْ الْحَاجِيَّةِ طَلَعَتْ^(٤) * قُلُوصِيكَمَا وَنَاقِي قَدْ أَكَلَتْ
فَلَا يَتَعَدَّنْ وَضُلُّ لَعَزَّةٍ أَصَحَتْ * بِعَاقِبَةِ أَسْمَائِهِ قَدْ تَوَاتَتْ
أَسِينِي بَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مُلُومَةٍ * لَدَيْنَا وَلَا مَقِيلَةَ إِنْ تَقَلَّتْ
وَلَكِنْ أَبِيلِي وَأَذْكَرِي مِنْ مَوْدَةٍ * لَأُخْلَعَنَّ كَانَتْ لَدَيْكُمْ فَطُلْتُ^(٥)
فَإِنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لَمْ تُنْصِرْ وَصَادِقُ * عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيَّا أَزَلْتُ^(٦)
هِيَ أَمَا بِالْدَاعِي لَعَزَهُ بِالْحَوَى * وَلَا شَامِتٌ إِنْ نَعَلُ عَزَّةٍ زَلْتُ
فَلَا يَحْسِبُ الْوَاشُونَ أَنَّ صَابِغِي * بِعَزَّةٍ كَانَتْ غَمْرَةً فَتَجَلَّتْ
فَأَصَحَحْتُ قَدْ أَتَلَّكَ^(٧) مِنْ دَنِيفِهَا * كَمَا أَذِيهَتْ هَمِيئًا ثُمَّ اسْتَبَلَّتْ

(١) لَيْتَ . دَهَتْ . (٢) الْعَنِي . الْإِغْتَابُ ، يُقَالُ : عَاتَيْتُ فَلَانَ فَأَعَاتَمَهُ إِذَا رَعَتْ عِمَامَتَكَ طَبْعًا ،
وَالْعَنِي الْأَمَمُ وَالْإِغْتَابُ الْمَصْدَرُ (٣) الْمَنَادِحُ الْمَعَاوِزُ . (٤) الطَّلُوحُ الْمَعْنَى الَّتِي سَقَطَ مِنَ الْأَعْيَاءِ .
(٥) طَلْتُ : هَدَرْتُ . (٦) أَزَلْتُ : أَصْلَحْتُ . (٧) يُقَالُ : ذَلَّ مِنْ مَرَضِهِ وَأَمَلَّ وَاسْتَبَلَّ إِذَا
رَأَى وَالْهَيْاءَ . الَّتِي أَصَابَهَا دَاءُ الْهَيْاءِ ، وَهُوَ دَاءٌ يَصِيبُ الْإِبِلَ مِنْ مَاءٍ تَشْرَبُهُ مُسْتَقْعًا فَيَهْمُ فِي الْأَرْضِ لِاتْرَعَى .

فوالله ثم الله ما حَلَّ قلبها * ولا بعدها من حُلَّةٍ حيث حَلَّت
وما مَرَّ من يومٍ على كيومها * وإن عَظُمَتْ أيامٌ أخرى وحَلَّت
وأصَحَّت بأعلى شاهقٍ من فؤاده * فلا القلبُ يَسْلَها ولا العين مَلَّت
فياغَمَّا للقلب كيف أَمْتَرَاهُ^(١) * وللنفس لما وُطِنَتْ كيف ذَلَّت
وإلى وَتَيَّامِي مَعْرَةَ بعد ما * تَحَلَّت مما بيننا وَتَحَلَّت
لكالمُرْتَجَى طُلَّ القَامَةُ كلها * تَوَّأ منها لِلْقِيلِ أَصْحَمَلَّت
كَأَنِّي ولماها سَحَابَةٌ مُجَحَل * رَجَّاهَا فلما حَاوَزَتْه أَسْتَهَلَّت
فإن سَأَلَ الوائِسُونَ فِيمَ هَجَرَتْهَا * فُكِّلَ نَفْسُ حُرِّ سُلَيْتِ فَتَسَلَّت
قال ابنُ سَلام : كان كثير مدعيًا ولم يكن عاشقا، وكان جميلًا صادق الصباية والعشق .
وأختبرته عِزَّة دات مرة فوحدت علامة ذلك ، وكانت مستقبلة فأسعرت ، فألَسَ ولم ينطق^(٢)
وُبَيَّت ، فلما مصت أَسْأأ يقول :

ألا ليتني قل الذي قلتِ شَيْبَ لِي * من السَّمِ خَصْخَاضَ بَما الذَّرَارِحِ^(٣)
هت ولم تعلم على خِيَانَةٍ * وكَم طالِبٍ للريح ليس بَرايح
أَبُوهُ بذنبي ، إنني قد ظَلَمْتُهَا * وإلى بياقِ سَرِّها غير بائع
ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وَلَيْتَ لَمْ تَنْشَمْ عَلَيَّ ولم تُخَفْ * بَرِيًّا ولم تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مُحَرِّمٍ
وَقَلَّتْ فَصَدَّقْتَ الذي قلتَ بالذي * فعلتَ فاصْحَى راصِيًّا كُلُّ مُسْلِمٍ
ألا إنما يَكْخِي الفَقِي بعد زَيْغِهِ * من الأَوْدِ الباقي ثِقَافُ المَقُومِ
لقد لَيْسَتْ لِبَسَ المُلُوكِ بياها * تَرَأَى لك الدُّنْيَا يَكْغَفُ وَمِعْصَمٍ
وَتُومِصُّ أحيانا بعيي مَرِيصَةٍ * وتَسِمُ عن مثل الجُحَانِ المُنْظَمِ

(١) اعتراه : اصطباره ، يقال . رلت به مصيبة فوجد عروفا ، أى صورا .

(٢) ألس . انكسر و ر . (٣) الدراح : دويصة حمراء مغطاة أسود تطير ، وهى من السوم

القاتلة ، والدراح حمه . والحصاحص . هط أسود لا خورة فيه تها به الإبل الحر .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مُشْمِرًا كَأَنَّمَا * سَقَّتْكَ مَدُونًا مِنْ سِهَامٍ وَعَلَقَمَ
 وَقَدْ كُنْتَ مِنْ أَحِبَّالِهَا فِي مُسَمِّعٍ * وَمِنْ بَحْرَهَا فِي مُزِيدِ الْجُودِ مُقَمِّعٍ
 وَمَا زِلْتَ سَلَاقًا إِلَى كُلِّ عَائِيهِ * صَعِدَتْ بِهَا أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمَقْدَمِ
 فَلَمَّا أَتَاكَ الْمُلْكُ عَفَّوْا وَلَمْ يَكُنْ * لَطَالَبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمٍ
 تَرَكْتَ الَّذِي يَقْنَى وَإِنْ كَانَ مُوَقِّعًا * وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمٍ
 فَأَصْرَرْتَ بِالْعَاقِبِ وَشَمَّرْتَ لِلدِّي * أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمِ
 وَمَالِكَ أَنْ كُنْتَ الْخَلِيفَةَ مَانِعٌ * سِوَى اللَّهِ مِنْ مَالٍ رَعِيبٍ وَلَا دَمِ
 سِوَاكَ هُمْ فِي الْفُؤَادِ مُؤَرِّقٌ * صَعِدَتْ بِهِ أَعْلَى الْعَالِي يُسَلِّمُ
 هَامِينَ شَرِّ الْأَرْضِ وَالْعَرَبِ كُلِّهَا * مُسَادٍ يَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجِمِ
 يَقُولُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ طَلَمَتْنِي * أَخَذَ لَدَيْسَارٍ وَأَخَذَ لِدَرْهَمِ
 وَلَا بَسِطَ كَفَّ لِأَمْرِيءٍ طَالَمَ لَهُ * وَلَا السَّعْيَ مِنْهُ طَالَمَا مَلَءَ فَحْمِ
 فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمَسْلُومُونَ تَقَسَّمُوا * لَكَ الشُّطْرُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ عَيْرُ نَدَمِ
 فَمِيشَتْ بِهِ مَا حَاجَّ اللَّهُ رَاكِبٌ * مُفِيدٌ مُطِيفٌ بِالْمَقَامِ وَزَمَرِ
 فَارِخِجَ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لِبَايَعٍ * وَأَعْظَمَ بِهَا أَعْظَمَ بِهَا ثُمَّ أَعْظَمِ
 وَمِنْ نَسِيبِهِ هَزَمَ لَمَّا أُخْرِجَتْ إِلَى مِصْرَ :

لَعَرَّةً مِنْ أَيَّامِ دِي الْفَصِّ شَاقِي * يَصَاحِي قَرَارَ الرُّوصَيْنِ رُسُومِ
 هِيَ الدَّارُ وَحَشَا عَيْرَ أَنْ قَدْ يَحْتَلُّهَا * وَيَقْنَى بِهَا شَخْصٌ عَلَى كَرِيمِ
 مَا يَرِيسُومِ الدَّارِ لَوْ كُنْتَ عَالِمًا * وَلَا بِالنَّالِاعِ الْمُقْوِيَّاتِ أَهْمِ^(٣)
 سَأَلْتَ حَكِيمًا أَيْنَ شَطَّتْ بِهَا التَّوَى * نَحْبَرِي مَا لَا أَحَبَّ حَكِيمِ^(٤)
 أَحَدُوا فَمَا أَلَّ عَرَّةَ عُذْوَةٍ * مَبَاوَا وَأَمَا وَاسِطَ فَقِيمِ
 لَعَمْرِي لَنْ كَانَ الْعُؤَادُ مِنَ الْهَوَى * نَعَى سَقَمًا إِلَى إِذَا لَسَقِيمِ

(١) مدونا . مخلوطا ، داف الدواء ، والرعرعان يدوه . حطله . (٢) معد . مسرع .

(٣) أقوت الدار . حلت من ساكنها . (٤) هو أو السائب من حكيم .

ومنها :

ولستُ بِرَأْيٍ مَحْمُودٍ مَحَابَةً * وَإِنْ تَعُدَّتْ إِلَّا قَعَدْتُ أَشِيمَ
 فَقَدْ يَقْعُدُ الْكُفْسُ الدَّيْءُ عَنِ الْهَوَى * عَزُّوْهَا وَيَصْبُو الْمَرْءُ وَهُوَ كَرِيمٌ
 وَقَالَ حَلِيلِي مَا لَهَا إِذَا لَقِيَتْهَا * عِدَاةَ السَّامِيَةِ عَلَيْكَ وَجُومٌ^(١)
 فَقُلْتُ لَهُ إِنْ الْمَوْتَهُ بَيْنَا * عَلَى غَيْرِ حُشِّ وَالصَّمَاءُ قَدِيمٌ
 وَإِنِّي وَإِنْ أَعْرَصْتُ عَنْهَا تَجَلَّدَا * عَلَى الْعَهْدِ فِيمَا بَيْنَنَا لِمَقِيمٍ
 وَإِنْ زَمَانًا فَتَرَقَّ الدَّهْرُ بَيْنَنَا * وَبَيْنَكُمْ فِي صَرْفِهِ لَمَشُومٌ
 أَفَى الْحَقِّ هَذَا أَنْ قَلْبِكَ سَالِمٌ * صَحِيحٌ وَقَلْبِي فِي هَوَاكِ سَقِيمٌ
 وَأَنْ يَحْسُمِي مَكَدَاءٌ مُحَامِرَا * وَجَسْمُكَ مَوْفُورٌ عَلَيْكَ سَلِيمٌ
 لَعَمْرُكَ مَا أَصْبَغْتَنِي فِي مَوَدَّتِي * وَلَكِنِّي يَا عَزَّ عَكَ حَلِيمٌ
 إِمَّا تَرَبَّيْتُ الْيَوْمَ أَبْدَى حَلَادَةً * وَإِنِّي لَعَمْرِي تَحْتَ دَاكِ كَلِيمٌ
 وَلَسْتُ أَسَاءَ الصَّمْرَتِي مَكَدًا سَاقِمٌ * دُوبَ الْعَدَى إِنْ إِذَا لَطُومٌ
 وَإِنِّي لَدُوٍّ وَجِدٍ إِذَا عَادَ وَصَلُهَا * وَإِنِّي عَلَى رَبِّي إِذَا لَكْرِيمٌ

ومن سيبويه بها :

لَعَزَّةٌ أَطْلَالٌ أَبَتْ أَبْ تَكَلَّمَا * تَبِيعَ مَغَانِيهَا الْمَوَادَّ الْمُكَلَّمَا
 وَكَمْتُ إِذَا مَا حَثْتُ أَجَلَّلَ مَجْلِسِي * وَأَظْهَرَنَ مِنِّي هَيْئَةً لَا تَجْهَمَا
 يُحَاذِرُنْ مِنِّي عَايِرَةٌ قَدْ عَرَفْنَاهَا * قَدِيمًا هَا يَضْحَكُنْ إِلَّا تَبْسَمَا

ومنه :

خَلِيلِي عَوْجًا مِنْكَ سَاعَةً مَعِي * عَلَى الرَّتَعِ نَقْصُ سَاعَةٍ وَبُودِيعِ
 وَلَا تُعْجِلَانِي أَنْ أَلِمَّ بِدِمْنَةٍ * لَعَزَّةٌ لَاحَتْ لِي بِبِدَاءِ بَلَقِيعِ
 وَقَوْلَا لَقَلْبِي قَدْ سَلَا رَاجِعِ الْهَوَى * وَلِلْعَيْنِ أَذْرَى مِنْ دُمُوعِكَ أَوْدَعِي
 فَلَا عَيْشَ إِلَّا مِثْلَ عَيْشِ مَعِي لَمْأَا * مَصِيفًا أَقْنَا فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَرْجَبِ

(١) وجم : سكت على عيط .

وممه :

بليلى وحارات الليل كأنها * نَمَاحُ الفلا تُخَدَى بهن الأناعرُ
أُمُتَّقِعُ ياعنّ ما كان سيبا * وشاحرنى ياعنّ فيك الشواجر
إذا قيل هذا بيتُ عزة قادی * إليه الهوى وأستعجلتنى البوادر
أُصدّوى مثل الجون لكى يرى * زُواة الحنا أی لیتك هاجر
ألا ليت حظى مك ياعنّ أنى * إذا بُت باع الصبر لى عك تاجر

وممه :

وما زلت من ليل لَدُن طَرّ شارى * الى اليوم أحمى حبّ وأداجرُ
وأحمل فى ليل صغائن مَعشَر * وتُحمَل فى ليل على الضغائن

وممه :

وماى لأرى قومها من حلالها * وان أظهور واعشأ نصحت لهم جهدى
ولو حاربوا قومى لكنت لقومها * صديقا ولم أحمل على حربها حقدى

وممه :

هلا سالت معالَم الأطلال * بالجزع من حُرُض^(١) وهن نوال
سَقِيّا لعزة حلة سَقِيّا لها * اذ عن المصصات من أنلال^(٢)
إدلا تكلما وكان كلامها * نَفَلّا نؤمله من الأنفال

وممه :

ألا حيا ليلى أجده رَجِيلي * وأدب أصحابى عدا بقول^(٣)
تبنت له ليلى لئذ عقله * وشاقتك أم الصلت بعد دُهل
أريد لأتسى ذكرها مكانما * تَمَنُّل لى ليلى بكل سبيل
إذا دُرِكت ليلى تعشتك عبرة * تُعل بها العياب بعد دُهل

(١) حرص : واد من وادى قاة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد مل ، وهو مرل على طريق المدينة من مكة . (٣) نقول . رجوع .

وَكَمْ مِنْ حَلِيلٍ قَالَ لِي هَلْ سَأَلْتَهَا * فَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ أَصْرَبَ حَلِيلٍ
وَأَعَدَّهُ نَيْلًا وَأَوْشَكُهُ قَلِيًّا ^(١) * وَإِنْ سُلِّتَ عُرْفًا فَشَرُّ مُسْئِلٍ
حَلَفْتُ رَبَّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مَيِّ ^(٢) * حِلَالُ الْمَلَأِ يَمْدُدْنَ كُلَّ حَدِيلٍ
تَرَاهَا رِفَاقًا بَيْنَهُنَّ تَفَاوَتْ ^(٣) * وَيَمْدُدْنَ بِالْإِهْلَالِ كُلَّ أَصِيلٍ
تَوَاهَقْنَ بِالْمُحَاحِ مِنْ بَطْنِ تَحْلَةٍ ^(٤) * وَمِنْ عَزْوَرٍ وَالْحَنَتِ خَبَتْ طَفِيلٍ
بِكُلِّ حَرَامٍ خَاشِعٍ مُتَوَحِّهِ ^(٥) * إِلَى اللَّهِ يَدْعُوهُ بَكْلٌ نَقِيلٍ
عَلَى كُلِّ مِدْعَانٍ الرُّوَّاحُ مُبِيدِهِ ^(٦) * وَغُخْشِيَّةٌ أَلَا تُعِيدُ هَزِيلٍ
شَوَامِدٌ قَدْ أُرْتَجَحْنَ دَوْبُ أَجْنَةٍ ^(٧) * وَهُوجٌ تَنَارَى فِي الْأَزْمَةِ حَوْلِ
يَمِينِ أَمْرِي مُسْتَغْلِظٌ مِنْ أَلْيَةٍ ^(٨) * لِيُكَذِّبَ قِيلًا قَدْ أُلْحَ يَقِيلُ
لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاشُونَ مَا بَحَثُ عَدَمِهِ ^(٩) * لَيْلٍ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ
إِنْ حَاءَكَ الْوَاشُونَ عَنِّي بِكَذْبَةٍ ^(١٠) * فَرَوَّهَا وَلَمْ يَأْتُوا لَهَا بِمُجَوِّبٍ
فَلَا تَعْلَى يَالَيْلُ أَنْ تَتَهَمَى * صَبَحَ أَتَى الْوَاشُونَ أَمْ يُجَبِّسُونَ
إِنْ طُبَّتِ نَفْسًا بِالْعَطَاءِ فَأَجْرِي * وَحَيْرُ الْعَطَا يَالَيْلُ كُلُّ جَرِيلٍ
وَالَا لِإِجْمَالٍ إِلَى إِيَّاسِي * أُحِثَّ مِنَ الْأَحْلَاقِ كُلِّ حَمِيلٍ
وَإِنْ تَدُلَّنِي لِي مِنْكَ يَوْمًا مَوْدَةً * فَقَدْ مَا تَحَدَّثَ الْقَرَصَ عَدُّ دُولٍ
وَأَبْ تَبْخُلِي يَالَيْلُ عَنِّي إِيَّاسِي * تُؤَكِّلُنِي نَفْسِي بِكُلِّ بِجِيلٍ
وَلَسْتُ بِرَاضٍ مِنْ حَلِيلٍ بِبَائِلٍ * قَلِيلٌ وَلَا رَاضٍ لَهُ قَلِيلٌ

(١) أَوْشَكُهُ أَسْرَعُهُ . وَالْقَلِيَّ . الْمَصْرُ . (٢) الرَّاقِصَاتُ الْإِثْلُ ، وَالْمَلَأُ الْعَصَاءُ ، وَالْحَدِيلُ

رِيَامٌ مَحْدُولٌ أَيْ مَصْمُورٌ . (٣) الْأَصِيلُ : الْعَشِيَّةُ . (٤) تَوَاهَقْنَ : تَتَارِسْنَ ، وَبَطْنُ تَحْلَةٍ .

سِتَانٌ بَنِي عَامِرٍ ، وَعَزْوَرٌ : ثِيَابَةٌ الْجَلْعَةِ . وَالْحَنَتُ ، الْمَطْعَةُ مِنَ الْأَرْضِ . وَطَفِيلٌ : مَوْصَعٌ .

(٥) الْقِيلُ : الطَّرِيقُ . (٦) الْمِدْعَانُ : الْمَدْلَةُ . وَمَعِيدَةٌ : قَدْ عَادَتِ السَّيْرُ . (٧) الشَّوَامِدُ .

الْأَشْأَلَاتُ الْأَدْبَابُ ، وَأُرْتَجَحْنَ : أَعْلَقْنَ أَرْحَامَهُنَّ عَلَى أَوْلَادِهِنَّ . وَالْحَوْلُ : جَمْعُ حَائِلٍ وَهُوَ الَّذِي لَا تَلْقَحُ .

(٨) الْأَلْيَةُ الْيَمِينُ . (٩) فَرَوَّهَا مِنَ الْمَرِيَّةِ ، يُقَالُ مَرَى يَمْزِي . وَالْحَوِيلُ : الْحَاوِلَةُ

(١٠) الْحَبُولُ : الدَّوَاهِي .

وليس حليلى مالمول ولا الذى * اذا عِتُّ عنه ماغنى بحليل
ولكن حليلى من يديم وصالَه * ويحفظ سرى عند كل دَجِل^(١)
ولم أر من لىي نوالا أعدَه * ألا ربما طالبت غير ميسل
يلومك فى لىلى وعقلك عدها * رجالٌ ولم تذهب لهم بمقول
يقولون ودّع عك لىي ولا تهم * تقاطعة الأقارب ذات حليل
وما نَقَعْتُ^(٢) نفسي بما أمروا به * ولا نَحْتُ^(٣) من أقوالهم بقتيل
تدكرت أتراما لمزة كلمها * حينَ يَلِيطُ^(٤) ناعم وقبول
وكنْتُ ادا لا قِيَّتْ^(٥) كائى * محالطه عقلى سلاؤ شمول
تأطرن حتى قلت لسن نوارحا * رجاء الأمانى أن يقلن ميقيل
فأبدن لى من بينن تمهها * وأهلن ظنى إدا طبت وقيل
فلأيا بلائى ما قصين لئاه * من الدار وأستقلن بعد طويل
فلما رأى وأستيقن البى صاحى * دعا دعوة يا حَسْرَتَ^(٦) سؤل
فقلت وأسررت الندامة ليتنى * وكنتُ أمراً أعش كل عدول
سلكت سبيل الرامحات عشية * محارم^(٧) نضع أو سلكن سبيل
فأسمعت نفسا ما هوى قبل أن أرى * عوادى^(٨) تأي بيننا وشؤل
يدمت على ما فاتى يوم بنتم * مباحسرتا ألا يرين عويل
كان دموع العين وإهية الكل^(٩) * وعث ماء غرب يوم ذاك سميل

(١) الدحيل : الذى ينسب الى قوم وليس مهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأتراب :

الأقارب . والليط : اللون وهو الحلد أيضا . (٤) تأطرن : تلتن ، وأصل التأطر : التعطف .

(٥) الا لى : البط . واللأية : الجاحة .

(٦) المحارم : جمع محرم وهو مقطع أمه الحل . وضع : حل أسود بن الصمراء . وضع : (٧) الموادى :

الصوارف . (٨) الكل : جمع كاية وهى الرقة تكون فى أصل عروة المراد . والعرب : الدنو المظلمة .

تَكْتُمُهَا خُرْقٌ تَوَاكَلْنَ حَزَّهَا * فَأَتَجَلَّتْهُ وَالسَّيْرُ عَيْرٌ بِجَمِيلٍ^(١)
 أَقْبَىٰ مِائَةِ الْقَوْرِ يَاعِزَّةَ مَعْدَمٍ * أَلَىٰ إِذَا مَا يَنْتِ عَيْرٌ بِجَمِيلٍ
 كَفَىٰ حَرًّا لِلْعَيْنِ أَدَّ رَدَّ طَرَفَهَا * لَعَزَهُ عَيْرٌ أَذْنَتْ بِرَجِيلٍ
 وَقَالُوا مَاتَ فَاخْتَرَمَ الصَّبْرُ وَالْبُكَاءُ * فَقُلْتُ الْكَاءُ أَشْفَىٰ إِذَا لِفَإِيلِ
 تَوَلَّيْتُ مَحْزُونًا وَقُلْتُ لَصَاحِبِي * أَفَأَتَلَنِي لَيْلَىٰ نَغِيرَ قَتِيلٍ
 لَعَزَةً أَذْ بَجَلَّ بِالْحَيْفِ أَهْلُهَا * فَأَوْحَشَ مِمَّا الْخَيْفُ مَعْدَ حُلُولِ
 وَبَدَّلَ مِنْهَا مَعْدَ طَوْلِ إِقَامَةٍ * تَبَعْتُ نَكَبَاءَ الْعَشِيِّ جَفُولِ^(٢)
 لَقَدْ أَكْثَرَ الْوَاشُونَ فِيَا وَفِيكُمْ * وَمَالِ سَا الْوَاشُونَ كُلِّ مَيْمِلِ
 وَمَا زَلْتُ مِنْ لَيْلٍ لَذُّ طَرَّ شَارِي^(٣) * إِلَى الْيَوْمِ كَلْمَقَصَىٰ بَكْلِ سَبِيلِ
 وله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْعُرُو لَمْ تَنْتِ هَمَّةٌ * حَصَانٌ عَلَيْهَا تَطْمُ دُرِّي بِهَا
 نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ الْهَيْ عَاقَهُ * نَكْتُ فَسَكَىٰ مِمَّا تَحَاها قَطِئِنَا^(٤)
 وَلَمْ يَنْتِهِ يَوْمَ الصَّابَةِ بَهَا * عَدَاةً أَسْتَهَلْتُ بِالْدمُوعِ شُؤُونَهَا
 وَلَكِنْ مَصَىٰ ذُو مِرِّهِ مُتَبَتَّ * لِسَّةٍ حَقٍّ وَاصِحٍ مُسْتَبِيهَا
 وله في مدح عبد الملك بن مروان :

أَحَاطْتُ يَدَاهُ بِالْخِلَافَةِ عَدَا مَا * أَرَادَ رَحَالُ آخِرُونَ اغْتِيَالَهَا
 مَا أَسْلَبُوهَا عَوَّةً عَنِ مَوَدَّةٍ * وَلَكِنْ يَحْدُ الْمَشْرِقُ اسْتَقَالَهَا
 وَكُنْتُ إِذَا مَا تَشَكَّ يَوْمًا مُلَمَّةً * نَلْتُ لَهَا أَمَا الْوَلِيدُ نِيَالَهَا^(٥)
 سَمَوْتُ فَأَدْرَكْتَ الْعَلَاءَ وَإِنَّمَا * يُلَقَّى عَيَاتِ الْعَلَاءِ مَنْ سَمَا لَهَا
 وَصَلَتْ فَجَالَتْ كَعْلَكَ الْمَحْدَكَةَ * وَلَمْ تَلْعُ الْأَيْدِي السَّوَامِيَّ صَالَهَا

(١) حرق جمع حرقاء وهي التي لا تحبس العدل . وأشدله أرسعه . والجمل العابط . يريد أنهم أعطى الإشي رأدفقر السيرة . (٢) الكاء . الریح . أي تهب بين مهج ريحين . والجمل . التي تذهب التراب (٣) طرود الشارب : نجاته . (٤) القطيع : الخدم . (٥) نلت : أهدنته .

وله أيضا :

أَهاجَكَ رَقٌّ أَمَرَ اللَّيْلَ وَاصِبٌ • تَصَمَّمَهُ قَرْنُ الْجَبَا فَاَلْمَسَارُ
 نَحْرٌ وَيَسْتَأْنِي نَشَاطًا كَأَنَّهُ • بَغِيقَةً حَادٍ حَلَجْلُ الصَّوْتِ جَالِبٌ
 تَأَلَّقَى وَأَحْمَوْنِي وَخَسِمَ بِالرُّمَّا • أَحْمُ الدَّرَى ذُو هَيْدَبٍ مُتْرَاكِبٌ
 إِذَا حَرَّكَتَهُ الرِّيحُ أَرْزَمُ حَانُ • بَلَا هَرَقٍ مَسَهُ وَأَوْمَصَ حَانُ
 كَمَا أَوْمَصَتْ بِالْعَيْنِ ثُمَّ تَسَمَّتْ • حَرِيعٌ بَدَا مَهَا حَيْيٌ وَحَاجِبٌ
 يَجُّ السَّدَى لَا يَذْكُرُ السَّيْرَ أَهْلُهُ • وَلَا يَرْجِعُ الْمَاشِي بِهِ وَهُوَ حَادِبٌ

وله أيضا :

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا شَمِيقٌ عَلَيْكُمْ * إِذَا عَالَهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ غَائِلُهُ
 وَيُخْفِي لَكُمْ حُجًّا شَدِيدًا وَرَهْمَةً * وَلِلَّاسِ أَشْغَالٌ وَحُجُبٌ شَاعِلُهُ
 وَحُكٌّ يُبْسِنِي مِنَ الشَّيْءِ فِي يَدِي * وَيُدْهِلُنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَزَاوِلُهُ
 كَرِيمٌ يُبَيِّتُ السَّرَّ حَتَّى كَانَ • إِذَا اسْتَبَحُّوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
 يَوَدُّ نَابَ يُنْمِي سَقِيًّا لَهَا • إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُهُ
 وَيَرْتَاحُ لِلْعُرُوفِ فِي طَلَبِ الْعَلَا • يُتَحَمَدُ يَوْمًا عَدَلِي شِمَائِلُهُ
 فَلَوْ كُنْتُ فِي كَبْلٍ وَبُخْتُ نَلْوَعِي ^(٥) • إِلَيْهِ لِأَنْتَ رَحْمَةً لِي سَلَامِلُهُ

وله أيضا :

أَقُولُ لِمَاءِ الْعَيْنِ أَهْمٌ لَعَلَّهُ • بِمَا لَا يُرَى مِنْ غَائِبِ الْوَحْدِ يَشْهَدُ
 فَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْعَيْنَ قَبْلَ فِرَاقِهَا • عِدَاةَ الشَّبَابِ مِنْ لَاعِجِ الْوَجْدِ تَجْمَدُ
 وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْعَيْنِ ضَلَّتْ بِمَآئِهَا • عَلَى وَلَا مِثْلِي عَلَى الدَّمْعِ يُحْسَدُ

(١) الشاح: السحاب المرتفع يصبه هرق بعض . (٢) أرزم : صوّت . (٣) الهرق :
 شدة صوت الرعد . (٤) خرج : امرأة حسناء . (٥) كبل : لهه شديد .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرِّعْدَ فِي الْخَيْلَةِ مِنْهَا . مِثْلَ هَزَمِ الْقُرُومِ فِي الْأَشْوَالِ ^(١)
وَتَرَى الْبَرْقَ عَارِضًا مُسْتَطِيرًا . مَرَحَ الْبُلْقِ حُلْبَ وَ الْأَحْلَالِ ^(٢)
أَوْ مَصَابِيحَ رَاهِبٍ فِي يَفَاجٍ سَمِّ الرِّيتِ سَاطِعَاتِ الدُّمَالِ

وله أيضا :

مِاعَزٌ إِنْ وَايَسَ وَشَى بِي عَدَمٍ . فَلَا تُكْرِمِيهِ أَنْ تَقُولَ لَهُ أَهْلًا
كَمَا لَوْ وَشَى وَايَسَ بَعْرُهُ عَدَمًا . لَقُلْنَا تَزْجَحُ لَا قَرِيْبًا وَلَا سَهْلًا

(١) القُروم : الفحول التي أضعفت من الحمل عليها وتركزت للقطعة .

(٢) الأشْوال . الإبل التي مضى على حملها أو وضعها سعة أشهر فارتفع صرعها وحف لها .

(د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملقح (المجنون)

قال الأصفهاني عن محدثيه عن ابن دأب قال : قلت لرجل من بني عامر : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً ؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى تروى أشعار المجانين ! لهم لكثير ! فقلت : ليس هؤلاء أعني ، إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق ، فقال : هيهات ! بنو عامر أعلفُّ أجبأداً من ذلك ، إنما يكون هذا في هذه اليمنانية الصعافِ قلوبها ، السحيفة عقولها ، الصَّعْلَةُ رءوسها ، فأما نزارُ فلا .

وقال الرياشي سمعت الأصمعي يقول : رحلت ما عرِفَا في الديار قط إلا بالاسم : محنون بني عامر ، وأبن القُرَيْة^(١) ، وإنما وصعها الرواه .

وقال المدائني : المجنون المشهور بالشعر عند الناس صاحبُ ليلى قيس بن معاذ من بني عامر ، ثم من بني عَقِيل ، أحد بني مُيمِر بن عامر بن عَقِيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مَهْدِي بن الملقح من بني حَعْدَةَ بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وقال أبو الكلبي : حَدَّثْتُ أَنَّ حَدِيثَ المَجْنُونِ وشعره وضعه فتى من بني أُمَيَّةَ كَانَ يَهْوَى أَسَةَ عَمِّ لَهُ ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَطْهَرَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَوَضَعَ حَدِيثَ المَجْنُونِ وَقَالَ الْأَشْعَارُ الَّتِي يَرَوِيهَا النَّاسُ لِلْمَجْنُونِ وَنَسَبَهَا إِلَيْهِ .

(١) هو قيس بن الملقح ، ويقال . أن معاذ من مراحم من بني عامر من صعصعة ، ويعرف مجنون ليلى ، نسبة إلى الليل التي كان ينشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهل القدر من علماء الشعريين أن قصته موضوعة ، وصعها رجل من بني أُمَيَّةَ كَانَ يَحِبُّ أَسَةَ عَمِّ لَهُ وَيَكْرَهُ أَنْ يَطْهَرَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَوَضَعَ حَدِيثَ المَجْنُونِ وَقَالَ الْأَشْعَارُ الَّتِي يَطْلُهَا النَّاسُ لِلْمَجْنُونِ ، وَقَدْ رَدَّ النَّاسُ فِيهِ بَعْدَهُ . وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّا يَنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَشْعَارِ رُوِيَ لغيره ، فَقَصَّته إِذَا مِنْ قَبِيلِ الشَّعْرِ التَّمَثِيلِ (دِرام) الَّذِي يَرَادُ بِهِ تَمَثِيلُ بَعْضِ الْعَصَائِلِ . وَهِيَ تَمَثِّلُ الْعَشْقَ مَعَ التَّمَعُّقِ ، وَأَوَّلُهَا أَصْلًا قَبْلًا وَرَدَّ فِيهِ الرِّوَاةُ كَمَا صَلُّوا قِصَّةَ عَتْرَةَ الَّتِي تَمَثِّلُ الشَّجَاعَةَ وَالْعَشْقَ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَانْ يَبِينُ الْأَشْعَارُ الْمُسَوِّوَةُ إِلَى المَجْنُونِ طَائِفَةٌ تَمَثِّلُ شُعَائِرَ المَجْنُونِ كَمَا هِيَ عَلَى طَبْعِهَا . وَأَحَارَ المَجْنُونِ فِي الْأَعَانِ (ح ١ ص ١٦٧) وَالشَّعْرَ وَالشَّمْرَاءَ (ص ٣٥٥) وَرَوَاةُ الْأَدَبِ (ح ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصَّلَةُ : صَمْرُ الرَّأْسِ . (٣) هُوَ أَرْهَبُ أَمِنْ زَيْدٍ مِنْ نَيْسٍ وَالْقُرَيْةُ أَمَةٌ قَتَلَهُ الْهَاجِجُ لِاتِّهَامِهِ بِالْمُلِكِ لِأَنَّ الْأَشْعَثَ .

وعن حماد بن طالوت بن عَاد : أنه سأل الأصمعيَّ عنه، فقال : لم يكن محمونا، بل كانت به لوثَةٌ أحدثها العشقُ فيه، كان يهوى امرأةً من قومه يقال لها ليلي، وأسمه قيسُ ابنُ مُعَاذ .

ودكر عمرو بن أبي عمرو الشَّيْبَانِيَّ عن أبيه أن أسمه قيسُ بن مُعَاذ .
ودكر شُعَيْبُ بن السَّكَن عن يونسَ الْحَوَيْيَّ أن أسمه قيسُ بن الملوِّح، قال أبو عمرو الشَّيْبَانِيَّ : وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقيَه وسأله عن أسمه ونسبه، فذكر أنه قيسُ بن الملوِّح .

^(١) ودكر هشام بن محمد الكَلْبِيَّ أنه قيسُ بن الملوِّح، وحدث أن أمه مات قبل احتلاطه، فعقرَ على قبره ناقته وقال في ذلك :

عقرتُ على قبر الملوِّح باقي * بذى السَّرح لما أن جفاه الأثارتُ
وقلتُ لها كوني عَقِيرًا وإني * عداً راحلُ أمشي وبالأُمسِ راکُ
فلا يُبعدنكَ اللهُ يا بنَ مُراحِم * فكلُّ بكأس الموت لاشكَّ شاربُ

وقال الأصمعيَّ : سألتُ أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن المحبون العامريِّ فقال :
عن أبيهم تسألني ° فقد كان فيما جماعة رُمُوا بالجنون، فعن أبيهم تسأل ° فقلت : عن الذي كان يُشَبَّب بليلى، فقال : كلُّهم كان يُشَبَّب بليلى، قلتُ : فأشيدني لعصم، فأنشدني لمُزَاحِم بن الحارث المحنون :

ألا أيُّها القلبُ الذي جَـ هائمًا ليلي وليداً لم تُقَطِّع تماثِمةً
أفنى قد أفاق العاشقون وقد أُنِي * لك اليوم أن تلقى طيباً ثلامِمةً
أجِدْكَ لا تُسيكَ ليلي مُلِمةً * تلم ولا عهدٌ يطولُ تقادُمةً

(١) يقال احتلط عقله إذا تميز ومعد . (٢) دوالسرح . وادأرص حد .
(٣) عقيرا، أى معقورة، وأصل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى الحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أى يحرقونها ويقولون إن صاحب القبر كان يعقر لآلئ صبايا أيام حياته فكأنه بمثل صميمه بعد وفاته . وأما إطلاق العقر على الحر لأنهم كانوا إذا أرادوا محر المير عقروه ثلاثا بشرط عسر النحر اه من السواد مادة عقر . (٤) أى : حاد وقرب .

قلت : فأنشدني لغيره منهم ، فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طالما لاعتبت لئلي وقادني إلى اللهو قلُّ للحسان تبوعُ
وطال امتراء^(١) الشوق عيني كلما * زفت دُموعاً تستجد دُموعُ
فقد طال إمساكي على الكيد التي * بها من هوى لئلي العداة صدوعُ

قلت : فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت ، فأنشدني لمهدي بن الملوخ :

لو آت لك الدنيا وما عدت به * سواها وليلى ما ن عك ينها^(٢)
لكت إلى ليلي فقيرا وإنما * يقود إليها ود فيك حينها

قلت له : فأنشدني لمن بقي من هؤلاء ، فقال : حسبك ! فوالله إن في واحد من هؤلاء
لمن يؤزن بعقلكم اليوم .

وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعرا مهورا القائل قيل في لئلي إلا نسوه إلى المجنون ،
ولا شعرا هذه سبيله قيل في لئلي إلا نسوه إلى قيس بن ذريح .

قال أبو الفرج : وأنا أدكر ما وقع إلى من أخاره جملا مستحسنة ، مثرثا من العهدة
فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخاره يسبها بعض الرواة إلى غيره ويسبها من
حكيت عنه إليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعي ومتبع للعيوب .

أخبرني بحره في شفعه ليليل جماعة من الرواة ، ونسخت ما لم أسمع من الروايات
وجمعت ذلك في سياقة خبره ما أئسق ولم يختلف ، فاذا اختلفت نسبت كل رواية
إلى راويها .

فمن أخبرني بحره أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلب ، قالوا :
حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة ، ونسخت أخباره من
رواية خالد بن كلثوم وأبي عمرو الشيباني وابن دأب وهشام بن محمد الكلبي وإسحاق بن
الحصيص وغيرهم من الرواة .

(١) الامتراء : الاستعداد . (٢) بينها هاهنا وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الرمل والعراق .

قال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة : كان المجنون يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحارث بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك ، وهما حينئذ صبيان ، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلهما ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه ، قال : ويدل على ذلك قوله :

تعلقتُ ليلي وهي ذات دؤابة^(١) * ولم يتد للأثراب من تدنيا حجم
صغيرين نرى البهم ياليت أنا * إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم

وقال أبو الكلي : كان سبب عشق المجنون ليلي ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك ، فز بأصراة من قومه يقال لها : كريمة ، وعندها جماعة نسوة يتحدثن ، فيهن ليلي ، فأعجبهن جماله وكأله ، فدعونه إلى الدرويل والحديث ، فنزل وجعل يتحدثن وأمر عبدا له كان معه فقهرطن ناقته ، وطلت يتحدثن بقية يومه ، فيها هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتى عليه برقة من برد الأعراب يقال له : "مأزل" يسوق معرى له ، فلما رأيته أقبل عليه وترك المجنون ، فعصب وخرج من عدهن وأنشأ يقول :

أأعسر من جرأ كريمة^(٢) ناقي * ووصلني مفروش لوصول مأزل
إذا جاء قعقص الحلي ولم أكن * إذا جئت أرضي صوت تلك الخلايل
متى ما انتضلنا^(٣) بالسهم فصلته * وإن رم رشقا عدها فهو باصلي

قال : فلما أصبح ليس حلتاه وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضا لهن ، فالتى ليلي قاعدة بقاء بنتها وقد علق حبه قلبها وهويته ، وعندها جويزات يتحدثن معها ، فوقفت بهن وسلم ، فدعونه إلى النزول وقلن له : هل لك في محادثة من لا يسعله عنك مأزل ولا غيره ؟ فقال :

(١) الدؤابة : شعر الياصية .

(٢) أى من أهل ، يقال . صلت ذلك من حراك أى من أحلك وما أشد على هذا .

أمن حراى أسد عصبتم * ولو شتم لكان لكم حوار

(٣) أى تراميا بالسهم ، وصلته : غلته . (٤) الرشق . رى أهل الصال ما معهم من السهام

في جهة واحدة .

إلى لَعْمَرِي ، فزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم ، هل لها عده مثل ما له عدها ، فجعلت تُعْرِصُ عن حديثه ساعةً بعد ساعةٍ وتُحَدِّثُ عِيره ، وقد كان عَلَوٌ بقلبه مثل حَمًا إياه وشَعْفَتَهُ وأَسْتَلَحَها ، فيها هي تُحَدِّثُهُ ، إذ أقبل فتَي من الحَيّ فدَعَتْه وسارَتْه سرارا طويلا ، ثم قالت له . انصرف ، وطررت إلى وجه المحبون قد تَغَيَّرَ وأُنْتَقِعَ لونه وشَقَّ عليه فعلُها ، فأنشأت تقول :

كَلَانَا مُطَهَّرُ اللّاسِ مَغْصَا * وَكُلُّ عَدِ صَاحِبِهِ مَكِينُ
تُبَلِّغُ العَيُونُ بِمَا أَرَدْنَا * وَوِ القَلِيلِ ثَمَّ هَوَى دَفِينِ

فلما سمع البيتين شَهَقَ شَهَقَةً شَدِيدَةً وأَعْمَى عليه ، فكث على ذلك ساعة ، وبَصَحُوا الماء على وجهه حتى أَفاقَ وتمَكَّنَ حُ كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى لَمَعَ مَه كل مَلَع .

وعن أبي الهيثم العقيلي قال . لما شُهِرَ أمرُ المحبون وُلِي وتَاشَدَ الناسُ شَعْرَهُ فيها ، حَطَبَهَا وبَدَلَهَا حمسين ناقة حمراء ، وحطها ورُدُّ بن محمد العُقَيْلِي وبَدَلَهَا عَشْرًا من الإبل ورَاعِيَهَا ، فقال أهلُها . نحن نَخَيَّرُهَا بِسِكَا ، هي أَخْتَارَتْ تَزَوُّجَتَهُ ، ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تَحْتَارِي وَرَدًا لُتُثَلَّثَنَّ بِكَ ، فقال المحبون :

أَلَا يَا أَيْلَ إِن مُلْكَتِ فِينَا * حَيَارِكَ فَانظُرِي لِي الْخِيَارُ
وَلَا تَسْتَبْدِلِي مَتَى دَنِيًا * وَلَا بَرْمًا إِذَا حُثَّ الْقَتَارُ^(١)
يُهْرَوِلُ فِي الصَّعِيرِ إِذَا رَاهُ * وَتُعْجِزُهُ مُلَيَّاتُ كِبَارُ
فَنُلُ تَأَيَّمُ مَه بَكَاحُ * وَمِثْلُ تَمْوِي مَه أَفْقَارُ
فَاخْتَارَتْ وَرَدًا فَتَزَوُّجَتَهُ عَلَى كَرِّهِ مَهَا .

وقال :

أَيَا وَجْجَ مَنْ أَمْسَى تُحْلَسُ^(٢) عَقْلُهُ * فَأَصَحَّ مَدْهُوْنَا نَه كُلِّ مَذْهَبِ
حَلِيًّا مِنَ الْخِلَالِ إِلَّا مُعْدَرًا^(٣) * يُضَا حِكْمِي مَنْ كَانَ يَسْوَى تَجَنَّبِي

(١) الهم . الثقيل . (٢) القنار . ربح الهم المشوى . (٣) تحلس : سلب .
(٤) هو المقصر الذي لا عدله ولكنه يتكلف العذر ، ومنه قوله تعالى . (وحاء المددرون من الأهراب ليؤذن لهم) .

إذا ذُكِرْتَ لِي عَقَلْتُ وَرَاجَعْتُ * روائع عقل من هوى مُنْشَعِبٍ
 وقالوا صحيح ما به طيف جنة * ولا ألم إلا ما استراء التكتب
 وشاهد وحدى دمع عيني وحُبها * برى اللهم عن أحيان عظمى ومكي
 نَحَبْتُ لِي أَنْ يَلِجَ لك الهوى . وهيات كال الحث قل التجب
 ألا إنما عَدَرْتُ يَا أَمَّ مَالِكٍ * صَدَى أَيَّمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يُنْهَبُ
 فلم أَرِ لِي بعد مَوْقِفٍ سَاعَةٍ * بِخَيْفٍ مَنَى تَرِي جَمَارَ الْمُحْصَبِ
 وَيُبدى الحصى منها إذا قدمت به . من البُرْدِ أطراف البَانِ الْمُخْصَبِ
 فأصبحتُ من لَيْلَى الغداة كَأَطْرِ * مع الصبح في أعقابِ نَجمٍ مُغْرَبِ

قال أبو الفرج : أنشدني الأخفش عن أبي سعيد السكري عن محمد بن حبيب
 للجواب :

مِوالله ثم الله إني لدائن * أفكر ما دبي إليها وأعجب
 ومِوالله ما أدري علامَ قتليني * وأى أمورى فيك ياليل أركبُ
 ألقطع حبلى الوصل بالموت دونه * أم أنشرب رنقا مكم ليس يُسْرَبُ
 أم أهزأ حتى لا أرى لى مجاورا * أم أصنع ماذا أم أوح فأعلتُ
 فأتبها ياليل ما ترتصيه * فإنى لمظلوم وإنى لمعتبُ

وقال :

عَرَضْتُ عَلَى قَلْبِي الْعَزَاءَ فَقَالَ لِي * مِنْ الْآنَ يَا أَسْ لَا أَعَزُّكَ مِنْ صَبْرٍ
 إِذَا بَانَ مِنْ تَهْوَى وَأَصْبَحَ نَائِيًا * فَلَا شَيْءَ أَجْدَى مِنْ حُلُولِكَ فِي الْقَبْرِ

(١) الروائع . جمع رائحة ، أى مرثاة . (٢) الأحباء : جمع حو وهو كل شئ . فيه أعوجاج كعظم
 الجراح (العلم الذى ينت عليه المحاسب) والحقى والصلح . (٣) الصدى الجسد من الآدمى بعد موته ،
 ويطلق على الرجل الحبيب المحسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوت عقب صياحه راجعا إليه من
 نحو الحبل والسا . المرتفع .

وداع دعا إذ نحن بالخفيف من منى * فهيج أطراب الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما * أطار بليل طائرا كان في صدرى
دعا باسم ليلى صل الله سعيه * وليلى بأرض عه نازحة قمر

وقال :

أيا حلى نمان بالله حليا * سبيل الصبا يخلص إلى تسيما^(١)
أخذ بردها أو تشف من حرارة * على كعيد لم يبق إلا صميمها^(٢)
فان الصبا ريح إذا ما تنسمت * على نفس محزون تجلت همومها

وقال :

أيا حركات الحى حيث تحملوا * بدى سلم لا جادكن ربيع^(٣)
وحياتك اللاتي ممرح اللوى * يلين لى لم تبلهن رؤوس^(٤)
ندمت على ما كان منى ندامة * كما سدم المغبور حين يبيع^(٥)
فقدت من نفس شعاع فإنى * نهيتك عن هذا وأنت جميع^(٦)
فقرت لى غير القريب وأشرفت * إليك شأيا ما لحن طلوع^(٧)

وله :

يا صاحبي المأى بمرلة * قد مر حين عليها أيمما حين^(٨)
إنى أرى رحمت الحب تغلنى * وكان فى نثنها ما كان يكفني^(٩)
لا خير فى الحب ليست فيه قارعة * كأن صاحبها فى نزع موتون

-
- (١) الأطراب جمع طرب وهو حفة تقي الشخص من شدة العرج أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
(٣) الحركات جمع حرة وهي البصة ، وسميت بذلك لصيقها ، وقيل . الشحر الملتصق ، وهي أيضا الشجرة
تكون بين الأشجار لا تفصل لها الآكلة وهي ما رعى من المال . (٤) دوسلم : موضع بالحجاز .
(٥) يقال : هس شعاع إذا انشراها لم ينح لأمر حم . (٦) الخبيج . صلة المتعزق .
(٧) أشرفت : ظهرت وأرتفعت . (٨) الثاينا : جمع ثية وهي الطريقة في الحب ، وقيل : هي العقبة ،
وقيل . هي الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى ليل صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المصروب على
الوتين ، وهو عرق معلق بياض القلب .

إِنْ قَالَ عُدَّاهُ مَهْلًا فَلَانَ لَهُمْ : قَالَ الْهَوَىٰ عِرْهُدَا الْقَوْلِ يَعْنِي
أَلْقَىٰ مِنَ الْيَاسِ تَارَاتٍ فَتَقْتُلُنِي * وَلِلرَّحَاءِ بَشَاشَاتٌ فَتُحْيِي

وله :

أُمُسْتَقْبِلِي نَفْحَ الصَّامِ ثُمَّ شَانِقِي بَرْدِ شَايَا أُمِّ حَسَّانَ شَانِقِي
كَأَنَّ عَلَىٰ أَنْيَابِهَا الْخَمْرَ شَحْهَا ^(١) بِمَاءِ الْبَدَىٰ مِنْ أَنْعَرِ اللَّيْلِ عَاتِقِي ^(٢)
وَمَا شِمْتُهُ إِلَّا بَعِينِي تَفَرُّسًا * كَمَا شِيمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ

وروى الأصمعي له قوله .

أَحَدْتُ مَحَاسِنَ كُلِّ مَا * صَدَّتْ مَحَاسِنُهُ بِحُسْنِهِ
كَادَ الْغَزَالُ يَكُونُهَا * لَوْلَا الشَّوَى وَتَشْوِزُ قَرْنِهِ

قال : وهو القائل :

وَلَمْ أَرْ لَيْلَىٰ بَعْدَ مَوْقِفِ سَاعِهِ * بِجَيْفٍ مَيِّ رِيٍّ جِمَارَ الْمُحْصَبِ
وَيُنْدِي آلْحَصَىٰ مِنْهَا إِذَا قَدَفَتْ بِهِ * مِنَ السُّبُرِ أَطْرَافَ السَّائِ الْمُحْصَبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى النَّدَاةَ كَخَاطِرٍ * مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَحْمٍ مُغْرَبٍ
أَلَا إِنَّمَا عَادَرْتُ يَا أُمُّ مَا لَكَ * صَدَىٰ أَيَّمَا تَذَهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ

وقال :

يَقُولُ أَنَاسٌ عَلَىٰ مَحْنَوْبٍ عَامِرٍ * يَرُومُ سُكُوكًا قُلْتُ أَنَّىٰ لِمَا يَبَا
وَقَدْ لَامَنِي فِي حُبِّ لَيْلَىٰ أَقَارِي * أَحَىٰ وَأَبْسُ عَمَىٰ وَأَبْسُ حَالِي وَحَالِيَا
يَقُولُونَ لَيْلَىٰ أَهْلُ بَيْتِ عَدَاوِهِ * بَعْسَىٰ لَيْلَىٰ مِنْ عَدُوٍّ وَمَالِيَا
وَلَوْ كَانَ فِي لَيْلَىٰ شِدَادٌ مِنْ خُصُومَةٍ * لَلَّوَيْتُ أَعْقَابَ الْمَطْلَىٰ ^(٣) الْمَلَاوِيَا

(١) شحها : مزحها . (٢) العاتق : الكراقي لم تبس عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة

هنا وإن كلمة «عائق» محزنة عن «ساق» وهو الساق في البوق أى العنق .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمى من لوى بمعنى حلف .

وقال :

ألا ما لِلَّيْلِ لَا تُرَى عَدَمَ مَصْجَعِي * لَيْلٍ وَلَا يَحْرَى بِذَلِكَ طَائِرُ
 سَلَى إِنْ نَحْمُ الطَّيْرَ تَحْرَى إِذَا حَرَتْ * لَيْلٍ وَلَكِنْ لَيْسَ لِلطَّيْرِ زَاغِرُ
 أَزَالَتْ عَنِ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَا * بِذِي الْأَثَلِ أَمْ قَدْ عَيَّرْنَا الْمَقَادِرُ
 فَوَاللَّهِ مَا فِي الْقُرْبِ لِي مِنْ رَاحَةٍ . وَلَا الْبَعْدُ يُسَلِّينِي وَلَا أَنَا صَابِرُ
 وَوَاللَّهِ مَا أُدْرِى بَأَيَّةِ جِيلَةٍ ، وَأَيَّ مَرَامٍ أَوْ خَطَايَا أُحَاطِرُ^(١)
 وَتَأَنَّهُ إِنَّ الدَّهْرَ فِي ذَاتِ بَيْبَا * عَلَيَّ لَهَا فِي كُلِّ حَالٍ لَجَائِرُ
 فُلُوكَيْتِ إِذَا رُمِعَتْ هَجْرِي تَرْكَيْتِي * حَمِيعُ الْقَوَى وَالْعَقْلُ مَيَّ وَاسِرُ^(٢)
 وَلَكِنْ أَيَّامِي بِحَقْلِ عَيْرَةٍ * وَبِالرَّحْمِ أَيَّامُ جَاهَا التَّحَاوُرُ^(٣)
 وَقَدْ أَصَحَّ الْوُدُّ الَّذِي كَانَ بَيْنَا * أَمَائِي بِمَنْ وَالْمَوْثُلُ حَائِرُ
 لَعَمْرِي لَقَدْ رَفَقْتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ * حَيَاتِي وَسَاقَتْنِي إِلَيْكَ الْمَقَادِرُ^(٤)

وقال :

يَا لَلرَّحَالِ لَهُمْ بَاتٌ يَعْرِوْنِي * مُسْتَطَرَفٍ وَقَدِيمٍ كَانَ يَعْنِينِي
 عَلَى عَرِيمٍ مَلِيءٍ عَرِيدِي غُدُمٍ * يَا بَنِي فَيْمُطْلِي دَنِي وَيَلْوِينِي^(٥)
 لَا يَذْكُرُ الْبَعْضُ مِنْ دَنِي فَيُنْكِرُهُ * وَلَا يُحَدِّثُنِي أَنْ سَوْفَ يَقْصِينِي
 وَمَا كَثُرَتْ شُكْرُ لَوْ يُوَافِقُنِي * وَلَا مَنِي كَمَاءَهُ إِذْ يُبْمِينِي^(٦)

(١) الخطار . مصدر من حاطر بمعنى راه .

(٢) جميع . مجتمع . (٣) الحقل . المرة و يطلق على الموضع البكر الذي لم يزرع فيه قط .

وعيرة : موضع بين الصرة ومكة . وألوصم : موضع على ستة أميال من رُمالة ، ورمالة : جبل معروف بطريق مكة من الكوفة . (٤) رفقت : كدرت ، والتزنيق كما يطلق على التكدير يطلق على صده الذي هو التصدية .

(٥) مل . بالهمز أى نقصة عي . قال صاحب اللسان : وقد أروع فيه الناس ترك الهمز وتشديد الياء .

(٦) عدم أى فقر ومثله عدم بهم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : إذا ضمت أوله جعلت قلت :

العدم وإذا جحت أوله قلت قلت . الدم . (٧) يلوي : يعلو ، يقال . لواء ديه ويديه . مطله .

أَطْعَمْتُهُ وَعَصَيْتُ السَّاسَ كُلَّهُمْ . في أمره ثم يَأْتِي فهو يَعْصِي
حَيْرِي لِمَنِ يَتَنَبَّأُ حَيْرِي وَيَأْمُلُهُ * من دون شَرِي وشَرِي غير مَأْمُون
وما أَشَارِكُ في رَأْيِي أَحَا صَعِيفٌ ^(١) * ولا أَقُولُ أَنِّي مِنْ لَا يُؤَاتِينِي ^(٢)

وله :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي لَا أَزُورُهُ * وَإِنِ حَلَّ شَخْصٌ إِلَى حَيْبٍ
هَجَرْتُكَ إِشْمَاقًا وَزَرْتُكَ حَائِثًا * وَفِيكَ عَلَى الدَّهْرِ مَكَرٌ رَقِيبٌ
سَاسْتَعِيبُ الْإَيَّامِ فِيكَ لَعْلَهَا * بِيَوْمِ سُورٍ فِي الرَّمَاثِ تَوْوُبٌ

ولم يجدوا أن أهل ليل يريدون نقلها إلى التَّقْفِي فقال :

كَانَ الْقَلْبُ لَيْلَةً قَبْلَ يَعْدَى * بَلِيلُ الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاجُ
قَطَاهُ عَزَّهَا شَرُّكَ مَاتَتْ * تُحَادِدُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَمَاحُ

لما قِيلَتْ لَيْلٌ إِلَى التَّقْفِي قال :

طَرِبْتُ وَشَاقَتَكَ الْجُمُولُ الدَّوَامُ * عَدَاةُ دَعَا الْبَيْنِ أَسْفَعُ ^(٤) مَارُعُ
شَخَا ^(٥) فَاهُ نَعْمًا بِالْمَرَاقِ ^(٦) كَأَنَّهُ * حَرِيبٌ ^(٧) سَلِيبٌ مَارُحُ الدَّارِ حَارِغُ
فَقُلْتُ أَلَا قَدْ بَيْنَ الْأَمْرِ فَانْصِرَفِ ^(٨) فَقَدْ رَاعَا بِالْبَيْنِ قَبْلَكَ رَائِعُ
سُقِيتَ سُمُومًا مِنْ عَرَابٍ فَلَائِي * تَبَيَّنْتُ مَا خَبَّرْتَ مَدَّ أَنْتَ وَاقِعُ

(١) الصعف هكذا التحريك . لغة في الصعف بالفتح والسكون . ويستعمل في صعف الرأي والعقل ،
وأشد عليه من الأعراق هذا البيت . ويستعمل في صعف الجسم وأشد عليه :
ومن يلق حيرا يصير الدهر عظمه * على صعف من حاله وقصور

(٢) يواتيني : يساعدني .

(٣) الجمول في الأصل : الموادح واحدها حمل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل في الإبل التي عليها الموادح .
والدوام : المددعة في السير . (٤) كذا في أغلب النسخ وتزييه الأسواق . وفي ب ، سد .
«أهمم» والأسمع والأهمم معاهما واحد وهو الأسود . والدارع السريع . والمراد الأسمع البارع «المراب» .
(٥) شخاه يشموه ويشناه . فتحه . (٦) نما . صابحا وتصويتا . (٧) الحريب من
سلب حريته وهي ماله الذي يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبين ، ومنه المثل «قد بين الصبح لدى عيين» .

ألم تَرَ أَنِّي لَا يُحِبُّ أَلُومُهُ * وَلَا يَسْدِيلُ بَعْدَهُمُ أَنَا قَانِعُ
 أَلَمْ تَرِدَارَ الْحَيَّ فِي رَوْقِ الصَّحَى * عَيْثُ أَنْخَسْتُ لِلْمُضْبِتِينَ الْأَجَارِعُ
 وَقَدْ يَتَنَاءَى الْإِلْفُ مِنْ بَعْدِ أُلْفَةٍ * وَيَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْخَلِيطَيْنِ صَادِعُ
 وَكَمْ مِنْ هَوَى أَوْ جَبْرٍ قَدْ أَلْفَتْهُمْ * زَمَانًا فَلَمْ يَمَعُمُ الْبَيْنَ مَانِعُ
 كَأَنِّي عِدَاءُ الْبَيْنِ مَيِّتٌ جَوِيَّةٌ * أَحْوِطُهَا سُدَّتْ عَلَيْهِ الْمَشَارِعُ
 تَخْلُسُ مِنْ أَوْشَالِ مَاءِ صُبَاةٍ * فَلَا الشَّرْبُ سَدُولٌ وَلَا هُوَ نَاقِعُ
 وَبِصِّ تَطَلَّى بِالْعَبِيرِ كَأَنَّهَا * بِعَاحِ الْمَلَأِ جِيَّتْ عَلَيْهَا الْبَرَاقِعُ
 تَحْتَلِّي مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ فَأَوْمَصَتْ * لَهْنِ مَاطِرَافِ الْعَيُوبِ الْمَدَامِعُ
 هُمَا رَمْسٌ رَمْعُ الدَّارِ حَتَّى تَشَابَهَتْ * هُمَا نَهْجٌ وَالْحَوْرُ مِنْهَا الْخَوَاضِعُ
 وَحَى حَمْلُ الْحَوْرِ مِنْ كُلِّ حَابٍ * وَحَاصَتْ سَدُولُ الرَّقْمِ مِنْهَا الْأَكَارِعُ

(١) المصنعتان . منى هصة وهى الزاوية أو الحبل المسط على الأرض أو الحبل المخلوق من صخرة واحدة ، والأخارع : جمع أخرج ، والأخرج كالخرما . الأرض ذات الحروة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تشبه شيئا (أطراف اللسان فى ماذق هصب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى

المهوى وهو المحبوب ، ومنه قول الشاعر

هَوَاىَ مَعَ الرِّكَبِ الْيَتَامَى مُصِيدٌ * حَيْثُ وَخُنَايَ بِمَكَّةَ مُوقِفٌ

(٣) الحسوة : هضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تخلس الشيء : انته وأخذ حلسة .

(٥) الأورشال جمع وشل وهو الماء القليل . والصاوة : قبة الماء تنق فى الأمان والسقاء . (٦) هو من شفع بمعنى روى . (٧) الملا . الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة . (١٠) معناه ما رحى . يقال ما رام المكان أى ما رحه . (١١) الهماش . الابل البيضاء الكريمة واحداها هماش . والحور جمع حور هتح الحيم وهو الأسود المشرى بحمرة ، ويطلق على الأسود الجموى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأعداد . (١٢) الخواصع الابل وإما يقال لها خواصع لأنها تحصع أعناقها حين يحدتها السير ، قال جرير .

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْمَلَى حَوَاصٍ * وَكَأَنَّهَا قَطَا فَالَاةٌ مَحْمِلٌ

(١٣) الحور . جمع حوراء وهى البيضاء أو من فى عينها حور وهو شدة سواد القلة فى شدة بياضها .

(١٤) السدول جمع سدبل وهو ما يحلل به المودح من الثياب . (١٥) الأكراع : جمع أكرع

والأكرع جمع كراع ، أو الأكراع كما يقول سيويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الإنسان : مادنون الركبة الى الكعب ، ومن الدابة قواعها مطلقا .

فلما استوت تحت الخدور وقد جرى * عبير ومسك بالعراب رادع^(١)
 أشرق بأن حثوا الحال فقد بدا ، من الصيف يوم لائح الحر مائع^(٢)
 فلما لحقنا بالحوال تباشرت * بنا مقصرا عاب عنها المطامع^(٣)
 يعرض بالدلل المليح وإب يرد . حاهن مشعوف هت موانع^(٤)
 فقلت لأصحابي ودمي مسبل ، وقد صدع الشمل المشئت صادع^(٥)
 ألبلى بأواب الخدور تعزست * لعني أم قر من الشمس طالع^(٦)
 وروى أن أما المجنون حج به ليدعو الله عز وجل في الموقف أن يعاينه ، فسار ومعه أن^(٧)
 عمه رباد بن كعب بن مراحم ، فتر بحمامة تدعو على أئكة فوق يميني ، فقال له زياد :
 أى شئ هدا ، ما يئيك أيضا ، سر بنا لبحق الرقة ، فقال :

أب هتفت يوما بواحد حمامة * بكيت ولم يعذرك بالحلل عاذر^(٨)
 دعت ساق حر بعد ما علت الصبحى . فهاج لك الأحران أن ماح طائر^(٩)
 نعتي الصبحى والصبحى في مرجحة^(١٠) * تجاف الأعالي تحتها الماء حائر^(١١)
 كأن لم يكن بالفضل أو بطل أئكة^(١٢) * أو الخزع من تول الأشاء حاصر^(١٣)

- (١) المراد الماردع هنا المردوع به الحسد أو الثوب وهو العبير والمسك . وأصل الردع الطلع بالطيب والزعفران ، يقال . قيص رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والزعفران ، وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما « لم يبه عن شئ من الأدوية الا عن المرعرة التى تردع الخلد » أى تمنع صمها عليه . (٢) المائع الطويل . (٣) مقصرات . جمع مقصرة أى داخله فى القصر وهو العنى ، يقال أئنه قصرا أى عشا ، وأقصرا أى دخلنا وقصر العنى ، كما تقول أمسيبا من المساء من أقصرت الحارية اذا ملقت عصر شامها ، أو من أقصرت أى دخلت فى العصر (انظر لساد العرب مادة قصر) . (٤) ندعو . قصرت وتوج . (٥) ساق حر أصله صوت القمارى و يطلق على الذكر من القمارى تسمية له اسم صوته وهو الماردع هنا (انظر اللسان مادق سوق وحر) . (٦) المرجحة الهترة المتأيلة . (٧) حائر متردد . (٨) البيل : اسم لعدة مواضع والطاهر أن المراد هنا واد لى حمدة وهم قوم المخون . (٩) الأئكة العيصة الملتصمة الأشجار ولم يجد فى الكتب التى بأيدينا « أئكة » ولا « بطل أئكة » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الخزع . معطف الوردى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون خزع من حمار وهو واد بالجمامة . (١١) الأشاء . موضع بالجمامة فيه نخيل . ولعل كلمة « تول » محذوفة عن « تال » والتال : صغار النمل واحدة تالة .

يقول زيادٌ إِدْ رَأَى الْحَيَّ هَجَرُوا^(١) * أَرَى الْحَيَّ قَدْ سَارُوا فَهَلْ أَنْتَ سَائِرٌ
وَإِنِّي وَإِنْ عَالٌ التَّقَادُّمُ حَاجَتِي مُلِمٌّ عَلَى أَوطَابٍ لَيْلَى فَخَاطِرُ^(٢)

كَانَ الْمَجْبُودُ وَلِيْلَى وَهُمَا صَبِيَّانِ يَرْعِيَانِ عَمَّا لِأَهْلَهُمَا عَدَّ جَبَلٍ فِي بِلَادِهِمَا يُقَالُ لَهُ
التَّوَادُ^(٣)، فَلَمَّا ذَهَبَ عَقْلُهُ وَتَوَحَّشَ، كَانَ يَجِيءُ إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ فَيَقِيْمُهُ بِهِ، إِذَا تَذَكَّرَ أَيَّامَ
كَانَ يُطِيفُ هُوَ وَلِيْلَى بِهِ حَرِجَ جَرَا شَدِيدًا وَأَسْتَوْحَشَ فَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى يَأْتِيَ نَوَاحِي
الشَّامِ، إِذَا نَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ رَأَى لَمَدًا لَا يَعْرِفُهُ فَيَقُولُ لِلنَّاسِ الَّذِينَ يَلْقَاهُمْ : مَا بِيَ أَنْتُمْ، أَيْنَ
التَّوَادُ مِنْ أَرْضِ بِي عَامِرٍ ؟ يُقَالُ لَهُ : وَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ أَرْضِ بِي عَامِرٍ ! أَنْتَ بِالشَّامِ
عَلَيْكَ بِجَمِّ كَذَا قَامَةٌ، فَيَمْصِي عَلَى وَجْهِهِ نَحْوَ ذَلِكَ الْحَمِّ حَتَّى يَقَعَ بِأَرْضِ أَيْنَمٍ، فَبَرَى بِلَادًا
يُنَكِّرُهَا وَقَوْمًا لَا يَعْرِفُهُمْ فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ التَّوَادِ وَأَرْضِ بِي عَامِرٍ، فَيَقُولُونَ : وَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ
أَرْضِ بِي عَامِرٍ ! عَلَيْكَ بِجَمِّ كَذَا وَكَذَا، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَقَعَ عَلَى التَّوَادِ، إِذَا رَأَاهُ
قَالَ فِي ذَلِكَ :

وَأَحْهَشْتُ لِلتَّوَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ * وَكَبَّرَ لِلرَّحْمِ حِينَ رَأَيْتِي
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا عَرَفْتُهُ * وَبَادَى مَعْلَى صَوْتِهِ فَدَعَا بِي
فَقُلْتُ لَهُ قَدْ كَانَ حَوْلَكَ حَيْرَةٌ * وَعَهْدِي بِذَلِكَ الصَّرْمِ مَدَّ زَمَانٍ
فَقَالَ مَصَّوًّا وَأَسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ . وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ
وَإِنِّي لِأَبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَدَرِي عَدَا * فِرَاقَكَ وَالْحَيَابِ مُخْتَمِعَانِ
بِحَالَا وَتَهَنَّا وَوَنَلَا وَدِمَّةً * وَسَحَابًا إِلَى هَمَلَابِ^(٤)
^(٥) ^(٦) ^(٧)

- (١) هَجَرُوا . سَارُوا فِي وَقْتِ الْهَجَرَةِ . (٢) عَالُ الشَّيْءِ . ذَهَبَ بِهِ . (٣) التَّوَادُ (بِالذَّالِ
الْمُهْمَلَةِ) وَهُوَ الْمَوَاقِفُ لِمَا فِي مَعْنَى مَا أَسْتَعِمُّ السَّكْرَى إِذَا قَالَ فِي صُطْبِهِ . هُوَ هَتَّحَ أَزْلَهُ وَهِيَ مَعْمَةٌ وَاحِدَةٌ وَذَالُ
مُهْمَلَةٌ وَأَشَدُّ عَلَيْهِ : * وَأَحْهَشْتُ لِلتَّوَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ * . الْبَيْتُ .
وَصُطْبُهُ يَأْفُوتُ بِالذَّالِ الْمُهْمَلَةِ فَقَالَ فِي مَعْنَى « تَوَادٌ » مَا لَفَتَحَ ثَمَّ السُّكُونُ وَالذَّالُ مُوَحَّدَةٌ وَآخِرُهُ ذَالُ مَعْمَةٌ :
حَلَّ بِمَجْدٍ . (٤) أَحْهَشْتُ : تَهَيَّأْتُ لِلْكَلَامِ . (٥) يُقَالُ : هَتَّحْتُ السَّيَاءَ تَهْتِجُ هَتَا وَتَهْنَأُ أَيْ صَبَتْ .
(٦) يُقَالُ : سَحِمْتُ السَّحَابَةَ مَطَرَهَا تَسْحِيًا وَتَسْحَامًا إِذَا صَبَتْ . (٧) الْهَمْلَانُ . فَيَصُ الْعَيْنُ بِالْذَّوِجِ .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح : يا ليلي في ليلة ظلماء أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال . ما سمعت شيئا ، قال . لي ، والله هاتف يهتف بليلى ، ثم أنشأ يقول :

أقول لأدنى صاحبي كلمة ، أسرت من أقصى أجناس الماديا
إذا سررت في الأرض المقضاء رأيتني * أصابع رحر أن يميل جباليا
يمينا إذا كانت يمينا وإن تكن * شمالا يارعي الهوى عن شماليا

خطب ليلى صاحبة المحنون جماعة من قومها فكبرهتهم ، فخطبها رجل من ثقيف مؤسر فرصيته ، وكان جميلا فتزوجها ونرح بها ، فقال المجنون في ذلك :

ألا إن ليلى كالمسحاة أصبحت * تقطع إلا من ثقيف حالها
فقد حبسوها بحبس الدن وأبتنى . بها الرمح أقوام تساحت مالها^(١)
حابل هل من حيلة تعلمانها * يذني لنا تكليم ليلى احتيالها
وإن أنتم لم تعلموها فلسما * بأول باع حابة لا ينالها
كأن مع الرك الذين اعتدوا بها * عمامة صيف زعزعتها شمالها
نظرت بمقصي سيل جوشن إذ عدوا * تحب أطراف الخارم ألها^(٢)
بشافية الأحرار هيج شوقها * محامعة الألاف ثم زيالها
إذا ألتفتت من حلفها وهي تتلى . بها العيس حلى عبرة العين حالها

(١) الرجل . ما يوضع على العير للركوب ثم يعبر به عن العير .

(٢) المبيحة أو الأصل . الشاة أو الالة يعطها صاحبها رجلا يشر لها ثم يردّها إذا انقطع المن ، ثم كثر استعمالها في كل موهوب . (٣) يقال أبحمت ماله . استأصله وأصدّه ، ومال مسحوت ومسحت أي مذهب . وأبحمت تجارتها . حثت وحرمت ، ولم يحده في كتب اللغة « تساحت » على وزن تعامل من هذه المادة

(٤) لم يحده في بلاد العرب ما يسمى جوشن إلا حلا في عرق حلب . (٥) المحارم (بالراء المهملة)

جمع محرم وهو الطريق في الحل أو الزمل .

وَأَحْسِسُ عَلَيْكَ الْمَسَّ وَالْمَسُّ صَنَةٌ * بِذِكْرِكَ وَانْتَمَى إِلَيْكَ قَرِيبُ
مَخَافَهُ أَنْ تَسْعَى الْوُشَاهُ بَطْنِيَّةً * وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ
فَقَدْ حَلَعْتُ نَفْسِي - وَأَنْبِ أَحْرَمَتِي * وَكَتَبْتُ أَعْرَ النَّاسِ - عَلَيْكَ تَطْبِيبُ
فَلَوْ شِئْتُ لَمْ أَعْصَبْتُ عَلَيْكَ وَلَمْ يَزَلْ * لَكَ الدَّهْرُ مِنِّي مَا حَيْثُ نَصِيبُ
أَمَّا وَالَّذِي تَلَوُ السَّرَائِرَ كُلَّهَا * وَيَعْلَمُ مَا تُنْصِي بِهِ وَتَقِيْتُ
لَقَدْ كَتَبْتُ مِنْ تَصْطَفِي الْمَسُّ حُلَّةً * لَهَا دُونَ حُلَانِ الصَّمَاءِ مَحْوُتُ

٢ - قيس بن ذريح^(١)

من شعر قيس .

يَقُولُونَ لَنُنَى فِتْنَةً كَتَبْتُ قَلْبَهَا * بِحَيْرٍ فَلَا تَدَمُّ عَلَيْهَا وَطَلَّقَ
فَطَاوَعْتُ أَعْدَائِي وَعَاصَيْتُ نَاصِحِي * وَأَقْدَرْتُ عَيْنَ الشَّامِتِ الْمُتَحَاقِ
وَدِدْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ أَنِّي عَصَيْتُهُمْ * وَحُمَلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلِّ مُوَبِّقِ
وَكُلَّمْتُ خَوْضَ الْحَرِّ وَالْحَرُّ رَاحٌ * أَيْبْتُ عَلَى أَشْحَاحِ مَوْحِ مَغْرَقِ

(١) هو قيس بن ذريح الكنانى من لبث بن بكر كان مبرل قومه بطاهر المدينة . من لمص صاحته بحيام
حتى كتب بن حراة فرأى لى بنت الحباب الكعبية ، وكانت فاة جميلة ، فعلقها ، فعلقها من أبيه فمنه إياها لمكانه من
الزوة ، وكان يريد أن يرحمه من مات عمومه حتى يموت تراثه في أهله ، فطارب قيس وتقسمت بهه وذهب ،
فاستشيع بأحبه من الرضاع ، الحسين بن علي ، فوجد ما أحب وتروحها ومكنا زما ولم يبقا ، وشعل قيسا حب لى
عن مواساة أمه فاضطعت على روحه وسعت بها عد أبيه متحدة عدم الولد سلها ترقى به الى شرها ، فطلب اليه أبوه
أن يطلقها فأى ، فزال به بالوعد والوعيد حتى أحانه الى طلبه ، وكان في ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حفظ
وعقل في هذه الحياة ولم يصنع ترو به غيرها ، وطارت بهه شعاعا وذهب على وجهه يتنسم أخار لى ويمرغ حده
في آثارها ، وبقي طول حياته يساقط من بهه على شعره عير عانى شقا . بده وإهدار دوه حتى لعط العس الأخير .
وأحار قيس كشيرة في الأسارى (ح ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومه نسخة
في مكتبة الاسكود بال وعيرها في برلى .

كأنى أرى الناس المحبين بعدها * عُصَارَةَ مَاءِ الحِطْلِ المتعلق
فَكَرَّ عَيْنِي بعدها كُلَّ مَنْظَرٍ ، ويكره سَمْعِي بعدها كُلَّ مَنَاطِقٍ

ونخرج قيس في فتيه من قومه واعتل على أبيه بالصيد ، فأتى بلاد لُثَيٍّ ، فجعل يتوقع
أن يراها أو يرى من بُرَيْلِ إليها ، فأشتعل الفتيان بالصيد ، فلما قصوا وطَّروهم منه رجعوا إليه
وهو واقف ، فقالوا له : قد عرفنا ما أردت بإخراجه معك وأنت لم تُردِّد الصيد وإنما أردت
لقاء لثي وقد تعدد عليك ، فانصرف الآء ، فقال :

وما حائمتُ حُمًى يوماً وليلةٌ على الماءِ يَعْشِينَ الْعِصَى حَوَانِي
عَوَانِي لَا يَصْدُرُنَّ عَهْ لَوْحِهِ * ولا هن من برد الحياض دَوَانِي
يَرْنُ حَبَابُ الْمَاءِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ فَمِنْ لَأَصْوَاتِ السُّقَاهِ رَوَانِي
أَحْمَدَمِي حَرَّ شَوْقٍ وَلَوْعِهِ * عَلَيْكَ وَلَكِنَّ الْعِدْقَ عِدَانِي
حَلِيلَتِي إِنِّي مَيِّتٌ أَوْ مَكْتُمٌ * لُثَيْتِي سَرَّيْ فَأَمِصِيَا وَذَرَانِي
أَنْلُ حَاقِي وَحَدِي وَبَارْتِ حَاقِي * قَضَيْتُ عَلَى هَوْلٍ وَخَوْفٍ حَنَانِي
هَائِي أَحَقُّ النَّاسِ أَلَا تُحَاوِرَا * وَطَرِحَا مِنْ لَوْيَسَاءِ شِفَانِي
وَمِنْ قَادِنِي لَوْتُ حَتَّى إِذَا صَفَتْ مِشَارِهِ السَّمَّ الدُّعَاوُ سَقَانِي
فَأَقَامُوا مَعَهُ حَتَّى لَمِيهَا .

لَمَّا أَلَحَّ دَرِيحٌ عَلَى أَسَهِ قَيْسٍ فِي طَلَاقِ لُسْنِي فَأَتَى ذَلِكَ قَيْسٌ ، طَرَحَ ذَرِيحَ بَسَّهِ
فِي الرَّمْصَاءِ وَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَرُمُّ هَذَا الْمَوْصَعَ حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يُجَلِّيَهَا ، بَلَّغَهُ قَوْمُهُ مِنْ كُلِّ
نَاحِيَةٍ فَعَظَّمُوا عَلَيْهِ الْأَمْرَ وَدَكَرُوهُ بِاللَّهِ وَقَالُوا : أَتَفْعَلُ هَذَا بِأَيِّكَ وَأَمَّا ! إِنْ مَاتَ شَيْخُكَ
عَلَى هَذِهِ الْحَالِ كَتَبْنَا مُعِيَا عَلَيْهِ وَشَرِيكَ فِي قَتْلِهِ ، فَعَارَقَ لُثَيٌّ عَلَى رَغْمِ أَنْفِهِ وَقَلَّةِ صَبْرِهِ
وَبَكَاءِهِ مَعَهُ حَتَّى بَكَى لَهَا مِنْ حَضْرَمَاهَا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَقُولُ لِحَلِيلِي فِي عَيْرِ حُرْمٍ * أَلَا بَيْنِي وَبِنَفْسِي أَنْتِ ، بَيْنِي
وَاللَّهِ الْعَظِيمِ لَتَزْعُ نَفْسِي * وَقَطَعُ الرِّجْلَ مِنِّي وَالْجَبِينَ

أَحِبُّ إِلَى يَأْتُنِي فِرَاقًا * فَبَكَى لِلْفِرَاقِ وَأَسْعَدِي
ظَلَمْتُكَ بِالطَّلَاقِ عَيْرَ جُرْمٍ * فَقَدْ أَذْهَبَتْ آخِرَتِي وَدِينِي

قال : فلما سمعت بذلك لبني نكت بكاء شديداً ، وأنشأت تقول :

رَحَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ بَلَدِي وَأَهْلِي * بِحَازَانِي جِزَاءَ الْخَالِثِيَا
فَمَنْ رَأَى فَلَا يَفْتَرُ بَعْدِي * بِمُحَلِّو الْقَوْلِ أَوْ يَبْلُو الدُّبَا

فلما آنقصت عذتها وأرادت الشحوص إلى أهلها أُتيت براحلة تُحَمِّلُ عليها ، فلما رأى ذلك قيسٌ داخله أمر عظيم وأشدت لهفه ، وأنشأ يقول :

بَانَتْ لُبْنِي فَانَتْ الْيَوْمَ مَنَوُ * وَإِنَّكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْحَزْمِ مَخَوُ
فَأَصْبَحْتُ عَكَ لِنِي الْيَوْمَ مَارَحَةً * وَدُلُّ لِنِي - لَهَا الْخِرَاتُ - مَعْسَوُ
هَلْ تَرَجِعَنَّ نَوَى لِبْنِي عَاقِبَةً * كَمَا عَهَدْتُ لِيَالِي الْعَشْقُ مَقُولُ
وَقَدْ أَرَانِي بَلْبَنِي حَقَّ مَضِيحٍ * وَالشَّمْلُ مَجْتَمِعٌ وَالْجِلْبُ مَوْصُولُ
فَصَرْتُ مِنْ حَتِّ لَبْنِي حِينَ أَذْكَرَهَا * الْقَلْبُ مَرَّتَهُ وَالْعَقْلُ مَدْحُولُ
أَصْبَحْتُ مِنْ حَبِّ لَبْنِي بَلْ تَذْكَرَهَا * فِي كُرْبَةٍ فَمَوْادِي الْيَوْمَ مَشْعُولُ
وَالْجَسْمُ مَتَّى مَهْلُوكٌ لَهْرَقَتَهَا * يَتَرِيهِ طَوْلُ سَقَايِمٍ هُوَ مَنَحُولُ
كَأَنِّي يَوْمَ وَلَّتْ مَا تَكَلَّمَنِي * أَحْوَهُ يَامَ مَصَابُ الْقَلْبِ مَسْلُولُ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ لَنِي إِذَا تَفَارَقَنِي * عَنِ غَيْرِ طَوِيْعٍ وَأَمْرُ الشَّيْخِ مَفْعُولُ

ثم ارتحلت لبني ، فجعل قيس يقبل موضع رحلها من الأرض وحول خائها ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل واللوم ، فقال دريح لما رأى حاله تلك : قد جئت عليك يا بُنَيَّ ، فقال له قيس : قد كنت أحبرك أني مجنون بها فلم ترض إلا بقتلي ، فأنه حسبك وحسب أمي . وأقبل قومه يعدلون في تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

مَا حُجِّي لِطَيْبِ تَرَابِ أَرْضٍ * وَلَكِنْ حَتِّ مِنْ وَطْئِ التُّرَابِ
بِهَذَا فَعَمَلُ شَيْخِيًّا جَمِيعًا * أَرَادَا لِي اللَّيْلَةَ وَاللَّذَابَا

وله قصيدة طويلة في تطليقه لبني يقول فيها :

فَوَاكَيْدِي وَعَاوَدَنِي رُدَايِي * وَكَانَ رَأَى لَنِي كَالْجَدَايِ^(٢)
تَكْتَفِنِي الْوُشَاةُ فَازْجَعُونِي * فَيَا لَلِهَ لِلْوَأَشَى الْمُطَاعِ
فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةُ الْوُمُ نَفْسِي * عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ مَسْتَطَاعِ
كَمَغْبُورٍ يَعْصُ عَلَى يَدِيهِ * تَبَيَّنَ عَبَّهَ بَعْدَ الْبِيَاعِ
بِدَارِ مِصْبِغَةِ تَرْكُكِ لُبْنِي * كَذَاكَ الْحَيْنَ يُهْدَى لِلصَّاعِ
وَقَدْ عَشَا نَلَذَّ الْعَيْشَ حَيًّا . لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ لِلْإِنْسَانِ وَاعِي
وَلَكِنَّ الْجَمِيعَ إِلَى أَفْتِرَاقٍ * وَأَسَابَ الْخُتُوفَ لَهَا دَوَاعِي

واجتمع إليه نسوة فأظنَّ الخلوَّ عده وحادثه وهو ساهٍ عنهنَّ، ثم نادى : يا لبني،
فقل له : مالك ويحك ؟ فقال : حَدِثْ رَجُلِي « ويقال : إن دماء الإنسان باسم أحبَّ
الناس إليه يُذهب حَدَرُ الرجل ، ماديتها لذلك . وقال :

إِذَا حَدِثْتُ رَجُلِي تَذَكَّرْتُ مِنْهَا * مَا دَيْتُ لُبْنِي بِأَسْمِهَا وَدَعَوْتُ
دَعَوْتُ الَّتِي لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي * لِفَارِقَتِهَا مِنْ حَبِّهَا وَقَصِيْتُ
بَرَّتْ نَبْلَهَا لِلصَّيْدِ لُبْنِي وَرَيْسْتُ * وَرَيْسْتُ أُخْرَى مِثْلَهَا وَبَرَيْتُ
فَلَمَّا رَمَنِي أَقْصَدْتَنِي بِسَهْمِهَا * وَأَحْطَأْتُهَا بِالسَّهْمِ حِينَ رَمَيْتُ
وَفَارَقْتُ لُبْنِي صَلَّةً فَكَأَنِّي * قَرُبْتُ إِلَى الْعَيُوقِ ثُمَّ هَوَيْتُ^(٣)
فِيَالَيْتَ أَنِّي مِتُّ قَلَّ فِرَاقُهَا * وَهَلْ تَرَجِعُنْ فَوْتَ الْقَصِيَّةِ لَيْتُ
فَصَرْتُ وَشِيعَى كَالَّذِي عَثَرْتُ بِهِ * عِدَاةَ الْوَعَى بَيْنَ الْعُدَاةِ كُنَيْتُ
فَقَامْتُ وَلَمْ تَضُرْهُنَّ إِلَّا سَوِيَّةً * وَفَارَسُهَا تَحْتَ السَّابِكِ مَيْتُ
فَأَنْ يَكُ تَهْمَايَ لُبْنِي غَوَايَةً * فَقَدْ يَا ذَرِيْعُ سَاحِلَابِ غَوَيْتُ

(١) الزداع . الكس ، وهو رجوع المرص . (٢) الخداع الموت (٣) هو نحم أحرصي

في طرف الهرة الأيمن يتلوا اثرها لا يتقدمها .

فلا أت ما أملت في رأيتَه * ولا أمانا لنى والحياء حوبتُ
وطُنْ هلكى منك نفسا فإى * كأك بك قد يا دريخ قصتُ

ومرص قيس، فسأل أبوه فتيات الحى أن يعذنه ويحدثه أو يعلق بعصن . ففعل
ذلك، ودخل إليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما احتمص عده جعل بجادشه وأطلن
السؤال عن سبب علته، فقال :

تعلق روى روحها قل حلقيا * ومن بعد ما كنا بطاناً وى المهيد
مراد كما ردا فأصح ناميا * وليس ادا متنا ثمصيرم العهد
ولكمه ماى على كل حادث * وزاثرنا فى طلمة القبر والحد

فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوى والمعاب ،
فإن النفس تنبو حينئذ وتسلو ويحف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أنه أن يزوجه أمراه حميلة فلعله يسلوها
عن لنى ، فدعاه الى ذلك فأناه وقال :

لقد حفت ألا تقع المس بعدها * بشىء من الدنيا وإن كان مقعاً
وأزجر عما المس اذ حيل دونها * وتأنى إليها المس إلا تطلعا

ولما تزوجت ابنى آخر أتى موضع خائنها فزل عن راحلته وحمل يتمك موصمها^(١)
ومتزع حذنه على تراها ويكى آخر بكاء ثم قال .

الى الله أشكو فقد لبنى كما شكا * الى الله فقد الوالدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون بجسمه * يحيل وعهد الوالدين قديم
بكت دارهم من نايمهم فتهللت * دموى فأتى الجازعين ألوم
أستعربىكى من الشوى والهوى * أم آخر يكى شجوه ويهم
تهبضى من حات لبنى علائق * وأصاف حات هوطن عظيم

ومن ينعلّقُ حبُّ لُنى فؤادَه * يمتُّ أو يعيش ما عاش وهو كلُّمُ
 وإني وإن أجمعتُ علكَ محلداً * على العهدِ فيما سدا لمقسِمُ
 وإن زمانا شئتَ الشملَ بيننا * وبينكمُ فيه العدا لمشومُ
 أو الحقُّ هذا أن قلّيك فارغٌ * صحبُكُ وقلّي و هوالكِ سقيمُ

وقال في رحيل لُنى عن وطنها وانتقالها الى روحها بالمدينة وهو مقيم في حبيها :
 نأت لُبنى فهاح القلبُ من نانا * وكأب ما وعدتُ مطلاً ولياناً^(١)
 وأحلفتك مئى قد كمت تأملها * فأصبح القلبُ بعد الين حيرانا
 الله يدرى وما يدرى به أحدٌ : ماذا أحميم من دكرالكِ أحيانا
 يا أكل الساس من قرّب الى قديم * وأحسن الناس ذا ثوب وعُريانا
 نعم الصبح عيّد اليوم نخيلاه * اليك ممتكنا نوما ويقظانا
 لا بارك الله فيمن كان يحسبكم * إلا على العهد حتى كان ما كانا
 حتى آستفقت أحرّ بعداً أنكحتُ . فت للشوق أدري الدمعَ تهنانا
 إن نصيرى الحبل أو نسمى مفارقةً * فالدهرُ يحدث للإنسان ألوانا
 وما أرى مثلكم في الناس من شير : فقد رأيتُ به حياً ونسوانا

وشكا أبو لنى لمعاوية ترض قيس لأخته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأثير
 يهدر دمه إن ألم بها، وأن يشتد ذلك، فكتب مروان في ذلك الى صاحب الماء الذى
 يرله أبو لنى كئاماً وكيداً، ووَحَّهْتُ لنى رسولا الى قيس تُعلمه ما جرى وتحدّره، وبلغ أناه
 الحبر، فعاتبه وتحمّاه، وقال له : أبهى لك الأمر الى أن يهدر السلطان دمك ؟ فقال :
 فان يجبوها أو يُخَلّ دون وصلها * مقالةً وائش أو وعيدُ أمير
 فلن سمعوا عيني من دائم البكا * ولن يُذهبوا ما قد أجرت صميري
 الى الله أشكو ما ألاقى من الهوى . ومن حرق تعادنى وزمير

(١) اللبان : اللّي والمطل، قال أبو الهيثم لم يحى من المصادر على صلان إلا لبان .

ومن حُرِّقَ للهِبِّ في باطن الحشى * وليلٍ طويل الحزن غير قصير
 سابكى على نفسى بعينٍ عزيزة * نكاء حريق في الوثاق أسير
 وكنا جميعاً قل أن يظهر الهوى * ناعم حالى عبطية وسرور
 ما يرح الواشون حتى دنت لهم * بطون الهوى مقلوبة لظهور
 لقد كتبت حسب النفس لودام وصلنا * ولكننا الدنيا متاع غرور
 وقال في إهدار معاوية دمه إن هو رارها :

إن تك لئنى قد أتى دون قربها * حجاب مبع ما إليه سبيل
 فإن سيم الحو جمع بيننا * ونصر قرن الشمس حين تزول
 وأرواحنا بالليل في الحى تلتقى * وعلم أيا بالهار يقل
 وتجمعا الأرض القرار وفوقنا * سماء نرى فيها النجوم تجول
 إلى أن يعود الدهر سلماً وتتقصى * تراث ساهها عندا ودحول^(١)

ولما أنصرف الناس من الحج مرض قيس مرضاً شديداً فلم يأته رسولها عائداً، فقال :

ألبنى لقد حلت عليك مصيبتى * عداة عيد إذ حل ما أتوقع
 ثمبني نيلاً وتلويبنى قلى * فمسي شوقاً كل يوم تقطع
 وقبلك قط لا يلبس لما يرى * فوا كيدى قد طال هذا التصرع
 ألومك في شانى وأبت مليمة * لعمري وأجنى للحب وأقطع
 أخبرت أنى فيك ميت حسرى * فما فاض من عينيك للوحد مدمع
 ولكن لعمري قد نكتيك جاهدا * وإن كان داني كله منك أجمع
 صبيحة جاء العائداً بعدنى * فظلت على العائداً تقجع
 فقائلة جئنا إليه وقد قضى * وقائلة لا بل تركناه يترع
 فما عشت عينيك من ذاك عبرة * وعينى على ما بى بذكراك تدمع
 إذا أنت لم تبكى على جازة * لديك فلا تبكى غدا حين أرفع

ومن شعره قوله :

أتبكي على لُنى وأنت تركتها * وكست عليها بالملأ أنت أفدرُ
فإن تكن الدنيا بلُنى تقلتُ * على فللدنيا بطوبى وأطهرُ
أقد كان بها للأُمّة موصعُ * وللکف مُرُنادُ وللعين مطرُ
وللهائم العطشاين رى ريقها * وللرح المختال نحرُ ومُسکرُ
كأنى لها أرجوحة بين أحيل * اذا دُكرتُ منها على القلب تحطُرُ

وقوله :

لقد عدّبتى يا حب لبنى * فقع إنا بموت أوحياه
فإن الموت أروح من حياة * تدوم على التاعد والشتات
وقال الأقربون تعز عنها * فقلت لهم اذا حانت وفاتي

وقالت له لنى : أنشدنى ما قلت فى علك، فأنشدها قوله :

أعالج من نفسى بقايا حُشاشية * على رمي والعائدات تعودُ
فإن دكرت لبنى هشتت لذكرها * كما هشت للشذى الدرور وليدُ
أجيب بلنى من دعائى تحلدا * وى زفرت بجلى وتعود
تعيد الى رُوحى الحياة وإنى * بنفسى لو عايتنى لأجود

وفيها يقول :

ألا ليت أياماً مضين تعود * فإن عُدت يوماً لى لسعيدُ
سقى دار لبنى حيث حلت وخيمت * من الأرض مُنهل الغمام رعيدُ
على كل حال إن دنت أو تباعدت * فإن تدب ما فالدنو مزيدُ
فلا اليأس يسلىنى ولا القرب ناعى * ولبى موع ما تكاد تجودُ
كأنى من لبنى سليم مسهد * يظل على أيدى الرجال يمدُ
رمتنى لىنى فى الفؤاد بسهمها * وسهم لىنى للفؤاد صيودُ

سلا كل ذي شحوي علمت مكانه * وقلبي للسنى ما حيت ودود
وقائله قد مات أو هو ميت * وللنفس مى أن تقيص رصيد

وعانتته على روجه، خلف أنه لم ينظر إليها ملء عينه، ثم قال :

ولقد أردت الصبر عك معافى * علّ قلبي من هوالك قديم
يبقى على حدّ الزمان ورّبه * وعلى حفائك إنه لكريم
فصرمته وصرحت وهو بدائه * شتّاب بين مصحّح وسقيم
وأريت زماً معاد محله * إن المحبّ عن الحبيب حليم

فلم يزل معها يتحدثها ويشكو إليها حتى أمسى . فاصرفت ووعده الرجوع إليه من عد
فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا، فكتب هذين البيتين .

بمضى من قلبي له الدهر ذاكر * ومن هو غنى معرض القلب صار
ومن حبه يزداد عدوى حدة * وحبي لديه محلّق العهد دائر

وقال اس أى عتيق لقيس يوما : أنشدنى أحرّ ما قلتى لنى، فأنشده :

وأنى لأهوى اليوم فى عبر حيه * لعل لقاء فى الميام يكون
تمدّنى الأحلام أنى أراكم * فبالت أحلام الميام يقين
شهدت نانى لم أحلّ عن مودة . وأنى بكم لو تعلمين صين
وأن فؤادى لا يلبس إلى هوى * سواك وإب قالوا لى سيلين

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدت أبا السائب المخزومى قول قيس :

أحبك أصافاً من الحت لم أحذ * لها مثلاً فى سائر الناس يوصف
فمن حبّ للحبيب ورحمة * بمعرفى مه بما يتكلّف
ومنهن ألا يعرض الدهر ذكرها * على القلب إلا كادت النفس تتلف
وحبّ بدا بالجسم واللون طاهر * وحبّ لى نفسى من الروح أطف

وقصيدة قيس العينية من جيد شعره وهى :

عَفَا سِرْفٌ مِنْ أَهْلِهِ سُرَاوِعُ * جَنَّبَا أَرِيكَ فَالتَّلَاعُ الدَّوَاعُ^(٢)
 فَنَيْقَةُ فَالْأَخْيَافُ أَخْيَافُ طَبِيسٍ * هَا مِنْ لَبْنِي تَحَرَّفُ وَمَرَاعُ^(٣)
 لَمِلَ لُبْنَى أَبِ يَحْمٍ لِقَاوُهَا * بَعْضُ السَّلَادِ إِنْ مَا حَمَّ وَقَعُ^(٤)
 يَجْزِعُ مِنَ الْوَادَى حَلَاءُ أَنْيسِهِ * عَفَا وَتَحَطَّنَةُ الْعِيُوبُ الْخَوَادِعُ^(٥)
 وَلَمَّا بَدَا مِنْهَا الْفِرَاقُ كَمَا بَدَا * نَظَرُ الصَّعَا الصَّلْدُ الشَّقُوقُ الشَّوَائِعُ^(٦)
 تَمَيَّتْ أَنْ تَلْقَى لِبْهَآكَ ، وَالْمُنَى * تُعَاصِيكَ أَحْيَانًا وَحَيَا تَطَاوِعُ
 وَمَا مِنْ حَبِيبٍ وَامِقٍ لَحْيِهِ * وَلَا ذَى هَوَى إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعُ
 وَطَارِعَرَابُ الْبَيْتِ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا^(٧) * بَيِّنٌ كَمَا شَقَّ الْأَدِيمَ الصَّوَاغُ
 أَلَا يَاعْرَابَ الْبَيْتِ قَدْ طَرَبَ بِالْدَى * أَحَازِرُ مِنْ لَبْنَى فَهَلْ أَنْتَ وَقَعُ
 وَإِلَكْ لَوْ أَبْلَعْتَا يَمْلِكُكَ اسْلَبِي * طَوْتُ حَرًّا وَأَرْفَضَ مِنْهَا الْمَدَامِعُ^(٨)
 أَنْبَكِي عَلَى لَبْنَى وَأَنْتَ تَرْكُتَهَا * وَكُتَّ كَاتٍ عَيْبِهِ وَهُوَ طَائِعُ
 فَلَا تَبْكِيْنَ فِي إِثْرِي ، نَدَامَةٌ * إِذَا نَزَعْتَهُ مِنْ يَدِكَ النَّوَاذِعُ
 فَلَيْسَ لِأَمْرِ حَاوِلِ اللَّهِ جَمْعَهُ * مُشِتٌ^(٩) وَلَا مَا فَتَرَكَ اللَّهُ جَامِعُ
 كَأَنَّكَ لَمْ تَقْنَنَهُ إِذَا لَمْ تُلَاقِهَا * وَإِنْ تَلَقَّهَا فَالْقَلْبُ رَاضٍ وَقَاعُ

- (١) وردت هذه القصيدة برمتها في نخب الأملأى لأبي على القتال (ح ٢ ص ٣١٤ — ٣١٨ طعة دار الكتب المصرية) .
 (٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحذتها تلفة وهى مسبل ما ارتفع من الأرض الى طن الوادى . والدواع جمع داعة وهى التى تدفع الماء .
 (٣) أحياف طية : موضع . والمحرور : المنزل الذى يقام فيه فى الحريف . والمراجع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع .
 (٤) حم : قدر . (٥) حرج الوادى : معطفه . وعفا : درس . والخوادع واحدها حادة وهى التى لا تنام ، يقال : حدثت عيه محمدع اذا لم تم ، وأنيامهم بعد ما حدثت العين .
 (٦) الصعا : الصعر . والصلد : الصلب الذى اذا أصابه شئ صلد أى صوّت . والشوائع : جمع شائنة وهى الطاهرة .
 (٧) أى تمرقت الجماعة . (٨) ارضى : سال ولا يكون إلا سيالا مع تمزق .
 (٩) مشت : معرق .

فياقلُ حترى، اذا شطت^(١) البوى * لُبْنَى وَصَدَّتْ عَكَ، مَا أَنْتَ صَامِعُ
 أَنْصِرَ لِلْبَيْنِ الْمِشْتِ مَعَ الْحَوَى * أَمْ أَنْتَ أَمْرٌ نَائِي الْحِيَاءِ بِفَازِعُ
 مَا أَنَا إِنِّي نَأْتِ لُبْنَى هَاجِعُ * إِذَا مَا أَسْتَقَلْتُ نَالِيَّامَ الْمُضَاجِعُ
 وَكَيْفَ يَأْمُ الْمَرْءُ مُسْتَشْعِرَ الْجَوَى * صَحِيحَ الْأَسَى فِيهِ نِكَاسٌ رَوَّادِعُ
 وَلَا حَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُؤَاتِيَا * لُبْنَى وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا الشَّمْلَ جَامِعُ
 أَلَيْسَتْ لِيْنِي تَحْتَ سَقْفٍ يُكْنَهَا * وَلِمَايَ هَذَا إِنِّي نَأْتِ لِي نَافِعُ
 وَيَلْبَسُ اللَّيْلُ الْبَهْمُ إِذَا دَجَا^(٢) * وَنُصْرُؤُ الصَّوِّ وَالْعَجْرُ سَاطِعُ
 تَطَّأَتْ تَحْتَ رِجْلَيْهَا بِسَاطًا وَبَعْضُهُ * أَطَاهُ بِرَجُلِي لَيْسَ يَطْوِيهِ مَاعِ
 وَأَفْرَحَ إِنْ تُنْسَى بِحَيْرٍ وَإِنْ يَكُنْ * مَا الْخَدُّ الْعَادِي تَرْغَى الرَوَائِعُ
 كَأَنَّكَ يَدْعُ لَمْ تَرَالِسْ قَلْبَهَا * وَلَمْ يَطْلُعْكَ الدَّهْرُ فِيمَنْ يَطَالِعُ
 فَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالْبَوَى مَطْمَئِنَّةُ * بِنَا وَبِكُمْ مِنْ عِلْمٍ مَا الْبَيْنُ صَامِعُ
 وَأَهْجُرُكُمْ هَجْرَ الْبَغِيصِ وَجُبُّكُمْ * عَلَى كِبْدِي مَهْ كُلُّوْهُ صَوَادِعُ
 وَأَعْمَلُ لِلْإِشْفَاقِ حَتَّى يَسْفِنِي * مَخَافَةُ شَحِطِ الدَّارِ وَالشَّمْلِ حَامِعُ
 وَأَعِمِدُ لِلْأَرْضِ الَّتِي مِنْ وَرَائِكُمْ * لِيَرْجِعَنِي يَوْمًا عَلَيْكَ الرَوَاجِعُ
 يَا قَلْبُ صَبْرًا وَأَعْتَرَا^(٣) مَا تَرَى * وَيَا حُبَّهَا قَعٌ بِالَّذِي أَنْتَ وَاقِعُ
 لَعَمْرِي لَمَنْ أَمْسَى وَأَنْتَ صَحِيحُهُ * مِنَ النَّاسِ مَا اخْتِيرَتْ عَلَيْهِ الْمُضَاجِعُ
 أَلَا تَلِكْ لُنْسَى قَدْ تَرَانِي مَزَارُهَا * وَلِلْبَيْنِ عَمُّ مَا يَزَالُ يَسَازِعُ
 إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْجَوَى فَكَفَى بِهِ * حَوَى حُرْقٍ قَدْ صُمِّنَتْهَا الْأَضَالِعُ
 أَمَّا نَسَةُ لُبْنَى وَلَمْ تَقْطَعْ الْمَدَى * بَوْصِلٍ وَلَا صَرِيمٍ فَيَأْسَ طَامِعُ

(١) شطت : عدت . (٢) المستشعر : الذى لس الشعار وهو الثوب الذى على الحسد . والحوى :

الحوى اللاطر . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس المصم . وروادع : جمع رادعة وهى التى تردعه عن الحركة

والتصرف . (٣) دحا : ألس طلبته كل شئ . (٤) الساط : ما سبط من العرش .

(٥) ترعى : تفرعى . (٦) اعترف : دل واثقاد .

يَطْلُ نَهَارَ الْوَاهِينَ نَهَارُهُ ١٠ وَتَهْدِيهِ^(١) فِي الْبَائِسِينَ الْمَصَاحِعُ
سَوَاىَ فَلْيَلِيْ مِنْ نَهَارِيْ وَإِنَّمَا * تُقَسِّمُ بَيْنَ الْهَالِكِينَ الْمَصَارِعُ
وَلَوْلَا رَحَاءُ الْقَلْبِ أَنْ تَعِطِفَ الْوَى * لِمَا حَمَلْتَهُ بَيْنَهُنَّ الْأَضَالِعُ
لَهُ وَجَعَاتٌ لِّمَثْرُئُسَى كَأَنهَا ٢٠ شَقَائِقُ بَرِّقَ فِي السَّحَابِ لَوَامِعُ
نَهَارِيْ نَهَارُ الْبَاسِ حَتَّى إِذَا دَحَا ٣٠ لِيَّ اللَّيْلُ هَزَّتَنِي الْيَكُ الْمَضَاجِعُ
أَقْصَى نَهَارِيْ بِالْحَدِيثِ وَالْمَنَى * وَيَجْمَعُنِي بِاللَّيْلِ وَالْهَمُّ حَامِعُ
وَقَدْ نَشَأْتُ فِي الْقَلْبِ مِثْلَ مَوْدَةٍ ٤٠ كَمَا نَشَأْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
أَبَى اللَّهُ أَبَى يَلْقَى الرِّشَادَ مَنِمْ ٥٠ أَلَا كُلُّ أَمْرٍ حُتْمٌ لَا بَدَ وَاقِعُ
هَمَا بَرَحَا نِيْ مُعْوَلَيْنِ كَلَاهِمَا ٦٠ فَوَادُّ وَعَيْنٌ مَاقَهَا الدَّهْرُ دَامِعُ
إِذَا مَحَنَ أَنْفَعْدَا الْبَكَاءَ عَشِيَّةً * فَمَوْعِدُهُمَا قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ
وَاللَّحَبُ آيَاتٌ تَبَيَّنَ بِالْحَقِّ ٧٠ شُعُوبٌ وَتَعَرَّى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشْجَاعُ
وَمَا كُلُّ مَا مَتَكَ نَفْسُكَ حَالِيًا ٨٠ تَلَاقَى وَلَا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ
تَدَاعَتْ لَهُ الْأَحْرَانُ مِنْ كُلِّ وَحِيَّةٍ * فَحَنٌّ كَمَا حَنَ الظُّوَارُ السَّوَابِعُ
وَجَانِبَ قُرْبِ الْبَاسِ يَحْلُو هَمُّهُ ٩٠ وَعَاوَدَهُ فِيهَا هَيْأَمٌ مُرَاجِعُ
أَرَاكَ اجْتَنَبْتَ الْحَيَّ مِنْ عَيْرِ نَفْصِيَّةٍ * وَلَوْ شِئْتَ لَمْ تَحْمَحِ الْيَكُ الْأَصَابِعُ
كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا ١٠٠ وَإِنْ كَانَ فِيهَا الْخَلْقُ قَفَرٌ فَلَا تَقَعُ
أَلَا إِنَّمَا أَبْكِيْ لِمَا هُوَ وَاقِعٌ * وَهَلْ جَرَّعَ مِنْ وَشَكِ يَدِيْكَ نَاعِمُ
أَحَالَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَدَامَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ عَلَى الصَّوَابِعِ
مَنْ كَانَ مَحْزُومًا عَدَا لِمَرَاقِمَا * فَلَا تَرَى فُلَيْبَكِيْ لِمَا هُوَ وَاقِعُ

(١) تَهْدِي . نَسَكُهُ . (٢) وَحَات . حَقَقَات . (٣) الْمَاقُ مِنَ الْعَيْنِ . الْحَابِ الَّذِي يَلِي
الْأَفْ . (٤) الْأَشْجَاعُ عُرُوقُ طَاهِرِ الْكَفِّ . (٥) الظُّوَارُ : حِمَى طَهْ وَهِيَ الَّتِي عَطَمَتْ عَلَى
وَلَدِ عَيْرِهَا . وَالسَّوَابِعُ : جَمْعُ سَاجِمَةٍ وَهِيَ الَّتِي تَمُدُّ حَيْثُهَا عَلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ .

الشعر السياسي

أوصحنا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية وأستحثاث العرّمات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وبينا مئزّه آستعمال الشعر في الأعرّاص السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّه أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعداك بذكر قصيدة النعمان بن بشير في هذا الباب . وها هي دى :

النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ^(١)

قال أبو الفَرَح الأَصْمَهَانِي :

لما كثّر الهجاءُ بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحَكَم بن أبي العاصي وتفاخشا، كتب معاويةُ إلى سَعِيد بن العاصي، وهو عاملُه على المدينة، أن يجلدَ كُلَّ واحدٍ منهما مائة سوط، وكان أبو حسانَ صديقًا لسعيد وما مدح أحدًا غيره قطّ، فكبره أن يصرّبه أو يضرب أس عمه، فأمسك عنهما؛ ثم ولي من أن، فلما قَدِم أحدُ أبي حسانَ فصرّبه مائة سَوَوط ولم يصرّب أحاه، فكتب أسُ حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشّام، وكان كثيرًا أنيرًا^(٢) ميكياً عند معاوية، قال

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، من المروءة أهل يثرب، لكه ساير معاوية، فكان معه في واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأنصار سواء . وقد احتدبه سحائه ودعائه وكان يراعى حاسه، وكثيرا ما سمع توسطه للأنصار عسده . وعاش النعمان المدكور إلى خلافة مروان بن الحَكَم، وكان يتولى حصص، فلما أصغت الخلافة إلى مروان دعا إلى ابن الزبير وحالف على مروان بعد قتل الصباحك، فلم يجبه أهل حصص إلى ذلك، فهرب منهم فتمعه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسابرة سى أمية شديد التعصب للأنصار، ولذلك عد ما علم بقصيدة الأحنف في الطعن عليهم رد عليه . والنعمان بن بشير من العريقين في الشعر حلغا عن سلف فان حده وأماه وعمه وأولاده وأحماده كلهم شعرا . وهو أول مولود ولد في الاسلام من الأنصار، وآخر من ولي الكوفة لمعاوية من أنى سعيان . وله ديوان مطبوع في الهند . توفي سنة ٨٩٥ هـ . وترى أحبار النعمان بن بشير في الأغاني (ح ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالى (ح ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ح ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن حنبلان وابن الأثير وصيرها . (٢) أنيرا : مكرّما .

لَيْتَ شِعْرِي أَعَاتَبْتُ أُمَّتَ بِالشَّاءِ * مَحَلِيلِي أُمُّ رَاقِدٌ نَعْمَانُ
 أَيْةٌ مَا يَكُنْ فَقَدْ يَرْجِعُ الْغَا * ثُبُّ يَوْمًا وَيُوقَطُ الْوَسَّانُ
 إِنِّ عَمْرًا وَعَامِرًا أَوْيَا * وَحَرَامًا قَدَمًا عَلَى الْعَهْدِ كَانُوا
 أَفْهَمُ مَا يَعْوُكُ أُمُّ قَلَّةُ الْكُتَّابِ * أُمُّ أَنْتَ عَاتِبَ عَصَانِ
 أُمُّ جَفَاءً أُمُّ أَعُوَزْتُكَ الْقَرَّاطِي * أُمُّ أَمْرِي بِهِ عَلَيْكَ هَوَانِ
 يَوْمَ أُنْبِئْتَ أَنْ سَاقِي رُصَّتْ * وَأَتَتْكُمْ بِدَلِكِ الرُّكَّانِ
 ثُمَّ قَالُوا إِنِّ ابْنَ عَمِّكَ فِي نَلَسْوَى * أُمُورٍ أَنَّى بِهَا الْحَدَثَانِ
 فَسَيِّتَ الْأَرْحَامَ وَالْوُدَّ وَالصُّحْبَةَ * مِمَّا أَنْتَ بِهِ الْأَرْحَامِ
 إِنَّمَا الرُّمْحُ فَاعْلَمَنَّ قَسَاةٌ * أَوْ كَعَصِ الْعِيدَانِ لَوْلَا السَّنَانِ

قال أبو العرج الأصماني :

دخل النعمان بن بشير على معاوية لما هما الأخطل الأنصار ، فلما مثل بين يديه
 أنشأ يقول :

مُعَاوِيَ إِلَّا تُعْطِيَ الْحَقَّ تَعْتَرِفُ * لِحَى الْأَزْدِ مَشْدُودًا عَلَيْهَا الْعَامُ
 أَتَشْتُمُّ عَبْدَ الْأَرَاقِمِ صَلَّةً * وَمَاذَا الَّذِي تُجْدِي عَلَيْكَ الْأَرَاقِمِ
 مَا لِي نَارُ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ * فِدْوُوكَ مِنْ يُرْضِيهِ عَكَ الدِّرَاهِمِ
 وَرَاعِ رَوِيدًا لَا تَسْمَأُ دَنِيَّةً * لَعَلَّكَ فِي عِتِّ الْحَوَادِثِ نَادِمِ
 مَتَى تَلْقَ مَا عُصْبَةُ خَرْجِيَّةً * أَوْ الْأَوْسَ يَوْمًا تَخْتَرِمُكَ الْحَارِمِ
 وَتَلْقَاكَ خَيْلٌ كَالْقَطَا مُسْتَطِيرَةٌ * شَمَّاطِيطٌ (٢) أَرْسَلَهَا عَلَيْهَا الشَّكَاثِمِ (٣)
 يُسَوِّمُهَا الْعَمْرَانِ . عَمْرُوبَ عَامِرٍ * وَعِغْرَانُ حَتَّى تُسْتَسَاحَ الْحَارِمِ
 وَيَدُو مِنَ الْخَوْدِ الْعَزِيزَةِ جَحْلُهَا * وَتَبْيَضُّ مِنْ هَوْلِ السِّيُوفِ الْمَقَادِمِ
 قَطَلَتْ شَعْبَ الصَّدْعِ بَعْدَ الْإِتْمَامِهِ * فَغُفْرِيهِ فَاالْآنَ وَالْأَمْرُ سَالِمِ

(١) الأرقام . حتى من بني تلب . (٢) شماطيط . متعرة . (٣) الشكاثم جمع

شليمية وهي الحديدة المتعرة في فم العرس .

وَالَا فَتَوْبَى لَأَمَةٍ تُنْيَبَةُ * تَوَارِثُ آثَانِي وَأَبْيُصُ صَارِم
وَأَسْمَرُ خَطِيٌّ كَأَن كُؤُوبَهُ * نَوَى الْقَسْبَ فِيهَا لَهْذَمِي خُثَارِم
فَإِن كَسَتْ لَمْ تَشْهَدْ بَيْدِرَ وَقِيعَةً * أَذَلَّتْ قُرَيْشًا وَالْأَسُوفُ رَوَاغِم
فَسَائِلُ بَا حَيٍّ لُؤَيٍّ بَنِ عَالِبٍ * وَأَنْتَ مَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ عَالِم
أَلَمْ تَنْتَدِرْ يَوْمَ بَدْرٍ سَيُوفًا * وَلَيْلِكَ عَمَانَابُ قَوْمِكَ قَاتِم
صَرْنَانُكُمْ حَتَّى تَهْرَقَ جَمْعُكُمْ * وَطَارَتْ أَكُفُّكُمْ وَجَاهُكُمْ
وَعَادَتْ عَلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَرَائِشُ * وَأَنْتَ عَلَى حَوِيفٍ عَلَيْكَ التَّمَائِم
وَعَصَّتْ قُرَيْشٌ بِالْأَنَامِلِ نِغَصَةً * وَمِنْ قَتْلٍ مَاعَصَتْ عَلَيْكَ الْأَدَاهِم
فَكَتَلَهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ بَكِيدَهُ * مَكَانَ الشَّحَا وَالْأَمْرِ بِهِ تَعَاقُمُ
فَمَا إِنْ رَمَى رَايِمٌ فَأَوْهَى صَفَاتَا * وَلَا صَامَنَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ صَائِم
وَأَتَى لِأَعْيَصَى عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ * سَتَرَتْ بِهَا يَوْمًا إِلَيْكَ السَّلَامُ
أَصَابِعُ فِيهَا عَمْدَ شَمْسٍ وَإِنِّي * لِنُتْلِكَ الَّتِي فِي الْقَسَمِ مِنْهُ أَكَاتِمُ
فَمَا أَنْتَ وَالْأَمْرَ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ * وَلَكِنْ وَلَّى الْحَقُّ وَالْأَمْرُ هَاشِمُ
إِلَيْهِمْ يَصِيرُ الْأَمْرُ بَعْدَ شَتَاتِهِ * فَمَنْ لَكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ لِأَزِمُ
بِهِمْ شَرَعَ اللَّهُ الْهَدَى فَأَهْتَدَى بِهِمْ * وَمِنْهُمْ لَهُ هَادٍ إِمَامٌ وَحَاتِمُ

فلما بلغت القصيدة معاوية أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه، فاستجار يزيد

ابن معاوية، فمعه منه، وأرصى النعمان حتى كف عنه .

وقال عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه : لما صر مروان بن الحكم عبد الرحمن

أب حسان الحداد ، ولم يصير أحاه حين تهاجبا وتقادفا ، كتب عبد الرحمن الى النعمان

ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية ، وأنشأ يقول :

يَا بَنَ أَبِي سُفْيَانَ مَا مِثْلُ * حَارَ عَلَيْهِ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرُ

أَذْكَرُ بَا مُقَدَّمِ أُرَاسَا * مَالِحِنُو إِذْ أَنْتَ الْيَا فَقِيرُ

واذا كرَّ غداة الساعدي الذي * آثركم بالأمر فيها بشير
 فاحذر عليهم مثل بذير وقد * مرَّ بكم يومٌ بدرٍ عمير
 إن ابن حسان له نائر * فأعطه الحق تصحَّ الصدور
 ومثل أيامٍ لا شئت * ملكا لكم أمرك فيها صغير
 أما ترى الأزدَ وأشياءها * تجولُ خُرَّا كإطياتٍ تَزِيرُ
 يَصُولُ حَوْلَى مِنْهُمْ مَعَشَرٌ * إن صُلْتُ صالوا وهم لي نصير
 يَأِي لَنَا الضِّيمَ فلا يُعْتَلَى * عِزٌّ مَبِيعٌ وَعَدِيدٌ كَثِيرُ
 وَعُصْرٌ فِي عِزِّ خُرُومَةٍ * عَادِيَةٌ تَنْقُلُ عَنْهَا الصَّحُورُ

مُلْحَقُهُمْ

الكتاب الثاني

باب المنشور

شرحا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العاسيين من حَوْدَةِ اللفظ، ومثانة الأسلوب، وِجَلَاءِ المعنى، ووضوح القصد وساطته . ووعداك بذكر طُرْفٍ من رسائل القوم في ذلك العصر الراهى الراهر، وإليك ما وعدناك به :

١ — مُشَاوَرَةُ المهديّ لأهل بيته في حرب نُرَاسان

قال أبى عبد ربه في العقد العريد :

هذا ما تراحح فيه المهديّ ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأى في حرب نُرَاسان أيامَ تحاملت عليهم العمالُ وأعصت، وخملتهم الدآلة وما تقدم لهم من المكاة على أن نَكثُوا ببيعَتهم، ونقصوا موثِقهم، وطرَدُوا العمال، وألْتَوُوا بما عليهم من الخراج؛ وحمل المهديّ ما يُحِبُّ من مصلحتهم ويكره من عَنَتهم على أن أقال عَثَرَتهم، وأعتمر رَأَتهم، وأحتمل دَأَتهم، تَقُولُوا بالفصل وأنساعا بالعفو، وأخذًا بالحقّة ورفقا بالسياسة، ولذلك لم يزل مُدَّ حَمْلَهُ اللهُ أعباءَ الخِلافةِ وقَلَدِهِ أُمُورَ الرعيّةِ رِفِيقًا بِمدارِ سلطانه، بصيرا بأهل زمانه، ناسطًا لِلْعَدَلَةِ في رِعِيَتِهِ، تسكى الى كَمَفِهِ وتأنّس بمفهومه وتثقّ بِجِلْمِهِ، فإذا وقعتِ الإقْضِيَةُ اللارمةُ والحقوقُ الواجبةُ، فليس عنده

هَوَادَة وَلَا إِعْصَاء وَلَا مُدَاهَنَة ، أَثَرَة لِّلْحَقِّ وَقِيَامًا بِالْعَدْلِ وَأَحَدًا بِالْحَزْمِ ، فِدَا أَهْلَ خِرَاسَانَ
الْأَغْتِرَارُ بِعَلَمِهِ وَالثِّقَة بِعَمَلِهِ أَنْ كَسَرُوا الْخِرَاجَ وَطَرَدُوا الْعِمَالَ وَسَأَلُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ،
ثُمَّ حَلَطُوا أَحْتِجَاحًا بِاعْتِدَارٍ ، وَخُصُومَةً بِإِقْرَارٍ ، وَتَصَلُّيًا بِاعْتِلَالٍ ، فَلَمَّا أَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الْمَهْدِيِّ
خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ حَلَالَتِهِ وَبَعَثَ إِلَى نَعْرِ مِنْ لِحْنَتِهِ وَوزرائه ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ وَأَسَنَصَحَهُمُ
لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَوَالِي بِالْإِسْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيَّ عَمٍّ تَعَقُّ قَوْلَنَا وَكَيْ حَكَمًا
بَيْنَنَا ، وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَأَحْصَرَهُمَا الْأَمْرَ وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ
مُحَمَّدُ بْنُ اللَّيْثِ بِمَحْضِ مَرَاجِعَتِهِمْ ، وَإِثْنَاتِ مَقَالَتِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ الْمَظَالِمِ :^(٣)

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَايَةً ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِاعَةً ؛ اسْتَفْرَعْتَ رَأْيَهُمْ ، وَاسْتَفْرَقْتَ
أَشْعَالَهُمْ ، وَاسْتَعْمَدْتَ أَعْمَارَهُمْ ، وَدَهَوْنَا سِهَابَهُمْ وَدَهَبْتَ هِمَّهُمْ ، وَغَيْرُ فَوَائِدِهَا وَعُرِفَتْ هِمُّهُمْ ، وَلِهَذَا
الْأُمُورُ الَّتِي حَلَلْنَا فِيهَا عَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ أَسْبَاءِ الْحَرْبِ وَسَاسَةِ الْأُمُورِ
وَقَادَةِ الْجُودِ وَفُرْسَانِ الْهَزَائِمِ وَإِخْوَانِ التَّحَارِبِ ، وَأَطَالِ الْوَقَائِعِ ، الَّذِينَ رَتَّبَتْهُمْ سِيَّحَالُهَا ،
وَقِيَّاتِهِمْ طَلَالُهَا ، وَعَصَبَتِهِمْ شِدَائِدُهَا ، وَقَرَّمَتْهُمْ نَوَاجِدُهَا ؛ فَلَوْ عَجَمْتَ مَا قِيلَ لَهُمْ ، وَكَشَفْتَ
مَا عَمَدَهُمْ ، لَوَحَدْتَ بَطَائِرَ تَوْيْدِ أَمْرِكَ ، وَتَحَارَبَ تَوَافِقُ بَطْرُوكَ ، وَأَحَادِيثُ تَقْوَى قَلْسِكَ ،
فَأَمَّا بَحْنُ مَعَاشِرِ عُمَّالِكَ ، وَأَصْحَابِ دَوَاوِينِكَ ، فَحَسَنٌ بِنَا وَكَثِيرٌ مِمَّا أَنْ تَقُومَ ثِقَلُ مَا حَمَلْنَا
مِنْ عَمَلِكَ ، وَاسْتَوْدَعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ إِمْصَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِنَّا ذُو حُكْمِكَ ،
وَإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا
يَسِطِلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَبِحَسْبِ أَعْلَمِ زِمَانِنَا وَتَدْبِيرِ سُلْطَانِنَا .

(١) كَسَرُوا الْخِرَاجَ أَيَّ كَعَمُوا عَنْ أَدَائِهِ (٢) هُوَ ابْنُ اللَّيْثِ بْنِ بَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ . وَكَانَ أَرْسَلَ
الْمَهْدِيَّ أَبَاءَ اللَّيْثِ لِمُحَارَبَةِ الْمُقْبَعِ فَلَمْ يَتَّكِبْ سَهْ . وَكَانَ أَسَءُ مُحَمَّدٍ هَذَا مِنْ تَحَابِّهِ الْمَهْدِيَّ وَلَمْ تَعْرِفْ سَبْعَةَ وَفَاتِهِ .
(٣) هُوَ سَلَامٌ مِنَ الْأَرَشِ ، اسْتَعْمَلَهُ الْمَنْصُورُ ثُمَّ تَوَلَّى الْعُقُودَاتِ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ . (٤) الْمَرَاهِزُ :
مَحَرِّيكَ الْبَلَايَا وَالْحُرُوبِ فِي النَّاسِ .

قال : نعم أيها المهديّ، أنت مُتَّبِعُ الرَّأْيِ، وَثَبِيقُ الْعُقْدَةِ، قَوِيّ الْمُسْتَهْ، بِلِجِ الْعِطْفَةِ، مَعْصُومُ النَّيَّةِ، مَحْضُورُ الرُّوْيَةِ، مُؤَيَّدُ الدِّيَةِ، مَوْقِيّ الْعَزِيمَةِ، مُعَاكُ الْبَطَرِ، مَهْدِيّ إِلَى الْخَيْرِ، إِنْ هَمَمْتَ فِي عَزْمِكَ مَوَاقِعَ الظَّنِّ، وَإِنْ أَحْتَمَعْتَ صَدْعَ فَعْلِكَ مُلْتَبِسِ الشَّكِّ، فَاعْزِمِ يَهْدِ اللَّهِ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ، وَقُلْ يُنْطِقَ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ، فَإِنَّ حُنُودَكَ جَمَّةٌ، وَنَرَائِكَ عَامِرَةٌ، وَبِصْلِكَ سَجِيَّةٌ، وَأَمْرُكَ نَامِدٌ .

فأجابهُ المهديّ : إِنْ الْمَشَاوِرَةَ وَالْمُنَاطِرَةَ نَأَى رَحِمَهُ، وَمِفْتَاحَهَا بَرَكَةٌ، لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا رَأْيٌ، وَلَا يَتَعَيَّلُ^(٢) مَعَهَا حَرَمٌ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ، وَقُولُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ، فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَتَوْفِيقُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .

قال الربيع :

أيها المهديّ، إِنْ تَصَارِيفُ وَحُوهِ الرَّأْيِ كَثِيرَةٌ، وَإِنْ الْإِشَارَةُ بِبَعْضِ مَعَارِصِ^(٣) الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ، وَلَكِنْ خِرَاسَانُ أَرْضٍ بَعِيدَةِ الْمَسَافَةِ، مُتَرَاكِجَةِ الشَّقَّةِ، مُتَفَاوِتَةِ السَّبِيلِ؛ فَإِذَا أَرْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيرِ، وَمُبَرَّمِ التَّقْدِيرِ، وَلُبَّابِ الصَّوَابِ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ، وَقَلْبُهُ تَدْيِيرُكَ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ، وَلَا دُونُهُ مَعْلَقٌ لِحُصُومَةٍ عَائِنٍ، ثُمَّ أَجَبْتَ الْبُرْدَ بِهِ، وَأَطَوْتُ الرِّسْلَ عَلَيْهِ، كَانَ بِالْحَرَى أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُكَ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا يَقْصُصُهُ؛ فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرِّسْلَ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ الْكُتُبَ مُحَقَّقَاتٍ أَحْكَامُهَا، وَشَوَارِدَ آثَارِهَا، وَمَصَادِرَ أُمُورِهَا، فَتُحَدِّثَ رَأْيَا عَيْرَهُ وَتَتَدَبَّرَ تَدَبُّرًا سَوَاءً؛ وَقَدْ أَهْرَجْتَ الْحِلَاقَ، وَتَحَلَّلْتَ الْعُقْدَ، وَأَسْتَرْخَى الْحِقَابَ، وَأَمْتَدَّ الزَّمَانُ، ثُمَّ لَعَلَّكَ مَوْقِعَ الْآخِرَةِ كَمَصْدَرِ الْأَوَّلَى؛ وَلَكِنْ الرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ - وَفَقَكَ اللَّهُ - أَنْ تَصْرِفَ إِحَالََةَ النَّظَرِ، وَتَقْلِبَ الْعِكْرَ، فَيَا جَمْعَتَنَا لَهُ، وَأَسْتَشْرِتُنَا فِيهِ مِنَ التَّدْيِيرِ لِحَرْبِهِمْ، وَالْحِيلِ فِي أَمْرِهِمْ، إِلَى الطَّلَبِ لِرَحِيلِ دِي دِيرِ

(١) المنة - القوة . (٢) لا يتعيل لا يصعب (٣) معاريس الكلام ما عرّض يد

ولم يصريح وهي التورية بالنشء عن الشيء . (٤) انقاب - شئ يتخذ المرأة تعلق به معالين الحلي تشده على وسطها .

فاصل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثره عليك، ولا ظليلاً على دُخْلَةٍ مكروهة، ولا مسووماً الى بعده محذورة، فيَقْدَحُ في مُلْكِكَ، وَيُرْتَضُ الأُمُورَ لِعَيْرِكَ، ثم تُسَدُّ اليه أُمُورُهُمْ، وتَفُوضُ اليه حَرْبُهُمْ، وأَمْرُهُ في عَهْدِكَ ووصيتك إياه لروم أمرك مَالِرمَ الحَرَمِ، وحلافِ نَهْيِكَ اذا حالفه الرأى عُدَاستحالة الأُمُورِ، وأَشْتَدَادِ الأحوالِ التي سَقَصُ أمر الغائب عنها، ويَثْبُتُ رَأْيُ الشاهد لها، فإنه اذا فعل ذلك فَوَائِثُ أَمْرِهِمْ من قريب، وسَقَطَ عنه ما يَأْتِي من بعيد، تَمَّتِ الحيلةُ وَقَوِيَتِ المَكيدةُ، وَفَقَدَ العملَ وَأَحْدَثَ النظرَ، إن شاء الله .

قال الفصل بن العباس

أيها المهدي، إن وَلِيَّ الأُمُورِ وسائسَ الحروبِ ربما تَحْتَى حُدُودَهُ، وَتَفُوقُ أُمُوالَهُ في غير ما صَبِقَ أَمْرُ حَرْبِهِ، وَلَا صَعَطَةَ حالِ أَصْطَرَّتْهُ، فيَقْعُدُ عِدَ الحاحه إليها، وبعد التَّفَرُّقِ لها عَدِيماً مما فاقدا لها، لَا يَثِيقُ نَفْوَها، وَلَا يَصُولُ نُعْدَهُ، وَلَا يَفْرَعُ الى نَفْعِهِ، فالرأى لك أيها المهدي - وفكك الله - أن تُعْنِي حَرَائِكَ من الإِنْفَاقِ للأموالِ، وجُنُودَكَ من مَكائِدِهِ الأَسْفارِ، ومقارعة الأخطارِ، وتَعْرِيرِ القَتالِ، وَلَا تُسْرِعَ لَلْقُومِ في الإِحْاطَةِ الى ما يَطْلُبُونَ، والعطاءِ لما يَسْأَلُونَ، فيَقْسُدُ عَلَيْكَ أَدْبُهُمْ، وَتُخْرَى من رَعِيَّتِكَ عَيْرُهُمْ، وَلَكِنْ اغْزُهُمْ بِالْحِيلَةِ، وَقَاتِلْهُمْ بِالْمَكِيدَةِ، وَصَارِعْهُمْ بِاللَّبَنِ، وَخَاتِلْهُمْ بِالرَّقِيقِ، وَأَبْرِقْ لَهُمُ بِالْقَوْلِ، وَأَرْعِدْ نَحْوَهُمُ بِالْفِعْلِ، وَأَبْعَثِ الْعُوثَ^(١)، وَحَدِّدِ الْحُدُودَ، وَكَتِّبِ الْكُتُبَ، وَأَعْقِدِ الْأُلُويَةَ، وَأَبْصِبِ الرَّاياتِ، وَأَطْهِرْ أُنْكَ مَوْحَهُ إِلَيْهِمُ الْحَيَوشَ مع أَحْقَ قَوَادِكِ عَلَيْهِمْ، وَأَسْوِئِهِمْ أَثَرًا مِنْهُمْ، ثُمَّ أَدْنُسِ الرُّسُلَ، وَأَبْنُثِ الْكُتُبَ، وَصَنِّعْ بَعْضَهُمْ عَلَى طَمَعِ مَنْ وَعَدَكَ، وَبَعْضًا عَلَى خَوْفِ

(١) طيبا : متهما . ودخلة مكروهة : أى بية سيئة . (٢) رده أى أنهته .

(٣) أرق وأرعد معاً تهذوتوعد . (٤) العوث : الخوش .

من وعيدك، وأوقد بذلك وأشاهه نيران التحاسد فيهم، وأغرس أشجار التنافس بينهم، حتى مُمَلَأَ القلوب من الوحشة، وتتطوى الصدور على الغضة، ويدخل كلاً من كل الحذر والهيبة؛ فإن مرام الطفر الغيلة، والقتال الحيلة، والمأصبة الكتب، والمكايذة الرسل، والمقارعة الكلام اللطيف المدخل في القلوب، القوى الموقوع من العوس، المعقود بالحبج، الموصول بالحيل، المبني على اللين الذى يستميل القلوب، ويستترى العقول والآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعى المواتاة، أنهض من القتال طبقات السيوف وأسسه الرماح، كما أن الوالى الذى يستترل طاعة رعيه بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكايده، أحكم عملاً والطف مظراً وأحسن سياسة من الذى لا يبال ذلك إلا بالقتال، والإتلاف للأموال والتفجير والخطار^(١).

وليعلم المهدي أنه إن وحده لقتالهم رحلاً لم يسر لقتالهم إلا بمجود كشيعة، تخرج عن حال شديدة، وتقدم على أسفار صيقه، وأموال متعزفة، وقواد عَشَشَه، إب آتنتهم آستفدوا ماله، وإن استنصهم هم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأى قد أسفر بوره، وأرق صوؤه، وتمثل صوابه للعيون، ومجد حقه في القلوب، ولكن فوق كل دى علم عليم، ثم نظر الى آسه على فقال: ما تقول^(٢)؟
قال على:

أيها المهدي، إن أهل حراسان لم يحلّوا عن طاعتك، ولم يصبوا من دوك أحدًا يقدح في تغيير ملكك، ويربص الأمور لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصعب والحال أدل، لأن الله مع حقه الذى لا يخذله، وعد موعده الذى لا يخلفه، ولكنهم قوم من رعيك، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم ولياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً، طلبوا حقاً، وسألوا إصباحاً، فإن أحسنت الى دعوتهم ونفست عنهم^(٣).

(١) الخطار. الاشراف على هلكة.

(٢) هست عنهم فرحت عنهم.

قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدث من عدهم فتق، أطلت أمر الرب، وأطفا نائرة^(١) الحرب، ووفرت حرائن المال، وطرحت تفرير القتال، وحمل الناس تحمل ذلك على طبيعة جودك، وبخية حملك، وإستباح^(٢) حليقتك، ومعدلة بطرك، فامست أن تنسب الى صغف، وأن يكون ذلك فيما بقي درة، وإن معتهم ما طلبوا ولم تحبهم الى ما سألوا، أعتدت لك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطأ، فما أرت المهدى أن يعيد الى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يحرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فيملكهم أنفسهم ويحلح نفسه عنهم، ويقف على الحيل معهم، ثم يحازيهم السوء في حد المازعة ومصار المحاطرة، أريد المهدى - وفقه الله - الأموال؟ فلمعري لا يبالها ولا يظمرها إلا بإففاق أكثر منها، مما يطلب منهم وأصعاف ما يدعى قبلهم، ولو بالها فعملت اليه، أو وصعت بجرائطها بين يديه، ثم تجأى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما اليه ينسب وبه يعرف من الجود الذي طعه الله عليه، وجعل قرة عينه ونعمة نفسه فيه، فإن قال المهدى: هذا رأى مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالها، وتحامل ولاتنا، فأما الجود الذين نقضوا موافيق العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم، فيعلم المهدى أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرين في الأصفاد؛ ثم أوسع لحقن دماهم عفو، وإقالة عثرتهم صفحه، وأستقاهم لما هم فيه من حربه، أو لمن يمازاهم من عدوه، لما كان بدعا من رأيه، ولا مستنكرا من نظره، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوا، وأشدّها وقعا، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاطمه عفو،

(١) نائرة الحرب . ما اشتعل واتخذ منها .

(٢) الإستباح . مصدر أضحج الوالى . اذا أحسن العفو .

(٣) الحريطة : وعاء من آدم وتيره .

(٤) الارحاف . مصدر أرحف القوم اذا حاصوا في أحجار الفتى على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن

وَلَا يَتَكَأَّدُهُ صَمَحٌ ، وَإِنْ عَظُمَ الدُّنْبُ وَحُلَّ الْخَطْبُ ، فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدَى - وَفَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى -
 أَنْ يُحْلِلَ عُقْدَةَ الْغَيْظِ بِالرَّجَاءِ لِحَسَنِ ثَوَابِ اللَّهِ فِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ ، وَأَنْ يَدُكَّرَ أَوَّلَى حَالَاتِهِمْ وَضِيعَةُ
 عِيَالِهِمْ ، رَأً بِهُمْ وَتَوْسَعًا لَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ إِحْوَانُ دَوْلَتِهِ ، وَأَرْكَانُ دَعْوَتِهِ ، وَأَسَاسُ حَقِّهِ الدِّينِ
 عِزَّتِهِمْ يَصُولُ ، وَبِحُجَّتِهِمْ يَقُولُ ؛ وَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ فِيمَا دَخَلُوا فِيهِ مِنْ مَسَاحِطِهِ ، وَتَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ
 مَعَاصِيهِ ، وَأَطْطَوْا فِيهِ عَنْ إِحَابَتِهِ ، وَمَثَلُهُ فِي قَلَّةِ مَا عَيَّرَ ذَلِكَ مِنْ رَأْيِهِ فِيهِمْ ، أَوْ قِلِّ مِنْ
 حَالِهِ لَهُمْ ، أَوْ تَغْيِيرِ مَنْ بَعَثْتَهُ بِهِمْ ، كَثَلُ رَجُلَيْنِ أَحَوَيْنِ مُتَبَايِرَيْنِ مَتَازِرَيْنِ ، أَصَابَ
 أَحَدَهُمَا حَسْلٌ عَارِضٌ ، وَفُتُوٌّ حَادِثٌ ، فَهَصَّ إِلَى أَحْيِهِ بِالْأَدَى ، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ الْمَكْرُوهُ ،
 فَلَمْ يَرُدِّدْ أَخُوهُ إِلَّا رَقَّةً لَهُ وَلُطْفًا بِهِ ، وَاحْتِيَالًا لِمُدَاوَاهِ مَرَضِهِ وَمَرَاجَعَةِ حَالِهِ ، عَطْفًا عَلَيْهِ
 وَرَأً بِهِ وَمَرْحَمَةً لَهُ .

فَقَالَ الْمَهْدَى : أَمَا عَلَى فَقْدِ كَوَى سَمَّتَ اللَّيَالِ ، وَفَصَّ الْقُلُوبَ فِي أَهْلِ نَحْرَاسَانَ ،
 وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَفْتَرٍّ ، ثُمَّ دَالَ : مَا تَرَى يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ يَعْنِي مُوسَى أَبَاهُ .

فَقَالَ مُوسَى :

أَيُّهَا الْمَهْدَى ، لَا تَسْكُنْ إِلَى حَلَاوَةِ مَا يَحْجَرُ مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أُلْسِنَتِهِمْ ، وَأَنْتَ تَرَى الدَّمَاءَ
 تَسِيلَ مِنْ حَلِّ فَعْلِهِمْ ، الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يَنَادِي بِمُضْمَرَةٍ شَرٍّ ، وَحَقِيَّةٍ حَقْدٍ ، قَدْ جَعَلُوا الْمَعَازِيرَ
 عَلَيْهَا سِتْرًا ، وَاتَّخَذُوا الْعِلْلَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ، رَحَاءً أَنْ يُدَافِعُوا الْأَيَّامَ بِالتَّأخِيرِ ، وَالْأُمُورَ
 بِالتَّطْوِيلِ ، فَيَكْسِرُوا حَيْلَ الْمَهْدَى فِيهِمْ ، وَيُقْبُوا جُودَهُ عَنْهُمْ حَتَّى يَتَلَاخَمَ أَمْرُهُمْ ،
 وَتَتَلَاخَقَ مَادَّتُهُمْ ، وَتَسْتَهْجِلَ حُرْبُهُمْ ، وَتَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ ؛ وَالْمَهْدَى مِنْ قَوْلِهِمْ فِي حَالِ
 عِزِّهِ وَلِبَاسِ أَمْسِيَّةٍ ، قَدْ قَتَرَهَا وَأَسَّ بِهَا وَسَكَنَ إِلَيْهَا ، وَلَوْلَا مَا اجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ،
 وَبَرِدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُلَاصَبَةِ بِالْقِتَالِ ، وَالْإِصْحَارِ لِلْقِرَاعِ عَنْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ
 فُسَادٍ ، لَرَهَبُوا عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوَلَاةِ ، وَعَيَّتْ سَكُونُ الْأُمُورِ ، فَلْيَشْدُدِ الْمَهْدَى - وَفَقَهُ اللَّهُ -

أَزَرَهُ لَمْ وَيَكْتَبْ كَاتِبَهُ نَحْوَهُمْ ، وَلِيَصَحَّ الْأَمْرُ عَلَى أَشَدِّ مَا يَحْضُرُهُ فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يَعْطِيهِمْ خُطَّةً يَرِيدُ بِهَا صَلَاحَهُمْ إِلَّا كَانَتْ دُرْبَةً إِلَى مَسَادِمِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ، وَسَبَبًا لِعَسَادٍ مِنْ بَحْصَرَتِهِ مِنَ الْجُمُودِ ، وَمِنْ سَابِغٍ مِنَ الْوُفُودِ ، الَّذِينَ إِنْ أَقْرَهُمْ تِلْكَ الْعَادَةُ ، وَأَخْرَأَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَرْبِ ، وَلَمْ يَبْرَحْ فِي فِتْنَى حَادِثٍ وَحِلَافٍ حَاصِرٍ ، لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينٌ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ، وَإِنْ طَلَبَ تَعْيِيرَهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ الدَّرْبَةِ ، لَمْ يَصِلْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْعُقُوبَةِ الْمَقْرِطَةِ ، وَالْمُؤَوَّنَةِ الشَّدِيدَةِ ، وَالرَّأْيِ لِلْمَهْدِيِّ وَقَعَهُ اللَّهُ - أَلَّا يُقْبَلَ عَثَرَتُهُمْ ، وَلَا يَقْبَلَ مَعْدِرَتُهُمْ ، حَتَّى تَطْلَأَهمُ الْجِيُوشُ ، وَتَأْخُذَهمُ السُّيُوفُ ، وَيَسْتَحِرَّ^(١) بِهِمُ الْقَتْلُ ، وَيُجْدِقَ بِهِمُ الْمَوْتُ ، وَيُحِيطَ بِهِمُ السَّلَاءُ ، وَيُطْغِي عَلَيْهِمُ الدَّلُّ ، فَإِنْ فَعَلَ الْمَهْدِيُّ بِهِمْ ذَلِكَ ، كَانَ مَقْطَعَةً لِكُلِّ عَادَةٍ سُوِيٍّ فِيهِمْ ، وَهَزِيمَةً لِكُلِّ بَادِرَةٍ شَرِّ مَسْهَمٍ ، وَاحْتِمَالٍ الْمَهْدِيِّ مُؤَوَّنَةٍ عَزَّوَتْهُمْ هَذِهِ بَصْعُ عَهْ عُرُوتٍ كَثِيرَةٍ ، وَنَفَقَاتٍ عَظِيمَةٍ .

قال المهدي : قد قال القوم فأحكم يا أما الفصل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهدي :

أما الموالى فأحدوا بُسْرُوعَ الرَّأْيِ ، وَسَلَكُوا جَنَاتِ الصَّوَابِ ، وَتَعَدُّوا أُمُورًا قَصُرَ بَظَرُهُمْ عَنْهَا أَنَّهُ لَمْ تَأْتِ تَحَارُّبُهُمْ عَلَيْهَا .

وأما الفصل فأشار بالأموال أَلَّا تُنْفَقَ ، وَالْجُسُودُ أَلَّا تُفْرَقَ ، وَبِالْأَيْدِي الْقُومِ مَا طَلَبُوا ، وَلَا يَنْدَلُ لِمَا سَأَلُوا ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ يَنْ دَلَّكَ اسْتِصْغَارًا لَأَمْرِهِمْ وَاسْتِهَانَةً بِمَجْرِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَبْهِيحُ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ صَغَارُهَا .

(١) يستحر . يشتر . يقوى .

وأما عليّ فأشار بالّين وإسراط الرّقى، وإذا جرّد الوالى لمن عظم أمره وسفه حقّه،
 اللّين بحثًا والخير تحصّا، لم يخلطهما بشدّة تعطف القلوب عن ليه، ولا يشرّ يحبسهم إلى
 حيره، فقد ملكهم الخلع لعدّهم^(٢) وسّع لهم الفرحة لثنى أعاقهم، فإن أحابوا دعوته وقيلوا
 ليه من غير خوف أصطهرهم ولا شدّه، فتروا^(٣) في رؤوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم،
 ويستصرخون بها رأى المهديّ فيهم، وإن لم يقلّوا دعوته ويُسرعوا لإحابتة بالّين المحصّين
 والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يُشبه أن يكون من مثلهم،
 لأن الله تعالى خلّق الحمة وجعل فيها من العيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يحطّر على قلب
 بشر ولا تدركه العُكْر ولا تملكه نفس، ثم دعا الناس إليها ورعّبهم فيها، فلولا أنه خلّق مارا
 جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الحمة، لما أحابوا ولا قيلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعصبوا شدّة لالين فيها، وأن يُرموا بشرّ لا خير معه، وإذا
 أصمّر الوالى لمن فارق طاعته، وحالف جماعته، الخوف مُفردًا، والشرّ محزّداً، ليس معهما
 طمع ولا لين يندبهم، أشدّت الأمور بهم، وأقطعت الحال مهم إلى أحد أمرين: إما أن
 تدخلهم الحمية من الشدّة، والأففة من الذلّة، والأفّة تعاض من القهر، فيدعوهم ذلك إلى
 التمدادى في الخلاف، والاستبسال في القتال، والاستسلام للوت، وإما أن يقادّوا بالكُره،
 ويُدعوا بالقهر على نِصّبه لازمة، وعداوة باقية، تُورث البقاع وتُعيق الشقاق، فإذا
 أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدره، أو قويّت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأعطط
 وأشدّ مما كان.

(١) عظم الأمر. اردراه. وسفه حقّه. امتهه وحسه.

(٢) المدرج عدار.

(٣) البروة. الوثوب إلى الشرّ.

(٤) صعب الشئ. : لواه وشدّه.

وقال في قول الفصل :

أيها المهديّ، أكنّى دليل، وأوصح برهان، وأبين حيران، قد أجمع رأيهُ وحرم نظره
على الإرشاد بعثة الحيوش اليهم، وتوجيه الثُوت نحوهم، مع إعطائهم ماسألوا من الحق،
وإحاثهم الى ما سألوه من العدل .

قال المهديّ . ذلك رأى .

قال هارون :

ما حُلِطْتُ الشدةُ أيها المهديّ بالتي، وأتطم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدة أمرً
يطام لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد الى ما تُحب، ولكن أرى غير ذلك .^(١)

قال المهديّ :

لقد قلتَ قولاً بديعاً، حالتَ فيه أهل بيتك جميعاً، والمرء مؤتمنٌ بما قال، وطمينٌ^(٢)
بما ادعى حتى يأتي سيّبه عادلة، وحمه طاهره، فأخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهديّ، إن الحرب حُدِعه، والأعاصم قومٌ مكّره، وربما اعتدلت الحالُ بهم،
وأتفق الأهواءُ منهم، فكان طاب ما يُسرون على طاهر ما يُعلمون، وربما أفرقت
الحالان، وحالف القلب اللسان، فأنطوى القلب على تحوُّل به بُعْثان، وأسْتَسْمَر بِمُدْحُولَةٍ
لَا تُعْمَلُ، والطبيبُ الرقيقُ بطنه، البصيرُ بأمره، العالمُ بمقدّم يده وموضع ميسمه، لا يتعمّل^(٣)
بالدواء، حتى يقع على معرفه الداء، فالرأى للمهديّ - وفقه الله - أن يفتر طابن أمرهم
قر الميسّة، ويخصّص طاهر حالم محصّ السّقاء بمتاعه الكتب، ومطاهره الرسل، ومُوالاه^(٤)

(١) العظام ها . القطع والاستئصال .

(٢) طين بما ادعى متهم بدعواه

(٣) الميسم . المكواة يوسم بها الحيوان .

(٤) قر الدابة . فتح فاها وكشف عن أسنانه يفتّر ما سنه . والمسن من الدواب ما دخل في الثامة .

العيون ، حتى تُتَهَكَّ حُبُّ عيونهم ، وتُكْشَفُ أُعْطِيَةُ أُمُورهم ، وإِذْ أَنْفَرَحَتِ الْحَالُ ، وَأَفْضَتِ الْأُمُورُ به الى تَغْيِيرِ حَالِ أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَشْتَمَلَتِ الْأَهْوَاءُ عَلَيْهِ ، وَأَقْنَادَ الرِّحَالِ اليه ، وَأَمْتَدَّتِ الْأَعْيَاقُ نَحْوَهُ بِدِينِ يَعْتَمِدُونَهُ ، وَإِثْمٌ يَسْتَحِلُّونَهُ ، عَصَبَتِهِمْ بِشَدَّةٍ لَا يَبِينُ فِيهَا ، وَرِمَاهُمْ بِعُقُوبَةٍ لَا عَفْوَ مَعَهَا ، وَإِنْ أَنْفَرَجَتِ الْعُيُونُ ، وَأَهْتَصُرَتِ السُّتُورُ ، وَرُفِعَتِ الْحُجُبُ ، وَالْحَالُ فِيهِمْ مَرِيضَةٌ ، وَالْأُمُورُ فِيهِمْ مَعْتَدِلَةٌ فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وَأَعْمَالٌ يُكْرَهُنَّ ، وَطُلَامَاتٌ يَدْعُونَهَا ، وَحَقُوقٌ يَسْأَلُونَهَا ، بِمَآثُةٍ سَابِقَتِهِمْ ، وَدَالَّةٍ مُنَاصِحَتِهِمْ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدَى - وَقَعَهُ اللَّهُ - أَنْ يَتَسَعَّ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا ، وَيَتَجَبَّأَ لَهُمْ عَمَّا كَرَهُوا ، وَيَشْتَبَّ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا ، وَيَرْتَقَ مِنْ قَتِيقِهِمْ مَا قَطَعُوا ، وَيَوَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْ أَحَبُّوا ، وَبَدَاوَى بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ ، فَإِنَّمَا الْمَهْدَى وَأَمْتُهُ ، وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرِّفِيقِ ، وَالْوَالِدِ الشَّمِيقِ ، وَالرَّاعِيِ الْمُحْزَبِ الَّذِى يَحْتَالُ لِمَرَائِصِ عَمِّهِ ، وَصَوَّالٌ رَعِيَّتِهِ ، حَتَّى يُبْرِئَ الْمُرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا ، وَيَرُدَّ الصَّحِيحَةَ إِلَى أَسْ جَمَاعَتِهَا ، ثُمَّ إِنْ حَرَّاسَانِ بِحَاصِّهِ الدِّينِ لَهُمْ دَالَّةٌ مُجْمُولَةٌ ، وَمَانَةٌ مُقْبُولَةٌ ، وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ، لِأَهْمِ أَيْدِي دَوْلَتِهِ ، وَسُيُوفُ دَعْوَتِهِ ، وَأَبْصَارُ حَقِّهِ ، وَأَعْوَانُ عَدْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمَهْدَى الْأَصْطِعَاطُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا الْمُؤَاخَذَةُ لَهُمْ ، وَلَا التَّوْعِيرُ بِهِمْ ، وَلَا الْمَكَافَأَةُ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مَبَادِرَهُ حَسَمَ الْأُمُورَ صَعِيفَةً قَبْلَ أَنْ تَقْوَى ، وَمَحَاوَلَةُ قَطْعِ الْأَصُولِ صَثِيلَةً قَبْلَ أَنْ تَنْقُطَ ، أَحْرَمُ فِي الرَّأْيِ ، وَأَحْضُ فِي التَّنْذِيرِ مِنَ التَّأْخِيرِ لَهَا وَالتَّهَاقُوتِ بِهَا ، حَتَّى يَلْتَمَّ قَلِيلُهَا كَثِيرُهَا ، وَتَجْتَمِعَ أَطْرَافُهَا إِلَى جُمْهُورِهَا .

قال المهدي : ما زال هارونُ يقع وقع الحيّا حتى خرج خروج القنح من الماء ، وَأَسْلَ أَنْسَلَ السِّيفَ فَمَا آدَعَى ، فَدَعُوا مَا سَقَى مُوسَى فِيهِ أَنَّهُ هُوَ الرَّأْيُ ، وَتَنَحَّى بَعْدَهُ هَارُونُ ، وَلَكِنْ مِنْ لَأَعِيَةِ الْخَلِيلِ وَسِيَاةِ الْحَرْبِ وَقَادَةِ السَّاسِ إِنْ أَمَعْنَ بِهِمُ الْخَلَّاجُ ، وَأَمْرُطَتْ بِهِمُ الدَّالَّةُ * .

(١) المائة . الحرمه والوسيلة

(٢) التوعير بهم . التشديد عليهم

قال صالح :

لسانبلع أيها المهديّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فائدة رأيك ، وبعض الحقائق نظرك ؛ وليس يتقصّ عك من بيوتات العرب ورجال العلم ذوي فاضل ، ورأى كامل ، وتدير قوى ، تقلّده حرك ، وتستودعه حرك ، من يحتمل الأمانة العظيمة ، ويصطليح بالأعناء الثقيلة ، وأن محمد الله ميمون^(١) البقية ، مبارك العزيمة ، محبور التجارب ، محمود العواقب . معصوم العزم ، فليس يقع اختيارك ، ولا يقف بطرك على أحد توليه أمرك . وتسد إليه نورك ، إلا أراك الله ما تحت ، وجمع لك منه ما يريد .

قال المهديّ : إلى لأرجو ذلك لعديم عاده الله فيه ، وحسب معوته عليه ، ولكن أحب الموافقة على الرأي ، والأعتار للشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن الليث :

أهل حراسان أيها المهديّ ، قوم ذوو عزة ومعة ، وشياطين حدة ، رروع الحية فيهم ناسه . وملايس الأنفة عليهم طاهره ، فالروية عنهم عارية ، والمحلة فيهم حاصره ، تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوئهم عدلهم ، لأنهم بين سقلة لا يعدو منلّع عقولهم منظر عيوبهم . وبين رؤساء لا يلحسون إلا شدة ، ولا يعطون إلا المثر ، وإن ولي المهديّ عليهم وصيها لم تنقد له العطاء ، وإن ولي أمرهم شريهاً تحامل على الصعفاء ، وإن أحر المهديّ أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يصبب لنفسه من حشمه ومواليه ، أو تى عمه أو بى أبيه ؛ باحضا يتفق عليه أمرهم ، وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ، ولا حمية تدلّهم ، ولا مصيبة تنفرهم ، تنقست الأيام بهم ، وتراحت الحال بأمرهم ، فدحل بذلك من الفساد الكبير ، والفضياع العظيم ، ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن حذ ، ولا يستصلحه وإن جهد ،

(١) ميمون البقية : أى مبارك النفس يحج بما يحاول . ومحور التحارب حيرها .

(٢) العارب . العائب .

(٣) العدل . اسم مصار من العدل بمعنى اللوم ومنه المثل "سقى السيف العدل" . يصر لما قد فات .

إلا بعد دهر طويل وشركير، وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم، ولا قاربا صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما . ولا عُدل في ذلك بهما :

أحدهما لسان ناطق موصولٌ بسمعك، ويدٌ ممثلةٌ لعينك، وصخرةٌ لا تُزَعزَع، وبُهمةٌ لا يُبْتَى، ونازلٌ لا يُفْزَعه صوتُ الجُلُجُل، بَقِيَّ العِرْض، نزيه العس، جليل الخطر، قد آتَصَت الدنيا عن قدره، وسمّا نحو الآخرة بهمته، بجعل الغرض الأقصى ليعيه نُصْباً، والغرض الأدنى لقدمه مَوْطِئاً؛ فليس يقبل عملاً، ولا يتعدى أملاً، وهو رأس مَوَالِك، وأصبح بنى أليك؛ رحل قد عُدّي لطيف كرامتك، وسَتَ في ظل دولتك، ونَسّاً على قوائم أدبك، فإن قلّدتَه أسْرهم، وحمّلتَه ثِقْلهم، وأسَدت إليه ثَعْرهم، كان قُفْلاً فَتَحَه أَمْرُك، و أباً أعلَقَه نَهْيك؛ فجعل العدل عليه وعليم أميراً، والإبصاف بينه وبينهم حاكماً، وإذا حَكَمَ النَصْفَةَ وسَلَكَ المَعْدَلَةَ، فأعطاهم ما لهم وأحد منهم ما عليهم، عَرَسَ في الدى لك بين صدورهم، وأسَكَنَ لك في السويداء داخل قلوبهم، طاعةً راسخةً العروق، ناسقةً العروج، متفائلةً في حواشي عوامهم، ممسكةً من قلوب حواصمهم، فلا يبق فيهم ريب إلا نفوه، ولا يلزمهم حقٌ إلا أدّوه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عودٌ من عَيْضَتِكَ، وبعّةٌ من أرومتك، قَتِيُّ السّن كهل الحِلْم راجحُ العقل محمود الصّرامة مأمونُ الاخلاق، يجرّد فيهم سيقه، ويسطّ عليهم خيره بقدر ما يستحقون، وعلى حَسَب ما يستوجِبُون، وهو فلان أيها المهدي، فسَلَطَه - أعزّك الله - عليهم، ووجّهه بالجيوش اليهم، ولا تمسك صرّاعة سَه، وحدائث مولده، فإن الحلم والثقة مع الحدائث، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإمّا أحداثكم أهل البيت فيما طعمكم الله عليه، وأختصكم به من مكارم الأخلاق، وعامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأهنس؛ كِهْرَاجِ عِتَاقِ الطير المُحَكِّمة لأحد الصييد لا تدريب، والعارفة

(١) صرّاعة سَه : شاه وحدائث سَه .

(٢) عِتَاقِ الطير : كرام الطير .

لوحوه التمع ، لا تأديب ، فالحلم والعلم والعزم والحزم والحدود والثؤدة والرفق ثابت في صدوركم ،
مزروع في قلوبكم . مستحجكم لكم ، متكامل عدكم ، بطائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله .

إفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر . وأهل خراسان في حال عز على
ما وُصف ، ولكن إن ولي المهدي عليهم رحلا ليس بقديم الذكر في الجود ، ولا بنيه
الصوت في الحروب ، ولا بطويل التجربة للأمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهبة
في الأعداء ، دخل ذلك أمران عطيان وخطران مهولان ، أحدهما . أن الأعداء يقتمزونها
مه ويختزونها فيه ، ويحترقون بها عليه في النهوض به والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل
الاختار لأمره ، والتكشيف لحاله والعلم بطاعه . والأمر الآخر : أن الحدود التي يقود
والجيوش التي يسوس إذا لم تحتروا منه الأس والحدّة ، ولم يعرفوه بالصّيت والهبة ،
أكسرت شجاعته ، وماتت نحدته ، وأساحت طاعتهم الى حين اختارهم ، ووقع
معرفتهم ، وربما وقع الوارقل الاختار ، وباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب
نبيه حيّك صيّت ، له نسب رالك وصوت عال ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتألف
أهل خراسان ، واجتمعوا عليه باليقة ، ووثقوا به كل الثقة ، فلو لاه المهدي أمرهم ،
لكفاه الله شرهم .

قال المهدي : حانت قصد الرمية ، وأبئت إلا عصبية ، إد رأى الحدّث من أهل
بيتنا ، كراى عشرة حلماء من عينا ، ولكن أين تركتم ولي العهد .

قالوا :

لم يمنعا من ذكره إلا كونه شبيه جده ، ونسيج وحده ، ومن الدين وأهله ، بحيث يقصر
القول عن أدنى فضله ، ولكن وحدنا الله عز وجل تجب عن حلقه ، وستر من دون عباده
علم ما يختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير ، من حوادث الأمور وريب المنون

الْمُحْتَرِمَةِ لِنُحُورِ الْقُرُونِ وَمَوَاضِى الْمُلُوكِ ، فَكَّرَ هُنَا شُسُوعَهُ ^(١) عَنْ مَحَلَّةِ الْمُلِكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِ
 الْإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوَاصِيعِ الْمَدَائِنِ وَالْخُرَائِنِ ، وَمَسْتَقَرِّ الْجُودِ وَمَعْدِنِ الْحُودِ ، وَتَجَمُّعِ الْأَمْوَالِ
 الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْعًا لِدَارِ الْمُلِكِ وَمِصِيدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ وَمَثَابَةً لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَتُورِ الْفِتَنِ ،
 وَدَوَاعِى الدِّعِّ وَفِرْسَانِ الضَّلَالِ وَأَبْءَاءِ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدِيُّ وَلِيَّ عَهْدِهِ حَدَّثَ
 فِي جَبُوشِهِ وَجُودِهِ مَا قَدْ حَدَّثَ بِمُحَمَّدِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُقْبِطَهُمْ
 غَيْرُهُ إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ؛ وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَقَسَّتِ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ،
 وَأَسْتَدَارَتِ الْحَالُ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عَوَضٌ لَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ ، أَوْ يُحْدِثَ أَمْرًا لَا يَدُّ مِنْهُ ،
 صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلٌ حَظَرًا لَهُ تَبَعًا وَهُ مُتَبِعًا .

قال المهدي :

الْحَطَبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَدْمُونُ إِلَيْهِ ، وَعَلَى عَيْرٍ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ؛ بَحْسَ أَهْلِ الْبَيْتِ
 تَحْرِى مِنْ أَسَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقٍ مِنَ الْعِلْمِ وَمَعْتُومٍ مِنَ الْأَمْرِ ، قَدْ
 أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَنَبَأَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ ، وَقَدْ تَنَاضَى ذَلِكَ جَامِعُهُ الْبَيْنَا ؛ وَتَكَامَلَ بِمُحَادِيرِهِ
 عِدْمًا ، فَهُ نَذِيرٌ وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ . إِنَّهُ لَا يَدُّ لَوْلَى عَهْدِي وَلَوْلَى عَهْدِ عَقِي سَعْدِي أَنْ يَقُودَ
 إِلَى خِرَاسَانِ الْبُغُوثِ ، وَيَتَوَسَّعَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمِلُ فِيهِمْ حِيلَهُ ؛ ثُمَّ يُخْرِجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَيْثُ
 عَلَيْهِمْ ، يَرِيدُ أَلَّا يَدَّعَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِى الدِّعِّ وَفِرْسَانِ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّاهُ
 بِحَزِّ الْقَتْلِ ، وَأَلْبَسَهُ فِتْنَةَ الْقَهْرِ ، وَقَلَّهَ طُوقَ الذِّلَّةِ ؛ وَلَا أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي قَضَى
 حِمَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِنْ حَادَ نَارَ الدِّعَةِ ، وَنُصْرَةَ وَلَاهِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ دِيمَ فَضْلِهِ ، وَحَدَاوَلِ
 نَهْلِهِ ؛ فَإِذَا خَرَجَ مُزْمِعًا بِهِ تُجْمَعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ عَمِلَتْ حِيلُهُ ،
 وَكَدَحَتْ كُنْثُهُ ^(٢) وَنَقَذَتْ مَكَابِدُهُ ؛ فَهَدَأَتْ مَافِرَةَ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ ^(٣) طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ، وَاجْتَمَعَ

(١) شُوعُهُ : ابْتِدَاعُهُ .

(٢) سَمَتْ وَدَأَبَتْ حَتَّى أَزَتْ .

(٣) وَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ : نَحَدَ عَصِيَا وَسَكَنَ رَوْحَهَا .

عليه المختلِفون بالرِضا ، فيميل بطَرَا لهم ، ويرأُّ بهم ، وتعطفُ عليهم ، الى عدوِّ قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومع مُجَّاجهم بيت الله الحرام ، وسلَب ثمارهم رِزق الله الحلال .

وأما الآخرفانه يوحه اليهم ، ثم تُتَعَدِّ له المحمَّة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ؛ فإذا سمحت العِرق بقرامانها له ، وجَّح أهل الواحي بأعناقهم نحوه ؛ فأصغَتْ اليه الأئمَّة ، واجتمعت له الكلمة ، وقَدِمت عليه الوفودُ قصَدَ لأوَّل ناحية نَحَت طاعتها وألقت بأزمتها ، فألبسها حاح بعمته ، وأزطا طُل كرامته ، وخصَّها بعظيم حِبَّائه ، ثم عمَّ الجماعة بالمُعَدَّة ، وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تَنَقَّى فيهم ناحيةٌ دانيةٌ ولا فرقةٌ قاصيةٌ ، إلا دخلت عليها بركته ، ووصلت اليها سمعته ؛ فأغنى فقيرها ، وحرَّ كسيرها ، ورفع وضعيها ، وزاد ريعيها ماحلا ناحيتين ، ناحيةً يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فسَتَحِفَّ بدعوته ، وتطغى عن إحابته ، وتتناقل عن حقِّه ، فتكون آخر من سَعَتْ وأطأ من يوحه ، فيضطلي عليها موجدِه ويتبى لها عِلَّة ، لا يَلْتَأ أن يَمِدَّ حقَّ يلزمهم وأمر يَحِبُّ عليهم ، فتستلجهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستَحِزُّ بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويُقْنِهم التنبُّع ، حتى يحرب البلاد ، ويؤتَمِّ الأولاد ، وناحيةٌ لا يسطُ لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعل لهم ذمة ، لأنهم أوَّل من فتح باب الفرقة ، وتذرع حِلاب الفتنة ، ورض في شقِّ العصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ، ويطلب هُرَّابهم في لجج البحار ، وقُلل الجمال ، وتَحَلَّ الأودية ، ويطون الأرض ، تَقْتِيلًا وتَقْلِيلًا وتَسْكِيلًا ؛ حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أياى ، وهذا أمر لا يعرف له في كُتُبنا وقتا ، ولا نصصح منه غير ما قلنا تفسيراً .

وأما موسى ولَّى عهدى فهذا أوان توجَّهه الى خراسان ، وحلوله بِمُحْرَجَانَ ؛ وما قصى الله له من الشحوص اليها ، والمُقام فيها ، خيرٌ للسامين مَنَّة ، وله بإذن الله عاقبةٌ من المُقام ، بحيث يُعَمَّر في لجج بحورنا ، ومدافِع سيولنا ، ومحامع أمواجنا ، فيتصاغَرُ عظيم فضله ،

وَيَتَدَابُّ^(١) مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كاش منه، من يصحبه من الوزراء ويختاره من الناس .

قال محمد بن الليث :

أيها المهديّ : إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل ملكك علماً ، قد تَنَتَّ نحوه أعناقها، ومَدَّت سِمَتَه أبصارها ؛ وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك، عَطَلَ الحال غُفْل الأمر وإسِعَّ العُدْر ، فأما إذا أفرد نفسه وحلا بنظره وصار الى تديره، فإن من شأن العامة أن تَتَقَدَّ حَاحَ رَأْيِه، وَتَسْتَقِصَّ لمواقع آثاره، وتَسْأَلُ عَ حَوَادِثِ أحواله في رَهْ ومرحمته وإسقاطه ومعدّله وتديره وسياسته ووررائه وأصحابه ، ثم يكون ما يَسِيقُ اليهم أغلب الأشياء عليهم وأَمْلِكُ^(٢) الأمور بهم وألهمها لقلوبهم ، وأشدّها أَسْمَالَةً لِرأيهم وعطفاً لأهوائهم، فلا يفتأ المهديّ — وفقه الله — باطرا له فيما يقوى عُمدُ مملكته، ويُسدّد أركان ولايته ، ويستجِيعُ رِضَا أَمَتِه وأمير هو أزيں لحاله وأظهر لجماله، وأفصل مَنَّةً لأمره، وأحلَّ مَوْقِعاً في قلوب رعيته، وأحدّ حالا في نفوس أهل ملته، ولا أدفع مع ذلك لاستجاع الأهواء له، وأناع في استعطاف القلوب عليه، من مرحلة تظهر من فعله، ومعدلة تنتشر عن أثره وعجبه للخير وأهله، وأن يبخار المهديّ — وفقه الله — من خيار أهل كل تِلْدَةٍ، وفُقهاءِ أهل كل مِصْرٍ، أقواما تَسْكُنُ اليهم العامة إذا ذُكروا، وتأس الرعيّة بهم ادا وُصِفوا، ثم تُسهّل لهم عِمارة سُلِّ الإحسان وتُفتح باب المعروف، كما قد كان يُتَبَحُّ له ويُسهّل عليه .

قال المهديّ : صدقت ونصحت، ثم بحث في آبه موسى فقال :

أَيُّ بَيْتٍ، إنك قد أصبحت لِسِمَتِ^(٤) وحوه العامة نُصّاً، وَلِمِثْقَى^(٥) أعطاف الرعيّة عاية، فَحَسَبْتُكَ شاملة ، وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر، فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل

(١) يتدأب: يبحث . (٢) تتقد حاح رأي : أي تفحص عن وحوه رأيه وتديره . (٣) أملك الأمور : أسطها . (٤) السم : المذهب والقصد . (٥) الأعطاف : مع عطف وهو الجانف .

يُخَطِّطُ النَّاسَ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبُ رِصَالَهُمْ بِخِلَافِهِمَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَحَلَّ كَافٍكَ مَنْ أَسْخَطَهُ
 عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِصَالَهُ ، وَلَيْسَ نَكَافِيكَ مَنْ يُسَخِّطُهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَاً مَنْ سِوَاهُ . ثُمَّ أَعْلَمَ
 أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ رَمَانٍ قَتَرَهُ مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخِبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَحْدُدُ
 حُلَّ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيُسَيِّدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِصِرَتِهِمْ ، وَيَتَخَذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى
 إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا ، يَسْتَدُونَ الْحَلَلَ وَيَقِيمُونَ الْمَيْلَ ، وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفُسَادَ ؛ وَإِنْ
 أَهْلُ خِرَاسَانٍ أَصْحَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ، وَسَيُوفُ دَعْوَتِنَا الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارَهَ بِطَاعَتِهِمْ ،
 وَتَسْتَصْرِفُ نَزُولَ الْعِظَامِ مَنَاصِحَتِهِمْ ، وَتُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَائِهِمْ ، وَتُرَاحِمُ رُكْنَ التَّهْهِ
 سِوَاهُ ؛ هُمْ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُرْحِقَتْ كُنُفُهَا ^(١) ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا رَزَتْ صَفْحَتُهَا ،
 وَحِصُونُ الرِّعْيَةِ إِذَا تَصَايَقَتِ الْحَالُ بِهَا ، قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ؛
 أَخَذْتُ بِيَرَانِ الْفَتَى ، وَقَسَمْتُ دَوَاعِيَ الْبَدْعِ ، وَأَذَلْتُ رِقَابَ الْجُبَّارِينَ وَلَمْ يَعْكَوْا كَذَلِكَ
 مَا حَرَّوْا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي طَلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ، الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ
 بِهَا دِينَهُمْ وَرَفَعَ بِهَا صَعْتَهُمْ ، وَحَلَّلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمَلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ
 مَعْدَ لِيَّاسِ الدَّلِّ ، وَقِيَاعِ الْخَوَافِ ، وَإِطَائِ الْبَلَاءِ وَمُحَافَاةِ الْأَسَى ، وَحَهْدِ النَّاسِ وَالصَّرِّ ؛
 فَظَاهِرٌ عَلَيْهِمْ لِنَاسِ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلَهُمْ فِي حَدَائِقِ مَعْنَتِكَ ، ثُمَّ أَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ،
 وَوَسِيلَةَ دَالَتِهِمْ ، وَمَا تَسَاقَيْتُمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ، بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ،
 وَالْإِثَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةَ لِمُسِيئِهِمْ .

أَيُّ هُيْ . ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةُ فَاسْتَدْعِ رِضَاَهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ
 لَهَا ؛ وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرُتَبِكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عَمَالَ الْمُدْرُ وَوَلَاةَ الْمُحْجَجِ
 مُقَدِّمَةً بَيْنَ عَمَلِكَ ، وَصَفَّةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاصِيَّ كُلِّ بَلَدٍ ، وَجِيَارَ أَهْلِ كُلِّ
 مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَهْمِهِمْ رَجُلًا تَوَلَّيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَتَحْمِلَ الْعَدْلَ حَاسِمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ فَإِنْ
 أَحْسَنَ حُدُودَهُ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرَتْ . هَؤُلَاءِ عَمَالُ الْمُدْرُ وَوَلَاةُ الْمُحْجَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ

(١) الكنف : جمع كف وهو الجلاب . وأرجعت : رزقت .

ما في ذلك اذا أنتشر في الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من آنعقاد أليسة المُرْحِفِين ، وَكَبَتْ قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب . وسلامة عواقب الأمور ، ولا يَسْكُنُ في ظِلِّ كرامتك نازلا ، وبعثاً حبلك متعلِّقا رَحَلا : أحدهما كريمة^(١) من كرائم رَحالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف به أدب فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدحول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأنحاء العرب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب . يصع آداما نافعة وآثارا نافية ، من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك ، فتستشيره في حرك ، وتُدْخِلُهُ في أمرك ؛ فَرَجُلٌ أَصْبَنَهُ كَذَلِكَ فَهُوَ يَأْوِي إِلَى مَحَلَّتِي ، وَيَرْعَى فِي خُصْرِهِ جَنَابِي ، وَلَا تَدْعُ أَنْ تَحْتَارَكَ مِنْ فَقَهَاءِ الْبُلْدَانِ ، وَخِيَارِ الْأَمْصَارِ ، أَقْوَامًا يَكُونُونَ جِيرَانَكَ وَمُتَارَكَ ، وَأَهْلَ مُشَاوَرَتِكَ فَمَا تُورِدُ ، وَأَمْحَاةَ مَا طَرَتَكَ فَمَا تُقْصِدُ . قَسِرَ عَلَى رَكَّةِ اللَّهِ ، أَصْحَبِكَ اللَّهُ مِنْ عَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ دَلِيلًا يَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ ، وَهَادِيًا يُطِيقُ بِالْخَيْرِ لِسَانَكَ . وَكَتَبَ فِي شَهْرِ رَجَبِ الْآخِرِ سَنَةِ سَمْعِينَ وَمِائَةِ بَغْدَادَ .

(١) الكريمة . صاحب الكرم . وكرائم الرجال . أخاير رجال العرب وأحاسنهم . (٢) غير معمور

غير مطعون . وغير مدحول . لا يداخله فساد .

٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد الى قُسطنطين ملك الروم

من عبد الله هارون أمير المؤمنين الى قسطنطين عظيم الروم: سلامٌ على من أتبع الهدى .
فلانى أحمد الله الذى لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذى تعالى عن شبه
المحدودين بعظمته ، وأحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار بمذكّرة له ، ولا
الأوهام بواقعة عليه ، افراداً عن الأشياء أن يُشبهها ، وتعالى أن يشبهه شئٌ منها ، وهو
الواحد القهار ، الذى ارتفع عن مَنال صفات القائلين ، ومداها لُغات العاملين ، وفكر
الملائكة المقربين ، فليس كَيْثله شئٌ ، وله كلُّ شئٍ ، وهو على كلِّ شئٍ قدير .

أما بعد ، فإن الله حلّ شأوه وتباركت أسماؤه ، قال لبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل
من آيات الوحي اليه . ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَادِثْهُمْ بِأَيِّ
هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . فرأى
أمير المؤمنين من أحسنِ قوله وأفصلِ فعله ، أن يكون الى سبيلِ ربه داعياً ، ورسوله
صلى الله عليه وسلم متأسياً ، ولقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقاً . وكَسَتْ من كتبِ الله المنزلة ، وآياته المفسره ، وحلقه الكثير
بحيث رحا أمير المؤمنين أَسْمَاعَكَ لِمَوْعِظَتِهِ ، وَأَتَفَاعُكَ لِمُحَادِلَتِهِ انتفاعٌ بِشَرِّ كَثِيرٍ وَحَلَقُ
عَظِيمٍ قَدْ نُوَّتْ بِأَوْزَارِهِمْ مَعَ وَزِيرِكَ ، وَأَحْتَمَلَتْ مِنْ آثَامِهِمْ إِلَى إِمَّاكَ ، فَأَحَبُّ أَنْ يَدْعُوكَ
وَمَنْ رَحَا أَنْ يَنْتَفِعَ بِدَعْوَتِهِ مَعَكَ ، إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ عِصْمًا بَعْضُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ؛ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَنْ ذَلِكَ رُجِعَ عَنْهُ ،
أَوْ تَرَكْتُمُوهُ رَهَادَةً فِيهِ ، فَاشْهَدُوا أَنَا مُسْلِمُونَ . وَاسْتَمِعُوا مَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصْفُ لَكُمْ ،
وَمُحْتَجٌّ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، بَقُلُوبٍ شَاهِدَةٌ وَأَدَانٍ وَاعِيَةٍ ، ثُمَّ أَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ .
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِيمَا أُنْزِلَ مِنْ كِتَابِهِ وَأَفْتَضَّ عَلَى عِبَادِهِ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ تَارَكَ اسْمَهُ وَهَالَى حَذُّهُ ، وَصَنَفَ فِيمَا أُرِلَ مِنْ آيَاتِهِ ، وَشَرَحَ مِنْ بَيِّنَاتِهِ ، الْأُتَمَّ الْمَاصِيَةِ ، وَالْقُرُوبَ الْخَالِيَةِ ، وَالْمَلَلَ الْمُتَفَرِّقَةَ ، الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مَعَ اللَّهِ أَلْهَةً أُخْرَى لَا بُرْهَانَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا ، فَقَالَ : ﴿ يَأْمُرُ الْكِتَابَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۝ ﴾ . إِمَّا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ فَأَمَّا بِلِلَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا حَيْثَا كُنْتُمْ إِمَّا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَمَى بِاللَّهِ وَكِلاَّ أَنْ يَسْتَكْفِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۝ .

قالت العربُ الذين يسدونُ الملائكةَ وأهلُ الكتابِ الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ ما يَمِينُ
آيةٌ ما جُدَّ تَرَعُ أن اللهَ إلهٌ واحدٌ ، فأنزلَ اللهَ عَرَّ وحلَّ في ذلك آيةً تُشْهَدُ لها العقولُ ،
وتؤمِّنُ بها القلوبُ ، وتعرفُها الألبابُ ، فلا يستطيعُ لها رَدًا ، ولا تُطِيقُ لها مَحْجَدًا ، دُكِرَ
فيها اتِّصَالُ حلقه وأتَمَّقَ صُنعُه ، لِيُوقِنَ الحاهِلونُ من العربِ ، والصَّالِّونُ من أهلِ الكتابِ ،
أنَّ اللهَ السَّما والأرضُ ، وما بينهما من الهوَاءِ والحَلَقِ ، واحدٌ لا شَرِيكَ لَهُ ، عَاقِبُ لا شَيْءَ
مَعَهُ : (زَيْنٌ) وَ حَلَقِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعَلَمِ الْإِلَهِيِّ تَحْجَرِي
فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَسْمَعُ النَّاسُ) . فَتَصَدَّقْ في تفسِيرِ هذه الآيةِ من كلامِ الرِّبِّ عزَّ وحلَّ ، وما أَوْصَحَ
فيها من بَيانِ الخَلْقِ ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ مَعَكُ يَظُنُّ فيما دُكِرَ اللهُ فيها مِمَّا بَيْنَ السَّما والأرضِ ، إِلَّا رَأَى
مِنْ اتِّصَالِ بَعْضِ ذَلِكَ بَعْضٍ ، مِثْلَ مَا رَأَى في تَدْبِيرِهِ نَفْسَهُ ، وَعَرَفَ مِنْ اتِّصَالِ حَلْقِهِ ،
فِي بَيْنِ ذَوَاتِهِ شُؤْنِ رَأْسِهِ إِلَى أَطْرَافِ أُنَاسِهِ قَدَمِهِ . وَفِي ذَلِكَ أَوْصَحُ آيَةٍ وَأَيُّنُ دَلَالَةٍ ،
عَلَى أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُ وَصَّعَهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ مَعَهُ ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ أَتَدَبَّعَهُ ، وَلَا عَلَى مِثَالِ صَعَمِهِ .
قَدْ تَرَوْا بِعُيُوبِكُمْ وَتَعْلَمُونَ بِعُقُولِكُمْ ، أَنَّ اللهَ عَزَّ وحلَّ حَلَقَ لِلْأَنْفَامِ الْأَرْضَ ، وَجَعَلَهَا
مُوصُولَةً بِالْخَلْقِ ، فَلَيْسَ يَدْحُوهَا إِلَّا لَهُمْ ، وَلَا يُدِيمُهَا إِلَّا مَعَهُمْ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الْخَلْقَ مُنْتَصِلًا

وَالْبَتَّ ، لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِ . وَجَعَلَ ذَلِكَ الْبَتَّ الَّذِي جَعَلَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَمَعَاشًا لِأَعْيَانِكُمْ ، مُتَصِلًا بِالسَّمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ، لِمَعَاشٍ مُقْسُومٍ ؛ فَلَيْسَ يَجْمَعُ الْبَتَّ إِلَّا بِهِ وَلَا يَجِيءُ إِلَّا عَنْهُ . وَجَعَلَ السَّحَابَ الَّذِي يَسْطُوهُ كَيْفَ يَشَاءُ مُتَصِلًا بِالرَّيْحِ الْمُسَحَّرِ فِي حَوْزِ السَّمَاءِ يُثِيرُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ ، وَتَسْؤِفُهُ وَأَتَمُّ تَنْظُرُونَ ؛ كَمَا قَالَ عَمْرُو بْنُ لُحَيْشٍ : (زَوَالَهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقَاهُ إِلَى يَدَيْ مَيِّتٍ فَأَحْيَاهُ بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) وَوَصَلَ الرِّيحُ الَّتِي بَصُرُوهَا فِي حَوْزِ السَّمَاءِ بِمَا يُؤَثَّرُ فِي حَلْقِ الْمَوَاءِ مِنَ الْأَرْمَةِ الَّتِي لَا تَبُتُّ الْهَوَاحِرُ إِلَّا نَبَاتِهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهُ بَرْدٌ إِلَّا بِزَوَالِهَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَطُلَّ رَاكِدَا الْحَزِّ الْمَيِّتِ ، أَوْ مَاتَلَا بِالْبَرْدِ الْقَاتِلِ . وَوَصَلَ الْأَزْمَنَةُ الَّتِي حَمَلَهَا مُتَصَرِّفَةٌ مُتَلَوِّةٌ بِمَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الدَّائِسَيْنِ لَكُمْ الْخُتْلَيْنِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْكُمْ . وَجَعَلَ مَسِيرَهُمَا الَّذِي لَا تَعْرِفُونَ عِدَدَ السَّيْرِ إِلَّا بِهِ ، وَلَا مَوَاقِعَ الْحِسَابِ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ ، مُتَصِلًا بِدَوْرَانِ الْفَلَكَ الَّذِي فِيهِ يَسْبَحَانِ ، وَبِهِ يَأْفَلَانِ ، وَوَصَلَ مَسِيرَ الْفَلَكَ بِالسَّمَاءِ لِلطَّائِرِ سِوَاهُ . فَهَذَا حَلْقُ اللَّهِ عَمْرُوجِلْ ، مَا فِيهِ سَائِرٌ وَلَا تَزَائِلٌ وَلَا تَفَاوُتٌ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) . وَلَوْ كَانَ لِلَّهِ شَرِيكٌ أَوْ مَعَهُ ظَهِيرٌ عَلَيْهِ ، يُؤْنِسُكَ مِنْهُ مَا يُرْسِلُ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُ مَا يَمْسُكُ ، أَوْ يُؤْخَرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَنْ وَقْتِ زَمَانِهِ ، أَوْ يَعْمَلُهُ قُلُوبٌ نَحْيَ ، إِنْ أَمَرَهُ ، لَتَفَاوَتَ الْخَلْقُ ، وَلَتَبَايَسَ الصُّعْبُ ، وَلَتَسُدَّ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَلَتَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ - وَكَذَّبَ الْمُبْطِلِينَ - . (نَزَلَ أَنْبِيَائُهُمُ بِالْحَقِّ وَإِلَهُهُمْ لِكَادِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّا نَعْصِمُ عَلَى بَعْضِ سُخْرَى اللَّهِ عَمَّا يَعْبُودُونَ) .

وَالْعَجَبُ : كَيْفَ يَصِفُ مَخْلُوقُ رَبِّهِ ، أَوْ يَجْعَلُ مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ ، وَهُوَ يَرَى فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ صَعَمَةً ظَاهِرَةً ، وَحِكْمَةً خَالِفَةً ، وَبِالْيَقِينِ ، وَتَدْبِيرًا مُتَصِلًا ، مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَقُومُ مَعْصُهُ إِلَّا لِبَعْضِ مُتَحَلِّينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، مِثْلًا نُصَبَّ عِيْدِهِ ، بِيَادِيهِ إِلَى صَانِعِهِ ، وَيُلْهُ عَلَى خَالِقِهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، (قَتَعَ عَلَى اللَّهِ

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَبَشِرُكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . حَقًّا مَا كَرَّرَ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ
بربهم الصَّالُونَ عن أنفسهم ، في خلق الله الطَّيْرَ ، ولا رَجَعُوا كما قال الله عز وجل
الْبُكَرَ . ولو أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجْهَدُوا بَطْرَهُمْ ، فيما تَسْمَعُ آدَانُهُمْ وترى أَصْصَارُهُمْ ، من
حوادثِ حالاتِ الخَلْقِ ، وعجائبِ طبقاتِ الصُّعْ ، لوحدوا في أَقْرَبَ ما يَرُونَ بأعينهم :
من التَّأْلِيفِ لِتَرْكِيبِ حَلَقَتِهِمْ ، والآثِرِ في التَّدْبِيرِ بَصْنَعِهِمْ ، ما يَدْلُجُّ على تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ ،
ويقف بهم على انفرادِهِ بِخَلْقِهِمْ . فانهم يَرُونَ في أَنْفُسِهِمْ بأعينهم ويحدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة
صَنْعَةً بعد صَنْعَةٍ ، ومَحْوَلَةٌ طَبَقَةً عن طَبَقَةٍ ، ومَقُولَةٌ حَالًا إلى حال : سُلَّالَةٌ من طِينٍ ، ثم
نُطْقَةٌ من ماء مَيْهِينَ ، ثم عَلَقَةٌ ، ثم مُضْغَةٌ ، ثم عَظْلٌ ، كداه الله عز وجل تَجْمًا ، وَبَغَعَ فِيهِ رُوحًا ،
وَإِذَا هُوَ حَتَّى آخِرَ ، فتبارك الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، الذي خَلَقَ في قَرَارِ مَكِينٍ ، من ماءٍ قَلِيلٍ
صَعِيفٍ دَلِيلٍ ، خَلَقًا صَوْرَهُ بِخُطِيطٍ ، وَقَدَّرَهُ بِتَرْكِيبٍ ، وَأَلْفَهُ أَحْرَاءَ مُتَفَقَّةٍ ، وَأَعْصَاءَ
مُتَصِلَةٍ ، من قَدَرٍ إلى ساقِ إلى نَعْدٍ إلى ما وَفَّقَ ذَلِكَ : من مَقَاصِلِ ما يُعْلِلُ أَوْ عَجَائِبِ
ما يُنْطِلُ ، ليعلم الْجَاهِلُونَ وَيُوقِنَ الْجَاهِدُونَ ، أن الذي صَنَعَ ذلك وحَلَقَهُ وَدَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ
وَهَيَّأَ طَاهِرَهُ وَبَاطِلَهُ إِلَهُ وَاحِدَ لَا شَرِيكَ مَعَهُ . فلا يَذْهَبَنَّ دُكْرُ هَذَا صَمْعًا عَنْكُمْ ، وَلَا تَنْسُقُطْ
حِكْمَتُهُ جَهْلًا بِهِ عَلَيْكُمْ ، وَفَكَّرُوا في آيَاتِ الرِّسْلِ وَبَيِّنَاتِ الدُّرِّ ، فإن في ذلك فِكْرًا لِلنَّاصِرِينَ ،
وَنَصْرًا لِلْعَبِيدِينَ ، وَذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ ، والحمد لله رب العالمين .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصِفٌ لَكُمْ ، وَمُقْتَضٍ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، مَا فِيهِ شَهَادَاتُ
وَاصِحَاتُ ، وَعَلَامَاتُ بَيِّنَاتُ ، وَمُسْتَدَيُّ بِذِكْرِ آيَاتِ سُبْحَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَا أُنْزِلَ اللَّهُ
مِنْهَا فِي الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، فإنه ما أَحَدٌ يَقْرَعُ آيَاتِ الْبَيِّنَةِ قَلْبَهُ ، وَيَحْصُصُ بَيِّنَاتِ الْهُدَى عَقْلَهُ ، إِلَّا
قَادَتْهُ حَتَّى يَوْمَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يَجِدُ إِلَى إِنْكَارِ مَا حَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ سَبِيلًا .
فَارْدَتْ أَنْ تَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ وَثَقَةٍ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ،
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَأَحْصِرْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهَمَكَ . وَأَلْقِ إِلَى مَا هُوَ وَاصِفٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَمْعَكَ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ لِنَفْسِهِ ، وَأَخْتَارَ لَهُ رُسُلًا مِنْ خَلْقِهِ ،
وَأَبْتَعَتْ كُلُّ رِسُولٍ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ ، وَبِعَدَّتِهِمْ مَا يَنْجِهْلُونَ : من تَوْحِيدِ

الرب وشرائع الحق (ثَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) .
 فلم تزل رسل الله قائمة بأمره ، متوالية على حقه ، في مَوَاصِي الدُّهُور ، وَخَوَالِي القُرُون ،
 وطلقات الرِّمَان . يَصْدُقُ آخرهم ببؤه أولهم ، ويصدق أولهم قول آخرهم ، ومفاتيح دعوتهم
 واحدة لا تختلف ، وجماع ملتهم ملتمة لا تفرق ، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى
 عيسى عليه السلام عليها وبشرها ، الى النبي الأُمِّي الذي انتخبه الله لَوَحْيِهِ ، واختاره معلمه ؛
 فلم يرل ينقله بالاناء الأخير ، والأُمَمَات الطَّوَاهِر ، أُمَّةً قَائِمَةً ، وقربا فقربا ، حتى استخرجه
 الله في حير أوان ، وأفصل زمان ، من أثبت محامد أرومات الرِّبِّية أصلا ، وأعلى دوائب نبعات
 العرب قرعا ، وأطيب مآت أعياص قريش مغرسا ، وأرفع درى محد بنى هاشم سَمَكَا :
 محمد صلى الله عليه وسلم حيرها عند الله وحلقه نفسا ، على حين أوحشت الأرض من أهل
 الإسلام والإيمان ، وأمتلات الآفاق من عتدة الأصنام والأوثان ، وأشتعلت البدع والدين ،
 وأطقت الظلم على الناس أجمعين ، وصار الحق رثما عافيا ، حلقا ناليا ، ميتا وسط أموات ،
 ما إن يُحْسِنُون للهدى صوتا يسمعون ، ولا للدين أثرا يتبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم
 قائما بأمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويحذرهم عقوبات
 الشرك ، ويحادلهم ببور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابرا على الأذى ،
 محتملا للكره ، قد ألهمه الله عز وجل أنه مطهر دينه ، ومُعِزُّ تمكيه ، وعاصمه ومستحلِّفه
 في الأرض ، فليس شئيه ريب ، ولا يلويه هيب ، ولا يعنيه أذى ؛ حتى اذا قهرت البيئات
 ألباهم ، وبهرت الآيات أنصارهم ، وحصم نور الحق محتهم ، فلم تمنع القلوب من المعرفة
 بدوب صدقه ، ولم تعد العقول سبيلا الى دمع حقه . وهم على ذلك مكذبون بأقوالهم ،
 وحاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل الْعَلِيمُ بِمَا يُسِرُّونَ ، الْخَابِرُ بِمَا يُعْلِنُونَ : (فَانْتَهُمُ
 لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحَدُّونَ) فَيَا وعداوة ، وحسدا ولحاحة ، افترض

(١) محامد . جمع محند ، وهو الأصل . (٢) أرومات : جمع أرومة ، وهي الأصل .

(٣) سات . أصول كريمة . (٤) أعياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم . العاص

وأبو العاص والعيص وأبو العيص والمويص . (٥) في الأصل . "فلا" .

الله عليه قتالهم ، وأمره أن يجرّد السيّف لهم ، وهم في عصّابة يسيّرة ، وعدّة قليلة ، مستضعفين مستذّلين ، يخافون أن يخطفهم العرب ، وتداعى عليهم الأمم ، وتستحلبهم^(٢) الحروب ، فأواهم في كنفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم مقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقتلهم ، وغلب قوّة الجنود بضعفهم ، إنجازاً لوعده ، وتصديقا لقوله : (وَإِن جُئْتُمُ الْغَالِبُونَ) فَأَحْسِ الظَّرَّ وَقَبِّ الْفَكْرِ في حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائما لله ، لتجد لمذاهب فكره وتصاريف نظرك ، مضطربا واسعا ، ومعتمدا ناعما ، وشعوبا جمة ، كلّها حير يدعوك الى نفسه ، وبيان يكشف لك عن تحضيه . وأحير أمير المؤمنين ما كنت قائلا لو لم تكن البعثة للنبي — صلى الله عليه وسلم — بلفتك ، ولم تكن الأنباء بأموره فتزرت قبلك ، ثم قامت المحمة بالاجتماع عدك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نجم بين ظهراى مثل هذه الضلالات المستاصلة ، والجماعات المستاسدة ، التي ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصناديد الملوك ، ناجم قد نصّب لها وغرى بها ، يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق الألها ، ويلعن آباءها ، ويضلّ أديانها ، وينادى بشهاب الحق بينها ، ويجهز بكلمة الإخلاص الى من ترأى عنها ، حتى حimit العرب ، وأنفت العمم ، وعضبت الملوك ، وهو على حال ندائه الحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يحفل بهم عصبا ، ولا يرهب عنتا ، يقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) أكتت تقول فيما تجرى الأقاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا الحنف الى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، فليست الأيام باداة ولا الحسأل بثابتة له إلا ريتما تستلحجه أسبابهم ، وينهض به حلماؤهم ، غضبا لربهم ، وأنفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسدا من عند أنفسهم . وإما صادق

(١) أصله تداعى لخدمته إحدى تآبيه ، ومعناه يحتمون عليهم ويتألون بالعداوة .

(٢) تستحلبهم : تلقى عليهم حلما وصاها . (٣) المستاسدة : القوية . (٤) تستلحجه .

تعلق به وتتشب .

نصير بموضع قدمه ومَرَمَى نَبْلَه ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزه ، وجعله في حُرْزِه ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلية مع حبة الله اليه ، ولا الهية بداحلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بمادون لها فيه . ثم إن آيتكم يا أهل الكتاب لو قيل لكم : إن الرجل الذي يدعى العَصْمة ويتحل المَلْعَة ، قد نجحت الأمور به على ما قال ، وسَلِمَتِ الحالُ له فيما آدعى ، حتى نَصَبَ لِمَارات العرب ، وحماعات الأمم ، يقاتل عن طأوعه من حالفه ، ومن تابعه من عاده ، جاذبا مشمرا ، محتسبا واثقا بموعد الله وبصره ، لا تأخذُه لومةُ لائم في ربه ، ولا يوحد لَدَيْهِ عَمِيْزَةٌ ^(١) في دينه ، ولا يلفته حِذْلان حاذِل عن حقّه ، حتى أعرَّ الله دينه ، وأظهر تمكيته ، وأفادت الأهواء له ، واجتمعت الفِرْقُ عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقينا عندكم ، ودعوته ثبوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حُلمائكم وأهل الحُكمة من دوى آرائكم : ما كان الرجل ، اذ كان وحيدا فريدا قليلا صعيفا دليلا معروفا بالعقل منسوما الى الفصل ، ليجترأ أن يقول : إن الله عز وجل أوحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعا ويمعه من الأمم طرا ، حتى يبلغ رسالات ربه ، ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجا في دينه ، ألا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

سبحان الله ! يا أهل الكتاب ما آتَيْسَ حقُّ النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأَسْهله لمن قصده . وآستعملوا في طلبه أَلْبَابُكُمْ ، وأَرْفَعُوا ... أَبْصَارَكُمْ ، تنظروا بعون الله اليه ، وَيَقْبُوا ان شاء الله عليه ؛ وإن علامات نبوته وآيات رسالته ، ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، حَمَّةٌ لا يُخْصَى عددها ، منها خواص تعرفها العرب ، وعوام لا تدفعها الأمم ، فاما الخواص المعروفة لدنيا ، المعلومة عندنا ، التي أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقبيلها الأتباع عن الأسلاف ، فأمور قد كثرت البيئات فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الججج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأياها عَيَاما ، وقبيلناه إيقانا ، فهي أظهر فينا من الشمس ،

(١) كما في الأصل . (٢) عمارات العرب . أحياؤها العظيمة . (٣) عميرة : مطس .

(٤) ياص في الأصل بمقدار كلمة .

وأين لدينا من النهار؛ ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها، ولم يقل الآباء اليكم علمها، وما لا يُذكر إلا بالسمع موضوع الحجة عن العقل، فليس أمير المؤمنين مُجَّاجٌ لكم، ولا قاصد اليكم من قبلها. وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، القاطعة مُجَّج المبطلين، التي لا تترك عقول الأمم وجوب حَقِّها، ولا تدفع أبواب الأعداء حجة أمرها، فسبوا لها أمير المؤمنين مسالك أسماكم، ويُعيد بها حجة الله في أعناقكم، من وجوه جمّة وأواب كثيرة، إن شاء الله. منها أنه لم تزل الشياطين، فيما حلا من قترات الرسل وندرات النذر، تصعد إلى سماء الدنيا، وتُنصت للأعلى فتسترق السمع وتحتفظ العلم، وتنزل به إلى كل أفكٍ أثيم، ينون أكاذيبهم على واضح صدقه، ويُفَقِّقون أباطيلهم بحسب حَقِّه، حطاً للباطل فيه، وسوها للعاد عليه. فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن إليه، حرست السماء بالجحوم، ورُميت الشياطين بالشهب، وأنقطعت الأباطيل، وأصححت الأكاذيب، وحلص الوحي، وبطلت الكهانة، وصلت السحار، وكذبت الأحلام، وبخبرت الشياطين، فكانت آية بيّنة، وعلامة واضحة، وحجة بالغة، تهرق قرائح العقول، وتحرق مُخَّ العيوب، فلا يقوم مع صيائها طُلمة، ولا يثبت عند مُحْكَمها شُبْهة، ولا يُقيم معها في مجد صلى الله عليه وسلم شك، لا من أصحابه حاصّة ولا ممن حاء بعده عامة. وإما جعلها الله عز وجل آية نافية في العارفين، وحِرَاسَة ثابتة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبيا صلى الله عليه وسلم آخر البين؛ فليس باعثاً بعده نبيّاً يكذب أفاويل الكهنة، ويقطع أحاديث الجحّة.

وستقول، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل مملكتك: هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بيّنة قائمة، مستعيلة لأمرها، مستعينة بنفسها، لا تحتاج إلى ما قبلها، ولا يتشكل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البيئة على ما تدعى، بل، ثم تقول: وأنت لك بالبيئة، ولسا تُقرّ بكناك، ولا تؤمن برسولك،

ولا قَبَل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه ، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه ؛ فأرجع اليكم إن قلتم ذلك ، وإن وُحِدَان القصة قل طَلَبَ البنات .

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما يُنَازَعُك ويُحَاجُّك فيه حاكماً غير عقلك ، ولا قاصياً سوى نفسك ، ولكنه يذكرك الله الذي إليه معادك وعليه حساك ، لما جعلت التفهم لمسألته من بالك ، وركبت حدودها في جوابك ، عادلاً بالقسط ، قاصياً بالحق ، قائلاً بالصدق ولو على نفسك ، ناظراً بالآثرة لديك ؛ فلقد وفق الله لك آية ، وأهدى اليك بيئة ، لا تستطيع دفعها تحجبها عن عقلك ، ولا حجاباً لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك ، والبيعة لسالك ، تحمداً بقطع وصول الحجاج اليك ، ويد تَفَلُقُ أبواب الفهم عنك ، فإن اللسان لك مداوُلٌ حيث شئت ، ومقادير تُصَرِّفه فيما هويت ، ولكن أنصب نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأريد الحق وقوله فيما تريد . فإذا تصوَّرت البيات مجسده في قلبك ، وتبينت الحجاج ممثلة لظرك ، قد أضاء صوابها لك وقرع حُفَّها قلبك ، فاحمل القول بها شعاراً للسان به متصلاً . وأفهم المسئلة فهَمَك الله الحق ، وحسبك الحمد ، ما تقول أنت ومن قبلك في رحلٍ كان يتياً ضعيفاً أحياناً ساهياً لاهياً عاثلاً خاملاً ، لم يتل كُتَاباً ، ولم يتعلم خطاً ، ولم يك في محلة علم ، ولا إرث مُلْك ، ولا معدن أدب ، ولا بيت نبوة ، فتراقبت الأيام به ، وأتصلت الحال بأمره ، حتى خرج الى العرب عامة والقبائل كافة ، وحيدا طريداً شريداً ، محذولاً مجهولاً ، محقوفاً مريضاً بالعقوق لآلهم ، مقدوفاً بالكذب على أصابعهم ، مسلوباً الى الهجر لأديابهم ، وهم يُجْعَلُونَ على دعوة العصبية ، وحجة الجاهلية ، متعادون متساغون ، مختلفاً أهواؤهم ، متفرقة أملاؤهم ، يتسافكون الدماء ، ويتناسحوحون النساء ، ويستحلون الحرم ، لا تتمهم ألفة ، ولا تعصمهم دعوة ، [ولا] ينجزهم بر ، فألف قلوبها ، وجمع شتيتها ، حتى تاصرت القلوب ، وتواصلت النفوس ، وتوافدت الأيدي ، ثم اجتمعت الكلمة ، وآتفت الافئدة ، حتى صار عاية ملئى رحالم ، ونهاية مُتَجَمِّع

أسفارهم ، وصاروا له حِزْبا متعقِبين ، وحنِدا مُطِيعين ، بلا دُنْيا سَطَها لهم ، ولا أموالٍ أفاضها بينهم ، ولا سُلطانٍ له عليهم ، ولا مُلكٍ سَأَفَ لآمانه فيهم ، ولا نِباهةٍ كانت له بين ظُهورائِهِمْ .
أقول إنه [ما] قال ذلك كلُّه إلا نوحِي عَظيم ، وتَنزِيل كَريم ، وحِكمة مالِفة ! فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رَسولٌ ، وتركْت ما كنت تقولُ إنه لم يُدِرْكه ولم يبلغه إلا بعقل سَديد ، ونظر بعيد ، ورفق لطيف ، ورأى وثيق ، استنى به عقولَ الرجال ، وأسَمَّالٍ عليه أنفِدة العوام . فإن قلت ذلك فانا سائلُكم بالحكم الذى تعدون ، وديكم الذى تنحلون ، لَمَّا صدَقْتُمْ أنفُسَكم وتجنَّبْتُمُ الهوى عنكم : أنؤمن قلوبُكم ، وتُفَسِّرَ عقولُكم ، ويحتمل نظركم ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم الذى وصفتموه بكال العقل ، وسان الفضل ، ورفق التدبير ، كان يقول لِرِحالِ العرب ، وجماعاتِ الأمم ، [و] دُعاة قريش : إن من آياتِ نبوتى ، ودِلائِلِ رسالتى ، ومَلاماتِ زمانى ، أن الشياطين تُرْمى بنجوم السماء ، ولم تُكُ تُرْمى بها فِيا حَلا ، ثم يحعل ذلك كَما يُقرأ ، وقرآنا يُتلى ، وهو كاذب فِيا تَلا ، ومُعطِلٌ فِيا ادعى ، إطلاا تدركه عيون الباطرين ، وكما يطهر لجميع العالمين ! سبحان الله ! أرايتم أن لو كان فِيا قال من الكاذبين ، وعلى ما ادعى من الآمين ، ثم حاول إعادَ القلوب ، وإغْثالَ الصدور ، وإفْشارَ التوس ، وتفريقَ الجموع ، أكان يزيد على ذلك !

فيا أهلَ الكُتاب لا يحلُّكم الإلْفُ لدينكم على اللعبِ توحيدكم ! فلعنَ الله لئن تدارَكْتُم أنفُسَكم وناصَحْتُم نظركم تَعْلَمُ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب أو رام الإلْفَ ، لَمَّا كان يتركُ جميعَ الأرض ، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ، ويقصد للسماء المتصلة بالصر ، البارزة للنظر ، التى لا تحصى على بشر ، ولا تغيب عن أحد ، فيدعى فيها كذبا ظاهرا ، وإفْكا بارزا مكشوفًا ، لابقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى ، إلا عرف أنه إفك وزور ، وكذب وعرور ، ولا سِما إذا كان يُبنى ذلك الى أقوام أكثرهم أعراب ، ليس بينهم وبين السماء حِجابٌ ، إنما يُراعون الكواكب ويتمقدون الغيوم ، فأبعد عهدِ آتِهم بها تفقده لها ونظره اليها ، ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين .

لَعَمْرُاهُ لو عَثَرْتُ الْعَرَبُ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى كَذِبٍ لَكَانَ أَوَّلُ مَنْ يُؤَابِسُهُ بِهِ وَيُجَادِلُهُ فِيهِ أَعْدَاؤُهُ مِنْ قُرَيْشٍ عَامَةً ، وَحُسَّادُهُ مِنْ حَبِيرَتِهِ خَاصَّةً ، وَنَظَرَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ذِنِّيَّةٌ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعِيرُونَهُ لِكُلِّ طَرِيقٍ ^(١) ، وَيَقْعُدُونَ لَهُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ ، وَيَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَمْرِهِ عَنْ كُلِّ دَيِّ حَادِثٍ ، وَيَتَعَلَّقُونَ بِالْحُرُوفِ الْمُشْكِلَةِ ، وَالآيَاتِ الْمُشْتَبِهَةِ ، جَدَلًا وَخُصُومَةً بِهَا ، وَطَعْمًا وَإِلْحَادًا وَمَازَعَةً فِيهَا ، حَتَّى لَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِفَعْلِهِمْ ، وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (١) وَمَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَقُولَ ذَلِكَ وَلَا لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَهُ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِمْ إِلَّا عَنْ حُصُومَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَازَعَةٍ بَلِغَةٍ ، وَمُحَادَلَةٍ مَعْرُوفَةٍ ، فَأَحْسِسِ الطَّرْلَ لِنَفْسِكَ ، وَلَا تَهْلِكْ شَفَقَةً عَلَى مُلْكِكَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّ الْحُجُومَ شَيْءٌ كَانَتِ الْعَرَبُ تَرَاهُ عَيُوسَهَا وَتَعْرِفُهُ بِقُلُوبِهَا ، هَذَا كَانَ مَجْدُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ عَارِفٌ بِهَا عَيْرَ جَاهِلٍ لَهَا ، لِيَقُولَ فِيهَا إِلَّا حَقًّا ، وَيَتَحَلَّ فِيهَا إِلَّا صَدَقًا ، لَقَدْ ثَبَتَ مَرْوَعُ كَلَامِكَ فِيهَا عَلَى أَسَسِهِ ، وَوَصَلَتْ آخِرُ قَوْلِكَ لَهُ نَاقُوسُهُ ، ثَبُوتًا عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَقِيدِهِ ، وَلَزِمُوا لِمَا قَرَأْتُمْ مِنْ نَظَرِهِ ، وَلِكُلِّكَ لَا تَمُحِدْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِذَلِكَ نَدًّا مِنَ التَّصْدِيقِ بِرِسَالَتِهِ ، وَلَا مَذْهَبًا عَنِ الْإِيمَانِ بِبَيِّنَاتِهِ .

وَلَئِنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ أَدْعَى أَمْرَ الْحُجُومِ كَمَا وَأَنَّهُلَهَا بِاطْلَا ، عَارِفًا كَانَ بِهَا أَمْ حَاسِلًا ، لَقَدْ نَسَبْتَهُ مِنَ الْخَطَا الَّذِي لَا يَعْنَى عَنْ بَصَرِهِ إِلَى مَا يَحْطِئُ فِيهِ بَشَرٌ ، فَأَكْذَبْتَ نَفْسَكَ ، وَتَرَكْتَ قَوْلَكَ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنِ التَّأْلِيفُ لِقُلُوبِ الْعَرَبِ وَالْجَمْعُ لُشَيْتِ الْقَبَائِلِ ، إِلَّا بِرَأْيٍ سَدِيدٍ ، وَعَقْلٍ أَصِيلٍ ، وَرَفْقٍ نَالٍ ، إِلَى أَحَدِ أُمَرَاءٍ لَا تَمُحِدْ لِكَلَامِكَ وَجَهَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ عَيْرَهُمَا ، وَلَا تَحْمِلَا تَصَعُّهُ عَلَيْهِ سَوَاهِمَا : إِمَّا أَنْ تَقُولَ : إِنَّهُ أَلْفَ قُلُوبِ الْعَرَبِ ، وَفَرَقَ جُمُوعَ الْأُمَمِ بِتَرْيِلِ الْوَحْيِ ، فَتُؤَنُّ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؛ وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ : فَعَلَ ذَلِكَ بِجَهْلٍ ؛ وَهَذَا قَوْلٌ لَا يَقْبَلُ . كَيْفَ يَصِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ الْمَكْذِبِينَ لَهُ بَغَاوَهُ ، أَوْ يَرْمُونَهُ بِجَهَالَةٍ ، وَهُمْ يَحْجُوزُونَ بِهِ حَدُودَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَرْفَعُونَهُ فَوْقَ أُمُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَيَتَخَطَّوْنَ بِهِ مَرَاتِبَ الْحُكَمَاءِ ، وَمَسَاوِلَ النَّاسِ

تكثيراً لعلمه ، وتسديداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسن إليه ؛ حتى لقد تحلوه فعل الرب الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمّة : من ذلك أنه اذا قالت القايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُجبرنا بالعُيوب قبل ظهورها ، ويَصِفُ الأمورَ قبل حُلُولها ، ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك الى ما يكون في زماننا غيباً أطلعه الله عز وجل عليه ، أضافوا ذلك علماً اليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع العجوم ، وأبصرهم بمآزل البروج ، وأنظروهم في دقائق الحساب . كيف ولم يكن المحراز دارَ نجوم ولا محلّ حساب ولا معدن أدب ! بل كيف والمجسم يقيس ويحصى ، ويشك فيما يدعى ، وهو أخو صواب لا شك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبيا صلى الله عليه وسلم [عليا] باطن أخبار الدين ، وخفيّ قصص القرون الأولى ، قالوا : كان أحيا السّاس قلباً ، وأوسعهم سرّاً ، وأسرعهم أخداً ، يتتبع ذلك ويحبّه ، وقد رواه وعلمّه . سبحان الله ! أولاً يعلمون أن المتعلم معروفاً المعلم ، متعاقبُ الحالات ، متقلّبُ الطبقات ، وأنه ما أحدٌ يؤدّب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درجاتٌ في علمه ، وتاراتٌ في أخذه ، ومبارلٌ في تعلّمه ، تارة تلميذ ، وتارة مُقَارِبٌ ، وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوفٌ من أهله ، معروفٌ عند قومه ، ظاهرٌ لجيرته ، مستفيضٌ في عشيرته ، لا يحتمل أمره ، ولا يخفى ذكره ، ولا يُنسَى عند مواضع الحاجة اليه ، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفاً فيهم ، أو موجوداً لديهم ، أو ظاهراً عندهم ، لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم : لقد لَيْثُ فيكم عُمرًا من قلّه ، لا أتلو قرآنا ، ولا أدعي وحيا ، أفلا تعقلون !

وأيّ الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، يذكر قصائص قولهم ، ومعائب أمرهم ، وتخرّج أسلافهم ، وعوائل أديانهم ؛ وإنه لو كان معلمه نصرانياً لدعاه الى النصرانية ، أو يهودياً

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية . ولو لم يمكن له معلّم لمّا وقع على الحقيقة هدايةً من تنقاء نفسه ومعرفةً بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطان لمّا دعاه إلى عبادة الرمح ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض ؛ كيف [و] كان الشيطان يصدّ الناس عن سبيله ، ويُرْهِدُهُمْ في ديبه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مَسَاخِطِهِ ، ويحملهم على معاصيه ! إنه إذا رَحِمَ بِهِمْ ، فَاظْرُقْ لَهُمْ ، شَفِيقٌ عَلَيْهِمْ ، كأنه هو المبعوث إليهم ، كلا ! ما كان لِيُقَدِّمَ مِنْ حَبَائِلِهِ ، وَيُخَلِّصَهُمْ مِنْ مَصَائِدِهِ ، وَيُخْرِجَهُمْ مِنْ وِلَايَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَسُلْطَانَتِهِ وَخُدَمَتِهِ وَفَتَنَتِهِ وَحِرْبِهِ ، إلى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتأوخوا حُرْمَهُمْ ، وَيُؤْذُوا دَرَّتِيَهُمْ ، ولا ليقول لهم : لم تعبدون نَحِيَّتَ الْحِجَارَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَكُمْ عَارًا ، وَتَدْرُونَ عِبَادَةَ الرَّبِّ الَّتِي خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ! هِيَا تَ ! لقد ذهبت بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولاً تُكْرَهُ العقول ، وتدفعه القلوب ، وتسوحش منه النفوس . أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَنَجْهُمُ اللَّهُ فَأَصْمُمُهُمْ وَأَعَمِّي أَبْصَارَهُمْ ﴾ ها كان الشيطان ليرصى للعرب باللسنة والسِّمِّ والعَمَى والصَّمَمِ ، فَأَتَى اللَّهَ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَالِدِينَ .

ومنها أنه اذا قالت الفقهاء والحكماء : أتنا محمد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآداب بمثله . ولم تقع القلوب على لُفَّتِهِ ، له رَوْقٌ حَبَابُ الْمَاءِ ، وَزَيْجٌ يعلو ولا يعلو وعجائب لا تنبئ ولا تقنى ، وَجِدَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، [قالوا] : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أبلغهم قولاً ، وأحسنهم وصفاً . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاماً للعباد لما أقترت الأعداءُ مِنْ بفصله ، ولا تَحَزَّتْ الْقَبَائِلُ طُرّاً عَنْ مِثْلِهِ ، وهو يبايديهم في السَّكَّابِ ويتحدّاهم في الوحى ، بصوت ربيع ، ونداء سميع ، فيقول : هَاتُوا سُورَةً مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاعة ، وأبناء الخطب ، وأهل عداوة له ونى

عليه ، قستحسر الأنصار ، وتثقل الأسماع ، ونعمقد الألسن ، وتخرس الخطباء ، وتمعجز
 البلغاء ، وتحرار الشعراء ، وتستسلم الكُتَّان . ثم لقد قايسَت البُصْرَاءُ بالكلام والعلماء بالمنطق ،
 بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما
 بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس بشبه له ولا مداً ولا قريب . وكذلك ينبغي لكلام
 الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه
 وجميع ما فيه ، لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان
 محمد — صلى الله عليه وسلم — رُي ماخِي أسلافنا وصُلح آبائنا من العجائب العظام ،
 والآيات الكبار ، ما هو حديدٌ عندنا ، بَيْنَ قِلَّةٍ فلم يَغْفُ أثره ، ولم يَدْرُسْ خبره ، ولم يتقادم
 عهده : من شجره ناداها فأقبلت ثم أمرها فرحمت ، ومن نحو عير تظلم ، وذئب تكلم ،
 وأشباة لذلك كثيرة ، ونظائر له عجيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا
 حاذقاً ، وساحراً ماهراً ، يُشَبَّه بالخيال ، ويأخذ بالأنصار . كيف والجوع الكثيرة تصدُر عن
 الأطعمة البسيرة والمياه القليلة ، شِاعاً رِواء ، أَيْكون ذلك والسحر سواء ! والأحد بالعيون
 لا يجرى في البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُصِفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر
 الساحر يدور على إفك وعُرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثاراً قائمة ، ومافع
 دائمة . ثم لو كانت الكِهانةُ والسحرُ يُلْقَان مثل هذا من الأمر ، لبطلت آياتُ الكتب ،
 وعلامات الرسل ، ولَمَتِ الشُّبُهَة ، وسَقَطَت المحمَّة ، وكَدَبَتِ السَّوَّة ، ولَبَطَل ما كان ^(١) [يفعله]
 عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتى . فلا يكون التقليد للرحال
 مبلغ عالمك ، ولا القول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك [أنه] إذا قالت البُصْرَاءُ من أمتنا والعلماء بملتأ : كان النبي — صلى الله
 عليه وسلم — أُمِّيًّا لا يحسن الكتاب وحافظاً لا يبسى القرآن ، وقبلما يجتمع العقل السديد
 والحفظ السريع والنسيان البطيء ، قالوا : كان أخط الناس يداً ، وأذكاهم حفظاً ، كان
 يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل .

ولعمري الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خَفِيت الصحف له ، ولا أَكْثِمَتِ الدِراسَةُ عليه ، ولَمَّا كَانَ يُطَبِّقُ سِتْرَهَا عَنْ أَهْلِهِ ، وَلَا حِجَابَهَا دُونَ قَوْمِهِ . وَكَيْفَ تُؤْمِنُ الْقُلُوبُ وَتُقَرَّرَ الْعُقُولُ أَنَّ رَجُلًا كَبِيرًا حَمَلَ عِلْمًا كَثِيرًا وَحِجَابًا جَمًّا : مِنْ آيَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ ، وَسُورٍ مُتَوَالِيَةٍ ، وَهُوَ صَاحِبُ أَسْفَارٍ مُتَرَامِيَةٍ ، وَأَخُو حَرْبٍ دَائِمَةٍ ، لَا يَبْطِئُ لَفْظُهُ ، وَلَا يَسْقُطُ حِفْظُهُ ! لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَفَّاهُ أَنْ يُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَهُ ، وَصَيَّنَ لَهُ حَمَمَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ (١) فَلَمْ يَكُنْ يُسْقِطُ وَأَوَّاءَ وَلَا أَلْفَا ، وَلَا يَنْسَى كَلِمَةً وَلَا حَرْفًا . مَا أَبَيَّنَ هَذَا وَأَعْنَمَهُ ! وَأَعْجَبُ مِنْهُ الْمَكْرُوهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي الْخَطِّ وَالتَّكْرَاهِ فِي الْكَلَامِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَهُ أُمِّيًّا لِيُثَبِّتَ حُجَّتَهُ ، وَيَصَدِّقَ مَقَالَتَهُ ، وَلِتَلَايَسَّكَ الْمَطْلُوبُ فِي أَمْرِهِ ، وَيَقُولُوا : تَعَلَّمَهُ مِنْ عِيَرِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ ذَلِكَ بَطَائِنُ مِنْ مَافِقَةِ الْعَرَبِ وَطَوَائِفُ مِنْ كَفَرَةِ الْعَجَمِ ، فَطَقَّتْ [بِهِ] الْأَعْدَاءُ مِنْ حَيْرَتِهِ ، وَالْحَسَدَةِ مِنْ عَشِيرَتِهِ ، الَّذِينَ بَلَّغُوا [مَا بَلَّغُوا] مِنْ مُجَادَلَةِ حَقِّهِ ، وَمُحَاصِنَةِ رِيهِ ، كَفَّاهُ لِمَنْ قَرُبَ ، وَوَكَلَّاهُ لِمَنْ بَعُدَ ، فَمَا لَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ وَاقِعَةً عَلَيْهِ ، وَلَا الْأُمَمُ مُهْتَدِيَةً إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُمْ قَدْ أَحَاطُوا مِنْ عِلْمِ حَبْرِهِ ، وَحَفِيَّ أَثَرِهِ ، بِمَا كَانَ عَنْ عِيَرِهِمْ مُنْجَمًا ، وَمِنْ سَوَاهِمِ مَكْتَنِمًا . وَقَالُوا : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَلَّمُ مِنْ شَرٍّ أَوْ يَخْتَلِفُ إِلَى أَحَدٍ ، لَمَا خَفِيَ عَمَّا وَلَسَقَطَ عَلَيْهِ . وَحَقًّا لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَلِفُ إِلَى أَحَدٍ صَغِيرًا ، أَوْ يَتَعَلَّمُ مِنْ بَشِيرٍ كَبِيرًا ، لَعَرَفَ ذَلِكَ أَتْرَابُهُ الْمُخْتَلِفُونَ مَعَهُ وَرِفَقَاؤُهُ وَالْمُقْتَدُونَ ، وَلَمَا جَهَلَ ذَلِكَ مِنْ حَوْلِهِ مِنْ حَيْرَتِهِ نَصْرَةً ، وَلَا مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ دِينِيَّةً ، الَّذِينَ عَلَيْهِمْ يُورِدُ مِنْ قِبَلِهِمْ يُصْدِرُ ، وَلَكِنْ شَائِعًا عِنْدَ حَشَمِ مَعْلَمِهِ وَجِيرَةِ مَوْصِعِهِ الَّذِينَ كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِمْ ، وَيَتَأَدَّبُ بَيْنَ طَهْرَانِهِمْ . وَلَوْ كَانُوا بِذَلِكَ عَالِمِينَ ، أَوْ فِيهِ مِنْ أَمْرِهِ شَائِئٌ ، ثُمَّ لَنَهَمُوا وَتَقَرَّرَ قِبَلَهُمْ أَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيْهِ ، فَمَا أَنْزَلَ مِنَ الْكِتَابِ عَلَيْهِ : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِبَيْمِيكَ إِذَا لَا تَرَاتِ الْأُمْبِطُورَ ﴾ (٢) لِنَاصِمِهِ مِنْهُمْ مَنْ كَفَّرَ ،

(١) فِي الْأَصْلِ . « مُرَاحِيَةٌ » . (٢) فِي الْأَصْلِ : « ... وَلَا يَسْقُطُ حَقُّهُ وَلَوْلَا أَنْ ... إلخ » .

(٣) زِيَادَةٌ يَطْلُبُهَا الْكَلَامُ . (٤) فِي الْأَصْلِ : « إِلَّا أَنَّهُمْ ... » . (٥) فِي الْأَصْلِ « وَلَا سَقَطَ » .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، ويتحله حيا^١ ، أما كان يهَبُ أن ينتشر في الأقربين ، ويخرج الى الأبعدين ، فتطُلُّ حَتُّهُ ، وتنفِضُ دعوته ، وتسقُطُ نبوته ، ويتفَرَّ أصحابه الذين لم يَصْبِرُوا معه في المجاهدةِ أعضاهم ، ويدُلُّوا عِدَّ الشدائدِ مُهْجَهُمْ ، ويُنفِقُوا فيه على الحاجةِ أموالهم ، مُنَاصِيِينَ لأهل الشرق والعرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُسْتَضْعَمُونَ عائلون جائعون ، لا طُلماً لدنيا ولا طَمَعاً في مال ، إلا لما تَعَقَّبُوا من قوله ، وعَرَفُوا من صدقه . ولولا أنه أحرمهم ووعدهم أن يفلت كسرى وقبصرهم ، فصَدَقُوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قَوِيَت البصائر ، وصَرُمَت العزائم ، وقَوِيَت البيات ، فَنَشِطَت النفوس ، وَتَجَبَّت القلوب ، وحلَّت الأبدان ، لَمَّا وَقَعَ لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وَهْلُ^(٢) إليه . فكُنْ مِنْ ذَلِكَ على يقين لا يحلِّجه شك ، ومعرفة لا يحلِّطها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه اذا قال المسلمون : ما من فَعَالٍ مجود ، ولا مقالٍ معروف ، ولا خلق كريم ، ولا أدب فاضل ، إلا وقد آذَبَ الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله في الكتاب اليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحض على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مَدْخَلٌ لشبهة طاعين ، ولا مَعْلَقٌ لحجة قائل ، ولا مَغْمَزٌ لبصيرة غائب ، ولا مَوْصِعٌ لخصومة بشر ، في وعد أو عهد ، أو حَلٍّ أو عقد ، أو مقال أو فِعال ، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حَمَلَ عليها نفسه ، ودعاه اليها عقله ، وصَبَرَ عليها ، لِمَا أَمَل ورجا فيها . سبحان الله ! وما أَمَلُ بها وأرتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فالتفتد أكذبهم إداره عنها ، حيث أمكنته القدرة منها ، وأعثرته الحال عليها . وإن قالوا : حَتَّ الأثرة ، فقد جعل نفسه للسلبيين أُسوة : في سِيَّامِهِمْ وقِصَاصِهِمْ ، وحُدُودِهِمْ وحقوقِهِمْ ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : المُلْكُ ، فلقد كان أشدَّ الناس لربه تواضعا ، وأعظمهم في جنبه تصاغُرا ، ما إن أكل متكاً قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفَرْع لها النادم عليها ، فقال :

”اللهم إني عبدك ورسولك“ . وإن قالوا : النعم ، من كان أيس منه معاشاً ، وأخشن ريشاً ، وأغلظ ما كلا ! وكيف يدوق العيش أو يجذ لذيق النعم ، من حرم السكر والخمر ، وهى عن الديباج والقز ، وكان أكثر دهره صائماً ، وأطول ليله قائماً ! إن قالوا : طلب الصوت ورعب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحدٌ في حب الصوت وآلتها الس الحمد لما صبر مفاصب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وأستهزاء قريش^(١) ، يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويبهتونه بالسحر ، وليس يدري ما يجهم به الأمر .

أم يقولون طلب تائيل الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل . لعمر الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمه ، لو كد لهم عقداً لا يُحل ، ولا نزم لهم أمراً لا يُقصد ، ولا نل لهم في عُفوان أمره ملكاً لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح أداً فيهم ، امتثالاً لصنيعكم وأحتذاءً على مثالك ، مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم علّب العرب وقهر العجم ، أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب .

فإن قلتم إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكماء وأخطأت القلوب ، فقد يعلم أمير المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أن خطأ قلوب العلماء تخطأ دائرة الرّحا ، ليست العلماء بخطئة إلا المزة والثنتين ، كما لا تخطئ الرّحا إلا الحبة والخنتين . ومثل الذي نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثير لا يُحصيه أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين واصل بعصه لكم ، ومورداً ما حصر كتابه إن شاء الله لكم . وأيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر المحس كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي مصطربة .

(٣) في الأصل : ”ولا يوح ...“ .

في أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك محادثته ورفض منازحته، وكيف لم تقل العلماء من إفانه والحكام من حكمائهم، توبيخاً منهم له، وتعديراً لم آمن معه : هذا أمر من أوصح الأكاذيب وأطل الأباطيل، فلا يثبت مع قولهم إيماناً، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلعل ذلك قد كان، ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته، ولم تكفر القبائل برسالته، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدقُ كان قبله، واطلاً لا ينفع معه حقٌ حلت بعده . وإن قلت : أدلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما مالُ القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين، ما ملهم آسوا وصدّقوا، وصبروا وصابروا، وجَدُّوا وحاهدوا، كيف لم تنكسر عزائمهم، وتين نصائرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهرئوا عن توحيدهم ! كلا ! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفض القوم عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أوّل مقتول أو محمول . فأحس النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . وإن تحمت الدعوى بكم، فقاتل : قد مالت به الأهواء في الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صحفها بينت الحكماء منها ذكراً في كتبها، جعلت المقص من الكواكب بين الأعوام، دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاحتلاق يلط به الجاهل للمساق . ما إن وضعت الحكماء ذلك في الكتب، إلا لبلى ملئت السماء من الشهب . وبالله لو أذعيت غير ذلك فكان حقاً، وكانت القالة منكم صدقا، لما كابت الدعوى بأقضية آية الجوم حجة، ولا مدحلة على أحدٍ منها شبهة، لأن رميا يقع قوط السنين من الكواكب، لا يُبطل رَجماً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن الجوم آية دامغة، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة ناهرة، وأماراة طاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تُبطل أطماني المشركين، وتردع أقاويل المناققين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعظم أمرها، ولا ليكرّر في آي القرآن ذكرها، رهبةً

(١) كذا في الأصل . (٢) في هذا الموضع اضطراب . (٣) في الأصل "دافعة ..."

لما هصبة احياء العرب ، ومعرفة بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كُتِبَ به إليك أمير المؤمنين من أمر الجحوم وأحتج [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقماً لظن أو معلماً بظن أو مغمزاً لقول ، لاصبوه اذا بالمجادلة ، وكأشفوه بالمنازعة ، وحاهره بالقول الذى لا يستطيع له ردًا ، ولا يطبق له بحدًا ، ولكها آية ملأت الأقطار كثرةً ، وحسرت الأبصار قوة ، قد وجلت العقول ، وولمّعت القلوب ، وبلأت القوس جَزَعًا ووجعا ، وقرعًا شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن السداد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرّر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرًا ، وأحدث لها رصداً ، وخلق فيها شهباً ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل في الكتب ، بقوم نُوج وعادٍ ونمود ، وأشبايهم من مؤلّى تلك الجحود ، الذين كانوا أشدَّ بطشاً ، وأكثر جَمْعاً ، فانفرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهم متائِن عُقْدِهِمْ . وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروج الى قرائهم ، قام فيهم رجلٌ منهم ذوسنٌ وعقل فقال :

يامعشر العرب ، لا تُهْلِكُوا أنفسكم قبل أن تهْلِكُوا ، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تُخرجوا ، تفقدوا مواقع مجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فإن كانت الجحوم التى حدث الرمي بها والجحوم التى أحلّتم الأموال لها ، هى لبُرُوج الشمس والقمر ومسالك الحيوان والشجر ، فهى جوائح الاستئصال ، المتلفّة الأفيس والأموال ، وإن كانت الجحوم التى حدث القذف بها ، إنما هى نجومٌ خلقت اليوم ، فليست المعرفة واقعية على مُبتدأها ، ولا الأبصار لاحقة متهاها ، فامسكوا العُقد^(٢) عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث فى إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور فى هذا الرجل كالعيان ، وصارت المقالة منه كوعى الآذان ، أنباك أمير المؤمنين أن أوعية المقه من المسلمين ، الذين حملوا اليأس سنن الدين ، هم

(١) كذا فى الأصل . (٢) المقد : جمع عقدة وهى الصيغة أو المقار الذى اقتناه صاحبه .

أَدَّوْا ذلك اليبا، وَأَقْوَهُ نَحْرًا^(١) .. عليها، هـَا إِن تَبَفُّكَ مِنْهُمْ مَتَحَرِّقُول . أَوْبَا الذي حَسَّ
 عَلَى الْعَرَبِ الْأَمْوَالَ وَالْعَقْدَ، هـَا إِن يَدْفَعُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ . هِيَاهُ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ
 تُقَرِّعُ عِنْدَ الْغَضَارِ ، إِلَّا يَطْوِلُ هُوَ أَيْنُ فِيهَا مِنْ صَوِّهِ الْهَارِ . فَاهَهُمْ مَا كَتَبَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 فِي هَذَا الْيَكِ ، وَلَا يَكُنِ التَّعَلُّ فِيهَا بِالشُّبُهَاتِ أَوْثَقَ مَا لَدَيْكَ ، فَإِنَّهُ قَلَّ حُجَّةٌ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهَا
 شَبَهَةٌ تَحْتَلُّ لِلْعُقُولِ ، وَتَعَرِّضُ لِلْقُلُوبِ ، وَتَحْلُلُ فِي الصُّدُورِ ، فَلَا يَثْبُتُ مَعَ تَحْيُلِهَا ، وَلَا يُقِيمُ
 لَتَعْرِضُهَا بَشَرٌ إِلَّا مِنْ وَزَنِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِمِيزَانٍ عَادِلٍ ، لَا يَمِيلُ إِلَى تَفْرِيطٍ ، وَلَا يَحْطُ
 فِي تَقْصِيرٍ . وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعُقُولَ مُوَازِينَ لِلْأُمُورِ ، فَرُبُّوْا مَا سَمِعْتُمْ مِنْ حُجَجِ
 كَلَامِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا تَعْقُونَ بِهِ الشَّبَهَةَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا تُمِيلُوا لِلْسَّانِ ، فَتَحَسَّرُوا الْمِيرَانَ .
 وَسَيَعْلَلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِمَا جَاءَ عَنْ ذِكْرِ مَا كَتَبَ بِهِ الْيَكَمُ مِنْ أَمْرِ الْجُومِ
 وَالرُّجُومِ وَالشُّبُهَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّوَاةِ وَالْكِتَابِ ، فَالْطُّعُوا الطَّرْفَ فِي صِحَّةِ مَعَايِهِ ، وَنَحْوِ الْهَوَى
 عَنْ شَبَهٍ مَا وَقَعَتْ فِيهِ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّبْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا
 رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ
 كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
 مَّارِدٍ ﴾ . وَإِنْ شَطَبَ عَنِ الْحَقِّ شَاطِبٌ ، أَوْ دَهَبَ إِلَى الْبَاطِلِ ذَاهِبٌ ، لَا يَعْرِفُ مَدَاهَبَ
 كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَلَا وَجُوهَ مَعَانِي الْكِتَابِ ، وَلَا تَفْسِيرَ آيِ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا جُعِلَتْ
 الْكَوَاكِبُ وَالْمَصَابِيحُ حِفْظًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْدينِ .

فَإِنْ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ بَيَانٌ مِمَّا يُبْطِلُ دَعْوَاهُ الَّتِي لَا يَدِينُ عَلَيْهَا ، وَيَكْدُبُ مَقَالَتَهُ
 الَّتِي لَا شُكَّ فِيهَا ، فَقَالَتْ الْجَنُّ — جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَهَا وَحْيًا — وَبِهِ مِمَّا صَدَقَا :
 ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَثِقًا ﴾ . أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهَا كَانَتْ الْجَنُّ
 لَمَسَتْ السَّمَاءَ فَلَمْ تَجِدْهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَثِقًا ، وَقَعَدَتْ الشَّيَاطِينُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسمعِ

(١) يَبَاسُ بِالْأَصْلِ بِمِقْدَارِ كَلِمَةٍ . (٢) فِي الْأَصْلِ « عَنْ شَبَهَةِ إِنَّمَا الْخ » .

فلم نجد شهباً ولا رصداً، ^(١) أو لا يسمعون الى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَقُولُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قول الجن أيام حُرست السماء ورُميت الشياطين : ﴿ وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرَ أُريدُ مِنِّي فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ . فاذا أعملتم في ذلك فكركم ، وقلتم فيه نظركم ، فكنتم على رهان يقين ، ونور مستبين ، من استطاعة الجن للاستماع ، وقدرة الشياطين على الاستمراق ، وإمكان السماء للقمود في تلك الحال الأولى ، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق ، ومنعت الشياطين أن تنزل بصدق ، وأمنت السماء أن يصعد اليها شيطان ، فقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا تَنَزَّلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَبْغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ أَلَهُمْ عَيْنُ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ . قَالَتِ الْجِنُّ : ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَسَنُيَسْمِعُ الْآنَ يَحْدُثُ شَهَابًا رَّصَدًا ﴾ إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان . وأين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم ، إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد ، أنهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بمجموعها ، وتداعت القادة من صناديد الكفر باتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام ، فكانت العير والقيـر طائفتين : طائفة ذات عدة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رغبة ورجال قليلة وفرصة ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده ومن معه من المسلمين إحداهما ، فكره المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين ، ويشيد بذلك أركان الدين ، فلما تراعت الفئتان ، وتناوشت الفرسان ، وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل :

(١) كما وردت هذه الحلة في الأصل وهي عير واصمة .

(سَيَزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبَرَ) قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضة [من تراب] حثاها في وجوههم ، فلم ينهه دون ماخرهم وغيونهم ، فانصرفوا منهزمين ملا كثير قتال من المسلمين . يا أهل الكتاب ، فأيُّما آية أعظم حجة وأصح بينة وأقهر غلبة من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لامضت الجموع من المسلمين كفارا بها . أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقترين ، وهزيمة نكير المشركين ، التي نحت الأمور عليها ، وتاهت الحال بهم اليها . أم قبضة من تراب يسير ، ما ملأ الماخز من عدد كثير .

فلن قلم : إن هذه آيات يثبت ، وعلامات واصحات ، ولكل [لا] بقدر لكم بها ولا تؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل اليه ، كان يختلفها كذا من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها حيا من عنده ، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، يظهر كدبه ، ويرقص تبعه . وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيرا أقوياء ، يساطا جلداء ، فكان على معرفه بقوتهم وبقين من علبتهم ؛ فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدعي ذلك تريلا من ربه . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تقر به الحكاء ، ولا يحذه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم بشارته لهم وإحارته ما أخبرهم من هزيمة الله عدوهم ، أن يشجع جبينهم ويقوى صعبهم ، فكيف اذا لم يبق لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وصعب المسلمين وقتهم ، بطهور الأنبياء على خلاف قوله ، وأن محال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجتة ، ويكون له ما بعده ! وكيف اذا لم ينسب الأمر الى نفسه ويحجى الخبر عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبت في كتاب

(١) في الأصل « ويرى أن أصحابه .. » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا في الأصل .

مسطور، ورقٌ منشور . فعِلْ لعمر الله يدلّ على النبوة التي كان بها وانقأ، ويهدى الى الوحي الذي كان اليه سائِحا .

وإن عَرَضَ لَطَرْك، أو وقع في حَلَدك، أن الله عز وجل عَوَّدَ محمداً صلى الله عليه وسلم الغَلَّةَ وأحراه على المَنَّةِ ، فكان يَجْرِي على عَادَةٍ قد عَرَفَهَا ، وَيَسْلُكُ حَادَّةً قد خَرَهَا ؛ فلقد كانت الهزيمة في أوَّلِ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا الله ، ثم لقد دالت الحربُ فيما سُدَّ سِحَالاً^(١) فيما بينه وبينهم : تَارَةً عليه لهم ، وأخرى له عليهم . فمَاصِحُوا الله عز وجل في نَظَرِكُمْ ، وَقَلِّبُوا فيما يقول أمير المؤمنين فكرم . فلعمرُ الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمَكُمْ بِرَبِّيةٍ من راب وهو يعلم أنه عسده من الكاديين . فأَحْصِرَ كِتَابِي هذا فهِمَكْ ، وَأَصْرِ له وإن حَصَمَكْ ، فإن هذه آية عظيمة ، وحجة بليغة ، وبَيِّنَةٌ عجيبة ، في عِلَّةِ العرب .

وأعجب من هذه والطف ، وأكثر منها وأعظم ، الآية في علة العجم . وأسْتَعِجْ : أَمَرَ الله نبيّه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للمؤمنين — وكأولئك قال الله عز وجل قليلًا مستضعفين — : إن قاتل العرب ستَحْزَبَ عليكم ، وإن الله سَيَهْزِمُهُمْ لَكُمْ ، وحيًا أنزله في الكتاب ، فقال : ﴿ جُئِدُ مَا هَآلِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْرَابِ ﴾ ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة ، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر وذلل الحصر ، سوادهم الأعم وحلّهم الأعظم حُفَاهُ عُرَاةٌ عَالَّةٌ ، إخوان دير ، وأصحاب وَبَرٍ ، لا قُوَّةَ بِهِمْ ، ولا مَنَّةَ لَهُمْ ، ولا أَسْلَحَةَ عِندَهُمْ ، ولا عِدَّةَ مَعَهُمْ ، قد أحْدَقَتِ العربُ بِمُسْكِرِهِمْ وأحاطت القِبَالُ بِمَجْدِقِهِمْ ، وسالت الأحرابُ تصديقًا لِحَمِّ الله عليهم ، تريد أن تزلزل أقدامَهُمْ وتُهْرِيقَ دِمَاءَهُمْ ؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال ، وضيق المال ، وشدة^(٢) الْكِبَاطِطِ ، فإن الله قد وصف لهم حالهم ، وأذكرهم فعلهم ؛ ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون ، ولا ليزكرهم من أمره ما لا يعرفون ؛ حَدَارًا أن تتكسر

(١) في الأصل . "مها سد ..." . (٢) الكباط . التبع والشدة .

عزائمهم وتغير بصائرهم ، فتهزيم أعدائهم وتموت نجاتهم ، وتختلف كتبهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَنْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَاكِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُومَ . هُنَا لِكَ آتَى الْمُؤْمِنُونَ زُلْزَلًا شَدِيدًا ﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . فبناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم فى الجبال ، وتقسيمهم بالقياح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينهضهم به من علم الغيوب ، ويشهرهم به من أمر الفتوح : ” إن الله سيصركم على جمع الروم ويغلب لكم جود فارس فيهزيم لكم حدودهم ويورثكم قصورهم ويستحلفكم فى الأرض من بعدهم ويبدلكم من بعد حوفكم أمنا “ . وعدا صدقه الكتاب ، وإشارة نطق بها الوحى ، فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . فقال أقوام وأناس آرتابوا حين تصايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أَيْدُنَا هَزِيمَةً جُمُوعُ الْأَحْرَابِ ، وَفَتَحَ قُصُورَ الشَّامِ ، وَعَلَّةَ جُودِ كَسْرَى ، وَقَدْ سَالَتِ الْقَسَائِلُ عَلَيَا مِنْ كُلِّ حَاثٍ ، وَأَحْدَقَ الْمَوْتُ بَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، ففينا فى مسعة من الجوع ، ومجهدة من الخوف ، وصلىك من الحال ، مقهورين مقموعين . وقالت الحاصفة (١)

من المؤمنين حين عاينوا الجموع من المشركين ، ودكروا ما حبرهم الله من تحزيبهم عليهم ومسيرهم اليهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . فبينا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى مصابيح تلك الحال ، وشدة ذلك الخصال ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور العادحة ، التى قد أخذ بأعاسهم عظمها ، وبلغ

محمودهم كرهها ، رافعين الى الله عز وجل أيديهم ، يقابلون في السماء أعينهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجملوع العظيمة والأحزاب المقتدرة ، ريحاً من الأرض وحوداً من السماء ، فقطعت الأبنية ، وطيرت الأمتعة ، وسفت التراب في العيون ، وقذفت الرعب في القلوب ، فولوا مذبرين ، وخرجوا منهزمين ، لا يلوي والد على ولد ، ولا مولود على أحد . أمر صديق الله فيه قوله ، وأنجز به وعده ، وهزم الأحزاب وحده ، ودكر المؤمنين نعمته فيهم ، وعرفهم منته بهم ، فقال : ﴿ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَاءَ بَكُمْ جُنُودًا فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ مِمَّا تَعْمَلُونَ نَصِيرًا إِذْ هَامُوكُمْ مِنْ قُوفِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَنْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَاوِرُوتُظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ ١ ٠ وقال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتَالُوا حَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝ ٢ ٠ ما كان الله عز وجل ليقصص على المسلمين في أنفسهم ، إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا يكره عقلك ولا يدغمه بطرك ، لما حادثك بالكتاب ، ولا نازعتك بالتريل . وإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلاوات الوحي ، ما هو أعظم من هذا وأيسر وأجل وأوضح . ولكي ليس لي أن أحاحك من آيات القرآن ، إلا بما عليه شاهد من برهان ، ومجرب من بيان . لا يستطيع عقلك رداً له ولا قلبك بحجداً له . وكيف ينسبط لسانك أو يحترق قلبك أن يقول : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فاقصص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون ! لا ! ما يسوع لك ولا يمجلك ، ولا يقبل منك أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه ، كيف ! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه ، وتنقل أحواله ، وتنقص أموره ! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفصل ولا ينسب إلى عقل ، لما كان سائفاً لك ولا جائزاً منك ، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره ، ويفصل عليهم عقله ! وتقرأ لك لم ترى الدنيا أحداً صنع [ما صنع] وبلغ ما بلغ ! فإيتنا آية فيما اقصص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بنية أعجب : أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بمحود عظيمة قبل اجتماعهم بسيسين

كثيرة ، أم ما كان يُنادى به القرآن من الهزيمة لهم ويطلق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ” إن الله عز وجل يؤمُّ حوكم ويُعرِّضكم على الأئم ” وهو على تلك الحال ثم تحمَّت الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان وحيدان متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في عافية وعِفلة حتى أصبحوا ؟ فأحسن الطرَى أمرك ، والتَّئبْتُ في ديبك إن شاء الله .

وأعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات ، على نِوَةِ مجد صلى الله عليه وسلم وحقه ، وأن ليس يتقول شيئا من تلفاء نفسه ، أنه قال في عُقُوان أمره : ” إن الله عز وجل سَبَطَ يَدِي على الدَّيْرِ كُلِّهِ ” وجاء مع ذلك بأثرَةٍ عن ربه ، في كُتَابِ محطوط وتنزيل محفوظ . فأى أمر به لك أدل ، أو أيهما عندك أعجب ، إذ كنت سؤته مصدقا ، ولرسالته محققا : الخبر الذي أحبره ، أم الفعل الذي صدَّقه “ لئن بطرت بعقلك وقلت في نفسك : كيف تَرَقَّتْ إلى هذا نته وأرتفعت نحوه همتُه ، أم كيف أمتدَّتْ إليه طلته وقويَتْ عليه رَويته ؟ بل كيف دغته إليه نفسه ، وشجَّعته عليه قلبه ، ودخل فيه طمعه ، وطاوعه فيه لسانه ، وهو يذكر حود كسرى ، وجموع الروم ، وملوك البرك ، وملوك الشرك ، وقُيُولَ اليمن ، وصاديد الأئم ؟ إن هذا لعَجَبٌ ، ولا سيما إذا لم يكن في إرث مُلْكٍ قاهر ، ولا كَيْفٍ عزٍّ غالب ، ولا معيدين عليم سالف .

ولئن أعدت الطرَى وكررت ، فقلت : كيف وافق خبرُه أثره ، وكيف صدَّق فعلُه قوله ، حتى عَلَبَ الشرق والغرب ! إن هذا لعَجَبٌ ! وأعجب من هذا أمرُ يَدْلِكُ أمير المؤمنين عليه ، ويهديك إن شاء الله إليه : لو قلت لأهل مملكتك ومن قِلك من أمتك : هل نلعم أو نقرر قِلكم ، أنه كان في الدهر الأول ، والعصر الخالي ، أحد مثل مجد - صلى الله عليه وسلم - بدأتِ الأمور به مثل حاله من الوُحدة والصُّعف والدَّلة والقِلَّة ، وصَدَرَتِ الحُلُ به كفعاله في الفَلَّة والمُنعة ، والقهر والظهور ، وعير ذلك ؟ فقالوا لا .

(١) في الأصل « أما كان » . (٢) تحوس أحدهما تمشاء رتيه . وفي الأصل « تحوش ... » بالشين المعجمة وهو تحرج . (٣) في الأصل : « فأى أمر يدلك » .

ثم أنت لا تؤمن بمقالاته، ولا تُقرّ برسالته، إلهاً لبسك، وضاً بملكك، وطمعاً في قليل من الدنيا قد نَعَاهُ الله إليك، ورغبة في ضلالة عيش غير ناقية يديك، فهذا عجب . وأعجب من هذا أمرٌ يقفك أمير المؤمنين على بorchقه، ويوضح لك إن شاء الله بيان أمره : أصبحت العرب طراً والأئم جميعاً في عهد صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا رابع لهم ولا تخرج للحق من بينهم : رجلٌ مصدّق به من المؤمنين، ورجلٌ مكذّب به من الكافرين، ورجلٌ شاك فيه من المارقين .

فأما الشاك فلما قيل له : أنحرت نفسك من الحق، وأبرأتها من الصواب، وأقررت عليها بالخطأ، لقولك : لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب، ولست على واحد منهما، اعترل عنها .

وأما المكذّب فلما قيل له : أنت مُكر والمكر ليس بمدح، ومن لم يدع لم يلزمه بينة ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه . وأيم الله على ذلك، لو سئل هذا المدعى عن بيئته وكشيف مُحْتَمِه، فقل له : من أين عَرَفَ قلبك، وأيقنت نفسك إيقاناً لا يحالجه شك، ومعرفة لا يشوبها ريب ولا يازعها شبهة، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول، لمّا درى ما يقول، لأنه لا يستطيع أن يقول على الرسل، ولا أن يتكذّب على الكتب، فيقول : قد أحبر الله فيها أنه لا يبعث نبياً، ولا يُنزل وحياً في كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيل والربور . بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخاير كُتُبهم، أن الله تارك وتعالى يُنزل كتاباً حديداً أو كلاماً حديثاً، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان، ولم يُنزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقل له . أما أنت فقد أدعيت، والمدعى يُسأل عن الحجة ويُقبل منه البينة، فما بينك ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيتنا، ولا بد أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا بلى ! قال : فآية بينة أحق وأعدل، وأى شهود أذكى وأفصل من شهادتكم بسقوط صاحبي وثبوت

الحق من بعدهما في يَدَيَّ^{١٠} قالوا : إن الأمرَ لكما تقول ، ولكنَّ البينةَ أشقى للصدر ، فأقام بيعةً من الكُتَّاب ، وشهوداً من الوحى ، وآياتِ سوى ذلك عظاماً ، وبيِّناتٍ عَوَّامٌ ، من كلامٍ لا يَقْدِرُ عليه الخلقُ ، وصِدْقٍ لا يكون إلا من قِبَلِ الرب ، شبيهاً بما أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتبَ به في صدر كتابه هذا اليكم ، مما قد تشهدُ له قلوبُ الأئمة ، ويزَّجَّه بهالُ العرب .

فلما أقام بيئته ، وثبتت حجته ، وجب حقه ، وقضى به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاعت المقالة لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا يرسل غير القرآن ، فأطلت الكتب المحدثه ، وأكذبت الوثيقيه ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يحز للصارى أن تقول : لا نبيَّ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كُتَّاب حلف الإنجيل ، وعن ذلك من أواخر الكتب ما قلنا كل متنبئ بعد نبيا كذاب ، فشاعت وحازت الحجة ، ووضح العذر . وأما الصارى فيجدون في أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ، أن الله عز وجل ، يبعث نبيا حديثا ، ويتزل تخابا حديثا ، فليس لهم أن يكذبوا نبيا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردوا كُتَّابا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط ، وأما المنكر ففطل ، وأما المصدق فثبت شوتا ليس فيه مدخل شبهة ، ولا موضع لجة ، ولا معلق لمازعة . وذلك أن المكر لوحوب حقه ، والشاك في ثبوت صدقه ، لا يجد بدا من أن يُنحَى الصدق عن الخلق ، ويحلى الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين برهم ، الشاكين في عنهم ، فأحس النظر في معانيه ينكشف لك عما فيه ، إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلِّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر اليه : أنه لما أحبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً — صلى الله عليه وسلم — في التوراة والانجيل موصوفاً مكتوباً ، تجمعت العلماء منهم ، وتدارست الكُتُبُ فيما بينهم ، فلما نظروا

(١) في هذه الجملة عروس لم يوفق الى كشف سنه وان كان المراد منها واحدا .

الى اسمه وطأته بنفته ، وكأوا يعرفونه كما يعرفون آبائهم . ويستفتحون ذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفة حسداً من عد أنفسهم ، وبجهداً من بعد ما تبين لها ، وأمنت طائفة ، تصديقاً بكتابها ، وخوفاً من ربها .

فلعمر الله لو [لا] أن الدين آموا محقه وصدقوا بأمره ، رأوا صفته عياناً ، وقيلوا بته إيقاناً ، لما فارقوا أديانهم ، ولا حادلوا إخوانهم ، حتى وقصوم على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بني إسرائيل ، وحملوا الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل . ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولعمر الله إنها آية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وحملها على العرب من بنيانه ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذْقَانِ مُحَدَّادًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّكَ إِن كَان وَعْدُ رَبِّكَ لَمَفْعُولًا ﴾ . يقولون : وعدنا أن يرسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقق قوله ، وصدق وعده . واحتج السلي على الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن يقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ومور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقول عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعي به إيمان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود في مثالي كتبهم ، ونسبي على أفواه رسلهم ، فلم يحدوا حمرة يقينا ، ولا وصفه مستقبيا ، أنهم سيُذبون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نقارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يحط إذا في كتبهم حقا صيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحانه الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بهم ، فأتهم إن تنكروا ما يقولون لكم ، مما ليس لدى لب أن يآذن له أن يؤمن به ، ولا أن يبدي اليه

(١) سمعه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة الى خلقه ، لطفن النوة منهم ، ووقعت الأخبار المتتلة عليهم ، على صفائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم الى طلبها ، هى مكررة فى مثنى كتبهم ، وبطون مصمهم ، وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النأ العظيم ، والأمر الكبير ، والد كر الحكيم ، الذى ملك آفاق الأرضين ، وأستفاض على جميع العالمين ، لم يذكره يحير ياتمرون به ، ولا بشر يمتنون عه ؛ كلا ! ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصف تبارك وتعالى نفسه ، إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رحمت الى قلبك ، لتقولن فى نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذى طلع طلوع الشمس ، وأمتد أمتداد النهار فلح مشارق الأرض ومغاربها ، وسهول الآفاق وحرونها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشرت الكتب به ، وتبأت الرسل عليه ، ودعت النذر اليه ، تريباله وترعيا فيه ، وأمرأ به . ولو كان صلاحه وجهالة وعماية ، لتقدموا فى التحدير منه ، والترهيد فيه ، والتنبيط عه ، فيدعو ذلك الى أن تنظروا الى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل . فأيهم الله لئن طلست لتحيدن ، ولئن آحتهدت لتتوفقن . وما الصواب بمموج ، ولا الخير بمطور . ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تحده ، ولكنها كانت تكتمه تحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم الى أشاهه ، حسداً من عند أنفسهم ونفياً بعد ما تبين لهم . ثم لقد آقتديتم بهم وحرّيتهم معهم وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالأباء والانتساع للآثار . فأقن الله فى نفسك ، وأتسم الرجال على دينك ، ولا تحمل النظر الى عيرك من دوى الشك فى القلوب ، والمسح فى . واللهم فى التعطيل ، الذين لعلهم يعرض لأرائهم ويقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرعه لكم من حجج الوحي شئ ريد

(١) هكذا فى الأصل . (٢) فى الأصل «أد بطروا...» بيا. الفية . (٣) كذا فى الأصل .

وطاهر أن كلمة بعد «فى» سقطت من النسخ سوا .

في المصاحف بعد التي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى ،
وذلك الشاك في شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ،
ليس يدعوهم الى ماشهدوا دين^(١) ، ولا يجهلهم على ما اتفقوا عليه دينا ، لا يستقيم له أن يؤمن
بما لم تدركه حوارحه وتُحيط به حواسه ؛ لإسقاطه حجة الإجماع وإطالة شهادة العوام .
وأتفأق المختلس دلالة واضحة . فهو سائلكم عن المحجة في الإنجيل واليه على التوراه ، شكّا
في الرب وتكدياً بالرسل ، فما كنت قائله له أو يُحجيه به في كتابكم ، فأحنه مثله في كتابا وإن
كانت الأحوال مها غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما ،
ويتفق أمرهما ، من كانكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشاهه المسيح به
أصحابه باللسان ، إنما كان فعلا أثنت من بعده ، ولم يكن الفعال موصوعا بعده . وليس
يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكّا فيه ، ولا يورده عليكم مربية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كُتبت الله عمر وجل محفوظه ، وأن مُحجّه محرونة ، لا يُزاد
فيها على تقادم عهد ، ولا يُتقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثنت في الإنجيل من
بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن أجمع اليه من الحواريين : ” الوحي أكلّمكم ،
والأمثال أصرت لكم “ . فأمثاله المصروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما نال الشك
يُنقى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصّف أمير المؤمنين لكم ،
وسيان في تنزيل كتابا ، وقد أدرك شهادة ديه ، إما ما قرأ من عهده ومعابسة وحيه
وآحتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للدير يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي
تعرفون ووقوها بطلقات الرجال الذين يهتمون .^(٣)

إن قالوا : أما طلقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك
ما لا يسوع الأفاويل فيه ، ولا تدحل الشبهة عليه ، لا انتشار القرآن وأمتداد الزمان ،

(١) في الأصل . « لا يستقيم له أن يؤمن له بما » . ريادة ” له “ . وهي قلقة في موضعها لعلها
ريدت من النسخ . (٢) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا في الأصل .

وكثرة الحملة لآياته فيهم، والحفظة للسانه منهم، ولكل الدين الذي نزل به القرآن، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم. وكيف يوقع تهمة أو دخول شبهة، على أقوام [لبث] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم، حتى يحملوه في صدورهم، وحفظوه في قلوبهم، وكرروا آذانهم مسموعا، وأمرت على أبصارهم مكتوبا، وحرى على ألسنتهم متلوا، وجمعه كثير منهم محفوظا، ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم، حتى أدوه الينا، وأوفوا به عددا، من مواضع متفاوتة، وأصناف وأحناس متباينة، على كلمة واحدة ! .

إن قالوا : اتفقت الرجال على الريادة فيه وأمكت الحال من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخاضين ليسوا في الزيادة متهمين، وأن المافقيين الملحدتين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المافقيين على محالفة الجمع من المؤمنين، بعد ما حفظته قلوبهم، ووعته أسماعهم، ثم تمكن القدرة لهم وتشتت الريادة منهم ! هذا ما لا يقدر عليه مافق، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق . وأيم الله أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل، لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم، ولو جعل الله المافقيين على الريادة في كتابه قادرين، لبذلوا ديننا وغيروا حالنا . ولو كانوا لذلك مقربين وعلى ذلك مقتدرين، لكان الذي كتب به أمير المؤمنين اليكم، وأورده من حجج الله عليكم، أولى ما تلقون، ورأس ما تقرءون . فلا تلقين إلى ما قاله [المصل] سمعك، ولا تُصِيت الدهر إليه دهك، فإنه اتحد الشك في كتابنا ذريعة إلى الإحلال بكتابك، وسلمنا إلى الشك في دينك وعلة في الطعن على ملتك، ولكن قل يا ولي الشيطان : أتى وقع لك إيمان بآل من ولد فلان ؟ أنقول . شهدت الحيرة، واجتمعت العشرة، وآتق المختلقون، فذهب الشك، وزال الريب، ووقع الإيقان، من غير البيان صدقت . فما بال الشك فيما اجتمعت العاقبة على القول به، وآتقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبيات الرسل ! وإن ذهب هدا عن أمره، وباعده

عن شبهه ، فتؤم أنه من بطفة خُلِق ، ومن رَجِم نَجْرَج ، فإن مجدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى ، قل : أَرَأَيْتَ لو كنت سميعاً أعمى ، أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سجع ، أو أرض أو حل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم ، فقل . فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب . فأتق الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك ، لا تعدهم الى السار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من آيين آيات الوحي ، وأدلل علامات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور ينبدى ربه . والله أطهر مما أرل من الكتاب أموراً كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستوره ، فقال تأدياً له ، وإحاراً لمن آمن من بعده : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْبِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال . ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ حَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِي أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَا مِنْ أَصْنَعِي فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَرَكِي وَأَمَا مِنْ حَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُؤُا فِيهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَذَقْنَاكَ صِغَفَ الْحَيَاةِ وَصِغَفَ الْعَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيَْا بَصِيرًا ﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس الى البلد الحرام حين سكنت القلوب اليها ، وأبست النفوس بها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي حَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يَصِيرُ ﴾ . وكانت القلة التي صرفه الله اليها وأمره بها عظيمة على المفاقيين واقعةً بخلاف الكافرين ، كثيرةٌ إلا على الدين هدى الله من المؤمنين ، فإسهم قالوا : اذا اختلفت القيلتان واختلفت الجهتان ، كانت الطاعة فيهما واحده لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها . وكيف تختلف الطاعة من رجلين يجي بأمر الله عز وجل ثم هدم بوحى الله .

(١) كذا في الأصل (٢) في الأصل . "لر آمن من بعده إذ يقول " وظاهر أن كلمة

" إذ يقول " عرميدة ها . فلهذا ريدت مهوا من الناصح . (٣) في الأصل " كثيرة ... " .

فإن قلت : إن الله حَوَّلَهُ عَنِ أَفْضَلِ الْقَلْبَيْنِ وَأَقْوَمِ الْجِهَتَيْنِ ، فلا سواءَ فى الفضل
الْبَيْنِ والخير السرّ : قبله سَلَطَ اللهُ عَلَيْهَا الْكَافِرِينَ ولم يَمْنَعْهُمَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، وقبله مَنَعَهُمَا مَحْنُوْدٍ
من عِصْه ، وَعَصَمَهُمَا بِعِزِّ مَا حَوَّلَ مِنْ حَلْقِهِ وَلَا حَرَمِيَّةٍ يَدْعِيهَا أَحَدٌ مِنْ فِيهَا ؛ فَأَرْسَلَ طَيْرًا
أَمَائِلَ تَرْمِي الْأَعْدَاءَ مَحْجَارِهِ مِنْ سِجِّيلٍ ، لِيَجْعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَا كُوِلَ . فإن تَقُلْ : هَذَا حَبْرٌ
سُكِّرَهُ ، وَقَوْلٌ لَا يَعْرِفُهُ ؛ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ هَذَا تُؤْمِنُ ، وَتَشْهَدُ لَهِ عِزٌّ وَحِلٌّ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِهِ ،
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَنْزَلَ اللهُ عِزَّ وَحِلَّ سُورَةِ الْعِيلِ عَلَى قَوْمٍ أَدْرَكَهُمُ مِنْهُمْ بَشَرٌ كَثِيرٌ .

فإن قلت : إن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَبْرُهُمْ بِمَا عَابَوْهُ وَأَدْرَكُوا حِلَافَهُ ، فَقُلْ :
إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَفَرِّقَهُمْ عَنْهُ وَيُوحِشَهُمْ مِنْهُ ، وَأَحَبُّ أَنْ يَمُوتَ بِالْكَذِبِ ، وَيَقْدِمُوهُ بِالْحَقِّ ،
وَيَصْحَبُوهُ بِالْحَقِّ ، وَيَطْبُؤْنَ بِهِ الظُّنُونَ . كَلَّا ! مَا كَانَ نَبِيٌّ وَلَا نَبِيَّةٌ لِيُجَاهِدَ أَقْوَامًا بِخِلَافِ
مَا رَأَتْ أَعْيُنُهُمْ وَشَهِدَتْ آثَانُهُمْ ، فَيُخْرِجُهُمْ بِخِلَافِ مَا شَهِدُوا ، وَتُكَذِّبُ مَا عَيْنُوا . فَلَا
تَكُونُ فِي هَذَا مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ، وَلَا مَأْمُرَ الْعِلِّ مِنَ الْمَكْذِبِينَ .

فَلَعَمْرُ اللهِ لَوْ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تُلْحِدُ أَنْتَ وَقَوْمُكَ إِلَيْهِ
لَمَا قَامَ مَعَهُ رَحْلَانِ وَلَا آخَتَفَ فِيهِ سَيْمَانٌ . وَإِنْ فِيمَا صَعَّ اللهُ عِزَّ وَحِلَّ الْعِيلِ
وَأَتْبَاعَهُ ، دَلَالَةٌ عَلَى مِلَّةِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ . فَأَتَقِ اللهُ ! فَقَدْ شَرَحَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَامَاتِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَشَفَ الْأَعْطِيَةَ لَكَ عَنِ الثُّورِ آيَاتِ الْوَحْيِ . فَإِنْ مَالَتْ الْأَهْوَاءُ
بِكَ ، وَعَلَّتْ الْأَسَافَةُ عَلَيْكَ ، وَحَصَرَكَ الرُّؤْسَاءُ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى لَا حِجَةَ
عِندَهُمْ ، وَلَا سُلْطَانَ أَتَاهُمْ فَقُلْ : أَبْؤُوى عَمَّا آخَتَمْتَ عَلَيْهِ التَّضَارِيَةَ وَدَهَسْتَ إِلَيْهِ بِهِمْ
الْمَعَانِي مِنْ تَشْقِيقِ الْكَلَامِ وَتَعْرِيفِ الْكُتُبِ : أَحُرُوفٌ تَعَسَّسُونَهَا ، أَمْ أَمَّةٌ تَعْرِفُونَهَا ؟
فَإِنْ قَالُوا : إِنَّهُمْ بَغِيرُ لُغَةٍ يَتَكَلَّمُونَ ، فَهَمَّ إِذَا قَوْمٌ يَلْعَبُونَ . وَإِنْ قَالُوا : إِنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ
بِلُغَةٍ مَعْرُوفَةٍ وَمَعَانٍ مَعْلُومَةٍ ، فَقُلْ : أَحْبَرُونِي عَنْ قَوْلِكُمْ : أَبُ وَأَنْ ، أَمَّا مَا تَعْتَرِفُ
الْعُقُولُ مِنَ الْمُنْطَقِ وَيَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْمَعْنَى أَمْ لَا ؟ فَإِنْ قَالُوا : لَا ، لَيْسَ ذَلِكَ مَالِىَ

تذهب أو هام العباد اليه ، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراء لإسرائيل - "نكرى" لا يعنى ولادته الرحم ، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين : "أنتم إحقى" لا يعنى أحوه الدس . فذلك قول لا يحدون معه بدأ من أن يسبوا عيسى عليه السلام عداء . وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألس العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأنوة المعلومة ، فليجربوا متى كان الأب والدا ، والأبن مولودا : أقبل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قلها ، رجعوا عن القول الأول بتثيت الأنوة . إلا أن ذلك ليس بالشئ الذى تذهب إليه الأوام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأمام .

ولا بد اذا سقطت الولادة المعروفة وظلت الأنوة الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والأبن آسمان علقا على غير معنى ، وتساى أصيلا الى غير حق ، فيقترن أن عيسى عليه السلام حلق مثلهم ، وأنهم يتكلمون بعرفه أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الآس مولودا والأب والدا بعد الولادة ، فقد أقرروا أن الأب حدث مخلوق وعبد مروب ، لقولهم إبه لم يكن حتى ولد ، ولم يولد حتى حلق . وقل لمن يقول الزور العظيم ، ويقيد بالإمك المين : أليس الأب أما على حياله ولم يزل ، والأبن أبا يُحِل ، وروح القدس كذلك ؟ فإن قالوا . نعم ، فقد أقرروا بأنهم ثلاثة متباينة ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولهم . لهم ثلاثة أصلهم واحد .

وإن قالوا : الأب والأبن وروح القدس واحد ، ولكن مصه أب ومصه ابن وبعضه روح القدس ، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عندهم ، وقالوا فى التبعض بما هو كفر قبلهم . وإن قالوا : ليس مُعَصَّاء ولا مجزأ ، ولا محدودا ، ولا ثلاثة متباينين ، فإذا هم قوم يلعبون : يقولون : الأب أب ، والأبن أب ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل . وهذا من أين المحال وأخلف المقال . وليس من المطلق مالا يوحد فى لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم . وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبي لسان قومه لبيّن لهم ، فُضِّلَ الله الطالمين . ولولا ذلك لَمَا
فَهِمَتِ الأُمَمُ مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معانيَ أحاديث الكتب . فلا تُطِيع الذين يلعبون
بأنفسهم ، ويتكلمون بعير لفتهم ، ويقولون . الثلاثةُ واحدٌ ، والواحد ثلاثة ؛ وهذا محالٌ
فى مجارى المَقال ، ومعانى العِعال .

لعمركم أني أتهمت عقولَ الأساقفة على ديسك ، وأهتمتَ بالظرفى توحيدك ،
لتعلمن أن الواحدَ لا يكون ثلاثةً وأن الثلاثةَ لا تكون واحداً ، إلا على وجه ماله ثاب يقول
به ، ولا منه مخرجٌ تستريح إليه . فأتى نحوه سمعك ، وأصبحت إليه فهمك ؛ فإن أمير المؤمنين
وإصمُّه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين ، ولا لارماً غيرَ المحدودين ، ولا داحلاً على رب
العالمين : وهو أن يكون الشيءُ أصله واحد وأجزاؤه كثيرة ، من نحو الانسان ، وهو أصل
يجمعه اسم ، وله أجزاء تلمها أسماء ؛ فليس الجزءُ بالأصل ، ولا الأصلُ بالجزء ، ولكن الجزء
بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزء ، قلت يد الانسان وسمع الانسان . ولولا أنه محدود مخلوق
محزاً مبعض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ؛ وكذلك الشمس : الأصلُ
واحد ، وهى شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وصوهُ الشمس وشُعاع الشمس ودقيقُها
وعليظها وحرورها وأعلامها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلن قلن : سميتُ كلَّ جزء من الأجزاء على حياله إنساناً ، وكلَّ جزء من الشمس دون
أصله شمساً ، وسببتُ فعلَ الأصل الى بعض أجزائه ، وتركنتُ أن تنسب الأصلَ فاعلاً ببعض
الأجزاء ، كما تقول : بسطَ الانسانُ يده ، ومشيَ رجله ، ونظرَ بعينه ، ثم صربتُ ذلك لله
عز وجل مثلاً وجعلتُ الله له قياساً ، فقلت : الأصلُ واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء
كثيرة وهى أب وأبن وروح القدس ، وكل جزء منها إلهٌ على حياله وربٌّ دون غيره ، لم تجز
بداً أن تُلحقَ اليدَ والعينَ والعمسَ بالأب والأبى وروح القدس ، فتكثرَ ألهتك ، وتحدّد
رتك ، وتترك قولك : إن الله ليس محدوداً ولا مجزأً ولا مبعضاً ؛ إلا أن يكون إما تريد مذاهب
الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماءُ أب وأبن وروح القدس .

إِنْ كُنْتَ تقول هذا وَكُنْتَ لِمَا تَعْبُدُ أَسْمَاءَ ، هَذَا تَحْدُثُ مِنْ أَنْ تَعْبُدَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وَتَقُولُ : لَهَا إِلَهَةٌ عَلَى حَيَالِهَا ، حَتَّى تَقُولَ بِاسْمِ آرْحَنَى ، وَبِثَانٍ أَغْفِرْ لِي . فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بِأَبٍ وَلَا أُمٍّ وَلَا أَسَمٍ ، وَلَكِنْ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فَإِنْ أَشَارَتْ الْأَسَافِقَةُ إِلَى مَعْضِ الْإِنْسَانِ مَالِدٍ وَالرَّحْلِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ وَقَالُوا لَيْسَ لِنَاسِنَا ، فَقُلْ لَا ، وَلَكِنَّهُ لِلْإِنْسَانِ ، وَقُلْ هُوَ إِنْسَانٌ بِكَلَامِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ أَشَارُوا إِلَى مَعْضِ الشَّمْسِ فَقَالُوا : أَلَيْسَ هَذَا الشَّمْسُ طَالِعًا ، فَقُلْ لَا ، وَلَكِنَّهُ مَعْصَا ، وَلَوْ كَانَتِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي تَقَعُ أَبْصَارُكُمْ عَلَيْهَا وَتُسَمَّى أَيْدِيكُمْ إِلَيْهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالسَّمَاءِ وَالْهَوَاءِ شَمْسًا وَهَوَاءً وَسَّمَاءً لَكَانَتِ الشَّمْسُ وَالْهَوَاءُ وَالسَّمَاءُ أَكْثَرَ مِمَّا يُلْفَعُ الْإِحْصَاءُ . وَلَوْ قَصِدَتْ الْإِحَابَةَ لِمَسَالِكِ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ ، لَبَطَلَتْ الْمَجِجُ الدَّاحِضَةُ وَانْقَطَعَتِ الْأَقَاوِيلُ الْمُتَنَاقِضَةُ . وَهَلْ مِنْ قِتْلِكَ مِنْ أَسَافِفٍ أُمْتُكَ وَشِمَامِسَةٍ أَهْلُ مِلَّتِكَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى الْمَسِيحَ ، وَيَرْفَعُونَهُ أَنْ يَكُونَ عَسَدًا : عَلَى أَى شَيْءٍ وَقَعَ اسْمُ الْمَسِيحِ مِنْ عِيسَى : عَلَى الرُّوحِ أَمْ الْجَسَدِ أَمْ عَلَى كَلِمَةٍ مَا ؟ فَإِنْ قَالُوا : وَقَعَ عَلَى الرُّوحِ نَفْسُهُ ، لِأَنَّ الرُّوحَ إِلَهٌُ دُونَ غَيْرِهِ ، فَقَدْ أَقْرَأُوا أَنَّ إِلَهُهُمْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ ، وَيَمشِي وَيَرْكَبُ ، لَهُمْ يَحْدُونَ ذَلِكَ مِنْ فَعَلِ عِيسَى مِثْلَهُمْ ، مَوْصُوفًا عَنْدهُمْ . فَإِنْ قَالُوا : وَقَعَ اسْمُ الْمَسِيحِ عَلَى الْجَسَدِ بَعِيْنِهِ ، فَكَانَ الْجَسَدُ هُوَ الْمَسِيحُ أَذَا دُونَ عِيْرِهِ ، وَالْمَسِيحُ أَذَا مَخْلُوقٌ عَنْدهُمْ ، وَالْإِلَهُ إِنْشَانٌ أَذَا مِثْلَهُمْ ، فَلِمَ يَعْبُدُونَ الْمَخْلُوقَ وَيَدْعُونَ مَنْ خَلَقَهُ وَرَأَاهُ . وَإِنْ قَالُوا : وَقَعَ الْاسْمُ عَلَى الرُّوحِ وَالْجَسَدِ جَمِيعًا ، فَلِمَ يَجِدُوا مَحَرَجًا وَلَا بُدًّا وَلَا مَحِيصًا ، إِذَا أَوْفَعُوا الْاسْمَ عَلَيْهِمَا ، مِنْ أَنْ يُصَيِّفُوا الْأَعْمَالَ إِلَيْهِمَا ، فَيَقُولُوا : إِنْ الْجَسَدُ الْمَخْلُوقُ هُوَ خَلَقَهُمْ ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْخَالِقَ قَدْ مَاتَ قَبْلَهُمْ ، وَذَلِكَ لِمَا يَجِدُونَ مِنْ ذِكْرِ مَوْتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْكُتُبِ عَنْدهُمْ وَفِي الْإِنْجِيلِ الَّذِي قِيلَهُمْ . وَهَلْ مِنْ قِتْلِكَ عَنْ الْأَبِ وَالْإِبْنِ ، فَقُلْ أَيُّهُمَا أَعْظَمُ وَأَيُّهُمَا أَصْغَرُ ، فَإِنْ قَالُوا : الْأَبُ أَعْظَمُ وَالْإِبْنُ أَصْغَرُ ، فَقَدْ جَعَلُوهُمَا مُتَبَايِنِينَ . وَإِنْ قَالُوا : هُمَا وَاحِدٌ وَكِلَاهُمَا عَظِيمٌ ، وَلَيْسَ الْأَبُ بِأَعْظَمَ مِنَ الْإِبْنِ ،

ولا الآبَنَ بأصغر من الأب، فقد قُصَّ حينئذ جوابُهم، وأُكذِّبَ المسيحُ عليه السلام كلامهم، حيث يقول: «لو كنتم تحبوننى لَمَرِّحْتُم حيثُ أذهب الى إلهى فإن إلهى أعظم منى» فلم يُقَلِّ أعظم منى. إلا وهو مقرأُناه أصغرُ منه. وسلهم عن قول المسيح: «أنا أذهب الى إلهى وإلهكم»، فقل: مَنْ هذا الإله الذى ذهب عيسى اليه صلى الله عليه وسلم: إله فى السماء متباين منه مقطوعُ عنه؟ فهما اذا اثنان متباينان، أم إله كان به متصلاً وكا جميعاً واحداً؟ فكيف اذا يجوز له أن يقول اذاً أذهبُ اليه! إلا أن يقولوا: إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم فى صفة الرت عز وجل.

وَسَلَّ مَنْ قَبَلَك. أخرجَ المسيحُ من بطن أمه مريم بكاله حتى كان البطن منه فارغاً وكان هو منه بكاله حارحاً. فإن قالوا: نعم، فقد أنكسر قولهم: إن الله بكل مكان. وإن قالوا: لم يجرُح المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا اذاً فى قولهم: إنه قد نرج، وأفتروا أنه قد وُلِدَ. فعلى الله عما يصنعون، وتيرة عما يُشركون. وسلهم لم يهبط عيسى الى بطن مريم، وتحسد للمم والدم، فإن قالوا: ليمحق الخطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق، فقل: كيف اذاً لم يربطه عن نفسه؟ وكيف حلاها من اليهود نصله! ولم سُلَّط على أهل ديبه يُتبعون فى كل شعب ويُقتلون بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخالق فى كل مكان من السماء والأرض وعبر ذلك: أيهما أعظم: المحيطُ المشتَمِلُ، أم المُحاطُ المشتَمِلُ عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون. فإن قالوا: إنما ألتحم بعضه دون بعض، فقد حدوا وتعصوا وتقصوا وآسقصوا، وإما قالوا لمن يمدوا بدأ من أن يقولوا. إن بعض المسيح الذى جعلوه رهم، وهو إله عندهم، ميت بعضه جيفة، وإن بعضه حي طيب، لأنهم زعموا أنه ألتحم بمسجد حتى فيه

(١) الوارد فى إصحاح يوحنا (مصل ١٤ آية ٢٨ ح ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢ م)

«لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون بأنى ماص الى الأب لأن الأب هو أعظم منى».

(٢) الوارد فى إصحاح يوحنا (مصل ٢٠ آية ١٧ ح ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس) «بئى صاعد الى

أنى وأنيكم وإلهى وإلهكم». (٣) كذا بالأصل.

رُوح، فلا بدّ إذاً أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والعطش وأشياء ذلك، وهو عدهم كفر عظيم وإلَهُ مبيس . فأتى عقوبة الله رك، ولا تمش مُكْبِراً على وجهك، ولكن أطلب وأتمس وأبحث، فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل :
 «مَنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَمَنْ طَلَبَ وَحَدَّ وَمَنْ اسْتَفْتَحَ فُتِّحَ لَهُ» .

اجمع العلماء والمصراة [الدين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك، فقل : لأى شىء تسبتم المسيح إلهاً وحملته وه راءاً؟ وعهد الله سماءه فى الكتاب ابناً، وقد تجدونه قال :
 «إنى أذهب الى أبى وأبيكم وإلهم أيضاً» . وهذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقولٌ لا يحتمل إلا وجهاً وهو الرُبوبية . أم كيف تنظرون الى كلامه : «أذهب الى أبى وأبيكم» . فتفردوها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره !

فاتق الله وكمن القائمين بالحق، الموحدين للرب . إن أمير المؤمنين قد صرَب لك أمثالاً حمةً، وصرف اليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي قليلاً من كثير، وانحنا من تفسيره لا تمتنع العقول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيدكر لك أمير المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراه والإنجيل، ما يكفى به، إن شاء الله، وبالسبر منه، لأن كتب الله عز وجل محفوفة، ومُحَجَّجه محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإذا وحدت فيها كلمة بذلك على حق وتهديك الى رُشد، فليست واحداً أخرى تصدك عنه وتشككك فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق . ولكن صلت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكتب . وأمير المؤمنين يسأل الله العِصمة والتوفيق .

(١) الوارد فى إنجيل متى (فصل ٥ آية ٤٢ ح ٣ من الكتاب المقدس) . «من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقرض منك فلا تمنعه» . والوارد فى إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ح ٣ من الكتاب المقدس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له»

من ذلك ما قد شَهِدَ به عيسى عليه السلام عدكم وبيته في الإنجيل لكم ، إذ قال للحواريين ^(١) : ”أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يُقال له ، وهو يشهد علىّ وأتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يحركم به “ . وترجمة البارقليط : أحمد . هذا ما لا شك ولا مرية فيه ، وهو الذي يُجبر بما وَعَدَ الله المؤمنين وصالحى الحواريين في القرآن ؛ ولستم تحدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا ^(٢) النبى عليه السلام : ”قيل لى : اقم بطارا ما ترى بحبرى“ ^(٣) قال : أرى راكبين يعيرين مقلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت نابل وأصامها المحوثة ^(٤) “ . ولسا تعلم نيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا . ومن ذلك قول داود عليه السلام ^(٥) : ”اللهم اعث جاعل السَّنة كي يعلم الناسُ أنهم بشر“ يقول : كي تتبين الناس أب عيسى عليه السلام إنسان . ولسا تعلم بيا وضع سنة تُنسب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نَصَبَ سَنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول جَبْقُوقَ ^(٦) النبيء في زمان دانيال : ”حاء الله من السماء والقديس من حلال فاران ، وأمتلأت السماء من تجميد أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض بيمينه ، ومَلَكَ رقاب الأمم“ ^(٨) . وقال أيضا : ”تصيء لوره الأرضُ ، وتُحمل خيله في البحر“ . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (مصل ١٤ آية ٢٦ ومصل ١٥ آية ٢٦ ومصل ١٦ آية ١٣ ح ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدس) .

(٢) راجع سوء أشعيا (مصل ٢١ آية ٩ ح ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس) . (٣) كذا بالأصل ، ولم يوفق الى تصحيحه . (٤) في الأصل : «الاحرة» وقد استأسا في اثبات ما أشتاء بالكتاب المقدس

(٥) راجع سفر الزمابر (مصل ٩ آية ٢١ ح ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس) . (٦) راجع سوء

جبقوق (مصل ٣ آية ١٥ ح ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) . (٧) في الأصل ”من السماء“ .

(٨) راجع سوء جبقوق (مصل ٣ آية ١٥ ح ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) .

ينحو هذا القول، وإلى أين يذهب بهذا المعنى؟ لئن ذهبت به إلى غير الذي [تجمل] ^(١) حيله في البحر، وبدأ من حال فاران أمره، رعلت على الأرض ومسحها، وملكت رقات الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون.

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزبور ^(٢): ”صَدَّقُوا وَسَّحُوا الرَّبَّ نَسِيحًا حَدِيثًا سَّحُوا الَّذِي هَلَّلَهُ الصَّالِحُونَ . لِيَفْرَحَ إِسْرَائِيلُ مُحَالَفَهُ وَيَتَوَّجَّهَ صِهْيَوْنَ مِنْ أَهْلِ أَنْ اللَّهُ اصْطَلَى لَهُ أُمَتُهُ ، وَأَعْطَاهُ الصَّرَّ وَسَدَّدَ الصَّالِحِينَ الْكَرَامَةَ ، نَسَّحُوهُ عَلَى مَصَاحِمِهِمْ ، وَيَكْتُمُونَ اللَّهَ مَصَوِّبًا عَلَيْهِ ، بَأْيَدِهِمْ سِوْفٌ دَاتٌ شَقَرَتِينَ ، لِيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَا يَعْزُوهُ ، ثُمَّ يَقْبِذُ مَلُوكَهُمْ بِالْقُبُودِ وَأَسْرَافِهِمْ بِالْأَعْلَالِ“ . فَأَيُّ أُمَّةٍ يَكْبُرُونَ اللَّهَ مَصَوِّبًا وَأَدَانِ الصَّلَوَاتِ الدَّائِمَةِ وَعَلَى كُلِّ شَرَفٍ وَعَدَّ كُلَّ حَرْبٍ ، وَأَيُّ أُمَّةٍ كَانَتْ سِوْفُهَا دَاتٌ شَقَرَتِينَ إِلَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !

ومن ذلك قول أشعيا ^(٣): ”سَّحُوا الرَّبَّ تَسْيِيحًا حَدِيثًا ، وَيَسَّحُهُ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ مَرَجٌ يَكُونُ فِي حَيِّ فَيَارَ“ . وبو فيار فريش أهل فاران الذي زل فيه القرآن . وأَيُّ أُمَّةٍ تَسْبُحُ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ إِلَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . عَدَى أَكْدَى .

ومن ذلك قول أشعيا ^(٤): ”عَدَى الَّذِي وَحِبَّ بِهِ حَبِّي الَّذِي بَشَرْتُ بِهِ نَفْسِي أَفِيصَ عَلَيْهِ رُوحِي ، يُوصِي الْأَثَمَ بِالْوَصَايَا ، لَا يَصْحَكُ وَلَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَيَفْتَحُ الْعُيُونَ الْمُورَ . وَيُسْمِعُ الْأَدَانَ الصَّمَّ ، وَيُخَيِّقُ الْقُلُوبَ الْعُلْفَ ، وَمَا أُعْطِيَهُ لَا أُعْطِيَ عَيْرَهُ ، أَحْمَدُ يَحْمَدُ اللَّهَ حَمْدًا حَدِيثًا ، تَهْلِيلُهُ يَأْتِي مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ ، يَحُوزُ الْمَاءَ شَدَهُ أَمْوَاحُهُ ، وَيَفْرَحُ وَكُورُهَا ، سَكَتُهَا يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ ، وَيَكْبُرُونَهُ عَلَى كُلِّ رَابِيةٍ“ .

(١) زيادة يدل عليها ما قلناه . (٢) في الأصل ”ومسحها“ . (٣) راجع سفر المزمور (مصل ١٤٩ آية ١ — ٩ ح ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس) . (٤) في الأصل ”هلكه الصالحون..“ (٥) راجع سورة أشعيا (مصل ٤٢ آية ١٠ ح ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٦) كما في الأصل ، ولعله محرف عن ”مروح“ . والفوح . الجماعة من الناس . (٧) كما بالأصل ، ولم يدر لها تبيين الكلبيين ولا لذكرهما معي . (٨) راجع سورة أشعيا (مصل ٤٢ آية ١ — ١٠ ح ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٩) كما بالأصل .

(١) ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين . يقول الله عز وجل
 لمحمد في الزور : " انصبت رحي على شفتيك من أجل ذلك ماركك الدهر ، تقلد
 السيف على الأثم ، أيها الجمار على الأثم بالقتل والأسر والسياء هياك وحمدك أحمد بعل
 البر منك كلمة الحق ودلت لك الأشياء سيفك بحسمه يمينك وسالك مسمومة وتسقط
 عد الأثم " . فأي نبي كان على الأثم حارا ولم يادن الله قتالا إلا سينا صلى الله عليه وسلم .
 (٤) ومن ذلك في آخر التوراة . " جاء الله تارك وتعالى من سياء وأشرف من ساعير
 واستبان واستعلن من جبال قَارَان ، وجاء عن يمينه ربوات القديسين " . وتفسير هذا
 أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه
 السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال
 قَارَان وهي بلاد مكة . وأنتم تحدون ذلك في كتبكم مكررا وتعريفونه جميعا بلفظكم .

(٥) ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام «سَأُقِيمُ لَهُمْ مِنْ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ أَجْعَلْ
 كَلَامِي عَلَى فِهْمِهِ وَلَا يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِمَا أَمَرُهُ بِهِ» . فمن إخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل !
 أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعني أحدا منهم لقال لهم : أُقِيمْ لَكُمْ نَبِيَا مِنْكُمْ !

فإن قلتم إنما قال من إخوانكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهَبْ أمير المؤمنين قَبْلَ هذا
 الحُلْفِ مِنْكُمْ وَوَسَّعْ فِي هَذَا الْحَالِ لَكُمْ ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة .
 "مثلُ موسى في بني إسرائيل لا يقوم" فهل يحدون من هذا محرّجا ، ومن الإيمان أن المعنى
 وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدأ .

- (١) راجع سفر المزمور (فصل ٤٤ « وفي بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ح ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدس) .
 (٢) في الأصل « في حمة وأربعين مرمورا » . (٣) في الأصل « من أجل ذلك ماركك الدهر » . واستمنا في تصحيحها بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا . « وقد استبكت
 العمة على شفتيك فذلك ماركك الله إلى الأبد » . أما الباقي فلم يوفق إلى تصحيحه فأشناه كما وردت بالأصل .
 (٤) راجع سفر نشيد الاشرع (فصل ٣٣ آية ٢ ح ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس) .
 (٥) راجع سفر تثنية الاشرع (فصل ١٨ آية ١٥ ح ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أَحْعَلُ كَلَامِي عَلَىٰ مَهْ كَيْ يُعْنَىٰ بِهِ ، أَمْيُّ لَا يَقْرَأُ لَا يَكْتُبُ " .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَارِيَّهٖ أَنْ يَقُولُوا فِي صَلَوَاتِهِمْ : « يَا أَمَانَا الَّذِي السَّمَاءُ تَقْدُسُ أَسْمُكَ » . كيف صار عيسى دونهم أباً ، وصار له دونهم أنا ، وهم يقولون : أَمَانَا ! أم كيف لم يُعْمَلْ سَلِيحَانُ بْنُ دَاوُدَ إلهاً وقد قال الله عز وجل لداود : « يُؤَلِّدُ لَكَ عَلَامٌ مَّتَىٰ لِي وَأُسْمَىٰ لَهُ » ! ولم لا يجعلون لإِسْرَائِيلَ إلهاً وقد قال الله عز وجل له : « أَتَ يَكْزِي » ! لم لا يُسَمُّونَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً وَالْحَوَارِيَّينَ حَاصَةً [إلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أَنُمُ حَوْتِي . وقد قال في الإنجيل : « أُعْطِيَ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِي سُلْطَانًا يُدْعَىٰ لَهُ » . وإن كان هؤلاء لهم للمسيح إخوانه أفلا تحملوهم كلهم إلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول مواضع حقة وأماكن كثيرة إنه ابن الإنسان ! فكيف يكون ابن الإنسان ابن الله ؟ ومتى بان ذلك ؟ ان قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الإنسان ، لهدحعلوا مع الله إنساناً قديماً حملوا الله إنساناً حديثاً ، وحملوا المسيح ابن الله لم يزل ، وابن الإنسان فيما حَدَثَ . وهذه وَرُ متناقضة ، وحجج داحضة ، وأقاول فاحشة .

إن قالوا : إنما بعد المسيح لأنه رُجِعَ إِلَى السَّمَاءِ ، فليعبدوا الملائكة فإنهم في السماء قلبه ، إدريس فقد رفعه الله وعبره . وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ مِنْ دَكْرٍ ، قَادِمٌ حَوَاءَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أَنْثَى ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْ عَمِ الرَّحْمِ وَصِيقِ الطَّنِّ وَحَالِ الصَّنَا ا [وقع] فِيهِ الْمَسِيحُ .

وإن قالوا : إنما بعد عيسى لأنه أحيا الموتي ، فما أحيا حرقيل أكثر ، وما كان من سَعِ تَلْمِيزِ إِبْلِيسَ أَعْبَ ، لأنه أحيا الموتي بعد مئتين من السنين . وإن طلبتم ذلك سِيرَ الْمُلُوكِ عِنْدَ قِصَّةِ الْبَيْعِ أَصْبَتُمُوهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) راجع لإنجيل متى (مصل ٦ آية ٩ ص ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) في الأصل : « وصار به أنا » . (٣) لم يحد هذا في الإنجيل . (٤) حرقيل حَمَّهٖ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِسْرَائِيلَا ، وَالَّذِي أَحْيَا اللَّهُ الْقَوْمَ الَّذِينَ حَرَّحُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرُ الْمَوْتِ ، نَاحِيَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَوْتِهِ . وَهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَرَّحُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرُ الْمَوْتِ) الْآيَةُ .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التى أرأى والمعائب التى أرى ، معصاة موسى أعجب وآياته أعظم . أس ما ذكرت لك من [معائب] عيسى من معائب موسى : من انقلاب الحجرة ، وسلوك الجيش معه ! أم أس ذلك من حجب بصره فيتفجر بعيون الماء ، ويمجله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس يُوَسِّعُ الشمس ثلاث ساعات^(١) وكل ماصع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقصائه . فاتق الله وكفى من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم يَقُلْ ، فإنكم لاتحدونه قال لكم فى شيء من كنتم : اعدوني فإنى ربكم . تعالى الله عما يقول الظالمون ، ويذهب اليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحس أن يصح لك ، فى أولى داريك بك وأهم شأنيك لك ، مدعاك الى الإسلام وأمرك بالإيمان الذى به تدخل الجنة وتخرج من النار . وإن قلت لحظك أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما للسلمين ، عليك ما عليهم . وإن رددت صيحة أمير المؤمنين فيما فيه الخطأ فى آخرتك ، فإن أمير المؤمنين يصح لك فيما فيه الصلاح فى عاجلتك : من إعطاء الجزية التى يحقن الله بها دماءكم ويحرم بها ساءكم ، ويعملها قواماً لمعاشكم ، وصلاًحاً للدادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأماناً لجانكم ، وسعة ليرتكم ، وبركة على قرائكم ، وعنى لأهل الحاجة والعاقبة والمسكنة مكم .

وإن يذكر أمير المؤمنين فى الجزية لكم من حلول الأثم فيكم ، وعموم العافية لياكم ، واستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء مكم ، شيئاً إلا روى قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك العدية التى كان الله أجرى نعمتها لكم على بده ، روت بركتها عليكم من قبله ، ما يدلكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ،

(١) إشارة الى قصة يوشع بن نون فى موسى عليها السلام واستيقافه الشمس ، فقد روى أن يوشع قاتل الحارثين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للعروب حاف أن تميت قبل مراحه ويدخل السبت فلا يجمل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى . فرد له الشمس حتى مرع من قتالهم . (٢) السرب : الطريق .

وصنّف من أصنافكم، تلك الفدية، أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمور غير واحدة :

منها : أن قادة حودكم وساسة حركم ، كانوا بعد وقوع أمرها وأستحكام عقدها، فرأعاً لمحاربة أعدائكم ومناصيه من ناوأكم، بين أن يستمحوهم في بلادهم ويبرلوا عليهم في ديارهم ، ولا يرهون تَعَقُّبَ بَشِيرٍ إن ساروا في أروصهم ، ولا يتخفّون طراداً إن آجتمعا لقتالهم أن يقيموا في حَفِصٍ ودّعه، وأمنٍ وسعة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال، وهم اليوم يترقون الحيوش من كل شُعْبٍ ويخوفون الختوف في كل وقت، لا يهدأ لهم حاش ، ولا يسكن لهم قرع، ولا ينام لهم ليل، ولا نام فيهم حال، قد قَطَعَتْ الهومُ دارهم، وأصمرت المحاوف جُوبِهِم، وأستأصلت الحودُ أموالهم .

ومنها : أن أهل الحِرَاثة وإحوان العماره، في بلادك وأطراف أروصك، كانوا سِراً إلى عِمارة أروصهم وإصلاح ماتحت أيديهم، فيما لا قِوَامَ لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا لقاءً لديهم إلا معه؛ قد أمسوا الحيوش ومَعَرَّتْهَا، والحودَ وبادرتها، وأنتشروا للعماره، وأستكروا في الزراعة، فارقوا رعوسَ الحمال وإحقامَ العياص، وراحوا في أوساط أوطانهم وطلال محالهم، يشققون الأنهار، ويعرسون الأشجار، ويُجَرِّون العيون، حتى نَمَتَ الأموال، وأحصرت الحال، وأحصت الجلباب، وأصحووا اليوم عن الزراعة ممسكين، وللحِرَاثة تاركين، وبغيرها مشغولين في إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال في الحصون، ورمَّ القلاع للبلاء، وتخريش الحصون للبلاء، قد آتقلوا عن مبات البر وكرائم الأرض، ومحارى المياه، الى أوشال الجبال، وأشجار العياص، ووطن الأودية؛ فليس يبلعون من عِمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يلقون، ولا يتالون من خَفَضِ العيش وطيب الأمن ولذّة الدّعة، قريباً مما كانوا يبالون .

ومنها : أن إخوان التحارات ، وأصحاب الأموال وأهل الظُّلْف والحافر ، كانوا يتنازلون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فيسْقُوب^(١) تحاراتهم ويُغْلون بضائعهم ، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الداعة من تحار المسلمين وغيرهم من الدميي ، يتنازلونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمت الركة وسهلت المفعة ، حتى نالت الرءاء فى جبالها وأماها ، والنساء فى غزولهن وعمل أيديهن فصلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من دوى العبادة والرهادة والتأله والمسك واليات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامة من أوزار الحص على قتال الخوف ، قد تحوتم من معصية المسيح فى الدنيا التى لها حكم عها ، والأمور الى أمركم بها ، من نحو قوله : ” من لطم^(٢) حدك الأيمن فامكنه من الأيسر ، ومن آتزع قيصك فاعطه كساءك ، ومن لطمك فاعصر له ، ومن شتمك فأعيرض عه “ .

ومنها : أن من بأفاصى بلادك ونواحي حوزتك ، قد داقوا تلك الأيام من لذة الخمص ، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن ، ورفاهية العيش ، وسعة العافية من سياء أزواحهم ، وهيض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر رحالهم ، وعيمة نقرهم وعمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإحلاء عن مساكنهم وأوطاسهم ، ما لم يكن لهم رأى يعرفه ، ولا طس يلمه ، ولا طمع يقاربه ، ولا أمل يذهب اليه . وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم ، والعامه من أهل ملككم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفتيتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وركة ولايتكم ملكهم ، ومنفعة سياستكم أمرهم ، ما قد ازدادوا لكم به محبة ، وفى نقانكم رغبة ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقة ، وفيما نانكم بصيحة ، مع ما قد أرددتم ذلك من الهية فى صدور الأعداء ، والشرف فى قلوب النظراء ، والعظم فى عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوه عزائم العقول ، وفصل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق البية ، ولطف الحيلة التى

(١) فى الأصل . ” من بلادهم ... “ . (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع لمجمل متى

(مصل ٥ آية ٣٩ ح ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، وعمل رأيكم فيها ، على أنكم بطرتم لضعفائكم حتى قُوتوا ، ولفقرائكم حتى استغثوا ، ولقرانكم حتى سدوا وجيو وهووا المسلمين من أيام الحروب وأورار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأهدى وحيرتكم الأقربى ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، واشتعالكم من أمركم بها ما أوطأتوه لحر سحر القتل ، وذلل الأمر وعدة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصلح ، وأستوتقتم منهم بالرهن .

فاذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في العديّة ، فاعلموا أن أمثاله وأصعافه مقيم معكم في الجرية ، فلا يكون لك رأيٌ غيرها ولا أمر سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين المحب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة في معصكم ، فظن أن إحراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجود وأكل الحدود ، وتوقع الحلاء والساء والقتل ، والأمر والحصر ، شيئا أحتدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيداً أستدركم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجب عذرهم وأفطعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل في نقص عهده ، وأستحقافكم بحقه في خفر دمنه ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأتمتعتم بآله من موافق العهد وبدور الأيمان الذي وصعه الله عز وجل حرّامين ظهراني خلقه ، وأماناً أفاضه في عاده ، لتسكن اليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقموا به من دنياهم وديهم ؛ ما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حرمي الله عز وجل ، لهاوا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأزل عليهم عذابا من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجرى الله نقمته منكم بأيدي المسلمين ، بعد إذ كان أعتمد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالإيمان المغلظة ، والعهود المؤكدة ، التي قد اعتقدها في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامع بها من حولكم ، وحكم بها بطارتكم وأساقفتكم . فلا الله آتيتكم ، ولا من الناس آستحيتم ، نكثاً للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

وَحَرّاً بِالْأَمَانَةِ ، وَإِنَاحَةً لِلْعَمَى . فَتَوَقَّعُوا الْعُقُوبَةَ ، وَاسْتَطَرُّوا الْعَيْبَ ، فَلَقَدْ وَثَّقَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا هُوَ حَالٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ .

وَمِنْ أَسْبَابِ مَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْكُمْ ، مَا قَدْ أَزْمَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَعَزَمَ عَلَيْهِ ، وَقَدَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ : مِنَ الْإِرَادَةِ وَالنِّيَّةِ وَالرَّغْبَةِ فِي إِعْطَاءِ الْجِيُوشِ بِلَادَكُمْ ، وَاسْتِئْثَارِ الْمُقَاتِلَةِ أَرْضَكُمْ ، وَالتَّعَرُّعِ لَكُمْ مِنْ كُلِّ شَعْلٍ ، وَالْإِثَارِ لِلْجِهَادِ كُمْ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ ، حَتَّى تَوْفِيُوا بِاللَّهِ وَأَنْتُمْ طَائِعُونَ أَوْ كَارِهُونَ ، وَتَوْذُّوْا الْحَرِيَّةَ عَنْ يَدِ وَأَنْتُمْ صَاعِرُونَ . فَكُونُوا عَلَى عِدَّةٍ مِنَ الْجَزِيَّةِ ، وَيَقِينُ مِنَ الْإِنْتِجَاعِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِهِ ، وَلَا صَبْرَ لَكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَإِنْ جُودَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَارْغَةُ كَثِيرَةٍ ، وَخِرَاسُهُ عَاصِرَةٌ وَافِرَةٌ ، وَنَفْسُهُ سَحِيحَةٌ بِإِيفَاقٍ ، وَبِيَدِهِ مُطْلَقَةٌ بِالذِّلِّ ، وَالْمُسْلَمُونَ بِسَاطِ الْيَكْمِ ، مَقْلُوبُونَ عَلَيْكُمْ ، قَدْ عَوَّدَهُمُ اللَّهُ فِي لِقَائِكُمْ عَادَةً يَرْجُونَ أَنْتِظَارَ مِثْلِهَا ، وَأَبْلَاهُمْ فِي قِتَالِكُمْ بِلَاءَ مِنْ أَمْثَلِهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكَتَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ نَذِيرَهُ بَيْنَ يَدَيْ حُدُودِهِ ، وَمُقَدِّمَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ حَيَوشِهِ ، إِلَّا أَنْ تَوْذُّوْا الْجَزِيَّةَ عَنْ التِّي دَعَاكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهَا ، وَحَدَاكُمْ وَمِنْ قِلِّكَ عَلَيْهَا ، رَحْمَةً لِلضَّعْفَاءِ الَّذِينَ لَا تَرْحَمُهُمْ ، وَتَوْجَعًا لِلسَّائِكِينَ مِمَّا لَا تَوَجَّعُ مِنْهُ لَهُمْ مِنَ الْحُلَاءِ وَالنِّسَاءِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ ، وَقَسَاوَهُ مِنْ قُلُوبِكُمْ ، وَأَثَرَةٍ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَأَعْتَصَامًا بِمُحَاطَتِكُمْ ، وَإِجْلَاءً لِعَوَامِكُمُ الضَّعْفَاءِ الْفُقَرَاءَ الْمَسَاكِينَ الَّذِينَ لَا تَمْنَعُهُمْ قُوَّةٌ ، وَلَا تَدْفَعُونَ عَنْهُمْ بِحِيلَةٍ ، وَلَا تَرَاقِبُونَ فِي الرَّحْمَةِ لَهُمْ وَالتَّعَطُّفِ عَلَيْهِمْ ، أَدَبَ الْمَسِيحِ إِيَّاكُمْ ، وَقَوْلَهُ فِي الْكِتَابِ لَكُمْ : ” طُوبَى لِلَّذِينَ يَرْحَمُونَ النَّاسَ ، فَإِنْ أُولَئِكَ أَصْعَمَاءُ اللَّهِ وَبُورَى سَى آدَمَ “ .

وَأَيُّمَ اللَّهُ لَوْ يَعْلَمُ مَنْ قِلِّكَ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالرَّرَاعِيْنَ وَالْفُقَرَاءِ وَالضَّعْفَاءِ وَالْعَمَلَةَ بِأَيْدِيهِمْ ، مَا لَهُمْ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِتَحَدُّرِهِ عَلَيْهِمْ وَأَقْلَابِهِ إِلَيْهِ ، مِنْ إِيْوَانِهِمْ ، وَإِرْطَابِهِمُ الْأَرْضَ الْوَاسِعَةَ ، وَإِمْكَانِهِمْ مِنْ مَسَائِلِ الْمِيَاهِ السَّائِغَةِ ، وَالْعَدْلِ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا تَبَاغُهُ أَنْتَ وَلَا تَقَارِبُهُ ، رَفَقَاهُمْ وَنَظَرُوا لَهُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، مَعَ تَحْلِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ ، لَا يُكْرَهُهُمْ عَلَى خِلَافِهَا وَلَا يَحْدَرُهُمْ عَلَى

غيرها ، لأحتاروا قرب أمير المؤمنين على قريك ، وجواره على جوارك ، ولأفقدوا أنفسهم^(١) وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة . فأتق الله وأقل ما عيرض عليك من الخزية ، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكك . ومحى على رحاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الورثة فبهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية إليهم حية ولا بقيصة ولا عار ، والذين يؤمن لكم بما يعقدون ، ويتبعون معلمهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين محاسة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقسط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، بطراً لدينه وحقاً من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، وآفاق الأفئدة ، والبصائح في السر والعلانية ، وما عوّده الله ممن نصب له بمجادبة ورماء بمكايدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر الممين . فأنزل من الخزية ما شئت ، وسّم منها ماهويت . وأعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم . وإنه إما كان قول المهدي — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى في المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فاما اليوم اد استأنف له عدركم وتقصمكم وكنتمكم واستخفافكم بديكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم . إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، ان شاء الله . ولا حول بأمر المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من أتبع الهدى .

(١) في الأصل . " ولأبدلوا ... " . (٢) كذا في الأصل وهو عرواح ولعل أصل الجملة " ولا يمنعك اشتغال ما به ... الخ " سقط هذا أو محوه سهواً من النسخ . (٣) كذا في الأصل .

٣ - رسالة يحيى بن زياد فى تقرير الرشد

أما بعد، فإنى أسأل الله لأمر المؤمنين فى عار أموره، أحسن ما عوده فى سالفها من السلامة التى حرسه بها من المكاره، والعز الذى قهر له به الأعداء، والبصر الذى مكّن له فى البلاد، والهدى الذى وهب له به الحجة، والرفق الذى أدّر له به الحلب، والاستصلاح الذى آتت له به الرعية، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به منه، أهدى خلفائه فى الخير ذكراً، وأبواقهم فى العدل أثراً، وأطولهم فى العمر مدةً، وأحسنهم فى المعاد موقلاً.

ثم تحمد الله الذى جعل نعمته على أمير المؤمنين شواهد منه على منزله مسه ومكانه عنده، لا يحتاج معها إلى شهادات المؤمنين، ولا صفات المقرطين، ثم جعل ذكر نعمته على أمير المؤمنين ومناصحتها والمجاهدة لمن كادها فريضةً أوجبها على العباد، ومحبةً أمتحنهم بها، وفرقاً ميز به بينهم، من أصبح من رعيته أكثر شغله أن يستعمل لسانه فى صيغته، وذكراً بحاسده وفصائله، ووجوب حقه وطاعته، فقد أصبح أثراً أولى الأمور وأحسنها معبةً فى دياره ودينه، ومن بدل ذلك عن قدره عليه، ودفعه بعد معرفة، فلم يدعه إلا عن حذلان حاق به، أو بدعه آسمائه، كانت حجة الله لأمر المؤمنين عليه هى الكافية لمؤنته. وقد كان علماء الناس وجهاً لهم يسوون فى عام المعرفة بفصل أمير المؤمنين، فأما الخاص فلاهل الفصل فيه فصلهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصحوا وهم فيه على منازل ثلاث: حاسدٌ تحب الحسد بصره عن مواقع الصواب أن يراه، والعمى أن يشكرها. والحق أن يؤدبه، وكانت معرفته عليه وآلاً، وحسده إلى الصبره قائداً. أو ذو هوى قاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الصلابة من الجماعة، فهو عرضة لسوء الأدب أو سيف النكال، لم يوحش الله أحداً بفقدته، ولم يعز أحدًا بموالاته. وموفقٌ معصوم استنفده [الله]

مؤالاة أمير المؤمنين من عل الحسد وبدع الآراء وجبله على صحّة الهوى ، فهو إن نظّر فبعينه ينظر ، وإن قال بلسانه يقول ، لا يأمن حتى يعلم أن أمير المؤمنين قد استوطأ مهاد الخفض ، ولا يزال له طليعة رأيي توي على خطه حرم وعامص فطة ، تغلغل الى لطيف مفعته و [تكون] سهم مكيدة محو عروة ، قد علم أن يوم أمير المؤمنين يومه ، وأن عدّه غده ، فهو وإن تمرّض لأداء الحق في بصيحته بنظر لنفسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه . وقد رجوت بالقرابة التي جعلها الله لي به ، والواجب الذي عرفته من حقه ، والعظيم الذي حملته من معروفه ، ألا يكون أحد ينظر اليه عين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله مني ، فإن أبلغ الذي أردت فتوفيق الله ، وإن أقصر فمن مثلي ما حاولت قصر المجتهد .

فاؤل ما أنا دائره من فصله : أن الله قدم له الصنع في سابق علمه ، لجعل محتده حير المحاد عنصراً ، ثم أختار له أباً فأنا لا يقله من أب الى أب إلا قل معه وإليه فضيلة العصر الذي هو منه حتى صيره بعد فصائل آبائه الى أفصل بدنه ، فكان حير حليف من حير سليف ، وأفصل ولد من أفصل أئمة ، وأزكى إمام من أزكى أئمة ، ثم أختار له مكارم الأخلاق ، وألبسه جمال الصورة ، فلا علم نحن ولا آناؤنا حليمة أسد في حلمه من ذل ، ولا في هيئته من تجبر ، ولا في شدته من عفف ، ولا في لينه من وهن ، ولا في أناته من عقلة ، ولا في اقتصاده من مجل ، ولا في بذله من إضاعة ، ولا أرق وجهها عند لقاء ، ولا أحسن بشرها عند تحية ، ولا أعزّر دمعاً عند موعظه ، ولا أليّن قياداً عند تذكيره بالله .

(٢) ثم أفصت اليه الخلافة وى المال ما فيه من القلة ، وى الناس ما فيهم من الإحراج ، فما دفع عن مال يعطيه عن قلة ، ولا قطع عادة توسعة على رعيته ، ثم استندز الحلب برقه ، فكلما دز له منه شخب فوقه طائفة من جنده حتى سقاهم بعد التفويق رياء ، وبعد النهل

(١) وى الأصل "عورة" . (٢) الاحراج . الصيق وى الأصل . "الاستخراج" .
(٣) الشخب (بالصم) : مارج من تحت يد الحالب عدد كل عمرة وعصرة للصرع . (٤) فوقه الشئ .
أعطاه إياه قليلاً قليلاً .

عَلَا؛ ثم ساس رعيته بالين السياسة فعفا عن مذهبها ولو شاء لَعَاقَبَ، وَأَمَّنْ خَائِفَهَا ولو طاب لَأَذْرَكَ، ودَمَعَ بالحسنة السيئة ولو كَافَا لَقَدَّرَ، مَا رِيحُ صُغِّعَ اللهُ لَهُ يَقْصُ جُمُوعَ الصَّلَاةِ لِمَا قَاتَلَ، وَيُغْزِلُهُ النَّصْرَ لِمَا كَثَّرَهُ، حَتَّى فَرَعَ بِشْمَلِهِ مِنْ كَانٍ لَا يَهْرَعُ مِنَ الزُّرَّاءِ، وَبِامٍ بِسَهْرِهِ مِنْ كَانٍ لَا يَنَامُ مِنَ الْعَامَّةِ، وَأَطْمَأْنَنْتُ مِمَّا آتَتْهُ لِلْأَسْفَارِ دَارٌ مِنْ كَانٍ لَا يَنَالُ الْخَفْصَ مِنَ الْجُودِ حَتَّى اسْتَوْطُوا مَرَكَبَ الْأَمْنِ فَكَلَّمَهُمْ صَبِيحٌ بِمَقَارِفَتِهِ. أَمَا ذُو الْيَةِ فَرَكَّ إِلَى الْقَفْصِ. وَأَمَا مِنْ لَا يَبْدِلُهُ فَعَمَلٌ مَا كَانَ يُؤَحِّدُ بِهِ مِنَ الْاسْتِكْرَاهِ. وَأَمَا الْحَشَرُ مِنَ الْحَدِّ وَالرَّعَاةِ فَلَمَلَتْ عَلَيْهِمْ عَادَةُ الْهُوْنِيَا، حَتَّى لَوْ رَأَيْاهُ يَجِدُهُ الْأَمْرُ مَا يَحْدِلُهُ الْأَمْرُ عَنَّا عَمْدَهُ وَلَا شَاطَا وَلَا حِدَا إِنْ وَكَلَهُ إِلَى قُوَّتِهِ، وَقَوَاهُ بِمَالِهِ.

فلما رأى ما رأى من تحاذيل العاقبة، وتواكلي الجود، وزور الهوى، ومحمود الخلف، وأستكلاب العمال على الحيانة، وبرجأة الرعية على مع الحق، ومال المرائع بكثير من الناس عن القصد، فتحركت الأهواء، واستعرت يراؤ العصبية، وحاشت صدور الحسدة وأشياهم بالأمانى، وطبوا أن لا شدة معه، وأن عموه لا تكير بعده، وأمير المؤمنين يرمقهم عين بصيرة، وأدنى مصيحة، وقلب يقطان، وقد وقر الحليم أن يحف لأول وادى السعفاء، فهو ينتظر المذبر أن يقل، والمائد أن يعتدل، والمفلوب على رأيه أن يتدكر فيصير، شمرى إثرهم تسمير من قدم الروية قس العحلة، والعوق قس العقوبة، والتثبت قس الإقدام، فانخذ روابط ألتجها على الجسد والنشاط، ليست لهم سواي تدعوهم إلى الإدلال، وتسمو بهم إلى كثير لم ينالوه، إنما همهم أن يتفاضلوا في السعدة، ويستنجوا بالعاء، ثم ترقهم على خواص حدمه، فإذا أراد أن يداول بهم فرصة ممكنة، أو عدوا عاط، أو راتق قتي قبل الساعة، يعمس يديه إلى أيهم أراده، فيمقد لأمره ولم يشره فيه مشير، ولم يجرح به بوقع، ولم يحص فيه عاقبة، ولم يطلع منه على مكيدة، فلم يعلم أننا رأيا جذا

(١) في الأصل « مما آتته » . (٢) في الأصل « إن وكله إلى قوته ولا نشاطا ولا حدا وقواه

بماله » . (٣) عاط . دخل .

أسرع نهضةً إذا مَرَّوا ، وأحسن إجابةً إذا دُعُوا ، وأفضل غناءً إذا استكفُوا مِنْ جُنْدِهِ .
ثم قصَّدَ سمسه حتى مثَّلَ يَبَّ الواحى الى اهتِمالِها لَه فسادًا فى البَيْصَةِ ، وانتقاصًا من
الأطراف ، فأتى ناحية السَّام فوطِئَها وطَّاءَ جمع الله بها لهم شَتَاتَ الفُرقة ، وأحمد بها بينهم
مار الفتنة .

وأما الجزيرةُ فإنَّه ألغاهَا وهى كالجُرْحِ الغِل ، فاستأصل الله به منها شَافَةَ الداءِ ، وأطفأ به
عها نوادرَ السَّهواءِ ، وحترَّ أمير المؤمنين من معرله الذى هو به منزلاً جمع من بسْطَته
فى الموضع ، ورَفَاهِيته فى المعاش ، أنه حاملٌ للحدود ، جامعٌ للرافِق ، فاشترَّ أمره أمرًا أمرًا ،
حتى إذا استُدِّرِله منها مُبرَمٌ ، استَقْبِلَ بعده حُسَامٌ مُسْتَقِصٌّ ، وإذا أشخس من نوره نمرًا
لم يَرِضَ حتى يفتتحَ من حصون أعدائه حصصًا ، وإذا قصي الله عنه حِجَّةٌ ، وصل خطوه
مها عِزًّا ، ثم رأيا ما عَزَمَ الله به عليه من ترك الصَّوائِفِ مُراقبًا للذى كان من عُمُوطِ
أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة ، فلم تَشْكُكْ فى أنه توفيقٌ من الله له وافقُ تخطُّأِ
عليهم حتى استباحوا الحَرَمَ ، وتَسَافَكُوا الدماءَ ، وقصُّوا ما بينهم من مُبرَمِ حَبْلِ الإسلام .

ومن ذلك أن أرمينية كانت فيها جودٌ تُحَرِّحُ عليهم أطماغٌ تحمل اليها ، بعد أعتاقهم
بإخراجهم الأموال من كُور الشام ، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا ، فلم يتوكل على الله فى أمر
فوكَّله الى نفسه ، ولم يكتفِ به فى حفظ طَرَفٍ أو قاصيةٍ تُغْرِى لأكفاه مؤونته ، وعلم أن
ما يرحل من أصعاف العافية من عوارص اللَّيل ، إنما هو بتقدير من الله لا يتمتع بعذر ،
ولا يُستطاع دفعه بحيلة . يصيبُ به أقوامًا بالبلايا والتحصيص ، ويقسم فيه لأقوام الأجر
والجهاد والسعادة ، فرأى أبى فى عاجل ما يرفع عن أهل أرمينية من صرر ومؤوتهم
ونمطهم معًا للرعبة ، وإحمالًا للقيء ، ورَفَقًا بالعامة مع اقتصاده فى الأبواب على أكثاف
مجبتيها ، وى سائر أرمينية على المُقَاتِلَةِ من أهلها ، ولم يَزَلْ مدِّ أراه الله ذلك ، يكفيه مؤونة
ذاك الثغر ، ويكفُّ عنه وائِقته ، حتى كأنه فى هُدوء الأحداث عنه ، وسُكُونِ الأفتدة من

رَوَعَاتِهِ مَضْرُومٍ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَإِسْطُ الْحَلَّةِ مَأْمُونٌ النَّازِةِ . فَلَمَّا آغْنَمَ خَاقَانُ مَا آغْنَمَ ، وَاتَهَزَّ
الْفُرْصَةُ مُبَادِرًا ، لِمَا قَدْ أَقْبَنَ مِنْ مَعَالِجَةِ الْمُؤْمِسِينَ إِيَّاهُ ، فَكَانَتْ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ إِعْطَاةِ
إِيَّاهُ بِسَبَبِهِ لَهُ ، وَمَا أَنْصَبَ فِيهِ مِنْ بَذْنِهِ ، وَأَشْهَرَ فِيهِ مِنْ لَيْلِهِ ، وَأَنْصَبَ فِيهِ مِنْ هِمَارِهِ ، لَمْ يَعْلَمْ
الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَشْتِنَاهِهِ فِي الْأَرْمِيَةِ الْمَاصِيَةِ قَوْلَهُ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ لِحْدُ عَالَمٍ ، غَيْرَ أَنَّ حَيَاتِهِ
لِلْإِسْلَامِ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِ وَأَمْتَاعِهِ مِنْ أَنْ يُتَنَاوَلَ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ ، قَدْ زَادَ ذَلِكَ عِنْدَهُ قُدْرًا
فِي الْعِظَمِ ، وَتَعَاقُفًا فِي الْخَطْبِ ، حَتَّى أَكَلَ النَّعْتُ مَا كَثَرَ الْعَدَدُ ، وَأَكَلَ الْعُدَّةُ ، وَأَسْتَقْبَلَ
أَهْلَ الْكُورِ وَالْأَمْصَارِ ، وَدَبَّ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَنْ لَمْ يَتْرِكْ بَعْدَهُ نَهَايَةً فِي التَّحْيِيرِ ، وَكَانَ
قَدْ صَرَفَ بَالَهُ إِلَى هَذِينَ الثَّقَرَيْنِ مِنَ الْخُرَرِ وَالرُّومِ ، وَإِلَى هَذِينَ الْعَدُوِّينِ الْمَحَارِبِينَ لَهُ مِنَ
الْمَارِقَةِ الْمُتَعَصِّةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ اللَّهُ فِي إِحْكَامِ أَمْرِهِمَا مَا بَلَغَ ، لَمْ يَسْتَعِنِ عَنِ إِعَادَةِ الظُّلْمِ فِي أَمْرِ غَيْرِهِمَا مِنْ
نَوَاحِيهِ لِيَسْتَبْرَأَ بِهِ ، وَإِرَادَتِهِ فِي أَقْوَامٍ يُدَافِعُ ظُلْمَهُمْ بِهِ فِي أُخْرَى ، وَعَلِمَ غَيْرُهُمَا أَنَّ مَا شِئِلَ
مَنْ بِمَدِيَةِ السَّلَامِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْفَرَاحِ نَتِيجَةُ مَكْرُوهُةٍ ، فَشَحَصَ عَمَّا لِنَحْقِيقِ ذَلِكَ مُؤَثِّرًا
لِأَبْعَضِ وَطْنَيْهِ عَلَى أَحَبِّهِمَا وَأَخْشَنَ عَيْنَيْهِ عَلَى أَلَيْهِمَا ، فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ الْعَوْرَةُ أَقْدَمَ إِقْدَامًا
ذِي الْمُخْمَةِ ، فَلَمْ يَرْمِلْهَا نَارًا خَتَتْ ، وَبَحَاةً أَفْشَعَتْ ، لَمْ يَسْفِكْ بِهَا دَمَ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ صَرَا ،
وَلَمْ يَنْتَهِكْ فِيهَا حُرْمَةَ مُحَرَّمٍ إِباحَةً .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بَسَطَ يَدَهُ بَسْطَ مَنْ يُرِيدُ الْإِسْتِصْلَاحَ لَا مَنْ يُرِيدُ الْإِنْتِقَامَ ، فَلَمْ يَلْبَثِ الظَّالِمُ
أَنْ رَجَعَ عَنْ طَلْعِهِ ، وَالْبَاطِلُ أَنْ صَمَتَ عَنْ بَذْعِهِ ، وَالْبَاكِتُ أَنْ رَجَعَ إِلَى قَصْدِهِ ، وَأَزْدَادُ
الْبِرِّ عَلَى الْبِرَاءَةِ فَرِحُوا ، وَالسَّالِمُ بِالسَّلَامَةِ أَغْتَابَطَا ، وَلَمْ تَزَمْ مِثْلَهُ فِيمَا أَفْصَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ
حِلَافَتِهِ ، وَحَمَلَهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ ، أَمَا لَيْلُهُ بِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ فِيهَا وَاسْتِعَانَتِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهَا فَسَاهَرُ ،
وَأَمَا تَهَارُهُ فِي حَلَبِ قَيْثِهَا وَإِحْكَامِ أُمُورِهَا قَتَبُ ، وَأَمَا صَدَقَاتُهُ عَلَى فُقَرَائِهَا وَأَهْلِ الْحَاجَةِ
بِخَارِيَّةٍ ، وَأَمَا عَمَلُهُ مِنْ فُقَهَائِهَا وَصُلَحَائِهَا فَنَاقُصٌ ، وَأَمَا عِلْقَتُهُ عَلَى طَالِمِهَا مُعْتِدَةٍ ، وَأَمَا
أَفْضَالُهُ لِمَظْلُومِهَا مُبْسُوطَةٌ ، وَلَوْ أَنَّ كَانَتْ الْحَقُّ أَلْزَمَ أَقْوَامًا اسْتَوْجَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَمَاوَاهِمٍ ،

إنا لنعلم أن ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفف من الوطء على أقوام لجل الواحد منهم مثل الذى حمله للجميع ، ولكنه رضى بالعمو، وبعثاً نفساً عن الاستقصاء، فأوجب أن يتسبط يداً بعظلة ويتبعها أخرى بليين؛ فكان من ذلك نظره فى هذه القاياء التى هى فى المسلمين ومأل الله ، غير أن الله جعله قيمة فيه ، وفى أحده وصرفه فى وحوه ، فلما رأى ضراوة الحال بها ومصائبهم دونها ، وأن قد صارت كالسنة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورعاً ، ولا شريفهم تنزهاً ، أحب مع توفيره للمسلمين فيهم ، أن تحدث لهم أدماً يقطع به عنهم أهل الضراوة ، ويعرف به ذوو الاستحقاق بالأمانة ، والأمر للثقة ؛ أن عليهم من تقده وأديه عينا ترقى ، ويبدأ تقيض ، ولو أنه حين هم بأحد تلك القاياء حمل على المؤسر بقدر يساره ، وأحد المفسر بطاعته ، كان قد أنصف ، كلاً ! ولكنه أحب أن يستبقى قوة ، ولا يبلغ من المكثير حثداً ، وأقصر بهم على العشر من ذلك ، كرمًا فى القدره حين رأى موضع الرقى ، وتعالى عن العلة حين عرف مكان القدر ، فأى نعمة أعظم ، وأى بلاء أحسن من هذه القاياء كانت فى أيديهم جُمًا ، فلما أطلع طلعمها ، وأخذ ما أخذ ، وترك ما ترك ، محلاً مع ما جعل الله فى ذلك من [كلمات] المقصر من الحال المؤذية التى لم تكن تعدوا أفواهم ، فليس منهم أحد إلا وكان مسه له واعط ألا يكسر شيئاً من الخراج تضييعاً ، أو يأخذ عُلُوًّا (٤) أو ينفقه إسرافاً ، أو يتركه إرهاباً .

فلما تفرغ من علاج الداء الخوف وآسأصله ، ومن التى المتفرق بجمعه ، ومن الأمور المعطلة فأحكها ، استخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ ، ولا لين عن تشدد ، ولا يستحل الأ كف عن نقض ما أبرم ، ولا مزاوله ما أحكم ، ولا فتح ما أغلق ، ولا إغلاق ما فتح ، فلان حيرة أبويه ، ومخ يبيضته ، وجوهر أرومته ، الفاتت سبقاً ، البين عدواً ، الراضع عرقاً ، المنفجر بجرأ ، المحمود أمراً ، القائل فصلاً ،

(١) الصراوة : الهج بالنى . والإجراء به . (٢) فى الأصل : « لم » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وضعنا هذه الكلمة لأنها تنفى والسياق ، ومكانها فى الأصل يابس . (٤) العلول : الطعام أو الشراب

الذى يدخل فى الجوف .

الحاكم عدلاً، ثم أنصرف بما أفاده الله من الأجر إلى جناحه الذي كان مده على من خلف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سيلة صُلبه، وثمرة قلبه، المُحتك مع قَواءِ سِسته عَقلاً، والمأمون مع شِدّة شِكيمته حَمَلاً، والمحصد مع لينه وتعطفه أُمراً، الشبيه بأمير المؤمنين إن تَلَقَّ نُطْقاً، وإن نَظَرَ لَحْطاً، وإن سُئِلَ جُوداً، وإن اهتصر عُدوداً، وإن ساس رِقْطاً، وإن غَصَبَ حِلْماً، وإن وَصَفَ عِلْماً، وإن كَلَّمَ قَهْماً، وإن قَدَرَ عَفْواً، وإن لَقِيَ بَشْراً، وإن نازع قُلُوباً، وإن قَارَعَ ظُفُوراً، فكان عد ظله به، رِعايةً لِلْعُرْمَةِ، وَحَرَمًا في المَكِيدَةِ، وَحَلْبًا لِلْفِيءِ، وَحِياطَةً لِلْغَائِبِ، ومباشرةً للشاهد، هذا قليلٌ من كثير. مَّا جعلك اللهُ أَهْلَهُ، وإنما أَقْتَصَرْتُ عليه لأني رأيتُ المتكلمين من الخطباء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببتُ أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كُلِّ أَمْرٍ عَمِلَ به في رعيته حِجَّةٌ واضحة، وعذراً معروفاً، إن قام به متكلِّمٌ في خَاصَّةٍ حَسُسَ مَوْقِعُهُ، وإن قُرئ به كِتَابٌ في عاقبة، قَوِيَتْ به حِجَّتُهُ.

والحمد لله الذي جعله وذريته أولياء هذه النعم، والمخصوصين بهذه المصائل، ونسأله أن يُبَيِّنَهُ وإياهم للدين الذي سَدَّ بهم عَوْرَتَهُ، والحق الذي أَقْرَبَهُمْ جَادَتَهُ، والعدل الذي أَوْضَحَ بهم أَعْلَامَهُ، حتى يكونوا وَرَثَةً هذه الأُمة وحلفاءها في عابر الدهر، وناقيات الأيام، مستقّلين بالعدل، موفّقين للسداد، معصومين من الشُّبُهَاتِ، مُسْتَوْحِينَ مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المَعَادِ. والسلام.

(١) هذه الرسالة ورسالة أبي الربيع محمد بن الليث الساحة من كتاب اختيار المطوم والمنور لابن طيمور.

كتب الرشيد

١ - كتاب عهد البيعة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحبة من عقله ، وحوّاز من أمره ، طائفاً عن مكره ، إن أمير المؤمنين ولّاني العهد من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً ، وولّى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين بعدى ، برصاً متى وسليم ، طائفاً عن مكره . وولاه خراسان وثغورها ، وكورها وحربها ، وجندّها وحراحها ، وطرازها وبريدها ، وبيوت أموالها وصداقاتها ، وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها في حياته وبعده ، وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برصاً متى وطيب نفس ، أنّ لأخى عبد الله بن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين : من العهد والولاية والخلافة ، وأمور المسلمين جميعاً بعدى ، وتسليم ذلك له وما حُجل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة ، أو جعل له من عقده أو صبيغة من صياعه ، أو ابتاع من الصبياع والعقد ، وما أعطاه في حياته وصحته من مال ، أو حُلّي أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو منبر أو دواب ، أو قليل أو كثير ، فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موقراً عليه مسلماً له . وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً ، فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة الى محمد بن محمد بن محمد ، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين ، في توليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ، ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين^(٢) ، وأن يمتصى عبد الله بن أمير المؤمنين الى خراسان والرّي ، والكور

(١) هذا العهد ورد في تاريخ يعقوب (ح ٢ ص ٥٠٢ طبعه ليد) وبه عبارات تحالف ما أشتاهها

عن الطبري . (٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وعيره ،
من سلطان أمير المؤمنين ، وجميع من صم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرى .
الى أقصى عمل خراسان ، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عه قائدا ولا مقودا
ولا رجلا واحدا ممن صم إليه من أصحابه الذين صمهم إليه أمير المؤمنين ، ولا يحول
عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من ثور خراسان
وأعمالها كلها ، ما بين عمل الرى مما إلى همدان الى أقصى خراسان ، ونعورها وبلادها ،
وما هو منسوب إليها ولا يخصه إليه ؛ ولا يفرض أحدا من أصحابه وقواده عه ، ولا يؤتى
عليه أحدا ، ولا يعث عليه ولا على أحد من عماله وولاه أموره ^(١) بتدارا ولا محاسا ولا عاملا ،
ولا يذلل عليه في صغير من أمره ولا كبير صررا ، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله
برأيه وتدييره ، ولا يعرض لأحد ممن صم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته ، وقصاته
وعماله ، وكتابه وقواده ، وحدمه ومواليه وجده ، بما يلتمس إدخال الصرر والمكروه عليهم
في أنفسهم ، ولا قراباتهم ولا موالبهم ، ولا أحد يتنسل منهم . ولا في دمائهم ولا في أهولهم ،
ولا في صبايعهم وذورهم ، ورياعهم وأمتهم ، ورفيقهم ودوابهم ، شيئا من ذلك صغيرا
ولا كبيرا ؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه ، وبتحريض له في ذلك ، وإدهان منه
فيه لأحد من ولد آدم ، ولا يحكم في أمرهم ، ولا أحد من قصاته ومن عماله ، ومن كان
بسبب منه ، غير حكم عبد الله أس أمير المؤمنين ورأيه ورأى قصاته ، وإن نزاع إليه أحد
ممن صم أمير المؤمنين الى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته ،
وقواده وعماله وكتابه وحدمه ، ومواليه وجده ، ورفص آسمه ومكتته ومكانه مع عبد الله
ابن أمير المؤمنين ، عاصيا له ، أو مخالفا عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده الى عبد الله
أس أمير المؤمنين ، بصغيره وقماء ، حتى يُقعد فيه رأيه وأمره ، فإن أراد محمد أس أمير المؤمنين
حلح عبد الله أس أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عزّل عبد الله أس أمير المؤمنين

عن ولاية خراسان ، ونعورها وأعمالها ، والدى من حد عملها مما بلى همدان ، والكُور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا ، أو صَرَفَ أحد من قواده الذين صتمهم أمير المؤمنين إليه ، ممن قديم قَرَمَاسين ، أو أن يَنْقِصَه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلة من الحِيل ، صَعُرَتْ أو كَبُرَتْ ، فَلَعَبَدَ الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو الْمُقَدَّم على محمد بن أمير المؤمنين ، وهو وليُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العطاء ، وجميع المسلمين وجميع الأجداد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيام معه ، والمجاهدة لمن خالفه ، والنصر له والذِّتُّ عه ، ما كانت الحياه في أمدانهم ، وليس لأحد منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يحالاه ولا يعصيه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين وحلَّ عه الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصَرَفَ العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، في حياته وصحته ، واشترط في كتابه الذي كَتَبَه عليه في البيت الحرام ، وفي هذا الكتاب ، وعبدُ الله بن أمير المؤمنين المصدق في قوله ، وأتم في حلٍّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، إن نقص شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ، ويُسَلِّمَ له الخلافة ، وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله بن أمير المؤمنين ، أن يحلَّما القاسم بن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدمَا عليه أحدا من أولادهما وقراباتهما ، ولا غيرهم من جميع البرية ؛ فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمرُ إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صَرَفَ ذلك عه إلى من رأى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، وتخصير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحب ورأى ، فعليكم تمسُّر المسلمين إنفاذا ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ؛ وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهدُ الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذم المسلمين ، واليهود والمواثيق التى أخذ الله على الملائكة المُقرَّين والنبِيِّين والمرسلين ، ووَكَّدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتَفَنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سَمَّى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سَمَّى ، وكتب فى كتابه هذا وأشترط عليكم ، وأقررت به على أنفسكم ، فإن أتم بدلتكم من ذلك شيئا ، أو عيتم أو نكحتم ، أو حالقتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، وأشترط عليكم فى كتابه هذا ، فَبَرِئْتُ منكم ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذم المؤمنين والمسلمين ، وكل مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يَسْتَعِيدُهُ إلى خمسين سنة فهو صدقةٌ على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المُنْتَهَى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حجة ، نذرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلّا الوفاء بذلك ؛ وكلُّ مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يُسْتَقْبَل إلى خمسين سنة حرٌّ ، وكلُّ امرأة له فهى طالق ثلاثا التّة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها ، والله عليكم بذلك كميلٌ وراعى ، وكفى بالله حسيبا .

٢ — نسخة الشرط الذى كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

بخط يده فى الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، فى صحفه من عقله ، وجوارٍ من أمره ، وصِدْقُ نيةٍ فيما كتب فى كتابه هذا ؛ ومعرفة بما فيه من الفصل والصلاح له ولأهل بيته وحاميه المسلمين .

إن أمير المؤمنين هارون ولّاه العهد والخلافة ، وجميعَ أمور المسلمين فى سلطانه ، بعد أخى محمد بن هارون ؛ ولّاه فى حياته ثُنُورَ خراسان وتُورِها وجميعَ أعمالها ، وشَرَطَ على محمد بن هارون الوفاء بما عَقَدَ لى من الخلافة ، وولايةِ أمور العباد والبلاد بعده ، وولايةِ خراسان وجميعَ أعمالها ، ولا يَعرِضُ لى فى شيء مما أَعْطَانِي أمير المؤمنين ، وأبتاع لى من الضِّياع والعُقَد والرِّباع ، وأبتعتُ منه من ذلك ، وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال ، والجواهر واليكساء ، والمتاع والدواب ، والرقيق وغير ذلك ؛ ولا يَعرِضُ لى ولا لأحدٍ من

عَمَالِي وَتُكَلَّى سَبَبِ مُحَاسَنَةِ، وَلَا يَتَّبَعُ لِي فِي ذَلِكَ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَبَدًا؛ وَلَا يُدْخِلُ عَلَيَّ وَلَا عَلَيْهِمْ، وَلَا عَلَيَّ مِنْ كَانَ مَعِيَ، وَمَنْ أَسْتَعِثْتُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَكْرُوهًا فِي نَفْسٍ وَلَا دَرَمٍ وَلَا شَعِيرٍ وَلَا بَشِيرٍ وَلَا مَالٍ، وَلَا صَغِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَلَا كَبِيرٍ، فَأُجَابُهُ إِلَى ذَلِكَ وَأَقْرَبُهُ، وَكُتِبَ لَهُ كِتَابًا أُكِّدُ فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَرَضِيَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ، وَقِيلَ وَعَرَفَ صَدَقَ نَيْتُهُ فِيهِ؛ فَشَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلْتُ لَهُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَسْمَعَ لِمُحَمَّدٍ، وَأُطِيعَ وَلَا أُعْصِيهِ؛ وَأَنْصَحَهُ وَلَا أَعِشَّهُ، وَأَوْقَى بِلَيْعَتِهِ وَوَلَايَتِهِ، وَلَا أَعْدِرُ وَلَا أُنْكُثُ، وَأُنْقِذُ كُتْبَهُ وَأُمُورَهُ، وَأُحْسِنُ مُؤَاوَزَتَهُ وَجِهَادَ عَدُوِّهِ فِي مَا حَبْتِي. مَا وَفَّقَ لِي بِمَا شَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِي، وَسَمَّيْتُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَضِيَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يَتَّبِعْنِي بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي شَرَطْتُهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِي عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْتَاجُ مُحَمَّدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى جُنْدٍ، وَكُتِبَ إِلَيَّ بِأَمْرِي بِإِشْحَاصِهِ إِلَيْهِ، أَوْ إِلَى مَا حَبْتِي مِنَ الْوَاخِي، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَائِهِ حَالَهُ، أَوْ أَرَادَ نَقْصَ شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ أَوْ سُلْطَانِي الَّذِي أَسْتَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ، وَوَلَّانَا إِيَّاهُ، فَعَلْتُ أَنْ أُنْقِذَ أَمْرَهُ، وَلَا أَحَالِفُهُ وَلَا أَقْصُرُ فِي شَيْءٍ كُتِبَ بِهِ إِلَيَّ؛ وَإِنْ أَرَادَ مُحَمَّدُ أَنْ يُوَلِّيَ رَجُلًا مِنْ وَلَدِهِ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي، فَدَلَّكَ لَهُ مَا وَفَّقَ لِي بِمَا جَعَلْتُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ، وَأَشْرَطْتُ لِي عَلَيْهِ، وَشَرَطْتُ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَمْرِي، وَعَلَى إِعَادَةِ ذَلِكَ وَالْوَفَاءِ لَهُ بِهِ لَا أَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أُغَيِّرُهُ وَلَا أُنْزِلُهُ وَلَا أَقْدِمُ قَدًّا أَحَدًا مِنْ وَلَدِي وَلَا قَرِيبًا وَلَا بَعِيدًا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، إِلَّا أَنْ يُوَلِّيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونُ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِي، فَيُزِيلَنِي وَمُحَمَّدًا الْوَفَاءَ لَهُ، وَجَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا شَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا، مَا وَفَّقَ لِي مُحَمَّدٌ بِجَمِيعِ مَا اشْتَرَطْتُ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي، وَمَا أَعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُسَمَّاةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِي؛ وَعَلَى عَهْدِ اللَّهِ وَمِيثَاقِهِ، وَذِمَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِمَّتِي، وَذِمَّةِ آثَانِي وَذِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَأَشَدُّ مَا أَحَدُ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ حَلْقِهِ أَجْمَعِينَ، مِنْ عَهْدِهِ وَمَوَاقِفِهِ، وَالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ بِهَا، وَنَهَى عَنْ نَقْصِهَا وَتَبْدِيلِهَا؛ فَإِنْ أَنَا تَقَضَّيْتُ شَيْئًا مِمَّا شَرَطْتُ

وسُميت في كتابي هذا، أو غيّرت أو بدلت أو نكثت أو عدت، وبُرت من الله عزّ وجلّ، ومن ولايته ودينه، ومجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكلّ امرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة، طلاق الحرج؛ وكلّ مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، ندراً واجبا علىّ في عُقّي، حافياً راجلاً لا يقبل الله مني إلّا الوفاء بذلك، وكلّ مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هَدْئاً بالغ الكعبة، وكلّ ما جعلتُ لأُمير المؤمنين، وشرطتُ في كتابي هذا لازمٌ لي، لا أُصمِر غيره، ولا أنوى غيره . وشَهِد سليمانُ بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان . وكتبَ في ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة .

٣ - نسخة كتاب الرشيد إلى العَمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله وليّ أمير المؤمنين ووليّ ما ولّاه، والحافظ لما أسترعاه، وأكرمَه به من خلافته وسلطانه، والصّاح له فيما قدّم وأتّر من أموره، والمنعم عليه بالصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكلّي والحافظ والكا في جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المستول تمام حُسن ما أمسى من قضائه لأُمير المؤمنين وعادته الجميلة عنده، وإلهام ما يرصّي به ويوحّ له عليه أحسنّ المزيّد من فضله، وقد كان من نعمة الله عزّ وجلّ عبد أمير المؤمنين وعبدك وعدّ عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله أبني أمير المؤمنين من تليعه بهما أحسنّ ما أملت الأُمّة ومدّت اليه أعاقفها، وقَدَف الله لها في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون اليهما والثقة بهما لِماد ديهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دَهمانهم ودفع المحدث والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزمّتهم، وأعطوهما بيعتهم، وصمغقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الإيمان المغلظة عليهم؛ أراد الله فلم يكن له مردّ، وأمنّاه فلم يقدر أحد من العباد على قصصه ولا إزالته، ولا صرّف له عن محبته ومشيلته، وما سبق في علمه منه؛ وأُمير المؤمنين يرجو تمام النعمة

عليه وعليهما في ذلك، وعلى الأمة كافة لا عاقب لأمر الله ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولم يزل أمير المؤمنين مند أجمعت الأمة على عقد العهد لمحمد بن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله أبى أمير المؤمنين من بعد محمد أبى أمير المؤمنين يُعْمَلُ فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاحُ لها ولجميع الرعية، والجمعُ للكلمة، واللمُّ للشعث، والدفعُ للشئات والعرقه، والحسمُ لكَيْدِ أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق، والعِلُّ والشفاى، والقطع لآمالهم من كلِّ فرصة يرجون إدراكها وأتهازها، منها بانتقاص حقهما، ويستَخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لها، ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وأنتلاف أهوائها، وصلاح دات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، وردَّ حسدِهم ومكرهم وتعيمهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزم الله لأمر المؤمنين على الشُّحُوص بهما الى بيت الله وأحد البيعه منهما لأمر المؤمنين بالسَّمْع والطاعة والإسعاد لأمره، واكتتاب الشُّرْط على كلِّ واحد منهما لأمر المؤمنين ولها بأشدَّ المواثيق والعهود، وأعطى الإيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما ألتبس به أمير المؤمنين أجماع ألفتها ومودتِها وتواصلُهما ومؤازرتِها ومكاتفتهما على حسن الطر لأنفسهما، ولرعية أمير المؤمنين التي أسترعاها، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسُنَّ نبيه صلى الله عليه وسلم، والجهاد لعدو المسلمين مَنْ كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كلِّ عدوٍّ مُطْهِرٍ للعداوة ومُيسِّرٍ لها، وكلِّ منافق ومارق، وأهل الأهواء الصَّالة المصلَّة من فرقة تَكِيدُ كَيْدَ تَوَقُّعه بينهما، وتدَحْسُ^(١) يَدْحَسُ به لها، وما يلتبس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء ديسه من الصَّرب بين الأئمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء الى البدع والصلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته، وأمه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وماسحةً لله ولجميع المسلمين، ودَآ عن سلطان الله الذى قدره وتوحد فيه للذى حمَّله إياه، والاجتهاد في كلِّ ما فيه قُرْبَةٌ الى الله، وما يُتَال به رضوانه والوسيلة عنده .

فلما قَدِمَ مَكَّةَ أَظْهَرَ لِمُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ وَمَا نَظَرَ فِيهِ لَهَا، فَقَبِلَا كُلُّ مَادَعَاهَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوَكُّيدِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِقَوْلِهِ، وَكَتَبَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَطْلِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِمَنْحُوطِ أَيْدِيهِمَا بِمُحْصَرٍ مِمَّنْ شَهِدَ الْمَوْسِمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوَّادِهِ، وَصَحَابَتِهِ وَقُصَّائِهِ، وَحُجَّةِ الْكَعْبَةِ وَشَهَادَاتِهِمْ عَلَيْهِمَا، كَتَابَيْنِ اسْتَوْدَعَهُمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحُجَّةَ، وَأَمْرٌ بِتَعْلِيْقِهِمَا فِي دَاخِلِ الْكَعْبَةِ؛ فَلَمَّا فَرَّغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ كَلَّمَ فِي دَاخِلِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَبَطْنِ الْكَعْبَةِ، أَمْرَ قُضَّائِهِ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمَا وَحَضَرُوا كِتَابَهُمَا أَنْ يُعْلِمُوا جَمِيعَ مَنْ حَصَرَ الْمَوْسِمَ مِنَ الْحَاجِّ وَالْعُمَرَاءِ وَوَفُودِ الْأَمْصَارِ، مَا شَهِدُوا عَلَيْهِ مِنْ شَرْطِهِمَا وَكِتَابِهِمَا وَقِرَاءَةِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لِيُقَهِّمُوهُ وَيَعُوَّهُ وَيَعْرِفُوهُ وَيَحْفَظُوهُ وَيُؤَدُّوهُ إِلَى إِخْوَانِهِمْ وَأَهْلِ لِدَائِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَقُرِئَ عَلَيْهِمُ الشَّرْطَانِ جَمِيعًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَانْصَرَفُوا وَقَدْ اشْتَبَهَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَأَثْبَتُوا الشَّهَادَةَ عَلَيْهِ، وَعَرَفُوا نَظَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِنَايَتَهُ بِصَلَاحِهِمْ، وَحَقَّنَ دِمَائِهِمْ وَلَمْ شَقَّعْهُمْ، وَإِطْلَعَاءَ بَجْرِهِ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَأَعْدَاءَ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ، وَأَظْهَرُوا الدُّعَاءَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالشُّكْرَ لِمَا كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ نَسَخَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذِيكَ الشَّرْطَيْنِ اللَّذَيْنِ كَتَبَهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ آبَاءَ مُحَمَّدٍ وَعَدِ اللَّهِ فِي بَطْنِ الْكَعْبَةِ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ هَذَا؛ فَاحْمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا صَعَّ لِمُحَمَّدٍ وَعَدِ اللَّهِ وَلِيَّيْ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكِرُهُ بِبِلَاتِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَدِ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَكَ وَعِدِ حِمَاةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا؛ وَأَقْرَأَ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْهِمَهُمْ لِيَايَاهُ، وَقُمُّ بِهِ بِهِمْ وَأَثْنَتْهُ فِي الدِّيْوَانِ قَبْلَكَ، وَقَبْلَ قَوَّادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرِعِيَّتِهِ قَبْلَكَ، وَأَكْتُبُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا يَكُونُ فِي ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَبِهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ وَالطَّوْلُ . كَتَبَهُ اسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَعِّ لَيَالٍ نَقِيٍّ مِنَ الْهَزْمِ سَمَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .

باب المنظوم

صوّرا لك المجلد الأول حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك جملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعداك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ما وعدناك به .

١ - بَسَّارُ بْنُ بُرْدِ الْعُقَيْلِيِّ^(١)

سأله المهدي لما دخل عليه فقال له . **فِيمَنْ تُعْتَدُ بِإِثَارَةٍ** فقال : **أَمَّا اللِّسَانُ وَالرَّيِّ**
فَعَرِيَّانَ ، وَأَمَّا الْأَصْلُ فَمَعْجَمِي ، كَمَا قُلْتُ فِي شِعْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ :
وَنَتُّ قَوْمًا بِهِمْ حِجَّةٌ يَقُولُونَ مَنْ دَا وَكُتُّ الْعَلَمُ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ حَاجِدًا لِيَعْرِفَنِي أَمَا أَنْفُ الْكَرَمِ

(١) هو أبو معاذ شار المرثي بن برد ، أشهر محصري الدوليين ، ورأس الشعراء المحدثين ، ومحمد طريق الاختراع ، والديع للصين ، وأحد العلماء المكفوفين . وأصله من فارس طحارسان من سبي المهلب بن أبي صفرة ، ووقع ملك أوييه لدى عقيل بن كعب ، فشا شارهم وترقى في منازلهم ، واحتفل إلى الأعراب الصاريين بالبصرة حتى حرج بأبنة زمانه في العصاة والشعر . وكان أكره محدود الوجه ، قبح المنظر ، مقرط الطول ، صمم الحنة ، متوقد الدكا ، صادق الحس ، لطيف الدراية ، شديد المحو والاستحفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة للواقع فيه ، متهما بالبدعة شعوبيا ، متصفا على العرب ، شديد الترم بالناس ، هاشا لأعراسهم ، لا يسلم من لسانه خليعة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف شارا ولا شار يعرفه ، فانه إن لم يصبه في عرصه أصابه في ماله . وقد شار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، وما طلع الحلم إلا وهو محشئ بمزة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر وقدرته على أن شارا هو رأس المحدثين وأسقطهم إلى معاظلة الديع ، وطرق أبواب المحو والحلاعة والزلزلة الحصري والهاء المقدع .

وأما أول من جمع في شعره بين حراة العرب ورفقة المحدثين ، وفق عن المعاني الدقيقة ، والأحيلة اللطيفة ، حتى عد شعره رزعا بين الشعر القديم والحديث ، ومخارا يدر عليه الشعر من مراع الدائرة إلى مقاصير الحصار . وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التي عرفت قبله وأرن عليها ، وعل عليه الهعاء والتشيب بالنساء والحروب به عن الحد المألوف عند أهل رمة ، حتى أنكره عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره في شان البصرة . وقد سهاه المهدي عن التشيب ، فكان اذا مالت له هسه يذكره ما يشاء ويقول : إن الخليعة معه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وممن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليعة ، فلم يرد على أن حرمة الجائرة ، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان منورعا فيها ما ، فكان ذلك إلى ردفه سب قتله . توفي سنة ١٦٧ هـ وقد نبغ على التسعين . وتحد رتحته في الأغاني (ح ٣ ص ١٩ وح ٦ ص ٧) وابن حلكان (ح ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والمهرست (ص ١٥٩) .

نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بَنَى عَامِي * فَرُوعِي وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ
فَإِنِّي لِأُغْنِي مَقَامَ الْفَتَى * وَأُصْبِي الْفَنَاءَ مَا تَعْتَصِمُ

وكان أودُدَ لامة حاضراً ، فقال : كَلَّا ! لَوْجُهِكَ أَقْمَحَ مِنْ ذَلِكَ ، وَحَمَى مَعَ وَجْهِكَ ،
فَقَالَ بَشَارُ : كَلَّا ! وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَحْلاً أَصْدَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَكْدَبَ عَلَى جُلُوسِهِ مِنْكَ ، وَاللَّهِ
إِنِّي لَطَوِيلُ الْقَامَةِ ، عَظِيمُ الْهَامَةِ ، تَامُّ الْأُلُوحِ ، أَتَجَبُّ الْخَذِينَ ، وَلَرَبْتُ مُسْتَرْخَى الْمَزُورِينَ
لِلْعَيْنِ فِيهِ مُرَادٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : مِنْ أَى الْعَجَمِ أَصْلُكَ ؟ فَقَالَ : مِنْ أَكْثَرِهَا
فِي الْمُرْسَانِ وَأَشَدَّهَا عَلَى الْأَقْرَادِ ، أَهْلُ طَحَارِسْتَانَ ؛ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : أَوْلَيْتُكَ الصُّغْدَ ،
فَقَالَ : لَا ! الصَّعْدَ تَحَارَ ؛ فَلَمْ يَرُدِّدْ ذَلِكَ الْمَهْدِيُّ .

وكان بشار كثير التلؤن في ولّائه ، شديد التشيع والتعصب للعجم ، مرةً يقول يفتخر
بولائه في قيس :

أَمِيتُ مَصْرَةَ الْفَحْشَاءِ إِنِّي * أَرَى قَيْسًا تُشْتَبَى وَلَا تُضَارُ^(١)
كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَغِيْبُ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاءُ الْقِطَارِ
وَقَدْ كَانَتْ يَتَدَمَّرُ خَيْلُ قَيْسٍ * فَكَانَ لَتَدْمُرُ فِيهَا دِمَارُ
بِحَيٍّ مِنْ بَنِي عَيْلَانَ شُوَيْسٍ * يَسِيرُ الْمَوْتُ حَيْثُ يُقَالُ سَارُوا
وَمَا نَلْقَاهُمْ إِلَّا صَدَرْنَا * يَرَى مِنْهُمْ وَهْمَ حِرَارِ

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الْجَلَالِ وَبَعْضُهُمْ * مَوْلَى الْعَرَبِ بِقُدِّ بِفَضْلِكَ فَانْفَرِ
مَوْلَاكَ أَوْ كَرَّمْ مَنْ تَمِيمُ كُلُّهَا * أَهْلُ الْفِعَالِ وَمِنْ قُرَيْشِ الْمَشْعَرِ
فَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ غَيْرَ مُدَافِعٍ * سَبْحَانَ مَوْلَاكَ الْأَجَلِّ الْأَكْبَرِ
وَقَالَ يَفْتَحِرُ بَوْلَاءَ بَنِي عَقِيلٍ :

إِنِّي مِنْ بَنِي عَقِيلٍ بَنَ كَتِيبٍ * مَوْضِعُ السِّيفِ مِنْ طَلَى الْأَعْيَاقِ

(١) تشب . تردداد وترتمع .

وَوُلِدَ بَشَارُ أَعْمَى، هَذَا نَظَرٌ إِلَى الدُّنْيَا قَطْ، وَكَانَ يُشَبِّهُ الْأَشْيَاءَ بِمَعْصَا بَعْضٍ فِي شَعْرِهِ،
فَيَأْتِي بِمَا لَا يَقْدِرُ الْبَصَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ أَتَشَدُّ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ مَوْى رَعُوسَا * وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

مَا قَالَ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ، هُنَّ أَيْ لَكَ هَذَا وَلَمْ تَرَ الدُّنْيَا قَطْ وَلَا شَيْئًا فِيهَا ؟
فَقَالَ : إِنْ عَدِمَ النَّظَرُ يَقْوَى دُكَاءُ الْقَلْبِ وَيَقْطَعُ عَنْهُ الشَّغْلُ بِمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ،
فَيَتَوَقَّرُ حُسَّهُ وَتَدْكُورُ قَرِيحَتُهُ، ثُمَّ أَتَشَدُّهُمْ قَوْلُهُ :

عَمِيْتُ حَبِيبًا وَالِدُكَاءُ مِنَ الْعَمَى * بَحْنْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْنًا

وَعَاضَ ضِيَاءُ الْعَيْنِ لِلْعِلْمِ رَافِدًا * بِقَلْبٍ إِذَا مَا صَبَّحَ النَّاسُ حَصَلًا

وَشَعْرُ كَوْنِ الرُّوضِ لَاءَمْتُ بَيْنَهُ * بِقَوْلٍ إِذَا مَا أُحْرِنَ الشَّعْرُ أَشْهَلًا

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَبَرُّمًا مَالِئًا . وَكَانَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بَبْصَرِي .
فَقِيلَ لَهُ : وَلَمْ يَأْبَا مُعَاذُ؟ قَالَ : لَثَلَا أَرَى مَا أَنْفَضَ .

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : بَشَارُ حَاتِمَةُ الشَّعْرَاءِ، وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَيَّامَهُ تَأَخَّرَتْ لِفَضْلَتِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ .
وَقِيلَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ : أَمَرَوَانُ أَشْعَرُ أَمْ بَشَارُ ؟ فَقَالَ : حَكَمَ بَشَارٌ لِنَفْسِهِ بِالْأَسْتِظْهَارِ،
إِنَّهُ قَالَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ جَيِّدٍ، وَلَا يَكُونُ عَدْدُ الْجَيِّدِ مِنْ شَعْرِ شَعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِ هَذَا الْعَدَدُ، وَمَا أَحْسَبُهُمْ بَرَّزُوا فِي مِثْلِهَا، وَمَرْوَانُ أَمْدَحُ لِلْوَلُوكِ .

وَسُئِلَ الْأَصْمَعِيُّ عَنْ بَشَارٍ وَمَرْوَانَ أَيُّهُمَا أَشْعَرُ؟ فَقَالَ : بَشَارٌ؛ فَسُئِلَ عَنِ السَّبَبِ لِذَلِكَ؛
فَقَالَ : لِأَنَّ مَرْوَانَ سَلَكَ طَرِيقًا كَثُرَ مِنْ يَسْلُكِهِ، فَلَمْ يَلْحَقْ بِمَنْ تَقَدَّمَ وَشَرَكَهُ فِيهِ مَنْ كَانَ
فِي عَصَرِهِ، وَبَشَارُ سَلَكَ طَرِيقًا لَمْ يُسَلِّكْ وَأَحْسَنَ فِيهِ وَتَفَرَّدَ بِهِ، وَهُوَ أَكْثَرُ تَصَرُّفًا وَفَنُونَ
شَعْرًا، وَأَغْزَرُ وَلَوْسَعَ بَدِيْعًا، وَمَرْوَانُ لَمْ يَتَجَاوَزْ مَذْهَبَ الْأَوَائِلِ .

وَقِيلَ لِبَشَارٍ : لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ شَعْرَاءِ الْعَرَبِ شَعْرٌ إِلَّا وَقَدْ قَالَ فِيهِ شَيْئًا أَسْتَنْكَرْتَهُ الْعَرَبُ
مِنْ أَلْفَاظِهِمْ وَشُكَّ فِيهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي شَعْرِكَ مَا يُسَلِّكُ فِيهِ؛ قَالَ : وَمَنْ أَيْنَ يَأْتِنِي الْخَطَا ؟
وَوُلِدْتُ هَاهُنَا، وَنَشَأْتُ فِي حُجُورِ ثَمَانِينَ شَيْخًا مِنْ فَصَحَاءِ بَنِي عَقِيلٍ مَا فِيهِمْ أَحَدٌ يَعْرِفُ كَلِمَةً

من الخطأ، وإن دخلتُ الى سائهم ففساؤهم أفصح منهم، وأبْقَعْتُ فَأُبْدَيْتُ^(١) الى أن أدركتُ،
فمن أين يأتينى الخطأ ؟ .

كان جرير بن المندر السدوسى يفاخر شارا، فقال فيه بشار :

أمثل بى مُصِرِّ وإئِلَّ * فَقَدْ تُكُّ من فاجرٍ ما أَحَقُّ
أى اليوم هذا أبا منذر * خيرا رأيت وخيرا يُكْنَى
رأيتك والعحر فى مثلها * كعاجةٍ غير ما تَطْحَنُ

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة، فراسلها يسألها زيارته، ووعدته بذلك ثم
أخلفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأت أرسل إليها ليعاتبها فأعتدرت بمرض
أصابها، فكتب إليها بهذه الأبيات :

يا ليلتى تردأدُ نُكْرًا * من حُبِّ من أحببتُ يَكْرًا
حوراء ابِ نطرتُ اليكِ * لك سَقَتُك بالعينس نَحْرًا
وكانَ رَجَعَ حديدِها * قِطْعُ الرِياضِ كُيسَ زَهْرًا
وكانَ تحتَ لسانِها * هاروتُ يَنْفُثُ فيه سِجْرًا
وتحَالُ ما جُمِعَتْ عليه * ثيابُها ذَهَبًا وعِطْرًا
وكانَها سَرْدُ الشَّرَا * بَصَافًا وصادَفَ مَكِ فِطْرًا
جَنِيَّةٌ إِنْسِيَّةٌ * أوبىنَ ذاكَ أحلَّ أَمْرًا
وكماك أنى لم أَحِطْ * بِشَكاةٍ من أحببتُ حُبْرًا
إلا مِقالَةَ زائِرٍ * نَثَرْتُ لى الأَحْرانِ ثَرًّا
متخسِّعًا تحتَ الهوى * عَشْرًا ونَحْتِ الموتِ عَشْرًا

وكان إسحاق الموصلى لا يعتد بشار ويقول : هو كثير التخليط فى نثره، وأشعاره مختلفة

لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو القائل :

(١) أدبت أى أخرجت الى البادية .

إِنَّمَا عَظُمْتُ سُلَيْمَى حُبِّي * قَصَبُ السَّكْرِ لَا عَظَمَ الْجَمَلِ

وإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا نَصَلًا * غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

لو قال : كل شيء حيد ثم أضيف إليه هذا لريقه . وكان يُقدَّم عليه مردان ويقول : هو أشدُّ استواءً شعره ، وكلامه ومدهه أشبه بكلام العرب ومداهاها ، وكان لا يعدُّ أبانؤاس البتَّة ولا يرى فيه حيرا .

قال الجاحظ . كان بشار خطيباً صاحب مشور ومزدوج وسمَّج ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ، المتفننين في الشعر ، القائلين في أكثر أجاسه وضروبه . وقال الشعر في حياة حرير وتعزُّض له ، وحكى أنه قال : هجوتُ حريراً فأعرض عني ، ولو هاجاني لكنتُ أشعر الناس ، وكأب يدين بالرجعة ، ويكفر جميع الأئمة ، ويصوب رأى إبليس في تقديم البار على الطين ، وذكر مثل ذلك في شعره فقال :

الأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالْبَارُ مُشْرِقَةٌ * وَالْبَارُ مَعْبُودَةٌ مُدْكَانَتِ النَّارُ

وقال بعض الرواة لأبي عمرو : من أبدع الناس بيتاً؟ قال الذي يقول :

لَمْ يَطْلُ لَيْلَى وَلَكِنْ لَمْ أَمِّ * وَهَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمِّ

وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودَى لَنَا * نَخِرْتُ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَعَم

رَوِّحِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَأَعْلَى * أَنَّى يَا عَبْدَ مَنْ لَمْ وَدَم

إِنْ فِي بُرْدِي جَسْمًا نَاحِلًا * لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَم

وهذه الأبيات لبشار .

قال : من أمدح الناس؟ قال الذي يقول :

لَمَسْتُ بِكَتْفِي كَعْفَهُ أَبْتَنَى الْعِنَى * وَلَمْ أَذِرْ أَنْ الْجُودَ مِنْ كَعْفِهِ يُعْدَى

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ دَوُّ الْغِنَى * أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشار على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأشده قصيدة يهجو فيها المصور
ويشير عليه برأى يستعمله في أمره، فلما قُتل إبراهيم خاف بشار، قلبت الكنية وأظهر أنه
كان قالها في أبي مسلم، وحذف منها أبياتا، وأولها :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشِ بدائم * ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالم
قلب هذا البيت فقال : أما مسلم :

على الملك الجبار يفتح الردى * ويصرعه في المازق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوح * عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم * وأمسى أبو العباس أحلام نائم

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يحشى انقلاب مكيدِهِ * عليه ولا جرى النحوس الأشائم
مقيماً على الدلات حتى بت له * وجوه المايا حاسرات العائم
وقد ترد الأيام غمراً وربما * وردت ككوحاً باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرُحَا * وكان لما أبرمت نزار الجرائم
فأصحت بحرى سادرا في طريقهم * ولا تنقى أشباه تلك القوائم
تحررت للإسلام تعفو سبيله * وتغرى مطاه^(١) لبيوث الصرايم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله * عليك فنادوا بالسيوف الصوارم
فرم وزراً يُحْييك يا بن سلامة * فلست يساج من مصيم وصائم

حمل موضع "يا بن سلامة" "يا بن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لما الله قوما رأسوك عليهم * وما زلت مرءوسا حيث المطاعيم
أقول لبسائم عليه جلالة * عدا أريجاً عاشقاً للكارم
من العاطمين الدعاة إلى الهدى * جهارا ومن يهديك مثل أب قاطم

هذا البيتُ حذفه بشار من الأبيات :

سِرَاجٌ لَعِينٌ الْمُسْتَصِيءُ وَتَارَةٌ * يَكُورُ طَلَامًا لِلْعَدُوِّ الْمَزَاحِمِ
 اِذَا لَمَعَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةُ فَاسْتَعِينُ رَأْيٌ يَصْبِيحُ أَوْ يَصْبِيحُهُ حَازِمُ
 وَلَا تَحْمِلُ الشُّورَى عَلَيْكَ عَصَاضَةً * فَإِنَّ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ ^(٢)
 وَمَا حَيْرُكَفٍ أَمْسَكَ الْعُلَّ أَحْتَهَا * وَمَا حَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيِّدْ نَقَائِمُ ^(٣)
 وَحَلَّ الْهُوَيْنَا لِلصَّعِيفِ وَلَا تَكُنْ * تُوْومًا فَإِنَّ الْحَزْمَ لَيْسَ بِنَائِمُ
 وَحَارِبٌ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلَّا ظُلَامَةٌ * شَأْنُ الْحَرْبِ حَيْرٌ مِنْ قَوْلِ الْمَظَالِمِ ^(٤)
 وَأَذِنَ عَلَى الْقُرْبَى الْمُقَرَّبَ بَعْسَهُ * وَلَا تُشْهِدِ الشُّورَى أَمْرًا عَيْرَ كَائِمِ
 فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِرِدُّ الْهَمَّ الْمُنَى * وَلَا تَسْلُغُ الْعَلِيَا بَعِيرَ الْمَكَارِمِ
 إِذَا كَسَتْ قَرْدًا هَمْرَكَ الْقَوْمُ مُقْبِلًا . وَإِنْ كَسَتْ أَدَى لَمْ تُقَرَّ الْعِزَّائِمِ
 وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ مُشِيعٍ ^(٥) * أَرِيْبٌ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمِ

قال أبو عبيده : ميميةٌ بشار هذه أحبُّ إلى من ميمية جريروانفرزدق . وقال الأصمعي لبشار : يا أبا معاد ، إن الناس يُعجبون من أبياتك في المشورة ؛ فقال له : يا أبا سعيد ، إن المشاورين صواب يعور بثمرته ، أو خطأ يُسارِك في مكروهه ، فقال له : أنت في قولك هذا أشعر منك في شعرك .

نوفى ابن لبشار بعز علىه ، فقبل له : أبحر قدَّمته ، وفَرَط آفَرَّتته ، ودُنُر أحرزته ؛ فقال : وَلَد دَقَّتته ، وتُكَلُّ تَعَلَّتته ، وعَيْتٌ وَعِدَّتته فانتطرتة ، والله لئن لم أجمع للنقص لا أفرح للزيادة . وقال يرثيه :

(١) العصاة : المقصاة . (٢) الخوا . الرشات الصعرات التي وحاح الطائر اذا صمها حميت ، واحدها حافية مد القوادم . (٣) المل بالهم الحديدة التي تجمع بين يد الأسير وعقه وتسمى الحديدة . (٤) الشا بالفتح جمع شاة وهي من كل شيء حده . (٥) المشيع . الشجاع .

أَحَارَتْنَا لَا تَجْزِعِي وَأَيْبِي * أَنَانِي مِنَ الْمَوْتِ الْمُطْلُ بَصِي
 بُحَى عَلَى رَغْمِي وَتُحْطَى رُزْئُهُ * وَبُدِّلْ أَجْجَارًا وَجَالَ قَلْبُ^(١)
 وَكَانَ كَرْنِجَانِ الْعُرُوسِ تَحَالُهُ * دَوَى عِدَّ إِشْرَاقِ يَسْرٍ وَطِيبِ
 أَصْبَهْتُ بِهِ فِي حَيْنِ أَوْرَقِ عَصَاهُ * وَأَلْقَى عَلَى الْهَمِّ كُلِّ قَرِيبِ
 عَحِثْتُ لِإِسْرَاعِ الْمَيِّتَةِ نَحْوَهُ * وَمَا كَانَ لَوْ مُلِئَتْهُ مَعْجِبِ

قيل لبشار : إنك لتجىء بالشئ المحين المتفاوت ، قال : وما داك ؟ قيل : بينما تقول
 شعرا يُبِيرُ البقع ويُخْلَعُ به القلوب مثل قولك .

إِذَا مَا غَضِبَهَا غَضَّةٌ مُصْرِيَّةٌ * هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمِطَّرَ الدَّمَآ
 إِذَا مَا أَعْرَاهَا سَيِّدَا مِنْ قَبِيلَةٍ * ذَرَى مَبْرَ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا
 تقول :

رَبَابَةٌ رَتَةُ الْيَتِّ * تَصُبُّ الْحَلَّ فِي الرِّيتِ
 لَهَا عَشْرُ دَجَاحَاتٍ * وَدِيكَ حَسُّ الصَّوْتِ

فقال : لكلُّ وَحَةٍ ، فالقول الأول جدٌ ، وهذا قتلته في ربابة جارية ، وأنا لا أكل البيض من
 السوق ، وربابة لها عشر دجاحات وديك ، فهي تجمع لي البيض ، فهذا عدها أحسن من
 « قَفَابِيكَ » عدك . وسألتَه حاريةً مغنيةً لبعض ولد سليمان بن علي ، وكانت محسنة بارعة
 الظرف ، أن يدكرها في قصيده ولا يذكر فيها أسمها ولا أسم سيدها ويكتب بها إليها ، فأصرف
 وكتب إليها :

وَدَايَ دَلَّ كَأَنَّ الْبَدْرَ صَوْرَتُهَا * بَاتَتْ تَغْنَى عَمِيدَ الْقَلْبِ سَكْرَانَا
 « إِنْ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرَفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُخَيِّنْ قَتْلَانَا »
 فَقُلْتُ أَحْسَنْتِ يَا سُوْلَى وَيَا أَمْلَى * فَأَتَمِّعْنِي جَزَاكَ اللَّهُ إِحْسَامَا
 « يَا حَبْدَا حَبْلُ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ * وَحَبْدَا سَاكِنُ الرِّيَّانِ مَنْ كَانَا »
 قَالَتْ مَهْلًا فَذَتَكَ النَّفْسُ أَحْسَنُ مِنْ * هَذَا لِمَنْ كَانَ صَبَّ الْقَلْبِ حَيْرَانَا

« يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا »
 فقلت أحسيت أنت الشمس طالعة * أضربت في القلب والأحشاء نيرا
 فإسمعي صوتا مطرا هزعا * يزيد صبا محبا فيك أشجانا
 يا ليتني كنت تماعا مفلحة * أو كنت من قصب الرياح رينانا
 حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها * ونحن في حلوه مثلت إسمانا
 فزكت عودها ثم أشئت طرا * تشدو به ثم لا تحببه كئمانا
 « أصحت أطوع حلق الله كلهم * لأكثر الخلق لي في الحب عيانا »
 فقلت أظريتني يارين محلسا * فهات إنك بالإحسان أولانا
 لو كنت أعلم أب الحب يقتلني * أعددت لي قل أن ألقاك أكمانا
 فمت الشرب صوتا موتا رملا * يذكي السرور ويثقي العين ألوانا
 « لا يقتل الله من دامت مودته * والله يقتل أهل العذر أحيانا »

كان الرواريسمون في قديم الدهر إلى أيام خالد بن برمك السؤال، فقال خالد : هذا والله أسم استنقله لطلاب الخبر، وأرفع قدر الكرم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أديا، ولكننا سميهم الزوار، فقال بشار يمدحه بذلك :

حدا خالد في فعله حدو برمك * فمحد له مستطرف وإصيل
 وكان دؤو الآمال يدعو قبله * ليعط على الإعدام فيه دليل
 يسمون بالسؤال في كل موطن * وإن كان فيهم نايه وحليل
 سماء الزوار سنرا عليهم * فاستاره في المهتدين سُدول

وقال بشار هذا الشعر في مجلس خالد في الساعة التي تكلم خالد بهذا في أمر الزوار، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشار على عُقْبَةَ بن سَلَمَ فأنشده بعض مدائحه فيه ، وعده عُقْبَةُ بن رُوْبَةَ ينشده رَجْرًا يمدحه به ، فسمعه بشار وحصل يستحسن ما قاله الى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طراز لا تُحْسِنُهُ أنت ما أبأ مُعَاذُ ، فقال بشار : أَلِيْ يقال هذا ! أما والله أَرْجُمَكَ ومن أبوك وحدك ؛ فقال له : عُقْبَةُ أما وأبى فَتَحَا للناس مَابَ العريب ومابَ الرَّجْرَ ، وإني لخلِيقٌ أن أسُتدَّ عليهم ؛ فقال بشار : أَرْحَمُهُم رَحِمَكَ اللهُ ، ولما كان من عِدَّ عدا على عَقَةِ أب سَلَمَ وعده عَقَةِ بن رُوْبَةَ ، فأنشده أَرْجُوْزَتَهُ التى مدحه فيها :

يا طَلَلُ الحَيِّ ذَاتِ الصَّمْدِ * بالله حَبْرٌ كَيْفَ كَتَبَ بَعْدَى
أَوْحَشْتُ مِنْ دَعْدٍ وَتَرَبَّ دَعْدُ * سَقِيًّا لِأَسْمَاءِ ابْنَةِ الْأَشَدِّ
قَامَتْ تَرَاءَى إِذْ رَأَيْتُنِي وَحْدَى * كَالشَّمْسِ تَحْتَ الرِّجِّ الْمَقْدِّ^(١)
صَدَّتْ بِحَدِّ وَحَلَّتْ عِى حَدِّ * ثُمَّ انْتَنَتْ كَالْفَسِّ الْمُرْتَدِّ
عَهْدِي بِهَا سَقِيًّا لَهُ مِنْ عَهْدِ * تُخْلِفُ وَعْدًا وَتَنْفِي بُوْعْدِ
فَحَسَّ مِنْ جَهْدِ الْهَوَى فِي جَهْدِ * وَزَاهَرُ مِنْ سَيْطِ وَحَفْدِ
أَهْدَى لَهُ الدَّهْرُ وَلَمْ يَسْتَهْدِ * أَهْوَافُ نَوْرِ الْحَبْرِ الْمَجْدِ
يَلْقَى الصَّحَى رِيحَانَهُ بِسَعْدِ * بُدِّلْتُ مِنْ ذَاكَ نَكْبَى لَا يُجْدِ
وَافِقُ حَظًّا مِنْ سَعَى بِحَدِّ * مَا ضَرَّ أَهْلَ الْوُكِّ صَعْفُ الْجَدِّ
الْحُرِّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ * وَلَيْسَ لِلْحِفِّ مِثْلُ الرَّدِّ
وَالنَّصْفُ يَكْمِيكَ مِنَ التَّمَدِّ * وَصَاحِبِ كَالْتَّمَلِ الْمُدِّ
حَمَلْتُهُ فِي رَقْعَةٍ مِنْ حِلْدِي * أَرُقْتُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ
حَتَّى مَضَى عَيْرَ فَقِيدِ الْعَقْدِ * وَمَا دَرَى مَا رَعَى مِنْ زُهْدِ
إِسْلَمَ وَحْيَتْ أَبَا الْمُلْدِ * مِفْتَاحُ بَابِ الْحَدَثِ الْمُنْسَدِ
مُشْتَرَكِ النَّيْلِ وَرَى الرَّدِّ * أَعْرَ لَتَاسَ ثِيَابِ الْحَمْدِ

ما كان منى لك غير الود * ثم شاء مثل ربح الورد
 نسجته في محكمات اللد * فالبس طرازي غير مسترد
 لله أيامك في معد * وفي بني قحطان غير عد
 يوماً مدى طحفة^(١) عد الحد * ومثله أودعت أرض الهد
 المهرقات والحديد السرد * والمقرنات^(٢) المبعديات الجرد
 اذا الحيا اكدى بها لا تكدى * تلطم أمراً وأمورا تُسدى
 وآس حكيم إن أماك يردي * أصم لا يسمع صوت الرد
 حيته تحفه المعد * فانهد مثل الحل المنهد
 كل أمرئ رهى بما يؤدى * ورت دى تاج كريم الحد
 كال كسرى وكال بُرد * أنك حاف عن سبيل القصد
 * فصلته عن ماله والولد *

فطرب عقبة بن سلم وأجرل صلته، وقام عقبة بن رؤبة فخرج عن المجلس يحري وهرب من تحت ليلته فلم يعد إليه .

قال الحافظ : فانظر الى سوء أدب عقبة بن رؤبة وقد أجمل بشار محصره وعشرته ، فقال له بهذه المقابلة القبيحة ، وكان أبوه أعلم خلق الله به ، لأنه قال له وقد فاتحه بشعره : أنت يا بني دهبان الشعر، اذا ميت مات شعرك معك ، فلم يوحد من يرويه بعدك ، فكان كما قال له ، ما يعرف له بيت واحد ولا خبر غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه ، الدال على سخفه وسقوطه وسوء أدبه .

وقال بشار بن هوى له كانت بالبصرة ، ثم خرجت مع زوجها الى عمان :
 هوى صاحبي ربح الشمال اذا جرت * وأشفتني لقلبي أن تهب جُبوب
 وما داك إلا أنها حين تنهى * تآهى وفيها من عبيدة طيب

(١) طحفة : موضع عند الساح وعد إمرة في طريق لمصرة الى مكة ، ومنه يوم طحفة لني يروى على قافوس
 ابن المدبر من ماء السماء . (٢) المقرنات : الخيل التي يقرب من رطلها ومثلها لكرامتها .

عَذِيرِي مِنَ الْعُدَالِ إِذْ يَبْذُلُونِي * سَفَاهًا وَمَا فِي الْعَاذِلِينَ لِيَب
يَقُولُونَ لَوْ عَزَّيْتُ قَلْبَكَ لَأَرْعَوِي * فَقُلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
إِذَا نَفَقَ الْقَوْمُ الْحُلُوسَ فَإِنِّي * مُكِبٌّ كَأَنِّي فِي الْجَمِيعِ عَرِيبُ
هَاءُ أَوْ الشَّمَقَمَقُ إِلَى بَشَارٍ يَشْكُو إِلَيْهِ الضِّيقَ وَيَحْلِفُ لَهُ أَنَّهُ مَا عِنْدَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لَهُ
بَشَارُ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا يَفِيكَ ، وَلَكِنْ قُمْ مَعِيَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ سَلَمٍ ، فَنَقَامُ مَعَهُ ، فَذَكَرَ لَهُ
أَنَا الشَّمَقَمَقُ وَقَالَ : هُوَ شَاعِرٌ وَلَهُ شُكْرٌ وَشَاءَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ لَهُ بَشَارُ :

يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الدِّي * أَمْسِ وَلَيْسَ لَهُ يَطِيرُ

لَوْ كَانَتْ مِثْلُكَ آخِرًا * مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَقِيرُ

فَأَمَرَ لِبَشَارٍ بِأَلْفِي دِرْهَمٍ ، فَقَالَ أَوْ الشَّمَقَمَقُ : نَفَعْتَنَا وَهَمَّكَ يَا أَمَا مَعَاذُ ، بِفَعْلٍ
بَشَارٍ يَضْحَكُ .

دَحَلُ يَزِيدُ بْنُ مَصْبُورِ الْحِمْيَرِيِّ عَلَى الْمَهْدِيِّ وَبَشَارُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُنْشِدُهُ قَصِيدَةً أَمْتَدَحُهُ
بِهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَزِيدُ ، وَكَانَتْ فِيهِ عَقْلَةٌ ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، مَا صَنَعْتُكَ ؟ فَقَالَ .
أَنْقَبُ اللَّوْلُو ، فَصَحَّكَ الْمَهْدِيُّ ، ثُمَّ قَالَ لِبَشَارٍ : أُعْرِبْ وَيْلَكَ ! أَنْتَ تَدْرُ عَلَى خَالِي ؟
فَقَالَ لَهُ : وَمَا أَصْعَبُ .^١ يَرَى شَيْخًا أَعْمَى يُنْشِدُ الْخَلِيفَةَ شِعْرًا وَيَسْأَلُهُ عَنْ صَاعَتِهِ .

وَقَفَّ عَلَى بَشَارٍ مَعْصُ الْحُجَّانِ ، وَهُوَ يَبْشُدُ شِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ : اسْتَرْ شَعْرَكَ هَذَا كَمَا تَسْتَرُ
عَوْرَتَكَ ، فَصَبَّقَ بَشَارٌ سِدِيهِ وَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَنْ أَتَى ؟ وَيْلَكَ ! قَالَ : أَنَا - أَعَزَّكَ اللَّهُ -
رَحَلَ مِنْ بَاهِلَةٍ ، وَأَخُوَالِي سَأَلُوا ، وَأَصْهَارِي عُكِّلُوا ، وَأَسْمَى كَلْبٌ ، وَمَوْلَدِي نَاصُخٌ ،
وَمَتَرَلِي نَظْفَرٌ بِلَالٌ ، فَضَحَّكَ بَشَارٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبُ وَيْلَكَ ! فَأَنْتَ عَتِيقُ لَوْمِكَ ، قَدْ عَلِمَ اللَّهُ
أَنَّكَ اسْتَتَرْتَ مِنِّي بِمَحْصُونٍ مِنْ حَدِيدٍ .

مَرَّ بَشَارٌ بِرَجُلٍ قَدْ رَمَحَتْهُ بَنْلَةٌ وَهُوَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا ، فَقَالَ لَهُ : بَشَارُ اسْتَرَدَّ يَزِيدُكَ .
وَمَرَّ بِهِ قَوْمٌ يَحْمِلُونَ جَنَازَةً وَهُمْ يُسْرِعُونَ الْمَشْيَ بِهَا ، فَقَالَ : مَا لَمْ يَسْرِعِينَ ؟ أَتَرَاهُمْ سَرَقُوهُ
فَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُلْحَقُوا فَيُؤْخَذَ مِنْهُمْ .

رفع علامٌ بشار إليه في حساب نفقته حلاءَ مرآةٍ عشرة دراهم، فصاح به بشار وقال :
والله ما في الدنيا أعجب من حلاء مرآة أعمى عشرة دراهم، والله لو صِدِّتْ عَيْنُ الشمس
حتى يبقى العالمُ في ظلمة ما ملعت أجرة من يحلوها عشرة دراهم .

قال قُدامةُ بن نُوح : كان بشارٌ يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التي
لا حقيقة لها، من ذلك أنه أثبت يوماً شعراً له فقال فيه : « عني للغريص يا بن قبان »
ف قيل له : من أب قبان هذا ؟ لسا نعرفه من معي البصرة، قال : وما عليكم منه ؟ ألكم قبله
دين فطالوه به ، أو نأرتريدون أن تدركوه ، أو كفلت لكم به ، فاذا عاب طالبتمنى
بإحضاره ، قالوا : ليس بيننا وبينه شيء من هذا ، وإنما أردنا أن نعرفه ، فقال : هو رجل
يعتلى ولا يبحر من بيتي ، فقالوا له : إلى متى ؟ فقال : مد يوم وليلة إلى أن يموت . وذكر
أيضا في هذه القصيدة « البردان » ف قيل له : يا أبا معاذ ، أين البردان هذا ؟ لسا نعرفه
بالصرة ، فقال : هو بُيت في بيتي سميت به بالبردان ، أفعليكم من تسميتي داري وبيتها شيء
ففسألوني عنه ؟ .

قالت امرأة لبشار : أي رجل أنت لو كنت أسود الخفية والرأس ، قال : أما علمت
أن يبيع الركة أشهر من سود العرمان ؟ فقالت له : أما قولك حسن في السمع ، ومن لك
أن يحسن شينك في العين كما حسن قولك في السمع ؟ فكان بشار يقول : ما أحسننى قط غير
هذه المرأة .

دعاه رجل إلى مرله فأكل وشرب ، ولما أراد الانصراف قامت حارية للرجل وأخذت
بيده ، فلما صار بالصحن أو ما إليها ليقبلها ، فأرسلت يدها من يده ، فجعل يحول في العرصة
وخرج مولى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ ؟ فقال : أذنتُ ذنبا ولا أبرح أو أقول شعرا ،
فقال :

أُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنَ السَّيِّئَاتِ * وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ فَعْلَتِي
تَاوَلْتُ مَا لَمْ أُدْرِ تَيْلَهُ * عَلَى جَهْلٍ أَمْرِي وَفِي سَكْرَتِي

ووالله والله ما حثته * لِعَمْدٍ ولا كان من همتى
 وإلا قِيتُ إِذَا ضائعا * وَعَذْبَى اللهُ فى مِيتى
 من نال خيرا على قُبلة * فلا مارك الله فى قُلتى

لما كثر استمثار نساء البصرة وشبانها بشعر بشار، وقال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار: ما شئ أدعى لأهل هذه المدينة الى الفسق من أشعار هذا الأعمى، وما زالوا يعطانه وكان واصل بن عطاء يقول: إن من أصدق حائل الشيطان وأعواها لكلمات هذا الأعمى المُلحد، فلما كثر ذلك رأتى حبره إلى المهديّ تهاه عن ذكر النساء وقول التشيب، وكان المهديّ من أشد الناس غيره، فقال فى ذلك :

يا مَظْطَرًّا حَسَمَ رَأْيُهُ * فى وَحِه جارية قَدَيْتُهُ
 عَثْتُ إِلَى تَسْوَمُنِي * ثَوْبَ الشَّابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
 والله رَبِّ مُحَمَّدٍ * ما إِنْ عَدَرْتُ ولا نَوَيْتُهُ
 أَمْسَكْتُ عَيْكَ وَرَبِّمَا * عَرَضَ اللَّاءُ وما أَبْتَيْتُهُ
 إِبْنِ الْخَلِيفَةِ قَدْ أَبَى * واذا أبى شَيْئًا أَبَيْتُهُ
 وَمُحَصَّبٍ رَحِصَ السَّاءِ * نَبْكَى عَلَى وما بَكَيْتُهُ
 وَيُسْوَقى يَنْتُ الْحَيْدِ * بَ إِذا أَدَكَرْتُ وأَيْسَ بَيْتُهُ
 قام الْخَلِيفَةُ دُونَهُ * فَصَبَرْتُ عَهُ وما قَلَيْتُهُ
 وَنَهائى الْمَلِكُ الْهَمَّ * مُ عَنِ النِّسَاءِ وما عَصَيْتُهُ
 لا بَلْ وَفَيْتُ فلم أَصْعِ * عَهْدًا ولا رَأْيًا رَأَيْتُهُ
 وَأَنَا الْمُطَّلَّ عَلَى الْعِدا * واذا غلا الْحَمْدُ أَشْرَيْتُهُ
 أَضْنَى الْخَلِيلَ إِذا دَمَّ * واذا نأى عَنى بَأَيْتُهُ
 وَأَمِيلُ فى أَنْسِ النَّدِيدِ * مَ مِنَ الْحَياءِ وما أَشْتَيْتُهُ
 وكان الْخَلِيلُ بن أَحْمَدَ يَنْشُدُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَيَسْتَحْسِنُهَا وَيَعْجَبُ بِهَا .

وكان لبشار حسنة ثدما، مات منهم أربعة وبقي واحد يقال له : البراء، فركب في زورق يريد عبور دجلة العراء فغرق، فكان بشار يقول : ما حير في الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقول الإمام * في فتاة بالقلب منها أوام
 ست من حنأ أوقر الكأ * س ويهمو على فؤادى الهيام
 لم يكن بينها وبينى إلا * كُتُبُ العاشقين والأحلام
 يا بن موسى آسفنى ودع عك سلمى * لب سلمى حنى وفى احتشام
 رب كأس كالسلسيل تعلد * ست بها والعيوت غنى نيام
 حُبست للشراه فى بيت رأس^(١) * عتقت عانساً عليها الختام
 نفحت نفحة فهزت ندى * بنسيم وأنشق عنها الزكام
 وكأب المعلول منها إذا را * ح شج فى لسانه رِسام^(٢)
 صَدمنه الشمول حتى بعين * ه أنكسار وفى المفاصل خام
 وهو ماقى الأطراف حيث به الكأ * سُ وماتت أوصاله والكلام
 وقتى يشرب المدامة مالم * ل ويمشى يروم ما لا يُرام
 أهدت كأسه الدنانير حتى * ذهب العين وأستمر السوام
 تركته الصباء يربو بعين * نام إنسانها وليست تام
 جن من شرية تعل ناخرى * وبكى حين سار فيه المدام
 كان لى صاحباً فأودى به الدهر * سر وفارقته عليه السلام
 بقى السأس بعد هلك نداما * ي وقوعاً لم يشعروا ما الكلام
 تحزور الأيسار لا كيد^(٤) فيه * ل لباع ولا عليها سَام

(١) بيت رأس : قرية بالشام من قرى حلب يسب إليها الحر .
 ورم حار يعرض للحبات الذى بين الكد والأمعاء ثم يتصل الى الدماغ .
 (٢) البرسام : علة يهذى بها وهو .
 (٣) حيث بالإدغام لغة فى حى .
 (٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقذاح .

يَا مَوْسَى فَقَدْ أَحْبَبَ عَلَى الْعِي * سَ قَدَاةٌ وَى الْفُؤَادَ سَقَام
 كَيْفَ يَصْفُو لَى الْعَيْمُ وَحِيدًا * وَالْأَحْلَاءُ فِي الْمَقَابِرِ هَام
 نَفْسَتَهُمْ عَلَى أُمِّ الْمَسَايَا * فَأَمَاتَهُمْ بُعِيفٌ فَمَا مَوَا^(١)
 لَا يَبْعِصُ أَنْسَجَامُ عَيْنَى عَلَيْهِمْ * إِنَّمَا عَايَةُ الْحَرِيرِ السَّحَامُ
 وَقَالَ فِي نَهْيِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ .

وَاللَّهُ لَوْلَا رِصَا الْخَلِيفَةِ مَا * أَعْطَيْتُ صَيِّمًا عَلَى فِ شَحْنِ
 وَرَبَّمَا حَيْرَ لَابْنِ آدَمَ وَالِ * كُرْهُ وَشَقَّ الْهَوَى عَلَى الْبَدَنِ
 فَاشْرَبْتُ عَلَى أُبْنَةِ الرِّمَانِ مَا * تَلَقَى رَمَانًا صَفَا مِنَ الْأُبْنِ
 اللَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ فَوَاصِلِهِ * وَالْمَرْءُ يُعْصِي عَيْنًا عَلَى الْكُنْ^(٢)
 قَدْ عِشْتُ بَيْنَ الرِّيحَانِ وَالزَّوَارِ * هَرَى طَلَّ مَحْلِسَ حَسْرِ
 وَقَدْ مَلَأْتُ الْبِلَادَ مَا بَيْنَ يَدَيْ * حُورَ إِلَى الْقَيَّرِ وَانْ فَالْمَحْرِ
 شِعْرًا تَصَلَّى لَهُ الْعَوَاتِقُ وَالشَّ * يَبُ صَلَاةُ الْغَوَاةِ لِلْوَثْرِ
 ثُمَّ نَهَانِي الْمَهْدَى فَأَنْصَرَفْتُ * نَحْسَى صَنِيعَ الْمَوْفِقِ اللَّقْرِ
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ * لَيْسَ سَائِي شَيْءٌ عَلَى الزَّمَنِ

وَأَنْشُدُ الْمَهْدَى قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوَّلَهَا :

تَحَالَّتْ عَنِّي مَهْرٌ وَعَنِّي حَارَتِي مَهْر * وَوَدَّعْتُ نَعْمًا بِالسَّلَامِ وَبِالْبَشْرِ
 وَقَالَتْ سُلَيْمَى فَيْكَ عَا حَلَاة * مَحَلَّكَ دَائِي وَالزَّيَارَةَ عَنِ عَفْرِ^(٣)
 أَنَحَى فِي الْهَوَى مَالِي أَرَاكَ جَفَوْتَا * وَقَدْ كَسَتْ تَقَفُّونَا عَلَى الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
 تَتَاوَلَّتْ إِلَّا عَنِّي يَدٌ أَسْتَفِيدُهَا * وَزَوْرَةُ أَمْلَاكِ أَشَدَّهَا أَزْرَى
 وَأَخْرَجَنِي مِنْ وَزْرِ خَمْسِينَ حِمَّة * فَنِّي هَاشِمِي يُقَشِّعُ مِنَ الْوِزْرِ

(١) نَفْسَتَهُمْ . حَسَدَتَهُمْ . (٢) الْكُنْ واحدا كمة وهي حرب وحجرة تنق في العين من رمد يساء علاجه .

(٣) الْعَفْر : فية الريارة، يقال : مَا تَأْتِيَا إِلَّا عَنِّي عَمْرَأً مَعْدَقَةً رِيَارَةً وَطُولَ عَهْد .

دَفَنْتُ الهوى حَيًّا فَلَسْتُ بِزَائِرٍ * سَلِمَ لِي وَلَا صَفْراءَ مَا قَرَّ قَرَّ الْقَمَرِ
وَمُضْغَرَّةً بِالزَّعْفَرَانِ حُلُودُهَا * إِذَا أَجْنَلَيْتُ مِثْلَ الْمَفْرُطَةِ الصَّعْرِ
مَرَّتْ تَقَالَ الرَّدْفُ هَبْتُ تَلُومِي * وَلَوْ شَهِدْتُ قَبْرِي لَصَلَّتُ عَلَى قَبْرِي
تَرَكْتُ لِمَهْدَى الْأَنَامِ وَصَالَهَا * وَرَاعَيْتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ بِالْخَسْرِ
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * لَقُلْتُ فَاها أَوْ لَكَانَ بِهَا فِطْرِي
لِعَمْرِي لَقَدْ أَوقَرْتُ نَفْسِي خَطِيئَةً * مَا أَنَا بِالْمُزْدَادِ وَقُرَا عَلَى وَقَرِ
تَسَلَّى عَنِ الْأَحْصَابِ صَرَامُ حُلَّةٍ * وَوَصَّالٌ أَثَرِي مَا يُقِيمُ عَلَى أَثَرِ
وَرَكَّاضِ أَمْرَاسِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى * حَرْتُ حِمَجًا ثُمَّ اسْتَقَرْتُ فَلَا تَحْزَنِي
فَأَصْبَحَ مَا يُرَكِّبُنِي إِلَّا إِلَى الْوَعَى * وَأَصْبَحْتُ لَا يُزْرِي عَنِّي وَلَا أُرِي
فَهَذَا وَإِنِّي قَدْ شَرَعْتُ مَعَ التَّقَى * وَمَاتَتْ هُمُومِي الطَّارِقَاتُ فَمَا تَسْرِي

ثم قال يصف السفينة :

وَعَدْرَاءُ لَا تَجْرِي بِلَحْمٍ وَلَا دَمٍ * قَلِيلَةٌ شَكْوَى الْآئِنِ مُلْجَمَةُ الدُّبْرِ
إِذَا طَمَعَتْ فِيهَا الْقُلُوبُ تَشَخَّصَتْ * تُرْسَانُهَا لَا فِي وُعُوثٍ وَلَا وَغْرِ
وَإِنْ قَصَدْتُ رَلْتُ عَلَى مَتْنَبٍ * ذَلِيلُ الْقَوَى لَا شَيْءَ يَقْرَى كَمَا تَهْرَى
تُلَاعِبُ تَيَّارَ الْحُورِ وَرَبْمَا * رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِّهَا تَحْرَى
إِلَى مَلِكٍ مِنْ هَاشِمٍ فِي نُبُوءَةٍ * وَمِنْ حِمِيرٍ فِي الْمُلْكِ وَالْعَدَدِ الدُّثْرِ^(٢)
مِنَ الْمُشْتَرَيْنِ الْحَمْدُ تَنْدَى مِنَ التَّدَى * يَدَاهُ وَيَنْدَى عَارِصَاهُ مِنَ الْعَطْرِ
فَالزَّمْتُ حَبْلِي حُلٍّ مِنْ لَا يُغْنِيهِ * عُمَاةُ النَّدَى مِنْ حَيْثُ يَدْرِي وَلَا يَدْرِي
بِي لَكَ عَبْدُ اللَّهِ بَيْتَ حِلَافَةٍ * نَزَلَتْ بِهَا بَيْنَ الْفَرَاقِدِ وَالنَّسْرِ
وَعِنْدَكَ عَهْدٌ مِنْ وَصَاةٍ مُحَمَّدٍ * فَرَعَتْ بِهِ الْأَمْلاكَ مِنْ وَلَدِ النَّصْرِ

(١) كان قد قال : تَيَّارَ الْحُورِ، معناه بذلك سيبويه، حملته تيار البحور .

(٢) الدثر . الكثير .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قولَ بشار :

أيها السَّاقِيانِ صُبا شَرَّاي * وَأَسْقِيَانِي مِنْ رِيْقِ بَيْصَاءٍ رُوْدِ
 إِنْ دَانِي الظَّمَا وَإِنْ دَوَانِي * شَرِبْتُ مِنْ رُصَابِ تَغْيِيرِ بَرُوْدِ
 وَلَهَا مَضْحَكُ كَفْرِ الْأَقَاخِي * وَحَدِيثُ كَالْوَشِيِّ وَشِيِّ الْبُرُوْدِ
 نَزَلْتُ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ الْقَدِ * بِبِ وَنَالْتُ زِيَادَةَ الْمُسْتَرِيدِ
 ثُمَّ قَالَتْ نَلْقَاكَ مَعْدَ لِيَاي * وَاللَّيَالِي يُنْلِيْنَ كُلَّ حَدِيدِ
 عِدهَا الصَّرْعُ عَنْ لِقَائِي وَعِدَى * زَهْرَاتُ يَأْكُلْنَ قَلْبَ الْحَدِيدِ

طَرِبَ الْوَلِيدُ وَقَالَ : مَنْ لِي مِزْجُ كَأْسِي هَذِهِ مِنْ رِيْقِ سَلَمَى ، فَيَرَوِي طَمْئِي ، وَتَطْفَأُ عَلْتِي ،
 ثُمَّ بَكَى حَتَّى مِزَجَ كَأْسَهُ بِدَمْعِهِ ، وَقَالَ : إِنْ فَاتَنَا ذَلِكَ فَهَذَا .

مَدَحَ بشارُ حَالِدَ بْنَ رَمَكٍ فَقَالَ فِيهِ :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَجْدَى عَلَى أَبْنِ رَمَكِ * وَمَا كُلُّ مَنْ كَانَ الْعَنَى عِدهُ يُجْدَى
 حَلَبْتُ شَعْرِي رَاحَتِيهِ فَدَرَّتَا * سَمَاحًا كَمَا دَرَّ السَّحَابُ مَعَ الرَّعْدِ
 إِذَا جِئْتَهُ لِلْحَمْدِ أَشْرَقَ وَجْهُهُ * إِلَيْكَ وَأَعْطَاكَ الْكِرَامَةَ بِالْحَمْدِ
 لَهُ نِعَمٌ فِي الْقُصُومِ لَا يَسْتَنْبِيهَا * حَرَاءٌ وَكَيْلُ التَّاجِرِ الْمُدَّةَ بِالْمُدَّةِ
 مُعِيدٌ وَمِثْلُ سَبِيلِ زُرَّانِهِ * إِذَا مَا غَدَا أَوْ رَاحَ كَالْبَحْرِ وَالْمُدَّةِ
 أَحَالِدُ إِنْ الْحَمْدَ بَقِيَ لِأَهْلِهِ * حَمَالًا وَلَا تَبْقَى الْكُورُ عَلَى الْكَدِّ
 فَاطْمِمْ وَكُلْ مِنْ عَارَةِ مُسْتَرْدِهِ * وَلَا تُنْقِهَا لِابْنِ الْعَوَارِي لِلرَّدِّ

فَأَعْطَاهُ حَالِدُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُعْطِيهِ فِي كُلِّ وَفَادَةٍ خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ،
 وَأَمَرَ حَالِدُ أَنْ يَكْتُبَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ فِي صَدْرِ مَجْلِسِهِ الَّذِي كَانَ يَحْلِسُ فِيهِ ، وَقَالَ أَبُو يَحْيَى
 ابْنُ حَالِدٍ : أَخْرَجُ مَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي الْعَمَلُ بِهَدْيِ الْبَيْتَيْنِ .

وكان إسحاق الموصلي يطعن على شعر بشّار ويصع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا، ف قيل له : أنقول هذا لمن يقول :

إذا كَسَتْ في كُلِّ الأُمُور مُعَاتِبًا * صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الذِي لَا تَعَاتِبُهُ
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْصِلْ أَحَاكَ إِيَّاهُ * مُقَارِفٌ ذِي مَرَّةٍ وَجُنَابُهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى ^(٢) . ظَلِمْتُ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْهَوُ مَشَارِبُهُ

وهي من عُمرَ قصائده، مدح بها عمر بن هُبيرة، ومها قوله :

يَخَافُ الْمَسَايَا إِنْ تَرَحَّلْتُ صَاحِبِي * كَأَنَّ الْمَسَايَا فِي الْمَقَامِ تُتَابِسُهُ
فَقُلْتُ لَهُ إِنْ الْعِرَاقَ مُقَامُهُ . وَخَيْمٌ إِذَا هَتَّتْ عَلَيْكَ جَنَابُهُ
لَأَلْقَى بِي عَيْلَانِ إِنْ فَعَالَهُمْ . تَزِيدُ عَلَى كُلِّ الْفَعَالِ مَرَاتِبُهُ
أَوَّلَاكَ الْأَتَى شَقُوا الْعَمَى لِسِيوفِهِمْ * عَنِ الْعَيْنِ حَتَّى أَصْرَحَ الْحَقُّ طَالِبُهُ
وَحَيْشٌ بِكَمَحِ اللَّيْلِ يَرْحَفُ بِالْحَصَا * وَبِالشُّوكِ وَالْخَطِّ حُمْرًا تَغَالِيهِ
عَدُونًا لَهُ وَالشَّمْسُ فِي حِذْرِ أَمْتِهَا * بَطَالِمًا وَالطَّلُّ لَمْ يَنْحَرْ ذَائِبُهُ
بَصْرٍ يَذُوقُ الْمَوْتَ مِنْ دَاقِ طَعْمِهِ . وَتُذَكِّرُ مِنْ نَجْمِ الْفِرَارِ مَثَالِبُهُ
كَأَنَّ مَثَارَ الْقَعِّ فَوْقَ رَهْ وَسَا * وَأَسِيفَانَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ
بَعَثْنَا لَهُمْ مَوْتَ الْفُجَاءَةِ إِنَّا . بُوَ الْمَوْتِ حَقَاقٌ عَلَيَا سَبَابَتُهُ ^(٣)
فَرَاخُوا فَرِيقٌ فِي الْإِسَارِ وَمِثْلُهُ * قَتِيلٌ وَمِثْلٌ لَادَ بِالْبَحْرِ هَارِبُهُ
ومنها :

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ * مَشِينًا إِلَيْهِ السِّيُوفُ نَعَاتِبُهُ
رُويْدًا تَصَاهِلُ بِالْعِرَايِ حِيَادُنَا . كَأَنَّكَ بِالصَّحَاكِ قَدْ قَامَ نَادِبُهُ
وَسَامَ لَمَرَوَائِهِ مِنْ دُونِهِ الشَّحَا * وَهَوًى كَلَجَّ الْبَحْرِ جَاشَتْ غَوَارِبُهُ

(١) مقارن دس محالطه ومركبه من قارن الخطيئة اذا حالطها . (٢) القدي . ما يسقط

في الشراب من دباب أو غيره . (٣) السبائب جمع سبية ، وهي شقة من الشكك رقيقة يريد بها الأولوية .

أَحَلَّتْ بِهِ أُمُّ الْمَنَایَا بَنَاتِهَا * بِأَسِیَافِنَا إِنَا رَدَّیْ مَن نَحَارِبِهِ
وَكَا إِذَا دَبَّ الْعَدُوُّ لِسُخْطَا * وَرَاقِبَا فِی طَاهِرٍ لَا زَرَاقِبُهُ
رَكِبَا لَهُ جَهْرًا كُلُّ مُتَقِیْفٍ * وَأَبْیَصُ تَسْتَسْقِی الدِّمَاءَ مَصَارِیْهُ
وَمِنْهَا :

فَلَمَّا تَوَلَّى الْحِیَّ وَأَعْتَصَرَ الثَّرَى * لَطَى الصَّیْفِ مِنْ تَجِیمٍ تَوَقَّدَ لِأَهْلِهِ
وَطَارَتْ عَصَافِرُ الشَّقَاقِ وَأَکْنَسَى * مِنْ الْآلِ أَمْثَالَ الْمَجَرَّةِ نَاصِبِهِ
عَدَتْ عَانَةٌ تُشْکُو مَاصَارِهَا الصَّدَى * إِلَى الْجُنَابِ إِلَّا أَهْمَا لَا تَحَاطِبُهُ
وَمِنْ حَسَنِ شَعْرِهِ :

لَوْ كُنْتَ تَلْقِیْنَ مَا نَلَقِی قَسَمَتِ لَنَا * یَوْمَا نَعِیْشُ بِهِ مِنْكُمْ وَنَنْهَیجُ
لَا حِیرَی الْعِیْشِ إِنْ كَا كَدَا أَبَدَا * مَا وَی التَّلَاقِ وَلَا وَی قُبْلَةَ حَرَجٍ
مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ یَطْفُرْ بِحَاجَتِهِ * وَفَارَ مَالِطِیَّاتِ الْمَآتِکُ اللَّهُیجِ
أَشْکُو إِلَى اللَّهِ هُمَا مَا یَهَارِقِی * وَشُرْعًا فِی فَوَادِی الدَّهْرِ تَعْتَلِجِ
وَقَالَ یَهْجُو عَبِيدَ اللَّهِ بِنِ قِرْعَةٍ :

حَلِیْلٌ مِنْ كَعْبٍ أَعِینَا أَحَاكَمَا * عَلَى دَهْرِهِ إِنْ الْكَرِیمَ مُعِینُ
كَأَنَّ عَبِيدَ اللَّهِ لَمْ یَلْقَ مَا حَادَا * مَحَافَةً أَوْ یَرْجُو نَدَاءَ حَرِیرِ
وَلَا تَبْخُلَا بُحْلَ ابْنِ قِرْعَةٍ لِمَا * وَلَمْ یَدْرُ أَنَّ الْمَكْرَمَاتُ تَكُونُ
فَقُلْ لِأَبْنِ یَحْیَى مَتَى تُدْرِكُ الْعِلَا * وَوِی كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَیْكَ یَمِینُ
إِذَا جِئْتَهُ فِی حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ * فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَیْمُنُ
وَقَدْ عَلَى حَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ فَأَنْشَدَهُ :

أَحَالِدُ لَمْ أَخِیْطِ إِلَیْكَ بِدَمَةٍ * سِوَى أَنْحَى عَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ^(٢)
أَخَالِدُ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْحَمْدِ حَاجَتِی * فَأَتِیْهُمَا تَأْتِی فَاَنْتَ عِمَادُ

(١) المائة : القطعة من الخیر . والحجاب : ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى ماصارها أو العطش قد تبين وأحداها
صارت ، وهذا من أحسن ما وصفت به الحمار والأثر . (٢) أى لم اطلب معروفك موسلا اليك بعد أوقرة .

فَإِنْ تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي * وَإِنْ تَأْبَ لَمْ يُضْرَبْ عَلَى سِدَادٍ
رَكَضَى عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مَشْبَعٌ * وَمَالِي أَرْضَ الْبَاخِلِينَ بِلَادِ
أَدَا أَمَكْرَتِي بِلَدَةً أَوْ بَكْرَتَهَا * نَحَرَجْتَ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادِ

فدعا خالد أرمه آلاف ديارى أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله،
وآخرين يديه، وأخر حلقه، وقال : يا أبا معاذ، هل استقل العباد؟ فلمس الأكياس ثم قال :
استقل والله أيها الأمير .

قال أنا س عد الحميد : نزل في ظاهر العمرة قوم من أعراب قيس بن عيلان ،
وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشار يأتهم ويشدهم أشعاره التي يمدح بها قيسا، فيحلونه
لذلك ويعظمونه، وكان نساؤهم يجلس معه ويتحدثن إليه ويشدهن أشعاره في الغزل،
وكت كثيرا ما أتى في ذلك الموضع فسمع منه ومنهم، فأتيتهم يوما فاذا هم ارتحلوا، فجئتُ
إلى بشار فقلت : يا أبا معاذ : أعلمت أن القوم قد ارتحلوا؟ قال : لا، فقلت : فاعلم، قال :
قد علمت لا علمت، ومصيتُ، فلما كان بعد ذلك أيام سمعتُ الناس يشدون :

دعا هراق من تهوى أناؤ * ففاض الدمع وأحرق الجنانُ
كأن شرارة وقعت بقلبي * لها في مقلتي ودمي أسننان
إذا أنشدت أو نسمت عليها * رياح الصيف هاح لها دحان

فعلمت أنها لبشار، فأتيتُه فقلت : يا أبا معاذ، ما دعي إليك؟ قال : دُبُّ عراب الين،
فقلت : هل دكرتني بعير هذا؟ قال : لا، فقلت : أنشدك الله ألا تزيد، فقال : أمص
لشأنك فقد تركك .

مدح بشار المهدي فلم يُعطه شيئا، فقيل له : لم يستجد شعرك، فقال : والله لقد
قلتُ فيه شعراً لو قيل في الدهر لم يُحشَّ صرْفُه على أحد، ولكنَّا نكذب في القول فيكذب
في الأمل .

مدح بشار سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقبياً بحزان ونوح اليه ، فأنشده قوله فيه :

نَأْتِكَ عَلَى طُولِ التَّجَاوُرِ زَيْبُ * وما شعرت أَلْ تَوَى سَوْفَ تَشْعَبُ
يرى الناسَ ما تَلْقَى بَزَيْبٍ إِذَا نَأَتْ * عجيباً وما تُخْفِي بَزَيْبٍ أَغْبَى
وقائلة لى حَيْثُ حَدَّ رَحِيلُهَا * وأَجْفَانُ عَيْدِهَا تَجْوُدُ وَتَسْكُبُ
أَغَادٍ إِلَى حَرَّانٍ فِي عَيْرِ شَيْعَةٍ * وذلك شَأْنٌ عَنْ هَوَاهَا مُعْتَرِبُ
فَقُلْتُ لَهَا كَلَفْتَنِي طَلَبَ الْعَنَى * وليس وراءَ آبنِ الْخَلِيفَةِ مَذْهَبُ
سَيَكُنِي قَتَى مِنْ سَعْيِهِ حَدُّ سَيْفِهِ * وَكَوْرٌ حِلَاقِي وَوَجْنَاءُ دِغْلِبِ^(١)
إِذَا اسْتَوَعَرْتُ دَارَ عَلَيْهِ رَمَى بِهَا * بِأَتِ الصُّوَى مِنْهَا رُكُوبٌ وَمُضْغَبُ
فَعَدَّى إِلَى يَوْمِ أَرْتَحِلَ وَسَائِلِ * زَوْرَكَ وَالرَّحَالَ مِنْ جَاءَ يَضْرِبُ
لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَيْقِنَى أَنْ رَوْرُقِي * سَلِيَانٍ مِنْ سِيرِ الْهَوَاجِرِ تُعْقِبُ
أَغْرَتِ هِشَامِي الْقَهَاءِ إِذَا آتَمَتِ * نَمَّتْهُ بِدُورٍ لَيْسَ فِيهِ كَوْكَبُ
وَمَا قَصَدْتُ يَوْمًا خَلِيلِينَ حِيلَهُ * فَتُصَرَفُ إِلَّا عَنْ دِمَاءِ تَصَبُّ

موصله سليمان بحسبة آلاف درهم ، وكان ينجل ، فلم يرصها وأنصرف عنه مضطرباً ، فقال :

إِنْ أَمْسَ مَقْصَصُ الْيَدَيْنِ عَنِ الْيَدَى * وَعَنِ الْعَدُوِّ مَحْجِسُ الشَّيْطَانِ
فَلَقَدْ أَرَوْحَ عَلَى الْكُفَامِ مَسْلُطًا * نَلِجَ الْمَقِيلُ مُنْعَمَ النَّدَامِ
فِي ظِلِّ عَيْشٍ عَشِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ * تَنْدَى يَدَى وَيُحَافُ قَرَطُ لَسَانِ
أَزْمَانٍ حَبِيبِي الشَّبَابُ مَطَاوِعِ * وَإِذَا الْأُمَيْرُ عَلَى مَنْ حَرَانِ
رِيمٍ بِأُخْيَوةِ الْعِرَاقِ إِذَا بَدَا * بَرَقَتْ عَلَيْهِ أَكْلَةُ الْمَرْجَانِ
فَاخْتَلَّ بِعَبْدِهِ مَقْلَتِيكَ مِنَ الْقَدَى * وَيَوْشَكَ رُؤْيَاهَا مِنَ الْهَمَلَانِ
فَلَقَرْتُ مِنْ تَهْوَى وَأَنْتَ مَتِيمٌ * أَشَقَى لِدَائِكَ مِنْ بَى مِرْوَانِ

(٢) وحاء دغلب أى مائة شديدة سرعة .

(١) الحلاق : الرجل العليل .

قدم بشار على المهديّ - الرصافة فدخل عليه في البستان، فأنشده مديحا فيه تشبيب
 حسن، فنهاه عن التشبيب لِعِيرة شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :
 كأنما حُتُّه أبشُرُهُ * ولم أحيُّ راغبا ومُحتَبَا
 يزير المبر الأشمَ بِعَطْفِي * به وأقواله إذا خَطَا
 نَتمَّ نَعلاه في السَّدى كما * يُشتم ماءُ الرياح مُتَبَا
 قال : وقد طلب منه أن يُشده شيئا من عزله :

وقائل هات شوقًا فقلتُ له * أناثمُّ أنتَ يا عمرو بر سَمْعان
 أما سمِعتَ بما قد شاع في مُصِر * ووي الحليقين من نَكِرٍ وحَقْطان
 قال الخليفة لا تَنسَبْ بجارية * إياك إياك أن تَشقى بمصيان

وقال له المهديّ : قل في الحب شعرا ولا تَطُل، وأجعل الحت قاصيا بين المحبين
 لا تُسم أحدًا، فقال :

أجعل الحبَّ بين حَبِّي وبَيِّي * قاصيا لِمَنى به اليوم راص
 واجتمعا فقلت يا حَبِّ نفسي * إن عيني قليلةُ الإِعماض
 أنتَ عَذِبتني وأملحت حُسمى * فأرحم اليوم دائِمَ الأمراض
 قال لي لا يَحِلُّ حَكِي عليها * أنتَ أولى بالسقم والإِعراض
 قلتُ لما أحابى بهواها * شَمِلَ الجورُ في الهوى كل قاض

فمعت إليه المهديّ : حكمتَ عليا ووافقا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشار في عشق السَّمْع :

يا قومُ أدنى لِمِص الحى عاشقَةً * والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا
 قالوا بمن لا تَرى تَهْدِي فقلتُ لهم * الأذنُ كالعين تُوفِي القلبَ ما كانا
 هل من دواءٍ لمشغوفٍ بجارية * يَلقى بُلقيانها رَوْحًا وريحانا

وقال في مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلقها * قلبي فأصحي به من حتمًا أترُّ
أنى ولم ترها تهدي فقلتُ لهم * إن المؤاد يرى مالا يرى البصرُ
أصبحتُ كالحائم الحيران مجتَنًا * لم يقضِ وردًا ولا يُرجى له صدرُ

وقال :

يزهدنى في حُبِّ عَنَدَةِ مَعَشَرٍ * قلوبهم فيها غائلةٌ قلبي
فقلتُ دعوا قلبي وما أختار وأرتضى * فبالقلب لا بالعين يُصردُ والحبُّ
فما تنصر العيان في موضع الهوى * ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسُّ إلا كلُّ حسٍ دعا الصبا * وألف بين العشق والعاشق الصبُّ

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تقِرُّ * إياك أعمى وعمدك الخبرُ
أدعت بعد الألى مصوًا حرقًا * ما صاع ما أستودعوك إذ نكروا

وقال :

إبر سُلَيْمى والله يكلوها * كالسُّكَّرِ يزداد على السُّكَّرِ
بلَّغتُ عنها شكلا فأعنى * والسَّمْعُ يكفك عَيْبَةَ الْقَمَرِ

وقال وقد مدح المهديَّ حرمة :

حليلي إن العسر سوف يُفِيق * وإن يسارا في عَدِّ تَخْلِيْقِ
وما كسْتُ إلا كالزمان إذا صحا * صفوتُ وإن ماق الزمان أموق^(١)
أأدما لا أسطيع في قلة الثرا * نُحُورًا ووشيا والقليل محيق
خدى من يدي ما قل إن زماننا * شُمُوسٌ ومعروفُ الرجال رقيق
لقد كسْتُ لأرصى بأدنى معيشة * ولا يَسْتَكِي بحلّا على رقيق

(١) ماق : حق في عادة .

حليّة- إن المال ليس بسامع * إذا لم يَسَلْ منه أَحٌ وصديق
وكسَتْ إذا صاقت على- مَحَلَّةٌ^(١) * تَتَمَتُّ أخرى ما على- تصيق
وما حاب بين الله والناس عامل - له في التقى أو في المحامد سُور
ولا صاق فصلُ الله عن متعَفِّف * ولكن أخلاقَ الرجال تَصِيْق

هما نَسَار يعقوب بن داود وزير المهديّ- فقال :

بى أُمَيَّة هُبُوا طال بومُكم * إن الحليعة يعقوب بن دَاوُد^(٢)
صَاعَتْ حلافتكم يا قوم فالبَسُوا * حليعةَ الله بين السّاي والعُود

فاتمه عبد المهديّ بالزندقة وقال : إنّه قد هجا المهديّ ، فأمر ، فَضُرَبَ بالسِّياط حتى مات .

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموال ، وقد استوزره الحليعة المهديّ وسلبه الأمور كلها

وأشتمل هو نالاهور .

٢ - حماد بن عمار^(١)

«ولو أني أحببت أن أختص حمادا لوصفته قل كل شيء بحجة الطبع، وسوء الخلق،
وحب الاستقام، والإسراع إليه، ثم بالصرحة في القول، والملازمة بينه وبين العمل،
ويكره النفاق والانصراف عنه، لا يعنيه أرى الناس عنه أم يحطوا عليه، ثم بحجة اللسان
ومصيبه وإقداعه وكلفه بفاحش القول وبحته عن أسوته وأقبحه، ثم بالسحرية من الناس
وأردائهم، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة كالوليد ومطيع وأبي نواس،
بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء يتخلص بها كلما صاقت عليه المدايب
وأحدثت عليه، أو دعت إلى ذلك حاسة. لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء
والانصراف عن التناقض، وإنما كان صديقا مخلصا حتى تبدوله حاجة أو تسح له فرصة
أو تصطره ضرورة؛ فإذا صداقته قد استحال إلى عداة، وإذا هو ليس أقل صدقا
وإخلاصا في العداة منه في المودة والحب: فقد مدح يحيى بن رباد وأحمد صديقا وقال
جوائزه، ثم كان الخلاف بينهما. وصادق بسارا وصافاه، ثم احتصما فلم يعرفا في الخصومة
رحمة ولا رقا. وصاق مطيعا وأحبه ومدحه وأكثر في الشاء عليه، ثم اختصما في أمراء
مرة وفي عليم مرة أخرى، فهما وأقذع في هاتين. وكان على هذا كله يؤثر شعره
وصروراته على البر بالناس في معاملتهم: هما ذات يوم رجلا يقال له حشيش وجعل اسمه
قافية لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في ذمه فشبّه بحشيش، وكان بحشيش هذا رجلا من أهل النصرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولد عامر من معصمة. نشأ في الكوفة ثم واسط. وعاصر الدواوين، لكنه سعى في الدولة العباسية بعد أن تادم الوليد بن يزيد الأموي. وجاء بعدد أيام المهدي ومعه مطيع بن إلياس ويحيى بن رباد، وكلهم من المجبيين في دينهم. وحماد من الشعراء المهيبين، وكان ماحظا طريفا حليما متبعا في دينه مرييا بالرياسة. وأدرك شاربا من ردوله مع ألعاف فاحشة، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا، غالبا كان أو حليفا. توفي سنة ١٦٦ هـ. ومحمد ترجمته في الأغاني (ج ١٣ ص ٧٣) وابن حنبل (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والعهدة (ص ٩١). (٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وإدعًا لا يعرف حمادًا ولا يعرفه حمادٌ، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جرع له وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة فعاتب حمادًا، فقال له حماد صاحبًا معتذرًا: لا بأس عليك فإن هذا من آثام القافية ولن أعود إليه .

وكان السبب في مهاجمة حماد وبشار أن حمادًا كان نديما ليافع بن عقيقة، فسأله بشار تمييزًا حاجة له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشار فيه :

مَوَاعِيدُ حَمَادٍ سَمَاءٌ مَحْمِلَةٌ * تَكْشِفُ عَنْ رَعْدٍ وَلَكِنْ سَتَبْرُقُ
إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى عَيْدٍ : كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ مَا لَيْسَ يَصْدُقُ
وَفِي نَافِعٍ عَنِّي حَقَاءُ وَإِنِّي * لِأَطْرُقُ أَحْيَانًا وَذُو اللَّبِّ يَطْرُقُ
وَلِلْمُقَرَّى قَوْمٌ فَلَوْ كَسْتُ مَهْمٌ * دُعِيتُ وَلَكِنْ دُوْنِي اللَّابُ مُغْلَقُ
وَمَا زِلْتُ أَسْتَأْنِيكَ حَتَّى حَسَرْتَنِي * بُوْعْدِ بَكَارَى الْآلِ يَخْفَى وَيَحْفَقُ

فغضب حمادٌ وأنشد نافعًا الشعر فمع بشارا، فقال بشار :

أَنَا عَمِيرُ مَا يُطْلَاسُ بِكَ حَاجَةٌ * وَلَا فِي الذِّى مَسْتَبْنَأُ ثُمَّ أَصْحَرَا
وَعَدْتَ فَلَمْ تَصْدُقْ وَقُلْتَ عَدَا عَدَا * كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ شَرِبًا مُؤْتَرَا

فكان ذلك سبب التهاجي بين بشار وحماد . وكان بشار يرى حمادًا بالزندقة ، وفي ذلك يقول :

إِبْرُ نَهَى رَأْسَ عَلَى تَقِيلُ * وَأَحْتِمَالُ الرُّعُوسِ خَطْبُ جَلِيلُ
أُدْعُ عَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِنْتِي * مِنْ فَنَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ
يَا بَنُ نَهَى بَرِئْتُ مَكَ إِلَى اللَّهِ جِهَارًا وَذَلِكَ مَنَى قَلِيلُ

فأشاع حمادٌ هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان : « فَنَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » « فَنَانِي عَن وَاحِدٍ مَشْغُولُ » ليصبح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبيات تدور في الناس حتى انتهت إلى بشار، فأضطرب منها وجرع وقال : أشاط ابنُ الفَاعِلَةِ بِدَمِي، والله ما قلتُ إلا « فَنَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » فغيرها حتى شهرت في الناس .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على اتفاقٍ منهما ورِعاً بأن ينقل
إلى كل واحد منهما وعه الشعر، فدخل يوماً إلى بشار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال آس
الفاعلة ؟ فأنشده :

إِنْ تَاهَ بَشَارٌ عَلَيْكَ فَقَدْ . أَمَكَنْتُ بَشَاراً مِنَ التَّيِّهِ
فقال بشار : ماى شئٍ ويحك ؟ فقال :

وذاك إِذِ سَمَيْتُهُ نَاسِمْه * وَلَمْ يَكُنْ حُرّاً نُسَمِيهِ
قال : سَمَيْتُ عَيْنَهُ ، فَبَايَ شَيْءٌ كُنْتُ أَعْرِفُ ! إِيْهِ ، فقال :

فَصَارَ إِسْماً يَذْكُرِيْ لَهُ * مَا يَنْتَفِي مِنْ بَعْدِ ذِكْرِيْهِ !
فقال : مَا صَغَ شَيْئاً ، إِيْهِ وَيْحَكَ ! فقال :

لَمْ أُنْجِ بَشَاراً وَلَكِنِّي * هَوْتُ نَفْسِي سَهْجَانِيْهِ
فقال : عَلَى هَذَا الْمَعْنَى دَارَ وَحَوْلَهُ حَامٌ . وَتَمَامُ الْأَبْيَاتِ :

لَمْ آتِ شَيْئاً قَطُّ فِيمَا مَصِي * وَلَسْتُ فِيمَا عَشْتُ آتِيْهِ
أَسْوَأُ لِي فِي النَّاسِ أُحْدُوْتَهُ * مِنْ خَطَا أَخْطَاَتِهِ فِيهِ
فَاصْصَحِ الْيَوْمَ لِسِّيْ لَهُ * أَعْظَمَ شَأْناً مِنْ مَوَالِيْهِ

وقال بشارُ لِرَاوِيَةِ حَمَادٍ : مَا هَجَايَ بِهِ الْيَوْمَ حَمَادُ ؟ فأنشده :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّيَ الْ * ذِي وَالِدِهِ نُزْدُ

فقال : صَدَقَ أَنَّ الْفَاعِلَةَ مَا يَكُونُ ؟ فقال :

إِذَا مَا نُسِبَ النَّاسُ * فَلَا قَوْلٌ وَلَا نَعْدُ

فقال : كَذَبَ ، أَيْنَ هَذِهِ الرَّصَاتُ مِنْ عُقِيلٍ ! مَا يَكُونُ ؟ فقال :

وَأَعْمَى قَلْطَبَاتٌ^(١) مَا * عَلَى قَاذِفِهِ حَدُّ

فقال : كذب ، بل عليه ثماونَ حَلْدَةٌ ، هيه ، فقال :

وَأَعْمَى يُشْبِهُ الْقِرْدَ * إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شبّهني بقِرْدٍ ، حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! ثم صفق بيديه وقال .
ما حِيلَتِي ! يراني فُيْشِبْنِي ولا أراه فَأُشْبِه . وتأمّ الأبيات :

دَنِيٌّ لَمْ يَرْجُ يَوْمًا * إِلَى تَجْدٍ وَلَمْ يَمْدُ

وَلَمْ يَخْصُرْ مَعَ الْخَصَا * رِي خَيْرٍ وَلَمْ يَبْدُ

وَلَمْ يُخَشَّ لَهُ دَمٌ * وَلَمْ يُرْجَ لَهُ حَمْدُ

جَرَى بِالنَّخْسِ مُدْكَانٌ * وَلَمْ يُخَيَّرْ لَهُ سَعْدُ

هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَاتَ * فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ فَقْدُ

وقال عليّ بن مهدي . أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد تجرّد لبشار إلا أرسون
بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من المعاء أكثر من ألف بيتٍ حميد . وكلُّ واحدٍ منهما هو الذي
هتَكَ صاحبه بالزندقة وأطهرها عليه ، وكأنا محتَمعان عليها ، فسقط حمادٌ وهتَكَ منفضل بلاغة
نُشَارَ وجودة معانيه ، وبقي نُشَارُ على حاله لم يسقط ، حتى عُرف مذهبُه والزندقة فقتل به .
ومن أعطى ما هجا به حمادُ بشاراً :

هَرَّاهُ أَحْبْتُ مِنْ لَيْلِهِ * وَيَوْمَهُ أَحْبْتُ مِنْ أَمْسِهِ

وَلَيْسَ بِالْمُقْلِعِ عَنْ غَيِّهِ * حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ

كان حمادُ صديقاً ليحيى بن زياد ، فأنظر يحيى تورّعاً وقراءةً وزُوعاً عما كان فيه وهجر
حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكرَ عنده ثلَبَه وذَكَرَ تَهْتَكُه ومُجُونُه ؛ فلَمَ ذلك حماداً فكتَبَ إليه :

هَلْ تَذْكُرْتُ دَلِيلِي إِلَيْهِ * لَكَ عَلَى الْمُصَمِّرَةِ الْقِلَاصُ

أَيَّامُ تُعْطِينِي وَتَأْ * حُدُّ مِنْ أَبَارِيقِ الرِّصَاصِ

إِنْ كَانَ نُسُكُكَ لَا يَتِي * ثُمَّ غَيْرَ شَيْءٍ وَأَنْتَقَاصِي

أَوْ كَيْتَ لَسْتَ بَغِيرِدا * لَكَ تَتَالِ مَنَزَلَةُ الْخِلَاصِ

فعليك فاشتمُ آميَا * كل الأمان من القصاص
 وأقعد وُقْمَ بى ما بدا * لك فى الآدأى والأقاصى
 فلطالما زكَّيتنى * وأنا المقصمُ على المعاصى
 أيامَ أنتَ اذا ذُكر * تُ مُناصلُ عني مُناصى^(١)
 وأنا وأنتَ على آرتكا * بالمؤبقات من الحِراس
 وبنا مَواطُرُ ما بنا * فى البرِ أهلةُ العِراس

فاتصل هذا الشعرُ بيجي س زياد ، فسب حمادا الى الرندقة ورماه بالخروج عن الإسلام ،
 فقال حماد فيه :

لا مُؤمنٌ يُعرَفُ إيمانه * وليس يَجى بالحقى الكافر
 مساقٍ طاهره ناسكٌ - محالفُ الباطلِ للظاهر

كان حمادُ صديقاً لحُرَيْثَ س أبى الصلتِ الثَّقَفِيّ ، وكان يعبه بالبعث ، وفيه يقول :

حُرَيْثُ أبو الفضلِ ذو خبيرة * بما يُصلِحُ الممدِ العاسده
 تحوُّفُ نُجْمَةِ أصيافه * مموِّدهمُ أكلةً واحده

ومن قوله :

ألا قُلْ لعبد الله إتك واجدٌ * ومثلُك فى هذا الزمانِ كثيرُ
 قطعتَ إحائى طالِباً وهجرتنى * وليس أنى من فى الإحياء يحور
 أديم لأهل الودِّ ودَى وإمى * لمن رام هجرى طالِباً لهجور
 ولو أن يعصى رابى لقطعتُه * وإنى يقطعُ الرائيى جدير
 فلا تحسبن متحى لك الودَّ حالِصا * لعزُّ ولا أنى إليك فقير
 ودونك حظى منك لستُ أريده * طوَالِ الليالى ما أقام نِير^(٢)

(١) ماص : مدافع ، من قولم لاصاه ماصاة : أحذكل ماصية صاحبه . (٢) نير : اسم حل .

كان حماد صديقا لحفص بن أبي بردة ، وكان حفص أعمش أنطس أعصب مُبجّ
الوجه ، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدثون ، فأخذ حفص يطلع على
مُرقش ويعيب شعره ويلجّه ، فقال له حماد :

لقد كان في عينك ما حفص شاعِلٌ * وأيف كئيل العودِ عما نَتَعُ
نَتَبَّعُ حَما في كلام مُرقشٍ . ووجهك مني على الحسن أجمع
فأدماكَ إقواءً وأفك مُكَمَّأً * وعيناك إيطاءً فانت المرقعُ

ومن قوله :

إني أحك فاعلي * إن لم تكوني تعلّمي
حبا أقلّ قليله . كجميع حبّ العالميا

وأشيد شارقول حماد عجرد :

أني كُف عن لومي فلأنك لا تدري * فما فعل الحُ المترح في صدى
أني أنت تلحاني وقلبك فارِعٌ . وقلبي مشغول الجوايح بالعكر
دوائى ودائى عد من لو رأيتَه . قلّ عينه لأقصرَت عن زحري
فأقسم لو أصحت في لوعه الهوى * لأقصرَت عن لومي وأطبّت وعذري
ولكن كلاتي منك أنك ناصحٌ . وأنت لا تدري بأنك لا تدري

فطرب بشأركم قال : ويلكم أحسن والله ! من هذا قالوا : حماد عجرد . قال : أوّه وكَلْمُونِي
والله قبيّة يومى لهم طويل ، والله لا أطعم قبيّة يومى طعاما ، ولأصومنّ عما بما يقول
السّطيّ مثل هذا .

قال محمد بن الفضل السّلولي : لقيت حماد عجرد بواسط وهو يمشى وأنا راكب ، فقلتُ
له : أنطلق بنا الى المنزل ، فإني الساعة فارِعٌ لتحدث ، وحبست عليه الدابة ، فقطع شغلُ
عرّص لي لم أقدر على تركه ، فصيتُ وأنسيتُه ، فلما بلغتُ المنزل خفتُ شرّه فكتبتُ اليه :

أَبَا عُمَرَ أَغْفِرْهَا هُدَيْتَ فَإِنِّي * قَدْ أَذْنَنْتُ ذَنْبًا مَحِطْنَا غَيْرَ عَامِدٍ
فَلَا تَحِدَنْ فِيهِ عَلَيَّ فَإِنِّي * أَقْرِ بِإِجْرَائِي وَلَسْتُ بِعَائِدٍ
وَهَبْهُ لِي تَقْدِيدِكَ نَفْسِي فَإِنِّي * أَرَى رِجْمَةً أُنْكَتَ لَسْتُ بِوَاحِدٍ
وَعُدْ مِنْكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * فَإِنَّكَ دُونَ فَصْلِ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ

فَأُحَابِي عَنِ الْأَبْيَاتِ :

مُحَمَّدُ يَا أَبَا الْفَضْلِ إِذَا الْحَمَامِدِ * وَيَا بَهْجَةَ الْوَادِي وَزَيْنَ الْمَشَاهِدِ
وَحَقِّكَ مَا أَذْنَنْتَ مَدَّ عِرْفَنِي * عَلَى حَطَا يَوْمًا وَلَا عَمْدٍ عَامِدٍ
وَلَوْ كَانَتْ مَا أَلْقَيْتِي مُتَسَرِّعًا * إِلَيْكَ بِهِ يَوْمًا تَسْرَعُ وَاحِدٍ
وَلَوْ كَانَتْ ذُو فَضْلٍ يُسَمَّى لِفَصْلِهِ * بِعِيرِ اسْمِهِ سُمِّيَتْ أُمُّ الْقَلَانِدِ

فَمِنَا رَقْعَتُهُ وَبَدَى وَأَمَا أَقْرَؤُهَا إِذَا جَاءَنِي رَسُولُهُ رَقْعُهُ فِيهَا :

قَدْ غَفَرْنَا الذَّنْبَ يَا بَا أَلِ * فَفَصْلٍ وَالذَّنْبُ عَظِيمُ
وَمِيسَى أَنْتَ يَا بَا أَلِ * فَفَصْلٍ فِي دَاكِ مُلِيمُ
حِينَ تَحْشَى عَلَى الذَّنْبِ * بِكَمَا يُحْشَى اللَّئِيمُ
لَيْسَ لِي إِنْ كَانَ مَا حَفَّ * سَتَ مِنْ الْأَمْرِ حَرِيمُ
أَنَا وَاللَّهِ وَلَا أَدُ * حَرًّا لِلْفَيْطِ كَقُطُومِ
وَبِأَصْحَابِي وَلَا رِي * سَةً بَرٍّ وَرَحِيمِ
وَبِمَا يُرْضِيهِمْ عَنِّي * سِي وَيُرْضِيَنِي عَلِيمِ

كَانَ عُثْمَانُ بْنُ شَيْبَةَ مُبْجَلًا وَكَانَ حَمَادٌ يَهْجُوهُ ، بَجَاءَ رَجُلٍ كَانَ يَقُولُ الشَّعْرَ إِلَى حَمَادٍ

فَقَالَ لَهُ :

أَعِنِّي مِنْ غَاكِ بَهْتِ شِعْرِ * عَلَى فَقْرِي لِعُثْمَانَ بْنِ شَيْبَةَ

فَقَالَ :

وَإِنَّكَ إِنْ رَضِيتَ بِهِ حَالِيًّا * مَلَأْتَ يَدِيكَ مِنْ فَقْرٍ وَخِيَةِ

فقال له الرجل : جَزَاكَ اللهُ حَيْرًا فَقَدْ عَرَفْتَنِي مِنْ أَخْلَاقِهِ مَا قَطَعَنِي عَنْ مَدْحِهِ وَصَنَّتْ وَحْيِي عَنْهُ .

لما مات محمد بن أبي العباس طلب محمد بن سليمان حماد عمود لما كان يقوله في أخته زبيب من الشعر ، فعلم أنه لا مقام له معه بالبصرة ، فاستحار بقبر أبيه سليمان بن علي وقال فيه :

مِنْ مُقَرٍّ بِالذَّنْبِ لَمْ يُوجِبِ الدَّ * هُ عَلَيْهِ سَيِّئٌ إِفْرَارًا
لَيْسَ إِلَّا نَفْضُلٌ حَلَمَكِ يَعْدُ * تَدَّ سَلَاءٌ وَمَا يَعْدُ اعْتَرَارًا
يَا ابْنَ بَنِي النَّبِيِّ أَحْمَدُ لَا أَحَدُ * عَلَّ إِلَّا إِلَيْكَ مَكَ الْفِرَارَا
عَيْرَ أَتَى حَمَلْتُ قَبْرِ أَبِي آيُو * بَلَى مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ جَارَا
وَحَرِيٌّ مِنْ اسْتَحَارَ بِذَاكَ الْ * يَقِرُّ أَنْ يَأْمَنَ الرَّدَى وَالْعِثَارَا
لَمْ أَحِدْ لِي مِنَ الْعِبَادِ مُحِيرَا * فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْمَارَا
لَسْتُ أَعْتَاضُ مَكَ فِي نُفْيَةِ الْعِزَّةِ حَقَّاتٍ كُلَّهَا أَوْ بَزَارَا
فَأَمَّا الْيَوْمَ جَارُ مِنْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ * ضِ مُحِيرٌ أَعَزُّ مِنْهُ جَوَارَا
يَا ابْنَ بَنِي النَّبِيِّ يَا خَيْرَ مَنْ حَقَّ * بَلَى إِلَيْهِ الْقَوَارُ الْاُكْشَارَا
إِنْ أَكْبَى مَذْنِبًا فَانْتَ أَبْنُ مِنْ كَا * نَ لِمَنْ كَانَ مَدِينًا عَقَارَا
فَاعْفُ عَنِّي فَقَدْ قَدَّرْتَ وَحِيرَا * عَفُو مَا قَلْتُ : كُنْ ، فَكَانَ آفِتْدَارَا
لَوْ يُطِيلُ الْأَعْمَارَ جَارُ لَعَزَّ * كَانَتْ حَارِي يُطَوِّلُ الْأَعْمَارَا

فقال : والله لأبْلُغَنَّ قَبْرَ أَيْ مِنْ دَمِهِ ، فِهْرَبَ حَمَادَ إِلَى بَغْدَادَ ، فَعَاذَ بِمُحَمَّدِ بْنِ الْمُصْطَوِّرِ فَاجَارِهِ ، وَقَالَ : لَا أَرْضَى أَوْ تَهْجُوَ مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمَانَ ، فَقَالَ يَهْجُوهُ :

قُلْ لَوْ جِهَ الْخَلِصِيَّ ذِي الْعَارِإِي * سَوْفَ أُهْدَى لِزَيْنَبِ الْأَشْمَارَا
قَدْ لَعَمْرِي فَرَرْتُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْ * فِي وَأَنْكَرْتُ صَاحِبِي نَهَارَا
وَضَلْتُ الْقُبُورَ تَمْنَعُ جَارًا * فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْمَارَا

كَتُّ عَدَّ اسْتَجَارَتِي يَا بِي آيَةٌ * يَوْبُ أَنِّي صَلَالَةٌ وَحَسَارَا
 لَمْ يُجِيرْنِي وَلَمْ أَجِدْ فِيهِ حِطًّا * أَضَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ الْقَبْرَ أَرَا
 فَبَلَغَ هَاجِزُهُ مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيحٍ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يُعَلِّتُنِي أَبَدًا ، وَإِنَّمَا يَزِدُّهُ حَتْمًا بِلِسَانِهِ ! وَلَا وَاللَّهِ
 لَا أَغْفُو عَنْهُ وَلَا أَتَفَاعَلُ أَبَدًا .

ومن قوله :

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيَجْنِي عَنكَ عُسْرَتَهُ * حَتَّى تَرَاهُ عَيَّاً وَهُوَ تَجْهَدُ
 وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلٌّ * زُرْقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْحُهُ سُودُ
 إِذَا تَكْرَمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ * تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
 أَبْرِقْ بِحَيْرِ تَرْجِي لِلْوَالِ مَا * تُرْجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
 بُتُّ السَّوَالِ وَلَا تَمْنَعُكَ قِلَّتُهُ * فَكُلُّ مَا سَدَّ فَقْرًا هُوَ مَحْمُودُ

وقال أيضا :

كَمْ مِنْ أَمْرٍ لَكَ لَسْتَ تُشْكِرُهُ * مَا دَمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ
 مُتَصَنِّعٌ لَكَ فِي مَوَدَّةِ * يَلْقَاكَ بِالْتَّرْحِيبِ وَالْبُشْرِ
 يُطْرَى الْوَفَاءُ وَذَا الْوَفَاءُ وَيَدُ * حَتَّى الْقَدْرُ مَجْتَهِدًا وَذَا الْقَدْرُ
 فَإِذَا عَدَا ، وَالذَّهْرُ ذُو عَيْرٍ ، * دَهْرٌ عَلَيْكَ عَدَا مَعَ الدَّهْرِ
 فَارْقُصْ بِإِحْمَالٍ مَوَدَّةَ مَنْ * يَقْلِي الْمِقْلُ وَيَعْشُقُ الْمُثْرَى
 وَعَلَيْكَ مَنْ حَالَاهُ وَاحِدَةٌ * فِي الْعُسْرِ إِمَّا كُنْتَ وَالْإِسْرِ
 لَا تَحْلِطَنَّهُمْ فِيهِمْ * مَنْ يَحْلِطُ الْعِقَابُ بِالْصُّغْرِ !

وهو القائل في محمد بن طلحة :

زُرْتُ أَمْرًا فِي بَيْتِهِ مَرَّةً * لَهُ حَيَاءٌ وَلَهُ حَيْرٌ
 يَكْرَهُ أَنْ يُنْغِمَ إِخْوَانَهُ * إِنْ أَذَى التُّحْمَةِ مَحْذُورُ
 وَيَسْتَهْجِي أَنْ يُؤْجَرُوا عِنْدَهُ * بِالصُّومِ وَالصَّائِمُ مَا جُورُ
 يَا ابْنَ أَبِي شُهَدَةٍ أَنْتَ أَمْرٌ * بِصَحَّةِ الْأَبْدَانِ مَسْرُورُ

وهو القائل في محمد بن أبي العباس السفاح :

أرجوك مد أي العباس إدانا * يا أكرم الناس أعراقاً وأغصانا

لوح عودٌ على قوم عصارته * لمج عودك فيا المسك والبانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهواز ، فأقام هناك مُستتراً ، وطلع محمدا خبره فأرسل مولى له الى الأهواز ، فلم يزل يطلبه حتى طهر به فقتله عيلةً . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فربشيز في طريقه ، فمرض بها ، فأصطغر الى المقام بسبب علته ، فأشدت مرضه فمات هناك ودُفن على تلعة . وكان بشار بلغه أن حماداً عليلٌ ، ثم بُعِيَ اليه قبل موته ، فقال بشار :

لو عاش حماد لهُوّا به * لكّته صار الى النار

فبلغ هذا البيت حماداً قبل أن يموت وهو في السّياق^(١) ، فقال يردّ عليه :

بُئتُ بشاراً نعانى ولا * محوت برأى الخالق البارى

يا ليتنى مت ولم أجه * نعم ولو صرتُ الى النار

وأى آخرى هو أخرى من آن * يُقال لى يأس^(٢) بشار

فلما قتل المهديّ بشاراً بالطيحه اتفق أن يُحمل الى منزله ميتاً ، فدُفِن مع حماد على تلك التلعة ، فتربها أبو هشام الباهليّ الشاعر المصري الذي كان يُهاجى بشاراً ، فوقف على قبريهما فقال :

قد تبع الأعمى قفا عجير * فأصبعا جارّين في دار

قالت يقاع الأرض لا مرجاً * نُقرب حمادٍ وبشار

تخاورا بعد تنائيهما * ما أبغض الجار الى الجار

صارا جميعا في يدى مالك * في النار والكافر في النار

٣ - مروان بن أبى حفصة^(١)

« لم يكن مروان متصرفاً فى مئون الشعر، ولعله لم يعمد منها فداً أو مئياً، فلنسا عرف له عزلاً إلا هذا العزل الذى تعود الشعراء أن يبدؤا به مدائحهم ، ولنسا عرف له هجاء إلا هذا الحق من الهجاء الذى يصطر اليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم . على أن موقف مروان كان فى هذا دقيقاً جداً ، فهو لم يكن ينصر على العباس على بى أمية فيبلغ منهم ما يريد ، ويهجوهم فى حرية ، وإنما كان السيف هو الذى أنتصر للعباسيين من بى أمية ، وكان العباسيون فى حاجة الى من يصبرهم على العلويين وأتباعهم من بى هاشم ، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً ! كان الذين يأباه فى ذلك الوقت ، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً ، فالعلويون من بى هاشم وهما هم هجاء للعباسيين ، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين الذين ناصلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف ، فكان دفاعهم أبلغ ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك الشتاميين المسرفين فى الشتم ، ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموالى أصل حده من سى اصطخر ، وكان علامة اشتراء غناى من عجاج ووهبه لمروان من الحكم ، وأقام بعدد بالجماعة ، وقد احتفلوا فى حقيقة اسمه . شت مروان على كره الشيعة لأنه من موالى بى أمية وقد حارب معهم ، وكان شجاعاً مجزاً ، فلما سعى الشعر قدم بعدد ومدح المهدي ثم الرشيد ، وكان يتقرب اليه بهجاء العلويين ، وهو من الصحول المقتدئين ، أول من شهره ونزهه من رائدة الحواد المشهور بقصيدة بوية مدحه بها ، مطلقها .

من رائدة الذى ريدته * شرفاً على شرف سوشيات

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معا مطلقها

سومطريوم اللقاء كأنهم * أسود لهم فى نطن حفاك أشبل

فأحاره عليها بمال كثير ، فكانت كلها راده من عطاء راده مروان مدحا . توفى سنة ١٨١ هـ . وتجد أحاده فى الأغاني (ح ٩ ص ٣٦) وارس حلكا (ح ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وجماعة الأدب (ح ١ ص ٤٤٧) والمهرست لأبى الديق (ص ١٦٠) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لمروان مُجُونًا وَلَا عَبَثًا، فلم يكن كما قلنا ماجًا ولا عابثًا وإنما كان بحيلة، والبخل والعبث شيان لا يتفقان، ومن ضنَّ على نفسه بالحلم وطَيَّبَتِ الطعام لم يستبح لنفسه نحرًا ولا ما تستبعه الخمر . ثم لا يعرف لمروان نحرًا وما تحسب أنه فاجر أو مال إلى الفخر، فقد كان رجلاً عملياً يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضنُّ بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد . لم يعرض إذن إلا لفئتين أثين : المدح والرثاء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء وهذا طبعيٌّ، فهو راعبٌ حين يمدح، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمقولُّ أن يُجيد وأن يبلغ من الإحادة حقًا عظيمًا، أما في الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالا وإنما يقي بهمد ويشكر صنعة . ومقولُّ أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإحادة إلا أن يكون حساسًا دقيق الشعور راقٍ النفس، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء، وإنما كان كما قلتُ لك رجلاً عملياً يريد المال . على أن رثاءه لم يمس بالردى وكذلك رثاؤه للهدى، وهل نستطيع أن نمدَّ رثاءه للهدى رثاء! هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد، فيه ذكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المثوبة والعطاء . فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء .

أما مدح مروان من آيات المدح العربي، ونحن لا نخفط منه إلا متمزقات قليلة ولكنها تكفي لحكم أن مروان كان قد اتقن المدح وبرع فيه، بل نحسب أنه برز في هذا الفن على غيره من المعاصرين، ولكنَّ مدح مروان ينقسم إلى قسمين متمايزين : أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجه لمع بن زائدة، فهو يفتن في وصف معن بالجلود والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح معن شيان الذين يتمنى إليهم معن، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سمة الشعراء من قبله، ولكنه جيد المعاني مُتقاهًا، حسَّ الألفاظ صافيها .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان يُشده الخلفاء من بني العباس، وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا المضال السياسي

الذى كان يحتاج الى مَهارة وِعِطمة ودَقَّة وخَفَّة ، والذى كان يصطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن يصُر العاسيين دون أن يزدري خصومهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أعضب العلويين لا لأنه آذاهم أو هاجم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا عيدا ما هرا في الحصار .

ثم هناك شيان لا بد من الإشارة اليهما ليكمل رأينا في مروان، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلا إن صحَّ هذا التعبير .

الأول : أن مروان لم يكن عراقياً ولم يرص الإقامة في العراق ولم يُطل عشرة العراقيين من أهل الحُبون والعت ، وإنما كان من أهل البصرة أقام فيها لا يترجها إلا واعداً على أمير أو وري أو حليفة، فإذ أنشد قصيدته وظَمير مجازته عاد الى البصرة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ، وهو أقرب الى شعر الحاهليين والإسلاميين منه الى شعر المُحدثين من شعراء الحصاره العاسية ، تفرؤه فتجد عليه هذه المسحة التي تحلو أو تكاد تحلو من الدعابة والخفة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يُمثل البادية تمثيلاً صحيحاً ، ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رعى علماء اللغة جميعاً عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أننا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إيثارة على تشار وأبي نُوَّاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أئى لهم ذلك ! وقد سلط الله عليهم لسان شار وأبي نواس فاضطروا الى أن يحاؤوا هذين الشاعرين ويتمتقوها ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإيثارة على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يُعنى بها علماء اللغة وهي وجهة المثانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يُقاس الى مروان في هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرَّقها الشاعر ، وقُرَّب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبي نُوَّاس . نوع خاص ، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعاً شريفاً في قبه لا يخاف .

ولا يهاب فصَدَقَ نفسه وصَدَقَ الناسَ، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالمُ اللغويّ هو ابن الأعرابي الذي حتم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من محدّثين بعده، والذي كان يشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الحيدة من شعر مروان، وهي:

بُسُو مَطِيرِ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ
 هُمُ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا
 هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا
 وَلَا يَسْتَطِيعُ الْعَاغِلُونَ مَعَالِمَهُمْ
 أَسْوَدُ لَهَا فِي نَظَرِ خَفَّانٍ أَشْبَلُ
 لِحَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَاءِ كَيْنِ مَنْزِلُ
 كَأَقْلَمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
 أَحَاوُا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَاوُوا وَأَجْرَلُوا
 وَإِنْ أَحْسَوْا فِي النَّشَاتِ وَأَجْلَلُوا

وكان ابن الأعرابي يقول: لو أن معنّا أعطى مروان كل ١٠ يملك هذه الأبيات لما بلغ حقه .

الثاني: أن مروان لم يكن سريعا في الشعر ولا متعجلا ولا مسترسلا مع الطبع وإنما كان بطيئا متمهلا . كان يجيد الشعر لأنه كان يُحَوِّدُهُ . كان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها في هذه القصائد التي يُسمونها الحَوَلِيَّاتِ، كان يُنْفِقُ أَشْهُرًا فِي إِشْيَاءِ الْقَصِيدَةِ وَأَشْهُرًا فِي إِصْلَاحِهَا وَأَشْهُرًا فِي عَرْضِهَا حَتَّى إِذَا اسْتَقَامَ لَهُ هَذَا كُلُّهُ أَتَشَدُّ قَصِيدَتُهُ لِمُدْوَحِهِ حَلِيفَةً كَانَ أَوْ وَرِيرًا أَوْ أَمِيرًا، فليس عجيبا مع هذه الأناة أن يحلوشعره مما يُسْتَنَكَّرُ وَأَنْ يَبْرَأَ مِنَ الصَّعْفِ وَالْوَحْشَةِ مَعَا . ولقد يُحَدِّثُا الرِّوَاةُ بِطَائِفَةٍ مِنْ أَخْبَارِ مَرْوَانَ مَعَ اللَّغَوِيِّينَ وَالشُّعْرَاءِ الَّذِينَ كَانَ يَعْزِضُ عَلَيْهِمْ شَعْرَهُ قَبْلَ أَنْ يُنْشِدَهُ الْخُلَفَاءَ . وَلَسْتُ أَشِيرُ إِلَّا إِلَى سِيرَتِهِ مَعَ بَشَارِ فَلَهَا مَعْنَاهَا . كَانَ مَرْوَانُ يَعْزِضُ الْقَصِيدَةَ عَلَى بَشَارٍ وَيَسْأَلُهُ رَأْيَهُ فِيهَا فَلَا يَجِيبُهُ بِشَارٌ بِأَنَّهَا جَيِّدَةٌ أَوْ أَنَّهَا رَدِيئَةٌ، بَلْ يُقَدِّرُ لَهُ قِيَمَةَ الْقَصِيدَةِ مَالِيًّا، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا .. وقد صدق بشار مرتين فأظهر له مروانُ الْعَجَبَ مِنْ ذَلِكَ، فقال بشار: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنِّي أَطْلُ الْغَيْبِ! وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الْغَيْبَ،

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التي كان من شأنها أن تُحزَل
حظ مروان من المعطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تافص مفهوم، كان شديد الحرص على الإجابة، فكان
يشك في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك معجبا بنفسه لا يقدم
عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والمرزوق وجري . وأسَمع رأيه فيهم
وفي نفسه ، فقد عَقَدَه شعرا لَيَثَبَتْ كما يقول :

ذَهَبَ الْفَرَزْدُقُ بِالْفَخَارِ وَإِنَّمَا * حُلُو الْقَرِيضِ وَثَرُهُ بِالْحَرِيرِ
وَلَقَدْ هَمَّا فَاَمْضَ أَخْطَلُ تَغْلِبَ ~ وَحَوَى اللَّهُمَّ بَيَانَهُ الْمَشْهُورِ
كُلُّ الثَّلَاثَةِ قَدْ أَجَادَ مَدْحَهُ * وَهَجَاؤُهُ قَدْ سَارَ كُلَّ مَسِيرِ
وَلَقَدْ جَرَيْتُ فُتُّ عَيْرِ مَهْلَلٍ ~ بِجِرَاءٍ لَا قَرِيفٍ وَلَا مَبْهُورِ
إِنِّي لَأَنْفَ أَنْ أَحْتَرِمِدَحَهُ * أَبَدًا لِفَيْرِ حَلِيفَةِ وَوَزِيرِ
مَا صَرَفَنِي حَسَدُ النَّسَامِ وَلَمْ يَزَلْ * دُو الْفَصْلِ يَحْسُدُهُ ذُوو التَّقْصِيرِ

أما رأى مروان في القديع، كان يُنشد الشعر لأمرئ القيس ويقول : هو أشعرُ
الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو
أشعر الناس، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فزأهم حينما أشعر الناس ، قال
صاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأي يمثل الشك في نقد الناقدين
المعاصرين والسخرية بهذا القديع .

وننتقل من ذاك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبي حفصة على المهدي بعد وفاة معن ، فأنشده مديحا فيه ، فقال

له المهدي : أَلَسْتَ الْغَائِلُ :

أَقْنَأَ بِالْإِمَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ * مُقَامَا لَا تُرِيدُ بِهِ زَوَالَا
وَقَلْنَا أَيْنَ نَزَعْلُ بَعْدَ مَعْنٍ * وَقَدْ دَهَبَ النُّوَالُ فَلَا نُوَالَا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب بوالنا^١ لا شيء لك عسدا . فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فتتلى بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ حَتَّى حَيَّاهَا * بِصَاءُ تَحْلِيْطٍ بِالْجَمَالِ دَلَالُهَا
قَادَتْ فَوَادَكَ فَاسْتَفَادَ وَمِثْلُهَا * قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالُهَا
مَكَاتَمَا طَرَقَتْ سَعْدَةُ رَوْصَةٍ * تَحَتَّى بِهَا دِيمُ الرَّبِيعِ طِلَالُهَا
نَاتَتْ نَسَائِلَ فِي الْمَنَامِ مُعَرَّسًا * بِالْيَبِيدِ أَشْعَثَ لَا يَمَلُّ سَوَالُهَا
وَفِي حَيْثُ هَجَمُوا عِرَارًا عَسَدًا * سَمِعُوا مُرَاعِشَةَ السُّرَى وَمِطَالُهَا
فَكَانَ حَشْوُ ثِيَابِهِمْ هِدِيَّةً * نَحَلَتْ وَأَعْمَلَتْ الْقِيُونَ صِقَالُهَا
وَصَعُوعَا الْخُلُودِ لَدَى سَوَاهِمِ جُجَحٍ * تَشْكُو كُتُومَ صِفَاحِهَا وَكَلَامُهَا
طَلَبَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاصِلَتْ * عَسَدَ السُّرَى يَفْدُوْهَا أَصَالُهَا
زَعَتْ إِلَيْكَ صَوَادِيًا فَتَقَادَفَتْ * تَطْوِي الصَّلَاةَ حُرُونَهَا وَرَمَالُهَا
يَتَمَنَّ نَاحِيَةً يَهْزُ مِرَاحُهَا * عَسَدَ الْحَوْلِ تَلِيْلُهَا وَقَذَالُهَا^(١)
هُوَاءٌ تَدْرِعُ الرُّبَا وَتَسْقِيهَا * شَقَّ الشَّمْسُ إِذَا تُرَاعَ حِلَالُهَا
تَجْمُو إِذَا دَمَعَ الْقَطِيعُ كَمَا نَحَتْ * نَحْرَاءُ^(٢) مَادَرَتْ الظَّلَامَ رِثَالُهَا^(٣)
كَالْقَوْسِ سَاهِمَةٌ أَنْتَكَ وَقَدَّرْتُ * كَالْبُرْجِ تَمَلُّ رَحْلَهَا وَجِبَالُهَا

ومنها .

أَحِبَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * سُنَنِ النَّبِيِّ حَرَامُهَا وَحِلَالُهَا
مَلِكٌ تَقْصِرُ نَسَبُهُ مِنْ هَاشِمٍ * مَدَّ الْإِلَهَ عَلَى الْأُمَامِ ظِلَالُهَا
جَبَلٌ لِأَمْنِهِ تَلُوذُ بَرَكْنِهِ * رَادَى جِبَالِ عَدُوِّهَا فَأَزَالُهَا

(١) التليل : العتيق . (٢) تجمو : تسرع . (٣) النحرعاء : العامة . (٤) الرثال : مزاج

التيامة واحدا رآل .

لم يَنْفَسْهَا مِمَّا يَخَافُ عَظِيمَةً * إِلَّا أَحَالَ لَهَا الْأُمُورَ مُجَاهَا
 حَتَّى يُفَرِّحَهَا أَعْمُرٌ مَهْدَبٌ * أَلْفَى أَبَاهُ مُفَرِّجًا أَمَانَهَا
 نَتَتْ عَلَى زَلَلِ الْحَوَادِثِ رَاكَّةٌ * مِنْ صَرَفِهِنَّ لِكُلِّ حَالٍ حَالَهَا
 كِلْتَا يَدَيْكَ جَعَلْتَ فَصَلَ نَوَالِهَا * لِلْسَّالِمِينَ وَلِلْعَدُوِّ وَبَالَهَا
 وَقَعَتْ مَوَاقِعُهَا بِمَعْوَكِ أُنْصُسٍ * أَذْهَبَتْ بَعْدَ مَخَافَةٍ أَوْحَالَهَا
 وَنَصَبَتْ بِهَسْكَ حَيْرَتِمْسٍ دُونَهَا * وَحَلَّتْ مَالِكٌ وَاقِيًا أُمُومَهَا
 هَلْ تَعْلَمُونَ حَلِيفَةً مِنْ قَلْبِهِ * أَجْرَى لَغَايَتِهِ الَّتِي أَجْرَى لَهَا
 طَلَعَ الدُّرُودَ مُشْمَرًا عَنِ سَاقِهِ * بِالْحَيْلِ مُنْصَلِتًا يُخِذُ سَاعَهَا
 قُوْدٌ تَرِيحُ إِلَى أَعْمَرٍ لَوْحِهِ * نَوْرٌ يُضِيءُ أَمَامَهَا وَحِلَالَهَا
 قَصُرَتْ حَمَائِلُهُ عَلَيْهِ فَقَلَصَتْ * وَلَقَدْ مَحَقَّتْ قَيْئَهَا فَاطَمَهَا
 حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ حَيْلِهِ * حَيَّحَانَتْ عَلَى الْعَدُوِّ رَعَالَهَا ^(١)
 أَحْمَى بِلَادَ الْمَسَالِمِينَ عَلَيْهِمْ * وَأَمَّا سَهْلٌ مَلَادِهِمْ وَجَاهَهَا
 أَدَمَتْ دَوَارَ حَيْلِهِ وَشَكِيمَهَا * عَارَاتُهَا ^(٢) وَأَلْحَقَتْ أَطَامَهَا
 لَمْ يَبْقَ بَعْدَ مُعَارَاها وَطَرَادِهَا * إِلَّا نَحَاثَتُهَا ^(٣) وَإِلَّا آلَهَا
 رَفَعَ الْخَلِيفَةُ بَاطِرِيَّ وَرَاشِيَّ * بِيَدِ مَارَكَةٍ شَكَرْتُ نَوَالَهَا
 وَحُسَيْدَتْ حَتَّى قِيلَ أَصْبَحَ نَاعِيَا * فِي الْمَشِيِّ مُتَوَفٍّ شَيْءٍ مُخْتَالَهَا
 وَلَقَدْ حُدُوتَ لِمِ الْأَطَاعِ وَمِنْ عَصَى * بَعْلًا وَرَثَتْ عَنِ النَّبِيِّ مَثَالَهَا

فزحف المهدي من صدر مُصَلَّاهُ حَتَّى صَارَ عَلَى الْإِسْطِاطِ لِعَجَابٍ بِمَا سَمِعَ ، ثُمَّ قَالَ :
 كَمْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةُ بَيْتٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَكَانَتْ أَوَّلُ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُعْطِيَهَا
 شَاعِرٌ فِي أَيَّامِ بِي الْعَبَّاسِ ، وَهَكَذَا هَلْ مَعَهُ الرَّشِيدُ لَمَّا أُنْشِدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَعَمْرُكَ مَا أُنْسَى عِدَاةَ الْمُخَضَّبِ * إِشَارَةَ سَلَمَى مَالِبَانَ الْمُخَضَّبِ

وَقَدْ صَدَرَ الْمُخَاحُ إِلَّا أَقْلَهُمْ * مَصَادَرُ شَيْءٍ مُوَكِّبًا بَعْدَ مُوَكِّكِ

قال مروان : دخلتُ على المهدي في قصر السلام ، فلما سلّمت عليه وذلك يعقب يُخطّطه على يعقوب بن داود ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن يعقوب رجل رافضي ، وإنه سمعني أقول في الوراثة :

أني يكونُ وليس داك نكاثي * لئى الساتِ وراثته الأعمام
فذلك الذى حمله على عداوتي ، ثم أشدته .

كانت أمير المؤمنين محمدا * لرأفته بالاس للاس والد
فقال له المهدي : والله ما أعطيك إلا من صلب مالى ، فاعيدنى ، وأمرنى بثلاثين ألف درهم وكساي جبة ومطرًا ، وفرص لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .

لما قديم معن من إيمان دخل عليه مروان والمجلس عاص أهله ، فأخذ بعضادى الباب وأنشأ يقول :

أرى القلب أسمى بالأواص مولعا * وإن كان من عهد الصا قد تمتعا
ويقول فيها :

ولما سرى الهم الغريب قريته * قري من ازال الشك عنه وأزما
عمرت ففعلت الرحيل ولم أكن * كذى لؤثة لا يطلع الهم مطالعا
فأمت ركابى أرض معني ولم تزل * الى أرض معني حيثما كان نزعنا
نحاث لولا أنها شحرت لى : أنت عزة من جهلها أن توزعا
كسونا رحال الميس^(١) مها عواربا * تدارك فيها^(٢) التى صيفا ومرعا
ها بلغت صغاء حتى تواصعت * ذراها وزال الجهل عنها وأقلما

الى أن قال :

وما البعث أذ عم البلاد بصوبه * على الناس من معروف معني بأوسعا
تدارك معن قبة الذين بعدما * خشيما على أوتادها أن تنزعنا

(١) الميس شجر عظيم يتقدمه الرجال . (٢) التى الشم .

أقام على الثغر الخوف وهاشم * تُساق سِماما بالأَسنة مُنَعَفَا
 مُقامَ آمري يابى سوى الخُطَّة التي * تكون لدى عِبِ الأحاديث أهما
 وما أجمم الأعداء عك قِيَّة * عليك وليكن لم يروا فيك مَطْعَمَا
 رأوا مُخْدِرًا قد حَرَّوه وعايوا * لدى عَيْسِله منهم بَجْرًا ومَصْرَمَا
 وليس بثأيه ادا شَدَّ أن يرى * لدى نَحْرِهِ زُرْقُ الأَسنة شُرْعَا
 له راحَتان العَيْثُ والخُتْفُ فيهما * أبى الله إلا أنْ تُصْرَا وتَنْفَعَا
 لقد دَوَّج الأعداء مَعْنُ فاصحوا * وأمَّعُهم لا يدفع الذَّلَّ مَدْفَعَا
 نَيْبُ مَاجِبِ وسَيْدِ سَادَةِ * دُرَى المَجْدِ من قَرَعَى زَارِ تَفْرَعَا
 لبانت خِصَالُ الخَيْرِ فيه وَأَكَلَتْ * وما كَلَّتْ نَحْسًا سِوَهُ وأَرْبَعَا
 لقد أَصْحَتْ في كل شَرِّ ومَغْرِبِ * بسِيكَ أَعَاقِ المُرِيَّينَ خُصْمَا
 وَطَلَّتْ حُدُودُ الحَصْرَمِيِّ وَطَاءَ * لها هُدَّ رَكْبُ مِنْهُمْ قَصَصْمَا
 فاقْعَوْا على الأَذْدَابِ إقْعَاءَ مَغْشِيرِ * يرون لروم السَّلْمِ أُنْقَى وأَوْدَعَا
 ولو مُدَّتْ الأَيْدِي إلى الحرب كُلِّهَا * لكَفُّوا وما مَدَّوا إلى الحرب أَصْبَعَا

فقال له مَنْ . احتكم ، قال عشرة آلاف درهم ، فقال مَنْ : رَجِحَا عليك تسعين ألفا ،
 قال . أَقْلَى ، قال : لا أَقَالَ الله من يُقِيلُكَ .

لما مات المهديّ وقَدَّت العرب على موسى الهادي يُهَيِّئُوهُ بالخِلافة ويُعَزِّوْنَهُ عن
 المهديّ ، فدخل مروان فأحد بعِصَادَى الباب وقال :

لقد أَصْحَتْ نَحْتَالُ في كل بلدٍ * تَقْبِرُ أمير المؤمنين المَقَابِرُ
 ولو لم تُسَكَّنْ نَابِيهِ في مَكَانِهِ * لما بَرَحَتْ تَبْكِي عَلَيْهِ المَابِرُ

مرض عمرو بن مَسْعُودٍ فدخل عليه مروان وقد أَلَّ من مَرَضِهِ ، فأنشأ يقول :

صَحَّ الجِسْمُ يا عَمْرُو * لك التَّمْهِيصُ والأَجْرُ
 والله عَلِيَا الحِمْدِ * دُ وَالْمِئَةِ وَالشُّكْرِ
 فَقَدْ كَانَ شَكَا شَوْقًا * إِلَيْكَ التَّهْيِ وَالْأَمْرِ

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبى حفصة فى وقت من الأوقات سبعين ألف درهم، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيد، فيها نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مزيد، وكانت فيه دُعاة، فقال : يا أبا على، أودعنى مروان خمسين ومائة ألف درهم، وهو يشتري الخبز من البقال، فنصب يحيى ثم قال : على بمروان، فأقْبى به، فقال له : قد أحْبَرنى أبو خالد بما أودعته من المال وما تتناعه من البقال، والله لَسَأْرى من أثر البخل عليك أصرّ من الفقر لو كان بك . ويروى أنه قال له : والله لتلحل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صرّت إليه فلا بخل . وقال عمر بن شبة قال مروان : ما فرحتُ شئاً قطّ فرحى بمائة ألف وهبها لى أمير المؤمنين المهديّ، فوزنتها فزادت درهما، فاشتريت به لحما . وقال جهم بن حلف : أتينا اليمامة فركبنا على مروان بن أبى حفصة فأطعمنا تمرا وأرسل علامه فُلس وسُكَّرحه ليشترى زيتا، فلما جاء بالزيت قال لعلامه : حُتْنى، قال : من فُلس ! كيف أخوك ؟ قال : أحدثت الفُلس لفلسك وأستهوت الزيت . وقال التّوزي : مرّ مروان بن أبى حفصة فى بعض سفراته وهو يريد مغنى امرأة من العرب، فأضافته، فقال : لله على إن وهب لى الأمير مائة ألف أن أهَب لك درهما، فأعطاه ستين ألف درهم، فأعطاهما أربعة دنانير . وقال أبو دعامة : اشترى مروان لحما بصرف درهم فلما وضعه فى القدر وكاد ينصج دعاه صديق له، فردّه على القصاب بنقصان دانق، فشكاه القصاب وجعل يبادى هدا لحم مروان، وطقن أنه يأنف لذلك، فبلغ الرشيد ذلك فقال . ويلك ! ما هذا ؟ فقال أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادى فأشده قوله فيه .

تَشَابَهَ يَوْمًا مَاسَهُ وَنَوَالِهِ . مَا أَحَدٌ يَدْرِى لَأَيِّهَا الْفَصْلُ

فقال له الهادى : أيتما أحبّ اليك ؟ أتلائون ألفا معجّلة، أم مائة ألف تدوّن فى الدواوين ؟ فقال له . يا أمير المؤمنين، أنت تُحسّ ما هو خير من هدا، ولكّلك أنسيته، أفئادنى لى أن أدكرّك ؟ قال : نعم، قال : تُعْجَل لى الثلاثين ألفا وتدوّن المائة ألف فى الدواوين، فصحك وقال : بل يُعْجَلان جميعا، فحُمِلَ اليه المال أجمع .

قال محمد التوفلي : أحْتَاز مروان برجل من بَاهِلَةٍ من أهل اليمامة ، وهو يُشَدُّ قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروان بن محمد ، وأنه قُتِلَ قبل أن يلقاه ويُشَدَّ إياه ، أوله :
مروانُ يابِسَ محمدَ أنتَ الذي * زِيدَتْ به شرفا بسو مروانِ

فأعجبته القصيدة ، فأمهل الباهلي حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إني سمعت قصيدتك وأعجبتني ، ومروان قد مصى ومصى أهلُه ، وفاتك ما قَدَّرَتْ عده . أفبئني القصيدة حتى أُنْقَلِها ، فإنه حيرك من أن تبقى عليك وأنت فقير ؟ قال : نعم ، قال :
لكم ؟ قال : بثلاثمائة درهم ، قال : قد آتيتها ، فأعطاه الدراهم وحلَّقه بالطلاق ثلاثا وبالأيمان المُخْرِجَةِ ألا يتحلَّها أبدا ، ولا يَلْسَها الى نفسه ولا يُشَدَّها ، وأصرف بها الى منزله فغيرَ منها أبياتا وزاد فيها وحلَّها في مَعْنٍ ، وقال في ذلك البيت :

مَعْنُ بن زائدة الذي زِيدَتْ به * شرفا على شرف بو شيبانِ

ووجد بها الى معن حتى أثيرى وأتسعت حاله ، فكان معن أول من رفع ذكره وتوه به .
وله فيه مدائحٌ بعد ذلك شريفة ومراثٍ حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا ، فحدثني معن باليمن أنه أصطَرَّ لشدة الطلب الى أن قام في الشمس حتى لَوَحَتْ وجهه ، وحَقَفَ عارضيه ولحيتيه ، وليس جُبَّة صوف عليظة ، وركب جملا من الجمال الثقالَةِ يصعى الى البادية فيقيم بها . وكان قد ألى في حرب يزيد ابن عمر بن هُثيرة بلاء حسنا عاظ المنصور وَحَدَّ في طلبه ، قال معن : فلما خرجتُ من باب حرب يعني أسود متقلِّدا سيفاً حتى اذا غبْتُ عن الحرس قصص على حِطَّام جملي فأناخه وقبص عليّ ، فقلت له : مالك ؟ قال : أنت طَلِيَّة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى يَطْلُبَنِي أمير المؤمنين ؟ قال : معن ابن زائدة ، قلت : يا هدا ، آتق الله ، وأير أنا من معن ؟ قال :
دع هذا عك ، فأنا والله أعرفُ بك منك ، فقلت له : فإن كانت القصَّة كما تقول ، فهذا جوهر حملته معي يَفي بأصعاف ما بذله المنصور لمن حاءه بي ، نخذه ولا تسمك دمي ، قال :
هانه ، فأخرجته اليه ، فنظر اليه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولستُ قابله حتى أسألك

عن شيء، وإن صدقتني أطلتكت، فقلت : قل، قال : إن الناس قد وصّوك بالحدود فأحترني، هل وهبتَ قُطْ مالك كله؟ قلت : لا، قال : فنصفه؟ قلت : لا، قال : فثلثه؟ قلت : لا، حتى بلغ العشر، فاستحييتُ، فقلت : أظن أني قد فعلت هذا، فقال : ما أراك فعلته، أنا والله راحل وررقي من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك، ووهنتك لنفسك ولحدوك المأثور عك بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا أحوَدَ منك فلا تعجبك نفسك، ولتُحقّر بعد هذا كل شيء، تفعله ولا تتوقف عن مكربة، ثم رمى بالعقد في بحري وحلّى حِطام العير وأنصرف، فقلت : يا هذا، قد والله فضحتني وأسفكُ دمي أهون عليّ مما فعلت، لقد ما دفعته اليك إني عنيّ عه، فصيحك وقال : أردت أن تكذبني في مقامى هذا، والله لا أحده ولا أحد بمعروف ثما أبداً ومهص، هو الله لقد طلته بعد أن أُميت وبذلت لمن حاءى به ما شاء، مما عرفت له حبرا وكأن الأرض ابتلعتة. وكان سبب رصا المنصور عن معن أنه لم يرل مسترا حتى كان يوم الاثنين^(١)، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه، وثب معن وهو مثلث فاستصى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسنا وددت القوم عه حتى نجا وهم يحاربونه بعد. ثم حاء والمنصور راكب على بعة ولجأهما بيد الربيع فقال له : تنج إني أحق بالتمام منك في هذا الوقت وأعظم فيه عاء، فقال له المنصور : صدق فادفعه إليه، فأحده ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحال، فقال له المنصور : من أنت؟ لله أولك^١ قال : أنا طليتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة، قال : قد أملت الله على نفسك ومالك ومثلك يُصططع، ثم أحده معه وحلج عليه وحباه وزيه، ثم دعا به يوما فقال له : إني قد أملتك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال : كما يُحِبُّ أمير المؤمنين، قال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى يُنقَصَ حلف ربيعة واليمن، وأبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين بـ فولاه اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى

(١) مدينة ساما السامع بالكوفة وذلك أنه لما ولّى الخلافة رل قصر آس هيرة واستتم ساء وحمله مدينة وسماها الهاشمية، فكان الناس يدسوها إلى ابن هيرة على العادة، فقال : ما أرى ذكر آس هيرة يسقط عنها، فرصها ورى حيالها مدينة ساما الهاشمية ورها.

أسرف. قال مروان: وقديم معن يعقب ذلك فدخل على المنصور، فقال له بعد كلام طويل:
قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء، لولا مكأك عده ورأيه فيك لَغِصِبَ عليك؛ قال:
وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك:

معنُ بُو زائدة الذي زيدتُ به . شرقاً على شرف بنو شيبان
إن عُدَّ أيام الصعال فإنما * يوماه يومٌ ندى ويومٌ طعان

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُهُ ما بَلَغَكَ لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله:

ما زِلْتُ يَوْمَ المِشَاثَةِ مُعَلِّماً * بالسيف دونَ حليمةِ الرحم
معمتُ حَوْرَتَه وكنت وِقَاءَه * مِنْ وقعِ كُلِّ مَهْتَدٍ وَسِان

فأسعجها المنصور وقال: إنما أعطيتُهُ ما أعطيتُهُ لهذا القول؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛
والله لولا محافة الشُّنَّةِ لَأَمَكَّتُهُ من معاتيج بيوت الأموال وأبجته لِيَاها؛ فقال له المنصور:
لله دَرَكٌ من أعراقي! ما أهونَ عليك ما يَعرَى على الرجال وأهل الحزم!

وأحتم هذه الترحمة بموت مروان يَقْصُهُ قَاتِلُهُ . روى صاحب الأغاني عن رجل
يقال له صالح بن عطية الأَصَحَمُ أنه قال:

لما قال مروان:

أَنْى يَكُونُ وليس ذاكُ بكائِي . لبي الساتِ وِرائهُ الأعمام

لَزِمَتْهُ وعاهدت الله أن أعتاله فأقتله أَىَ وَقِيْتُ أَمَكْنَى، وما زلتُ أَلَاطِفُهُ وأَرُهُ، وأكتب
أشعاره حتى خُصِصْتُ به فأنس بى جدا، وعرفتُ ذلك بو حفصة جميعا فأنسوا بى،
ولم أزل أطلب غِرَّةً حتى مَرِضَ من حُمى أصابته، فلم أزل أظْهر له الجزع عليه والألزمة
والأطفه حتى حلا لى البيت يوما، فوئدتُ عليه فأخذتُ بَحَلْقِهِ فما فارقه حتى مات، فخرجتُ
وتركتُه فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه مَيِّتاً وأرتفعت الصَّيْحَةُ، فحصرْتُ وتباكيتُ
وأظهرتُ الجزع عليه حتى دُفِنَ وما قِطِنَ لما فعلتُ أحد ولا أتهمنى به .

٤ - أبو دَلَامَة ^(١)

كَانَ أَوَّلُ مَا حُطَّ مِنْ شَعْرِهِ وَأُسْنِيتِ الْجَوَائِزُ لَهُ بِهِ ، قَصِيدُهُ مَدَحُهَا أَمَا جَعْفَرُ الْمَصُورُ
وَذَكَرَ قَتْلَهُ أَنَا مُسْلِمٌ يَقُولُ فِيهَا :

أَمَا مُسْلِمٌ حَوْفَنِي الْقَتْلَ فَأَتَحَى * عَلَيْكَ بِمَا حَوْفَنِي الْأَسَدَ الْوَرْدُ

أَمَا مُسْلِمٌ مَا عَرَّ اللَّهُ نَعْمَةً * عَلَى عَدُوِّهِ حَتَّى يُعِيرَهَا الْعَدُوَّ

أَشْدَّهَا الْمَصُورَ وَ تَحْفِلُ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ : أَحْكَمْ ، فَطَلَبَ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمًا ،

فَأَمَرَ لَهُ بِهَا ، فَلَمَّا حَلَا قَالَ لَهُ : يَا هَ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ تَعَدَّيْتَهَا لَقَتَلْتُكَ .

أَمَرَ أَبُو جَعْفَرٍ أَصْحَابَهُ لِيُبْسَ السَّوَادَ وَقَلَانِسَ طُؤَالٍ تَدْعُمُ بَعِيدَانِ مِنْ دَاخِلِهَا ، وَأَنْ يُعَلِّقُوا
السُّيُوفَ فِي الْمَنَاطِقِ وَيَكْتُمُوا عَلَى طُهُورِهِمْ : ﴿ قَسَّيْكَفِيكُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فَقَالَ
أَبُو دَلَامَةَ :

وَكَمَا رَحِمَنِي مِنْ إِمَامٍ رِيَادَةً * فَخَادَ طُؤَالٍ زَادَهُ فِي الْقَلَانِسِ

تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّحَالِ كَأُهَا * دِيَانُ يَسُودُ حُلَّتْ بِالْبِرَاسِ

وَدَخَلَ إِلَى الْمَصُورِ مَرَّةً فَأَشْدَّه .

إِنِ الْخَلِيطُ أَحَدَ الْبَيْتِ فَاتَّحَعُوا * وَزَوَّدُوكَ حَالًا ، نَبَسًا صَعَوْا

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ كَادَتْ لِيَبْنِهِمْ * يَوْمَ الْفِرَاقِ حَصَاةُ الْقَلْبِ تَصَدِّعُ

نَحِيتُ مِنْ صِبْيَتِي يَوْمًا وَأُمَّهُمْ * أُمُّ الدَّلَامَةِ لَمَّا هَاجَهَا الْجَرَعُ

(١) هوريد بن الحو، وسمى أبا دلامة نسبة إلى اسمه دلامة، وهو كوفي المنشأ أسود اللون مولد لبني أسد،

وكان أبوه عبد الرحل منهم فأعتقه . أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية، ولكنه سعى في الدولة العباسية، وأقطع
إلى أبي العباس السفاح والمصور والمهدى، وكانوا يقصدونه ويصلونه ويستطيون بحماه وبنوادره، وفيه دعاة
وطرف، لا يخلو حديثه من نكتة أو ملحة، وكان مع ذلك معسودا في حملة التهمين بالردة ومصاد الدين،
وكان يشرب الخمر ولا يحصر صلاة ولا فريضة . توفي سنة ١٦١ هـ . وأحاربه في الأعاني (ح ٩ ص ١٢٠) وابن
حلكان طبع بلاق (ح ١ ص ٢٦٧) والشعر والشعراء (ص ٤٨٧) والدميري (ح ١ ص ١٣٢) والمستطرف
(ح ٢ ص ٤٣) . (٢) في الشعر والشعراء . "أما محرم" . (٣) في الطبري ح ٢ ص ٣٧١ طبع أوروبا
"مراد الإمام المصطفى" .

لا تارك الله فيها من مُبِهَةٍ : هَبَّتْ تِلْوَمَ عِيَالِيْ عَدَّ مَا تَحْمَعُوا
 وَنَحْنُ مُشْتَهَوُ الْأَلْوَانِ أَوْحُهَا * سُودٌ قِيَّاحٌ وَى أَسْمَانَا شَسَعٌ
 إِذَا تَشَكَّتْ إِلَى الْجُوعِ قَلَّتْ لَهَا * مَا هَاحَ حَوْعَكَ إِلَّا الرَّيُّ وَالشَّعْ
 لَا وَالَّذَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَصَى * لَكَ الْخِلَافَةَ وَى أَسَاسَهَا الرِّفْعُ
 مَا زِلْتُ أُحْلِصُهَا كَسْنَى فَنَآكُلُهُ دُونِي وَدُونِ عِيَالِيْ ثُمَّ تَصْطَلِيعُ
 شَوْهَاءُ مَشَاةٌ وَى بَطْنِهَا تَحَرُّ (١)
 دَكَرْتُهَا بِكَتَابِ اللَّهِ حُرْمَتَا * وَلَمْ تَكُنْ تَكْتَابِ اللَّهُ تَنْفِيعُ
 فَأَنْزَلْتُهَا ثُمَّ قَالَتْ وَهَى مُعَصَّةٌ (٢) . أَلَيْتَ تَسْلُوكَاتِ اللَّهِ يَا لُكَّعُ
 أَخْرَجْتُ سِتْرَ لِي مَا لَأَا وَمَرْزَعَةٌ . كَمَا لِلْجِيرَاسِ مَالٌ وَمُزْدَرَعُ
 وَأَحَدُ حَلِيقَتَا عَا بِمَسَالَةٍ : إِنْ الْحَلِيقَةُ لِلسُّؤَالِ يَتَجَدَّعُ
 فَصَحَّحَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَتَبَ لَهُ بَصِيحُهُ .

كَانَ وَاقِعًا بَيْنَ يَدَيِ السَّقَّاحِ فَقَالَ لَهُ : سَلَى حَاجَتَكَ ، قَالَ : كَلْبٌ أَصِيدَ بِهِ ، قَالَ :
 أَعْطُوهُ إِيَّاهُ ، قَالَ . وَدَابَّةٌ أَتَصِيدُ عَلَيْهَا ، قَالَ : أَعْطُوهُ دَابَّةً ، قَالَ : وَغَلَامٌ يَصِيدُ بِالْكَلْبِ
 وَيَقُوْدُهُ ، قَالَ : أَعْطُوهُ غَلَامًا ، قَالَ : وَحَارِبَةٌ تُصَلِّحُ لَنَا الصَّيْدَ وَتُطْعِمُنَا مِنْهُ . قَالَ :
 أَعْطُوهُ حَارِبَةً ، قَالَ : هَؤُلَاءِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْدُكَ ، فَلَا نَدْرِي لِمَ مِنْ دَارٍ يَسْكُونُهَا ، قَالَ :
 أَعْطُوهُمْ دَارًا تَجْمَعُهُمْ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَمْ صَبِيحُهُ مِنْ أَيْنَ يَعِيشُونَ ؟ قَالَ : قَدْ أَعْطَيْتَكَ مِائَةَ
 بَرِيْبٍ عَامِرَةٍ ، وَمِائَةَ بَرِيْبٍ عَامِرَةٍ ، قَالَ . وَمَا الْغَامِرَةُ ؟ قَالَ مَا لَا نَبَاتَ فِيْهَا ، فَقَالَ : قَدْ
 أَقْطَعْتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَسْبَ مِائَةِ بَرِيْبٍ عَامِرَةٍ مِنْ فَيَاقِي سَيِّ أَسَدٍ ، فَصَبَحَكَ وَقَالَ :
 اجْعَلُوهَا عَامِرَةً ، قَالَ : فَادَّنْ لِي أَنْ أَقْلَّ يَدَكَ ، قَالَ : أَمَا هَذِهِ قَدَعُهَا ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا مَنَعَتْ
 عِيَالِيْ شَيْئًا أَقْلَّ صَرَرًا عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، قَالَ الْجَاهِظُ : فَأَنْظُرْ إِلَى حِدْقِهِ بِالسَّأَلَةِ وَلُطْفِهِ فِيْهَا ، ابْتَدَأَ

(١) البحر خروج السرة وتنورها وعلط أصلها . والقدح . أعوجاج في الرمح من اليد أو الرجل حتى يقلب
 الكف والقدم إلى إسبها . (٢) أى عصت .

بكلب فسَهَّلَ القصةَ به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة
لما وصل اليه .

قال على بن سَلَّام : كنت أسقى أبا دلامة والسَّندِيَّ إِدْ خَرَجْتَ بِنْتُ لِأَبِي دَلَامَةَ ،
فقال فيها أبو دلامة :

هَذَا وَلَدَتِكَ مَرِيْمُ أُمِّ عِيْسَى * وَلَا رَنَّاكَ لِقَاهَا الْحَكِيمُ
أَحْزَى يَا أَبَا عَطَاءَ ، فقال :

وَلَكِنْ قَدْ تَصَمَّمْتُ أُمُّ سَوْءٍ * إِلَى ثَلَاثِهَا وَأَتُّ لَسِيمِ
فصيحك لذلك ، ثم غدا أبو دلامة إلى المنصور فألقاه في الرَّحْمَةِ يُصَلِّحُ فِيهَا شَيْئًا بِرِيْدِهِ ، فأخبره
بقصة ابنته وأنشد البيت ، ثم أَدْفَعُ فأنشده بعدهما .

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ لَقِيلَ أَقْعَدُوا يَا آلَ عَبَّاسٍ
ثُمَّ ارْتَقُوا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ كُلُّكُمْ * إِلَى السَّمَاءِ فَأَتَمَّ أَطْهَرُ السَّاسِ
وَقَدَّمُوا الْقَائِمَ الْمَنْصُورَ رَأْسَكُمْ فَالْعَيْنَ وَالْأَنْفَ وَالْأُذُنَ فِي الرَّاسِ
فاستحسنها وقال : نَأَى شَيْءٌ تَحْتَ أَنْ أُعِيكَ عَلَى قُبْحِ ابْنَتِكَ هَذِهِ * فَأَنْجَرَ خَرِيْطَةَ كَانَ
قَدْ حَاطَهَا مِنَ اللَّيْلِ ، فقال : تَمَلَّأْ لِي هَذِهِ دِرَاهِمَ ، فَمُكَّتْ فَوَسَّعَتْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ .
لَمَّا تَوَقَّى أَبُو الْعَاسِ السَّقَّاحَ دَخَلَ أَبُو دَلَامَةَ عَلَى الْمَنْصُورِ وَالنَّاسُ عِنْدَهُ يَعْرِوْنَهُ ، فَأَنشَأَ
أَبُو دَلَامَةَ يَقُولُ :

أَمْسَيْتُ بِالْأَنْبَارِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ * لَمْ تَسْتَطِعْ عَنِ عُقْرِهَا نَحْوِي لَا
وَنَبِيَّ عَلَيْكَ وَوَيْلَ أَهْلِ كُلِّهِمْ * وَبَيْلًا وَعَوَلًا فِي الْحَيَاةِ طَوِيلًا
فَلْيَتَكَبَّرَنَّ لَكَ النِّسَاءُ بَعْبَرَةً * وَلِيَهُ كَيْنٌ لَكَ الرِّجَالُ عَوِيلًا
مَاتَ النَّدَى إِذْ مِتَّ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ * بِجَعَلْتَهُ لَكَ فِي التُّرَابِ عَدِيلًا
إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ بَعْدَكَ كُلَّهُمْ * فَوَحَدْتُ أَسْمَعَ مِنْ سَأَلْتُ بَحِيلًا
الْيَشْفِقُونِي أَنْتَرْتُ بَعْدَكَ لَتِي * تَدْعُ الْعَزِيزَ مِنَ الرِّجَالِ ذَلِيلًا
فَلَا حَافِلَ قَيْنٍ يَمِينٍ حَتَّى بَرَّةٍ * بِاللَّهِ مَا أُعْطِيتُ بَعْدَكَ سُؤْلًا

فأبكى الناس قوله ، فغصب المنصور عصا شديدا وقال لئن سمعتك تُشيد هذه القصيدة لأقطعن لسانك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أنا العاص أمير المؤمنين كان لى مكريما ، وهو الذى جاء بى من الدؤ وكما حاء الله بإحوة يوسف اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فُسرَى عن المنصور وقال : قد أفلناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العاص أمر لى عشرة آلاف درهم ونحسين ثوبا وهو مريض ، ولم أقصها . فقال المنصور . ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار الى جماعة ممن حصر ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبى أيوب الخارن وهو ميعط : يا سليمان ، اِدفعها اليه وسيِّره الى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن على » وقد كان خرج ساحية الشام وأطهر الخلاف ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إني أعيدك بالله أن أخرج معهم ، فوالله انى لمشثوم ، فقال المنصور : امص ، فإن يمضى يَغلب شؤمك فأخرج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجزب ذلك منى على مثل هذا العسكر ، إني لا أدرى أيهما يَغلب ، أئمنك أم شؤمى ، إلا أبى بنفسى أؤتئ وأعرَف وأطول تجربة ، قال . دعى من هذا فآلك من الخروج بُد ، فقال : إني أضدك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلها هُيرت وكثُ سبها ، فإن شئت الآن على بصيره أن يكون عسكرك العشرين فافعل ، فاستغرت أبو جعفر صهكًا وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أتى بى المنصورُ أو المهديُّ وأما سكران ، خلف ليُخرجنى في نعت حرب ، فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المهلبى لقتال الشراة ، فلما التقى الجمعان قلت لِرَوْح . أما والله لو أن تحنى فرسك ومعى سلاحك لأثرت في عدوك اليوم أثرا ترتصيه ، فصحك وقال . والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولأخذتك بالوفاء بشرطك ، وزل عن فرسه وربع سلاحه ودفعهما الى ودعا بغيرهما فاستبدل بهما ، فلما حصل ذلك فى يدى وزالت عنى حلاوة الطمع قلت له . أيها الأمير هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت أباياتا فآسمعها ، قال : هات ، فأنشدته :

إني أستجرتك أن أقدم في الوعى * لَتَطَاعُنِي وَتَسْأَلِي وَحِرَابٌ^(١)
 فهب السيوف رأيها مشهورة * فتركها ومصيبة في الهزأب
 ماذا تقول لما يحمي وما يرى * من واردات الموت في النشاب

فقال دَعَّ عك هذا وسَتَعَلَّمْ، وبرز رحل من الخوارج يدعو للبارزة : فقال : انخرج
 اليه يا أبا دلامة، فقلت : أشدك الله أيها الأمير في دمي، قال : والله لتخرجن، فقلت :
 أيها الأمير فإنه أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا وأما والله جائع ما شِيعت
 متى جارحة من الجوع، فمُر لي ببنى آكله ثم أخرج، فأمر لي برعفين ودجاجة، فأخذت
 ذلك وبرزت عن الصف، فلما رأى الشاري أقلل نحوى وعليه قرو قد أصابه المطر فابتل
 وأصابته الشمس فأعمل وعياه يقدان، فأسرع إلى، فقلت له : على رسلك يا هذا، كما أنت،
 موقوف، فقلت : أنتقل من لا يقاقلك؟ قال : لا، قلت : أنتقل رحلا على دينك؟ قال :
 لا، قلت : أفتستحل ذلك قل أن تدعو من تقايله الى ديسك؟ قال : لا، فاذهب عني
 الى لمة الله، قلت : لا أفعل أو تسمع مني، قال : قل، قلت : هل كانت بيننا قط عداوة
 أو تره أو تعرفني بحال مُحْفِظْكَ عَلَى أو تعلم بيني وبين أهلِكَ رِتْرًا، قال : لا والله، قلت :
 ولا أما والله أصيرك إلا حبل الرأي، وإني لأهواك وأنتحل مدهك، وأدير ديسك، وأريد
 السوء لمن أرادَه لك، قال : يا هذا حراك الله حيرا فاصبر، قلت : إن معي راداً أحب
 أن آكله معك وأحت مواكلتك لتأكد المودة بيننا ويرى أهل العسكر هوانهم عليا، قال :
 فاقبل، فتقدمت اليه حتى احتلمت أعناق دوابنا، وجمعا أرسلنا على معارفها والباس قد غلبوا
 صححكا، فلما استوفينا ودعني، ثم قلت له : إن هذا الجاهل إن أقمت على طلب المبارزة
 ندبى اليك فتعينني وتسع هسك، وإن رأيت ألا تبرز اليوم فأقبل، قال : قد فعلت،
 ثم أنصرف وأنصرفت فقلت لروح : أما أنا فقد كفيتك قرني، فقل لغيري أن يكفيك قرنه
 كما كفيتك، فأمسك، وخرج آخر يدعو الى البراز، فقال لي : اخرج اليه، فقلت :

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفي الأعراس « صراب » . (٢) هكذا بالأسل ولعلها : افعل، من قولهم افعلت يده : قبضت .

إِنِّى أَعُوذُ بِرَوْحِ أَنْ يَقْدَمَى إِلَى الْبِرَازِ فَتَحْزَى لِى بِوَأَسَدِ
 إِنِّى الْبِرَازِ إِلَى الْأَقْرَانِ أَعْلَمُهُ * مِمَّا يَفْتَرِقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
 قَدْ حَافَلْتِكَ الْمَيَايَا إِنْ صَمَدَتْ لَهَا * وَأَصْحَتْ لِمَجْمَعِ الْخَلْقِ بِالرَّصَدِ
 إِنْ الْمُهْلَكُ حَتَّ الْمَوْتَ أَوْرَثَكُمْ * وَمَا وَرِثْتُ أَحْتِيَارَ الْمَوْتِ عَنْ أَحَدِ
 لَوْ أَنَّ لى مُنْهَجَةً أُخْرَى لَحْدْتُ بِهَا * لَكُنَّهَا حُلِقْتُ فَرْدَا فَلَمْ أَحْدِ
 فَصَحَّكَ وَأَعْمَى .

قال أبو أيوب المورياني لأنى حمقر وكان يشأأأأ دلامه : إن أأأ دلامه مُعْتَكِفٌ عَلَى
 الْخَمْرِ ، هَا يُخَصِّرُ صَلَاةً وَلَا مَسْحَدًا وَقَدْ أَمْسَدَ فِتْيَانُ الْعَسْكَرِ ، فَلَوْ أَمْرَتْهُ بِالصَّلَاةِ مَعَكَ لَأَحْرَزْتَ
 فِيهِ وَفَى عِيْرِهِ مِنْ فِتْيَانِ عَسْكَرِكَ نَقَطَ عَلَيْهِ عَهْمٌ ، فَلَمَّا دَحَلَ عَلَيْهِ أَوْ دَلَامَةً قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْمُجُورُ
 الَّذِى يَلْعَنُ عَنكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أأأ وَالْمُجُورُ وَقَدْ شَارَفْتُ مَاتَ قَبْرِى ! ، قَالَ .
 دَعْنِى مِنْ أَسْتِكَاسَتِكَ وَتَصَرَّعِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَفُوتَكَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فَمَسْحَدِى ، فَلَمَّا فَاتَتْكَ
 لِأَحْسَنَ أَدْنِكَ وَالْأَطِيلَ حَبْسِكَ ، فَوَقَعَ فِى شَرِّ وَلَرَمِ الْمَسْحَدِ أَيَّامًا ، ثُمَّ كَتَبَ قِصَّةَهُ وَدَفَعَهَا
 إِلَى الْمَهْدِىِّ فَأَوْصَلَهَا إِلَى أَبِيهِ وَكَانَ فِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخَلِيقَةَ لَزْنِي^(١) * بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصِيرَ ، مَالِىَ وَالْقَصِيرَ
 أَصَلَّى بِهِ الْأَوَّلَى جَمِيعًا وَعَصَرَهَا * فَوَيْلُ مِنَ الْأَوَّلَى وَوَيْلُ مِنَ الْعَصْرِ
 أَصْلِحِيهَا مَالِكُوهُ فِى عِيْرِ مَسْحَدِى * فَمَالِىَ فِي الْأَوَّلَى وَلَا الْعَصِيرَ مِنْ أُخْرَى
 لَقَدْ كَانَ فِى قَوْمِى مَسَاجِدُ جَمَّةٌ * وَلَمْ يَبْشَرْ بِوَمَا لِفِشْيَاهَا صَدْرِى
 يَكْلَفُنِ مِنْ عَدَا شَبْهَتْ حُطَّةٌ * يُحِطُّ بِهَا عَنَى الثَّقِيلُ مِنَ الْوِزْرِ
 وَمَا صَرَّهَ وَاللَّهُ يَعْرِى ذَنْبَهُ * لَوْ أَنَّ دُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى طَهْرِى
 فَقَالَ : صَدُقَ ، مَا نَصَرْتَنِى ذَلِكَ ، وَاللَّهُ لَا يَصِلُنِى هَذَا أُنْدَا ، فَدَعَا عَمَلَ مَا يَشَاءُ .

(١) لَرَهُ النَّفْسُ أَرَمَهُ إِيَّاهُ .

وقال الهيثم في حَرِّه : قد أعفياك من هذا الحال ، ولكن على ألا تدعَ القيامَ معنا في ليالي شهر رمصان فقد أُطلَّ ، فقال . أفعل ، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمتُ ذلك والله لئن فعلت لأحدثُكَ ، فقال أبو دلامة : اللية في نهر أخفَ منها في طول الدهر ، سمعاً وطاعةً ، فلما حصر شهر رمصان لريم المسحد ، وكان المهدي يبعث اليه في كل ليلة حرسياً يحى به ، فسقَّ ذلك عليه وفِرِعَ الى الخيثران والى أبي عبيد الله وكلَّ من بلوذ بالمهدي ليشعروا له في الإعفاء من القيام ، فلم يحجمهم ، فقال له أبو عبيد الله : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شُكركَ ؟ قال : أتمُّ شكر ، قال . عليك رَبطة فإنه لا يحالهما ، قال : صدقت ، ثم رفع اليها رُقعة يقول فيها :

ألبما رَبطةً أتي * كت عبدا لأبيها
فصى رحمه الله * ه وأوصى نى اليها
وأراها نَسِيَتْنى * مثل نسيان أخيهما
حاء شهر الصوم يمشى * مشية ما أشتهها
قائداً لى ليلة القد * ركأتى أبتغيها
تنطح القبلة شهرا * جبهتى لا تأملها
ولقد عشتُ زمانا * فى قيات وحيا
فى ليال من شتاء * كت شيخاً أصطلبها
قاعداً أوقد ناراً * لى صاب أشويها
وصبوح وعَبَّو * فى عِلاب أحسها
ما أبالى ليلة القد * ر ولا تُسمعها
فاطلي لى قرحاً مـ * مها وأجرى لك فيها

فلما قرأ الرُقعة صَحِكَ وأرسلت اليه : أصطبر حتى نمضى ليلةَ القدر ، وكتب اليها : إنى لم أسألك أن تكلمه في إعفائى عما قايلا ، وادا مصت ليلة القدر فقد فنى الشهر ، وكتب تحتها أبياتا :

حافى إلمك فى نفس قد أحتصرت قامت قيامتها بين المصلينا
 ما ليلة القدر من همى وأظلمها * إني أحاف المايا قفل عشرينا
 ياليلة القدر قد كسرت أرحلنا . ياليلة القدر حقا ما تمينا
 لا نارك الله فى حير أؤتله . فى ليلة بعد ما فى ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة صحت ودخلت الى المهدي فتعنت له اليه وأشدنه الأبيات ،
 فضحك حتى استلقى ودعا به وريلة معه فى المجلة ، فدخل ، فأرح رأسه اليه وقال : قد
 شقعا ريلة فيك وأمرنا لك بسعة آلاف درهم ، فقال : أما شعاة سيدتى فى حتى أعفنى
 فأعفاها الله من البار ، وأما السبعة الآلاف ما أعنى ما فعلته إما أن تنمها ثلاثة آلاف
 فتصير عشرة أو تسقصى منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، إني لا أحسن حساب السعة ،
 فقال . قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيدك بالله أن نختار أدنى الحالين وأنت أس ، فعيت
 به المهدي ساعة ، ثم تكلمت فيه ريلة ، فأنمها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلالة فى بعض الحمامات مسكر وأنصرف وهو يميل ، فليقه العسس ، فأحدوه
 وقالوا له : من أنت ، وما دينك ؟ فقال .

دينى على دين بي العساس ما ختم الطير على القرطاس
 انى أصطحت أربعا بالكاس * فقد أدار شرها براسى
 * فهل ما قلت لكم من باس *

فأحدوه ومضوا وحرقوا ثيابه وسأحه^(١) ، وأنى به أبو جعفر ، وكان يؤتى بكل من أحده
 العسس ، فحبسه مع الدحاح فى بيت ، فلما أفاق جعل يادى علامه مرة وحاربه مرة .
 فلم يُجبه أحد ، وبما هو فى ذلك إذ سمع صوت الدحاح وزقاء الديوك ، فلما أكثر قال له
 السحار . ما شاك ؟ قال ويلك من أنت ؟ وأيس أنا ؟ قال فى الحبس وأنا فلان

السَّحَن، قال : من حَبَسَنِي ؟ قال : أمير المؤمنين، قال : ومن نَرَقَّ طَيْلَسَانِي ؟ قال :
 الحَرَس، فطلب منه أن يَأْتِيَهُ بدواةٍ وقرطاس، ففعل، فكتب الى أبي جعفر :
 أمير المؤمنين فذلك يعنى . علامَ حَبَسْتَنِي ونَرَقَّتْ ساجى
 أَس صِعْرَاءَ صَافِيَةِ المِرَاجِ * كَأَن شُعَاعَهَا هَلَّ السَّرَاجِ
 وقد طُحِيت سَار الله حتى . لقد صارت من الطُّفِّ النَّصَّاحِ
 تَهَشُّ لَهَا القُلُوبُ وتَشْتَهِيهَا * إذا برزت تَرَقَّرُ في الرَّجَاجِ
 أَقَاد الى السَّجُونِ مَنَـرُ جُرِّمٍ كَأَنِّي بَعْضُ عُمَالِ الخِرَاجِ
 ولو لمعهم حُبِسْتُ لكَانَ سَهْلًا * وَلَكِنِّي حُبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ

فدعا به وقال : أين حُبِسْتُ يَا أُمَا دِلَامَةَ ؟ قال : مع الدَّجَاجِ، قال : فما كنت تصنع ؟
 قال : أَقْوَقُ معهن حتى أَصْبَحْتُ، فصحك وحلَّ سَبِيلَهُ وأمر له بِخَاطِرَةٍ، فلما خرج قال له
 الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين، أما سمعت قوله : وقد طُحِيت بَار الله، يعنى
 الشمس ؟ فأمر برده، ثم قال : يا حَيْثُ، شَرِبْتَ الخمر ؟ قال : لا، قال : أَقْلَمُ ثَقْلُ : طُحِيتُ
 سَار الله تعنى الشمس ؟ قال : لا والله مَا عَيْتُ إِلَّا نَارَ الله المَوْقِدَةِ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى فُؤَادِ
 الرَّبِّيعِ، فصحك وقال : خذها يَا رُبِّيعِ وَلَا تُعَاوِدِ .

صام الناس في سنة شديدة الحر على عهد المهدي، وكان أبو دِلَامَةَ يَتَحَزُّ حَائِزَةً أَمَرَ
 له المهدي بها، فكتب إليه أبو دِلَامَةَ رَقْعَةً يَشْكُو فِيهَا أَدَى الحَرِّ والصَّوْمِ، وهى :
 أَدْعُوكَ يَا رَحِيمَ الِى قَدْ حَمَمْتُ * فى القرب بين قَرِينَا وَالْأَنْعَدِ
 إِلَّا سَمِعْتَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ مَنْ مَتَى * مِنْ مُنْشِدٍ يَرْجُو جَزَاءَ الْمُنْشَدِ
 حَاءَ الصَّيَامِ فَصُمُّهُ مُتَعَبِّدًا * أَرْجُو رَجَاءَ الصَّائِمِ الْمُتَعَبِّدِ
 وَلَقِيتُ مِنْ أَمْرِ الصَّيَامِ وَحَرَّهُ * أَمْرَيْنِ قَيْسًا بِالْعَذَابِ الْمُؤَصِّدِ
 وَتَجِدْتُ حَتَّى جَنِّتُنِي مَشْجُوجَةً * مِمَّا يُنَاطِحُنِي الْحَصَا فِي الْمَسْجِدِ
 فَا مَنُ بَتَسْرِيحِي بِمَظْلُكَ مَا لَدَى * أَسْلَفْتَنِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ الْمُرْصِدِ

فلما قرأ المهدي رُفَعَتْه غصْب وقال : أَيْ قَرَابَةِ بَنِي وَبَيْكَ ٥ قال : رَحِمُ آدَمَ وَحَوَّاءَ ،
أَنْسَيْتَهُمَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَصَحَكَ وقال : لَا وَاللَّهِ مَا سَيَّئْتُهُمَا ، وَأَمْرٌ سَتَعْجِلُ مَا أَحَارَهُ بِهِ
وَزَادَ فِيهِ ، وَأَشْدَهُ أَيْضًا فِي دَمِ الصَّوْمِ :

هَلْ فِي السَّلَادِ لِرِزْقِ اللَّهِ مُفْتَرَشٌ * أَمْ لَا هِيَ جِلْدُهُ مِنْ خُشْبِهِ بَرَشٌ ^(١)
أَصْحَى الصَّبَامُ مُبَيِّحًا وَسُطَّ عَرَصَتَنَا * لَيْبُ الصَّبَامِ بِأَرْضِ دُونِهَا حُرْشٌ
إِنْ صَمْتُ أَوْجَعِي بَطْنِي وَأَقْلَقْنِي * يَسَّ الْجَوَانِحُ مَسَّ الْجَوْعِ وَالْعَطَشِ
وَإِنْ حَرَجْتَ بَلِيلَ نَحْوِ مَسْحَدِهِمْ * أَصْرَتْنِي نَصْرٌ قَدْ حَانَهُ الْعَمَشُ

دخل أبو دلامة على سعيد بن دعلج مولى بى تميم فقال :

إِذَا حَثَّ الْأَمِيرُ فَقُلْ سَلَامٌ * عَلَيْكَ وَرَحِمَهُ اللَّهُ الرَّحِيمُ
وَأَمَّا بَعْدُ ذَاكَ فَعَلَى عَرِيمٍ * مِنْ الْأَعْرَابِ قُبْحٌ مِنْ عَرِيمٍ
عَرِيمٌ لَا زِمٌّ بِهَاءِ بَنِي * لَزَوْمِ الْكَلْبِ أَصْحَابَ الرِّقَمِ
لَهُ مَائَةٌ عَلَى وَنِصْفُ أُخْرَى * وَنِصْفُ النَّصْفِ فِي صَكِّ قَدِيمٍ
دِرَاهِمٌ مَا انْتَفَعْتُ بِهَا وَلَكِنْ * وَصَلْتُ بِهَا شَبُوحَ بِي تَمِيمٍ
أَتَوْنِي بِالْعَشِيرَةِ يَسْأَلُونِي * وَلَمْ أَلِكْ فِي الْعَشِيرَةِ مَالَتَمٍ

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : مَا أَسَاءَ مَنْ أَصَفَ ، وَقَدْ كَفَانَتْكَ عَنْ
قَوْمِكَ وَزِدَتْكَ مَائَةٌ .

دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في غفلته المشهورة :

أَتَانِي ، بِمَلَّةٍ يَسْتَأْمِنُنِي ، * عَرِيقٌ فِي الْخَسَارَةِ وَالصَّلَالِ
فَقَالَ تَبِعْهَا قُلْتُ أَرْتَبِطُهَا - بِجُحُكِكَ إِنْ سَبَعِي عَيْرُ عَالِ
فَأَقْبَلَ صَاحِكًا نَحْوِي سُرُورًا * وَقَالَ أَرَاكَ سَتَمًا دَا حَمَالِ
هَلَمْ إِلَى يَحْلُو بِي حِدَاعًا * وَمَا يَدْرِي الشَّقَى لِمَنْ يُحَالِي

فقلتُ لأربعين، فقال أحسن * إلى فإن مثلك ذو مجال

فأترك حمسه مها لعلى * مما فيه يصبر من الخبال

فقال المهدي : لقد أفلت من ملاء عظيم ، قال . والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقع صاحبها أن يردّها ، ثم أنشدّه :

فأبدلني بها يا ربّ طرفا * يكون حمال مرّكبه جمالي

فقال لصاحب دوابّه : حيره من الإصطبل بين مرّكين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان الاختيار لي وقعت في شرّ من الغلّة ، ولكن مرّه أن يختار لي ، فاحتار له .

حاصم رحل أبا دلامة في داره فارتعنا الى عافية القاصي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتني دهاة الرجال ، وخاصمتها سمة وإفيه

ما أدحض الله لي حجة * ولا خيب الله لي قافيه

ومن حفت من جوره في القضاء * فليست أحافك يا عافيه

فقال له عافية : والله لأشكوّنك الى أمير المؤمنين ، ولأعلمه أنك هجوتني ، قال : إذا يّعرك ، قال : وليّه . قال : لأملك لا تعرف المدحج من الهباء ، فبلغ ذلك المصور فصحك وأمر لأبي دلامة بمجازة .

دخل أبو دلامة على المهدي وعده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس ابن محمد ومحمد بن محمد بن محمد بن الإمام وجماعة من بني هاشم فقال له : أما اعطى الله عهدا لئن لم تهجّ واحدا مني في البيت لأقطعن لسامك ، فطر اليه القوم ، فكلما نظر الى واحد منهم غمزه بأن عليه رصاء . قال أبو دلامة : فعلت أنى قد وقعت وأنها عزيمة من عزّماته لا بد منها ، فلم أر أحدا أحقّ بالهباء مني ، ولا أدعى الى السلامة من هباء نفسه ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامه * فليس من الكرام ولا كرامه

إذا لبس العمامة كان قسدا * ويخزيها إذا نزع العمامه

جَمَعَت دَمَامَةً وَجَمَعَت لَوْماً * كَذَاكَ اللُّؤْمُ تَمَعَهُ الدَّمَامَةُ
وَإِنْ تَكْ قَدْ أَصَبْتَ نَعِيمَ دُنَا * فَلَا نَحْرَحُ فَقَدْ دَبَّتِ الْقِيَامَةُ
فَصَحَكَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَحَارُهُ .

حَرْحُ الْمَهْدِيِّ وَعَلَى بْنِ سُلَيْمَانَ إِلَى الصَّيْدِ، فَسَحَّ لَهَا قَطِيعٌ مِنَ الطَّعْمَاءِ، فَأُرْسِلَتْ
الْكَلَابُ وَأُحْرِيَتْ الْخَلِيلُ، فَرَمَى الْمَهْدِيُّ طَبِيحًا لِسَهْمِ فَصْرَعِهِ، وَرَمَى عَلَى بْنِ سُلَيْمَانَ، فَأَصَابَ
بَعْضَ الْكَلَابِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ أَبُو دِلَامَةَ :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ طَبِيحًا * شَكَّ بِالسَّهْمِ فَوَادَهُ
وَعَلَى بْنُ سُلَيْمَانَ * نَ رَمَى كُلَّهَا فَصَادَهُ
مَهْيِثًا لَهَا كُلَّ أَمْرٍ يَأْكُلُ زَادَهُ

فَضَحَكَ الْمَهْدِيُّ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ عَنْ سَرْحِهِ وَقَالَ . صَدَقَ وَاللَّهِ أَبُو دِلَامَةَ، وَأَمْرُهُ بِجَائِزِهِ
سَنِيةً، فَلَقَّبَ عَلَى بْنِ سُلَيْمَانَ صَانِدَ الْكَلْبِ، وَعَلَّقَى بِهِ .

أَشَدُّ أَبُو دِلَامَةَ الْمَصُورَ يَوْمًا :

هَاتِيكَ وَالذِّي عَمُوزُ هِمَّةٌ^(١) * مِثْلَ الْبَلِيَّةِ دِرْعُهَا فِي الْمَشْجَبِ^(٢)
مَهْرُولَةُ الْخَيْتِ مِنْ يَهَا يُقْلُ * أَنْصَرْتُ عُولًا أَوْ حِيَالَ الْقَطْرَبِ^(٣)
مَا إِنْ تَرَكْتُهَا وَلَا لَآئِي لَهَا * مَا لَا يُؤْمَلُ عَيْرَ نَكْرِ أَحْرَبِ^(٤)
وَدَحَانِحًا تَحْمَسًا يَرْحُ الْيَهْمُ * لَمَّا يَبْضُ وَعَيْرَ عَنَزٍ مُغْرَبِ^(٤)
كَتَبُوا إِلَى صَحِيحَةِ مَطْوَعَةٍ * جَعَلُوا عَلَيْهَا طِبِيَّةً كَالْعَقْرِبِ
فَعَلِمْتُ أَنَّ الشَّرَّ عَدِيكَ كَمَا كَهَا * فَهَكَكْتُهَا عَنْ مِثْلِ رِيحِ الْحَوَرِ
وَأَدَا شَبِيهِه بِالْأَمَاعِي رُقُشْتُ * يُؤْتِدَنِّي تَلْمِظٌ وَتَتَوَبُّ
يَشْكُونَ أَدَا الْجَوْعَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ * لَرَبًّا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَالِ لُرَبِّ

(١) همة : همة . (٢) المشجب : حشبات مومنة مصوبة توضع عليها الثياب وتنتشر .

(٣) القطرب : ذكر الفيلان . (٤) العرب : الأبيض من كل شيء .

لَا يَسْأَلُونَكَ عِيرَ طَلٍّ تَهَابِي * تَنْشَاهُمْ مِنْ سَبِيلِكَ الْمُتَحَلِّ
يَا بَاذِلَ الْخَيْرَاتِ يَا بَنَ بَذُولَهَا * وَأَنَّ الْكَرَامَ وَكُلَّ قَرِيمٍ مُنْجِبِ
أَنْتُمْ سَوِ الْعَاسِ يُعَلِّمُ أَنْكُمْ * قَدَمًا هَوَارُسُ كُلِّ يَوْمٍ أَشْهَبِ
أَحْلَاسُ خَيْلِ اللَّهِ وَهِيَ مُعِيرَةٌ * يَخْرُجْنَ مِنْ حَلَلِ الْغُبَارِ الْأَكْهَبِ

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم ، وكانت الدار قريية من قصره ، فأمر أن تزداد في قصره بعد ذلك لحاجة دعت إليها ، فدخل عليه أبو دلامة فأشده قوله :

يَا بَنَ عَمِ السَّبِيِّ دَعْوَةَ شَيْخٍ * قَدْ دَا هَدَمَ دَارِهِ وَدَمَارُهُ
هُوَ كَالْمَا حَصَّ الَّتِي آعْتَادَهَا الْعُلْدُ * قُفْ فَقَرَّتْ وَمَا يَقَرُّ قَرَارُهُ
إِنْ تُخْزِ عُسْرَةً بِكَفَيْكَ يَوْمًا * فَبِكَفَيْكَ عُسْرُهُ وَيَسَارُهُ
أَوْ تَدْعُهُ فَلِلسَّوَارِ وَأَيُّ * وَلَمَادَا وَأَنْتَ حَتَّى تَوَارَهُ
هَلْ يَخَافُ الْمَلَاكُ شَاعِرَ قَوْمٍ * قُدِّمْتُ فِي مَدِيحِهِمْ أَشْعَارُهُ
لَكُمْ الْأَرْضُ كُلُّهَا فَاعْبِرُوا * شَيْخَكُمْ مَا آحْتَوَى عَلَيْهِ حِدَارُهُ
فَكَانَ قَدْ مَضَى وَخَلَّفَ فِيكُمْ * مَا أَمَرْتُمْ وَأَقَرَّرْتُ مِنْهُ دَارُهُ
فَاسْتَعْرِ الْمَصُورُ وَأَمَرَ تَعْوِيصُهُ دَارًا حَيْرًا مِنْهَا وَوَصَلَهُ .

دخل على المهدي يومًا وعنده مُحْرِزٌ وَمُقَاتِلٌ أَنَا ذُوَالِ بَعَاتَانِهِ عَلَى تَقْرِيسِهِ أَمَا دِلَامَةُ وَيَعْيَبَانَهُ عِنْدَهُ فَقَالَ .

أَلَا أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ هَلْ أَنْتَ مُخْبِرِي * وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ سَائِلِي
أَلَمْ تَرْحَمْ الْخَلِيئِينَ مِنْ لِحْيَتَيْهِمَا * وَكُلْتَاهُمَا فِي طَوْلِهَا عَيْرَ طَائِلِي
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ مُكْرِئِي * بِمُحْلَقَتِهِمَا مِنْ مُحْرِزٍ وَمُقَاتِلِي
فَإِنْ يَأْذَنُ الْمَهْدِيُّ لِي فِيهِمَا أَقُلُّ * مَقَالًا كَوَقْعِ السِّيفِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِ
وَلَا تَدْعَنِي وَالْهَمُومُ تَوْبُئِي * وَقَلْبِي مِنَ الْعَلَجَيْنِ جَمُّ الْبَلَالِ

فقال : أو أحد لك منهما عشرة آلاف درهم يقديان بهما أعراضهما منك ، قال :
ذلك الى أمير المؤمنين ، فأحدها له مهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيده حاصصة موسى وهارون ، فدفع اليها رقعة قد كتبتها الى الخيّران فيها

أبلغني سيّدتي نالدا * به يا أمّ عبيده
أنها أرشدها الـ * لو إن كانت رشيدة
وعدتني قبل أن تح * رجع للحج وليده
فأنيت وارسل * ست بعشرين قصيده
كلما أحقق أخلف * ست لها أخرى حديده
ليس في بنتي لتمهيد * بد فراشي من قصيده
عير عجماء عجز * ساقها مثل القديده
وحدها أقبح من حو * ست طري في عصيده
ما حياة مع أنثى * مثل عرسى سعيده

فلما قرئت عليها الأبيات صحت واستعادتها منه لقوله : « حوت طري في عصيدة »
وحملت تصحك ووهت له حارية .

دخل يوما على المهديّ لحادثه ساعة وهو يصحك وقال له : هل بقي أحد من أهل لم
يصلك ؟ قال : إن أمنتني أجزتني وإن أعفيتني فهو أحبّ إليّ ، قال : بل تُحبرني وأنت
آمن ، قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بن العباس ، قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس
ابن محمد ، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : حأ عقه ، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة :
تتّع يا عدّ السوء لا تُنحِتْ مولاك وتُنكثْ عهده وأمانه ، فصحك المهديّ وأمر الخادم
فتنحّى عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أحمل الناس ، فقال أبو دلامة : بل
هو أتمحى الناس ، فقال له المهديّ : والله لو مِتَ ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أنا أتيت

فأحارنى " قال لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم ، فاصرف أو دلامه خبز للعباس قصيدة ، ثم عدّا بها عليه وأشدّه :

قِفْ بالديار وأى الدهر لم تَقِفْ * على المازل بين الظهْرِ والجَفْ
وما وقوفك فى أطلال مَنزِلَةٍ * لولا الذى استندَرَجْتَ من قلبك الكَلِفْ
ان كنت أصحت مشعوا بساكنها * فلا وربك لا تُشْفِيكَ من شَفَفْ
دَعْدا وقُلْ فى الذى قد فار من مُصر * بالمَكْرُمات وعزٍّ عير مُقْتَرَفْ
هدى رسالة شيخ من بى أسد * يُهْدِى السلام الى العباس والصحف
تَحْطَلُها من حوارى المصر كاتبة * قد طالما ضَرَبْتَ فى اللام والألف
وطالما اختلعت صيفا وشاتية * الى مُعلَّها باللوح والكَتِفْ^(١)
حتى اذا نَهَدَ التَّدْيَابِ وأمتلا * منها وخيفت على الإسرار والقَرَفْ
صِيت ثلاث سِينٍ ما تَرَى أحدا * كما يصون تِجَارُ دَرَه الصَّدَفْ
فبينما الشيخ يهوى نحو مجلسه * مُبادِرا لصلاة الصبح بالسَّدَفْ^(٢)
حانت له لَحْمة منها فأَصْرَها * مُطْلَعةً بين سِخْفِها من العُروفْ
نَقَرَ والله ما يدرى عَدَاتِيذ * أَنْتَرْمُكِّشَها أم عير مكشف
وجاءه الناس أرواحا بمائهم * لِيُغْسِلُوا الرجل المَغْشَى بالظَّفْ
ووسوسوا قُرآن فى مسامعه * لحافه الحنُّ والإنسان لم يَحْفْ
شينا ولكه من حن حارية * أَمسى وأصبح موقوفا على التَّفْ
قالوا لك الويل ما أصررت قلت لهم * تطلعت من أعلى القصر ذى الشُرفْ
فقلت أَيْكُمْ والله يأججره * يُعِين قوته فيها على صَعَفْ
فقام شيخ بَهِيم من رجالهم * قد طالما خدع الأقوام بالخَلَفْ
فاستاعها لى نائى دِرْهم فأتى * بها لى فالتقاها على كَيْفِ

(١) الكتف : عمام عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتدون فيه قلعة القراطيس .

(٢) السد : الصور وأقال الصبح .

فَتَيْنِ دَاكْ كَدَا إِذْ حَاءَ صَاحِبُهَا . يَنْبَغِي الدَّرَاهِمَ بِالْمِيزَانِ دَى الْكِفِّفِ
وِذْ تَكْرَحَقُّ عَلَى زَيْدٍ وَصَاحِبِهِ . وَالْحَقُّ فِى طَرَفٍ وَالطَّيِّبُ فِى طَرَفٍ
وَبَيْنَ ذَاكَ شَهُودٌ لَا يَصْرَهُمْ أَكُنْتُ مُعْتَرِفًا أَمْ غَيْرَ مُعْتَرِفٍ
فَإِنْ يَكُنْ مَكَ شَيْءٌ فَهُوَ حَقُّهُمْ * أَوْ لَا فَإِنِ مَدْمُوعٌ إِلَى التَّلَفِّفِ

فَضَحَكَ الْعَبَّاسُ وَقَالَ : وَيْحَكَ ! أَصَادِقُ أُنْتُ ؟ قَالَ : بَعْدَ وَاللَّهِ ، قَالَ : يَا غَلَامُ أَدْعُ
إِلَيْهِ أَلْقَى دَرَاهِمَ ثَمَنَهَا ، فَأَحْدَا ثُمَّ دَخَلَ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَأَحْبَرَهُ الْقِصَّةَ وَمَا أَحْتَالَ لَهُ ، فَأَمَرَ لَهُ
الْمَهْدِيُّ سِتَّةَ آلَافٍ دَرَاهِمَ ، وَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : كَيْفَ لَا يَصْرَهُمْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لِأَنِّى مُعْدِمٌ
لَا شَيْءَ عِنْدِى .

دَخَلَ عَلَى إِسْحَاقَ الْأَزْرُقِيِّ يَوْمَئِذٍ ، وَكَانَ إِسْحَاقُ قَدْ مَرِصَ مَرَضًا شَدِيدًا ثُمَّ تَعَاوَى مِنْهُ
وَأَفَاقَ ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ ضَعِيفًا وَعِنْدَ إِسْحَاقَ طَبِيبٌ يَصِفُ لَهُ أَدْوِيَّةَ تُقَوِّى بَدَنَهُ ، فَقَالَ
أَبُو دَلَامَةَ لِلطَّبِيبِ : أَتَصِفُ هَذِهِ الْأَدْوِيَّةَ لِرَجُلٍ أَصْعَمَهُ الْمَرَضُ ؟ مَا أَرَدْتُ وَاللَّهِ إِلَّا قَتْلَهُ .
ثُمَّ أَتَيْتُ إِلَى إِسْحَاقَ فَقَالَ : اسْمَعْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَنِى ، قَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا أَمَانَةَ دَلَامَةَ ،
فَأَنشَأَ يَقُولُ :

نَحْنُ عَنْكَ الطَّبِيبُ وَأَسْمَعُ لِنَعْنَى * إِنِّى نَاصِحٌ مِنَ الصَّاحِ
ذُو تَجَارِبَ قَدْ ثَقَلْتُ وَالصَّحْرَ * سَةِ دَهْرًا وَوِى السَّقَامِ الْمُنَاحَ
عَادِ هَذَا الْكِبَاحَ كُلِّ صَاحٍ * مِنْ مُتُونِ الْفَتَنِ السَّاحِ
فَإِذَا مَا عَطِشْتُ فَاشْرَبْ ثَلَاثًا * مِنْ عَتِيقٍ فِى الشَّمِّ كَالْتَفَاحِ
ثُمَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَأَعْكُفْ عَلَى ذَا * وَعَلَى ذَا مَا عَظُمَ الْأَقْدَاحِ
فَتُقَوِّى ذَا الضَّعْفِ مَكَ وَتَأْتِى * عَنْ لَيْالٍ أَصَحَّ هَدَى الصَّحَاحِ

فَضَحَكَ إِسْحَاقُ وَعَوَّادَهُ وَأَمَرَ لِأَبِي دَلَامَةَ بِخَمْسِمِائَةِ دَرَاهِمَ ، وَكَانَ الطَّبِيبُ نَصْرَانِيًّا
فَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ يَا رُكْلُ « يَرِيدُ يَا رَجُلُ » وَقَالَ الطَّبِيبُ : أَقْبَلْ مَنِى أَصَاحَكَ اللَّهُ

ولا نسألني عن شيء قدامه، فقال أبو دلامة : أما وقد أخذت أجرة صَفَّقَتي وقصبت الحق في نُصْحِ صديقي فاعنت له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سَلَمَةُ الوصيف واقفا، فقال : إني أهديت اليك يا أمير المؤمنين مُهْرًا ليس لأحد مثله ، فان رأيتَ أن تُسَرِّقني بقبوله ، فأمر بإدخاله اليه ، فخرج وأدخل اليه دابته التي كانت تحته ، فاذا رِقْدُونٌ مُحْطَمٌ أعْغَفُ هَرِمٌ ، فقال له المهديّ : أئى شيء هذا ؟ ألم ترعُ أنه مُهْرٌ ؟ قال له : أوليس هذا سَلَمَةُ الوصيف بين يديك قائما ، تسميه الوصيف وله ثمانون سه ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سَلَمَةُ وصيفا وهذا مُهْرٌ ، فجعل سَلَمَةُ يَشْتُمُهُ والمهديّ يصحك ، ثم قال المهديّ لسَلَمَةُ : ويلك ! إن لهذه من أحوات ، وإن أتى بها في تحمّلِ قَصْحِكَ ، فقال أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَوَالِكَ أحد إلا وقد وصلّى عبْرُهُ ، فاني ما شربت له الماء قط ، قال : فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك ، قال : قد فعلت على ألا يعاود ، فقال له : ما ترى ؟ قال : أفعل ، فلولا أتى ما أخذت منه شيئا قط ما فعلت معه مثل هذه ، فعصى سَلَمَةُ فحملها اليه .

٥ - أبان بن عبد الحميد اللاحق^(١)

ذكرنا في المجلد الأول أن أبان كان صديقاً للبرامكة متصلاً بهم أشد اتصال، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم، جدّها وهزلها، صعبها وهينها. وكانوا قد اتخذوه أديهم الرسمي، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلّات. فنضب الشعراء لذلك، وكان أشدّهم غصبا أبو بواس الذي كان يكره البرامكة كرها شديداً، وكانت بينه وبين أمان مهاجاةً ذكرها صاحب الأغاني.

وكان أبان صديقاً للمعدّل بن عيّلان، وكاما مع صداقتهما يتعابثان بالهراء، فيهجوه المعدّل بالكفر ويسبّه إلى الشؤم. ويهجوه أمان ويسبّه إلى الفسّاء الذي تُهَجَّى به عبد القيس وبالْقَصْر، وكان المعدّل قصيراً. فسعى في الإصلاح بينهما أبو عُيَيْنَةَ المهلبيّ، فقال له أخوه عبد الله وهو أسنّ منه: يا أنحى إن في هذين شراً كثيراً ولا بد من أن يُحْرَحا، فدعهما ليكون شرهما بينهما وإلا فزقاه على الناس.

ومن قوله يهجوا أمانا البصير:

إذا قامت بوايك * وقد هتكن أستارك
أُثْنِينَ على قبرٍ * لك أم يلعن أحجارك
وما ترك في الدنيا * إذا زرت عدّا مارك
ترى في سقر المثنوى * وإليس عدّا حارك
بلى ترك بايك * ودنياك وأوتارك
ونحسّامن بات اللب * هل قد أليسن أطمارك
تعالى الله ما أقب * ح إذ وليت أدبارك

(١) تحدّ ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا لماسة ذكرنا عنها عليه من مطبوعته لكتاب كلية ودسة. وقد أصعبها ما لم نذكره في ترجمته هناك.

خرج أمان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل إليه ، فتوسل الى من وصل له شعرا اليه ، وقال له :

يا عزيزَ الدنى ويا جوهراً الجو * هير من آل هاشمٍ بالبطّاج
إت ظننى ، وليس يُخْلِفَ ظننى * لك فى حاجتى سبيلَ السّاج
إت من دونها لمُصمّتَ باب * أنت من دون قُفله مِفْتَاحى
ناقتِ المِسُّ يا خليلَ السّماج * نحو بحر الندى تجارى الرياح
ثم فَكَّرْتُ كيف لى وأسَحرْتُ الله * عد الإماء والإصباح
وأستدحتُ الأميرَ أصلحه الله * شِعْرٍ مُشَهَّرٍ الأوضاح

فقال : هات مديحك ، فأعطاء شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعجَب بنفسه ، مدللٌ معلمه وأدبه ، تياه لا حدّ لثبته وعروره :

أنا من نيفة الأمير وكنز * من كوز الأمير ذو أرباج
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديب * ناصحٌ زائرٌ على النصّاح
شاعرٌ مُفْلِقٌ أخف من الرید * شة مما يكون عد الجّاح

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأوّل .

وكان أبا ن شديد الحرص على المال يُصَحِّى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيده والرأى . وكان يحسد مروان بن أبى حفصة لمكانه من الرشيد ولطفره بالصلوات الضحمة والحوائر السدية ، فقد انتهى الأمر بنى العباس مع مروان بن أبى حفصة الى أن كانوا يمحونه بالبيت ألف درهم ، فعاط ذلك أبا ن وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان ، فعاتب أمان البرامكة على تركهم لبصالة الرشيد ولإبصالة مديحه اليه ، فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى مه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إت لذلك مدها فى هجاء آل أبى طالب ودّمهم ، به يَحْظَى وعليه يُعْطَى ، فاسلكه حتى تفعل ، قال : لا أستحلّ ذلك ، قالوا : ها تصنع ، لا يَحْجَى طلب الدنيا إلا بما لا يحلّ ! فقال أبا ن :

تَسَدَّتْ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا * أَمُّ مَا قَدْ قُتِلَتْهُ الْعُجَمَ وَالْعَرَبَ
 أَمُّ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً ٥ لَدَيْهِ أُمُّ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُبَّةِ النَّسَبِ
 وَأَيُّهَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ * وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التَّرَاثِ بِمَا وَجَتْ
 فَإِنْ كَانَ عَاسٌّ أَحَقُّ بِتِلْكَكُمْ * وَكَانَ عَلَى عَدَاكَ عَلَى سَبْتِ
 فَأَبْنَاءُ عَبَاسٍ هُمْ يَرِثُونَهُ * كَمَا الْعَمُّ لِأَنَّ الْعَمَّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَّ
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ .

قال الفضل : مَا يَرِدُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ شَيْءٌ أَتَحَبُّ مِنْ أَيْبَاتِكَ . فَرَكِبَ ، فَأَنشَدَهَا
 الرِّشِيدَ ، فَأَمَرَ لِأَنَّهُ عَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . ثُمَّ اتَّصَلَ مَدْحُهُ لِلرِّشِيدِ بَعْدَ ذَلِكَ وَخُصَّ بِهِ .
 وَكَانَ أَبَانُ هَجَاءَ قَبِيحِ اللِّسَانِ ، وَكَانَ مَعَ هَذَا شَرِيرًا قَاسِيًا يُؤْثِرُ الشَّرَّ وَيَحْدُ فِيهِ لَذَّةُ .
 وَقَدْ رَوَى لَهُ أَبُو الْوَرَجِ قَصَّهُ مُثَلِّ بِصَبِيهِ مِنَ الْقِسْوَةِ وَحَتَّ الشَّرِّ ، كَمَا أَنَّهَا تَعْطِيَا صُورَهُ
 مِنْ شَعْرِهِ وَمِنْ الْحَيَاةِ فِي عَصَرِهِ . قَالُوا : كَانَ يُقِيمُ بِالْقُرْبِ مِنْ أَبَانِ رَحُلٌ تَقْفِيٌّ يَقَالُ لَهُ : مُحَمَّدُ
 ابْنُ حَالِدٍ ، وَكَانَ عَدُوًّا لِأَبَانٍ ، فَتَرَوَّحَ مُحَمَّدٌ هَذَا تَقْفِيَّةً مَعْرُوفَةً هِيَ عِمَارَةٌ بَتِ عَدِ الْوَهَابِ ،
 وَكَانَتْ عِمَارَةٌ عَيْنِيَّةً مَوْفُورَةً الثَّرْوَةِ ، فَاغْتَاطَ أَبَانُ لِهَذَا الزَّوْجِ ، وَقَالَ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ الَّتِي
 بَلَّغَتْ عِمَارَةَ فَأَفْسَدَتْ زَوَاجَهَا :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبِرَّ وَالشَّارَةَ : وَالْفَرَشَ قَدْ صَاقَتْ بِهِ الْحَارَةَ
 وَاللُّوزَ وَالشُّكَّرَ بُرْمَى بِهِ * مِنْ فَوْقِ دِي الدَّارِ وَدِي الدَّارَةِ
 وَأَحْضَرُوا الْمُكَلِّهِينَ لَمْ يَتْرَكُوا * طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زِمَارَةٍ
 قُلْتُ : لِمَاذَا قِيلَ : الْأَحْوَبَةُ * مُحَمَّدٌ زَوْجَ عِمَارَةٍ
 مَاذَا رَأَتْ فِيهِ وَمَاذَا رَحَّتْ * وَهِيَ مِنَ السَّوَانِ مُحْتَارَةٌ
 أَسْوَدَ كَالسَّفُودِ يَسِي لَدَى السُّورِ * لَمْ يَخْرُكْ قِيَارَةً^(١)
 يُخْرِى عَلَى أَوْلَادِهِ حَمْسَةً * أَرَعَمَهُ كَالرِّبَشِ طَيَارَةً

وأهله في الأرض من خوفه * إن أفرطوا في الأكل سبّارهُ
ويحكِ جرى واعصبي دابه * فهذه أختك فرارة
إذا عما بالليل فاستيقظي * ثم أطمري إنك طفّارة
فصعدت مائلة سُلّابا * تحاف أن تصعده الفارة
”سرور“ عرّتها فلا أفلحت * فإنها الخفاء غزارة
لونت ما أعدت من ريقها * إن لها نفثة سحّارة

فلما بلغت هذه القصيدة عمارة هربت، فحرم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات الأخيرة إلى أولها * فصعدت مائلة سلّابا * رادعا في القصيدة بعد أن هربت .

جلس أمان ليلة في قوم فنلّك أنا عبيدة فقال : يقدح في الأنساب ولا نسب له . فبلغ ذلك أنا عبيدة فقال في مجلسه . لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية من أمان اللاحق ، وهو وأهله يهود ، وهذه مازلم فيها أسفار التوراة وليس فيها مصحف ، وأوصح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعى حمط التوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلى به . فبلغ ذلك أمان فقال :

لا تئيم عن صديق حديثا * وأسعد من تسرر التمام
وأحصي الصوت إن طقت بليلا * وألفت بالنهار قبل الكلام

قال عيسى بن اسماعيل : كما في مجلس أبي زيد الأنصاري فدكروا أمان بن عبد الحميد ، فقالوا : كان كافرا ، فنصب أبو زيد وقال . كان جاري فما فقدت قراءته في ليلة قط .



وكان أمان يهوى الشعراء في شيء محسب أنه هو الذي سقى إليه ، فقد استكر في الأدب العربي ما لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي ، طرّق فيه فنونا مختلفة من العلم والحكمة والدين . وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهل عليهم

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفصل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو العرج أرباباً أربعة من هذا النظم ، وقد عثرا على قطعه من كتاب مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولي . وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبا ن لكليلة ودمنة ، مرأياً أن نثبتها ها ، لأن المطبوعه صاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التي رواها أبو العرج . وها هي دي :

هَذَا كِتَابُ كَذِبٍ وَمِحْمَةٌ * وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَةٌ
 فِيهِ دَلَالَاتٌ فِيهِ رُشْدٌ * وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْمُنْدُ
 فَوَصَفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ * حِكَايَةً عَنِ أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ
 فَالْحِكْمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ * وَالسَّحَفَاءُ يَشْتَهَوْنَ هَزْلَهُ
 وَهُوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيرُ الْخَفِيطُ * لَدُّهُ عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ اللَّعِيطِ
 يَا نَفْسُ لَا تَشَارِكِي الْجَهْلَالَ * فِي حَتٍّ مَذْمُومٍ كَأَنَّ قَدْ زَالَا
 يَا نَفْسُ لَا تَشْقَى وَلَا تَعْنَى * فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَا تَمْنَى
 مَا لَمْ يَلْهُ أَحَدٌ إِلَّا نَدِمَ * إِذَا تَوَلَّى ذَاكَ عَنْهُ وَسِيدُمُ^(١)
 دُنْيَاكَ بِالْأَحْبَابِ وَالْإِحْوَانِ * كَثِيرَةُ الْآلَامِ وَالْأَحْرَابِ
 وَهِيَ وَإِنْ نِيلَ هِيَ السَّرُورُ * آفَاتُهَا وَعَمُّهَا كَثِيرُ
 يَا نَفْسُ لَا يَحْمِلُكَ حَتٌّ أَهْكَ * وَلَا أَدَانِيكَ عَلَى أَنْ تَهْلِكِي
 فِي جَمْعٍ مَا يَرْصِيهِمْ فَلَانَهُ * يَصْرِبُ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ الدُّخَانُ^(٢)
 يَنَالُ قَوْمَ عَرَفَها وَتَحْتَرِقُ * رَأَى بِهِ رِصَى أَخُو الرَأْيِ الْحَقِّ
 وَجَدْتُ ذَا النَّسِكِ الَّذِي قَدْ فَكَّرَا * فَزَادَهُ تَفَكُّرُهُ تَوَقُّرَا
 وَقُلْ لِمَا رِصَى أَهْتَامُهُ * وَتَمَّ مِنْ سُرُورِهِ تَمَامُهُ

(١) دم وحر - (٢) الدحة : يحوي دحس به الثياب أو البيت وفي الأصل «الدحة» الحميم وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقى بها * ومن يُقاسى الكدَّ من أنصأها
 فعندها نحا من الشرور * ونال أقصى عاية السرور
 ثم سحَّ عن كلِّ فإنِّ نفسه * فلقى السعدَ وعاب نحسه
 وأنصر الثوابَ في القيامة * فأمن الحسرةَ والندامة
 ومثل الدنيا كبرق الخليل * من يغترمه بسقى يكذب
 وهو قاسا مثل يوم النائم * تُعْرِحه أضغاثُ حلم الحالم
 حتى اذا استيقظ صارهما * ما كان في السوم به ألما
 فكيف بالصبر على أيام * عما قليل هُنَّ لأنصرام
 وكيف والدنيا ملاء كلها * لا يأمن الآفات فيها أهلها
 أشهد أن الله فردُّ واحد * أفترا وأنكر داك جاحد
 ليس له كفوا ولا يذأ أحد * لم يَلِدِ الله ولا له ولد
 وإني بما عملت مرتَهَن * ما كان منه من قبيح وحسن

من باب الأسد والثور

وإن من كلب دى البس * يرعى من الأربع بالأخس
 كمثِّل الكلب الشقى السائس * يفرحُ بالعظم العتيق الباس
 وإن أهل الفصل لا يُرْصِيهم * شيءٌ اذا ما كالب لا يعينهم
 كالأسد الذى يصيد الأرنب * ثم الى العير المجد هربا
 فيرسل الأرنب من أطْفارِه * ويتبع العير على أدبارِه
 والكلب من رِقته تُرْصِيه * بلقمة تقذفها في فيه
 فمن يعيش ما عاش عير خامل * له سرور دائم ونائل
 فهو وإن كالب قصير العمر * أطولُ عمرا من حليف فقير
 ومن يعيش في وحشة وضيق * وقلة المعروف في الصديق

(١) في الأصل "ثم للعير" والعير . الحمار .

فهو وإن عَمَّرَ طَوَّلَ دَهْرِهِ * ليس بمغبوط بطول عمره
 وقيل أيضا إنه قد ينبغي * للرحل الفاضل فيما يتغنى
 ألا يُرى إلا مع الأملاك * أو يُعد الله مع النَّسَاك^(١)
 كالفيل لا يصلح إلا مَرَكَا * لميك أو راعيا مسيئا
 قال له السبع لمد سمعت * وكل ما تقول قد فهمت
 لكنى لست أظن ما تظن * والثور من عَشٍّ بلى طنى حسن^(٢)
 قال له دمه من ثم أتى * وهذه من حاله هي التي
 رفعتَه حتى تعدى طوره * وكان هذا لك منه شكره
 وتلك أحلاق اللئيم الفاجر * الكافر المفسور غير الشاكر
 ما لم يزال ماصحا نفاعا * حتى يرى من حاله آرتفاعا
 بعدها يسمو الى ما فوقها * الى التي لا تستطيع أوقها^(٣)
 وربما كان هلاك الشجر * في حُسن الغص وطيب الثمر
 وذنوب الطاووس فهو زينه * كذاك أحياء وبيه حيئه
 وبادل الصبح لمن لم يشكره * كطارج في سَنخ ما يدره
 لا خير للعاقل في دى المَطره * إن هو لم يحمده عند المحبرة
 وليس في الصديق ذى الصفاء * خير إذا لم يك ذا وفاء
 الرجل العاقل من لا تُسكِرَه * كأس سمو وأقدار يُبطِرُه^(٤)
 فالجبلُ الثابت في أصوله * لا تقدر الريح على تحويله
 والناقص العقل الذى لا رأى له * يعطى إذا ما مال أدنى منزله
 مثل الحشيش أيمار يريح حرت * مالت به فأقبلت وأدبرت
 الأهل والإخوان والأعوان * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملاك : الملوك . (٢) كذا في الأصل ولعله « بل العل الحسن » .

(٣) أوقها . ثقلها . (٤) في الأصل هكذا « سطره » .

والمال هادى الرأى والمرؤه * وهو على كل الأمور قوه
والمال فيه العز والجمال * والدل حيث لا يكون المال
وربما دعا الفقير فقره * الى التى يحط فيها أمره
فيحسر الدين كما كان خير * دنياه والخسران ما لا يجير
وليس من شىء يكون مدحا * لذى الفنى إلا يكون رحا
على الفقير ويكون دما * كذاك يدعى وبه يسمى
إن يكن تجدا يقولوا أهوج^(١) * كذاك عد الحرب لا يبرح
وهو إذا كان جوادا سيذا * تسمى للفقير مضيقا مضيدا
أويك ذا حيل يقل صغي * أويك بساما يقل صغي
الرجل العاقل فيما يسدى * مفتط بكسبه للحميد
لأنه باع قليلا فانيا * وأعتاص من ذاك كثيرا باقيا
فأعبط الساس الكثير نائله * ومدرك الجع لديه سائله
فلا تغدق داعنى غنيا * حتى يكون ماحدا سريا
وأعلم بأن الملك المشورا * ذا العقل فيما بابه المؤازرا
فإنه يعصد بالتأييد * يفتى به عن كثرة الجود
والحارم التابع أمر الحزمه * النصحاء غير أهل التهمه
يزداد حرما بهم ورشدا * زياده البحر إذا ما مئدا
بما بصت فيه من أنهاره * حتى يهيج الموج من تياره
والموت من مات كريما صابرا * خير من العيش ذليلا صاغرا

ولم يقل لما الصولى فى كتابه إلا هذه القطعة . ويمدأ بان فى هذا ناظرا لكاتب
معروف ، ولكمه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة
طويلة فى الصوم والركاة ، روى منها الصولى طرفا .

(١) الموح الحق . وفى الأصل : «الموح» باللام وهو تعريف .

فقل لأبائى بعد أن نظم كليله ودمة : ألا تعمل شعرا فى الرهد ° فعمل قصيدة
مزدوحه فى الصيام والزكاة • وترجمتها :

”قصيدة الصيام والزكاة * نقل أمان من م الرواة“

وها هى دى القصيدة :

هذا كتاب الصوم وهو جامع * لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المترل فى القرآن * فصلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي * من عهده المتبع المرسى
صلّى الإله وعليه سلا * كما هدّى الله به وعلمنا
وبعضه على اختلاف الباس * من أثر ما يص ومن قياس
والجامع الذى اليه صاروا * رأى أبى يوسف مما آخثروا
قال أبو يوسف أما المقترض * فمصل صومه اذا عرّض
والصوم فى تقاره الأيمان * من حيث ما يجرى على اللسان
ومعه الخ ^(١) وفى الظهار * الصوم لا يدفع بالإنكار
وخطأ القتل وخلق المحرم * رأسه فيه الصيام فأمهم
فرمضان شهره معروف * وصومه مقترض ^(٢) موصوف
والصوم فى الظهار ان لم يقدر * مطاهر يوما على محرر
والقتل إن لم يك عمدا قتله * فإت ذاك فى الصيام مثله
شهران فى العدة كاملا * متصلا لا مفترقا
والحنث فى رواية مقولة * ثلاثة أيامها موصولة
ومثلها فى عدة الأيام * للحريم الحالى فى الإحرام
ثلاثة يصومها إن حلقا * لا بأس إن ناعها أو فرقا

(١) الظهار مصدر طاهر الرجل من أمرأته اذا قال لها : أت على كطهر أى ، فكى بالظاهر عن الطل نادما .

(٢) فى الأصل : ”موقوف“ .

والصومُ في المتعة ان لم يحِدِ * هَدَّيَا وكان الصيام يفتدى
صيام أيام مؤقتات * ثلاثة في الحج مفروضات
وبعد ما يرجع صوم سبعة * عشرة كاملة في المتعة
أما الثلاثة التي في الحج * فكان من أدركت من محتج
أو غيره ممن يرى أن يرويه * يقول يوما قُل يوم التروية
ويومها وصوم يوم عرفة * مؤلفات الصوم لا مختلفة
قالوا وإن أحب أن يُفَرَّقَا * فذاك ما ليس عليه ضيقا
إن كان ذاك الصوم منه بعدما * يكون في عُمرته قد أحرما
ولو أراد الصوم في شَوَالٍ * من بعد أن يوجب ما لِهلال
عمرته لكان ذاك مُحْزِيَا * بذاك يُفْتَى من أتى مستفتيا
وهي طويلة جدًا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على احتراع هذا الفن، فقد كان مكانه
مهم مكان المؤدب لصبياهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهلا .
وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة حينما نظم كليله ودسة قد
أطمعته، فظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن زياد قال: كانت في عهد الصمد بن المعدل عريضة
إذا سكر، فعربد يوما في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان. وكان أيدا^(١) فقال
لهم: كلوه إلى وحدي، وأحذه وكتفه وحمله في بيت وأعلق بابه، وقال: إذا أصبحتم
فأطلقوه، وأنصرف، فبلعه أن عد الصمد حلف ليهجونه سة، فقال حمدان يهجو: :

قل لعبد الصمد الأح * حق لا تنصت عليه
وعلى أملك فاعضب * وأكوها فى المنى كيه
أملك العملاء جاءت * حتى بسلى ورقية
وهى ساق ليلة فا * طمة أخرى اليه
فقضيا فيهم الحق * وقلنا السوية

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيده حمدان بن أمان بن عبد الحميد
ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة، قال :

ما مأل أهل الأدب * ما وأهل الكتب
قد وصعوا الآدانا * وأتعبوا الكتانا
لكل فنٍ دفتُر * منقطٌ عبر
فُرقَّت أجاسا * وعلموها الناسا
بالحيل الرقيقه * والعطن الدقيقه
فأرشدوا الصلّالا * وعلموا الجهّالا
سوى المحين فلم ^(١) * يرعوا لهم حقّ الدّم
فى علم ما قد جهلوا * وما به قد أنزلوا
قد غلقت رهنهم * وأستعبرت عيونهم
وحالفوا الشهادا * وحالفوا الرقادا
فليهم طويل * ويومهم قليل
أدائهم بحيلة * متعة عليه
نفوسهم حرينة * مشغوفة رزينه
ظاهرة عمومهم * باطنة كلومهم

(١) فى الأصل : "مهم" .

مَكِيَّةٌ عِيُوهُمْ * قَرِيحَةٌ حَفُوهُمْ
 إِنْ طَلَمُوا لَمْ يَطْلُبُوا . وَإِنْ شَكُوا لَمْ يَرْحَمُوا
 أَحَابَهُمْ فِي لَيْبٍ * وَفِي دَوَامِ الطَّرِبِ
 صَابِيَةٌ أَلْوَانُهُمْ * صَاحِكَةٌ أَسَانُهُمْ
 قَدْ سَكَنُوا الْقُصُورَا * وَقَارَوَا السُّرُورَا
 تَمَرَّغُوا لِلْهَخَرِ * وَلَلَّوْى وَالْفَذَرِ
 عَاشِقِي يَهْوَاهُمْ * نَالَهُ مَا أَقْسَاهُمْ
 وَعَدُّهُمْ وَيَعْبُدُ * إِقْرَارُهُمْ مُحُودُ
 نُسَى لِأَهْلِ الْعَشِقِ * أَهْلِي الصَّاءِ وَالزَّقِ
 لَيْسَ لَهُمْ وَسِيلَةٌ * وَلَا وَحْوُهُ حِيلَةٌ
 رَأَيْتُ لِمَا حُدُّوْا . وَفِي هَوَاهُمْ وَحَلُّوْا
 أَنَّ أُرْشِدَ الْمَغْفَلَا * الْجَاهِلَ الْمَصْلَا
 إِلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ * عَدَّ الدَّلَاءِ الْعَادِجِ
 وَأَبْتَدَى كِتَابَا * لِلْوَصْفِ مَا مَا
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَعَمُوا . وَصَيِّتِي وَأَتَمِّعُوا
 فَنِي صِفَاتِي عَجَبُ * وَفِي كِتَابِي أَدَبُ
 قَصِيدَتِي مَقْصُومَةٌ * أَلْعَاطُهَا مَنْظَمَةٌ
 فِيهَا هَوَى الْعُشَّاقِ * وَمُنِيَّةُ الْمُشْتَاقِ
 وَصَفْتُ أَهْلَ الْعَشِقِ * وَلَمْ أَمِلْ عَنْ حَقِّ
 فَاسْتَمِعْ مَقَالًا صَادِقًا * يَا مَنْ يَبْتَغِي عَاشِقًا
 لِلْحُبِّ خَلَّتَانِ * هُمَا هُمَا التَّانِ
 الصَّبْرُ وَالرَّفْقُ مَعَا * يَوْمًا إِذَا مَا أَحْتَمَعَا

في عاشقٍ مهجورٍ * مساعدٍ مفرورٍ
 قَفَى قريبا وطَرا * وبلغاهُ الوطرا
 ما الحسنُ والإحسانُ * والملكُ والسلطانُ
 يعدلُ وصلَ الإلفِ * وكسرهُ للطَّرِفِ
 ما حَسَّ في العينِ * أحسُّ منَ إلفينِ
 يوما إذا ما ألقينا * في مجلسٍ فاشتميا
 مداومينَ للنظرِ * قد أَمَا كُلَّ حَدَرٍ
 يادارانِ الخلوَّةِ * ويُطهرانِ الصبوةِ
 مساعدتي أتفقا * باتا ولم يفترقا
 هواهما غزوبٌ * سرهما مدفونٌ
 مداريتُ أصحا * للناسِ لم يفتصحا
 منَ حربِ الحَعرَفِ * ما بينَ ملكٍ وأسفِ
 لن يبلغَ الصبُّ المُنَى * إلا بصبرٍ وعَنا
 إن الهوى ضُروبٌ * وأمره عجبٌ
 وأهلُه أطوارٌ * فيه لم أوطأ
 للعاقِلِ الشريفِ * والأحمقِ السحيفِ
 فمنهمُ مرزوقٌ * محبٌ معشوقٌ
 على اضطرابِ الخلقِ * منه وسوءُ الخلقِ
 تُقصي له الأوطارُ * وتعملُ الأشعارُ
 مقرَّبٌ ما يُقصي * مطاوعٌ ما يُعصى
 ومنهمُ محرومٌ * مُحارَفٌ مشؤومٌ

على حالٍ هيئتُه * وحسبه وبهجته
 ومنهم من مُتَدَا * ينال عيشاً رغداً
 من غير سعى وطلت * وعير كد وتصب
 فإذ ذاك الأسعد * والبخت منه أجود
 إذ فاز باللدات * ودرك الحاجات
 ومنهم من يتعب * في حبه ويدأ
 أسقمه طول الهوى * وشقه وحد الحوى
 فذاك صب قد شقي * يؤمى له ما دأ لقي
 ومنهم الصير * العاقل الحرير
 يحتمل المهجرانا * ويحمل الأحرانا
 فلا يزال متلى * حتى يبال أملاً
 ومنهم العبيد * الجاهل البليد
 يحب التصجير * والجهل والتكبر
 يلقي الحبيب ما هتا * فلا يزال ساكنا
 ومنهم من يهوى * بالغيب يأتي عسوا
 فيزرع الغنوما * مستحلباً هموما
 فذاك حب العيب * ليس به من عيب
 من دونه محاب * ودونه أبواب
 فإلذاك لبث * وليس منه مكث
 حتى يرى مقهورا * في حبه محسورا
 ومنهم جأر * في حبه أزورار
 يزهى إذا ما عشقا * ورهنة قد علقا

يَلْتَرَمُ الْمَجَاحَةَ * فليس يُبْدِي الْحَاجَةَ
 فِذَاكَ حُبُّ الْقَوْتِ * وفيه كَرُبُ الْمَوْتِ
 وَمِنْهُمْ مَنْ لِلنَّظَرِ * يَهْوَى وَلَمْ يَعُدَّ الْبَصَرَ
 إِذَا رَأَى حِلِيلَهُ * دَاوَى بِهِ عَلَيْهِ
 يَكْتُمُ مَا يَقَاسِي * مِنْ أَعْيُنِ الْجُلَاسِ
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْتَصَرَ * عَلَى الْحَدِيثِ وَالنَّظَرِ
 غَايَتُهُ السَّلَامُ * وَاللَّحْطُ وَالْكَلَامُ
 مَدَافِعُ عَنْ حُبِّهِ * يَكْتُمُ وَجَدَ قَلْبِهِ
 يَنْفِي الْهَوَى وَيَكْرَهُ * وَالتَّهَبُّرَى يَسْتَرُهُ
 فِذَاكَ حُبُّ الْعَاقِلِ * حُبُّ أَدِيبٍ كَامِلِ
 وَبَعْضُهُمْ لَا يَقْبَعُهُ * إِلَّا عَمُودٌ يَدْعُهُ
 قَدْ طَلَّتِ الْحَرَامَا * وَأَلْتَمَسَ الْأَنَامَا
 فِذَاكَ حُبُّ النَّهْمِ * الْمَاجِنِ الْمُغْتَلِمِ
 حَقٌّ لَهُ الْحَرَامُ * وَالْمَعُ وَالْخَذْلَانُ
 وَبَعْضُهُمْ مَدَاقُ * مَعَانَتْ مَلَأُ
 مُسْتَعْمِلٌ لِلْكَذِبِ * مُحَرِّفٌ فِي الْكُتُبِ
 فِذَاكَ حُبُّ الزُّورِ * يَلْسَعُ كَالرُّسُورِ
 وَبَعْضُهُمْ عَمِيدُ * عَايُهُ مَا يَرِيدُ
 خَلْوَةٌ مِنْ يَهْوَاهُ * فِي مَشْهَدٍ يَلْقَاهُ
 لَفْظَتُهُ مُسَارَقَهُ * مَيِّتُهُ مُعَانَقَهُ
 مَكَاتِمُ لُحْبِهِ * فِي نُعْدِهِ وَقُرْبِهِ
 فِذَاكَ حُبُّ يُكِيدُ * نِيرَانُهُ لَا تَمُحُّدُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَفِ * مَالَتْ حِينَ يُسَعَفُ
 إِذَا الْحَبِيبُ صَدًّا * وَلَمْ يُكَلِّهِ وَدًّا
 تَاهَ عَلَيْهِ وَحَزَقُ^(١) * وَصَدَّ عَنْهُ وَحِمَقُ

وقال في آخرها :

قَدِ تَمَّ مَنِي وَصَفُ * وَلَمْ يَحُفِّ الرِّصْفُ
 وَأَنْقَضَتِ الْقَصِيدَةُ * مَحَبَّةٌ حَمِيدَةُ
 وَالْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ * ذِي الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ
 وَالذَّمُّ لِلشَّيْطَانِ * ذِي الْعَرَمِ^(٢) وَالطُّغْيَانِ

(١) حرق ص عليه وبحل .

(٢) العرم : الشدة والشراسة . وفي الأصل « العرم » .

٦ - منصور التمرى^(١)

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسره أن يُمدح بنى الإمامة عن على والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان س أى حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ انما يطلعون الكسب — لكنه لم يصرح بالهجاء والسب كما فعل مروان ، ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ حُفْضَنَا * غِمَارَ الْمَوَلِّ مِنْ بَلَدِ شَطِيرِ
بُحُوصٍ كَالْأَهْلَةِ حَافِقَاتٍ * تَلِينَ عَلَى السُّرَى وَعَلَى الْمَجِيرِ
حَمَلْنَا إِلَيْكَ أَهْمَالًا فَقَالَا * وَمِثْلَ الصَّحْرَةِ الدُّزَّ الثَّيْرِ
فَقَدْ وَقَفَ الْمَدِيحُ بِمُنْتَهَاهُ * وَغَايَتِهِ وَصَارَ إِلَى الْمَصِيرِ
إِلَى مَنْ لَا تُشِيرُ إِلَى رَسُولٍ * إِذَا ذُكِرَ النَّدَى كَفَّ الْمُشِيرِ

ودكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يَذَلُّ مِنْ رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ * وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَنْعِ الصَّعِيرِ
مَدَّتْ عَلَى ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى * وَكَانَ مِنَ الْخُتُوفِ عَلَى شَعِيرِ

(١) هو منصور الرزق بن سلة التمرى الرضى ، من البربر فاسط ، ثم من ربيعة بن زرار . شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجريفة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العناني وراو يشه ، هه أحد ، ومن نحوه استقى ، ومذهبه تشبه . وصممه العناني للفصل بن يحيى بن خالد وقرطه عده حتى استقدمه من الجزيرة واستنصحه ، ثم وصله بالرشيد وحرث بعد ذلك بينه وبين العناني وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه ، وكان التمرى قد مدح الفصل قصيدة وهو مقيم بالجريرة ، فأوصلها العناني اليه واسترده له وسأله استصحابه ، فأذن له في القدوم ، فخطب عده ، وعرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مذهبه إياه بنى الإمامة عن ولد على بن أبى طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم شعراء في ذلك مما كان يعلم من تقديم مروان س أى حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الخواثر ، فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأوما ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبى طالب وكان يطعن عن بية قوية يقصد بها طعن الدنيا فلا يقيق ولا يدر . وتحد أحساره في الأغانى (ج ١٢ ص ١٦ وح ١٧ ص ١٤١ و ١٤٢) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمتَ بهم * وإلا فالندامة للكفور
وإن قالوا بسوئتَ حق * وردوا ما ياسب للذكور
وما لبني بناتٍ من ثراثٍ - مع الأعمام في ورق الزبور

ومنها :

بى حس ورهط بى حسين * عليكم بالسداد من الأمور
فقد دُقم قراع بى أبيكم * عداة الزوع بالبيض الذكور
أحين شفوكم من كل وتر * وصمؤكم الى كيف وثير
وحادوكم على طما شديد * سُقيتم من نوالهم العرير
ها كان العقوق لهم جرأ * فعلهم وأدى للشور
وإلك حين تُبَلِّغهم أداة * وإن ظلموا محزون الصمير

فقال له : صدقت وإلا فعلى وعلى ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنشد الرشيد يوما قصيدته التي أوزها :

ما تنقصى حسرة منى ولا جرع * اذا ذكرتُ شبابا ليس يرتجع
ناب الشباب وفانتى بلدتِه * صرُوف دهر وأيام لها حدع
ما كنت أوى شبابى كنه عرته * حتى أنقصى فاذا الدنيا له تبع

فقال الرشيد : أحس ! والله لا يتنبى أحد يعيش حتى يحطّر في رداء الشباب .

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أى أمرىات من هارون في مخط * فليس بالصلوات الجنس يتنفع
إن المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع

اذا رَفَعْتَ أَمْرَهُ فَأَلَهُ يَرْفَعُهُ * وَمَنْ وَصَعَتْ مِنَ الْأَقْوَامِ مُنْضِعُ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَطَالُ مُعْلَمَةٌ * يَوْمَ الْوَعَى وَالْمَسَايَا صَابُهَا فَرْعُ

ومن قوله يمدح الرشيد :

يَا مَنْزِلَ الْحَى ذَا الْمَعَانَى * لِمَنْ صَاحًا عَلَى لِيْلَاكَ
هَارُونَ يَا حَيْرَ مَنْ يُرَجَّى * لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ مَنْ عَصَاكَ
فِي حَيْرِ دِيْنٍ وَحَيْرِ دُنْيَا * مِنْ أَنْبَى اللَّهِ وَأَتَقَاكَ

وناهيك بقصيدته التى رفعت السيف عن ربيعة بصييين بعد أن جرده فيها الرشيد
وهى التى يقول فيها :

وقد علم العُدُوَانُ وَالْجَوْرُ وَالْحَا * نَأْنِكَ عَيَافٌ لِمَنْ مُرَايِلُ
ولو عملوا فيما نَأْمُرُكَ لَمْ يَكُنْ * يَنَالُ بَرِيًّا بِالْأَذَى مُتَنَاولُ
لَا مَكَأَ أَرْحَامٌ وَنَعْنَدُ طَاعَةً * وَنَأْسَا إِذَا أَصْطَكَ الْقَمَا وَالْقَابِلُ
وَمَا يَحْفَظُ الْإِحْسَانَ مِثْلَكَ حَافِظُ * وَلَا يَصِلُ الْأَرْحَامَ مِثْلَكَ وَاصِلُ
حَمْلَاكَ فَامْعَمًا مَعَادًا وَمَقْرَمًا * لَنَا حِينَ عَصَيْنَا الْخَطُوبُ الْخَلَائِلُ
لَأَنْتَ إِذَا عَادَتْ بِوَجْهِكَ عُودُ * تَطَامَسَ حَوْفٌ وَأَسْتَعَزَّتْ لَبَابِلُ

اجتمع جماعة من الشعراء ببغداد وفيهم مصبور النمرى، وكانوا على نبيذ، فأبى مصبور
أن يشرب معهم، فقالوا له : إنما تعاف الشراب لأنك رافضى، وتسمع وتضجى الى
العباء، وليس تركك البيذ من ورع، فقال :

حَلَا بَيْنَ نَدْمَانِي مَوْصَعُ تَجَلْسِي * وَلَمْ يَبْقَ عَدَى لِلْوِصَالِ نَصِيبُ
وَرُدَّتْ عَلَى السَّاقِ تَهْيِيزُ وَرَبْمَا * رَدَدْتُ عَلَيْهِ الْكَأْسَ وَهُوَ سَلِيبُ
وَأَيُّ أَمْرِي لَا يَسْتَهْشِ إِذَا جَرَتْ * عَلَيْهِ سَأَلُ كَفْهِي حَصِيبُ

قال النمرى : كنت واقفا على جسر بعدادأما وعيد الله بن هشام ، وقد وخطني الشيبُ يومئذ ، وعبد الله شائ حديث السن ، فاذا أما قصرية طريفه قد وقفت ، فجعلت أنظر إليها وهي تنظر الى عيد الله ثم انصرفت ، وقلت بها :

لما رأيت سَوَامَ الشَّيبِ منتشرًا * في لَمْتَى وعيدَ الله لم يَشِبْ
سَلَّتْ سَهْمِينَ من عَيْدِكَ فانتضلا على سَبِيهِ دى الأذْيَالِ والطرب
كدا الغوايى رى منهم قاصدة . الى الفروع مُعَرَّاة عى الخشب
لا أيت أصبحت تعقدُ بيسا أربا^(١) * ولا وعيشك ما أصححت من أربى
إحدى وحسين قد أصبحت حدتها * تحول بينى وبين اللهو واللعب
لا تحسبني وإن أعصيت عن نصرى * عقلتُ عك ولا عن شأنك العجب
عصب الرشيد على مصور النمرى لما أنشد قصيدته في مدح العلويين وأولها :
شاء من اللاس راتِعُ هامل * يعللون المومس بالباطل
وفيها يقول :

ألا مَسَاعِيرُ يَفْصُبُونَ لها * بِسَلَّةِ الْبَيْصِ وَالْقَا الذَّالِلِ
ففضب من ذلك عَصَبًا شديدًا وقال للفصل بن الربيع : أحصره الساعة ، فبعث الفصل
في ذلك ، فوحده قد تَوَقَّى ، فأمر نبشه ليحرقه ، فلم يزل الفصل يُلَطَّفُ له حتى كَفَّ عنه .
واليك قصيدته في مدح العلويين نقلًا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب
الأغانى أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاء من اللاس راتِعُ هامل * يُعَلِّلُونَ النَّمُوسَ بِالْبَاطِلِ
تُقَتِّلُ ذُرِّيَةَ آلِ النِّى وَيَر * جَوْنَ جِآنِ الْخُلُودِ لِلْقَاتِلِ
وَيْلَكَ يَا قَاتِلَ الْحَسَنِ لَقَدْ * نُوتَ بِجَمَلِ يَنْوُءٍ بِالْهَامِلِ

(١) كما في الأصل ولعله : * لا أت أصبحت يعقد بيسا أرب * فشكين العمل يعقد للضرورة وتسكين
العمل في الضرورة وارد منه قول امرئ القيس .
اليوم أشرب غير مستحق * إنما من الله ولا وائل
(٢) في الشعر والشعراء " مصاليت " .

أَيَّ حَبَاءٍ حَبَوْتَ أَحَدِي * حُفَرْتِهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّارِ كُلِّ
 بَأَى وَجْهَ تَلَقَّى النَّبَى وَقَدْ * دَخَلَتْ فِي قَتْلِهِ مَعَ الدَّاهِلِ
 هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدًا شِعَاعَتَهُ * أَوْ لَا قَرِذَ حَوْضِهِ مَعَ النَّاهِلِ
 مَا الشَّكُّ عَدَى فِي حَالِ قَاتِلِهِ * لَكِنِّي أَشْكُ فِي أَلْخَاذِلِ
 مَعْنَى فِدَاءِ الْحُسَيْنِ حِينَ عَدَا * إِلَى الْمَنَازِلِ غُدُوًّا لَا قَافِلِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ أَنْخَى بِشَفَرَتِهِ * عَلَى سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَالْكَاهِلِ
 حَتَّى مَتَى أَيْتَ تَعْجِيزِ الْآلَا * تَنْزِلُ مَالِقُومِ نِقْمَةِ الْعَاجِلِ
 لَا يَعْجَلُ اللَّهُ إِنْ لَجَلَتْ وَمَا * رَبُّكَ عَمَّا يَرِيدُ مَالِغَا
 وَعَاذِلِي أَيْ أَحَبَّ نَسِي * أَحْمَدَ فَانْتَرَبَ فِي قِيمِ الْعَاذِلِ
 قَدْ ذُقْتُ مَا دِينُكُمْ عَلَيْهِ مَا * وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ
 دِينِكُمْ جَفَوَةَ النَّبِيِّ وَمَا أَلَا * حِمَايَ لَأَلِ النَّبِيِّ كَالْوَاوِلِ
 مَظْلُومَةِ وَالسَّبِيِّ وَالِدَهَا * نَذِيرُ أَرْجَاءِ مُقْلَةٍ حَافِلِ
 أَلَا مَصَالِيْتُ يَغْضَبُونَ لَهَا * سَلَّةَ الْبَيْضِ وَالْقَنَاءِ الذَّاهِلِ

وقال أيضا .

آلِ النَّبِيِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ * يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ
 آمِنُوا النَّصَارَى وَالْيَهُودَ وَهُمْ * مِنْ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فِي أَرْزِلِ^(١)
 وَأَشَدِّ الرِّشِيدِ هَذَا عَدُوُّهُ فَقَالَ : لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَتُبِّشَهُ ثُمَّ أَحْرَقَهُ .

ومن جيد شعره قوله في الرشيد :

يَا زَائِرُنَا مِنْ أَوْلِيَاءِ * حَيَّاكُمَا اللَّهُ بِالسَّلَامِ
 يُحْزِنُنِي أَنْ أَطْفَأَ بِي * وَلَمْ تَتَّأَلَا سِوَى الْعِكَامِ

(١) الأزل : الصيق والشدة .

لم تَطْرُقْأى وبى حَرَاكُ * إلى حَلَالٍ ولا حَرَامٍ
 هَيْهَاتَ لِلْهُوَ والتَّصَابِي * وللعَوَاىِ وَلِلدَّامِ
 أَقْصَرَ جَهْلِي وَثَابَ حِلْمِي * وَهَنَهُ الشَّيْبُ مِنْ عُرَايِ^(١)
 عَمُرُ أَيُّهَا لَقَدْ تَوَلَّتْ * سَالِمَةَ الْحَدِّ مِنْ عِذَايِ^(٢)
 لله حَتَّى وَتَرَبُّ حَتَّى لَيْلَةَ أَعْيَاهَا مَرَايِ
 أَذْثَنَّا بِي يَطُولُ فُجْهِي * وَعَرَّتَانِي مَعَ السَّوَامِ
 وَأَطْهَوْنَا لِي عَلَى مَلَامٍ * وَالشَّيْبُ شَرٌّ مِنَ الْمَلَامِ
 نُورَكَ هَارُوبٌ مِنْ إِمَامٍ * بِطَاعَةِ اللَّهِ ذِي أَعْتَصَامِ
 لَهُ إِلَى دِي الْحَلَالِ قُرَى * لَيْسَتْ لَعْدُلٌ وَلَا إِمَامِ
 يُسَمَّى عَلَى أُمَّةٍ تَمْنَى * أَوْ لَوْ تَقِيهِ مِنَ الْهَمَامِ
 لَوْ اسْتَطَاعَتْ لِقَاسَمَتَهُ * أَعْمَارَهَا قِسْمَةَ السَّهَامِ
 يَا حَيْرَ مَا بَاضَ وَحَيْرَ بَايِ * سَدَّ الْبَيْسِ فِي الْأَنَامِ
 مَا اسْتَوْدَعَ الدِّينُ مِنْ إِمَامٍ * حَامَى عَلَيْهِ كَمَا تُحَامِي
 يُؤْنَسُ مِنْ رَأْيِهِ رَأَى * أَصْدَقَ مِنْ سَلَةِ الْحُسَامِ

وقال :

أَعْمُرُ كَيْفَ لِحَاحَةٍ * طُلَيْتَ إِلَى صَمِّ الصُّحُورِ
 اللَّهُ دَرُّ عُدَايِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى الْغُرُورِ
 ابْنُ اللَّيَالِي صُمِّي * وَوَسَمَنِي سِمَةَ الْكِبِيرِ
 أَطْفَانُ نُورِ شَيْبَتِي * وَفَرَشَنِي كَفِّ الْغُيُورِ
 وَلَقَدْ تَبَيَّتُ أَنَا مِثْلِي * يَحْنِينُ رُقْمَانَ النُّحُورِ

٧ - السيد الحميري^(١)

« لم يكن السيد الحميري من أنصار الحس والحسين، أو معارة أحصم لم يكن من أنصار ولد الحس والحسين؛ وإنما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الآن الثالث من أبناء علي: محمد بن حولة الحمية؛ والدين كانوا يديسون أنه لم يمّت وإنما تعيّب عن الناس واحتجب عنهم حياءً وسيعود فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بي العباس ويتقرب منهم مادام صاحبه محمد بن الحمية لم يعد من عينه بعد. ثم نستطيع أن نميّز هذا الشاعر بمحصلة لم رها في شاعر من الدين تحدّثا عنهم، وهي أنه كان سخيفاً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه بيه في الرحمة، فقد أسرف في هذا المذهب كما أسرف في مدح العلويين والإيمان بهم حتى وصهم من الخير والكرامة بما يُقِل ولا يُقْبَل، فكان كلّ حبر يمكن أن يُنسب إلى العلويين، رصيه العقل أم لم يرصه، وكان كل شرّ يمكن أن يسبب إلى خصوم العلويين، رصيه العقل أم لم يرصه، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورؤاة الأساطير يروي كرامة من الكرامات يُضيفها إلى أحد العلويين حتى يَظْم فيها قصيده طويلة جيّدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلةً إلى دم السلف والعي عليه.

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن معز الحميري والسيد لقّه ويكنى أبا هاشم، كان شاعراً متقدماً مطوعاً، يقال إن أكثر الناس شعراً في الحاهلية والاسلام ثلاثة: شار وأبو العتاهية والسيد، فانه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يهرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في شعره ويستعمله في قذهم والطن عليم فتحوى شعره من هذا الحس وعيره لذلك وهجره الناس تحوفاً وترقاً، وله طراز من الشعر ومذهب قلباً يلحق فيه أو يقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يحلو من مدح بني هاشم أو دم عيرهم من هو عده صد لم . تولى سنة ١٧٣ هـ . وتحدّث رحمة وأخباره في الأغاني (ح ٧ ص ٢) ونبوات الوفيات (ح ١ ص ١٩) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم صعبة واهية في الوقت نفسه .

وهي أنه كان يستبيح صروبا من اللهو والمنكر، ويسرف في شرب الخمر وعير ذلك من ألوان القبح، لا لأنه كان يمتدح الدين أو يزديه بل لأنه كان يدل على صاحب الدين؛ كان يحث النبي صلى الله عليه وسلم وآله ويمتدح مودته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له في دونه وآثامه لما قدم بين يديه من مدح العلويين ونصرهم على خصومهم، وكان سواهاتهم وسوء على خاصة يطعمونه في ذلك ويعترفون له به، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يعمره لرحل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم : إن من أحب آل علي لم تر له قدم إلا شئت له أخرى ؛ وعلى هذا كان السيد الحميري يلهو آمنا في دينه ودنياه . يعتمد في دينه على العلويين ، ويعتمد في دنياه على العباسيين ، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله . ويعلم أن العباسيين يتقون شره ويؤثرون مدحه على محبته ، وكان من معاصريه من يكره ذلك ويمقت كل المقت ، ويصمر للسيد عداً وحقداً لا يعطيهما عداً ولا حقداً ؛ ومن هؤلاء سوار بن عبد الله الحميري قاضي البصرة للصور ، فقد كان العداً بينه وبين السيد شديداً ، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة ، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة ؛ وكان السيد قد هاجم فأسرف في هجائه ، فشكا ذلك إلى المنصور فهاجم المنصور عه وأمره أن يذهب إلى القاضي فيعتذر إليه ، وأبى القاضي أن يقبل معذرتة ، فاستأنف السيد الهجاء وألح فيه . ويقال إن سواراً أعد شهوداً يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده ، فعلم السيد ذلك فخرج وفرع إلى المنصور ، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوار أن مات فتبعه السيد بعداته وبقيضه وهجائه .

قال أبو جعفر الأعرج : كان السيد أسمر تامم القائمة ، أشنب ذا وفرة ، حسن الألفاظ جميل الخطاب ، إذا تحدثت في مجلس قوم أعطى كل رجل في المجلس نصيبه من حديثه ؛

وقال المرزوق . إن ههنا لرجلين لو أخذوا معي الناس لما تكأ معهما في شيء : السيد الحميري وعمران بن حطان السدوسي ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه ؛ وقال الأصمعي لما أنشد شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ، ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته ، وكان أبو عبيدة يقول : أشعر المحدثين السيد الحميري وبشار .

وكان السيد يذهب مذهب الكيسانية ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك شعر كثير .

وقف السيد على بشار وهو يشد الشعر ، فأقبل عليه وقال .

أيها المادح العاد ليعطى * إن لله ما أيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وأرج مع المتزل العواد
لأتقل في الجواد ما ليس فيه * وتسمى البخيل باسم الجواد

قال بشار : من هدا فعره ، فقال . لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبا لتعبنا .

ومن قول السيد :

أتعرف رثما بالتويين قد دثر * عفته أهاصبت السحاب والمطر
وجرت به الأذيال ريماح حلفة * صا ودور بالمشيات والبكر
مازل قد كانت تكون بجوها * هصيم الحنن ربا الشوى ينجرها النظر
قطوب الخطا حصانه مخترية * كات محياها سنا دار القمر
رمتني بعيد مد قريب بها الوى * مات ولما أقص من عنة الوطر
ولما راثنى خشية السين موبعا * أكفكف مي أدمعا يبصها دزر
أشارت بأطراف إلى ودمعها - كنظم جمان حانه السلك فانثر
وقد كنت مما أحدث البين حاذرا . فلم يرض عني مه خوفا والحدز

لما استقام الأمر لني العباس قام السيد إلى أوى العباس السقاح حين نزل عن المبر فقال :

دُونَكُوهَا يَا بِي هَاشِم * بَجْدُوا مِنْ عَهْدِهَا الدَارَسَا
دُونَكُوهَا لَا عَلَا كَهَبُ مَنْ * كَاتَ عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِسَا
دُونَكُوهَا فَالْبَسُوا تَاحَهَا * لَا تَعْدَمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَا سَا
أَوْ حَيْرَ الْمَسْبُورِ فُرْسَانَهُ * مَا أَخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارَسَا
قَدْ سَاسَهَا قَلْبُكُمْ سَاسَةً * لَمْ يَتْرَكُوا رَظًا وَلَا يَابَسَا
وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى * مَهْطَ عَيْسَى فَيَكُمُ آيَسَا

وبعث هذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قُلْ لَأَبِي عَاسٍ يَمِيَّ مُحَمَّد * لَا تُعْطِيَنَّ بَنِي عَدِيَّ دَرَهْمَا
إِحْرِمْ بَنِي تَيْمٍ بَنَ مَرْءَةٍ لِمَنْهُمْ * شَرَّ الْهَبْرِيةِ آخِرًا وَمُقَدِّمًا
إِنْ تُعْطِيَهُمْ لَنْ يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً * وَيَكَاثُوكَ إِنْ تُدَمِّمْ وَتُشْتَمَّا
وَإِنْ أَنْتَمْتَهُمْ أَوْ اسْتَعْمَلْتَهُمْ * حَاوُوكَ وَأَتَّخِذُوا نَحْرَاحَكَ مَعْمَا
وَلَنْ مَعْتَهُمْ لَقَدْ بَدَّوْكُمْ * بِالْمَسْعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَأَوْا أَظْلَمَا
مَعَّوْا ثَرَاتٍ مَحْمَدٍ أَعْمَامَهُ * وَبَنِيهِ وَأَنْتَهُ عَدِيلُهُ مَرِيئَا
وَتَأْمُرُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَحْلَفُوا * وَكَفَى بِمَا فَعَلُوا هَذَاكَ مَاثِمَا
لَمْ يَشْكُرُوا لِمُحَمَّدٍ إِسْمَاءَهُ * أَفِيَشْكُرُونَ لِعَمْرِهِ إِنْ أَنْعَمَا
وَاللَّهُ مَنْ عَلَيْهِمْ يُجْعَد * وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْجُوبَ وَأَطْعَمَا
ثُمَّ أَنْبَرُوا لَوْصِيهِ وَوَلِيِّهِ * بِالْمَكْرَاتِ بِجَرَعِهِ الْعَلْقَمَا

أشد السيد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أَمُرُّ زِيَّ عَلَى جَدَّتِ الْحَسِيَّةِ * بِنِ قُفْلٍ لِأَعْظَمِهِ الزَكِيَّةِ
أَعْظَمًا لَا زَيْتٍ مِنْ * وَطَفَاءَ سَاكِةٍ رَوِيَّةِ
وَإِذَا مَرَرْتَ تَقْبِرَهُ * فَأَطْلُبْ بِهِ وَقْفَ الْمُطَيِّبَةِ

وَأَبْكَ الْمُطَهَّرَ لَلطَّ * هَمَّ وَالْمُطَهَّرَةَ الْبَقِيَّةَ
كَبْكَاءَ مُعْوَلَةٍ أَتَتْ * يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمِيَّةَ

فانحدرت دموعُ حميرٍ على حذيه وأرتفع الصراخُ والكاءُ من داره حتى أمره بالإمساك
فأمسك .

ومن قول السيد في إمامة ابن الحنفية

أَلَا يَا أَيُّهَا الْجَدِيدُ الْمَعْنَى * لَنَا مَا نَحْنُ وَنَحْنُكَ وَالْعَنَاءُ
أَتُصِرُّ مَا تَقُولُ وَأَنْتَ كَهْلٌ * تَرَكَ عَلَيْكَ مِنْ وَرَجٍ رِدَاءُ
أَلَا إِنَّ الْأَنْعَمَ مِنْ قُرَيْشٍ * وَلِلْأَهْلِ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْتِهِ * هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ
فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ * يَكُونُ الشُّكُّ مَاءً وَالْمِرَاءُ
بِهِمْ أَوْصَاءُهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِ * جَمِيعَ الْخَلْقِ لَوْ سَمِعَ الدَّعَاءُ
فَسِطْرٌ سِطْرٌ إِيْمَانٍ وَحِلْمٌ * وَسِطْرٌ عَيْنَتُهُ كَرَمَلَاءُ
سَقَى حَدَثًا تَصَمُّهُ مِلْكٌ * هَتَفُ الرِّعْدِ مُرْتَجِرٌ رَوَاءُ
تَظَلُّ مُطَلَّةٌ مَهَا عَرَالٍ * عَلَيْهِ وَتَقْتَدِي أُخْرَى مِلَاءُ
وَسِطْرٌ لَا يَدُوُّ الْمَوْتَ حَتَّى * يَقُودَ الْخَيْلُ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ
مِنَ الْبَيْتِ الْمُحْتَجِّ فِي سُرَاةٍ * شُرَاةٍ آفَ يَبْهَمُ الْإِحَاءُ
عَصَائْتُ لَيْسَ دُونَ أَعْرَاحِلٍ * بِمَكَّةَ قَائِمٌ لَمْ أَنْتَهَاءُ

وَأُنْشِدَ الْعَتَى قَصِيدَتَهُ اللَّامِيَّةَ الَّتِي أَوَّلَهَا .

هَلْ عَدَّ مَنْ أَحْبَبْتَ تَوَيْلٌ * أَمْ لَا فَإِنَّ اللُّومَ تَصْلِيلٌ
أَمْ فِي الْحَشَى مَكَ حَوَى بَاطِلٌ * لَيْسَ تُدَاوِيهِ إِلَّا بَاطِلٌ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العرلاء . مص الماء . من الراوية وبحوها ، ويقال . أنزلت

السماء عراليا إشارة إلى شدة وقوع المطر على التشبيه بهروله من أهواء المرادات .

عَلِقَتْ يَامَعْرُورُ حَذَاعَةً * بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْمِيلُ
رَبًّا رَدَّاحَ السُّومِ تُحْصَاهُ * كَأَنَّهَا أَدْمَاءُ عُطْبُولُ
يَسْفِيكَ مَهَا حِينَ تَحْلُوهَا * صَمٌّ إِلَى الْعَرِّ وَتَقْيِيلُ
وَذَوْقُ رَيْقٍ طَيِّبٍ طَعْمُهُ * كَأَنَّهُ مَالِمْكَ مَعْلُولُ
وِ نَسْوَةٍ مِثْلَ الْمَهَا تُحَرِّدُ * تَضْيِقُ عِزُّهُ الْخَلَائِلُ

يقول فيها :

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَالْآلِهَةِ * وَالْمَرْءِ عَمَّا قَالَ مَسْئُولُ
إِنْ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ * عَلَى التُّقَى وَالْبَرِّ مَحْمُولُ

فقال : أحسنَ والله ما شاء ، هذا والله الشعرُ الذي يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ لَا حِجَابَ .

قيل للسَّيِّدِ : مَا لَكَ لَا تَسْتَعْمَلُ فِي شِعْرِكَ مِنَ الْعَرِيبِ مَا تُسَالُ عَنْهُ كَمَا يَعْمَلُ الشُّعْرَاءُ ؟
قال : لِأَنِّي أَقُولُ شِعْرًا قَرِيبًا مِنَ الْقُلُوبِ يَلْذَهُ مَنْ سَمِعَهُ ، حَيْرٌ مِنْ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا مُعَقَّدًا
تَضَلُّ بِهِ الْأَوْهَامُ .

تَقَدَّمَ السَّيِّدُ إِلَى سَوَّارِ الْقَاضِي لِيَشْهَدَ عِصْدَهُ ، فَلَمْ يَرْضَ بِهِ ، فَقَامَ مُنْصَبًا مِنْ مَجْلِسِهِ ،
وَكَتَبَ رُقْعَةً يَقُولُ فِيهَا :

يَا أَمِينَ اللَّهِ يَا مَنْ * صُورُ يَا حَيْرَ الْوَلَاةِ
إِنَّ سَوَّارَ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ * مِنْ شَرِّ الْقَضَاةِ
تَعْلِيَّ جَمَلِيَّ * لَكُمْ غَيْرُ مُوَاتٍ
حَدُّهُ سَارِقُ عَتَرٍ * بِحُرَّةٍ مِنْ بَجْرَاتٍ
لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْقَا * ذِيهِ الْمُنْكَرَاتِ
وَأَبْنُ مَنْ كَانَ يُنَادِي * مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ
يَاهَنَاءُ أَخْرُجَ الْبِنَا * إِنَّا أَهْلُ هَنَاتٍ
مَدَحْنَا الْمَدْحَ وَمَنْ نَرَى * مِ يَصَبُّ بِالزُّهْرَاتِ
مَا كُفِينِيهِ لَا كِفَاءُ * اللَّهُ شَرُّ الطَّارِقَاتِ

قيل : فلما قرأها سوار وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المصور، وهو يومئذ نازل بالجسر، فسبقه السيد إليه فأنشده :

قل للإمام الذي يُنَجِّي بطاعته * يوم القيامة من مجبوحة النار
لا تستعين وجرالك الله صالحاً * يا حير من دت في حكم بسوار
لا تستعين بنجيت الرأي ذى صافٍ * جرم العيوب عظيم الكبر جبار
يُضْحِي الخصوم لديه من تحبُّره * لا يرفعون إليه لحظ أنصار
نيهاً و كبراً ولولا ما رقت له * من ضمه كان عين الجائع العارى

ودخل سوار، فلما رآه المصور تنسم وقال : أما بلعك خبر إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الرزدق واستراد في اليهود ؟ ها أحوكك للتعرض للسيد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصاحته .

دخل السيد على المهدي لما بايع لأبيه موسى وهارون، فأنشأ يقول :

ما بال مجرى دمعك الساجم * أم من قدى مات بها لازم
أم من هوى أنت له ساهر * صاغة من قلبك الهائم
آليت لا أمدح ذا نائل * من معشر غير بني هاشم
أوليئهم عندى يد المصطفى * ذى الفضل والمنّ أبى القاسم
فإنها بيضاء محودة * جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أذى جهمير * حليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثم أبه * موسى على ذى الإربة الحازم
وللرشيد الرايح المرتضى * مقترض من حقه اللازم
ملكهم خمسون معدودة * رغم أنف الحاسد الراغم
ليس عليا ما بقوا غيرهم * في هذه الأئمة من حاكم
حتى يردوها الى هابط * عليه عيسى منهم ناجم

ومن شعر السيد .

ما جرت حَظْرُهُ عَلَى الْقَلْبِ مَنَى * وَبِكَ إِلَّا اسْتَرْتُ عَنْ أَصْحَابِي .
 مِنْ دُمُوعِ نَحْرِي إِذْ كُنْتُ وَحْدِي * حَالِيَا أَسْعَدْتُ دُمُوعِي اتِّحَادِي
 إِنْ جِئْتُ لِمَا بَيْنَكَ قَدْ سَلَّ حَسْمِي * وَرَمَانِي مَالِ شَيْبٍ قَبْلَ الشَّبَابِ
 لَوْ مَنَحَتِ اللَّفَّا شَمِي بِكَ صَبَا * هَاتَمَ الْقَلْبُ قَدْ تَوَى فِي التَّرَابِ

ومما قاله في الحبس :

قِفْ بِالْذِيَارِ وَحَيْثُ يَا مَرْيُومُ * وَأَسْأَلُ وَكَيْفَ يُجِيبُ مَنْ لَا يَسْمَعُ
 إِنْ الدِّيَارَ حَلَّتْ وَلَيْسَ بِمَحْوَاهَا * إِلَّا الصَّوَاغُ وَالْجَمَامُ الْوُضْعُ
 وَلَقَدْ تَكُونُ بِهَا أَوْاسٍ كَالْذِي * حُمْلٌ وَعَرَّةٌ وَالرَّيَابُ وَبَرُوعُ
 حُورٌ بَوَاعِمُ لَا تَرَى فِي مَتْلَاهَا * أَمْثَلُ مِنَ الصَّبَاةِ أَرْبَعُ
 فَمَرِيرٌ بَعْدَ تَأَلُّفٍ وَتَجَمُّعُ * وَالذَّهْرُ صَاحٍ مُشَقَّتٌ مَا يَجْمَعُ
 فَاسْلَمْ فَإِنَّكَ قَدْ زِلْتَ عَنِّي * عَدَّ الْأَمِيرُ تَصَرَّفَ فِيهِ وَتَمَعُ
 تُؤْتَى هَوَاكَ إِذَا نَطَقْتَ بِحَاجِهِ * فِيهِ وَتَسْمَعُ عِنْدَهُ قَشَقَشُ
 قُلْ لِلْأَمِيرِ إِذَا طَفِرْتَ مَحَلُّوهُ * مِنْهُ وَلَمْ يَكُ عِنْدَهُ مَنْ يَسْمَعُ
 هَبْ لِي الَّذِي أَحْبَبْتُهُ وَأَحْمَدُ * وَسَيِّئُكَ إِذَا حَاصِدٌ مَا تَزْرَعُ
 يَخْتَصُّ آلُ مُحَمَّدٍ بِحِمَّةٍ * فِي الصَّدْرِ قَدْ طُوِيَتْ عَلَيْهَا الْأَصْلَعُ

وقال يهجو امرأة واريث مؤسيرة من حلالته ، وكانت تعبد زوجها على إسراره

أَقُولُ بِأَلَيْتَ لَيْلِي فِي يَدَيْ حَقِيقِ * مِنَ الْعِدَاوَةِ مِنْ أَعْدَى أَعْدَائِيَا
 يَلْعُو بِهَا فَوْقَ رَعِيٍّ ثُمَّ يُخْدِرُهَا ^(١) * وَهُوَ قَدْ تَهْدَى يَوْمَهَا فِيهَا
 أَوْ لَيْتَهَا فِي عِمَارِ الْبَحْرِ قَدْ عَصَفَتْ * فِيهِ الرِّيحُ فَهَاجَتْ مِنْ أَوَاذِيهَا ^(٢)

(١) الرعي أمه يتقدم الجبل همه دعوى ورومان . والحبل الطويل ودهدى الحجر تهدي ، أى دحرجه

وتدحرج . (٢) الأراوى : أمواج البحر تمردها أدى .

أُولَيْتَهَا قَدَدْتُ يَوْمًا إِلَى مَرِي * قد شُدَّ مَهْ إِلَى هَادِيهِ هَادِيهَا
 حَتَّى يُرَى لِحْمُهَا مِنْ حُصْرِهِ زَيْمًا * وَقَدْ أَتَى الْقَوْمَ بَعْدَ الْمَوْتِ نَاعِيهَا
 فَنَ بَكَاهَا فَلَا جَفَتْ مَدَامُهَا * لَا أَسْخَنَ اللَّهُ إِلَّا عَيْنَ بَاكِهَا

وقيل : إِنَّ آنَحْرَ قَصِيدَةٍ لَهُ هِيَ قَوْلُهُ :

أَشَاقَتَكَ الْمَازِلُ بَعْدَ هِنْدٍ * وَتَرْتَبِهَا وَذَاتِ الدَّلِّ دَعْدِ
 مَازِلُ أَفْقَرْتُ مِنْهُنَّ تَحْتِ * مَعَالِمُهُنَّ مِنْ سَبِيلٍ وَرَعْدِ
 وَرِيحٍ حَرَجِفُ تَسْتُ فِيهَا * بِسَافَى التُّرْبِ تُلْعِمُ مَا تُسْدِي
 أَلَمْ يَلْنُفَكَ وَالْأَنْبَاءُ نَيْمِي * مَقَالُ مُحَمَّدٍ فِيمَا يُؤْدِي
 إِلَى ذِي عَلَيْهِ الْمَهَادَى عَلَى * وَخَوْلَةَ حَادِمٍ فِي الْبَيْتِ تَرْدِي
 أَلَمْ تَرَأْ خَوْلَةَ سَوْفَ تَأْتِي * بَوَارِي الرُّنْدِ صَافِي الْخَلِيمِ تَجْدِ
 يَهْوِزُ بِكُنْيَتِي وَأَسْمَى لِأُنَى * نَحْلُهُمَا هُوَ الْمَهْدَى بَعْدِي
 يُقَيِّتُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا * تَصَمَّنُهُ بَطْنِيَّةُ بَطْنٍ لَحْدِ
 سَيْنٍ وَأَشْهَرًا وَيُرَى بِرَصَوَى * بِشَيْعِ بَيْنِ أَنْمَارٍ وَأُسْدِ
 مَقِيمٌ بَيْنَ آرَامٍ وَعَيْنِ * وَحَقَّابُ تَرْوُحٍ خِلَالِ رُبْدِ
 تُرَاعِيهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا * مُلَانِهِنَّ مُفْتَرِيًا بِحَدِّ
 أَيْنَ بِهِ الرَّدَى قَرْتَنُ طَوْرًا * فَلَا حَوْفٍ لَدَى مَرَعَى وَوَرْدِ
 حَلَقْتُ بَرْتَ مَكَّةَ وَالْمُصَلَّى * وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ قَرْدِ
 يَطُوفُ بِهِ الْحَجَّاجُ وَكُلَّ عَارِمٍ * يَحْلُلُ لَدَيْهِ وَفَدُّ بَعْدِ وَفَدِ
 لَقَدْ كَانَ ابْنُ خَوْلَةَ غَيْرَ شَكٍّ * صَفَاءَ وَلَا يَتْبَعِي وَخُلُوصَ وَدَى
 مَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ فِيمَا * أَمِيرُ وَمَا أَبُوحُ بِهِ وَأُبْدِي
 سَوَى دِي الْوَحَى أَحْمَدَ أَوْ عَلِيٍّ * وَلَا أَرْكِي وَأَطِيبَ مَهْ عِنْدِي

وَمَنْ ذَا بَارٍ حَوْلَهُ إِذْ رَمَتْنِي * أَسْهَمَهَا الْمَنِيَّةُ حِينَ وَعَدْتِي
 يُذَبِّبُ عَمَّكَ وَيَسُدُّ مِمَّا * تَتَلَمَّسُ مِنْ حَصُونِكُمْ كَسَدْتِي
 وَمَالِي أَنْ أَمُرَّ بِهِ وَلَكِنْ * أَؤْمَلُ أَنْ يُؤَحَّرَ يَوْمُ فَقْدِي
 فَأُدْرِكَ دَوْلَةً لَكَ لَسْتُ فِيهَا * مَحْبَارٍ تَوْصَفُفَ مَا تَعْدِي
 عَلَى قَوْمٍ تَقْوُوا فِيكُمْ عَلِيًّا * لَتُعْدَى مَعَكُمْ يَاجِرَ مُعَدِّ
 لَتَعْلَبَ بَأْسُ عَلَيْهِمْ حَيْثُ كَانُوا * تَعْوِرُ مِنْ هَامَةِ أَوْ تَحْجَدِ
 إِذَا مَا سِرْتَ مِنْ بَلَدٍ حَرَامٍ * إِلَى مَنْ مَالِدِيَّةٍ مِنْ مَعَدِّ
 وَمَادَا عَزُّهُمْ وَالْخَيْرُ مَعَهُمْ * مَا شَوْسَ أَعْصَلَ الْأَيْبَاءَ وَرَدِّ
 وَأَنْتَ لِمَنْ بَنَى وَعَدَا وَأَذْكِي * عَلَيْكَ الْحَرْبَ وَأَسْتَرْدَاكَ مُرَدِّ

٨ - سلم بن عمرو الخاسر^(١)

كان منقطعاً الى البرامكة والى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إِذَا الْفَضْلُ لَسَلِمَ وَحْدَهُ * لَيْسَ فِيهِ لِسْوَى سَلَمٍ دَرَكٌ

وكان هذا أحد الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية . ولسلم يقول أبو العتاهية وقد حجَّ مع عُتْبَةَ :

وَاللَّهِ وَاللَّهِ مَا أَنَا لِي مَتَى * مَا مَتُّ يَا سَلْمُ بَعْدَ ذَا السَّرِّ
أَلَيْسَ قَدْ طُفْتُ حَيْثُ طَافَتْ وَقَدْ * لَمْتُ الَّذِي قُلْتُ مِنَ الْحَمْرِ

وله يقول أبو العتاهية وقد حُبِسَ إبراهيمُ الموصلي :

سَلْمُ يَا سَلْمُ لَيْسَ دُونَكَ سِرٌّ * حُبِسَ الْمَوْصِلِيُّ فَالْعَيْشُ مُرٌّ
مَا اسْتَطَابَ اللَّذَاتِ ، مَدَّ سَكَنَ الْمَطِّ * بَقِيَ رَأْسُ اللَّذَاتِ وَاللَّهِ ، حُرٌّ
تَرَكَ الْمَوْصِلِيُّ مَنْ حَلَقَ اللَّهَ * لَهُ جَمِيعًا وَعَيْشُهُمْ مُقَشِّيرٌ

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبي بكر الصديق ، نشأ في البصرة ، وكان شاعراً مطبوعاً متصرفاً في مود الشعر ، وكان منظاراً في الخلعة والسوق والمجون ، ورواد شاعرية وتمرساً بالشعر على يد شاربه لأنه كان راوياً وتلميذه ، أحد دعواته واعترف من بحر وسبح على مواله ، وكثيراً ما كان يأخذ أقواله فيسجلها ويصححها كما مسح هذا البيت

من راق الناس لم يطهر بحاحه * وفار بالطيات العاتك اللهج

فعله

من راق الناس مات عماً * وفار باللدة الحسور

يلعب به شارحاً مصعب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يعيده مادام حياً ، فاستنمع اليه بكل صديق حتى رمى روحه وقته فمحصرة كانت يده . وكان صديقاً لإبراهيم الموصلي المشهور ولأبي العتاهية . وكان يمدح البرامكة وخصوصاً الفضل بن يحيى . توفي سنة ١٨٦ هـ . وتوجد ترجمته في الأغاني ح ٢١ ص ١١٠ وأثر حلقات

لما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :
 اذا نبهتك صَبَاتُ الْأُمُورِ * فنبه لها عُمْرًا ثم تم
 فتي لا يبت على دِمْنَةٍ^(١) * ولا يشرب الماء إلا بدم

نعت بها مع سلم الى عمر بن العلاء، فوافاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : ان حادمتك - يعني نفسه - قد قال في طريقه فيك قصيدة؛ قال : فإنك لهاك! قال : تسمع ثم تحكم؟ قال : هات، فأنشده :

قد عزى الداء لما لي دواء * مما ألقى من حسان النساء
 قلبٌ صحيحٌ كتُّ أسطوبه * أصبح من سلمى بداء عيَّاه
 أنفأسها منك وفي طرفها * يحور وما لي خيرها من دواء
 وعدتي وعدًا فأوفي به * هل تصلح الخمر إلا بماء

ويقول فيها :

كم كربة قد مسني صرها * ناديت فيها عمر بن العلاء
 فأمر له عشرة آلاف درهم، فكانت أول عطية سيّئة وصلت إليه .

ومن قوله يري بأقونة بنت المهدي :

أودى بأقونة ريب الرمان * مؤنسة المهدي والخيزران
 لم تطو الأرض على مثلها * مولودة حن لها الودان
 ناقون يا بنت إمام المهدي * أصبحت من زيه أهل الحان
 بكت لك الأرض وسكانها * في كل أفي بين مانس وحان

دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم بروز الهدايا بين يديه، فأنشد :

أمن رح تسائله * وقد أقوت منازل
 قلبي من هوى الأطلا * يا حب ما يزائله

رَوَيْدُكُمْ عَنِ الْمَشْعُو * بِ إِنْ الْحَتَّ قَاتَلُهُ
 تَلَايِلُ صَدْرِهِ تَسْرِى * وَقَدْ نَامَتْ عَوَاذِلُهُ
 أَحَقُّ السَّاسِ بِالْتَفْضِيهِ * لَمْ مِنْ تُرْحَى فَوَاصِلُهُ
 رَأَيْتُ مَكَارِمَ الْأَحْلَا * قِ مَا صَمَّتْ حَمَائِلُهُ
 فَلَسْتُ أَرَى قَتَى وَ النَّا * سَ إِلَّا الْفَضْلُ فَاصِلُهُ
 يَقُولُ لِسَانُهُ حَيْرًا * فَتَفَعَّلَهُ أَمَامِلُهُ
 وَمَنْهَا يُرْخَ مِنْ حَيْرٍ * فَإِنَّ الْعَصَلَ فَاعِلُهُ

وكان ابراهيم الموصلى وابنه إسحاق حاضرين، فقال لإبراهيم كيف ترى وتسمع قال .
 احسن مرئى ومسموع ، وفصل الأمير أكثر منه ، فقال . حدوا جميع ما أهدى الى اليوم
 فاقسموه بينكم أنلا تأ إلا ذلك التمثال ، إلى أريد أن أهديه اليوم الى دنانير ، ثم قال .
 لا والله ما هكذا تفعل الأحرار ، يقوم ويدفع اليهم ثمه ثم يهديه ، فقوم بأنى ديار ، حملها
 الى القوم من بيت ماله واقسموا جميع الهدايا بينهم .

كان المهدي يعطى مروان وسلمنا الحاسر عطيه واحده ، فكان سلم يأتى باب المهدي
 على الرذون القاريه ، قيمته عشرة آلاف درهم بسرجه ولحام مقصصين ، ولباسه الحر
 والوشى وما أشبه ذلك من الثياب العاليه الأثمان ، ورائحه المسك والطيب والعاليه تفوح
 منه ، ويحى مروان أى حفصه عليه فروج كل وقيص كرايس وعمامه كرايس وخفا بكل
 وكساء غليظ ، وهو مئنت الرائحة ، وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم اليه بخلا ، فادا قرم أرسل
 علامه واشترى له رأسا فأكله ، فقال له قائل : أراك لا تأكل إلا الرأس ، قال نعم أعرف
 سعره فأمن حيانه العلام ولا اشتري لحما يطبخه بيا كل منه ، والرأس أكل منه ألوانا : أكل
 من عينيهِ لوناً ومن عظمته لوناً ومن دماغه لوناً .

(١) نصير . (٢) الكرايس : جمع كرامس وهو القطر . (٣) أى حمار وكثير الصوف .
 طيفله . (٤) الطلعة . أصل السان .

كان سلم قد بُليَ بالكيمياء، فكان يذهب بكل شيء له ماطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عَرَفَ أن باب الشام صاحب كيمياء عجيباً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسأل عنه، فدُلَّوه عليه . قال : فدخلت إليه الى موضع معور^(١)، فدفقتُ البابَ فخرج إلى، فقال : من أنت عافاك الله؟ فقلت : رجل معجبٌ بهذا العلم؛ قال : فلا تشهرني فإني رجل مستورٌ إنما أعمل القوتَ، قلت : إني لا أشررك إنما أقتبس منك، قال : فاكتم ذلك، وبين يديه كوزٌ شبه صغير^(٢)، فقال لي : اقلع عُروته، فقلعتها، فقال : اسبُكها في البوتقة^(٣)، فسبكتُها، فأخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال : دُرّه عليه، ففعلت، فقال : أفرعه، فأفرعته، فقال : دعه معك، فإذا أصبحت فأنخرج فيه وعُدْ إلى . فأرحته الى باب الشام فبعثُ المتقالَ أحد وعشرين درهماً ورجعتُ إليه فأحبرته، فقال : اطلب الآن ما شئتُ؛ قلت : تُفيدني؟ قال : بمسماة درهمٍ على ألا تُعلمه أحداً، فأعطيته وكتب لي صفةً فامتنحيتها فإذا هي باطلة، فعدتُ إليه، فقيل لي . قد تحوّل وإذا عُروة الكوزِ الشبه من ذهبٍ مركبةٌ عليه، والكوز شبه، ولذلك كان يدخلُ إليه من يطله ليلاً ليحى عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد في حيرا وأن هذا كله ماطلٌ .

قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعارٌ يرى ببعضها أم جعفر، وبعضها جاريةٌ غير مسماة، وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية؛ فقلت له : ويحك ما هذا؟ فقال : تحدثت الحوادث فيطالوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يَجْمَلُ بنا أن نقولَ غيرَ الجيد، فعدّ لهم هذا قبل كونه، فمضى حدثٌ أحدثَ أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت .

دخل سلم على الرشيد فأنشده : * حَيَّ الأَحِبَّةَ بِالسَّلام * فقال الرشيد : حياهم الله بِالسَّلام؛ فقال سلم : * أَعْلَى وَدَاجِ أَم مَقَام * فقال الرشيد : حياهم الله على أَى ذلك كان، فأنشده :

لَمْ يَتَّقِ مِنْكَ وَمِنْهُمْ * غَيْرُ الْجُلُودِ عَلَى الْعِظَامِ

(١) معور : مخوف . (٢) الشبه : النحاس الأمفر . (٣) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصانع .

فقال له الرشيد : بَلِّ مَكَ، وأمر بإحراجه ، وتطير منه ومن قوله ، فلم يسمع منه نافي الشعر ولا أتابه بشيء .

استوهب اصحاق الموصلي من الرشيد تركته سلم ، وكان قد مات عن غير وارث ، فوهبها له قبل أن يسلمها صاحب الموارث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، وروى أنه رفع الى الرشيد ألف سلما قد توفى وحلف مما أحده مه حاصة ومن زبيدة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم سوى ما حلفه من عقار وغيره مما اعتقده قديما ، فقبضه الرشيد وتظلم اليه مواليه من آل أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ؛ فقال : هذا حادى ونديى ، والذي حلفه من مالى فانا أحق به ، فلم يُعطهم إلا شيئا يسيرا من قديم أملاكه .

٩ - رِبِيعَةُ الرَّقِيِّ^(١)

كان مُقَطَّعًا عن الحضارة ، بعيدًا عن مجالسة الخلفاء ، فأنجل ذِكْرُهُ بسبب ذلك ؛ لكنهم كانوا يستقديمونه اليهم . وأوّل من فعل ذلك المهديّ ، فدّحه ونال جَوازِهِ ؛ وكان آن المُعْتَرِى ربيعة أشعرَ عَزَلًا من أبي نُؤاس ، لأنّ في عَزَلِ أُنَى نُؤاس بَرْدًا كثيرًا ، وعَزَلُ هذا سليمٌ عذب سهل ، ولذلك فإن شهرته بلغت إلى نلاط الخليفة . وكان يمدح غير الخلفاء ويبال جوارثهم ويعود الى بلده ، وإن قصر أحدٌ في إعطائه هَمَّاه ، وله في ذلك حديثٌ مع العباس بن محمد بن علي من أمراء بني العباس .

ومس قوله يمدح يزيد بن حاتم المهلبى ويهجو يزيد بن أسيد السلمي :
 حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ دِي مَشْوِيَةٍ * يَمِينُ أَمْرِي إِلَى هِهَا غَيْرَ آتِمِ
 لَشَتَانِ مَا يَمِينُ الْيَرِيدِينَ فِي الدُّدَى * يَزِيدُ سُلَيْمٍ وَالْأَعْمَرُ ابْنُ حَاتِمِ
 يَزِيدُ سُلَيْمٍ سَالِمُ الْمَالِ ، وَالْهَقَى . أَحُو الْأَزْدِ لِلْأُمُوالِ غَيْرُ مَسَالِمِ
 فَهَمُّ الْفَقِي الْأَزْدِيّ - إِتْلَافُ مَالِهِ * وَهَمُّ الْفَقِي الْقَيْسِيّ - جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
 فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّمُ أَتَى هَجْوُهُ * وَلَكِنِّي فَصَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

قال رجلٌ لربيعه : يا أبا أسامة ، ما حملك على أن هجوت رجلاً من قومك وفصلت عليه رحلا من الأزدي ؟ فقال : أخبرك ، أمّلتُ فلم يبق لي إلا دأري ، فرهنّتها على خمسمائة درهم ، ورحلتُ اليه الى أرمينية ، فأعلمته بمكانى ومدحتّه ، وأقمتُ عنده حولا ، فوهبت لي

(١) هو أو أسامة ربيعة بن ثابت بن موالى سليم ، ويكنى أبا شابة ، وكان يرل الرقة ، وها مولده ومشوّه ، فأشخصه المهديّ اليه ، فدّحه حدة قصائد وأثابه عليها ثوابا كبيرا ، وهو من المكثريين المجهدين ، وكان صريحا واما أحمل ذكره وأسقطه عن طفته بعده عن العراق وتركه حدة الخلفاء ومحالطة الشعراء . ومع ذلك فما عدم مفعلا مقدّما له . وتحدّ أحاراه في الأناجى (ح ١٥ ص ٣٨) ونراثة الأدب للغدادى (ح ٣ ص ٥٥) .

(٢) أى لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمة) من بيتة بن سليم ، وأحو الأزد هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

خمسمائة درهم، فتحملت وصرت بها الى منزلي، فلم يبق معي كبير شيء، فزلت في دار يركاء، فقلت: لو أتيت يزيد بن حاتم، ثم قلت: هذا ابن عمي فعل بي هذا الفعل فكيف بغيره! ثم حملت نفسي على أن آتيه، فأعلم بمكاني، فتركني أشهرا حتى صهرت، فأكرمت نفسي من الجمالين. وكتبت بيتا في رُقعة فالتقيته في دهلزة، والبيت:

أَرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لَّهِ رَاجِعًا * بِحُجِّي حُبِّي مِنْ يَزِيدَ بْنِ حَاتِمٍ

فوقعت الرُقعة في يد حاجبه، فأوصلها اليه من غير علمي ولا أمرى، فبعث حلفي، فلما دخلت عليه قال: هيه أنشدني ما قلت، فتممت، فقال: والله لتُنشدني، فأنشدته، فقال: والله لا ترجع كذلك، ثم قال: أنزعوا حُفَّيه، فزعا فحشاها دناير وأمر لي بعلبان وجوار وكس، ألا ترى لي أن أمدح هذا وأهجو ذاك؟ قلت: بلى والله، وسار شعرى حتى بلغ المهدي، فكان سبب دخولي اليه.

قيل لأبي زيد النحوي: إن الأصمعي قال: لا يقال شتان ما بينهما، وإنما يقال: شتان ما هما، وأنشد قول الأعشى: شتان ما يؤمى على كُورِها. فقال: كذب الأصمعي، يقال: شتان ما هما وشتان ما بينهما، وأنشد لربيعه الرقي: «لشتان ما بين اليريدين» وفي استشهدا مثل أبي زيد على دفع قول مثل الأصمعي بشعر ربيعة كفاية له في تمصيله. أمتدح ربيعة العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يسبق إليها حسنا، وهي طويلة، يقول فيها:

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا بْنَ مُحَمَّدٍ * قُلْ «لَا» وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا

مَا إِنْ أَعُدَّ مِنَ الْمَكَارِمِ خَصْلَةٌ * إِلَّا وَجَدْتُكَ عَمَّا أَوْحَاهَا

وَإِذَا الْمُلُوكُ تَسَايَرُوا فِي بِلَدِهِ * كَانُوا كَوَاكِبَهَا وَكَتَ هَلَاهَا

إِنْ الْمَكَارِمَ لَمْ تَرَلْ مَعْقُولَةً * حَتَّى حَلَّتْ بِرَاحَتِكَ عِقَاهَا

فبعثت اليه بدينارين، وكان يُقدَّرُ فيه ألفين، فلما نظر الى الدينارين كاد يُبْحَنَ عِظًا وقال للرسول: حذ هذين الدينارين فهما لك على أن ترد الرُقعة الي من حيث لا يدرى العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخدها ربيعة وأمر من كتب في ظهرها:

مدحتك مِدْحَةَ السَّيْفِ الْمُحَلَّى * لَتَجْرِي فِي الْكَرَامِ كَمَا جَرَيْتُ
 مَهَبَهَا مِدْحَةً دَهَتْ ضَيَّاقًا * كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا وَأَقْرَيْتُ
 فَاَنْتَ الْمَرْءُ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ * كَأَنِّي إِذَا مَدَحْتُكَ قَدْ زَنْيْتُ

ثم دفعها الى الرسول وقال : صَعَهَا فِي الْمَوْصِعِ الَّذِي أَحْذَتْهَا مِنْهُ ، فَرَدَّهَا الرَّسُولُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَحَدُهَا الْعَاسُ فَنَظَرَ فِيهَا ، فَلَمَّا قَرَأَ الْآيَاتِ عَصِبَ وَقَامَ مِنْ وَقْتِهِ فَرَكِبَ إِلَى الرَّشِيدِ ، وَكَانَ أَثِيرًا عِنْدَهُ يُجَبِّلُهُ وَيَقْدِّمُهُ ، وَكَانَ قَدْ هَمَّ أَنْ يَحْطُبَ إِلَيْهِ أَمْنَتَهُ ، فَرَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ : هَمَانِي رُبْعَةُ الرَّقِّ ، فَأُحْصِرُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : تَهْجُو عَمِّي وَأَتْرَاخُلِي عِنْدِي ؟ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْرِبَ عُنُقَكَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ مَدَحْتُهُ بِعَصِيدَةٍ مَا قَالَ مِثْلَهَا أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي أَحَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ ، وَلَقَدْ مَالَعْتُ فِي الشَّاءِ وَأَكْثَرْتُ فِي الْوَصْفِ ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْمُرَهُ بِإِحْصَارِهَا ! فَلَمَّا سَمِعَ الرَّشِيدُ ذَلِكَ مِنْهُ سَكَنَ غَضَبُهُ وَأَحْتَأَتْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقَصِيدَةِ ، فَأَمَرَ الْعَاسَ بِإِحْصَارِ الرَّقْعَةِ ، فَتَلَكَّا عَلَيْهِ الْعَبَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ أَمَرْتُ بِإِحْصَارِهَا ، فَعَلِمَ الْعَبَّاسُ أَنَّهُ قَدْ أَحْطَأَ وَغَلِطَ ، فَأَمَرَ بِإِحْصَارِهَا ، فَأُحْصِرَتْ ، فَأَحْذَاهَا الرَّشِيدُ وَإِذَا فِيهَا الْقَصِيدَةُ بَيْنِيهَا ، فَاسْتَحْسَبَهَا وَاسْتَحَادَهَا وَأَتَّخِجَ بِهَا وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قَالَ أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي أَحَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ مِثْلَهَا ، لَقَدْ صَدَّقَ رُبْعُهُ وَبَرٌّ ، ثُمَّ قَالَ لِلْعَبَّاسِ : يَمَّ أَمْنَتُهُ عَلَيْهَا ؟ فَسَكَتَ الْعَاسُ وَتَعَيَّرَ لَوْنُهُ وَجَرَّصَ بِرِيقِهِ ، فَقَالَ رُبْعُهُ : أَنَا بِي عَلَيْهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِدِيَارِ ، فَتَوَهَّمُ الرَّشِيدُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْمَوْحِدَةِ عَلَى الْعَاسِ ، فَقَالَ : بِحَيَاتِي يَا رَقِّ نَكَمَ أَتَاكَ ؟ قَالَ : وَحَيَاتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا بِبِي عَلَيْهَا إِلَّا بِدِيَارِ ، فَغَضِبَ الرَّشِيدُ عَصَبًا شَدِيدًا وَنَظَرَ فِي وَجْهِ الْعَاسِ وَقَالَ : سَوَاءٌ لَكَ ! أَىْ حَالٍ قَعَدْتُ بِكَ عَنْ إِثَابَتِهِ ؟ الْأُمُورُ ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَوَّلْتُكَ جُهْدِي ، أَمْ أَنْقَطَعَ الْمَادَّةُ عَنْكَ ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَنْقَطَعَتْ ، أَمْ أَصْلُكَ ؟ فَهُوَ الْأَصْلُ لَا يُدَانِيهِ شَيْءٌ ، أَمْ نَفْسُكَ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِكَ حَتَّى فَصَحْتَ آثَامَكَ وَأَحْدَاكَ وَفَصَحْتَنِي

وَفَسَكَ ٥ فَكَسَّ الْعَبَّاسُ رَأْسَهُ وَلَمْ يَبْطِقْ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : يَا عَلَّامُ ، أُعْطِ رِبْعَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَحِلْعَةً وَأَحْمِلْهُ عَلَى نَعْلَةٍ ، فَلَمَّا حَمَلَ الْمَالُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَلْبَسَ الْحُلْعَةَ قَالَ : بِحَيَاتِي يَارَقِي لَا تَذْكُرْهُ فِي شَعْرِكَ لَا تَعْرِضْهُ وَلَا تَصْرِفْهُ ، وَقَرَّرَ الرَّشِيدُ عَمَّا كَانَ هَمُّهُ بِهِ أَنْ تَرْجُوهُ إِلَيْهِ ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَفَاءٌ كَثِيرٌ وَأَطْرَاحٌ لَهُ .

قال أبو بشر : كُنْتُ حَاصِرًا رِبْعَةَ الرِّقَى يَوْمًا وَحَاءَتْهُ أَمْرَأَةٌ قَالَتْ : تَقُولُ لَكَ فَلَانَةُ إِنْ بَنَتْ مَوْلَايَ مَجْمُومَةً فَإِنْ كُنْتُ تَعْرِفُ لَهَا عَوْدَةً ^(١) فَأَفْعَلْ ، فَقَالَ أَكُنْتُ لَهَا أَمَا بَشَرُ هَذِهِ الْعَوْدَةِ :

نُقُوا نِقُوا نَأْسَمُ الْهَى الَّذِي • لَا يَعْزِضُ السُّقْمَ لِمَنْ قَدْ شَمَى
أَعِيدُ مَوْلَاتِي وَمَوْلَاتِهَا وَأَبْنَاهَا بِعَوْدَةِ الْمُضْطَمَّى
مَنْ شَرًّا مَا يَعْزِضُ مِنْ عَلَيَّ • فِي الصَّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَسْدَا

فقلتُ له : يَا أَبَا ثَابِتَ ، لَسْتُ أَحْسِنُ أَنْ أَكُنْتُ نِقُوا نِقُوا ، فَكَيْفَ أَكْتُبُهَا ٥ قَالَ أَنْصَحَ الْمِدَادَ مِنْ رَأْسِ الْقَلَمِ فِي مَوْصِعَيْنِ حَتَّى يَكُونَ كَالْعُثْثِ ^(٢) ، وَأَدْفَعِ الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا فإِذَا نَافَعَةٌ ، ففعلتُ ودفعْتُهَا إِلَيْهَا ، فَلَمْ تَلَمْ أَنْ حَاءَتْ الْجَارِيَةُ وَهِيَ لَا تَتَمَلَّكَ صَحَّكَ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا جَبَّوْنَ مَا فَعَلْتَ بِهَا ! كَيْدًا يَنْصَحُ بِمَا صَعَتَ ! قَالَ • هَا أَصْعَبُ ! أَشَاعَرٌ أَمَا أَمَّ صَاحِبَ تَعَاوَيْدٍ ! •

وَأَتَمَّقَ لِلزُّقَى أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ مَعَ مَعْنَى رَائِدَةٍ ، وَقَدْ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَدَحَاهُ ، فَلَمْ يَهْشَ لَهُ ، فَهَجَّاهُ بِقَصِيدِهِ مَطْلُوعًا :

مَعْنُ يَا مَعْنُ يَا بَابَ زَائِدَةِ الْكَلْبِ الَّذِي فِي الدَّرَاعِ لَا فِي النَّارِ
لَا تُفَاجِرْ إِذَا نَحَرْتَ مَا • إِنَّكَ وَأَنْخَرُ بَعْمَكَ الْحَوْفَرَانِ ^(٣)

(١) العودة • الرقية : قِيَاءُ الْإِنْسَانِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ حُودٍ أَوْ مَرَضٍ • (٢) البعث الصاق اليسير بعينه الزاقي في العقدة عند الرقية •

(٣) الحوهران هو الحارث بن شريك الشيباني ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ قَبِلَ مِنْ عَاصِمِ التَّيْمِيِّ حِمْرَهُ بِالرَّحِ حِينَ حَافَ أَنْ يَمُوتَ ، وَقَدْ هَرَّ ذَلِكَ سَوَارِسَ حَانَ الْمُقَرَّى فَقَالَ
وَحِينَ حَمْرَا الْحَوْرَانِ بَطْمَةً * سَقَتَهُ جَبَّيْمًا مِنْ دَمِ الْحَوْفِ أَشْكَلَا

ومن غَزَلِه أبياتٌ يُعْنَى بها، وهى :

وَتَزَعُمُ أَنى قَدْ تَبَدَّلْتُ خُلَّةً^(١) * سِوَاهَا وَهَذَا الْبَاطِلُ الْمُتَقَوِّلُ
لَمَّا اللهُ مِنْ نَاعِ الصَّدِيقِ غَيْرِهِ * فَقَالَتْ نَعَمْ حَاشَاكَ إِنْ تَكُ تَفْعَلُ
سَتَصْرِمُ إِنْسَانًا إِذَا مَا صَرَمْتَنِى * بِحَبِّكَ فَأَنْظِرْ سِدَّهُ مِنْ تَدَلُّ

(١) الحلة الخليفة .

١٠ - الرقائى^(١)

كان سهّل الشعر مطبوعاً ، وكان مُنْقَطِعاً إلى آل برمك ، مُسْتَفْتِياً بهم عن سواهم ،
وكانوا يَصُولون به على الشعراء ، ويُرَوِّون أولادهم أشعاره ، ويدُونونها القليل والكثير منها ،
تَعْصِياً له ، وحِفْظاً لخدمته ، وتَتَوَيْباً باسمه ، وتحريكاً لنشاطه ، حَفِظَ ذلك لهم . فلما نُكِوا
صار إليهم فى حبسهم ، فأقام معهم مدة أيامهم يُنْشِدُهم ويُسَيرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم
فأكثر من رثائهم ، من ذلك قوله فى جعفر :

كَمْ هَاتِفٍ بِكَ مِنْ بَاكِ وَبَاكِه * يَا طِيبَ الصَّيْفِ إِذْ تُدْعَى وَلِلْجَارِ
إِنْ يُعْذَمَ الْقَطْرُ كَسَتْ الْمَرْزَ بَارِقُهُ * تَعُ الدَّانِيرُ لَا مَا خَيْلِ السَّارِ

وقوله :

لَعَمْرُكَ مَا مَالُوتَ عَارٌّ عَلَى الْفَتَى * إِذَا لَمْ تُصْنَهْ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ^(٢)
وَمَا أَحَدٌ حَى وَإِنْ كَانَ سَالِياً * أَسْلَمَ مِمَّا عَيْتَهُ الْمَقَابِرُ
وَمَنْ كَانَ يَمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ حَازِغًا * فَلَا تَدَّ يَوْمًا أَنْ يُرَى وَهُوَ صَارِ
وَلَيْسَ لَذَى عَيْشٍ عَنِ الْمَوْتِ مُقْصَرٌّ * وَلَيْسَ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْدَّهْرِ غَايِرِ
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ حَدِيدٍ إِلَى السَّلَى * وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرِ
فَلَا يُبْعِدُنْكَ اللَّهُ عَنِّي جَعْفَرَا * رُوحِي وَلَوْ دَارَتْ عَلَى الدَّوَابِرِ
فَالَيْتُ لَا أَنْفُكَ أَبْكِكَ مَا دَعَتْ * عَلَى فَنِّ زَقَاءٍ أَوْ طَارِ طَائِرِ

ومن ذلك قوله لما صُلب الفضل بن يحيى وأجناز به الرقاش ، وهو مصلوبٌ على
الجذع ، فوقف يبكى ثم قال :

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل البصرة . توفى سنة ٢٠٠ هـ . ونجد ترجمته
فى الأغاني (ح ١٥ ص ٣٥) وروايات الوفيات (ح ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .
(٢) الماير : الماير .

أما والله لولا خَوْفُ وَاِشٍ * وَعَيْنٌ لِلْخَلِيفَةِ لَا تَتَّامُ
لَطَفْنَا حَوْلَ حِذِّكَ وَأَسْتَلَمَا * كَمَا لِلنَّاسِ بِالْمَحْمَرِ أَسْتَلَامُ
وَمَا أَهْمَرْتُ قَبْلَكَ يَا بَنَ يَحْيَى * حُسَامًا حَتَفَهُ السِّيفُ الْحُسَامُ
عَلَى اللَّذَاتِ وَالْدِيَا جَمِيعَا * وَدَوْلَةَ آلِ بَرْمَكٍ السَّلَامُ

فكتب أهل الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحصره فقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال :
يا أمير المؤمنين كان إلى محسننا ، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حرّكني إحسانه فما ملكت
نفسى حتى قلت الذى قلته ، قال : ولم كان يُجرى عليك ؟ قال : ألف دينار فى كل سنة ،
قال : إنا قد أصعبناها لك .

ومن قوله يَصِفُ حَارِيَّةَ :

صَفَاتٌ وَحُسْنُ أَوْرَثَا الْقَلْبَ لَوَعَةً * تَصَرُّمٌ وَ أَحْشَاءُ قَلْبٍ مُتِمٌّ
تُمَثِّلُهَا نَفْسِي لِأَمْنِي فَأَنْتَنِى * عَلَيْهَا يَطْرِفُ النَّاطِرُ الْمُتَيْمِّمُ
يُحَلِّلُنِي حُبِّي لَهَا فَوْقَ طَاقَتِي * مَنِ الشَّوْقُ دَأْبَ الْحَاضِرِ الْمُتَقَسِّمِ

١١ - أبو العتاهية^(١)

قال أحمد بن زهير : سمعت مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ،
فقلت له : بأي شيء استحق ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ * طِوالٍ أيَّ آمالٍ
وأقلتُ على الدنيا * مُلحًا أيَّ إقبالٍ
أيها هذا تجهزِ * عِراقِ الأهلِ والمالِ
فلا تدم من الموت * على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حق لا حشوية ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقر به
الجاهل . وكان الأصمعي يستحسن قوله .

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد ، أطلع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً ،
وأمرهم بديهة وأرتجالاً ، وأول من فتح للشعراء باب الوعط والتزهيد في الدنيا والهي عن الاعتزاز بها ، وأكثر
من الحكمة .

ولد بين القريسة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة وعمل أهله . وكانوا ناعه حراراً ، إلا أنه وبأسه عن عمله وقال
الشعر في صباه وامترح لمحبه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لوشئت أن أحمل كلامي كله شعرا لفعلت»
فداع صيته وسلك طريق حلواء الكوفة . ثم قدم بغداد وودع المهدي وتعرف بمص حدم قصر الخلافة
وحواريه فتمشق منهن فتاة تدعى عنة ، ولما يئس منها لما عاها بعض الشيء . ودرس كثيراً من مذهب المتكلمين
والشيعة والخيرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينقل عنه إلى الآخر حتى احتار له من كل ذلك
عقيدة مختلطة أقصت به إلى العادة والزهد في الدنيا قولاً ومعيشة على إفراط منه في حب المال والجمع له
والجلب به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أصرب عن الملوك وقصر قوله على الزهد في الدنيا والتذكر بالموت وأهواله ، وهو في حلال
ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ حوازمهم ، ثم عرضت له حال امتنع منها من قول الشعر التي حتى حسه الرشيد
لعدم تلبثه ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أحاب طلابه ، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه وترك الغزل
والهجاء ، وبقي على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون . توفي سنة ٢١١ هـ

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ وتحدد أحمارة في الأغاني ح ٣ ص ١٢٦ وح ٦ ص ١٨٦
وح ٨ ص ٢٤ وأن خلجان ح ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠ .

أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عِصَا * حِيكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ
فَإِذَا آخَجْتَ إِلَيْهِ * سَاعَةً بَجَّكَ فُوه

وَأَنْشُدْ لَهُ سَلَّمَ الْخَاصِرَ :

سَكَنُ يَتَّقُ لَهُ سَكْنُ * مَا بِهِدَا يُؤْذِنُ الرَّمْ
نَحْصُ فِي دَارٍ يَحْرُمَا * يَبْلَاهَا بِاطْقٍ لَيْسَ
دَارُ سُوءٍ لَمْ يَدُمُ قَرَحُ * لِأَمْرِي فِيهَا وَلَا حَرَن
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَهْمَسَا * كُلُّنَا بِالْمَوْتِ مُرْتَهَن
كُلُّ نَفْسٍ عِنْدَ مَيِّتِهَا * حَطَّهَا مِنْ مَالِهَا الْكَفَن
إِنْ مَالَ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ * مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَن

وقال عبد الله بن عبد العزيز العُمريّ : أشعرُ الناس أبو العتاهية حيث يقول :

مَا صَرََّ مِنْ حَمَلِ التَّرَابِ مِهَادَهُ ۝ أَلَا يَنَامُ عَلَى الْحَرِيرِ إِذَا قَبِعَ

وقيل لأبي العتاهية : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردتُه قطّ إلا مثّل لي ، فأقول
ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئتُ أن أجعل كلامي شعرا كلّهُ لفعلتُ .

حُمُّ الرِّشِيدِ فَصَارَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ بِرُقْعَةٍ فِيهَا :

لَوْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ أَنْتَ لَهْمُ ، مَا تَوَا إِذَا مَا أَيْتَ أَجْمَعُهُمْ
حَلِيقَةَ اللَّهِ أَنْتَ تَرْتَحُّ بِالْأَسَاسِ * إِذَا مَا وُزِنْتَ أَنْتَ وَهْمُ
قَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ وَحْكَ يُقْدَرُ ، نَحْنُ إِذَا مَا رَأَوْهُ مُعْدِمُهُمْ

فأنشدها الفضلُ بنَ الرَّبِيعِ الرِّشِيدَ ، فأمر بإحْصَارِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ ، فما زال يُسَامِرُهُ وَيُحَدِّثُهُ
إِلَى أَنْ بَرِيءَ ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ السَّبَبِ مَالٌ جَلِيلٌ . وَقَدْ حَدَّثَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ بِهَذَا
الْحَدِيثِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ بِالْمَجْلِسِ : مَا هَذَا الشَّعْرُ بِمُسْتَحَقٍّ لِمَا قُلْتَ ؟ قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ :
لَأَنَّهُ ضَعِيفٌ ، فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ ، وَكَانَ أَحَدَ النَّاسِ ، الضَّعِيفُ وَاللَّهُ عَقْلُكَ لَا شِعْرَ

أبى العتاهية، ألاي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيتُ شاعرا قطّ أطبع
ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا صرنا من السحر؛ ثم أنشد له :

قطعتُ منك حائل الآمال : وحططتُ عن ظهر المطى رحالى
ويستُ أن أبقي لشيء نلتُ ممّا : ما فيك يا دنيا وأب ببقى لى
فوجدتُ برد اليأس بين حوانجى * وأرحتُ من حلّ ومن ترحال
يا أيها البطر الذى هو من عدي : فى قبره متمزق الأوصال
حدفَ المتى عنه المُشمّر والهدى * وأرى مُساك طويّلة الأذيال
جبلُ اس آدم فى الأمور كثيره * والموتُ يقطع جيلة المحتال
مالى أراك لحز وجهك مُحلقا * أحلقيت يا دنيا وجُوه رجال
قيستُ السؤال فكان أعظم قيمة * من كلّ عارفه جرّت بسؤال
فإذا أبليتُ يبدل وجهك سائلا : فاسأله للتكرم المفضل
وإذا خشيتُ تعدّرا فى بلده * فاشدّد يدك بعاجل الترحال
وأصبر على غير الزمان فإنما * فرجُ الشدائد مثل حلّ عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يُحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل :
يا أبا عبد الله، جعلنى الله فداك، لى لم أردد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهبُ
أبى العتاهية، وشعره فى المديح ليس كشعره فى الرهد؛ فقال : أليس الذى يقول فى المديح :

وهارونُ ماءُ المزن يشفى من الصدى * ادا ما الصدى الرقيق عصت حابره
وأوسطُ بيت فى قريش لبيته * وأولُ عز فى قريش وآخره
وزحفُ له تحكى البروق سيوفه * وتحكى الرعود القاصفات حوافره
إذا حيت شمس النهار تفصاحت * إلى الشمس فيه يئسه ومغافره
إذا نكب الإسلام يوما بكبة * فهارونُ من بين البرية نازه
ومن ذافوت الموت والموت مدرك * كذا لم يفت هارون ضد ينافره

فَتَحَلَّصَ الرَّحْلُ مِنْ شَرِّ آبِ الْأَعْرَابِيِّ بِأَن قَالَ لَهُ . الْقَوْلُ كَمَا قُلْتَ ، وَمَا كُنْتُ سَمِعْتُ لَهُ مِثْلَ هَذَيْنِ الشَّعْرَيْنِ ، وَكُتِبَمَا عَنْهُ .

قَالَ مُنَمَّاةُ بْنُ أَشْرَسَ أَشَدُّى أَبُو الْعَتَاهِيَةِ .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُعْتِقْ مِنَ الْمَالِ نَفْسَهُ * تَمْلِكُهُ الْمَالُ الَّذِي هُوَ مَالُكَ
أَلَا إِنَّمَا مَالِي الَّذِي أَنَا مُنَقِّقٌ * وَلَيْسَ لِي الْمَالُ الَّذِي أَنَا تَارِكُهُ
إِذَا كُنْتُ ذَا مَالٍ فَبَادِرْ بِهِ الَّذِي * يَحِقُّ وَإِلَّا آسْتَهْلِكُنْهُ مَهَالِكُهُ

فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ أَيْنَ قَصِصْتَ بَهْدًا ؟ فَقَالَ . مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَقْبَيْتَ أَوْ لَيْسَتْ فَأَلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ “ . فَقُلْتُ لَهُ : أَتُؤْمِنُ . بَأَنَ هَذَا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ الْحَقُّ ؟ قَالَ : بَعْدُ ، قُلْتُ : فَلِمَ تَحْبِسُ عِنْدَكَ سَمْعًا وَعَشْرِينَ بَدْرَةً فِي دَارِكَ وَلَا تَأْكُلُ مِنْهَا وَلَا تَشْرَبُ وَلَا تَرْكَبُ وَلَا تَقْدِمُهَا ذُخْرًا لِيَوْمِ فَقْرِكَ وَفَاقَتِكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَنَا مَعْصُومٌ ، وَاللَّهِ إِنْ مَا قُلْتُ لَهُوَ الْحَقُّ ، وَلَكِنِّي أَحَافُ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ إِلَى الْبَاسِ ، فَقُلْتُ : وَبِمَ تَرْبُدُ حَالًا مِنْ أَفْتَقَرُ عَلَى حَالِكَ وَأَنْتَ دَائِمُ الْحَرَصِ ، دَائِمُ الْاِتِّمَاعِ ، شَبَّحْتُ عَلَى بَصْسِكَ ، لَا تَشْتَرِي الْقُحْمَ إِلَّا مِنْ عِيدٍ إِلَى عِيدٍ ؟ فَتَرَكَ جَوَابَ كَلَامِي كُلَّهُ ، ثُمَّ قَالَ لِي . وَاللَّهِ لَقَدْ أَشْتَرَيْتُ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ لَحْمًا وَتَوَابِلَهُ وَمَا يَتَّبِعُهُ بِخَمْسَةِ دِرَاهِمٍ ، فَلَمَّا قَالَ هَذَا الْقَوْلُ أَضْحَكُنِي حَتَّى أَذْهَلَنِي عَنْ جَوَابِهِ وَمُعَانَتَتِهِ ، فَأَمْسَكَتُ عَنْهُ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرِّحِ اللَّهِ صُدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ .

زَارَ مَرَّةً عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ فَحُجِّبَ عَنْهُ ، فَلَزِمَ مِثْلَهُ ، فَاسْتَطَاعَ عَمْرُو ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ :

كُنْتُ الْيَأْسُ عَنْكَ لَمَّا أَرَى * قَعَّ طَرَفُكَ إِلَيْكَ مِنْ كَسَلٍ
إِنِّي إِذَا لَمْ يَكُنْ أَحَى نَفَقَةً * قَطَعْتُ مِنْهُ حَبَائِلَ الْأَمَلِ

وَكُتِبَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى :

مَالُكَ قَدْ حُلَّتْ عَنْ إِحَاثِكَ وَأَسَى * تَنْدَدْتُ يَا عَمْرُو شَيْبَةً سَكَدَتْ
إِنِّي إِذَا الْبَابُ تَوَّاهَ حَاجِبُهُ * لَمْ يَكُنْ عِنْدِي فِي هَجْرِهِ يَنْظَرُهُ^(١)

لَسَمَ رُحُونُ الْحَسَابِ وَلَا * يَوْمَ تَكُوبُ السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةً
لَكِنَّ لَدُنْيَا كَالظَّلِّ بِهَجَّتِهَا * سَرِيعَةِ الْإِقْصَاءِ مُنْشِرَةً
قَدْ كَانَ وَجْهِي لَدَيْكَ مَعْرِفَةً * فَالْيَوْمِ أَضْحَى حَرْفًا مِنَ النَّكْرَةِ

جلس المهديّ للشعراء يوما فأدب لهم، وفيهم بشار وأشجع، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعطيه، وكان في القوم غيره هذين أبو العاتية، قال أشجع: فلما سمع بشار كلام أبا العاتية قال: يا أحاسن، أهذا ذلك الكوفي الملقب؟ قلت: نعم، قال: لا جرى الله حبرا من جمعا معه، ثم قال له المهديّ: أنشد، فقال: ويحك! أو يستشد أيضا قلنا؟ فقلت: قد ترى، فأنشد:

أَلَا مَا اسْبَدَّتْ بِي مَا لَهَا * أَذَلًّا فَأَحْمِلْ إِذْ لَأَلَا
وَأَلَا فَيَمِمْ تَحَمَّتْ وَمَا * حَيْثُ سَقَى اللَّهُ أَطْلَالَهَا
أَلَا إِنِّي حَارِيَّةٌ لِلْإِمَا * مَ قَدْ أُسْكِنَ الْحَسُّ سِرْبَ بَالِهَا
مَشَتْ بَيْنَ حُورٍ قِصَارِ الْخَطَا * مُجَادِبٌ فِي الْمَشَى أَكْفَالُهَا
وَقَدْ أَتَعَبَ اللَّهُ نَعْسِي بِهَا * وَأَتَعَبَ بِاللَّوْمِ عُدَالُهَا

فقال بشار لأشجع: ويحك يا أحاسن! ما أدرى من أى أمرية أعجب، أم صنف، شعره أم من تشبيهه بحاراة الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه؟ حتى أتى على قوله:

أَنْتَ خِلَافَةُ مُقَادَّةَ * إِلَيْهِ تُخَرَّرُ أَذْيَالُهَا
فَلَمْ تَكِ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ * وَلَمْ يَكِ يَصْلُحْ إِلَّا لَهُ
وَلَوْ رَأَاهَا أَحَدٌ عَيْرُهُ * لَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالُهَا
وَلَوْ لَمْ يُطْعَمْ بِسَاتِ الْعُلُوبِ * لَمَّا قِيلَ اللَّهُ أَعْمَالُهَا
وَإِنْ الْخَلِيفَةُ مِنْ مُنْضٍ "لَا" * إِلَيْهِ لِيُبْعِضَ مَنْ قَالَهَا

فقال بشار لأشجع وقد أهرق طرأ: ويحك يا أحاسن، أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفي!

ولما آتته منصور بن عمار بالزندقة، لأنه لا يذكر في شعره الجثة والدار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا وأعظ الناس قد أصبحت متهما * إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
كالمليس الثوب من عرى وعورته * للناس مادية ما إن يوارىها
فأعظم الإثم بعد الشرك علمه * في كل نفس عمّاها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تُصرها * منهم ولا تصر العيب الذي فيها

وقيل له : زعم الناس أنك زنديق، فقال : والله مادي إلا التوحيد ، فقل له قل شيئا يتحدث به عك، فقال :

ألا إنا كلنا مائد * وأى بنى آدم حاله
وبدؤهم كان من ربهم * وكل إلى ربه عائد
فياغبأ كيف يعصى الإله أم كيف يحمدُه الجاحد
وى كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وسمع الجاحط مرة من يشد أرجوزة أى العاتية التى سماها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

بالشباب المريح التصابى . روائح الجثة فى الشباب

فقال للشند : قف، ثم قال : أظنوا الى قوله : «روائح الجثة فى الشباب» فإن له معنى كعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وحير المعانى ما كان القلب الى قوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبى العاتية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله :

حسبك مما تتغنيه القوت * ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفا * من أتى الله رجاً وحافاً
هى المقادير لم تنى أو قدر * إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

لِكُلِّ مَا يُؤْدِي وَإِبَ قَلَّ أَلَمْ * مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمُ
مَا أَنْتَعَ الْمَرْءُ بِمَثَلِ عَقْلِهِ * وَخَيْرُ دُنُورِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
إِبَ الْفَسَادِ صِدَّةُ الصَّلَاحِ * وَرُبَّ جِدِّ حَرِّهِ الْمُزَاحُ
مَنْ جَعَلَ الْإِثْمَ عَيْنًا هَلَكًا * مُلْكُ الشَّرِّ كَيْفِيَّةُ لَكَ
إِبَ الشَّابِّ وَالْفَرَّاحِ وَالْحَدَّ * مَفْسَدَةُ لِلْمَرْءِ أَى مَفْسَدِهِ
يُعْيِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ * يَرْتَبِى الرَّأْيَ الْأَصِيلَ شَكُّهُ
مَا عَيْشُ مَنْ آفَتْهُ نَقَاؤُهُ * نَقْصُ عَيْشَا كُلِّهِ مَقَاؤُهُ
يَارَتْ مَنْ أَحْطَطَا بِمُجْهَدِهِ * قَدْ سَرَّ اللَّهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَعْبُ * إِلَّا لِأَمْرِ شَأْنِهِ عَجِبُ
لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْدَدٌ وَحَوهرُ * وَأَوْسَطُ وَأَصْعَرُ وَأَكْبَرُ
مَنْ لَكَ بِالْخَيْصِ وَكُلُّ مُتَمَرِّخٍ * وَسَاوِسُ فِي الصَّدْرِ مِمَّا تَعْتَلِجُ
وَكُلُّ شَيْءٍ لِأَحَقِّ بِجَوْهَرِهِ * أَصْفَرُهُ مُتَّصِلٌ مَا كُتِرَ
مَا زَالَتِ الدِّيَا لَهَا دَارَ أَدَى * مَمْزُوجَةُ الصَّغْوِ بِالْوَانِ الْقَدَى
الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ * لِدَا نِتَاجُ وَلِدَا نِتَاجُ
مَنْ لَكَ بِالْخَيْصِ وَلَيْسَ مَحْصُ * يَجِبُثُ بَعْضُ وَيَطِيبُ بَعْضُ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَيِّعَتَانِ * خَيْرُ وَشَرُّهُمَا ضِدَانِ
إِلَيْكَ لَوْ تَسْتَنَشِقُ الشَّحِيحَا * وَجَدْتَهُ أَتَنَ شَيْءٍ رِيحَا
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عُدَا * بَيْنَهُمَا نَوْبٌ بَعِيدُ جَدَا
عَجِبْتُ حَتَّى عَمَّنِ السُّكُوتُ * صِرْتُ كَأَنِّي حَائِرٌ مَبْهُوتُ
كَذَا قَصَى اللَّهُ فَكَيْفَ أَصْعُ * الصَّمْتُ إِنْ صَاقَ الْكَلَامُ أَوْسَعُ

ومن قول أبي العتاهية في الوحدة والتبرم بالناس :

بَرِمْتُ بالناس وأحلاقيهم * فَصِرْتُ أَسْتَأْنِسُ بِالْوَحْدَةِ

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لِعَمْرَى وَمَا * أَقْلَهُمْ فِي حَاصِلِ الْعِدَةِ

قال الأصمعي : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب
والخزف والتوى .

كان أبو العتاهية لا يمارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، وكان يُجرى
عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعاون ، فلما قديم الرشيد الرقة ليس
أبو العتاهية الصوف وتزهّد ، وترك حضور المادامة والقول في الغزل ، وأمر الرشيد بحبسه
في الحبس ، فكتب إليه من وقته :

أَنَا الْيَوْمَ لِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَشْهُرُ * يَرَوْحَ عَلَى الْهَمِّ مَعَكُمْ وَيَسْكُرُ

تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي * وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّبِي كَذَلِكَ يَذْكُرُ

لِيَالِي تُدْنِي مَعَكَ بِالْقُرْبِ مَجْلِسِي * وَوَحْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبِشَاشَةِ يَقْطُرُ

فَمَنْ لِي نَالِيسَ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً * إِلَى بَهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك ، فكتب إليه :

أَرِقْتُ وَطَارَ عَنْ عَيْنِي النَّعَاسُ * وَهَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يُؤَاسُوا

أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ حَيْرُ أَمِينٍ * عَلَيْكَ مِنَ التَّقَى فِيهِ لِبَاسُ

نُفَاسُ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ رَ * وَأَنْتَ هُوَ تَسْوِسُ كَمَا تُفَاسُ

كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَّبَ فِيهِ رُوحُ * لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَاسُ

أَمِينَ اللَّهِ إِنْ الْحَبْسَ بَاسُ * وَقَدْ أُرْسَلْتَ : لَيْسَ عَلَيْكَ بَاسُ

وكتب إليه أيضا في الحبس .

وَكَلَّفَنِي مَا حُلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ . وَقُلْتُ سَابِقِي مَا تُرِيدُ وَمَا تَهْوَى

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانُ كَلَّفْتُ وَاحِدًا * هَوَاكَ وَكَلَّفْتُ الْخَلْقَ لِمَا يَهْوَى

فامر باطلاقه .

كان الهادى واجدا على أبى العتاهية لملازمته أحاه هارون فى حلافة المهدي، فلما ولى موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَصْطَرِبُ الْخُوفُ وَالرَّهَاءُ إِذَا * حَرَّكَ مُوسَى الْقَضِيْبَ أَوْ فَكَّرَ
مَا أَتَيْنَ الْفَصْلَ فِي مَغِيْبٍ وَمَا * أُوْرِدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أَصْدَرَ
فَكَمْ تَرَى عَزَّ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ * مَعَشِيرٍ قَوْمٍ وَدَلَّ مِنْ مَعَشِرِ
يُنْمِرُ مِنْ مَسَّةِ الْقَصِيْبِ وَلَوْ * يَمْسُهُ عَيْرُهُ لَمَّا أَثْمَرَ
مَنْ مِثْلَ مُوسَى وَمِثْلَ وَالِدِهِ الـ * مَهْدَى أَوْ حَذَهُ أَى حَقَرَ

فرصى عنه . فلما دخل عليه أنشده .

لَهْفَى عَلَى الرَّمْسِ الْقَصِيْرِ * بَيْنَ الْحَوْرَيْنِ وَالسَّيْدِ
إِدْحَى فِي عُرْفِ الْحَيَا * نَعُومٌ فِي بَحْرِ السَّرُورِ
فِي قَتِيهِ مَلَكُوعَا * نَ الدَّهْرِ أَمْثَالُ الصُّقُورِ
مَا مِنْهُمْ إِلَّا الْحَسُ * رُ عَلَى الْهَوَى عَيْرَ الْحَصُورِ
يَتَعَاوَرُونَ مُدَامَةً * صَهَاءٌ مِنْ حَلَبِ الْعَصِيْرِ
عِدْرَاءُ رَبَّاهَا شُعَا * عُ الشَّمْسِ فِي حَرِّ الْهَمِيْرِ
لَمْ تَدْبِ مِنْ فَارٍ وَلَمْ * يَلْقَ بِهَا وَصْرُ الْقُدُورِ
وَمُقَرَّطَقِي يَمْشَى أَمَا * م الْقَوْمِ كَالرَّشَا الْغَرِيْرِ
بِزَحَاةٍ تَسْتَحْرِجُ الـ * سَرَّ الدَّفِينِ مِنَ الضَّمِيْرِ
زَهْرَاءُ مِثْلَ الْكُوكِ الـ * دَرَى فِي كَفِّ الْمُدِيْرِ
تَدْعُ الْكَرِيْمَ وَلَيْسَ يَدُ * رَى مَا قَيْلٌ مِنْ دَيْرِ
وَمُحْصَرَاتٍ زُرْتَنَا : * عِدَ الْمَدَقِ مِنَ الْخُدُورِ
رِيًّا رَوَادِهِنَ يَدُ * بَسْنِ الْخَوَاتِمِ فِي الْخَصُورِ
غُرَّ الْوُجُوهُ مُحَجَّجَا * تَقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ حُورِ

مُنْتَعَمَاتٌ فِي الْعَدِّ * سِيمَ مُضْمَعَاتٍ بِالْعَبِيرِ
يُرْقَلْنَ فِي حُلِّ الْحَا * سِنَ وَالْمَجَاسِدِ وَالْحَرِيرِ
مَا إِنْ يَرَى الشَّمْسُ إِلَّا الْقُرْطَ مِنْ حَلِّ السُّتُورِ
وَالِى أَمِيرِ اللَّهِ مَهْ * رَبُّهَا مِنَ الدَّهْرِ الْعُثُورِ
وَالِيهِ أَتَعْنَا الْمَطَا * يَا مَارُوحَ وَبِالْمُكُورِ
صُعْرَ الْحُدُودِ كَأَنَّمَا * جُنَحْنُ أَجْمَعَةِ السُّورِ
مُسْرَبَاتٍ مَالِطِلَا * مِ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُغُورِ
حَتَّى وَصَلَتْ بِهَا إِلَى * رَبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
مَا زَالِ قَبْلَ فِطَامِهِ * فِي سِنٍ مُكْتَهِلٍ كَبِيرِ

استشده المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده .

أَنَسَاكَ بِحَيَاكِ الْهَمَاتَا * فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الثَّيَابَاتَا
أَوْفَقْتَ مَا لِدُنْيَا وَأَذْ * سَتَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا
وَعَزَمْتَ مَدَكَ عَلَى الْحَيَا * قَةِ وَطَوَّلَهَا عَزْمًا بَتَاتَا
يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ فِي * حَسٍّ قَدْ رَأَى كَلَامَاتَا
هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِبْرَةٌ * أَمْ حَلَّتْ أَتْ لَكَ أَنْفِلَاتَا
وَمَنْ الدِّيَ طَلَبَ التَّقَا * سَتَ مِنْ مَيِّتِهِ فَقَاتَا
كُلُّ نَصَبٍ مَدَّ يَدَهُ * أَوْ تَبَيَّنَتْ بَيِّنَاتَا

دحل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا * إِذَا أَطَاعَ اللَّهُ مَنْ مَالَهَا
مَنْ لَمْ يُؤَاسِ الدَّاسِرَ مِنْ فَصْلَاهَا * عَرَّضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئا، الدنيا تدبر عنى وأسى مما أوصى بها، وإنما توجب السباحة بها الأجر والصن بها الوزر، فقال : صدقت

يا أمير المؤمنين، أهل الفصل أولى بالفصل وأهل القص أولى بالقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كَمْ عَافِلٍ أودى به الموتُ * لم يأخذ الأُهبَةَ للفَوْتِ
من لم تزل نعمته قبلَه * زالَ عن النعمة المِوت

فقال له : أحسنت، طيبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يُحج كل سنة، فاذا قدم أهدى الى المأمون بُردًا ومُطرَقًا وعلًا سوداء ومساويك أراك، فيبعث اليه عشرين ألف درهم، فأهدى مره له كما كان يهدى كل سنة إذا قدم، فلم يثنه ولا تبت اليه بالوطيفة، فكتب اليه أبو العتاهية :

جُبروني أن من صرَب السَّنة * حُدُّدًا يَبِصَا وَصُمرَا حَسَنَه
أُحْدِثُ لكني لم أرَهَا * مِثْلَ مَا كُتُّ أرى كُلَّ سنَه

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال أعفلهاء حتى ذكروا .

أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يحاطب سلمًا الخامس :

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أدلَّ الحِرْصُ أعناق الرِّحال

فقال المأمون : إن الحرص مُفسد للدين والمرءة، والله ما عرفت من رجلٍ قط حرصًا ولا شرًا وحدث فيه مُصْطَمًا، فلعل ذلك سلمًا فقال : ويلي على الجرار الزديق جمع الأموال وكثرها وعما الدورى بيته ثم تره مُرَاءةً وبقاقا، فأحد يهتف بى اذا تصدَّيْتُ للطلب .

كان الرشيدُ مما يعجبه عِماءُ المَلَّاحين فى الزلاات اذا ركبها، وكان يتأدى بهساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معا من الشعراء : يعملوا لهؤلاء شعرا يعنون فيه، فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس، فوجه اليه الرشيدُ : قل شعرا حتى أسمعهم منهم، ولم يأمر بإطلاقه، فغائظه ذلك وقال : والله لأقولن شعرا يُحزنه ولا يُسرِّبه، فعَمِل شعرا ودفعه الى من حفظه من الملاحين، فلما ركب الحُرَّاقه سمعه وهو :

حَانَكَ الطَّرْفُ الطُّمُوحُ * أَيُّهَا الْقَلْبُ ابْجُوحُ
 لدواعي الخير والشَّرِّ دُؤُوْ وَنُزُوحُ
 هل لطلوبِ بدني * توبَةٌ مِثْلُ مَهْصُوحِ
 كيف إصلاحُ قلوبٍ * إِنَّمَا هُنَّ قُرُوحُ
 أحسن الله بها * إِنَّا الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ
 فإذا المستورُ مِنَّا - بين تَوْبَتِهِ فَصُوحُ
 كم رأينا من عزيزٍ * طُوِيَتْ عَنْهُ الْكُشُوحُ
 صَاحَ مِنْ رَجُلٍ * صَانِعُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ
 موتُ بعض الناس في الأَر * ض على قدم قُتُوحِ
 سيصير المرء يوما * جَسَدا مَا فِيهِ رُوحُ
 بين عَيْنَي كُلِّ حَيٍّ - عِلْمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
 كُلُّنَا فِي غَمَلَةٍ وَال - مَوْتُ يَفْدُو وَيُرُوحُ
 لَيْسَ الدِّينُ مِنَ الدَّمِ * يَا عَجَبُوقُ وَمَصْبُوحُ
 رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحَ * مِنْ عَلَيْهِنَّ الْمُسُوحُ
 كُلُّ نَطَاجٍ مِنَ الدَّهْرِ * رُلُهُ يَوْمًا نَطُوحُ
 تُخ على نفسك يا مس * كَيْفَ إِنْ كَتَّ تَسُوحُ
 تَمُوتَنَّ وَإِنْ عَمَّ * مَرَّتْ مَا عَمَّرُ رُوحُ

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي ويتحجب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعا
 في وقت المَوْعِظَةِ ، وأشدَّهم عَسْفًا في وقت الغضب والغِلظة ، فلما رأى الفضلُ بن الربيع
 كثرة بكائه أوما إلى الملاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عَنْ الرِّبْعِ الْهَيْلِ قُمُودِي * إِلَى ذِي زُخُوفٍ جَمَّةٍ وَجُنُودِ
 وَرَاجَ يَرَاغِي اللَّيْلَ فِي حِفْظِ أَمْنَةٍ * يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّ عِيرَ رُقُودِ

نَالِيَةِ حَبْرِيْلُ يَقْدُمُ أَهْلَهَا * وَرَايَاتِ نَصْرِ حَوْلِهِ وَبُسُودِ
 تَحَايِ عَنِ الدُّنْيَا وَأَيُّقِنُ أَهْلَهَا * مُقَارِقَةُ لَيْسَتْ بِنَادَارِ خُلُودِ
 وَشَدَّ عُرَى الْإِسْلَامِ مِنْهُ بَهْتِيَّةِ ثَلَاثَةِ أَمْلَاحِ وَلَاةِ عُهُودِ
 هُمْ خَيْرُ أَوْلَادِ لَمْ حَيْرُ وَالِدِ * لَهُ خَيْرُ آثَاءِ مَصَّتْ وَجُدُودِ
 بَنُو الْمِصْطَفَى هَارُونَ حَوْلَ سِرِّيهِ * نَخِيرُ قِيَامِ حَوْلَهُ وَقُعُودِ
 ثَقَلَتْ الْحَاظُ الْمَهَابَةِ بَيْنَهُمْ * عِيُونَ ظَبَاءِ فِي قُلُوبِ أَسُودِ
 جُدُودِهِمْ شَمْسُ أُنْتُ فِي أَهْلَةٍ * تَبَدَّتْ لِرَاءِ فِي مَحُومِ سُعُودِ
 فَوَصَلَهُ الرَّشِيدُ بِصَلَاةٍ مَا وَصَلَ مِثْلَهَا شَاعِرًا قَطُّ .

١٢ - مُسْلِمُ^(١) بْنُ الْوَلِيدِ

أحد الشعراء المفلّحين واللغاة المبدعين

قال الشَّعْرَى صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفياً بما ساله من قليل العطاء، ويُنفقه على ملأه مع إخوانه من حلّاء الشعراء، ثم أقطع إلى يزيد بن مزيد الشَّيباني قائد الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدّ من شعرائه، ومدّحه ومدّح البرامكة وحسّ رأيهم فيه . ولما أصبح الحلّ والعقد بيد ذى الرِّبَاسَتين الفصيل بن سهل وزير المأمون في أوّل خلافته قرّبه وأدناه . لأنه كان من حاصّته قبل وزارته، وولاه أعمالاً بِمُحَرَّحَانِ اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم منزله إلى أن أنفقها في اللذات، وعاد إلى الفصل فقلّده الصّباع بأصْبهان ما اكتسب منها ألف ألف أيضاً . ولما قُتِلَ الفضل لزم منزله ونَسَكَ ولم يمدح أحداً إلى أن مات بمُحَرَّحَانِ .

ومسلمٌ أوّل من تكلف البديع في شعره وأستكثر منه في قوله، وسَمَقَ بشار إلى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأوَ مسلم فيه . وقد عَدَّ العُلَمَاءُ هذا التصنع والتكلف إفساداً للشعر، إذ قد تبعه في ذلك الشعراء مثل الحِمْيَرِيّ وأبي تمام وإس المعترّ وغيرهم .

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الدواي، شاعر متفدّم من شعراء الدولة العباسية، منشؤه ومولده الكوفة . وهو في رِعموا أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع، وهو لقب هذا الحسن البديع والطيف، وتعه فيه جماعة، وأشهرهم فيه أوتّام الطائي، فانه حمل شعره كله مدهماً واحداً فيه، ومسلم كان متمسكاً متصرفاً في شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعراً حسن الخط، جيد القول في الشراب، وكثير من الرواة يقرّبه فأنى بواس في هذا المعنى، وهو أوّل من عقد هذه المعاني الطريفة واستخرجها . وقال القاسم بن مهران : أوّل من أفسد الشعر مسلم بن الوليد، حاه هذا الفن الذي سماه الناس البديع ثم حاه الطائي بعده ففنى فيه . توفي بمُحَرَّحَانِ سنة ٢٠٨ هـ وله ديوان مطبوع في ليدن سنة ١٨٧٥ م . وتجد أحبارَه في الأغاني (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مرّج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فصمّمه المعاني اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظرفية ، فله حرّالة الدويين ، ورقة الحصريين .

لقي مسلم أبانؤاس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سَقَطٌ ، قال له : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنت ما شئت حتى أريك سَقَطَكَ فيه ، فأنشد .

دَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحْرِهِ فارتاحا * وأملّه ديكُ الصّباحِ صياحا

فقال له مسلم : فليمّ أملّه وهو الذي أدكره وبه ارتاح ؟ فقال أبو نواس . فأنشدني شيئا من شعرك ليس فيه حلّ ، فأنشده مسلم .

عاصي الشّاتِ قَرّاحٍ غير مُعَنَّد * وأقام ييب عزيمةً وتَحَلَّد

فقال له أبو نواس : قد جعلته رائحا مقيا في حالة واحدة وبيت واحد ، فتشأغبنا وتَسَانَا ساعة . وكلا البيتين صحيح المعنى .

أجتمع أصحاب المأمون عده يوما ، فأفاصوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رنّ رحلا :

أرادوا ليُحفوا قبره عن عدوه * فطِيبُ تراب القبرِ دَلَّ على القبرِ

وحيث مدّح رحلا بالشجاعة فقال :

يحود بالنفس إد صّن الجوادُ بها * والحدود بالنفس أقصى عاية الجود

وهما رحلا قبح الوحه والأخلاق فقال :

قُبَحَتْ مَناظرُهُ حين حَبَرَتِهِ * حَسُنَتْ مَناظرُهُ لِقُبْحِ الحَبَرِ

وتغارل فقال :

هوَى بِحِدَّةٍ وَحِيبٌ يَلْعُبُ * أنت لقيّ بينهما معْدَبُ

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم في ذكره .

قال يزيد بن مَرْزَد : أرسل الى الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه الى مثل ، فأتته
لأنسا سلاحي مستعدا لأمر إن أراده مني ، فلما رأى صمك الى ثم قال : يا يزيد ، خبرني
من الذي يقول فيك .

تراه في الأَمْس في دِرْع مُصَاعِفِه * لا يَأْمُسُ الدهرَ أن يُدْعَى على عَجَل
صاِبِ العِيَانِ طَمُوحَ العَيْنِ هَمَّتْهُ * فَكَ العُكَاةِ وَأَسْرُ العَاتِكِ الخَطِلِ
فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال سَوَاءٌ لك من سَيِّدٍ قَوْمٍ يُدَّخِ بِمَثَلِ هذا
الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغَ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد !
فانصرفتُ فدعوتُ به ووصلته ووليته .

وروي أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد ، من الذي يقول فيك :
لا يَبْقَى الطَّيْبُ حَدْبَهُ وَمَقْرِقَهُ * وَلَا تُمَسَّحُ عَيْبِهِ مِنَ الكُحْلِ
إذا أَتَيْتَ سَيْفَهُ كَانَتْ مَسَالِكُهُ * مَسَالِكُ المَوْتِ فِي الأُبْدَانِ وَالْقُلُوبِ
وإن خَلَّتْ بِجَدِثِ النِّصْصِ مَكْرُهُ * حَيَّ الرِّجَاءُ وَمَاتِ الخَوْفُ مِنْ وَجَلِ
كَالْبَيْتِ إِنْ هَجَّتْه المَوْتُ رَاحَتُهُ : لا يَسْتَرْجِعُ إِلَى الأَيَّامِ وَالدُّوَلِ
فقال . لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر
ولا تعرف قائله ؟ فخرج من عنده فجلا ، فلما صار الى منزله دعا حاحبه فقال له : من
نالب من الشعراء ؟ قال : مسلم بن الوليد ، قال : وكيف حَمَّتْهُ عني ، فلم تُعَلِّمْنِي بِمَكَانِهِ !
فقال : أحبرته أنك مُصَبِّقٌ ، وأنه ليس في يديك شيء يعطيه إياه ، وسألته الإمساك والمقام
أياما الى أن تَنَسَّعَ ، فأنكر ذلك وقال : أذِجْله ، فأدخله اليه ، فأشده قوله فيه :

أُجْرِتُ^(١) حَلَّ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا عَزِلَ * وَشَمَّرَتْ هِمُّ العُدَالِ فِي عَدْلِي
هَاجَ النِّكَاةُ عَلَى العَيْنِ الطُّمُوحَ هَوَى * مُفَرَّقٌ بَيْنَ تَوْدِيْعٍ وَمُحْتَمَلِ
كَيْفَ السُّلُوْ لِقَلْبٍ رَاحٍ مُحْتَبَلَا * يَهْدِي بِصَاحِبِ قَلْبٍ غَيْرِ مُحْتَمَلِ

(١) أحررت فلان راسه تركته وشأه ، والخلع : الذي حلق عنده في الصبا . (٢) الطموح :
المرتفعة في الطر الى الأحة . ومفرق . مقسم .

عَاصَى العِرَاءَ عِدَاةَ الْبَيْنِ مُنْهَمِلٌ * من الدموع جرى فى إثر منهميل
لولا مُدَارَاةُ دَمْعِ الْعَيْنِ لَا تَكْشَفُ * متى سرائرُ لم تظهروا ولم تُحْمَلْ^(١)
أَمَا كَمْ الْبَيْنَ أَنْ أُرْقَى نَأْسُهُمْ * حتى رماى بِلَحْطِ الْأَعْيُنِ النُّحْلُ
مِمَّا حَتَّى لِي وَإِنْ كَانَتْ مُنَى صَدَقَتْ * صَاحَهُ حُلْسُ التَّسْلِيمِ مَالْمُقْلُ
مَاذَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْلَا لَنْتَ عَرِيكَتُهُ * وَرَدَّ فِي الرَّأْسِ مِثْنَى سَكْرَةِ الْفَزَلِ
حُرْمُ الْحَوَادِثِ عِنْدَى أَهْلِهَا احْتَلَسَتْ * مَتَى بَاتَ غِدَاءُ الْعَكْرَمِ وَالْكِلَالِ^(٢)
وَرُبَّ يَوْمٍ مِنَ اللَّذَاتِ مُحْتَصَرٌ * قَصْرُتُهُ لِمَاءِ الرَّاحِ وَانْخَلَّصَ
وِلَايَةَ حُلْسَتْ لِلْعَيْنِ مِنْ سَيْبِهِ * هَتَكَتْ فِيهَا الصَّبَا عَنْ بَيْصَةِ الْحَمَلِ
قَدْ كَانَ دَهْرِي وَمَا لِي الْيَوْمَ مِنْ كِبَرٍ * شُرِبَ الْمَدَامُ وَعُزِفَ الْقَيْصَةُ الْعُطْلُ
إِذَا شَكُوْتُ إِلَيْهَا الْحَقَّ خَفَرَهَا * شَكَاوَى فَاحْتَرَّ حَذَاهَا مِنَ انْخَمَلِ
كَمْ قَدْ قَطَعْتُ وَعَيْنُ الدَّهْرِ رَاقِدَةٌ * أَيَّامَهُ نَالِصًا وَاللَّهُوَ وَالْحَدَلِ
وَطَيْبُ الْمَرْعِ أَصْلَانِي مَوْدَتُهُ * كَأَنَّهُ مَدِيحٌ فِيهِ مُشَحَّلٌ^(٣)
وَلَدِي لِمَطَاا الرِّكْبِ مُنْضِيهِ * أَضْيَيْتُهَا تَوَجِيفُ الْأَيْقِ الدُّلَلِ^(٤)
فِيمَ الْمُقَامِ وَهَذَا الْعَجْمُ مُقْتَرِصًا * دَنَا النَّحَاءُ وَحَانَ السَّيْرُ فَارْتَمَلَ^(٥)
يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنْ اللَّيْثُ مُقْتَرِسٌ * مِيلَ الْحَمَاجِ وَالْأَعَاى فَاغْتَدِلَ
حَدَارٍ مِنْ أَسَدٍ صِرَاطِهِ نَطْلٍ * لَا يُؤْلِغُ السَّيْفُ إِلَّا مَهْمَةً الْبَطْلِ
لَوْلَا يُزِيدُ لَأَهْجَى الْمَلِكِ مُطْرَدًا * أَوْ مَائِلَ السَّمَكِ أَوْ مُسْتَرْتِئِ الطَّلَوِ^(٦)
سَلَّ الْخَلِيفَةُ سَيْمًا مِنْ تَحَى مَطَرٍ * أَقَامَ قَائِمُهُ مِنْ كَانَ دَا مَيْلَ
كَمْ صَائِلٌ فِي ذَرَا تَهْمِيدِ مَمْلَكَةٍ * لَوْلَا يُزِيدُ بَنَى شَيْيَانٍ لَمْ يَصُلْ

(١) أى لم تظننى . (٢) يريد الدهر والحوارى . (٣) محتصر، أى حصرته اللذات . والخلال .
جمع حلة وهى الصدقة . (٤) حفرها ، أى ولد عليها الحفر وهو شدة الحياة . (٥) أى مختار .
(٦) منصية . متعة . والوجيف : صرب من السير . والدلل الصامرات . (٧) يريد بالعجم
التر يا . ومقترصا . منصا . (٨) مطردا ، أى محدولا . وصرب السمك والطول مثلا .

ناب الإمام الذى يَفْتَرُّه اذا * ما أَقْتَرَتِ الحربُ عن أنيابها العُصْل
 من كان يَحْتَمِلُ قَرِباَ عَدَ موقفه * فإن قِرْنَ يزيد غيرُ مُحْتَمِل
 سَدَ الثُغورِ يَزِيدُ عَدَ ما أَنْفَرَجْتَ . قائم السيف لا نالِخَلَّ والحِجْل
 كم قد أَدَاقَ حِمَامَ الموتِ من بَطَل * حامى الحقيقة لا يُؤْتَى من الوَهْل
 أَعْرُ أَيْضُ يُغْنِي البَيْضَ أَيْضُ لا * يرصى لمولاه يومَ الرُّوعِ والعَشل
 يَغْنَى الوعى وشهابُ الموتِ فى يده . يرى الفوارسَ والأبطالَ بالشُعْل
 يَفْتَرُّ عَدَ أَقْتَرَارَ الحربِ مَنِيماً * اذا تَعَيَّرَ وجهَ الفارسِ الطل
 مُؤَيِّ على مُهْجٍ واليومُ دو رَهْج * كأنه أَحَلُّ يَسْمَى الى أمل
 ينال بالرفق ما يَغَيِّبُ الرِّحَالَ به . كالموتِ مستَعِجلاً يأتى على مَهْل
 لا يُلْقِحُ الحربَ إِلَّا رَيْثَ يَنْتَحِها * من هالك وأسيرٍ غيرِ مُحْتَمِل
 إن شِيمَ دارقُةَ حالتِ حلائقُة * بين العطية والإمساك والعِلل
 يُغْنِي المايا المايا ثم يَقْرِجُها * عَنِ العوسِ مُطَلَّاتِ عَلَى المَهْل^(١)
 لا يَرَحِلُ النَّاسُ إِلَّا نَحْوَ مَحْرَنه * كالكَيْتِ يُضْحِي اليه مُتَقَي السُّل^(٢)
 يَقْرِى الميَّةَ أرواحَ الكَماه كما * يَقْرِى الضيوفَ نُحُومَ الكُومِ والبَزَل^(٣)
 يكسو السيوفَ دماءَ الكائين به * ويجعل الهامَ تَحِيانَ القَبَّ الدُّبَل
 يَغْدُو فتغْدُو المايا فى أَسِنَّه * شَوَارِعاً تَحْتَدِي الناسَ بالأَجَل
 إذا طَفَّتْ فَنَّةٌ عَنِ عِطَ طاعتها * عَنَى لها الموتَ بين البَيْضِ والأَسَل
 قد عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وَفَقَنَها * فَهَنَ يَتَعَمَّه فى كُلِّ مُرْتَحَل
 تراه فى الأمنِ فى دِرْعِ مُصَاعَعة * لا يَأْمَسُ الدهرُ أَنْ يُدْعَى على عَمَل
 ضافى العِبانِ طموحَ العَيْنِ هَمَّتْ * فَكَّ العُتَا^(٤) وَأَسْرَ الفاتكِ الخَطَل
 لا يَتَعَقُّ الطَّيْبُ خَذِيهَ وَمَعْرِقَه * ولا يَمْسَحُ عَيْنِيه من الكُحْل

(١) الهبل : الفقدان . (٢) يعنى البيت الحرام . (٣) الكوم . العظام الأسمدة واحداً كوما .

والرل : جمع بازل وهو ماله تسعة أعرام . (٤) جمع عان وهو الأسير والحطل : ذو الخطل وهو الخطأ .

إذا آتَنَضَى سَيْفَهُ كَانَتْ مَسَالِكُهُ * مَسَالِكُ الْمَوْتِ فِي الْأَيْدَانِ وَالْقُلَّالِ
وَمَنْ خَلَّتْ بِمَحْدِثِ النَّفْسِ فِكْرُهُ * حَتَّى الرَّحَاءِ وَمَاتِ الْخَوْفُ مِنْ وَجَلِ
كَالْيَتِّ إِنْ هِجَنَهُ فَاَلْمَوْتُ رَاحَتُهُ * لَا يَسْتَرِيحُ إِلَى الْأَيَّامِ وَالْأَيَّامِ
إِنْ الْحَوَادِثُ لَمَّا رُمِنَ هَضْبَتُهُ ^(١) * أَزْمَعُ عَنْ حَارِ شَيْبَانٍ بِمُتَقَلِّ
فَالذَّهْرُ يَغِطُّ أَوْلَاهُ أَوْاحِرَهُ * أَدَلِمَ يَكُنْ كَانِ فِي أَعْصَارِهِ الْأَوَّلِ
إِذَا الشَّرِيبُكِي لَمْ يَفْخَرْ عَلَى أَحَدٍ * تَكَلَّمَ الْفَحْرُ عَنْهُ عَيْرٌ مُتَحَلِّ
لَا تُكْذِبَنَّ إِنْ الْحَلْمُ مَعْدِنُهُ * وَرِائَتُهُ فِي بَيْ شَيْبَانٍ لَمْ تَزَلْ
سَلَوُ السُّيُوفِ فَاعْشَوْا مِنْ يَحَارِ بِهِمْ * خَطَّابَهَا عَيْرٌ مَا تُكَلِّ وَلَا وَكُلِ
الزَّائِدِيُّونَ قَوْمٌ فِي رِمَاحِهِمْ * حَوْفُ الْمُخِيفِ وَأَمْسُ الْخَائِفِ الْوَجَلِ
كَبِيرُهُمْ لَا تَقُومُ الرَّاسِيَاتُ لَهُ * حِلْمًا وَطِفْلُهُمْ وَهَذَى مُكْتَبَلِ
إِسْلَمَ يَزِيدُ مَا فِي الدِّينِ مِنْ أَوْدٍ * إِذَا سَلِمْتَ وَمَا فِي الْمَلِكِ مِنْ خَالِ
أَثْنَتْ سُوَى بَنِي الْإِسْلَامِ فَاطَادَتْ ^(٢) * يَوْمَ الْخَلِيجِ وَقَدْ قَامَتْ عَلَى زَلَلِ
لَوْلَا دِفَاعُكَ نَاسَ الرُّومِ إِذْ بَكَرَتْ * عَنْ عِزَّةِ الدِّينِ لَمْ تَأْمَسْ مِنَ الشَّكْلِ
وَيُوسُفُ الْبَرِّمْ قَدْ صَبَحَتْ عَسْكَرُهُ * عَسْكَرُ يَلْفِظُ الْأَقْدَارَ دَى زَجَلِ
عَافِصَتُهُ يَوْمَ عَبْرَ الْهَرْمُ مَهْلَتُهُ ^(٣) * وَكَانَ مُحْتَجِرًا فِي الْحَرْبِ بِالْمَهْلِ
وَالْمَارِقِ أَنْ طَرِيفٌ قَدْ دَلَقَتْ لَهُ ^(٤) * عَسْكَرُ لِلْيَا مُسِيلٌ هَاطِلِ
لَمَّا رَأَاكَ مُجْدَا فِي مَيْتِهِ * وَأَنْ دَفَعَكَ لَا يُسْطَاعُ بِالْحِلِ
شَامَ السَّزَالِ فَابْرَقَ اللَّقَاءَ لَهُ * مَقْدَمُ الْخَطْوِ فِيهَا عَيْرٌ مُتَكِلِ
مَاتُوا وَأَنْتَ غَزِيلٌ فِي صَدُورِهِمْ * وَكَانَ سَيْفُكَ يَسْتَشْفِي مِنَ الْغَلِّ

- (١) هذا مثل، يريد لما رامت الحوادث من استعاره . (٢) مسة الى شريك، وهو أحد أحماد يريد .
(٣) هكذا في الأصل . وعندما أد الكلمة محرفة عن (اضلعت) أى شئت . وهي وراة اضل من وطد .
وكانت اوتقلد ثم قلت ما الاتصال تاه وأدم المثل في المثل . (٤) عزة الدين . حانة الاسلام .
(٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) عاصه : فاحاه على عرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشاري .

لو أن غير شريكٍ أطاف به * فاز الوليدُ قدح الباصل^(١) الخِصَل
وقت بالدين يوم الرُس^(٢) فأعدلت * منه قوائمُ قد أوقت على ميل
ما كان جمعهم لما لقيتهم * إلا كمثل نعام ربيع مُحفَل
تابوا ولو لم يتوبوا من دنوهم * لآت حيشك بالأسرى والنقل
كم آمين لك نائي الدار مُتَمَتع * أرحته من حصون الملك والحول
يأبى لك الدَم في يوميك إن دُكرَا * عَصَبُ حُسَامٍ وعِرْض غير مُتَذَل
وما رقيق عِزَاه من بيوتهم * لا يَنْكُلُون ولا يؤتُون من نَكَل
خَلعت أجسادهم والطير عاكفة * فيها وأفقلتهم هاما مع الفقل
فانخرها لك في شيطان من مثل * كذاك ما ليس شيطان من مثل
كم مشهد لك لا تُحصى مآثره * قَسَمَت فيه كرزق الإس والخَل
لله من هاشم في أرضه حَل * وأنت وأُسُك رُكنا ذلك الجَل
قد أعظموك ما تُدعى لهينة * إلا لمُضلة تَسْتُر^(٣) بالعَصَل
يا رب مكرمة أصححت واحدها * أعيت صايد رأموها فلم تُسل
تَسَاغل الناس بالدينيا وزُحرفها * وأب من بَذَل المعروف في شغل
أقسمت ما دُب عن جدواك طالبها * ولا دفت أعترام الحدة بالهزل
يأبى لسألك منَع الجود سائله * ما يُحلج بين الجود والنخل
صَدَقَتْ ظَنِّي وصَدَقَت الظنون به * وحط حودك عقَد الرُّحْل عن جملي
فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقصها وأعذر ، فخرج الحاجب فقال
لمسلم : قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك
وخمسون ألفا لنفقتة ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد
بماتى ألف درهم وقال : إقض الخمسين ألفا التي أخذها الشاعر وزده مثلها ، وحذ

(١) الناصل : المصيب . والحصل مثله . (٢) الرُس : وادي أذربجان . (٣) تستر بالعسل :
تأمن بالعسر . والمصلحة : الدابة .

مائة ألف لعقتك ، فاقَّتْ صَبيته وأعطى مسالما خمسين ألفا أخرى . ولما أنشدته :
« لا يعبق الطيب » البيت . قال بلحاريتة : حرم طيبا مسلم الطيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبي يجلس للشعراء في السه مجلسا واحدا ، فيقصدهونه
لذلك اليوم ويُشددونه ، فوجه اليه مسلم راويته قصيدته التي أولها . « لا تدعُ بي الشوق »
فقدم عليه يومَ حلوسه للشعراء ولحقه بعقب حروجهم عنه ، فتقدم الى الحاجب وحسّر
لثامه عن وجهه ، ثم قال له : أستاذن لي على الأمير ، قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ،
قال : قد آنصرم وقتك وأنصرف الشعراء وهو على القيام ، فقال له . ويحك ! إني قد وفدتُ
على الأمير بشعرا ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدبٌ يهمهم به ما يسمع ، فقال :
هاتِ حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك اليه ؛ فأنشده بعض القصيدة ، فسمع
شيئا يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدم على الأمير شاعر شعرا ما قيل
فيك مثله ، فقال . أدخل قائله ، فلما مثل بين يديه سلّم وقال : قدمت على الأمير
— أعزّه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمي على غيري ممّي آمتدحه ، فقال . هات ، فلما
أفتتح القصيدة وقال . « لا تدعُ بي الشوق » استوى حالسا وأطرق حتى أتى الرجلُ على
آخر الشعر ، ثم رفع رأسه اليه فقال : أهدا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ؛ قال : في كم
قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر أبقاك الله ، قال : لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسا ،
وقد أهمنتك ، بلجوده شعرك وحول ذكرك ، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة
أشهر في مثله ، وأمرت بالإحراء عليك ، فان جئنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف
درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير ، قال : قد أقلتك ، قال : الشعر
لمسلم بن الوليد وأما راويته والواعد عليك بشعره ؛ فقال : أنا آجب حاتم ، إنك لما أفتحت
شعره فقلت : « لا تدعُ بي الشوق إني غير معمود » سمعت كلام مسلم يناديني ، فأجبت بداهه
وآستويت حالسا ؛ ثم قال : يا اعلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ، وأحمل الساعة الى مسلم
مائة ألف درهم . وهذه هي القصيدة :

لَا تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِلَى عَيْرِ مَعْمُودٍ . نَهَى النَّهْيَ عَنِ هَوَى الْهَيْفِ الرَّادِيدِ ^(١)
 لَوْ شِئْتُ لَا شِئْتُ رَاجِعْتُ الصَّبَا وَمَشْتُ * فِي الْعِيُونِ وَفَانْتَنِي يَجْلُودُ ^(٢)
 سَلْ لَيْلَةَ الْخَيْفِ هَلْ أَصِيتُ آخِرَهَا * بِالزَّاحِ تَحْتَ نَسِيمِ الْخُرْدِ الْغِيدِ
 تَجَحَّطُهَا بُلْعَابُ الْمُزْنِ فَاغْتَرَلْتُ * تَسْحَبُ مِنْ بَيْنِ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ ^(٣)
 كَلَّا الْحَدِيدِينَ قَدْ أَطْعِمْتُ حَزَنَهُ . لَوَّالِ حَى إِلَى عُثْمَرَ وَتَخْلِيدِ ^(٤)
 أَهْلًا بَوَاعِدَةً لِلشَّيْبِ وَاحِدِهِ * وَإِنْ تَرَأْتِ بِشَحْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ
 لَا أَجْمَعُ الْحِلْمَ وَالصَّبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ * هَمْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنِ مَاءِ الْعَاقِيدِ
 لَمْ يَنْتَهِي قَدْ عَنْهَا وَلَا كَرَّ * لَكِنْ صَحُوتُ وَعُصْنِي عَيْرِ مَحْضُودِ
 أَوْفَى بِي الْحِلْمُ وَأَقْتَادُ اللَّهِى طَلَقَا * شَاوَى وَعِغْتُ الصَّبَا مِنْ عَيْرِ تَمِيدِ
 إِذَا تَجَانَّتْ بِي إِلَهَاتُ عِرْسِهِ * نَارِعَتْ أَرْضًا وَلَمْ أَحِصِلْ بِتَمِيدِ
 لَا تَطْيِينِي الْمُنَى عَنْ حَنْدِ مُطَلَبٍ * وَلَا أَحُولُ لَشَيْءٍ غَيْرِ مَوْجُودِ ^(٥)
 وَتَجَهَّلِ كَأَطْرَادِ السِّيفِ مُتَحَنِّزٍ * عَنِ الْأَدِلَاءِ مَسْجُورِ الصَّبَاخِيدِ
 تَمْشِي الرِّيَّاحُ بِهِ حَسْرَى مُوَلَّهَةً * حَزْرَى تَلُودُ أَطْرَافَ الْجَلَامِيدِ
 مُوقِفِ الْمَتْنِ لَا تَمْصِي السَّيْلُ بِهِ . إِلَّا التَّحُلُّلَ رَيْثًا مَعْدَ تَجَهِيدِ
 قَرَيْتُهُ الْوَحْدَ مِنْ حَطَّارِهِ سُرُجٍ * تَقْرَى الصَّلَاةَ بِإِرْقَالٍ وَتَوَخِيدِ ^(٦)
 إِلَيْكَ نَادَرْتُ إِسْفَارَ الصَّاحِ بِهَا * مِنْ حُجْحٍ لَيْلِ رَحِيْبِ الْبَاعِ مَمْدُودِ
 وَبِلَدِهِ ذَاتَ عَوْلِ لَا سَبِيلَ هَا * إِلَّا الظُّلُوفُ وَالْأَسْرَحُ السَّيْدِ
 كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْأَلَّ يَرْكُبُهَا . مُدُّ تَوَافَى بِهَا نَذْرٌ إِلَى عِيدِ

(١) لا تدعى في الشوق، أى لا تدعى مشتاقاً . وسأله دعلج عن معنى ذلك فقال : لا تدعى صريع العوانى فليست
 كذلك، وكان لهذا اللقب كارهها . ومعمود . عاشق . والهيء . الصامرات المحصورة . (٢) أى دهمت
 بجملدى . (٣) اغترلت . احتللت ، ويريد بالسحبن : ماولى الماء من البحر أسرع فيه الماء لعله ،
 وماولى منها القناع من على حاله لم يحمله الماء بعد . (٤) الحرة العيم .
 (٥) الهدد . اللوم . والمحضود . الواهن . (٦) أى لا تدعونى الى ههنا . (٧) الخطارة : الناقة
 تحرك دهبها . والسرجه . الحقيفة .

كَفَلْتُ أَهْوَالَهَا عِيَا مُؤَرَّقَةً * اليك لولاك لم تُكَجَّلْ بِتَسْهِيدِ
 حَتَّى أَتَتْكَ نَى الْآمَالِ مُطْلِعَا * لِلْيُسْرِ عَيْدُكَ فِي سِرْبَالِ مَحْسُودِ
 مِنْ بَعْدِ مَا أَلْقَيْتِ الْأُنَامَ لِي عَرَصَا * مُلْقَى رَهَيْنَ لِحَدِّ السِّيفِ مَضْفُودِ^(١)
 وَسَاوَرَتْنِي بَسَاتُ الدَّهْرِ فَأَمْتَحَنَتْ * رَنْقَى بِمُحَلَّةٍ شَهَاءَ جَارُودِ^(٢)
 إِلَى سِنَى حَاتِمٍ أَدَّى رِكَائِنَا * حَوْضُ الدَّخَى وَسُرَى الْمَهْرِيَةِ الْقُودِ
 تَطْوَى الْهَارَ فَإِنْ لَيْلٌ مَحْطَهَا^(٣) * نَابَتْ تَحْمُطُ هَامَاتِ الْقَرَادِيدِ
 مِثْلَ السَّمَاءِ بَيَدَاتِ الْمَقِيلِ إِذَا * أَلْقَى الْمَحْجِرُ يَدَا فِي كُلِّ صَنِيعُودِ
 حَلَّتْ بِدَاوُدَ فَاْمَتَحَنَتْ وَأَغْلَحَهَا * حَذَوُ الْعَالِ عَلَى آيٍ وَتَحْرِيدِ^(٤)
 أَعْطَى فَا فَنَى الْمُسَى أَدْنَى عَطِيَّتِهِ * وَأَرْهَقَ الْوَعْدَ نُحْمَا عِبْرَ مَكُودِ
 وَاللهُ أَطْعَمَا نَارَ الْحَرْبِ إِذْ سُمِرَتْ * شَرْقًا بِمَوْقِعِهَا فِي الْعَرَبِ دَاوُدِ
 لَمْ يَأْتِ أَمْرًا وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى حَدَثٍ * إِلَّا أُعِينَ تَوَفِيقُ وَتَسْدِيدِ
 مُوَحِّدُ الرَّأْيِ تَنْشَقُّ الطُّونُ لَهُ * عَنْ كُلِّ مُلْتَبِسٍ مَهَا وَمَعْقُودِ
 ثُمْنَى الْأُمُورِ لَهُ مِنْ مَحْوٍ وَأَوْجُهِهَا * وَإِنْ سَلَكَ سَبِيلًا عِبْرَ مَؤْرُودِ
 إِذَا أُنَاحَتْ حِمَى قَوْمٍ عَقُوبُتُهُ * عَادَى لَهُ الْعَفْوَ قَوْمًا بِالْمُرَاصِيدِ
 كَاللَّيْلِ بَلْ مِثْلُهُ اللَّيْتُ الْمَهْصُورَ إِذَا * عَنَى الْحَدِيدُ غِيَاءَ عِبْرَ تَعْرِيدِ
 يُلْقِي الْمَيِّتَةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتْهَا * كَالسَّيْلِ يَقْدِفُ جُلُودًا بِجُلُودِ
 إِنْ قَصَرَ الرِّيحُ لَمْ يَمِشْ الْخَطَا عِدْدَا * أَوْ عَرَدَ السِّيفُ لَمْ يَهْمَمْ بِتَعْرِيدِ
 إِذَا رَعَى تَلْدَا دَانَى مَاهِلَهُ * وَإِنْ يُنَيَّنَ عَلَى شَخِطٍ وَتَبْعِيدِ
 جَرَى فَادْرَكَ لَمْ يُعَفِّ بِمِهْلَتِهِ * وَأَسْتَوْدَعَ الْبَهْرَ أَهْأَسَ الْمَجَاوِيدِ^(٥)

(١) الزهين : الأسير . والمقصود الموتى بالحديد . (٢) المحلة : السلة الخدعة . والجارود .

المحردة من السات . (٣) محملها . سالها . والقراديد . جمع قردة ، وهو المرتفع من الحال .

(٤) السهام . طائر يشبه القطا . والصيود . شدة الحر . (٥) التحريد من الحرد ، وهو داء يصيب الإبل

في قوائمها . والأين . الثوب . (٦) البهر هو ما يقرى الإنسان عند العدو من اللهب وتنازع النفس .

آلُ الْمُهَابِ قَوْمٌ لَا يَزَالُ لَهُمْ * رِقَ الصَّرِيحِ^(١) وَأَسْلَابُ الْمَدَاوِدِ
 مُظْفَرُونَ يُصِيبُ الْحَرْبُ أُنُسَهُمْ * إِذَا الْهَرَارُ تَمَطَّى^(٢) بِالْمَحَايِدِ
 نَحْلٌ مَاجِبٌ لَمْ يَعْدَمِ يِلَادُهُمْ * فَتَى يَرْجَى لِقَاصِ أَوْ لَتَوْكِيدِ
 قَوْمٌ إِذَا هَذَا شَامَتْ^(٣) سَيُوفُهُمْ * وَإِنَّا عُقْلُ الْكُومِ الْمَقَاحِدِ
 مَسَى فِدَاؤُكَ يَا دَاوُدَ إِدْعَلَيْتِ * أَيْدَى الرَّدَى بِوِاصِي الضَّمَرِ الْقُودِ
 دَاوَيْتَ مِنْ دَائِهَا كَرْمَانَ وَأَنْتَصَفْتَ * لَكَ الْمَوْنُ لِأَقْوَامِ مَحَايِدِ
 مَلَاتَهَا فَرْعًا أَحْلَى مَعَاظِلَهَا * مِنْ كُلِّ أَبْلَغَ سَامَى الطَّرْفِ صَنِيدِ
 لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى أَدْنَى بِلَادِهِمْ * أَلْقَى إِلَيْكَ الْأَقَاصَى بِالْمَقَالِيدِ
 لَمَسْتَهُمْ بِيَدِ الْعَمُو مُتَّصِلِ * بِهَا الرَّدَى بَيْنَ تَلْيِيسٍ وَتَشْدِيدِ
 أُنَيْتَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْأَمْسِ مُطْلِعَا * نَالِحِيلَ تَرْدَى بِأَطَالِ مَاجِيدِ
 وَطَارَ فِي إِثْرِ مَنْ طَارَ الْهَرَارُ بِهِ * خَوْفٌ يِعَارِصُهُ فِي كُلِّ أُحْدُودِ
 فَاتُوا الرَّدَى وَظَلَمَاتُ الْمَوْتِ تَنْشُدُهُمْ * وَأَنْتَ نَضَبُ الْمَيَا بِعَيْرٍ مَنَشُودِ
 وَلَوْ تَلَّتْ دِيَارُهَا رَوَيْتَ^(٤) * مَهْ وَلَكِنْ شَاَهَا عَدُوٌّ مَرْهُودِ
 أَمْرَزَهُ أَجَلٌ مَا كَادَ يُحَرِّرُهُ * فَتَرَّ يَطْوِي عَلَى أَحْشَاءِ مَقُودِ^(٥)
 وَرَأْسُ مِهْرَانٍ قَدْ رَكَّتْ قُلَّتُهُ * لَدَنَا كِفَاهُ مَكَانِ الْآيَةِ وَالْجِيدِ
 قَدْ كَانَ فِي مَغْزِلٍ حَتَّى بَعَثَتْ لَهُ * أُمُّ الْمَيْتَةِ فِي أَبْنَائِهَا الصِّيدِ
 أَحَقُّ أُمُّ أَسْلَمَتَهُ الْفَاصِحَاتِ إِلَى * حَدٍّ مِنَ السَّيْفِ مِنْ يَعْلُو بِهِ يُودِ
 أَلْحَقَتْهُ صَاحِبِيهِ فَاسْتَمَرَّ بِهِمْ * صَرٌّ يَمُرَّقُ صَبَاتِ الْقَاحِدِ^(٦)

(١) رِقَ الصريح، أى استبعاد الحر . والمداويد . الاتحاد واحده مدود . (٢) المحاييد الجنا.

جمع محياد . (٣) الهدأة . العثرة . (٤) الأملح : المتكرر .

(٥) شأها : سبقها . ومرمود : مرعوب . (٦) المقتود . الذى أصيب فزاده . (٧) الصات :

أوصال الرأس . والقاحيد : جمع قحودة وهى العلم الباقي فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

أُعِدُّ مَنْ قَرَمَ حَرْبَ صَرَّتْ لَهَا * يَوْمَ الْحَصِينِ شِعَارٌ عَيْرٌ تَحْجُودُ
 يَوْمَ اسْتَصَبَّتْ بِحِصْنَانِ طَوَائِفُهَا ^(٢) * عَلَيْكَ مِنْ طَالِبٍ وَثْرًا وَتَحْقُودُ
 نَاهِصَتَهُمْ دَائِدُ الْإِسْلَامِ تَقْرَعُهُمْ * عَمَهُ ثَلَاثَ وَمِثْقَى الْمَوَاجِيدِ
 تَحْجُودُ بِالْمَسِ إِذَا أَسَّ الْقَسِ بِهَا * وَالْجُودُ بِالْمَسِ أَقْصَى عَايَةِ الْحُودِ
 تِلْكَ الْأَرَارِي إِذَا صَلَّ الدَّلِيلُ بِهَا * لَمْ تُجْطِهَا الْقَصْدُ مِنْ أَسْيَافِ دَاوُدَ
 كَانَ الْحَصِينُ يُرَجَى أَبَ يَمُورُ بِهَا * حَتَّى أَحْدَتْ عَلَيْهِ بِالْأَحَادِيدِ
 مَا رَالَ يَمُفُّ بِالْعَمَى وَتَعْمِطُهَا * حَتَّى اسْتَقْلَ بِهِ عَوْدٌ عَلَى عَوْدِ
 وَصَعَتْهُ حَيْثُ تَرْتَابُ الزُّرَّاحُ ^(٣) بِهِ * وَتَحْسُدُ الطَّيْرَ فِيهِ أَضْعُغُ الْيَدِ
 يَمُودُ الصَّوَارِي فَتَرْتِمِيهِ بَاعُهَا * تَسْتَشِقُّ الْحَوَّاءُ سَاسًا تَصْبِغِيدِ
 يَتَمَنَّى أَمَاءَهُ طَوْرًا وَمَوْقِعَهُ ^(٤) * يَلْتَمِسُ فِي عَالِيٍّ مِمَّهِ وَتَحْسِيدِ
 مَكَانَ فَارِطٍ قَوْمٍ حَانَ مَكْرُهُمْ ^(٥) * بَارِضَ رَادَاتٍ شَقَى فِي الْمَوَارِيدِ
 يَوْمَ خَرَّاشَةِ إِذَا شِيدَانِ مُوَحِّفَهُ * يَخُونُ مَكَانَ يَسْلُومِهِ مَقْدُودِ
 زَاخَفْتَهُ نَاسُ سُفْيَانٍ مَكَانَ لَهُ * شَاءَ يَوْمَ يَطْهَرُ الْعَيْبُ مَشْهُودِ
 حَا قَلِيلًا وَوَايَ زَحْرُ عَانِهِ * سَيُومُهُ طَبَرٌ مَحْجُوسٍ وَمَسْعُودِ
 وَلَّى وَقَدْ حَرَعَتْ مِمَّهِ الْقَا حَرَا * حَتَّى الْخَافِيَةِ مَيْتًا عَيْرَ مَوْدُودِ
 زَالَتْ حُشَاشَتُهُ عَنْ صَدْرِ مُعْتَدِلِ * دَابِي الْكُفُوفِ بَعِيدِ الصُّدْرِ أُمْلُودِ ^(٦)
 إِذَا السَّيُوفُ أَصَاتِهِ تَقَطَّعَ فِي * سُرَادِيٍّ تَحْوَامِي الْخَيْلِ مَمْدُودِ
 يَقْدِي نَمَّا تَحْتَهُ مِنْ حِلَاقَتِهِ * حُشَاشَةُ الزُّكُصِ مِنْ حَرْدَاءِ قَيْدُودِ ^(٧)
 حَلَّ اللَّوَاءِ وَحَالَ الْحِدَرِ عَائِدَهُ * فَعَادَ بِالْخَدْرِ تَرُبُّ الْكَاعِ الرُّودِ

(١) أُعِدُّ حَامًا يَمُودُ عَلَيْهِ (٢) أَيُ أَعْرَضَتْ طَوَائِفُهَا (٣) تَرْتَابُ . أَيُ تَسْتَكْرِ .

(٤) الْأَوْيَاءُ جَمْعُ فِي . وَهُوَ الظَّلُّ أَحْرَارًا . وَالْحَسْدُ الدَّم (٥) وَجْهَةٌ . مِمَّهِ

(٦) أُمْلُودُ أَمْلَسَ (٧) الْحَرْدَاءُ قَصِيرَةُ الشَّعْرِ وَالْعِيدُودُ الْبَاقَةُ الطَّوِيلَةُ الطَّاهِرُ .

(١) وإن يكن شَبَّهاً حرّاً وقد نَحَدت * فَنَائِيَا حَيْثُ لَا هَبْدَ وَلَا هَبْدَ
 كُلُّ مَثَلَتْ بِهِ فِي مَثَلِ خُطَّتِهِ * قَتَلَا وَأَصْحَمَتَهُ فِي عَيْرٍ مَلْحُودِ
 عَافُوا رِضَاكَ مُعَاقَتَهُمْ بِعُقُوبِهِمْ (٢) * عَنِ الْحَيَاءِ مَا يَاهُم لِمَوْعُودِ
 وَأَنْتَ بِالسَّيْدِ إِذَا هَاجَ الصَّرِيحُ هَا * وَأَسْتَعِدْتُ حَرْبَهَا كَيْدَ الْمَكَايِيدِ
 وَأَسْتَعْزِرُ الْقَوْمَ كَأْسًا مِنْ دِمَائِهِمْ * وَأَحْدَقَ الْمَوْتَ بِالْكَرَّارِ وَالْجِيدِ
 رَدَدْتُ أَهْمَالَهَا الْقَصُوى مَحْتَسَةً (٣) * وَشِمْتُ بِالْبَيْصِ عَوْرَاتِ الْمُرَاصِيدِ
 كُنْتُ الْمُهْلَكُ حَتَّى شَكَتْ عَالِمُهُمْ * ثُمَّ انْفَرَدْتُ وَلَمْ تُسَقِّ بِتَسْوِيدِ
 لَمْ يَقْبَلِ السَّلْمُ إِلَّا بَعْدَ مَقْدَرِهِ * وَلَا تَأَلَّفْتُ إِلَّا بَعْدَ تَبْدِيدِ
 حَتَّى أَجَابُوكَ مِنْ مُسْتَأْمِنٍ حِدِيرِ * رَاجٍ وَمُتَظَرٍّ حَتْفًا وَمُتْمُودِ
 أَهْدَى إِلَيْكَ عَلَى الشَّعَاءِ أَلْفَهُمْ * مَوْتُ تَفَرَّقَ فِي شَتَّى عِبَادِيدِ
 وَفِي يَدَيْكَ نَقَايَا مِنْ سَرَائِهِمْ * هُمْ لَدَيْكَ عَلَى وَعْدٍ وَتَوْعِيدِ
 إِنْ تَعَفَّ عَنْهُمْ فَأَهْلُ الْعُقُوتِ وَإِنْ * تُنْصَحُ الْعِقَابَ فَأَمْرٌ عَيْرٍ مُرْدُودِ
 إِسْمِعْ لِمَاكَ قَدْ هَيَّجَتْ مَلْحَمَةً * وَقَدَّتْ مِنْهَا أَرْوَاحُ الصَّنَادِيدِ
 أَقْدِفْ أَبَا مَالِكٍ فِيهَا يَخْنُكُ هَا * وَيَتَسَّعَ فِيهَا مَحْدَمُكَ بِمَحْدُودِ
 يَمْصِي بِمِزْمِكَ أَوْ يَحْرَى بِشَاوُكَ أَوْ * يَقْرَى بِمَحْدَمِكَ كُلُّ عَيْرٍ مَحْدُودِ
 لَا يَعْدَمُكَ حِمَى الْإِسْلَامِ مِنْ مَلِكٍ * أَقَمْتَ قُلَّتَهُ مِنْ بَعْدِ تَأْوِيدِ
 كَفَيْتَ فِي الْمُلْكِ حَتَّى لَمْ يَفِضْ أَحَدٌ * عَلَى صَيَّاعٍ وَلَمْ يَحْزَرْ لِمَقْهُودِ
 أَعْطَيْتَهُمْ مِنْكَ نُصْحًا لَا كِفَاءَ لَهُ * وَأَيَّدُوكَ بِرُكْنٍ عَيْرٍ مَهْدُودِ
 لَمْ يَبْعَثِ الدَّهْرُ يَوْمًا بَعْدَ لَيْلَتِهِ * إِلَّا أَتَبَعْتَهُ لَهَ بِالْبَاسِ وَالْجُودِ
 أَجْرَى لَكَ اللَّهُ أَيَّامَ الْحَيَاءِ عَلَى * فَعِيلٍ حَمِيدٍ وَجَدَّ غَيْرِ مَكُودِ

(١) كَلْبَانُ يَرْحَبُهَا الْإِثْلُ . (٢) بِمَقُوتِهِمْ، أَيْ هَانِهِمْ . (٣) الْأَهْمَالُ . جَمْعُ هَلٍّ، وَهَرٍ

لا يفقد الدين خيلا أن قاندها ، يُعْهَدَ في كل نعر غير معهود
 تحلاتٍ اذا آتَتْ عاتمها * ومُقَدِّمات على نصر وتأييد
 هناك أنك مَعْدَى كُلِّ لَمِيس * حُودا وأُنك ماوى كل مطرود
 تستأف الحمد في دهر أوائله . موسومه بفعال منك محمود
 اذا عَزَمَتْ على أمر بطشت به . وإِى أَلَّت قَيْلا غيرَ تصرُّب
 عَوَدت بهسك عادات حُلقت لها * صَدَقَ الحديث وإنجازَ المواعيد

دخل الوليد على الفصل بن سهل ليشره شعراء فقال له : أيها الكهل ، إني أجلك
 عن الشعر فسل حاجتك ، قال . بل تستم اليد عدى نأ سمع ، فأشده :

دُموعها من حِدار الدن تسك * وقلُّها معرم من حرَّها يح
 حَذَّ الرِّحْلُ به عنها ففارقها لبيه اللهو واللذات والطرب
 يهوى المسيرَ إلى مَرَوْ ويحربه فراقها فهو دو نفسين يرتقب

فقال له الفصل . إني لأحلك عن الشعر ، قال : فأعنى بما أحببت من عملك ، فولاه
 البريدَ بِجُرْحَانٍ ^(١) .

فما مسلم قريشا ونغر بالأنصار شعر بمنزل لك ناحيه من بواحي العصبية بين القبائل
 وهو يعتبر، الى حد ما، من الشعر السياسى ، فقال .

قل لمن تاه إد بآ عر جهلا ليس نالته يححر الأحرار
 فتاهوا وأَقْصَرُوا فلقدا حا * رت عن القصد مكم الأنصار
 أَيْكُم حاط داجوار عَزَّ . قبل أن تحتويه مآ الدار
 أَوْرَحَا أن يهوت قوما يوتر * لم تنزل تمتطيهم الأوتار
 لم يكن ذاك فيكم فدعوا الفح * ر بما لا يسوع فيه أفتحار
 ونَزَّارَا ففاحروا تفصلوهم * ودعوا من له عَيْدٌ رار

(١) بلدة عطية كانت بالقرب من محرقورين الى الجنوب الشرق منه

فما عَزَّ مَكُّ الذَّلِّ والده * سُرَّ عليكم رَيْبُهُ كَوَار
 حاذِرُوا دولة الرمان عليكم * إنه بين أهله أطوار
 فَتَرَدُّوا ونَحْى للحالة الأو * لى وللاُ وحده الأذل الصغار
 فاختَرنا لما سطنا لها الفجر * رقرش ونخرها مستعار
 دكرت عَزَّها وما كان فيها * قفل أن تستحيرنا مُستحار
 إنما كان عَزَّها فى حال * ترتقيها كما تَرَقَّى السِوَار
 أها الفخروى بالعز والعد * زلقوم سواهم والعفار
 أحبروا من الأعرأ ألمد * صورحتى أعتلى أم الأنصار
 فلما العز قفل عَرَّ قريش * وقريش تلك الدهور تحار

فأمرى له أبى قبر يحيه فقال :

ألا أمثل أمير المؤمنين مُسلم * وأقلق به الأحشاء من كل مُجرم
 ولا ترجع عن قتله باستتابه * فما هو عن شتم السبي مُحرم
 ولا عن مساواة له ولقومه * قريشاً بأصداء إعاد وجرم
 ويحجر بالأنصار هملاً على الدى * بصره فاروا بحط ومغم
 وُتموا به الأنصار لا عر قائل * أراد قريشاً بالمقام المُدغم
 ومنهم رسول الله أذى من أنتهى * الى نسب زالك وبجد مقدم
 وما كانت الأنصار قفل اعتصامها * بصر قريش فى المحل المعظم
 ولا بالآلى يُعلون أقدار قومهم * صداء وخولان ولحم وسليهم
 ولعنهم الله عادوا وبصرهم * قريشاً ومن يستعصم الله يعصم
 فعزوا وقد كانوا وفطيون فيهم * من الذل فى باب من العزمهم
 يسومهم القبطون مالا يُسامه : * كريم ومن لا يُنكر الظلم يُظلم
 وباب قريشاً بالماثر فضلت * على الخلق طرا من فصيح وأعجم

ما مال هذا العِلج صلَّ صلَّاه * يُمد اليهم كفَّ أخدم أخدم
 نسأى قريشا مسلمٌ وهم هم * مولى يمانى وبيت مهدم
 اذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم * مقام به من لؤم منى ومدنم
 جماسيس^(١) أشاه القروذ ابوانهم * يباعون ما أبنيوا جميعا بدرهم
 وما مسلم من هؤلاء ولا ألى * واكنه من تسل عالج ملكم
 تولى زمانا غيرهم تمت ادعى * اليهم فلم يكرم ولما يكرم
 وإن يك منهم فالتصير ولهمهم * مواليه لا من ندعى بالتزعم
 وإن تدع الانصار مولى أسمهمهم * نقاوية تسكره الحلد بالدم
 عقا لهم فى إفكهم واذعائهم * لأقلف مقوش الدراع موشم
 فلا ندعوه وأنصوا منه تساموا * سفيكوه من مقال ومأم
 وإلا فعصوا الطرف وآسطروا الردى * اذا آحتلفت فيكم صوارد أسهمى
 ولم تحددوا عها حتما يحكمكم * اذا أطلعت من كل فتح ومعلم
 وأستم سواداب من أتم له * ولسم نساء السام المقدم
 ولا يلى الرأس الربيع محله * فيسموكم مولى مسام ويتسمى
 فكيف رصنم أب بسامى بئكم * ستم الرث القصير المهدم
 ساحط من سامى التى تطاولا * عليه وأكنوى منتهاه بميسى
 أئبدل بنت يثربى كمة * قوتها قريس فى المكاب المحترم
 قريس خار الله والله خصمهم * بذلك فاقم أياها العليج وأزعم
 ومن تدعى مه الولاء مؤثر * اذا قيل للحارى الى المحمد أقدم
 وكان مسلم قال قصيدته وقريش وكنمها، فوقعت إلى اس قنر وأحانه عها، واستعل
 عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عد مسلم فى هذا حواب أكثر من الاستواء منها

ونسبها الى ابن قبر والاذعاء عليه أنه ألصقها به وسبها اليه ليعرصه للسلطان وخافه، فقال
ينفى من هذه القصيدة :

دعوت أمير المؤمنين ولم تكس * هالك ولكن من يحف يحجشم
وانك اذ دعوا الخليفة ناصرا * لكالمترقى في السماء بسلم
كذاك الصدى تدعوه من حيث لا ترى * واب تتوقه تمت في التوهم
هجوت قريشا عامدا ونحلتنى * رؤيدك يظهر ما تقول فيعلم
اذا كان مثلى في قبيل فإنه * على ابن لوى قصرة غير منهم
سيكشفك التعديل عما فذقتى * به فتأخر عارفا أو تقدم
فإن قريشا لا يعادر ودعا * ولا يستمال عهدا بالترحم
مضى سلف مهم وصل يعقبهم * لا سلف في الأول المتقدم
حروا حرينا سابقين بسبقهم * كما آتبت كف نواشر معضم
واب الذى يسمى ليقطع بيننا * كالمس اليرسوع في حر أرقم
أضلك قرع الآبدات طريقها * فأصبحت من عيائها في تهم
وحانتك عد الجرى لما آتبتها * تمم حاولت العلا بالتقحم
فأصبحت ترمينى سهى وتنى * بدى يمدى أصليت نارك فاضرم

ثم هجاه ابن قبر بقصيده أولها :

قل لعبد النصير مسلم الوء * بد الذى اللثم سنخ النصاب
إخس يا كلب اذ نحت فى * لست ممن يحب نبج الكلاب
أفأرضى ومصبى مصب الع * ر وبتى في ذروة الأحساب
أن أخط الرمع من تملك بتي * بمهاجاة أوشب الاوشاب
من اذا سبل من أبوه بدا من * به حياه يحميه رجع الحساب

وإذا قيل حين يُقِيل من أد * ست ومن تَعْتَرِيهِ وِ الأَنساب
 قلت هَاجِي أَبِي قَبْرِ قَسْرَد * ستَ بذكرى غُرّاً لَدَى النَّسَاب
 وهى قصيدة طويلة فلم يحجها عنها مسلم شئ. فقال فيه أن قبر أيضا :
 لستُ أنفِيكَ إن سَوَى نَقَاكَ * عن أَيْسِكَ الذى لَهُ مُنَمَّاكَ
 ولمَ أدَا أنفِيكَ يَابْنَ الوليد * من أبٍ إن ذَكَرْتُهُ أنْخَرَاكَ
 ولو أنى طَلَبْتُ أَلَامَ مِنْهُ * لم أَحِدْهُ إن لم تَكُنْ أنتَ ذَاكَ
 لو سِوَاهُ أَوَّلِكَ كَانَ جَعَلَا * ه إذا السَّاسُ طَاوَعُوا أَبَاكَ
 حَاكَ دَهْرًا بَعِيرَ حَنْقٍ لِبُرْدٍ * وَتَحْشُوكَ الأشْعَارَ أنتَ كَذَاكَ

ثم هجاه بشعر أقَدَعَ فيه ، فمضى إليه قوم من مشايخ الأنصار وأستعاوا عَمَّشِيحَه من قُرَاء
 نعيم ودوى الفصل والعلم ، فمشوا معهم إليه ، فقالوا : ألا تستحى من أن تهجو من لا يحبك !
 أنب بدأت الرجل فأحاك ، ثم عدت فكف ، وتجاوزت ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التى
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها ويدت عنها ويصونها لغير حال أحلت ذلك منهم ،
 فما زالوا به يعطونه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المواقصه لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

ولمْنى وإسماعيل يوم ودَّاعه * لكالعمد يوم الرُّوع فارقه النُّصْلُ
 أما والحِبالُ المُنْتَزات بينا * وسائل أَدَّتْهَا المَوَدَّة والوصل
 لما خُسْتُ عهداً من إحصاء ولا نَأَى * بذكركَ نَأَى عن صميرى ولا شُغل
 ولمْنى فى مالى وأهلى كَأْنى * لِنَائِكَ لا مَالٌ لَدَى ولا أَهْل
 يُدْكَرُ نَيْكَ الدِّينُ والفصل والجبا * وقِيلَ الحَسَّ والحلم وألهم وألهم والجهل
 فالفاك عن مدمومها متبرها * وألقاك فى محمودها ولك الفصل
 وأحمد من أحلافك الجهل إبه • بعرصك لا بالمال حاشا لك الجهل
 أمشيحما مَرُوا بأَنْفَالٍ يَهْمَةٌ • دَعِ الثَّقِلَ وأحمل حاجة ما لها ثِقَل

ثناء كَعْرِفَ الطَّيِّبُ يُهْدِي لِأَهْلِهِ * وليس له إِلَّا بَنَى حَالِدَ أَهْلِهِ
فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا بَعْدَهُمْ أَوْ أَزْوَرَهُمْ * فَكَالْوَحْشِ يَسْتَنْدِيهِ لِلْقَصْرِ الْمُحَلِّ
وله يَرْثِي يَزِيدَ بْنَ مَرْزُوقٍ :

أَحَقُّ إِنَّهُ أَوْدَى يَزِيدَ * تَأْخُلُ أَيُّهَا السَّاعِي الْمُسَيِّدُ
أَتَدْرِي مِنْ نَبِيَّتٍ فَكَيْفَ فَاهَتْ * بِهِ شَفَاكَ كَانَ بِهِ الصَّعِيدُ
أَحَامِي الْمَحْدِ وَالْإِسْلَامِ أَوْدَى * وَمَا لِلْأَرْضِ وَيْحٌ لَا تَمِيدُ
تَأْمَلْ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ * دَعَائِمُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ
وَهَلْ شِئِمَتْ سَيُوفُ بَنِي زَرَارٍ * وَهَلْ وُصِّعَتْ عَنْ الْحَيْلِ الْلُبُودُ
وَهَلْ تَسْقَى الْبِلَادَ عِشَارَ مُزْنٍ * بِدِرْتِهَا وَهَلْ يَحْصِرُ عُودُ
أَمَا هُذَّتْ لِمَصْرَعِهِ زَرَارٍ * بَلَى وَتَقَوَّضَ الْمَجْدُ الْمَشِيدُ
وَحَلَّ صَرِيحُهُ إِذْ حَلَّ فِيهِ * طَرِيفُ الْمَحْدِ وَالْحَسَبِ التَّلِيدُ
أَمَا وَاللَّهِ مَا تَمَسَّكَ عَيْنِي * عَلَيْكَ بِدَمْعِهَا أَبَدًا تَجُودُ
فَإِنْ تَجَمَّدَ دَمُوعٌ لَيْثِمُ قَوْمٍ * فَلَيْسَ لِدَمْعٍ دَى حَسْبٍ جَمُودُ
أَتَعُدُّ يَزِيدَ تَحْتَرِبُ الْبَوَاكِي * دَمُوعًا أَوْ نُصَاةً لَهَا حُدُودُ
لَيْسَ لَكَ قُدْرَةُ الْإِسْلَامِ لَهَا * وَهَتْ أَطْمَأْنَأُ وَوَهَى الْعُمُودُ
وَيَبْكُ شَاعِرٌ لَمْ يُبْقِ دَهْرٌ * لَهُ نَشْبًا وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ
مَنْ يَدْعُو الْإِمَامَ لِكُلِّ حَطَبٍ * يَوْبُ وَكُلِّ مُعْضَلَةٍ تَفُودُ
وَمَنْ يَحْمِي الْحَمِيسَ إِذَا تَعَامَا * بِحِيلَةٍ يَهْسهَ الْطُلُّ التَّجِيدُ
فَإِنْ تَهْلِكُ يَزِيدٌ فَكُلُّ حَىٍّ * فَرِيسٌ لِلْيَمَةِ أَوْ طَرِيدُ
أَلَمْ تَعَجَّبْ لَهُ أَبَ الْمَسَايَا * فَتَكُنْ لَهُ وَهْنٌ لَهُ حُنُودُ
لَقَدْ عَزَى رَبِيعَةً أَنْ يَوْمًا * طَلِبَهَا مِثْلَ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

١٣ - العباس بن الأحنف^(١)

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن ادا تكلم لم يحث سامعه أن يسكت ، وكان فصيحاً حميلاً طريف اللسان ، لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب حُرَّاسان وممشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المُحدثين ، ولا تزال قد رَوى له الشيء العارح حدّا حتى تُلحقه بالمحسين .

وقال الحافظ : لولا أن العباس بن الأحنف أهدق الس وأشعرهم ، وأوسعهم كلاماً وحاطراً ، ما قدر أن يُكثّر شعره في مذهب واحد لا يحاوره ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسّب ولا يتصرف ، وما علم شاعراً لِمَ قفا واحداً لرومه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحرّمازى للعباس بن الأحنف

لا حرى الله دمع عبي حيراً * وحرى الله كلّ حير لسانى

تم دمي فليس مكتم شيئاً ورأيت اللسان دا كتمان

كنت مثل الكتاب أحفاه طيئ * فاستدلوا عليه بالعنوان

ثم قال : هذا والله طراز يطلّب الشعراء مثله فلا يقدرّون عليه .

(١) كان العباس شاعراً عرلاً ملوّحاً من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، وله بياحة شعره رقيق ، ولما يسه عدوية ولطف ، ولم يكن يجاور العرل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني . وقدمه أبو العباس المردى في كتاب الروضة على طرائفه وأطرب في وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الزواة للشعر يقدمونه ، قال وكان العباس من الطرف ولم يكن من الخلفاء ، وكان عرلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان طاهر النية ملوكاً المذهب شديد التطرف . وذلك بين في شعره ، وكان قصده العرل وشعله السب ، وكان - لمّا مقبراً - عرلاً عريراً الفم واسع الكلام كثير التصرف في العرل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مفرّج بالأسنّة سنة ١٢٩٨ هـ ويوجد أخباره وأشعاره في الأغانى (ج ٨ ص ١٥) وابن حليكان (ج ١ ص ٣٤٦) والشعرى (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهذيل العلاف يُنْغِصُه ويلعبه لقوله :

أدا أردتُ سُلُوءًا كان ماصِرَكم * قلبي وما أنا من قلبي بمْتَصِرِ
فأكثِرُوا أو أَقَلُّوا من إساءتكم * فكلّ ذلك محمولٌ على القَدْرِ

فكان أبو الهذيل يلعبه ويقول : يَعْقِدُ الكُفْرَ والفُجُورَ في شعره، فقال العباس — وقال

محمد بن يحيى . وأطى أنه يهجو به أنا الهذيل وما سمعتُ للعباس هجاء غيره — :

يأمنُ يَكْذِبُ أخبارَ الرسولِ لقد * أخطأتُ في كلّ ما تأنى وما تَدْرُ
كَدَّتْ مَالَقَدْرَ الحارِى عليك فقد * أذاك منى بما لا تَشْتَهَى القَدْرُ

قيل للأصمعي : ما أحسنُ ما تحَقِّطُ للمحدّثين^٩ قال : قولُ العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتةً لسكنَ رَوْعِي . أَمَلِي رِضَاكَ وَزُرْتُ عَيْرَ مِرَاقِبِ
لكن مَلَلْتُ فلم تكن لي حِيلَةً * صَدَّ المَلُولِ حِلاُفَ صَدِّ العَاتِبِ

ومما أنشده له ابراهيم بن العباس :

قالت طَلُومُ سَمِيَّةُ الطُّلَمِ * مالى رأيتُكَ ماحِلَ الجَسَمِ
يامن رَمَى قلبي فَأَقْصَدَه * أنتَ العَلِيمُ بمَوْضِعِ السَّهَمِ

ولشعره الغزليّ وَقَعَ في النفس، فانهم كانوا يَشُوقُونَ كثيرًا منه كقوله :

لو كنتِ عاتةً لسكنَ رَوْعِي * أَمَلِي رِصَاكَ وَزُرْتُ غَيْرَ مِرَاقِبِ
لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صَدَّ المَلُولِ حِلاُفَ صَدِّ العَاتِبِ

وأنشده الأصمعي :

أناذِبُونَ لَصَبًا في زيارتكم * فعندكم شهواتُ السَّمْعِ والبَصَرِ
لأَبْصِرَ السَّوَاءَ إن طال الجلوسُ به * عَفَّ الضَمِيرُ ولكن فاسقِ النظرِ

فقال : ما زال هذا الفتى يُدْخِلُ يَدَهُ في رِجَاهِ فلا يُخْرِجُ شيئًا حتى أدخلها فانخرج هذا،

ومن أدمن طلبَ شيءٍ ظفر ببعضه .

وقال سَعِيد بن جُبَيْد : ما أعرف أحسنَ من شعر العباس في إحقاق أمره حيث يقول :

أُرِيدُكَ بالسَّلام فَأَتَقِيمُ * فَأَعِدُّ بالسَّلام اني سَوَاكِ
وَأَكْثَرُ فِيهِمْ صَحْكِي لِيَحْنِي * فَيَسِّي صَاحَكَ وَالْقَلْبُ نَاكِ

ومما تَمَثَّلَ به الواقفُ في شَرْكَانَ بيده وبين بعض حواريه :

عَدْلٌ مِنْ اللَّهِ أَبْكَانِي وَأَحْصَا * فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدْلٌ كُلُّ مَا صَعَا
الْيَوْمَ أَبْكِي عَلَى قَلْبِي وَأَنْدُبُهُ * قَلْبٌ أَلَحَّ عَلَيْهِ الْحُبُّ فَاصْطَعَا

ومما تَمَثَّلَ به أيضا في مثل ذلك :

أَمَا تَحْسِنِي أَرَى الْعَاشِقِينَ * بَلَى ثُمَّ لَسْتُ أَرَى لِي بَطِيرًا
لَعَلَّ الَّذِي يَسُدُّهُ الْأُمُورُ * سَيَجْعَلُ فِي الْكُرْهِ حَيْرًا كَثِيرًا

وقال الرُّبَيْر : إِبْنُ الْأَحْمَفِ أَشْعَرُ النَّاسِ في قوله :

تَعْتَلُّ مَالِ الشَّعْلِ عَا مَا تَكَلَّمَا * الشَّغْلُ لِلْقَلْبِ لَيْسَ الشَّغْلُ لِلدِّبِ

ويقول : لا أعلم شئنا من أمور الدنيا حيرها وشَرَّها إلا وهو يَصْلُحُ أن يَمَثَّلَ فيه هَذَا النصف الأخير .

وقال إِسْحَاقُ : لَعْدُ ظَرْفُ ابْنِ الْأَحْمَفِ في قوله — يَصِفُ طَوْلَ عَهْدِهِ بِالْيَوْمِ —

فَمَا حَبْرَانِي أَيُّهَا الرِّحْلَانِ * عَنِ السَّوْمِ إِنْ الْمَحْرَعَةَ هَبَانِي
وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ * صِفَا السَّوْمَ لِي إِنْ كُنْتُ تَصِفَانِ
عَلَى قَلَّةِ إِعْجَابِهِ مِثْلُ هَذِهِ الْأَشْعَارِ .

قال أحمد بن إبراهيم : رأيت سَلَمَةَ بنَ عَاصِمٍ ومعه شعر العباس بن الأحنف ، وقلت

مِثْلَكَ أَعَزَّكَ اللَّهُ بِعَمَلٍ هَذَا ! فقال : أَلَا أَحْمِلُ شَعْرَ مَنْ يَقُولُ :

أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ طَعْنِي بِكُمْ * وَالْحَزْمُ سُوءُ الطَّلِ النَّاسِ
يُقَالُفْنِي الشَّوْقُ فَأَتِيكُمْ * وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وقال أحمد بن إبراهيم: أتاني أعرابي فصيح طريف، جعلت أكتب عنه أشياء حسناً،
ثم قال: أشدني لأصحابكم الحصريين، فأشدته للعاس بن الأحف:
دكرتك بالتفاح لما شيمته * وبالراح لما قالمت أوجه الشرب
تدكرت بالتفاح منك سوالفا * وبالراح طمأ من مقبلك العذب
فقال: هذا عندك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حوا بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن الفصل: ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن الأحف:
سحان ربّ العلا ما كان أغفلني * عما رميتني به الأيام والزمن
من لم يذق ورقة الأحباب ثم يرى * آثارهم بعدهم لم يدر ما الحزن
قال حسين بن الصمّاك: لواء العاس بقول ماقاله في بيتين في أبيات لعبد، وهو قوله:
لعمرك ما يستريح المحب حتى يسوح بأسراره
فقد يكتم المرء أسراره * فتظهر في بعض أشعاره
ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدمه فيه أحد فهو:

الحب أملك للفؤاد يقهره * من أن يرى للسرى فيه نصيب
وإذا بدا سرّ اللبيب فإنه * لم يند إلا والقي مغلوب

وقال أبو العتاهيه: ما حسدت أحدا إلا العاس بن الأحف في قوله:
إذا امتع القريب فلم تله * على قرب فداك هو البعيد

وقال الكندي: العاس بن الأحف مبيع طريف حكيم جرّ في شعره، وكان قليلا
ما يرصني الشعر، فكان يشده كثيرا:

ألا تعحّون كما أعجب * حبيب يسى ولا يعتب
وأبني رصاه على شخطه * فإني على ويستصعب
فإليت حظي إذا ما أسأ * ت أنك ترضى ولا تفضب

وكان إبراهيم الموصلي مشعوقا بشعر العباس فيعني في كثير من شعره، لما غنى فيه :
وقد ملكت ماء الشباب كأنها * قصيب من الزمان ريان أخضر
هم كتموني سيرهم حين أزمعوا * وقالوا اتعدنا للروح وكمكروا
ومنه :

تمنى رجال ما أحوا وإنما * نمت أن أشكو اليك وتسمعا
أرى كل معشوقين يرى غيرها * قد استعدنا طول الهوى ونمتا
ومنه :

يكت عني لأصواع . من الحزن وأوجاع
ولم ي كل يوم عـ * كدم يحظى بي الساعي
أعيش الدهر إن عشت * قلب منك مـ تراع
وإن حل بي البـ * سيعاني لك الساعي

وقال الواثق بللسائه . أريد أن أصع لحا في شعر معاه أن الإنسان كائنا من كان
لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون في هذا شيئا فأنشدوه صرونا من الأشعار،
فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحف :

قلبي الى ما صرى داعي . كثير أنسقاقي وأوجاعي
كيف احتراي من عدوي ادا * كاب عدوي من أصلاي
أسلني للـ أشياء * لما سعى في عدا الساعي
لقا أبقي على كل ذا . يوشك أن يتعاني الباي
ومما غنى فيه من شعره :

أبي الدين أذا قوري مودتهم حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا

وقال إبراهيم بن العباس : ما رأيت كلاما محدثا أجزل في رقه ، ولا أصعب في سهولة ،
ولا أبلغ في إيجاز، من قول العباس بن الأحف :
تعالى نجدد دارس العهد بينا * كلاما على طول الحفاء مـ

وأشد إبراهيم بن العباس للأحفف

إن قال لم يفعل وإن سئل لم * يتئل وإن عتب لم يعتب
صت بعضياني ولو قال لي * لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكو رب ما حل بي * من صد هذا المذنب المغضب

ثم قال . هذا والله الكلام الحسن المعنى ، السهل المتورد ، القريب المتناول ، المليح
اللفظ ، العذب المستمع .

ومما غنى فيه من شعره .

أما من أهدى لي الأرقا مستريحاً سامي قلعا
لو بيت الساس كلهم * بسهادي بيص الحدقا
كان لي قلب أعيش به * فاصطلي بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتك * إما للعبد ما رزقا

وقال ابن المعتز . لو قيل ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس بن الأحنف :

قد سحبت الساس أذيال الطنوس سا * وفرق الساس فيا قولهم فرقا
فكادت قد رمى بالحب غيركم * وصادق ليس يذرى أنه صدقا

ومما تمثل به الفضل بن الربيع في أمر كان بينه وبين إحدى جواريه :

تمحل عظيم الدن من تحبه * وإن كنت مظلوماً قل أنا ظالم
فإياك إلا تعير الدن في الهوى . يفارقك من تهوى وأنتك راغم

أنشد محمد الموصلي قصيدته التي يقول فيها :

كل شيء أقوى عليه ولكن * ليس لي بالفراق منك يدا

بجعل يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي : أنت الفداء لمن ابتدأ هذا

المعنى فأحسن به حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتني من السرور ثياباً * وكسّنتني من المموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً * فتحت لي الى المنية باباً
عدّيتني بكل شيء سوى الصدّ * فدفّت كالصدود عدائاً

قال الرّياشي — وقد ذكر عنه العباس بن الأحف — : والله لو لم يقل من الشعر
إلا هذين البيتين لكفياً .

أُحرم مسك مما أقول وقد * نال به العاشقون من عَشَقُوا
صرتُ كأتى دُبالةً نُصبت * نُصِيء للباس وهي تحترقُ

ألف الرشيد العباس بن الأحف ، فلما خرج الى خراسان طال مقامه بها ، ثم خرج الى
أرمينية والعباس معه ، فاشتاق الى بغداد ، فعارصه في طريقه ، فأنشده .

قالوا خراسانُ أَقصى ما يُراد بنا * ثم القُفُولُ نقد جئنا خراساناً
ما أقدر الله أن يَدِي على شَحِيط * سكاك دِجْلَةٍ من سكاك حِيعاناً
مضى الذي كُنت أرجوه وأملُهُ * أما الذي كُنت أخشاه فقد كما
عين الزمان أصابتنا فلا نظرتُ * وعدّبتُ بصُوفِ الهجر ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس ، وأذنتُ لك حاصة ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وقال مُصمَّب الزيّري : العباس بن الأحف وعمر بن أبي ربيعة ما ابتدلا شعرهما
في رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أحبّاه ، فلزما فماً واحداً لو لزمه غيرهما ممن يكثران ثمارهما
لضعف فيه .

١٤ - ابن مناذر^(١)

كان يَحْوِي حَوْصَ رَيْدٍ فِي شِعْرِهِ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَقْدَمُهُ، وَقَدْ مَدَحَ آلَ بَرْمَكٍ
وَعِيَرَهُمْ . وَلَمَّا دُكِّنَتِ الْبَرَامِكَةُ وَأَلَّتِ الْوِزَارَةَ إِلَى عَدُوِّهِمُ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ أَصْحَحَ شِعْرَاءُ
الْبَرَامِكَةِ فِي حَظِيرِهِ، فَأَرَادَ أَسْمَاءُ مَادِيرُ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى الرَّشِيدِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ، وَأَغْنَمَ دَهَابَهُ إِلَى الْحِجَّ
وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَوْمَ التَّزْوِيَةِ بِقَصِيدِهِ، فَلَاحَ الْبَشْرُ فِي وَجْهِ الرَّشِيدِ، فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
لِلرَّشِيدِ هَذَا شَاعِرُ الْبَرَامِكَةِ ' فَعَبَسَ الرَّشِيدُ، فَقَالَ الْفَضْلُ : مُرْهُ أَنْ يُشَدِّكَ قَوْلَهُ
فِيهِمْ . أَنَا مَا سِوَ الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ، فَأَمْرُهُ، فَاغْتَدِرْ، فَالْحُ عَلَيْهِ، فَأَنشَدَهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ
الَّتِي يُطَارِي بِهَا الْبَرَامِكَةَ :

أَنَا مَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ : قِيَا طَيْبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنَظَرٍ
إِذَا وَرَدُوا بِطَحَاءِ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ : بَجِيٍّ وَالْفَضْلُ بْنُ نَحْيٍ وَجَعَفَرٍ
فَطُلُمُ نَعْدَادٍ وَيَحْلُولُ الدُّخَى * مَكَّةَ مَا حَجَّجُوا ثَلَاثَةَ أَفْئَرٍ
وَمَا صَلَحَتْ إِلَّا لِحُودٍ أَكْفَهُمْ وَأَرْحَلُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادٍ مِنْبَرٍ
إِذَا رَاصَ بَجِيٍّ الْأَمْرَ دَلَّتْ صِعَابُهُ * وَحَسْنُكَ مِنْ رَاجٍ لَهُ وَمُدَبَّرٍ
تَرَى النَّاسَ إِحْلَالًا لَهُ وَكَأَنَّهُمْ * عَرَايِقُ مَاءٍ تَحْتَ نَازٍ مُصْرِصِرٍ^(٢)
^(٣)

وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا أَتَعَ ذَلِكَ قَوْلَهُ . « كَانُوا أَوْلِيَائِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا مَدَحْتَهُمْ » فَأَمَرَ
الرَّشِيدُ أَنْ يُلْطَمَ، فَلَطَمُوهُ، وَأَمَرَ أَنْ يُسْحَبَ، فَسَحَبُوهُ وَخَرَجَ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ؛ فَلَقِيَهُ

(١) هو محمد بن ماذر، مولود لى يربوع، ويكنى أبا جعفر. شاعر فصيح، مقدم في العلم باللغة وإمام
فيها. حتى أحد عنه أكار أهلها. وكان في أول أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك، فبهذا الناس وتهتك وحلج وقذف
أعراس أهل البصرة حتى هي عنها إلى الحجار، مات هناك سنة ١٩٨ هـ. وقد أحياه في الأطلال (ح ١٧ ص ٩)
والشعر والشعراء (ص ٥٥٣). (٢) العرائق جمع عروق، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض
يشبه الكوكب. (٣) مصرع صانع شدة.

أبو بواس فدفع اليه صُرَّةً فيها ثلثمائة دينار ، وقال له : استعن بهذه وأعدني . ولم يعد
أبنُ مناذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن علي كذا عند باب سُفْيَانِ بْنِ عُيَيْنَةَ وقد هَرَبَ ما وعنده الحسن بن علي
التَّخَنُّعَ ورحلٌ من أصحاب الرشيد ، فغلا بهم وليس بأذن لنا ، فجاء أبنُ مناذر فقرأ من
الباب ثم رفع صوته فقال :

بِعَمْرٍو وَالزُّهْرَى وَالسَّالَفِ الْأَلَى . بهم شَتَّتَ رَحْلَكَ عَسَدَ الْمُقَادِمِ
جَعَلَتْ طَوَالَ الدَّهْرِ يَوْمًا لَصَالِحٍ * وَيَوْمًا لَصَبَّاحٍ وَيَوْمًا لِحَاتِمِ
وَاللَّحْسِ التَّخَنُّعَ يَوْمًا وَدُوهُمِ * حَصَصَتْ حَسْبًا دُونَ أَهْلِ الْمَوَاسِمِ
بَطَرْتُ وَطَالَ الْفِكْرُ مَيْكَ فَلَمْ أَجِدْ * رَحَاكَ جَرَّتْ إِلَّا لِأَخِيهِ الدَّرَاهِمِ

نخرج سميان وفي يده عصا وصاح : خذوا العاسق ؛ فهرب أبن مناذر منه وأذن لنا فدخلنا .
كان الرشيد قد وصل أبن مناذر مراتٍ صلاتٍ سنيةً ، فلما مات الرشيد رثاه بقوله :

مَنْ كَانَ يَتَكَبَّرُ لِلْعُلَا * مَلِكًا وَلِلْهَيْمِ الشَّرِيفِ
فَلْيَكِ هَارُوتَ الْحَلِي . غَفَةً لِلْخَلِيفَةِ لِلْخَلِيفَةِ

قال علي بن محمد الموقلي : رأيتُ أبن مناذر في الحَجِّ سَهْ تَمَانٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةً وَهُوَ قَدْ كُفَّ
بَصْرُهُ فَقَوْدُهُ جُورِيَّةٌ حُرَّةٌ وَهُوَ واقف يشتري ماءَ قِرْبَةٍ ، ورأيتُهُ وَرَحَّ الثَّوْبَ وَالْبَدَنَ ، فلما
صِرا إلى البصرة أُنْتَا وَفَاتَهُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ .

كان يحيى بن زِيَادٍ يُرْمَى بِالزُّنْدَقَةِ ، وكان من أطرف الساس وأنظفهم ، فكان يقال :
أطرف من الزُّنْدِيقِ ، وكان الحارثي ، واسمه محمد بن زياد ، يُظْهِرُ الزُّنْدَقَةَ تَعَظُّرًا ، فقال فيه
أبن مناذر :

يَا أَبْنَ زِيَادٍ يَا أَبَا جَعْفَرٍ * أَظْهَرْتَ دِيبًا غَيْرَ مَا تُخْفِي
مُرْتَدُّ الظَّاهِرِ بِاللَّفْظِ فِي * بَاطِنِ إِسْلَامٍ فَتَى عَفٍ
لَسْتُ زَيْنَدِيقِي وَلَكِنَّمَا * أَرَدْتُ أَنْ تُؤَسِّمَ بِالظُّرْفِ

ومن قوله يرى سميان بن عيينة :

يُحْنِي مِنَ الْحِكْمَةِ نُوَارَهَا * مَا تَشْتَهَى الْأَنْفُسُ أَلْوَانَا
يَا وَاحِدَ الْأُمَمَةِ فِي عِلْمِهِ * لَقِيتَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ غُفْرَانَا
رَاحُوا بِسَمِيَانَ عَلَى عَشِيهِ * وَالْعِلْمُ مَكْسُورٌ أَكْفَانَا
إِنَّ الدِّيَّ عُودِيرَ الْمُحْنَى * هَدَى الْإِسْلَامَ أَرْكَانَا
لَا يُعِيدُنَاكَ اللَّهُ مِنْ مَيِّتٍ * وَرَثَا عِلْمًا وَأَحْزَانَا

حطب أبو أمية امرأة من ثقيف ورد عنها، وتصدى للقاضي أن يضمه مالا من أموال
اليتامى فلم يحبه الى ذلك ولم يثق به، فقال فيه أس مبادر :

أَبَا أُمَيَّةَ لَا تَعْصَبْ عَلَيَّ * جَرَاءُ مَا كَانَ بَيْنَا الْغَضَبُ
إِنْ كَانَ رَدَكَ قَوْمٌ عَنْ قَاتِهِمْ * هِيَ كَثِيرٌ مِنَ الْخَطَابِ قَدْ رَعِبُوا
قَالُوا عَلَيْكَ دِيونٌ مَا تَقُومُ بِهَا * فِي كُلِّ عَامٍ بِهَا تُسْتَحَدُّ الْكُتُبُ
وَقَدْ تَقَحَّمْ مِنْ نَحْسِينَ عَائِيهَا * مَعَ أَنَّهُ ذُو عِيَالٍ بَعْدُ مَا أَنْشَعَبُوا
وَفِي الَّذِي فَعَلَ الْقَاضِي فَلَا تَحِدَنَّ * فَلَيْسَ فِي تِلْكَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبُ
أَرَدْتَ أَمْوَالَ إِيْتَامٍ تُصَمِّمُهَا * وَمَا يُصَمُّ إِلَّا مَنْ لَهُ نَسَبُ

قال له جعفر بن يحيى قُلْ فِي وَفَى الرِّشِيدُ شِعْرًا تَصِفُ فِيهِ الْأُلْفَةَ بَيْدَا، فقال :
قَدْ تُقَطِّعُ الرِّجْمَ الْقَرِيبُ وَتُكْفِرُ الدُّ * نَعْمَى وَلَا كَتَقَارِبِ الْقَائِمِينَ
يُدْنِي الْهَوَى هَذَا وَيُدْنِي دَا الْهَوَى * فَإِذَا هُمَا نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْنِ

١٥ - صالح بن عبد القدوس^(١)

كان متهما بالزندقة، فبلغ الى المهدي حبرُ زندقته، فبعث اليه يستقيمه من دِمْشَق، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن في السن، فلما جاء بغداد ومثل بين يدي المهدي قال له المهدي: أَلَسْتَ القائل:

والشيخ لَا يَتْرُكُ أَحْلَاقَهُ * حتَّى يُوَارَى فِي تَرَى رَمْسِهِ

قال: بلى يا أمير المؤمنين! قال: وأنت لَا تترك أخلاقك حتَّى تموت، فَأَمَرَ بِهِ، فُقِّتِلَ وَصُلِبَ عَلَى جَسَرٍ عِدَادُ سَنَةِ ١٦٧ هـ. وأكثر شعره في الحِكَمِ الفلسفية.

ومن أحسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت، وهو يقول فيها:

لَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ حَاهِلٍ * مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ
والشيخ لَا يَتْرُكُ أَحْلَاقَهُ * حتَّى يُوَارَى فِي تَرَى رَمْسِهِ
إِذَا أَرْغَوَى عَادَ إِلَى جِهْلِهِ * كَذَى الصَّاءُ عَادَ إِلَى نَكْسِهِ
وَإِنْ مِنْ أَدَبْتِهِ فِي الصَّبَا * كَالْمُودِ يُسْقَى الْمَاءُ فِي عَرْسِهِ
حتَّى تَرَاهُ مُورِقًا بِاصِرًا * بعد الدى أَبْصَرْتَ مِنْ يُاسِهِ

وقوله:

لَا يُعِجِبُنِي مَنْ يَصُونُ ثِيَابَهُ * حَدَرَ الْقُبَارَ وَعَرَّضَهُ مَبْدُولٍ
ولربما أَفْتَقَرَ الْفَتَى فِرَآئِتَهُ * دَنَسَ الثِّيَابَ وَعَرَّصَهُ مَفْسُولٍ

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس، من حكام الشعراء، متهم بالزندقة، قوى اللمعة،

له منزلة سامية عند أهل مذهبه. نشأ في الصرة، وكان يقص على الناس ويعطهم. توفى سنة ١٦٧ هـ. وتحد

أكثر أخباره في عوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدميري (ج ١ ص ٢٦).

وكان فيه ميل الى العزلة والانعطاع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن ذلك قوله :

أَنِسْتُ نَوْحَدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي * فَتَمَّ الْعِزُّ لِي وَتَمَّ السُّرُورُ
وَأَدْبَتِي الرِّمَابُ فَلَيْتَ أَنِّي * هُجِرْتُ فَلَا أَزَارُ وَلَا أَزُورُ
وَلَسْتُ نَقَائِلَ مَا دُمْتُ حَيًّا * أَقَامَ الْحُسْدُ أَمْ تَزَلَّ الْأُمِيرُ

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وحاوِزه الى ما تَسْتَطِيعُ

وله قصيدة حكيمة أخلاقية بديعة، وهي التي يقول فيها :

الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالرِّمَابُ يُفَرِّقُ * وَيُظَلُّ يَرْقَعُ وَالْخَطُوبُ تُمَزِّقُ
وَلَأَبْ يُعَادِي عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ * مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَمْحَقُ
فَارْمَا سَفْسَكَ أَنْ تَصَادِقَ أَهْمًا * إِنْ الصَّدِيقُ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ
وَزِي الْكَلَامِ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا * يُبْدِي عَقُولَ ذَوِي الْعُقُولِ الْمُنْطِقُ
وَمِنْ الرِّجَالِ إِذَا آسَتُوا أَحْلَاقَهُمْ * مِنْ يُسْتَشَارُ إِذَا أَسْتَشِيرَ فَيُطْرِقُ
حَتَّى يَحُلَّ بِكُلِّ وَادٍ قَلْبُهُ * فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ يَنْطِقُ
لَا أُلْفَيْتُكَ ثَاوِيًا فِي عَرَبَةٍ * إِنْ الْغَرِيبُ بِكُلِّ سَهْمٍ يُرْشَقُ

وله منها :

مَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلٌ * قَدْ مَاتَ مِنْ عَطِيشٍ وَآخِرَ عَرَقٍ
وَالنَّاسُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ وَإِنَّمَا * بِالْجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرْزَقُ
لَوْ يُرْزَقُونَ النَّاسُ حَسَبَ عَقُولِهِمْ * أَلَيْتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى يَتَّصِدُقُ
لِكَمِّ فَضْلِ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ * هَذَا عَلَيْهِ مُوسَعٌ وَمُضْبِقُ
وَإِذَا الْجَاهِزَةُ وَالْعَرُوسُ تَلَاقِيَا * وَرَأَيْتَ دَمْعَ نَوَائِحٍ يَتَرَقَّرُ
سَكَتَ الَّذِي يَبِيعُ الْعَرُوسَ مُبَهَّتًا * وَرَأَيْتَ مَنْ تَبِعَ الْجَاهِزَةَ يَنْطِقُ
بَقِيَ الدِّينَ إِذَا يَقُولُوا يَكْذِبُوا * وَمَهَى الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزيبية :

وَأَبْدَأْ عَدُوَّكَ بِالتَّحِيَّةِ وَلْتَكُنْ * مَهْ زَمَانِكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ
وَأَحْذَرُهُ إِنْ لَاقَيْتَهُ مَتَبَسِّمًا * فَالْلَيْثُ يَنْدُو نَاهُ إِذَا يَعْصَبُ
إِنْ الْعَدُوَّ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ * فَالْحِفْدُ بَاقٍ فِي الصَّدُورِ مُغَيَّبُ
وَإِذَا الصَّدِيقُ لَقِيْتَهُ مُتَمَلِّقًا * فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُحْتَسَبُ
لَا خَيْرَ فِي وُدِّ أَمْرِي مُتَمَلِّقٍ * حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ مَكَ وَائِقُ * وَإِذَا تَوَارَى عَكَ فَهُوَ الْعَقَرُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً * وَيُرْوِعُ مَسْكَكَ كَمَا يُرْوِعُ الثَّمَلُ
وَصَلِّ الْكَرَامَ وَإِنْ رَمَوْكَ بِمَحْفُورِهِ * فَالْصَّفْحُ عَنْهُمْ وَالتَّحَاوُزُ أَضْوَابُ
وَاحْتَرِ قَرِيْبَكَ وَاصْطِمْهِ تَعَانُفًا * إِنْ الْقَرِيْبَ إِلَى الْمُقَارِنِ يُنْسَبُ
إِنْ الْغَنَى مِنَ الرِّحَالِ مُكْرَمُ * وَتَرَاهُ يُرَبِّحِي مَا لَدَيْهِ وَيُرْهِفُ
وَيُبْشِّرُ بِالتَّرْحِيْبِ عَدُوَّ قُدُومِهِ * وَبُقَامُ عَدُوِّهِ سَلَامُهُ وَيُقَرَّبُ
وَالْفَقْرُ شَيْنٌ لِلرِّحَالِ فَإِنَّهُ * حَقًّا يَهُونُ بِهِ الشَّرِيفُ الْإِنْسَبُ
وَأَخْفِضْ جَوَاحِرَكَ لِلْأَقَارِبِ كُلِّهِمْ * بِتَدْلِيلٍ وَأَسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَدَسُوا
وَدَعْ الْكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا * إِنْ الْكَذُوبَ يَشِينُ حُرًّا يَصْحَبُ
وَرَيْنَ الْكَلَامِ إِذَا تَطَقَّتْ وَلَا تَكِي * ثَرْنَارَةً فِي كُلِّ مَا تَخْطُبُ
وَأَحْفَظْ لِسَانَكَ وَأَحْتَرِزْ مِنْ لَعَطِهِ * فَالْمَرْءُ يَنْسَلِمُ بِاللِّسَانِ وَيَنْعَطُ
وَالسَّرُّ فَاعْتَمِدْهُ وَلَا تَتَنَطَّقْ بِهِ * إِنْ الزُّرْحَانَةَ كَسَرَهَا لَا يُشْعَفُ
وَكَذَلِكَ سَرُّ الْمَرْءِ إِنْ لَمْ يَطْوِهِ * نَشْرَتُهُ أَلْسِنَةً تَرِيدُ وَتَكْذِبُ
لَا تُخْرِصَنَّ فَالْخِرَاصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ * فِي الرِّزْقِ بَلْ يُشْقِي الْحَرِيصَ وَيُنْعِبُ

وَأَرْحَ الْأَمَانَةَ وَالْخِيَانَةَ فَاجْتَنِبْ * وَأَعْدِلْ وَلَا تَظْلِمَ يَطْلُبُ لَكَ مَكْسَبٌ
وإذا أصابك نكمة فاصبر لها * مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسْلِمًا لَا يُنْكَبُ
وإذا رُميت من الزَّمانِ رِيْبِهِ * أَوْ مَالِكَ الْأَمْرِ الْأَشَقُّ الْأَضْعَبُ
فاضرعْ لربك إنه أدنى لمن * يدعوه من جبل الوريد وأقرب
وأحذر مصاحبة اللئيم فإنه * يُعْدِي كَمَا يُعْدِي الصَّحِيحُ الْأَخْرَبُ
وأحذر من المظلوم سَهْمًا صَانِبًا * وَأَعْلَمْ أَنَّهُ دُعَاؤُهُ لَا يُجَجَّبُ
ولقد نصحتك إن قِلْتَ نصيحتي * وَالنَّصِيحُ أَعْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

١٦ - سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ^(١)

كان شاعراً مطبوعاً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمذكر، وكان مشغولاً بالغلمان والشراب، ثم تأسك وتاب وحنَّ راجلاً على قدميه ومات على توبة وإقلاع ومذهب جميل، ومات وأبو العتاهية حيٌّ وكان صديقه فرثاه .

أخبر علي بن سليمان الأحمش عن محمد بن مزيد قال : حَدَّثْتُ عَنْ مَعْصُ أَصْحَابِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي الْعَتَاهِيَةِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ، فَسَارَهُ فِي شَيْءٍ، فَكَبَى أَبُو الْعَتَاهِيَةِ، فَقُلْنَا لَهُ : مَا قَالَ لَكَ هَذَا الرَّجُلُ يَا أبا إِسْحَاقَ فَأَنْكَاكِ ؟ فَقَالَ - وَهُوَ يَحْدِثُنَا لَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ شعراً - :

قال لي ماتَ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ ، رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهَبٍ
يا أبا عِثَانَ أَكُنَيْتَ عَيْبِي * يا أبا عِثَانَ أَوْحَعْتَ قَلْبِي

قال : فعجبنا من طبعه ، وإنه يحدث فكان حديثه شعراً موزوناً .

وكان سعيد بن وهب الشاعرُ البصريُّ مولَى بنى سامة قد تآبَ وتزهد وترك قول الشعر، وكان له عشرة من البنين وعشر من البنات، فكان إذا وحَدَّ شيئاً من شعره نحرقه وأحرقه ، وكان أمراً صدق، كثير الصلاة، يزكي في كل سنة عن جميع ما عده، حتى إنه ليزكي عن قصبة كانت على أمراته .

وكان سعيد بن وهب يتعشق غلاماً يتشطر يقال له سعيد، فبلغه أنه توعد أنه يبحرجه، فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عِثَانَ مولَى بنى سامة بن لؤي بن نصر، مولده ومنشؤه بالعصرة ثم صار إلى بغداد فأقام بها . وكانت الكوفة صناعة ، تصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدم عدم . وتحد أحاده في الأغانى (ح ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَدِيرِي مِنْ سَيِّئٍ * مَنْ عَدِيرِي مِنْ سَعِيدٍ
أَنَا بِالْفَحْمِ أَجَاهُ * وَيَحَانِي بِالْحَبِيدِ^(١)

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كتّاب السلطان في أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ * فَحُصِّنَ مِنْ تَطَّارَةِ الدُّنْيَا
زَمُّقُهَا مِنْ كَتَبِ خَسَرَةٍ * كَأَنَّا لَقَطٌ بِلا مَعْنَى
يَعْلُوهَا السُّوسُ وَأَيَّامُهَا * تَدَهُّوْهُ فِي الْأَرْدَلِ وَالْأَذْنَى

وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيد بن وهب لي صديقا، وكان له ابن يكي أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه في كل حال، لشدة شغفه به ورقته عليه، مات وله عشر سنين، بخرع عليه جزا شديدا وأقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوما لأعاته على ذلك وأستعطفه، حين رأى ذلك في وجهي فاصت دموعه، ثم أتعب حتى رحمته، وأشدني :

عَيْنِ حُودَى عَلَى أَبِي الْخَطَّابِ . إِذَا تَوَلَّى عَصَا مَاءِ الشَّابِ
لَمْ يُقَارَبْ دَسًا وَلَمْ يَبْلُغِ الْحَدَّ . تَتَ مَزْجِي مَطْمَرِ الْأَنْوَابِ
فَقَدَّتْهُ عَيْبِي إِذَا مَا سَعَى أَتَى * رَأَيْتُهُ مِنْ حِمَاةِ الْأَثَرِ
إِنْ عَدَا مُوَحِّشًا لِدَارِي فَقَدِ اصْصَحَّ . سَحَّ أَنْسُ الثَّرَى وَرَبَّ التُّرَابِ
أَحْمَدُ اللَّهِ يَا حَبِيبِي فَإِنِّي . لَكَ رَاجٍ مِنْهُ عَظَمِ الثَّوَابِ

ثم ناشدني ألا إذا كرهت شيئا مما حدثت إليه، فقممت ولم أحاطه بحرف .

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمرهم بالحوادث حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق؛ فقال له : أيها الوزير، إنني ما كنت أستعديت لهذه الحال، ولا تقدمت لها عدى مُقدِّمة فأعيرتها،

(١) وحاه يوحنا بن عمار : صر به باليد أو بالسكين . وجمعت الهدرة ما ها للشعر .

ولكن قد حصرني بيتان أرجو أن يوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتهما، فربّ قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِالْأَعَالِي * فَسَلَا عَنْ مَدِيحِنَا الْمَقَالَ
أَمْرُوْنِي بِمَدْحِهِ قُلْتُ كَلَّا * كَرَّرَ الْفَصْلُ عَنْ مَدِيحِ الرِّجَالِ

قال : فطرب الفصل وقال له : أحسنت والله وأحدثت، ولئن قلّ القول ونُزِر، لقد أتسع المعنى وكثر، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كلّ من أشده مديحا يومئذ، وقال : لا حير فيما يحيى بعد بيتك، وقام من المجلس، ونرح الباس يومئذ باليتين لا يتأشدون سواهما .

وحدث الحرثمي قال . كان الفصل بن يحيى يافس أخاه جعفرا ويافسه جعفر، وكان أنس بن أبي شيح حاضبا بجعفر، يادمه ويأس به في حلّواته، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفصل، فدخلت يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدثه وأنشده وتادّره، وحكى عن المتأدّرين وأتى بكلّ ما يستر ويُطرب ويُضحك، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك، فلما نرح سعيد من عنده تجاهلت عليه وقلت له : من هذا الرجل الكثير الهديان ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا، قال : هذا سعيد بن وهب صديق أحمى أوى العباس وحُصّابه وعشيقه، قلت : وأى شيء رأى فيه ؟ قال : لا شيء والله إلا القَدَر والرَّد والعَناة، ثم دخلت بعد ذلك إلى الفصل، ودخل أنس بن أبي شيح فحدثت وبذرت وحكى عن المُضحكين وأتى بكل طريفه، فكانت قصّة الفصل معه قصّة جعفر مع سعيد، فقلت له بعد أن نرح من حضرته : من هذا المبرّم ؟ قال : أو لا تعرفه ؟ قلت : لا، قال : هذا أنس بن أبي شيح صديق أحمى الفصل وعشيقه وخاصته، قلت : وأى شيء أعجبه فيه ؟ قال : لأدرى والله إلا القَدَر والرَّد وسوء الاختبار؛ قال : وأنا والله أعرف بسعيد وأنس من الباس جميعا، ولكنني تجاهلت عليهما وساعدتهما على هواهما .

وحدث عمرو بن بانة قال : كان في حوارى رجل من البرامكة، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حسناء، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني، فتأتى بكل

مُسْتَحْسِنٍ مِنَ الْجَوَابِ ، فَدْخَلَ إِلَيْهَا سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ يَوْمًا وَحَلَسَ إِلَيْهَا لِحَادِثِهَا طَوِيلًا
ثُمَّ قَالَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ :

حَاجِيَّتُكَ يَا حَسَنًا * ؤِى حِنْسٍ مِنَ الشَّعْرِ
وَفِيهَا طُكُولُهُ شَرٌّ * وَقَدْ بُوفَى عَلَى الشَّرِّ
لَهُ وَرَأْسُهُ شَقٌّ * طُكُوفُ النَّدَى يَجْرَى
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَجْرِ * لَدَى رَّ وَلَا يَجْرِ
وَإِنْ لُلَّ أَتَى النَّعْ * حَبِّ الْعَاجِبِ وَالسَّخْرِ
أَجْبِي لَمْ أُرِدْ مُثَنَّا - وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالْوَثْرِ
وَلَكِنْ صُغْتُ أَيْتَانَا * لَهَا حَظٌّ مِنَ الزَّجْرِ

قال : معصب مولاهما وتعبّر لونه وقال : أُنْفَحِشْ عَلَى حَارِجِي تَحَاطَبْهَا بِالْخَنَى ؟ فقالت
له : حَقَّصْ عَلَيْكَ ، فَمَا ذَهَبَ إِلَى مَا طَنَنْتَ وَإِنَّمَا يَعْنِي الْقَلَمُ ، فَسَرَى عَنْهُ ، وَصَحَّحَ سَعِيدُ
وَقَالَ : هِيَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِمَا سَمِعَتْ .

١٧ - الحسن بن وهب

حدث ميمون بن هارون : قال : كما عد الحسن بن وهب فقال لبَّان : عَيْبِي :
 أَنَاذِنُونِي لَصَبٍّ فِي زِيَارَتِكُمْ * فَعَدَّكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
 لَا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ * عَفَّ الصَّمِيرُ وَلَكِنْ فَاسَقَى الْبُظْرُ
 قَالَ فَضَحِكْتُ ، ثُمَّ قَالَتْ : فَأَيَّ حَيْرِيهِ إِنْ كَانَ كَذَا أَوْ أَيْ مَعْنَى * نَحْلِلُ الْحَسْنَ مِنْ
 بَادِرَتِهَا عَلَيْهِ ، وَنَعْبِجُهَا مِنْ حِدَّةِ جَوَابِهَا وَطُطَّتْهَا .

وحدث محمد بن عيسى قال : جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن
 ابن وهب ، وعنده بان جارية محمد بن حماد ، وهي نائمة سكرى وهو يبكي عندها ، فقال له :
 مَالِكٌ ؟ قَالَ : قَدْ كَسْتُ نَائِمًا بِلَاجَاءِ تِي فَأُبْهَيْتِي وَقَالَتْ : احْلِسْ حَتَّى تَشْرَبَ بِحُلُسْتُ ،
 فَوَاللَّهِ مَا عُنْتُ عَشْرَةَ أَصْوَاتٍ حَتَّى نَامْتُ ، وَمَا شَرْتُ إِلَّا قَلِيلًا ، فَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ أَشْعَرِ
 النَّاسِ وَأُظَرَفَهُمُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْفَفِ :

أَبْكَى الَّذِينَ أَذْأَقُونِي مَوَدَّتَهُمْ * حَتَّى إِذَا أَقْطَرُوا لِلْهَوَى رَقْدُوا
 فَأَمَا أَلْكَى وَأَنْشُدْ هَذَا الْبَيْتَ .

وحدث محمد بن موسى بن حماد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال
 لَهُ : ارْكَبْ وَأَجِئْكَ عَشِيًّا فَلَا تَنْتَظِرْنِي بِالْغَدَاةِ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعَ الْحَسَنُ فِي شَرِّهِ فَسَكِرَ
 وَنَامَ ، وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ فَرَأَاهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَدَعَا بِدَوَاةٍ وَكَتَبَ :

رُحْنَا إِلَيْكَ وَقَدْ رَاحَتْ بِكَ الرَّاحُ * وَأَسْرَعَتْ فِيكَ أَوْتَارُ وَأَفْرَاحُ

وحدث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو
 مخمور فقال له :

عَيْنَاكَ قَدْ حَكَّمَا مَيْدَ * تَكَ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ كَانَا
 وَلَرْبُّ عَيْنٍ قَدْ أَرَتْ * لَكَ مَيِّتَ صَاحِبَهَا عَيْنَانَا

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتاً وطالها بمنثها ، فكتب إليه أربعة أبيات وطالها
أربعين بيتاً . وأبيات إبراهيم :

أبا علي حيرُ قولك ما * حصلت أنعمه ومُختصره
ما عدنا في البيع من عبي * للاستقل بواحد عشره
أما أهل ذلك غيرُ محتشم * أرضى القديم وأقننى أثره
ها مح وقيامك أربعة * والأربعون لديك مستظه

وقال عبيد الله بن سليمان : لعمري ما في الكتاب أشعر من أبي إسحاق وأبي علي
(بني عمه الحسن بن وهب) .

حدث علي بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن
يحيى المكي ، : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكي مملوكاً كم كان يساوى ؟
فقال : أحبرك عن ذلك ، انصرفت ليلةً من دار الوائق ، فاجترتُ بدار الحسن بن وهب
فدخلتُ إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب :
وكم يساوى أحمد لو كان مملوكاً ؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنى
صوتاً ، فقال لي الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أصعفها . قال : ثم غنى صوتاً آخر ،
فقلت للحسن : يا أبا علي أضعفها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غني :

لولا الحياءُ وأد السير من حُلقي * إذا قعدتُ اليك الدهر لم أقيم
أليس عندك سُكَّرٌ لتي جعلت * ما أبيض من قادمات الرأس كالحمم

فغناه أحمد بن يحيى المكي فأحس فيه كل الإحسان ، فلما قُتُّ للانصراف قلت
للحسن : يا أبا علي ، أصعب الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذي أسمعُك تقولانه ولستُ
أدرى ما معناه ؟ قال نحن نبيدك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدري .

وحدث محمد بن موسى قال : كان أبو تمام يعشق غلاماً نحريراً للحسن بن وهب ،
وكان الحسن يتعشق غلاماً رومياً لأبي تمام ، فرآه أبو تمام يوماً يعبث بغلامه ، فقال له :

والله لئن أعفت^(١) الى الروم لتركصن الى الخزر، فقال له الحسن: لو شئت حَكَمْنَا واحتكمت، فقال له أبو تمام: أما أشبهك بدادود عليه السلام وأشبه نفسي بخصمه؟ فقال الحسن: لو كان هذا مطوماً حَفَنَاهُ، فأما وهو متثورٌ فلا، لأنه عارض لا حقيقة له؛ فقال أبو تمام:

أما على نصرف الدهر والعير * والمحوادث والأيام فاعير^(٢)
أذكرتني أمر داود وكست مني * مصرف القلب في الأهواء والفكر
أعدك الشمس لم يحفظ المعيب بها * وأنت مضطرب الأحشاء للقمير
إن أنت لم ترك السير الحثيث الى * جادير الروم أعقبا الى انخرير
إن القُطوب له مني محل هوى * محل مني محل السمع والبصر
ورب أمتع مه حانبا وجمي * أمسى وتكته مني على خطير
حردت فيه حدود العزم فأنكشفت * عنه عيابه عن بجره هدير
سحان من سحنه كل حارحة * ما فيك من طمحان العين بالنظر
أنت المقيم ما تغدو رواحله * وفعله أبدا منه على سفر

وحدث وهب بن سعيد قال: جاء دُعيل الى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام، فقال له رجل في المجلس: يا أبا علي، أنت الذي تظعن على من يقول:
شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى * وتحت كما تحت وشائع من برد
وأبجدتم من بعد إتهام دارم * فيادمع أنجدني على ساكني نجد
فصاح دُعيل: أحسن والله! وجعل يردد:

* فيادمع أنجدني على ساكني نجد *

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لي شيئا من شعره لقلت: إنه أشعر الناس.

(١) أعفت: أمرعت. (٢) وردت هذه الأبيات في الأعاني رفيا بعض أهاط تحمل بالآداب،

فأنتهاها ها كما وردت في ديوان أبي تمام.

وحدث أحمد بن عبيد الله بن واضح قال : قلت لدعبل وقد عَرَضَ عليّ قصيدة له
يمدح بها الحسن بن وهب أولها :

أعدلتني ليس الهوى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أقول فيه هذا بعد قولك :

أين محل الحى يا حادى * حبر سقاك الرائح العادى

وبعد قولك :

قالت سلامة أين المأل قلت لها . المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

وبعد قولك :

على أيماننا يجرى الددى * وعلى أسافنا تجرى المهبج

والله إني أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصقع ، فقال : صدقت والله ، ولقد بهتني
وحدرتني ، ثم مرزقها .

وحدث محمد بن موسى قال : أنشدني الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا
يرثي بها سكرانة أم أبه عمر ، وحمل الحسن يتعجب من جودتها ويقول :

يقول لى الحلال لو زرت قدرها فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر
على حين لم أحدث فأجهل قدرها . ولم أبلغ الس التي معها الصبر

وحدث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ «سرم رأى» ، فتأخر الحسن بن وهب
عن محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ،
فكتب إليه الحسن يقول :

أوجب العذرى ترانخى اللقاء * ما توالى من هذه الأنواء
لست أدري ماذا أقول وأشكو * من سماء تعوقني عن سماء
غير أنى أدعو على تلك بالثك * لي وأدعو لهذه بالبقاء
فسلام الإله أهديه غصبا * لك منى ياسيد الوزراء

وحدث محمد بن موسى قال : اعتل الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياما كثيرة ، فلم يأته رسوله ، ولا تعرف حبه ، فكتب إليه الحسن قوله :

أيُّها الوزيرُ أيدك الله * وأبقاك لي نساء طويلا
أجيبلا تراه يا أكرمنا * س لكما أراه أيضا جيبلا
إني قد أفت عَشْرًا عيلا * ما تُرى مُرسلا إلى رسولا
إن يكن موحى التعمد في الص * حة من على مك طويلا
فهو أولى ياسيد الناس برأ * وافتقادا لمن يكون عيلا
فلماذا تركتني عرساة الظن * من الحاسدين جيبلا خيلا
الدين ما علمت سوى الشك * ير قريبا ليتي ودجيلا
أم ملال ما علمتك للفا * حب مثلي على الرمان ملولا
قد أتى الله بالشفاء ما أع * يرف مما أنكرت إلا قليلا
وأكلت الدراج وهو عدا * أملت عتي عليه أقولا
بعد ما كنت قد حملت من العدا * لمة عبثا على الطبايع نقيلا
ولعلني قدمت قبلك آتيا * لك عدا إن وجدت فيه سبيلا

فأحابه محمد بن عبد الملك :

دفع الله عنك نائبة الدهر * ر وحاشاك أن تكون عيلا
أشهد الله ما علمت وما ذا * لك من العذر حائرا مقبولا
ولعمري أن لو علمت فلازم * نك حولا لكان عندى قليلا
إني أرثي وإن لم يكن ما * كان مما نقيمت إلا قليلا
أن أكون الذي إذا أصمرا الإخ * ملاص لم يتمس عليه كفيلا
ثم لا ينذل المودة حتى * يعمل الجهد دونها مبذولا
فاذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيدا من طبعه أن يقولوا

فاجعلنى لى الى التعلق بالعد * ر سبيلا إن لم أحد لى سبيلا

فقدىما ما حاد بالصفح والعد * ووما سآخ الخليل الخليلا

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر * ما دا تراه دهاه قلت أيلول

شهر تجد جبال الوصل فيه ها * عقد من الوصل إلا وهو محلول

وكان محمد قد ندبه لأن يحرح في أمر مهم فأحابه الحسن فقال :

إلى بجول أمرى أعليت رنته * لحظه منك تعظيم وتجميل

وأنت عذته في نيل هنته * وأنت في كل ما يهواه مأمول

ما عالى عك أيلول لذته * وطيبه ولعم الشهر أيلول

الليل لا قصر فيه ولا طول * والجو صاب وطهر الكأس مرحول

والعود مستطق عن كل معجبة * يصحى بها كل قلب وهو متبول

لكى توقع وشك البين عى بلد * تحله فوكاه العين محلول

مالى إذا شمرت بى عك مبتكرا * دهم البغال أو الموج المراسيل

إلا رعاياتك الاتى يعود بها * حد الحوادث عنى وهو مفلول

وكان الحسن بن وهب يسير محمدا على ^(١)مستأه، فعدل عن المستأه لئلا يصيب محمد

الطريق، فطن محمد أنه أشفق على نفسه من المسأه، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه،

وظن بنفسه أن يصيبها ما يصيبه، فقال له محمد :

فد رأياك إد تركت المستأه * ه وحاديتنى يسار الطريق

ولعمرى ما ذاك منك وقد جد بك الحد من فعال الشفيق

فقال له الحسن :

إن يكن خوفي الختوف أرانى * أن ترائى مشتها بالعتوق

فلقد جارت الظنون على المش * فحق والظن مؤلع بالشفيق

عَدْرَ السَّيِّدِ الْأَحْلَ وَقَدْ سَا * رَ عَلَى الْخُوفِ مِنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ
فَأَحْدَثَ الشَّمَالُ بُقْيَاً عَلَى السَّيِّدِ * إِذْ هَالَنِي سُلُوكُ الْمَضِيقِ
إِنْ عَسَى مَوْدَّةً لَكَ حَازَتْ * مَا حَوَى عَاشِقٌ مِنَ الْمَعشُوقِ
طَلُودٌ عِزٌّ خُصِمْتُ مِنْهُ بِرٍّ * صَارَ قَدْرِي بِهِ مَعَ الْعَيْشِوقِ
وَبِنَفْسِي وَإِخْشَاقِي وَأَبَى الْبَرِّ * وَعَمِّي وَأُسْرَفِي وَصَدِيقِي
مَنْ إِذَا مَا رَوَّعْتُ أَمَّنَ رَوْعِي * وَإِذَا مَا شَرِقتُ سَوَّعَ رَيْقِي

وحدث المبرد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم

وهو مع المعتصم ، فسقاه وكتب إليه :

لَمْ تَلَقْ مِثْلِي صَاحِبًا * أَنْدَى يَدًا وَأَعَمَّ حُودًا
يَسْقَى السَّيِّمَ نَقْفَرِهِ * لَمْ يَسْقِ فِيهَا الْمَاءُ عُودًا
صَعْرَاءَ صَافِيَّةَ كَأَنَّ * نَكْأِسَهَا دُرًّا تَصِيدَا
وَأَجُودُ حِينَ أَجُودُ لَا * حَصْرًا بَذَاكُ وَلَا بَلِيدَا
وَإِذَا اسْتَقَلَّ بِشَكْرَهَا * أَوْجِبْتُ بِالشُّكْرِ الْمَزِيدَا
خُذْهَا إِلَيْكَ كَأَنَّهَا * كُتِبَتْ رُحَاجَتُهَا عُقُودَا
وَأَحْمِلْ عَلَيْكَ بَانَ تَقْوَى * مَ بِشَكْرَهَا أَبَدًا عُهُودَا

ومن جيد شعره قوله :

بَابِي كَرِهْتُ الْبَارِمَاتِ أَوْ قَدْتُ * مَعَرَفْتُ مَا مَعَاكِ فِي إِسَاعَادَا
هِيَ ضَرَّةٌ لَكَ بِالْتِمَاعِ ضَيَائِهَا * وَبِخَسِّ صَوْرَتِهَا لَدَى إِيقَادَا
وَأَرَى صَدِيقَكَ بِالْقُلُوبِ صَبِيعَهَا * بِسَيَالِهَا وَأَرَاكِهَا وَعَرَادَا
شَرِّكَكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِخَسْنِهَا * وَصَيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفَسَادَا

ومات الحسن بن وهب فترثاه أخوه سليمان بن وهب :

مَصَى مَذْمُومٌ عِزُّ الْمَعَالَى وَأَصْبَحَتْ * لِأَلِي الْحِجَا وَالْقُيُوبِ لَيْسَ لَهَا نَظْمُ
وَأَضْحَى نَبِيُّ الْعَمَلِ بَعْدَ فِرَاقِهِ * إِذَا هُمْ بِالْإِفْصَاحِ مَنَظَّمُهُ كَنَظْمُ

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَفَعْتَهُ إِلَيْهَا ، أَوْ ثَرَوَةٍ أَقْدَرْتَهُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شَكَرَى لَكَ عَلَى مُهِجَةٍ
أَحْيَيْتَهَا ، وَحُشَاشَةٍ أُنْقِيَتْهَا ، وَرَمَقٍ أَمْسَكَتَ بِهِ ، وَقَمَتٍ بَيْنَ التَّلَفِ وَبَيْنِهِ ؛ فَلَكَ نِعْمَةٌ مِنْ
عَمِّ الدُّنْيَا حُدُّ تَنْتَهَى إِلَيْهِ ، وَمَدَى يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَعَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ ، خَلَا
هَذِهِ النِّعْمَةُ الَّتِي فَاقَتْ الْوَصْفَ ، وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قُدْرَهُ ، وَأَتَتْ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ ؛
رَدَدْتَ عَنَّا كَيْدَ الْعَدُوِّ ، وَأَرَعَمْتَ أَنْفَ الْحَسُودِ ، فَحَنَ نَلْجَأُ بِكَ إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ ، وَكَفَيْفٍ
كَرِيمٍ ، فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ ، وَأَيْنَ يَبْلُغُ جُهْدُهُ الْمُجْتَهِدُ ؟ - .

١٨ - أشجع السلى^(١)

كان متصلا بالرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله فى يحيى بن خالد وكان قد عاب :

قد غاب يحيى فما أرى أحدا * يأتس إلا بذكره الحسين
أوحشت الأرض حين فارقتها * من الأيادى العظام والميزن
لولا رحاء الإياب لأصدعت * قلوبا معه من الحزين

وقال أيضا :

رأيت بقاة الخير فى كل وجهة * لغيبة يحيى مستكين خضعا
فإن يمس من فى الرقين مؤملا - لأوبة يحيى نحوها متطلعا
فما وحه يحيى وحده عاب عنهم * ولكن يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا :

إذا عاب يحيى عن بلاد تعيرت * وثشرق إن يحتلها فطيط
وإن فعال الخيرى كل لدية * إذا لم يكن يحيى بها لعريب

وقال فيه حين أعتل :

لقد قرعت شكاة أبى على * قلوب معاشر كانت صحاحا
فإن يدفع لى الرحمن عه * صروف الدهر والأجل المتاحا

(١) هو أشجع بن عمرو بن ولد الشريد بن مطرود السلى، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامى عاصى، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأحاد فيه حتى عد من المحول، وكان الشعر يومئذ ربيعة وإيلى، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أشجع وقال الشعر احترت به قيس. وأقطع إلى الرامكة ومدحهم وأخص بجعفر فأصعده مدحه، فأعجب به جعفر ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله فى أيامه، وتقدم عبده، وله فيه المدايح المخفارة، والقصائد السائرة. ويحد أشعاره وأحاده فى الأغاني (ح ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء. (ص ٥٦٢).

فقد أَمسى صلاح أبي عليّ * لأهل الأرض كلّهم صلاحاً
إذا ما الموت أخطاه فَلَسنّا * نبأ الموت حيث عدا وراحاً

وهو الفائل ،

ليس للحاجات إلّا * من له وجهٌ وقّاحُ
ولسانٌ طرمدارٌ^(١) * وغدوٌ ورواحُ
إن أكنّ أظلاماً * جنةً عنى فاللّحاحُ
فعلى الجهد فيها * وعلى الله الجاحُ

ويستجاد له في مدح الرشيد .

وصلت يدك السيف يوم تقطعت * أيدى الرجال ورلت الأقدامُ
وعلى عدوك يا ابن عمّ محمد * رَصَدانِ صوؤ الصبح والإظلامُ
إِذا تَنَبَّه رُعتَه وإِذا غَمّا * سلّت عليه سيوفك الأحلامُ

ويُستجاد له أيضاً قوله :

غداً يتفرّق أهلُ الهوى * ويكثر ناكٍ ومسترجعُ
وتختلف الأرض بالطاعين * وجوهاً مُتشدّ ولا تُجمَعُ^(٢)
وتغنى الطلول ويبقى الهوى * ويصعّ ذو الشوق ما يصنعُ
وأنت تُبكي وهم جيرةٌ * فكيف يكون إذا ودّعوا
أَتطمع في العيش بعد الفراق * فبئس لعمرك ما تطمعُ

وفيها يقول في جعفر بن يحيى :

بديته مثلُ تدبيره * متى هجته فهو مستجمعُ
إذا همّ بالأمر لم يَنْته * مجوعٌ ولا شادنٌ أفرعُ
ففي كفه للنفي مطلبٌ * وللسر في صدره موضعُ

وكم قائل إذ رأى بهجتي * وما في فضوب الغنى أصنع
فدا في ظلال ندى جعفري * يحترىات الغنى أنفع
وما حلقه لأمرئى مطمع * ولا دونه لأمرئى مقنع

وهو القائل في محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنى فتى الجود إلى الجود * ما مثل من أبى بوجود
أنى فتى أصبح معروفا * منتشرا في البيض والسود
أنى فتى معى الثرى بعده * بقية الماء من العود
قد تلم الدهر به ثلثة * حابها ليس بمسود
أنى فتى كان ومعروفه * يملأ ما بين درى اليد
فأصحا بمد تساميهما * قد حما في بطن ملحود
الآن نخشى عثرات الندى * وعدوة البخل على الجود

ويستحاد له قوله في إبراهيم بن عثمان بن نيك وكان صاحب شرط الرشيد وكان

جارا عبوسا :

في سيف إبراهيم خوف واقع * بدوى التفاق وفيه أمن المسلم
وبيت يكلأ والعيون هواجع * مال المصيع ومهجة المستسلم
جعل الخطام أنف كل مخالف * حتى استقام له الذى لم يحطم
لا يصلح السلطان إلا شدة * تنفى البرى بفضل ديب المجرم
ومن الولاء مقع لا يتقى * والسيف تقطر شفراته من الدم
منعت مهابتك النفوس حديثها * بالأمر تكفه وإن لم تعلم

وقال لأخيه :

أبت غفلات قلبك أن تزوحا * وكأس لا تزالها صبوحا
كانك لا ترى حسا جميلا * بعيرك يا أخى إلا قبيحا

وَيُسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ فِي الرَّشِيدِ :

لَا زِلْتَ تَنْشُرُ أَعْيَادًا وَتَطْوِيهَا * تَمُصِي بِهَا لَكَ أَيَّامٌ وَتَشْنِيهَا
مُسْتَقْبَلًا جِدَّةَ الدُّنْيَا وَبَهْجَتَهَا * أَيَّامُهَا لَكَ نَظْمٌ فِي لِيَالِهَا
الْعِيدُ وَالْعِيدُ وَالْأَيَّامُ بَيْنَهُمَا * مَوْصُولَةٌ لَكَ لَا تَفْنَى وَتُفْنِيهَا
وَلَيْسَ لَكَ الصَّرُّ وَالْأَيَّامُ مُقْبَلَةٌ * إِلَيْكَ بِالْفَتْحِ مَعْقُودًا وَوَاصِيهَا

وَبِسْتِحَادِ لَهُ قَوْلُهُ يَمْدَحُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ صَبِيحٍ :

لَهُ نَظَرٌ لَا يَغْمُصُ الْأَمْرَ دُونَهُ * تَكَادُ سُتُورُ الْغَيْبِ عَنْهُ تَمَزَّقُ

وَهُوَ الْقَاتِلُ :

وَمَا تَرَكَ الْمُدَّاحُ فِيكَ مَقَالَةً * وَلَا قَالَ إِلَّا دُونَ مَا فِيكَ قَاتِلُ

وَقَالَ أَيْضًا :

مَصَى أَبْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقِ مَشْرِقُ * وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضِلُ كَمِهِ * عَلَى النَّاسِ حَتَّى غَيْبَتِهِ الصَّغَائِرُ^(١)
فَأَصْبَحَ فِي الْحَدِّ مِنَ الْأَرْضِ مَيْتًا * وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضْيِيقُ الصَّحَائِرِ^(٢)
سَأَلِيكَ مَا فَاصَتْ دُمُوعِي وَإِنْ تَقِصُ * فَحَسْبُكَ مَتَى مَا تُخَيِّرُ الْجَوَائِرِ^(٣)
وَمَا أَمَّا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ حَازَعُ * وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
كَأَنَّ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَسْوَكَ وَلَمْ يَقُمْ * عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ النَّوَائِحُ
لَنْ حَسَنْتَ فِيكَ الْمَرَاتِي وَذَكَرُهَا * لَقَدْ حَسَنْتَ مِنْ قَبْلِ فِيكَ الْمَدَائِحُ

(١) الصغائر : أحماد عراض تغطيها القصور . (٢) الصغائر : جمع صغير : وهي الأرض

الحداء المستوية الواسعة ذات حصى معمار . (٣) الجوائع : الصلوع .

١٩ - علي بن الجهم^(١)

كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبه عد المتوكل بحبسه المتوكل . فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى نخراسان . فقال أول ما حبس قصيدة كتب بها الى أخيه، أولها قوله :

توكلنا على رت السماء * وسلمنا لأساب القصاء
 ووطننا على غير الليالي * نفوسا ساحت بعد الإباء
 وأمنية الملوك محبات * وباب الله مبدول الفناء
 هي الأيام تكلمنا وناسو * وتأتى بالسعادة والشقاء
 وما يُنقِدي الثراء على غني * إذا ما كان محظورا لآلطاء
 حلبنا الدهر أشطره ومررت * بنا عقب الشدائد والرحاء
 وجربنا وجرب أولونا * فلا شيء أعز من آلوفاء
 ولم ندع الحياة لمس ضر * وبعض الصر يذهب بالحياة
 ولم نحزن على دنيا تولت * ولم نُسق الى حسن العزاء
 توق الناس يان أبي وأمي * فهم تتع المخافة والرحاء

(١) هو عربي قرشي شاعر مطبوع، وقد حبس المتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبعته لأنه كان كثير السعاية اليه سد مأنة فكان اذا حلا به عرفه أنهم يبيعونه ويثوبوه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فعاد الى نخراسان بعد أن حبسه مدة . وكان مدحه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة في هاء آل أبي طالب ودمهم والإعراء هم وهاء الشيعة كقوله :

وراعة تقول شعب رضوى * إمام، حاب ذلك من إمام

إمام من له عشرون ألفا * من الأتراك مشرة السهام

وله أقوال في الزل والعتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩ هـ . ومحمد أخاؤه في الأغانى (ج ٩ ص ١٠٤)

وان حلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يَغْرُزُكَ مِنْ وَعْدِ إِحَاءٍ * لأُمْرِ مَا غَدَا حَسَنَ الْإِخَاءِ
 أَلَمْ تَرْمُظْهِرِينَ عَلَى عَتَبَا * وَهَمَّ بِالْأُمِّسِ إِخْوَانُ الصَّمَاءِ
 فَلَمَّا أَنْ بُلِيتُ عَدَدُوا وَرَاحُوا * عَلَى أَشَدِّ أَسَابِ الْبَلَاءِ
 أَنْتَ أَحْطَارُهُمْ أَنْ يَصْرُونِي * بِمَالٍ أَوْ بِجَاهٍ أَوْ ثَرَاءِ
 وَخَافُوا أَنْ يَقَالَ لَهُمْ خَذَلْتُمْ * صَدِيقًا فَأَدْعُوا قَدَمَ الْجَهَاءِ
 تَنَظَّافَرَتِ الرِّوَافِصُ وَالنَّصَارَى * وَأَهْلُ الْإِعْتِرَالِ عَلَى هَيَّائِي
 وَعَاوُونِي وَمَا ذَجِي إِلَيْهِمْ * سِوَى عَلَمِي بِأَوْلَادِ الرِّثَاءِ
 وَبِحَيْثُ شَوْعٍ يَشْهَدُ لَأَمْرِ عَمْرُو * وَعَزُّونُ لِهَارُونَ الْكُرَّائِي
 وَمَا أَبْلَدُمَاءُ بِنْتُ أَبِي سَمِيرٍ * مُحَمَّدُ مَا آلُ لِسَانٍ عَلَى اخْتِنَاءِ
 إِذَا مَا عُدَّ مِثْلَكُمْ رَجَالًا * فَمَا فَصْلُ الرِّحَالِ عَلَى النِّسَاءِ
 عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ أَبْتَدَاءُ * وَعَوْدًا فِي الصَّاحِ فِي الْمَسَاءِ
 إِذَا سُمِّيْتُ لِسَاسٍ قَالُوا * أَوْلَيْتُكَ شَرًّا مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ
 أَمَا الْمُتَوَكِّلُ هَوَى وَرَأْيَا * وَمَا بِالْوَأْتِقَةِ مِنْ خَفَاءِ
 وَمَا حَبْسُ الْخَلِيفَةِ لِي عَارٍ * وَلَيْسَ بِمُؤَيِّسِي مَسْهِ التَّنَائِي

كان سبب حبس المتوكل على بن الجهم أن جماعة من الجلّساء سَعَوْا به إليه وقالوا له :
 إنه يَحِشُّ الخدم ويفزعهم ، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإضرار على أخلاقك ،
 ولم يزلوا به يُؤْغَرُونَ صدره عليه حتى حبسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاء ، فنفاه إلى خراسان
 وكتب بأن يُصَلَّبَ إذا ردها يومًا إلى الليل ، فلما وصل إلى الشاذليّ أخ حبسه طاهر بن
 عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فُصِّلَ يومًا إلى الليل مجزودًا ثم أُنْزِلَ ، فقال في ذلك :

لَمْ يَنْصَبُوا بِالشَّاذِلِيّ أَخِ عَشِيَّةَ الْإِثْنَيْنِ * مُسْبِقًا وَلَا مَجْهُولًا
 نَصَبُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مِلَّةَ قُلُوبِهِمْ * شَرًّا وَمِلَّةَ صُدُورِهِمْ تَجْهِيلًا
 مَا أَزْدَادَ إِلَّا رَفْعَةً سَكُوكِهِ * وَأَزْدَادَاتِ الْأَعْدَاءِ عَنْهُ نَكُوكًا

هل كان إلا الليث فارق غِيْلَه * فرأيتَه في محل محمولا
 لا يأمنُ الأعداءُ من شِدَاتِه * شِدَا يفصل هَامَهُم تفصيلا
 ما عابه أنْ بُز عنه لبأسه * فالسيفُ أهولُ ما يرى مسلولا
 إن يُتَنَدَّلْ فالبدْرُ لا يُزرى به * ان كان ليلةَ تَمَّه مبذولا
 أو يَسْلُبوه المَالُ يُحْزِنُ فَقْدَه * ضيفا ألمَ وطارقًا ونزيلا
 أو يحبسوه فليس يُحْبَسُ سائرٌ * من شعره يدعُ العزيزَ ذليلا
 إن المصائبُ ما تعدت دِينَه * يَمُّ وإن صَعِبَتْ عليه قليلا
 والله ليس يعايل عن أمره * وكفى بربك ماصراً ووكيلا
 ولتعلمن إذا القلوب تكشفت * عنها الأَكِنَّةُ من أضل سبيلا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علي بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إني عن خُرَاسَانَ راحلٌ * ومُسْتَحَبٌّ عنها ما أنا قائل
 أأصدقُ أم أكني عن الصدق أَيْمًا * تَحَيَّرْتُ أذنه اليك المحامل
 وسارت به الرِجَالُ وأصطمقت به * أَكُفُّ قِيَانٍ وَأَجْتَنَتِ القِبَالُ
 وإني معالي الحمد والذم عالمٌ * بما فيهما نامى الرميّة ناضل
 وحقاً أقولُ الصدقُ إني لمائلٌ * اليك وإن لم يحفظْ بالود مائلُ
 ألا حرمةٌ تُزَعَى ألا عقدُ ذِمّةٍ * بلحارٍ ألا فمِلُّ لقولٍ مُشَاكِلُ
 ألا منصفٌ إن لم يَجِدْ متفضلاً * علينا ألا قاضٍ من الناس عادِلُ
 فلا تقطعن غيظاً على أناملًا * فقبلك ما عُصَّتْ على الأمانِلُ
 أطاهر إن مُحْسِنٌ فإني محسنٌ * إليك وإن تجعَلْ فإني باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً، فإني لا أفعل بك إلا ما تحب، فوصله وحمله

وقال علي بن الجهم للتوكل :

عفا الله عك ! ألا حرمة * تجود بعموك أن أهدأ
لئن حلّ ذنبٌ ولم أعتد * لأنّ أجل وأعلى يدا
ألم تر عدداً عدّاً طوره * ومولى عفا ورشيداً هدى
ومفسداً أمي تلافيته * فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلنى أقالك من لم يزل * يقيك ويصرفك الردى

وأحسن شعره قاله في الحبس قصيدته التي أولها :

قالوا حُيِّسَتْ فقلت ليس بصائري * حبسى وأنى مهتد لا يُعمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله * كبراً وأوباش السباع ترد
والشمس لولا أنها محجوبة * عن نظرك لما أضاء الفرقد
والبدر يُدركه السّرار فتجلي * أيامه وكأنه متجدد
والغيثُ يحصره العامُ فما يرى * إلا ورقه يراع ويرعد
والزّاعية لا يُقيم كموبها * إلا الثّفاف وجذوة تُوقد
والسّار في أحجارها محبوة * لا تُصطلى إن لم تُثرها الأزند
والحبس ما لم تفسده لدنية * شعاء نعم المنزل المتوّد
بيت يحدّد للكريم كرامة * ويزار فيه ولا يزور ويحد
لو لم يكن في الحبس إلا أنه * لا يستدلك بالجباب الأععد
كم من عليل قد تحطاه الردى * فنحا ومات طبيه والعود
يا أحمد بن أبي دؤاد إنما * تدعى لكل عظمة يا أحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه * خوؤ الردى وخاؤف لا تنفد
أتم بنو عم النبي محمد * أولى بما شرع النبي محمد
ما كان من كريم فاتم أهله * كرمت مغارسكم وطاب الخند

أَمِنَ السَّوِيَّةِ يابن عم محمد * خَضَمْتُ قُرْبَهُ وَأَنْزَلْتُ بَعْدَ
 إِنْ الَّذِينَ سَعَوْا إِلَيْكَ بِبَاطِلٍ * حَسَادُ نَعْمَتِكَ الَّتِي لَا تُجْحَدُ
 شَهِدُوا وَعَيْنَا عَنْهُمْ فَتَحَكُّوا * فَيَا، وَلَيْسَ كِفَائِي مِنْ يَشْهَدُ
 لَوْ يَجْمَعُ الْخُصَمَاءَ عِنْدَكَ مَجْلِسٌ * يَوْمًا لَبَانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ
 فَبَايَ جُرْمٍ أَصْبَحْتَ أَعْرَاضُنَا * تَهْبَا تَقْسَمُهَا اللَّكِيمُ الْأَوْغَدُ

خرج على بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب و خُصاف، فهرب من
 كان في القافلة من المُقَاتِلَةِ وَتَبَّتْ عَلَى بْنِ الْجَهْمِ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا وَثَابَ النَّاسُ إِلَيْهِ
 فَدَفَنَهُمْ وَلَمْ يَحْظُوا بِشَيْءٍ . فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

صَبَرْتُ وَمِثْلِي صَبْرُهُ لَيْسَ يُنْكِرُ * وَلَيْسَ عَلَى تَرْكِ التَّقَعُّمِ يُعَذَّرُ
 غَرِيزَةُ حَرٍّ لَا آخِلَاقُ تَكْلُفُ . إِذَا خَامَ فِي يَوْمِ الْوَعَى الْمُتَصَبِّرُ^(٢)
 وَلَمَّا رَأَيْتَ الْمَوْتَ تَهْفُو بِنُودِهِ * وَبَاتَ عِلَامَاتُ لَهُ لَيْسَ تَكُورُ
 وَأَقْبَلَتِ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ حَايٍ * وَنَارُ عَجَاحٍ أَسْوَدُ اللَّوْنِ أَكْثَرُ
 بِكُلِّ مُشِيجٍ مُسْتَمِيتٍ مُشْتَرٍ^(٣) * يَحُولُ بِهِ طَرَفُ أَقْبُ مُشْتَرٍ
 بَارِضُ خُصَافٍ حِينَ لَمْ يَكْ دَاهِعٌ * وَلَا مَاعٍ إِلَّا الصَّبِيحُ الْمَذْكُورُ
 فَقَلَّ فِي عَيْنِي عَظِيمَ جَمْعِهِمْ * عَزِيمَةُ قَلْبٍ فِيهِ مَا جَلَّ يَصْفُرُ
 بِمَعْتَرِكٍ فِيهِ الْمَايَا حَوَاسِرُ * وَارُ الْوَعَى الْمُشْرِفَةِ تُسْعَرُ
 فَاصْنُتْ وَجْهِي عَنْ ظُلُمَاتِ سَيُوفِهِمْ * وَلَا أَنْحَزْتُ عَنْهُمْ وَالْقَتَا تُنْكَسِرُ
 وَلَمْ أَكْ فِي حَزِّ الْكَرِيمَةِ مُحْجَا * إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَرْبِ لِلْوَرْدِ مَصْدَرُ
 إِذَا سَاعَدَ الطَّرْفُ الْعَنَى وَجَانُهُ * وَأَسْمَرُ خَطِيٍّ وَأَيْضُ مِبْتَرُ
 فَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الْكَرِيمُ بِنَفْسِهِ * إِذَا أَصْطَلَتِ الْأَطَالُ فِي النِّقْعِ عَسْكَرُ

(١) برية بين الناس وحلج . (٢) خام : بكسر وجح .

(٣) المشيج : المانع لما وراء ظهره . والألف من الخليل : الدقيق الحصر الصامر العن .

سَعْتُهُمْ مِنْ أَنْ يَنْالُوا قُلَامَةً * وَكُنْتُ شَجَاهِمُ وَالْأَيْسَنَةَ تَقْطُرُ
وَتَلِكُ سَجَايَا قَدِيمًا وَحَادَثًا * بِهَا عُرِفَ الْمَاضِي وَعَزَّ الْمُؤَخَّرُ
أَبْتُ لِي قُرُومٌ أَنْجَبْتَنِي أَنْ أَرَى * وَإِنْ حَلَّ خَطْتُ حَاشَعًا أَنْتَضَجِرَ
أُولَئِكَ آلُ اللَّهِ فَهَرُ بْنُ مَالِكٍ * بِهِمُ يُخْبِرُ الْعَظُمُ الْكَسِيرُ وَيُكْسِرُ
هَمُّ الْمَنْكِبِ الْعَالِي عَلَى كُلِّ مَنْكِبٍ * سَيُوفُهُمْ تُفْنِي وَتُفْنِي وَتُفْقِرُ

كان علي بن الجهم يعاشر جماعة من فتيان بغداد لما أطلق من حبسه ورد من النفي،
وكانوا يتقانون ببغداد ويلرمون منزل مغن الكرخ يقال له المفضل، فقال فيه علي بن الجهم:

نَزَلْنَا بَابَ الْكَرْحِ أَطْيَبَ مَنَزِلٍ * عَلَى مُحْسِنَاتٍ مِنْ قِيَانِ الْمَفْضَلِ
فَلَا بَنَ سُرْنَجٍ وَالْفَرِيضُ وَمَعْدٍ * بِدَائِعٍ فِي أَسْمَاعٍ لَمْ تَبْدَلِ
أَوَانِسَ مَا لِلضَيْفِ مِنْهُنَّ حَشْمَةٌ * وَلَا رَهْبَ بِالْجَلِيلِ الْمَبْجَلِ
سَرَّ إِذَا مَا لِلضَيْفِ قَلَّ حَيَاؤُهُ * وَيَنْقُصُ عَنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مُقْبَلِ
وَيُكْثِرُ مِنْ ذَمِّ الْوَقَارِ وَأَهْلِهِ * إِذَا الصَّيْفُ لَمْ يَأْتَسْ وَلَمْ يَتَبَدَّلِ
وَلَا يَدْفَعُ الْأَيْدِي الْمَرِيضَةَ غَيْرَهُ * إِذَا نَالَ حِطًّا مِنْ تَلَوِّسٍ وَهُوَ أَكَلِ
وَيُطْرِقُ إِطْرَاقَ الشَّحَاعِ مَهَابَةً * لِيُطْلِقَ طَرَفَ السَّاطِرِ الْمُتَأَمِّلِ
أَشْرَيْتَ وَأَعَزَّ بِطَرَفٍ وَلَا تَخَفْ * رَقِيبًا إِذَا مَا كَتَّ عَيْرَ مُحَلِّ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْمَصْبَاحِ وَالْمَحْجِ بِمَثَلِهِ * فَإِنْ نَحَدَ الْمَصْبَاحُ فَادْنُ وَقَبِّلِ
وَسَلِّ عَيْرَ مَمْنُوعٍ وَقُلِّ عَيْرَ مَسْكِي * وَتَمَّ غَيْرَ مَدْعُورٍ وَقَمَّ عَيْرَ مُعْجَلِ
لَكَ الْبَيْتُ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً * وَكَتَّ مَلِيًّا بِالْبَيْدِ الْمَعْسَلِ
فَبَادِرْ بِأَيَّامِ الشَّابِّ فَإِنَّهَا * تَقْصِي وَتُفْنِي وَالنَّوَايَةُ تَجْعَلِي
وَدَعْ عَنْكَ قَوْلَ النَّاسِ أَتْلَفَ مَالَهُ * فَلَا تُفْاضِحِي مُدِرًّا غَيْرَ مُقْبَلِ
هَلْ الدَّهْرُ إِلَّا لَيْلَةٌ طَرَحَتْ بَنَّا * وَأَوَّخَرُهَا فِي يَوْمٍ لَمْ يَمُوجِ
سَقَى اللَّهُ بَابَ الْكَرْحِ مِنْ مُنْتَرِهِ * إِلَى قَصْرِ وَضَّاحِ فِدْرَكَةِ زَلَزَلِ

مَسَاحِبِ أَذْيَالِ الْقِيَانِ وَمَسْرَحِ الْ * حَسَانٍ وَمَثْوَى كُلِّ خَرْقٍ مُعْدِّلٍ
 لَوْ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ بِنِ حَجْرٍ يَحْتَلُّهَا * لَا أَقْصَرَ عَنْ ذِكْرِ الدُّخُولِ وَحَوَمَلٍ
 إِذَا لَرَأَى أَنْ يَمْنَحَ الْوَدَّ شَادَنَا * مُقَصِّرِ أَذْيَالِ الْقَنَا غَيْرِ مُسْئِلٍ
 إِذَا اللَّيْلُ أَدْنَى مَضْجَعِي مِنْهُ لَمْ أَقُلْ * ”عَقَرْتُ بِعَيْرِي يَا أَمْرًا الْقَيْسِ فَأَنْزِلِ“

دخل على بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر في عداة من عدوات الربيع وفي السماء
 غيم رقيق، والمطر يحيى قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبح ففاجأته
 حَظِيَّةٌ لَهُ، فتنقص عليه عزمه وفترت، فخرَّ على بن الجهم بالخبر وقيل له : قل في هذا المعنى
 لعله ينشط للصبح، فدخل عليه فأنشده :

أَمَّا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شِمَائِلَهُ * تَخْجُو وَعَيْمٌ وَابْرَاقٌ وَارْعَادُ
 كَأَنَّهُ أَتَى يَامِنَ لَا شَبِيهَ لَهُ * وَصَلُّ وَهَجْرٌ وَتَعْرِبٌ وَإِعَادُ
 فَمَا كَرَّ الْأَرَاخَ وَأَشْرَبَهَا مُعْتَقَةً * لَمْ يَدْنِرْ مِثْلَهَا كَسْرَى وَلَا عَادُ
 وَأَشْرَبَ عَلَى الرُّوضِ إِذَا لَحَتْ زَخَارُهُ * زَهْرٌ وَوَرْدٌ وَأُورَاقٌ وَأُورَادُ
 كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَعَلُ الْحَيِّبِ بِنَا * بَنَلُّ وَبُجَلُّ وَإِعَادُ وَمِعَادُ
 وَلَيْسَ يَدَهْبُ عَنْ كُلِّ فَعْلٍ كُمْ * عَى وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثمائة دينار وحمله وطلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر على بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذياع مدة، فخرجوا
 يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرَجٌ كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا

صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال على بن الجهم يصف ذلك :

وِطْنَانَا رِيَاضُ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ * عَلَيْنَا الْبُرْأَةُ الْيَبُصُ حَمَرُ الدَّرَاجِ^(١)
 وَلَمْ تَحْمِهَا الْأَدْغَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا * أَبْجَا حَمَاهَا بِالْكَلَابِ الْبَسَاجِ
 بِمَسْتَرِحاتٍ سَابِحَاتٍ طَلُونَهَا * عَلَى الْأَرْضِ أَمْثَالُ السَّهَامِ الْزَوَالِ^(٢)

(١) واحده دَرَج (نصم الدال وتشديد الراء) وهو طائر مل خلفة القطا إلا أنه ألهف .

(٢) الزال من السهام : الذى يمشى على وجه الأرض ثم يرمى .

ومستشرفات بالهوادى كأنها * وما عَقِفَتْ منها رؤوس الصَّوَالجِ
ومن دالعاتِ السَّنَا فكانها * لَحَى من رجال حاضعين كَوَاصِجِ
فَلَيْتَنَا بها الْعِيطَانُ قَلِيًّا كأنها * أَنَامِلُ إِحْدَى الْغَانِيَاتِ الْحَوَالِجِ
فَقُلْ لُبَّغَاةِ الصَّيْدِ هل من مُفَاخِرٍ * بصيدٍ وهل من وَاصِفٍ أَوْ مَخَارِجِ
قَرَنَّا بُرَاةً بِالصُّمُورِ وَحَوْمَتْ * شَوَاهِينَا من بعد صيد الرَوَاخِ
لَمَّا فُلِجَ آنَ أَبِي دَوَادٍ شَمِتَ به عَلَى بنِ الْحِمْيَرِ وَأَطْهَرَ ذَلِكَ لَهُ وَقَالَ فِيهِ :

لَمْ يَتَّقِ مَكَ سَوَى خَيَالِكَ لَامِعًا * فَوْقَ الْفِرَاشِ مَهْدًا بَوَسَادَ
فَرِحْتَ بِمَصْرَعِكَ الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا * مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنًا بِمَعَادِ
كَمْ مَجْلَسَ اللَّهِ قَدْ عَطَلَتْهُ * كَيْ لَا يُحَدِّثَ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ
وَلَكُمْ مَصَابِيحُ لَمَّا أَطْعَمَتْهَا * حَتَّى نَزُولَ عَنِ الطَّرِيقِ الْهَادِي
وَلَكُمْ كَرِيمَةٌ مَعَشِيرَ أَرْمَلِنَهَا * وَمَحَدَّثَتْ أَوْفَقَتْ فِي الْأَفْيَادِ
إِنْ الْأَسَارَى فِي السَّحُونِ تَفَرَّجُوا * لَمَّا أَنْتَكَ مَوَاصِبُ الْعَوَادِ
وَعَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّيِّبُ فَلَمْ يَحْدِ * شَيْئًا لِدَائِكَ حِيلَةَ الْآلِرَادِ
فَدَقَّ الْمَوَانِ مَعَلًّا وَمُؤْجَلًّا * وَاللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْمُرْصَادِ
لَا زَالَ فَالْجُكُ الدِّي بَكَ دَائِبًا * وَحُفَّتْ قَبْلَ أَلْمُوتِ بِالْأَوْلَادِ
ومن جيد شعره قوله :

يَطُوقُ الْهَوَىَّ بِحَوَى هُوَ الْحَقُّ * وَمَلِكُنِي فَلَيْتَنِيكَ الرَّقُّ
رِيقًا بِقَلْبِي يَا مَعْدَبَهُ * رِيقًا وَلَيْسَ لِفَالَمِ رَفَقُ
وَإِذَا رَأَيْتُكَ لَا تُكَلِّمْنِي * ضَاقَتْ عَلَى الْأَرْضِ وَالْأَفْقُ

وله أيضا :

يَا رَحْمَةً لِلْغَرِيبِ بِالْبَلَدِ النَّا * زِيحَ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا
فَارَقَّ أَحِبَّاءَهُ فَمَا أَتَنَفَعُوا * بِالْعِيشِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا أَتَنَفَعَا

٢٠ - علي بن جبلة^(١)

قال المأمون يوما لبعض جلسائه : أقيم علي من حصر ممن يحفظ قصيدة علي بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها ، فقال له بعض الجلساء : قد أقيم أمير المؤمنين ولا بد من إمرار قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندي ، قال : قم فإني بها ، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها ، وهي :

ذادِ رَدَ النَّعْيِ عَنْ صَدْرِهِ * وَأَرْعَوَى وَاللَّهُوْ مِنْ وَطَرِهِ
وَأَبَتْ إِلَّا الْبُكَاءَ لَهُ * صَحَّكَاتُ الشَّيْبِ وَشَعْرُهُ
نَدِمِي أَنْ الشَّبَابَ مَضَى * لَمْ أَبْلُغْهُ مَدَى أَثَرِهِ
وَأَقْصَتْ أَيَّامُهُ سَلَامًا * لَمْ أَجِدْ حَوْلًا عَلَى عِيَرِهِ
حَسَرْتُ عَنِّي بِنَاشَتِهِ * وَذَوَى الْمَحْمُودُ مِنْ قَمَرِهِ
وَدِيمٌ أَهْدَرْتُ مِنْ رَشَا * لَمْ يُرِدْ عَقْلًا عَلَى هَدَرِهِ
فَاتَتْ دُونَ الصَّبَا هَنَةً * قُلْتُ فُوقِي عَلَى وَتَرِهِ
حَارَاتًا لَيْسَ الشَّبَابُ لِمَنْ * رَاحَ تَحْنِيئًا عَلَى كِبَرِهِ
زَهَبَتْ أَشْيَاءُ كُنْتُ لَهَا * صَارَهَا حُلْمِي إِلَى صُورِهِ^(٢)

(١) هو علي بن حلة الأمازي والكنز لقنه ، وهو من الموالى أساء الشيعة الحراسية من أهل بغداد ، ولد في الحرية بها وشأ فيها ، وكان صريحا بعد ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عبد القبط حله ، لطيف المعاني ، مداح حسن الصرف ، وقد استشهد شعره في مدح أبي دلف المعلى وأبي عاتق حميد بن عبد الحميد الطوسي ، ورواد في تفصيلهما وتفصيل أبي دلف خاصة حتى فصل ربيعة على مصر ، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها المكنوك في أبي دلف بها :

كل من في الأرض من عرب * يب باديه إلى حصره
مستعير منك مكرمة * يكتسبها يوم معصره

توفي سنة ٢١٣ هـ . وتجد أكثر أحواله في الأغاني (ح ١٨ ص ١٠٠) وارس حكاك طبع ولواق (ح ١ ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠) (٢) صارها : أمالها .

دَعَّ جَدَا حَقَّانَ أَوْ مُصِيرَ * وَ يَمَانِيهِ وَفِي مُصِيرِهِ
 وَامْتَدَّخَ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا * مُصِيرُ الْآفَاقِ فِي عُمْرِهِ
 الْمَسَايَا فِي مَنَاقِيهِ * وَالْمَطَايَا فِي ذَرَا حُجْرِهِ
 مَلِكٌ تَدَى أَمَالِهِ * كَابْتِلَاجِ السُّوءِ عَنْ مَطَرِهِ
 مُسْتَهْلٌ عَنْ مَوَاهِهِ * كَابْتِسَامِ الرُّوضِ عَنْ زَهْرِهِ
 جُلٌّ عَزَّتْ مَنَاصِكُهُ * أَيْتُ صَدَنَاتٍ فِي ثِقَرِهِ
 إِنَّمَا الدُّنْيَا أَوْ دُلْفٍ * بَيْنَ مَبْدَاهِ وَنَحْوِهِ
 فَإِذَا وَلَّى أَوْ دُلْفٍ * وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ لَهُ * غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي خَفَرِهِ
 يَادَوَاءِ الْأَرْضِ إِنْ فَسَدَتْ * وَمِدْبَلِ الْيُسْرِ مِنْ عُسْرِهِ
 كُلِّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى حَصَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مَكَامِكُهُ * يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَحَرِهِ

وفيها يقول :

وَرُحُوبٌ فِي صَوَاهِلِهِ * كَصَيْاحِ الْحَشْرِ فِي أَنْوَارِهِ
 قُدَّتْهُ وَالْمَوْتُ مَكْتُمٌ * فِي مَدَافِكِهِ وَمُشْتَجِرِهِ
 فَرَمَتْ حَقَوِيهِ مَسِيدُ * طَوَاتِ الْمُنْشُورِ مِنْ بَطَرِهِ
 زَرْتُهُ وَإِنْخِلِ عَابِسَةٌ * تَحْمِلُ الْبُؤْسَى عَلَى عُقْرِهِ
 حَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهَا * تَكْرُجُ الطَّيْرَ مِنْ وَكْرِهِ
 وَعَلَى النِّعْمَانِ نُجَّتْ بِهِ * عَوْحَةٌ زَادَتْهُ عَنْ صَدْرِهِ
 عَمَطَ النِّهَالِ صَفْوَتَهَا * فَرَدَّدَتْ الصَّعْمَ فِي كَدْرِهِ
 وَلَقَرَقُورٌ أَدْرَتْ رَحًا * لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فِكْرِهِ

قَدْ تَأْتَيْتَ الْقَهَاءَ لَهُ . فَاىِ الْمَحْتَمُومُ مِنْ قَدَرِهِ
وَطَسَعَى حَتَّى رَفَعَتْ لَهُ خُطَّةَ شِعَاءٍ مِنْ ذِكْرِهِ
فَنَصَبَ الْمَامُونِ وَأَغْتَاطَ ، وَقَالَ : لَسْتُ لِأَبَى إِنْ لَمْ أَقْطَعْ لِسَانَهُ أَوْ أَسِغْ دَمَهُ .

وَكَانَ يَمْدَحُ حُمَيْدَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ ، فَلَمَّا سَمِعَ حَمِيدٌ هَذَا فِي أُنَى دَلَفٍ قَالَ أَى شَيْءٍ
نَقَيْتَ لَنَا مِنْ هَذَا مِنْ مَدْحِكَ ؟ فَقَالَ :

إِمَّا الدُّنْيَا حُمَيْدُ * وَأَيَادِهِ الْحِسَامُ
مَا دَا وَلَّى حُمَيْدُ * عَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ

وَهُوَ الْقَائِلُ فِي حَمِيدَ :

دِحْلَةُ تَسْقَى وَأَبُو عَامٍ * نُطْعِمُ مَنْ تَسْقَى مِنَ الْمَاءِ
وَالنَّاسُ حَسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى * رَأْسُ وَأَبِ الْعَيْنِ فِي الرَّأْسِ

وَقَالَ لِلْحَسْمِ بْنِ سَهْلٍ :

أَعْطَيْتَنِي يَا وَلِيَّ الْحَقِّ مُتَدَنًّا * عَطِيَّةَ كَاهِنَاتٍ مَدْحَى وَلَمْ تَرِنِي
مَا شِئْتُ بَرَقَكَ حَتَّى يَلْتُ رَبِّقَهُ * كَأَنَّمَا كُنْتُ بِالْخَدَوَى تُبَادِرُنِي

وَهُوَ الْقَائِلُ فِي حَمِيدَ :

إِلَى أَكْرَمِ خَطَايَا * وَصَلْنَا السُّهْبَ بِالسُّهْبِ
إِلَى مَجْمَعِ اللَّيْلِ * وَوُلِقَى أَرْحُلِ الرُّكْبِ
حُمَيْدُ مَقْرَعِ الْأَمَةِ * لَمَّةٌ فِي الشَّرْقِ وَفِي الْعَرَبِ
كَأَنَّ النَّاسَ جَسْمٌ وَهْدٌ * وَمِنْهُ مَوْصَعُ الْقَلْبِ
إِذَا سَأَلْتُ أَرْضَاءَ * بَيْتَ أُمَمَةِ السَّرْبِ
وَإِنْ حَارَبَهَا حَلَّتْ * بِهَا رَاعِيَةُ السَّقْفِ
إِذَا لَاقَى رَعِيْلَ الْمَوْتِ * تَبَالُغَتِ الشُّطْبَةُ وَالشُّطْبُ
وَبِالْمَذْيَةِ الْخُصْرِ * وَبِالْمَذْيَةِ الْقُصْرِ

عدا مجتمع القلب * له جدد من الرغب
 يأنوز الذي وإلى * وياؤسى أحي الدنب
 أيا ذا الجود فاسلم ما * برث حفت إلى حفت
 فأت العيث في السلم * وأت الموت في الحرب
 وأت الجامع الفار * في بين البعد والقرب
 لك الله تلافى الباء * س بعد العثر والنك
 ورد البيض والبيض * إلى الأعماد والنخ
 بإقدامك في الحرب * وإطعامك في اللزب
 فك أمنت من خوف * وك أشتت من شت
 وك أصلحت من خطب * وك أيمت من خطب
 وما تمهـرها إلا * دراك الطعن والصر
 تاهت بك خطا * إلى الغاية والحسب
 فماتت شرف الأحياء * قوت الرأس للعجب^(١)

وما أسرف فيه فكمر أو قارب الكهر قوله في أبي دلف :

أت الذي تُرل الأيام منزها * وتقل الدهر من حال إلى حال
 وما مددت مدى طرف إلى أحد * إلا قصيت أرزاق وآجال
 تزور سحطا قنسي البيض راصية * وتستهل فتبكي أوجه المال

وقال فيها :

كأن خيلك في أنشاء عمرتها * أرسل قطرتيها في فوق إرسال
 يخرجن من عمرات الموت سامية * نشر الأنامل من ذي القرة الصالي

وقال أيضا :

جلاء مشيب تَزَلَّ * وأُنْسُ شبابٍ رَحَلَ
طوى صاحِبٌ صاحِبًا * كذاك اختلافُ الدُّوَلِ
أعاذلتي أَقْصَرِي * كفاكِ المشيبُ العَدْلُ
بدا بدلًا بالشما * ب ليت الشبابَ البدل
جلالٌ ولكه . تحاماه حُورُ المُقَلِّ

وقد كان حميد رك يوم عيد في حيش عظيم لم ير مثله ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غدا مأمير المؤمنين ويمنه ، أبو عاتم غَدَوَ النَّدى والسحاب
وصاقت لِجَاحِ الأرض عن كل موكب * أحاطَ به مستعلًى للواكب
كانَ سَمُو النَّفْعِ والْبَيْضِ فوقهم * سماوُهُ ليل قُرْتُ بالكواكب
فكان لأهل العيد عيدٌ يسكهم * وكان حُمَيْدٌ عيدهم بالمواف
ولولا حميد لم تبلِّج عن النَّدى * يمينٌ ولم يُدرك غنى كسب كاسب
ولو ملك الدنيا لما كان سائلٌ * ولا أعتامَ فيها صاحِبٌ وفضل صاحب
له محمكةٌ تستغرق المالَ النَّدى * على عَبيَّةٍ تُشجى القنا ما ترائب
دهبتَ بأيام العُلا فاردًا بها * وصرمتَ عن مَسْعاك شأوَ المطالب
وعذلت مَيْلَ الأرض حتى تعدلت * فلم يَأَ منها حانبٌ فوق حانب
لغت أادنى الحزيم أهد قُطْرِها . كأنك منها شاهدٌ كلَّ عاث

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى حراسان ، وقد مدحه فأجرل صلته ، واستأذنه في الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان برّه يتصل عسده ، فلما طال مُقامه أَشتاق إلى أهله فدحل إليه فأنسده :

راعه الشَّيبُ إذ تَزَلَّ * وكفاه من العَدْلِ
وأنقضت مدة الصَّسا * واقصى اللهو والعزل

قد لعمري دَمَلْتُهُ بِحَصَابٍ مَا أَدْمَلُ
 فَايَكِ لِلشَّيْبِ إِذْ بَدَأَ لَا عَلَى الرَّنْعِ وَالطَّلَلِ
 وَصَلِ اللَّهُ لِلْأَمِيَّةِ بِرِغْرِي الْمَلِكِ فَاتَّصِلْ
 مَلِكُ عَزْمِهِ الرِّمَا بُوْ وَأَهْلُهُ الدُّوَلِ
 كَسْرُوْىْ، نَحْدَهُ نَصْرُبُ الصَّارِبِ الْمَثَلِ
 وَإِلَى طَلِّ عَرِّهِ يَلْعَا الْخَائِفُ الْوَحْلِ
 كُلِّ حَاقٍ سِوَى الْإِمَا مِ لِإِعَامِهِ حَوْلِ
 لَيْتَهُ حِينَ حَادَلَى مَالِغِي حَادٍ مَالِقَلِ

فصحك وقال . أَبْنَتْ إِلَّا أَنْ تُوحِشْنَا، وَأَحْرَلِ صَلَّتَهُ وَأَدْنِ لَهُ .

دخل على بر حمله الْعَكَّوكُ عَلَى حُمَيْدِ الطُّوسِيَّ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَأَنشَدَهُ :

حَمَلَ اللَّهُ مَذْحَلَ الصُّومِ مَوْرًا حُمَيْدٍ وَمُتَعَةً فِي الْمَاءِ
 مَهْوٍ شَهْرَ الرَّيْبِ لِلْقُرَاءِ وَفِرَاقُ الدِّمَامِ وَالصَّهَاءِ
 وَأَنَا الصَّامُ الْمَلِيْلُ لِمَنْ عَا قَرَمًا مُمِطِرًا بِطُولِ الطَّهَاءِ
 وَكَأَنِّي أَرَى الدِّدَامِيَّ عَلَى الْحَسَا نَفٍ يَرْحُونَ صَبَحَهُمْ بِالْمَسَاءِ
 قَدْ طَوَى مُعْصَمُ زِيَارَةِ بَعْضِ وَاسْتَعَاَصُوا مَصَاحِقًا مَالِغَاءِ

وفيها يقول :

بُحَيْدٍ - وَأَيْنَ مَثَلُ حُمَيْدٍ - فَخَرَّتْ طَبِيٌّ عَلَى الْأَحْيَاءِ
 حَوْدُهُ أَطْهَرَ السَّاحَةِ فِي الْأَرِ ضٍ وَأَعْنَى الْمُقْوَى عَنِ الْإِقْوَاءِ
 مَلِكٌ يَأْمُلُ الْعِبَادُ دَاهَ مَثَلًا مَا يَأْمُلُونَ قَطَرَ السَّمَاءِ
 صَاعَهُ اللَّهُ مُطْعِمَ النَّاسِ فِي الْأَرِ صِ وَصَاعِ السَّحَابِ لِلْإِسْقَاءِ

فأمر له بحمسه آلاف درهم، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك ؛ ثم دخل إليه ثاني

شوال فأنشده :

عَلَّانِي بَصَفُو مَا فِي الدَّنَاسِ ، وَأَتْرَكَ مَا يَقُولُهُ الْعَادِلَانِ
 وَأَسِيقًا فَاجَعَ الْمَيَّةَ الْعِيدِ ، شِيشَ فِكْلٍ عَلَى الْجَسِيدَيْنِ فَانِي
 عَلَّانِي بِشَرِّهِ تَدَهَبُ الْمَدَى ، ثُمَّ وَتَشِي طَوَارِقَ الْأَحْرَانِ
 وَالْقِيَا فِي مَسَامِعِ سَدِّهَا الصَّوْ ، ثُمَّ رُقَى الْمَوْصِلَى أَوْ دَحْمَانَ
 قَدْ أَتَانَا شَوَالُ فَاقْتُلِ الْعِيدِ ، شِيشَ وَأَعْدَى قَسْرًا عَلَى رَمَصَانَ
 نِعْمَ عَوْنُ الْمَتَى عَلَى نَوْبِ الدَّهْرِ ، بِرِ سَمَاعِ الْقِيَانِ وَالْيَعِيدَانِ
 وَكُؤُوسُ تَحْرَى بِمَاءِ كَرُومِ ، وَمَطَى الْكُؤُوسِ أَيْدَى الْقِيَانِ
 مِنْ عُقَارٍ يُنْمِتُ كُلَّ احْتِشَامِ ، وَتُسَرُّ السَّدَمَانُ بِالْأَسْدَمَانِ
 وَكَأَنَّ الْمِزَاجَ يَقْدَحُ مَهَا * شَرًّا فِي سَبَائِكَ الْعِقْيَانِ
 فَاشْرَبِ الرِّاحَ وَأَعِصْ مَنْ لَامَ فِيهَا ، إِسْهَا نِعْمَ عُذَّةُ الْغِيَانِ
 وَأَصْحَبِ الدَّهْرَ بَارْتَحَالٍ وَحِلًّا * لَا تَخَفْ مَا يَحْزِرُهُ الْحَادِثَانِ
 حَسْبُ مُسْتَطَهْرِ عَلَى الدَّهْرِ رَكَا * نَجِيدَ رِذَا مِنْ الْحَدِثَانِ
 مَلِكٌ يَقْتَنِى الْمَكَارِمَ كَدْرًا ، وَتَرَاهُ مِنْ أَكْرَمِ الْغِيَانِ
 حُلِقَتْ رَاحَتَاهُ لِلْخُودِ وَالسَّاءِ ، سِيسَ وَأُمُوَالُهُ لَشَعْرِ الْتَّاسِ
 مَلِكْتُهُ عَلَى الْعَادِ مَعْدُ ، وَأَقْرَبَتْ لَهُ سَوَاقِطَانِ
 أُرْبَعِي السَّدَا جَمِيلُ الْمُحْيَا ، يَذُّهُ وَالسَّمَاحُ مَعْتَقِدَانِ
 وَحَهُ مُشْرِقٌ إِلَى مُعْتَقِيهِ ، وَيَدَاهُ بِالْعَيْثِ سَهْجَانِ
 حَمَلُ الدَّهْرِ بَيْنَ يَوْمِيهِ قَسْمِي ، بِرِ يُعْرِفُ حَزْلَ وَحَزَّ طِعْمَانِ
 فَاذَا سَارَ فَاخْمِيسَ لِحَرْبِ * كَلَّ عَنْ نَصِّ جَبْهِهِ الْخَافِقَانِ
 وَإِذَا مَا هَزَرَتْهُ لِسْوَالِ * صَاوَى عَنْ رَحْبِ صَدْرِهِ الْأُفْقَانِ
 غَيْثُ جَدَبٍ إِذَا أَقَامَ رِبِيعُ ، يَتَغَشَّى السَّنْبِ كُلَّ مَكَانِ
 يَا أَبَا غَاثٍ تَقَيَّتْ عَلَى الدَّهْرِ * بِرِ وَخُلِدَتْ مَا جَرَى الْعَصْرَانِ

ما بُبَالِي إِذَا عَدَّتْكَ الْمَايَا * مَنْ أَصَابَتْ بِكَ كَلْبِي وَجِرَانِ
 قَدْ جَعَلَا إِلَيْكَ نَعْتَ الْمَطَايَا * هَرَمًا مِنْ زَمَانِ الْخَوَانِ
 وَحَلَا الْحَاكِمَاتِ مَوِي عَيْنَاي * صَامَاتِ حَوَائِجِ الرِّجَالِ
 لَيْسَ حُودٌ وَرَاءَ جُودِكَ يُتَا * بٌ وَلَا يَتَعْنِي لِفَيْرِكَ عَانِي

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كآب للصوم تحققت وحققا، وهذه للفطر
 فقد ردتنا وزدناك .

ولما مات حميد الطوسي رثاه بقصيدته العينية المشهورة التي تُعدّ من نادر الشعر
 وبديعه، وهي :

أَلَدَّهِمِ تَبْكِي أُمَ عَلَى الدَّهْرِ تَحْزَعُ * وَمَا صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مُفْصَعُ
 وَلَوْ سَهَّلْتَ عَلَيَّ الْأَمْسَى كَأَنَّ فِي الْأَمْسَى * عِزَاءُ مَعْرِ لَلْبَيْ وَمَقْصَعُ
 تَعَرَّ بِمَا عَزَيْتَ عَيْرَكَ إِسْهًا * يَسْهَامُ الْمَايَا حَائِمَاتٌ وَوُقْعُ
 أَهْنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ * أَصَابَ عُرُوشَ الدَّهْرِ طَلَتْ تَضَعَعُ
 وَأَذْبَسَا مَا أَذْبَسَ السَّاسَ قَلْبَا * وَابْكِهِ لَمْ يَبْقِ لِلصَّبْرِ مَوْصَعُ
 أَلَمْ تَرِ لِلْأَمَامِ كَيْفَ تَصَرَّمَتْ * بِهِ ، وَبِهِ كَأَنَّ مُذَادُ وَتُدَقَعُ
 وَكَيْفَ التَّقَى مَثْوًى مِنَ الْأَرْضِ صَبَقُ * عَلَى حَلِيلٍ كَانَتْ لَهُ الْأَرْضُ مُنْعُ
 وَلِمَا أَنْقَضَتْ أَيَّامُهُ أَنْقَضَتْ الْعَلَا * وَأَصْحَى لَهُ أَنْفُ السَّدَى وَهُوَ أَجْدَعُ
 وَرَاحَ عَدُوُّ الدِّينِ حَذَلَانٍ يَتَحَيَّ * أَمَانِي كَانَتْ فِي حَشَاةٍ تَقْطَعُ
 وَكَانَ حُمَيْدٌ مَعْقِلًا رَكْعَتُهُ * قَوَاعِدُ مَا كَانَتْ عَلَى الصِّمِّ تَرْكُعُ
 وَكَسَتْ أَرَاهَ كَالرَّزَايَا رُزْنَتُهَا * وَلَمْ أَدْرِ أَبْ أَلْخَلَقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ
 حِمَامٌ رَمَاهُ مِنْ مَوَاضِعِ أُمِّهِ * حِمَامٌ، كَذَاكَ الْخَطْبُ بِالْخَطْبِ يُقَدِّعُ
 وَلَيْسَ نَفَرُوا أَنْ تُصِيبَ مَيْتَةً * حِمَى أَحْتَهَا أَوْ أَنْ يَنْدَلَ الْمُتَمِّعُ
 لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِيهَا الْمَنَايَا شَارَهَا * وَحَلَّتْ بِخَطْبٍ وَهَيْبُهُ لَيْسَ يُرْقَعُ

نَعَاءٍ مُّجِيدًا لِلسَّيَا إِذَا عَدَتْ * تَدَادُ بِأَطْرَافِ الرِّيحِ وَتُوزَعُ
وَلَأَرْهَقَ الْمَكْرُوبِ ضَاقَتْ أَمْرُهُ * فَلَمْ يَدْرِ فِي حُومَاتِهَا كَيْفَ يَصْعُ
وَاللَّيْضُ حَقَّتْهَا الْعَوَلُ وَلَمْ يَدْعُ * لَهَا غَيْرَهُ دَاعِيَ الصَّاحِ الْمَفْرَعُ
كَأَنَّ حَمِيدًا لَمْ يَقْدَحِيشَ عَسْكَرٍ * إِلَى عَسْكَرِ أَشْيَاءِهِ لَا تَرْوَعُ
وَلَمْ يَبْعَثِ الْخَيْلَ الْمَغِيرَةَ بِالصَّحَى * مِرَاحًا وَلَمْ يَرْجِعْ بِهَا وَهِيَ ظُلُعُ
رَوَاحٍ يَحْمِلُنَ النَّهَابَ وَلَمْ تَكُ * كَنَاقَتِهِ إِلَّا عَلَى النَّهَبِ تَرْجِعُ
هُوَ جَبَلُ الدِّيَا الْمَبِيعُ وَعَيْثُهَا * مَرْيَعُ وَحَامِيهَا الْكُمَى الْمَشِيعُ
وَسَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَنَحُهُ * وَمِفْتَاحُ بَابِ الْحَطَبِ وَالْخَطْبُ أَفْطَعُ
فَأَقَمَهُ مِنْ مُلْكِهِ وَرِنَاعِهِ * وَبَائِلُهُ قَفَرٌ مِنَ الْأَرْضِ لَلْقَعُ
عَلَى أَى شَيْءٍ تَشْتَكِي النَّفْسُ بَعْدَهُ * إِلَى شَعْوِهِ أَوْ يَذْنُرُ الدَّمْعَ مَذْمَعُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ حَالًا صَيَاوُهَا * عَلَيْهِ وَأَحْمَى لَوْهَا وَهُوَ أَسْفَعُ
وَأَوْحَشَتِ الدُّنْيَا وَأَوْدَى بِهَاوُهَا * وَأَحْدَتَ مَرَعَاهَا الدِّيَّ كَانَ يَمْرُغُ
وَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ مَطْمَئِنَّةً * فَقَدْ جَعَلَتْ أَوْتَادُهَا تُنْقَلَعُ
بِكَيْ فَقَدَهُ رُوحُ الْحَيَاةِ كَمَا بَكَى * نَدَاهُ السَّدَى وَأَبْنُ السَّبِيلِ الْمُدْفَعُ
وَفَارَقَتِ الْبَيْضُ الْخُدُورَ وَأُبْرَزَتْ * عَوَاطِلَ حَسْرَتِي بَعْدَهُ لَا تَقْصَعُ
وَأَيُّقُظُ أَجْفَانًا وَكَانَ لَهَا الْكُرَى * وَبَامَتْ عَيُونُ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَهَجُّعُ
وَلَكِنَّهُ مَقْدَارُ يَوْمٍ ثَوَى بِهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِثْلُ نَهَالٍ وَمَشْرِعُ
وَقَدْ رَأَى اللَّهُ الْمَلَا بِمُحَمَّدٍ * وَالْأَصْلَ يَنْبَى فِرْعُهُ الْمَفْرَعُ
أَغْرَى، عَلَى أَسْيَافِهِ وَرِمَاحِهِ * تُقَسِّمُ أَهَالَ الْحَمِيرِ وَتُحْمَعُ
حَوَى عَنْ أَيْهِ بَذَلَ رَاحَتَهُ الدِّيَّ * وَطَمَنَ الْكُلَى وَالزَّاعِيَةُ شُرْعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فرید زفاعی

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للؤف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٢٧ م

فهرست

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث — عصر الأمين والمأمون

صفحة	باب المشور :
١	بصيص كتب الأمين والمأمون — نص كتاب الأمين الى المأمون
٢	نص كتاب الأمين الى أخيه صالح
٥	القول بحق القرآن (ما كتبه المأمون الى ولاته)
١٧	عهد طاهر بن الحسين
٢٦	رسالة اويس (ما كتبه المأمون الى أهل حراسان)
٣٨	ما كتبه السيدة ربيعة الى المأمون — ما كتبه المأمون اليها
٣٩	رسالة أحمد بن يوسف

رسائل سهل بن هارون :

٤٨	وصفه وتاريخ حياته — ما حكاه الحافظ عنه
٤٩	ما حكاه دهل الخزازي الشاعر عنه
٥٠	كتبه وطريقته في التأليف
٥٢	من كلام له في كتابه ثعلبة وعصرة
٥٣	ما كتبه الى صديق له أبل من صف — رسالته في الحل
٥٧	شيء من شعره

رسائل عمرو بن مسعدة :

٥٩	وصفه وتاريخ حياته
٦١	من كلام له — ما كتبه الى الحسن بن سهل — ما كتبه الى المأمون
٦٢	من حكمه

صفحة

٦٤	ماكنه الى بعض الرؤساء
٦٥	شيء من شعره
٦٦	حكاية له
٧٠	ما قاله أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي فيه

رسائل الجاحظ :

٧٢	وصفه وتاريخ حياته — رسالته في بني أمية
٨٠	ماكنه الى بعض إخوانه في دم الرماح
٨٢	وصفه لقريش وبنو هاشم
٨٣	ماكنه في الاعتذار — ماكنه في الاستعطاف
٨٤	ماكنه في دم الحسد — دفاعه عن مؤلفاته
٩٢	ماكنه في أحد البرىء مذنب المدب
٩٨	ماكنه في أقسام البيان
١٠١	ماكنه في مدح الكتب
١١٥	ماكنه في التعريب في اصطلاح الكتب

ماب الرسائل :

١٢٨	المصول المنتجة من الرسائل المختارة في كل فن — كتب رجل الى صديق له
١٣١	فصل لسعيد بن حميد
	فصل في هدية — فصل في شناعة — فصل لرحل تميمي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٣	فصل في الصمغ لأبي علي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٤	فصل لعقال بن شبة — فصل في الوديع — فصل في الصمغ — حواري فتح
١٣٥	فصل في الصمغ عن الحفاء — فصل في الاعتذار
١٣٦	الى المأمون من عامل — فصل لأس الكلي
١٣٧	فصل لآرام بن اسماعيل بن داود
١٣٨	فصل لعمر بن مسعدة
١٣٨	فصل لعيسى بن واضح الى الفصل بن ربيع — فصل لحل بن ريد
١٣٩	وله في المطر — وله الى بعض إخوانه
١٤٠	فصل لأس أعين كاتب الخيران — فصل لأس الكلي — فصل لعلي بن عبيدة الى ابن الكلي
١٤١	فصل لعمارة — فصل لسعيد بن عبد الملك

صفحة	
١٦٨	تحميد في فتح لسعيد بن حميد
١٦٩	تحميد لان المققع
١٧١	حميد لسان بن عبد الحميد — حميد لأحد بن يوسف في فتح السد ..
١٧٢	تحميد لأنى عيد الله — تحميد لسعيد بن حميد ..
١٧٣	ما يقترط به الخليفة ..
١٧٧	تحميد لأنى عيد الله ..
١٨٠	ما يكتب به في الخالعين وقت الحريمة ..
١٨١	ما يكتب به في صفة الخالعين ..
١٨٤	ما يكتب به في العصابة — ما يكتب به في مدح قواد الحيوش وصفة الأولياء في أحوالهم ...
١٨٧	وصف الأولياء في الكتب ..
١٨٨	ما يقترط به أمير المؤمنين في أواخر الكتب — سعيد بن حميد ..
	التحاميد في أواخر الكتب :

١٨٨	تحميد لسعيد بن نصر — تحميد لاراهيم بن المصان — تحميد لأنى عيد الله ..
١٩٢	الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب ..
	مختار ما كتب من باب التهناني في كل فن :

	تهنئة حليلة طهر — ما كتبه اراهيم بن المهدي الى المنصم بهه محروحه عن أرض الروم
١٩٣	بعد فتح عمورية ..
١٩٤	ما كتبه أحد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر بهه طهر — تهنئة حليلة محج ...
١٩٥	تهنئة لولاية — تهنئة لسعيد بن حميد الى بعض أحواله ..
١٩٧	ما كتبه محمد بن مكرم الى أحد بن دينار ..
١٩٨	تهنئة لمرل عامل عن عمله ..
١٩٩	ما كتبه محمد بن مكرم الى اراهيم بن المدر ..
٢٠٠	تهنئة لزوج وياه أهل ..
٢٠١	تهنئة لمولود كتبها المصان بن الحسن الطالبي الى المأمون ..
٢٠٤	ما كتبه اس المققع الى صديق له ولدت له حارية ..
٢٠٥	تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصراني أسلم ..

باب المنظوم :

٢٠٦	أبو نواس ..
٢٤٩	القصائد ..

فهرس المجلد الثالث

(ز)

صفحة	
٢٥٥	دعل ...
٢٦٥	حسب س الصحاك
٢٧٨	محمد س عد الملك الریات
٢٨٣	اس التواب ..
٢٨٦	الحسرى
٢٩٥	عد الله س طاهر ..
٢٩٨	ما قبل فى هاء الأمل ورنائه ..
٣٠٣	هاء يحى س أكنم
٣٠٥	وصف نورة بعداد وحرىقها ..

مُلْحَقٌ الكتاب الثالث

باب المنشور

(١) نصوص كتب الأئمة والمأمون

١ — نص كتاب الأئمة إلى المأمون، وهو الكتاب الذي أشرنا إليه في الجزء الأول .
إذا ورد عليك كتاب أخيك — أعاده الله من — فقدك — عند حلول ما لا مرد له
ولا مدفع، مما قد أحلف وتناصح الأمم الخالية، والقرون الماصية، بما عزاك الله به .
وأعلم أن الله جلّ شأنه، قد اختار لأئمة المؤمنين أفضل الدارين، وأجرّل الحظين،
فقبّصه الله طاهراً زاكياً، قد شكره، وغفر ذنبه، إن شاء الله . فقم في أمرك قياماً
ذي الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه، وسلطانة وعامة المسلمين . وإياك أن يغلب
عليك الجزع، فإنه يخطئ الأجر، ويُقَبِّب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميتاً،
وإنا لله وإنا إليه راجعون . وحذّ البيعة على من قِلك، من قوادك وجندك، وخاصتك
وعاتنتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك
أمير المؤمنين : من نسحها له وإثباتها، فإنك مُقلّد من ذاك، ما قلّدك الله وحليفه .
وأعلم من قبلك رأيي في صلاحهم، وسدّ خلّتهم، والتوسعة عليهم، من أنكرته عند
بيعته، أو اتهمته على طاعته، فابعث إلى برأسه مع خبره . وإياك وإفاته، فإن الدار أولى

به . وأكْتُبُ الى ثُمَالِ تُغُورِكَ ، وأَمْرَاءِ أَحِبَّادِكَ ، بما طَوَّقَكَ مِنَ المَصِيبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَعْلِيهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ الدُّنْيَا لَهُ ثَوَابًا ، حَتَّى قَبَضَهُ إِلَى رُوحِهِ وَرَاحَتِهِ وَحَتَّى ، مَعْنُوطًا مَجْمُودًا ، قَائِدًا لِجَمِيعِ حُلَفَائِهِ إِلَى الْجَنَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَمُرَّهْمَ أَنْ يَأْخُذُوا الْبَيْعَةَ عَلَى أَجَادِهِمْ ، وَخَوَاصِّهِمْ وَعَوَاتِمِهِمْ ، عَلَى مِثْلِ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ ، مِنْ أَحْذَاهَا عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ؛ وَأَوْعِزْ إِلَيْهِمْ فِي صِطِّ تُغُورِهِمْ ، وَالْقُوَّةِ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، إِلَى مُتَقَدِّ حَالَاتِهِمْ ، وَلَا تُشَعِّهْمَ ، وَمُوسَّعَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا آيْنَ فِي تَقْوِيَةِ أَحَادِي وَأَبْصَارِي . وَلَتَكُنْ كُنْتُكَ إِلَيْهِمْ كُنْتُ عَامَةً لَتُقْرَأَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يَسْكُنُهُمْ ، وَيَسْطُ أَمْلَهُمْ . وَأَعْمَلْ بِمَا أَمُرُ بِهِ لَمْ تُحْصِرْكَ ، أَوْ نَأَى عَكَ مِنْ أَجَادِكَ عَلَى حَسَبِ مَا تَرَى وَتُشَاهِدُ . فَإِنْ أَحَاكَ بِعَرَفِ حَسَنِ اخْتِيَارِكَ ، وَصَحَّةِ رَأْيِكَ ، وَتُعَدُّ بِطَرِكَ ، وَهُوَ يَسْتَحْفِظُ اللَّهَ لَكَ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَسُدَّكَ عَصْدُهُ ، وَيَجْمَعَ لَكَ أَمْرَهُ ، إِنَّهُ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ . وَكُتِبَ بِكَرْبِ الْمُعْتَمِرِينَ يَدِيَّ وَإِمْلَافِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ

٢ — وَهَذَا نَخْبَاتُ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ إِلَى أَحِبِّهِ صَالِحٍ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتَابِي هَذَا ، عَدِّ وَقُوعَ مَا قَدْ سَقَى فِي عِلْمِ اللَّهِ ، وَقَدْ مِنْ قَضَائِهِ ، فِي حُلَفَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، وَحَرَّتْ بِهِ سُنَّتُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَقَالَ : (لِكُلِّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ عَظِيمِ ثَوَابِهِ وَمُصْرَافَةِ أَنْبِيَائِهِ ، صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا إِلَهُهُ رَاجِعُونَ ، وَإِيَّاهُ نَسْأَلُ أَنْ يُحْسِنَ الْخِلَافَةَ عَلَى أُمَّةٍ بِيَسِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَدْ كَانَ لَهُمْ عِصْمَةٌ وَكَيْهَانٌ ، وَهُمْ رِءُوفًا رَحِيمًا .

فَشِمْتُ فِي أَمْرِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُلْقَى بِيَدِكَ ، فَإِنْ أَحَاكَ قَدْ اخْتَارَكَ لِمَا أَسْتَنْهَضَكَ لَهُ ، وَهُوَ مُتَقَدِّدٌ مَوَاقِعَ فَقْدَانِكَ ، فَخَفِضْ طَمَعَهُ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ . وَحِذِّ الْبَيْعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ، مَنْ وَلَدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَمَوَالِيَهُ وَحَاصَّتِهِ وَعَامَتِهِ لِمُحَمَّدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ لِلْقَاسِمِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى الشَّرِيطَةِ الَّتِي جَعَلَهَا

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسحها على القاسم أو إشتاها . فإن السعادة واليمن في الأخذ مهده والمصى على مائه .

وأعلم من قِلك من الخاصة والعامة رأي في استصلاحهم ، ورد مظالمهم ، وتفقد حالاتهم ، وأداء أراقهم ، وأعطياتهم عليهم . فإن شغب شاعب ، أو نعر ناعر ، فاسط به سطوبة تجعله كلالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة لاتص . وأصم إلى الميمون ابن الميمون الفضل — الربيع ولد أمير المؤمنين وحده وأهله ، ومُره بالمسير معهم فيمن معه ، وجده وراسته ، وصير إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه ، فإنه ثقة على ما يلي ، قول عبد العاقه ، وأصم إليه جميع جد الشرط ، من الرواط وغيرهم ، إلى من معه من جده . ومُره بالحد والثيق ، وتقديم الخزم في أمره كله ، ليلة ونهاره . فإن أهل العداوة والفاق لهذا السلطان يقيمون مثل حلول هذه المصيبة ، وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومُره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ، فإنه من لا يعرف إلا بالطاعة ، ولا يدب إلا بها ، بمعاقده من الله ، مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ، ومُره بالخدم بإحصار رواطهم ، من بسد بهم وأجنادهم مواضع انخل من عسكرك ، فاتهم حد من حدودك ، وصبر مقدمتك إلى أسد بن يزيد من مزيد ، وسأقتك إلى يحيى بن مُعاد ، فيمن معه من الجود ، ومُرها بما وبتك في كل ليلة .

وألزم الطريق الأعظم ، ولا تعدون المراحل ، فإن ذلك أرق لك ، ومُره أسد بن يزيد ، أن يختار رجلا من أهل بيته أو قواده ، فيصير إلى مقدمته ، ثم يصير أمامه ، لتهيته المنازل ، أو بعض الطريق ، فإن لم يحضر في عسكرك بعض من سميت ، فاحترل مواضعهم من يثق بطاعته ، ونصيحته وهيبته ، عد العوام ، فإن ذلك لي يوزك ، من قوادك وأنصارك ، إن شاء الله .

وإياك أن تُنفذ رأيا ، أو تُبرم أمرا ، إلا برأى شيخك ، وبقية آمالك ، الفضل بن الربيع ، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخراش وغير ذلك ؛

ولا تُخْرِجَ أَحَدًا مِنْهُمْ ، مِنْ صَمْنٍ مَا يَلِي ، إِلَى أَنْ تَقْدُمَ عَلَيَّ . وَقَدْ أُوصِيْتُ بِكَرْنِ الْمُعْتَمِرِ
بِمَا سَيُلَاحِظُكَ ، وَأَعْمَلُ فِي ذَلِكَ قَدْرَ مَا تَشَاهِدُ وَرَى . وَإِنْ أَمَرْتُ لِأَهْلِ الْعَسْكَرِ بِعَطَاءٍ
أَوْ رَقٍّ فَلْيَكِ الْعَصْلُ بِنِ الرَّبِيعِ الْمُتَوَلَّى لِإِعْطَائِهِمْ ، عَلَى دَوَاوِينَ يَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ ، بِمَحْضَرٍ
مِنْ أَصْحَابِ الدَّوَاوِينَ ، فَإِنَّ الْعَصْلَ بِنِ الرَّبِيعِ لَمْ يَزَلْ مِثْلَ ذَلِكَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ . وَأَنْفِذْ
إِلَى عِدَدٍ وَصُولَ كَتَايَ هَذَا إِلَيْكَ إِسْمَاعِيلَ بِنِ صَبِيحٍ ، وَكَرْبَنَ الْمُعْتَمِرِ ، عَلَى مَرَكَبَيْهِمَا
مِنَ الْبَرِيدِ ، وَلَا يَكُنْ لَكَ عُزْرَةٌ وَلَا مُهْلَةٌ ، بِمَوْصِلِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، حَتَّى تُؤَوِّجَهُ إِلَى
بَعْسِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخِزَائِنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . أَخُوكَ يَسْتَدْفِعُ اللَّهُ عَنْكَ ، وَيَسْأَلُهُ لَكَ
حَسَنَ التَّائِيدِ رَحِمَتَهُ . وَكُنْتُ بِكَرْنِ الْمُعْتَمِرِ بَيْنَ يَدَيَّ وَإِمْلَأْنِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهاك مثلاً مما كتبه المأمون إلى ولّاه في الأحد بمدهه في القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عالمه إسحاق بن إبراهيم وما يرويه لنا الطبري مما حصل .
أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وحلفائهم الاجتهاد في إقامة دس الله الذي استحقطهم، وموارث السوء التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيّتهم، والتشهير لطاعة الله فيهم، والله يسأل أئمة المؤمنين، أن يوقه لعمره الرشد وصرمته، والإقساط فيا ولّاه الله من رعيّته، برحمته وميته، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعيّة، وسفلة العاقمة، من لا يطر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استصاءة بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وصلالة عن حقيقه ديبه وتوحيدهِ والإيمان به، وتكوير عن واصحات أعلامه وواح سبيله، وقصور أن يقدرُوا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويعترفوا بيبه وبين حلقه، لصعف آرائهم، ونقص عقولهم، وحفائهم عن التفكير والتدكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فاطبقوا محتعين، وآتفقوا غير معاهدين، على أنه قدّم أول، لم يخلق الله، ويُحدثه ويُخترعه، وقد قال الله عز وجل في مُحكم كتابه، الذي جعله لنا في الصدور شعاعاً، وللمؤمن رحمةً وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . فكلّ ما حمّله الله فقد حلقه، وقال : ﴿ اتَّخَذُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَحَمَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَقَى ﴾ . فأحر أنه قصص لأُمور أحدثه بعدها، وتلا به مُتقدّمها، وقال : ﴿ الزَّكِىَّ كَاتِبٌ أَهْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ . وكلّ مُحكم مُفصل، فله مُحكم مُمّصل، والله مُحكم كتابه ومفصله، فهو حالقه ومُستلّعه،

ثم هم الذين حادلو بالباطل ، ودعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة ، وفي كلّ فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مُطل قولهم ، ومكذّب دعواهم ، يردّ عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأنّ من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وعزّوا به الجُهل ، حتى مال قومٌ من أهل السُّنن الكاذب ، والتحقّش لعير الله ، والتحقّش لعير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطاتهم على سيّئ آرائهم ، تزيّياً بذلك عدهم ، ونصّبوا للرئاسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى ما ملهم ، واتّحدوا دون الله وليحة إلى صلاتهم ، فقلّلت بتركيتهم لهم شهادتهم ، ونعدت أحكام الكتاب بهم ، على دَعَل دينهم ، وفعل أديمهم ، وفساد نيّانهم و يقينهم ؛ وكان ذلك عايتهم التي إليها حروا ، وإياها طلبوا في متاعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ، ألا يقولوا على الله إلّا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمّهم الله ، وأعمى أنصارهم ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ . فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأئمة ، ورعوس الضلالة ، المتقوصون من التوحيد حظا ، والمختسسون من الإيمان نصيبا ، وأوعيه الجهالة وأعلام الكذب ، ولسان إبليس اللاطق في أوليائه ، والهاائل على أعدائه ، من أهل دين الله ، وأحقّ من يُهمُّ في صدقه ، وتُطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلّا بعد يقين ، ولا يقين إلّا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإحلاص التوحيد ، ومن عَمِيَ عن رشده وحفظه ، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عتما سوى ذلك من عمله ، والقصد في شهادته ، أعمى وأصل سبيلا ، ولعمر أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخص الباطل في شهادته من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وأن أولاهم برّد شهادته ، في حكم الله ودينه من ردّ شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجتمع من بحضرتك من القصة ، وأقرا عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فأبدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله القرآن وإحداثيه ؛ وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عياله ، ولا وائقي

فإِله الله، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وحلوص بوحيدة وبقية، فإذا أقرؤا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والسجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من اليهود على الناس، ومسألهم عن علمهم في القرآن، ورك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق مُحدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك، عن قصاه أهل تملك في مسألهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تُفقد أحكام الله، إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله . وكتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، إلى إسحاق بن إبراهيم، في إشخاص سبعة نفر، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستمل يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، ورهبر بن حرب أبو حنيفة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدؤوبي، فأشخصوا إليه، فامتنعهم، وسألهم عن حل القرآن، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق، فأفخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهروا أمرهم وقولهم بحصره الفقهاء، والمساكين من أهل الحديث، فأقرؤا بمثل ما أحابوا به المأمون على سبيلهم، وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم :

أما بعد، فإن من حق الله على خلقه في أرضه، وأمانته على عبادته، الدين ارتصاهم لإقامة دسه، وحملهم رعاية خلقه، وإمضاء حكمه وسننه، والائتمام بعبده في بريته، أن يجهدوا لله أمسهم، ويتصالحوا له فيما استحفظهم وقلدهم، وتداولوا عليه — تبارك اسمه وتعالى — بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاع عنه، ويردوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم تمت نجاتهم، ويقهروهم على حدود إيمانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم، ومشتبهاتها

عليهم، بما يدفعون الرب عنهم، ويعود بالصياء والديه على كافتهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتصيرهم، إذ كان حامعا لصون مصالحهم، ومستظا لحظوظ عاجلتهم وأجلتهم، ويتذكروا أن الله مُرْصِدٌ من مساءلتهم عما حُمِلُوا، ومخاراتهم بما أسلفوه، وقدموا ^{لنفسهم}، وما توفيقُ أمير المؤمنين، إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به. ومما بينه أمير المؤمنين برويته، وطالعه فكره، فتبين عظيم خطره، وحليل ما يرجع في الدين من وكفه وصرره ما يبال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم نقيه، وأشتباهه على كثير منهم، حتى حُسَّ عدهم، ورسَّ في عقولهم، ألا يكون مخلوقا، فتعزصوا بذلك لدفع حلق الله، الذي ناد به عن خلقه، وتفرّد بحالاته من استداع الأشياء كأما يحكمه، وإشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته، التي لا تُسَلَّعُ أولاها، ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه، خلقا من خلقه، وحدثا هو المحدث له. وإن كان القرآن باطلا به، ودالا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وصاهوا به قول البصاري، في أدعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وتأويل ذلك: إما خلقه، كما قال حل حلاله ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا رُوحَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾. فسوى عز وجل، بين القرآن، وبين هذه الخلائق، التي ذكرها في شبيه الصعده، وأحبر أنه جاعله وحده، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ قُرْآنٌ مُجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾. فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لميه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَحْرُكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَكَلَّمَ بِهِ﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَسْمَعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا أَعْيُنَهُمْ مِنَ الذَّنْبِ أَوْ يُسَلِّمُوا لَهُ أَجْزَاءً﴾. وأحبر عن قوم ذمهم بكنههم، أنهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. ثم أكدهم على لسان رسوله، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي حَاءَ بِهِ مُوسَى﴾. فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا، وإيمانا ونورا وهديا ومباركا وعربيا

وقصصاً، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَحْتَمَعْتَ الْإِنْسَ وَالْحِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ فَأَنُؤِ بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فجعل له أوْلاً وآخراً ، ودل عليه ، أنه محدودٌ مخلوق ، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن ، التلم في دنهم ، والحرّح في أماسهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، وأعتروا بالتدليل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفتوا ، ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به ، والإشاه أولى بخلقهم ، وليس يرى أمير المؤمنين ، لمن قال بهذه المقالة خطأ في الدين ، ولا بصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحَلَّ أحداً منهم محل الثقة وأمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صِدْقٍ في قول ولا حكاية ، ولا توليه لشيء ، من أمر الرعية ، وإن طهر قصد بعضهم ، وعُرف بالسداد مُسَدِّدٌ فيهم ، فإن الفروع مردوده الى أصولها ، ومجولة في الحمد والدم عليها ، ومن كان جاهلاً بأمر ديه ، الذي أمره الله به ، من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلاً ، وعن الرشد في غيره أعمى وأصل سبيلاً .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين ، بما كتب به إليك ، واصصهما عن علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإحلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يُقَرَّ بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم الهمما في امتحان من يحضر مجالسهما ، بالشهادات على الحقوق ، وبصهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق ، أطلأ شهادته ، ولم يقطعاً حكماً بقوله ، وإن ثبت عمافه بالقصد والسداد في أمره ، وأفعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيره في بصيرته ، ويميع المرتاب من إعمال ديه ، وأكتب الى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله .

ثم لسطر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال :

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من العلماء والحكام والمحدثين ، وأحضر أنا حساك الرامدي ، وندرس الوليد الكندي ، وعلى بن أبي مقاتل ، والفصل بن عامر ، والديال بن الهيثم ، وحنادة ، والقواريري ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ، وعلى بن الجعد ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وأبن الحرث ، وابن عيسى الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العمري ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة وأنا نصر التمار وأنا معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن يوح المصروب ، وابن الفرخان ، وجماعة منهم النصر بن شميل ، واس على بن عاصم ، وأبو العوام البراز ، وابن شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، فأدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين ، حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد . ما تقول في القرآن ؟ فقال . قد عرفت مقالاتي لأمر المؤمنين عبر مره ، قال . فقد نحدث من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال . الله خالق كل شيء ، قال : ما القرآن شيء ؟ قال . هو شيء ، قال . أمخلوق ؟ قال . ليس بخالق ، قال : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال . ما أحسن عبر ما قلت لك ، وقد استعهدت أمر المؤمنين ألا أتكلّم فيه ، وليس عدى عن ما قلت لك ، فأحد إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قلبه شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : أكتب ما قال .

ثم قال لعل بن أبي مقاتل : ما تقول يا علي ؟ قال : قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرّة ، وما عدى عن ما سمع ، فامتحه بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا ، فقال للكاتب : أكتب مقاله .

ثم قال للذيّال نحواً من مقالته لعلّ بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسان الزيّادى : ما عندك ؟ قال : سَل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ، ووقفه عليها فأقر بما فيها . ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله حائق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إماماً وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلّده الله أمرنا ، فصار يُقيم حجّاً وصلاتنا ، ويؤدّي إليه زكاة أموالنا ، ونحاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا انتمرنا ، وإن نهانا أنهيّا ، وإن دعانا أجسّا ، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أحررتى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به ، فإنك الثقة ، المأمون عليه ، فيما أبلغتني عنه من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرتُ إليه ، قال : ما أمرني أن ألتك شيئا ، قال علي بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها ، قال له أبو حسان : ما عدى إلا السمع والطاعة ، فمرني آمّراً ، قال ما أمرني أن آمرك ، وإنما أمرني أن أمتحك .

ثم عاد الى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أم مخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنه بما في الرقعة ، فلما أتى الى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وأمسك عن لا يُشَبِّهُ شَيْءٌ من حلقة ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سمع من أذن ، بصير من عيني ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سمع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لا أدري هو كما وصف نفسه ، ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقول : القرآن كلام الله ، إلّا هؤلاء المر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيَّة الأكر ، وابن البكاء ، وعبد المَعَم بن إدريس

اس بنت وَهْب بن مُسَّة ، والمُطَفَّر ابن مُرَحَّحَا ، ورحلا صريرا ليس من أهل الفقه ، ولا يُعرَف بشيء منه إلا أنه دُسَّ في ذلك الموضع ، ورحلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة ، وابن الأحمر ، فأما ابن السَّكَّاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، وَالْقُرْآنَ مُحَدَّثًا لِقَوْلِهِ : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ﴾ ﴾ قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق قال : لا أقول مخلوق ولكنه مجعول ، فكتب مقاله ، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم أعترض ابن السَّكَّاء الأصغر فقال — أصلحك الله — : إن هذين القاصيين أمَّه ، فلو أمرتهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : هما من يقوم بحجَّه أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرهما أن تُسمِعَا مقالهما ليحكِي ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شَهِدْتَ عندهما بشهادته فستعلم مقالاتهما إن شاء الله . فكتب مقالة القوم رحلا رحلا ووُحِّهت إلى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون . حوَّابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم . وهاك هو ما فعله حتما لكلتنا .



بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كَمَاكَ حوَّابُ كتابه ، كان اليك فيما ذهب إليه مُتَصَبِّعُ أهل القلعة ، ومُأْجِسُو الراسه فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول في القرآن ، وأمرَك به أمير المؤمنين ، من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالهم ، بذكر إحصاءك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أَحْصَرْتَ ممن كان ينسب إلى الفقه ، ويُعرَف بالحلوس للحدث ، ونُصِبَ نفسه للفتيا بمدسه السلام ، وقراءتك عليهم جميعا كتاب أمير المؤمنين ، ومسانك إنهم عن اعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على خطيئهم ، وإطاعتهم على هيئته ، واختلافهم في القرآن ، وأمرَك مَنْ لم يقل معهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى ، في السرِّ والعلانية ، وتقدَّمَك إلى السَّيِّدِي ، وعاس مولى أمير المؤمنين بما

تقدّمت به فيهم الى القاصّيتين بمثل ما مثّل لك أمير المؤمنين، من امتحان مَنْ يَحْصُرُ مجالسهما من الشهود، وثّ الكتب الى القضاء في الواحي من عملك بالقدوم عليك، لِتَحْمِلَهُمْ وَتَمْتَحِنَهُمْ على ما حده أمير المؤمنين، وتثنيّت في آحر الكلاب أسماء مَنْ حصر ومقالانهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت، وأمير المؤمنين محمد الله كثيرا كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرعب الى الله في التوفيق لظاعته، وحسن المعوّة، على صالح بيته رحمته.

وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن الصرّاء، وما رجّع اليك فيه كل أمرئ مهم، وما شرحت من مقالهم، فأما ما قال المعرور شرّس الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وأدعى من تركه الكلام في ذلك وآستعماده أمير المؤمنين، فقد كذب بشرّ في ذلك وكفر، وقال الزور والمكر، ولم يكن بحرّ بين أمير المؤمنين وبنته في ذلك، ولا في غيره، عهد ولا نظر أكثر من إحارته أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق، فادّع به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله في القرآن، واستتبّه منه، وإن أمير المؤمنين يرى أن تستبّ من قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحص عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وأعت إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، وإنه كان يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه، واللع، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره وأكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وأعت إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له: ألسن القائل لأمر المؤمنين إنك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل ما كتبت به، مما لم يذهب عنه ذكره؛ وأما الذّبال بن الهيثم، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسيرقه في الأبّار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبى العباس ما يشغله، وأنه لو كان مفتنياً آثار سلفه، وسالكا مساجدهم، ومُخَذِّيا سبيلهم، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَوام، وقوله إنه لا يُحْسِنُ الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبيٌّ في عقله، لا في سده، جاهل، وأنه إن كان لا يُحْسِنُ الجواب في القرآن فسيُحْسِنُه، إذا أحذه التأديبُ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل، وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عَرَفَ حَقَّوى تلك المقالة، وسبيلَه فيها، وأستدلَّ على جهله، وأفته بها، وأما الفصل بن غانم، فأعلمه أنه لم يَحْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما آكتسب من الأموال في أقل من ستة، وما شَتَرَ بيده وبين المُطَّلَب بن عبد الله في ذلك، فإنه من كان شأنه شأنه، وكانت رغبته في الديار والدرهم رغبته، فليس بمُسْتَكْرَأٍ يبيع إيمانه طمعا فيها، وإينارا لعاحل معهما، وإنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال، والخائف له فيما حاله فيه، فما الذي حال به عن ذلك، ونقله إلى غيره؛ وأما الريادي، فأعلمه أنه كان مُسْتَحِلًّا لِأَوَّلِ دَعْيٍ كان في الإسلام حُوفٍ فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان حديرا أن يسلك مسلكه فانكر أو حسن أن يكون موثق لرياد، أو يكون موثق لأحد من الناس، — وذكر أنه إنما نُسِبَ إلى رِيَادٍ لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبى نصير التمار، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجربة؛ وأما الفصل بن الفرحان، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أحدَ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، ترتضا بمن استودعه، وطمعا في الاستكثار لما صار في يده، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده، وتناول الأيام به، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جراك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا، وإيمانك إياه، وهو معتقدٌ للشرك، منسلخ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم، وابن بوح، والمعروف بأبى مَعْمَر، فأعلمهم أنهم مشاغل بأكل الربا، عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله وبالله هدمهم،

إلا لإربابهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاء، وصاروا للصارى مثلاً، وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبُه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحلّه من مال عليّ بن هشام، وأنه من الدينار والدرهم ديه، وأما سعدويه الواسطيّ فقل له: قحّ الله رحلا بلغ به التصعُّ للحديث، والترين به، والحرصُ على طلب الرئاسة فيه، أن يتمي وقت المحبة فيقول بالتمزب بها: متى يُمتحنُ فيجلسُ للحديث؛ وأما المعروف تسعاده، وإكأره أن يكون سميع ممن كان يحالس من أهل الحديث، وأهل القعه، الهولُ بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شعله بإعداد السوى، وحكّه لإصلاح تتعاده، وناوداعه الى دفعها إليه على بن يحيى وعيره ما أدهله عن التوحيد وألهاه، ثم سلّه عما كان يوسف بن أوى يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وحالهما، وأما العوار يرى فعباً تكشف من أحواله، وقوله الرشا والمصاعبات ما أمان عن مذهبه، وسوء طريقته، وتخافة عقله وديعه، وقد أبهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لجعفر بن عيسى الحسنى مسائله، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى في روضه، وترك الثقة به، والاسنامة إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العدرى، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فحوايه معروف، وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه لم يتحل النحلة الى حكيته عنه، وإنه بعد صىّ يحتاج الى تعلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبى مُسهر، بعد أن بصره أمير المؤمنين عن محنته في القرآن، فحمّج عنها، وبخلّج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ دميماً، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيماً عليه فأشهره ذلك وأطهره إن شاء الله، ومن لم يرجع عن شركه ممن سقيت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشرى الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فاحلهم أجمعين، مؤتقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤتيهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلمهم الى من يُؤمر بسليمهم اليه ، ليُصمهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هدا في خريطة بُندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجلا به ، تقترنا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما أعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأبعد لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعغل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عهد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عهد طاهر بن الحسين الى عبدالله أبه هذا العهد، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرئ عليه، وقال : ما أبق أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا، والتدبر والرأى، وإصلاح الملك والرعية، وحفظ البيعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدم فيه . وأمر أن يكتبَ بذلك الى جميع العمال في نواحي الأعمال . ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية أثرا ذكره على ما فيه من طول رغبة ما في ألا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطير، وهما أنه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه ، وحفظ رعيته ، وألزم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومستول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ويحييكم يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن اليك ، وأوحى عليك الرأفة بمن أسترعك أمرهم من عاده ، وأرمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبئضهم ، والحق لدمائهم ، والأمر لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك بما فرص عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومساءلك عنه ، وميثيق عليه بما قدمت وأخرت ، ففرع لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك ، ولا يذهلك عنه دهل ، ولا يشعلك عنه شغل ، فإنه رأس أمرك وملاك شأنك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتُسب إليه فعالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالاس قبلك في مواقيتها على سفنها في إسباع الوصوء لها وأفتتاح ذكر الله فيها ، وترتل في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، وتصدق فيها لربك نيتك ، وأحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وآداب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأحمد بسن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمثارة على حلاته، وأقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستحارة الله وتقواه، ولروم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وإتمام ما حاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحبت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تری به المرء الفقه في دين الله، والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والقائد له، والآمر به، والساهى عن المعاصي والمواقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله، عز وجل، وإحلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد، مع ما في طهوره للناس من التوقير لأمره والهيبة لسلطانه، والأنس به والثقة به. وعليك بالاعتصام في الأمور كلها فليس شيء أئين بها ولا أحصر أمسا ولا أجمع فصلا من القصد، والقصد داعية إلى الرشده، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق منقاد إلى السعادة، وقوام الدين والسس الهادية بالاعتصام، فأثره في دنياك كلها، ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة، والسس المعروفة ومعالم الرشده، فلا عاة للاستكثار من البر والسعى له، إذا كان يطلب به وجهه الله ومرصاته، ومرافقة أوليائه، في دار كرامته.

وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز، ويحصن من الدوب وأك لن تحوط نفسك ومن يليك، ولا تستصليح أمورك، فأفصل منه، فاته، وأهتد به تم أمورك، وتزد مقتدرتك، وتصلح حاصتك وعانتك، وأحسن الظن بالله عز وجل، تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها، تستدم به العمة عليك، ولا تبص أحدا من الناس، فيما توليه من عملك، قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم، وأجعل من شاكك، حسن الظن بأصحابك، وأطرد عك سوء الظن بهم، وأرفضه عنهم، يعلك ذلك على أصطباعهم ورياستهم، ولا يخذل عدو الله الشيطان في أمرك مغمرا،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهَبِكَ فَيَدْحُلْ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ ، فِي سُوءِ الطَّنِّ ، مَا يُعْصِصُ عَلَيْكَ لِدَاذَةِ عَيْشِكَ ، وَأَعْلَمُ أَلَيْكَ تَحَدُّ بِحَسَنِ الطَّنِّ ، قُوَّةَ وَرَاحَةٍ ، وَتَكْتَفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِبَايَتِهِ مِنْ أُمُورِكَ ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحْتِكَ ، وَالْإِسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ . وَلَا يَمْلِكُ حَسَنُ الطَّنِّ بِأَصْحَابِكَ ، وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ ، أَلَّا تَسْتَعْمَلَ الْمُسْتَلْةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالطَّرْفَ فِيمَا يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا ، بَلْ لِيَتَكُنِ الْمُبَاشَرَةُ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَالْحَيَاطَةُ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالطَّرْفُ فِي حَوَائِجِهِمْ ، وَحَمْلُ مَوَافِقِهِمْ ، آثَرَعَدُكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ ، وَأَحْيَا لِلنَّسْلِ ، وَأَحْلَى لِلنَّكَاحِ فِي جَمِيعِ هَذَا ، وَتَعَزُّدُ تَقْوِيمِ نَفْسِكَ ، تَفَرُّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَوَلٌّ عَمَّا صَبَحَ ، وَبَجَزَى مِمَّا أَحْسَسَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَمَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا ، وَرَبَعَ مَنْ آتَمَعَهُ وَعَزَّزَهُ ، فَاسْلُكْ مِنْ تَسْوِسِهِ وَتَرْعَاهُ ، سَبِيلَ الدِّينِ ، وَطَرِيقَةَ الْهُدَى ، وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ فِي أَصْحَابِ الْحَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ ، وَمَا أَسْتَحَقُّوهُ ، وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَاقُ بِهِ ، وَلَا تُؤَخِّرْ عَقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ ، لِمَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ طَنِّكَ ، وَاعْزِمِ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ مَا لَسْتَ الْمَعْرُوفَ ، وَحَانِبِ الشُّبْهِ وَالْبِدْعَاتِ ، يَسْلُمُ لَكَ دِينُكَ ، وَتَقُمُّ لَكَ مَرْوَةُكَ ، وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فَبِهِ ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ فَأَبِجْهِ ، وَأَقِلَّ الْحَسَنَةَ ، وَأَدْفَعْهَا ، وَأَعْمِصْ عَنِ عَيْبِ كُلِّ دِينٍ عَيْبِ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَشَدُّ لِسَانِكَ عَنِ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ ، وَأَبْصِصْ أَهْلَهُ ، وَأَقْصِصْ أَهْلَ النِّيمَةِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فُسَادِ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ الْأُمُورِ وَآجِلِهَا ، تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ ، وَالْحِرَاةُ عَلَى الْكَذِبِ ، لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ ، وَالزُّورَ وَالنِّيمَةَ حَاتِمَتُمَا ، لِأَنَّ النِّيمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا ، وَقَاتِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبُهَا وَلَا يَسْتَقِيمُ لِمَطْعِمِهَا أَمْرٌ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالصَّلَاحِ ، وَأَعَزُّ الْأَشْرَافِ مَالِحُ ، وَوَاصِلُ الصَّغَفَاءِ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ، وَابْتَعِ بِذَلِكَ وَحَةَ اللَّهِ ، وَعِزَّهُ أَمْرَهُ ، وَأَلْتَمِسْ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ، وَاجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجَوَرِ ، وَأَصْرِفْ عَنْهَا رَأْيَكَ ، وَأَطْهِرْ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ ، وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ سِيَاسَتَهُمْ ، وَفَمَّ الْحَقِّ فِيهِمْ ، وَبِالْمَعْرِفَةِ إِلَى تَنْهَى نِكَاحِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى ، وَأَمْلِكْ نَفْسَكَ عَنِ الْغَضَبِ ، وَأَثَرِ الْوَقَارِ وَالْحِلْمِ ، وَإِيَّاكَ وَالْخِدَّةَ وَالطَّيْشَ وَالْعُرُورَ فَمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ

تقول . إني مُسَلِّطٌ لأهل ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأحليصُ لله وحده البية فيه ، واليقين به ، وأعلم أن الملك لله ، يعطيه من يشاء ، ويرعه من يشاء ولن تجدَ تعيرَ النعمة ، وحلولَ النعمة ، إلى أحدٍ أسرعَ منه ، إلى حملة النعمة ، من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم في الدولة ، اذا كهروا سعى الله وإحسانه وأستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عك شره نفسك ، ولكن دُخْرَكَ وكسوزك التي تَدْرُ وتَكْتَرُ ، البر والتقوى ، والمعدلة ، وأستصلاح الرعية وعمارَ بلادهم ؛ والتعقد لأموالهم ، والحفظ لدمائهم ، والإعانة للمهوفهم ، وأعلم أن الأموال اذا كثرت ودُخِرَت في الخزائن ، لا تُثْمَرُ ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكفّ المؤوبة عنهم ، تمت وربّت ، وصلحت به العامة ، وتربّت به الولاة ، وطاب به الرماة ، وأعتقد في العرو والمنفعة ، فليكن كُثْرُ خزانك تمريق الأموال في عمارَة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قِلْكَ حقوقهم ، وأوفِ رعيّتك من ذلك حصصهم ، وتمهّد بما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك اذا فعلت ذلك قوت النعمة عليك ، وأستوحشت المزيد من الله ، وكست بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيّتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردت ، فاحهد نفسك ، فيما حدت لك في هذا الباب ، ولتَعظمَ حُبَّتُكَ فيه ، فإنما يبقى من المال ، ما أنفق في سبيل حقه ، وأعير للشاكرين شكرهم ، وأنهم عليه ، وإياك أن تُسِيك الدنيا وعمرورها هَوْلَ الأخرة ، فتهاوَنَ بما يحق عليك ، فان التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله ، وفيه تبارك وتعالى ، وأزجُ الثواب ، فإن الله قد أسبع عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يَزِدْكَ الله حبرا وإحسانا . فان الله يشيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنيين ، وقضاء الحق فيما حمل من التعم ، وآلبس من العافية والكرامة ، ولا تحقرن دنبا ، ولا تمالئ حاسدا ، ولا ترحم فاجرا ، ولا تصان كهفورا ، ولا تدهن عدوا ، ولا تصدق تنما ، ولا تأمن غدارا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تتبع غاويا ، ولا تمهدن

مُرائياً ، ولا تحقِر إنساناً ، ولا تردّد سائلاً فقيراً ، ولا تحبّن ماطلاً ، ولا تلاحظ مصحكاً ، ولا تُحلفن وعداً ، ولا تنهس نفراً ، ولا تظهرن غصّاً ، ولا تأتين بدحّاً ، ولا تمشين مَرَحاً ، ولا تركن سَمَهاً ، ولا تُفِرطن في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عياناً ، ولا تُفيمصن عن الظالم ربه منه ، أو عافّةً ، ولا تطاين ثواب الآخرة في الدنيا ، وأكثر مشاورة الفقهاء ، وأسّتعيل نفسك بالحلم ، وحد عن أهل التجارب ودوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدخِلن في مشورتك أهل الدقة والصل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، وإب صررهم أكثر من مسمعتهم ، وليس شيء أسرع ساداً لما استقلت في أمر رعيتك من الشّح ، وأعلم أنك اذا كنت حريصاً ، كنت كثير الأخذ ، قليل العطية ، واداكمت كذلك لم يَسْتَقِم لك أمرك إلا قليلاً ، فان رعيتك إما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الحور عليهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفصال عنهم ، وحسن العطية لهم ، فأحْتَب الشّح ، وأعلم أنه أول ما عَصَى به الإنسان ربه ، وإن العاصي عملة جَرى ، وهو قول الله عز وجل ، ﴿ وَمَنْ يُوقِ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فسهّل طريق الخود بالحق ، وأحمل للمسلمين كلهم من يتك حفظاً وصيباً ، وأيقن أن الخود من أفضل أعمال العباد ، فأعده لنفسك حلّفاً ، وأرض به عملاً ومذهباً ، وتفقد أمور الحد في دواويهم ، ومكاتبهم ، وأدرر عليهم أرواقهم ، ووسّع عليهم في معاشهم ، ليذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك ، حلّوصاً وانشراحاً ، وحسب ذى سلطان من السعادة ، أن يكون على حده ورعيته ، رحمة في عدله وجبظته وإضافه وعاشته ، وشفقته وبرّه وتوسّعته ، فزایل مكرهه إحدى البليتين ، باستشعار تكملة الباب الآخر ولروم العمل به تلقى أن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً .

وأعلم أن القضاء من الله ، فالمكان الذى ليس مثله شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تتعبد عليه الأحوال في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتؤم السبل ، وينتصم المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسّ المعيشة ، ويؤدّى حق

الطاعة، وَيَرْزُقُ اللهُ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَيَقُومُ الدِّينَ، وَتَحْرَى السَّنَنَ وَالشَّرَائِعَ، وَعَلَى تَجَارِيهَا يُنْتَحَزُ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ فِي الْقَضَاءِ . وَأَشْتَدَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَتَوَرَّعَ عَنِ النَّطْفِ وَأَمَصَ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَأَقْلَلَ الْعَهْلَةَ، وَأَعِيدَ مِنَ الصَّحَرِ وَالْمَلَقِ، وَأَقْعَ الْقِسْمَ، وَلْتَسْكُنْ رِيحُكَ، وَيَقْزَحْ حَذُكَ، وَانْتَمَعَ بِحَرَّتِكَ، وَابْتَهَ فِي صَمْتِكَ، وَاسْتَدَّ فِي مَطْلَقِكَ، وَأَنْصَفَ الْحَصْمَ، وَوَقِفَ عَسَدَ الشَّهْمِ، وَأَلْعَ فِي الْحَمَةِ، وَلَا يَأْخُذْكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ مُخَامَاهَ وَلَا مُحَامَلَةً، وَلَا لَوْمَ لِأَنْتُمْ، وَتَنْتَ وَتَانٌ، وَرَاقِبٌ وَأَنْظَرُ، وَتَدْتَرُ وَتَمْتَكِرُ، وَأَعْتَبِرْ وَتَوَاصَعَ لِرَبِّكَ، وَارْأَفَ بِجَمِيعِ الرِّعْيَةِ، وَسَاطَ الْحَقِّ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تَسِرْعَنَّ إِلَى سَفْكَ دَمٍ، فَإِنَّ الدَّمَاءَ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ انْتَهَا كَأَنَّهَا سَيْرُ حَقِّهَا، وَأَنْظِرْ هَذَا الْخَرَّاحَ الَّذِي اسْتَقَامَتَ عَلَيْهِ الرِّعْيَةُ، وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرِيعَةً، وَلِأَهْلِهِ سَعَةً وَنَمَّةً، وَلِعَدْوِهِ وَعَدْوَهُمْ كِتْمًا وَعِيطًا، وَلِأَهْلِ الْكُمَرِ مِنْ مَعَاهِدَتِهِمْ دَلًّا وَصَعَارًا، فَوَرَّعَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ، وَالْعُمُومِ فِيهِ، وَلَا تَدْعُ مِنْهُ شَيْئًا عَنْ شَرِيفٍ لَشَرَفِهِ، وَعَنْ عَنَى لِعَمَاهُ، وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ، وَلَا أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ، فَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ، فَوْقَ الْإِحْتِمَالِ لَهُ، وَلَا تَكْلُفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ، وَأَحْمِلِ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى مُرِّ الْحَقِّ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِأُلُفَّتِهِمْ، وَأَلْزَمُ لِرِصَى الْعَامَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ بِوِلَايَتِكَ حَازِنًا وَحَافِظًا، وَرَاعِيًا، وَأَمَّا سَمَى أَهْلَ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ، لِأَنَّكَ رَاعِيَهُمْ، وَقِيَمَهُمْ، تَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ، مِنْ عَفْوِهِمْ وَمَقْدَرِهِمْ، وَشَفَقِهِ فِي قَوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ، وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِمْ، فَاسْتَعْمَلْ عَلَيْهِمْ فِي كُورِ عَمَلِكَ، دَوَى الرِّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّحَرُّةِ وَالتَّحْبِيرِ بِالْعَمَلِ، وَالْعِلْمِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَمَافِ، وَوَسَّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحَقُوقِ الْإِلَازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقَلَّدْتَ، وَأُسَيْدَ إِلَيْكَ، وَلَا يَسْغُلُكَ عَنْهُ شَاعِلٌ، وَلَا يَصْرِفُكَ عَنْهُ صَارِفٌ، فَإِنَّكَ مَتَى آثَرْتَهُ، وَقَمْتَ فِيهِ بِالْوَاحِدِ، اسْتَدَّعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ، وَحَسَنَ الْأَحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ، وَاسْتَحَرَّرْتَ بِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ، وَأَعْنَتْ عَلَى الصَّلَاحِ، فَدَزَنْتَ الْخَيْرَاتَ بِبِلَدِكَ، وَقَشَّتَ الْعِمَارَةَ بِنَاحِيَّتِكَ، وَطَهَرَ الْحَصْبَ فِي كُورِكَ، وَكَثَّرَ خِرَاحَكَ، وَتَوَقَّرْتَ أَمْوَالَكَ، وَقَوَيْتَ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِبَاطِ حَسَدِكَ، وَإِرْصَاءِ الْعَامَةِ، بِإِفَاصِهِ الْعَطَاءَ فِيهِمْ مِنْ

فسك ، وكنت محمود السياسة ، مرصى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ، داعل وقوة ، وآلة وعُدّة ، فنافس في هذا ، ولا تقدّم عليه شيئاً ، مُحمد مَعّة أمرك ، ان شاء الله ، وأجعل في كل كوره من عملك أمياً ، يحبرك أحبار عُمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى تأكل مع كل عامل في عمله ، مُعاًي لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورحوت فيه حسن الدفاع ، والصّح والصّبح فأمّصه ، وإلا توقّف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم حُد فيه عُدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره ، قد واثاه على ما يهوى ، فقواه على ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ، وقص عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استتاره بك ، في جميع أمورك ، وأقرع من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرة بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي آخرت ، وأعلم أب اليوم اذا مضى ذهب مما فيه ، واذا آخرت عمله أجمع عليك أمر يومين ، فشعلك ذلك حتى تُعرض عنه ، فاذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك وبذلك ، وأحكمت أمور سلطاك ، وأظّر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم أستيقن صفاء طوبيتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومطاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستحلصهم ، وأحسن اليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤوتهم وأصلح حالهم ، حتى لا يحدوا لخلتهم مساً ، وأورد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك ، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أحسن مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتطرفها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى الأساء ويَتامهم وأراملهم ، وأجعل لهم أرزاقاً من بيت المال أقصداء بأمير المؤمنين أعزه الله في العطف عليهم والصّلة لهم ، ليُصلح الله بذلك عيشهم ، وبرزقك به بركة وزيادة ، وأجرٍ للأمرءاء من بيت المال ، وقدم حَملة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، في الحراية على غيرهم، وأنصب لمصرى المساميين دوراً
تؤويهم، وقوماً يرقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم شهواتهم، ما لم يؤذ ذلك
إلى سرف في بيت المال، وأعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم، وأفصل أمانيتهم لم يرضهم
ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رفع حوائجهم إلى وولاتهم، طمعاً في نيل الزيادة، وفضل
الرفق منهم، وربما ريم المتصفّح لأموار الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشعل فكره ودهه، ومنها
ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرد في العدل ويعرف محاسن أموره في العاقل
وفصل ثواب الآحل، كالذى يستقل ما يقتر به الى الله، ويلتمس رحمة به، وأكثر الإذن
للناس عليك، وأبرز لهم وحك، وسكن لهم أحراسك، وأخفص لهم جناحك، وأظهر لهم
شرك، ولن لهم في المسألة والمطلق، وأعطف عليهم بمحودك وفصلك، وإذا أعطيت فأعط
سباحة وطيب نفس، وألتمس الصديعة والأحر، غير مكدر ولا مآث، فإن العطية على ذلك
تجارة مُربحة ان شاء الله، وأعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مصى من قلك، من أهل
السلطان والرياسة، في القروا الخالية والأهم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله،
والوقوف عند محتمته، والعمل بشريعته وسنته وإقامة ديبه وكناه، وأجنب ما فارق ذلك
وخالجه، ودعا الى سخط الله، وأعرف ما تجمع عمالك من الأموال، ويُنفقون منها،
ولا تجمع حراماً، ولا تنفق إسرافاً، وأكثر محالسة العلماء، ومشاورتهم ومحالطتهم، وليكن
هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرم دحلاك وحاصتك
عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمعه هيتك من إنهاء ذلك اليك، في سر، وإعلامك
ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك، وأنظر عمالك الذين بحصرتك،
وتحباك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه يكتبه ومؤامراته
وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك
سمكاً ونصرك، وفهمك وعقلك، وكرّر النظر اليه والتدبر له، ما كان موافقاً للحزم والحق
فامضه وأستخير الله فيه، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه،

ولا تمنن على رعيّتك ولا على عيهم بمعروف تأتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا
 الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تصنع المعروف إلا على ذلك ،
 وتفهم كتابي اليك ، وأكثر الطرقيه ، والعمل به ، وأستعن بالله على جميع أمورك وأستحره ،
 فإن الله مع الصّلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأفصل رغبتك ، ما كان لله رِصًا ،
 ولدينه نظاما ، ولأهله عزّا وتمكينًا ، وللذمة والملة عدلا وصلاحا ، وأنا أسأل الله أن يحسن
 عونك وتوفيقك ، ورشدك وكلاءك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته ، تمام فضله عليك ،
 وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا ، وأوفرهم حظا ، وأستأنهم ذكرا وأمرًا ، وأن
 يهلك عدوك ومن نأواك ونهى عليك ، ويرزقك من رعيّتك العافية ، ويحجز الشيطان
 عنك ووساوسه ، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

(د) رسالة الخميس

من عند الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المايين على الحق، والباشرين للدين، من أهل نخراسان وعيرهم من أهل الإسلام . سلام عليكم ، فإن أمر المؤمنين يتحد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وسأله أن يصلّي على محمد عبده ورسوله .

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، دى العيز والسلطان ، والور والرهان ، فاطر السموات والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالنسب والطول على أهلها ، قل استحقاقهم لمثوته ، بالمحافطة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلا هاديا لهم الى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى اقتنوا علم موارد الاختيار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكوا على ما ينسب بما طهر ، وعلى ما عاب بما حصر ، وأستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُنَقِّصِ صُنْعته ، وحاجة مترايل خلقه ومُتَوَاصِلِهِ ، الى القوم ^(١) بما يَلْمُهُ وَيُصَابِحُهُ ، على أن له بارئاً أنشاء وأبتدأه ، ويسر بعصه لبعض . فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم فى تصرف أحوالهم ، وفنون انتقالهم ، وما يظهرون عليه من الحر عن التانى لما تكاملت به قواهم ، وتمت به أدوائهم ، مع أثر تدبير الله غز وحل وتقديره فيهم ، حتى صاروا الى الخلقة المحكمّة ، والدورة المعجّبه ، ليس لهم فى شىء منها تَلَطَّفَ يَتَمَعُونَهُ ، ولا مَقْصِدٌ يَعْتَمِدُونَهُ مِنْ أَنْسِهِمْ ، فإنه قال تعالى ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمُ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَىْ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ . ثم ما يَتَفَكَّرُونَ فيه من خلق السموات ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسحرات ، على مسير لا يَثْبُتُ الْعَالَمُ إِلَّا بِهِ من تصارييف الأزمنة التى بها صلاح الحرث والنسل ، وإحياء الأرض ، وإفراح السات والأشجار ، وتعاون الليل والنهار ، ومرار الأيام والشهور والسنين التى تُنْحَصَى بها الأوقات ، ثم ما يوحد من دلائل التركيب فى طبقات السقف المرفوع ، والمهاد الموصوع ، باختلاف أجزائه وألثامها ، ونحو الأنهار ، وإرساء

(١) القوم كالقيام ، مصدر قام .

الجلال . ومن البيان الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إيشائه الخلق ، وحدوثه بعد أن لم يكن مترقياً في السماء ، وشأنه إلى أحله في البقاء ، ثم عماره مُقَصِّصاً إلى عاية القاء . ولو لم يكن له مُفْتَسَحٌ عدد ولا مُقْطَعُ أمد ، ما أرداد بشوء ، ولا تَحْيَمُه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ، لأن ما لا حد له ولا هاية ، غير ممكن الاحتمال للنقص والريادة . ثم ما يوجد عليه منفعة من ثبات بعضه لبعض ، وقوام كل شيء منه بما يسر له ، وبده استمداده إلى متى تفاده ؛ كما أحتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وكل ما تقدم من الأحبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بى ، وأطباق الأرض التي دحا ، وأثار صُصعه فيما برأ وذرا ، ثابت في قطر العقول ، حتى يُسَحَّرَ أولى الرعب ما يذحلون على أنفسهم من الشبهة مما يجعلون له من الأصداد والانداد . حل عما يُشركون . ولولا بوحده بالتدبير ، عن كل مُعين وطهير ، لكان الشركاءُ حُدرًا أن تختلف بهم إرادتهم فيما يخلقون ، ولم يكن التحلف في إيشائه وإزالته ليلخلو من أحد وحيته ، وأيها كان فيه فالعجز والنقص مما أناه ورأه . حل الدبج خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَتَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . ثم من عظيم نعمة الله عز وجل على خلقه آفتهاده إياهم ، وأنه يُسَدِّدُهُمْ وَيُدْهِمُهُمْ عَلَى مَنَافِعِهِمْ ، وَيُجَبِّهُهُمْ مَصَارِعَهُمْ ، وَيَهْدِيهِمْ لِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ ، وَيُرْعِمُهُمْ فِي الْحَافِظَةِ عَلَى التمسك بدين الله عز وجل ، الذى حملة عِصْمَةٌ لَهُمْ وَحَارًا فِيهِمْ .

ولولا ما تقدم به من تلافيمهم وأستدراكهم بفصل رحمته ، لاجتاحهم التلف ، لقصور معرفتهم عن التأتى لأقواتهم ومعاينتهم ، ولم يكونوا ليقْتَصِرُوا على حطوطهم وأقسامهم عما بوا عليه من الجمع والرغبة ، ولتألكوا ابني بعضهم على بعض ، وعدوان قوتهم على صعيهم ، ولكنه بعد تعريفه إياهم مُلْكٌ قَدْرَتُهُ وَحَالَةٌ عَزَّتْهُ ، بعث إليهم أنبياء ورسله مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ،

بِالآيَاتِ الَّتِي لَا تَأْتِيهَا أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ ، فَصَوُّوا بِمَا قُصِطَ بِهِمْ ، وَارْتَدَّعُوا عَنِ التَّبَاعِي وَالظَّالِمِ ،
لَمَّا وَعَدُوا مِنَ الثَّوَابِ الْحَسِيمِ وَخَوْفُوا مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ ؛ وَلَمْ يَكُونُوا لِيُطِيعُوا أَمْرًا
لَا أَمْرًا وَلَا نَهْيًا لِسَائِهِ ، إِلَّا بِحُجَّةٍ يَنْتَبِهُنَّ بِهَا الْحَقُّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْمُطِيعِينَ ، وَتَحْوِيفٍ
يَتَّقُونَ بِهِ مُقَارَفَةً مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَرَحَاءٍ تَجْتَمِعُونَ لَهُ مَوْزُونَةً مَا تُعَدُّوهُ بِهِ . فَانْتَفَحَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ بِأَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ —
كَمَا أَقْنَصَ فِي وَجْهِهِ الْمَدْرَل — وَكَرَّمَ وَلَدَهُ وَفَضَّلَهُمْ ، فَقَالَ حُلْ وَعِرْ . ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْأَحْمَرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .
وَجَعَلَ مَا فَطَّرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَطْفِ عَلَى ذُرَارِيهِمْ وَأَسَائِهِمْ سَبَبًا لَمَّا أَرَادَ مِنْ نِقَاتِهِمْ وَتَسْلِيمِهِمْ ،
وَمَا اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَهَمِّ حُجَّةً عَلَيْهِمْ ، لِيَتَحَنَّنَ طَاعَتُهُمْ ، وَيَبْلُغَهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا . وَلَمْ تَزَلْ رُسُلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى حَاقِهِ تَتَرَى بِالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالْبِرْهَانِ الْقَاطِعِ ،
لَا يَجِدُونَ لَمَّا يُورِدُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ الْقَاهِرِ مَرَدًا وَلَا مَدْفَعًا ، لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ يَخَافُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاثْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَخْرَمُوا وَكَانَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فَلَمْ يَحِدِ الْمَكْدُونُ مَسَاغًا إِلَى دَفْعِ مَا أَقِيمَ عَلَيْهِمْ مِنَ لَازِمِ الْحُجَّةِ ،
إِلَّا الْمَعَانِدَةَ وَالْمُجَاهِدَةَ . وَكَانَ أَبْدَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، يُعْتَنُونَ فِي أَعْصَارِ الْحَقِّ ،
نُذْرًا لِلْأَمَمِ ، حَتَّى خَتَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّبِيِّ الْأَخْمِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهَمَّتْهُ مَرَدًا
وَجِيدًا لَا عَاضِدَ لَهُ وَلَا رَافِدَ ، إِلَى قَوْمٍ يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا مُنْجَا ، وَحِجَارَةً صَمًّا ، فَكَذَّبَ بِهِ
الْقَوْمُ الَّذِينَ يُبْعَثُ فِيهِمْ أَوَّلَ مَا دَعَاهُمْ ، وَرَامَهُ مَلُوكُ أَقْطَارِ السَّلَاحِ تَوْحِيهِ الْأَحْسَادِ ،
وَمُرَافِدَةِ الْقُوَّةِ وَالْعِتَادِ وَبَنَى الْعَوَائِلَ ، وَنَصَبَ الْحَائِلُ ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ
بِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . ثُمَّ حَاهِدَ بَنَ إِطَاعَةِ مَنْ عَصَاهُ ، وَبِمَنْ أَتْبَعَهُ مَنْ خَالَفَهُ ، حَتَّى
أَعَزَّ اللَّهُ كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ ، وَأَكْمَلَ لِعِبَادِهِ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْتَضَى لَهُمْ . فَلَمَّا أَخْتَارَ اللَّهُ لَهُ
مَا لَدَيْهِ ، وَاخْتَصَّ بِهِ عِنْدَهُ : مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، وَالْجَزَاءِ الْكَرِيمِ ، بَعْدَ اسْتِقَامَةِ الدِّينِ

ودخول الناس فيه أهواجا، حلقة، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة الجباء من أذانيه ونحوه ، لإقامه الشرائع المُفترضة، وإعاده حُكم الله المتزل، وأقتناء السَّنة الماثورة وحفظها له في قرابته ومجيبى دعوته، وإتماما لما أوجب له من الفصيلة، وقريب الوسيلة، وانجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذى أصطفاه وأرتصاه. وكان اختيار أولى الفصل من نُحْتَه وعصيته لإرث خلافته، ومن عظيم الزُّلف التى رغب الى الله فيها أنبياءه، وبما اقتضى في مُرل وحيه، وأختص تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى جرأه من تبعه على الرسالة، وهذه من الصلاة، فكانت فصيلتهم عزيزة من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته الى حلقة وألزمهم أداءه، فقال عز وجل : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . ودل بما أحبر به وأطهره من تطهيره إليهم وإذهابه الرجس عنهم، على أصطفايته لهم، فقال تعالى . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . وكان مما أوجب لهم به حقِّ الوراثه في محكم تنزيله قوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ نَعْتُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ . ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . وأحلهم من الناهة والصيت بالمحل الذى أعلى به أمرهم ورفع به ذكرهم، لما أحب من البينين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل . ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُكَفِّرَ عَنْكُمُ السَّيِّئَاتِ وَيُكَفِّرَ عَنْكُمُ السَّيِّئَاتِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَلَا تَقْلُدُوا أَمْرَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . ولو كان الأئمة المُقلدون أمرَ عماده حاملة أنسابهم، متقطعة أسابهم، غير محصوصين بمصلحة يرونهم بها دون غيرهم، لم تعد طليقتهم عقدَ الخلافة لهم، وأن تكون من المُفترصات على كافة الأمة، أو على بعض دون بعض، فإن كان لأهل الشرق والعرب من دوى القص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس في احتجاج آرائهم مع تعزفهم واختلافهم طمع آخر أيام الدهر . وإن كان الى خاصة دون عامة، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال الى مثل ما احتاجوا اليه في أئمتهم، إذ لم يكن أهل الأرياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطسوا على اتفاق،

لعداد آحاطهم قَلَّ بلوعهم عايةَ الآحتاد في العحص والتكشيف، وحاجتهم الى آختبار
 المُلدان، وتمحيص أوْلَى العصائل بالآمتحان، وما هو حاق عليهم من الشبه في آختيارهم،
 والاختلاف فيمن عَسَوْا أن تحسوه ويُقدّموه، حتى تنهالك الرّعية بتطالمها بينها، ويَطْرُق
 مَنْ يليها من الأئمّ إياها، إدا لا داند عها ولا مُحامى. إفا أُرمت الأئمّة الحاجةُ إلى
 نَصَب الحُكّام لإقامه الدين، وتقسيط الحقوق من المسلمين، ومُجاهدة عدوّهم من
 المشركين، لم يكن لهم في الإمام عليهم تحارُّ إلى التخلص من حقّه إليهم، ولا ريبَ
 عند المعرفة برأفه الله ورحمته، ولطفه وحكمه، في دفعه عن عادته ما لم يجعل في حيلتهم له
 وُسْعاً، ولا في حيلتهم له دَرْكاً، وكفايته إياهم ما يُعجزهم من البحث والتقيق عن ولاة
 أمرهم، بنصبه إياهم، وما رفعهم إليه من الدرجه الى أعلاها وأسأها، إدا واصل نسبهم
 برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرّص مودّتهم على حلقة، ولم يَشْنِهم جهلهم للعرض الذي
 لزمهم له، ولم يَحِبّ عليهم فرضٌ في معرفة من سواهم. ولم يزل سياق أئمة الهدى مطّرداً،
 وبطامهم مُتصلاً، يتلقاه كَارِئ عن كابر، ويؤذيه أوّل الى آخر، حتى تسامى الى أمير
 المؤمنين، وهو حالٌّ دار دعوه، وبين أنصاره من أهل نُراسان، فظفر به حيرهم، وعرفوا
 ما تصرّفت به أحوالهم، وطهر لهم من بيان مُحتته على من نازعه في الأمر، وشاهدوا من
 إبلاعه في العدر، وآستظهاره بالثاني والصبر، ما أراح عنهم الشبهة وكشّط الحيرة، حتى
 استرالوا نهوضه بحقه، وحافوا الربيع على أديابهم فيما أعطوه من صفة أيمانهم، وهو
 ماضٍ على عادته، مستديمٌ لوادعه، مُتَلوِّمٌ على المراجعة، بالغ عاية ما في وُسْعِه من الرخصة
 في دفع الولاية التي هَتَّ بها الرّعية، حتى صاب عليه في ديه ترك القيام بما أنهضه الله به
 من ثقلها وقلده من حملها، وحاف المخلوع فأسعت بالشرّة والغيرة، فتناول أولياء الحق ماغيا
 طاعيا، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والُحجة التي يَحِبُّ لها قلبه، ويَقْتُ بها
 في عضده، ويقبل الله ما شرفكم به من البصر والعلبة فيه التي جعلها الله للتقين. فاجتمع

لكم معشر أهل خراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث حلال احتصمكم الله بفصيلتها، وسني مراتبها، دون ثلاث شملتكم وغيركم .

أما الأولى من اللواتي حصمكم الله بهن، ما تقدم لأسلافكم من نصرة أهل بيت النبي، والقائمين بمراتبه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، ما أترككم الله به من نصرتيه في دعوته الثانية .

وأما الثالثة، ما تقدمتم به من صحة صماثكم، ومحض مباحثكم .

وأما الثلاث اللواتي هن لكم ولعيركم :

فمن ما أكد الله لأمر المؤمنين في أعناق المسلمين : من العهد الذي أحد إضره، وألهمهم الوفاء به والتمسك بوثائق عصمته، عند محاولة الملوغ ماحول من الإعلان بالردة، وأتقس من تسديل معالم الدين وتغيبه آثاره، فلم يلف الرعية سدى مهملين، لا جامع لأمرهم، ولا صام لثروهم .

ومنهن ما أفادكم الله وإياهم من العبر، عند حلول العير من غدر وحر، تذكرة لأولى الهوى، وحجة الفلة على من أدر وتولى، ليبتدى متحير ويتقط مرزجر، (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) . ومنهن اجتماع أهل الفصل من المسلمين . ممن لم يكن له نصر ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايعة في الدعوة الثانية، فأصبح دعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمصريين ومدينة السلام والمشرق والمغرب من عار أو أنجد من التمسكين بذمهم الموفين بسدورهم، من إخوانكم، وإن كان الله قد قدمكم في الأمرين جميعا تنفوق حالكم على غيركم، يعتدون من معاصدكم ومكاهتكم بما جعله الله عز وجل ألفة لكم ومودة بينكم، يبيد بها ما كان الشيطان يبرع به بين أهل التناعد في الأساب، والتأني في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء، والاكطواء على الأحقاد والدمن، وطلب تقديم الإحس، وصار أهل السمو إلى الدرجة العليا والاعتصام بالبروة الوثني من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مشرحة صدورهم بمكاهته، منبسة أيديهم بمعاوته على حقه،

منفسحة آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإمحاء في بلاده وأفتاح تمتع حصونه، بما جمعهم الله عليه من الألفة، ورفع عنهم من الحمية والعصبية، راجين عودتهم إلى أحسن مامضى عليه سلفهم، في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم، من سلامة الصدور، وصلاح ذات الين، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم، قد أفرد الله عنهم نفرة التعارب والتجاذب، وجعل ما كان يسمى به بعضهم من الإعداد لبعض، زيادة في ريحهم، وحدًا في شوكتهم، لا تتلافهم في دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الصائري، وبصا الذبائر. وإلى الله يربى أمير المؤمنين في إعانتة على صالح نيتة، وتعليقه منتهى سؤله وعاية همتة، في اعزاز ديه وإدلال من صد عن سبيله، إنه سميع قريب.

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على العمة تذكر ما كانت عليه الحال قلها، فاستديروا الإفاصة فيما رفع الله من حساستكم وأعلى من أقداركم، سؤرة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم، وما ألاككم الله في الدعوه الأولى مما لا يؤدى حقه إلا بعون الله وتوفيقه، فإنه ارتاح لهم لطفه وتوفيقه، فأنا لم رعايت الأقسام وسني الخطوات، ورفع درجهم ودرج خلوفهم وأعقابهم من بعدهم، بعد إدامهم مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس، مدعون بقهر عدوهم واستنثاره عليهم، ثم لم يلبثوا أن صاروا إلى الحال التي يرونهم بها من العبطه والبهجة، إلا أنهم أحدوها بحققها، وكانت في أيدي الطلمة من أهل بيت اللعة وأتباعهم بحده الباطل ونعمة الابتلاء، (وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) . وليس أحد منكم بحارج من المحبة بما أليس من العمة، وإن كنتم أهلها الأحذير لها بحققها، بل الذي يلزمكم استدامتها والقيام بحفظها، على حسب ما أولاكم الله منها، فربما كان الذي يعقب أهلها من العفلة والاعتثار ويلتهم بها من جبورها وسرورها، أعظم إثما وحوبًا مما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر، لما يستولي عليهم من استكانة الدلة، والاعتثار بالتقصير، والفرع إلى رهيم في تفتيس كرمهم، فإنه

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمَّا عَلَى الْإِنْسَانِ اعْرِضْ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُوْا دُعَاءِ عَرِيضٍ ﴾ . فلاحظكم اذا أنعم الله عليكم وأظهركم بطيبتكم ، الى حياة ما أودعكم الله من مسه ومراسه ما آتاكم من فضله ، بالشكر المترى لازيد . فتمتدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أسكنم بتدكر ما سهّل الله لكم من الحزونة ، ودّل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُراق الملة ومُخالى أهلي القيلة ، وأما حكم من ديارهم وأموالهم ؛ فأصبحتم بمنّ الله عليكم حُماة الدين ، وأبصار الأئمة الراشدين ، وحصون كافة المسلمين ، بعد ما أجنث الله بكم قُرون النفاق ، وأباد بكم صناديد الصلابة ، وشرّد من لم تستحمله سيوفكم ، وأصرع اليكم من أدعس وأستسلم ، وقد استشرّفكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشان ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمدايسة ، فبين ذلك مجهر مُعالمين ، ومُستبسرّ مداهن ، وداحل في عدادكم ، وواحد في سوادكم ، يرى أمته من ظهوركم ، قطعته عليكم في دولتم بريسة التمويه وحُدع التشبيه ، أيسر عليه كُلفة وأعظم فيكم حرجا ونكايه ، فوقوا هذه الطبقة أشد التوقي ، فإن أكثر من يلحأ الى استباحه الحيلة ، من عجز عن المباداة والإسحار ، وعد طهور الحازم وعلته يَحْتَرِز من لطيف الخدع وحى الاستدراج .

وآخذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من استمراء الطراءه ، والركون الى راحة الدعة ما قد رأيتم و ناله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبه طول الدم والحسرة ، فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم ، والخوف لبائقة متيقظين متحفظين لما كان يرومكم به من حنّله وجبله ، ثم أفصيتم الى الخلق وقد جهدكم السعى ومسكم الصب ، وسيلقى الشيطان في أمانيك أن قد اكتنيتم بسالف ما قاسيتم ، ويحد من ضَعْف العزائم مُعينا داعيا الى اعتنام الحفص ، والإحلال الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاعتار ، وتمثلوا مواصي الآثار فيمن سلف من القرون الخالية ، وما أفضت به اليه العزة من زوال السم ووقوع الغير ، فإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مُرتهن بما ألزمكم من حياته واستمائه ؛ فقد وجبت عليكم المحبة بما حضكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنة بما هداكم الله ، وأراكم من آياته ومثلاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإعدار والإنذار لكم . ومن أجمع له اقتناء صواب من تقدمه الى ما ينبعث من نفسه ، فكانه قد اختبر التجربة ، مع استفداده مما يستعيد ، وسيزيد ما يفتح لبه ورأيه ، وأيقنوا أنكم لن تصلوا الى من سواكم ، ممن هو أعسر طاعة عليكم وأعدر بمعصيتكم ، حتى تبدوا باستصلاح أنفسكم ، وأنه لن يرجى لكم المؤه على مجاهده عدوكم حتى تقووا على مجاهده أهوائكم ، فإن على كل امرئ رية من أمره ، وعطاء من غبه ، لا يكشعه إلا صحة المعرفة ، والإذعان بالصحة ، فهناك يؤمن عليه الجهل والمعانده ، وإذا أمنت هاتان الحلتان أنسدت بإذن الله تلم الآفات ، وتوقى المكاره . وإنه لا تحاف الصلال على من آهتدى ، ولا اعتماد الحور على من آتصف من هوى .

وليكن أول ما نتعهدون به أنفسكم ، وتثارون عليه من صالح أدبكم تاصف الحق بيسكم ، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحموده منكم وتفحيم أمركم ، فقد علمتم أن منكم المرز القات الذى لا يدرك شأوه ولا يورارى ملاؤه ، حين كشف الإبلاء صمائر القلوب وحلا مشتبهات الطون ، فصرح بالمحاربة بعد التقدم فى المحة ، وفاء بمؤكده العهد وركوبا مسه لهائل الخطر ، غير هائب مع صحفه الحق ما برق لديه الباكس المخلوع ورعد ، ولا مستوحش فيما تمرد به الى من تولى وأدبر ، حتى أتى الغاية التى أحرى اليها فى الله عز وجل وفى خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكائفة والنصرة والحظ الجزيل والاثر المبين ، نوابهم واجب وحقهم لازم ، ثم منكم من يحفظ لسلمه وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنة عليه فى أخلاقه التى يراها ويحافظ عليها ، كما أنه يرى ورائته التركة فريضة واجبة ، فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الغناء بأنفسهم ، ثم

يتلوه من أقدى [هم] وأهدى بهديهم . والسابق المتقدم من أعتد بلاء نفسه الى نلاء سلفه ، ثم يتعمد بعد الملى بنفسه ، ثم تلوهما المتوسل بأناته ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طقة فطقة ، فليقصر كل أمرئ منكم على المرتبة التي أحله بها سعيه ، وليسلك الى الأزدباد فيها بالريادة من نفسه ، فإن من الفتوى العظيمة على أهل الدول ما يزع به الشيطان بهم ، ويكثر عدهم ما يكون منه ، فيوافق من الخيف للانفس ما يحد به مساعا الى ما يروم من إيقاع الشجاء بهم ، وتثبيت الإحس في صدورهم ، بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرء لمزية من فوقه ، واعتباط من دونه كفي مارك . ولن تحلص نيأتكم . ونسلم صمائرکم ، حتى تمحصوا شكر ما أوليه إخوانكم ، وتعقدوا ما ملهم شاملا لكم ، وتحنوا طريقه من اقتصر ناميته على حاصته ، وتعت فيما أوثربه أهل الفصل دونه . وكفى عظة فيها نهاكم الله عنه من ذلك ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَحْمَدُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ نِعْمَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ الآية . ولا يلتمس أحد مودته عن سوء يسه بحس مداراة طاهر ، فإن الله مقلد كل امرئ ربة عمله ومطوقه طوق سريره . ولا يعدرن بما يلزمه لإمامه ، فإنه إنما يغدر في حقه ويخس قسمه ، ويخس نفسه . ثم لا يقتصرن على استصلاحها حتى يتناول من كانت مته عليه من أقربيه وحسويه ، فإن يسير ما هو معان من تأديتهم لا ينشأ أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصها ، وقريبها الى مشاهيها ، حتى يستفيض شاملا علما ، بعد أن بدا محلا خاصا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تثقيكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة ، ما لا يتفقد به من سواكم ، فإنه إن كان يجب على نفسه استصلاح الرعية وحملهم على ما فيه رشدهم وقوامهم ، لما يلزمه من فصل العاية بالأخص والأولى فالأولى ، فإن في أخلاقكم من التقديم في التأديب والتمهد ، وحوها من الصر : منها : أنكم أولى بحس الطاعة وسرعة الإجابة ، للطف محكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

ومنها : أنكم يأنس بكم المؤمنون وَيَقْتَدِي بكم الناصرون ، حتى قَصَرْتُمْ وَأَخْلَظْتُمْ ، أَقْنَيْتُمْ أَثَرَكُمْ مَنْ نُصِبْتُمْ لَهُ أَعْلَامًا ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَنْ تَزِدُوا عَلَيْهِ ، وَلَا أَنْ تَأْخُذُوا فَوْقَ يَدِهِ ، بَلْ كَانَ قَيْنًا أَنْ يَكُونَ يَسُومُكُمْ الرِّصَا بِمِثْلِ مَا سَمِعْتُمُوهُ ، ثُمَّ تَحْرِي هَذِهِ الْعَادَةُ وَالطَّبَقَاتُ ، حَتَّى يَطْرُدَ السِّيَاقُ ، إِلَى أَنْ يَسْتَفِصِلَ الْفُسَادُ فِي حَشْوِ السَّاسِ وَعَامَتِهِمْ ، فَلَا تُعْنِي قُوَّةٌ وَلَا حَرَمٌ وَلَا شِدَّةٌ ، إِلَّا الْعِجْزُ وَالْإِصَاعَةُ ، ثُمَّ يَجِدُ الْأَعْدَاءُ مَسَاعَا إِلَى الطُّغْيَانِ وَالْعِيبِ ، فَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يُرْهِقُوكُمْ وَيَسْتَوِيلُوا عَلَيْكُمْ الْعِشْلُ ، وَإِنْ الْإِيدَى لَأَمَّا تُنْسَطُ بِنَفَازِ الْعِزَائِمِ ، وَالْعِزَائِمُ لَأَمَّا تَنْفُذُ بِنَاتِ الْحِجَّةِ ، وَالْحِجَّةُ لَأَمَّا تَتَبْتُ إِذَا كَانَتْ عَنِ الْحَقِّ . وَإِذَا أَصْبَحَ أَوَّلُ هَذِهِ الرُّسُومِ ، الَّتِي رَسَمَ لَكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، تَبِعْتَهُ تَوَالِيَهُ وَشَقَعْتَهُ لَوَاحِقُهُ ، وَوَحَدَ الْعَدُوَّ الْمَلَا حَظُّ مَكَانِ الْعَوْرَةِ ، مَطْمَعًا فِي إِهْمَالِ مَا كَانَ يُعَدُّ لَهُ مِنَ الْغَزَةِ ، وَيَتَوَقَّعُ بِهِ مِنْ مَاهِزَةِ الْفُرْصَةِ ، وَلِيَكُنْ مَأْتِفِيضُونَ فِيهِ وَتَعْدُوهُ طَهْرًا عَلَى طَاعِي إِنْ طَعَسَ فِي دَوْلَتِكُمْ ، مَا أَلْهِمَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : مِنْ شُمُولِ رَعِيَّتِهِ بِالْعَدْلِ ، وَفَرَشِ الْأَمْرِ فِي مَصْمَرَاتِهَا وَمُنْقَلَبِهَا ، وَرَفَعَ بِهِ عَنْهُمْ مِنْ سِيرِ الْجُودِ ، وَبَسَطَ بِهِ يَدَهُ مِنْ إِمَانَةِ أَهْلِ الْبَلَاءِ ، وَضَمَّدَ الْحَرَامَ لِأَوَّلَى الرُّزْلِ ، وَالْإِمْلَاحَ فِي دَعَاءِ مَنْ عَانَدَ وَشَاقَّ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنْيَاةِ ، وَإِقَالَةَ الْعَثْرَةِ مَعْدَ الْقُدْرَةِ ، وَالْحَقْنَ لِمُبَاحِ الدَّمَاءِ ، فَلَمْ تَعْلَمُوهُ صَبْرًا حِمْلًا ، وَلَا هَتَكَ لِأَحَدٍ مِمَّنْ أَظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِ سِرًّا ، وَلَا وَقَفَهُ عَلَى عَوْرَةٍ . ثُمَّ تَوَلَّى اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي حُرُوبِهِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، الَّتِي أَغْنَاهُ اللَّهُ عَنِ الْإِطْلَابِ فِي وَصْفِ صَنِيعِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا ، لِاسْتِفَاصَةِ أَجْبَارِهَا فِي دَهْمَائِكُمْ ، مَعَ مَا أَحَبَّ مِنْ مِطَالَعَتِهِ إِيَّاكُمْ بِبَالِغِ أَدَبِهِ وَشَاقِّ عَطْفِهِ ، أَنْ يَنْتَكِبَ مِنَ الْإِسْهَابِ ، فِي غَيْرِ مَا صَحَّدَ لَهُ وَرَأَى مِنْ تَقْرِيعِ أَسْمَاعِكُمْ وَأَذْهَانِكُمْ ، لَوْعَى مَا التَّمَسَّ أَنْ تَعُوهُ مِنْ تَبْصِيرِكُمْ حَقِّكُمْ ، وَتَهْيِئِكُمْ عَلَى رَشْدِكُمْ . وَحَسْبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَفْسِهِ وَفِيكُمْ اللَّهُ ، وَكَفَى بِهِ مَبِينًا .

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ بِهِ إِلَيْكُمْ لَعَلَّ ثِقَةً مِنْ حِيَاطَةِ اللَّهِ حِلَاقَتَهُ الَّتِي جَعَلَهَا عِزًّا لِدِينِهِ وَقِيَامًا لِنَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِهَا مِنْ أَدْبَرَ عَنْ حَقِّهَا إِلَّا خِثْلًا بَلْ مِنْ خَلْعِ رِبْقَتِهَا وَأَضَاعَ حَظَّهُ مِنْهَا ، جَلَبَ الْخَلَّةَ وَالْحَاجَةَ وَخَسِرَانَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ . وَإِنَّمَا أَتَى

الْمُقَصَّرُونَ فِي إِعْظَامِ حَقِّهَا مِنْ صَعْفِ الرُّوِيَةِ عَنْ بُلُوغِ مَا تُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهِ مَصَادِرُ الْعَوَاقِفِ ، وَتُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ رَوَاجِعُ مَا قَدَّمُوا ، فَلَا يَكُونُونَ عَمَلُهُمْ غَيْرَ مُتَحَاوِزِينَ بِهِمْهُمْ ، وَفِيهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يَمْنَعُهُ .^(١)

وَأَسْتَدِيمُوا مَعَشَرَ الْمَسَالِمِينَ سَابِعَ الْعِمَةِ مُحَمَّدٌ مَوْلِيهَا وَالْمُتَطَوِّلُ بِهَا . وَقَدْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ قَلْبُهَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالٌ مِّنْ سُلْبِهَا ، ثُمَّ يُعْقِبُ النَّدَامَةَ حِينَ لَا مُسْتَعْتَبٌ وَلَا نِظَرَةٌ يُمْكِنُ فِيهَا اسْتِقَالَةُ الْفَارِطِ بِتَقْصِيرٍ وَلَا هَفْوَةٍ زَالٍ . وَتَقُوا مِنْ رِعَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ أَتَارِكُمْ ، وَمَا مَصَى مِنْ بِلَاءِ كُلِّ أَمْرٍ مَعَكُمْ ، بِمَا تَعْلَمُونَ إِلَيْهِ وَتَتَوَقَّعُونَ عَادَتَهُ ، نَأْسَى مَا تَرْفَعُ إِلَيْهِ آمَالَكُمْ وَتَسْمُو إِلَيْهِ هَمُّكُمْ ، إِلَى مَا يَذْخِرُ اللَّهُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِدَاهُ ، وَاعْتَصَمَ بِتَقْوَاهُ ، وَجَاهَدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَأَيَّا بِأَمْرِ عَهْدِهِ مِنْ جَرِيلِ ثَوَانِهِ وَكَرِيمِ مَأْبِهِ ، إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ : وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا .

أَحَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَهَّدَ بِعَطِيَّةٍ تَنْهَكُمْ عَلَى حَقِّكُمْ ، وَتُثَبِّتَ مِنْ بَصَائِرِكُمْ ، وَتَقْطَعَ مِنْ طَمَعِ الشَّيْطَانِ وَحَرَبِهِ فِيكُمْ ، لِيَأْجِبَ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادِكُمْ ، وَيَرْحُو مِنْ تَأْدِيَةِ حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيكُمْ ، وَلِيَأْخُذَ مِنْ أَنْصَالِكُمْ بِحَبْلِهِ ، وَمَا يَشْمَلُهُ مِنَ الصَّنِيعِ فِيمَا وَلَّاهُكُمْ اللَّهُ بِهِ ، وَتَوَلَّاهُكُمْ .

وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يُسَالُّ اللَّهُ الَّذِي دَلَّ عَلَى الدَّعَاءِ تَطَوُّلاً ، وَتَكْفُلُ بِالْإِحَادَةِ حَتَّى ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ اذْعُوبِي أَسْتَحِثَّ لَكُمْ ﴾ ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى رِصَاةِ أَلْفَتِكُمْ ، وَأَنْ يَصِلَ عَلَى الطَّاعَةِ حَبْلَكُمْ ، وَأَنْ يُثَبِّتَكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَوْدَعَكُمْ مِنْ مَسِّهِ ، وَيُورِعَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ شُكْرِهِ ، مَا يُوَاصِلُ لَكُمْ مَزِيدَهُ ، وَأَنْ يَكْفِيَكُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ، وَحَسَدَ الْبَاغِينَ ، وَيَحْفَظَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ مَا حَفِظَ بِهِ أَمَامَ هُدًى فِي أَوْلِيَائِهِ وَشِيعَتِهِ ، وَيَجْعَلَ عَهْدَهُ ثَقُلَ مَا حَمَلَهُ مَعَكُمْ . وَبِاللَّهِ يَسْتَعِينُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى مَا يَسُوءُ مِنْ جَرَائِكُمْ بِالْحَسْبِ ، وَحِمْلِكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلَى ، وَبِهِ رِصَى نَاصِرًا وَوَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وللمأمون — لما كتبت إليه السيِّدة رُبَيْدَة بعد مقتل ولدها الأمين خطبها
الآتي تستعطفه :

كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرٌ فِي حَنْبِ عَفْوِكَ . وَكُلُّ زَلٍّ وَإِنْ جَلَّ
حَقِيرٌ عِنْدَ صَفْحِكَ . وَذَلِكَ الَّذِي عَوَّدَكَ اللَّهُ ؛ فَأَطَالَ مَدَّتَكَ ، وَتَمَّ سَعَتَكَ ، وَأَدَامَ لَكَ الْخَيْرَ ،
وَرَفَعَ لَكَ الشَّرَّ .

هذه رُقعة الوَالِدِ التي رجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفي الممات بلجيلة الذكر . فإن
رَأَيْتَ أَنْ رَحِمَ صَعْمَى . وَاسْتَكَاثَى ، وَقَلَّةَ حَيْلِي ، وَأَنْ تَصِلَ رَجْمِي ، وَتَحْتَسِبَ فِيمَا جَعَلَكَ
اللَّهُ لَهُ طَالَمَا وَفِيهِ رَاعِمًا فَافْعَلْ ، وَدَعِّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَيْعِي إِلَيْكَ .
فكتب إليها المأمون .

وَصَلَتْ رُقْعَتُكَ مَا أَقَامَهُ ، أَحَاطَ اللَّهُ وَتَوَلَّىكَ بِالرَّعَايَةِ ، وَقَفَّتْ عَلَيْهَا وَسَاءَى — شَهِدَ
اللَّهُ — جَمِيعُ مَا أَوْصَحَّتْ فِيهَا ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ مُبَادِلَةٌ ، وَالْأَحْكَامَ حَارَةٌ ، وَالْأُمُورَ مُتَصَرِّفَةٌ ،
وَالْمَحْلُوقُونَ فِي قَضَائِهَا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا ، وَالدُّنْيَا كُلُّهَا إِلَى شَتَاتٍ ، وَكُلٌّ حَتَّى إِلَى مِمَاتٍ ،
وَالْعَارُ وَالنَّعْيُ حَتْفُ الْإِنْسَانِ ، وَالْمَكْرُورُ رَاحِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ . وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أُحْدِثَ
لَكَ ، وَلَمْ تَفْقِدْ مَنْ مَضَى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا وَحْدَهُ . وَأَنَا مَعْدُ ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا
تُخْتَارِسُ ، وَالسَّلَامُ .

(٥) أحمد بن يوسف^(١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المظلوم والمثور وهي :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علما، ونطق به حبرا، وأنقسه حكمه وعلما، وألف بين مختلفه ومُتَّفِقه، ليدل نقوام بعضه على بعض، على اتصال تدير مشيئته ومُتَدَّعه، وأنه أحد صمد، لا ضِدَّ له ولا يَدَ، إذ قدر له حاجته ثم شدَّها بلاعها الى الغابة الى جعلها، فقال حل وعز ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا حَرَائِهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، وحكى عن نبيِّه موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وقال الله تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانُهُ تَفْصِيلًا﴾ ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته، بل رضى منهم باليسر، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدة عليهم بحريل الخط في دينهم ودنياهم، إيعاه عن عاداتهم، وأنشاع قدرته بالتطول عليهم، مُفْتَتِحًا وَحَانِمًا، وَاِدْنًا وَعَائِدًا .

والحمد لله الذي أصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم، نبيا لرسالته، وأتممه على وجهه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذي لا يأسه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدَّى الى حلقة الرسالة، واستقدهم من الصلابة، وصَدَّعَ بأمر ربه وحاهد في سبيله، وبصيح لأمته حتى أتاه اليقين من ربه، بعد استناره الحق، وطهور المحبة، فصلى الله عليه بشيرا ونديرا، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلاقى من الملوك، وجمع الألفة بعد الفُرقة، وأوضح الهدى بعد الدُّرُوس، ومعالَم الرشد بعد الطُّمُوس، وكان للمؤمنين رحما .

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهادى التقي، الطاهر الزكى، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعز الله نصره، فسَدَّ ثُلُمَتَهُمْ، ورَأَتْ صَدْعَهُمْ وَقَلَّده خلاقهم، وجعله لكافة المسلمين عيانا ورحمة، وجعل ما أُنعمه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبه عنه في الفصل العاشر من الكتاب الثالث في المهدى الأول

اليهم ، مئة عليه ورحمة دُتَرها له ، دون العلماء قَبْلَه ، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة ،
وسياسة من تقدمه ، ومسح الرعية من عطفه ونظره ، ما لا يجل عنهم أوبه ولا يؤذى عنهم
شكره ، الا هو لا شريك له ، وأحسن الله جَراء أمير المؤمنين ومثوبته ، على صلة رَحِم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التي هي رَحِمه وقرابته ، وأختياره لولاية عهده الأمير الرضى
على بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورضى محته ، وعرف استقلاله ، بما قلده
في هديه ، ودينه ووفائه ، بما أكد الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيده الله ، في أعتيابه
من ازده وأسائه مما شَقَّ رأيَه ، وأفدَّ تدبيره ، حين هم لأستصلاح ما أسترعاه الله ، من
أمر عبادِه ، لما أنتقى القائم بدعوته ، ورئيس شريعته ، الأبر ذا الرياستين رحمه الله ،
فالتحذه مَكاتباً ظهيرا ووزيرا دون من سواه ، فاتبع منهاج أمير المؤمنين أيده الله ، وسار بسيرته ،
شرقا وعربا ، وغورا ونجدا ، موفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفيا لاثره وسُنته ، عَسمَ الله به
الأدواء ، وقَعَ به الأعداء ، من عَنة الأثم ، وطواعيت الشرك ، وأباد على يده ، أهل الشقاق
والنفاق ، في كل أفق وطَرَف ، يَحْد أمير المؤمنين أعزّه الله ، وركعة ساسته ودولته ، ونُحج
سعى من قام بُنصرة من قام بحقه ، وأبار رهايه ، حتى توفاه الله عز وجل ، حين بلغ همته
وغايته ، وحُج أحله ، وأنقطعت مدته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عد إمامه أكرمه الله ،
وعد الخاصة والعامة ، وكان من إجلال أمير المؤمنين ، الحادث الذي نزل به ، فأحيا آثاره ،
بوصف محاسنه ، في مشاهدته ومحامعه . ورتحه عليه عدد ذكره ، وحِفْطه في حُجته ، وأهل
حُرْمته ، وفيمن كان يمجّد الله على طاعته وبصيحته ، ما أتم به نعمته ، عدنا وعندكم معشر
الشَّيعة ، فقد أصبح أمره بكم متصلا ، وموقعه من جماعتكم متمكنا ، نقيصكم ما قبضه ،
وبسطكم ما بسطه من لومة المصيبة ، وحسن العُقى ، وقد علمتم معشر أهل الحجا والنهى ،
والطاعة لله عز وجل وحليفه . ودوى الغناء والبلاء في دعوته من أهل خراسان وغيرهم
من حصر ممن آمنتح الله قلبه بوفاء العهد والاستبصار في حق أمير المؤمنين أبقاء الله ،
والمجاهدة دونه ، والصبر على مواطن الصدى والآواء ، واللّت عن البيضة والحريم ،

والمحتملين للنَّصَب، والمصائب التي آنَحَتْ، حتى كأن لم تكن، وبقي أحرها على الله عزَّ وجل، ومحمودُ ذكرها شائعا في الناس، إن نِعِمَّ الله، قد جَلَّتْ وَلَطُفَتْ، وَحَصَّتْ وَعَمَّتْ، وَعَلَتْ وسمَّتْ، وتمَّتْ ودامت، حتى قصصوا عن موارينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لها معشر إخواننا سبَّبُ إلى مكافأة ثلاثة بالعمل، فحسَّ حُدراءُ أن محمداً في القول، ونُطِيب في الوصف إن شاء الله حلَّ وعزَّ، فقد حمل ذكر النعم من أسباب الشكر، وقد حدَّدنا أمير المؤمنين أيده الله من الحياة والكرامة، وجربِل الحيلة، وسَيَّ الرنة التي قُرئ بها عليكم كتابه ما يستغرق جهدها، وبستفرع وسعها، فزعب إلى الله عزَّ وجل، وليَّ الرعدة، ومُؤقِّي السُّؤْلِ والطلبة، في إعانته على تأدية ما وحبَّ له، فيما محمداً من فوائده ونَحْلَه، ثم نسترفدكم ونستعيكم على شكره، وإمدادنا بما لَفَنَتْ طاقته في السعي له فقد آدَنَّا نَقْلُ ما حملنا، ونَقْل ما طوقنا، وعطمت فاقنا إلى استعمال القوي من الأنفس والحامه، والخاصة والعامة، في جَراء ما حلَّ أمير المؤمنين فيها من سُنَّه، وشَمِلها من نالِ أياديهِ وطايفها، وقديميها وحديثيها، وكيف يُوحَّد إلى موازاة أمير المؤمنين سبيل سدل حَهد، أو بلوع حَشْد، فإما نَقْتدى هُدها، ونَعشُوبوره في دينا، ولنسَّ نَحْرُها عن أن نَحْزِي حقَّه، نواصيح عما مؤونة الدُؤوب في التَحْزِي لتأديته، فإن الله عزَّ وجل، قد أحرر مصابِل الشكر ومواقفه، وجعله من أسمائه، (وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)، وقد قال تعالى: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَايِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمِنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا). وقال تعالى: (إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ). ولولا أن الله عزَّ وجل رَضِيه لِمَسِه، لأحلامه عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، وعرفه في مكافأة من منَّ وتَطَوَّل، ثم نَحْثِي بذكر فصله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى أفتَحَ أول ما علَّم حَلْعُه بالحمد، وحمله بذمَّ نَحْمِه، وحامته دعوة أهل جَنَّتِه، فقال عزَّ وجل، (وَأَحِرُّ دَعْوَاهُمْ أَنْ أَتَمْنَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وخلق الله السموات والأرض، ومن بَرَّأ ودَرَأ في الحياة لِيَلْوَ عَادَه بشكره، وأَعَدَّ الحِمه في الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ أَتَقْدِرُونَ) (١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) (١٠) (١١) (١٢) (١٣) (١٤) (١٥) (١٦) (١٧) (١٨) (١٩) (٢٠) (٢١) (٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٥) (٢٦) (٢٧) (٢٨) (٢٩) (٣٠) (٣١) (٣٢) (٣٣) (٣٤) (٣٥) (٣٦) (٣٧) (٣٨) (٣٩) (٤٠) (٤١) (٤٢) (٤٣) (٤٤) (٤٥) (٤٦) (٤٧) (٤٨) (٤٩) (٥٠) (٥١) (٥٢) (٥٣) (٥٤) (٥٥) (٥٦) (٥٧) (٥٨) (٥٩) (٦٠) (٦١) (٦٢) (٦٣) (٦٤) (٦٥) (٦٦) (٦٧) (٦٨) (٦٩) (٧٠) (٧١) (٧٢) (٧٣) (٧٤) (٧٥) (٧٦) (٧٧) (٧٨) (٧٩) (٨٠) (٨١) (٨٢) (٨٣) (٨٤) (٨٥) (٨٦) (٨٧) (٨٨) (٨٩) (٩٠) (٩١) (٩٢) (٩٣) (٩٤) (٩٥) (٩٦) (٩٧) (٩٨) (٩٩) (١٠٠)

كَفَرْتُمْ إِنَّ عِدَائِي لِشَدِيدٌ ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَآتَمَّ أَذْلَهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ ، جعل التقوى واقعة ، والشكر مرجواً ليدل على ارتفاع رتبته ، وعلو درجته عده ، وقال لبيحته موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى الْآلِاسِ رِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي أَخَذُ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ . فلم يكافئه الا أحد ما أعطاه ، والشكر على ما آتاه ، وأحبر عزته في العباد ، فقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، فأية نعمه أحل قدراً ، وأسنى أمراً ، معشر الشيعة من نعمه أمير المؤمنين ، أيده الله ، عبد الأمير دى الرياستى ، ومراسه الى رتبته بها ، فإنه أعطاه رياسه الحرب ، ورياسه التدبير ، وعقد له على رأسهما علماً في رواية دعوه ، وقلده سيهما وحنمه بحام الخلافة ، وحاتم الدولة ، وحمل صلاته من صاحب حرسه ، وصاحب شرطته ، ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما ، أمامه وحلفه ، وصنعه الحلوس على الكرى محصرته ، في صدر كل مجلس جلس . الا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء ، وقدمه في دخول دار الأمير راكم الى أقصى مكان ينهى إليه أحد من سى هاشم . لأنه مهم ، وأعظمهم عناء عنهم ، فسماه صاحب دعوه وسيقه على عدوه وابه الذى يدخل اليه منه ، وولاه حيزه في أقطار الأرض . ومقدمته محصره ، وقلده من الثور ما قد علمت ، بما أفرده في عهده ، الى ما أنقده من أمره ، في جميع سلطانه ومملكه ، من مشارق الأرض ومعارسها ، وأس باقى الوصف على ما فصله به ، وقدمه وشره على الساس كافة ، ولكما تحيط بذكره ، ثم نكل السامعين الى ما يرجعون إليه من المعرفة التى لا تبلغها الصفة . ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته ، تولى غسله وتكفينه ، ومباشره لجهازه ، الى حصرته بيده ، وقاسى من الغصص ، ورحاء الحزن ، وإدراء العثرة ، وإراقة الدمه ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يجمع من القول والدعاء في صلاته عليه ، من الحكم ، وحفظ أهل الحرمه ، به رعاية له بهم ، ووفاء بعهده من بعده ، وأقر خاصته ، وقواده وعماله . وكأبه على مرآتهم ، وحيد بمجده ، ودم بدقه ، وحدد لجنده ، وتل كريتته ، فظفرا وعطفا ، فلم يبق عليه في إحياء ذكره ، وبلوع كل ما يحبه في حياته غايه الا أتى من ورائها ،

وأمر بقراءة قُتُوحه ، كما كانت تُقرأ على عهده ، وأضاف كل ما حَدَّث من بعده الى ما تقدّم من سَعِيه ، وأحبر أنه كان سَبَّه ، والمفتتح به ، ووَلَّى محمد بن الحسن حِلَّاقته ، ونَصَبه مَنَصِبَه ، وأقامه مُقامه الى أن جَدَّد العهد لى ، فاستحلفته على ما وَلَّى محصرته ، ثم تَتَابَع كَتَبُ أمير المؤمنين ، أكرمه الله بعد مصابب الأمير دى آل رياستين ، بما لا يقارب التفضيل ، والإطلاق والتعويض الذى كَسَم سمعتم به وبلغكم ، فلم يكن يرى وراءه مجازاة ، ولا فوقه مَضْعُدا ، حتى جَدَّد لنا من كرامته ، ما قد قُرئ عليكم فى كتابه ، فبَلَّغ لنا ما لم تكن المهم تبلغه ، والأمانى لِتُحِيط به ، لولا ما مسح الله عمر وحل من الترقى والفضل ، الى ما تَحْتَسِر من دونه الأنصار ، وتقطع دونه الآمال ، وإنما أَقْتَصَصناه ودكرنا ما أبلانا وأصطحع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وحل ، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيته والمطر بالصفح ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصِلَّة المروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للَن ، ورعاية الأخلاق المحموده ، وإحفظاء أهلها ، وإقامة سوقها ، حتى تنافسوها وتَسَاحُوا فيها ، وصارت هى الذرائع اليه ، والوسائل عده ، فلو تأمل متأمل أهل الرُّفَّة ، والأثره لديه ، لوحد الأَخْص فالأَخْص ، والأعلى قدرا عده هو الأفصل دينا ومروءة ، فلو لم يكن فى الحُظُوه عنده إلا إيجامها لصاحبها صحَّة المحمّه ، والزاهة عن كل ظِلَّة ، لكان منها أعظمُ العِطه ، وأعدل الشهادة والدلالة ، وسفَّص عليكم بما أحبرناكم عنه مالا سبيل الى تحمده وإنكاره ، بوصوح معالنه ومَسائره ، أو ليس المجاهد عن دين الله ، والحامى عن نَصَّة المسلمين ، والمُؤاتى لأغلط عدوهم شوكة ، وأخوفهم عداوة ، والمُنَجِّج فى بلادهم ، عن كان لا يرام ، ولا يُحاول لاغتصابه وشِدَّة مَقاساته ، حتى أدعس جيعويه بالعبودية له ، ثم أباح حريمه حين تمزّد عليه ، حتى بلغ السَّي الى ولده ، وحاربوا به ، وساقط حيوله ، حتى توصلت الى قُتته ، ومتمهى عِزّه ، أو ليس مُسَكِّن التهج بالمشرق ، حتى حَبَّت البران فيه ، وأدعس رؤساؤها وقادتها . أو ليس غازى بلاد بابل حين طعى أمرها ، وبذل ، ونكث ونقص ، حتى أَجْتَبَتْ أرومته ، وأباح حريمه ، وأراح المسلمين من مَعْرته ، أو ليس ساذ الثعور ، ومُحْص

عَوْرَاتِهَا ، وَالْمُبَايَرَاتِ لِتُدِيرَهَا ، وَالْمُسْعَدَاتِ لِمُكَابِدَةِ الْمُتَحَجِّعِ فِيمَنْ أَرَادَهَا ، وَقَالَ الْعَبَّاسُ ، مِنْ رِقِّ
 الْإِسَارِ ، وَبِأَيْشِ الرَّحْمَةِ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَضُيُفَعَائِهِمْ وَأَهْلِ الْمَسْكَةِ ، وَاخْتِلَافِهِمْ مِنْهُمْ ، وَقَاسِمِ
 الصَّدَقَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعَامِرِ الْمَوْسَمِ وَمَحْصَصِهِ مِنَ الْآفَاتِ حَيَاةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي حُجَّتِهِمْ ،
 وَمَا يَنْتَفِزُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَهَلْ أَقْتَرَنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ مَا أَقْتَرَنْ لَهُ فِي الْمُلْكِ وَالْدِّينِ وَالْعِزِّ ،
 وَالتَّوَاصِعِ وَالسَّعَةِ ، وَالنِّدْلِ وَالْقُدْرَةِ ، وَالْعَوِّ وَالْعُلْطَةِ ، وَاللَّيَالِي فِي مَوَاصِعِهَا ، وَالنُّسْكِ مَعَ
 الْهَمَّةِ ، وَالسُّطُوهِ مَعَ الْإِقَالَةِ ، وَهَلْ تَرَكَ مَعْشَرَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِخْوَانِ فِي الدِّينِ عَايَةً لَمْ تَسْمُ بِهَا إِلَى
 شَرَفِهَا ، وَعَلَى مَرَاتِبِهَا ، وَمُسْتَزَادِ الْخَطِّ فِي عَاحِلٍ وَآحِلٍ ، لَمْ يَلْعَاهِ وَيَخْتَارْ لَهَا حَاضٍ مَكْرُمَتِهِ ،
 وَمُدَّحَرِ عَاقِبَتِهِ . أَرْشَدَنَا إِلَى الدِّينِ ، وَسَلَّكَ بِهَا سُلُكَ الْجَنَّةِ ، حَارَلَنَا الْمُلْكَ ، فَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ
 مَا مَلَكَهَا عَايَةً ، وَوَرَدَ بِهَا الْحُرُوبَ وَسَاسَهَا لَهَا ، فَلَمْ يَدَعْ عَايَةً لِلتَّعْلِيمِ وَالذِّكْرِيَّةِ ، سُلْطَ عَلَيْهِ
 سُلْطَانُ اللَّهِ الَّذِي أَنَاهُ فَلَمْ يَدَعْ عَايَةً فِي التَّعْلُدِ وَالْفَقْهِ ، فَكَمَ عَلَمُهَا الْفَضَائِلُ ، ثُمَّ فَصَّلْنَا بِهَا ،
 عَلَبَ لَهَا الْأَيْمُ ، ثُمَّ حَوَّلَاهَا . عَلَمُهَا طَرَائِقُ الشَّرَفِ ، ثُمَّ شَرَّفْنَا بِهَا . احْتَرَبْنَا عَنِ الْأَسَاءِ فَكَفَّاهَا
 مَوْوِدَةَ التَّمَاسُكِ ، وَأَعْمَانَا بِمَا عِنْدَهُ فِيهَا ، أَحَدٌ عَلَى أَيْدِيهَا الْخَيْرَ لِلرَّعِيَّةِ ، فَوَهَبْنَا شُكْرَهَا ، وَصَدَّقَ
 مَقَالَتَنَا عِنْدَ الشُّبْهِ ، وَأَتَقَدَّ أَمْرُهَا فِي التَّدِيرِ .

فِيهَا أَتَاهَا الْإِمَامُ الْمَصْصُورُ الْمَهْدِيُّ الرَّشِيدُ حُرَّتَ فَصَائِلِ الْآيَاءِ ، وَاهْتَدَيْتُ بِهِدَى
 الْأَنْبِيَاءِ ، أَتَشْكُرُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَنْتَ الْقَائِمُ بِهِ الدَّاعِي لَهُ ، وَالْبَاصِرُ لِحَقِّهِ ، أَمْ تَشْكُرُكَ
 عَنِ الْأُمُصَارِ ، فَأَنْتَ الْمُفْتِيحُ لِمُنْتَعَمِهَا عَمَّوهُ ، وَالْمُتَطَوِّلُ عَلَى أَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ ، وَالْمُعْطِفُ عَلَيْهِمْ
 بِحَسَنِ الْفَائِدَةِ بَعْدَ مَا هَيَّجَتْ مِنْكَ سُورَةُ الْعَصَبِ ، فَاطْطَافَ بَارَهَا ، وَأَحْمَدَتَ لَهَا ،
 وَعُدَّتْ عَلَى مَنْ سَبَّهَ ، وَأَصَاحَ حَقَّهَ ، أَمْ تَشْكُرُكَ عَلَى الْمُسَاعَدَةِ ، فَأَنْتَ الَّذِي أَسْتَسْتُجِبُ عَلَى
 التَّقْوَى ، وَعَمَّرْتَهَا بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَطَهَّرْتَ الْمَذَابِ وَرَكَّتَهَا ، تَعْلَمُوهَا صَائِمًا ، وَتَطِيقُ عَلَيْهَا
 صَادِقًا ، وَيدْعُو إِلَى الرُّشْدِ عَلَيْهَا مَاصِحًا ، وَتَحْمِ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَنْدَازَهَا مَحْصَا ، وَتَتَلَوْنَ قَوَارِعَهُ ،
 مَا تَصْبِيحُ لَهُ الْأَسْمَاعُ وَتَلِينَ لَهُ الْقُلُوبُ ، أَمْ تَشْكُرُكَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالرَّكْنِ وَالْمَقَامِ ،
 وَالْمَحَرِّ وَزَمْزَمَ ، وَمَشَاعِرِ الْحُجِّ ، وَأَنْتَ ذَبَبْتَ عَنْهَا ، وَأَعْدَتَ الْبَهَا عَنْهَا ، فِي مَبْعَثِ نَبِيِّهَا ،

صلى الله عليه وسلم ، فأتمتَ الزاع إليها ، من كلِّ فخ عميق ، والحاليين بها من الركوع
والسجود ، أم نشرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عِزِّته ،
بعموك عن محرمهم ، ومصاعفك ثواب محسبهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد آدرس
وأنطمس ، بعد اللقاء بى الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه فى قرابته وقرابتك ،
ودوى رحمه ورحمك ، ماصيغ الناس . ووصَّات منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل ،
قد قرصَ صِلَة الأرحام ، وكان أطوع حلق الله عز وجل فيما قرصَ عليه . أم نشرك
عن العوام ، فقد أُلست المسلمين ثوب الأمن ، وأذقتهم طعم السَّعة والرِّفاهة ، وعدلت
بيهم بالإصاف ، وتولَّيت دونهم النَّصَب ، وآثرتهم الراحة . أم نشرك عن الملوك والقواد
والأجناد ، فأنبى الدي رفعتَ مبارهم ، ووفرتَ عددهم ، فلم يكن فى دهر أحد من الخلفاء
أسعد ولا أخطى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المعاون ، ووليهم من الثَّور
والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخواص ، أم نشرك عن الأحكام والسُّنن ، فأنت
الذى أنهجتَ سبيلها ، فأوحيتَ قرصها ، وبأست فى أهلها ، أم نشرك عن الأعداء فأنت
الذى بدأتهم بالتحفة ، ودعوتهم الى القِيَّة والإيابة ، ثم شيتَ معقبا بالعفو ، وسشتهم بعد
البؤس ، وأنستهم من الوحشة ، أم نشرك على مكارم الأخلاق ، وأنتَ الذى ننتَ وطأتها ،
ونفيتَ عنها أصدادها ، ولو نطقَت الفِصل ، لطقتَ شركك ، فى إزالتك إياها عن اللثام ،
وإخطائك من أعترى إليها . أم نشرك عن الثَّور ، فأنتَ الذى تَمَّتْها ، وحصتَ عوراتها ،
أم نشرك عن السلف ، فأنتَ الذى أشدتَ بفعالهم ، وحفظتَهم فى أبنائهم ، أم نشرك عن
بُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القصيب الذى شَفَّص به ، حتى جعلتهما ريتك ،
وسموتَ بهما فى أعيادك ، عد حشدك ، على الطُّهر والزكاة ، والتسك والتقوى ، أم نشرك
عن المسلمين فى رِعايتك إياهم ، وما تُرغيمهم من جَابك ، وتنفى عنهم من الآفات ، وتَمِل
عنهم من جبايرة الكفر ، وتُمَضِّ من جيوش الشُّرك والنُّكث ، وتفتح من الحصون
المُسْتَضْعبة ، وتسهل من الطُّرق الوعرة ، أم نشرك عن تواضعك لله عز وجل ولِصَالِح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله . أم شكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عدا وقائدا ومقّدا . وكان مأمورا لجمعته آمرا . وآله للقوة جعلت القوة له آله . فإمّا أنصّل شكره بشكر الله عن وحل . وسعته سمعه الله تعالى وطاعته ، بطاعه الله فوهب الله لك شرف المازل ، ورقاك درّج الفصائل . وحراك الله عما وعن عريا ، مما شكر من ماطق أو صامت ، جريل الثواب ورمع الدرحاب . وأسعت ما أتاك وأمع الأثمة ما آتاهم منك . والحمد لله ذى الرّعات ، ومتمّ الصالحات . شكرا رب العالمين . فإنه مَلَع طاقنا ، ومُنْهَى حَهدنا ، وبه نستعين على بأدية فرائضه . أنه لايعن على ذلك الا هو . أحبُّ أن نسكر اليكم أمر المؤمنين أيده الله . اد ورد على من أعماه وافصاله ، مالا أطلع به الفعل ، وأن يكون ما أقتصصا عليكم . داعيا لكم ، الى أن نسكروه عنا . وعن أنفسكم . وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت بما وقفنا الله له ، فيما شرحنا وأوصحننا ، من الدلالة والبيان أن يكون محتمعا يتنعم به من حصرا . ومن عسى أن يؤدّى اليه الحرّ عا . أو حدث بعدنا ، وصست بهذه المكرمة الرائعة ، والمآثره البارعة ، التي آدحها الله لأمر المؤمنين . أعزّ الله نصره ، وأفوده بها ، دون الأثمة والخلفاء . أن تمر بالأسماع صفحا ، وتختار على القلوب سهوا ، حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان ، ليقى ذُرّها ونفعها والخلوّ والأعقاب ، ونحن نسال الله عزّ وحل الذي جمع بأمر المؤمنين — مد الله في عمره — ألفتنا ، وعلى طاعته أهواءنا وصمائرنا ، وأمالنا من الفسطة في دولته وسلطانه ، مالم تحويه شيعه إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يتمّ نور أمير المؤمنين ، ويعلّ كنهه ، ويتمتعاً بنقائه ، حتى يلقه سؤلوه وهمته في الاستكثار من البرّ وآدحار الأجر ، وأسئجاب الحمد والشكر ، وأن لمّ به الشّعث ، وبرأب به الصّدع ، ويصلح على يديه الفساد ويرتق به فتور هذه الأثمة . ويثّج سياسته ونكاته في عدوها ، ويتابع الفتوح و ثلذاتهم حتى نؤيه من ثبح السعى ، ورعائب الحظّ في الدنيا ، ما يُجزل عليه ثوابه في الآخرة ، وأرشد بحبائه واصفياءه . الذين يقول لهم ، ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَاتُ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ومن توقيعاته نقلا عن كتاب الصولى .

وقع الى عامل طالم « الحق طريق واسع لمن طله تهديده محخته ولا تخاف عثرته
وتؤمن في السر مغته فلا تستقلن منه ولا تعدلن عه هدا بالعت في مناصحك فلا تخوحي
الى معاودتك فليس بعد التقدمة اليك إلا سطوة الإنكار عليك » .

ووقع في عناية بإنسان الى بعض العمال « أما فعلا تام العناية وله شديد الرعاية وكنت
أحت أن يكون ما أرعته طررك من أمره و كاني مستودعا سمعك من خطاى فلا تعدان
بعانتك الى غيره ولا تمنحن بعقدك سواء حتى بيله إرادته وتجاوز به أميته إن شاء الله » .
وفي كتاب آن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشىء الكثر فارجع اليه
إن شئت .

(و) رسائل سهل بن هارون^(١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقي رحل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا صرَّ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أحمى ، قال . درهم ، قال : لقد هَوَّنتَ الدرهم وهو طائع الله في أرصه

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رحلات اللادة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب خليفة ودمية وسماه « ثعلبة وعفرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد المأمون . ولد سهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دسيتسان كورة بين الأهوار وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرا ، ولا يعرف من سبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهبون (راهون) وكنيته أبو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي أو حوري المولد ، عراقى المنشأ ، تنحى إلى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، أو كما قيل فيها « قمة الإسلام ، وحرارة العرب » حوت من العلم الأساس أصوله ومروعه ، ومن القاميين على تيمته مصافحه ونحوه ، صدق رحمه لما كان محالها ومحامها ، واستأثر عقله بما اقتسه من نور معارفها فتخرج بلبانها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، في كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق في ربه كانوا على الأخلاق معتزلة ، ولم يؤثره أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، اعتداله مع الأحياء ، وما أثره أنه حاص عمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ، وأتموه أنه كان مع الشيعيين الذين يصرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العم صلا ، وإذا صحت هذه التهمة فمن الصعب ألوفيق بين مذهب من يقول بالشوعية ومن يقول بالتشيع ، على ألقى الذي صر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا في همه ، عشيق الوحه ، حسن الشارة ، بعيدا من العدامة (الغنى) معتدل القامة ، مقبول الصورة » يقص له الحكمة ، قل الحيرة ، ورقة الدهن ، قل المحاطة ، وبذقة المذهب ، قل الامتنان ، وبالسل ، قل الكشف (الظهور) . وكان الجاحظ مازحه وثامه . وقيل لفراني ولعله أراهم من دكاوان كاتب الهادى ووريه . يلك وبين سهل بن هارون صداقة فأنته لنا كي يعرف ، فقال « هو كالخير ، وأرن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب » ، وإن ورج لم يعصب ، كالغيث أين وقع ، همع ، وكالشمس حيث أزلت ، أحييت ، وكالأرض ما حلتها حلت ، وكالما ظهور للتمسه ، وما قع لعله من آخر إليه ، وكالخوا الذي تقطف منه الحياة بالنسم ، وكالار التي يعيش بها المرقور ، وكالما التي قد حسنت بأصاف الور « ١٠٠١ . صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوران مدحان عاشا قربه ، وفتنهما بخلفه وخلقه .

وأتهموا سهل بن هارون بالحل وأوردوا له قصصا وروايات ، وربما كان اتهامه بالحل مبالغ فيه زاد به التهمة والبادة ١٠٠١ . من محاضرة للاستاد الباحث السيد محمد كردعل ألقاها بالجمع العلمي العربي بدمشق ونشرها بمجلد الجمع والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذى هوئنته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ، ولولا أنصرافه لم يسكت .

وحكى دُعَيْلُ الخَزَاعِيّ الشاعر قال : أقما يوما عند سهل بن هارون ، وأطنا الحديث حتى أصرت به الجوع ، فدعا بعدائه فَأَتَى بَصَحْهه فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرِمٌ ، فأحد كسرة وتفقدا ما فى الصصحمة فلم يحسد رأس الديك فسقى مطرقا ، ثم قال للسلام : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ؛ قال : ولم ؟ قال : لم أطسك تأكله ، قال : ولم أطنت ذلك ! فوالله لى لَأَمُقْتُ من يرمى برجله فكيف رأسه ! ولو لم أكره ما صسعت إلا للطيّره والقال لكرهته ، أما علمت أب الرأس رئيس يتفاهل به ، وفيه الخواص الخمس ، ومنه يصيبح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذى بُتَبَرَكَ به ، وعيه التى يصرب بصفائها المثل فيقال : شراث كمن الديك ، ودماعه عجب لوجع الكُليّة ، ولم أر عظما قط أهش تحت الأسان منه ، وإن كان بلع من نُبَلِك ألك لا تأكله ، معدا من يأكله ، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن رأس العُنُق ! أنظر أين رميته ، فقال : والله ما أدرى ، قال : أنا والله أدرى ! إنك رميت به ، والله فى بطيك ، فوالله حسيبك .

ومن مؤلفاته كتابُ البهلاء .

ولما صَفَّ سهلُ كتابه فى البهل أهداه الى الحسن بن سهل وأسماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما دمه الله ، وحسنت ما فتحه الله ، وما يقوم بفساد معاك صلاح لعلك ، قد جعلنا ثواب مدحك فيه قولَ قولك ، فما نُعطيك شيئا .

وأتهم سهلُ بن هارون بالبخل وأورد له فى ذلك قِصَصٌ وبادر وعدّه الجاحظ من "مُتَعَاقِلِ البهلاء وأتخاء العلماء" قال : ما علمتُ أن أحدا جرد فى البهل كنانا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى المرس غالب فى الجملة ، علة الكرم على

طبائع العرب ، فاقصى ذلك التمریط الذى رآه سهل فى تسدير العرب ، أن يذلى لقومه بأرائه المفرطة فى الاقتصاد والإسك . وما شُهد قط تفریط آلا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهل بن هارون مُقطع الفرس فى صوف العلم والآداب ، وباهيك بعالم كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتاب الكثير المعالى ، الحس النظم ، فيدسه الى نفسه فلا يرى الأسماع تُصغى اليه ، ولا القلوب تتمُّ نحوه ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقص منه مرتبة وأقل منه فائدة ، فيحله عند الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، فيقبل الناس عليها ، ويسارعون الى نسخها .

ويقال إن طريقه سهل فى كتابه طريقه أمير المؤمنين على بن ابي طالب لا يكلف للكلامه ، فلا يشاهد فيه الباقى أثر التعمُّل ، بل لا يكلف غير إرسال النفس على سيجتها ، فهو وأبن المقفع والجاحظ على عِراير واحد .

وقيل إن سهلاً كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلف دواوس . وكان كلامه نعمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رثها بعد أن ملكك عليك مشاعرك ، لا تجعل بالانجاء إلا إذا حاءت عفو الخاطر ، شأن نلغاء الصدر الأول . وكان يقول الشعر وأكثر شعره مما أملاه قلبه ، فى عرض من أعراس المجتمع . وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الجار المجلدة ، والسير الجسان المولدة ، والأخبار المدونة . ولقبه مرة الكاتب ، ولعل لقب الكاتب فى شرفه أكبر من عالم . وذكره ابن الديلمى والبلاء وقال إنه شاعر مُقل ، وعده فى الشعراء الكتاب . وقال إنه كان ممن يعمل الأتمار والحرافات على أنيسه الناس والطير والبهائم هو وعد الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب ربيده . وشعره خمسون ورقة . أما الدهشة هى تأليهه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب اسباسيوس (أسابوس) فى اتحاد الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب سحره العقل ، كتاب تدير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الفزاليين، كتاب ندود وودود ولندود، كتاب الرياض، كتاب ثعلبة وعمرء، (وي رواية ثعلبة وعفره) على مثال كتاب كليلة وديمّة، قلده في أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودي : يزيد عليه أي على كليلة وديمّة في حسن نظمهم وقد صنفه للمأمون .
ومن تأليفه : كتاب الهزلية والمحرومي ، كتاب الوامق والعدراء إلى غير ذلك من المصنّعات التي لم تبق الأيام وبالألأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهلٌ على الرشيد وهو يصاحك المأمون، فقال : اللهم زده من الخيرات، وأبسط له من البركات، حتى يكون في كلّ يوم من أيامه مُرَبِّياً على أمسه، مُقَصِّراً عن عده، فقال الرشيد . يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأرصدّه، ومن الحديث أفصحّه وأوصحّه، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القولُ ؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما طست أن أحداً تقدّمني الى هذا المعنى، قال بل أعشى همدان حيث يقول :

رَأَيْتُكَ أَمِيسَ حَيْرَ بِي لَوْيَ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ حَيْرٌ مَكَ أَمِيسَ

وَأَنْتَ عَدَا تَزِيدَ الْخَيْرَ صَعَمًا ۞ كَذَاكَ تَزِيدَ سَادَةَ عَبْدَ شَمْسٍ

وقد شهّد مقتل الرامكة في سنة ١٨٧ هـ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إِنْ تَجَاعَى الحُطْبُ، وَتَحَرَى القَرِيصُ عِيَالٌ عَلَى يَحْيَى بْنِ حَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ وَجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى، وَلَوْ كَانَ كَلَامٌ بِتَصَوُّرٍ دُرّاً، وَيُحْيِلُهُ الْمَنَاطِقُ السَّيْرَى جَوْهَرًا، لَكَانَ كَلَامَهُمَا، وَاسْتَفْتَى مِنْ لَفْظِهِمَا، وَلَقَدْ كَانَا مَعَ هَذَا عَبْدَ كَلَامِ الرِّشِيدِ فِي مَدِيْنَتِهِ وَتَوَقُّعَاتِهِ وَكُنْهِهِ، فَدَنَيْنِ عَيْنَيْنِ، وَجَاهِلَيْنِ أَمِيْنَيْنِ، وَلَقَدْ عُمِّرَتْ مَعَهُمْ، وَأَدْرَكَتْ طَبَقَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي أَيَّامِهِمْ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لَمْ تُسْكَكَلْ إِلَّا فِيهِمْ، وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُودَةً إِلَّا عَلَيْهِمْ، وَلَا أَنْقَادَاتُ إِلَّا لَهُمْ، وَأَنْهُمْ مَحْصُصُ الْأَنَامِ، وَلِبَابُ الْكَرَامِ، وَمِنْحُ الْأَيَّامِ، عَشَقُ مَطَرٍ، وَجُودُهُ مَحَبَّرٍ، وَجَرَالَةُ مَنَاطِقٍ، وَسَهُولَةُ لَفْظٍ، وَنَزَاهَةُ نَفْسٍ، وَاكْتِمَالُ خِصَالٍ، حَتَّى لَوْ فَانَحَتْ الدُّنْيَا بِقَلِيلِ أَيَّامِهِمْ، وَالْمَأْوَرِ

من حصّالهم، كثير أيام من سواهم من لَدُنْ آدَمَ أبيهم الى النسخ في الصور، وأتعات أهل القور، حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وَحْيِهِ المرسلين، لما هاتَتْ إِلَيْهِمْ، ولا عُولَتْ في الفجر إلا عليهم، ولقد كانوا مع هَدْيِ أَحْلَافِهِمْ، وكرهم أَعْرَافِهِمْ، وسعِهِ آفَافِهِمْ، ورفق ميثاقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشرافهم، وقاوه أَعْرَاصِهِمْ، وهَدْيِ أَعْرَاصِهِمْ، وأَكْتِمَالِ حِلَالِ الخير فيهم، الى ملء الأرض مثلهم في حب محاسن المأمون كَالْقَفْئَةِ (التفلة) في البحر، والحدّلة في المهمّة القفر.

قيل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في ساد سخايا البرامكة والرشد والمأمون لم يحتم بالصّفة الحقّه، ومال به سهل الى المصاعه، وحرّجه على نحو ماله القُرس، في الإطراء والمَلَقَ لولى الأمر.

وروى بعض الرواه أن المأمون كان آستقل سهل بن هارون، وقد دخل عليه يوما والناس على مراتهم، فتكلم للمأمون بكلام ذهب فيه كلّ مذهب، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجمع فقال ما لكم تسمعون ولا تعوب، وتُساهذون ولا تفقهون، وهممون ولا تتعجبون، وتُسمعون ولا تُشعرون، والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل سو مروان في الدهر الطويل، عَرَبَكُمْ كَجَمْعِكُمْ، وعجمكم كعبيدكم، ولكن كيف يُعرّف بالدواء من لا يسعر بالداء. فرجع المأمون فيه الى الرأي الأول، وعرف أنه الرجل كلّ الرجل، فقرّبه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده.

ومن كلام له في كتابه ثلثة وعمره :

”اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مُقَدِّمًا هل الذي يحدون به من تفصيلكم، فإنّ تقديم البافلة مع الإبطاء في الفريضة شاهدٌ على وهن العقيدة، وتقصير الرّوية، ومُضِرٌّ بالنّدير، ومحلّ بالاختيار، وليس في مع محمد به عوض من فساد المروءة، ولروم النقيصة“.

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :
 عَدُو تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَسُوهُ * مُنَوَّعٌ إِذَا مَا مَنَعُهُ كَانَ أَهْرَمًا
 مُدَلِّلٌ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ عَيْرَ أَنْ تَرَى * مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَعْنَمًا
 وكتب الى صديق له أنل من صعب :

” بلعنى حبر القتره فى الماسما وأحسارها ، والشكاه فى حلولها وأرتحالها ، فكاد يشغل
 القلقل نأوله عن السكون لآخره ، وبذهل الحيره فى آسدهائه ، عن المسره فى آتهائه ، وكان
 تغيرى فى الحالين بقدرهما آرتياغاً للأولى ، وآرتياحا للآخرى “ .



وكتب فى الحل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وحللكم من أهله . قال الأحف برقيس :
 يا معشبر بن نميم ، لا تُسرِعوا الى الفته فإن أسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من العرار .
 وقد كانوا يقولون : اذا أردت أن ترى العيوب بحم فتأمل عياناً فإنه إما يعيب الناس
 بفصل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن يعيب ما ليس يعيب . وقبيح أن تنهى
 مُرشدًا وأن تُغري مُشفيق . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإصلاح فاسدكم ،
 وإبقاء السعة عليكم . وما أخطأنا سبيل حُسْنِ البية فيما بيننا وبينكم . وقد تعلمون
 أنا ما أوصياكم إلا بما اخترناه لكم ، ولأنفسنا قُلُوبَكم ، وشُهِرَنا به فى الآفاق دونكم ، ثم نقول
 فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَحْلِلَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ
 إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ فما كان أحقًا
 سكم فى حرمتنا بكم أن ترتعوا حقَّ قصديا بذلك اليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ،
 فلا العذر المبسوط بلفتم ولا بواجب الحرمة فتم . ولو كان ذكر العيوب يُرادُّ به نحرُّ رأيا
 فى أنفسنا من ذلك شغلًا .

عَبْتُمُونِي فَقَوْلِي خَلَامِي : أَجِيدِي الْعَجِينَ فَهُوَ أَطْيَبُ لَطْعَمِهِ وَأَزِيدُ فِي رَيْعِهِ ^(١) . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أَمْلِكُوا الْعَجِينَ لِأَنَّهُ أَحَدُ الرَّيْعِينَ ^(٢) .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ تَمَيَّنَ مِنْ فَاكِهِهِ رَطْبَةٌ بَقِيَّةٌ وَمِنْ رَطْبَةِ غَرِيبةٍ عَلَى عَبْدِ سَيِّمٍ وَصَيِّ حَسْبَعٍ وَأُمِّهِ لَكَهَاءٌ وَزَوْجَةُ مُصْبِيهِ ^(٣) .

وَعَبْتُمُونِي بِالْحَتَمِ وَقَدْ حَتَمَ بَعْضُ الْأَثَمَةِ عَلَى مِزْوَدِ سَوِيْقٍ وَعَلَى كَيْسِ فَارِعٍ ^(٤) . وقال : طِبَّةٌ خَيْرٌ مِنْ طَبِيَّةٍ ، فَأَمْسَكْتُمْ عَنْ خَتَمٍ عَلَى لَأْشَيْءٍ وَعِثْتُمْ مِنْ خَتَمٍ عَلَى شَيْءٍ .

وَعَسْتُمُونِي أَنْ فُلْتُ لِلْغَلَامِ : إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرْقِ قَرِيدٌ فِي الْإِنْصَاحِ لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّأْدِيمِ بِاللَّحْمِ طِيبُ الْمَرْقِ .

وَعَبْتُمُونِي بِخَصْفِ النَّعْلِ وَبَتَصْدِيرِ الْقَمِيصِ وَحِينَ زَعَمْتُ أَنْ الْمُخْصُوفَةُ مِنَ التَّلْعِ أَنْبَى وَأَقْوَى وَأَشْنَى بِاللَّشْدِ وَأَنْ الرَّقِيعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّقْرِيطَ مِنَ التَّصْبِيعِ . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيُرْقَعُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ . لَوْ أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبِلْتُ ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاجٍ لَأَجَبْتُ . وقالت الحكماءُ : لَا حَدِيدَ لِمَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادُ رَجُلًا يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثَانِ وَأَشْطَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَأَتَاهُ بِهِ مُوَافِقًا فَقَالَ لَهُ : أَكَسْتَ بِهِ دَا مَعْرِفَةً ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي يَوْمٍ قَاطِطٌ يَلْبَسُ حَلَقًا وَيَلْبَسُ النَّاسُ حَدِيدًا ، فَتَهَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وقد علمت أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلُ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ . وقد جعل الله لكل شَيْءٍ قَدْرًا وَسَمًا بِهِ مَوْضِعًا كَمَا جَعَلَ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجُلًا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا . وقد أَحْيَا اللَّهُ بِالسَّمِّ وَأَمَاتَ بِالْدَوَاءِ وَأَغْصَنَ بِالنَّاءِ . وقد زَعَمُوا أَنَّ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِيْنَ كَمَا زَعَمُوا أَنَّ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِيِّنَ . وقد حَبَرَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَدَ عَتْرٍ وَأَمْرَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

(١) الرِّيعُ : النِّعَامُ وَالرِّيَادَةُ . (٢) إِمْلَاكُ الْعَجِينِ إِسْمَامٌ عَنْهُ . (٣) الْكَهَاءُ : الْحَقَاءُ .

(٤) الْمُرُودُ : وَهَاءُ الزَّادِ . وَالسَّوِيْقُ : طَعَامٌ يُتَخَذُ مِنَ الْحَبَّةِ أَوِ الشَّعِيرِ . (٥) - عَمَّ الْعَمَلُ : خَرَزَهَا .

(٦) تَصْدِيرُ الْقَمِيصِ : أَنْ يَجْعَلَ لَصَدْرِهِ بَطَانَةً .

يَفْرَكَ النَّعْلَ . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْصَةً فقد أكل دَجَاجَةً .
ولبس سالم بن عبد الله حِلْدَ أُحْجِيَةٍ . وقال رجل لعص الحِمْيَر : أريد أن أهْدِي اليك
دَحَاةً . فقال : إن كان لابد فاجعلها بَيْوَضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواصِعَ السَّرَفِ فى الموجود الرخيص لم يعرف
مواصِعَ الاقتصاد فى الثَّمَنِ الغالى . ولقد أُنِيتُ مَاءً للوصوء على ملح الكِفَايَةِ وأشَدَّ من
الكِفَايَةِ ، فلما صرت الى تفریق أجزائه على الأعضاء الى التوفير عليها من وَضِيعَةِ الْمَاءِ^(١)
وحدتُ فى الأعضاء فَصْلاً عَنِ الْمَاءِ ، فعلمتُ أن لو كُتِّ سَلَكْتُ الاقتصادَ فى أوائله
لخرج آخرُه على كِفَايَةِ أَوَّلِهِ ولكان نصيبُ الأَوَّلِ كصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وشعتم
على ؛ وقد قال الحسن ودَكَرَ السَّرَفَ : أما إنه لَيَكُونُ فى الْمَاءِ وَالْكَلا فلم يَرْضَ بذكر
الماء حتى أَرَدَ الْكَلا .

وعبتمونى أن قلتُ : لا يَنْفَرُ أَحَدُكُمْ بطول عمره وتَقْوِيسَ ظَهْرِهِ وَرِقَّةَ عَظْمِهِ وَوَهْنِ
قُوَّتِهِ وَأَن يَرى نحوه أَكْثَرُ دُرِّيَّتِهِ ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده وتحويله الى مِلْكِ
غيره والى تحكيم السَّرَفِ فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعْمِراً وهو لا يدري ،
وممدوداً له فى السن وهو لا يشعر ، ولعله أن يُرَزَّوْا الولد على اليأس ويُحَدِّثَ عليه من آفات
الدهر ما لا يَحْطُرُ على نال ولا يُدْرِكُه عمل ، فيستزده ممن لا يرده ويُظْهِرُ الشكوى الى من
لا يرحمه أَضْعَفَ ما كان عليه الطَّلَبُ وأقبح ما كان به أن يَطْلُبَ ، فعبتمونى بذلك ،
وقد قال عمرو بن العاص : ” اَعْمَلْ لَدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَمِيشُ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ
تَمُوتُ غَدًا “ .

وعبتمونى بأب قلتُ . بأن السَّرَفَ والتدبير الى مال الموارِيثِ وأموال الملوك وأَنْ
الحفظَ لِمَالِ الْمَكْتَسَبِ والغنى المحتلِبِ والى من لا يُعْرَضُ بِهِ بذهاب الدين وأَهْتِصَامِ
العرضِ وَنَقْصِ الْبَدَنِ واهْتِمَامِ الْقَلْبِ أَمْرُغُ وَمَنْ لَمْ يَحْسُبْ نَفَقَتَهُ لَمْ يَحْسَبْ دَحْلَهُ

ومن لم يحسب الدحل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغي قدره فقد أودن بالفقر وطاب نفسا بالذل .

وعثمونى أن قلت : إن كَسَبَ الحلال يصم الإغناى فى الحلال . وإن الخبيث يَنَزِعَ الى الخبيث ، وإن الطَّيِّبَ يدعو الى الطَّيِّب ، وإن الإهراق فى الهوى يحجب دون الهدى ، فعبتهم على هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرتبديرا قط إلا والى حنبه حق مُصَيِّع . وقد قال الحسن . إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيماذا يُفِيقُه فإن الحديث إما يُنَقِّى فى السرف . وقلت لكم بالشقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأتم فى دار الآفات ، والجوانح غير مأمونات : فإن أحاطت بما لأحدكم آفة لم يرجع إلا الى نفسه . فاحذروا الثََّمَّ باختلاف الأمانة فإن اللية لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العتد والأمة والشاة والبعير : فَرَّقُوا بَيْنَ الْمَايَا . وقال آس سِيرِين لبعض السَّحَرِيِّينَ كَيْفَ تَصْصَعُونَ أَمْوَالَكُمْ ؟ قالوا : نُتَرَفِّقُهَا فى السُّقْرِ فَإِنْ عَطِبَ بَعْضُ سَلَمَ بَعْضُ . ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أهوالنا و البحر . قال آس سِيرِين : ” نَحْشَمَهَا خَرْقَاءَ وَهِيَ صَاعٌ ^(١) ” .

وعثمونى أن قلت لكم عدد إشفاقى عليكم : إن للعنى لَسَكْرًا وللال لَمَرَّةٌ ^(٢) من لم يحفظ العنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يسط المال لحوف الفقر فقد أهمله .

فعثمونى بذلك وقد قال ريدى حَلَهَ ليس أحد أقصر عقلا من عنى أمين الفقر ، وُسْكُرُ العنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن برمك :
وَهُوَ بُتْلَادُ الْمَالِ فِيمَا يَبُوبُهُ : مُسَوِّعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْرَمًا

وعثمونى حين رعثمى أنى أقدم المال على العلم ، لأن المال به يُقَادَ العلمُ وبه تقوم المسئلة قبل أن تعرف فصل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفصيل من الفرع ، فقلتم .

(١) هذا مثل يصرب لى تظن به الغفلة وهو طس يقط . (٢) البرقة : الثوردة أو البرقة .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : وما مال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفصل المال وجهل الأغنياء بحق العلم . فقلت : حالهما هي القاصية بينهما . وكيف يستوى شيء حاحه العامة اليه وشيء يُقَنَّى فيه بعضهم عن بعض .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء بالتحاد بالعلم والمقراء بالتحاد بالدحاح . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إني لأُبْعِضُ أَهْلَ بَيْتٍ يُمَقِّقُونَ فَقَهَ الْأَيَّامِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ . وكان أبو الأسود الدؤلى يقول لولده : إِذَا بَسَطَ اللَّهُ لَكَ الرِّزْقَ فَابْسُطْ وَإِذَا قَصَّ فَاقْبِصْ .

وعبتمونى حين قلت : فَضَّلَ الْغَنَى عَلَى الْقُوَّةِ إِنَّمَا هُوَ كَمَفْصَلِ الْآلَةِ تَكُونُ فِي الْبَيْتِ إِذَا أُحْتِيجَ إِلَيْهَا اسْتُعْمِلَتْ وَإِنْ اسْتُغْنِيَ عَنْهَا كَانَتْ عُدَّةً . وقد قال الحُصَيْنُ بْنُ الْمَدَرِ : وَدِدْتُ أَنْ لِي مِثْلُ أَحَدٍ دَهْمًا لَا أَسْتَعْمِلَ مِنْهُ شَيْءً . قيل له : فَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِهِ ؟ قَالَ : لِكَثْرَتِهِ مِنْ كَانَ يَحْدُثُنِي عَلَيْهِ لِأَنَّ الْمَالَ مَحْدُومٌ . وقد قال بعض الحكماء : عَلَيْكَ بِطَلَبِ الْغِنَى فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ عِزٌّ فِي قَلْبِكَ وَدُلٌّ فِي قَلْبِ عَدُوِّكَ لَكَانَ الْخَطُ فِيهِ حَسْبًا وَالْبَعْعُ فِيهِ عَطِيًّا .

وَلَسَا يَدْعُو سِبْرَهُ الْأَنْدَاءَ وَتَعَلَّمَ الْخُلَفَاءُ وَتَادَسَ الْحُكَمَاءُ لِأَصْحَابِ اللَّهِ هُوَ ؛ وَلَسْتُمْ عَلَى تَرَدُونَ وَلَا رَأْيَ تُهَمِّدُونَ ، فَهَدِّمُوا الطَّرْقَ قَبْلَ الْعَرَمِ وَأَذْرِكُوا مَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُذْرِكُوا مَالَكُمْ . والسلام عليكم .

وسهل هو القائل :

تَقْسَمِي هِمَّانٍ قَدْ كَسَهَا بِأَلِي * وَقَدْ تَرَكََا قَلْبِي مَحَلَّةَ لَيْلَالِ
هَذَا أَذْرِيًا دَمَعِي وَلَمْ تُذَرِ عَبْرَتِي * رَهِيئُهُ حَدَّ دَاثُ سِنْمِطٍ وَحَلَّالِ
وَلَا قَهْوَةَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الَّذِي * عَلَى أَنْ تُحَاكِيَ النُّورَ فِي رَأْسِ ذِيَالِ

تَحُلُّ مِنْهَا حُرْمُهَا وَمَا سَكَتْ * لَهَا نَفْسٌ مَعْدُومٌ عَلَى الزَّمَنِ انْتِلَاقِي
 وَلَكِنَّا أَنْبَى سَعِيٍّ سَجِيٍّ * عَلَى حَدَثٍ تَبَيَّنَ لَهُ عَيْنُ أُمْنَانِي
 وَرَأَى حَلِيلٍ لَا يَقُومُ بِهِ الْأَسَى * وَخَلَّةٌ حُرٌّ لَا يَقُومُ بِهَا مَالِي
 فَوَاحِسَرَقَ حَتَّى مَتَى الْفُلُ مُوَحَّجٌ * لَقَرَّ حَلِيلٍ أَوْ تَعَدَّرَ إِفْضَالُ
 وَمَا الْفَصْلُ إِلَّا أَنْ تُحَوِّدَ بَنَائِلُ * وَإِلَّا لِقَاءَ الْخِلِّ ذِي الْخُلُقِ الْعَالِي

وهو القائل :

إِذَا أَمْرٌ صَاقَ عَنِّي لَمْ يَصُقْ خُلُقِي * مِنْ أَنْ يَرَانِي عِيًّا عَمَّه نَالِيَسِ
 لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كِي أُغْنِيَ بِفَضْلَتِهِ * مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقَرًّا مِّنَ الْبَاسِ

(ز) عمرو بن مسعدة^(١)

كان كاتباً بليغاً، جَرَلَ العارة وحيزها، سديد المقاصد، فصله شائع، ونُله ذائع، أشهر من أن يُنبّه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف إليه؛ قد ولىّ للأمون الأعمال الجليلة، وأُلْحَقَ بذوى المراتب البليلة. وسمّا بعضُ الشعراء وزراً لعظم منزلته لا لأنه كان وزيراً، وهو قوله:

لقد أسعد الله الوزير بن مسعدة * وبُثَّ له في الساس شكرٌ ومحمد

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول. وصول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكاتب ملك وأحوه فيرور على حرحان ونحسا بعد التركة وقشها بالفرس.

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من المال فظهرت كفايته وبلاغته، وبالبلاغة توصل إلى الخليفة عبد أحد أفراد قلائل في رحاله، قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت يوماً على المأمون وبسده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد فيه ويصوب، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت إليّ وقال: يا أحمد أراك معكراً فما تراه مني، قلت نعم، فقال إن في هذا الكتاب كلاماً طير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة، رجم أن البلاغة إنما هي التواعد عن الاطالة، والتقرّب من معنى البنية، والدلالة بالقليل من اللطيف، على الكثير من المعنى، وما كنت أفهم أن أحداً يقدر على ذلك. وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة إليّ، فكنته فاداً فيه.

«تكنّى إلى أمير المؤمنين، ومن قبل من قواده، ورؤساء أحماده، في الاضياد والطاعة، على أحسن ما تكون طاعة حد تأثرت أرزاقهم، واقياد كمفا تراحت أعطيائهم، فاحتلت لذلك أحوالهم، والثالث معه أمورهم». فلما قرأته قال: إن استحساناً إليك يعني أن أمرت للحد قله فأعطيائهم لعدة أشهر، وأنا على محاربة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صاعته. وفي رواية أن المأمون أمر لعمر بن مسعدة بزرقة ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف: لله در عمرو ما ألهه! ألا ترى إلى إدماحه المسألة في الأحبار، وإعناحه سلطانه من الآثار.

وكان عمرو بن مسعدة وكبته أبو العصل أيضاً أحمر الوجه، وكان المأمون يسميه الرومي لياض وجهه وكان يحسب وتوفى بأربعة سنة سبع عشرة ومائتين. ولم يعرف منشأه ومولده وأسايدته وعاية ما عرفناه أنه كان أحد إحوة أربعة أحسن أروهم — وكان كاتباً أيضاً — تربيتهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون، وكان هو وأبو عباد ثالث من يحيى يكتسب بين يديه ويحصلون معه ويمازحانه. ولكن يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤونهم يجب أن يطوى على صفات طالية يمر مثلها في الأقران والأثراب.

قال عمرو بن مسعدة: كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي مرفع إليه علماه ورقة يستردوه في روايتهم فرى بها إلى وقال: أجب عنها فكنتت: «قليل دائم خير من كثير مقلع» فصر بیده على طهری وقال: =

فهو كما كتبت الحسن س سهل الى محمد بن سماعه القاصي وقد احتاج الى رحلي يؤتيه
بعض الأعمال فقال . إنه يريد رحلا حامعا لخصال الخير، ذا عفة ونزاهة طعمة، قد هدبته
الآداب ، وأحكته التحارب، ليس نظيف في رأيه، ولا بيطعوني في حسبه إن أؤتمس على
الأمرار قام بها ، وإن قلد مهمما من الأمور أجراً فيه، له سن مع أدب ولسان، تُعقده
الزراية، ويسكنه الحلم، قد فُرع دكاء و فِطْطَة، وعص على قارحه من الكمال، تكفيه
المخطة، وتُرشده السكنة، قد أنصر خدمة الملوك وأحكها، وقام في أمور حُمِد فيها، له
أناه الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وحوابُ الحكماء ، لا يبيع
نصيب يومه محرمان عده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه، وحُسي بيانه، دلائل
الفضل عليه لائحة، وأمارات العلم له شاهدة، مُصطلعا بما استنض، مستقلا بما حمل .

== أى ورير في حلدك . وقد شهد لعمر بن مسعدة اللادة أعيان البيان في عصره ومهم الفصل س سهل فقال فيه .
إنه أطلع الناس ، ومن ملاعته أن كل أحد اذا سمع كلامه طل أنه يكتب مثله فاذا رآه بعد عليه . وهذا كما قيل لأحد
الماء ما حد اللادة فقال التي اذا سمعها الحاهل طل أنه يقدر على مثلها ، فاذا رآها استصعبت عليه .
ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص وأورد مسألة في التأليف ، وعده اس القديم في الشعراء الكتاب
ولم يذكر إلا أن له ولأخيه محاشع حميس ورقة من الشعر وهي من الصانع أيضا . والغالب أن مهام الدولة
لم تترك له وقتا يصرفه في درس خاص ، أو وضع كتاب أو رسالة . وما تعلقه العلماء والأدباء من كلامه ،
فهو مما صدر عنه بالمناسات ، ورواه له المحدثون به ، وما أعظم المفقود منه . والمطلون أن لو كانت جمعت
له رسائله على إبحارها لكان منها ديوان كبير ، لأن من صرف أعواما طويلة وهو قاص على براعة يعالجها
الموضوعات السياسية والادارية في ذلك المجتمع العظيم لا شك أنه محتتم له صعحات كثيرة مهما كان مقلا
معروفا بالبحار ١ هـ من محاصرة للاستاد الباحث محمد كرد على شرها لمجلة الجمع العلمي العربي . وفي عمرو بن
مسعدة قال محمد الديق وقد اعتل :

قالوا أو الفصل معتل فقلت لهم * هسى العداة له من كل محذور

يا ليت علته في غير أنف له * أحر العليل وإلى غير مأحور

وتحدثت عنه في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) واس حلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والواقي بالوفيات
للصمدى (ج ٥ ص ٥٠٢) قسم ثالث من الأصل الفروع في المعحوط بدار الكتب المصرية) .

(١) في الأساس : ومن الهجاز طلاب طب الطعمة وحيث الطعمة (بالكسر) وهي الجهة التي بها يرتق
(بولزن الحرفة) . (٢) أجزأني كذا : كفاى . (٣) فرعن دكاء ، وفططة ، أى جرب واختبر
فيها . (٤) وعص على قارحه ، تخاية من بلوه درجة الكمال .

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظم الناس أجراً، وأنبهم دكراً، من لم يرص بموت العدل في دولته، وطهور المحبة في سلطانه، وإيصال المانع الى رعيته في حياته، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال . الخطّ صورُ الكتُب تُردّ اليها أرواحُها .

وقال . الخطّ صورةٌ ضئيلةٌ لها معانٍ حليلة، ورُبما صاق عن العيون ، وقد ملأ احطار العيون .

وقال لا تستصح من يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائده علمه ، ومن كانت عايته الاحتياال على مالك وإطراءك في وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا ردىء العيب ، سريعاً الى الدم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد ، فإنك متى ادا عرس سقى ، وادا أسس سى ، ليستم تشييد أسسه ، ويحتجى ثمار عرسه ، وناولك عدى قد شارف الدروس ، وعرسك مشف على اليوس ، فتدارك بهاء ما أسس ، وسقى ما عرسست إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يعز عليه :

أما بعد ، فوصل كالى اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُذبرونى عن سالم وأديرهم * وحلده بين العس والأف سالم

أى يحل منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بى ضة يستشع له بالزيادة في مرتبه وجعل كتابه

سريصا :

أما بعد ، فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطوك على ، في إلحاقه سطرانه من

الخاصة فيما بررقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يحلنى في مراتب المستسمعين ،

وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتَكَ له ، وتعرضَكَ لنفسك ، وأجبتاك اليهما ، ووافقاك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه ذلك تعدى طاعته" : من الكلام السرى الذى يُل على مبلِّغ أدب عمرو ويُعد غوره فى السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسية الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أباءِ دَهَاقِينَ قريش ، على المأمون لِعِدَّة سلفتِ مسه ، فطال على الرجل اسطارُ خروح أمر المأمون ، فقال لعمر بن مسعدة : تُوَصَّلْ منى رُقعةً الى أمير المؤمنين تكون أنت الذى تكتبها تكن لك على نعمتان . فكتب : "إن رأى أمير المؤمنين أن يَكُ أَسْرَعِيده من رِقة المَطل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرا فجعل يَعْجَب من حسن لفظها ، وإيجازِ المراد . فقال عمرو : فما نَتِيجَتُها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابُ له فى هذا الوقت بما وعدناه ، لثلاثينَ فصلُ استجساسا كلامه ، وبخاترة مائة ألف درهم ، صِلَّةٌ عن دناءه المَطل . وسَمَاجَةِ الإفعال .

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه باللاعة وقدره أهلها حقَّ قدرهم ، دع ما هنالك من نفس ما أحببت إلا الجود والعطاء .

ومن حِكَمِ عمرو بن مسعدة :

العبوديةُ عبوديةُ الإحاء . لا عبوديةُ الرِّق . الودَّ أعطف من الرِّحم . إن الكريمَ ليرعى من المعرفة ما رعى الوَصْل من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينةُ فى الرِّحاء ، وعدةُ للبلاء . مثلُ الإخوان مثلُ النار ، قليلها متاعٌ ، وكثيرها توار . النفس بالصدق ، أنسُ منها بالعشيق ، وعَزَلُ المودةِ ، أرقُّ من عَزَلِ الصباية . من حقوق المودة ، عفوُ الإخوان ، والإغضاءُ عن نقصيرٍ إن كان . ذكر رجلٌ رجلا فقال : حسبك أنه حُلِقَ كما تستهى إخوانه . المودةُ قرابةٌ

(١) الدهاقين : الرعاء . أرباب الأملك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكر الدال معزب) .

مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء
 انقطاعا موده الأشرار . المحروم من حُرِّم صالحى الإحوان . لقاء الخليل شعاء الغليل .
 قلة الريارة ، أمان من الملالة . إخوان السوء كشجر الباريح يحرق بعصه بعضا . علامه الصديق
 اذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ، ولا يتدنى بالكاتب . لا يفسدك الطن على صديق
 قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأئس ، أثمرت مودته
 ندما . اذا قدمت الحُرمة ، تشبهت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من
 باطل الحقد . ما أكثر من يُعاتب لطلب علة ، ويبقى الأود ما بقي العتاب . تكون الحقد
 فى العُود ككُود النار فى الرناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمن
 عدوك وإن كان مقهورا ، واحذر وإن كان معقودا ، فإن حد السيف فيه وإن كان معمودا
 لا نعرض لعدوك فى دولته ، وإنما اذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديب ، ونصح
 العدو تأيب .

روى السيِّقى قال : أحبرنا بعض أصحابنا قال : شهدنا المأمون يوما وقد حرج من
 باب البُسان بمعداد فصاح به رجل بصريّ " يا أمير المؤمنين إني تزوجتُ امرأة من
 آل رِياد وإن أبا الرازى فزنى بيما وقال : هى امرأه من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن
 مسعدة فكسب الى أبى الرازى .

إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادة وحلّك إياها إذ كانت من قريش . فتى
 بحاكم اليك العرب ؟ لا أتم لك فى أنسابها ، ومتى وكلتكَ قريش يابى الخاء بأن تلصق
 بها من ليس منها ؟ نخل بين الرجل وامرأه ، فإش كان زياد من قريش ، إنه لأبى سُميَّة
 نعى عاهره ، لا يفترح ، بقرابتها ولا يُطاول بولادنها . ولئن كان أبى عبيد ، لقد باء بأمر
 عظيم ، اد آدعى الى غير أبيه ، لخط تعجله ، ومُلك قهره .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرحل به عناية الى بعض العُمال فى قضاء
 حقه ، وأن يختصر كتابه ما أمكنه ، حتى يكون ما يكتب به فى سطر واحد ، لا زيادة عليه .
 فكسب عمرو :

كُتِبَ إِلَيْكَ كِتَابٌ وَاثِقٌ بَيْنَ كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، مَعْنَى بَيْنَ كُتِبَ لَهُ ، وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ الثَّقَةِ وَالْعَايَةِ حَامِلُهُ .

وكتب الى بعض الزُرياء ، وقد تزوجت أمه مساءه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس نَسَلَّ بِهَا ، وَذَهَبَ عَنْهُ مَا كَانَ بِيَحْدَهُ . وَقِيلَ : إِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ الْعَمِيدِ وَهِيَ :

الحمد لله الذي كَشَفَ عَا سِتْرَ الْحَيَرَةِ ، وَهَدَانَا لَسِتْرِ الْعَوْرَةِ . وَجَدَعَ بِمَا شَرَعَ مِنَ الْحَلَالِ أَنْفَ الْعَيْرَةِ ، وَمَعَ مَنَ عَصَلَ الْأَمْهَاتِ ، كَمَا مَعَ مِنْ وَأَدِ الْبَاتِ ، اسْتِرَالَا لِلْعُوسِ الْأَبْيَةِ ، عَنِ الْحَمِيَةِ حَمِيَةِ الْجَاهِلِيَةِ ، ثُمَّ عَرَّصَ لِحَرِيلِ الْأَجْرِ ، مَنَ اسْتَسْلَمَ لَوَاقِعَ قِصَائِهِ ، وَعَوَّضَ حَالِيلَ الدَّحْرِ مَنَ صَدَّرَ عَلَى نَازِلٍ بِلَايِهِ ، وَهَآكَ الَّذِي نَزَحَ لِلتَّقْوَى صَدْرُكَ ، وَوَسَّعَ فِي السَّلْوَى صَبْرُكَ ، وَأَلْهَمَكَ مِنَ التَّسْلِيمِ لِمُسَيِّئَتِهِ ، وَالرِّضَا بِقِصْبَتِهِ ، مَا وَفَّقَكَ لَهُ مِنْ قَضَاءِ الْأَوَاحِ فِي أَحَدِ أَوْنَيْكَ ، وَمَنَ عَظُمَ حَقُّهُ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى جَدُّهُ مَا تَحْزَنُ عَنْهُ مِنْ أَنْفٍ ، وَكَظَمْتَهُ مِنْ أَسَفٍ ، مَعْدُودَا فِيمَا يُعْظَمُ بِهِ أَجْرُكَ ، وَيُجْزَلُ عَلَيْهِ ذُنُوبُكَ ، وَقَرَّرَ بِالْخَاصِرِ مِنْ امْتِعَاصِكَ بِفَعْلِهَا ، الْمُتَطَرِّفَ مِنْ ارْتِمَاصِكَ بِدَفْنِهَا ، فَتَسْتَوِي بِهَا الْمَصِيبَةُ ، وَتَسْتَكِلُ عَنْهَا الْمُتَوْبَةُ ، فَوَصَلَ اللَّهُ لِسِيدِي مَا اسْتَشْعَرَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عُزْسِهَا ، بِمَا يَكْتَسِبُهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَعَوَّضَهُ مِنْ أَسْرِهِ فَرْشَهَا ، أَعْوَادَ نَعَشِهَا ، وَجَعَلَ تَعَالَى حَذُّهُ مَا يُنْعَمُ بِهِ عَلَيْهِ بَعْدَهَا مِنْ نِعْمَةٍ ، مَعْرَى مِنْ قَعْمَةٍ ، وَمَا يُولِّيه بَعْدَ قَبْضِهَا مِنْ مِغْنَةٍ ، مُبْرَأً مِنْ مِغْنَةٍ ، فَأَحْكَامَ اللَّهُ تَعَالَى حَذُّهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، جَارِيَةٌ عَلَى عَيْرِ مُرَادِ الْمَخْلُوقِينَ ، لَكِنَّهُ تَعَالَى يَخْتَارُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ فِي الْعَاجِلَةِ ، وَأَبْقَى لَهُمْ فِي الْآجِلَةِ ، احْتَارَ اللَّهُ لَكَ فِي قَبْضِهَا إِلَيْهِ ، وَفَدَّوْمَهَا عَلَيْهِ ، مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهَا ، وَأَوْلَى بِهَا ، وَجَعَلَ الْقَبْرَ ، كُفُوًا لَهَا وَالسَّلَامَ .

وقال عبد العزير بن يحيى المكي الذي ناظر بشر بن عياث المريسي بمصر أمير المؤمنين في مسألة حَلَقِ الْقُرْآنِ :

جاءني خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمعٌ من الفرسان والزُجَّالَةِ لِحِمَانِي مُكْرَمًا عَلَى دَابَّتِهِ حَتَّى صَارَ إِلَى بَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَوْقَفَنِي حَتَّى حَاءَ عَمْرُو بْنُ مَسْعُودَةٍ فَدَخَلَ بَغْلَسَ فِي مُجْرَتِهِ

التي كان يجلس فيها ثم أدين لي بالدخول عليه فدخلت فلما صيرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيم على ما كنت عليه أو قد رحمت عه ؟ فقلت : بل مقيم على ما كنت وقد ازدددت بتوفيق الله تعالى لإبائى بصيرة و أمرى ، فقال لى عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملت نفسك على أمرٍ عظيم ، و بلغت العاية في مكروهاها ، و تعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، و ادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ، ولا لأحد غيرك ، وليس وراءك بعد الحجة عليك الا السيف ، فانظر لنفسك و ادر أمرك ، قل أن تقع المناطرة و تظهر عليك المحجة ، فلا تفعلك الدامة ولا يقبل منك معدرة ولا تقول لك عثرة ، فقد رحمتك و أشفقت عليك مما هو نازل بك ، و أما أستقبل لك أمير المؤمنين و أسأله الصصح عن جرمك ، و عظيم ما كان منك اذا أظهرت الرجوع عه و الندم على ما كان ، و آخذ لك الأمان مه و الجائزة ، فان كاتب لك طلامة أرلها عك و ادكأت لك حاحة قصيتها لك ، فاما حلسن رحمة لك مما هو نازل لك بعد ساعة إن أقنت على ما أنت عليه و رجوت أن يخلصك الله تعالى على يدى من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

شعره :

نقلنا أمثلة قليلة من نثر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فقليل جدا . ذكر المترجون له أنه كان له فرس أدهم أعرج ، لم يكن لأحد مثله فراهة و حسا . فبلغ المأمون حره ، و بلغ عمرو ابن مسعدة ذلك . يخاف أن يأمر بقوده اليه فلا يكون له فيه تجده ، فوجه به اليه هدية و كتب معه :

يا إماما لا يُدا . نيه اذا عد إمام
فصل الناس كما يف . فصل تقصا ما تمام
قد تعشا بجواد * مثله ليس يرأ
فرس يزهى به لا * حسن سرج و لحام
دونه الخيل كما مث * ملك في الفصل الأمام

وَجْهَهُ صُبْحٌ وَلَكِنْ سَاثَرِ الْجَسْمِ ظِلَامٌ
وَالِدَى يَصْلُحُ لَلْو * لَى عَلَى الْعَمِدِ حَرَامٌ

وعمر هو القائل :

وَمُسْتَعِذٌ لِلْهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعَدْتُ * أَكَاثِمُهُ حُسَى فَيَنَائِي وَأَقْرُبُ
إِذَا جَدْتُ مَنِي بِالرِّصَا حَادٍ بِالْجَفَا وَيَزْعُمُ أَنِّي مُذْنِبٌ وَهُوَ أَذْنِبُ
تَعَلَّمْتُ أَلْوَانَ الرِّصَا خَوْفَ مَخْرِهْ وَعَلِمَهُ حُسَى لَهُ كَيْفَ يَفْصُصُ
وَلَى غَيْرُ وَحْدِهِ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ * وَلَكِنْ مَلَا قَلْبِي إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ

ووقع مرة في طهر رُقعة لرحل :

أَعِزُّزٌ عَلَى نَامِي أَنْتَ طَالِيهِ لَمْ يُمْكِنِ التَّخُحُّ فِيهِ وَأَنْقَضَى أَمَدُهُ

ولعمرو س مسعده حكايات منها ما حكاها القاضي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة: (١)
قال عمرو بن مسعده : كُتِبَ مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى اذا نزلت الرُقعة
قال : يا عمرو، ما ترى الرَّجِيحِيَّ قد احتوى على الأهوار، وهي سلة الخيل وجميع المال قِبلَه
وطمع فيها، وكُنْتُه متصلةً بجمها، وهو يتعلل وترفص في الدوائر، فقلتُ : أما أكرمى
أمير المؤمنين هذا، وأنفذ من يصطره الى تحمل ما عليه، فقال : ما يقنعني هذا، فقلتُ :
فيا امر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فانرج اليه بنفسك حتى تُصَفِّدَه بالحديد، فتحمله الى
بغداد وتَقْصُص على جميع ما في يده من أموالا، وتنتظر في أعمالها وترتب لها عمالا، فقلتُ :
السمع والطاعة، فلما كان في غدٍ دخلتُ عليه فقال : ما فعلتَ فيما أمرتك به ؟ قلتُ :
أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجيء في غدٍ مودعا ؟ قلتُ : السمع والطاعة، فلما كان
في غدٍ جئته مودعا، فقال : أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا،
فاضطربت من ذلك الى أن حصنني وأستحلفني ألا أقم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجتُ

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طعة الهلال) . والمقد العريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق) .

حتى قدمت بغداد ، فلم أقم بها إلا ثلاثة أيام وأتحدت في زلالي أريد النصرة وحل لي في الزلالي خيس واستكثرت من الثلج لشدة الحر .

فلما صرت بين جرحان^(١) وحل سمعت صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملاح ، رفعت تحيف الزلالي وادا بشيخ كبير السن جالس حاسر الرأس حافي القدمين حلق الميصر ، قلت للغلام : أجه ، فأحابه ، فقال : يا غلام ، أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى ، وقد أحرقتني الشمس وكادت لتلغني ، وأريد حل ، فأحملوني معكم فان الله يحبس أحر صاحبكم ، قال : مشتبه الملاح وأتهره ، فأدركتني رقة عليه وقلت : حذوه معا ، فتقدما الشط ويحما به وحملناه ، فلما صار معا في الزلالي وأتحدنا نتقدم مدفعت اليه قيصا وميدلا وعسل وجهه واسراح وكأنه كان ميتا وعاد الى الدنيا لحصر وقت الغذاء وتقدمت وقلت للعلام . هاتيه يا كل معا ، بجاء وقعد على الطعام ، فأكل أكل أديب لطيف غير أن الجوع أثر فيه ، فلما رفعت المسائدة أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة في محالس الخاصه فلم يفعل ، فعسلت يدي وتدمت أن آمر بقيامه ، فقلت : قدموا له الطشت فغسل يده ، وأردت بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل ، فقلت : يا شيخ ، أى شيء صباغتك ؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلت في نفسي : هذه الحياكة علمته سوء الأدب ، فتناومت عليه ومددت رجلى فقال : قد سألني عن صباغتي وأنت أعزك الله ما صباغتك ؟ فأكبرت ذلك وقلت : أنا حيت على مصى هذه الجاية ولا بد من احتمالها ، أتراه الأحمق لا يرى زلالي وغلباني وعمتي وأن مثلي لا يقال له هذا ! فقلت : كاتب ، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإن الكتاب خمسة ، فأبهم أنت ؟ فورد على قول المالك موردا عظيما وسمعت كلاما أكرته وكنت متكئا جلست ، ثم قلت : فصل الخمسة قال :

نعم ، كاتب نرجح يحتاج أن يكون عالما بالشروط والطسوت والحساب والمساحة والبنوق والفتوق والرتوق . وكاتب أحكام يحتاج أن يكون عالما بالحلال والحرام

(١) في العقد الفريد : « بين دبر هرقل ودبر الما قول » .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكأنتُ مَعُونَةٌ يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكأنتُ حَيْشٌ يحتاج أن يكون عالماً بِجُلَى الرجال وَشِيَاتِ الدَوَاتِ وَمُدَارَاةِ الْأَوْلِيَاءِ وَشَيْئاً مِنَ الْعِلْمِ بِالنَّفْسِ وَالْحِسَابِ . وكأنتَ رسائل يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحُسْنِ البلاغة والخط، قال .

فقلت : إني كاتب رسائل، قال : فأسألك عن بعضها، قلت : قل، فقال لي :

أصلحك الله، لو أن رجلاً من إخوانك تروّح أتمك فأردت أن تكتبه مهتاً فكيف كُتِبَ تكتبه ؟ ففكرتُ في الحال فلم يحطربالي شيء، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وحماً، قال : فكيف تكتب إليه تعريه ففكرت فلم يحطرسألى شيء، فقلت : اعفني، قال : قد فعلت، ولكك لست بـكاتب رسائل، قلت : أما كاتِبُ خَراج، قال : لا بأس، لو أن أمير المؤمنين وُلّاك ناحية وأمرَكَ فيها بالعدل والإنصاف وتقصى حاحه السلطان يتظلم اليك بعضهم من مسأحيك وأحصرتهم للمظربينهم وبين رعيتك، خلف المسأح بالله العظيم لقد أنصهوا وما ظلموا، وحلفتُ الرعية بالله إهم لقد جاروا وظلموا، وقالت الرعية : قف معنا على ما مَسَّحوه وأنظر من الصادق من الكاذب، فخرجتُ لتقف عليه، فوقفوا على راح شَكْلِهِ قاتل قنا، كيف كُتِبَ تمسحه ؟ قلت : كنت أحد طولهِ على أنفراحه وعصره ثم أصربه في مثله، قال : إن شكل قاتل قنا أن يكون زاويته محدودتين وفي تحديده تقويس، قلت : فأخذ الوَسَطَ فأصربه في العَرْض، قال : إذا يئني عليك العمود، فأسكتني، فقلت . ولستُ كاتبَ خراج، قال : فإذا ما أنت ؟ قلت : أما كاتِبُ قَاضٍ، قال : أرايتَ لو أن رجلاً توفي وحلف امرأتين حاملتين إحداهما حُرّةً والأخرى سَريّةً، فولدت السريّة علماً والحُرّة حاريةً، فعَدَّتْ الحُرّة إلى ولد السريّة فأحدثته، وتركته بدله الحارية فاغتصما في ذلك، فكيف الحكمُ بينهما ؟ قلتُ : لا أدري، قال : فلست بـكاتب قاضٍ، قلتُ .

فأنا كاتبُ جيش، فقال : لا بأس، أرايتَ لو أن رجلين جاءا اليك لثعلبهما وكل واحد منهما اسمه وأسم أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا، والآخر مشقوق

الشفة السفلى ؟ كيف كنتَ تحليهما، قال : قلتُ : فلانُ الأفلح وفلان الأعلم، قال : إن رزقهما مختلفان وكل واحد منهما يجيء في دعوة الآخر، قلتُ : لا أدري، قال : فلست بكتّاب حيش، قلتُ : أنا كاتبٌ مَعُونَةٌ، قال : لا تسأل، لو أن رحلين رُفعا إليك قد شَجَّ أحدهما الآخر شَجَّةً مُوَصَّحَةً^(١)، وشج الآخر شَجَّةً مأمونة، كيف كنتَ تفصل بينهما ؟ قلتُ : لا أدري، قال : لست إذاً كاتبٌ مَعُونَةٌ، اطلب لفسك أيها الرجل شغلا غير هذا، قال : فصُعُرْتُ إلى نفسي وعاطفي، فقلتُ : قد سألتُ عن هذه الأمور ويحوز ألا يكون عدك حواها كما لم يكن عدى، فإن كنتَ عالما بالحواب فقل، فقال .

عم، أما الذى تزوج أمك فتكتب اليه : أما بعد، فإن الأمور تحرى من عند الله بغير محبة عاده ولا احتياهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغنى تزويج الوالدة حار الله لك في قصها ، وإن القصور أكرم الأرواح وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قنا فتمسح العمود حتى إذا صار عددا في يدك صرته في مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجاريةُ والعلامُ فيوزنَ لبنُ الاثنين، فأيهما كان أخفَ فالجارية له .

وأما الجديان المتصقا الأسمين، فإن كان الشق في الشمة العليا قيل فلان الأعلم، وإذا كان في الشفة السفلى قلتُ فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشجتين لصاحب الموصحة ثلثُ الدية ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أحاب هذه المسائل بعثتُ منه وامتحنتهُ بأشياء كثيرة غيرها فوحدته ما هرا في جميعها حادقا بليغا ، فقلتُ : ألسنتُ رعمتُ ألك حائك، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولستُ بجائك نسّاحه، وأنشأ يقول :

ما مرَّ رُؤسٌ ولا نعيمٌ * إلا ولى فيهما بصيْبُ

فدقتُ حُلُومًا ودقتُ مرًا * كذاك عيشُ الفقى صُروبُ

ووابثُ الدهر أدبتي * وإتما يُوعَطُ الأديبُ

قلتُ : فما الذى بك من سوء الحال ؟ قال : أما رجلٌ كاتبٌ دامت عُظْمَتِي ، وكَثُرَتْ
عَيْتِي ، وتواصلتْ غَيْتِي ، وَقَلَّتْ حَيْتِي ، فَحَرَحْتُ أَطْلُبُ تَصَرُّفاً يَقُطِعُ عَلَى الطَّرِيقِ فَصْرْتُ
كَمَا تَرَى ، فَشَبَّتْ عَلَى وَجْهِى ، فَلَمَّا لَاحَ لِي الرَّالَالَى اسْتَعْنْتُ بِكَ ، قُلْتُ : فَإِنِى قَدْ خَرَجْتُ
إِلَى مُتَصَرِّفٍ حَلِيلٍ أَهْتَأُ فِيهِ إِلَى حِمَايِهِ مِثْلَكَ ، وَقَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِجِلْعَةِ حَسَّةٍ تَصْلُحُ لِمِثْلِكَ
وخمسةِ آلافِ درهمٍ تُصْلِحُ بِهَا أَمْرَكَ ، وَتُعِيدُ مِنْهَا إِلَى عِيَالِكَ ، وَتُقَوِّى نَفْسَكَ بِبَاقِيهَا ،
وَتَصِيرُ مَعِى إِلَى عَمَلِ فَأُولَئِكَ أَهْلُهُ ، فَقَالَ . أَحْسَنَ اللَّهُ حِرَاءَكَ إِذَا عُدْتُ بِمِثْلِ أَسْرِكَ ،
وَلَا أَقُومُ مَقَامَ مُعَدِّ الْبَيْتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمْرٌ بِتَقْيِصِهِ مَا رَسَمْتُ لَهُ قَبْضَهُ ، وَانْحَدِرْ إِلَى
الْأَهْوَارِ مَعِى ، لِحَمَلَتِهِ الْمَاطَرِ لِلرَّحْمَى وَالْمَحَاسِنِ لَهُ مُحَضَّرِى ، وَالْمُسْتَحَرَجِ لِمَا عَلَيْهِ ، فَقَامَ
بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَعَظُمَتْ حَالُهُ مَعِى ، وَعَادَتْ نِعْمَتُهُ إِلَى أَحْسَنَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

وَفِي عَمْرٍوسَ مَسْعَدَةُ يَقُولُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَدَدُ اللَّهِ سَ أَبُو الْيَقْنَى :

أَعْنَى عَلَى بَارِقِ نَاصِبٍ * حَمِيٌّ كَوَحِيٍّ بِالْحَاجِبِ
كَأَنَّ بَالِقَهُ فِي السَّمَاءِ * بِدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبِ
فَرَوَى مَا زَلَّ تَذَكُّارُهَا * يُبَيِّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
عَرَبٌ يُحِبُّ لَأَوْطَانِهِ * وَيَنْكِي عَلَى عَصْرِهِ الدَّاهِبِ
كَمَا كَأَنَّ أَوْ الْفَصْلَ عَمْرُو الدَّيْ * مَطَالِمَةَ الْأَمَلِ الْكَادِبِ
وَصَدَقَ الرَّجَاءُ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ * لِعَمْرٍوسَ بِنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ
عَرِيضُ الْوَفَاءِ طَوِيلُ الْبَيَا * فِي الْعِرِّ وَالشَّرَفِ الشَّاقِبِ
بِى الْمَلِكِ طَوْدٌ لَهُ يَتُّهُ * وَأَهْلُ الْحِلَافَةِ مِنْ عَالِ
هُوَ الْمُرْتَجَى لَصُرُوفِ الزَّمَانِ * وَمُعْتَصِمُ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُّهُ * عَلَى الصَّيْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
بِأَدَمِ الرِّكَابِ وَوَشَى الثِّيَابِ * بِِ الطَّرْفِ وَالطُّفْلَةِ الْكَاعِبِ
تُؤَمِّلُهُ لِحَسَامِ الْأُمُورِ * وَزَجْوَهُ لِلْحَلَالِ الْكَارِبِ

حَصِيْبُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ * شَجِيْمَتُهُ لَيْبُنُ الْجَانِبِ
 يُرَوِّى الْقَمَّاءَ مِنْ مَحْوَرِ الْعَدَا * وَيُغْرِقُ فِي الْجُودِ كَاللَّاعِبِ
 إِلَيْكَ تَدَنَّتْ مَأْكُورَاهَا * حَرَّاجِيْجُ فِي مَهْمِهِ لَاحِ
 كَأَنْتَ نَعَامًا تَبَارَى بِهَا * سَوَائِلُ مِنْ بَرْدِ عَاصِبِ
 يَرِدُّ نَدَى كَفِّكَ الْمُتَمَحِّي * وَيَقْصِيْنَ مِنْ حَقِّكَ الْوَاحِ
 وَلِلَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ حَابِرِ * بِسَجَلِ لِقُومٍ وَمِنْ حَارِبِ
 فَتَسْقِي الْعَدَا بِكَؤُوسِ الرَّدَى * وَتَسْقِيْ مُسْئَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ رَاعٍ نَلَّتْهُ مَالْعَطَا * وَكَمْ يَلَتْ مَالْعَظْفِ مِنْ هَارِبِ
 وَتِلْكَ الْحَلَائِقُ أُعْطِيَتْهَا * وَفَضْلُ مِنَ الْمَاعِ الْوَاجِبِ
 كَسَبَتْ الثَّمَاءَ وَكَسَبْتُ الشَّا * أَفْضَلُ مَكْنَسِهِ الْكَاسِ
 يَقِيْسُكَ بِمَجْلُو سَنَوَرِ الدُّجَى * وَطُشْكُ يُخْرِ مَالْعَائِ

رسائل الجاحظ

رسالته في بني أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ^(١) أطال الله بقاءك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك . أعلم أرشد الله أمرك ، أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقات متفاوتة ، ومنازل مختلفة : فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الأئمة واحتجاج الكلمة على الكذب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ولا عيل ولا تأوّل ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمان ، رضى الله عنه ، وما أتتهك منه ، ومن خبطهم إياه بالسلاح ، وتعيج بطسه بالحرب ، وفزى أوداجه بالمشايقص ، وشذح

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى الضرى صاحب التصانيف المنفعة والرسائل المدة . وقد تقدّم الكلام عليه في المجلد الأول من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة وشأ بها فتاوى كل من ومارس كل علم عرف في زمانه مما وصع في الاسلام أو قل من الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة في دلم كل ما يقع عليه الحس أو يحيطر بالمال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحىوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس وروحه مما يشهم واصطراطهم وأحلافهم وحيلهم إلا أنه علب عليه أمران الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب المبروح بالعلسة والعكاهة فهو أول من ألف الكتب الجامعة لقومه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحىوان وغيرهما .

وكان غاية في الدكاء ودقة الحس وحسن العراسة إلى دعاة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذه الناس انهمس ويتحلوه من الرسوم والمادات وأواع العصبية المدهية وعدم مبالاة بوقوع المتوزعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواسة لإخوانه وكان على دمامة حلقة وتناقص حلقة حميف الروح ، فكما الحاس ، غاية في الطرف وطيب العكاهة وحلاوة الكلام وهو على الحملة أحد أهداد العالم وأحد هجج اللسان العربى . توفى سنة ٢٥٥ هـ بعدد مقبرة الحيران . وتحد ترجمته في معجم الأدهاء لياقوت (ح ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وأبى خلدن (ح ١ ص ٥٥٣) .

(٢) في الأصل : « الملخص » .

هامته بالعمد، مع كفه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قتل ذلك : من
 كم وجه يجوز قتل من شهد الشهاده، وصلى القسلة، وأكل الديبحة، ومع صرب نسائه
 بحصرتة، وإخام الرجال على حرمة، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها، حتى أطوا^(٢)
 إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قباها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم،
 وكاسرا من عزمهم، مع وطنهم في أصلاعه بعد موته، وإلقائهم على المردة جسده مجزدا
 بعد سمحه، وهي الحزرة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا لسانه وأياماه وعقائله،
 بعد السبت والتعطيش والحصر الشديد، والمع من الموت، مع احتجاحه عليهم وإخامه لهم،
 ومع اجتماعهم على أن دم العاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أوزى
 بعد إحصان، أو قتل مؤمنا على عمد، أو رحل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم
 منه عطه، ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة، ولا يُجهر منها على جريح،
 ثم مع ذلك كله دمر^(٣)وا عليه وعلى أرواحه وحريمه وهو حالس في محرابه ومصحفه يلوح
 في حجره، لن يرى أن مؤمدا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .

لأجرم لقد احتلوا به دما لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت نائره، ولا يكمل
 طالبه، وكيف يصبح الله دم وآية، والمستقم له، وما سمعا دم بعد دم يجبي بن زكريا عليهما
 السلام، علا غليانه، وقيل ساحفه، وأدرك بطائنته، وبلغ كل محبته، كدمه رحمة الله
 عليه .

ولقد كان لهم في أحده، وفي إمامته للناس، والاقتصاص منه، وفي بيع ما طهر من
 رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي طمسه حتى لا يُحس،
 بذكره، ما يُعقيم عن قتله إن كان قد رك كل ما قد فوه به، وأدعوه عليه، وهذا كله
 بحصرة حلة المهاجرين والسلف المقدمين، والأنصار والتابعين .

(١) قال في شرح الداموس . كل ما في العرب من هذا الاسم «مراقصة» فهو صم الغاء الا مراقصة أما نائلة
 فهو بالفتح لا غير . (٢) أطوا : قتلوا . (٣) حص مصهم مصا عليه متبدين .

ولكن الناس كانوا على طوائف مختلفة، ومراتب متباينة : من قاتل ومن شاذ على عصده، ومن حاذل عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإنما الشك مما فيه، وفي حادله، ومن أراد عزله والاستبدال به؛ فأما قاتله، والمعين على دمه، والمريد لذلك منه، فضلال لا شك فيهم، ومُرَاقٍ لا امتراء في حكمهم، على أن هذا لم يبعدُ منهم العجور . إماما على سوء أو بيل، وإماما على تعدد للشقاء، ثم ما رالت الفتن متصلة، والحروب مرادة، كحرب الحل، وكوقائع صقي، وكيوم التهرؤان، وقل ذلك يوم الزاوية^(١)، وفيه أسراب خيف، وقتل حاكم حلة، إلى أن قتل أشقاها على بن أبي طالب رضوان الله عليه، فأسعد الله بالشهادة، وأوحى لقاتله البار واللعمه، إلى أن كان من أعرال الحس عليه السلام الحروب وتخليته الأمور، عند انتار أصحابه، وما رأى من الحل في عسكره، وما عرف من احتلافهم على أبيه، وكثرة تلوسهم عليه، فعصدا استوى معاوية على الملك، واستند على بقية الشورى، وعلى جماعه المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سَمُوهُ عام الجماعة، وما كان عام حماعه، بل كان عام فرقه وقهرٍ وحبريةٍ وعَليةٍ، والعام الذي نحولت فيه الإمامة ملكا كسرويا، والخلافة عسبا قيصريا، ولم يبعد ذلك أجمع الصلال والفسق. ثم مارالت معاصيه من حسس ماحكينا، وعلى منابر مارتنا، حتى رد قصبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوبا، وبجد حكمة تحدا طاهرا، في ولد العرّاش وما يجب للعاهر، مع اجتماع الأمة أن تسميه لم يكن لأبي سميان فراشا، وأنه إنما كان بها عاهرا . فخرج بذلك من حكم الفخار إلى حكم الكفار، وليس قتل مجرب بن عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعه يزيد الخليج، والاستئثار بالنفء، واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشعاعة والقرباة، من حسس بجد الأحكام المصوصة، والشرائع المشهورة، والسُنن المنصوبة، وسواء في باب ما يستحق من الكفار بجد الكتاب، ورد السنة إذا كانت السنة في شهره الكتاب وطهوره، إلا أن أحدهما

(١) الزاوية : موضع قريب من الصرة كانت فيه وقعة الحل أول الهار .

أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد ، فهذه أول كُفْرَةٍ ، كانت من الأئمة ، ثم لم تكن إلّا فيس يدعى إمامتها ، والخلافة عليها ، على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أُرْبِتْ عليهم بآبَةِ عَصْرَا ، وَمُتَدِّعَةُ دَهْرَا ، فقالت : لَأَسْوَهُ ، فإن له صحبه ، وست معاوية بدعه ، وَمَنْ يُفِصْصْهُ فَقَدْ خَالَفَ السَّيَّةَ ، فزعمت أن من السَّيَّةِ ترك البراءة ، ممن جحد السَّيَّةَ ، ثم الذي كان من يزيد أبيه ، ومن عماله ، وأهل نُصْرَتِهِ ، ثم عزو مكة ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ، في أكثر أهل بيته ، مصابيح الطلام ، وأوتاد الإسلام ، بعد الذي أعطى من نفسه ، من تمريق أُنْثَاهِ ، والرجوع الى داره وحرمة ، أو الذهاب في الأرض ، حتى لا يُحَسَّ به أو المُقَام حيث أَمَرَ به ، فأبوا إلّا قتله ، والروى على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده ، أو أسلمها الى عدوه ، وحيث فيها من لا يرد عليه إلّا بُشِّرْ دمه ، فاحسُّوا قتله ليس تكفر ، وإباحة المدينة ، وهتك الحرمة ، ليس محبة ، كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ، وقيلة المسلمين ؟ فإن قُتِمَ ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحزرة ، والمتحصص بحيطانه ، أما كان في حق البيت وحرمة أن يمحُصروه فيه ، الى أن يُعْطَى سِيدهُ ! وأى شيء بقي من رجل ، قد أُخِذَتْ عليه الأرض إلّا موضع قدمه ! واحسُّوا ما رووا عليه من الأشعار ، التي قولها شرك ، والتمثل بها كُفْرُ ، شيئا مصبوعا ، كيف تصعب بنقر القضيب بين شِئْنِيَّ الحسين عليه السلام ، وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الأفتاب العارية ، والإيل الصَّعَاب ، والكشف عن عورة على بن الحسين عند الشك في بلوعه ! على أنهم إن وجدوه ، وقد أنبت قتلوه وأن لم يكن أنت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسلمين ، بدارى المشركين ، وكيف تقول في قول عُبيد الله بن زياد لإخوته وحاصته ، دعوني أقتله ، فإنه بقية هذا السِّل ، فأحسِم به هذا القرن ، وأُميت به هذا الداء ، وأقطع به هذه المادة !

خبرونا علام تُدل هذه القسوة ، وهذه العظيمة ! بعد أن شفووا أنفسهم بقتلهم ، وبألوا ما أحبوا فيهم ، أتدل على نَصَب ، وسوء رأي وحقد ، وبعضاء ونفاق ، وعلى يقين مدخوب

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص ، وعلى حبّ النبي صلى الله عليه وسلم ، والحفظ له ، وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ! فإن كان على ما وصفنا لا يعدو السقي والصلال ، وذلك أدنى مآزله ، فالعاسق ملعون ، ومن نهى عن نهى الملعون فملعون .

وزعمت مائة عصرنا ، ومستدعة دهرنا ، أن ستّ ولّاهِ السوءِ قِسَّةً ، ولعنَ الحوَرَةَ بِذَعَةٍ ، وإن كانوا يأخذون السَّيِّئَ بالسَّيِّئِ ، والولّى بالولّى ، والقريبَ بالقربِ ، وأحافوا الأولياءَ ، وأتموا الأعداءَ ، وحكوا بالشفاعة والهوى ، وإطهارِ الغدرة والتهاون بالأئمة ، والقمع للزّعية ، وأتهم في غير مُداراه ولا تقيّة ، وإن عدا ذلك إلى الكفر . وحاوز الصلال إلى الخدّ ، فذاك أصل تمسّ كفّ عن شتمهم ، والبراءة منهم ، على أنه ليس من استحقّ اسم الكفر بالقتل كَنَ استحقّه بردّ السمة وهدم الكعبه ، وليس من استحقّ اسم الكفر بذلك كنّ شته الله محلقه ، وليس من استحقّ الكفر بالتشبيه كنّ استحقّه بالجور ، والباطل في هذا الوجه أكرم من يزيد وأبيه ، واس ر باد وأبيه ، ولو ثلث أبصا على يزيد أنه تمثل بقول بن الزّعرى :

ليتَ أشياخي بذيّ شهادٍ * جرعَ الخزيّج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلّوا فرحاً * ثم قالوا يا يزيد لا تسَل
قد قتلنا الغرّ من ساداتهم * وعدلناه بيدٍ فاعتدل

كان تحويرُ الباى لربّه ، وتشبيهه محلقه ، أعظم من ذلك وأقطع ، على أنهم مُجْعون على أنه ملعون من قتل مؤمناً ، متعمداً أو متأولاً ، فإذا كان القاتل سلطاناً حائزاً ، أو أميراً عاصياً ، لم يستحلوا سته ، ولا حله ، ولا بهيه ، ولا عيه ، وإن أحاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأحاع الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطل الحدود والثغور ، وشرب الخمر ، وأظهر الفجور ؛ ثم ما زال الناس يتسكعون مرة ، ويدهنونهم مرة ، ويقارونهم مرة ، ويشاركونهم مرة إلا بقيّة من عصمه الله تعالى ذكره ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ،

وعاملهما المحاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبي مُسلمٍ ، فأعادوا على البيت بالهدم ، وعلى حَرَم المدينة بالغزو ، هدموا الكعبة ، واستباحوا الحُرمة ، وحولوا قبلة واسطً ، وأخروا صلاة الجمعة ، الى مُعَيَّرِ بَآنِ الشمس ، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد آحرت الصلاة عن وقتها ، قتله على هذا القول حِهارا غير حَتْلٍ ، وعَلانيةٍ عير سرٍّ ، ولا يُعَلَمَ القتل على ذلك إلّا أَفْبَحَ من إنكاره ، فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين رثما وعط الحبايرة ، وخوفهم العواقب ، وأراهم أن في الناس قبيًا يَنهَوْنَ عن الفساد في الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، والمحاج بن يوسف ، فزجر عن ذلك ، وعاقبا عليه ، وقتلا فيه ، فصاروا لا يَتَّهَوْنَ عن مسكر فعلوه ، فاحسب تحويل القبلة كان علطا ، وهدم البيت كان تأويلا ، واحسب ما رَوَوْا من كُلِّ وجه ، أنهم كانوا يزعمون أذ حليفة المرء في أهله أرفعُ عنده من رسوله اليهم ، باطلا ومسموعا مولداً ، واحسب وسمَ أيدي المسلمين ونقشَ أيدي المسلمات ، وردَّهم بعد الهجرة الى قُرَاهم ، وقتل الفقهاء ، وسب أئمة الهدى ، والتَّصَبُّ لِعِزِّهِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفرا ، كيف تقول في جميع ثلاث صلوات فيهِ الجمعة ، ولا يُصَلُّونَ أَوْلَاهُنَّ ، حتى تصير الشمس على أعلى الجُدُرَانِ . كَاللَّاءِ الْمُعْصَرِ ، فإن نطقَ مسلمٌ ، خُيِّطَ بالسيف ، وأحدثه العُمدُ ، وشكَّ بالزمام ، وإذ قال قائل : اتق الله أحدثه العِزَّةُ بالإثم ، ثم لم يَرَضْ إلّا بشرِ دِمَاعِهِ على صدره ، وبصلِّهِ حيثُ تراه عِيَالُهُ ، ومما يَدُلُّ على أن القومَ لم يكونوا إلّا في طريق التمرُّدِ على الله عزَّ وجلَّ والاستحقاقِ بالدين ، والهاوِينَ بالمسلمين ، والابتدالِ لأهل الحق ، أَكُلُّ أُمُراتِهِمُ الطَّعامَ وشرُّهُمُ الشرَّاتِ على مبارهم أَيَّامَ جُمُعِهِمُ وجموعهم ، فعَلْ ذلك حُبِيشُ بن دُلْحَةَ ، وطارة مولى عُثْمَانَ ، والمحاج بن يوسف ، وغيرهم ، وذلك إن كان كفرا كلَّه فلم يسلع كفرًا بآية

(١) يشير بذلك الى ماورد عن المحاج انه قال في كلام له . ويحكم أحليمة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسول الله ، يريد بذلك تفصيل مقام الخلافة على مقام الرسالة و يمثل هذا روى المحاج بالكفر وقد عقد اس عدد في العقد الفريد فصلا فيم رعم ان المحاج كان كافرا راحع العقد الفريد ح ٣ ص ٢٣

(٢) في الأصل «حسن» وهو خطأ والصواب ما أشتناه كما في شرح القاموس والطبرى .

عصرنا ، وروايع دهرنا ، لأن حس كمر هؤلاء غير كفر أولئك . كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء مقصاء وقدر ، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقصاء وقدر إلا المعاصي ، ولم يكن أحد يقول إن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء ، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان ، مثل العمى والبصر ، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى ، لا تزيد على ذلك ، وإن حافت أن يطلعها التشبيه قالت يرى بلا كيف تفرزا من التجسيم والتصوير ، حتى نبئت هذه اللاتة ، وتكلمت هذه الرافضة ، فقالت حسيا ، وحملت له صورة وحدا ، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير ، ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حس وسين وحمه وبرهان ، وأن التوراه غير الربور ، والربور غير الانجيل ، والانجيل غير القرآن ، والقره غير آل عمران ، وأن الله تولى تأليهه ، وجعله برهانه على صدق رسوله ، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقص منه نقص ، ولو شاء أن يبدله بآله ، ولو شاء أن ينسخه كله بعده نسخا ، وأنه أنزله تنزيلا ، وأنه فصله تفصيلا ، وأنه بالله كان دون غيره ، ولا يقدر عليه إلا هو ، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلق ، فأعطوا جميع صفات الخلق ، ومعوا اسم الخلق .

والمحب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه ، فلذا قالوا : حلق كذا وكذا ، ولذلك قال : ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِنْكَاءً ﴾ وقال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ فقالوا : صنعوه وجعلوه وقدره ، وأنزله وفصله وأحدثه ، ومعوا خلقه ، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره ، ولو قالوا ببدل قولهم : قدره ولم يخلق خلقه ولم يقدره بما كانت المسألة عليهم إلا من وحده واحد ، والعجب أن الذي معه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق ، أنه لم يسمع ذلك من سلفه ، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق ، وليس ذلك بهم ، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف ، وعلى جهة تقطيع الحروف ، وإعمال اللسان والشفوتين ، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام ، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة ،

وكنا لِكَلَامِنَا عَيْرَ حَالِقِينَ ، وجب أن الله عز وجل لِكَلَامِهِ عَيْرُ حَالِقٍ ، اد كُتَا عَيْرَ حَالِقِينَ
لِكَلَامِنَا ، فإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَحْدُوا بِنِ كَلَامِنَا وَكَلَامِهِ قِرْقَا ، وَإِنْ لَمْ يُقِرُّوا بِذَلِكَ
بِالْإِسْتِثْمِ فَذَلِكَ مَعَاهُمْ وَقَصْدُهُمْ .

وقد كانت هذه الأُمَّةُ لَانْخَاوِرَ مَعَاصِيهَا الْإِثْمَ وَالصَّلَالَ ، إِلَّا مَا حَكَيْتُ لَكَ عَنْ بِي أُمِيَّةَ ،
وَبِي مَرْوَانَ ، وَعَمَّالَهُمْ ، وَمَنْ لَمْ يَدِدْ بِمَا كَفَارَهُمْ حَتَّى نَحْتَمَ النُّوَابِتَ ، وَتَابَعَتْهَا هَذِهِ الْعَوَامُ ،
فَصَارَ الْعَالَمُ عَلَى هَذَا الْقَرَدِ الْكُفْرِ ، وَهُوَ التَّشْبِيهُ وَالْحَنَرُ ، فَصَارَ كُفْرُهُمْ أَعْظَمَ مِنْ كُفْرِ مَنْ
مَعَى فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ الْمَسْئُورُ ، وَشُرَكَاءُ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَتَرِكَ لِكَفَارِهِمْ ، قَالَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وَأَرْحُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ آعَاثَ الْمُحَقِّقِينَ ، وَرَحِمَهُمْ وَقَوَّى صَعْفَهُمْ ، وَكَثَّرَ قِتْلَتَهُمْ ، حَتَّى
صَارُوا لَوَاهِ أَمْرًا فِي هَذَا الدَّهْرِ الصَّعْبِ وَالزَّمَنِ الْعَاسِدِ أَشَدَّ اسْتَبْصَارًا فِي التَّشْبِيهِ مِنْ
عَلَيَّيْنَا ، وَأَعْلَمَ نَمَا يَلْزِمُ فِيهِ مَاءٌ ، وَأَكْشَفَ الْقِنَاعَ مِنْ رُؤُسَانَا ، وَصَارُوا النَّاسَ وَقَدْ انْتَبَهُوا
مَعَانَ الْعَسَادِ أَجْمَعُ ، وَنَلَعُوا عَايِبَ الْبَدْعِ ، ثُمَّ قَرَّبُوا بِذَلِكَ الْعَصِيَّةَ الَّتِي هَلَكَ بِهَا عَالَمٌ بَعْدَ
عَالَمٍ ، وَالْحِمَاةُ الَّتِي لَا تُنْقِي دِيْنًا إِلَّا أَمْسَدَتْهُ ، وَلَا دُنْيَا إِلَّا أَهْلَكَتْهَا ، وَهُوَ مَا صَارَتْ إِلَيْهِ الْعَجْمُ
مِنْ مَذْهَبِ الشُّعُوبِيَّةِ ، وَمَا قَدْ صَارَ إِلَيْهِ الْمَوَالِي مِنَ الْفَحْرِ عَلَى الْعَجْمِ وَالْعَرَبِ ، وَقَدْ نَحْتَمَ
مِنْ الْمَوَالِي بَاجِهَةً ، وَنَسَتْ مِنْهُمْ نَاسَةً ، تَزْعُمُ أَنَّ الْمَوْلَى بَوْلَانَهُ قَدْ صَارَ عَرَبِيًّا ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ » وَلِقَوْلِهِ : « الْوَلَاءُ لِحُكْمَةِ كُلِّ حَكْمَةٍ لِسَبَبٍ لَا يُبَايَعُ
وَلَا يُؤْهَبُ » .

قال : فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والبؤه كانوا أشرف من العرب ،
ولما حوّل ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا : فعلى معاشر الموالى
بقديمتنا في العجم أشرف من العرب ، وبالحدِيث الذى صار لنا فى العرب أشرف من العجم ،
وللعرب القديم دون الحديث ؛ ولما خصلتان جميعا وافتتان فينا ، وصاحب الخصلتين

(١) كذا فى الأصل ، ولعله . وصاروا شركاء . الخ . (٢) معان متح الميم والعين . المائة والمرل .

أفضلُ من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان محميا عربيا بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بجلبه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن اسماعيل كان عربيا » ما كان عدنا إلا أعجميا لأن الأعجمي لا يصير عربيا ، كما أن العري لا يصير أعجميا ، وإما علينا أن اسماعيل صيره الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قوله « مولى القوم منهم » وقوله : « والولاء لجمعة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أبا لمن لم يلد ، كما جعله أبا لمن ولد ، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحدا ، وجعل الجار والد من لم يلد في قول عر هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه ، وليس أدعى إلى الفساد ، ولا أحل للشر من المفارقة ، وليس على طهرها إلا نخور (ألا قليل) وأى شيء أعبط من أن يكون عندك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر أنه صار شريفا يعتك إياه .

وقد كتبت — مد الله في عمرك — كُتبت في مفارقة خطان ، وفي تفصيل عدنان ، وفي رد الموالي إلى مكالمهم من الفصل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلا بينهم ، وداعية إلى صلاحهم ، ومُسَهِّة عليهم ولهم ؛ وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول اليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك ، واستماترك ، والانتها في ذلك إلى رعبتك ، فأرأيت فيه موق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب إلى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله يحفظ من وقته للقاعة ، وأستعمله بالطاعة ، كتبت إليك وحالي حال من كُتبت عموه ، وأشكلك عليه أموره ، وأشتبته عليه حال دهره ، ومخرج أمره ، وقَلَّ عنده من يثق بوفائه ، أو يحمده بمعية إخوانه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أئدالنا ، وقَدِّما كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونَبَذَ المُشْتَبَهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مقبة مكروه

العاقبة ؛ فنَظَرْنَا إذْ حالَ عندنا حُكْمُهُ ، وتَحَوَّلَتْ دَوْلَتُهُ ؛ هُوجِدَا الحَيَاءَ مُتَصِلًا بِالْجِرْمَانِ
والصَّدَقِ آفَةً عَلَى الْمَالِ ، وَالْقَصْدِ فِي الطَّلَبِ بَرَكَ اسْتِعْمَالُ الْقِيَمَةِ ، وَإِخْلَاقُ الْعِرْضِ مِنْ
طَرِيقِ التَّوَكُّلِ دَلِيلًا عَلَى مَخَافَةِ الرَّأْيِ ، إِذْ صَارَتْ الْحُظُوءُ الْبَالِغَةُ ، وَالنِّعْمَةُ السَّابِقَةُ ، فِي لُؤْمِ
الْمَشِيئَةِ ، وَسَاءَ الرِّزْقُ مِنْ جِهَةِ مَحَاشَاةِ الرِّخَاءِ ، وَمُلَابَسَةُ مَعْرَةِ الْعَارِ ، ثُمَّ نَظَرْنَا فِي تَعَقُّبِ الْمُتَعَقِّبِ
لِقَوْلِنَا ، وَالْكَاشِرِ لِمُحْتَنَانِ ؛ فَأَقَامَا لَهُ عِلْمًا وَاصِحًا ، وَشَاهِدًا قَائِمًا ، وَمَارَا يَدِنَا ؛ إِذْ وَحَدْنَا مَنْ فِيهِ
السُّفُولِيَّةُ الْوَاضِحَةُ ، وَالْمَتَالِبُ الْفَاضِحَةُ ، وَالْكَذِبُ الْمُبْرَحُ ، وَالْخُلْفُ الْمَصْرَحُ ، وَالْجَهَالَةُ الْمُفْرَطَةُ ،
وَالرَّكَائِكَةُ الْمُسْتَحَقَّةُ ، وَضَعْفُ الْيَقِينِ وَالْإِسْتِثْنَاءِ ، وَسُرْعَةُ الْغَضَبِ وَالْجِرَاءُ ، قَدْ اسْتَكْبَلَ
سِرُّهُ ، وَاعْتَدَلَتْ أُمُورُهُ ، وَفَازَ بِالسَّهْمِ الْأَعْظَمِ ، وَالْحُطُّ الْأَوْفَرُ ، وَالْقَدَرُ الرَّوِيعُ ، وَالْجَوَازُ
الطَّائِعُ ، وَالْأَمْرُ الْبَازِغُ ؛ إِنْ زَلَّ قِيلَ حُكْمٌ ، وَإِنْ أَحْطَأَ قِيلَ أَصَابَ ، وَإِنْ هَدَى فِي كَلَامِهِ
وَهُوَ يَقْطَاعُ قِيلَ رُؤْيَا صَادِقَةٍ مِنْ نَسَمِهِ مَارَكَةٌ ؛ فِهْدَهُ مُجْتَنَاً وَاللَّهُ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْجَهْلَ
يَحْفِصُ ، وَأَنَّ التَّوَكُّلَ يُرْذَى ، وَأَنَّ الْكَذِبَ يُصْرَفُ ، وَأَنَّ الْخُلْفَ يُزْدَى ، ثُمَّ نَظَرْنَا فِي الْوَفَاءِ
وَالْإِيمَانَةِ وَالْبَلِّ وَالْبَلَاعَةِ وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ وَكَمَالِ الْمَرْوَةِ وَسَعَةِ الصَّدْرِ وَقِلَّةِ الْغَضَبِ وَكَرَمِ
الطَّبِيعَةِ ، وَالْفَائِقِ فِي سَمْعِهِ عِلْمِهِ ، وَالْحَاكِمِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَالْعَالِي لِهَوَاهُ ، هُوجِدْنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ؛
ثُمَّ وَحَدْنَا الزَّمَانَ لَمْ يُنْصِفْهُ مِنْ حَقِّهِ ، وَلَا قَامَ لَهُ بُوظَائِفُ قَرَصِهِ ، وَوَحَدْنَا فَصَائِلَ الْقَائِمَةِ لَهُ
قَاعِدَةً بِهِ ، فِهْدَا دَلِيلَ أَنَّ الطَّلَاحَ أَجْدَى مِنَ الصَّلَاحِ ، وَأَنَّ الْفَصْلَ قَدْ مَضَى زَمَانُهُ ،
وَعَفَّتْ آثَارُهُ ، وَصَارَتْ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى صَدْرِهِ ، وَوَحَدْنَا الْعَقْلَ يَشْقَى بِهِ
قَرِينُهُ ، كَمَا أَنَّ الْجَهْلَ وَالْحَقَّ يَحْطَى بِهِ حَدِيثُهُ ؛ وَوَحَدْنَا الشَّعْرَ نَاطِقًا عَلَى الزَّمَانِ ، وَمُعْرَا عَنِ
الْأَيَّامِ حَيْثُ يَقُولُ :

تَحَامَقَ مَعَ الْحَقِّ إِذَا مَا لَقِيَتْهُمْ . وَلَا قِيَمَ بِالْجَهْلِ مَعَلَّ أَحَى الْجَهْلُ
وَحَلَّطَ إِذَا لَا قِيَمَ يَوْمًا مَحَلَّطًا * يُحَلِّطُ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِي هَزَلٍ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَشْقَى بِعَقْلِهِ * كَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَسْعَدُ بِالْعَقْلِ

بقيت — أبقاك الله — مثل من أصبح على أوفاز،^(١) ومن الثقلة على جهاز، لا يسوغ
 عمة ، ولا تطعم عبده عَمَصَة ، في أهاويل يياكره مكروها ، ويرأوحه عقائبها ؛ فلو أن
 عاء أحيب ، والتصرع يُبع ، لكنت العدة العظمى ، والرجفة الكبرى ؛ فليت أى أنى
 استبطته من النعمة ، ومن بخاء الصيحة ، قصى لسان ، وأذ به فكان ، فوالله ما عذبت
 برجفه ، ولا ريج ولا سحطة ، عدات عبي برؤية المغاظة المذمة ، والأخبار المهلكة ،
 أن الرمان يؤكل بعداى ، أو يُصَبّ مايمى ، فما عيش من لا يُسَرِّبَاح شقيق ، ولا يصطبج
 أول نهاره ، إلا برؤية من يكرهه ، ويغمه بطلعه ؛ فقد طالت النعمة ، وواظبت الكربة ،
 دلمت الظلمة ؛ ونمذ السراج ، وتبأط الأفراح .

وصف الجاحظ لقريش وبني هاشم

قد علم الساس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقوها ودھاؤها ، وكيف رأيا
 كاؤها ، وكيف سياستها وبديرها ؛ وكيف إيجازها وتحسيراها ، وكيف راحة أحلامها
 احق الحليم ، وحدة أذهانها اذا كل الحديد . وكيف صرھا عد اللقاء ، وثاتها فى اللاواء ؛
 يى وفاؤها اذا استحسن القدر ؛ وكيف جودها اذا حث المال ، وكيف دكرها
 حادىث غد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ؛
 يى وصفها له ودعاؤها اليه ؛ وكيف سماحة أخلاقها ، وصونها لأعراقها ، وكيف وصلوا
 يهم بمحديهم ، وطريقهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل
 لامة صدر أحدهم إلا على قدر بُعد عديره ، وهل عفلته إلا فى وزن صدق ظنه ، وهل
 إلا كيقين غيره .

وكتب في الاعتذار :

أما بعد فعم الدَّيْلُ مِنَ الزَّلَّةِ الاعتذار، و نَسِ العِوَضُ من التوبة الإصرار، وإن أحقَّ
من عَطَفْتَ عليه بجلحك من لم يَسْتَشْمِعْ إِلَيْكَ بعيرك، وإِى بعيرى بَمَلِّحِ جَلْمِكَ وعَايَةِ عَفْوِكَ،
سَمِيتَ لنفسى العفو من رَلَّتْهَا عَدُكَ، وقد مَسَى من الألم ما لم يَشْفِهِ غير مُوَاصِلَتِكَ .

وله في الاستعطاف

ليس عدى أعزك الله سببٌ ولا أقدر على شنيع إلا ما طَبَّعَكَ الله عليه من الكرم
الرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حس الظل وإثبات الفصل بحال المأمول
أرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعْتَبٍ، وأكون أفصل شاكر، ولعل الله يجعل
هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للإيقطاع إليكم والكون تحت أحسنتكم،
يكون لا أعظم بركة، ولا أتمى نقيّة من ذنب أصححت فيه، ومثلك — حَمِلْتُ فداك —
ناد الدب وسيلة، والسيدة حسنة، ومثلك من أنقلب به الشر حيرا والعزم عُنَا .

من عاقب فقد أحد خطه، وإنما الأحرى فى الاحرة، وطيب الذكر فى الدنيا، على قدر
لاحتمال وتجرع المرائر وأرجو، ألا أصيب وأهلك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو
ثم صُعر ذنبه وعظم حقه، وإنما الفصل والثناء العفو عن عظم الجرم صغيف الحرمة،
إن كان العفو عطيا مُسْتَطَرَفَا من عيركم فهو تِلَادٌ فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس
لى محالفه أمركم، فلا أتم عن ذلك تتكأون، ولا على سالف إحسانكم سدمون، وما مثلكم
لا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمر ببلد من بى إسرائيل إلا أسمعوه شرا
أسمعهم حيرا، فقال له شمعون الصفا : ما رأيتُ كالיום كتب أسمعوك شرا أسمعهم حيرا
قال : كل أمرئ يُفِيقُ تما عنده وليس عندهم إلا الخير ولا فى أوعيتكم إلا الرحمة
’وكل إناء بالذى فيه يصح‘ .

وله في دَمَ الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داءٌ يَهكُّ الجسد ، علاجهٌ عسيرٌ وصاحبهٌ صَحِيرٌ وهو باب عامض ، وما طَهَّرَ منه فلا يُدَاوَى وما نَطَّ منهُ قُدَاوِيهِ في عَآءٍ ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَتَ اليك داءُ الأئم من قبلكم : الحسدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيدُ الكفر ، وحليفُ الباطل ، وصَدَّ الحقَّ منهُ تُؤَلِّدُ العداوةُ وهو سببُ كُلِّ قطيعةٍ ومفرقِ كُلِّ جماعةٍ ، وقاطعِ كُلِّ رَحِمٍ من الأقرناء ومُحْدِثِ التفرقِ بين القرناء ، وملقِّحِ الشرِّ بين الحلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

وقد ذكر الجاحظ حلَّ مؤلفاته في كتاب "الحيوان" ودافع عنها بعد أن وصمها فقال :^(١)
جَنَّبَكَ الله الشبهة ، وعَصَمَكَ من الخِيرة وحلَّ يديك وبين المعرفة نَسَاءً ، وبين الصدق سَبَبًا ، وَحَبَّبَ اليك التثبت ، وزَيَّنَ في عيكِ الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عِزَّ الحق ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين ، وطرَدَ عنك ذُلَّ الطمع ، وعَرَّفَكَ ما في الباطل من الدَّلة ، وما في الجهل من القِلَّة ، وَلَعَمْرِي لقد كان عِرْهُدا الدعاءُ أَصُوبَ في أمرِكَ ، وأدَلَّ على مقدار وَزْنِكَ ، وعلى الحال التي وَصَّعت نفسك فيها ، ووسَّمت عِرْضَكَ بها ، وَرَضَيْتَها لدينِكَ حَقًّا ، ولمُرُوئِكَ شُكْلًا ، فقد انتهى الى مِلْكِكَ على أبي إسحاق ، وَحَمَلُكَ على ، وطَعْنُكَ على مَعْبَدٍ ، وتَقْصُصُكَ له في الذي كان جرى بينهما في مساوئ الديك ومحاسنه ، وفي ذكر مَنافع الكلب ومَصَاهِرِهِ ، والذي خرجا اليه من استقصاء ذلك وجميعه ، وَمِنْ نَبْتِهِ ونظمه ، وبين الموازنة بينهما ، والحكم فيهما .

ثم عِثْنِي بِكُتَابِ حَيْلِ اللصوص ، وَكُتَابِ عِشِّ الصناعات ؛ وعِثْنِي بِكُتَابِ الْمَلَحِّ والطَّرْفِ ، وما حَرَّ من الوادر وَبَرْدٍ ، وعادَ نَارُهَا حَارًّا بفِرطِ بَرْدِهِ ، حتى أمتنعَ بِأَكْثَرِ من أمتاعِ الحارِّ ؛ وعِثْنِي بِكُتَابِ أَحْتِجَاجَاتِ البُعلاء ، ومَاقِضَتِهِمُ لِلسَّمَاءِ ، والقَوِيَّ في الفَرْقِ بين

(١) احتجنا في تصحيح هذه الفصول على الأصل النعومي في المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٨٥

آداب ، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر في غاية التعريف وملأني بالأخطاء .

الصدق اذا كان صاراً في العاجل ، والكذب اذا كان ناهياً في الآجل ، ولم جعلنا الصدق أبداً محموداً ، والكذب أبداً مذموماً ، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة ، وبين الإفراط في الحمية والأنفة ، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة ، وقلة الأكتراث بسوء القالة ؛ وهل الغيرة آكساب وعادة ، وعص ما يعرض من جهة الديانة ولبعض التريث فيه والتحسين به ، أو يكون ذلك شيئاً في طبع الحرية وحقيقة الجوهرية ، ما كانت العقول سليمة ، والآفات متفية ، والأحلاط معتدلة ، وعبتى كتاب الصرحاء والمُحجَّاء ، ومُماخِرة السودان والحرمان ، والموازنة بين حق الحؤولة والعمومة ؛ وعبتى كتاب الررع والنحل ، والزيتون والأعصاب ، وأقسام فضول الصناعات ، ومراتب التجارات ، وكتاب فصل ما بين الرجال والنساء ، وفريق ما بين الذكور والإناث ، وفي أى موضع يقاين ويفصلان ، وفي أى موضع يكن المغلولات والمفصولات ، ويصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أى موضع يكون حقهن أوجب ، وأى عمل هو بهن أليق ، وأى صاعة هن فيها أبلغ ؛ وعبتى بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية ، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحمية ، الى حد العصبيه ، وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية إلا بتقص القحطانية ؛ وعبتى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بحسنت الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم ، وعبتى بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالى والعرب ، ونسبتنى الى التكرار والترداد ، والى التكثير والجهل بما فى المعاد من الخلط ، وحمل الناس المؤن ؛ وعبتى بكتاب الأصنام ، وبدكر اعتلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب إياها ، وكيف آختلعا في جهة العلة مع اتماقهما على جملة الديانة ، وكيف صار عبَادُ البَدَدَةِ^(١) والمتمسكون بعبادة الأوثان المحوثة ، والأصنام المجورة ، أشد الناس إلغافاً لما دأبوا به ، وشعفا بما تعدوا له ، وأطهرهم حداً ، وأشدهم على من خالفهم ضعفاً ، وبما دانوا صباية ونحماً ، وما الفرق بين البد والوش ، وما الفرق بين الوش والصنم ، وما الفرق

(١) البددة جمع بد ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نصة كما قال ابن دريد .

بين الذميمة والجليلة ، ولم صوّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صُورَ عظمائهم ورجال دعوتهم ، ولم تأفقوا في التصوير ، وتجردوا في إقامة التركيب ، وبالغوا في التحسين والتفحيم ، وكيف كانت أولية تلك العبادات ، وكيف افرقت تلك السّل ، ومن أى شيء كانت حُدُغ تلك السّدنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأوصاف عددا ، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة !

وعبّتي بكتاب المعادن ، والقول في حواهر الأرض ، وفي اختلاف أجناس الفلزّ ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصوعها ، وكيف يُسرّع الانقلاب إلى بعضها ويُبطئ عن بعضها ، وكيف صار مص الألوان يَصْنَع ولا يصنع ، وبعضها ينصع ولا يصنع ، وبعضها يصنع وينصع ، وما القول في الإكسير والتلطيف ، وعبّتي بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وبكتاب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول في معرفة الهدد واستطاعة العصير ، وفي الذى كان عده علم من الكتاب ، وما ذلك العلم ، وما تأويل قولهم : كان عده اسم الله الأعظم ، وعبّتي بكتاب الأوقاف والرياضات ، وما القول في الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب التثمير^(١) والترقيح وكيف تجتلب التجار الحرفاء ، وكيف الاحتياّل للودائع ، وكيف التّسبّب إلى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم التعديل ، ويصير فيهم باب حُسن الظنّ ، وكيف ذكرنا غش الصّاعات والتجارات ، وكيف التّسبّب إلى تعرّف ما قد سَتَرُوا ، وكشف ما مَوَّهُوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله . وعبّتي برسائلي ، وبكل ما كتبتُ به إلى إخواني وخُلَطائي من مَنزح وجِدّ ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تَنَاقُلٍ وتوقيف ، ومن هِجاء لا يزال وشُمّه ناقيا ، ومديح لا يزال أثره ناميا ، ومن مُلَحّ ، تُصَحِّحك ، ومواعظُ تبكى ، وعبّتي برسائلي الهاشميات ، واحتجاجي فيها ، وأستقصائي معانيها ، وتصويري لها في أحسن صورة ، وإظهارى لها في أتمّ حليّة ، وزعمت أنّي قد خرجتُ بذلك من حدّ المُعْتَرِلة إلى حدّ الزّبيديّة ،

ومن حدّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حدّ السرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبه مقالة الرافضة ، ومقالة الرافضة خطبة مقالة العالية ، وزعمت أن في أصل القصيدة ، والذي جرت عليه العادة أن كلّ كبير فأقوله صغير ، وأن كلّ كثير فأنىما هو قليل يُجمع الى قليل، وأنشدت قول الراجز:

قد يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيلِ * وَإِنَّمَا الْقَرْمُ مِنَ الْأَيْلِ^(١)

* وَصَحُّ النَّخْلِ مِنَ الْفَسِيلِ *

وأنشدت قول الشاعر :

رُبَّ كَبِيرٍ هَامَهُ صَعِيرُ * وَفِي الْبُحُورِ تَعْرِقُ الْبُحُورُ

وقلت وقال يزيد بن الحكم :

وَأَعْلَمُ بُنَى فَإِنَّهُ * مَا لَعْلَمُ يَنْتَفِعُ الْعَلِيمُ

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا * مِمَّا يَبْهِيحُ لَهُ الْعَظِيمُ

وقلت وقال الآخر :

صَارَ جِدًّا مَا مَزَحْتُ بِهِ * رُبَّ جِدٍّ سَاقَهُ اللَّعْبُ

وأنشدت قول الآخر وهو عترة^(٢) :

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فَيْكُمْ * تُقْصِي الْأُمُورَ وَرَهْطَ وَرْدَةٍ غَيْبُ

قَدْ يَبْعَثُ الْأَمَرَ الْكَبِيرَ صَغِيرُهُ * حَتَّى تَطْلُلَ لَهُ الدِّمَاءُ تَصَبُّبُ

وقالت كَبِشَةُ بِنْتُ مَعْدِيكَرَبَ :

حَدَّعْتُمْ بَعْدَ اللَّهِ أَمَفَ قَوْمِهِ * بَنَى مَا زَيْنَ أَنْ سُبَّتْ رَاغِي الْخُزْمِ

وقال الآخر :

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ * وَأَيُّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَارِحُ

(١) الأنيل : صر الإيل .

(٢) والصواب أن اليتين لطره وهما من جملة أبيات في ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من العُصْبَةِ ولا تَلِدُ الحَيَّةَ إِلَّا حَيَّةً » ؛ وعبت كتابي في حَلَقِ القرآن ، كما عبت كتابي في الرَّدِّ على المُشَبَّهَةِ ؛ وعبت كتابي في أصول الفُتْيَا والأحكام ، كما عبت كتابي في الاحتجاج لظلم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وعبت مُعَارَضَتِي الزُّيْدِيَّةَ ، وتفصيلي الاعتِرَالِ على كُلِّ نَحْلَةٍ ، كما عبت كتابي في الوعد والوعيد ، وكتابي على النصارى واليهود ، ثم عبت جُمْلَةَ كُتُبِي في المعرفة ، وآلَمْتُ تَهْجِيْنَهَا بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وصَغَّرْتُ من شأنها ، وحطَّطْتُ من قدرها ، واعترضت على ناصحِيها والمتنصِّعِينَ بها .

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الرَّدِّ على أصحاب الإلهام ، وكتاب المُجْتَمَعِ في تثبيت نُفُوءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكتاب الأخيار ، ثم عبت كتابي إنكارِي بَصِيرَةَ غَنَامِ الْمُرتَدِّ ، وبصيرة كُلِّ حاحِدٍ ومُلتَحِدٍ ، وتفريق بين آعْتِرَامِ الْعُمَرَوِّينَ ^(١) وَبَيْنَ آسْتَبْصَارِ الْحَقِّقِ ؛ وعبت كتاب الرد على الجَهْمِيَّةِ في الإدراك ، وفي قولهم في الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النبيِّ والمُنْتَنَى ، والفرق بين الحيل والمُخَارِقِ ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة ؛ ثم قصدت إلى تَأْبِي هَذَا بِالتَّصْغِيرِ لِقَدْرِهِ ، والهجين لَطْمِهِ ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه فزَرَيْتُ على نَحْتِهِ وسبكه ، كما زَرَيْتُ على معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض الذي إليه تَزَعَا ، والغاية التي إليها أَجْرِيَا ، وهما كتاب معناه أَنَّهُ من أسمه ، وحقيقته أَنَّهُ من لفظه ، هو كتاب يحتاج إليه المتوسِّط العَامِي ، كما يحتاج إليه العالم الخَاصِي ، ويحتاج إليه الرِّئِصُ ، كما يحتاج إليه الحاذق .

أما الرِّئِصُ فَلتَلَمُّمُ وَالدَّرَبَةُ ، وللترتيب والرياسة ، وللتمرين وتمكين العادة ، إذ كان جليله يتقدَّم دقيقه ، وإذ كانت مُقَدِّمَاهُ مُرَتَّبَةً ، وطبقات معانيه مُتَرَتِّلَةً ؛ وأما الحاذق فَلِكِفَايَةِ الْمُؤَوَّنَةِ ، ولأنَّ كُلَّ مَنْ التَّقَطَّ كِتَابًا حَامِعًا ، وبأما من أمهات العلم مجموعا كان له غُنْمُهُ ، وعلى مُؤَلِّفِهِ عُرْمُهُ ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كَدُّهُ ، مع تَعَرُّضِهِ لَطَاعِنِ الْبُغَاةِ ، ولاعتراض

(١) العمر مئة الفين : من لم يحرب الأمور ، والجاهل الأبله .

(٢) أَجْرِيَا : قصدًا .

الماسين، ومع عَرَضِهِ عَقْلَهُ الْمَكْدُودَ عَلَى الْعُقُولِ الْعَارِعَةِ، وَمَعَانِيَهُ عَلَى الْجَهَانَةِ، وَتَحْكِيمِهِ فِيهِ الْمُنَاقِلِينَ وَالْحَسَدَةَ، وَمَتَى طَفَرَ بِمَنَلِهِ صَاحِبَ عِلْمٍ، أَوْ هَمَّ عَلَيْهِ طَالِبُ فِقْهِ، وَهُوَ وَادِعٌ رَأْفَهُ، وَنَشِيطٌ حَامٍ، وَمُؤَلِّفُهُ مُتَعَبٌ مَكْدُودٌ، فَقَدْ كُنِيَ مُؤَوِّبَةً جَمْعَهُ، وَنَحْرَهُ وَتَتَبَعَهُ، وَطَلَبَهُ، وَأَغَاهُ ذَلِكَ عَن طُولِ التَّفَكِيرِ، وَاسْتِمَاعِ الْعَمْرِ، وَقَلَّ الْحَدُّ، وَأَدْرَكَ أَقْصَى حَاجَتِهِ، وَهُوَ مُجْتَمِعُ الْقُوَّةِ، وَعَلَى أَنَّ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَ مُجُومَهُ عَلَيْهِ صِرَافًا مِنَ التَّوْفِيقِ، وَظَفَرَهُ بِهِ بَابًا مِنَ التَّسْيِيدِ .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رُعة الأئم، ونشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيا، فقد أحد من طُرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التحريّة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وحدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه العتيان كما يشتهيه السيوح، ويشتهيه العاتك كما يشتهيه الباسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه الحديّ ذو الحزم، ويشتهيه العقل كما يشتهيه الأديب، ويشتهيه العبيّ كما يشتهيه القطب، وعنتني بحكاية قول العثمانيّة والصّراريّة وأنت سمعتني أقول في أوّل كتابي: وقالت العثمانيّة والصّراريّة، وكما سمعتني أقول: وقالت الرافضة والرّيدية، حكمت على النَّصَبِ لحكايتي قول العثمانيّة، فهلّا حكمت على بالتشيع لحكايتي قول الرافضة، وهلّا كُنتُ عندك من الغالية لحكايتي مُحَجِّجَ الغالية، كما كُنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة، وقد حكينا في كتابنا قول الإناصيّة والصُّفَرِيّة، كما حكينا أقاويل الأراقة والحديثيّة، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجيّة، وكل أسم سواها وإنما هو فرع ونبهة وأشتقاق منها، ومحمول عليها، فهلّا كُنتُ عندك من المحكّمة الخارجيّة، كما صرنا عندك من الصّراريّة، والناصبة! وكيف رصيت أن تكون الشيعة الى أعراس الساس أسرع من المارقة! اللهم إلّا أن تكون وحدت حكايتي عن العثمانيّة والصّراريّة أشع وأجمع، وأنتم وأحكم وأحد صِنْعَةً، وأعد عاية، ورأيتني قد وَهَنْتُ حَقَّ أوليائك بقدر ما قويتُ باطل أعدائك، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدك من الكتاب حاضرا، وبرهانك على ما آذعت واضحا .

وعنى نكّاب العاسية فهلاً عبتني بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الدين رعموا أن ترك الناس سدى لا قيم أرد عليهم ، وهملاً بلا راج أريح لهم ، وأحذر أن يجمع لهم ذلك بين سلامه العاقل ، وعنمة الآجل ، وأن تركهم نَشراً لانظام لهم أهد لهم من المفاسد ، وأجمع لهم على المرائد ! بل ليس ذلك بك ، ولكم لما بهرك ما سمعت ، وملاً صدرك الذي قرأت ، وأعلك وأبطرك فلم تنجيه للصحة وهي لك مُعزّصه ، ولم تعرف المقاتل وهي لك مادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ، ورأيت أن سب الأولياء أشنى لدانك ، وأطلع في شفاء سُقمك ، ورأت أن إرسال اللسان أحضر لذّة ، وأعد من الصّيب ، ومن إطالة الصّكّة ، ومن الاختلاف الى أرباب هذه الساعة ، ولو كست حين قطعت لعجزك وصلت نقصك تمام عيرك ، وأستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحيس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين في العاقل ، وأحقّ بالمتوبة في الآجل ، وكست إن أخطأتك العيمة لم تحطئك السلامة ، ولقد سلّم عليك المخالف ، بقدر ما آبتلى به منك الموافق ، وعلى أنه لم يُتَلْ منك إلا بقدر ما ألزمت من مؤونة تنقيك ، والتشاغل بتقويمك ، وهل كنت في ذلك إلا كما قال العري : * وهل يصير السحاب نوح الكلاب * ° وإلا كما قال الشاعر :

هل يصير الحرّ أمسى راحرا * أن رمى فيه غلام بحجر

وهل حالاً في ذلك إلا كما قال الأول

ما صرّ تغلّيت وأثلّ أهوتها * أم نلت حيث تآطع البجران

وقال حسان :

ما أنالى أنب بالحزن تيس * أم لحاني يظهر غيب لئيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراسا عك مطية لك ، ووجهت حاتمنا عك الى الخوف منك ، وقد قال زُقر بن الحارث لبعض من لم يرق الصفح بفعل العفو سبها الى سوء القول :

وَإِنْ عُدْتَ وَاللَّهِ الَّذِي فَوْقَ عَرْشِهِ * مَحْكُوكَ مَسْئُونَ الْعَرَّارِينَ أَرْقَا
فَاتِ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ تُصْرَبَ الْطُلُيُّ (١) * وَأَنْ يُعَمَّسَ الْعَرِيصُ حَتَّى يُفْرَقَا (٢)

وقال الأول :

وَمَا نَفَى عَكَ قَوْمَا أَنْتَ خَائِفُهُمْ . كَمِثْلٍ وَفِيكَ جَهْلًا بِجَهْلِ
فَاعْمَسْ إِذَا حِدَبُوا وَأَحْدَبْ إِذَا قَعِسُوا * وَوَايَزِ الشَّرِّ مِنْقَالًا بِمِنْقَالِ

وقال الآخر :

وَصِفَايَ دَوَائِيهَا بَضَائِي * حَتَّى يَمُتَنَّ وَالْحُقُودُ حُقُودًا

وإني وإن لم يكن عدى سنان رُفُوس الحارث، ولا مُعَارِصَةٌ هؤلاء : الشر بالشر،
والجهل بالجهل، والحقد بالحقد، فإن عدى ما قال المسعودي :

فَمَسَا تَرَابَ الْأَرْضِ مِنْهَا حُلِفَتُمَا * وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشِيرِ
وَلَا تَعْجَبَا أَنْ تَرْجِعَا فَنُسَلِمَا * هَا حُشِيَ الْأَفْوَامُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ
فَلَوْ شِئْتُ أَذْلَى فَبِكَا عَيْرٌ وَاحِدٌ * عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِتْرِ
وَإِنْ أَنَا لَمْ أَمْرُ وَلَمْ أَنَّهُ عَمَّا * صَحَّكَتْ لَهُ حَتَّى يَلْجَ وَيَسْتَشِيرِي (٣)

وقال التبرس نولت :

جَرَى اللَّهُ عَنِّي حَمْرَةً سَةِ نَوَيْلٍ * جَرَاءَ مُعَلِّ الْأَمَانَةِ كَاذِبِ
بِمَا حَرَّتْ عَنِّي الْوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا * عَلَى وَقْدِ أُولِيئِهَا فِي السَّوَابِ

يقول : أخرجت حمري إلى من يشتهي أن أعاب عندها .

ولو شئنا لمأرصاك من القول مما هو أقبح أثرًا، وأبغى وشمًا، وأصدق قِيلًا، وأعدل
شاهدًا، وليس كل من ترك المأرصاة فقد صمغ، كما أنه ليس كل من عارض فقد انتصر،

(١) الطلي : الأعاق .

(٢) العريس : الذي يتزعم للناس بالشر .

(٣) كذا في الأصل، وفي اللسان في مادة ليج : تصاحكت حتى يلج ويستشيري .

وقد قال الشاعر قولاً إن فهمته كَفَيْتَنَا مَوْونة المعارضة ، وكفيت نفسك لزوم العار ، وهو قوله :

إِنْ كُنتَ لَا تَرَهَّبُ دُمِّي لِمَا * تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ
فَأَحْسَ سَكُوتِي إِذَا مُنِصَّتَا * فَيْكَ لِمَسْمُوجِ خَمَا الْقَائِلِ
فَالسَامِعُ الدَّمَّ مُقَرَّبَهُ * كَالْمُطْعَمِ الْمَاكُولَ لِلْآكِلِ
مَقَالَةُ السَّوَاءِ إِلَى أَهْلِهَا * أَسْرَعُ مِنْ مُنْجِدِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَى السَّاسَ إِلَى دَمِهِ * دَمَوهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبَةِ * حَرَبَ أُنْحَى التَّجَرِبَةِ الْعَاقِلِ
إِنْ ذَا الْعَقْلَ إِذَا هَمَّتْهُ * هَمَّتْ بِهِ ذَا خَبَلٍ خَالِلِ
يُنْصِرُ فِي عَاجِلِ شَتَاتِهِ * عَلَيْكَ عِثْرُ الصَّرِّ الْآحِلِ

وقد يقال : إنَّ العفو يُفسدُ من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

وَالْعَفْوُ عَدْلُ كَيْبِ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ * وَبَعْضُهُ لَسَعِيهِ الْقَوْمِ تَذَرِيبُ

وإنَّ كما قد أسأنا في هذا التقرير والتوقيف ، فالذي لم يأخذ فينا بحُكم القرآن ، ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يفزع إلى ما في الفِطْنِ الصحيحة ، أو إلى ما توجَّهه المقاييسُ المُطَيَّرَة ، والأمثالُ المصروبة ، والأشعارُ السائرة ، أو إلى بالإساءة ، وأحقُّ باللائمة ، قال الله حلَّ شأوه : ﴿ وَإِذْ رَأَاهُمُ الَّذِينَ عَلَى الْأَرْضِ وَزُرُّوا وَرَزَّ أَنْزَرُوا ﴾ وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : ” لا تحيِّبُكَ عَلَى شَيْءٍ ” وهذا حُكْمُ الله جَلَّ وَعَزَّ ، وآدابُ رسوله ، والذي أُثِرَ به الكتاب ، ودلَّ عليه في مُجْمَعِ العقول .

أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْمَذْنَبِ

ثم قال في أَخَذَ الْبَرِيءُ بِذَنْبِ الْمَذْنَبِ . فأما ما قالوا في المثل المصروب ، ” رَمَتْنِي بِدَائِمَا ” وَأَنْسَلَتْ . وَأَمَّا قَوْلُ الشَّعْرَاءِ وَذُمُّ الْخَطْبَاءِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَامًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ ، وما ضربوا في ذلك مِنَ الْأَمْثَالِ ، كَقَوْلِ الْبَاهِغَةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي شَعْرِهِ :

وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرْكُهُ * كَذَى الْعُرْيُكَوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ

وكانوا إذا أصاب إبلهم العُزْكَوْا السليم ليذهب العُزُّ عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يُبْرِئُوا السقيم، وكانوا إذا كثُرَتْ إبلُ أحدهم فلغَتْ الألف فقشوا عينَ الصل، فإن زادت الإبلُ على الألف فقشوا عينه الأخرى، فذلك المُعْقَأُ والمُعْمَى اللذان سمعتَ بهما قال المرزوق :

عَلَيْتُكَ بِالْمُعْقَأِ ^(١) وَالْمُعْمَى * وَبَيْتِ الْمُحْتَنِ ^(٢) وَالْحَافِقَاتِ

وكانوا يزعمون أن المُعْقَأَ يَطْرُدُ عنها العينَ والسَّوَأَ ^(٣) والغارة فقال الأول :

فَقَاتْ لَهَا عَيْنَ الْعَجِيلِ تَعِيمًا * وَمِنْ رَعْلَاءِ الْمَسَامِيعِ وَالْحَلَمِ

الرَّعْلَاءُ : التي تُشَقُّ أذنُها وتترك مُدْلَلَةً لِكَرْمِهَا .

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأُمية، كقول الرجل إذا بلغت إبلُ كذا وكذا، وكذلك عَمَى ذبحتُ عدد الأوثان كذا وكذا عَيَرَةً، والعَيَرَةُ : من سُكِّ الرَجِيَّةِ، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو عَمَهُ ذلك العدد آستعمل التأويل وقال : إِنَّمَا قَلْتُ : إِنِّي أَذْبَحُ كَذَا وَكَذَا شَاءً، والطباء : شاء، كما أن العَمَّ شَاءً، بفعل ذلك القُرْبَانِ كُلَّهُ مما يصيد من الطباء، فلهذا يقول الحارث بن حِزَّةَ الشُّكْرِيُّ :

عَتَا مَاطِلًا شُدُوْحًا كَمَا تُعَدُّ * تَرْعُ حُجْرِهِ الرَّيْبُصِ الطَّبَاءُ

بعد أن قال :

أُمَ عَلَيْنَا حُنَاحٌ كِدَّةٌ أَنْ يَفْ * نَمَ عَازِيَهُمْ وَمَا الْجِرَاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إمَّا لِكَدْرِ الْمَاءِ وإمَّا لِقَلَّةِ الْعَطَشِ، صربوا القَوْرَ لِيَقْتَحِمَ الْمَاءُ لِأَنَّ الْبَقَرَ تَتَّبِعُهُ كَمَا تَتَّبِعُ الشَّوْلُ الْعَصَلُ، وكما تَتَّبِعُ أُنْتُ الْوَحْشَ الْجِمَارَ، فقال في ذلك عوف بن الخريج :

تَمَّتْ طَيْءٌ جُهْلًا وَجُبَا * وَقَدْ حَالِيَهُمْ فَأَنُوا حِلَالِي

يَجُونِي أَنْ هَجُوتُ جِبَالَ سَلَمَى * كَصَرِبِ الشَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظَّمَاءِ

(١) في اللسان مادة «عقا» «المعنى» . (٢) كذا في الأصل وفي اللسان «المحتنى»

بالهاء المهملة . (٣) السوا. مرض الابل . (٤) كذا في الأصل وفي اللسان مادة «ر» و«طلم» .

وقال في ذلك أس بن مُدْرِكة في قتله سُلَيْك بن السُّلَكَة :

إمّ وقُتِل سُلَيْكاً ثمَّ أعقله * كالنور يُصْرَبُ لماعيتِ البقرُ
(١) (٢) (٣)
أُنِمتَ للسرِّ إذ تُفَنِّي حليته * وإذ يُسَدُّ على وجعائها الثُّغرُ

وقال الهَيَّانُ الفهمي :

كما صِرَبَ اليعسوبُ أن عاف باقرُ * وما ذنبه أن عافت الماءَ باقرُ

ولما كان الشَّور أمير البقر، وهي طعيمة كطاعة إناث الحبل لليعسوب سماه بأسم أمير النحل .

وكأوا يزعمون أن الحنَّ هي التي تصدّ الثيران عن الماء حتى تُمسِك البقر عن الشرب حتى تهلك، وقال في ذلك الأعشى :

وإني وإن كلفتموني وربكم * لأعلمُ من أمسي أحقَّ وأحوياً
لكالنور والحنُّ يصِرُّ طهره * وما ذنبه أن عافت الماء مشرباً
وما ذنبه أن عافت الماءَ باقرُ * وما إن تعاف الماء إلا ليُصرماً

كأه قال : إذ كان يُصْرَبُ أبداً لأنها عافت الماء، فكانها إنما عافت الماء ليضرب؛ وقال يحيى بن منصور الذهلي في ذلك :

لكالنور والحنُّ يصرب وجهه * وما ذنبه إن كانت الجنُّ طالمة

وقال نهشل بن جرّ :

أُتْرِكُ عارضٌ وبسو عدى * وتعرم دارمٌ وهم بُراءُ
كدأب النور يُصْرَبُ بالهراوى * إذا ما عافت البقرُ الطاءُ
وكيف تكلفُ الشعري سُهَيْلاً * ويلينهما الكواكبُ والسماءُ

(١) في اللسان : « عصت » . (٢) في الأصل « وإن » والتصويب عن اللسان .

(٣) الثمر : السير الذي في مؤخر السرج .

وقال أبو نُؤَيْرَةَ بنُ حُصَيْنٍ حينَ أَخَذَهُ الْحَكَمُ نُنْ أَيْوَبَ ذَنْبَ الْعَطْرَقِ :

أَبَا يَوْسُفَ لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ طَاعَتِي * وَنُصَحِي إِذَا مَا عَتَنِي بِالْمُحَلَّقِ
وَلَا سَأَى سَرَّاءِ الْعُرَافَةِ صَالِحُ * بَيِّ وَلَا كُفِّتُ دَبَّ الْعَطْرَقِ

وقال حَدَّاشُ بنُ زُهَيْرٍ حينَ أُحْدِثَ لَهُ بِمَاءِ بَنِي مُحَارِبٍ :

أَكُفِّتُ قَتْلَى مَعْشِيرِ لَسْتُ مِنْهُمْ * وَلَا دَارَهُمْ دَارِي وَلَا بَصَرَهُمْ نَفْصِي
أَكُفِّتُ قَتْلَى الْعِيصِ عِيصِ شَوَاحِطِ . وَدَكَ أَمْرٌ لَمْ تُشَفِّ لَهُ قِصْدِي

وقال الآخر :

إِذَا عَرَكْتَ عَجَلٌ بِأَدَبِ طَيِّئٍ * عَرَكْنَا بَيْنَ اللَّاتِ دَبَّ بَنِي مَخِيلِ

ولما وحده اليهوديُّ أَحَا حِصِيصَ الصَّبَابِيِّ فِي مِرْلَه فَخَصَّاهُ فَمَاتَ ، وَأَحْدِثَ حِصِيصُ بْنُ عَبْسٍ
بِحَيَاةِ الْيَهُودِيِّ قَالَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ أَنَا حُدْنَا بِدَبِّ عَيْرَا ، وَتَسَالَا الْعَقْلَ ، وَالْقَاتِلُ يَهُودِيٌّ
مِنْ أَهْلِ تَمَاءٍ قَالَ . وَاللَّهِ لَوْ قَتَلَهُ هَيْفَ الرِّيحِ لَوَدَّيْمُوهُ ، فَقَالَ قَيْسُ بْنُ عَبْسٍ : الْمَوْتُ
فِي بَنِي دُبْيَانَ حَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْحَيَاةِ فِي بَنِي عَامِرٍ ، ثُمَّ أَشَأَ يَهْوَلُ :

أَكُفِّتُ دَا الْحُصَيْنَيْنِ إِنْ كَانَ طَالِمًا * وَإِنْ كُنْتُ مَطْلُومًا وَإِنْ كُنْتُ شَاطِمًا
حَصَّاهُ أَمْرٌ مِنْ أَهْلِ تَيْمَاءِ طَارِسٍ * وَلَا يَغْدَمُ الْإِسْئُ وَالْحُسُ طَاسَا
فَهَلَّا بِي دُبْيَانُ أُمِّكَ هَالِئٌ * رَهَتْ يَهْفُ الرِّيحُ إِنْ كُنْتُ رَاهِبًا
إِذَا قُلْتُ قَدْ أَفْلَتُ مِنْ شَرِّ حِصِيصٍ * أَنَانِي نَاحِرِي شَرُّهُ مُتَاطِمًا
فَقَدْ حَمَلْتُ أَكْبَادَنَا نَجْتَوِيكُمْ * كَمَا تَحْتَوِي سُوقُ الْعَصَاهِ الْكَرَارِيَا

وَلَمَّا قَتَلَ لَقْمَانَ بَنَ عَادَ أَبَتَهُ وَهِيَ مُصَحَّرَةٌ بَنَتْ لَقْمَانَ قَالَ حينَ قَتَلَهَا : أَلَسْتُ أَمْرَاهُ ؟
وَذَلِكَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ عِندَهُ نِسَاءً وَكُلُّهُنَّ حُتَّى فِي أَنْفُسِهِنَّ ، فَلَمَّا قَتَلَ أَهْرَاقَ وَنَزَلَ مِنَ الْحِلِّ كَانَ
أَوَّلَ مَنْ تَلَقَّاهُ مُصَحَّرَ ابْنَتِهِ ، فَوَثَبَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا ، وَقَالَ وَأَبَتِ أَيْضًا أَمْرَاهُ ، وَكَانَ قَدْ اسْتَلَى أَيْضًا
بِأَنَّ أخته كانت مُحَقَّقةً ، وَكَذَلِكَ كَانَ زَوْجَهَا ، فَقَالَتْ لِأَحَدِي نِسَاءَ لَقْمَانَ . هَذِهِ لَيْلَةُ طَهْرِي

وهي ليلتك، فدعني أم في مصجحك، فإن لقمان رجلٌ مُنَجَّبٌ، فعسى أن يقع على فأُنَجِّبُ،
فوقع على أخته فحملت بُلُقِيمَ وفي ذلك قول النثر بن تَوَلَّى :

لَقِيمُ سُلُقَمَانَ مِنْ أُخْتِهِ * فكَانَ أَبْرَأَ أَخِي لَهُ وَأَبْجَا
لِيَالِي حَقِّقَ فَاسْتَحَصَنْتُ * عَلَيْهِ فَعُزَّيْبُهَا مُظْلِمًا
فَأَحْبَبَهَا رَحْلٌ مَحْكَمٌ^(١) * لَخَاءَتَ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا

فضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان بنته صُخْرًا فقال خُفَافُ بْنُ نَدْبَةَ في ذلك :
وَعَبَّاسٌ يُدْبِ لِي الْمَايَا * وَمَا أَذْنَبْتُ إِلَّا ذَنْبَ صُخْرِ

وقال في ذلك أَبُو أُدَيْبَةَ :

أَتَجْمَعُ تَيْيَمًا بَلِيلًا إِذَا نَأَتْ * وَهِيَرَانَهَا ظُلُمًا سَكَا ظَلِمَتْ صُخْرُ

وقال الحارث بن عَبَّاد :

قَرَّبًا مَرْبُوطَ الْعَامَةِ مِنِّي * لَفِخْتُ حَرًّا وَائِلَ عَنِ حِيَابِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُبَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ * لَهَا وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال الشاعر وأظنه أَبُو الْمُقَفَّع :

فَلَا تَلِمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ * فَرَّتْ مَلُومٌ وَلَمْ يُدْبِ

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عَدْرًا وَأَتَتْ تَلُومُ * وَكَمْ لَاتَمَّ قَدْلَامٌ وَهُوَ مُلِيمٌ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سِنِّيَّارَ الرُّومِيِّ : فَإِنَّهُ لَمَّا عَلَا الْخَوْرَقَ ، وَرَأَى
بُنْيَانًا لَمْ يَرْمَثْلَهُ ، وَرَأَى ذَلِكَ الْمُسْتَشْرِفَ ، وَحَافَ إِنَّهُ هُوَ أَسْتَبْقَاهُ أَنْ يَمُوتَ فِي بَيْتِي مِثْلَ ذَلِكَ
الْبُنْيَانِ لِمَلِكٍ آخَرَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُمِيَ مِنْ فَوْقِ الْقَصْرِ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْكَلْبِيُّ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
بَعْضِ الْمُلُوكِ :

جراني جراه الله شرَّ جرائه * حراءَ سيمار وما كان ذا ديب
 يسوى رصه الثبيان سبعين حجة * يُعلّي عليه القراميد والسكب
 فلما رأى الثيَّان تمَّ سحوقه : وأض كَيْل الطوددى النادح الصغيب
 فظنَّ سيمارُ به كُلَّ حنوه * وفار لديه بالموذة والقرب
 فقال اقدفوا بالبلج من رأس شاهق * فذاك لعمرك من أعظم الخطب

وحاء المسلمون يروى حلف عن سلف، وتابع عن سابق، وأنحرف عن أول، أهتم
 لم يحتلوا في عيب قول المحتاج : لأحدث، السعي بالسمي والولى مالولى، والجار بالجار،
 ولم يحتلوا عن لعن شاعرهم حيث نقول .

إذا أخذ البريء بغير جريم * تحب ما يُحاذره السقيم

قال : وقيل لعمرو بن عبيد إن فلانا لما قدم رجلاً ليصير عقه ف قيل له : إنه
 مجنون، قال : لولا أن المحمون يلد عاقلاً خلّيت سبيله، قال فقال عمرو . وما خلق الله البار
 إلّا بالحق .

ولما قالت التغلّية للمخاف بن حكيم في وقعه البشر: وص الله عمادك . وأطال سُهادك،
 وأقل رمادك، فوالله إن قتلت إلّا نساء أسافلهن دُعي، وأعالين ندى، فقال لمن حوله : لولا
 أن يلد هذه مثلها خلّيت سبيلها، فبلغ ذلك الحسن فقال . إن المخاف جُدوة من نازجهم .
 قال ودم رجل عند الأخنف بن قيس الكّاة السمر، فقال عد ذلك الأحنف : ربّ
 مَولوم لا ذنب له ؛ فهذه السيرة سرتَ فيها ؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن
 ابن حسان :

وإن أمرأً يمسى ويصبح سالماً * من الناس إلّا ما جئى لسعيد

وقلت : وما نال أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، وأرباب النحل، والعلماء
 بمহারج الملل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الطرءاء والمُلحاة، وكُتِبَ
 الفراغ والخلفاء، وكُتِبَ الملاهي والمكاهات، وكُتِبَ أصحاب الحصومات والمراء، وكُتِبَ

أصحاب العصبية، وحمية الحاهلية، حتى كأنهم لا يحاسون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يحامون تصفح العلماء، ولا لائمه الأداء، وشف الأكفاء، ومساءة الخُساء؛ فهلاً أمسكت رحمك الله عن عينا، والطعن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تحويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء .

أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام البيان :

وحدنا الحكمة على صريين . شئ حُيِّلَ حِكْمَهُ وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشئ جُعِلَ حِكْمَهُ وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بَدَنُ الشئ العاقل وغير العاقل في حجة الدلالة على أنه حِكْمُهُ، واحتلها من حجه أن أحدهما دليل لا يُسْتَدَلُّ، والآخر دليل يُسْتَدَلُّ، فكلُّ مُسْتَدَلٍّ دليل، وليس كلُّ دليل مُسْتَدَلٍّ، فشارك كلُّ الحيوان سوى الإنسان جميع الجهاد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واحتج للإنسان بأن كان دليلاً مُسْتَدَلًّا، ثم حُجِّلَ لِلْمُسْتَدَلِّ سَبَبٌ بَدُلَ به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وتتموا ذلك بيانا؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام . لفظ وخط وعقد وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يُسْتَدَلُّ تَمْكِينَهُ الْمُسْتَدَلُّ من نفسه واقتياده كلَّ مَنْ فُكِّرَ فيه الى معرفة ما استُخِزَ من الدِّهَانِ، وحُشِيَ من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة، فالأجسامُ الحُرُسُ الصامتة ماطقة من حجة الدلالة، ومُعْرِيةٌ من حجة صحة الشهادة، على أن الدى فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استحضرهما، وينطفان لمن استدطقهما كما يحير الهزال وبود اللون عن سوء الحال، وكما يطق السَّمْنُ والنصرة عن حسر الحال، وقد قال الشاعر :

عاجوا فأمشوا بالذى أت أهله * ولوسكتوا أثنت عليك الحقائق

وقال آخر :

مَتَى تَكُ في عدوٍّ أو صديق * تخبرك العيون عن القلوب

وقد قال العُكَلِيُّ في صدق شمه الذئب ، وى شده حسه وأسترواحه :

يستحبر الريحُ اذا لم يَسْمِعِ * نمثل مِقْرَاعَ الصفا الموقِّعِ

وقال عترة وهو يصف بعيثَ عرَّات :

حَرَى الجَنَاحِ كَأَن لَّحْيَ رَأْسِهِ * حَلَمَانِ بِالْأَحْصَارِ هَشَّ مُوَلِّعُ

وهال الفصل بن عيسى بن أَنان في قِصَصِهِ : سل الأرض فقل : مَن شقَّ أَهَارَكَ ، وعَرَسَ أَشْجَارَكَ ، وَحَيَّ نِمَارَكَ ، فإن لم تحنَّ حِوَارًا ، أَحاسنك اعتنارًا ، فهو صوع اللحم ونِصْبُهُ دَلِيلٌ على ما فيه ، وداعيةً اليه وَمَنْهَ عليه ، والحمد الأتكم الأخرس من هذا الوحه قد شارك في البيان الإنسان الحَيُّ الناطق ، من حمل أقسامَ البيا نَحْمَةً فقد ذهب أيضا مدحها له جوارٌّ في اللغة ، وشاهدٌ في العقل ، فهذا أحدُ قِسَمَي الحِكْمَةِ ، وأحدُ مَعَيَّي ما أَسْتَخْزَنها الله تعالى من الوديعه .

القسمه الأخرى ما أودع صدورُ صُوف سائر الحيوان من صروب المعارف ، وفطرها على عريب المِهاديات ، وسخر حناجرها له بصرب النعم المورودة ، والأصوات الملحَّنة ، والمحارج الشجيَّة ، والأعاني المُطرَّنة ، فقد يقال . إن جميع أصواتها مَعْدَلَةٌ ، ومورودة موقَّعة ، ثم الدى سَهَّلَ لها من الرِّفق العجيب في الصبغة مما دله الله تعالى لما قيرها وأكفَّها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هَيَّأَ لها من الآله ، وكيف أعطى كثيرا منها من الحِسِّ اللطيف ، والصبغة البديعه عن غير تأديب وثقيف ، وعن غير تقويم وتلقين ، وعن غير تدريج وتمرير ، فملت بعمقها ومقدار قُوَّي فطرتها من البديه والارتحال ، ومن الابتداء والاقتصاب ، ما لا يقدِّر عليه حُدُوقُ رحال الرأى ، وفلاسةُ علماء البشر يسيد ولا آله ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أَكْثَرُهُمْ حِصَالًا ، وأتمُّهم حِلَالًا ، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التعسف والاقتدار ، ولا من جهة التقديم فيه ، والتأني له ، والترتيب لمُقَدِّماته ، وتمكين الأسباب المِعينَة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحِسِّ ، الجامع القُوَّي ، المُتَصَرِّف في الوحوه المتقدم في الأمور يعجِّر عن عفو كثير منها ، وينظر اد نظر

الى صروب ما يحىء منها كما أُعْطِيَت العنكبوت ، وكما أُعْطِيَت الشُرْفَةُ ، وكما عُلِّمَ النحل ، بل عَرَفَ التَّنَوُّطُ من بديع المعرفة ، ومن عريب الصبغة و غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجد لهم العجز و أنصهم و أكثر ذلك إلا عما قوَّى عليه الهمج والخشاش و صِفَار الحشرات ، ثُمَّ حمل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، ودا التكاف والتجربة ، ودا التأني والمُبالسة ، وصاحَبَ الادحار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كُلُّ شَيْءٍ دونه وى العموص عليه أسهل ، وَحَمَلَ سائر الحيوان وإن كان يُحْسِنُ أحدها ما لا يُحْسِنُ أحدُ الناس متى أحسن شيئا عجيا لم يمكنه أن يُحْسِنَ ما هو أقرب منه فى الطق . وأسهل منه وى الرأى ، بل لا يحسن ما هو أقرب منه وى الحقيقة ، فلا الإنسان حَمَلَ نَفْسَهُ كذلك ، ولا شَيْءٌ من الحيوان آخِثَارَ ذلك ، فأَحْسَنَت هذه الأحاس بلا تعلم ما يمتنع على الإنسان ، وإن تعلم فصار لا يحاوله اد كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدها اذ كان لا يَأْمُلُ المُتَأَقِّقَ بها ، ثم حمل تعالى وعزها تين الحِكْمِيسَ إزاء عيون الباطرين ، ونُحَاهِ أَسْمَاعِ المعتبرين ، ثم حَثَّ على التفكير والاعتبار ، وعلى الاتعاط والأزدحار ، وعلى التعرف والتبين ، وعلى التوقف والتدكر ، جعلها مُدْكِرَةً مَبْهَةً ، وجعلَ الفطر تنشى - الخواطر ، وتجهول بأهلها وى المداهب ، ذلك رَبَّ العالمين ، سبحانه الله رَبُّ العالمين .

وهذا كتاب موعظة وتعرف ، وتفقه ونبيه ، وأراك قد عَشْتَه قُلُودَ تَقِفُ على حدوده ، ونتمكرك فى فصوله ، ونَتَدَكَّرُ آخِرَهُ نَأْوِلُهُ ، ومصادره بموارده ، وقد عَلَطَكَ بِهِ بعض ما رأيت فى أشانه من منزع لم تعرف معانيه ، ومن بَطَالَةٍ لم تدرك عَوْرَهَا ، ولم تَدِرْ لَمْ أَجْتَلَيْتُ وَلَئِيْ عِلَّةٌ تُكَلِّفْتُ ، وأى معنى أربع بها ، ولأى جِدِّ أَحْتَمِلُ ذَلِكَ الهَزْلُ ، ولأية رياضة يُجَسِّمْتُ تلك البَطَالَةَ ، ولم تدرك أن المُرَاحَ جِدِّ اذا أَجْتَلَبَ لَأَن يَكُونَ عِلَّةً لِلْجِدِّ ، وَأَنَّ البَطَالَةَ وَقَارُ وَزَمَانُهُ اذا تُكَلِّفْتُ لِنُكِّ العاقبة ، وَلَمَّا قَالَ الحليل بر أحمد : لا يصل أحدٌ من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه ، قال أبو شمر : اذا كان لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ، وذلك

مثل كتابها هذا، لأنّا إن حملنا جميع من يتكلّف قراءه هذا الكتاب على مُرّ الحقّ، وصُعوبة
الجد، ونَقْل المؤونة وحقيقه الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلّا من قد تحرّد للعلم وفيهم
معناه، وذاق من ثمرته، وأستشعر من عزّه، وبال من سروره على حسَب ما يورث الطول
من الكدّ، والكثرة من السّامة، وما أكثر من يُقاد الى حفظه بالسواحيِر، والسّوق
العنيف، وبالإخافة الشديدة .

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسناً في مدح الكتب فقال .

ثم لم أرك رصيت بالطمس على كلّ كتاب لي بعيه، حتى تجاوزت ذلك، الى أن عنت
وصع الكتب كيهما دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوحوه. وقد كنت أعجب
من عيسك المعصّ بلا عليم، حتى عنت الكلّ بلا علم، ثم تجاوزت ذلك الى التشيع، ثم
تجاوزت التشيع الى نَصّ الحرب، فعنت الكتاب وسعم الدخر والعُدة، وسعم الجليس
والعمدة، وسعم النّشوة والنّزّه، وسعم المشتعل والحرفه، وسعم الأيسّ ساعة الوحدة، وسعم
المعرفة ببلاد الغربة، وسعم القرس والدخيل، وسعم الوزبر والريل، والكتاب وطء ملئ
علما، وظرف حشّي ظرفا، وإباء تُحسّ مُراحا وحدا، إن شئت كان أين من تحيا
وائل، وإن شئت كان أعياء من اقل، وإن شئت صحّكت من بوادره. وإن شئت عجت
من عرائث فوائده، وإن شئت أهلك بوادره، وإن شئت شتكت مواعطه، ومن لك
بواعظ ملّه، وبزاجر مُعير، وبباسك فانك، وبباطق أنخرس، وببارد حارّ، وفي البارد الحارّ
يقول الحسن بن هانئ :

قُلْ لزهير إذا أنتحى وشدا * أقلل أو أكثر فانت مهتدارُ
نحمت من شدة البرودة حتى صرت عدي كأتك البارُ
لا يعجب السامعون من صمّي * كذلك الثلج بارد حارُ

وَمَنْ لَكَ طَبِيبٌ أَعْرَاقِيٌّ ، وَرُومِيٌّ هِنْدِيٌّ ، وَفَارِسِيٌّ يُونَانِيٌّ ، وَنَقْدِيمٌ مَوْلَدٌ ،
وَبِمَيْتٍ تُنْتَجِعُ ، وَمَنْ لَكَ شَيْءٌ ، يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ، وَالنَاقِصَ وَالْوَاقِعَ ، وَالْخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ ،
وَالشَّاهِدَ وَالْفَائِتَ ، وَالرَّفِيعَ وَالْوَصِيعَ ، وَالْعَثَّ وَالسَّمْنَ ، وَالشَّكْلَ وَحِلَافَهُ ، وَالْحُسْنَ وَصِدْهَ .
وبعد ، فمَنْ رَأَيْتَ نِسْتَانًا يَنْجَلُ فِي رُؤْدٍ ، أَوْ رُوصَةً تُنْقَلُ فِي حِجْرٍ ، وَبِاطْقٍ يَنْطَلِقُ عَنْ
الْمَوْتِ ، وَيُتَرَحِّمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ . وَمَنْ لَكَ عُمْرٌ لَا يَمُوتُ إِلَّا بِسَوْمِكَ ، وَلَا يَبْطِقُ إِلَّا بِمَا
تَهْوَى ، آمِنٌ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَكْمَلُ لِلسَّرِّ مِنْ صَاحِبِ السَّرِّ ، وَأَصْطَلُ لِلوَدِيعَةِ مِنْ أَرَابِ
الْوَدِيعَةِ ، وَأَحْفَظُ لِمَا اسْتَحْفَظُ مِنَ الْأَقْبِيَّةِ ، وَمَنْ الْأَعْرَابُ الْمَعْرُوسُ ، بَلْ مِنَ الصَّبَّيَّانِ
قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْأَشْعَالِ ، وَمَنْ الْعُمَيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَيِّبِ الْأَنْثَخَاصِ ، حِينَ الْعَايَةُ تَأْتِي لَمْ تَقْصُ ،
وَالْإِدَاهَانُ فَارَعَةً لَمْ تُقْتَسَمْ ، وَالْإِرَادَةُ وَاقِعَةٌ لَمْ تَسْتَعِبْ ، وَالطَّيْبَةُ لَيْتَهُ هِيَ أَفْضَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّاعِ ،
وَالْقَصِيبُ رَطْبٌ فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوفِ ، حِينَ هَذِهِ الْحَصَالُ لَمْ يَبْتَلْ حَدِيدُهَا ،
وَلَمْ يُقَلِّ عَرَبُهَا ، وَلَمْ تَعْرِقْ قُوَاهَا ، وَكَانَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى : فَصَادَفَ قَلْبًا فَارَعًا فَتَمَكَّنَا
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الطَّبِيبِ :

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَنْسَبُ صَبِيَّهُمْ : مِنَ الْقَوَائِلِ بِالْعَدَاوَةِ يَنْشَعُ
هَذَا مَعَ قَوْلِهِمْ : التَّعَلُّمُ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ ، وَقَالَ جِرَانُ الْعَوْدِ :
تُرْكِي رِجْلَهُ الرُّوحَاءَ حَتَّى : تَكْرُثَ الدَّارُ عَلَى الْبَصِيرِ
كُوجِي فِي الْحَخَارَةِ أَوْ وَشُومٍ . نَأْدِي الزُّومَ نَاقِيَةَ الثُّورِ
الثُّورُ شَيْءٌ كَانَ يُعْمَلُ فِي الْحَاظِلَةِ مِثْلَ الْحَصْرِ الْيَوْمَ .

وَقَالَ آخَرُهُ وَصَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ :

وَأَمَّا مَنْ أَذْبَنَتْهُ فِي الصَّبَا * كَالْعَوْدِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي عَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا أَحْصَرَ * بَعْدَ الَّذِي أَنْصَرَتْ مِنْ يُنْسِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَعَلَّاهُ . « بَطِيقٌ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ . « تَمِيرَةٌ » وَهُوَ حَطْلٌ صَوَاهُ مَا أَشْنَاهُ عَنِ الشَّرِّ وَالشَّرَاءِ لِأَنَّ قَبِيَّةَ .

وقال آخر :

يقوم من ميل العلام المؤدب * ولا يرفع التأديب والرأس أشيب

وقال آخر :

أدبت عيرسى بعد ما هيرمت ، ومن العناء رياضة الهرم

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري فالكاتب أعجب الى من الحفظ ، إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم يشدها بالناس ، والكاتب لا ينسى ، ولا يُبدل كلاما بكلام ،

وعت الكاتب ولا أعلم حارا أبر ، ولا حليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أحصع ، ولا صاحبا أظهر كفاية ، ولا أقل حياية ، ولا أقل إملا وإبراما ، ولا أقل حلافا وإجراما ، ولا أقل عية ، ولا أعد من عصبية ، ولا أكثر أعوثة وتصرفا ، ولا أقل صالما وتكلفا ، ولا أعد من مراء ، ولا أترك شغب ، ولا أزهد في حدال ، ولا أكف عن قتال ، من كتاب ، ولا أعلم قريبا أحسن مواتاة ، ولا أعمل مكافاه ، ولا أحصر معونة ، ولا أخف مؤوبة ، ولا شحره أطول غمرا . ولا أجمع أمرا ، ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب نجى ، ولا أسرع إدراكا ، ولا أوحّد في كلّ إناء من كتاب ؛ ولا أعلم نتاحا في حدائته سته ، وقرب ميلاده ، ورحيص ثميه ، وإمكان موجوده ، يجمع من التدار العجيبة ، والعلوم العربية ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومجود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرقيقة ، والمذاهب القديمة ، والتحارب الحكمة ، ومن الأخار عن القرون الماسية ، والبلاد المتراخيه ، والأمثال السائره ، والأثم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لبيته عليه الصلاة والسلام : **يٰۤاَقْرَأُ وَرَبُّكَ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۖ وَصَفَ نَفْسَهُ تَبٰرَكَ وَتَعَالٰى حُدّه** ، **نَ اَن عَلَّمَ ٱلْقَلَمَ ، كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ٱلْكَرَمَ ، وَٱَعْتَدَ ذٰلِكَ فِى بَعْمِهِ ٱلْعِظَامَ ، وَفِى ٱنَادِيهِ ٱلْحِسَامَ ، وَقد قالت : ٱلْقَلَمَ ٱحُدّ ٱلسَّانِينَ ، وَقَالُوا : كُلُّ مَنْ عَرَفَ فَصْلَ النعمه فِى بَيَانِ ٱلْاَسَانِ كَانَ بِفَصْلِ النعمه فِى بَيَانِ ٱلْقَلَمِ**

أعرف ، ثم جعل هذا الأمر قرآنا ، ثم جعله في أول التبريل ، ومُستفتح الكتاب ، ثم أعلم - يرحمك الله تعالى - أن حاحه بعض الناس الى بعض صفة لازمة لطائفتهم ، وحلقة قائمة في حواهرهم ، وثلاثة لا تزالهم ، ومحيطه بمحاضتهم ، مشتملة على أذانيهم وأقاصيهم ، وحاحتهم الى ما عاب عنهم ، مما يُعيبهم ويُخيبهم ، وأحد أزمافهم ، ويُصلح نالهم ، ويجمع شملهم ، والى التعاون على ذلك ، والتوارر عليه كحاحتهم الى التعاون على معرفة ما محضرهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تعب عنهم ، لحاجة العائف موصولة بحاحه الشاهد ، لاحتياج الأدنى الى معرفة الأقصى ، واختلال الأدنى الى معونة الأقصى ، معانٍ متصمة ، وأسابٍ متصلة ، وحالٌ مُقيدة ، وجعل حاجتنا الى معرفة أحوار من كان قلما كحاحه من كان قلما الى أحوار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا الى أحوارنا ، ولذلك تقدمت في الكتب البشارات بالرسول ، ولم يُسخر لهم جميع حلقه إلا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجميع حلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قوام وقوت ، والأخرى لذة وإمتاع ، وأردباد في الآلة ، وفي كل ما أحْدَل النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصِّقِّين وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعد عورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وقطره الإنسانية ، ثم لم يقطع الريادة عنهم إلا لعجز حلقهم عن احتياها ، ولم يُحْز أن يهتزق بينهم وبين العجز إلا بعدم الأعيان ، اذا كان العجز صفة من صفات الخلق ، وتغنا من نُعوت العبيد ، ولم يُخلِّق الله تعالى أحدا يستطيع بلوع حاحته نفسه دون الاستعانة ببعض من يُخْرِله ، وأدناهم مُسخر لأقاصيهم ، وأحلقهم مُيسر لأدقهم . وعلى ذلك أحوَج الملوك الى السوق في باب ، وأحوح السوق الى الملوك في باب ، وكذلك الفنى والفقير ، والعد وسيدّه .

ثم جعل الله تعالى كل شيء ، للاسنان حولا وفي يده مُدألاً مُيسرا ، إما بالاحتيال له ، والتلطف في إراعتة وآسماثته ، إما بالصوله عليه والفَتْك به ، وإما أن يأتيه سهوا ورهوا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتال لها ، ولما صال عليها ، إلا أن الحاجة تَفْتَرِق

في الجنس والجهة، وفي الحظ والتقدير، ثم تعد الإنسان بالعكر فيها، والنظر في أمورها، والاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتقدير، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان الذي جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومعتزلا بمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة، ومداواة الخيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أنهم منهم عن الأشباح المسائلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يتعرف ما فيها من دوافع الحكم وكسور الأدب، ويبايع العلم، إلا بالعقل اللطيف الثاقب، والنظر التام الباقد، والأداة الكاملة، والأسباب الوافرة، والصبر على مكروه العكر، والاحتراز من وحوه الخدع، والتحفظ من دواعي الهوى، ولأن الشكل أهمهم عن شكله وأسكن إليه وأصب به، وذلك موحود في أجسام الهائم وصرور السباع، والعصبي عن الصبي أنهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الإنسان عن الإنسان أهم، وطاعه بطاعه آس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما سمع منه، ثم لم يرض من البيان لهم بصف واحد، بل جمع ذلك ولم يهزق، وكثر ولم يقلل، وأظهر ولم يخف، جعل أوصاف البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترحم الذي إليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خمسة حاسة، وإب قصت عن ملوع هذه الأربعة في جهاتها، فقد تكلم بحسنه الذي وصع له، وصرف إليه.

وهذه الحاصل الأربع: هي الامعط والخط والإشارة والعقد، والخصلة الخامسة: ما أوحى من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأحرار الجامدة الصامتة، والساكنة الثابتة، التي لا تنيس ولا تفهم، ولا تحس وتتحرك إلا بداخل دخل عليها، أو عد ممسك خلى عنها بعد تقييده كان لها، ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل

الموجودات ، جعل اللفظ للسامع ، وحمل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، في معرفة المقَدِّ إلاً بما يصل الله به نصيب الناظر في ذلك على نصيب اللامس ، وجعل الخط دليلاً على ما عاب من حوائجه عنه ، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه ، وجعله خارباً لما لا يأمن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه ، وأتقنه وجمعه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق في ذلك نصيباً .

ولولا خطوط الهدد لصاع من الحساب الكثير البسيط ، ولطَلَّت معرفة التصاعيف ، ولَعَدِمُوا الإحاطة بالاورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه ألا بعد أن تعاطت المؤونة ، وتنقص المنة ، ولصاروا الى حال معجزه وحُصور ، والى حال مصيبة وكلال حد ، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الآلة لكان أرحمَ لهم ، وأرد عليهم أن يصيروا ذلك الشغل في أبواب منافع الدُّنيا والدُّنيا ، وضع الحساب معلوم ، والحلَّة في موضع فقدته معروفا ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حِسَابًا ﴾ ، والبيان عَرَفَ الناس القرآن ، قال الله سارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ صِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَآزِلَ لِيَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السَّيِّئِ وَالْحِسَابِ ﴾ ، فأجرى الحساب بحرى البيان وألحق البيان بالقرآن ، ومحسبان مازل القمر عرفاً حالات المَدَد والجزر ، وكيف تكون الريادة في الأهلَّة وأصافِ الشهور ، وكيف يكون المُقصان في حلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُب المدقونة ، والاحجار المُخلَّدة ، والحِكَم المخطوطة الى تَحْصُر الحساب وعبر الحساب ، لَطَلَّ أكثر العِلْم ، ولغلب سلطان النسيان سلطانُ الذكر ، ولما كان للناس مَفَرٌّ الى موضع أسند كار ، ولو لم ذلك لحُرِّمُوا أكثر البع ، اد كفا قد علمنا ان مقدار حِفْظ الناس لعواجل حاجاتهم وأواجهها لا يبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ، ولا يغني فيه عناء محموداً ، ولو كُتِفَ عامة مَنْ يطلب العِلْم ، وَيَصْطَنِعُ الكُتُب ، ألا يزال حَافِظاً لِفَهْرِس كُتُبِهِ لا معجزه ذلك ، وَلَكُتِفَ شَطَطاً ، وَلَشَغَلَهُ ذلك عن كثير مما هو أولى به ، ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم قَيْن الصوت مُحَرِّدا ، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك ، والمعاون لك ما كان صياحا صرعا ، وصوتا مضحكا ، ونداء حالصا ، ولا يكون مع ذلك آلا وهو بعيد من المفاهمة ، وعُطِلَ من الدلالة ، بجعل الله حل وعزّ اللفظ لأقرب الحاحات ، والصوت لِأفْسَس من ذلك قليلا ، والكتاب للنازح من الحاحات .

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رُفِعَ الحواحب ، وكسُرُ الأجفان ، ولُئى الشفاه ، وتحريك الأعناق ، وقصص حِلْدَةِ الوحه ؛ وأعدها أن تُتْلَى بثوب على مَقْطَع جبل تُحَاه عَيْن الناظر ، ثم يقطع عملها ، وتُدْرَس أثرها ، ويموت دِكْرُها ، وتصير بعد كل شئ فَصَلَّ عن آتِها مَدَّة الصوت ، ومُتَسَيِّ الطُوفِ الحاحة ، الى التفاهم بالحطوط والكتُب . فأى نفع أعظم ، وأى مَرِيق أعون من الخط ، والحال فيه كما ذكرنا !

وإيس للعقد حطّ الإشارة في بعد العاية ، ولا للإشارة حطّ الخط في بعد العاية ، فليدلك وصع الله عزّ وجلّ القلم في المكان الرابع ، ونوه بذكره في المَنْصِب الشريف حين قال : ﴿ زَيْنَ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُحِطُّ بالقلم إذا كان اللسان لا يتعاطى شَأَوْه ، ولا يُسْقِ عُمَارَه ، ولا يَحْرِى في حِلَّتِه ، ولا يَتَكَلَّف بعد غايته ، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم في سائر الأماكن ، وكانت الحاحة الى بيان اللسان حاحه دائمة رَاكِدَة ، وراهية ثابتة ، وكاب الحاحه الى بيان القلم أمرا يكون في الغيبة وعند البائنة ، ألا ما حُصِّت به الدواوس ، فإن لسان القلم هالك أبسط ، وأثره أعم ، فليدلك قدموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن أتم هو في مافع اليد والمرافق التي فيها ، والاحاح التي تبلعها ، من ذلك حطّها وقسطها من مافع الإشارة ، ثم تصيها في تقويم القلم ، ثم حطّها في التصوير ، ثم حطّها في الصاعات ، ثم حطّها في العقد ، ثم حطّها في الدفع عن المس ، ثم حطّها في إيصال الطعام والشراب الى القم ، ثم التوضؤ والامتساح ، ثم اتقاد الدماير والمدراهم ، ثم لبس الثياب ؛ وفي الدفع عن المس أصاف الرنح ، وأصاف الصرب ، وأصاف الطعن ، ثم الصرب الثَّقُّ بالعود وتحريك الوتر ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته ؛ وكيف

لا تكون كذلك ولما صرب الطبل والدَّق وتحريك الصماقتين ، وتحريكُ غمارِ نَحروفِ المرابر ، وما في ذلك من الإطلاو والحبس ؛ ولو لم يكن في اليد آلا إمساك العنان والزمام والحطام ، لكان ذلك من أعظم الخطوط .

وقد أصطر بوا في الحكم من العَقْد والإشارة ، ولولا أن مَفْزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أُحِبَّ أن يَعْرِفه إحواسا وحطاطاؤنا ، ولا ينبغي لنا أيضا أن نأحد في هذا الباب من الكلام آلا بعد الصراع مما هو أَوْلَى بنا منه ، إذ كُتِبَ لم تارعي ، ولم تعب كُتِبَ من طريق فصل ما بين العَقْد والإشارة ، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما ، وأما قَصْدنا بكلامنا الى الإحار عن فصل الكتب .

والكتاب هو الذي قِيدَ على الناس كُتِبَ عِلْمُ الدس ، وحساب الدواوس ، مع حَقِّه نقله ، وصبر نحمة ، صام ما أَسْكَنَتْه ، وبلغ إذا أَسْتَطَقَتْه ، ومَن لك مُسامر لا يتدُنُّ في حال شُعْلِكَ . ويدعوك في أوقات نشاطك . ولا يحوُكُ الى التحمل له ، والتدم منه ، ومَن لك رائران شتت جعل رارته عِماً ، ووُودَه نحسا ، وإن شئت لرمك لروم طَلْكَ ، فكان منك مكان معصك .

والقلم مُكْتَفٍ نفسه ولا يحاج الى ماعد غيره ، ولا بد لبيان اللسان من أمور ، منها : إشاره اليد ، ولولا الإشارة لما فهموا عنك حاص الحاص ، ادا كان أحص الحاص قد يدخل في باب العام ، إلا أنه أدنى طباقه ، وليس يكتفي حاص الحاص باللفظ عما أذاه ، كاكْتفاء عام العام ، والطَّاقِبِ الى منه وبين أحص الحاص .

والكتاب هو الجليس الذي لا يُطْرِكُ ، والصديق الذي لا يُفْرِكُ ، والرفيق الذي لا يَمْلِكُ ، والمُسْتَمِيع الذي لا يَسْتَرِدُّكَ ، والجار الذي لا يَسْتَبْطِنُكَ ، والصاحب الذي لا يريد أَسْتَحْراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالْمَكْرُ ، ولا يحدُّك بالنفاق ، ولا يحتال لك بالكذب .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشهد طبعك ، وسط اسناك ،
 وحود بيباك ، ونغم ألطاك ، ويبح نفسك ، وعمر صدرك ، ومحك تعظيم العوام ،
 وصداقة الملوك ، وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر ، مع السلامه
 من الغرم ، ومن كد الطلب ، ومن الوقوف ساء المتكسب بالتعليم ، والجلوس من بدى من
 أنت أفضل منه حلقا ، وأكرم عرفا ، ومع السلامة من محاسن الغضاء ، ومقارنة
 الأعياء .

والكتاب هو الذى يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ، ويطيعك فى السر كطاعته فى الحصر ،
 ولا يعتل يوم ، ولا تعتز به كلال السهر ، وهو المعلم الذى إن أفقرت لم يتحريك ، وإن
 قطعت عنه المأذ لم يقطع عك العائده ، وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وإن هتت ربح
 أعاديك لم سلب عليك ، ومتى كمت منه متعلقا بسبب ، أو متعصيا بأدى حبل ، لم تصطرزك
 معه وخشيه الوحده الى حليس السوء ، ولو لم يكن من فصله عليك ، وإحسانه اليك ،
 إلا منعه لك من الجلوس على ناك ، والطير الى المأزك ، مع ما فى ذلك من التعرض
 للحقوى الى تلرم ، ومن فصول البطر ، ومن عادة الخوص فيما لا يعينك ، ومن ملانسه
 صغار الناس ، ومن حصور العاطهم الساقطه ، ومما يهيم العاسده . وأحلافهم الردية ،
 وحالاتهم المدمومه . لكان فى ذلك السلامة ثم العيمه ، وإحراز الأصل مع آسماده الفرع ،
 ولو لم يكن فى ذلك إلا أن تسلك عن تخف المي ، وعن اعتياد الراحة ، وعن اللعب ،
 وكل ما أشبه اللعب ، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغ العمة ، وأعظم المنه ، وقد علمنا
 أن أمتل ما يقطع به الفزاع نهارهم ، وأصحاح الكاهات ساعات ليهم ، هو الشئ الذى
 لا ترى له فيهم مع النيل أثرأ فى آزدياد فى تجربه ولا فى عقل ، ولا فى مروءه ولا فى صود
 عزم ، ولا فى إصلاح دين ، ولا فى تثير مال ، ولا فى تربية صنيعه ، ولا فى آنداء بلعام .

قال أبو عبيده قال المهلب لنيه فى وصيته : يا بني لا تقفوا فى الأسواى إلا على

زاد أوزاق .

وحدثني صديق لي قال : فرأت على شيخ شامي كتابا فيه مآثر عظماء ، فقال لي : ذهبت المكارم إلا من الكتب ، وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول : عبرت أربعين عاما ما قلت ولايت التكاثر إلا والكتاب موضوع على صدري ، وقال ابن الجهم : اذا غشيتي العباس في غير وقت نوم وبئس الشيء اليوم الفاصل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحكم فأجد آهتازي للفوائد ، والأزيجية التي تعترى عند الطمر بعض الحاجة ، والدي يعشني قلبي من سرور الأستاذة ، وعزّ التسن ، أستاذ إيقاطا من هيبو الحير ، وهذه الهذم .

وقال ابن الجهم . اذا استجست الكتاب واستحدثته ، ورحت منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو تزوني وأنا ساعة بعد ساعه أنصركم بقي من ورقه مخافة استنفاذه ، وأنقطاع المادة من قبله ، وإن كان المصحف في عظيم الختم ، وكان الورق كثير العدد ، لرأيت كيف تم عيشي ، وكل سروري .

وذکر القتيبي كتابا لبعض القدماء فقال . لولا طوله ، وكثرة ورقه ، لمسخته ، قال ابن الجهم : لكتبي ما رعتي فيه إلا الشيء الذي ركدك فيه ، وما قرأت كتابا قط كبيرا بأحلافي من فائدة ، وما أخصي كم قرأت من صغار الكتب فخرحت منها كلها دخلت .

وقال القتيبي ذات يوم لأبن الجهم . ألا نتعجب من فلان ! نظر في كتاب الإقليدس مع جارية ستموية في يوم واحد وساعه واحده ، فقد فرغت الحارية من الكتاب وهو بعد لم يجهز مقالة واحدة ، على أنه حرّ مخير وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتب من ستموية على تعليم حارسه ، قال ابن الجهم : قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شكلا واحدا ، وأراك ترعّم أنه قد فرغ من مقالة ، قال القتيبي : وكف طبت به هذا الظن كله وهو رجل ذو لسان وأدب . قال لأنني سمعته يقول لأبيه : كم أفقت على كتاب كذا وكذا . قال : أفقت كذا وكذا ؛ قال : أما رعتي في العلم أتى طبت أتى أفقت قليلا وأكتسب كثيرا ، فأما ادصرت أفقت الكثير وليس في يدي منه إلا المواعيد فأتى لا أريد

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى تكثر سماعه ، ولا ند من أن يصير كنه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألدَّ عده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن مقلته التي تخرج في الكتب ألدَّ عده من عشاى القياد ، والمستهترين بالنُيان ، لم يبلغ في العلم مَلْعاً رَصِيّاً . وليس يتمتع بإنفاقه حتى يؤثر لَدَه اتخاذ الكتب إنبار الأعرابى فرسه باللبن على عياله ، وحتى يُؤمِّل في العلم مالا يُؤمِّل الأعرابى في فرسه .

وقال إبراهيم بن السدى مرة . ودِدْتُ أتب الرادِقه لم يكونوا حُرْصاء على المعالاه والوروى البقى الأيصى ، ولا على تحتر الحمر الأسود البراق ، ولا على استعادة الخط والإرعاب لمن يحط . فإنى لم أركورى كتبهم ورقاً ، ولا كالخطوط التى فيها خطأ . وإنى عيرمت مالا عظيماً مع حتى لئال وصصى للكرم ، لأن سحاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامه من سُكر الآفات . وقلت لإبراهيم . إن إنفاق الرادقة على الكتب كإنفاق الصارى على البيع ، ولو كانت كتب الرادقة كُتِبَ حِكْمُه ، وكتبت فلسفة ، وكانت مقابيس تبين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعترف الناس أنواب الصاعات ، أو سُلَّ التَكْسُّ والتحارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطْل والأدب ، أو كان ذلك لا يُقَرَّب من عى ، ولا يباعد من مائهم ، لكانوا ممن قد يحوز أن يُطَقَّ بهم تعظيم البيان والرعة في التبيين ، ولكمهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، فأنما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المحوس على بيت البار ، وكإنفاق الصارى على صُلْبان الذهب ، أو كإنفاق الهسد على سَدَنَةِ البُدْ ، ولو كانوا العلم أرادوا لكان العلم لهم معرضاً ، وكتبت الحكمة لهم مَدْوَلَة ، والطرق إليها سهلة معروفة ، فما ألمهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب ديانتهم كما يُعرف الصارى ببيوت عبادتهم ، ولو كان هذا المعنى مُستحسناً عند المسلمين ، وكانوا يرون أن ذلك داعية إلى العبادة وابعاشة على الخشوع ، لَبَلَفُوا في ذلك عَفْوِهِمْ ما لا يبلغه الصارى غاية الجُهد .

وقد رأيتم مسجداً دمشق حين استحاز هذه السيل ملك من ملوكنا ، ومن رآه فقد علم أن أحدا لا يرويه ، وأن الروم لا تسحو أنفسهم به ؛ فلما قام عمر بن عبد العزيز جلته بالجلال ، وعطاه بالكرايس^(١) ، وطبع سلاسل القاديل حتى ذهب عنها ذلك التلاؤلؤ والبريق ، وذهب الى أن ذلك الصبيح محاب لسة الاسلام ، وأن ذلك الحس الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ، مشعلة دون الحشوع ، وأن البال لا يكون مختمعا وهماك شيء يفرقه ويعترض عليه .

والدى يدنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صعة أدب ، ولا حكمة عصرية ولا فلسفية ، ولا مشكلة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استجراح آلة ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عدي ، ولا مناصرة عن محلة ، وحله ذكر الور والطمنة ، وساح الشياطين ، وتسافد العماريت ، وذكر الصبيد والتهويل بعمود السنخ ، والاحار عن شقلون وعن الهامة والهامة ، وهدر وعي ودعوى وحرارة وسحق وتكذب ، لا نرى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثا مؤثقا ، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الطاعة والتخوع بالديانة على جهه الاستنصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يجيبون إلا دينا أو دنيا .

فأما الدنيا فاقامة سوقها وإحصار نفعا . وأما الدين فأقل ما يطعم في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصور في صورة مقلطة ، ويؤوه تمويه الديار والبحر والدرهم الزائف الذى يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل . فليس اساقهم عليها من حيث ظنت . وكل دين يكون أظهر اختلافا وأكثر فسادا يحتاج من الرقيق والتمويه ومن الاحتشاد له والتفليط فيه الى أكثر من غيره .

(١) الكرايس جمع كراس . فوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الحسن ، فارسي معرب .

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تبعاً ، فعلى حسب ذلك يكون تزئيمهم في توكيده ، واحتفالهم في إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنتُ عد بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال لي : اكتبُ كل ما تسمع ، فإن أحس ما تسمع حير من مكانه أبص . وقال الخليل بن أحمد : تكثر من العلم ليعرف ، وتقلل منه لتحفظ . وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب ، والقليل وحده للصدر ، وأشد قول ابن يسير .

أما لو أعي كل ما أسمع * وأحفظ من ذلك ما أجمع
ولم أستهد غير ما قد جمعتُ لقل هو العالم المقيع
ولكن نفسي إلى كل نو * ع من العلم سمعه ترع
أشاهد بالعي في تحليسي * وعلمي في البيت مستودع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت ولا أنا من جمعه أشع
ومن يك في علمه هكذا * يكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حافطاً وإعياً * بجمعك للعلم لا يتبع

قال أبو إسحاق : كلف ابن يسير الكتب ما ليس عليها ، إن الكتب لا تُنقى الموتى ، ولا تُحول الأحق عقلاً ، ولا الوليد ديكاً ، وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قول فالتكتب تشد وتفتق وتزحف وتشفى ، ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه ، فإن ذلك أما بصوره لشيء اعتراه . فمن كان عقلاً ديكاً حافظاً فليقصده إلى شئين أو ثلاثة أشياء : فلا يتزع عن الدرس والمطارحة ، ولا يدع أن يتزع على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالماً بمواضع ويكون غير عقل من سائر ما يجري فيه الناس ويحوضون فيه ، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلا نسي أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أعد .

وحدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خرابة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : ما دخلت على رجل قط ولا مررت بابه فرأيت به يطر
في دفتر وحليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يوماً : إن في دار فلاں باسا قد اشتملوا على سوءه ، وهم جلوس
على نخبة لهم وعدهم طُصور ، قال : قد مرنا عليهم في جماعة من رجال الحى ، فإذا فتى حالس
في وسط الدار وإذا أصحابه حوله ، وإذا هم بيص الخى ، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر ،
فقال الذى كان سعى هم : السوءة في ذلك البيت ، وإن دخلتموه عثرتم بها ، قال قلت :
والله لا أكشف فتى أصحابه شيوع وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكرياء .
قال وأنشد رجل يونس النحوى قوله :

أُستودِعَ العلمُ قِرطاساً فصيبه * فيئس مُستودِعُ العلمِ القراطيسُ

قال فقال يونس : قاتله الله ، ما أشد صبايته بالعلم وأحسن صيانتَه له ! إن علمك من
رُوحك ، ومالك من بدك ، فصعبه منك بمكان الرُوح ، وصعب مالك بمكان البدن .

وقيل لابن داحه وأخرج كتاب أبي الشَّمَمَقِ وإذا هو في حُلود كوفية ودقتين
طائفتين ومخطَّ غيب ، فقيل له : لقد صيغ درهمه من تحوُّد لشعر أبي الشَّمَمَقِ ؛ قال :
لا جرم والله إن العلم ليعطيك على حساب ما تُعْطُوهُ ، ولو استطعت أن أودعه سُويداء
قلبي وأجعله مخطوطاً على ناظري لمعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في امرته ، فرأيت السباطين بين يديه والرجال مثولاً
كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشته وزيته ^(٢) ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو
في بيت كتبه وحواليه الأسعاط والرفوف والنفاطر والدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيت به
قط ألم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، إلا أنه جمع مع المهابة
الحكمة ، ومع الفحامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

(١) كذا في الأصل ، ولعلها رائدة . (٢) الفرشة : الهيئة .

وقال ابن داحه : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يُخالس الناس ، ونزل مقبره من المقابر ، وكان لا يكاد يرى إلّا وفي يده كتاب يقرؤه ، فسُئل عن ذلك وعز نزوله المقبرة ، فقال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلم من الوحده ، ف قيل له : فقد جاء في الوحده ما قد جاء ، قال . ما أسدّها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وصروب من الخطوط بعد ذلك تدلّ على قدر منعه الخط ، قال الله تارك وتعالى : ﴿ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال الله عز وجل . ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وقال . ﴿ قَامًا مِّنْ أَوْتَىٰ كِتَابِهِ تَبْيِيهِ ﴾ وقال . ﴿ وَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ وقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ يَافِيسَكَ الْيَوْمَ حَسِبًا ﴾ .

الترغيب في اصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الخط في الأرض عند التفكير وما قيل في ذلك من الأشعار ، وذكر الخط ومقدار الحاجة اليه ، وتاريخ الشعر قبل الإسلام ، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب ، استطرد القول بالترغيب في اصطناع الكتب) فقال .

« إن على من شكر المعرفة معاوى الناس ومراشيدهم ومصارهم ومناهم ، أن يحتمل ثقل مؤوتهم في معرفتهم ، وأن يوحى إرشادهم وأن جهلوا فصل ما ينسدى اليهم . ولئ يضمن العلم بمثل بدله ، ولئ تستبقى العمة فيه بمثل شره . على أن قراءة الكتب ألع في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقي يشتد التصعب ، ويكثر التظالم ، وتفرط العصبية ، وتقوى الجمية ، وعند المواجهة والمقابلة يشتد حُ العلبة ، وشهوة الماهاة والرياسة مع الاستعجاء من الرجوع ، والأهية من الخسوع ، وعن جميع ذلك تحدث الصعائن ويظهر التباين ، فاذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، أمتعت من التعرف ، وعميت عن موضع الدلالة ، وليست للكتب علة تمتع من درك البعثة ، واصابة الحجة ، لأن المتوحد بدرسها والمنفرد

بفهم معانيها ، لا يباهي نفسه ، ولا يبالغ عقله ، وقد عدم من له يباهي ، ومن أحله يبالغ ، والكتابات قد يفصل صاحبها ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلبه على لسانه بأمور :

مهما ، أن الكتاب يُقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار ، وتناعد ما بين الأمصار ، وذلك أمر يستحيل في واصل الكتاب ، والمنازع بالمسألة والجواب ، ومناقلة اللسان وهدايته لا تحوزان محلي صاحبها ، وملح صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كنهه ، ويبقى العقل ويبقى أثره . ولولا ما تسمت لها الأوائل في كتبها ، وحللت من عجيب حِكمتها ، ودققت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا ما ما عاب عاباً ، وفتحنا بها كل مُستغلق كان علينا ، بجمعها الى قليلا كثيرهم ، وأدركنا ما لم يكن نُدرُكه إلا بهم ، لقد حس حطنا من الحكمة ، وضعف سبنا الى المعرفة ، ولو أُلحنا الى قدر قوتنا ، وملح خواطربا ، ومهمل تحريبتنا لما تُدرُكه حواسنا وتشاهده نفوسنا ، لقد قلت المعرفة ، وقصرت الهمة ، وانتقصت المنه ، وعاد الرأي عقيما ، والباطل فاسدا ، ولكل الحد ، وتلد العقل . وأكثر من كتبهم بقاء ، وأشرف منها حظرا ، وأحسن موقعا ، كُتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق والمصاحف ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فيما . على أنما قد وحدنا من العبرة أكثر مما وحدوا ، كما أن من بعدنا يحمد من العبرة أكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمنع الباصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وهوى نجم التقيّة ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوى البيان والعلم . والإنسان ليس يحمد في كل حال إنسانا

يُدرِّسه ومُقوماً بِنَقِّه ، والصبر على إلهام الرِّئْصِ شديدٌ ، وصرف النفس عن مُغالاة العالم أشدُّ منه هما .

والمتعلم يجد في كلّ مكان الكاب عتيّداً ، وبما يحتاج إليه قائماً . وما أكثر من قوط في التعلّم أيامَ حُول ذكره وأيام حداثه سَنَه . ولولا حياد الكتب وحسنها ، ومُيَنِّها ومُخَصَّرُها ، ثم تحرّكت هِمَم هؤلاء لطلب العلم ، وبارعت الى حب الأدب ، وأعت من حال الجهل وأن تكون في عِمار الحشو لدلّ على هؤلاء من الصرر والمصرّة والجهل وسوء الحال ما عسى ألاّ يميّك الإخار عن مقدارهِ إلّا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تَعَفَّهوا قَلِيلَ أَنْ تُسَوِّدُوا . وقد تحبّد الرجل يطلب الآثار وتاويل القرآن ويخالس الفقهاء نحسين سَنَه ، ولا يعدّ فقيها ولا يعمل قاصيا ، وما هو إلّا أن يَطر في كتب أبي حنيفة وأشاه أنى حبيبة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سه أو ستين حتى تتمزبانه فتُطْلَقُ أنه ناب بعض العمال ، والآخرى ألاّ يتر عليه من الأيام إلّا اليسير حتى يصير حاكما على مصير من الأمصار ، أو تلذّه من البلدان .

ويسعى لمن كتب كتابا ألاّ يكتبه إلّا على أن الساس كلّهم له أعداء ، وكلّهم عالم بالأمر ، وكلّهم مُتفرّع له ، ثم لا رضى بذلك حتى يدع كتابه يبت ويختبر ، ولا يثق بالرأى المطر ، وإن لانتداء الكتاب فتنه ونعنا ، وإذا سكّنت الطبيعة وهدأت الحركة ، وتراحت الأخطاط ، وعادت النفس وادرة ، أعاد الطريفه وتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ، ويتمهم معنى قول الشاعر :

إِنِ الْحَدِيثَ تَغَرُّ الْقَوْمَ حَلَوْتُهُ * حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ عَيٌّْ وَإِنْ تَأَرَّ

ويقف عند قولهم في المثل : ”كلُّ مُخِرٍ في الحلاء يُسَرِّ“ ، فيحاف أن يعزّيه ما يعتري من أجرى فرسه وحذّه ، أو حلا قلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . وأيعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدّب عند صربه وعقابه ، فما أكثر من يعزم على

عشرة أسواط فيضرب مائة ، لأنه استبدأ الصرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال ، فلما صرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في عصه ، فأراه الغضب أن الرأي في الإثثار ، وكذلك صاحب القلم ، فما أكثر من يتدنى الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة . والحفظ مع الإقلال أمكن ، وهو مع الإثثار أعمد .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَاقِلَ إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ بِالْمَشْعُوكِ كَثِيرًا مَا يُعَزَّزُ مِنْ وَلَدِهِ وَيَحْتَسُنُ فِي عَيْبِهِ مِنْهُ الْقَصِيحُ فِي عَيْنِ عَرِهِ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ لَفْظَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ نَسَا مِنْ ابْنِهِ ، وَحَرَكَتُهُ أَمْسٌ بِهِ رَجَا مِنْ وَلَدِهِ ، لِأَنَّ حَرَكَتَهُ شَيْءٌ أَحَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَبَدَانَتِهِ ، وَمِنْ عَيْنِ جَوْهَرِهِ فَصَلَتْ ، وَمِنْ نَفْسِهِ كَانَتْ ، وَإِنَّمَا الْوَلَدُ كَالْحَطَّةِ يَتَحَطَّطُهَا ، وَكَالْحُمَامَةِ يَقْدِفُهَا ، وَلَا سَوَاءٌ إِحْرَاكُ مَنْ نَفْسُكَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ ، وَظَاهَارُكَ حَرَكَةً لَمْ تَكُنْ حَتَّى كَانَتْ مِنْكَ ، وَلِلدَّكَ نَحْدُ قِتَّةِ الرَّحْلِ بِشَعْرِهِ وَقِتَّةِ كَلَامِهِ وَكِتَبِهِ ، فَوْقَ قِتَّةِ تَجْمِيعِ نَعْمَتِهِ .

وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى إِفْهَامِ مَعَانِيهِ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ السَّامِعُ مَا فِيهِ إِلَى الرُّوْيَةِ فِيهِ . وَيَحْتَاجُ مِنَ اللَّفْظِ إِلَى مَقْدَارٍ يَرْتَفِعُ بِهِ عَنْ أَلْفَاظِ السَّيْلَةِ وَالْحَشْوِ ، وَيَحْطُطُ عَنْ عَرِيبِ الْأَعْرَابِ ، وَوَحْشِيِّ الْكَلَامِ . وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُهْدِّهَ حِدًّا وَيُقْقِحه وَيَصْقِيهِ وَيُزَوِّقَهُ حَتَّى لَا يَطْفُقَ إِلَّا بِاللَّتِّ وَالسَّرِّ ، وَاللَّفْظِ الَّذِي قَدْ حُدِفَ فُصُولُهُ وَتَعَرَّقَ زَوَائِدُهُ ، حَتَّى عَادَ حَالُهَا لَا شَوْبَ فِيهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يُفْهَمْ عَنْهُ إِلَّا نَابٌ يُحْتَدُّ لَهُمْ إِفْهَامًا وَتَكَرَّرًا ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ قَدْ تَعَوَّدُوا الْمَبْسُوطَ مِنَ الْكَلَامِ ، وَصَارَتْ أَفْهَامُهُمْ لَا تَزِيدُ عَلَى عَادَاتِهِمْ إِلَّا مَا نَأَنُ تُعْطَسُ عَلَيْهَا وَتُؤَخَّذُ بِهَا ، أَلَّا تَرَى أَنَّ كِتَابَ الْمُنْطِقِ الَّذِي قَدْ وَسِمَ بِهِدَا الْأَسْمِ لَوْ قَرَأْتَهُ عَلَى جَمِيعِ حَطَاءِ الْأُمُصَارِ وَبُلْغَاءِ الْأَعْرَابِ لَمَا فُهِمُوا أَكْثَرَهُ ، وَفِي كِتَابِ إِبْقِيدَسَ ، كَلَامٌ يَدُورُ وَهُوَ عَرَبِيٌّ وَقَدْ صُنِّيَ ، وَلَوْ سَمِعَهُ بَعْضُ الْخَطْبَاءِ لَمَا فُهِمَهُ ، إِلَّا مَا نَأَنُ يُفْهَمُ مَنْ يَرِيدُ تَعْلِيمَهُ ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَ جِهَةَ الْأَمْرِ ، وَتَعَوَّدَ اللَّفْظَ الْمُنْطِقِيَّ الَّذِي اسْتَخْرَجَ مِنْ جَمِيعِ الْكَلَامِ .

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما لَصَحَّاحِ الْعَمْدَى : ما الإيجاز ؟
قال أن تحب فلا تُطَي ، وتقول فلا تُحِطِي ، قال معاوية : أو كذاك تقول . قال صَحَّاحُ
أقنني يا أمير المؤمنين ، لا تُحِطِي ولا تُطَي . فلو أن سائلا سألك عن الإيجاز قلت : لا تُحِطِي
ولا تُطَي وبحضرتك خالد بن صموان لما عَرَف بالديهة وعد أول وهلة أن قولك
لا تُحِطِي مُصَنَّن بالقول ، وقولك لا تُطَي مُضَمَّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى —
قد ارتصوه ورووه ، ولو أن قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لبطئت أنه كان سيقول
الاحتصار والإيجاز ، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الساب من
الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ طر طومار فقد أوجر ، وكذلك الإطالة . وإما يدينني أن
يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ولا بَرَدَد وهو يُكَنِّف في الإيهام شطره ، فما وَصَلَ
عن المقدار فهو الخطل .

وقلت لأبي الحس الأحمش . أنت أعلم الناس بالحو ، فلم لا تحمل كنتك مفهومة
كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تُقَدِّم بعض العويص وتؤخر بعض
المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أصع كنتى هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعها
هذا الوصع الذى تدعوى اليه قلت حاحتهم إلى فيه ، وإنما عايتي المألة ، فإذا أصع
بعضها هذا الوصع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وأنا
قد كسبت في هذا التدوير ادكت إلى التكبث دهب ، ولكن ما بال أراهم الظام وفلان
وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثل في موافقته وحس بطره وشدة عايتيه ،
فلا يفهم أكثرها ؟

وأقول لو أن يوسف السمتي كتب هذه الشروط أيام جلس سلمان بن ربيعة
شهرين للقضاء فلم يتقدم إليه رُحَلا والقلوب سليمة والحقوق على أهلها مؤقرة ، لكان
ذلك حطلا ولغوا ، ولو كتب في دهرها شروط دهر سلمان لكان ذلك عرارة ونقصا ،

وجَهَلًا بالسِّيَاسة وما يَصْلُح لكلِّ دَهرٍ ، ووحَدنا السَّاس اِدا خَطُّوا في صُلُح بين العِشائر
أَطالوا ، وادا اُنْشَدوا الشَّعر بين السَّاطِئِينَ في مَدح المُلوك أَطالوا ، فَلإِطالَة مَوْضِعٌ وليس
ذلك مَحْطَلٌ ، ولإِغْلال مَوْضِعٌ وليس ذلك مِن عَجَر .

ولو لا أَتى أَتَكل على أَناكَ لا تَمَلَّ ناب العول في البَعر حَتَّى نَحْرُح الى الفيل ، وفي الدَّرَّة
حَتَّى نَحْرُح الى النُّعْصَة ، وفي العَقْرَب حَتَّى نَحْرُح الى الحَيَّة ، وفي الرُّحْل حَتَّى نَحْرُح الى
المَرأة ، وفي الدَّناں والنَّحْل حَتَّى نَحْرُح الى العِرْبان والعِقان ، وفي الكَلَف حَتَّى نَحْرُح الى
الدَّيك ، وفي الدَّنْث حَتَّى نَحْرُح الى الصُّع ، وفي الظِّلْف حَتَّى نَحْرُح الى الحافِر ، وفي الحافِر
حَتَّى نَحْرُح الى الحُف ، وفي الحُف حَتَّى نَحْرُح الى البُرْث ، وفي البُرْث حَتَّى نَحْرُح
الى المِخْلَب ، وكذلك القَوْل في الطير وعامةِ الأَصناف ، لَرَأَيْتُ أَنَّ ذلك يُوجِب المَلال ،
ويُعقِب الفَترَة الماسِعة من اللوع في الفَهم ، وتَعْرِف ما يُحتاج مِمَّه الى التَعْرِف ، فرَأَيْتُ أَنَّ
جُمْلَة الكُتَّاب وإنْ كَثُر عدد ورقه ، أَنَّ ذلك ليس مِمَّا تَمَلَّ من كَثَرَة قِراءَتِه أندا وتَعَتَّد على
فِيهِ بالإِطالَة ، لِأَنَّهُ وإنْ كان كَما واحدا فَانَّهُ كُتِبَ كَثيره ، وكلِّ مَصحَف مِنها أُم على
حِدَة . فإِنْ أَراد قِراءَة المِجْمَع لم يَطُل عليه الباب الأوَّل حَتَّى يَهْجُم على الثَّانِي ، ولا الثَّانِي
حَتَّى يَهْجُم على الثَّالِث ، هُوَ أندا مُستَفيِد ومُسْتَطَرِف ، وبعصه يَكُون حَماما لِعَض ،
ولا يَزال نِشاطُه رائِدا ، ومَتى حَرَح من آي القرآن صار الى أَثر ، ومَتى نَحْرَح من أَثر
صار الى حَر ، ثم نَحْرُح من الحَر الى شَعره ، ومِن الشَّعر الى بَوادِر . ومِن البَوادِر الى حِكم
عَقْلِيَّة ومقايِيس سِدائِد ، ثُمَّ لا يَتْرَك هَذا الباب لعلَّه أَنْ يَكُون أَثْقل ، والمَلالُ اليه أَسرَع ،
حَتَّى يُفَصِّى به الى مَرَح وفُكاهَة والى سُخْف ونُحْرافه . ولست أَراه سَحفاً إِذ كُنت لِمَما
اسْتَمَعْتَ سِيرةَ الحِكماء ومأذِبةَ العُلَماء ، ورأينا الله تَبارَكَ وتعالى إِذا حاطَب العرب
والأَعْراب أَنحَرَح الكلام مُنحَرَح الإِشارَة والوَحى والحَسَد ، وإِذا حاطَب بَنى إِسرائِيل
أَوْحَكَي عَنْهُمْ جَعَلَه مَبسوطا وراد في الكَلَم . فاصُوب العَمَل أَتباعِ آثارِ العُلَماء والِإِحْتِذاءِ

على مثال القدماء ، والأحد بما عليه الجماعة . وقال ابن يسير في صفة الكتب في كلمة له :

أَقْلْتُ أَهْرُبُ لَا أَلُو مُسَاعَدَةً ، في الأرض منهم فلم يُخَصِّنِي الْمَهْرُبُ
يَقْضُرُ أَوْسٍ مَا وَالَتْ حَادِيَهُ إِلَى التَّوَاوِيسِ فَاَلْمَاخُورُ وَالْحَارِبُ
فَأَيُّمَا مُؤْنِلٍ مَهَا أَعَصَمْتُ بِهِ مِنْ وَرَائِي حَيْثُنَا مِنْهُمْ الْطَّلُ
لَمَّا رَأَيْتُ نَأْيَ عَيْرٍ مُعْجِرِهِمْ قَوْنَا وَلَا هَرَبًا قَرَبْتُ أَخْتِيحُ
وَصِرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِ حَدَلًا * حَارًّا لِنَوَاهِ لَا شَعْكُوِي وَلَا شَفْتُ
مَرَدًّا تُحَدِّثُنِي الْمَوْتَى وَتَنْطِقُ لِي عَنْ عِلْمِ مَا غَابَ عَنِّي مِنْهُمْ الْكُتُبُ
هُمْ مُؤْنُسُونَ وَأَلَّافٌ عَيْتُ بِهِمْ . فَلَيْسَ لِي فِي أَيْدِيهِمْ عَيْرُهُمْ أَرْتُ
لِلَّهِ مِنْ حُلَسَاءٍ لَا حَلِيْسُهُمْ * وَلَا عَنْبَرُهُمْوُ لِلْسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لَا بَادِرَاتٍ الْأَدَى يَحْتَشِي رَوِيَهُمْ . وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ دَرَبُ
أَبْقُوا لَنَا حِكْمًا تَبْقَى مَافِعُهَا * أُخْرَى الْيَالِي عَلَى الْإِتَامِ وَأَنْشَعَبُوا
فَأَيُّمَا أَدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدْتُ يَدِي * يَوْمًا إِلَيْهِ وَدَائِي مِنْ يَدِي كُنْتُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْآثَارِ يَوْمَهَا . إِلَى السَّجَى ثِقَاتٌ مَرَّةٌ مُحْكَمُ
أَوْشِنْتُ مِنْ عَرَبٍ عَلِمًا نَاقِلًا ، فِي الْحَاحِلِيَّةِ أَسْتَسِي بِهِ الْعَرَبُ
أَوْشِنْتُ مِنْ سَيْرِ الْأَمْلاَكِ مِنْ عَجَمٍ * تَبْنِي وَتُخْرِجُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْ * وَقَدْ مَصَّتْ دُونَهُ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقْبُ
يَا قَانَلًا قَصُرَتْ فِي الْعِلْمِ مَهْنَتُهُ * أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ فِيمَا قَالَ يَنْتَسِبُ
إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ مَاتُوا بَعْدَهُمْ * حَلَّافَ قَوْلِكَ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا
مَا مَاتَ مِمَّا امْرُؤٌ أَبْقَى لَهَا أَدَمًا * يَكُونُ مِنْهُ إِذَا مَا مَاتَ يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجرة وهو يصف صحيفة كتبت له فيها بستان وسقا :
 راحت بستان وسقا في حقيبتها * ماحلت حملها الأذن ولا السددا
 ولا رأيت قلوفا قلها حملت * ستين وسقا ولا جابت بها لدا
 وقال الراجل :

تعلمن أن الدواة والقلم * تنق ويقي حادث الدهر العنم

يقول ثعلبك الذي تكتنه على سيق فتأخذي به وتذهب عسي فيا يذهب . ومما يدل على
 نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يحز أن يعلم أهل الرقة والموصل وعداد وواسط ما كان
 بالبصرة وحدث الكوفة في بياض يوم ، فتكون الحادثة بالكوفة عذوة ويعلمها أهل البصرة
 قل المساء .

وذلك مشهور في الحام الهدي : اذا حُلت ردا قال الله حل وعز ، وذكر سليمان
 ومملكه الذي لم يؤت أحدا مثله ، قال : ﴿ وَتَقَعَدَ الطَّرَقَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ إلى
 قوله : ﴿ أَوْ لَا ذُبْحَهُ أَوْ لِيَأْتِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ . فلم يلبث أن قال الهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ
 سَبَإٍ بِنَايَ يَقِينٍ إِنِّي وَحَدَّثْتُ أَمْرَاهُ تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ .
 قال سليمان : ﴿ أَذْهَبَ يَكْأَى هَذَا فَأَلْفِقَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ وقد كان عده من يبلغ الرسالة على تمامها من
 عرفت ومن بعض من عده علم من الكتاب فرأى أن الكتاب أهى وأنزل وأكرم وأنعم
 من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب . وقالت ملكة سبأ : ﴿ يَا أَيُّهَا
 الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ بهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب وقد يريد بعض
 الحلة الكبار وبعض الأدباء والحكام أن يدعو بعض من يجرى مجراه في سلطان أو أدب إلى
 مآذبة أو ندام أو خروج إلى متنزه أو عرس ما يشبه ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته
 ومعه لأصاب من يحسن الأداء ويصدق في الإبلاغ فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى
 وأنبه وأبلغ ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم ألا يكتب الكتب إلى كسرى وقبصر والنجاشي

والمقوقس وإلى سى الجَلْدَى وإلى العَاهِلَةِ من حِمير وإلى هُوْدَه بن علي وإلى الملوك العظماء والسادة الثَّعْلَاءَ لِفعل ولوَحد المُتَلَعِ المعصومَ من الخطأ والتسديل، ولكنه عليه السلام علم أن الكتاب أشبه تلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وألغى في تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الإليسة بالمرسلين ولم يودعها الكتب لِفعل ولكنه تعالى وعزّ علم أن ذلك أتم وأكمل، وأجمع وأنبئ، وقد يكتبُ بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يشاكله أو يتجرى مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يحزمه ويحتمه، وربما لم يرض بذلك حتى يسونه ويعظمه .

قال الله حل وعز : ﴿أَمْ لَمْ يَسْأَلْ فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قد كرم صُحُف موسى الموحودة وصُحُف إبراهيم النائدة المعدومة ليعرف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب . قالوا : وكانت فلاسفة اليونانية تُورث البساتين وتوزع البنين الذين ، وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤوبة بالكلفة وكانت تقول : لا توزنوا الآبن من المال إلا ما يكون عونا له على طلب المال، وأعدوه بحلاوة العلم وأطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أعلت عليه من جمع المال، وليرى أنه العدة والعتاد، وأنه أكرم مُستفاد، وكأوا يقولون : لا تُورثوا الآس من المال إلا ما يسند الخلّة، ويكون له عونا على درك الفصول إن كان لابد من الفصول، فإنه إن كان فاسدا زادت تلك الفصول في فساد، وإن كان صالحا كان فيما أورثتوه من العلم، وتقيم له من الكفاية ما يكفيه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأن المال لم يزل تابعا للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصاحب الفصول يحرص فسادا وعلى شفا إصاعة مع تمام الحكمة واجتماع القوة، مما طمّكم بها مع عرارة الحداثة وسوء الاعتار وقلة التحريبة ! وكأوا يقولون : خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة ومغل لك حلاوة المحمة، ونبي لك الأحذوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه، وليس يجمع ذلك إلا أكرام الكتب النفيسة المشتعلة على يابيع العلم، والجامعة لكموز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرفاق ؛

وحجج الذين الذين اصحتهم وعسد وصوح برهانه تسكن المقوس وتسلج الصدور ، ويعود القلب معمورا ، والعتر راسحا ، والأصل مسيحا ، وهذه الكتب هي التي تريد في العقل وتشحده ، وتداويه وتصابحه ، ونهذه وتنفي الحث عنه ، وتعيدك العلم ونصادق بينك وبين الحق ، وتعودك الأحاد بالنقة وتحب الحال وتكسب المال . ووراة الكتب الشريفة والأنوار الربعة منبته للورث وكترعد الوارث ، إلا أنه كبر لا يحب فيه الركاه ولا حق السلطان . وإذا كات الكور حامدة تقصها ما أحد . بها كان ذلك الكبر مائعا يزيده ما أحد . به ، ولا يرال بها المؤرث مدكورا في الحكماء ومثوها باسمه في الأسماء ، وإماما متمنوعا ، وعلمه متصوبا ، ولا يرال الوارث محفوطا ، ومن أحله محوبا مموعا ، ولا ترال تلك المحبة نامية ما كات تلك الفوائد قائمه ولي ترال فوائدها موحوده ما كات الدار دار حاحه ، ولي يرال من يعطيها في الملوك أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر .

وقالوا متى وزنته تحانا وأودعته علما فقد وزنته ما يفيل ولا يستعمل ، وقد وزنته الضيعة التي لا تحتاج الى إثارة ، ولا الى سقى ، ولا الى إسجال ما يعار ، ولا الى شرط ولا تحتاج الى أكار ولا الى أن يثار ، وليس عليها عشر ولا للسلطان عليها حرج ، وسواء أفدته علما أو وزنته آلة علم ، وسواء دفعت اليه الكفاية أو ما يحلج الكفاية ، وأما تحرى الأمور وتتعرف الأعمال على قدر الإمكان ، فمن لم يقدر إلا على دفع السب لم يحب عليه إحصار لمُسبب ، فكت الآاء تحيب للأحياء ، ونحيا لذكر الموتى .

وقالوا ومتى كان الأب حامعا ناعا وكات موارثه كتنا ناعا ، وآدانا حامعه ، كان الولد أحدر أن ترى التعلم خطأ وأحدر أن يسرع التعلم إليه ويرى تركه خطأ ، وأحدر أن بحرى من الأدب على طريق قد أنهج له ، ومنهاج قد وطئ له ، وأحدر أن يسرى اليه عرق من تحله وسقى من عرسه ، وأحدر أن يعمل بدل الطلب للكتب النظر في الكتب ، فلا يأتى عليه من الأيام مقدار الشغل بمجم الكتب ، والاختلاف في سماع العلم ، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وأما تفسيد الكفاية من تمت آدابه ، وتوافت اليه أسبابه ، فأما

الحدّث الغرير، والمنقوص الفقير. فغير موارِيثه الكفاية الى أن يُلْعَ التام، وبكل للطلب. غير ميراث وُورث كُتِّ وعلم، وحير المُوَرِّثين من أُوْرث ما يَجْمَع ولا يُفَرِّق، ويُسَرِّ ولا يُعْمى، ويُعْطى ولا يأخذ، ويحود بالكلّ دون البعض، ويدع لك الكنز الذى ليس للسلطان فيه حق، والرَّكَاز الذى ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمة التى ليس للماسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رعة، وليس للخصم عليك فيه تحة، ولا على الجار فيه مؤونه.

وأما ديمقراط فإنه قال: يدعى أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكلّ كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه، هما الهِمْه والمنفعة، والنسبة والصحة، والصنّف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأولها أن تكون لصاحبه هِمْه، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له يسه يسهل اليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفاته، وأن يكون مؤتلفا من أجزاء خمسة، وأن يكون مُسندا الى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب وهو كتابه الذى يُسمى «أفوري شُموا» تفسيره. كتاب الفصول. وقولك وما لعل من قدر الكلب مع لوم أصله، وحُث طبعه، وسقوط قدره، ومهابة نفسه، ومع قلة حيره وكثرة شره، واحتجاج الأهم كلّها على استسقاطه واستسفالها، ومع صرهم المثل في ذلك كلّها، ومع حاله التى يُعرف بها من العجز عن صولة الساع، وأقذارها، ومن تمنعها وتشرفها وتوحشها، وقلة إسماحتها، وعن مسألة الهائم ومواعتها، والتمكس من إقامة مصلحتها، والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع الساع عن أنفسها، ولا الاحتياط لمعانها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة. ولأن الكلب ليس سبغ تام ولا هيمه تامة حتى كأنه من الخلق المركب، والطائع الملققة، والأحلاط المختلة، كالعامل المتلؤن وأخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مزاحه، وشر الطائع ما تحاذته الأعراق المتصادة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعده، كالراعى من الحمام الذى دهست عه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عه نمر الورشان، وقوة حاحه، وشده عصه، وحسن

صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه وشدة إطرابه، وأحتاله لوقع البادى، ورحج الحالب. وفي الراعى أنه مُسرول مُنقل، وحدث له عظم بدن وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأثمه. وكذلك البغل خرّح من بين حيوائين يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما، وهو لا يعيش له ولد وليس يعقيم، ولا يبقى للعلّة ولد وليس يعاقر، فلو كان البغل عقيما والعلّة عاقرا لكان ذلك أزيد في قوتها وأتم لشدهما، فع البغل من الشقّ والعط ما ليس مع أبيه، ومع العلّة من الشوس وطلب السّفاد ما ليس مع أمها، وذلك كلّ قدح والقوة ونقص في البنية، ونخرج عزموله أعظم من عراميل أعمامه وأحواله، فترك شبههما ونزع الى شئ ليس له في الأرض أصل، ونرح أطول عُمرًا من أويّه وأصرّ على الأثقال من أويّه، أو كابى المدتّرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أحسن نتاجا من البغل وأمسد أعراقا من السّمع^(١)، وأكثر عيوبا من العسار^(٢)، ومن كلّ حلق حلق إذا ترك من ضد، ومن كلّ شجرة مُطعمّة محلاي^(٣)، وليس يعترى مثل ذلك الخلايى^(٤) من الدّجاج، ولا الورداني من الحمام، وكلّ صغف دخل على الخلقه، وكلّ رقة عرّصت للحيوان، فعلى قدر جسسه وعلى وزن مقداره وتمكّنه يطهر العخر والعيب. وزعم الأصمى أنه لم يسبق الحلبة درس أهصم قط. وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلّة أبلق قط ولا تلقاء.

والهداية في الحمام والقوة على بعد العاية إنما هي للصّمت من الحضر. وزعموا أن الشّيات كلّها صغف ونقص، والثّبة كلّ لون دخل على لون. وقال الله حلّ وعزّ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَمِّةٌ لِأُخِيَةِ فِيهَا﴾. وزعم عثمان ابن الحكم أن أبى المدتّره من المؤنث يأخذ أسوأ خصال أبيه وأردأ حصال أمه فتجتمع

(١) السمع بكسر السين وإسكان الميم والمعين المهملة. ولد الدث من الصع وهو سبع مركب فيه شدة الصع وقوتها وحرارة الدث وحمته (راجع حياة الحيوان للذميرى ج ٢ ص ٣٢) - (٢) العسار بكسر العين والمالين الساكنة والألف عسارة. ولد الصع من الدث وحمه عسار (راجع حياة الحيوان للذميرى ج ٢ ص ١٣٩) .
(٣) الخلايى: الولد بين أوير أبص وأسود، والدريك بين دحاحتين هدية ومارسية. (٤) الورداني بالراء المهملة طائر متولد من الورشان والحمام وله عراة لون وطراة قد.

فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي، وأنه اذا خرج كذلك لم تُصح فيه أدب ولا يطمع في علاجه طيب، وأنه رأى في دور تقيف قتي احتمعت فيه هذه الحِصَال، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدثون عنه شيء يصغر في جنبه أكبرُ ذنب كان يسب إليه .

وزعمت أن الكلب في ذلك كالحُشَى الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخِصَى الذي لما قُطِع منه ما صار به الذكر خُلا خرج من حدِّ كمال الذكر يفقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى للفرزة الأصلية وبقية الجوهرية، ورعمت أنه يصير كالبيد الذي يفسده إفراط الحز، ويُحرِّجه من حدِّ الخل، ولا يُدِّله في حدِّ البيد . وقال مُرداس بن حِدام :

سَقِيَا عَقَالًا نَالُوِيَةِ شِرْبَةٍ * هَالَتْ بَلَّتِ الْكَاهِلِيَّ عِقَالِ
فَقَلْتُ أَصْطَحِجُهَا يَا عِقَالُ فَإِنَّمَا * هِيَ الْمَرْ حَيْلًا لَهَا حَيْحَالِ
رَمَيْتُ نَأْمَ الْحَلِّ حَبَّةً فَلَيْسَ * فَلَمْ يَتَعِشْ مِمَّا ثَلَاثَ لِيَالِ

بجعل المجرأَمَ الخل قد يتولد عنها ، وقد يتولد عن الحل اذا كان حمراً مرةً الخمر .

وقال سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ

هَلَا وَأَسَتْ بَمَاءٍ وَحَهْكَ تُسْتَهَى * رُوْدُ الشَّابِ قَلِيلُ شَعْرِ الْعَارِصِ
فَالْآنَ حِينَ بَدَتْ بِحَذِّكَ لِحْيَةً * دَهَسَتْ يَمْلِحُكَ مَلءُ كَفِّ الْقَارِصِ
مِثْلَ السَّلَافَةِ عَادَ نَحْمَرُ عَصِيرَهَا * بَعْدَ اللَّذَادَةِ حَلِّ حُمْرِ حَامِصِ

ويصير أيضا كالشعر الوسط والعاء الوسط ، والبادره الغائرة التي لم تحرج من الحز الى البرد فتصحبك السن ولم تحرج من البرد الى الحز فتصحبك السن .

باب الرسائل

١ - الفصول المستخبة من الرسائل المختارة في كل فن^(١)

كتب رجل الى صديق له .

إن آثاءك شادوا أكارهم ، بالفصائل التي كانت فيهم ، وإبك قد كنت أحدث في مدرّجهم فأوميت على عايتهم ، ثم أختلحك الهوى ببعض حديلتك وحوذك ، من لباس فصلك الذي كنت تطول به على أكفائك ، وتملك به أعة كافة حدك ، وألقيت مالك على شرّ عواقبه عليك لا لك إن رلت مكاره بوادره عك .

فصل - قيل . إن مروءة الرجل في نفسه تستلزم لقوم آخرين ، فإنه إذا فعل الخير عُرف له ، وبقي في الأعقاب والاصحاب ، ولقيته يوم الحساب .

فصل - إن حق الله على المسلمين أن يبطروا في دينهم بالصبيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة إذا صلحوا بذل الهوى بالثقوى في قلوبهم ، ومات سوره العصب فيهم لأحلامهم ، وسكت العامة الى عدلهم ودأت لإصافهم . وإذا كان للحس من الحق ما يقمعه ، وللظالم من الكبر ما يقمعه ، بذل المحس الحق عليه رعة ، وذلل المسيء بالحق عليه رهة . فأقول ما أمرك به رعاء الله وتقواه . فأما رجاؤه فإن تحسن به في الصنيع إذا أطلعتّه ، ويكون لك وقاية إذا آثرته مطعمنا . وأما تقواه فإن تكون له فيما أمرك به ونهاك عنه مُراقباً ، فإن يقية المؤمن يزيد في أنشراح صدره ، وإن شدة خوفه تردّ هواه على عقله .

(١) فلا عن اختيار المعلوم والمشور لاس طيعور .

(٢) الحديلة : الناحية والحالة والطريقة .

فصل - تبه ادا بُهت، وأذكر اذا ذُكرت، وأنتفع فقد وُعظت، وأسمع فقد نُوديت، نَهَكَ الوعيدُ، وحدركَ الراجر، وأمرَكَ ونهَكَ الكتاب، ونَعَتَكَ آثارُ الموب، ودعاكَ الى الجمة مَلَى جواد، فاحلَحَ الحَدَّ، فقبل المهجره يُريح المَدْلَج .

فصل - ما بطرْتُ في معروى عد أحد، فوجدته قُصر عِ أمله وكاب يمكنى أن يكون أكثر منه، إلا عددته سيئته لى عنده، لأنى دَوَّقْتُهُ ما أَحَبُّ، ثم معنهُ إياه، وكأنى قصدتُ لإشخاص قلبه . ولا نظرت في معروى عد أحد فوجدته قد تنهى عد تنهى أمله وكان يمكنى أن يكون أكثر منه، إلا رأيتُ في ذلك واتراً لقصي، لأنه كفى عيباً لها وإزراء بها، أن أقع ^(١) . فصل يتخذه بمثل ما أقع رجلا من فصل يتخذه عليه .

فصل - ما أنتَ من يعلم من جهل به، ولا تُحس منه نادره زلة، ولا يقابل بين أمرين إلا عَرَفَ حيرهما فأثره، وشَرَّهما فاجتنمه . وقد رأيتَ ما ساقَت اليك الطاعة من حظ العاحلة، فلا تتعزَّص لروال ما أنت فيه، فتحسر الحطَّين، وتندم في الدارين، فقد رأيت من عاند الحق كيف صرعه الله وبسط يده وولَّيه على سملك دمه، وإحلال القصة به، فصار بعد أن كان في الأُمِيَّة مثلاً، وجميع الخلق عاية وأملاً، فكَرَّة في الاعتبار، وعِطَّة للأبصار . فلا يُبعد الله إلا من طَلَمَ وحتر، وذهب عن الحق وأدبر . وأنت اليوم مُحَكَّم في أمرِكَ، محيرة في رأيكَ، تُدعى الى حظِّك بالحط الجزيل بتدليل . فاهتبل ما قد هدَفَ لك وهو مُمكن ليدك، فإنك إن أهملت وتراجعت، لم يكن الحق وولَّيه وحشة اليك، ومصنَّ أحكام الله في نصرها وتأبيدها على أَذْلالها ^(٢)، وصِفرت يَدُكَ بما لا يُشرف لك بمثله، وأخطرت بدمك وأسلفته أخبت مَسِيل وأصلَّ سبيل، حيث لا تنكى عليك السماء والأرض .

(١) يياص في الأصل . ولله . أن أقع هنى بعصل أتخذه بمثل ما أقع رجلا الخ .

(٢) على أَذْلالها : على وجوهها وطرقها .

فصل — الناس رحلاب : عالم لا غنى به عن الازدياد، وحاهلٌ به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس في كل حال يكون العالم لما يَنْدُهُ من الأمور مُعِدًّا ، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادرا وفيًا .

فصل — إن أنب عَطَلْتنا من أمورك ، وأعْيَيْت طهورنا من أنفالك ومؤنثك ، وتركنا أَعْمَالا في ولايتك من تبهك وتحريكك ، فقد أنزلنا منزلةً من لا خير عنده، وجعلت نفسك أسوأ من لا مُعِين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصل — إن إعلامي إياك ^(١) غير محدد شيئا ، ولكنه أقرب من الجليل في معرفة عذر المعتذر، وأحمل للأئمة على المسيء المقصر .

فصل — الذي أَعْتَمَدنا عليه من رأك، وثيق به من حميل بطرك، قد حَطَّنى أهل صائتك، والخاصة من ثقاتك، وبَسَطَ أَملى فيك الى عاية حير يُرْتَمَى ، أو جريل حَطَّ يُؤْتَمَل .

فصل — ليس يسوع لأحد في الأمير أَمَل، ولا يتوَحَّه اليه منه رغبة، ولا يلزمه في قضاء حقه، ودانة مؤونته ^(٢) إلّا وفصله مستعرق لها .

فصل — من أحمَد الأمور وأجمل المذاهب، ما كان آخره موصولا بأوله ، ومؤدباً بذؤه الى حمد عاقته ، لحافظ على الأَور التي حَسُن فيها عِد أمير المؤمنين أثرك ، مستقيلاً فيها لكثير ما يكون منك ، مُتَعَدِّا بها في العم عديك، والإحسان الواصل اليك ، فيما يوفقك الله له منها ويحصك به من الفصل في اختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتعته في العمة فيك .

فصل — قد كان يجب أن تجعلنا بتمانة العم علينا في خاصة الشاكرين لفضلك ، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات البيا في عامة الشاكرين لك .

(١) بياص في الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «عاجتي» . والظاهر أن هبة «محدد» محزنة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصل - عَليّ بن أبي الله عليه أحوافُ الأمير أكرمه الله، وجعل عليه رأيه في بسط العدل على رعيته، وتَتَّ الفصل على مُتَمِّسِي فصله، يبعثني على الكتاب في مثل ما كتبْتُ إليه فيه، من طُلامه مظلوم يستعِذُ بها بَعْدَهُ، وَحَاجَةُ ملهوف يرجع فيها إلى فصله؛ فأجمعُ إلى ما أُنِيس من الثواب في ذلك مُوافَقَةً رأى الأمير، وإذ كَارَهُ ما يحب أن يذكَرَ به، فزاد الله الأمير من نِعَمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يُوجب له ثَناءُها عِندَهُ، وترادفَها له.

فصل - أُنَبِّ والحمد لله من أحتمل الصبيحة، وقيل الأدب، وصدّو الخِيلة وَحَلَصَ على المُنَّة وحسَّ الطل، فاستقامت طريقته وقَدَّمه جميل مدهمه وآثاره، وَجَرَتْ على قصد السبيل طاعته، وأشتدَّت على السريرة والعلانية مُناصِحَتُهُ، فأصبح أمير المؤمنين لا يتأهَى في رِكَ وتُكْرِمُكَ، إلَّا رَأَى مُستَحَقًّا لها وَلِمَا فَوْقَها، ولا يَرَفَعُكَ إلى درجته إلَّا رَأَى أَهْلًا لأشْرَفَ منها، صُنْعًا من الله لكَ بما وَفَّقَكَ له من طاعته، ووهب لك من حِمْل مِرَاتِهِ، والمكانِ مِمَّا والأثرُ عِندَهُ.

فصل - فصلُ مشاركتنا إِيَّاكَ في محبِّب الأمور ومُكْرَهها يَحْمِلُها في السرور بالنعمة عِندَكَ - بَعْدَها اللهُ لك - وَبُوحِ الشكر بما يكون لِحَقِّها قاصيا، ولِلرَّيدِ فيها موجبا.

سَعِيد بن حَمِيد - شُعْلُكَ يَقْطَعُما عن مطالنتك الحلق في جوابات كُتِبَها إِلَيْكَ، وَصَدَّقُ مَوَدَّتِكَ يَمَعًا من التقصِّي في المُجَبَّة عَلَيْكَ، وَمِنْ يَكُنُّكَ إلى رَأْيِكَ فَإِنَّهُ لَا يَبْغِي بِكَ إلَّا لَكَ، صَلَاةُ إِخْوَانِكَ والتعاهد لهم من رِكَ، بما يُنشِئُ فصلَكَ والعمَّةَ عَلَيْهِم فَيْكَ.

وفلان بنِي وَيَنْسَهُ مَوَدَّةَ أَقْدَمَها على الأُخُوَّة؛ لَأَنَّكَ تَعَلَّمَ قَرَبَ ما بين المَوَدَّة والقَرابة، وَقَدْ تَلَوْتَهُ على الحَالَات كُلِّها، فلم يَزِدْنِي أَخْتَارُهُ إلَّا أَخْتَارًا لَهُ، ولا أَعْلَمُ بالعِسكر جَلِيلًا إلَّا وَهولِي صَدِيقِي، يَشْكُرُ بِشُكْرِهِ وَيُوجِبُ على نَفْسِهِ المِيتَةَ مِمَّا آتَى إِلَيْهِ. فَأَمَّا مَنْ بَيْنَ إِخْوَانِهِ فَلَسْتُ أَعْدِلُ عن قِضَاءِ حَقِّهِ، ولا أَتَأَخَّرُ عن معروف أُسْدِي إِلَيْهِ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ

تُحِلُّهَ الْمَحَلَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ سَفْسُهُ وَسَلَفُهُ ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ سُوقَ الْإِحْرَارِ أَنْفَقَ مِنْهَا عِنْدَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، أَبْقَى اللَّهُ تَارَكَ وَتَعَالَى مَا بَيْنَكُمْ وَرَحِمَ مَا بَيْنَكُمْ .

فصل — إِنَّ أَحَدًا لَيْسَ بِمُسْتَحْلِلٍ شَيْئًا مِنْ عَضَائِهِ عِيشَ إِلَّا مِنْ بَيْنِ حِلَالِ مَكَارِهِ ، مَنْ أَنْتَظَرَ بِعَاحِلِ الدَّرَكِ أَحَلَ الْأَسْتِقْصَاءَ سَلَتَهُ الْأَيَّامُ فُرْصَتَهُ ، لِأَنَّ مِنْ صِبَاعَتِهَا السَّلْبَ ، وَمِنْ شَرْطِ الرِّمَانِ الْإِفَاتَةَ .

فصل — إِنَّ الْأَمِيرَ قَدْ حَلَّ فَصْلُهُ عَنْ أَنْ تُحِيطَ بِهِ وَصْفٌ ، أَوْ يَأْتِيَ عَلَى تَعْدَادِهِ احْتِمَادٌ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنَ الشُّكْرِ لَكَانَ الْأَمِيرُ يُسْتَحَقُّهُ عَلِيًّا ، وَيَسْتَوْجِبُهُ مِنَّا .

فصل — قَدْ أَصْبَحَ الْمُحْتَمَلُونَ مُحْتَمِينَ عَلَى تَقْرِيطِهِ وَمُدْحِهِ ، حَتَّى إِنْ الْعَدُوَّ يَقُولُ أَصْطَرَارًا مَا يَقُولُهُ الْوَلِيُّ أَحْتِيَارًا ، وَالْعَيْدُ يَنْتَقِ مِنْ إِعَامِهِ عَلِيًّا بِمَا يَنْتَقِ بِهِ الْقَرِيبُ حَاقِبًا .

فصل — الْمَائِلُونَ إِلَيْهِ مِنْ بَعْمٍ مُكْتَنِفَةٍ مِنْ تَالِدٍ بِهِ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَطَارِفٍ مِنْهُ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَمَوَاهِبَ مُتَحَدِّدَةٍ ، وَفَوَائِدَ مُتَرَادِفَةٍ ، هِيَ بِمَسْوَطَةٍ بِهِ إِلَى بَرَكَةِ آيَامِهِ ، وَعُلُوِّ حِظِّ^(١) مَنْ أَتَصَلَ بِهِ ، فَزَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَصْلِهِ ، وَزَادَ أَوْلِيَاءَهُ بِهِ وَبِرَكَّةٍ دَوْلَتِهِ .

فصل — اعْتَمَدْتُ أَحْمًا لَا يَدُمُ إِحَاؤُهُ ، وَلَا تُشْكُرُ أَحْوَالُهُ ، عَلَى بَعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا ، وَأَتَصَالَ الْمَكَاتِبَةَ وَأَتَقْطَاعَهَا ، بِحِدَةٍ مُتَصَرِّفًا مَعَكَ فِي الْحَطُوبِ الَّتِي يَطْرُقُ بِهَا الزَّمَانُ ، وَبِدَا لَكَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يُتَمَتَّحُ فِيهَا الْإِحْوَانُ .

فصل — أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَا تَطُولُ بِهِ فِيهِ مِنَ الْحَلَالَةِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعِيُونِ عِنْدَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ مَوْصُولًا بِالْإِنْسَاءِ فِي مُدَّتِهِ ، وَالْإِدَامَةِ لِعَزْهِ وَسَلَامَتِهِ ، وَالْأَعْلَاءَ لِيَدِهِ وَكَلِمَتِهِ .

أحمد بن يوسف — عدى فلان وفلان ، فإن كُتِّمَ مِنْ شَأْنِكَ فَقَدْ آذَنَّاكَ .

فِي صِفَةِ حَرْبٍ — كَانَتْ لَكُمْ الْكَرَّةُ ، وَعَلَيْهِمُ الدَّرَّةُ ، فَعَمَلُوا حِمْلَةً كَاذِبَةً ، أَتْبَعْنَاهَا بِأُخْرَى صَادِقَةً .

(١) فِي الْأَصْلِ : « حِلَّة » وَالسِّيَاقُ يَقْتَضِي مَا أَتْبَعْنَاهُ .

فصل فى هَدِيَّة — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيونِ مقالى، دفترًا ظريف المعانى، شريفَ المانى، صحيحَ الألفاظ، يَلْدُ أَمْوَاهُ الباطنين، وَيَلِينُ على أَسْمَاعِ الصَّامَتِينَ .

فصل فى شَفَاعَةِ — لفلان قَبْلَكَ حاحه، ليس يحتاج فيها الى مَعْدِلَتِكَ وَنَصْفَتِكَ المبسوطتين لمن لا يتوسَّل بِمُحَلِّطَتِكَ ومعرفتك، ولكنه يريد ما فى ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المَذْخُورِينَ لِلْخَاصَّةِ والإخوان .

فصل لرجل تَمِجِيٍّ — صَعَفْتُ حالى مدعونى الى كثرة الطلب، ومَعْرِقَتى بِجَهْلِ رأيك تَحْجُزُنِى عَنِ الإِلْحَاحِ عَلَيْكَ، حَوْقًا أَنْ أَكُونَ حَاحِلًا بِعَاقِبَتِكَ، وَحَسَنَ بَطْرِكَ، وَالكَرَمِ يَسْتَحِى بِعَصْبِهِ لِعَصٍّ، وَيَعْتُ بِعَصْبِهِ بِعَصَا، وَدِيرَ حِلَّتِهِ الْفَيْرَ عَلَى الْعُقُودِ، فَعِنْتُهُ كَرَمُهُ لِلنُّهْوسِ، أَوْ دَعَاهُ هَوَاهُ إِلَى الْمَنَعِ، بِخَاءِ عَقْلِهِ عَلَى الْبَدَلِ، وَحَالِي حَانِخُهُ لَدَى مُضْلِكَ وَبَعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ مِنْ سَدِّ خَلَّتَيْهَا، وَمَدَاوَاهِ عِلَّتَيْهَا بِجَاهِكَ الْوَاسِعِ، وَرِفْدِكَ الْبَاقِعِ .

أحمد بن يوسف — قَدْ بَدَلْتُ لِسَا مِنْ نَفْسِكَ أَعَزَّ مَبْدُولِ وَأَنْفَسَهُ، وَالْمُودَّةَ الَّتِي كَلَّمَا يُجَدُّ مِنْ صَاحِبِهَا، فَهُوَ لَهَا بَاقِعٌ . وَثَقُّنَا بِكَ وَاسْتَنَامُنَا إِلَى نَاحِيَتِكَ، عَلَى أَحْسَنِ مَا أَكَّدَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ . وَإِنْ كَانَ مَدَى اللَّقَاءِ بَيْنَنَا لَمْ يَطْلُ فَاثْنَلْ مِنْهُ مَا رَعَاهُ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْخَالَصَةِ، وَيَقْصُرْ فِي الْحَافِظَةِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَكْثَرِ مَنْهُ، مِنْ دُحِلَتْ نِيَّتُهُ، وَصَعِفَتْ خُلَّتُهُ .

فصل — قَدْ أَصْحَحْتَ لِلْخَاصَّةِ عُدَّةَهُ، وَلِلْعَامَّةِ عِصْمَتَهُ، وَلِلْأَمَامَةِ ثِقَةً فِي مَاصِحَتِكَ .

فصل فى الصَّفْحِ لِأَبِي عَلَى — إِبْتُ الدِّى قَرَطَ مِنْكَ، وَإِنْ نَجَاوَزَ مَنِ مَا أَرْصَاهُ لَكَ، لَمْ يَبْلُغْ مَا يُغْصِبُنِي عَلَيْكَ، وَحَيْثُ انْتَهَى مَا يَحَالِفُنِي مِنْ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ، فَإِنْ وَرَاءَهُ تَغْمُذًا مَنِ لِإِسَاءَتِكَ وَصَفْحًا عَنِ رَلَّتِكَ، فَإِنْ تَأَمَّنَا لَا تُحْكُكَ، وَإِنْ يَسُوْ طُكُّكَ فَإِنَّمَا نَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحِهِ مِنْكَ .

أحمد بن يوسف — إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَهَدِيَّةَ اسْتَقْلَاهَا :

بَلَعْنِي اسْتِقْلَالُكَ لِمَا أَلْطَفْتُكَ، وَالَّذِي نَحْسُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنْسِ سَهْلٌ عَلَيْهَا قَلَّةٌ الْحَشْدُ لَكَ فِي الْبَرِّ، فَاهْدِنَا هَدِيَّةً مَنْ لَا يَحْتَشِمُ إِلَى مَنْ لَا يَفْتَنُ .

كتب عَقَّال بن شَبَّة — الى خالد بن عبد الله في شفاعته :

إِنَّ اللَّهَ انْجَبِكَ مِنْ حَوْهَرِهِ كَرَمٍ وَمَيِّتٍ شَرَفٍ، وَقَسَمَ لَكَ خَطَرًا شَهْرَتُهُ الْعَرَبَ وَتَحَدَّثَتْ بِهِ الْحَاضِرَةُ وَالْبَادِيَةُ، وَأَعَادَ حَطَرَكَ نُقْدَرَةَ مَبْسُوطَةٍ، وَمَرَّلَهُ مَلْحُوطَةٍ، بِفَمِجِجِ أَكْثَائِكَ مِنْ جَاهِلِيَةِ الْعَرَبِ، يَعْرِفُ فَصْلَكَ، وَسِرَّهُ مَا حَارَّ اللَّهُ لَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَدَالَهُ الرِّمَانُ وَلَا سَاعِدُهُ الْحَطَّ، وَأَبْ أَحَقُّ مِنْ نَعَظْفٍ عَلَى أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ، وَعَادَ لَهُمْ بِمَا يُبْقَى لَهُ ذِكْرُهُ وَيُحْسِنُ بِهِ شِرَّهُ، مِثْلُكَ . وَقَدْ وَحَّهْتُ إِلَيْكَ فَلَانًا، وَهُوَ مِنْ دِينِهِ قَرَأَى، وَذَوَى الْهَيْئَةِ مِنْ أَسْرَقِي، وَعَرَفَ مَعْرُوفَكَ، وَأَحْدَثُ أَنْ تُلْبَسَ بِعَمَلِكَ وَتَصْرِفَهُ إِلَيَّ وَقَدْ أَوْدَعْتَنِي وَإِيَّاهُ مَا تَحْدَهُ نَاقِيًا عَلَى النَّشْرِ، جَمِيلًا فِي الْعَيْتِ .

فصل في التوديع

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ الْأَمِيرَ أَحْسَنَ وَدَاعِهِ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَ لِي كَفَّةً وَيُجْزِيَهُ، فَقَدْ أَكْرَمَ الْمَثْوَى، وَأَحْسَنَ الْإِبْتِغَاءَ، فَأُطَالُ اللَّهَ لَهُ الْبَقَاءَ، وَأُدَامُ عَلَيْهِ النِّعْمَاءَ .

في الصّفح

لَعَلِّي كُنْتُكَ، تَذَكَّرْتُكَ الْيَسِيرَ بَعْضِي عَمَكَ مُوَحِّدَتِي، وَرَدَّيْتُ لَكَ إِلَى أَحْسَنَ مَا عَاهَدْتَنِي مِنْ مِرَائِكَ عِدْدِي. وَقَدْ حَلَّابَ مَا الْحَلَّ الَّذِي حَلَطْتُكَ فِيهِ نَافَسًا، وَأَدْخَلْتُكَ مِنْهُ مَدَاحِلَ أَهْلِ نِقَتِنَا، وَلَسْتُ تُؤْتِي مِنْ حِهَالَةٍ بِمَا أَنْتَ فِيهِ، وَلَبِضَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ التَّحَارِبِ تُسْتَعَادُ بِمِثْلِهَا الْعَبَرِ، وَيُتَمَتَّعُ بِهَا فِي عَطْفِ الْأُمُورِ .

جواب في فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قَتَلَ رَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ :
قَدْ لَبِغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كُنَّا بِنَا أَلَى اللَّهِ فِي مِذْرَةِ السُّوءِ، وَأَنَّهُ لَمَّا عَصَمَهُمُ الْحَرْبُ، وَالْمَهْمُ الْحَدِيدُ، عَادُوا بِالْمَسْحَدِ الْجَامِعِ، قَدْ أَكْذَبَ اللَّهُ طُونَهُمْ، وَخَذَلَ مَخْرَجَهُمْ، وَقَتَلَ إِمَامَ صَلَاتِهِمْ، وَحَفِظَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا صَبَّحُوا مِنْ حَقِّهِ، وَحَاطَ لَهُ مَا أَبَاحُوا مِنَ الْفُتْرِ فِيهِ، وَقَدْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعْمِهِ، الصَّفْحَ عَنْهُمْ، وَتَغْمِدَ حَرَمَهُمْ

وأن يعمهم من عدله، بما يردّ به الجاهل عن جهله، والعمى عن غوايته، ويعلمون مكانه من الله، واستجابته لعزه وبصره؛ وأنه الخليفة المتّق، والإمام المتألف؛ وأنه يُقدّم العمو في الطاعة، على المُحبة في العقوبة، والحسنة في الاستصلاح، على القوة في التأيد، فأمسك عنهم بيدك، فإن أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّ الله، ورحا به ما ليس صائعا عنده من ثوابه .

في الصفح عن الخفاء

لو كان من نازع الى العدر، قلّدها عان المحر، لم يكن أقرب ما الى الدن، ونحن نردّ عليك من نفسك، ونأخذ لنفسك منك، حتى يكون تركا إياك، وعدنا فيه وافرًا .

فصل — الحمد لله على البلية التي طال أمدّها، وبعد ما بين طرفيها .

آخر — أقفرت في التثبت أنه ذوى المحي، وقدمت المقدم من الأمان على العجلة، وأطعت في أمرك العظرة، وانتهيت الى العُدرة والمعرفة، فملك ما ملكك، وحكمت على الذي حكم عليك، فأخذت مثل الذي أعطيت .

فصل — بدء أساب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والحيه بعد الله عز وجل .

فصل اعتذار

لو كان الناس يقصون الحقوق التي تحب عليهم، ويحافظون على الأمور التي تلمهم، لقلت اللئمة، وحلصت المودة، وارتفعت أسباب العتاب، ولكنهم عذرة متوصون، يصعفون عن العلم، وأكثر ما تدركه عقولهم، ويعوقهم عن ذلك أشغال لا يحب بها العدر، ولا تستحق الإيثار، ولم أرل عابا على نفسي فيما صبت من مكاتنتك، مع معرفتي بفضلك، وموقع ذلك عندك، وما اعتدري اليك، سوء طن بك، ولا محافة للامتك، ولئن فعلت ما طلمت، غير أني أحببت أن أكميك المؤونة، فيما عسيت أن نقص عنه من مقايستى ومعاتنى، وأنا أحب أن تقل العدر، وتعين على مستقبل البر .

فصل — أنت في زمان إن لم تعالط أهله ، وتحتلهم على ما في أيديهم ، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل إلى شيء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرفه فيك ، ولم يفتسه من محاسنك شيء ، إلا رأى في مساوئ عيرك عوصا منه ؛ فكان بذلك أتلج ، وإلى أسكن ، عليك بالصبر ، فإن غايته إلى حر ، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، وأما يطفر أو يدل .

إلى المأمون من عامل

قل من يسارع إلى بدل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مُصرا به ، وقل من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسبب مكتسبه ، وإذا تفرق الحق في أيدي جماعة فطولت به ، تشابهت في الكثرة لدله ، وتعاونت على دفعه ومنعه ، بالحيل والنشئة قولاً وفعلًا ، واحتاج المتلى لاستحراج ذلك الحق من أيديها ، إلى استعمال محاهدتها ومصابتها على الحيلة في مدافعتها .

ابن الكلبي

كان حبر ما أملاك الله في فلان بعد أمانه ما عزمته عليه من الأمان ، خرا عظم مكانه من أمير المؤمنين ، وحسن موقعه من الدين ، ثم ردف حبرك بإدعائه عهد ما عصه من بأسك ، ومنه من مؤلم إيقاعك للاستسلام ، وطلب عهد الأمان ، وإنك بدلت له ما طلب لا لرهبة بقيت في ناحيتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان إناؤه ما عرست عليه في أول أمره دحيه حفظ فيما كشفت عنه البلوى من محمود أثرك ، واجتمع لك في ذلك حطان : الطفر آحرا ، والدرك لما حاولته أولا ، فلا زلت على نصيبك من الحفظ ، مؤيدا بالصبر والمعونة ، والحمد لله على ما حقق من الظن ^(١) . من هذه البعثة على يدك وسعيك .

(١) ياصر في الأصل . ولعل الكلمة المتروجة «وآق» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الى كتابك بخط يدك المباركة، فلم أرق قليلا أجمع، ولا إيجازا أكتب من إطباق، ولا اختصارا أبلغ في معرفة وفهم مسه؛ وما رأيت كتابا على وحاته، أحاط بما أحاط، وصربت طنى في فلان فعظم ذلك سرورى، وقد يستعطف الظالم، ويستعنت المجنى؛ وفي رقك وعلمك بالأمور ما يصلح الفاسد، ويدل الصعب، ويقل المديبر، ولا يملك حور من حار عليك، من الاعتقاد في المحنة عليه، والأحد بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك سقصة ولا عصا، بل فيه الإمداد والإنذار والاستنصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل - أنا في حال عافية، نتجاوز الى حال نعمه، والحمد لله حتى يرصى، فقد أرى، فاما ما أشرت به، وحترت من إمضاء رأيك فيه، والإمساك عنه، فمثلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه قرصا لبعضه أن يتعدى، وذكر أدب فلاية، وعددا لعلامة الطمع المستقل مع الإتمام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عددا قل ولا حل، ولو كان ما استحلها حبسه صفقة كف، ولا تقيص طرف؛ وذكر أنه لا يستعنى مثلنا عن مثلها، وأبدال الله كثيره عديدة، وما مان عليها فقد أحد ممن كان قبلها في دارنا، حال بيما وبينه حائل، ولا احتلنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله حراك، وحاط لي فيك ما أحت منك، وكفاك المهم وكفانيه لك، وما تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي ورتي، والاهتمام لي، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعديك الله ولا الصبيحة منك.

فصل - قال أبو جعفر الزكمانى للحسن بن سهل ووعده شيئا فاطما عليه .
أما أعرف بتكامل الثقة فيك، وراحة الفصل لك، وأعلم أن فلك يربى على قولك، وأن إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره إلى أن يلحقه المتأخر

عه، وإلا فدلّنى على ما أقول ادا سأتى من بعثته على شكرك، عما ملّعه من الخط على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما يأتى، فقال : فاصل ما يتبعى آفته .

عمرو بن مسعدة

وصل الى كتابك ، على طمأنى اليه، وتطلع شديد ، وبعد عهد بعيد ، ولوم منى على ما مستنى به ، من حفاثك ، على كثرة ما ناعت من الكتب ، وعدمت من الجواب ، فكان أول ما سقى الى من كتابك السرور بالنظر اليه أنسا مما تحددلى من رأيتك ، فى المواصلات بالمكاتب ، ثم تصاعف المسرة ، بجبر السلامة ، وعلم الحال فى الهيئه ، ورأيتك بما تطاهرت من الاحتجاج ، فى ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخلص مما أنا مُحلّصك منه ، بالإعصاء عن إرامك المحمّه ، فى ترك الابتداء والإحابة . ودكرت شعلك بوجوه من الأشغال كثيره متطاهره ممكنه ، لا أحثمك متاعه الكتب ، ولا أحمل عليك المسأله الجواب ، ويُقضى مسك فى كل شهر كتاب ، ول [نلرم^(١)] من مسك فى البر قليلا ، إلا أُرمت نفسى عه كثيرا ، وإن كست لا أستكثر شيئا مسك ، أدام الله مودتك وثقت إعاءك ، وأستراح لى مسك ، فرأيتك فى متاعه الكتب ومعادنى فيها بحرك موقفا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكد الله من حُرْمى لك ، ووصل من الشّع بلى وبيدك ماحله ذخيره ليوم الحاحه ، وعُدّة عد ملّم النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن من صحب الدنيا لم يخل من تصرف أحوالها . وكثر مَعَارِيس بقاءها ، فى احترام الأنفس فى خواصها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يهتدّها ، ويمر من الأشياء عليها ، وكان ذلك لا سبيل الى دفعه . ولا حيله يُستعان بها عند روله ، إلا الرضا عن الله عزّ وجلّ فيما قضى ، والتسليم لأمره فى كلّ ما أتى ، والسكون الى الأسوه الى نهج الله سبيلها ، وخفف

(١) السياق يقتضيه وضع هذه الكلمة ، وهى متروكة فى الأصل .

بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرعاء بعد ذلك لحُسْن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لَزِم أمره وأَجْتَمَعَ نَفْسَهُ مَكْرُوهُهَا في مواسل الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية .

وله في المطر

قد كُتِبَتْ كُتِبَتْ إلى أمير المؤمنين أَعْلَاهُ الْمَطَرَةُ التي أصابتنا، وما أُنْزِلَ اللهُ بها من رحمته ثم عادتْ لنا بعدها من الله عائدُهُ رَحِمِهِ، بَوَلَى مَطَرٌ أَنْزَلَهُ اللهُ نَاحِسٌ مَا رَأَيْنَا مِنَ الْمَطَرِ وَأَبْلَا جَوْدًا، لَا يَفْتَرُ عَزِيزُهُ وَلَا يَرْعَوِي حَوْدُهُ، إِلَّا إِلَى دِيْمَةٍ عَنِ دِيْمَةٍ، يَتَرَاخَى إِلَيْهَا يَسِيرًا رَيْثًا تَعُودُ، فَأَقَامَتْ عَلَيْنَا سَمَائِهِ مُسْتَمْلَةً بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ إِلَى عُرُوبِ الشَّمْسِ؛ ثُمَّ انْقَطَعَ مَطَرُهَا بِسَكُونٍ مِنَ الرِّيحِ، وَتَوَتَّرَ مِنَ الْقَرَارِ، وَفَصَلَ مِنَ اللَّهِ عَظِيمٍ، يَنْشُرُ بِهِ رَحْمَتَهُ، وَيَسْطُرُ بِهِ رِزْقَهُ، فَاسْعَ الْعَمَمَةُ، وَأَوْسَعَ الْبَرَكَةُ، وَأَوْتَقَ بِحَمْدِ اللَّهِ مَعَارِفَ الْخُصْبِ وَالْحَيِّ . وَاللَّهُ مُجُودٌ عَلَى آلَائِهِ وَمَشْكُورٌ عَلَى نَلَائِهِ، وَمَا أُنْزِلَ اللهُ مِنْ سُقْيَاهُ وَرَحْمَتِهِ، بَعْدَ الَّذِي أَقْلَبْتُ بِهِ السَّيِّئَةَ الْبَرِيَّةَ وَالْفَقْهَ وَعَدَمَ الْإِمْطَارِ، وَشَدَّةَ مَا بَلَغَ النَّاسُ مِنَ الْقُمُوطِ وَسُوءِ الظُّلُومِ .

وله إلى بعض إخوانه

أما بعد، فإنَّ أعظمَ الأمور فيما بين الناس حقًا أمران . منهما الإحياء في الدين، فهو سبب وصية الله بين عباده بالأُلُفَةِ والمَحَبَّةِ التي أَهْطَعَتْ بِهَا قَرَارُ الْقُلُوبِ مِنْ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، فَأَتَصَلَّتْ مَحَاسِنُهُمْ مَرَائِرُ حُلُمِهَا، وَتَقَطَّعَتْ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَاطِفَاتُ وَصْلِهَا، وَهَنِمَا بِمَجَامِلَةِ جَمِيلِ الْأَعْدَاءِ، وَحَفِظُ مَا يَحِقُّ لِأَهْلِ حَسَنِ الْبَلَاءِ؛ ثُمَّ الصَّبَاحُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَوَاقِعِهَا فُضَائِلُ بَقْدَرٍ مَا جَرَتْ بِهِ أَسْبَابُهَا وَلَطْفُ مَدَاحِلِهَا .

فصل — الصبابة ليست يزيدها الأخلاق الجميلة، ويريد في أسبابها أواصر المودة، وقد جعلك الله في صابعتك مُقَدِّمًا، وفي مودتك مُتَفَضِّلًا، فلا زالت عليك نعم الله، ولا رِحَتْ سَكَا لِإِخْوَانِكَ، وَأُنْسًا وَمَوْصِعًا لِمَا تَسْتَمِيحُونَ مِنْ مَعْرِفِكَ، وَيَسْتَمْتَبِرُونَ مِنْ يَدْبَرِكَ .

فصل - إنَّ لك من قلبي لموصعا معمورا بالموَدَّة والثَّقة ، والاسترسال والأُنْسَة ، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل رُكِّ ، الى عُنْفَى استحقاقه .

آخر

قد طالَّت الصَّباة اليك ، وللدهر عُنْفَى عائِدة بالمع والصبح ، ولا سِمْيًا لمن كان على مثل شاكلتك في أدبك وفضلك وإِصْرافك إِحوانَكَ وِبرِّكَ بهم ، وما توجبه على نفسك لهم ممَّا يُقْصِرُونَ عن شَأْوِكَ بِهِ .

الكلبي

كان أسلافنا تمارصوا ذُيُوبا من الصِّماء يَسْتَأْذِنُهَا كُلَّ عَقَبٍ من صاحبه ، وقد أورثونا مَوَدَّةً لا يَعْجِزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أُعَيْنَ كاتب الخِزْران

ليس يكون ملك شيء ، وإن حُسُّ ، إلا وحُسُّ طُنِي لك يَبْلَعُهُ ، فاستمَّ أَحْسَنَ ما كان ملك ، تَمَّ لك أَحْسَنُ ما تُبِغِ مَنِي . ولا تَمْنَعُكَ الاكْتِفَاءُ بِمَالِكَ اليَوْمَ من طلب الريادة فعد ، فأبه لَقَلَّ شيءٌ لا يريد إلَّا قَصْصَ ، والرومان يَحْقُّ الكثير ، كما ربو على الريادة القليل .

ابن الكلبي

أنت من أطول ممكاه وأثقي بحميل رأيه ، وأعتمد على رِفْده ، وأرحو ذُرْكَ كُلِّ فصيله به ، وممَّا أَحَبَّ عِلْمَهُ مَقَرَّ نِعَمِ الله عر وحل لديك .

على بن عبيدة الى ابن الكلبي

وصل الله أَمَّامَ غُمَرَى ماتناع موافقتك ؛ ولولا موعد أحد علي ، لأطعنك فيما أمرت به ، مُتَّعًا مع إِحابتك سرور هَمِي بِرؤيتك في السلامه .

أما بعد ، فإنني أَصْبَحْتُ وقد استعرع الأميرُ مَنِي كُلِّ مَوَدَّةٍ وبصِيحِهِ ، ومبلغ جهد وطاقِهِ فيما عَرَفْتُ لَهُ بِهِ موافقَةً .

فصل — فإن الذى شَعَبَ الله بنينا من التواصل والتكاثر، مدعونى الى متاعه الكتب اليك فى تعهد حقك ، وإن كان الحرعى طاهر الحال قلما يُغْنَى، فإن له من الأُنس والموقع فى الكتب ما ليس لمُسْتَعْرِضَات الأَخَار .

فصل — قد كُنْتُ أَعْلَمْتُ الأَمْرَ انقطاع سى هلاب الى فلان ، بأهوائهم وبصائرهم وشراء ما قِيلَ به، وما كان وصل الينا فى ذلك من الأَور التي حملوا إَصْرَها، وَبَقِيَ لَهَا أَجْرُهَا ودكرها ووافاتها وساقطها، محس عدد الأَمْر وحماياه وذخائره، ومَسْ يَأْمَل يومه وعده، ولا مُتَحَطِّى له عه ولا مقتصر دونه .

عُمارة

لغنى كُلِّكَ يصف كذا . فإن رَأَيْتَ أَلَّا تَعْتَمِدَ عَلَى ما اصْبَحْتَ [به] من عَدْرِكَ، وَأَطَعْتَ فِيهِ الهوى من قبول عموك، وتجعلنى أَحَدَ مَنْ بُسِرَ بِسُرُورِكَ، وتُسْرِكُهُ فى مُهِمَّاتِ أُمُورِكَ، فإِنى أَحَدُهُمْ وَأَوْسَطُهُمْ عِناية بِمَا عَمَّاكَ وتوسَّطَ لِمَا عَمَّاكَ، فَعَلْتَ .

فصل — والدنو من دارك إِد الدار جامعهُ والحبل مُتَّصِلٌ . إِدْنَحْ فى الاستِمْهَاء بالخبر والعلم بِدَحْلَةِ الحال، بمِرلة من كَأَنَّهُ يُعَانى مَنْ يَشْتاقُ إِلَيْهِ وَيُصْبِوهُ فى كُلِّ يَوْمٍ، حَتَّى نَأْتِ النوى، وَأَتَى فى اللقَاء والإِنْظَارِ فى كُلِّ أَمْرٍ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ مَنْ لَا يُسْنَكُ فى صِمْهَاءِ عِيهِ، وَصَدُو إِحَانِهِ .

فصل — مُشَارَكْتَنَا لِمَاكَ فى مَحُوبِ الأُمُورِ وَمَكْرُوهِيهَا يَحْتَلَا مَحَلَّكَ فى السُرُورِ بِالنِّعْمَةِ يَحْدِّدُهَا اللهُ لَكَ ، وَيُوجِبُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْنَا مِثْلَ الَّذِى يُوجِبُ عَلَيْكَ . فَوَصَّلَ اللهُ كُلَّ نِعْمَةٍ بَيْنَهُمَا لَكَ مِنَ الشُّكْرِ بِمَا يَكُونُ لِحَقِّهَا قَاضِيَا، وَلِلزَّيْدِ فِيهَا مَوْجِبًا .

سعيد بن عبد الملك

كُتِبَتْ عَلَى شُغْلٍ فى قِطْعٍ مِنَ القِرْطَاسِ، وَلَمْ يَقْطَعْ بِنِ حَسُّ الظَّنِّ بِكَ فى قَبُولِكَ العَدْرِ، وَتَحْسِينِكَ مَا أَنْتَ أَهْلٌ لِتَحْسِينِهِ، فَإِنَّكَ تَقْبَلُ دُونَ حَقِّكَ، وَتَهَبُ الدَّنْبَ فِيهِ، فَيَكُونُ شُكْرُكَ

(١) فى الأَصْل : « ... وسراء ماقله ... » . (٢) فى الأَصْل « عليها . . » وهوا يؤدى العرس المراد .

حاريا على سبيلين، كلاهما يُبَيِّنُ لَكَ عِزَّكَ ، ويوحى لك مالا يَقْصُرُ معه إِلَّا مَنُوبُ
الْحِظْ خَسِيسُ الْمَصِيبِ .

فصل — وقد طهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته، ما هو أعدلُ شاهدٍ على
حسن مُقَلِّهِ ، ورَدَّ اليك من رأبه وتفَقَّده ما أرحو أن يكون فيه أعظمُ العَوَضِ . والله
أَسْأَلُ أن يتَوَلَّى لك أموركَ في السَّراءِ والصَّراءِ، والشَّدَّةِ والرخاءِ، والشُّكْرِ وحسن العِراءِ .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تَمَّ اللهُ علينا وعليك النعم ، وأَجْرَلْ لَنَا وَلَكَ محاسنَ صَالِحِ الْقِسَمِ . إن الله تارك وتعالى
أخرى بيدينا وبيدك لطيفٌ مَوَدَّةً ، وَحَاصُّ أَوْحَاةٍ ، عَيَّرَ أَنْ المَعْرِفَةَ قد تُجْمَدُ بعد الخِبرِ ،
وَالثَّقَّةَ إِنَّمَا تعرف بعد التَّجَرُّبَةِ ، وقد أَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمَ مَنْ قَلَّكَ الدِّيُّ أَحَدُتِ اللهُ لَكَ مِنْ
حَالِ دَوْلَتِكَ ، وَأَنْ يُعْلَمَ هَلْ أَبْقَيْتَ لَنَا مِنْكَ الدَّعْمَةَ سَعَةً ، أَمْ تَرَكْتَ لَنَا مِنْكَ صَفْحَةً يَعْرِفُ
بِهَا عَهْدَكَ وَنَامُلُ بِهَا وَصْلَكَ . فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّلْطَانِ ، بِحَالِ مَلَوَى فِي التَّعْيِيرِ وَالِاتِّقَالِ ،
إِلَّا مِنْ مَالِهِمْ . اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَصَمَهُ . فَإِنْ كُنْتَ عَلَى مَا رَحُونَا مِنَ الْوَفَاءِ ، وَحَسْبِ
الْحِفْظِ لِلوَدَّةِ وَالْإِحَاءِ ، فَهَذَا لَمْ يَرْضَ لِنَفْسِهِ إِلَّا بِأَجَلِ الْأَحْلَاقِ وَأَوْفَقِيهَا لِلْسَّدَادِ . وَإِنْ
حُجِرَكَ عَنْ ذَلِكَ مَا تَأْتِي بِهِ الْأَفْدَارُ فِي مُتَصَرِّفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، نَعْدُوكَ بِمَا نَعْدُوكَ بِهِ أَهْلُ
السُّلْطَانِ ، إِذَا عَيَّرْتَهُمُ الْحَالُ ، وَتَكُنْتَ شِمَائِلُهُمْ بَيْنَ الْإِحْوَانِ .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

إِعْلَمْ أَيُّ اليك مشق ، وَأَنْ صَلَّةَ الْإِحْوَانِ كَرَّمَ ، وَحَيْرَ الصَّلَاتِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا وَجْهٌ
إِلَّا الرِّهَاءُ وَالْحِفْظُ وَتَجْدِيدُ الْمَوَدَّةِ وَتَصْحِيحُ الْإِحَاءِ ، فَإِنَّ الَّذِي يَكْتُبُ إِخْوَانَهُ عَلَى حَالِ
الرَّغْبَةِ يَكْفِي الْقَائِلَ كِتَابَهُ حَيْثُ شَاءَ ، إِنْ أَحَبَّ مَالٌ بِهِ إِلَى الصَّحَّةِ ، وَإِنْ شَاءَ وَصَعَهُ
لِلرَّغْبَةِ ، وَالرَّغْبَةُ أَمْلَكُهُمَا بِهِ . وَالَّذِي يَكْتُبُ إِخْوَانَهُ عَلَى حَالِ الصَّرُورَةِ ، فَقَدْ يَسْتَقْطِعُ الصَّلَّةَ
(١) (٢) (٣)

(١) في الأصل : وأحرلنا ... » .

(٢) في الأصل : « ما قُتِلَكَ » .

(٣) في الأصل : « وأملكها ... » .

عند الحَدَثِ مَحَافَةَ المَلَامَةِ من الناس على القطيعة السَّعَاءِ المشهورة لإخوانه ، فإن الذى لا مَوَدَّةَ له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكِتَابُ على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إِلَّا صِحَّةَ الإِحَاءِ والشُّوقِ الى المَحَادَثَةِ بالكِتابِ ، حين لا يلومك اللائمُونَ لمزلة البلاء تلك اللائِمَةُ على التَّقْصِيرِ ، ولا يُوصَعُ منك الرِّعْصَةُ وِ الإِطَاعِ . إِيَّاكَ أَنْ يَعْتَلَّ بِالأَشْغَالِ أَنْ كُنْتَ فى حَاصَةِ نَفْسِكَ ، فإن أدَاءَ الحقِّ وَصِلَةَ الإِخْوَانِ أعظمُ الخاصَّةِ لك حَاصِهِ . وأما أَمْرًا فى كُلِّ هَذَا كَأَمْرِكَ فى الدِّينِ نَسْتَعِى مِنْ حَاصَتِكَ تِلْكَ التِّى لَنَا ، فإن لنا مَا لَكَ ، وَهَدَى النِّى لَنَا لَكَ ، أَلَيْسَ مَاسِرَتَا سِرِّكَ وَمَا سَلِسَاهُ حَظًّا لَكَ ، فِهْدَى كَذَلِكَ وَذَلِكَ كَهَذَى . وَاللَّهُ يُوَفِّقُنَا وَإِيَّاكَ . وَأَنْتَ أَبَا يَوْسُفَ . هَكَذَا حَالُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَا وَصَفْتُ لِأَبِى سَعِيدَ ، عِيرَ أَنَّهُ سَأَلَ أَمْرًا لَمْ يَسْأَلَاهُ قَطُّ ، فَلَهُ فَصْلُ السُّبْحِ عَلِيًّا فى المَسْأَلَةِ ، وَلَنَا فَصْلُ المِرْلَةِ عَلَيْكَ فى اللَّائِمَةِ . وَلَنْ أَدْعَكَ وَالفِعْلَ ، دُونَ أَنْ تَشْفَعَهُ بِالعَمَلِ الدِّينِ هُوَ صِلَةُ القَوْلِ . وَسَلَامٌ عَلَيْكَ وَرَحِمَهُ اللَّهُ ، وَقَصَى اللَّهُ عِزَّ وَجَلَ الحُسْنَى لَنَا وَلَكَ .

فصل — أَنَانِى كِتَابُكَ ، فَأَعَمْتُ أَنْ يَسَرَّنِي بِسَلَامَتِكَ ، وَمَا حَاقَ فِيهِ كَرَمُ رِزْقِكَ ، وَلَطِيفُ عِمَائِكَ ، مَا لَمْ أَفْقِدْ فى حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِكَ ، فَكَانَ الكِتَابُ مُصَدِّقًا لِمَا سَلَفَ ، مُبَشِّرًا بِمَا يَسْتَأْنِفُ ، مُدَكِّرًا مِنْكَ عَهْدًا مَوْصُو^(٢) . مِثَالَهُ طَرُقِ وَقَلْبِي ، مُلَصِّقًا دَكْرَهُ لِسَانِي وَقَلْبِي . فَلَا عِدَمَتِكَ ، بَلْ أَمْتَعْنِى اللَّهُ لَكَ فَاطَالُ ، وَكَثُرْنِى بِقَائِكَ .

فصل — أَنَانِى كِتَابُكَ فِطَامَ قَلْبِي وَطَرُقِ ، بَعْدَ مَا كَانَ شَاحِصًا إِلَيْهِ ، مُتَشَوِّقًا إِلَى رُؤْيَيْهِ ، ثُمَّ مَلَأْنِى سُرُورًا مَا رَأَيْتُ فِيهِ مِنْ آثَارِ رِزْقِكَ وَكَرِيمِ تَفَقُّدِكَ . وَأَفْصَلَ مَا عِنْدِي مِنْكَ قَدْلَهُ ، مِمَّا إِنْ ذَكَرْتُهُ ، فَلَا سِتْرَاحَةَ إِلَى الدِّكْرِ ، وَإِنْ أَمْسَكْتُ ، فَلَمَحَرَّ عَنِ الشُّكْرِ . فَأَمَّا الضَّمِيرُ مَنَى عَلَى الإِفْرَارِ بِمَضْلِكَ ، وَالنِّيَّةُ خَالِصَةٌ بِشُكْرِكَ . وَقَلِيلُ ذَلِكَ لَكَ ، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ فَاطَابَ ، وَوَهَبَ فَأَجْرُلَ .

(١) والاصل : « مَحَافَةُ السَّلَامَةِ مِنَ النَّاسِ ... » . (٢) والاصل يا ص . (٣) والأصل . « مَا لَا سِتْرَاحَةَ ... » .

فصل — وصل الى كَتَاكُ نُحْيِلْ لِي حِينَ نظرت الى أثر يدك تَجْرِي قَلَمِكَ في بطل صحيفتك ، أنك مائل بين عيني : أنظر الى شخصك وأسمع من لفظك ، فابتعث ذلك مني طربا شائقا ، وصباةً هيجت الأحران وذكَرت الإحوان . وكنت من إخواني الدين أحرَ بسلامتهم للوَد الذي أحرى الله بيننا وبينك ، فواصلنا بحرمته ، وتعاطفنا بوصله .

فصل — إن الله جعل عاقبة كلِّ نعمة وإن عَطَمْتَ ، تما لأولها ، وجعل الشكر عليها سببا لتتمامها وموجبا لأحس الريادة منها .

فصل في شكر — فإن الله جعلك للخير مَعْدِنَا ، وللفضل مَوْصِعَا ، فبما حملته نفسك من ثقل أعباء المُرُوءه ، وحملتها عليه من عِطَامِ المِكارم ، حتى صُرْتَ بما أعم الله به عليك ، مُتَمَيِّ كَلِّ أَمَلٍ وعَايَةُ كَلِّ رَعْنَةٍ . ثم أَلْبَسْتَ النعمة لباسَ التواضع ، وباسبت في الأخلاق مَنْ سَبَقَتْ به عليك الأمور ، حتى كَانَتْهم في النعمة لك شركاء . وتَحَدَّثْتَ على الأقربين والمتقربين من الاخوان والأكفاء ، حتى كَانَتْهم لك وَلَدًا ، وأحبرت نفسك حين ساعدك الدهر ، على طبيعة التقرب الى العامة ، فكَلَّهم يُدِلُّ اليك بدَاوِ رَغْبَتِهِ ، وَيَمْتَنِحُ مِنْكَ مَنَاحَةً فصل ؛ فلا عِدِمْتُ أَلَا تَزَالُ تُنْعِشُ سَقَطُهُ ، وتُقِيلُ عَثَرَهُ ، وتُسَدُّ حِلَالَهُ ، وتُنِيلُ أَمَلَهُ ، ولا عِدِمَ مَنْ شَهِدَ ذَلِكَ مِنْكَ ، أَنْ يَسْتَمِمْ هذه النعمة عليك وعلى نفسه ؛ فإن من سعادة العامة أَنْ يَجْعَلَ سَازَها عند حَيَارِها . ومن البلاء العظيم عليها المَوْجِعُ لها ، أَنْ يَحْصُ شَرَارُها بموضع رَغْبَاتِها .

فاسَلَمْ كَلَاكُ اللهُ هذه النعمة ، عَيْرَ مُنْقَصٍ بِهَا ، ولا مُكَدَّرٍ عَلَيْكَ صَفْوُهَا ^(١) ، حتى تُسَامِكَ النعمة العاجلةُ الى النعمة الباقية ، فإنَّا وإِن عَلِمْنَا أَنَّ مِنْ شَأْنِ الدهر القَدَرَانِ في العواقب فقد عَلِمْنَا أَنَّك فيما أهدى الله اليك من النعمة ، قد أَدَيْتَ حق الله عز وجل ثمَّ حقَّ إخوانك فيها ، فكُنتُ أَنْحَرَمَ نَالِ فَصْلِكَ ، كَرَمًا في السَّاءِ ، وَرِضًا في الأَثَرِ ، غَيْرَ مُتَطَاوِلٍ لِي نَامِلٍ ، ولا مُتَصَصِّعٍ لِي تَحْذَرُ ، فَإِنَّا نَجْرِي شُكْرَ المَاصِي مِنْكَ ، وَرَجَاءَ البَاقِي ،

(١) في الأصل : "ولا مكدر عليها صغوها ..."

فنى تضييعا ما فى عَقْد الرأى ، وإزراء بنا فى وثائق الأمور ، ألا تَمَحْك من أنفِسا
مَوْدَة الولد ورقة الوالد . وإذا أعطاك أمرؤ ثمرة فؤاده ، فقد فَرَعَ اليك من جميع حَقِّك ،
لأن ذات يد امرئ فى البذل أهون عليه من ذات نفسه فى الشكر . وكفى لامرئ من امرئ
أن يستولى عليه حتى لا يدَع لغيره فيه فضلا . وكفى بك لما من غيرك . وكثير منا أن نقوى
على أداء أدنى صسوف حَقِّك ، غير أن أوثق أمورا يك عسد أنفِسا ألا سَامَ النظر الى
مناك بهجين لك إن رَرَّت ، وعادرين لك إن شُعِلت .

فصل — إن الهدى والضلالة يقتسمان دُول الأزمه ، لعبير كرامة للباطل ، ولا
هوان للحق . وأهل الحق كيف تصرفت أحوالهم فى كرامة من الله عز وجل ، وسمعة بين
دولة تكون لهم ، يقومون لله فيها محقه ويُظهِرون هداه وديه ، ودولة تكون للباطل ، يكونون
فيها كُهوفا للخيرات ، ومَعِدًا للحسات ، يستكنّ الحق فى صدورهم ، ويأوى البر والصدق
اليهم ؛ فهم بين يومئ صبر وشكر ، ليس أحدهما دون صاحبه فى الفصل .

وأهل الباطل كيف تصرفت أمورهم بين سُخط الله وعقوبته ، لأن الله تعالى لم يجعل
فى الباطل فَرجا لأهله ، وإن كانت لهم دولة كاث إملاء واستدراجا ، وكاوا فيها على مَدَرَة
هَلَكَة وسبيل قِمة ؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق ، كاوا فيها بين ذل وصيم ، وحواف
وجرع ، وقد سَدَّت عليهم المطالع ، وصاقت عليهم الأرض بما رَحَبَتْ . ففى أى يومئهم
مستراحهم : أيوم دولتهم ، وهم لا يشكرون العمة ولا يقطعون أسباب النعمة ؟ أم يوم
علو الحق عليهم ، وهم لا يصبرون على الحجة ولا يُبصرون من العمى ؟ وأهل الحق بين
حالى عِبْطَة وحسبة ، وأهل الباطل بين حالى إملاء وقِمة .

فصل فى صفة الجند — إن الغالب على أهواء جماعة من قِتام أولياء الأمير
وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله ، والتقرب الى الله بحبته ومُسامحته وطاعته ، ومُعاداه
عدوه ، وتلك نعمة يَتَدُونها ويتقربون الى الله بها ، ويتوسلون الى الأمير بِحِزى قوم خالعوها .

فصل — حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإن ذلك أرضى لربك ، وأجمع للألفة ، وأقوم لعمود الخلافة الذى سدد الله دعائم الإسلام وأسس الدين به . وأعلم أن من حاط الله دينه ، ورمث عن فوقه الجماعة ، وعادى أهل القرض لها ، ابتعثه الله أما من هول الحساب وصيق الخشعر ، والله بنصره أحق وأولى . وكل لله بحيث افترض عليك ، فإنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ) .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى رجل لم يكاتبه

لست بما صرفت الى من معروفك بأسر منى ، بما أهديت الى من قضاء الحق عك ، وقلة ذوى الحرمة لك ، لأنك قد تصل من لا يثق ولا يأنس إلا بن يعتمد عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يشاوره فى أمر حدث

ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة فى رأيه ، وأصالة فى عقله ، بمستغنى عن مكاشفة أهل الرأى ، لتوزيع الله عز وجل ، أقسام الفصل فى حلقه ، وإشراكه إياهم ، فى عطايه ، فرائك فى كذا .

ركب ابراهيم بن المهدي الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد

الى إسحاق بن ابراهيم الموصلى

عدى من أنا عبده ، ومجتنا عليك ، إعلاماً إياك .

توسل

توسل رجل الى رجل بمحمد بن عبد الملك وأدعى قرابته منه ، وبلغ ذلك محمدًا فكتب الى المتوسل اليه :

بلغنى أن رجلاً ادعى قرابتي ، وأورد طليكَ كتاباً ذكر أنه منى ، وما أنكر أن يتفجع بى من توسل بنسى ، إلا أنه من ادعى قرابة ، ولا قرابة له ، كان استعمال الشعاة فى أمره أولى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل
أسعدك الله بحاربتك، التي بذلت فيها مُهجتك، ومُهجّس هو موصول بك ما .

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدى لك : من صديق مؤمل، أو حميم راج، إن منعتهما شتماك
وبهتاك، وإن أعتبهما بالهه اغتالاك ^(١) .

محمد بن مُسعر

قال : كنتُ أنا ويحيى رُأَكنم عد سُفَيان، فبكى سُفَيان، فقال له يحيى : ما يُبكيك
يا أبا محمد؟ قال :

بعد مُجالستى من حالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبليتُ بمجالستكم ؛
فقال له يحيى : مُصيبةٌ من جالست منهم بمجالستهم إياك بعد أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم أعظم من مُصبتك بآء فقال : يا علام، أطن السلطان سيحتاح اليك .

دخل ميمون بن مهران على بعض حلفاء بنى أمية - وأحسبه عمر بن عبد العزيز - فقال
له وقد قعدت في أخريات مجلسه عِظنى، فقال له : إنك لى خير أهلِكَ إن وقيتَ ثلاثا، قال :
ماهن؟ قال : السلطانُ وقدرته، والشباب وعِزته، والمال وقِنته، فقال : أنت أولى بمكانى
مَنى فارتفع الى، فأجلسه معه على سريره .

ابن وهب فى الاعتذار

لو لم نعدرك لم نعدرك أنفسنا بقطيعتك، فكى لنا فى لائمة نفسك، كما تكألك فى عدرك .

وفى مثله

ليس فى الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفى عائدتك فصل عن إساءتها، من أين يسقط
بى فضلك والاعتذار !

(١) هكذا وردت فى الأصل .

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله في شكرهم، ويقال لهم كثيره في عظيم حقوقهم .

فصل — لئن عمت عن الرأي بك، لقد أنصرتك بك .

فصل — تغيب فاشتاق، ونلتقي فلا أشتى .

٢ — فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكتاب في أبواب لا نظير لها

من ذلك ما كتبت به في التحميد لله عز وجل في أوائل الفسوح وأواخرها وأوائل الكتب التي فيها تحميد الله عز وجل .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والروبية، والمتفرد بالبقاء والقدرة، والمتجبر بالكبرياء والعظمة، ذي الجلال والإكرام، والإفصال والإيعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، الأول بلا غاية، والآخرة بلا نهاية، الذي لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمتهم أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأنصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يؤوده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حية في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر الأمور بلا مشير، وقضى في الدهور بلا طهير، وسلك السماء بقدرته، وبها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين أصطفاهم لمجاورته، وجلبهم على طاعته، وزههم عن معصيته،

وحملهم حملة عرشه ، وسُكَّانَ سَمَواته ، ورسله الى أديانه ، يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لَا يَقْرُونَ ، ودحا الأرض وبسطها لكائنة خلقه ، وقسم بينهم الأرزاق ، وقدر لهم الأقوات ، فهم في قبضته يَتَقَلَّبُونَ وعلى أفضيته نَحْرُونَ ، حَتَّى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها وهو خير الوارثين .

وصدر تمجيد مفرد

الحمد لله العلىّ مكانه ، المير برهانه ، التامة كلماته ، الشافية آياته ، والحمد لله ولىّ أوليائه وعدوّ أعدائه .

وصدر تمجيد

الحمد لله العال الذي لَا يُغْلَبُ ، والمُقْتَدِرُ الذي لَا يُعَانُ ، والمُنْجِزُ وعدّه ، والمؤيّد أوليائه ، والخاتم بالقلج^(١) والظهور لهم ، والمُدبِلُ من أعدائه ، ومُحِيطُ دائرة السوء بهم .

ولكاتب خُزَيْمَةُ بن خازم في فتح الصَّنَائِرَةِ تمجيد مختار

أما بعد ، فالحمد لله ذى الْمَلَكُوتِ والقُدْرَةِ ، والجَبَرُوتِ والعِزَّةِ ، والسايطان والقُوَّةِ ، أهلِ المحامد كلّها ، ومدبّر الأمور ووليّها ، وحالق الحلائق وبارئها ، ومميّتها ومحييها ، وواعثها ووارثها ؛ الذى أَوْحَبَ على نفسه بما نَعَدَ من مشيئته ، وسبق من علمه ، وثبت فى اللوح المحفوظ عده إعراز ديه ، وإظهار حقه ، وإعلاء كلمته ، وإبلاج حجّته ، وإرهاق باطل أعدائه ؛ الصّارِفِينَ عن طاعته ، والجاحدين لربوبيّته ، المكذّبين بكتبه ورُسله ، بلع بذلك أمره ، ويطبق به كتابه ؛ فإنه يقول تبارك اسمه فى المُتَرَلِّ من فرقانه . ﴿ بَلْ قَدِيفٌ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَدْ دَمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

وتمجيد لأحمد بن يوسف الى الوُلاة عن الخليفة

أما بعد ، فالحمد لله ذى المِنِّ الظاهرة ، والمُحِيجِ القاهرة ؛ الذى قَطَعَ بينه وبين عاده المَعْدِرَةِ ، ورادف عليهم البيّة ، ومُهَمِّلَةِ الطِّيرَةِ ؛ وجعل ما أتاهم من حطوط الدنيا بالقسم

(١) الملح . القلب والظفر ، يقال قلع فلان على حصمه ، أى علب وطمر .

المكتوب، وما ذَنَر لهم من ثواب الآخرة بالتَّجَحُّع المطلوب، فهم في العاجلة شركاءُ في النعمة، وفي الآجلة شقَى في الرحمة، يختص بها أهلها المستفيعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال، الماديرين بأعمالهم الى انقضاء مَدَدِ آجالهم، قبل حلول ما يُتَوَقَّع، وفوت ما لا يُرْتَجَع .

وتحميد لآبراهيم بن العباس في فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعَزِّ الحَقِّ ومُدْبِلِه، وقَامِعِ الباطل ومُزِيلِه، الطالبِ فلا يفوته مَن طلب، والعالِ فلا يُعْجِرُه مَن علب، مُؤَيِّدِ حليفته وعبدِه، وناصرِ أوليائه وحرِبِه، الذين أقام بهم دعوته، وأعلى بهم كلمته، وأطهر بهم دينه، وأدال بهم حقّه، وحاهد بهم أعداءه، وأأار بهم سبيله؛ حمداً يَتَقَلَّه ويرصاه، ويوجب أَفْصَلَ عواقب نصره، وسوابغ نعمائه .

التحميد الثاني

الحمد لله العالِ دى القُدْرَة، والقاهرِ ذى العِزَّة، الذى لم يقابل بالحقِّ باطلا في مَوَاطِي من مَوَاطِي التحاكم بين عبادِه، إلّا جعل أولياء الحقِّ مهمَّ حَرْبِه وجُبدِه، وجعل الباطل بهم فلا مَكُوبًا، ودَحِيصًا زُهْرُوقًا، إن هَمَّ به أولياؤه كانت مراصدُ عواقبه مُعْرَقَةً ما جُمِعَ، ومُتَبَرِّةً ما أُعِدَّتْ، وقائده ناشياعه الى مَضْرَعِ الظالمين، حتّى يكون الحقُّ الطالبَ الأعزَّ، والباطلُ المطلوبَ الأدلَّ، وأولياءُ الحقِّ الأغنياءُ أيدا، وأشياعُ الصلالِ الأخسرين أعمالا وكيدا، قصاءُ الله وسُنَّتُه، وعادةُ الله وإرادته، في الفِئْتِه المصنورة أن تعر فلا تُرام، وأن يُمكن لها في الأرض كما مَكَّنْ للدين من قلها، وفي الفِئْتِه الباكين عه، أن تَرَلْ فتكون كَلِمَتُها السُّفلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيز حكيمٌ .

وتحميد له مبتدأ مقام بين يَدَي خليفه

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أَيْدٍ يُحْصَى، والآخر بلا أَيْدٍ يَفْقَى، الظاهرِ لخلقته بغيرته، العزيزِ في سلطانه بعظمته، القُودِ وَوَحْدانيته بقدرته، المدبِّرِ في ملكه بجبروته؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها تحوُّيا، واتصل بها فلم يكُ من علمها حليًا، وهو فيها غير مُسْتَكِنٍّ،

ومعها غيرُ ثَمَاسٍ في لُجج البحار، ومماوز القفار، وشَوَاحج الجبال، وكُثْبَان الرمال، مع كُلِّ حَاقٍ، وفي كُلِّ أَفْقٍ، وعلى كُلِّ شَرَفٍ ومكان، وفي كُلِّ وقتٍ وأوان، موجود إذا طُلِبَ، وقريبٌ حيثُ نُدِبَ، عالمٌ خَفِيَّاتِ الغيوب، وخَطَرَاتِ القلوب، وما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نَجْوَى ثلاثةِ الالهو راعُهم، ولا نحسِيةِ الالهو سادُسُهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ آلا هو معهم؛ وما تسقط من ورقةٍ ألا يعلمها ولا حَـةٍ في طُلُمَاتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسَ ألا في كتابِ مبين .

ونحمد ثاب يتلو الأول

الحمد لله المتعالى عن تشبيه الجاهليين، وتحديد الواصفين، وتكليف الباعثين، يُوصَفُ لا بالعرض والطول، ويُنتَعَتُ بغير الشرح المَثْوُل، ويُحَدِّدُ لا بالخلق المعدود، والجسم الموجود، بل يُتَنَاهَى من وصفه، الى ما دَلَّ عليه من صُنْعِهِ، ويُوَقَّفُ عليه من بعته، على ما أَخْبَرَ به عن نفسه؛ وكيف يُوصَفُ من لم يَرَهُ أحد، ويُحَدِّدُ من لم يَحْدِثْه بلد، أو يُشَبَّه عيرَ ذى أعضاء، أو يُكَيَّفُ عيرَ ذى أجزاء؛ لَوُرِّيَ لَوُوصَفَ، ولو وُصِفَ لَمُثِّلُ، ولو مُثِّلَ لكان له نَظِيرٌ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، لا تُحِثُّه الأفطار، ولا يحويه قرار، ولا تُدْرِكُهُ الأنصار وهو يدرك الأنصار، وهو اللطيف الخبير، لا يوصف أولاه، ولا يُدْرِكُ آخراه، ولا يُعْرِفُ مُتَنَاهٍ، عَظُمَ أن يَحْصِرَهُ وَهْمٌ، وجَلَّ أن يُدْرِكَهُ فَهْمٌ، وامتنع من أن يخاله عِلْمٌ، ولا يُغَيِّرُهُ لَيْلٌ ولا يَوْمٌ، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذى يَشْفَعُ عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يُحِيطُونَ بشئٍ من علمه إلا بما شاء، وسِعَ كَرْسِيُّهُ السموات والأرض ولا يُؤوده حِفْظُهُما، وهُوَ العلى العظيم .

ونحمد ثاب يتلو الثالث

الحمد لله الذى ألهمنا من الإقرار برؤيته، والإيمان بوحدانيته، وأنه عيرَ ذى صاحبة يسكنُ إليها من وَحْشَةٍ، ولا ولدٍ يتكثَّرُ به من ضَعْفِ قِلَّةٍ، ولا شريكٍ يعاونه من عجزِ قُدْرَةٍ، ولا ظهيرٍ يكافئه لَمَلالِ قُدْرَةٍ؛ ما جعل لنا به أَوْتَقَى الأسبابَ لَدَيْهِ، وأرجى الوسائل

اليه ، إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصير يَجُحَدُ ما أخنمنا الاعتراف فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التي استحككت السُّحطة على أهلها ، وحَلَّتْ النُّقمة بمن فارقها ؛ ثم جعلنا تَعْ لإشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه ، بَسَطَ اليها آمالنا وأحسن عليها أطعما بكرم عهده ، وعظيم حلمه ، وسعة رحمته ، التي وعد أهل الإيمان بها ، إذ صار من فارقهم في ذلك بما استهوت عليهم ، بتريسه لهم شياطينهم ، وراى على أفئدتهم ... وما ظَلَمْتُهُ قُرناؤهم الى الساس من كل طمع يُجْدَى وحبر يُجْبَى ، جرأ بما أشركوا الله ما لم يزل به سلطانا ، إن الله لا يَغْفِرُ أن يشرك به ، ويَغْفِرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء ، ومن يُشْرِكْ بالله فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين .

ونحمد الله يتلو الثالث فى هذا المقام

الحمد لله الذى استدع لا من شيء ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ ، جعل كثيرا من لطائف تقديره ، وصنوف تديره ، وتصاريف أموره ؛ مُجِبا واصله ، وآيات بينة ، وعبرا شافية ؛ تَشْهَدُ له بعة القدرة ، ونفاذ الحول والقوة ، خلقت مدبرا بلا مشورة أحد ، سَمِعاً دحاهن على الماء على غير سَند ، مبسوطات فى تكائف أجزائهن ، على معين ماء مسخر من تحتهن ، فخر حلالهن أنهارا ، وقدر فيهن من المعاش أقواتا ، وحمل لهن من الجبال أوتادا ، ثم استوى الى السماء وهى دُحَانٌ ، فقال لها وللا رص آتينا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين . ففطر من الدحان فى خفته على الهواء سبعا ، جعل يبنهن من الجو مُتَسَعَا ، سَمِعَ سموات طافا مُرْتَبِعَات ، بلا دعائم قبلها ولا علاقات ، يُمَسِّكهن بقدرة أن يرتفعن فوق ما حبسهن عليه ، وأن يهوين الى قرار دون ما رفعهن اليه ؛ فألقن صنعها ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة ، والشُّهُبِ الثاقبة ، والنجوم الواضحة ، وسبحر الشمس والقمر علما للمهتدين ، وسراجا للبصيرين ، ورجوا للشياطين ، وأوقانا لاختلاف السنين ، ومعرفة لكل حين ؛ لا الشمس يُبْنِى لها أن تدرك القمر ولا الليل

ساق النهار وكلُّ في فلك يسبحون ، فقصاص سبع سموات في يومين ، ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين ؛ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ بلا مُعَاة لقول ، ولا صَغَف من حَوْل ؛ ثم أسكنهن من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته ، واجتنام تبليغ رسالته ، مَعْصُومِينَ من أن يُشْرِكُوا بالله ، ما لم يُنْزَل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكاً وبُهْتَاناً ، يُسَبِّحُونَهُ بالليل والنهار لا يعفرون ولا يسأمون من عبادته ، ولا يستحسرون عن طاعته ؛ يحافون ربهم من فوقهم ويعملون ما يؤمرون .

ومحمّد في فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأعز دينه وأكرم طاعته أوليائه ، وأكرم طاعته وأوليائه ، جعل جده منهم المصوِّرين ، وحربه منهم العالين ، نهج بهم سبيله ، وأقام بهم محبته ، وحاهد بهم أعداءه ، وأطهرهم حقه ، وقمع بهم الباطل وأهله ؛ وأعلى كلمتهم ، وآثر نصرهم ، وألف لهم وبهم ، ومكّن لهم في الأرض ، جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المُعزّ لدينه ، المُظهِر لحقه ، الناصر لخلفائه ، المُكسّي لحزبه ، المُنتقم بهم ممن صدف عنه ، مؤيداً دينه بالصر ، يُظهِره على الأديان ، وحقه بالعز ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وحموده بالعلج فهم الأعْلون إن استنصر بهم ، والأعزّون إن كادهم ، والأقربون منه لإحلاصا وعملا ؛ حمداً يُؤاْزى به ، ويمتري بمثله فواضله ومزيده .

وله في فتح ابن البَيْعِث لما ظفر به

أما بعد ، فالحمد لله ناصر أسيائه وحلفائه ، وهادئ أوليائه ، أولياء الحق وحزب الهدى ، الذين أقام بهم سبيل الرشاد ، ونصب بهم مناصح الدين ، فأظهره على الديس كلّ ولو كره المشركون .

وله صدر كتاب الخميس في تمجيد الله وتمجيدِهِ

أما بعد ، فالحمد لله الذي حلت بعمه ، وتظاهرت مِنْهُ ، وتناعت أياديه ، وعم إحسانه ؛ إليه كل شيء وحالقه ، وبارئته ومصوره ؛ والكائن قسله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالی فی مشیتته والقاهر فوق عباده ، المتعالی عن شسّه حلقه ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، خلق العباد بقدرته ، وهادم برحمته ، وأوصع لهم السبيل الى معرفته بما نصّب لهم من دلائله ، وأراهم من عبره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال حلّ حلاله : ﴿ أَلَدَىٰ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ حَلَقُهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ حَمَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم ، والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، ويسر لهم خواطرهم وفكرهم ، والهيئة التي هيأهم لها ليقع الأمر والهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يحشمهم ما يقصر عنه وسعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم ، ليؤمروا به ويعبدوه ، فيستحقوا به رحمته ورضوانه ، والخلود في النعيم المقيم ، والطلّ المديد ، والعيش الدائم ، كما قال تعالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياء ورسله ، يدعونهم الى طاعته ، ويبشرونهم هدايه ، ويوصحون لهم سبيله ، ويهدونهم الى رحمته ، ويعبدونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويسلطون لهم توبته ، ويحذرونهم تحطه ، ويبشرونهم سنته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ هَٰلِكَ عَن يَدَيْنَا وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن يَدَيْنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من رأفه بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم اليهم بالمرجع الظاهرة ، والأعلام النيرة ، والشواهد الناطقة ، التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها برهانهم ، وأوصع

بها دليلاً ، وأنهم عمل سواهم ، ليكون ادعى لهم الى تصديقهم ، والقول عنهم ، وأؤكد
للحجة على من أبى ذلك منهم .

ومحمد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرأ بخراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنور
والرؤى ، فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدم المربى والطول على أهلها ؛ قبل
استحقاقهم لمثوته ، بالمحاطة على شرائع طاعته ، الذى حصل ما أودع عاده من نعمته ،
دليلاً هادياً لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ؛ حتى
أقتنوا علم موارد الاحتمار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكوا على ما بطن بما ظهر ، وعلى
ما عاب بما حصر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُثَقَّن صمته ، وحاجة مُتَرَايِل
حلقة ومتواصله ، الى القوام بما يُلْمُهُ ويُصْلَحُهُ ، على أن له ناراً هو أنشأه وابتدأه ، ويسر
بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تصرف أحوالهم ،
ومسير أفعالها ، وما يُطْهَرُونَ عليه من العجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم ، وتمت به
أدواتهم ، مع أثر التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلق المحككة ، والصورة المعجبة ،
ليس لهم فى شيء منها تَلَطُّفٌ يَتِمُّ مَوْنُهُ ، ولا مَقْصِدٌ يَعْتَمِدُونَهُ من أنفسهم ، فإنه قال تعالى
ذِكْرُهُ : ﴿ زَيَّاتُهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَاكَ رَبِّكَ أَلَكِيمُ أَلَدَى حَلَقِكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَىْ صُورَةٍ
مَا شَاءَ رَجَّكَ ؟ ۝ وما يتفكرون فيه من خلق السماء ، وما يحيرى فيها من الشمس والقمر ، والجو
مُسَحَّرَاتٍ على مسير لا يثبت العالم إلا به ، من تضاريف الأزمنة ، التى بها صلاح الحرث
والنسل ، وإحياء الأرض ، وإفراح البات والأشجار ، وتعاور الليل والنهار ، ومزج الشهور
والأيام ، والسبين التى تُحْصَى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات
السقف المرفوع ، والمهاد الموصوع ، باختلاف أجزائه والثامها ، ونخرق الانهار ، وإرساء
الجبال ، ومن الثام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثه بعد أن لم يكن ،
مُتَرَقِّياً فى النماء ، وشبته الى أجله فى البقاء ، ثم محاره مُقْصِياً الى آخر الفناء ؛ ولم يكن له

مُفْتَحُ عَدَدٍ ، وَلَا مُنْقَطِعُ أَمَدٍ ، وَمَا زِدَادُ بِنَشْوَاءٍ ، وَلَا تَحْيَافُهُ نُقْصَانٌ ، وَلَا تَمَاوَتْ عَلَى الْأَزْمَانِ ، لِأَنَّ مَا لَا حَدَ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، عَيْرٌ مُمَكِّنُ الْإِحْتِمَالِ لِلْقَصْرِ وَالرَّيَادَةِ ، ثُمَّ أَجْرَى فِيمَا ذَكَرَ مِنْ حَلَقِ اللَّهِ وَحَلَقِ الْإِنْسَانِ إِلَى ذِكْرِ مَا تَفَصَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا اخْتَصَمَ بِهِ مِنْ مَبْعُوثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى ذِكْرِ الْخُلَفَاءِ أَوَّلًا ، ثُمَّ إِلَى ذِكْرِ الْمَأْمُونِ وَدَوْلَتِهِ .

وَتَحْمِيدٌ لِلْعَبَّاسِ فِي مَقَامِ لَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَأْمُونِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْنَا ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْنَا ، بِالْأَرْضِ الْمَبْسُوطَةِ ، وَالسَّمَاءِ الْمَرْفُوعَةِ ، وَالرَّيَّاحِ الْمُسَحَّرَةِ ، وَالْأَمْطَارِ الْبَارِلَةِ ، وَالْأَوْقَاتِ الْقَائِمَةِ ، وَالْمَنَافِعِ الدَّائِمَةِ ، وَالْدِّينِ الْمُبِينِ ، وَالْأَدَبِ الْقَوِيمِ ، حَمْدًا يَكُونُ إِلَيْهِ صَاعِدًا ، وَلَدَيْهِ نَامِيًا ، وَلِمَلَكُوتِهِ مَالثًا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يُثَبِّتُ رِصْوَانَهُ ، وَيُورِثُ إِحْسَانَهُ ، وَيُوجِبُ مَزِيدَهُ ، فَهُوَ الْمُسَمِّعُ الْمَحْمُودُ ، وَالْمُتَطَوِّلُ الْمَشْكُورُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا شَهِدَ اللَّهُ وَمَلَأَتْ كُنُفُهُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وَتَحْمِيدٌ لِعَبْدِ الْحَمِيدِ فِي أَبِي الْعَلَاءِ الْحَرْوَرِيِّ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْبَاصِرِ لِدِينِهِ ، وَأَوَّلِيَّائِهِ وَخُلَفَائِهِ ، الْمُظْهِرِ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ ، وَالْمُدِلِّ لِأَعْدَائِهِ وَأَهْلِهِ الْبِدْعَةِ وَالصَّلَاةِ ، الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ حَقٍّ وَمَاطِلٍ ، وَأَهْلِ طَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ ، إِلَّا حَمَلَ النُّصْرَةَ وَالْقَلْعَ وَالْعَاقِبَةَ لِأَهْلِ حَقِّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَحَمَلَ الْحَزْنَ وَالذَّلَّةَ وَالصَّغَارَ ، عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْإِحْلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ ، حَمْدًا يَتَقَلَّبُ وَيَرْصَاهُ ، وَيُوجِبُ بِهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ الرِّيَادَةَ الَّتِي وَعَدَ مِنْ شُكْرِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا يَتَوَلَّى مِنْ إِعْزَازِ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَصَرِهِ وَإِفْلَاحِهِ وَإِطْهَارِ حَقِّهِ ، عَلَى مَا وَقَعَ بِأَعْدَائِهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ وَالْإِحْلَافِ عَلَيْهِ مِنْ سَطَوَاتِهِ وَقَتْمَانِهِ وَنَاسِهِ ، فِيمَا وَلَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مُوَالَاةٍ مِنَ الْوَالِدِ ، وَعِدَاوَةٍ مِنَ بَعِيٍّ عَلَيْهِ وَعَدَاوَةٍ ، لَا يَكْلُهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَلَا إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَمَكِيدَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِهِ .

وتحميد في آخر فتح

الحمد لله المُرْتَدِيه ، المَظْهَر لحَقّه ، الناصِر لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهل الكفر ، المُرْتَل بهم من نأسه ، وَنَقَمته وَجَوَانحه ؛ الذي لم يَجْمَع بين أهل حقّه ، وباطل عدوّه ، في موطن من مواطني التحاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفر ، وأمرَع عليهم الصبر ، ومسحهم البصر ؛ وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه ، وأهل الكفر ، حمدا كثيرا يرضاه من الشكر ، ويَحْسُن به المزيد .

وتحميد في فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفتح العليم ، الذي خَصَّ الأمير بأفضل الكرامة وأتمّ النعمة ؛ وأَحْسَنَ الولاية ، وأعظم الكفاية ، وحفظ ما استرعاه ، وأعزّ أوليائه ، وقَعَ بالمُدَّة أعداءه ، وجعل حسن العاقبة له ولأهل طاعته ، ودائرة السوء على أهل معاندته ، حمدا يحسُّ به القضاء ، وتريد به النعماء .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يُدْرَك حَيْرٌ إلّا برحمته ، ولا يُسَال الفصلُ إلّا بنعمته ؛ وليّ التسديد للمحسنات ، والعصمة من السيئات .

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابت كلماته ، الشافيه آياته ، النافذ قصاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه مُلْكُه ، وعزّ في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدرها بحلمه ، على ما يشاء من عَزْمِه ، مُتَدَعَا لها بإنشائه إياها ، وقدرته عليها ، واستصغارها عظيمها ، نافذة إرادته فيها ، لا تَجْرِي إلّا على تقديره ، ولا تنتهي إلّا الى تأجيله ، ولا تَقَع إلّا على سق من حَتْمِه ، على كلّ ذلك بطلعه وقُدْرته ، وتصريف وَحْيِه ؛ لا مَعْدِل لها عنه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا علم أحدٌ بخفاياها ومعايها إلّا هو ، فإنه يقول في كتابه الصادق : ((وَعِدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ...)) الى آخر الآية .

ونحمد ثلث

الحمد لله الذى علا بالحُبِّ التى آستتر بها عن جميع حَلْقِه ، وأستغنى بها عنهم لما تَوَحَّد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة ، رعوفا عليهم بَمَنَّةٍ وَمُتَقَوِّلا وهو فيما يُمَصِّى من أقداره ، موصلا لهم بابتدائه حَلْقَهُمْ فى أحسن تقويم ، وإعطائهم إِيَّاهم عاجل كل حير مقسوم ، وتسحيه لهم جميع ما فى السموات والأرض ، وتسطه لهم فى معاشهم أوسع الرزق ، وإسباغه عليهم فيما أفصل العَمِّ التى لطفت فطنت ، وعظمت فطهرت ، وليست فعمت ، وانتشرت خلقت ، وكثرت فلا يحصيها عاد ، وجرت فلا يؤدى حق ما أقرض منها شاكر ، فإنه يقول : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَلَّوْرٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يَقْتَصِرْ بهم فى إكرامه وتفصيله إِيَّاهم على عاجل ، فإنه مُصَمِّلٌ زائل مما أعطاهم إِيَّاه ولم يكلفهم فى معرفة حالقهم تبارك وتعالى ، ومُتَوَلَّى العَمِّ عليهم ، والاحسان إليهم ، والارتياش لهم ، ولا فى مُبتغى سبيل طاعته ، وأداء حقه ، وشكر بعثته ، واستحباب عبطه أَلَمَّعاد اليه الى أن يَعُوْا ذلك معقولهم ، والظرف فيه أَلَمَّاهم ، والتصريف له على أهوائهم ، فإنه لو أُلْجا ذلك إليهم ، وأفردهم فيه الى أنفسهم ، ووكلهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم ، لحارت عنه منهم الأبصار ، ولناهت فيه منهم العقول ، ولأضلَّهم عن قصده العَمِّ ، ولمال بهم الى غيره الهوى ، ولا استحكم عليهم شرك الردى ، ولكنه بحث فيما أُنبياء الهاديين ، يدعونهم الى الصراط المستقيم ، بوره المصطفى ، وديهِ القويم ، وآياته النبوة ، وكُتبه العارقة التى يتن فيها تحابة ومكرهه ، وطاعته ومعصيته ، وثواب الصريقين فى ذلك من عاده ليحدروا ما حذرهم فيه من سُخطه ، وزل بهم فيه من نِقمته ؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة ، وأحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وكشَّف لهم الجهالة ، وهَدَى من الصلالة ، وبصرهم سبيل الحق ، وبين لهم معالم الإسلام ، ليرجعَ جائزٌ ، وَيَقْصِدَ زائِعٌ ، ويعرفَ جاهل ، وليعبدَ الربَّ بما وحد به نفسه ، وليستبين العلم ، ويستصيَ الحق ، وليبتغى من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع ، وأداء فرائضه التى قَرَضَ ، وإيثار طاعته التى أوجب ، وليكون لله

الحجة البالغة على عادته فيما تركوا من ذلك وسفّوها بعد استبانتهم لهم ، واستفاضته فيهم وإعداده اليهم ، فانه يقول : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِي وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِي وَإِنَّ اللَّهَ تَسْمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لِيَحْزَى الدِّينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَحْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .

لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذى بالقلوب معرفته ، وبالعقول حُجَّتْهُ ، الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أميا فوق له ، ومُلِّغا فآذَى عه حج به المنكر ، وتآلف به المدير ، وثبت به المستصر ، الى أن توفاه على منهاج طاعته ، وشرعية دينه ، ثم أورتكم عهده وخصكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى .

ولعبد الحميد فى فتح

يُعْظَمُ فيه أمر الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد ، فالحمد لله الذى أصطفى الإسلام ديناً رضى شرائعه ، وبنى أحكامه وبور هُدهاء ، ثم كَفَمَ بالعز المؤيد ، وأيده بالظفر القاهر ، وأزره بالسعادة المتجبة ، وجعل من قام به داعيا اليه من جُنده الغالين ، وأنصاره المستطيين ، كلما قهر بهم مفاونا أورثهم رباعتهم المأمولة ، وأموالهم المثرية ، ودارهم الفسيحة ، ودولهم المطولة ، أمرا حتمه على نفسه ، ثم جعل من عاندهم وأبتغى غير سبيلهم مسلما قد استهوته ذلّة الكفر طُغْيَاهَا ، وحيرة الجهالة بجوارها ، ونية الشقاء بمقاويه ، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباء ، ازداد الحق اليهم ازدلافا ، وعليهم عكوفاً ، وفيهم إقامة ، الى أن يحل بهم عز الغلبة ، ونحاة المتجاوز ، راعين فيما شوقهم اليه ، مُحَافِظِينَ على آدابهم له ، قد بدّلوا فى طاعة الله دماءهم ، وقبّلوا المعرض عليهم فى مبايعة ربهم لهم بأعسهم الجثة . محمود صبرهم ، مستهل بهم عزهم ، الى حير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذى أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حَفِظَ له من أمور أمته ؛ أن اختار لمواريث نبوته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نهوض به وشُجَّ عليه ، ومُساغفة فيه ، أن فعل وفعل . والحمد لله الذى تم وعده لرسوله وحليفته فى أمة نبيه مسلداً

له فيما أعترم عليه . والحمد لله المعزّذ لديه ، المتولّى نصر أمته ببيّه المتخلّى من عاداهم وناوَاهم ، حمداً يزيد به من رضى شُكره ، وحمداً يعلو حمداً الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم بعمه فلا توصف ، وحلت أياديهِ فلا تُحصى ، الذى حَمَلْنَا ما لا قوة با على شكره إلا بعونه ، والله يستعينُ أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرجع ، إنه على كل شئ قدير .

ولعبد الحميد أيضاً

أما بعد ، فالحمد لله الذى أصطفى الإسلام لنفسه ، وأرتصاه ديناً للملائكته ، وأهل طاعته من عبادِهِ ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لى هدى به من خلقه ، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أسم عليهم من أوليائه المقربين ، وحرته العالين ، وحده المصورين ، وتوكل لهم بالظهور والعلج ، وقضى لهم بالعلو والتمكين ، وجعل من حاله وعزّه وابتنى سبيل غيره أعداءه الأَقْلِيّين ، وأولياء الشيطان الأَحْسَرِيّين ، وأهل الصّالة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من الذل والصغار ، وما نَحَلَ لهم فيها من الخلدلان والانتقام ، إلى ما أعد لهم فى آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعداب الأليم ، إنه عزّزْهُم انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظم الإسلام تعظيماً ، وفضله تفضيلاً ، فلم يبقَ مَلِكٌ مُقَرَّبٌ ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، ولا إمامٌ لأهل حقٍّ مهتدٍ إلا دَانَ به ، واتصل الى ولاية الله بما هداه له منه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وحيرته من أهل الإسلام الذين اصطفى ، تغاشمٌ ولا تَظَالُمٌ ، ولا تحاسدٌ ، ولا تقاطعٌ ولا تدابرٌ ، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالتباز والتراحم ، والتوادُّ والتناصُف ، قلوبهم متفِقَةٌ ، وأهواؤهم مؤتلفةٌ ، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطةٌ ، أعوانا على الحق ، وإحوايا فى الدين ، أَلَفَ الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبهم ، فقال فى كتابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهل دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أسلافُ الحق قبلهم ، فى توادُّ وتبازهم ، وتواصلهم وتعاونهم ، وبذلك دَانَ أهل السماء ، فلم يختلفوا فيه ، ولم يرغبوا عنه ، ولم يحتذوا مثالا غيره ، وبه يدينُ

لله الباقون من خلقه، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة ، سنة مسنونة ، وشريعة متبوعة ، لا ينتفون بها بدلا ، ولا يريدون عنها حولا ، فاهل طاعة الله اهل سلامة في دنياهم ، وإخوان كما قال الله عز وجل في آخرتهم ، لم تقطع الولاة فيما بينهم ، لانقطاع الدنيا عنهم ، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم ، جمعهم في داره وجواره ، كما ألف في الدنيا بين قلوبهم ، وعصم بالإسلام ألفتهم .

تحميد

الحمد لله المتيب على حمده وهو ابتداءؤه ، والمميع بشكره عليه جرائؤه ، والمثني بالإيمان وهو عطاؤه .

ولقأمه

الحمد لله الذي أكرم الإسلام وفضله ، وشرقه وعظمه ، وأعلى منزلته ، وجعل أهله القائمين به ، والحامدين عليه ، أوليائه وحزبه الذين قصى لهم ماتمكين ، والظهور على الذين كله ولو كره المشركون .

ولزيد بن علي رحمة الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النعم بالشكر ، والشكر بالمزيد ، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة ، وأن تركه خطيئة مهلكة ، وأومن بالله إيمانا نفى إحلاصه الشرك ، وبقيه الشك ، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء ، ومفرج أهل التوكل .

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي اختار الاسلام دينا لمسه ، وأنبيائه ورسله ، وشرقه وعظمه ، وأثاره ، وأظهره ، ونزهه وأعززه ومنعه ، ولم يقبل غيره ، ولم يحصل حسن الجزاء إلا لأهله ، الذين كتب لمن أسعده بالوليعة فيه منهم الرضوان والمغفرة والرافة ، وعلى من خالفه وابتنى غير سبيله الحسرة والندامة ، والدلة والصغار في الآخرة والأولى ، والمات والمحييا ، إذ يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

والحمد لله الذي اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نوره ، واختاره له من رسالته ،
وحبّه بفضيلته ، وأجناه من أفضل عمائر العرب ، وأشرفها منصّباً ، وأعرقها حسناً ،
وأكرمها نسباً ، وأوراها زناداً ، وأرفعها عماداً ، فعمته النور ساطعاً ، وبالحق صادقاً ، وبالهدى
آمراً ، وعن الكفر زاجراً ، وعلى الدين مهنماً ، وإلى سبيل ربّه داعياً ، وبالكتاب عاملاً ،
فلغ عن الله الرسالة ، وهدى من الصلّالة ، وانتاش من الهلكة ، وأنجج معالم الدين وأدّى
فرائضه ، وبت شرائعه ، وأوضح سنده ، ونصح لأمنه ، وحاهد في سبيل الله حق جهاده
حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

تحميد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لاطهار حقه وإعاده سابق قصائه فيم ذراً وراً من عباده ،
بإدخال من أراد أن يَدْخَلَ في رحمته ، وإخراج ما حق له من العباد على خلقه ، بابتدائه
خلقهم ، ومطاهرته الآلاء عليهم ، وإحسانه البلاء عنهم ، وإبلاغه في الحجج إلى عاينهم ،
ديار رصيه لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله ، فأتى على وحه من لم يَرْضَ
إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعز به نفسه ، وأطهر به بوره ، وأراد أن يسلبه
عباده ، تحقيقاً لما سقى به علمه ، وإعاداً لما بَحَثَ به مقاديره ، أن بعثَ لِمَا شَرَعَ من
ديسه ، وأصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقربين ، مَنْ ارتضى واختار من أنبيائه
ورسله المحجّين ، لتبليغ رسالته وإطهار حقه ، وأسْتَشْلَأَ^(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة
التي أطلعت عليهم وعمّتهم ، ليعدّ ملخصاً له ، محموداً بما استحمد به إلى خلقه ، مشهوداً له
بما أشهد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغ لِمَا أُرْسِلُوا به ، والنصيحة لمن أُرْسِلُوا إليه ،
غير مختلئين فيما بعثوا له ، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه ، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه
أول ، فيصدق بذلك بعضهم بعضاً ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فصت
رسول الله وأنبياءه على ذلك سالكين منهاج الحق وسيله ، والدُّعَاءُ إلى الله عز وجل وإلى

طاعته، هادين مهديين غير محوسين شيئاً مما كانوا أهلّه في المترلة عند الله، والقربة منه،
والوسيلة إليه، هم ومن آمن بهم وعززهم، وأتبع الور الذي أنزل معهم، حتى نقصت
بهم الأعمار، وتقطعت بهم الآثار، وتحرمهم الاحال .

وكذا لأبي عبيد الله .

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمة قدمها لعاده قبل خلقه إياهم، واستجابه إياها
منه، فاصطفاه لنفسه وشرعه لهم ديناً يديون به، ثم جعل محبته وحبه ومتاعه رُسله رحمة
تلافهم بها بعد تقديمها، وممة طاهرها عليهم قبل استجابه لها، تطولاً على العباد بالعماء،
وإعدادا اليهم بالحجج، وتقدمة الوعد، وإداراً إليهم عواقب سمخه في المعاد .

والحمد لله الذي ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم هداً وشرائع حقّه على قتره من الرسل،
وطموس من معالم الحق، ودروس من سُلّ الهدى، عند الوقت الذي لمع في ساق علمه
ومقاديره، أن يحتجّ لدينه الأصمياء، ويختار له الأولياء، الطاهرين بحقه، القاهرين لمن
ابتغى سبيلاً غير سبيله، فعظم حرمة، ووسّع حورته، وصدّع أمره، وحاهد عن حقه
في حومات الصلالة وطلمات الكفر، نالق المين، والسرّاح المير، ثم حملّه مصدقاً لمن
سبقه من الرسل ومجدداً لما بُنوا له وهدى ورحمة، ثم جعل لديه وطائف وظفها على
أهله، وشرائع شرعها لهم لا يكمل دينهم إلا بها، وجعل أداءها إليه، واعتصامهم بها إماماً
لدينه، ونظاماً لنوره، وقواماً لحقه، واستيحاحاً لما وعد عليه من ثوابه، وأما لما أوعده من
حالفه من عقابه، فليس يسع أهل الإيمان ناله الذين أكرمهم به وأحرل لهم فضله وأجره،
وجعل لهم عزّه وعلوه، واختار لهم العلة والعاقبة على من فارقه فيه إلا معرفتها، وأداؤها
بما يستكمل به حدودها، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدي — صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لنفسه، ورصى أن يعبدّه من في سمواته من الملائكة
المقرّين، ومن في أرضه من النبيين والمرسلين، ومن آمن بالنور الذي هداهم له من الثقلين،

واختار لرسائله في سابق علمه ، والدكر الحكيم عده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته نبيه صلى الله عليه وسلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تمجيد

الحمد لله المتكبر في حروته المتعزّ بِسلطانه ، المتعالى في سمواته ، المحتجب عَن خلقه ، فلا تُدرّكه في الدنيا أنصارُ الباطرين ، ولا يُحيط به أوهامُ المتوهمين ، ولا تبُلغه صفاتُ الواصين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يعوته مطلوب ، ولا يحزه شئٌ في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

تمجيد آخر

الحمد لله الحكيم العدل ، الذى قَصَلَ بين الحقِّ والباطل ، مفد قضاؤه في خلقه ، وحكم ميمهم بجرى حكمه على إرادته ، يقصى بالنصر والتأييد ، والعزّ والفلاح ، والتمكين للحق وأهله ، وبالدل والوقيم والخزى والصغارِ للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحُكمه عادةً حاريةً باقيةً ، وسنةً ماصيةً ، لا رادَ فما قصى منه لقضائه .

والحمد لله الذى احتص محمداً صلى الله عليه بكراماته ، واصططعه لرسالاته ، وأنزل عليه كتابه العزير الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، بما أحلّ وحرم ، ورصى وصحط ، وأمر به ونهى عنه ، وجعله حاتم النبیین والمُهمّين عليهم ، وكتاباه الذى أنزل ، آخر الكتب المصدق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تمجيد في الإسلام وما أمتن به على أهله من مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولَمَن اصطفاه من خلقه ، واجتبهاه من عباده وجعله متعلماً بين الهدى والضلالة ، وفرقانا بين الحق والباطل ، وحاجرا بين الكفر والإيمان ، وظائف وظفها على أهلها ، وشرائع شرعها لهم ، فجعل أدامها إليه ومعرفتاً له ، ومعاظمتهم عليها ،

واعتصامهم بها قواما لدينه ، ونظاما لنوره وثباتا لحقه ، واستيحابا لما وعد من ثوابه ، وأما لما أُوعد من عقابه . فليس يَسعُ أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الدين ستمهم المسلمين بالإسلام ، وأحرز لهم فضله وعمره ، وأصار لهم العلبة على من حالهم وفارقهم بما رَكَنُوا إليه من الصدود عن سبيله ، والتكذيب بكتبه ورسليه ، ودلتهم فيه قُرْآنهم ، وقادتهم إليه أهواؤهم ، من المَلل الضالة ، والأديان المجموعة ، التي لم يَتَزَل بها من الله سُلطانٌ ، ولا كتابٌ ولا برهان ، إلا معرفتها وأداؤها بما بُسُتَكل من حدودها ومعالمها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

أما بعد ، فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وقدر الأمور بعلمه ، وأشد على ما مضى من مشيئته ، من غير أن يكون له ظهير في ملكه ، أو مُعين على ما يرى من عجائب خلقه ، واحتذاء منه على سائقي من صفة غيره ، فوحد نفسه عما تفرد به دون غيره من خلقه ، ليعُد مُخلصاً مبرأ من الأنداد ، إتماماً لنوره ، وتميزاً لتوحيده ، وتأييداً ليديه ، وإعلاءً لمن أعظم به ، وإفلالاً لمن حاله وعدده وعبد غيره ، وإحقاقاً لكلنته ، فإنه يقول : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ فِي الْآيَةِ ، بِذَلِكَ أُنْزِلُ كُتُبَهُ ، وَأُرْسِلُ رُسُلَهُ . وَاحْتَجَّ بِهِمْ وَبِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ ، وَالْأُمَمِ الْحَالِيَةِ ، بِدَعْوِ آخِرِهِمْ إِلَى مَا سَقَى إِلَيْهِ أَوَّلُهُمْ ، مِنْ عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، لَا يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَلَا يُؤْتُونَ مِنْ كَثَرَةٍ ، يُعْزِمُ اللَّهُ نَفْقَتَهُ ، وَيُؤَيِّدُهُمْ بِجَدِّهِ ، وَيَصْرُمُ وَيَصْرُبُهُمْ إِلَى أَنْ نَعَثَ اللَّهُ تَعْمُدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ ، وَجَعَلَهُ مُصَدِّقًا لَهُمْ ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِمْ ، وَحَاتَمَ الْبَيِّنِينَ بَعْدَهُمْ ، يَمِصُّ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَيَجَاهِدُ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ وَأَنَارَ حَقَّهُ ، وَأَرْهَقَ عَدُوَّهُ ، وَأَعْجَزَ مَا وَعَدَهُ وَأَتَمَّ بِذَلِكَ السَّعْمَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ اتَّعَمَهُ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ .

تحميد في فتح

الحمد لله الفتح العليم ، الرحمن الرحيم ، العزيز الحكيم ، الذي أعز الإسلام بقدرته ، وأيده بنصره ، فلم يُلحِد فيه مُلحدٌ ، ويَسع في تشتيت الكلمة وشق العصا ساع ، ويوصغ

في الكفر والمعصية مُوصِعٌ ، ويمتنع من قصائنه وإرادته مُمتنعٌ إلا أذله الله وقصمه ، وأضرع خذله ، وأنس حذّه ، وضلّ سعيه ، وغلّ نواره واستنصّاله ؛ حمدا دائما لا انقطاع له ، ولا نفاذ لمذته .

تمجيد ثان

والحمد لله الذي احتاز الإسلام وشرّفه ، وكرّمه وطهره ، وأطهره وأعزّه ، وفطر عليه ملائكتّه ، ونعّث به ألباءه ورُسله . واختار له حيرته من خلقه محمدا صلى الله عليه ، فبعثه رسالته ، وأكرّمه توحّيه ، وأصطفاه على خلقه ، نبشّر بالجنة من أطاعه ، ويُنذّر بالنار من عصاه . وحمله ديه القم الذي لا يقبل دينا غيره ولا تُنيب أحدا إلا عليه .

تمجيد في فتح

الحمد لله العريرى ملكوته القاهرة فوق رتبته ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وأنقذ فيهم إرادته ومشيئته ، وقدر كل شيء وأنقذه وأحكمه ، وأحاط علما به ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

صدر تمجيد في فتح

الحمد لله الذي ابتدع الخلق لا من شيء ، وجعل الليل والنهار كهفا ومُسْتَجَا لكل حيٍّ ، مُقدّره تتحوّل البحار ، وجرّت لمواقيتها الأنهار ، مدار وطاردا الليل والنهار ، لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمد لله الذي فات بعظمته أنصار المرتين ، وعلا بمحمده عن خطرات الحاسبين ، وأحجب بأستار خبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمقين . فلم تحوّه الكمية ، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكيفية ، ولا أدركه هاجس تبعيص ولا تُكْليّة ، ولم يُنسب إلى زياده في حين ، ولا إلى تقصير في شهور ولا سين . فكل أمره — عزّ جلاله — تمام ودوام ، وكل صفات صغره اعتدال وكأل ؛ وكل ما دونه يحتم فيه الفناء والزوال ، ليس كمثله شيء . وهو السميع البصير .

والحمد لله الذى عرفنا ربوبيته إماما ، ونهج لنا سبيل طاعته مآ وإكراما ، وتبعدنا
بفرضه تقويما وتعلينا وأمتانا ؛ فقامت علينا وعلى الخلق حجتُه ، بالصادق أمره ، والمُبَلَّغ
لرسالته ، والمُجَاهِد فيه حق جهاده ، محمد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعزّ دينه ، وأظهر
تَمَكُّينه ، ونصرَ وليّه ، وحلّل عدوّه ، وأوقع رأسه ونَقَمته بحلّ الغرية ، وجُرْئومة الضلالة ،
ومَنّاح الشرك ، ومَرَكز الكفر ؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء فى سَفك الدماء ، والمُثْلَة
بالأَسْرَى ، وقِلّة المُرَاقِمة والأَرعواء .

تحميد

الحمد لله حمدا يكون رضاه متناه ، والمزِيد من فصله جِراءه . والحمد لله حمدا اليه يتناهى
حد الحامدين ، وشكرُ الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحْصَى سَمَائُهُ ، ولا تُجْزَى آلاؤُهُ ، ولا
يُكَافَأُ بِلَاؤُهُ ، ولا يُبْلَغُ شُكْرُهُ إِلَّا بِمَنِّهِ وتوفيقه ، حمدا يرصاه ويتَّقَلُّه ، و زكوة لَدَيْهِ ، ويوجب
ما تَأْتِي للشاكرين مِن يَدِهِ .

تحميد على فتح

أما بعد ، فالحمد لله الواحد القهار ، العزيز الجبار ، دى المَنّ والإِعَام ، والجلال والإِكْرَام ؛
الذى أَصْطَفَى الإسلام دِينا ، وَأَصْطَفَى لَهُ مِن عِبَادِهِ أَهْلًا هَدَاهُمْ لَهُ ، وَأَكْرَمَهُمْ بِهِ وَبِئْسَ
لَهُمْ مَا يَاتُونَ ، ولم يتركهم فى رَيْبٍ مِن أَمْرِهِمْ ، ولا شُبهةٍ مِن دِينِهِمْ ، فله المَحْبةُ البالغة لِيَهْلِكَ
مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْتِهِ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْتِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

والحمد لله الذى ختم مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم النبوة ، وأَتَجَبَّه لِتَلِيعِ الرِّسَالَةِ ، وعنه إلى
خَلْقِهِ كافّة ، فَلَقَّعَ رِسَالَتَهُ ، وَصَدَعَ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَ فِيمَا عِنْدَهُ لَهُ بِحَقِّهِ ، ثُمَّ أُنْخِزَ لَهُ وَعْدُهُ ، وَأَتَمَّ لَهُ
كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دِينَ الإسلام به على الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

تحميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله الأوّل الآخر ، الظاهر الباطن ، الولي الحميد ، القوى العزيز ،
الذى لا يَقْدُرُ الْعِبَادُ قُدْرَتَهُ ، ولا يُحْصَوْنَ عِيسَهُ ، ولا يُلْفَوْنَ شُكْرَهُ ، المحيِّطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ،

والمُحْصَى كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا - فَلَا تُعْجِزُهُ كَبِيرٌ، وَلَا يَعْرِبُ عَنْهُ صَغِيرٌ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سَحَابُهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تحميد

الحمد لله المتَّوَحَّدُ بالخَلْقِ والأَمْرِ، فَادْرَا قَاهِرًا أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ
عَدَدًا، وَمَلَأَهُ عَظَمَةً، وَوَسَّعَهُ عَدَلًا، وَأَتَقَهُ صُغَرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّ بِالْحَقِّ مَنْ أَطَاعَهُ،
وَأَدَلَّ بِالطَّائِلِ مَنْ عَصَاهُ، وَحَمَلَ الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ حِرْزًا حَرِيرًا، وَمَوْتَلَا مُنِيفًا؛ فَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ
أَهْلِ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ، وَطَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ، إِلَّا تَوَحَّدَ بِالصَّبْرِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَأَنْجَحَ سَعْيَهُمْ،
وَأَعْلَى كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْلَحَ مُحْتَمِسُهُمْ، وَأَنْزَلَ أَهْلَ الْكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ عَنْهُ، الرَّاذِينَ لِأَمْرِهِ الدُّلَّةَ
وَالصَّغَارَ فِي عَاحِلِهِمْ وَأَحْلَاهُمْ، حَمْدًا يَكُونُ لِمَزِيدِهِ مَوْجِبًا، وَلِحَقِّهِ مُؤَدِّيًا .

تحميد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أَمَّا بَعْدُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمِيدِ الْحَمِيدِ، الْفَعَّالِ لِمَا يَرِيدُ، الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ،
وَأَمْضَاهُ عَلَى مَشِيئَتِهِ، وَدَبَّرَهُ بِعِلْمِهِ، وَأَظْهَرَ فِيهِ آثَارَ حِكْمَتِهِ الَّتِي تَدْعُو الْعُقُولَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ،
وَتَشْهَدُ لِدَوَى الْأَلْبَابِ رُبُوبِيَّتَهُ، وَتَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ فَيَاوِزَعَهُ،
وَلَا مَعِينٌ عَلَى مَا خَلَقَ فَتُلَوِّمُهُ الْخَاطِئَةُ إِلَيْهِ، فَلَيْسَ بِتَصَرَّفٍ عَادَةٍ فِي حَالٍ إِلَّا كَانَتْ دَلِيلًا
عَلَيْهِ، وَلَا تَقَعُ الْأَنْصَارُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا كَانَتْ شَاهِدًا لَهُ، بِمَا رَسَمَ فِيهِ مِنْ آثَارِ صُغَرِهِ، وَأَبَانَ فِيهِ
مِنْ دَلَائِلِ تَدْبِيرِهِ، إِعْدَادًا بِحِجَّتِهِ، وَتَطَوُّلًا بِعَمَمَتِهِ، وَهَدَايَةً إِلَى حَقِّهِ، وَإِرْشَادًا إِلَى سَبِيلِ
طَاعَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ، الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، الَّذِي أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ وَأَخْتَارَهُ، وَآرْتَضَاهُ
وَطَهَّرَهُ، وَأَعْلَاهُ وَأَطْهَرَهُ، جَعَلَهُ نُحْمَةً أَهْلَهُ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ، وَوَسَّيْتَهُمْ إِلَى النَّصْرِ عَلَى [مَنْ]
عَدَّ فِي حَقِّهِمْ، وَأَتَنَّى عِزَّ سَبِيلِهِمْ . وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ يَدْعُونَ إِلَى حَقِّهِ، وَيَهْدُونَ إِلَى سَبِيلِهِ،

بالآيات التي يبيّن بها عن المخلوقين، ويوجبون بها المحجة على المحالين، حتى آتته كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم؛ على حين فتره من الرسل، واختلاف من الملل، ودثور من اعلام الحق، وأستعلاء من الباطل، والناس عاندون عن سبيل ربهم، يتسافكون دماءهم، ويحثلون ما حرم الله عليهم، ويعبدون من دون الله مالا يصرفهم ولا يسمعهم، وأيدّه بالبرهان الواضح، والمجّج القواطع، والآيات الشواهد؛ وأزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وحمل فيه أوضح الدليل على رسالته، وأعدّل الشواهد على نُوته، إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مرّ الأيام، وكثره الأعداء والمنازعين، تتحداهم به في المواسم، ويقصدّهم بمجّته في المحافل، ولا يزدادون عنه إلّا حُسورا وعجزا، ولا تردّد حجة الله عليهم إلّا تظاهرا وعلوا، ثمّ أيدّه بالصر بأصاير آلف بينهم بطاعته، وجمعهم على حقه، ولم تشعّهم بضرة دينة، بعد الشقاق المتّصل بينهم، والحرب المفرّقة لجماعتهم؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيدَاكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُنْزِيلِينَ﴾. وقدم إليه وعده النصرة والتكفين، فجعله بشري للؤمنين، ومجّبة على الكافرين، ودليلا على ما بعثه به من الدين، فهزم القليل من عددهم الكثير من عدد أعدائهم، وغلب بضعمائهم أهل القوة ممن أوأهم، فقلّ به حدهم، وفصّ جموعهم، وأفتح حصونهم، وحرّز معافلهم، وأطهر بمجّته ونصره عليهم. وأنجز سابق وعده لهم وفيهم، والله لا يُخلف الميعاد.

تمجيد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة، والآلاء الطاهرة، الذي لا يُعجزه شيء ولا يتمتع به، ولا يُدفع قضاؤه ولا أسرّه، ﴿وَأَمَّا أَسْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه، ودبر الأمور بحكمه، وأغذ فيما آحتر وأصطفى منها عزّمه، بقدره منه عليها، وملكة منه لها، لا معقّب لحكمه، ولا شريك له في شيء من الأمور، يخلق ما يشاء ويختار. ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم، سبحانه الله وتعالى عما يشركون.

والحمد لله الذى جعل صَفْوَةَ ما آخِثَار من الأمور دِينَهُ الذى أَرْتَصَى لِنَفْسِهِ وَلَمَنْ أَرَادَ كَرَامَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَمَقَامُ بِهِ مَلَائِكَتُهُ الْمُقَرَّبُونَ ، يُعْظَمُونَ حِلَالَهُ ، وَيُقَدَّسُونَ أَسْمَاءَهُ ، وَيَذْكُرُونَ آلَاءَهُ ، لَا يَسْتَحْسِرُونَ عَنْ عَادَتِهِ وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَبْقُرُونَ ، وَقَامَ بِهِ مَنْ آخِثَار مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَخُلَفَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي أَرْضِهِ ، يُطِيعُونَ أَمْرَهُ ، وَيَذُبُّونَ عَنْ تَحَارِمِهِ ، وَيُصَدِّقُونَ بَوْعَهُ ، وَيُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِ ، وَيَأْخُذُونَ بِحَقِّهِ ، وَيُجَاهِدُونَ عَدُوَّهُ ، وَكَانَ لَهُمْ عَدَمٌ مَا وَعَدَهُمْ مِنْ تَصْدِيقِهِ قَوْلَهُمْ وَإِفْلَاحِهِ حَقَّتْهُمْ ، وَإِعْزَازِهِ دِينَهُمْ ، وَإِطْهَارِهِ حَقَّتْهُمْ ، وَتَمَكُّنُهُ لَهُمْ ، وَكَانَ لَعْدُوهُ وَعَدُوَّهُمْ عَسَدٌ مَا أَوْعَدَهُمْ مِنْ نَجْرِهِ - وَإِحْلَالِهِ نَاسَهُمْ ، وَأَنْتَقَامَهُ مِنْهُمْ ، وَعَصِيصُهُ عَلَيْهِمْ ، مَصَى عَلَى ذَلِكَ أَمْرُهُ ، وَبَعْدَ فِيهِ قَصَاؤُهُ فِيمَا مَصَى ، وَهُوَ مَحْصِيهِ وَمَقْدُهُ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَقِيَ ، لِيَتِمَّ بَوْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وَلِيُحِثَّقَ الْحَقُّ وَيُظَلَّ الْبَاطِلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

والحمد لله الذى لَا يَقْصِي فِي الْأُمُورِ وَلَا يَدْرَحُهَا عُرُهُ ، اسْتَدَّهَا بِعِلْمِهِ ، وَأَمْصَاهَا بِقُدْرَتِهِ ، وَهُوَ وَلِيُّهَا وَمُنْتَهَاهَا ، وَوَلَّى الْخَيْرَ فِيهَا ، وَالْإِمْصَاءَ لَهَا أَحَبُّ أَنْ تُمَصَّى مِنْهَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَ سِوَا اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الفتاح العليم - العرير الحكيم ، ذِي الْمَتْنِ وَالطُّوْلِ ، وَالْقُدْرَةِ وَالْحَوْلِ ، الَّذِي لَا تُمَسَّكَ لِمَا فَتَحَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَا دَافِعَ لِمَا أُنْزِلَ بِأَعْدَائِهِ مِنْ تَقَمُّتِهِ ، وَلَا رَادَ لِأَمْرِهِ فِي ذَلِكَ وَقَصَائِهِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

والحمد لله المُثَبِّتِ مُحَمَّدَهُ وَمِثْلَهُ اسْتَدَّاهُ ، وَالْمُنْعِمِ شُكْرَهُ وَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ ، وَالْمُنْتَنِي بِالْإِيمَانِ وَهُوَ عِظَاؤُهُ .

لَا خَيْرَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَتَطَوَّلُ بِالْإِيمَانِ مُبْتَدِئًا ، وَيُعْطِي الْخَيْرَ مَنْ يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ عَلَيْهِ .

تحميد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر .

الحمد لله الذي نشر رحمته في بلاده ، وبسط سَعَتَه على عباده ، الذي لا يزال العبادُ منه في رزقٍ يَنْقَسِمُونَهُ ، وفضلٍ يَنْتَظِرُونَهُ ، لا يَنْقُصُهُ ما قَلَّه ، ولا يَنْقُصِي ما عَدَّه .

لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله وَلِيَّ الحمد ، وأهلِ البناء والمجد ، خالقِ الخلق ، ومُدَرِّ الأُمَر ، المسجع على عباده والمُوجِب عليهم ثُغْمَتَه ، فليسوا يرحون إِلَّا سَعَةً تَصِلُهُ ، ولا يَحْدُرُون إِلَّا ما أَحْتَرَحُوا من مَعْصِيَتِهِ ، لما سَق من حَرِيلِ إحسانه ، وتظاهر من أَمْنانِهِ ، وتَقَدَّم به الإِعْدَارُ والإِذَارُ اللذان لا يَسْتَحِفُّ بما عَطُمَ منهما إِلَّا مَنْ اسْتَحُوذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْخُدْلَانُ ، وقاده الجَيْنُ الى مواردِ الْهَلَكَةِ .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي أَصْطَفَى الإسلامَ دِيناً فَطَّهَرَهُ وَأَسَاءَهُ ، وَأَطْهَرَهُ وَأَعْلَاهُ ؛ وَزَيَّنَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ ، وَنَفَى عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ ، وَجَعَلَهُ الى مَذْخُورِ كَرَامَتِهِ سَبِيلاً وَاصِلاً ، وَسَبِيلاً نَهْجاً ، وَبَعَثَ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَهْدِيَ مَنْ كَانَ حَيًّا ، وَيُحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ .

تقريظه في الخليفة

الحمد لله الذي أَصْطَفَانِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِحِلَاقَتِهِ ، وَتَلَاقِ الْأُمَةِ بِسُلْطَانِهِ ، لِيُجْعَلَ الْقَائِمُ فِيهِمْ بِقِسْطِهِ ، وَالْمُسْتَفْرَعُ فِي أَلْتَمَاسِ مَصْلَحَتِهِمْ هَمَّهُ .

لأحمد بن يوسف

عن دى الراستين الى ابراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذي حَفِظَ مِنْ دِينِهِ ما ضَيَّعَ الْمُلْحَدُونَ ، وَرَأَبَ مِنْهُ ما [فَرَقَهُ] ^(١) الصَّدْعَةُ ؛ وَأَعَادَ مِنْ حَبْلِهِ ما حَاوَلُوا تَقْصِيَهُ ، حَتَّى أَعَادَ لِعِبَادِهِ أَحْسَنَ أَلْقَتِهِمْ ، وَرَدَّ إِلَيْهِمْ أَجْمَلَ

(١) يامر في الأصل . وما أثبتناه ياسب المقام .

قُودِمَ، من الاستشلاء بعد التردى و حُجِّمَ المعاطب، والاستنقاد بعد التوريط في المهالك؛ وبلغ حليفته القائم بحقه، المؤتم بكاتبه، الذائد عن حريم الدين، وميراث النبيين، أبزل ما بلغ لخلقاء الراشدين المهديين، من إعلاء الكلمة، وظلبة الأعداء، والفوز بالعاقبة التي وعدّها المتقين؛ وورغه لما أشعر قلبه، وشرح له صدره، من إمضاء حكم الفرائض الموجبة، واقتفاء السبيل الهادية، حيث سلك به من المباح، حمداً نوازى بعمره، ويلع أداء شكره، ويوجب مزيده .

والحمد لله على ما حصصا به من إعلاء الدرجة، وإسقاء الرتبة، في مشايعة أمير المؤمنين — أيده الله — والمُحَادَّةِ عى حقّه، والوفاء لله بما عقده له، لا يريد بما كان متاً إلّا وجهه، ولا نسعى فيه إلّا لرصاه، حمداً لا يَحْصَى عدده، ولا يَنْقُطع أمدّه .

تحميد لأبي عبيد الله

أما بعد، فالحمد لله دى الآلاء والقُدرة، والطول والعروة، الذى أصطفى الإسلام ديباً لنفسه، ولائكته وأنبياؤه ومن كرم عليه من خلقه، فبعث به نبياً صلى الله عليه وسلم احتصاصاً له في ذلك تكمالاته، وأصطفاه له به على عباده، فأعزّه ومعه، وكرماه وحاطه، وتوكل لأهله بالعلم والتحكين، والطهور والتأييد، فلم يُلحِد فيه ملحد، ولم يَزِعْ عى قبول حقّه رافع، بعد إصدار الله إليه، وإعادته المُحَمَّه لله عليه، إلّا أنزل به من الدّل والصُّعَار والاجْتِيَا ح والاستئصال ما يجعل له فيه قعماً، حمداً كثيراً دائماً مُرضياً له، مؤمناً من غيره،، وحباً لأفضل مزيد نوابه .

تحميد لسعيد بن حميد في فتح

أما بعد، فالحمد لله المُثَمِّم فلا يبلغ أحدُ شُكْرَ نعمته، والقادر فلا يُعَارِصُ فى قدرته، والعزيز فلا يُغَالِبُ فى أمره، والحكم العدل فلا يُرَدُّ حكمه، والصابر فلا يكون نصره إلا للحق وأهله، والمالك لكل شىء فلا يخرج أحد عن سلطانه، والهادى إلى سبيل رحمته فلا يَصِلُ من أنقاد لطاعته، والمُقدِّم لإعداره لِيُظَاهِرَ به مُجْتَمَعَه، الذى جعل ديبه لعباده رحمة، وحلافته عصمة، وطاعة خُلفائه فرضاً واجبا على كافة الأمم، فهم المُستَحَقُّون فى أرضه

على ما عث به رُسله ، وأُمنّاؤه على حلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحااملون لهم على مناهج حقه ، لثلاث شُعب هم الطرق المخالفة لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الحادة التي نَدب إليها عباده ، بهم حُجى الدين من البُغاة الطاعين ، وحُصِطت معالم الحق من الغواية المخالفين ، مُحْتَمِّين على الأمم بِكُتاب الله عز وجل الذي أَسْتَعْمَلَهُمْ بِهِ ، وَرُعَاةً لِلْأُمَرِ بِحَقِّ اللَّهِ الَّذِي أَخْتَارَهُمْ لَهُ . إِنْ جَادَلُوا كَانَتْ مُجِبَّةُ اللَّهِ مَعَهُمْ . وَإِنْ حَارَبُوا فَالْصَّرْهُم ، وَإِنْ حَاحَدُوا كَانَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ نَصْرُهُمْ ، وَإِنْ نَفَاهُمْ عُدُو كَاتِ بِكَايَةِ اللَّهِ حَائِلَةٌ دُونَهُمْ ، وَمَقِيلًا لَهُمْ ، وَإِنْ كَادَهُمْ كَانَدَ اللَّهُ فِي عَوْسِهِمْ . نَصَبَهُمُ اللَّهُ لِإِعْزَازِ دِينِهِ ، فَمَنْ عَادَاهُمْ فَلَمَّا عَادَى الَّذِينَ عَزَّاهُمْ وَحُرَّسَ بِهِمْ حَقَّهُ ، وَمَنْ نَاوَاهُمْ فَلَمَّا طَمَسَ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي تَكَلَّفُوا حِرَاسَتَهُمْ ، جِيوشُهُمْ بِالرَّغْبِ مَصُورُهُ ، وَكَتَابُهُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ مِنْ عُدُوِّهِمْ مَحْوَطُهُ ، وَأَيْدِيهِمْ بِذَنبِهِا عَنْ دِينِ اللَّهِ عَالِيَةٍ ، وَأَشْيَاعُهُمْ بِتَنَاصُرِهِمْ غَالِبَةٌ ، وَأَحْرَابُ أَعْدَائِهِمْ بِغَنِيهِمْ مَقْمُوعَةٌ ، وَتُجْتَنَبُ عَدَاةُ اللَّهِ وَحَلْفُهُ دَاحِضَةٌ ، وَوَسَائِلُهُمْ إِلَى الصَّرِّ مَرْدُودَةٌ ، وَأَحْكَامُ اللَّهِ مُحْذَلَانَهُمْ وَأَقْعُهُ ، وَأَقْدَارُهُ بِإِسْلَامِهِمْ إِلَى أَوْلِيَائِهِ حَارِيَةٍ ، وَوَعَادَتُهُ فِيهِمْ وَفِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ مَاضِيَةٌ ، لِيَكُونَ أَهْلُ الْحَقِّ عَلَى يَقِينِهِ مِنْ إِنْخَاذِ سَابِقِ الْوَعْدِ ، وَأَعْدَاؤُهُ مَحْجُوجِينَ بِمَا قَدَّمَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْذَارِ ، مُعْجَلَةً لَهُمْ نِقْمَةُ اللَّهِ بِأَيْدِي أَوْلِيَائِهِ ، مُعْتَدًا لَهُمُ الْعَذَابَ عَسَدَ رَدِّهِمْ إِلَيْهِ نِخْرِيًا مَوْصُولًا بِوَأَسِيهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ مِنْ وَرَائِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ أَمِينِهِ الْمُصْطَفَى ، وَرَسُولِهِ الْمُرْتَضَى ، وَالْمُنْقَدِّ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْعَمَى ، صَلَاةً نَامِيَةً بِرُكَّائِهَا ، دَائِمًا أَنْصَالُهَا ، وَسَلَمَ تَسْلِيمًا .

والحمد لله تواضعا لمظلمته ، والحمد لله إقرارا برؤيته ، والحمد لله اعترافا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من مازل كرامته .

فِي مَا يَقَرِّظُ بِهِ الْخَلِيفَةُ

والحمد لله الذي حاز لأُمير المؤمنين وراثته ، وساق إليه خِلافته ، بِالْحَاجَةِ مِنْهَا إِلَيْهِ ، وَالرَّضَا مِنْهُ عَنْهَا ، وَأَسْتَخْلَصَ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ حَمَلَهُ ظُلْمًا لِلْهَوَادِثِ ، وَعُدَّةً لِلنَّوَازِلِ ؛ فَلَمَّا

أفصت الخلافة إليه حيدر أمامه أحاجته ، وكشف قناعه لمُحاربتَه ؛ فالحمد لله الذي اختص أمير المؤمنين بخلافته ، وأرضاه لولاية أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والقيام بحقه ، والدب عن حرُماته ، وحاط له ما أسترعاه من ذلك ، وقلّده بحسن الولاية والكفاية ، وتوكل له بالحفظ والتأييد ، والنصر والغلة والطهور على من عند طاعته ، وصَدَفَ عن حقه ، وأبَتَقَى غير سبيله ، كرامة من الله تطوّل بها عليه ، ومِمةً مه توحّد بها له .

والحمد لله الذي جعل نية أمير المؤمنين عَزِمَتَه ، وفكره ورَوِيَتَه ، مسد أقصى الله بالخلافة إليه ، وحمله القائم بإرث نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عز الدين ، وبطام أمر المسلمين وترهين الشكر ، وإذلال الأعداء ، وإشقاؤهم ووقمهم ، وتحصين البيضة ، وإشخال الثغور ، ولم المُتَشَرِّ ، وصم الأطراف ؛ لا يفتأ عن ذلك فائئ ، ولا يذّهلّه عن تفقد كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهل ، يستقل كثير ما يُنْفِق من الأموال في سد الثغور ، وتحصينها وحراستها ، لما يرحو فيه من حسيم الخط ، وجريل الدحر ، وكثير الأجر ؛ تقربا الى الله وأحتسابا له في جنب ثوابه ، وكريم مآبه ، حتى رآب به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأتم به السبل ، وأقام به العوج ، وأفليج به الحُجج ، وأعلى به الدرّج ، وأرهق به الباطل ، وأحيا به الحق ، وأشام به سيوف أهل الصلاة والفِئْتَة ، لا تأخذ في القيام بحق الله والانتصار لديسه ، والانتصاح لأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والدب عن حوزتهم ، والرمي من ورائهم ، ودفع نائقة أهل الشقاق والنفاق والخلاف والمقصية عنهم فترة ولا سامة ، توفيقا من الله ، وتسديدا لحرُمته ، وتأبيدا لعزمه ، إذ كان لله شاكرا ، ولديسه ناصرا ، وبحقه قائما ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله وحده ، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذي لم يزل منذ أقصى الى أمير المؤمنين بخلافته ، وحياء مكرامته ، يَخْصِمُه بالخيرة في كل ما أمضى من أمره ، ويتولاه بالتوفيق في كل ما أبرم من تديره ، ويجل عنه

أعزاء ما حمّاه ، ويُعينه بتأييده على ما قلّده ، ويحوطه بحبل الصبح فيما ولاه وأستحفظه ،
ويُلهمه جهاد عدوه ، ويحوه بنصره ، حمدا قاصيا لحق نعمته ، مُوجبا أفضل مريده .

والحمد لله الذي أورث أمير المؤمنين مواريث نبوته ، وصير اليه مقاليد خلافته ،
وأوجب ذلك له بالقرباه برسوله صلى الله عليه وسلم ، والوراثه لوراثته من عُصْبته وأولى الناس
به ؛ ثم أعزّ نصره ، وأعلى كلمته ، وأهلج حُجّته ، وأظهر على المشركين والمناقين ، ومن حاذه
وعانده من الناكثين والمارقين ، والبايعين والملحدس ، فأتعس حدودهم وفعل وفعل .

والحمد لله الذي عرّف أمير المؤمنين مدد استحلّقه في أرضه ، وأثمه على خلقه ، من
عظيم نعمه ، ولطيف صنعه ، وجميل بلائه ، وأعزّار نصره . وأعلاء مذهبه وكلمته ، وإفلاج
حُجّته على من صاده وحاذه ، إنّ الله عظيم طولُه ومَنه آرْتَصَى أمير المؤمنين لدينه ، وأصططعه
لخلافته ، فلاح سُرّالها ، ورداه بهاءها وجمالها ، فاستعمله بالكتاب والسنة والحق والعدل
فيها ، فأيدّه بقوّته ، وأعزّه بنصره ، وحاطه بكفائته ، وتولّى الصّبح له في جميع أموره . فلم
يَكِدْه كائداً ، ويُعانده مُعانداً ، ويَتَرَفّقْ عن طاعته الواجبة ماريق ، ويُبلّد في إمامته مُلحد ،
تمن يُعائِن بمعصيه ويشقاق ، أو ينطوي على عِلّ ويفاق ، إلّا أَوْهس الله كيده ، وأتعنس جذه ،
وعاجل المبادئ بعداوته . الشاهر على الدّين والمسلمين سيفه ، ناصطلام ونوار ، وأمكن
مه بدلة وصغار ، وقتل المسرّ عيره ، المُنطوي على عِلّه بغيظه وعمه ، وأماته بدائه وحسرنه ،
إنجازا منه حلّ ثاؤه لوعده ، وإتماما لكلمته فيما وعد الدين آمنوا وعملوا الصالحات من
أستحلامهم في أرضه ، والتّكئين في دينه ، وله الحمد دائما ، والشكرُ خالصا ، كما هو أهله وكما
يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَدَ وَيُشْكَرَ ، لا إله إلّا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذي لم يُبقْ لأمر المؤمنين عدوا من الناكثين والحادّين ، والمشركين
والمناقين ، حاول نقضا لإمامته التي صيرها الله اليه ، وقلّده إياها ، أو صاول حيشا من
جيوشه التي أعدّها لحماة دين الله ومحارمه ، وإقامة سننه ومعاله ، إلّا أحلّ به التّقمة ،
وأصاره الى الصّغار والدّلة ، والبوار والهلكة ، وعجّله الى ناره وعدابه .

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين بحياضه ، ويتوحد له من إعزاز نصره وإعلاء كرامته ، وإصلاح مجته ، وتأييد أوليائه وأنصار حقه ، وأنزل الناس والقمة والمثلثات والسطوة بمن عانده ، والذت عن حريم المسلمين وأهله بما يتيقن به عن مكانه منه ، ومنزلته عنده ؛ حميدا ربنا بذلك كما هو أهله ومستحقه ، مشكورا بعظيم منته فيه وطوله ، مسؤلا لتمام أحسن عائدته وما يصي سته ، فإن الله المحمود على نعمه ، المشكور بالآلانه ، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين لسلطانه من التعزيز ، وفي أوليائه من التأيد بصره ، عادة يتيقن بها برهانه ، ويُفْلج بها مجته ، ويدل بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويعمل ما نزل بأعدائه المتولين عنه ، الراغبين إلى عيره ، المُلحدين في حقه ، عِظَه لمن قسا قلبه ، وران عليه سوء عمله ، ليكون ما يُعطيه من البسط في ملكه ، والتمهيد فيما خوّله له ، ويُوقّفه من السطوة بعدوه ، والتكيل بمن حاله ، مُجْتَبَيْن متظاهرين ، وعبرتين سعن ؛ فيعتصم مُعْتَصِم ، ويعجو ناچ ، وليشجّب [شاجب] ^(٢) ويهلك هالك ، وقد مضت من الله المشيئة ، ووضح منه الإعدار ، وكان الله عباده عليا ، وأعمالهم خيرا .

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بحلّاقته : وحعله وارث وحيه ، وقبّمه بكتابه في عاده ، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس به ؛ فهو الميمون في تديره المنهج حويله ، الميمون في النية ، الموفق الرأي والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خلق الخلائق قدرته ، وأختارهم بعلمه ، فاختر أمير المؤمنين لخلافته ، وأصططعه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقسطه ، وأهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعمل بحقه وعدله ، وأبلى أهل الشرك به ، وأخرها إلى أيام دولته ، وحظرها عمن كان قبله ؛ حتى حازله أجزها ، وأبق له سناها وذكرها ، ونشر عنه أهدوتها وسماعها ؛ وفتح عليه البلدان القاصية ، والمدائن المتناية ، التي لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يُطمع في زوالها ؛ وذلت له الملوك القديم عتوها وعنادها ، والأئم المستصعب مراسها وجهادها ، الحامية في آباد الدهور حماها ؛ فانفذ فيهم مكيدته ، وأنجح

(١) كذا في الأصل ، ولعلها بالفتح . (٢) كذا في الأصل ، ولعلها وليشجب .

سَعِيَّةً ، ورماهم بالتحويف ، وملأ قلوبهم رُعباً منه ؛ فأدعى مُدْعِيَهُمْ بطاعته ، وأنقادوا لأمره ، وصاروا يداً وأعواناً لأوليائه على أعدائه .

أما بعد ، فإن أعظم العَمِّ قَدْرًا ، وأحلها أمراً ، وأسرّها مَوْقِعًا ، وأوجبها شُكْرًا ، ما عَمَّ الإسلام والمسلمين نَفْعُهَا ، وعادت عليهم عَائِدَتُهَا ، وحمل الله فيه عِزَّ الدين ، ودَلَّ المشركين ؛ وقد جعل الله ذلك في حِلَافَةِ أمير المؤمنين أطال الله نِقاءَ عِيَمِهِ وبركاته ، وما أحلص الله من نِيَّتِهِ وطاعته ، وتَأْدِيَةِ حَقِّهِ فيها استحفظه من أمر دِيْنِهِ وعباده ، ووَفَّرَ لَهُ نَفْسَهُ ، وأَنْصَبَ فِيهِ بَدَنَهُ ، وأسهر فيه لَيْلَهُ ، من حِيَاظَةِ حَرِيمِ الإسلام ، والزِيَادَةِ فِي حَدُودِهَا مُتَّصِلًا مُتَّاعًا ، والْعَمِّ مَتَظَاهِرَهُ وَمُتَوَافِرَهُ ، فَسَهَّلَ الصَّعْبَ ، ودَلَّلَ لَهُ الْعَزِيزَ ، وَقَصَّمَ عُتَاةَ الْأَعْدَاءِ وَتَكْبِيرِيَهُمْ ، والمستعصين والمستصيعين منهم ، في آبَادِ الدُّهُورِ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ ، وفتح عليهم حصون مدائنهم ؛ ومَتَّعَ قَلَاعَهُمْ ، وأَعَدَّ مَكِيدَتَهُ فِيهِمْ ، فَبَيَّنَ مَقْتُولَ وَمَأْسُورَ ، وشَرِيذَ طَرِيدٍ عَنِ مَحَلَّتِهِ ، ومَوَاصِعَ عِزِّهِ وَمَنْعَتِهِ ، مُسْتَسْلِمَ مُعْطِي قِيَادَتِهِ بِأَحْبَبِّ بَطَاعَتِهِ ، وكَدَا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَنِّهِ وَطَوْلِهِ قَدْ أَوْصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ صُنْعِهِ لَهُ فِيما قَلَدَهُ مِنْ حِلَافَتِهِ ، وَحِيَاظَتِهِ إِيَّاهَا فِيما يَحِيطُوهُ مِنْ دِينِهِ ، وَعَرَفَهُ مِنْ كَيْفَايَتِهِ فِيما قَامَ بِهِ مِنْ حَقِّهِ ، وَأَيَّدَهُ مِنْ تَصَرُّفِهِ فِيما جَاهَدَ عَنْهُ فِي سَبِيلِهِ ، ما قد جعل النِّعْمَةَ بِهِ عَامَةً ، والشُّكْرَ بِهِ لَازِمًا ، وَابْتِغَاءً بِهِ وَاجِبَةً ، وَالصَّعْبَ عَظِيمًا ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى بَعْمِهِ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا .

والحمد لله الذي جعل أَجْتِهَادَ أمير المؤمنين ومَقَامَ أمره وتَدْيِيرَهُ ، في آتَاءِ اللَّيْلِ وَنَهَارِهِ ، فِيما فِيهِ صَلَاحُ عِبَادَتِهِ ، وإِعْزَازُ دِينِهِ وإِقَامَةُ حَقِّهِ .

تَحْمِيدُ

الحمد لله الذي لَمَّا آفَرَضَ مِنَ الطَّاعَةِ لَوَلَاةَ الْأَمْرِ مِنْ حُلَفَائِهِ جَعَلَ أَوَائِلَهَا نَاطِقَةً عَنْ فَضْلِ أَوَائِلِهَا ، وَبَوَادِئُهَا مُخْبِرَةً عَنْ حَيْدِ عَوَاقِبِهَا ، وَمَوَارِدُهَا مُبَشِّرَةً بِالْمَلُوقِ مَصَادِرُهَا ، بِمَا يَتَّقِبُهُ أَهْلُهَا مِنَ السَّعَادَةِ فِي الْمَاضِي مِنْ أَوْلِيَائِهَا الْقَائِمِينَ بِحَقِّهَا ؛ وعَادَ مِنَ الشَّقَوَةِ عَلَى مُقَارِبِي الْمُعْصِيَةِ الْمُتَحَدِّينَ إِلَيْهَا ؛ حِينَ أَقْبَلَتْ بِهِمْ هَوَادِي الْعَيْنِ ، وَكَشَعَتْ لَهُمْ تَوَالِيَهَا عَنِ الْبَوَارِ

والملكّة ، مُعتدّين حين لا عدو ولا مُجبة ، طالين للهِارِبِ بعد أن كانت مازِلُ السلامة بهم مُطمَئِنّةً ، وحائِصين وقد كانت سُبُلُ الأُمس لهم واصحةً ؛ قد جعلتهم النّعمة الواقعةُ بهم أمثالا سائرةً ، وفزّقت بينهم وبين النّعم الشّاملة ، وحصلت السّعادة لم تنقطع بهم باقيةً ، سنة من الله فيهم ماصيةً ، وعادة حاريةً ، ولن تحدّ لِسنة الله تديلا ولن تحدّ لِسنة الله تحويلا .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته لحرس به دينه من البُغاة الباكِسين عنه ، وأختصّه بأعلاء رُتب كرامته ، وأقرض طاعته على عاده ، وجعلها بمواقفها في دينه نظاما لسائر فرائضه ، فشاركها مفارق لِعِصْمه حقّه ، حارِجٌ من جملة الأئمة التي سبقت لها رحمتُه ، يستنصر أشياخ الباطل والله حاذلُه ، ويُعالِ الحقّ والله عالُه ، ويطلب مالا سبيل له اليه والله طالُه ، حتّى يجلبه أجلُه عن أمَلِه ، وأقدارُ الله فيه عن تقديره ، ويؤدُّ قضاء الله فيه عن نفوذ حيلِه ، فصلا من الله على أوليائه وقضاء مِه عدلا في أعدائه ، والله ذو الفصل العظيم .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لرعاية عبادِه ، وحفظ نِبلِه ، وتعميد أحكامِه ، وإقامِه حدودِه ، بجمع به الأئمة ، وكفّ به نوائق العِصّة ، وأصلح به أمور الأئمة ، وسكّن به الدهماء ، ودفع به عظيم البلاء ، وأتقّد به من الجُهد والآواء ، وجدّد لرعيّته العبر الشّافية ، والعِظّة النّاهية ، وجعل همّه السّعى لرّبه ، وطلّب الحقّ الذي أوحى له من خلافته ، ليؤدّي فرصه في الأمانة التي حملها ، فيُوح له بذلك مالا يزول ولا يتقطع من ثوابه ، فأعمل رأيه في الرّافة بمن ولّاه أمره ، والحياطة له ، والعناية بصلاحهم ، فأعطاه لِبِ المواعظ في وقت الثّاني ، والنفوذ لإقامة المُحْنة واليّبة ، وشِدّة السّطوة على مَنْ عمط النّعمة وعَدّه الإصرار عن الرّوع والقيّة ؛ ممّا من الله وتفضلا ، وإحسانا وتطوّلا ، والله ذو فصل عظيم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُتدينا ومُعقّبا ، وأقولا وآتِرا ، وقسل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رِعة ، ومُقدّمة كلّ طَلِبة ، أن يُصلّي على صفوته من عبادِه ، وحيرته وخاتم أنبيائه ورُسله ، محمّد عبده ورسوله ، أوصل صلواته ، ويبارك أكثر بركاته ، وأن يديم له كرامته ، ويُجرى عنده أجمل عاداته ، ويُتمّم له ما أختص به من إحسانه ؛ حتّى يملأ الأرض عدلا وقِسْطا ،

والإسلام تأييدا وعِزًّا، والشُّرك ذُلًّا وقَعًّا، إنه وليَّ كلِّ بَعْمَة، ومُستَهْي كلِّ رَعْمَة، وعَايَةُ كلِّ حَاجَة .

ولم يزل أمير المؤمنين مدد الوقت الذي أفصى الله اليه بحِلافته ، وأكرمته برّد حقه من إرث نُبوّته ، يتلقّى عظيم العمة في ذلك بالإخلاص للبيّة والطّويّة في الصّبح عن كلّ زَلّة ، والإفالة لكلِّ عَثْرَة ، والتعمد للهفوه وقبول الفَيْئَة ، والإبابه من عظم جرمه ، وجَلّ دُبه ، وطن أن لا توبّة له ، وكلما حدّد الله له نعمه ، حدّد له في ذلك نيّة حسّسه ، شكر الله عزّ وجلّ على ما ابتدأه به ، وارنّها لبعمه عدّه ، واسرّادّه من جميل مواهبه ، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رعيّته ، واستنقاة أهرها ، وحياطتها والدبّ عنها ، وكفّ الأذى والمكروه عن الداني والقاصي منها ، ويحلّص إلى ذلك بكل ما يحدّ اليه السبيل ويجهّد فيه ، ويعملُ الكثرة أوقات دهره في كلّ ما نلّعه محمّته بطرا لها ، وحدّبا على كافّتها ، وإشعافا من سوء حالها ، إذ كان لها والدّا برّا ، وراعيا كالثا ، وناطرا لطيفا ، ويستعمل كلّ ما يرجو اثلاها ، والإبقاء على أحوالها ، والسلامة لها في دينها ودنياها ، ويصّيب لذلك ليله ونهاره ، ويؤدّب فيه نفسه ، ويعمله شعله دون غيره .

والحمد لله الذي أصطفى أمير المؤمنين بحِلافته ، وأكرمته بإرث نُبوّته ، وجعل حِلافته حلافة يمين وبركة ، ولطف وسعادة ، انتاش بها أوليائه من . وورد الهاتكة فرفع منزلتهم ، وشرف درجتهم ، وأعلى كبريتهم ، وأدّل بها أعداءهم ، وحدّ دوارهم ، وردّ دائره السوء عليهم ، وجباه مزينة بصره وتمكيه ، وإعزازه وتأبيده ، وإطهاره على من ماواه وعند عن حقه ، وصدف عن طاعته ، فإن الله لما اختار أمير المؤمنين لحِلافته فأيدّه بها ، جعل الحقّ نيّته ، وإعزاز الدّين نعيّته ، ومحاهدة أعداء الله شرقا وغربا ورا وبحرا نهيمته وإرادته ، ثم يسره في ذلك لما أحسن به عونه ، على من استحفظه وقلده ، فصلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذى كان لساق عليه وسالف قضائه ، الذى لا يستطيع الناس رده ، ولا تمتعه ولا صَرفه ، مَا وَلَّى أمير المؤمنين من خلافته ، وما آتبعته له من الصرلديه ، والطلب لحقه ، والجهد لأعدائه ، وأحسن فى ذلك عونه فيه وبلاءه ، وأيده فى نفسه ، لم يَقْصِه حَدْلان حاذل ، ولا محالفه من حالف ، ولم يزد أمره فى شيء من ذلك إلا تماما وإحكاما ؛ حتى أظهر حقه ، وألجج حُجَّتِه ، وبحق باطل أعدائه ، وأدحص حججهم ؛ وجعل أهل طاعته حربه العالين ، وحُذِه المصورين ، وجعل عدوه وعدوكم حرب الشيطان الخاسرين ، وأولياءه الأدلّين ، بغير حول من أمير المؤمنين فى شيء مما ولّاه وأبلاه ، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصار اليه من الخلافة وإرث النبوة ، وجعله القائم بأمر عباده وبلايه ، وأنجى لسنه ، والدّاب عن دينه وحقه ، والمُنَاصِب لأهل الشرك والجحود به ؛ ثم بصره وأظهر فضل أيامه ودَوَلَتِه ، ومكّن له فى يلاذ عدوه ، وجعل كلمته العليا وأنصاره الغالين ، ومن ناواه من أهل الخلاف الأدلّين المقهورين ؛ وعرفه من نعمته فى ذلك ومسته وحيل صنعه وعاداته ، أحسن ما عود أحدا من أوليائه الذائين عن الإسلام وأهله ؛ حمدا مُتّابعا لا انقطاع له ولا أنصرام ، دون بلوع حقه ، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به فى المخالفين فى وقت الهزيمة

سكصوا على أديبارهم مَكْزومين مهزومين ، قد ضرب الله وجوههم ، وفَت فى أعضادهم ، ومنح الأولياء أكتافهم ؛ فقتلهم فى كل فج ، وعلى رأس كل تَلْعَة ومَهْرَب ومَسْلَك ؛ أباد الله خَضْرَاءَهم وغَضْرَاءَهم ، وحَصَد شوكتهم ، وفَل حَدْهم ، وأناح نيران صلاتهم وكفرهم ، وشقّى منهم الصدور ، وأدرك منهم الإحْن ؛ ونَقَلَ المسلمين أموالهم وذرايرهم ، وجعلهم لهم خَوْلا وعبيدا ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

والظهور والغلّة جراً من الله لمن أحلّه إلى المعصية وأبتغى غير سبيله المسلوكه . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عزّ وجلّ من صار إلى الأمصار منهم هرباً ، وأعصم بالحصون ، وتعوذ بالجلال ، ولاد بالقلّاع ، ولبأ إلى الأهدية ، من صَيَّاصِيهِمْ ، وأمكن من نواصِيهِمْ ، واسترحجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتوّذهم . وأحد أسيراً ذليلاً مكمّوا حائماً قد نحب الوحل قلّسه وملاً الرُعب صدره ، متوقّفاً أن يُرل الله به من القنات والمثلثات مالا مردّ له عن مثله من القوم الظالمين ، وفشت في الكفّرة الجراحات ، وعصتهم السيوف ، وشرعت فيهم القنا ، وهتتم نار الحرب ، وعالمهم أنزال ، ومارسهم الأبطال ، واستحزّ فيهم القتل ، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر ، فلم يطيقوا بالموت مرّاماً ولا على الحرب مُقماً .

في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله ، المكّدين آيابه ، الحاحدين رسّله ، الخالعين معه إلهاً ، لا إله إلا هو ، لطول مدّتهم ، وشدة شوكتهم ، وصعوبة مرامهم ، وقطعهم السبيل وآتاهم المحارم وسفكهم الدماء التي أوجب الله على مَنْ سفكها بغير حِلّها وأقترف وأحتمل وزرها ، أليم العذاب وشديد العقاب ، فأثوا إلا نجادياً في صلاتهم ، وعُتُوا في طُغيانهم ، وشبّوا على عصيانهم ، ومقاماً على كفرهم ، لأحداثه السالفة ، وعوائله المتقدمة ، وبوائقه المشجّية ، فوقف بملايين ثكل التقدّم وحقيقة الاصطلام في التآثر ، دعاهم إلى الفَيْئَة والمراحة والإنيابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة ، استنظهاها بالحمّة عليهم ، ورجاء لصع الله فيهم . فلما بلغهم نزول فيمن معي ، جمع أصحابه ، وصمّ جدّه ، وتحرز في معسكره ، وخندق على منزله ، وأحترس بجهده ، فأفقت مُعسكراً ، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رُسلِي وأدعوه إلى حقله ، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه ، وأعلمه أن له نظراً ممن عمّط الطاعة ، وسيفه الجماعة ، وقد ركضوا في الفتة عمرهم وسعّوا فيه دهرهم ، فأنشروا خبرهم ، وكثرت تبعهم ، وكبُر وزرهم ، ونقل وقهرهم ، ثم أدعنا لطاعتهم ، وأستقلوا

باهصين من عَثَرَتِهِمْ ، وَمتعشبن من رَلَّتِهِمْ ، فُعِثِرَتْ ذُوبُهُمْ ، وَقُلْتُ تَوْنَتُهُمْ ، وَوُسِّحَ لَهُمْ
 فِي أَمَانِهِمْ ، وَشُرُفَتْ مَنْزِلَتُهُمْ ، وَاسْتَدْلُوا بِالْخُوفِ أَمَّا وَالدَّلْ عِزًّا ، فَأَيُّ بِهِ مِيلَ الْهُوَى ،
 وَعَلَيْهِ الشَّقْوَةُ ، وَمُسْتَعْلَى الْعَوَايَةُ ، وَالْقَدَرُ الْحَارِبُ ، وَالْقَضَاءُ الْمَحْتَمُومُ . وَتَقَدَّمْتُ فِي مَوَاقِفَتِهِمْ
 وَتَرَعَيْتُهُمْ ، وَالْأَحْزَدُ بِالْحَقِّ مَعَهُمْ ، مِنْ عِيرِ قِتَالٍ ، وَلَا تَأْوِلُ سِلَاحٍ ، وَلَا تَتَوَاشَى صِيَالٍ^(١) ،
 وَعَرَصْتُ عَلَيْهِمُ الْوَيْلَةَ ، وَدَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانَةِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْأَمَانَ ، وَأَعْلَمْتُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ قَبِلُوا
 حِمْدَتَهُمْ وَأَحْدَثُوا نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَإِنْ أَوَّلُوا إِلَّا تَنَادِيَا فِي عَيْتِهِمْ وَنُكُوصًا عَلَى
 شِقَائِهِمْ ، وَلَيْتُ مَا جَرَّهَتْهُمْ وَعَرَفْتُ مِنَ اللَّهِ الْخَيْرَ فِي مَحَارِبَتِهِمْ ، وَأَسَمِعْتُ عَلَيْهِمْ وَأَسْتَكْفَيْتُهُ
 أَمْرَهُمْ ، وَرَحُوتُ حَسَنَ عِلْدَتِهِ عَدُوَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْنَالِهِمْ . ثُمَّ وَحَّهْتُ الْأَوْلِيَاءَ فَمَدُّوا
 نَحْوَ عَسْكَرِهِمْ لَيْلًا وَهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي رِحَالِهِمْ ، مُغْتَرِّبُونَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَدْ أَمِيُوا حُدُوحَ الْحَرْبِ
 وَمَكْرَهَا وَمَكِيدَتَهَا ، وَوَقَعَةَ السَّاتِّ وَهَوْلَهَا ، إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَهْلُ عِدَدٍ وَعُدَّةٌ ، وَنَاسٌ
 فِي أَنْفُسِهِمْ وَقُوَّةٌ ، اخْتَذُوا اللَّيْلَ حِمْلًا ، وَسَرَّوْا نَحْوًا يَرْجُونَ عِزَّتَنَا وَيَأْمُلُونَ عَفْلَتَنَا ، فَوَقَفَ
 حُدُودًا بِمَكَانِهِمْ أَحَدِينَ أَهْنَيْتُهُمْ ، مَتَمَسِّكِينَ بِطَاعَتِهِ فَمَا بِهِ إِمْرُهُمْ ، فَأَعْرَضْتُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ
 طَائِفَةً مَدْعُومَةً عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَبِالْوَهْمِ بِمَجْرَاحَاتٍ مَعَ قَتْلِ مَنْهُمْ عَدُوَّ تَوَاشَوْهُمْ ، ثُمَّ نَكَصُوا عَلَى
 أَدْبَارِهِمْ ، وَرَجَعُوا التَّهْقِيرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الْبَاقِينَ مِنْ سَرِيَّتِهِمْ ، فَاسْتَحَاشَوْهُمْ فَاجَاهُمْ
 بِالْمَكَائِفَةِ وَالْمُؤَازَرَةِ ، وَأَفْسَلُوا بِمَجِيئَتِهِمْ وَحَقَّقَهُمْ حَتَّى حَمَلُوا حِمْلَةَ رَحِلٍ وَاحِدٍ ، وَضَاقَ الْفَصَاءُ
 وَطَارَتْ أَفْنَدُهُ حُدُودًا رُغَا مِنْ حَمَلَتِهِمْ ، وَلَطَعَتْ الْقُلُوبُ الْحَاخِرَ مِنْهُمْ ، إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ
 لُؤْلُؤِ الْحَرْبِ وَمَوَاصِي رَوَاسِيهَا وَأَشَالِ لِبْدَتِهَا ، تَزَسَّوْا بِطَاعَتِهِ فَأَتَوْا حَسَنَ الْعَاقِبَةِ ،
 وَبَصَرُوا الدِّينَ ، فَهَوِّقُوا بِاتِّمَاسٍ ، اسْتَدْبَرُوا إِلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا لَهُمْ ، وَازْدَادُوا بَصِيرَةً فِي أَمْرِهِمْ ،
 وَهَذَا وَحْدًا فِي أَحْتِمَادِهِمْ وَمُعَاهَدَتِهِمْ ، فَتَبَتُوا قَائِمِينَ بِالْقِسْطِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، قَائِلِينَ بِالْعَدْلِ
 فِي أَمَلَاتِهِمْ ، يَسْأَلُوهُمْ الْكَرَّ عَدَ الْكَرَّةِ ، وَيَعِدُّونَهُمُ الْعَلَبَةَ ، وَيُمْنُونَهُمُ السَّلَامَةَ ، وَيَصْمُومُونَ
 لَهُمُ الْعَيْمَةَ ، فَمَا وَلَا إِلَيْهِمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ لَكَ عِزٌّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ ، فَسَافَعُوا سَاعَةَ بِالْقَنَى

بعد تراميمهم إرشافاً . بالسهام فلما رأى أعداء الله حُدْهم ، وعرفوا صدقهم ، وحافوا حُدْهم ،
نكصوا على أعقابهم ، يريدون التَّحاق بمعسكرهم ، وتحرك أصحابا في طلبهم ، ورحوا سوء
الصباح لهم ، فامعوا في أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الصمة وولوا إلى ديارهم
لا يلوى قريب على قريب ، ولا ذو رحم على حبيب ؛ ونالهم القُني فدمرتهم ، وعقبت
هَامَهم السيوف فكَلَمَهم ، وحِيلَ بينهم وبين الدحول من باب عسكرهم ، فأخذوا في غير طريقه
مهمزين ، قدل الله حُدْهم ، وقَلل كثرتهم ، وقتل عاقبتهم ، ورجع أصحابا إلى معسكر أعدائهم
بعد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم في آحريلتهم ، فلما رأوا غفلتهم ، وأموا
عِرتهم ، وآتَهمزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، فازون غافلون متفوقون ،
فوضعوا السلاح فيهم ، ضرباً بالأعمدة ، وصراباً بالرماح ، وذبحاً بالشَّفار ،
لا يشؤون من جرحوا ، ولا تُسْقون من كلوا ، عر مدفوعين ولا مموعين ، حتى آثنت
السيوف ، ونحطمت القُني وآدقت الأعمدة ، وكَلَّت الشَّفار ، وبقيت منهم عَذة يسيرة
وَشِرْذمة قليلة من لم يله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأوثقوا حديداً ، وُجِّلوا قيوداً ، وكان
أول رأس أتانى بجبره بشيرهم وأسرع به إلى دو المعرفة منهم رأس عدو الله المارف^(٢)
الاعى ، الشاق لعصا المسلمين ، ملأنى رئيس صلاتهم ، وقائد جهالتهم ، ومستغوى
جماعتهم ، معرفته محلته ونعته وصفته في عدد كثير من رموس قواده وأهل الفتنة وأئمة
البدعة ، فلم يلبثوا إلا ريثماً تصدعوا في كل جبل وحر ، منهمزين هارين ، لا يستطيعون لما
أنام من عذاب الله دفعا ولا معا يبد ولا قوّه ، ولا يلحسون إلى ركن وعصمه ، قد تشنت
بهم نظامهم ، وفارقهم وجوههم وأعلامهم ، فأحدهم أسرا قسرا قدمهم الصب ، وملا
قلوبهم الرعب وتحزمتهم الوقائع ، ونحببتهم الهزائم ، وتحيفهم القتل ، وعلب الله عز وجل
لأمير المؤمنين على حصه الذى كان مُناف عزّه ، وموضع مَنَعته في نفسه ، ومجتمع عَدته ،
ومادة قوته ، فقوضوا عساكرهم ، وأقشعوا عن حصنهم يتبع أحرهم أولهم ، متحيرين متلذذين ،

(١) في الأصل : « ينجزم » . (٢) في الأصل « برأس عدو الله » .

أذلة حاسرين ، فتمزقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلما استحز القتل فيهم ، وفشت الجراحات في عامتهم ، وطحتهم الحرب بكلكها ، وألما وقع حديد أنيابها ومساعرها ، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم ، فولوا منهزمين معلولين ، وركب الماسمون أكتافهم ، يقتلونهم في رهوس جالهم ، وحلال عياصهم ، ويطون أوديتهم ، ومقاصي تلاعهم ، وفي كل ناحية من نواحيهم ، حتى غر الليل دونهم ، وأعجزهم هربا في معاقلم .

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عرّ بصلاله ، وتحصن بمعاقله ، وأستكمل قواه ، وكثف تديره ، وبلأ إلى مانع منه ودافع عنه ، عطفت عليه عواطف الحق وأولياء الحق وأنصاره ، ناقضين ما أرم ، ومتداولين ما سد ، ومتوعلين إلى غيه ببصائرهم ، وإلى باطله بحققهم ، فاستنزّل عن موضع عزّه قسرا ، وأمكن الله أوليائه أسرا ؛ سة الله فيمن عسد عن سبيله ، وألحد في دينه ، وشرّق عن الطاعة وثائقها ، وأستدل بالحق ومنهاحه ، ولن تحد لسة الله تبديلا ، ولن تحد لسة الله تحولا ، وان تحد من دونه ملتحدا ولا بصيرا ؛ حتى إذا تراءى الجمعان تراء الشيطان من حربه ، وأرهق الله باطلهم بحقه ، وجعل الهلج والظفر لأولى الحزبين به ، بذلك حرت سة الله في الماضين من حلقه ، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته .

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما نلا من طاعته ، وأختبر من بصيخته ، ويمن نقيته ، وشدة شكيمة ، وصحة عريته ، وصدق نيته ، وثقل وطأه على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين ، وعلمه بمراوطة الحرب وممارستها ، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها ، فشمّر تسمير أهل الحسنة وحسن الظن بالله من غير وثية ولا فترة ولا بقاء حد ولا اجتهد ، راجيا أن يُنجح الله سعيه ، ويفلج حجتة ، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حملة ، والاضطلاع بما أسد إليه ، والامتنال لسيرته ، والاتهاء إلى أمره ، والقبول لأدبه ، والخفوف بما يستنصه له من حروبه وأموره مثل الذي جعل عند فلان : يفضلهم بطوله ، ويطولهم بحماسة ، ويتقدّمهم بحسن بلائه وغنائه ،

ومواقفه ومساعدته، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع حصاله إلا وحده عند الاختار والتحصيل سالكا لما بهجه، قابلا لأمره، متعا لأثره، ساميا بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عد أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا في كثير ما وجب بطاعته وصبحيته، فبارك الله عليه وليا طهيرا . فأقدموا متوكئين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللاأواء والجهد والتعب وكلّ الشتاء وحرارة القيط، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرحون نصر الله وتجزّ ما وعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الظفر والصبر والعلّة على عدوهم، توخّده من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالصبر والعزّ والحيلة، وحمل حس العاقبة لهم، وكنت من حادثهم وأحلد الى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزّيز حكيم، أعظمهم عناء، وأحسنهم بلاء، وأشدّهم صولة، وأفساهم بكاية، وأنهم سريرة، وأمضاهم غزيمة، وأربطهم حاشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للاقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدّهم تحذبا على السلطان، فأرره بهم، وحصّ أطراف حلافته بأيديهم، فكفّوه المهم وقاموا بدوره بالملم، غير مستطيلين نعاء، ولا متعزّين لطاب جراء، قد تعبّدهم الوفاء، وعوّا بقربة الولاء، فإن الله حمل آثاء أعلاما في الطاعة يهدون اليها وأولّيته قادة الى سبيل الصيحة يتمسك الماسحون بآثارهم فيها، باقيا على كز الأيام ذكر مساعيهم، وزائده على تصرف الأيام حقوقهم، وياديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأحار عن سالف لهم إلا وصلوه بمحادث، ولا يتقدم لهم من لثامهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجرى في أمره على منهاج قد أوحىوه له، ويسلك في الطاعة طريقا قد سهّلوا له مذهبها، ويتمسك بعرا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدّمه، والله محمود . ولم يزل الله يعزّز أمير المؤمنين في كل ما أسده الى فلان من أعماله وقلّده من أموره، المالفة في قضاء الحق عليه ويؤمن القبية فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما قربّه من الله وحليفته . وأمير المؤمنين يحمّد الله على ما ينحّصه

به من نعمته ، وإياه يستعين على قضاء حقّه ، إنه سميع قريب . فإنّ كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمله عندك ، ويرجو أن يوفقك الله فيه لرشدك ، ويؤثرك منه بحظّك ، للذي كان يلفه وينتهى اليه من حرك ، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير ، وتقلّك في درجتها ، مساميا لاهل الفصل في مراتبهم ، مترّيا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم ، وحسن طريقهم ، وليس أكافهم . فحقّق الله طه بك ، وأحاب دعاءه لك ، ولع بك أمنيته ، وأعطاه بك رعته . وكنت فيما هُديت له باقياذك إليه راعيا ، ودحوالك فيه محتسبا ، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة ، وأفضلها دحيه ، وأعلاها درحه ، وحيرها عاقبة ، وأعمّها سلامة ، وأمعها كهما ، وأنقاها شرفا ، وأعدلها حكما ، وأطولها سلما ، مستحقا بذلك على الله عزّ وجلّ رادة الملّك فيها ، وسهاء الثروة ، وآسباط القدرة ، وآتساع الملكة ، وظهور العلّة وعزّ التمكين ، والنُصرة والدار التي حُيب فيها قليل ما ترحو أن نصير اليه من ثواب الله عزّ وجلّ وحسن محاربه بالعيم المقيم في دار الأمد ، ومحلّ الأبد ، بما لا يمه إحصاء ، ولا يكون له آسها ، وبلاءه فرحا وآبتها ، وسرورا وحذلا ، ورحاء لك من الله عزّ وجلّ وحسن عونته وتوفيجه أن يغلب لك على حظّك ، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عده رعتك ، وإلى ذلك سبوك وهتك . وليس يملك أمير المؤمنين مقتنرا فيك أثرا يحمّده ، ومتصفا بحبر يهيه ، ومستحدثا بعمّة من الله عزّ وجلّ يرحو اتصالها وآساقها لديه بك ، حتى يتناهى إلى الدرجة العليا ، والعاية القصوى ، فيما [يتغيّه] من آحتثات أرومه الصّفة وقطع دابرهم . والله الثقة والحول والقوة ، متعزّوا من الله فيما فارقه من جهاد عدوّه أتمّ مصادق وعدّ القائمين بحقه ، الصابرين في جسده ، وأحسن ما أبلى ، دائئا عن حريم ، ومحصّا لبيضه ، ومدامعا عن ملة ، فشمّر شاريا لله بسه ، طارحا عه لباس الغفلة ، متحافيا عن مهاد الوطاة ، وليس تدخله الحلة والوحشة على من كنت قريبا منه ، ولا يمتنع لأمر المؤمنين طّرف أمت فيه ، ولا أمر يُعين عليه ويتسك بسبب من اسبابه .

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السُّوء إلى الدرحة العليا ، والاعتصام بالعروة الوثقى ، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته ، مُنْشَرَحَةً صدورهم بمكافئته ، مُبْسِطَةً أيديهم بمعاونته ، وقسم لأُمير المؤمنين من أولياء دمه وأصباره ، قَوْمٌ آزوهم بالنصر ، وَكَفَّهَم باليقين ، وألف بصائرهم على الحق ، وأيدهم بمؤيدآب القوي ، فلما أمرهم أطاعوا أمره ، ولما فرصوا في ذات الله طاعته ، فرص الله نصرهم وتمكينهم ، بجاهد مُحَاهِدُهُمْ مُسْتَصِرّاً مُحْتَسِباً ، وقام قائمهم بالحق عليه بِمُحْلِصَا مُحْتَبِدَا ، وقادتهم طلائع الدين ودواعيه أرسالا قُدَمَا ، فاتبوا سبيله لا مائلين عن إقدام ، ولا مُتَوَقِّعين عن آرتياب ، ولا مُتَيْبِّين ، مع دحائلهم وبصائرهم ، عدوا ولا عبادا ؛ طالبين بآثار الدين نُغَاتِهِ ، وبطوائل الإسلام عِدَائِهِ . من صوف أُمم الكفر ومردة النفاق وأئمة المُلْحِدِس ، متعَلِّدِس للحق ونُصْرِهِ ، ولئن ثَمَّ الحق بهم ومضى ، ولئن مع الحق مَنْ نَكَثَ عنه بالسندهم وأندهم ، حتى فتح الله عرَّ وحل لأُمير المؤمنين معاقل الشُّرك وأئمة ، وأناح الباطل وأركانه ، وأعلام البدع وأناعها ، فَضْلاً من الله ونِعْمَةً ، والله عليمٌ حكيم ، إن هزرتهم قطعوا قطع الحسام ، وإن أحرقتهم في عطيمه وقعوا وقع الجياد ، وإن استغيت ودام الغناء لك عن جميع العالمين ، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين .

ما يُقرِّظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب

ليعرفوا موقع نعم الله عند أمير المؤمنين . يحوطه به في أوليائه ، من النصر والتمكين ، وعلى أعدائه من الوهم^(١) والتوهم ، ويشكر الله على العمة في ذلك ، إن الشكر مُحْصَص للنعم ، وأما من الغير ، انْحُلُّوا مواقع العمة عليهم ، فيما يجمع الله بأمر المؤمنين من كلمتهم ، ويحُوط من حريمهم ، ويُحِل من ناسه وبقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشيت جماعتهم وتوهين حقهم ، ويقالون ذلك بما تُرتبِط به نعمه ، ويُستدز مزيده .

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح حليفته من هؤلاء المُرَاقِ الخارجيين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للزير .

٣ - التحاميد في أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المفضل لديه، المظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصالح للإسلام وأهله، الناصر لحليفته، الحافظ لما استحفظه، المتوحد بالعمه عليه فيما حمه .

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

الحمد لله المزيل لما يهيم المبتلون، ويمكره الماكرون، ويكيد به الملاحدون، تمكينا لعبده وحليفته، ودأب ديه وحقه، وإطهارا لأوليائه وحر به، وإمضاء لعزائمه وقدرته، منعا قادرا، ومثليا ممهلا، عدلا إذا استدريج، متفصلا إذا أنعم، حمدا يستنزل به نصره، ويبلغ به رصونه، ويمتري بمثله فواصل مزیده .

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التي حمد بها، على جميع آلائه وجميل لائمه، فيما ولي به حليفته، ونصر به ديه، وأقام به حقه، وأعز به وليه، وقمع به من ألحد عن سبيله، حمدا يؤدي حق نعمته، ويوح به أفصل مزیده بمنه وطوله .

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمر المؤمنين في دولته وسلطانه، وإعانه المسلمين من صنعه وكراماته، في حسيم الأمور ولطيفها، وحاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تماما، وعلى ما يحل بعده من ناسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه وأستنصاله، ما يكون لموعوده إنجازا، حمدا يبلغ رضاه ويستوجب مزیده .

تمجيد آخر

الحمد لله الذى تمّ لأمر المؤمنين نعمته ، وأكمل دعوته ، وجعل العاقبة فيه لمن أحتره
 لخلافته ، وردّ إليه من شدّ عسه من رعيته ، وأتى أمير المؤمنين بصعبه على حدّ نيته وقدر
 أمنيته ، ولم يُصل رأيه ولم يُخلف ظنه ، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده ويتقبله ، ويرفع
 إليه فيبلغ رصاه ، حمدا يكون لأوسع نعمه جراء ، ولأفصل إحسانه كفاء ، وللازيد من
 فضله وإحسانه موجبا ، وإلى أعلى الدرجات عنده مؤذيا ، وللخلود فى جنته وسيلة وسببا .
 آخر :

الحمد لله الذى جمع لأمر المؤمنين ما حباّه بمرية بصره وتمكيه وإعزازه وتأبيده ،
 وإظهاره على من ناواه وصدّ عن حقه ، وصدف عن طاعته ، ووقفه لأختصاص فلان
 بما وكلّه إليه وعصبه به من أعاء أموره وحلائل أعماله ، وأحرى بهلان وعلى يديه وبركته
 وسعادة حدّه ويُنمّ طائرّه ، من نتاج الفتوح ، وتواتر النصر ، وإقبال الصبح ، وإعلاء الحق
 وإمارته ، وإزالة الباطل وإبادته ، حمدا يؤدّى حقه ، ويرى عزه ، ويمر من أحسن^(١)
 مزيده ، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة ، وخصّه بالإمامة ، وقلّده من أمور عباده
 وولاده ما تولاه تكفائته وكلاءته وتأبيده وحياطته ، حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أمجز وعده ، وبصر عبده ، وأيدّ جدّه ، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا
 وغربا مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل وإزالة طائد وإبادة عائد وإقاله مستقيل .
 ويسأل الله أمير المؤمنين ، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متدلّلا له أن يصلّى أفضل
 صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت في الأصل كلمات ماثنا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمر المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكفه فيما حناه وأستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعز نصره ، وأن يهب له مع كل نعمة يتحدثها له حارسا من شكرها ، يتابع به أفضل مزيده ، وإن النعمة منه ، والشكر توفيقه ، والمزيد لمن شكره .

وأمر المؤمنين يسأل الله ربه وربكم وولى العم عليه وعليكم ، أن يلهمه وإياكم أداء حقه وشكر نعمته وحمده عليها ، ويطوقه وإياكم أفضل الأعمال وأرصاها عنده وأشدّها استيحابا لما وعد الشاكرين من مزيده . إنه سميع قريب .

وأمر المؤمنين يسأل الله الذى ولاه خلافته وأعلاه بها ، أن يطوقه ما حمّله ، ويلهمه العدل بين رعيته ، ويلهمهم بصيحتة وطاعته ، ويصلح أمرهم به فى ولايته وحلافته . ويرعب الى الله الذى أبدى بصره ومكّن له عبر حول منه ولا فوزه ، أن يلهمه وإياكم شكره ودكره وحشيتة ، ويشمله وإياكم نطاغته ومرصانه ومحنته ، وأن يعترفه وإياكم الريادة فى نعمه والبصر على عدوه والتمكّن فى بلاده ، إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يربع أمير المؤمنين فى إعانته على بيته وتسليمه منتهى سؤاله وعانة هتمته وإعزاز ديه وإدلال من صدّ عن سبيله ، إنه سميع قريب . وأمر المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدماء تطولا وتكفّل بالإجابه حتما ، فقال ﴿ اُدْعُوْنِي أُسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أن يجمع على رصاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حللكم ، وأن يمتعكم بأحسن ما عودكم من مثنه . ويؤزّعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده ، وأن يكفيكم كيد الكائدين ، وحسد المايعين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم ، أفضل ما حفظ به إمام هدى فى أوليائه وشيعته . ويحمل عنه ثقل ما حمّله من أمركم ؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما يسوى من جرائكم بالحسى ، وتحملكم على الطريقة المثلى ، وبه يرضى لكم باصرا ووليا ، وكفى بالله وليا وكفى بالله بصيرا .

ويسأل الله أمر المؤمنين ، أن يُحسّن على صلاح نبتة عونه ، وأن يتولاه فيما أسترعاه ، ولاية جامعة ، لصلاح ما قلّده ، إنه سميع قريب .

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواصله ، أن يُصَلِّيَ أَفْصَلَ صلواته على أفضل أنبيائه ، وأن يجعل ما أذخر لأمر المؤمنين إلى دولته وحلافته ، وحياه من وسائل الخير عده ، أن يجمع إلى أحسن توفيقه لما يرصّي من شكره وحسن معونته على ما أصْلَحَ له ربه ، وإنه شاكر بحسب من شكره ويوجب لمن وفق لشكره مزيداً منه وطوله ووصله وإبعاده ، إنه حواد كَرِيم .

وسأل الله أمير المؤمنين مُسَدِّناً وَمُعَقِّباً وَأَوَّلَا وَآخِرَا ، وَقِلَّ كُلِّ مَسْأَلَةٍ ، وَأَمَامَ كُلِّ رَعِيَّةٍ وَمُقَدِّمَةً كُلِّ طَلَبَةٍ ، أن يُصَلِّيَ على صغوه من عبادته وحبر حلقه وحاتم أديانه ورسوله ، مجد عيده ورسوله ، أَفْصَلَ صلواته ، ويبارك عليه أكثر ركابه ، وأن يديم له كرامته ، ونجوى عده على أحمل عاداته ، وأن يتمّ له ما آحتَصَ به من إحسانه ، حتى يملأ الأرض عدلاً وقِسْطاً ، والإسلام تأييداً وعزاً ، والشرك ذُلّاً وقمّاً ، إنه وليّ نِعْمَةٍ وَمُنْهَى كُلِّ رَعِيَّةٍ ، وعَايَةُ كُلِّ حَاجَةٍ ، وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وأمر المؤمنين يقول : الحمد لله طاعة لأمره ، واعتصاما من الفتنة لشكره ، وأستدامة لِعَمَلِهِ الْمُرْتَايِدَةِ عِنْدَهُ ، ^(١) إنه سميع قريب .

وأمر المؤمنين ، سأل الله السامع كلام من جهر ، والعالم بغيب من أسر ، المطّاع على صمائر العباد ووسوستهم ، والمُسْتَقْدَمَ مِنْ إِشَاءِ رَحْمَتِهِ ، وَالْمُثْنَى عَلَى مَنْ إِشَاءَ نَقْدِ رِثَتِهِ ، أن يجمع على الحق أهواءكم وينصركم على أعدائكم وَيُصْلِحَ دَاتَ بَيْنِكُمْ وَلَا تَكَلِّمْ فِي مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ اللِّقَاءِ ، وَالتَّحَاكُمِ وَالتَّحَازِرِ ، إِلَى أَهْسَكُمْ ، وَيَكْمِكُمْ وَيَكْفِيَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب

ونسأل الله أن يهبنا أمير المؤمنين ما صعد له ، ويُعَيِّبَهُ على شكر ما أولاه ، إنه وليّ ذلك وإنا إليه فيه راغبون والسلام .

(١) في الأصل المارل ، وما أشناه صحيح .

وله :

ونسأل الله أن يَهَبَ أمير المؤمنين الكراماتُ التي يُتَابَعُها ، والنعمُ التي يَظَاهِرُها عليه ، والفتوحَ التي جعلها في حِلالاته ، وولايته ودولته ، ويَهَبَ له من المعرفة بحقه في ذلك والشكر له بحسن بلائه فيه ، ما يبلغ أعظم رعة وأقصى أُمية ، من ذخائر الخير ووصيلة الأجر وحسن الثواب في الدنيا والآخرة .

أَسأل الله لأمر المؤمنين في غابر أموره ، أحسنَ ما عَزَدَه في سالفها ، من السلامة التي حرسه بها من المكارِه ، والعزَّ الذي قهره به الأعداء ، والصبر الذي مكَّن له في السداد ، والهدى الذي وهب له به الحجة ، والرفق الذي أدَّر له به الحَلَب ، والاستصلاح الذي آتت له به الرعة ، حتَّى يكونَ بها أعطاه من ذلك ، وما هو مُستَقْبَل به ، أَعَدَّ حلفائه دِكرًا ، وأنقاهم في العدل أثرا ، وأطولهم في العمر مُدَّة ، وأحسنهم في المعاد مُنْقَلًا .

أَسأل الله لأمر المؤمنين نِعْمَةً لا تزول ، وكرامةً لا تَفَد ، وعزًّا لا يبصم ، وبصرا لا يعلب ، وكفايةً ينظم بها جميع الصلاح ، حتَّى لا يكونَ أوَّل من ذلك أسعد منه بآخر ، ولا بمأص أسرَّ منه بمستَقْبَل .

أَسأل الله لأمر المؤمنين في عاقبة كلِّ نعمة أفصلَ ما وهب له في عاجلها ، حتَّى يجعل كلَّ نعمة أعم بها عليه ، وكرامةً حارها له ، موصولةً بالتَّمام ، محوطةً بالحفظ ، مكلَّوةً من العير ، ممدودةً إلى طول آيات البقاء ، لا يشوب صغوها كدر ، ولا سلامتها عير ، ولا سرورها تنغيص ، وهبَ الله أمير المؤمنين الظفر ، وأدام له عادة الصبر والتمكين الموصح ، ومُجْتَنِّبه المُدْحِصَةَ لمحجة أعدائه ، والغلبة المُطْهِرَةَ لحقه ، المُتَحَاذَةَ لمن حاله ، ثم لا يَرِحْ نعمة الله راحة بمثله في الأولياء نصرا ، وفي الأعداء إناحة ، وفي الراكئين تكيلا .

سر الله أمير المؤمنين بما أهدى له من كفايته ، وحاطه به من مَعَتَه ، وأيده به من نصره ، وجعله وما استرعه من ديبه وسُلْطانه ، في كَفِّهِ الذي لا يُسْتَنَاح وتحت يده الماسعة وجَاحه المحفوظ .

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه في تمكينه وتوهمهم، ونَصْرِهِ وحِدْلَانِهِمْ، وإِعْزَازِهِ والمجاهدة لهم، ولا زالت نِعْمَةُ الله تَزِيدُهُ في قُوَّةِ الظَّفَرِ، وَعِزَّةِ البَصْرِ، وَتَعَدُّ مِنْ آفَاقِ الأَرْضِ بالبشارات والفتوح، حَتَّى تَمَلَّأَ لَهُ مَا يَنْ طَرَفَ مُلْكِهِ أَمَّا وَعِزُّهُ، وَيَمَلَّأَ بِهِ قُلُوبَ أَعْدَائِهِ حَوْماً وَرِعْباً، وَيَعْدَهُمْ عَلَى خِلَافِهِ سَطُوءَةً وَتَكِيلًا .

أحمد بن يوسف

وَهَذَا اللهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِعَمِهِ، وَمَلَأَهُ كِرَامَتُهُ، وَأَوَّلَى لَهُ تَوْحُوحَهُ، وَأَدَامَ إِعْزَازَهُ، وَتَوَلَّى حِبَاطَتَهُ وَكِفَايَتَهُ، فِيمَا دَنَا مِنْهُ وَمَا عَابَ عَدُوَّهُ، وَأَطَالَ بَقَاءَهُ وَالْإِمْتِنَاعَ بِهِ .

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة حليفة نظفر

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين مع الْعَلْبَةِ الْمُحْتَمَةِ، ومع الطَّعْرِ الْمُعْذَرَةِ، وجمع لعدوه مع الدل السطوة، ومع دُحُوضِ الْحُجَّةِ الْكُلِّ، فلم يجمعه والباكثين مَوْطِنٌ مِنْ مَوَاطِنِ البصر، إِلَّا جعل الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَلِسَانَ الْعِذْرِ فِيهِ مَعَهُ، وَيَدَ الطُّهُورِ فِيهِ لَهُ، ثُمَّ وَهَبَ لَهُ عِدَ الظَّفَرِ مِنَ الشُّكْرِ، وَعِدَ الْفَالَجِ مِنَ التَّوَاصِعِ، وَعِدَ الْقُدْرَةَ مِنَ الْعَفْوِ، مَا جَعَلَهُ مُسْتَوْجِبًا لِمَا أَصْفَاهُ بِهِ، مُعْزِفًا نَاقَةَ الْعِدْرِ مُقْطَعًا مِمَّنْ نَكَهَ، وَأَنْ مُسْتَرَادَ الْحُجَّةِ وَمَطْلَبَ السَّلَامَةِ، فِي التَّنَسُّكِ بِطَاعَتِهِ وَمَسَاحَتِهِ، وَالْمُجَاهَدَةِ دُونَهُ .

وفي مثله :

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه .

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم

بعد فتح عُمُورِيَّة

الحمد لله الذي تم لأمر المؤمنين غَزْوَتَهُ، فَأَدَلَّ بِهَا رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ وَشَفَى بِهَا صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، ثُمَّ سَهَّلَ اللهُ لَهُ الْأَوْبَةَ سَالِمًا عَانِمًا، وَكَذَلِكَ وَلَيْتَهُ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، مِمَّا

أحصاه فلا يساء، لَيَقِفْهُ به موقفا يرصاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، فَطَوَى الله لأمر المؤمنين نازح البُعد برا وبحرا، ووقاه وَصَب السم سُهلا وَوَعُرا، وحاطه بحراسته كالثا، ودافع عه بِحِفْطِه راعيا؛ حتى يُوديه الى المحل من داره، والوطن من قراره، وحراه عن الإسلام حاصّة، وعن رعيته كافّة، بِتَحْيَرِه مُسْتَحْلَفًا عليهم، وقائما مقامه فيهم هروئ ابن أمير المؤمنين، فقد استخلفه رَفِيقًا شَمِيقًا، حليما وقورا، يقطان ساكنا، لم يُشَدَّد عليه أمر، ولم يُنْشَر عليه طرف، ولم يَضَعْ معه سبيل، ولم يُسْحَط وليا مكائها، ولا عدوا مغالها، بلا سيف أشعره، ولا سور أفرع به؛ فقتل جراه أمير المؤمنين في تحييره إياه، بجزاه الله على ما حَفِط من وصاته، على محمود مقامه، إنه مجيب الداعي .

وكتب أحمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر

يهتئ به نظفر

بلغني - فتح الله عليك - خروج أن السرى اليك، والحمد لله الباصر لديه المعز لوليّه وحليفته على عبادته، المذلل لمن صد عن حقه ورعب عن طاعته؛ ونسأل الله أن يطاهر النعم ويصح بلدان الشرك به، والحمد لله على ما وآلاك منذ طعنت لوجهك، فلما نتدأكر سيرتك في حربك وسلمك، وتكثر التعجب لما وقفت له، من وضع الشدة واللبان بموصعهما، ولا تعلم سائر حُند ولا رعيه عدل بينهم عدلك، ولا عما بعد القدره عمى أسفه وأصغنه عفوك .

تهتئة خليفة بحج

أصلح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في بعيمه، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فصله؛ والحمد لله على ما خص به أمير المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل في نيته، وحمله يستعين على دينه، بما بسط له في دنياه، ويحمل على بدنه اللصب فيما يتقرب به اليه؛ فيجفؤ عن دعتيه على لينها، ويشخص عن طمانيته على فضلها، بإشارا لآخرته، وأداء لحق ربه؛ بادر له بذلك ليكرمه به، ثم يستعمل فيه نفسه، تقربا اليه، فيسعد به بالإذن

في ذلك حين كان من الله له ، والعمل فيه حين كان لله معه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلا على قبوله الخير حين يعمل لربه ، وكان من ذلك ما أذن الله لأُمير المؤمنين في ريادة نبيه صلى الله عليه وسلم العام ، وموافاة مشاعره العظام ، في وقتها من الأيام ، التي لا توافى إلا معها . ولا تكون مأسكة إلا فيها ، فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه ، ونحر منه نقصا . نسكه ، أجرا عقده الله عليه في آبئائه ، ثم أتمه له ناسيغائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

لَمَلَكَ الله الرِّصَا في أَمَلِكِ من مُنَحِّ كُلِّ حَاحَةٍ وإِلا عِ كُلِّ أُمِّيَّة ، وَتَقَبَّلْ كُلَّ دَعْوِهِ
حَصَصْتَ بِهَا نَفْسَكَ أَوْ عَمَمْتَ بِهَا أَحَدًا من أَهْلِكَ ، في مَجَامِعِ وُفُودِهِ ، وَمُعْتَرِلِ قَرَارِهِ ،
فَكُنْتَ شَافِعًا من شَاهِدِكَ ، وَوَافِدًا من عَابِ عَيْكَ ، يَسْتَفْتِحُ بِدَعَائِكَ ، وَيُرَجِّي بِرَكَّةِ مَحْضَرِكَ ،
وَالْقُرْبَةِ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَحَلَّ وَفَصَلَ حَاجَكَ .

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا حاصا وإليها واصلا .

آحر :

وَلَمْ تَخْطِئِي الْعَمَّةُ إِذْ أَصَاتَكَ ، وَلَمْ تَتَعَدِّي إِذْ دَحَلْتُكَ ، وَلَمْ أَحُلْ من لَازِمِ شُكْرُهَا ،
وَمَا يُعْلِّكُ الله مِنْهَا ، إِذْ قُلِدْتَهَا ، اعْتِدَادًا بِكُلِّ مَا طَوَّقْتُ مِنَ الْمَازِنِ ، وَإِنْجَابًا عَلَى هَسَى
مَا حَمَلْتَ مِنَ الشُّكْرِ .

ولسعيد بن حميد الى بعض إخوانه

سَّرَّكَ الله بِتَتَابُعِ بَعْمِهِ ، وَتَرَادُفِ إِحْسَانِهِ ، وَزَادَكَ من فَوَاصِلِ أَقْسَامِهِ . بَلْفِي
— أكرهك الله — ما وهب الله لك من مُطَاعَاتِكَ ، فَقَوْلِكَ الله عَلَى مَا اسْتَرَعَاكَ . وَرَزَقَكَ
الشُّكْرَ عَلَى مَا أَوْلَاكَ .

وفى مثل ذلك :

أكل الله لك السعادة ، وزادك في الكرامة ، وخصَّك بدوام النعمة . بلغنى ما وهب الله لك من سلطانك ، فسررت به ، وسألت الله إتمام نعمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل في سيرتك ، وعزَّس المحبة لك في قلوب رعيتك ، وأن يُعيبك عليه ، ويرزقك السلامة في الدين والدنيا .

وله في مثله :

أنا أُهَيِّئُ لك العمل الذي وُلِّيتَه ، ولا أهُنِّئُكَ به ، لأنَّ الله أصاره الى من يُورده موارد الصواب ، ويصدره مصادر الحجَّة ، ويصُونُه من كل حَلَلٍ وتقصر ، ويُصْبِيهِ بالرأى الأَصِيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وأَوْجِبْ لك بطوله المَزِيدَ منها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يصُونُها من الفِتَنِ ، ويَحُوطُها من النقص .

آخر :

قد وُلِّيتَ من العمل ما أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يرزقك بركةً بدنه وعاقبته ، ويُعطيك الرضا بمن وُلِّيتَ له وعليه .

آخر :

هَآنِكَ اللهُ هذه النعمة المقلَّلة ، الدالَّ أولها على تمامها ، واوزعك شكرها .

آخر :

أسعدك اللهُ هذه الولاية وجعلها مباركة ، تنقل نطق السلامة منها ، وتُنِيلُ الكفاية فيها الى أَمَلِكْ بنهايته ورجائك عايته ، ورزقك السلامة بمن وُلِّيتَ له وعليه .

آخر :

سرَّك اللهُ بما جَدَّدَ لك من هذه المنزلة ، وفَقَّعك بهذه الولاية ، وأَرْضَى عنك من وُلِّيتَ له ومن وُلِّيتَ عليه .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من بحيل أثرك فيما تلي من أعمالك ،
ورمك إياها بجرمك وعزمك ، وأتياشك أهلها من جور من ولهم قلبك ، وسرورهم بتناول
أيامك والكون في طلل يدك وحناحك ، في إعانة من تحضه ونعمه نعمتك ، وتحول به
الجول حيث حالت لك ، فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك ، ولم يردد علينا آمالنا فيك
مكوسة ، كما ردها على عيرنا في عيرك . ولوددت أن أالك كان عاب آتارك هذه ومباقبك ،
وإن كان الأتراق لم يقع بيدكما حتى علم أنك حلفه ، وألقى اليك بأمره ومعاقده نقته ،
وحملك موضع اختصاصه وأثرته ، وصرف ذلك عن كان لا يستحقه ، ودم سالف رأيه
فيك وفيه وحيد آخره ، ثم نعمة اتصلت لك بما قلها ، انتظمت بها أمورك فاعتدلت ،
وتلاحمت عليها وآتسقت ، ما مسحت في كاتبك ، ومستقر نقتك ، وحامل أعبائك ، من
الكفاية والصيحة ، ووضعك عن قلبك مؤونة التهمة والقص لأثره ، وإدخاله راحة الطائفة
اليه وروح الثقة به ، لا كما ابتلي أخوك ، فإنه صحبه خلط عليه أمره ، وأفتى أسرارها الى
صاحب ريده ، فأهل ذلك بينهم ، وقطع حياهم ، حتى تجت آثاره مع حسنها ووصوحها ،
وصيرت يده من حظ عمله ، ولزمه الدم من أهله ، فهذه كُتبه إلى ، في أطراح بصيحة له
كأت فيه ، ويسألني أن أُنحِص اليه كاتباً يحل ثقله ، ويفتح له ما أرتحه من أمره . وهذا
من سعادته حدك ، ويمن طائرک ، وإقبال الأمور اليك ، وسعيها على طريق موافقتك ،
وهيئاً هناك الله نعمة حاصها وعامها ، وأوزعك شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسن المزيدي فيها .

تهنئة بعزل

كتب رجل الى مالك بن طوق لما عزل عن عمله :

أصبحت والله فاصحاً متعباً : أما فاصحاً فللكل والقبلك بحسن سيرتك ، وأما متعباً
فللكل والي بعدك أن يلحقك .

(١) أتياشك أهلها : استفادهم .

فصل

سواء عليا أوليت أم صرفت ، إنا لنشهدك الولاية ، بما بسط الله من يدك ببذل العرف ، ونهتلك بالعرف بما ملحقك من ناء ما أسلفت من الجليل ؛ ولا نخاف عليك أن تتأرق عملا وأنت محل له ، ولا أن تصحبه وليس به فاقه اليك . فهناك الله النعمة ، وأعانك على الشكر ، وأندك بالمزيد .

تهنئة بعزل عامل عن عمله

بإعني صرفك ، حار الله لك ، وهناك لطيف نظره وحليل إحسانه ، فإني أرى الرجل عد حروحه من العمل سالما قويا من مائمه ودنسه ، أولى بالتهنئة منه عد دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عد بدء تلبسه به بالخلاص منه مقصوما ريثما من تبعاته ورواح آثامه ، أولى من غني به وأحت صلاحه ، ولذلك قدمت تهنيتك .

ولسعيد بن حميد في مثله الى بعض إخوانه :

حفظك الله بحفظه ، وأسع عليك كرامته ، وأدام اليك إحسانه . إن سروري بصرفك ، أكثر من سرور أهل عملك بما خُصوا به من ولايتك . وقد كنت — أعزك الله — فيما يُرنا بك عه ، بما أنت عليه في قدرك وأستئمالك ، ولكنا رجونا أن يكون سببا لك الى ما تستحق ، فطنا نفسا بالذي رحوبا . فالحمد لله الذي سلمك منه ، وسأله تمام بعمه عليك وعلينا فيك ، ببليلك أملك وآمالنا فيك ، وشطاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب ، ثم حصصك الله بحمل الصع ، وبلغك عاية المؤمنين . إن من سعادة الوالي — حفظك الله — وأعظم ما يخص به في عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يُخاف منها ، وقد خصصك الله منها بتمه وطوله ما نرحو أن يكون سببا لك الى نبيل ما تستحق من المراتب . والله نسأل إيزاعك شُكرا من به عليك ، وتبلغك غاية أملك في جميع أمورك ، برحمته وفضله .

آخر :

ما أحسنَ ما كَشَفْتَ عَنكَ الْوَلَايَةَ ، وَأَجَمَلَ ما أَرَبَر مَكَ الْعَمَل ، قَدْ كَسَكَ اللَّهُ حَمْدَ
وَلَايَتِكَ وَعَزَلَ عَنكَ لَأْتِمَتَهَا ، بِمَا أَنْشَرْنَاكَ مِنْ عَدْلِكَ ، وَظَهَرَ مِنْ مَعْرِفَتِكَ ، فَاذْ سَاءَكَ
هَذَا فَلْيَسْرُرْكَ .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمد لله رب العالمين حَمْدًا يَجُوزُ حَمْدَ الْحَامِدِينَ ، الَّذِي جَعَلَ قَضَاءَهُ خَيْرَةً لَكَ ، فَإِنْ
زَادَكَ نِعْمَةً وَفَقَكَ لَشُكْرَهَا ، وَإِنْ آمَتْحَكَ بِلَوَى مِنْ نَفْتٍ حَاسِدٍ أَوْ كَيْدٍ كَانِدٍ ، أَنْ أَرَى
بِرَهَانِكَ وَأَفْلَحَ مُجْتَبِكَ وَجَمَعَ بِيْرَ وَلِيِّكَ وَعَدُوِّكَ فِي الشَّهَادَةِ لَكَ ؛ وَإِنْ قَلَّ أَمْرًا عَنْ
يَدِكَ ، فَرَبَّمَا يَرْجِعُهُ إِلَيْكَ مَخْتَلًا لِفَقْدِكَ . هَذَا إِلَى مَا جَعَلَ عَدْلَكَ مِنْ خَوَاصِّ النِّعَمِ الَّتِي إِنْ
ذَكَرْتَاهَا فَاطْنَبُ أَوْ تَحَوُّزًا فَقَصْرًا ، كَانَ عَايِنَا إِلَى الْحُسُورِ دُونَ مَدَى عَايِنِكَ . وَقَدْ زَادَكَ
اللَّهُ بِهَذَا الْحَادِثِ فَصْلًا عَظِيمًا : لَمَّا طَهَّرَ مِنْ وَلَهِ الْعَامَةِ إِلَيْكَ وَتَطَلَّعَهَا إِلَى مَا كَانَتْ فِيهِ :
مِنْ لَيْنٍ لِنِصَافِكَ وَكَرِيمٍ أَحْلَافِكَ ، وَوَحْشَةٍ الْخَاصَةِ لَمَّا فَقَدْتَ مِنْ حُسْنِ مُعَامَلَتِكَ وَكَثِيرِ
تَفَضُّلِكَ . وَأَيُّنَ أَهْلَ الرَّأْيِ وَالنَّائِلِ لَصَفِّحَاتِ الْأُمُورِ ، أَنْ كُلَّ مَا حَرَجَ عَنكَ نِعَائِدِ
إِلَيْكَ وَتَصَلَّ بِهَ عِيْرُهُ ، حَتَّى تَسْتَقَرَّ فِي يَدِكَ عُرَا الْأُمُورِ وَمَعَاقِدُهَا ، وَتُفْتَحَ بِرَأْيِكَ وَتُدِيرَكَ
أَبْوَابُهَا وَمَعَالِقُهَا ، فَلْيَبْكْ أَنْ كُلَّ مَا زَادَ عِيْرَكَ نِقْصًا زَادَكَ فَصْلًا ، وَكُلَّ مَا نَقَصَ مِنَ الرِّحَالِ
وَحَطَّهَا أَلْحَقَ بِكَ شَرَفًا . فزادك الله ورادما منك ، وجعلنا ممن يَقْلَهُ رَأْيُكَ ، وَيَقْدَمُهُ
أَخْتِيَارُكَ ، وَيَقْبَعُ مِنَ الْأُمُورِ بِمُوافقتك ، وَيَجْرَى مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ طَاعَتِكَ .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلني الله من السوء والمكروه فِدَاءَكَ ، وَأَطَالَ فِي الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ بَقَاءَكَ ، وَأَتَمَّ بِعَمَلِهِ
عَلَيْكَ ، وَأَحْسَنَ مِنْهَا مَزِيدَكَ ، وَبَلَّغَكَ أَقْصَى أُمْنِيَّتِكَ ، وَقَدَّمَنِي أَمَامَكَ ، وَقَدْ بَلَغَنِي مَا أَخْتَارَ اللَّهُ لَكَ ،
فَسُرُّرْتُ مِنْ حَيْثُ يَغْتَمُّ لَكَ مَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَةِ طَلِيكَ ، وَلَا يَرَاكَ بَعِينَ اسْتِحْقَاقِكَ .

ولئن ساء ما ساء إخوانك من عزك، لقد سرتني ما يسر الله لك . والحمد لله الذي جعل
انصرافك محمودا، وقصى لك في عاقبتك الحسنى، وأقول :

لَيْتَكَ أَنْ أَصَحْتَ مُجْتَمَعَ الْحَمْدِ وَرَأَيْتَ الْمَعَالِي وَالْمَحَامِي عَنِ الْمَجْدِ
وَأَنَّ صُنْتَ الْأَمْرِ فِيمَا وَلَيْتَهُ فَفَرَّقْتَ مَا بَيْنَ الْقَوَايِ وَالرُّشْدِ
فَلَا يَحْسِبُ الْبَاعُونَ عَزْلَكَ مَعْنَا فَإِنَّ إِلَى الْإِصْدَارِ عَاقِبَةَ الْوَرْدِ
وَمَا كُنْتَ إِلَّا السِّيفَ جُرْدًا لِلْوَعَى فَأَحْمَدَ فِيهَا ثُمَّ رَدَّ إِلَى الْعِمْدِ

وقد قال الأَوَّلُ :

فمن يكن بورود العزل مُكْتَنَا .. فإنني بورود العزل مسرور
بعدَ الولاية عزْلُ يستين به . طوْلُ الولاية وبعدَ العزل تأمير

أما ما عندي مع تصوّر العاقبة لك في نفسي ، فَيَمَسْنِي في أمرك في حال المحنة
ما يحضُنِي منه في وقت تحدّد النعمة . وبحسب صميرك الشاهد على ما عدى ما أحذه لك
في نفسي . فلا رلت في نعيم متناهه متحددة ، ولا عديت الثروة والزيادة ، وبلغك الله أقصى
أملك ، وأمل أخيك لك ، وكنت أعداءك ، وجعاني وفاءك المقدم عك . أحب أن
تشرح لي صورة الأمر إلّا ما تأذت ، وكيف كان الابتداء ، فإنني لا أشك أنها حيلة
ونية من عزّ الصاحب الجليل القدر ، ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة ، وتُفَضِّي من ذلك
إلى ما تسكن إليه نفسي ، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر الإيمان يليكن هذا الباء ، وأساس السعادة فليتبصل عقد هذا الاجتماع ، وبكل ذكاء
الولد، وثروة العدد ، فتتجرك الأقدار ، وفي أطول عايات البقاء ملتئم هذه الغنطة والسرور .

تهنئة بتزويج

بلغني تزوحك من فلانة ، وبالرفاء والسين ، تهنئة السلف الصالحين ، ومبلغ سنة المجتهدين
المتبحرين ، وتقول على يئن الطائر ، وسعادة الجد ، ونماء العدد ، وآفاق الهوى ، وطيب

الماسمة، واجتماع الشَّمْل، وثبات الرَّبْع، وَتَمَلَّى النَّعَم . أسأل الله الذى قصاها أن يجعلها لك سَكَنًا ويجعلك لها نَحْصًا ، وأن يُؤَخِّرَ حِمَامَهَا الى آتِهَا تَسْكُ عنها ، وجعلك حائزًا تُرْثُهَا، وَوَلَّيْتَ المال وهواة العيش وملاهاة الفوائى سدها .

تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جَمْعُ الأمير أهله على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَنِيوًا، والشَّمْلَ محتمعا، والبركة عظيمة، والأُمُور سليمة، وكذلك فقد عَظَّمَ الله الْقَسَمَ منه لزوجه، حَلَلَ الأمير سَكَنًا لها، وأجرى المودة والرحمة بينهما، فإنه يقول عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ ۚ ﴾ . فلما كان الأمير هو المطور اليه، وهى المطور اليها، آخارها الأمير لنفسه وأختار نفسه لها، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فصلها فى نفسها فصلا باختيار الأمير إياها، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها، فكان ذلك فصلا من الله زِيَّةً بفصل، وكرامة من الله وَصَلٌ بَعْضُهَا سَعَصُ . فرب إلى الله عز وجل فى أن يزيد الأمير فى كُلِّ سَعَةٍ مبسوطة، ونعمة مقسومة، ويعطيه فى ذلك شكرا يكون لِرِصَاهُ مُوَحَا، كما أعطاه فصلا كان الشكر له به واجبا، ثم يَمَلَّى الأمير ذلك بأحسن ما مَلَّى أحدا من حلقه كرامة اصطعها عده .

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون يهنئه بمولود له :
قد كان أحذنى ما أحدث الله لأمر المؤمنين من المَوْهَةِ التى ليس، وإن كان أولى بها من غيره، بأعظم فيها حظًا من رَعِيَّتِهِ . فعمر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بمرور الحكمة وأبصارهم حتى يَشُدَّ بهم عَصْدُكَ ، وَيَسُدَّ بهم ثَمَّتَكَ، وَيُبَلِّغَهُم الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك، غير مُقْعَد بك مهَل، ولا مُحَلَّ بك أَجَل، ولا مُكَذَّبك أَمَل، ولا مُنْقَطعة أيامك، حتى تُحْتَرَمَ أَنْفُسًا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله في مولودك الذي أتاك، وهبأك نعمته بعطيته ، وملاك كرامته بهائده ،
وأدام سرورك زيادته ، وجعله نارا تقيًا ، ميمونا مباركا زيكًا ، ممدودا له في البقاء ، مُلغًا عاية
الأمَل ، مشدودا به عَصْدُك ، مُكثَّرًا به وَلَدُك ، مُدَامًا به سرورك ، مدفوعا به الآفات عك ،
مشفوعا بأكثر العدد ، من طَيِّب الولد .

وله في مثل ذلك :

هَبَاك الله هذه العائدة التي أفادكها ، وبارك الله في الهبة التي رفقكها ، وشفعها بإخوة
متواترين ، يَسْرُوك في حياتك وَيُخَامُوك في عَقْكَ .

تهنئة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

حُجِلْتُ فداك . للبقاء . ولودك ، في الساء بياته ، وفي الخير شابه ، وعلى الركة ميلاده .

تهنئة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إله ليس من سم الله ، وفوائد قِسَمه — وإنْ خَصَّ موقعها ووحب شكرها — نعمةٌ تُعَدِّل
العمة في الولد ، لئلا يثا في العدد ، وزياتها في قوة العصد ، وما يُتَعَلَّ به من عظيم بهجتها ،
وُيُرْحى من باقى ذكرها في الخُلُوف والأعقاب ، ولا حق بركتها في الدعاء والاستغفار . وإنْ
الله قد أفادك وأتاك علاما سِرِّيا ، سَمَّيته فلا ، فكان ميلاده عِد فتح الله على أمير المؤمنين .
فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذي أظهرها الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل
بركته ويُمْنه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمر المؤمنين في طارف نعمه
وتالدها ، وشَفَّع له قديم مسه بمجادتها ، ورزقه دكورا طيبين مهديين ، يأنس بهم رُبُّه ،
ويتصل بهم نجاحه ، ويجعلهم ذرية زاكية ، وبقية صالحة .

آخر :

بلغني الذي وهب الله لك ، جعله الله دُحرا سنياً ، وعَقاكريما .

عَمَرُو بن مَسْعَدَة الى الحسن بن سهل

أما بعد ، فإن هبة الله لك هبةٌ لأُمير المؤمنين ، وزيادته إياك في عدده لمُحَلِّك عنده ومكانك في دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سَريّاً ، فبارك الله لك فيه ، وجعله بازاً تقيّاً ، ماركاً سعيداً زكيّاً .

تهنئة بمولود

الحمد لله الذي رضى مآ يسير القول عند عظيم النعمة ، حمداً نستوجب به لقاء هذه المَوْهَبَةِ لِلنَّاءِ والعائدة ، فإن نعمه الله وإن كانت لم تزل متناعة ، فقد كان ما يَقْبُضُ الأمل ما ذكر أفراد الأُمير سفسه وقلة نسله ، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بصوات الأهل ، ومن دُثُور الأَنَامِ ، بواقع الجِئَامِ ، وقد أصبحنا من الله من يدين في فُسْحَةِ المهل ، ومدته مواقع الأهل ، لمن أراد فيه مَوْضِعَ أُمْلَا في حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئة بمولود

سرورُك سرورٌ يَحْضِيْني منه ما يَحْضُكُ ، وتَلْبَسُنِي فيه النعمة ما تَلْبَسُكُ ، والحمد لله على النعمة بك وعدك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فقد بلغني من متجدد نعم الله عزّ وجلّ عليك ، وإحسانه إليك فيما رَزَقَكَ من الهبة ما أشتدّ حدى به ، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله ؛ ولذلك أقول :

قد شُفِعَ الواحد بالوافد * وأُرِغِمَ الأنفُ من الحاسِدِ
أبا حُسَيْنٍ قَرَّ عَيْنًا بِمَا * أُعْطِيَتْهُ مِنْ هِبَةِ المَاجِدِ

قد قلتُ لما بشروني به . بورك في المولود للوالدِ
بإنا نرحو واددا مثله * والطارئ الميمون لا وادد

وله الى بعض إخوانه يهنته بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يحل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلا كنتُ به سَحا، أعتد
فيه بالعمه من الله الذي أوحى على من حقك وعرفني من جميل رأيك . فزادك الله
حيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد لمعي أن الله وهب لك علما سريّا، أكمل لك صورته،
وأتم حلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتد سروري بذلك، وأكثرت حمد الله عليه .
فبارك الله فيه، وحمله نارا نقيّا، يُشَدَّ عَصَدَكَ، وَيُكْثِرُ عَدَدَكَ، وَيُقِرُّ عَيْكَ .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهنته بابتنة له :

رُبُّ مَكْرُوهِ أَغْفَ مَسْرَهُ، وَمَحْبُوبٌ أَغْفَ مَعْرَتَهُ . وحالني المعصية والمصرّة، أعلمُ
مواضع الخيرة .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الألبسة المستفادة، وحملها لكم زينا، وأجرى لكم بها حيرا، فلا
تكبرها، وإنهنّ الأتھات والأحوات، والعائمات والخالات، ومنهنّ الباقيات الصالحات،
وربّ علام ساء أهلّه بعد مسرتهم، وربّ حارية فرحت أهلها بعد مساءتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول

مولود كان :

أما بعد، فإن مما أتعرف من مواهب الله، نعمة خُصِّصْتُ بِمِزْيَةٍ، وَأَصْطَفَيْتُ
مُحْصِيصَتَهَا، كانت أسرلى من هبة الله ولدا سميتُه فلانا، وأملتُ ببقائه بعدى حياة وذكري،
وحُسْنِ خِلافتي في حُرْمَتِي، وإشراكه إياي في دعائه، شافعا الى ربه عند حلواته في صلاته
وسجده، وكلّ موطن من مواطن طاعته، فاذا نظرتُ الى شخصه تحزك به وجدى وظهر به

سرورى ، وتعظمت عليه منه أنه الولد ، وتولت عني به وحشة الوحده ، فأنا به جَدِل
 فى مَعْبِى ومشهدى ، أحاول مس جسده بيدى فى الظلم ، وتارة أعاقه وأرشفه ، ليس يعيدله
 عدى عظيما الفوائد ، ولا منفسات الرغائب . سرتنى به واهبه لى على حين حاجتى ،
 فشذ به أُررى ، وحملى من شكره فيه ما قد آذنى بتقل حمل العم السائفه الى به ، المقرونة
 سراًواها فى العجب بقدر ما يدركى به من رقة الشفقة عليه ، محافة محاذية المايا إياه ،
 ووجلا من عواطف الأيام عليه . فأسأل الله الذى آمت علينا بحس صنعه فى الأرحام ،
 وتأديته بالزكاء ، وحرسه بالعافية ، أن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غيره ، وأن يجعل ما يهب لنا
 من سلامته والمئده فى عمره موصولا بالريادة ، معروفا بالعافية ، محوطا من المكروه ، فإنه
 المآل الملوأه والواهب الملقى ، لا شريك له . حملنى على الكتاب اليك لعلم ما سررت به
 على محالك فيه وشرتك إياى فى كل بعمه أسداها الى ولئى العم . وأهل الشكر أولى
 بالمزيد من الله حل ذكره . والسلام عليك .

• تهنئة بنقلة الى دار جديدة •

تأهى الى نُقلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله نُقلة المكروه عك ، ونُقلة السرور
 اليك ، ودوام بعمه الله عليك . جعلها الله لك أئمن دار وأعظمها بركة ، ووصل نعمه فىنا
 عندك ونعمه عندنا فيك .

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أنا أقول الحمد لله الذى وفقك لشكره ، وعرفك هدايته ، فظهر من الأرتياب قلبك ،
 ومن الاقتراء عليه لسانك . وما زالت محايك مُثملة لنا بجميل ما وهب الله لك ، حتى كأنك لم
 تزل بالإسلام مؤسوما ، وإن كنت على غيره مقبيا ، وكنا مؤملين لى صرت اليه ، مشفقين
 لك مما كنت عليه ، وادكاد إشفاقا يستل رحاءنا ، أنت السعادة بما لم تزل الأنفس
 تعد منك . فأسأل الله الذى نور لك فى رأيك وأضاء لك سبيل رشدك ، أن يوفقك
 لصالح العمل ، وأن يؤتيك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار .

باب المنظوم

١ - أبو نواس^(١)

كان أبو نواس يادم ولد المهدي ويلازمهم فلم يُلَفَّ مع أحد من الناس غيرهم ،
ثم نادى القاسم بن الرشيد ولقي منه أشياء كرهها وكُرِهَتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو علي الحسني هاني ، الشاعر المعنى ، الحاذق المالح ، صاحب البيت الطائر ، والشعر السائر ،
ورأس المحدثين عند نشار . وهو فارسي الأصل . ولد بقرية من كورة حورستان سنة ١٤٥ هـ ونشأ يتيمًا فقدمت به
أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب في الأدب ، فلم تنأ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ،
فكثت عنده لا يهترع ، فإمالة الشعر والاختلاف الى الأداء والمحاد ، الى أن صادفه عبد العطار والى من الحجاب
الشاعر المالح الكوفي في إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأجرحه والسة معه الى الكوفة ،
فقى منه ومع مدائمه من حلقاء الكوفة وتفرح عليهم في الشعر وفاقهم جميعا . وقدم بغداد وقد أرت سسه على
الثلاثين ، فاقبل بعض الأمراء ومدحهم ، وطلع حبه الرشيد فأذن له في مدحه ، فحده بقصائد طابة وحده مرة
على محوه مصر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ومهم الحبيب عامل مصر ، ثم أقطع الى مدح محمد الأمين ،
وثبت عنده بعض ما يوجب تعريه مدحه ، ولم يلبث بعد حروجه من السجن أن مات بعدد .
وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكأن المحصر ، كثير الدعابة ، حاصر الدنيا ، متبيا في اللغة والشعر والأدب ،
متصفا للباية على المصرية . وأجمع أكثر نبلاء الشعر وقدرته وغول الشعراء على أن أما نواس أتم المحدثين بعد نشار
وأكثرهم تفننا وأرصهم قولاً وأمدعهم حيالا مع دقة لفظ ومديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع رزق كل من
هو الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء قصائده الخمريات ومقطعاته المحويات ، وكان شعره لفايح الفساد والقذوة السيئة ، لقله
البر من أوصاف المؤثر الى المذكور والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إلم يكن ذلك معروفا قسله وقيل
شيطانه واليه . وراد على ذلك اهراده بالإبداع في وصف الخمر ، فكان يمدح سوء لمن تأخر ، فاقب شعره الشان
في زمانه وبعده وحاكوه وطلب منهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعد طريقا إلا اذا مرح شعره بشئ من
ذلك وإن لم يقع في محطوراته .

ورصد عنه عبد الله الحارثي قال . كان أمروف الناس مطلقا ، وأعرهم أدبا ، وأندهم على الكلام ، وأسرعهم
جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، طليح العمة والاشارة ، ملتب الأسماء بين الطويل
والقصير ، مسون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمصحك ، حلو الصورة ، لطيف الفك والأطراف ، وكان
صحيح اللسان ، جيد البنان ، عذب الأنقاط ، حلو الشائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى اللاشئ الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة، فأقبل الناشئ على أبيه هاني وقال له : إن عاش أسك هذا وقال الشعر ليقلوه بلسان شئوم .

ثم اتصل نوالبة بن الحباب الأسدي ، لقيه بدار الحاشي الأسدي والى الأهواز للصوره ، فقال له والة : إني أرى فيك محاييل فلاح ، وأرى أنك لا تصيعها ، وستقول الشعر وتعلوفيه ، فاصحبنى حتى أتحرك ، فقال : ومن أنت ؟ قال : أبو أسامة ، قال : والة ؟ قال : سم ، قال : أنا والله حيلت فذاك في طلبك ، وقد أردت الخروج الى الكوفة والى بمداد من أحلك ، قال : ولماذا ؟ قال : شهوة لثقاتك ولأبيات سمعتها لك ، قال : وما هي ؟ فأنشده :

ولها ولا دنب لها * حب كأطراف الزماج
جرحت فؤادى بالهوى فالقلب مجروح الواحى
سل الخليفة صارماً * هو للفساد وللصلاح
أحده كف أنى الوليد يذم مارية الرياح
ألقي بحباب خضره * أمضى من الأمل المتأج
وكانما دثر الهبا * عليه أنفاس الرياح

فصلى معه ، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد سى أسد ليتعلم العربية والعريب ، فأخرجه مع قوم منهم ، فأقام بالبادية سنة ، ثم قدم ففارق والبة ورجع الى مداد .

وكان أبو نواس متكلماً حديلاً راوية خلا ، رقيق الطبع ثابت الهمم فى الكلام اللطيف .
ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره ، منها قوله :

وذات خد مورد * فصية المنجرد
تأقل العير منها * محاسناً ليس تنقد

= راوية للأشعار ، علامة بالأحجار ، كان كلامه شعر موزون . توفى سنة ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره فى كتاب حاص باسم « أحارائى نواس » لأن مطاوع مصر سنة ١٩٣٤ والأغاني (ح ١٨ ص ٢) و (ح ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و (ح ١٦ ص ١٤٨) و (ح ١ ص ١٣٥) و طقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشراء (ص ٥٠١) والمهرست (ص ١٦٠) والمقد الفريد (ح ٣ ص ٣٣٧) .

فمضه قد تهاى * وبعضه يتولد
والحسن في كل شيء . منها مُعاد مردد
ومنها قوله :

يا عاقدَ القلب عني * هلا تذكرتَ حلًا
تركتَ عني قليلًا * من القليل أقلًا
يكاد لا يتجزى * أقلُّ في اللفظ من لا

ومنها قوله في امرأة أسماها حسن :

إن اسمَ حُسنٍ لوجهها صفةٌ * ولا أرى ذا في غيرها جُمعًا
فهى إذا سُميت فقد وُصفت * فيجمعُ الإسمَ معينَ معًا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قل لهُيرٍ إذا حدًا رَشَدًا * أقلُّ أو أكثرُ فانت مَهْدَارُ
سُحَّتْ من شدة البرودة حتى صرَّتْ عدى كأنك المارُ
لا يعجبُ السامعون من صفتي * كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

هذا شيء أحده أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فاهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط في البرودة اقلب حاراً، وقالوا: إن الصُّنْدَل يحكّ منه اليسر فيبرد، فإذا أكثر منه سخن .

قالوا . كان أبو نواس دعياً يخلط في دعوته . من ذلك قوله يهجو عربَ البصرة :

ألا كل بصرى يرى أمّا العُلا * مُكَمَّهٌ مُنْحَقٌّ لهنَّ جَرِيُ^(١)
فان تغرِسُوا نَحْلًا فان عِرَاسًا * صِرَاتٌ وطعنٌ في الحورِ سَمِينُ
فان أك بصرياً فإن مُهاجرى * دَمَشَقٌ ولكن الحديثُ فَنُوُ
محاور قوم ليس يبنى وبينهم : أواصرُ إلا دعوةً وطنونُ
إذا مادعا باسمي العريف أجبتُه * إلى دعوةٍ مما على تَهُونُ

(١) المكمة : المراس الكثيرة . والسحق . الطويلة ، يراد الحل . والجريس ها : موضع تحميم النمر .

ثم هجا اليمن في هذه القصيدة بقوله :

لأزدد عَمَّانَ مالمَهْلَ زَوْهٌ * اذا أَفْتَخِرَ الأَقْصَوامُ ثُمَّ تَلِينُ
وبَكَرَ ترى أَن السَّوَهَ أَزَلَّتْ * على مِسْمَعٍ في الرَّحْمِ وهو حِينُ
وقالت تَبِمُّ لَا نَرى أَن واحدا * كأَحْمَما حَتَّى الماتِ يَكُونُ
فما كُنْتُ قَبِيسًا بَعْدَها في قُتَيْبَةٍ * وخَيْرٌ به إِنْ المَعارِفُ نَوُتُ
وإنما شَأْ أُونُواسِ بالصرة وليس له بدمشق قُلٌّ ولا بَعْدُ .

ومما هجا به اليمن أيضا قوله لهاشم بن حُدَيْج :

وردنا على هاشم مَصْرَهُ * فماتت تَحارِثا عِندَهُ
يقول فيها .

رَأَيْتَكَ عَمْدَ حَصُورِ الخِوا * ن شَدِيدا على العمد والعبدِ
وتَحَنَّدُ حَتَّى يَحْأَفَ الجَلِيدُ * س شَدَاكَ عَلَيْهِ من الحَدِّ
وتَحْتَمُ ذاكَ بَحْجِرِ عَليمِهِ * يَكْنَدَةُ فَاسأَلِ على كَنَدِهِ
وَإِنْ حُدَيْجًا لَهُ هَمْرُهُ * وَلَكِنها زَمَنُ الرَّدِّ
وما كانَ إِيْمانَكَ بالرسول * سَوى قَتْلِكَ صَهْرَهُ بَعْدَهُ
تُعَدُّونَها في مَساعِيْكُمْ * كَعَدَّ الأَهْلَةُ مَعْتَدَهُ
وما كانَ قاتِلُهُ في الرِحالِ * بِجَلٍّ لَطْهَرٍ ولا رِشْدِهِ
فلو شَهِدْتَهُ قَرِيْشُ البِطا * ح لما مَحَشَتْ ما رَكَمَ جِلْدُهُ^(١)

وقوله أيضا :

ما مَكَ سَامي ولا أَطْلَها الدُّرُسُ * ولا بَواطِقُ من طَيرٍ ولا تُحُرسُ
يا هاشمُ بَنَ حُدَيْجٍ لو عَدَدْتَ أبا * مِثْلَ القَلَمِ لَمْ يَعلَقْ بِكَ الدَّنَسُ
إِذا صَاحَبَ المَلِكُ العَماثُ وائِدَهُ * ومن قُضاعَةَ أَسرى عِندَهُ حُسُ

فابتاعهم بإخاء الدهر ما عَمِرُوا * فلم ينل مثلها من مثلهم أنس
 أو رحت مثل حوى في مكارمه * هيات منك حوى حين يَلْتَمَس
 أو كالسَمَوِل اذ طاف الهامُ به * في بحفل لَحِب الأصوات يرتجس
 فاختر نُكَلَّا ولم يَفِدِرْ بذمته * إذ قيل أشرف ترّ الأوداج تنبجس
 ما زاد ذاك على تيه خُصِصَتْ به * وكيف يَعِدِل غير السوء الغرس
 وقوله :

يا هاشمُ بنَ حُدَيج ليس نغركم * بقتل صهر رسول الله بالسَّدي
 أدرجتم في إهاب العير جتته * فبئس ما قَدَّمْت أيدِيكم لَفِد
 إن تقتلوا ابنَ أبي بكر فقد قَتَلْت * مُحْجَرًا بدارة مَلْحُوب بنو أسد
 وطردوكم الى الأبال من أجأ * طرد النعام اذا ما تاه في البلد
 وقد أصاب شرًا حيلًا أبو حنيس * يوم الكلاب فما دافعتمُ بيد
 ويوم قلم لزيد وهو يقتلكم * قتل الكلاب لقد أبرحت من ولد
 وكل كندية قالت لجارتها * والدمع ينهل من مثنى ومفريد
 ألهى امرأ القيس تشبيبُ بغانية * عن ناره وصفاتُ النوء والوتد

وقد رثى أبو نواس خَلَفًا الأحمر بعد موته بقصائر من شعره، منها قصيدته التي أولها
 قوله :

لو كان حيًّا وائلًا من اللَّثَفِ^(١) * لو ألت شَفَواء في أعلى شَعَف
 أتم فَرَج أحزته في بَلَفٍ^(٢) * مَرْغَب الألفاد لم يا كل بكف
 كأنه مستفعدٌ من الخَرْفِ * هاتيك أو عَصَاء في أعلى شَرْف
 تَرَوغ في الطَّباقِ والتَّرْعِ الألفِ^(٣) * أودى جماع العلم مُدْ أودى خَلَف

(١) وائل : ما حيا . ورائت : بلات . والشعواء : العقاب . والشعف : رموس الجبال .

(٢) البلف : العار في الجبل . ومزغب : صار ذا زغب ، والزع صغار الريش . والألفاد جمع لعد بالعم

وهو لجة في الحلق . (٣) الطباق والرع : نوعان من الشجر .

من لا يَعْدُ العِلْمَ إلا ما عَرَفَ * قَلِيدٌ^(١) من العِيَالِمِ الخُسْفُ
كَمَا مَنَى نَشَاءُ مَهْ نَفَرِف * رَوَايَةٌ لَا تُحْتَنَى من الصَّحْفِ
ومنها قوله يرثيه :

لَا تَيْلُ العُصْمُ في المَضَابِ وَلَا * شَغَوَاءُ تَغْدُو فَرَحِينَ في جَلَفِ
يُكْنِهَا الجَوْ في النَّهَارِ وَيُو * وَيَا مَسَاوِدُ الدُّجَى إِلَى شَرَفِ
تَحْنُو بِجُؤْشُوشِهَا عَلَى صَرِمِ^(٢) * كَقَعْدَةِ المَحْنَى من انْخَرَفِ
وَلَا شَبُوبَ بَاتَتْ تَوَزَقُ النُّثْرَةَ مِنْهَا بِوَايِلِ قَصِفِ^(٣)
دَانٍ عَلَى الأَرْضِ وَالْوَصِيدِ وَفِي * بَهْوِ أَمِينِ الإِبَادِ ذِي هَدَفِ^(٤)
دِيدُهُ ذَاكَ طَوَّلَ لَيْلَتِهِ * حَتَّى إِذَا أَنْجَابَ حَاجِبُ السَّدَفِ
غَدَا كَوَقَفَ المَلُوكُ يَنْهَفُ السَّقِطِطُ^(٥) مِنْ مَتْنَبِهِ وَالْكَفِيفِ
كَأَنَّ شَذْرًا وَهَتْ مَعَاقِدُهُ * بَيْنَ صَلَاةِ فَلَعَبِ الشُّنْفِ
وَأَخْدَرَى صُلْبِهِ النَّوَاهِقِ صَلَّاصَالِ أَمِينِ القُصُوصِ وَالْوُطْفِ
مَتَفَرَّدٍ فِي الفَلَاةِ تُوسِعُهُ * رِيًّا وَمَا يُخْتَلِيهِ مِنْ عَلَفِ
مَا تَرَكَ المَوْتَ مِنْ أَوَّلَى شَبَحًا * نَادَتْ بِتِلْكَ القِلَالِ وَالشُّعَفِ
لَمَّا رَأَيْتُ المَنْوَتَ آخِذَةً * كُلَّ شَدِيدٍ وَكُلَّ ذِي ضَعْفِ
بَتْ أُعْزَى المَسْوَادِ عَنْ خَلْفِ * وَبَاتَ دَمْعِي إِلَّا يَفِضُ يَكِفِ
أَنْسَى الرِّزَايَا مَيِّتٌ يَحُتُّ بِهِ * أَمْسَى رَهِينَ التُّرَابِ فِي جَدَفِ

- (١) القليد : البئر العميقة . والعِيَالِمِ : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع خسة بعة وهي التراتق حفر في صحارة فنع منها ماء عزيز لا يقطع . (٢) الحوشوش : الصدر . والصرم : فرح العقاب . (٣) الشبوب : الشاب من الثيران والعنم . والنثرة : مبرلة من مازل القمر . (٤) الوصيد : بيت كالحطيرة يخذ من الحماره لئال أى العنم وغيرها في الجبال . والإباد : التراب يجمع حول المحوص أو الحباب يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من ماء أو كتيب رمل أو حمل . (٥) يهت : يتساقط ويخفف . والققط : المطر الصغير أو المتتابع المطم القطر وقيل هو دون الزداد وقيل الهدر أو صغاره .

كَانَ يَسْتَسْقِي بِرَفْقِهِ عُلُقًا * فِي غَيْرِ عَيْ مَهْ وَلَا عُنْفٍ
يَحْبُوبُ عَمَكَ الَّتِي غَشِيَتْهَا * مِنْ قَلْبٍ حَتَّى يَشْفِيكَ فِي لَطْفٍ
لَا يَبْهَمُ الْحَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ نَالَهَا * وَلَا لَامَهَا مَعَ الْأَلْفِ
وَلَا يَعْصِي مَعَى الْكَلَامِ وَلَا * يَكُونُ إِنْشَادُهُ عَنِ الصُّحُفِ
وَكَانَ مِنْ مَصِي لَهَا حَلْفًا * فَلَيْسَ مِنْهُ إِذَا بَانَ مِنْ حَلْفٍ

واختلف أبو نواس الى أبنى زيد فكتب العريب من الألفاظ، ثم نظّر في نحو سيبويه،
ثم طلب الحدث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السمان وغيرهم،
فلم يتخلف عن أحد منهم، وأدرك الناس معلم، ثم قديم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يتنوّع ويُدعى للفرود . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني، فجهّاه
الحكم وذكر تزيه العود ونفى عليه ونكّه . ولما قال أبو نواس قصيدته التي يهجو بها
خديف، وهى :

أَلَمْ تَرَوْعَ عَلَى الظَّلَلِ الطَّاسِ * عَفَاءَ كُلِّ أَسْحَمٍ دَى ارْتِجَاسِ^(٢)
وَذَايِرِ التُّرْبِ مُرْتِكِمٌ حَصَا * نَسِيجِ الْمَيْثِ مِعْقَةِ الدَّهَاسِ^(٣)
سَوَى سُفْعٍ أَغَارَتْهَا اللَّيَالِ * سَوَادَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ أَغْبَاسِ^(٤)
وَأَوْرَقَ حَالِفِ الْمُنْشَوَاةِ هَابِ * كَصَاوِيِ الْفِرَاحِ مِنَ الْهَلَاسِ^(٥)
مَنَارُلُ مِنْ عَفْوَرةٍ أَوْ سُلَيْمَى * أَوِ الدِّهْمَاءِ أَخْتِ بَنَى الْجِمَاسِ
كَأَنَّ مَعَاقِدَ الْأَوْصَاحِ مِنْهَا * يَجِيدُ أَغْنَى تَوْمَ فِي الْيَكَاثِ
وَتَبَسُّمٍ عَنْ أَغْرَ كَأَنَّ فِيهِ * مُجَاحَ سُلَافَةٍ مِنْ بَيْتِ رَاسِ^(٦)
فَمَنْ ذَا مَبْلَغٍ عَمْرًا رَسُولًا * فَقَدْ ذَكَّرْتَ وَدُلَّكَ غَيْرَ مَاسِ

(١) ساء تسمية : سهل ووجهه . (٢) طماس بالكسر : دارس . والأصح : السحاب . والارتجاس .

الرد . (٣) المعقّة : حل في الرمل .

(٤) الابعباس : بياض فيه كدرة . والسمع : يريد بها الأثافي . (٥) الهلاس : الصمور وهاب :

لونه لون الهباء . (٦) بلدة بالشام تحسب اليها الخمر .

فلم أَهْجُرْكَ هَجْرَ قَلِيٍّ وَلَكِنْ * وَائِبٌ لَا نَزْلَ لَهَا مُقَاسِي
 وَائِبٌ تَمِيزُ الْأَدْمَاءِ عَنْهَا * وَيَعِيًا دَوْنَهَا اللَّيْقَنُ النَّطَاسِي
 وَقَدْ نَالَتْ عَنِ أَحْسَابِ قَوْمٍ * هُمْ وَرَثُوا مَكَارِمَ ذِي نُؤَاسٍ
 فَإِنَّ تَكُّ أَوْقَدَتْ لِلْحَرْبِ نَارَ * فَمَا عَظِيتُ خَوْفَ الْحَرْبِ رَاسِي
 سَأْتِلِي حَيْرَ مَا أَيْلَى مُحَامٍ * إِذَا مَا التَّنَلُّ أُلْجِمَ بِالْقِيَاسِ^(١)
 وَتَمَتُّ الْوَائِلِينَ بِفَاقِرَاتٍ * بَيْنَ وَتَمَتُّ رَهْطُ أَبِي فِرَاسٍ
 وَقَالَتْ كَاهِلٌ وَبَنُو قُعَيْنٍ * حَنَانُكَ إِنَّمَا لَنَا بِسَاسٍ
 مَا بَالُ النَّعَاحِ تَفَتَّ بِشَتْنِي * وَفِي زَمَعَاتِهِنَّ دُمُ الْفِرَاسِ
 وَمَا حَمَتْ عَنِ الْأَحْسَابِ إِلَّا * لَسْتُ رَفَعُ دَكْرَهَا بِأَيِّ نَوَاسٍ

عارضه الحكم وهما ، فانقلب على التزارية وأدعى أنه من حاء وحكم ، فزجره يزيد بن
 منصور الحميريّ حال المهدي وقال له : أنت حوزي ، فمالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولى
 لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إياه لطريف اللسان عزيز العلوم فدعوه ، وهذا الولاء
 يتعصب لنا ويكاد عما ويهجو التزارية ، فكان كما قالوا وكما طهوا ، فانقلب الى اليمن وعدل
 عن كنيته بأبي فراس واكتفى بأبي نواس ، تشبهاً بكنية ذي نواس كما كانت اليمن تكتفى ،
 وندم على هجاء اليمن ، ووحدهم له أنصر ولدعوته أقل ، فاعتذر الى هاشم بن حديج الكندي
 من هجائه ، ومدّح اليمن فقال :

أهَاشِمُ خَدَمْتَنِي رِصَاكَ وَإِنْ أَتَى * رِصَاكَ عَلَى سَعْيٍ مَعِيرٍ مُلُومٍ
 فَأُقَسِّمُ مَا جَاوَزْتُ بِالشِّتْمِ وَالِدِي * وَعِرْصِي وَمَا مَزَقْتُ غَيْرَ أُدْيِي
 فَعُدْتُ بِمُحَقِّقِي هَاشِمٍ مَا عَاذَنِي * كَرِيمٌ أَرَاهُ فَوْقَ كُلِّ كَرَمٍ
 وَإِنْ أَمْرًا أَغْصَى عَلَى مِثْلِ زَلَّتِي * وَإِنْ يَجَرَحْتُ بِهِ لِحْدُ حَلِيمٍ
 تَطَاوَلَ فَوْقَ النَّاسِ حَقِّي كَأَنَّمَا * يَرَوْنِ بِهِ نَحْمًا أَمَامَ مُحُومٍ

إذا أمتازت الأحساب يوما أهلها ، أناخ إلى عادية وصم
 إلى كل معصوب به التآخ مقول * إليه أيادى عامر وتميم
 وكان قبل أن ينتمى لليمن ويدعى لثرار يتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله :
 فاسقنيها وغر صو * تاء لك الحير، أعجم
 ليس في بيت دمية * لا ولا زجر أشاما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبى نواس شعرا يفضل هذه القصيدة وهي :
 ودار ندأ عطلوها وأدجوا * بها أثر منهم جديد ودارس
 مساحب من جر الزقاق على الترى * وأصغاث ريحان جنى ويابس
 حبست بها صحبي فجددت عهدهم * وإني على أمثال تلك الحابس
 ولم أدر منهم غير ما شهدت به * بشرق ساباط الديار السابس
 أقفا بها يوما ويوما وثالثا * ويوماله يوم الترحل خامس
 تدار علينا الراح في عسجدية * حبتها بأنواع التصاوير فارس
 قرأتها كسرى وفي جبابها * مها تدرها بالقسي الفوارس
 فالحمر ما زرت عليه جيوها * ولواء ما دارت عليه القلائس

وقوله يصف كرمه وعثرعها بالهجمة وهو يريد الدنان :

لنا هجمة لا يدرك الذئب سفلها * ولا راعها تزو الفعالة والخطر
 إذا امتنحت ألوانها مال صموها * إلى الكنت إلا أن أوبارها خضر
 وإن قام فيها الحالبون آتقتهم * بحلاء تقب الجوف دزتها الخمر
 مسارحها الغربي من نهر صرصر * فقطر بل فالصالحية فالعقر

(١) يعني أن الحمر مصبوب فيها إلى حلق الصور صرما . وقوله : ولواء، يعني أنهم صروا الماء من مرجها حتى

تُرَاثُ أَبِي سَاسَانَ كَسَرَى وَلَمْ تَكُنْ * مَوَارِيثَ مَا أَبَقْتَ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
قَصَرْتُ بِهَا لَيْلِي وَلَيْلَ ابْنِ حُرَّةَ * لَهُ حَسْبُ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ وَفَرُ

وَفِي تَعَاظِمِ أَبِي نَوَاسٍ فِي شِعْرِهِ يَقُولُ الرَّقَاشِيُّ يَهْجُوهُ :

نَبَطِيْ فَإِذَا قَهْلُ لَهْ * أَنْتَ مَوْلَى حَكِيمٍ قَالَ أَجَلُ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذَا كَانَ بِهِ * لَاحِقًا فَاللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ
وَاضْعَا نَسَبَتَهُ حَيْثُ اشْتَهَى * فَإِذَا مَا رَأَاهُ رَيْبٌ رَحَلُ

فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ يَهْجُوهُ :

هَجَوْتُ الْفَضْلَ دَهْرِي وَهُوَ عَدِي * رَقَاشِيْ كَمَا زَعَمَ الْمَسْوُولُ
فَلَمَّا سُؤِلْتُ عَنْهُ رَقَاشٌ * لَتَعْلَمَ مَا تَقُولُ وَمَا يَقُولُ
وَلَمَّا أَنْ نَصَّصْنَاهُ إِلَيْهَا * لَتَعْلَمَ مَا يُقَالُ وَمَا تَقُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَعَدَّ مِنْ رَقَاشٍ * مِنْ الْأَتْنِ أَدْعَتْ فِيهَا الْقِيُولُ
وَحَدَّنَا الْفَضْلُ أَحْكَمَ مِنْ رَقَاشٍ * لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاهُ الرَّسُولُ
يُرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا مَوْلَى مَنْ لَا مَوْلَى لَهُ» .

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

قُلْ لِلرَّقَاشِيْ إِذَا جَنَّتْهُ * لَوْ مِتَّ يَا أَحْمَقُ لَمْ أَهْجُكَ
لَأَتْنِيْ أَكْرِمَ عَرْضِيْ وَلَا * أَقْرَنُهُ يَوْمًا إِلَى عِرْضِكَ
إِنْ تَهْجُنِيْ تَهْجُ فَنِيْ مَا جَدَا * لَا يَرْفَعُ الطَّرْفُ إِلَى مِثْلِكَ
دُونَكَ عِرْضِيْ فَاهْجُهُ رَاشِدًا * لَا تَدْنُسُ الْأَعْرَاضُ مِنْ هَجْوِكَ
وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَّا * كُنْتُ بِأَهْيَ لَكَ مِنْ أَصْلِكَ

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

يَا عَرَبِيَّاءَ مِنْ صَنَعَةِ السُّوقِ . * وَصَنَعَةُ السُّوقِ ذَاتُ تَشْقِيقِ
مَا رَأَيْتُكُمْ يَنْزَارُ فِي رَجُلٍ * يَدْخُلُ فِيكُمْ مِنْ خَلْقِ مَخْلُوقِ

ويحمل الوطء والعلات ولا . يصلح إلا للحمل إبريق
 لقد صرنا بالطلل أنك في التقوم صحيح وصبح في السوق
 قد أحد الله من رقاش على . ركبهم المجد بالمواثيق
 فالناس يسعون للعلا قُدماً * وهم وراء مكسرو السوق
 هذا كذا كم وفي الهياج ادا . هيج ما شئت من نواشيق^(١)

وقال أيضا يهجو

أصبح الفصل طاهر آتية * وذلك مد صرت أهاجيه
 لله شعري، أي مفواهيه * لكل من دوني قوافيه
 كم بين فصل مد حاجته * وبك قبل أهاجيه
 فالحمد لله وإن كنت لم * أحمل بقوم تصحوا فيه
 رزيت أن يشتني ساقط * شسعي خير من مواليه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماحى ويعت ويحصى سبه واسم أمه لثلاثين، وذلك مشهور عنه . ولو عصب هو نفسه على أبيه لمحا ولم ينجس . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكيمين ، يتخزأين ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويدكرهم لأنه منهم ، فلذلك قال في العجم ما قال .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان أبو عبيده يقول : ذهبت اليمن بجذ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجذ ، وأبو نواس هزله . وكان يقول : ذهبت اليمن بجسد الشعر في قديمه وحديثه : امرؤ القيس في الأوائل ، وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول . شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس . وقال أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه العطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في موته . وكان يقول : يعجبني من شعراء نواس قوله :

(١) جمع ناشق وهو اسم طائر، أعنى معزب .

بَنِيَا عَلَى كَسْرِي سَمَاءٌ مُدَامَةٍ * مَكَلَّلَةٌ حَافَتْهَا بَنَجُومُ
فَلَوْرُدٌ فِي كَسْرِي نَ سَاسَانَ رُوحُهُ * إِذَا لِأَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمِ

وسئل يعقوب بن السَّكَيْت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من الجاهليين فلا مَرِيَّ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلَجَرِيرٌ والفرزدق، ومن المحدثين فلا أَبِي نَواَسٍ حَسَبُ. وقيل: للعتبي من أشعر الناس قال: عند الناس أم عدي؟ قيل: عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؟ قيل: فعدي؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم يرَ وشعرَ أبي نواس فليس بتام الأدب. وسئل: من أشعر المحدثين؟ فقال: الذي يقول.

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَتْ * مِنْ أَزْوَارِهِ قَرَأَ
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسًّا * إِذَا مَا رَدَّتْهُ بَطْرَا
بَعِينَ حَالِطِ التَّغْيَةِ * رُءُوسُ أَحْقَانِهَا الْحَوْرَا
وَوَجْهَهُ سَارِيٍّ لَوْ * تَصُوبُ مَآوُهُ قَطْرَا
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ * لَهُ مِنْ عِبْرِ طُرَرَا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سَفُلْتُ عَنْ طَبَقَةِ مَنْ تَقْدِمُ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعُلُوتُ عَنْ طَبَقَةِ مَنْ مَعِيَ وَمَنْ يَحْيَى بَعْدِي، فَأَنَا سَبِيحٌ وَحَدِيدٌ.

وحدثت جماعة من الرواة عن شاهد أبا نواس قالوا: كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر، وكان محلا راوية عالم.

وقال أبو عبيدة: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قَرَصَ الشعر فتلقاني وهو سكران ماطر شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عبدك؟ فقال: ثَقِيلُ الظِّلِّ، جامد السيم؛ فقلت: زِدْ، فقال: مظلم الهواء؛ من القماء؛ فقلت: زد، فقال: غليظ الطمع، بارد الشكل؛

قلت : زد ، فقال : وَخَمِ الظَّلْمَةُ بِعَسْرِ الظَّلْمَةِ ؛ قلت : زد ؛ قال : نَأَى الْجَنَابَاتِ ، بارد الحركات ؛ قال : نَفَقْتُ عَهْ ؛ فقال : زدني سؤالاً ؛ أزدك جواباً ؛ فقلت : « كفى من القلادة ما أحاط بالعنق » .

وقال سليمان بن أبي سَهْلٍ لأبي نواس : ما الذى استُجِيبَ من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى فى الخمر لم يُقَلْ مثلها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى إن لم يَزَاحم عزلى ما قلته فى الطُّرْدِ .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيْتُ لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وإبلى ، فما طلك بالرجال ؟ وإنى لأروى سبعائة أرجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلْفًا فى نظم الشعر ، فقال : لا أَذْنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ؛ فغاب عه مدة وحصر اليه فقال له : قد حفظتها ، فقال : أنشدنا ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نظم الشعر ، فقال له : لا أَذْنُ لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له : هذا أمر يصعب علىّ وإنى قد أتقت حفظها ، فقال له : لا أَذْنُ لك إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الدَّيْرَةِ وحلأ بعسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ، فقال له : الا ان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون فى بستان موبق ، وعلى حال أرتضيها من صلاة أو صل بها أو وعد بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيراً منها ويترك صانيتها ، ولا يشره كل ما يقذف به خاطره . وكان يهيم الشعر فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر البلى ولا بالسريع بل كان فى منزلة وسطى .

وكان الأصمى يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفَةُ كَرِّ الطَّرْفِ تَحْسَبُ أَنَّهَا * قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِالْإِفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ
وَأَيَّ لَاتِي الْأَمْرِ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى * وَيَعْلَمُ سَهْمِي حِينَ أَنْزَعَ مِنْ أَرْمِي

قال العتّابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليّة ما فُضِّلَ عليه أحد .

وقال أبو عمرو الشيباني : أشعرُ الناس في وصفِ الجمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نُوَاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعراً في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته ، وبُغْدِ صِيَّتِهِ وَظَرْفِ لِسَانِهِ .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردتُ أن أجدَّ ، قلتُ مثل قصيدى « أيها المتأبُّ عن عُفْرِه » ، وإذا أردتُ العبثَ قلتُ مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكلُّه جيدٌ فاذا وصفت الجمر .

وقال أبو ذُكْوَانَ : كنا عند التَّوْزِيّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع مبه بعض الحاضرين ؛ فقال له التوزي : أقول هذا لرجل يقول :

يَخَافُهُ النَّاسُ وَيَرْجُوْنَهُ * كَأَنَّهُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

ويقول :

فَمَا جَازَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ * وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ

ويقول :

فَتَمَشَّتْ فِي مَقَاصِلِهِمْ * كَتَمَتْنِي الْبُرَّةُ فِي السَّقَمِ

قال ابن الأعرابي يوما جلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس في الجمر؟ فقال بعضهم :

إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خَلَّتْهُ * يُقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكْبَا

وقال آخر :

كَأَنَّ كُبْرَى وَصُغْرَى مِنْ قَفَاقِعِهَا * حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حَيْثُ مَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا * وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَعْرِيًا

وقال آخر :

مَكَانَ الْكَوْوَسِ فَيَا نَجْمٌ * دَائِرَاتُ بَرُوجِهَا أَيْدِيَا

وقال آخر :

صَعْرَاءُ لَا تَنْزُلُ الْإِحْرَاءُ سَاحَتَهَا . لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَتْهُ سَرَّاءُ

فقال ابن الأعرابي إن هذا كله لشاعر أفرد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ * فَدَهْرُ شُرَاهَا نَهَارٌ

قال مسلم بن بهرام لَقِيتُ أُمَّ الْعَتَاهِيَةِ فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ أَشْعُرُ السَّاسِ ؟ قال : تريد حاهليتها أو إسلاميتها أو مولدها ؟ قال : كُلُّهَا أريد ، قال : الذي يقول في المديح .

أَدَا نَحْنُ أَثَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ * فَأَنْتَ كَمَا نُنْتِنِي وَفَوْقَ الَّذِي نُنْتِنِي

وإن جَرَبَ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمَدْحَةٍ * لَعَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعِي

والذي يقول في الرهد

أَلَا رُبَّ وَحِيٍّ فِي التُّرَابِ عَتِيقٍ . وَيَارَبَّ حُسْبٍ فِي التُّرَابِ رَقِيقٍ

وَيَارَبَّ حَرِيمٍ فِي التُّرَابِ وَتَجْدِيدِهِ . وَيَارَبَّ رَأْيٍ فِي التُّرَابِ وَثَبِيقٍ

فَقُلْ لِعَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ وَاحِلٌ . إِلَى مَنْزِلٍ بَالِيِ الْمَحَلِّ تَحْبِيقٍ

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ * وَدُونَسَبٍ فِي الْمَالِكِينَ عَرِيقٍ

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشِفُ * لَهُ عَصْدُوٌّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ

وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة آيات وددت أنى سبقته اليها بكل ما قلته
فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عموّ اللد * من ذنك أكر

وقوله :

من لم يكن لله متّهما * لم يُنيس محتاحا الى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا ليتّ تكشف * له عن عدو في ثياب صديقي

ثم قال . قلت في الرهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها ههذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النّظام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبي نواس . كأن هذا الفقي
بجمع له الكلام فاحترأ أحسنه . وقال بعضهم : كأن المعاني حُيسّت عليه ، فأحد حاجته
وترق الباقي على الساس . وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدث الحسين بن الحبيب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كت
أما وعد الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلق على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر .
يا أما العباس ، من أشعر من قال الشعر في خلافة بني هاشم ؟ فقال . أمير المؤمنين أعرف
ههنا وأعلى عينا ، فقال له المأمون : على ذلك قفّل ، تكلم أنت يا أحمد بن يوسف ،
فقال عبد الله بن طاهر . أشعرهم الذي يقول :

ويا قبر معي كنت أقول حُفرة * من الأرض خُطت للسمّاحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرهم الذي يقول :

أشبهت أعدائي فصرّت أحبهم * إذ كان حظّي منك حظّي منهم

فقال المأمون : يا أحمد أبيت إلا غزلا ! أين أتم عن الذي يقول :

يا شقيق النفس من حكمي * نمت عن ليلى ولم أتم

قلنا : صدقت يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئِلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفت نفسها
كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا ليبتَّ تَكشِفَتْ * له عن عدوِّ في ثياب صديق
وَرَدَ على العتَابِ بِحَلَبِ عِدَّةٍ من الِيجَارِ من أهل قَنَسْرِينَ؛ فدخلوا وسأموا؛ وكان في يده
رُقْعَةٌ ينظر إليها، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هذه الرُقْعَةِ وادياً ما سلكه أحدٌ قبله ؛
فظفروا فإذا هو شعر أبي نواس في جِانِ جارية آل عبد الوهَّاب الثَّقَفِيّ، وهو قوله :
رَجَّعَ الكَرَى بين الجفونِ حَيْلُ * عَفَى عليه بُكْيٌ عليك طویلُ
يا ناطرًا ما أَقلَّعتُ لحظَّائِهِ * حتى تشحطَ بينهن قَبِيلُ
أحلَّتْ قلبي من هَوَاكَ حِمْلَةً * ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ
بِكمالِ صورتك التي من دونِها * يتخَيَّرُ التشبيهُ والتمثیلُ
فوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقها * دون السِّمينِ ودونَها المهزولُ
وبما أنشده العتَابِي لأبي نواس فقال أحسن وأجاد :

متناهِ بِجِمالِهِ صَلِفُ * لا يَسْتَطاعُ كَلَامُهُ تَبَيَّا
لِلْحَسَنِ في وَجْائِهِ يَدْعُ * ما إن يَمْلُ الدرسَ قارِيا
لو كانت الأشياءُ تعقله * أَجَلَّلَنَّهُ لِجَلالِ باريها
لو تستطيعُ الأرضُ لَأَقْبَضَتْ * حتى يصيرَ جميعه فيها

وقوله :

إن السحابَ لتستحي إذا نظرتُ * الى نَدَاكَ فقامستُه بما فيها
حتى تَهْمَ بِإِقْلَاجِ فيمنعُها * خوفٌ من السُّخْطِ من إجلالِ منشِيا

قال محمد بن صالح بن يَهِيس الكَلَّابِي : لما دخلتُ العراقَ صرْتُ الى مدينة السلام
فسألتُ عَمَنَ بها من الشعراء المحِسينِ ، وذلك في أيام خلافة الأمين أو عند موته قبل
دخول المأمون بسير، فقبل لي : قد غلب عليهم فتى من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هاني ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره ، فأتاني فتي كان من أهل الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئا؟ قال : أروى له أبياتا في الزهد وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ، فأنشدني :

أني ما بال قلبك ليس يَتَقَى * كأنك لا تَظُنُّ الموتَ حَقًّا
ألا يا بنَ الذين قُتِلوا وادوا * أما والله ما ذهبوا لَتَتَقَى
وما للنفس عندك من مُقام * إذا ما آستكَلَّتْ أَجَلًا ورِزقا
وما أحدٌ بَرادك منك أَحَقَى * ولا أحدٌ بذنبك منك أَشَقَى
ولا لك غيرَ تقوى الله زاد * إذا جعلتَ إلى اللّهوات تَرَقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسن من هذا؟ قلت بلى ، فأنشدني في رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد * وليس لما تَطْوى المِيةَ ماشرُ
فلا وصلَ إلَّا عَبرَةً تَسْتَنِدِيهَا * أحاديثُ نَفْسٍ مالها الدهرُ ذا كُرُ
لئن عَمَرْتُ دورَ بمن لا أودّه * لقد عَمَرْتُ من أحبِّ المقابرُ
وكتُّ عليه أحذرُ الموتِ وحده * فلم يَنَقَ لي شيءٌ عليه أحاذرُ

فقال : بحق ما غلب هذا على أهل الأدب وقدموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأصم : كنا عند أبي نُعَيْم ، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين ذكرت شعر لبيد يرى أخاه أربد :

ذَهَبَ الذين يُعاشُ في أَكْثافِهِم * وَبَقِيَ في حَلِيفٍ بَحْلِدُ الأَجْرِبِ

ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتا ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذهبَ الناسُ فاستَقَلُّوا وصَبَرْنَا * حَلَقًا في أَرادِلِ النَّسائِسِ
في أناسٍ نَعُدُّهم من عَدِيدٍ * فاذا قُتِّسُوا فليسوا بناسِ

كلما جئتُ أتنى الفصل منهم * بذروني قبل السؤالِ بياس
وبصكوا لي حنى تميمتُ أنى * مُقلتُ عند ذاك رأساً براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر ؟ قلنا : لا ، قال : للحسن بن هاني .

قال أبو عبد الرحمن الصريري : رأيتُ مسلم بن الوليد يُجرحان وهو يتولأها ، فسألني عن حلفتُ من الشعراء . فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس ، وهو مقدمُ عندهم ، فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يَا إِنْسَانُ لَا أَتَ تَقْفَرُ أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ : « تَقْفَرُ » نَرَحْتُ مِنْ بَيْنِ فَكِّي شَاعِرٍ قَطُّ ! ثم قال ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُحِيلُ وَيَنْحَطِي من صفة المخلوق الى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال فكقوله : وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ * لَتَحَاكُكَ الطُّفْءُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ وَهَذَا مِنَ الإِعْرَاقِ الْمُسْتَحِيلِ فِي الْعُقُولِ وَمِمَّا لَيْسَ عَلَى مَدْهَبِ الْقَوْمِ ، وَأَمَّا فِي تَحْطِيهِ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَى صِفَةِ الْخَالِقِ فَكقوله .

يَحِلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ * فَكَلَّ حُلُقِي لَخْلُقِهِ مِثْلُ
وكقوله :

* بَرَىءٌ مِنَ الْأَشْبَاهِ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ *

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إما هو بين المدح والمهزاء وأبو نواس لا يُحْسِنُهُمَا ، وَأَجُودُ شِعْرِهِ فِي الْحَمْرِ وَالطَّرْدِ ، وَأَحْسَنُ مَا فِيهِمَا مَا خُودَ لَيْسَ لَهُ وَإِنَّمَا سَرَقَهُ ، وَحُسْنُكَ مِنْ رَحْلِ يَرِيدِ الْمَعْنَى لِأَحَدِهِ فَلَا يُحْسِنُ أَنْ يَتَنَبَّى عَلَيْهِ حَتَّى يَحْيَى بِهِ قَبِيحًا ، مِثْلُ قَوْلِهِ : « وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ » أَحَدُهُ مِنْ قَوْلِ الْأَعَشِيِّ : « وَأُحَرِّى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا » وَالَّذِي أَخَذَهُ مِنْهُ أَحْسَنُ . وَمِنْهَا أَيْضًا قَوْلُهُ : « إِنْ الشَّبَابَ مَطِيَّةُ الْجَهْلِ » أَحَدُهُ مِنْ قَوْلِ اللَّاعِنَةِ الْجَعْدِيِّ : « فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ » . وَقَوْلُهُ : « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ إِهَابِهِ » أَحَدُهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي النَّجْمِ : « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ كِسَانِهِ » . وَلَكِنْ رَرِقَ أَبُو نَوَاسٍ فِي شِعْرِهِ أَنْ سَارَ وَحَمَلَهُ النَّاسُ وَقَدَّمَهُ أَهْلُ عَصْرِهِ ، وَإِنْ لَهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَشْيَاءَ حَسَنًا لَا يَدْعِيهَا وَلَا يَطْرَحُهَا إِلَّا حَاحِلٌ بِالْكَلَامِ أَوْ حَاسِدٌ .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلده فيها زور * صغراء تحطى في صعر
مرت إذا الذئب اقتصر * بها من القوم الأثر
كان له من الحزر * كل جبين ما اشتكر^(١)
ولا تعلاه شعر * ميت النساى الثغر
عسفها على خطر^(٢) * وغرير من الغرر
بيازب حين قطر * يهزه حب الأثر
لا مثلك من سدر^(٣) . ولا قريب من خور
كأنه سد الصمر * وعد ما جال الصفر^(٤)
وأتمح في حسر : * جاب رناع المنعر^(٥)
يحدو بحف كالأكر * ترى نابج القصر^(٦)
منهت هوشيم الجهر * رعين أبكار الخضر
شهرى ربيع وصفر * حتى إذا الفحل جفر^(٧)
وأشبه السنى الإمر * وش أذخار القر^(٨)
قلن له : ما تأتمر ؟ * وهن إمد قلن : أشر
غير عواص ما أمر * كأنها لمن نظر
ركب يشيمون مطر * حتى إذا الظل قصر^(٩)

(١) المرت : الأرض لا نأت فيها ، واقترع الأثر : اقتناه وتمه . (٢) الحرر (هتحتين) :

ما يدع من الشاء ذكرًا كان أروأى . واحدته : جرة . وما اشكر : لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر الذى لا يكاد يظهر . (٣) عسفها : سلكها متحيطا ، والغرر : الخطر . (٤) السدر : التحير .

(٥) الصبر (الصم وصمتين) : الحزال . والصمر : جمع صمار (بالفتح) وهو ما يشد به العير من شعر مصمور .

(٦) الجاب : الحمار اللطيف من حمير الوحش . (٧) الأنماح جمع شح وهو وسط الشئ ، والقصر

جمع قصرة وهي أصل المق . (٨) جعر : اشمع عن الصراب .

(٩) السى : كل شجر له شوك ، وش : صب ، والقر . جمع قرة وهي الوهدة المستندرة من الأرض .

يَمْنَنَ مِنْ حَبْنِي هَجَرَ * أَخْصَرَ طَمَامَ الْعَكْرَ
 وَبَيْنَ أَحْقَافِ الْقَدَرِ * سَارَ وَلَيْسَ لِلْسَمْرِ
 وَلَا تَلَاوَاتِ السُّورِ * يَمْسَحُ مِنْ نَأَا^(١) يَسْرِ
 رُمْتُ بِمَشْزُورِ الْمِرْزِ * لَأُمُ الْخُلُقُومِ الثُّغْرِ^(٢)
 حَتَّى إِذَا ضَطَّفَ السُّطْرُ * أَهْدَى لَهَا لَوْ لَمْ تُحْزَرْ
 دَهْيَاءَ يَحْدُوها الْقَدَرُ * فَبِكَ عَنَسٌ لَمْ تُدَرْ
 شَهَا إِذَا الْآلُ طَهَرَ * إِلَيْكَ كَلَّمَا السُّفَرُ
 خُوصًا يُحَادِثُنِ السُّطْرُ * قَدْ اطَوَّتْ مِنْهَا السَّرَرُ
 طَى الْقَرَارَى الْحَبَرُ^(٣) * لَمْ تَتَقَعْذَهَا الطَّيَرُ
 وَلَا السَّيْحُ الْمَرْدَجَرُ * يَافِضُلُ الْقَوْمِ الْبَطَرُ
 إِنْ لَيْسَ فِي الْبَاسِ عَصَرُ * وَلَا مِنْ الْخَوْفِ وَرَرُ
 وَنَزَلْتُ إِحْدَى الْكُتْرِ * وَقِيلَ صَمَاءُ الْعِيَرُ
 فَالْبَاسُ أَبَاءُ الْحَذَرِ : * فَرَجَّتْ هَاتِيكَ الْغُمَرُ
 عَا « وَقَدْ صَابَتْ بِقَرْ »^(٤) * كَالشَّمْسِ فِي تَخْصِصِ بَشَرُ
 أَعْيَا مُجَارِيكَ الْخَطَرُ * أَوْكَ حَلَى عَنْ مُضَرُ
 يَوْمَ الرُّوَاقِ الْمُحْتَصِرِ * وَالْخَوْفُ يَقْرِى وَيَذَرُ
 لَمَّا رَأَى الْأَمْرَ الْقَطَرُ^(٥) * قَامَ كَرِيمًا فَانْتَصَرَ
 كَهَرَّةَ الْعَصَبِ الدَّنَكْرِ * مَا مَسَّ مِنْ شَيْءٍ هَبَرُ^(٦)

- (١) المربان : القوس . (٢) رمت شئت ، ومشروور : معتل ، والمر : جمع مرة وهى قوة الفتل ،
 واللائم : الشديد ، والعمر : كسر الدليل . والعرب تشبه الدقيق بالأوتار وحلاقيم العرائ . (٣) القرارى : الحياط
 (٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر موقعه صارت قرو ووقت قرو . قال طرفة بن العبد الكبرى .
 كنت مهم كالمعلى رأسه * فاحمل اليوم عطائى وحمر
 سادرا أحسب عبي رشدا * فضايت وقد صارت قمر
 (٥) اشتد . (٦) هر . قطع .

وَأَنْتَ تَقْتَأُ الْآثَرَ * مِنْ ذِي حُجُولٍ وَعُرَرٍ
 مَعِيدٍ وَزَيْدٍ وَصَدْرٍ - وَإِنْ عَلَا الْأَمْرَ أَقْتَدِرْ
 فَأَيْنَ أَصْحَابُ الْقَمَرِ * أَذْشِرُوا كَأْسَ الْمِقْرِ^(١)
 وَقُصِّرُوا بِمِنْبِ قُصْرِ * هَيْهَاتَ لَا يَحْيَى الْقَمَرُ
 أَصْحَرْتَ أَذْذَتُوا الْخَمَرَ^(٢) - شَكَرًا، وَحَرْمًا شَكَرَ
 فَاللَّهُ يُعْطِيكَ الشَّيْبَ^(٣) * وَفِي أَعَادِيكَ الظَّفَرُ
 وَاللَّهُ مَنْ شَاءَ نَصَرَ * وَأَنْتَ إِنْ حَفَا الْحَصَرَ^(٤)
 وَهَرَدَهُمْ وَكَثَّرَ * عَنْ نَاحِيَةٍ وَسَرَّ^(٥)
 أَعَيْتَ مَا أَعْنَى الْمَطَرُ * وَفِيكَ أَحْلَاقُ الْبَسَرِ
 فَإِنْ أَوَّلَا إِلَّا الْعَسَرَ * أَمَرْتَ حَبَلًا فَاسْتَقَرَّ^(٦)
 حَتَّى تَرَى تِلْكَ الزُّمَرِ * تَهْوِي لِأَذْقَانِ التَّنْقَرِ^(٧)
 مِنْ جَذْبِ الْوَلَى لَوْ تَرَى * إِلَيْهِ طَوْدًا لِأَنَاطَرِ^(٨)
 صَعِبَ إِذَا لَاقَى أَبَرَ - وَإِنْ هَفَا الْقَوْمُ وَقَرَّ
 أَوْ رَهَبُوا الْأَمْرَ جَسَرَ * ثُمَّ تَسَامَى فَفَقَرَ
 عَنْ شَفِيقٍ ثُمَّ هَدَرَ * ثُمَّ تَبَاجَى فَنَظَرَ^(٩)
 بَدَى سَيْبٌ وَعُذِرَ - يَمْضِعُ أَطْرَافَ الْوَبَرِ
 هَلْ لَكَ وَالْهَلْ خَيْرٌ^(١٠) * فِيمَنْ إِذَا غَسَتْ حَصَرُ
 أَوْ نَالَكَ الْقَوْمُ تَأَزَّرَ * وَإِنْ رَأَى حَيْرًا شَكَرَ
 * أَوْ كَانَ قَصِيرٌ عُدَّرَ *

- (١) المقر : المرء . (٢) أصحرت : ردت إلى الصحراء . ودنوا البحر : مشوا بحتمين . والبحر : ما سترك من شجر أو ماء أو نحوه . (٣) الحبر والقوة . (٤) الصيق . (٥) كثر أبدى عن ناحيته ، وسر : عس . (٦) أي أحكمت فتله . (٧) جمع ثعرة وهي فرة البحر . (٨) الأولى : الشديد الخصومة . (٩) أعرج وأثني . (١٠) السبب : شعر اللب والعرف والناصية ، والعذر جمع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستهانة فأدخل عليها الألف واللام .

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أولها : « ومستعبد إخوانه ثرائه » . بلغت
 الأمين ، فبعث إليه ، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاصُ نظِرْ أُمَّه
 العاهرة ، ويا مدعى ولأءِ حاءَ وحكم ! أتدري يابنَ الخناء من توليت وإلى من أددت ؟
 إلى الأم قبيلتين وإلى العجم ، علوجُ ماغين . أنت تكتسب بشعرك أو سناخ أيدى الناس اللثام ،
 وتقول : - ولا صاحب التاح المحجب في القصر * أما والله ما نلت مني شيئاً بعد ذلك
 أبداً ! فقال له سليمان بن أبي جعفر : إني والله ! سمع هو مع هذا من كار الثوية^(١) (وكان يرى
 بذلك) ؛ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك ؟ فأتاه سليمان بعده
 بقر ، فشهدوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوصع قدحه تحت السماء في المطر فوقع فيه
 المطر ، فقالوا له : ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أتم ترعّمون أنه يتزل مع كل قطرة
 ملك ، فكم ترائي أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما في القدح ؛ فغضب محمد ، وأمر به
 إلى السجن . فذلك قول أبي نواس :

ياربَّ إب القوم قد ظلموني * ولا اقرّاف عطل حبسوني
 وإلى الجحود بما عرفت حلافه * ربّي إليك يكذبهم تسبوني
 ما كان إلا الحرّى في ميدانهم * في كلّ خزي والمجانة ديني
 لا العدر يُقبل لي ويفرق شاهدي * منهم ، ولا يرضون حلف يميني
 ما كان - لو يدرون - أول محبا * في دار منقصة ومنزل هوين
 أما الأمين فليست أرحو دفعه * عني ، فمن لي اليوم بالمأمون
 فبلغت أبياتهُ المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغنيته غني لا يؤمله . فمات قبل دخول
 المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافة إلى محمد الأمين وولى الفضل بن الربيع الوزارة ، تفرّج محمد
 للهو والصيد والزهة ، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجند

(١) الثوية أصحاب الاتيين الأريين وهم الذين يرعمون أن البور والطلة أربايا قديما ، بخلاف المجوس
 فانهم قالوا بحدوث الطلام .

والقوَادَ فركبوا، ولبس ثيابه وتقلد سيفه ، وأَعِدَّتِ الحَرَاقَاتُ والزَّلَاحَاتُ في دِخْلَةٍ ، فقال له اسماعيلُ بنُ صُبَيْحٍ - وكان كَانَتْ سِرَّةُ - : يا أمير المؤمنين ان قوادك وحنذك وعامة رعيتك قد حَبَّتْ نفوسهم ، وساءت ظنونهم ، وكَبُرَ عِصْمُهم ما يرون من احتجاجك عنهم ، فلو حَلَسْتَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن في ذلك تسكيا لهم ومراحة لآمالهم ! فجلس في مجلسه وأذن للباس عامة فدخلوا على مراتبهم ومازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا ، والشعراء فأشدوا ، فلم يكن أحد منهم يتعدى الى الاطباء والتطويل ، الا أَمَرَ بالسكوت ومِيعَ من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل جحر ومَدَر ، وإبل ووصيف للبقر وبيوت الشعر ، قد جَفَّتْ أَلْفَاطُهم ، وغَلُظَتْ معايبهم ، ليس لهم نصير بمدح الخلفاء ونشير مكارمهم ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى في إنشاده فليصعل ، فأذن له فأنشده :

أيا دارِها بالماءِ حتى تُلبِّيَها * هل تُكْرِمُ الصُّبَّاءَ حتى تُهَيِّئَها
أُعلَى بها حتى إذا ما ملكَتْها * أهتُ لِمَ كَرَامِ الخليلِ مَصُونِها
وصعراء قبل المَرْجِ بَصَاءَ عِده * كأنَّ شعاعَ الشمسِ يَلْقَاكَ دُونِها
ترى العينَ تستعْفِيكَ من لَمَعَانِها * وتَحْمُرُّ حتى ما تُقِلَّ جَفُونِها
زُرُوعٌ بِنَفْسِ المَرْءِ عَمَّا يَسُوهُ * وَيُحْدِلُهُ أَلَا يَزَالُ قَرِيبَها
كَأَنَّ يَوَاقِيتَا رَوَاكِدِ حَوْلِها * وَرَزَقَ سَائِرِ تَدِيرِ عِيُونِها
وَتَمَطَّاءَ حَلِّ الدَّهْرِ مِنْهَا بِخَوِ * دَلَعْتُ اليها فامْتَلَكْتُ جَنِينِها
كَأَنَّ حُلُولَ بَيْنِ أَكْثَابِ رَوْضَةٍ * إِذَا مَا سَلَبَها مع اللَّيْلِ طِينِها

الى أن أكل القصيدة . فقال له محمد : ألم أُنْهَكَ عَن شَرِبِ الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شرَّتها منذ نهيْتَنِي عنها ومعتنى من شُرِّها ، وأما الذى أقول :

أُثِمَّا الرَّاحِبِ بِاللُّومِ لُومًا - لَا أَذُوقُ الْمَدَامَ إِلَّا شَمِيمًا
 نَالِي بِالْمَلَامِ مِمَّا إِمَامٌ * لَا أَرَى لِي حِلَافَةً مُسْتَقِيمًا
 فَاصِرًا هَا إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي * لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
 كَرُحْطَى مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ * أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمُ النَّسِيمًا
 فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِمَّا * قَعَدِي يُحَسُّ^(١) التَّحْكِيمًا
 كُلٌّ عَنِ حِمْلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ * بَ فَاوَصَى الْمُطِيقَ إِلَّا يَقِيمًا

فتبسم محمد، وقال له : أحسنت ! وقام بعض الشعراء فأشد :

تَرَقَّى فِي مَضَائِلِهِ الْإِمِينُ * وَزَابِلُهُ الْمَشَاكِلُ وَالْقَرِينُ
 وَأَوْرَقُ زَهْرَةِ التَّقْوَى وَعَزَّتْ * حِلَافَتُهُ وَصَدَقَتِ الظُّنُونُ
 تَمَسُّ مَسَارَ الْخُلَفَاءِ مِنْهُ * يَدٌ بِخِلَافِ طَاعَتِهَا الْمُؤْنُ
 بِحَافِ الْحَوْفِ صَوْلَتَهُ وَيَرْجُو * نِدَاهُ الْجُودُ فَهُوَ لَهُ حَدِينُ

فقال عدة ممن حصر : قد أوجر وأحاد، أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال أبو نواس : أشعر
 منه يا أمير المؤمنين الذي يقول :

أَلَا يَا حَيْرَ مَنْ رَأَتْ الْعِيُونَ * تَظْهِيرُكَ لَا يُحَسُّ وَلَا يَكُونُ
 وَفَصْلُكَ لَا يُحَدُّ وَلَا يُحَارَى * وَلَا تَحْوِي حِيَازَتَهُ الظُّنُونُ
 فَأَنْتَ تَسِيحُ وَحَدِّكَ لَا شَبِيهَ * تُحَاشِيهِ عَلَيْكَ وَلَا حَدِينُ
 حُلِقَتْ سِوَا مَشَاكِلَةٍ لَشَيْءٍ * فَأَنْتَ الْفُوقُ وَالْمَعْلَانُ دُونُ
 كَأَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَكْ قَبْلُ شَيْئًا * إِلَى أَنْ قَامَ بِالْمَلِكِ الْإِمِينُ

قال : ففصله محمد وأحسن جائزته . ويقال : إنه قالها بديها .

(١) القعدى من الخواص : الذى يرى رأى القعدة إله الدين يرون الحكيم حقا ، غير أنهم قعدوا عن الخروج

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحرّاقَةَ الى الثَّنَائِيَّة، واصططقت له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وُحِلَتْ معه المطايحُ والخزائن . وكان ركوبه حرّاقَةً^(١) على مثال الأسد . فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو يادمه، فقال :

تَخَرَّ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا * لَمْ تَسْجُرْ لَصَاحِبِ الْمَحْرَابِ^(٢)
 فَاذَا مَا رَكَابُهُ سِرَفَ بَحْرًا * سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثَ غَابِ
 أَسَدًا بَاسِطًا ذِرَاعِيهِ يَعْدُو * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كُلَّجَ الْأَنْيَابِ^(٣)
 لَا يَعْانِيهِ بِالْفُحَامِ وَلَا السُّو * طَ وَلَا تَعْمِزُ رِجْلُهُ فِي الرِّكَابِ
 نَحَبِ النَّاسِ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو * رَهَ لَيْثٍ تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ
 سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَّتْ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَنْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
 ذَاتَ زَوْرٍ وَمَنْشِيرٍ وَجَاحٍ * بَيْنَ تَشُقِّ الْعُبَابِ بَعْدَ الْعُبَابِ
 تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا سَ * تَعْمَلُوهَا بِحَيْثِيَّةٍ وَذَهَابِ
 بَارَكَ اللهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا * هَ وَأَبْقَى لَهُ رَدَاءَ الشَّبَابِ
 مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَا بَيْنِي مَوْقِفٌ لِلصَّوَابِ

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد ، وقد ركب حرّاقته الدّافين ، فقال له شيخٌ الى حابه : اتق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ ، إن الله لم يسحر لصاحب المحراب الدّافين ، وقد سحر له ما هو خير من الدلفين ، فأى شئ تكرر من هذا ؟

قل أن حبيب : كنت مع مؤنس بن عِمران ، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببعداد ، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبي نواس في السجن مسلّمًا عليه ! فعلمنا ؛ فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان للأمين ثلاث من السمن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة ، وهي الليث والعقاب والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه سى بيت المقدس . (٣) أهرت الشّدق : واسمه . وكان الخ الأنياب : كاشرها .

لئونس : أيس تريد ؟ فقال : أريد أنا العاس الفضل بن الربيع ، قال فبلغه رقعة أعطيكها ؛ قال : نعم ، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يد في الناس واحدة * كيد أبو العاس مولاها
 نام البعأة على مضاجهم * وسرى الى نفسى فأجاها
 قد كس حفتك ثم أمى * من أن أحافك خوفك الله
 فعفوت عتي عدو مقتدر * وجبت له نقم فأنفاها

فكانت هذه الأبيات سبب حروجه من السجن .

إبصر أبو نواس من بعض المواخير سكان ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة ، فدخل فقام في الصف الأول ، فقرأ الأمام : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فقال أبو نواس من حلته . ليبيك ، فلما قصيت الصلاة لئوس وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بال كفر ودعوه . فبلغ خبره الرشيد ، فدعا له حمدويه صاحب الرندقة ، وأحضر أبو نواس فقال له حمدويه : يا أمير المؤمنين ، إن هذا ماحن ، وليس هو بحيث يُفطن ، فقال له الرشيد : وَيَحْك ! إنه وقع في نفسى به شيء ، فامتنحه . قال : نخط له صورة ماني ، وقال له : أنصق عليها ، فأهوى أبو نواس به ليق عليها ، فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ما جن . قال : ودعا رجل من الرادقة مشهور ، وقال له : انصق عليها ، فقال : وما معنى النصاق ! إنه من أحلاق الشرك ولا أصله ، وأنى أن يفعل . فقال الرشيد لبعض حدم القصر : امض بهذا (يعني أنا نواس) الى السدي ، فقل له : أذبه وأطلقه ،

(١) لئوس أحدوا لمه ، وهو موضع القلادة في الصدر . (٢) هومان بن فائق الحكيم ، الذي طهر في زمن سائوردى الاكاف بن أردشير ، وقتله بهرام بن هرم بن سائورد ، وذلك بعد عيسى عليه السلام . اتخذ له دببا من المحوسبة والصراية . وكان يقول بدوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بدوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف ماني عيسى الوراق ، وكان في الأصل محوسبا علما بمداهب القوم ، أن الحكيم ماني رعم أنت العالم مصوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما يور والآخر طلبة ، وأنها أريان لم يرا لا ولن يرا لا ، وأبكر وجود شيء إلا من أصل قديم ، وأنها لا يرا إلا قوتين حساسيتين سميتين صيرتين ، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متصادمتان ، وفي الحيز متحاذيتان تحاذي الشخص والعلل .

(انظر المال والحلل للشهرستاني)

وبهذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسه قبلك الى أن تستتيه، فان تاب وإلا قتلناه .
 قال : فعسى بهما الخادم ، فلما صار في آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين
 تذهب بنا ؟ قال : الى السندی، قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قبله
 حتى تُستتاب أو تُقتل، ويؤدب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يده ولطمه، وقال
 له : يا بن الزانية، من الساعة نسيت ! . ونصر بهم الرشيد، فقال : ردوهم ، فقال
 لأبي نواس : ما هذا الذي رأيتُ منك ؟ قال : أراد والله أن يُهلكني ويطرحنى بحيثُ
 أنسى أبدا أو أبقى محمداً ، سألته يا أmeer المؤمنين عن الرسالة ، فادا هو قد غيرها ، فصحك
 من أبي نواس وأطلقه .

قال رُريس الكاتب : اجتمعما يوما أنا وأبو نواس وعلى بن الخليل في سوق الكرخ،
 وكما نجتمع وتتناشد الأشعار وتذاكر الأخبار وتحدث بها . فقال أبو نواس : أدبر من
 كان في نفسي وكان أسرع الخلق في طاعتي، فما أدري ما أحتال له ؟ فقال على بن الخليل
 يمازحه : يا أبا على، سل شيخك وأبتادك يعطفه عليك، فقال له أبو نواس : من تعني ؟
 قال : من أنت في طاعته لي لك ونهارك (يعنى ابليس) فان لم يقض لك هذه الحاجة ،
 فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقرّ عيه بمعضية، فقال : هو أسدٌ لأبيه من أن يُخل
 بي أو يُخدلني، واتصى مجلسا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعما في ذلك الموضع، وأحذا
 في أحاديثنا، فصحك أبو نواس، فقلنا له : ما أصحكك ؟ فقال : ذكرتُ قول على بن
 الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عليك . حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقضى الحاجة ،
 وما مضت والله ثالثة حتى أتاني من غير أن أعت اليه ومن غير أن أستريه ، فعاتني
 واسترضاني، وكان الغضب منه والتجني، وأحسب الشيخ (يعنى ابليس) كان يتسمع عليا
 في وقت كلامنا؛ وقد قلت أبيانا في ذلك؛ فقلنا : هلهنا، فأنشد :

لما جفاني الحبيب وامتنعت * عنّي الرسالاتُ مه والخبرُ
 واشتد شوقي فكاد يقتلني * ذكرُ حبيبي والهَمُّ والعِكرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له .. في خَلوةِ والدموعِ تمحدرُ :
 أما ترى كيف قد بليتُ وقد * أفرحَ جَفنى البكاءُ والسهرُ ؟
 إن أنت لم تُلقِ لى المودةِ في .. صدرِ حبيبي وأنت مقتدر
 لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ عَمَّا * ولا جرى في مفاصلي السَّكْرُ
 ولا آزالُ القرآنَ أدْرُسُهُ .. أروح في دَرِسِهِ وأبتَكُرُ
 وألزم الصومَ والصلاةَ ولا .. أزال دهرى بالخير آتَمُرُ
 وما مصتُ بعد داك نالتهُ .. حتى أتاني الحيبُ يعتذرُ
 ويطلب الودَّ والوصالَ على .. أفصل ما كان قَلَّ يَنْجُرُ
 فيألفها مئةً لقد عَطَمْتُ .. عدى لإبليس ما لها خَطَرُ

(١)
 لما قَدِمَ أبو نواس على الحَصِيبِ بمصر أذن له وعده جماعة من الشعراء فاستشده ،
 فقال له : ها جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسن ، فأذن لهم في الإشاد ، فان كان شعري
 نظير أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشدهم الحَصِيبُ ، فأنشدوا مديحا في الحَصِيبِ ،
 فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعرا بى نواس ، فتبسم أبو نواس ثم قال : أنشدك أيها الأمير
 قصيدةً هي بمرلة عصا موسى لتلقف ما يأكون . قال هات ، فأنشده قصيدته التي أولها :
 أجارة بيتينا أبوك عيُور * وميسور ما يُرجى لديك عَيبُ
 حتى أتى على آخرها ، فانقص الشعراء من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان حرج الى مصر في زِي الشُّطَار وتقطيعهم بطرزة قد صَفَّها
 وُكَّين واسعين وديل محرور وععل مطق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما
 دخل على الحَصِيبِ بهذه الصورة ازدراه واستحق به ، وكان تُورد عليه كتبُ الحِلَّةِ ممن

(١) هو الحَصِيبُ بن عبد الحميد المعنى أمير مصر على الخراج . وإليه نسب مئة الحَصِيبِ بالوجه القليل
 وليس ناس صاحب نهر أرى الحَصِيبِ ، داك عبد للصور يقال له مروق . وكان هدا رئيسا في أراضيه .
 فانقل الى بغداد وصار كات مهوريه الراى ، ثم انقل الى إلامارة .
 (٢) الشُّطَار : جمع شاطر وهو من أعيأ أهله حثا .

ساب السلطان، ووردت كتب أبي بواس فيها فقرأها ولم يستدشه، فانصرف مهموما .
وحاه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب، فاستحصره فأنشده :
أَحَارَهُ يَتَيْبَا أُولُوكَ عِيورُ * وَمِيسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَيْسِرُ
فَأَن كَيْتَ لَا حِلْمًا وَلَا أَنْتَ زَوْحَةٌ * ^(١) فَلَا بَرَحَتْ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورُ
وَجَاوَرْتُ قَوْمًا لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ * وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُسُورُ
فَمَا أَمَا بِالْمَشْعُوفِ صِرَّةً لَا زِيْبَ * وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَى قَدِيرِ
وَأَنَّى لَطَرْفِ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاجِرُ * فَقَدْ كَدْتُ لَا يَمْنَحُنِي عَلَى صَمِيرِ
كَمَا نَفَرْتُ وَالرِّيحُ سَاكِنَةٌ لَهَا * ^(٢) عَقَابُ مَاسِعِ الْبَيْدِ سُدُورُ
طَوْتُ لَيْلَتَيْنِ الْقَوْتَ عَدَى صُرُورِهِ * ^(٣) أَزْيَعَبَ لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ شَكِيرُ
فَأَوْفَتْ عَلَى عَلِيَاءَ حِينَ بَدَا لَهَا * ^(٤) مِنَ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالضَّرِيبُ يَمُورُ
تَقَلُّتُ طَرَفًا فِي حِمَا جَنَى مَنَارِهِ * ^(٥) مِنَ الرَّاسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ دُرُورُ
ولما قال أبو بواس :

تقول التي من بيتها خف مركبي . * عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصير للمعي متطلب * بلى لمن أساب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بواذر * جرت بحري في جريهن عير
دري أكرحاسديك رحلة * إلى سلب فيه الحصيب أمير

قال له الخصيب : إذا تكثر حسادها وتبلغ أملها، وأمر له ألف دينار .

(١) الحلم الصديق . (٢) الدور . حروح العظم من موضعه أو زواله في البيت من سوء التركيب
ما فيه ، والتقدير فيه كما طارت عقاب لها مأساع الديدن بدور والريح ساكنة . (٣) أزيب تصغير أزع
وهو المرح ذو الرعب أي الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أول ما يمت . (٤) الضريب :
الطلع أو الحليد . ويمور : يخلوك أو يحمي . ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الحماجان مثنى حجاج
وهو العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب . والدور : ما يدور في العين من الدماء .

وتأماها :

اذا لم تَرْزُ أرضَ الخصبِ ركابًا * فأىَ فتيَ بعدَ الخصبِ تَروُر !
 وما جازه جودٌ ولا حلَّ دونه * ولكن يصير الجودُ حيث يصير
 فتيَ يشتري حسَّ الناءِ بماله * ويعلم أن الدائراتِ تدورُ
 ولم ترعني سوددًا مثلَ سوددٍ * يحلُّ أو يصير به ويسير
 وأطرق حَيَاتِ البلادِ الحَيَّةِ * حَصِيبةَ التصميمِ حينَ تسورُ^(١)
 سموت لأهل الجورِ في حالِ أمنهم * فاصحوا وكلُّ في الوثاقِ أسيرُ
 اذا قام عنته على الساقِ حليَّةٌ * لها خطوه عِدَ القيامِ قصيرُ
 فمن يك أمسى حاهلاً بمِقاتي * فاب أمير المؤمنين حيرُ^(٢)
 فما زلتُ تُؤليه الصبحةَ يافعا * الى أن بدا في العارضينَ قَيرُ
 إذا عاله أمرٌ إنا كَفَيْتَه * وإما عليه بالكفاءِ نُسيرُ
 إليك رمت بالقومِ هُوحٌ كأنما * جاحمها تحت الرِّحالِ قسور
 رحلنا سا من عَقْرُوفٍ وقد بدا * من الصبحِ مفتوقُ الأديمِ شَهِيرُ^(٣)
 فما نَحَدْتُ مالماءَ حتى رأيتها * مع الشمسِ في عينيَ أَمَاحٌ تَغُورُ^(٤)
 وعُمَرُن من ماء القيبِ بَشْرِبَةٍ * وقد حان من ديك الصباحِ زَمِيرُ
 وواقينَ إشرافا كئاسٌ تَدْمِي * وهنَ الى رُغنِ المدخَنِ صُورُ^(٥)
 يؤمِّن أهلَ الغوطتينِ كأنما * لها عِدَ أهلِ الغُوطتينِ نُورُ
 وأصبحنَ بالحلوانِ يَرْمِحنَ^(٦) حَضْرَها * ولم يبق من أراحهن شُطُورُ
 وقاسينَ ليلا دونَ يَسَادٍ لم يكد * سَاسًا صَبِيحَهِ للناظرينَ يُبِيرُ^(٧)
 وأصبحنَ قد فُوزنَ من نَهرِ فطَريسٍ * وهنَ عن البيتِ المقدسِ زورُ

(١) تسور . تنب . (٢) القنير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) بجهدت : عرقت .

(٥) صور . مائلات . (٦) يرمحن : يهكرن . (٧) زور : جمع زوراء بمعنى مائلة .

طوالب بالركبان غرة هاشم * وفي القرم من حاجب شقور^(١)
ولما أنت فسطاط مصر أحارها * على ركبها أن لا تزال مجير
من القوم نسائم كأن جبينه * سنا العجري يسرى صوؤه ويبر
زها بالخصيب السيف والرمح في الوعى * وفي السلم يزهو مبر وسرير
جواد إذا الأيدي كف عن الندى * ومن دون عورات النساء عيور
له سلف في الأعجمين كأنهم * إذا استؤذنوا يوم السلام بدور
وإني حدير اد ملعتك بالمى * وأنت بما أملت منك جدير
فان تولي منك الحميل فأهله * وإلا فإني عاذر وشكور

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم * إن حصّلوا إلا أعر قريع
ساد الربيع وساد فضل بعده * وعلت عباس الكريم فروع
عباس عاسن إذا احتدم الوعى * والفضل فضل الربيع ربيع

وقال يعاتب عمر الوراق :

يا من جفائي وملا * نسيته أهلا وسهلا
ومات مرحباً * رأيت مالى قلاً
اني أظنك تحيى * فيما فعلت القيرلى^(٢)
تلقاه في الشريئائى * وفي الرخا يتدلى

وله في عزة العس :

ومستعبد إخوانه يثرأه * لبست له كبراً أرت على الكبير
إذا ضممتني يوماً وإياه تحفل * يرى جانبي وعسراً يزيد على الوعر

(١) جمع شقر وهو الأمر المتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرى : كان حمير ولا يسمع لأحد شيئاً إلا جاء إليه وداحله ولا يخلف عن طعام لأحد ، وإذا سمع

محسومة لم يقرب ذلك ، مصر به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوى عليه . القرى .

أحاله في شكله وأجره * على المسطق المردور والسظُر الشزِر
وقد زادني تيهاً على الناس أني * أرايَ أعاهم وإن كُتُ دافِقِر
فوالله لا يُبدي لسانِي بلحاةً * إلى أحد حتى أُعَيَّب في قَبْرِ
فلا يطمعن في ذاك مَيَّ طامعٌ * ولا صاحبُ التاج المحجَّب في القصر
فلو لم أَرِثُ نَخراً لكات صباي * عن الناس حسبي من سؤالي من القَحْر
دخل أبو بواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عدهم شرابٌ وهَمَنُ، فعرصوا عليه
الجلوسَ فأبى، وأخذ الدواءَ والقرطاسَ وكتب :

إذا لم تَهَ نَفْسَك عن هواها * وتُحسِ صونَهَا فإليك عَنِي
فإني قد شِغْتُ من المعاصي * ومن إدمانِها وشِعْنِ مَنِي
ومن أسوا وأقبح من لبيب * يرى متطراً في مثل سَيِّ

ومن شعر أبي نواس :

عَنِي المصلَّى وأقوتِ الكُتُبُ * مِنِّي المِرْدانُ فاللَّهُتُ
منازلٌ قد عَمَرْتُهَا يَفْعاً * حتى بدا في عُداري الشَّهْتُ
في تَبَةِ كالسيوف هَزَمُ * شَرَحُ شَابٍ وزَاهِمُ أَدُ
ثم أَرَأَبَ الرمانُ فاقسموا * أيدى سَبَا في البلاد فانشعروا
لن يُخَلِّفَ الدهرُ مثلهم أداً * على هِيَابَ شَأْهُمْ عَتُ
لما تيقنْتُ أن رَوْحَهُم * ليس لها ما حَيْثُ مَقَلْتُ
أبليتُ صبراً لم يُبَلِّهِ أحد * واقسمني مَارْتُ شُعْتُ
لذاك أني إذا رُزِئْتُ أحَا * فليس يَدِي وَيَدَهُ نَسْتُ
فُطِرْتُ لِمَرْبِي ولي بَقَرِي الـ * كَرَجَ مَصِيفٍ وَأُمِّي الْعَبْتُ
تُرْضِئُنِي دَرَّها وتُحِفُّنِي * بَطَلَهَا والمَهِجِيرُ يَلْهُ
إذا تَنَّتْهُ الغُصُونُ حَلَّتِي * فَبَانَ ما في أَدِيمِهِ جَرُّ

تَبَيَّتْ فِي مَأْتَمٍ حَمَائِمِهِ * كَمَا تَرَأَى الْقَوَاقِدُ السُّلُبُ
يُهْبُ شَوْقِي وَشَوْقُهُنْ مَعًا * كَأَنَّمَا يَسْتَحِيحُهَا الطَّرَبُ
فَقَمْتُ أَحْوَالِي الرِّصَاعِ كَمَا * تَحَامِلُ الطُّفْلُ مَسَّهُ السَّغَبُ
حَتَّى تَحْمِرْتُ بَتَّ دَسَكِرَةٍ * قَدْ عَمَمَتِهَا السُّوْنُ وَالْحَقَبُ
هَتَكَتْ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ * مَهْلَهُلُ النَّسِجِ مَالَهُ هُدُبُ
مَنْ نَسَجَ نَرْقَاءَ لَا تُشَدُّ لَهَا * أَحْيَاةٌ فِي الثَّرَى وَلَا طُبُ
ثُمَّ تَوَحَّاتُ حَضَرَهَا بِشَمَا لَ * بِمَشَى بِلَاءَاتٍ كَأَنَّهَا لَهَبُ
فَاسْتَوْسَقَ الشَّرُّ لِلْسَّدَامِ وَاجِدٌ * رَاهَا عَلَيْهَا الْخَيْرُ وَالْقَرَبُ
أَقُولُ لِمَا تَحَاكَمَا شَهَا * أَهْمَا لِلتَّشَابُهِ الدَّهَبُ
هُمَا سَوَاءٌ وَقَرْنُ بَيْنَهُمَا * أَهْمَا حَامِدٌ وَمُسِيكُ
مُلَسٌّ وَأُمْتَا لَهَا مَحْفَرَةٌ * صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلُبُ
يَتَلَوْنَ لِمُحِبِّهِمْ وَفَوْقَهُمْ * سَمَاءٌ حَمِيرٌ نَحْوُهَا حَبُّ
كَأَنَّهَا لَوْلُؤُ تَبَدَّدَهُ * أَيْدَى عَدَارَى أَفْصَى بِهَا اللَّبُّ

ومن جيد شعره قوله لما معه الأمين من شرب الحمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء
بخراسان أن يعيوا الأمين شعر ألى نواس ويقولوا هو حليسه ويديمه ويشدوا على المابر
شعره، فمعه الأمين فقال .

غَسَا بِالطَّلُولِ كَيْفَ يَلِيَا * وَأَسْقِيَا نَعِيكَ الشَّاءَ الثَّمِيَا
مِنْ سُلَافٍ كَأَنَّهُ كُلُّ طَيِّبٍ * يَتَنَقَّى غُخْبَرُ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مَهَا * وَتَنَقَّى لُبَّهَا الْمَكُونَا
ثُمَّ تُجَبَّتْ فَاسْتَصَحَّكَتْ عَنْ لَآلٍ * لَوْ تَجَمَّعَتْ فِي يَدٍ لَأَقْبَيْنَا
وَإِذَا مَا لَمَسْتَهَا فَهَآءُ * تَمْنَعُ الْكَفَّ مَا تُبَيِّحُ الْعُيُونَا

١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠ ١٠٠
 ١١ ٢١ ٣١ ٤١ ٥١ ٦١ ٧١ ٨١ ٩١ ١٠١
 ١٢ ٢٢ ٣٢ ٤٢ ٥٢ ٦٢ ٧٢ ٨٢ ٩٢ ١٠٢
 ١٣ ٢٣ ٣٣ ٤٣ ٥٣ ٦٣ ٧٣ ٨٣ ٩٣ ١٠٣
 ١٤ ٢٤ ٣٤ ٤٤ ٥٤ ٦٤ ٧٤ ٨٤ ٩٤ ١٠٤
 ١٥ ٢٥ ٣٥ ٤٥ ٥٥ ٦٥ ٧٥ ٨٥ ٩٥ ١٠٥
 ١٦ ٢٦ ٣٦ ٤٦ ٥٦ ٦٦ ٧٦ ٨٦ ٩٦ ١٠٦
 ١٧ ٢٧ ٣٧ ٤٧ ٥٧ ٦٧ ٧٧ ٨٧ ٩٧ ١٠٧
 ١٨ ٢٨ ٣٨ ٤٨ ٥٨ ٦٨ ٧٨ ٨٨ ٩٨ ١٠٨
 ١٩ ٢٩ ٣٩ ٤٩ ٥٩ ٦٩ ٧٩ ٨٩ ٩٩ ١٠٩
 ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠ ١٠٠

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر :

عرِّدَ الديكُ الصُّدُوحَ * فاسقى طاب الصُّبُوحُ
 اسقى حتى تَرَأَى * حساً عندى القبيحُ
 قهوةٌ تذكُرُ نوحاً * حين شاد الملكُ نوحُ
 نحنُ نُخفيها وبأبى * طيبُ عَرَفٍ يَفُوحُ
 فكأن القومَ نُهِيَ * بينهم مسكٌ ذَبِيحُ
 أما فى دنيا من العدم * اس أعِدو وأروحو
 هاشمى عَبدِى * عده يغلو المديحُ
 علمُ الجودِ كتابٌ * بين عينيه يلوحو
 كلُّ جورٍ يا أميرى * ما حلا جودك ريجُ
 إنما أنتَ عطايا * أبدا ما تستريجُ
 بَحَّ صوتُ المائِ ممّا * مك يشكو ويصيحُ
 ما لهذا أحدٍ بو * قَ يديه أو تصيحُ
 جُدَّتْ بالأموالِ حتى * قبل ما هذا صحيحُ
 فهو بالمالِ جوادٌ * وهو بالعِرضِ شحيحُ
 صَوَّرَ الجودُ مثالا * وله العباسُ رُوحُ

قال محمد بن عيينة : اقيمت أما نوايس بعسكرٍ مُكرَّمٍ فقلت له : أحت أن تشدني من شعرك شيئاً تصنّ به على غيري ، فأنشدني :

يَكْنِي الكَرِيمَ من الكَلَا * م لمن يحادثه أَقْلُهُ
والشئُ شئٌ لم يَرَلْ * بأدقّه يأتى أَجْلُهُ
إن لم يُصَبِّكَ من الكَرِي * م الحرُّ وأبله فطْلُهُ
يُبْدِي مكارمه كما * يُبْدِي ورْدَ السيفِ سَلَّهُ
والدُلُّ يُوقِعُ بهسَه * متعمِّداً فيما يُدِلُّهُ
والحرُّ يَكْرِمُ نفسه * بالصفحِ عمن لا يُحِلُّهُ

وقال أبو نواس يمدح الأُميين :

صَبَّهْتُ على الأُميين ثِيَابَ مدحى * فكلُّ السَّاسِ حَسٌّ وَأَسْتَجَادَا
ولولا فصلُهُ ما جادَ شعْرى * ولا أَعْطَيْتَنِ العِطْرُ القِيَادَا
وقالوا قد أهدتَ فقلتُ إني * وجدتُ القولَ يَمْكِي بِجَادَا

ومن نغمياته :

ذكر الصُّوحَ بِسُحْرَةٍ فَأَرْتَاها * وأملُهُ ديكُ الصِّباحِ صِيَاها
أَوْقَى على شَرْفِ الجِدَارِ بِسُدُوفَةٍ * عَمِردًا يَصْقُقُ بالجِراحِ حَاحَا
فأدِرْ صَاحَكَ بالصُّبُوحِ ولا تكن * كَسُوفٍ غَدَوْا عليكِ شِجَاها
إن الصُّبُوحَ جَلَاءَ كلِّ مَخْمَرٍ * بدرتْ يَدَاهُ بِكَاسِهِ الإِصْبَاها
وحَدِيدٍ لَدَاتِ مَعْلَلِ صَاحِبٍ * تَقْتَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةٌ وَمَزَاها
بَهْنُهُ وَاللَّيْلُ مُلْتَبِسٌ به * وَأَزْحَتْ عَنْهُ نُفَاسُهُ فَأَتَرَاها
قال ابنُ عَنِينِ المصْبَاحُ ، قلتُ له أَتَيْتُ * حَسَنَى وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا مِصْبَاحَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا في الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً * كانتْ له حتى الصِّباحِ صَبَاها

من قهوة حاءك قل مزاحها * عطلاً فالبسها المزاج وشاحاً
 شك الرأل فؤادها فكانها * أهدت اليك بريحتها ثقاً
 صغراء تفرس العوس فلا ترى * منها بين سحوى السات جراحاً
 ومنها :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى همد * وأشرت على الورد من حمراء كالوريد
 كأساً اذا اهدرت في حلق شاربها * أهدته حمرتها في العين والحمد
 فانحمر ياقوته والكأس لؤلؤة * من كف لؤلؤة مشوقة القد
 تسقيك من طرفها نحرًا ومن يدها * حمراء لك من سكرين من مد
 لي نشوتان وللذمان واحدة * شيء خصصت به من دونهم وحدي

كان الأصمعي يفصل أما بواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمس حلت الحملأ * وطاب وقت الزمان واعتدلاً
 وعنت الطير بعد غممتها * واستوفت النحر حولها كملأ
 واكتست الأرض من رجارفها * وثى ثياب تحاله حلالاً
 فأشرت على جدّة الزمان فقد * أصبح وجه الزمان مقبلاً
 من قهوة تذهب الهموم فلا * أزهب فيها الملام والعدلاً
 كرحية ترك الطويل من العيد * ش قصيراً وتبسط الأملاً
 تلمع لمع السراب في قدح الـ * يقوم اذا ما حباها اتصالاً
 يقول صرّف اذا مزجت له * من لم يكس الكثير محتملاً
 فسق هذا بقدر طاقته * وأحمل على ذا قدر ما احتمالاً
 نجنا بشئين من طبائنها * حسني وطيب ترى به المشلاً

كان أبو نواس لا يُستَشَدُّ شيئاً من شعره إلا أشد هذه القصيدة :

وَحَيْمَةَ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُيَمَّةٍ * تَهْمُ يَدَا مَنْ رَامَهَا بَزَائِلُ^(٢)
 إِذَا عَارَصَتْهَا الشَّمْسُ فَأَنَّ طَلَاهَا * وَإِنْ وَاحَهَا آذَنْتُ مَذْحُونُ
 حَطَطْنَا بِهَا الْإِنْقَالَ فَلَّ هَيْبَةٍ^(٣) * عُسُورِيهِ تُدَكِّي بِعِيرِ قَيْلِ
 تَأْتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ فَاتَتْ بِمَذَقَةٍ * مِنَ الطَّلِّ فِي رَتِّْ الْأَنْاءِ صَبِيلِ^(٤)
 كَأَنَّا لَدَيْهَا مِنْ عِطْفَى بَعَامَةٍ * حَقًّا زُورُهَا عَنْ مَرَكِّ وَمَقِيلِ
 حَلَّتْ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّأ * بَعْضَاءَ مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ تَمُولِ
 إِذَا مَا أَنْتَ دُونَ اللَّهِاءِ مِنَ الْفَتَى * دَعَا هُمُ مِنْ صَدْرِهِ بَرَحِيلِ
 فَلَمَّا تَوَقَّى الشَّمْسَ حَجَّحَ مِنَ الدُّخَى * تَصَابَيْتُ وَأَسْتَحْمَلْتُ عَيْرَ حَمِيلِ
 وَعَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَدِيثِ كِبَادَا * وَدَلَّتُ صَعْمًا كَأَنَّ عَيْرَ دَلِيلِ
 فَنَفَى وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَى حَدَّهُ * أَلَا رَمَا طَالَتْ عَيْرَ مُيَسِيلِ
 وَأَنْزَلْتُ حَاحَاتٍ بِحَقْوَى مُسَاعِدِ * وَإِنْ كَانَ أَدَى صَاحِبِ وَحَلِيلِ
 وَأَصْبَحْتُ أَلْحَى السَّكْرَ وَالسَّكْرُ حَمِيسُ * أَلَا رُبَّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ ثَقِيلِ
 كَفَى حَرًّا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرُ * عَلَيْهِ وَلَا مَعْرُوفَ عَدَّ بِحِيلِ
 سَأَنِي الْفَتَى إِمَّا حَلِيسَ حَلِيفِهِ * يَقُومُ سِوَاءَ أَوْ مُحِيفَ مَسِيلِ
 بِكُلِّ فَتَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَاهُ * إِذَا بَوَّهَ الرَّحْقَابَ نَاسِمَ قَيْلِ
 لَحْمِيسَ مَالِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ * أَنْخِي بَطْنِيَّةً لِلطَّيْبَاتِ أَكُولِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى الْبَدَى * وَلَيْسَ حَوَادُّ مَقْتَرُ كَبَحِيلِ

(١) الناطور . حافظ الحل والكرم والزرع وفي الدارع : الناطور والناطور . الطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس مرنى محص . (٢) الرليل مصدر كالزلل . (٣) أى مهربى هائرة ، وعورية مسبا الى الشعرى العمود وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقعت فى الوعد رواها . وفاءت عذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الحيلة الخلفة التى شذب على الأناء الصعيص من القصب الرث فلم تقو الشمس وعليهم لم تجمعهم الحيلة مسترقوى بصير طلا ولكنه شمس وطل ، فشبهت بالمدقوق من اللز ، أى المروج .

فإن استريد أنشد هذه القصيدة الأخرى :

كان الشابُ مطيةَ الجهل ومحسَّ الضحكاتِ والمزَلِ
 كان الجمالُ إذا أردتُ به ومشيتُ أخطرَ صَبَّتِ العِلِ
 كان البليغُ إذا نطقُ به وأصاحتِ الآذانُ للُملي
 كان المشقُّعُ في مآربه عند الفتاةِ ومدركِ التَّبلِ
 والآمري حتى إذا عزمْتُ نفسي أغانِ يديّ بالعِملِ
 فالآنُ صرْتُ إلى مقاربة وحططتُ عن طهر الصَّارِحِلي
 والراح أهواها وإن رزأتُ بُلغ المعاشِ وقلَّتْ فضلي
 صفراءُ مجدها مرَّارِها جَلَّتْ عن الشَّطراءِ والمثلي
 دُخرتُ لآدمِ قلِّ حلقتيه فتقدمته بخطوةِ القَبلي
 فأناك شيءٌ لا تلاميُسه إلا بحسِّ عَريزةِ العقلِ
 وتُروودُ منها العينُ في بَشير حرَّ الصَّفيحةِ نَامِيعِ سَهلي
 فإذا علاها الماءُ ألَهِسها حَبِيباً شبيهَ حلالِ الخِجَلِ
 حتى إذا سكنتُ جَواحِها خَطَّتْ بمثلِ أكارعِ الثَّملي
 حطَّين من شتَّى ومجتمع عُفيل من الإغمامِ والشَّكلِ
 فاعذِرْ أحلك فإنه رجلٌ مرَّنتُ مسامعه على العَذلي

ومن طيب شعره، والشرط الأول من القصيدة لفظ ابن الدُّمَيْة .

أعادلُ ما على وجهي قُسُومُ ولا عِرْصِي لأوَلِ مَنْ يَسُومُ
 يَفْضُنِي على الفتيانِ أُنَى أَيْتُ فلا أَلَامُ ولا أَلُومُ
 أعادلُ إن يكسُ بُردَايَ رَنًا فلا يَعْدَمُكُ بينهما كَرِيمُ
 شَقِيقْتُ من الصبا واشتقُّ مني كما اشتَقْتُ من الكَرَمِ الكُرُومُ
 فليستُ أَسُومُ للذاتِ نَفْسي مِياومةً كما دفعَ الغَرِيمُ

ومتصّل بأسباب المعالي * له في كلّ مكّمة قديمٌ
 رمتُ له النداءَ فمَّ حُذْها * وقد أخذتُ مطالعها الجومُ
 تنفّدية نزال المسُ فيها * وتُتمنّ الحؤولُ والعمومُ
 فقام وقتٌ من أخوينِ هاجا * على طربٍ وليلهما سيمُ
 أحرّ الرّق وهو يحزّ رحلا * يحور به النعاسُ ويستقيمُ
 سيلُ الدّمان ما أولّته منها * وسلّها ما احتوى منها الكريمُ
 كلا الشّخصينِ متصّفٌ ولكن * قصّت وطراً وذا مها سقيمُ

وقال :

إنّي صرّفتُ الهوى الى قَيرٍ لم تتدله العيونُ بالظيرِ
 اذا تأملتّه تعاطمك آلُ إقراراً أنه من البشيرِ

ومن قوله :

يا شقيقَ الفيس من حَكَمِ * نمتَ عن ليلَى ولم أتمِ
 فاسقني الكَرّ التي آخترتُ * يحمار الشيبِ في الرّحمِ
 نمتُ أنصات الشائِ لها * بعد ما جارت مَدَى الهَرَمِ
 فهمي لليومِ السّقي بُرِلتُ * وهي تَربُ الدّهيرِ في القَدَمِ
 عَقُتُ حتّى لو اتّصلتُ * بلسابِ ناطقي وقَمِ
 لا حُبّتُ في القومِ مانلةٌ * ثم قصّتُ قصّةَ الأَمنِ
 فرعّتها بالمزاح يَدُ * حُلِقْتُ للسيفِ والقلمِ
 في نَدَامَى سادَةِ زُهيرِ * أخذوا اللذاتِ من أَمِ
 فتمشّتُ في مفاصلهم * كعمشَى البرءِ في السّقمِ
 فملتُ في البيتِ اذ مُرِجَتِ * مثلَ فعلِ الصّبحِ في الظّلمِ
 فاهتدى سارى الظلامِ بها * كاهتداءِ السّفَرِ بالعَلَمِ

ومن طَرَدَيَاتِ أَبِي نَوَاسٍ فِي صَعَةِ الْكَلْبِ :

أَمْتُ كُلِّ أَهْلِهِ مِنْ كَدِّهِ قَدْ سَعِدَتْ حُدُودُهُمْ بِحَدِّهِ
وَكُلُّ حَيْرٍ عَدَمَهُمْ مِنْ عَيْنِهِ وَكُلُّ رِفْدٍ نَالَهُمْ مِنْ رِفْدِهِ
يَطْلُ مَوْلَاهُ لَهُ كَعَمِّهِ بَيْتُ أَذْنَى صَاحِبٍ مِنْ مَهْنِهِ
وَأَبِ عَمْرٍ حَلَّاهُ بِبُرْدِهِ ذَا عُرَّةٍ مُجْجَلَا زَيْدِهِ
تَلَدُّ مَعَهُ الْعَيْنُ حَسَّ قَدِّهِ يَا حُسْنَ شِدْقَيْنِهِ وَطُولَ قَدِّهِ
تَلَقَّى الطَّبَاءُ عَنَّا مِنْ طَرْدِهِ بِسُرِّ كَأْسَا شُدْهَا مِنْ شَدِّهِ
* يَا لَكَ مِنْ كَلْبٍ نَسِيجَ وَحِيدِهِ *

أَبُو نَوَاسٍ وَجَنَان

قال أبو الريح : كَانَتْ حَنَانُ هَذِهِ حَارِبَةً آلِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَبْدِ الْمَجِيدِ الثَّقَفِيِّ ، وَكَانَتْ حُلُوهَ حِمْلَةِ الْمَطَرِ أَدِيمَةً ، وَيُقَالُ : إِنْ أَمَا نَوَاسٌ لَمْ يَصْدُقْ فِي حُبِّ امْرَأَةٍ غَيْرِهَا ، وَقِيلَ لَهُ يَوْمًا إِنْ حَنَانٌ قَدْ عَزَمْتَ عَلَى الْحُجِّ ، فَكَانَ هَذَا سَبَبَ حُجِّهِ وَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَا يَمُوتِي الْمَسِيرُ مَعَهَا وَالْحُجُّ عَامِي هَذَا إِنْ أَقَامْتَ عَلَى عَزِيمَتِهَا ، وَقَالَ وَقَدْ حَجَّ وَعَادَ :

أَلَمْ تَرَ أَيْ أُمَيْتٍ عَمْرِي بِمَطْلِبِهَا وَمَطْلِبِهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبِيلًا إِلَيْهَا يَقْرُبُنِي وَأَعِيتَنِي الْأُمُورُ
حَمَحْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَمَحْتُ حَانُ فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

قال مَنْ شَهِدَهُ حِينَ حَجَّ مَعَ حَنَانٍ وَقَدْ أَحْرَمَ : لَمَّا حَانَ اللَّيْلُ جَعَلَ يَلْبِي بِشَعْرٍ وَيَحْدُو بِهِ وَيَطْرَبُ ، فَفَنِّي بِهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

إِنَّمَا مَا أَعْدَلَكَ مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ
لَيْتَكَ قَدْ لَبِيتُ لَكَ * لَيْتَكَ إِنْ الْحَمْدَ لَكَ
وَالْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ * وَاللَّيْلُ لَمَّا أَنْ حَلَكَ

والساجحات في الفلك * على مجاري المسلك
 ما خاب عدأملك . انت له حيث سلك
 لولاك يارب هلك * كل نبي وملك
 وكل من أهلك * سبح أو لبى فلك
 يا مخطئا ما أعفك * عجل وادر أجلك
 واختم بحير عملك . ليك ان الملك لك
 والحمد والعمه لك * والمزلا شريك لك

وفيها يقول :

حق عيني قد كاديس . قط من طول ما اختاج
 وفؤادي من حرج . لك والهجير قد نصج
 خبرني مدتيك فدا . سبي وأهلتي في المرح
 كان ميعادنا خرو . ج زياد فقد خرج
 أنت من قتل عائد . بك في أصيق الحرح

قال الأصمعي : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصوى . دخلنا على أبي نواس بعوده
 في علته التي مات فيها ، فقال له علي بن صالح الهاشمي : يا أبا علي ، أنت في أول يوم من أيام
 الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله عز وجل هنأت ، فأت إلى الله عز وجل ،
 فكى ساعة ثم قال : ساندوني ساندوني ، ثم قال : أأخوف بالله عز وجل وقد حدثني حماد
 ابن مسلم عن ريد الرقاشي عن أنيس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " لكل نبي شفاعته وإنى اختبأت شفاعتي لأهل الجائر من أمي يوم القيامة " أقراني
 لا أكون منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دَبَّ فِي السَّقَامُ عَلَوًا وَسُفْلًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضُوبًا فَعُضُوبًا
لَيْسَ تَمِصِي مِنْ لِحْظَةٍ بِي إِلَّا نَقَصْتَنِي بِمَرِّهَا فِي جُرُوبًا
دَهَتْ حِدَّتِي بِحَاجَةِ نَفْسِي وَتَطَلَبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ بِضُوبًا
لَهَفَ نَفْسِي عَلَى لِيَاءٍ وَأَيَا مِ تَحَاوَزْتُهُنَّ لِقَبًا وَلَمُوبًا
قَدْ أَسَاكَ كُلُّ الْإِسَاءِ فَالِد هُمْ صَفَحًا عَنَّا وَعَفْرًا وَعَقُوبًا

ثم قال :

يَشْعُرُ حَىَّ أَتَاكَ مِنْ لَفْظٍ مَيِّتٍ صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفًا
قَدْ بَرَتْ حَسَمَهُ الْحَوَادِثُ حَتَّى كَادَ عَنْ عَيْنِ الْخَلَائِقِ يَخْفَى
لَوْ تَأَمَّلْتَنِي تُنْصِرَ وَجْهِي لَمْ تَبْنِ مِنْ كِتَابِ وَجْهِي حَرْفًا
وَالكَرَّرْتَ طَرَفَ عَيْنِكَ فِيهِ قَدْ بَرَاهِ السَّقَامُ حَتَّى تَعْفَى

وكان عمر أبي نواس تسعا وخمسين سنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة

السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ - العتّابي^(١)

قال أحمد بن سهل: تذاكرنا شعر العتّابي فقال بعضنا: فيه تكلف، وبصره بعضنا،

فقال: شيخ حاصر، ويحكم! يُقال إن في شعره تكلفاً وهو القائل:

رُسُلُ الضمير اليك تَرَى * بالشوق ظالمةً وحسرى
مَرَجَّياتٍ ما يَد * نَعلِي الوَحَامَنَ بعد مَسَرَى
ما جَفَّ للعيبِ بعد * لَدُكَ يا قَرِيرَ العينِ مَجَرَى
فا سَلِمَ سَلِمَتٌ مَبَرَّأ * مِن صَبُوتِي أبداً مُعَرَّى

(ب) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتّابي النخعي من ولد غناب بن أسيد ثم من بني تملب بن وائل، شاعر مترسل طبع مطوع منصرف في فنون الشعر مقدّم، من شعراء الدولة العباسية، وكان مقطعا إلى البرامكة فوصوه للرشد ووصلوه به، فبلغ عده كل ملح يعطيت فوائده منه.

وكان حسن الاعتدال في شعره ورسائله وله مصنفات في المطلق والأدب والملة وكان يقيم في رأس عين ببغداد من دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشباعه إليه فحاضه فلبس عيط وعروة وحف، وعلى كتفه ملحة حامية بغير سراويل، فلما رفع الحبر قدومه إلى الرشيد أمر بأن تهرش له هجرة وتقام له وطبة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدّمت إليه أحدها رقيقة وملحاً وحلط الملح بالتراب فأكلها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدم يتعقدونه ويتعججون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد الثقفي وهو في منزله فسلم عليه وانسحب له فرحب به وقال له «ارتفع» فقال «لم آتك للخلوس» قال «فما حاحك» قال «دابة أطلع عليها إلى رأس عين» فقال: يا غلام، أعطه العرس العلاني: فقال: لا حاجة لي بذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دابة أنسلع عليها: فقال لعلامة «أصص معه فأتع له ما يريد» فصي معه فعدل به العتّابي إلى سوق الخير فقال العلامة: إما أمرني أن أتاع لك دابة: فقال له: إنه أرسلك معي ولم يرسلني معك فأن عملت ما أريد والآن أنصرف: فصي معه فاشترى حمارة بمائة وحسين درهمين وقال: ادفع إليه ثمّة. فدفعه إليه فركب الحمارة على برمجة عليه وبردة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد «صحنتي! أهل يحمل مثلك على هذا!» فصحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفي سنة ٢٢٠ هـ وتعد أحسابه في الأغني (ح ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ح ٢ ص ١٣٧).

(٢) أي متبلات بالقليل حتى يصلن إليك.

إِن الصَّابَةَ لَمْ تَدْعُ * مَنَى سَوَى عَظِيمٍ مُّبَرَّى
ومدَامِ عَبْرَى عَلَى * كَبِدِ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَرَّى

أو يقال إنه متكلف وهو الذي يقول :

فلو كان للسُّكر شخصٌ يَبِي * إذا ما نَأَمَلَهُ البَاطِرُ
لَمَثَلْتُهُ لَكَ حَى تَرَاهِ * لَتَعْلَمَ أُنَى أَمْرُهُ شَاكِرُ

وَحَدَّ الرِّشِيدُ عَلَى الْعَتَايَ فَدَحَلَ سِرًّا مَعَ الْمُتَطَلِّمِينَ نَهْرًا ذِي بَدْيِ الرِّشِيدِ وَقَالَ
لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ آذَنِي الْبَاسُ لَكَ وَلِغَضِي فَيْكَ ، وَرَدَّنِي آتِلَاؤُهُمْ إِلَى شُكْرِكَ ، وَمَا مَعَ
تَدَكُّرِكَ قَاعَةِ نَبْرِكَ ، وَلِغَمِّ الصَّائِنِ لِنَفْسِي كَسَتْ لَوْ أَعَانِي عَلَيْكَ الصَّبْرُ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

أَحْضِي الْمَقَامَ الْعَمْرَانِ كَالْعَرَى * سَأَ حُلِبَ أَوْ رَلَّتِ الْقَدَمَايَ
أَتُرَكِّي حَذَبَ الْمَعِيشَةِ مُقْتَرَا * وَكَقَاكَ مِنْ مَاءِ الْبَدْيِ تَحْكَفَانِ
وَتَحْعَلْنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَ مَا * نَلَلْتُ يَمِينِي بِالْبَدْيِ وَلِسَانِي

فَأَعْبَ الرِّشِيدَ قَوْلُهُ ، وَنَحَرَ وَعَلِيهِ الْحَلَاغُ ، وَقَدْ أَمَرَ لَهُ بِجَاهِزِهِ .

كَلَّمَ الْعَتَايَ يَحْيَى بْنُ حَالِدٍ فِي حَاحِهِ تَكَلُّمَاتٍ قَلِيلَةً ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : لَقَدْ نَزُرُ كَلَامُكَ الْيَوْمَ
وَقُلْ ، فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ لَا نَقُلْ وَقَدْ تَكْهَنُنِي دَلَّ الْمَسْأَلَةُ وَحَيَّرَهُ الطَّلَبُ وَحُوفُ الرَّدِّ ؟ فَقَالَ :
وَاللَّهِ إِنِّي قُلْتُ كَلَامُكَ لَقَدْ كَثُرَتْ فَوَائِدُهُ ، وَقَصَصِي حَاحَتَهُ .

قَالَ يَحْيَى بْنُ حَالِدِ بْنِ الرَّمَكِيِّ لَوْلَا أَنِّي قَدَرْتُمْ أَن تَكْتُبُوا أُنَافَاسَ كَلْتُمُومٍ بَيْنَ عَمْرٍو الْعَتَايَ
فَصَلَا عَنْ رِسَالَتِهِ وَشَعْرِهِ ، فَلَمْ تَرَوْا أُنْدَا مِثْلَهُ .

وَقَفَّ الْعَتَايَ سَابِ الْمَأْمُونِ بِلَتَمَسِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، فَصَادَفَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ جَالِسًا يَنْتَظِرُ
الْإِدْنَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ أَعَزَّكَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ أَمْرِي لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَحَلْتَ فَاعْمَلْ ، قَالَ
لَهُ : لَسْتُ أَعَزَّكَ اللَّهُ بِحَاحِهِ ، قَالَ : إِنْ لَمْ تَكُنْ حَاحَا فَقَدْ يَفْعَلُ مِثْلُكَ مَا سَأَلْتُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ زَكَاةً ، وَحَمَلَ زَكَاةَ الْمَالِ رِفْدَ الْمُسْتَعِينِ ، وَزَكَاةَ الْجَاهِ إِغَاثَةَ
الْمُلهُوفِ ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَقْبِلٌ عَلَيْكَ بِالزِّيَادَةِ إِنْ شُكِرْتَ ، أَوِ التَّغْيِيرِ إِنْ كُفِرْتَ .

وإلى لك اليوم أصلح منك لنفسك، لأنى أدعوك الى آزدباد نعمتك وأنت تأبى، فقال له
يحيى: أفعل وكرامه، وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشئ، بعد السلام إلا أن أستاذن
المأمون للعتابى، فأذن له .

وقيل له . لو تزوجت، فقال: إني وجدت مكابده العفة أيسر على من الاحتيا
لمصلحة العيال .

قال دِغِيل: ما حسدتُ أحدا قط على شعركما حسدتُ العتابى على قوله :

هَيْبَةُ الإِحْوَائِ قَاطِعَةٌ * لَأَنْخِي الْحَاجَاتُ عَنْ طَلْبِهِ

فَإِذَا مَا هَيْبَتٍ دَا أَمَل * مَا تِ مَا أَمَلْتُ مِنْ سَبَبِهِ

كان العتابى حالسا ذات يوم ينظر فى كتاب، فتر به بعض حيرانه، فقال: أيش ينفع
العلم والأدب من لا مال له ؟ فأنشد العتابى قوله .

* يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا تَقَفُّوا * ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الْأَدَابِ وَالْحِكَمِ

قَالُوا وَلَيْسَ هُمْ إِلَّا نَقَاسَتُهُ^(١) * أَمَا نَعُذُكَ مِنَ الْإِقْتَارِ وَالْعُدْمِ

وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَا الْحِطُّ الَّذِى حُرِّمُوا - لِحَالِهِمْ اللَّهُ - مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ فَهْمٍ

ومن قوله أيضا .

لَنْ كَانَتْ الدِّيَا أَمَانَتُكَ ثَرَوَةً * فَأَصْبَحْتَ ذَا يُسْرٍ وَقَدِ كُنْتَ ذَا عُسْرِ

لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ مَحَازِيَا * مِنَ اللَّؤْمِ كَانَتْ تَحْتَ سِتْرٍ مِنَ الْفَقْرِ

وقال أيضا :

رَحَلَ الرَّحَاءُ إِلَيْكَ مَعْتَرِيَا * حُسِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمَلِي * وَثَا إِلَيْكَ عِنَانُهُ شُكْرِي

وَجَعَلْتُ عَتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ * وَرَحَاءَ عَمُوكَ مَتْنِي أَمَلِي

لما سعى منصور التمرى العتابى الى الرشيد أغاظ عليه فطلبه، فسرقه جعفر بن يحيى

عنه مدة وجعل يستعطفه عليه حتى استلب ما فى نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

ما زلتُ في عَمَرَاتِ الموتِ مُطَرِّحًا * قد صاق عني فسيحُ الأرض من حيلٍ
ولم تزل دأبا تسعى لطفك لي * حتى آخلتست حياتي من يَدَي أُحَلِي
عاد عد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَبِ كَلْبِثُومِ بن عمرو العتّابي في علة
أعتلّها، فقال الناس : هذه خَطَرُهُ خَطَرَتْ ، فلغ ذلك العتّابي ، فكتب الى عد الله بن
طاهر :

قالوا الزبارة خَطَرَةٌ خَطَرَتْ * ويحارُّ يرك ليس بالخطر
أبطل مقاتلهم بثانية * ستبعد المعروف من شكري
فلما بلغت أياته عد الله بن طاهر صحك من قوله ورك هو وإسحاق فعاداه مره
ثانية .

كانت له أمراءه من اهالة ، فلما مضى الى رأس عين قالت له : هذا مصور القمري :
قد أخذ الأموال على نساءه وبي داره وأشترى صبياعا وأنت ههنا كما ترى ، فأشأ يقول :
تلوم على ترك الغنى باهليّة * دوى الفقر عنها كلّ طرف وتالد
رأت حولها السواد رفلن في الثرى ، مقلّدة أعاقفها بالقلاند
أسرك أنى لث ما نال جعصر * من العيش أو ما نال يحيى س حالد
وأن أمير المؤمنين أعصى * فخصهما بالمرهقات السوارد
رأيت رفيعات الامور مشونة * بمستودعات في بطون الأساود
دعيتي تحثني ميتي مطمئنة * ولم اتحشم هول تلك الموارد

لما قديم العتّابي مدينة السلام على المأمون أدن له ، فدخل عليه وعده إسحاق بن إبراهيم
الموصلى ، وكان العتّابي شيعا حليلا نبلا ، فلم ورد عليه وأدناه وقربه حتى قرب منه ، فقتل
يده ، ثم أمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يحيمه لسان دلق طلق ،
فاستطرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداغة والمزاح ، فظن الشيخ أنه استخف به ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، الإيمانس قبل الإنسانس ، فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر الى إسحاق مستهما ،

فأوما إليه وعمره على معناه حتى فهم، فقال: يا علام، ألف دينار، فأني بذلك، فوضع بين يدي العتابي وأحدوا في الحديث، وعمر المأمون لإسحاق بن إبراهيم عليه، بجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إسحاق، فبق العتابي متعجبا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذني في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سل، فقال لإسحاق يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس وأسمي كُلُّ بَصَل، فتبسم العتابي وقال: أما أنت فعرف وأما الاسم فمُسْكِر، فقال إسحاق: ما أقل إصافك! أنكر أن يكون اسمي كل بصل، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتابي: لله دَرَك! فما أَجَبَك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أصله بما وصلتني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موقر عليك وأمر له بمثله. فقال له إسحاق: أما إذ أقررت بهذه فتوقفي تجذني، فقال: ما أطلك إلا لإسحاق الموصلي الذي يتناهى إليها حبه، قال: أما حيث طننت، وأقل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون: وقد طال الحديث بينهما — أما إذ قد آنفقا على المودة فاصبرا متادمين، فاصبر العتابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الوراق: رأيت العتابي يأكل حبرا على الطريق بيباب الشام، فقلت له: وَيَحْك! أما تستحي؟ فقال لي: أرايت لو كا في دار بها بقر كست تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام موعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم: روي لما غير واحد أنه من بلغ لسانه أربئة أنفه لم يدخل النار، فما بقي أحد إلا أرحح لسانه يومئذ به نحو أربئة أنفه ويقدره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا قال لي العتابي: ألم أحبرك أنهم بقر؟

قال الفصل: رأيت العتابي بين يدي المأمون وقد أسس، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فزال المأمون يُنْهضه رويدا رويدا حتى أقله فنهض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابي الى صديق له يستحديه :

أما بعد — أطل الله بقاءك وحمله يمتدّك الى رِضوانه والحنّه — فإنك كنت
عدنا روصة من رياض الكرم، تنهّج النفوس بها، وتستريحُ القلوب اليها، وكنا نعيشها
من الجُعة^(١) استئتما لرهرتها، وشفقةً على خصرنها، وأذحارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنةٌ
كانت عدى قطعة من سبي يوسف آشتت عليها كلّمها^(٢)، وعاب قطعها، وكذبنا عيومتها،
وأخلفنا بروقها، وفقدنا صالح الإحوا^(٣) فيها، فانتعنتك . وأنا ما بجاعى إياك شديد الشفقة
عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد^(٤)، وأنت تقطى عن الحاسد . والله يعلم أنى ما أمدك
إلا فى حومة^(٤) الأهل . وأعلم أن الكريم اذا استجيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير،
لم يُعرف جوده ولم تَظهر همته . وأنا أقول فى ذلك :

اذا تكرمت عن بذل القليل ولم . . . تقدّر على سَعه لم يطهر الجُود

بث النوال ولا تمتع قلبه . . . فكل ما سدّ فقرا فهو محمود

قبل فشاطره جميع ماله . . .

(١) الحمة . طلب الكلاء فى موضعه . (٢) الكلب . التقطع وبلا الشاء . ومن يصيب

الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة ها الجماعة والعائمه .

٣ - دَعْبِل^(١)

شاعر متقدم مطوع نساء حيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا دوابهاه أحسن إليه أم لم يحسن، ولا أفلت منه كبيراً أو صغيراً .
 وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالليل الى على صلوات الله عليه، وقصيدته: «مدارس آيات خلت من تلاوه» من أحسن الشعر وفاحر المدائح الموقلة في أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا علي بن موسى الرضا محاسن، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المصروبة باسمه وحل عليه حلقه من ثيابه، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم . فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأحدوها، فقال لهم . إنها إنما تُراد لله عز وجل وهي محزومة عليكم، ودفعوا إليه ثلاثين ألف درهم، خلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفته، فأعطوه فردكم، فكان من أكفانه .

قال إبراهيم بن المهدي للأموون قولاً في دعبل يحصى عليه، فصحك الأموون وقال :
 إنما تحزني عليه لقوله بك :

يا معشر الأجساد لا تقطعوا * وأرصدوا بما كان ولا تسحطوا
 سوف تعطون حبيبة^(٢) * لتتدها الأمرد والأشمت
 والمعديات لقوادكم^(٣) * لا تدخل الكيس ولا تُربط
 وهكذا يرزق قواده حليفة^(٤) مضجعه البربط

(١) هو دعبل بن علي بن رزير من حراة، أصله من الكوفة وجاء بهداد بطلب من الرشيد . وهو شاعر مطوع نساء حيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا دوابهاه أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبيراً أو صغيراً، فكان الناس يحافونه ويتقونه حتى الماءون يابه نساء شديداً واحتمل ذلك منه .
 توفي سنة ٢٤٦ هـ . وتحد أحسنه في الأناج ح ١٨ ص ٢٩ وان حلكا ح ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء .
 ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١) . (٢) يريد أصواتاً مسوطة الى حين الحيرى المعنى .
 (٣) يريد أصواتاً مسوطة الى معد المعنى .

قد حَمَّ الصُّكُّ بِأَرْزَاقِكُمْ * وَصَحَّ الْعَزَمُ فَلَا تَسْخَطُوا
بَيْعَةَ إِبْرَاهِيمَ مَشْثُومَةً * يُقْتَلُ فِيهَا الْخَلْقُ أَوْ يَقْطَعُوا

فقال له إبراهيم : فقد والله هجأك أنت يا أمير المؤمنين ، فقال : دع هذا عك فقد عفوت
عه في هجائه إياي لقوله هذا ، وصحك . ثم دخل أبو عباد ، فلما رآه المأمون من بُعد قال
لإبراهيم : دعبل يحسر على أبي عباد في الهجاء ويُحجم عن أحد ! فقال له : وكأن أبا عباد
أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ! ولكنه حديد جاهل لا يؤمن ، وأنا أحلم
وأصفح ، والله ما رأيتُ أنا عباد مصلًا إلا أصحكى قولُ دعبل فيه :

أولى الأمور بصنيعه وفساد * أمرٌ يدرُّه أبو عباد
حرقٌ على جلسائه فكأنهم * حصروا الملحمة ويومِ جِلاَد
يسطو على كتابه يدواته * قصصٌ بدمٍ ونضحٍ مِداد
وكأنه من دبرٍ هرقل مُفلتٌ * حرد يحتر سلاسل الأقياد
فاشدُّ أمير المؤمنين وثاقه * فأضحَّ منه بقية الحداد

وكان «بقية» هذا محبونا في البهارستان .

قال أبو خالد الخزازي لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت
اللاس جميعا ، فانت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كفمت عن هذا وصرفت
هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! انى تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يتنفع
بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالى الشاعر وإن كان يُجيدا ادا لم يُخف شره ، ولئن يتقيك على
عرسه أكثر ممن يربع اليك في تشريعه ، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل
من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجوْد والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه آتِنفع
بقولك ، فاذا رآك أوجعت عرس غيره وفصحته آتقاك وخاف من مثل ما جرى على
الآخر ، ويحك يا أبا حالد ! إن الهجاء المقدع آحدُ صنيع الشاعر من المديح المصرع ؛ فضحك
أبو حالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حَتَفَ أنفه .

كان سببُ خروج دعبل من الكوفة أنه كان يَنْشَطِرُ ويصحب الشُّطَارَ، فخرج هو ورجل من أَتَمَّجَ فيما بين العشاء والعَمَّة، فجلسا على طريق رجل من الصَّيَّافَةِ، وكان يروج كل ليلة بكيسه الى منزله، فلما طلع مقيلا اليهما وثبا اليه بجرّاحه وأخذ ما في كُتْمِهِ، فاذا هي ثلاث رُمَانَاتٍ في نِزْقَةٍ، ولم يكن كيسه ليتنذ معه، ومات الرجل مكانه، وآسَترَ دعبل وصاحبه وحَدَّ أولياء الرجل في طلبهما وجدَّ السَّلاطَنُ في ذلك، فطال على دعبل الاستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كُأَيُّوما بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعا جماعة من أصحابها، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبل، فلما رأياه قلنا: هذا صَيِّدُنَا، فأخذناه، فقال صالح: ما يصعب به قلنا: ندبجّه، فذبحناه وشويناّه. وخرج دعبل فسأل عن الديك معروف أنه سقط في دار صالح، فطلبه منا فجحدناه وشربنا يوما، فلما كان من الغد خرج دعبل فوصل الغداة ثم جلس على باب المسجد—وكان ذلك المسجد يجتمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويتناهبهم الناس—فجلس دعبل على باب المسجد وقال:

أَسَرَ الْمُؤَدَّنَ صَالِحٌ وَضِيْفُهُ * أَسَرَ الْكَيَّ هَفَا حِلَالِ الْمَاقِطِ

نَعَشُوا عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ وَبَاتَهُمْ * مِنْ بَيْنِ نَائِفِيٍّ وَأَخْرِ سَامِطِ

يَتَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْتَقُوا * حَاقَانُ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطِ^(١)

نَهَشُوهُ فَانْتَرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ * وَتَهَشَّمَتْ أَفْعَاؤُهُمْ خَالِئَاتِ

فكتبها الناس عنه وَمَضَوْا، فقال لي أبي، وقد رجع الى البيت: ويحكم! صاقت عليكم المأكَل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال: لا تدع ديكا ولا دَجَاجَةً تَقْدِرُ عليه إلا آسَرتيه وبعثت به الى دعبل وإلا وقعا في لسانه، ففعلت ذلك. قال أحمد بن أبي كامل: كان دعبل ينشد كثيرا هجاء له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما أستحقّه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

(١) قبيلة من مِداد، وأصله حل زلواه فنسوا اليه.

كان دعبل يخلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرجته وفهمه وأذبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوهُ :
يا بُؤْسَ للفصل لو لم يأت ما عَابَهُ * يستفرغ السَّمُّ من سَمَاءِ قِرْضَابَهُ
ما إن يزال وفيه العيبُ يَجْمَعُهُ * جهلا لأعراض أهل المجد عِيَابَهُ
إن عابى لم يَبْعَثْ إلا مؤدَّبَهُ * ونفسه عاب لما عاب أذَابَهُ
فكان كالكلب صرّاه مَكْلَهُ . لعيره فعدا فاصطاد كَلَابَهُ
كان دعبل يقول : ما كانت لأحد قط عندى مِنةٌ إلا تَمِيتُ موته .

كتب دعبل الى أبي نَهْشَل بن حُمَيد الطُّوسى قوله :

إِما العيشُ في مُدامه الإخْوا * ن لا فى الجلوس عند الكُعب
ويصرف كأنها أُنْسُ البر * قِ إذا استعصت رقيقَ السحاب
إن تكوِّبوا تركُّمُ لدّة العيد * ش حذارَ العقاب يومَ العقاب
فدعوني وما ألدَّ وأهوى * وأدفعوا بى فى صدر يديم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى : سمعت دعبل يقول فى كلام جرى «لَيْسَكَ» فأنكرته عليه ؛ فقال : دخل زيد الخليل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِف لى رجل إلا رأيتُهُ دون وصفه لَيْسَكَ» يريد غيرك .

قال عمرو بن مسَعْدَة : حضرتُ أبا دُلْف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شئ تروى لأخى خُرَاعَة يا قاسم ؟ فقال : وأى أخى خُرَاعَة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومنَ تعرف فيهم شاعرا ؟ فقال : أنا من أنفُسِهِمْ فابو الشَّيْص ودعبل وابن أبى الشَّيْص ودادود بن أبى ريزين ، وأما من موالِهِمْ فظاهر وأبنة عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات أى شئ عندك فيه ؟ فقال : وأى شئ أقول فى رجل لم يسلَم عليه أهل بيته حتى هُجَاهم ، ففرَن إحسانَهُم بالإساءة وبذلهم بالمع وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه ؟ قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول فى المطلب بن عبد الله

أبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد إليه الى مصر فأعطاه الخزير وولاه، ولم يمنعه ذلك أن مال فيه :

إِضْرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلَحَاتِ مَنِيْدَا * لَلْؤُمِ مَطْلِبٍ فَيَا وَكُنْ حَكْمَا
تُخْرِجُ نُرَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ * فَلَا تَحْسَ لَهَا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوصه وأطفه وأدهاه، وجعل يضحك. ثم دخل عند الله أبن طاهر فقال : أى شيء تحفظ يا عبد الله لدعبل ؟ فقال : أحفظ أياتنا له فى أهل بيت أمير المؤمنين ؛ قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامِ الصَّامَاتِ * أَيَّامِ أَرْقُلٍ فِي أَثْوَابٍ لَدَاتِي
أَيَّامِ غَصْنِي رَطِيبٌ مِنْ لَيَّانَتِهِ * أَصْوَالِي عَيْرِ جَارَاتٍ وَتُكَّاتِ
دَعِ عَنكَ ذِكْرَ زَمَانٍ فَاتِ مَطْلُئِهِ * وَأَقْدِفْ بِرَحْلِكَ عَنْ مَتْنِ الْحَمَّالَاتِ
وَأَقْصِدْ كُلَّ مَدِيحٍ أَنْتَ قَائِلُهُ * نَحْوِ الْهُدَاةِ بَنَى بَيْتَ الْكَرَامَاتِ

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالاً فقال، ونال بعيد ذكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم.

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أَيَّنَ الشَّبَابِ وَأَيَّةَ سَلَكَا : لَا أَيْنَ يُطْلَبُ صَلٍّ مِنْ هَلَكَا
لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمٌ مِنْ رَحَلٍ * صَحِيحُ الْمَشِيبِ بِرَأْسِهِ بَكَى
يَا لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ يَوْمُكَا * يَا صَاحِي إِذَا دَمِي سَفِكََا
لَا تَأْخُذُوا بِظُلَامَتِي أَحَدًا * قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي أَشْتَرَكَا

قال إبراهيم بن المدبر : لقيت دعبل بن على فقلت له : أنت أجسر الناس عدى

وأقدمهم حيث تقول :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ * قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَفْتُكَ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا عَمَلُكَ سِدَّ طَوْلٍ نَحْوَلِهِ * وَأَسْتَنْذُوكَ مِنَ الْخَضِيضِ الْأَوْهَدِ

وأولها :

. أخذ المشيبُ من الشباب الأغيذ * والناثباتُ من الأثام بمَرُصد
فقال : يا أبا اسحاق ، أنا أحمل خَشْبتي منذ أربعين سنة ، فلا أجد من يصلبني عليها .

كان دعبل يخرج فيبيع سِنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت
الشُّراة والصِّعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشارونه ويبتون به ، وكان إذا لقيهم وضع
طعامه وشرابه ودعاهم إليه ودعا غلاميه : نصف وشعف ، وكأنا مغيبين ، فأقعدهما يغنيان
وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم ، فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره ، وكانوا يواصلونه
ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه في بعد أسفاره :

حَلَلْتُ مَحَلًّا يَقْصُرُ البرُّ دونه ويعجز عه الطيفُ أن يَحْشِمًا

قال البحتري : دعبل بن علي أشعر عدى من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم ؛ وكان يتعصب له .

كان المعتصم يُفَضِّل دعبلا لطول لسانه . وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب
إلى الجبل ؛ وقال يهجوه :

بَكَى لِسْتَاتِ الدِّينِ مَكْتِيبُ صَبٍّ * وفاض فَرَطُ الدِّمَعِ مِنْ عَيْهِ غَرَبُ
وقام لِمَامٍ لَمْ يَكُنْ ذَا هِدَايَةٍ * فليس لَهُ دِينٌ وَلَيْسَ لَهُ لُبٌّ
وما كَانَتْ الْأَنْبَاءُ تَأْتِي بِمِثْلِهِ * يُمَلِّكُ يَوْمًا أَوْ تَدِينُ لَهُ الْكُرْبُ
ولكن كما قال الذين تناهوا * من السَّلفِ المَاضِينَ إِذْ عَظُمَ الْخَطْبُ
ملوكِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ * ولم تَأْتِ عَنْ ثَامِنٍ لَمْ تُكُنْ
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ * حَيَّارٌ إِذَا عُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ
وَإِنِّي لِأَعْلَى كَلْبِهِمْ عَكَ رَفْعَةً * لَأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ
لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُلْكَهُمْ * وَصِيفٌ وَأَشَّاسٌ وَقَدْ عَظُمَ الْكَرْبُ
وَفَضْلُ بْنُ مَرَوَانَ يُسَلِّمُ ثَلَاثَةً * يَظَلُّ لَهَا الْإِسْلَامُ لَيْسَ لَهُ شَعْبُ

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في خير قبرٍ لخيرِ مدفون
لن يجبر الله أمةً فقدتُ * مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعل يعارصه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في شرِّ قبرٍ لشرِ مدفون
إذهب الى السار والعدابِ فما * حَقُّكَ إلا من الشياطينِ
مازلت حتى عقدتَ بَيْعةَ مَنْ * أضرتَ بالمسلمينِ والدينِ

وقال في ذلك وفي قيامِ الواثق :

الحمدُ لله لا صَبْرٌ ولا جَلْدٌ * ولا عزاءُ إذا أهلُ البَلَا رقدوا
حليمةٌ مات لم يحزنَ له أحد * وآحرقام لم يهرج به أحد

ولقد أحسن في وصف سمر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :

ألم يَأْنِ للسَّفرِ الدينَ تَحْمَلُوا ، الى وطنٍ قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوايَ عِبْرَةٍ * تَطْلُقُ بما ضُمتَ عليه صلوع
تَبَيَّنَ فكم دارٍ تَهْتَزُّ شَمْلُها * وتُمْلِي شَتِيَّتَ عاد وهو جَمْع
كذاك اللبالي صَرُفُهُنَّ كما ترى * لكل أمانس جَذْبَةٌ ورَبِيع

ثم قال : ما سافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفرى وهجرى ومسلتي حتى أعود .

ومن قول دعل وفيه غاء :

سَرَى طَيْفٌ ليلي حين آن هُبُوبٌ * وقضيت شوقا حين كاد يدوب
فلم أرَ مطروقاَ يحلَّ بِرَحْلة * ولا طارقا يَقْرِى المُنَى ويُثِيب

ومن قوله :

لقد عَجِبْتُ سَلَمَى وذاك عَجِبٌ * رأت بي شيبا عَجَلته خُطوبُ
وما شِيتَنِي كَبْرَةٌ غيرَ أني . بدهي به رأسُ العَظيمِ يَشِيب

وقال في صالح بن عطية الأصمّ وكان من أقبح الناس وجهاً، وحاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمد * قول امرئ حبيب عليك تحام
أنكرت أن تفتّر عك صبيعه * في صالح بن عطية الجّام
ليس الصنائع عده بصائع * لكنهن طوائل الإسلام
إصرّ به جيش العدو فإنه * جيش من الطاعون واليرسام

قال أبو تمام : ما زال دعل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقزاً بأستاديتّه، حتى ورد عليه
بجرحان بخفاء مسلم، وكان فيه بخل، فهجّره دعل وكتب اليه :

أبا مُخَلَّدٍ كَمَا عَقِدَى مَوْدَةٍ * هَوَانَا وَقَلْبَانَا جَمِيعَا مَعَا
أحوطك بالغيب الذي أنت حائطي * وأجرع إشفافاً من أن تتوجّعَا
فصيرتني بعد انتكائك مُنْهَمَا * لمسى عليها أرهبُ الخلق أجمعَا
عشتَ الهوى حتى تداعت أصولُهُ * بنا وأبتذلت الوصلَ حتى تفتطمعا
وأزلات من بين الجوانح والحنى * دخيرة ودُّ طامنا قد تمعنا
فلا تلحننيّ ليس لي فيك مطمَعٌ * تحزقت حتى لم أجِد لك مرقعَا
فهبك يميني استأكلت ففطعتُهَا * وجشمتُ قلبي صبره فتشجعَا
ثم تهاجرا ما آتقيا بعد ذلك .

أجرى الرشيد على دعل رزقا سنياً، فكان أول من حرّضه على قول الشعر . فوالله ما بلغه
أن الرشيد مات حتى كافاه على فعله من العطاء السنّي والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول
بأقبح مكافأة، وقال فيه يهجوّه من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام :

وليس حَيٌّ مِنَ الأحياء نعلمه * من ذى يَمَانٍ ومن بَكْرٍ ومن مُضَرٍ
إلا وهم شركاء في دمائهِمْ * كما تشارك أيسارُ على جُرُ
قتلٍ وأسرٍ وتمريقٍ ومنهبةٍ * فِعْلُ الفُزاةِ بأرض الروم والخزَرِ
أرى أُميّةً معذورين إن قُتِلوا * ولا أرى لبني العباس من عُذْرِ

أَرْتَعِ طُلُوسَ عَلَى الْقَبْرِ الزَّيِّ إِذَا * مَا كُنْتَ تَرْتَعِ مِنْ دِينَ عَلَى وَطَرِ
قَبْرَانِ فِي طُلُوسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ * وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعَبَرِ .
مَا يَنْفَعُ الزَّجْسَ مِنْ قَرَبِ الرِّكِيِّ وَلَا * عَلَى الزَّيِّ قَرَبُ الزَّجْسِ مِنْ صَرَرِ
هِيَاهُ ، كُلِّ أَمْرٍ زَهْنٌ مَّا كَسَبَتْ * لَهُ يَدَاهُ نَحْذُ مَا شِئْتَ أَوْ قَدَّرِ

* استدعى بعض بني هاشم دعلا وهو يتولى للعنصم ناحية من نواحي الشام ، فقصده
اليها فلم يقع منه بحسن ظن وحماه ، فكتب اليه دعل :

دَلَيْتَنِي بِغُرُورٍ وَعَدَكُ فِي * مُتَلَاظِمٍ مِنْ حَوْمَةِ الْفَرَقِ
حَتَّى إِذَا شِمْتَ الْعَدُوَّ وَقَدْ * شُهِرَ انْتِقَاصُكَ شُهْرَةَ الْبَلَقِ
أَنْشَأْتَ تَخْلَفُ أَوْ وَذَكَ لِي * صَافٍ وَحَبْلُكَ غَيْرَ مَحْنَقِ
وَحَسْبَتَنِي فَقَعًا بَقَرَقَرَةً * فَوِطْنَتَنِي وَطَنًا عَلَى حَقِّ
وَصَبَبَتَنِي عَلَمَاً عَلَى عَرَضِ * تَرْمِينِي الْأَعْدَاءُ بِالْحَدَقِ
وَطَنْتُ أَرْضَ اللَّهِ صَبَقَةً * عَنِي وَأَرْضُ اللَّهِ لَمْ تَصِقْ
مِنْ غَيْرِ مَا جُرِّمَ سِوَى ثِقَةٍ * مَنَى بَوْعَدَكَ حِينَ قُلْتَ ثِقِ
وَمُودَةٍ تَحْمُو عَلَيْكَ بِهَا * نَحْسِي بِلَا مَنٍّ وَلَا مَلَقِ
فَتَنِي سَأَلْتُكَ حَاحَةً أُنْذَا * فَاشْدُدْ بِهَا قُفْلًا عَلَى عَلَقِ
وَقَفَّ الْإِحَاءُ عَلَى شَفَا جُرُوفِ * هَارٍ مَعَهُ بَعْعَةُ الْخَلْقِ
وَأَعَدَّتْ لِي قُفْلًا وَجَامِعَةً * فَاشْدُدْ يَدَيَّ بِهَا إِلَى عَقِي
أَعْفِيكَ مِمَّا لَا تَحْتَمُّ بِهَا * وَأَسْدُدْ عَلَى مَدَاهِبِ الْأَقْفِ
مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَعْرَصَهَا * وَأَذَلَّنِي بِمَسَالِكِ الطَّرُقِ

دخل دعل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جِئْتُ بِلا حُرْمَةٍ وَلَا بَهَبٍ * إِلَيْكَ إِلَّا بِجُرْمَةِ الْأَدَبِ
فَاقِضْ ذِمَامِي فَإِنِّي رَجُلٌ * غَيْرُ مُلِحٍّ عَلَيْكَ فِي الطَّلَبِ

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووحه اليه بصره فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأناك عاجلٌ رَّنا * ولو أنتظرت كثيره لم يقلل

نغد القليل وكن كأنك لم تقل * ونكون نحن كأننا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قرى السوس ، بعث اليه مالك بن طوق من ضرب ظهره

مكازلها زُجٌ مسموم مات من غد .

٤ - حسين بن الضحَّاك^(١)

« شاعرٌ ظريفٌ شديدُ الظُّرفِ ، ربما أقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه في المجوف ، قليلُ الفحش في اللفظ . غير مُبالِك على القول الآثِم والألفاظ المنكَّرة ، لا يتخيَّرها ولا يقصد إليها ، وإنما يَعرِض لها إذا أصطُر إليها اضطراباً وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجوِّد إذا فكَّر ، مظفر إذا بحث ، موَفِّق إلى اللفظ المتين ، والأسلوب الرِّصين في غير جفوة ولا غِلظة ، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع بحبته ، وحببته سهلة مرسلة غيبة غزيرة المادة ، لا تكاد تنضب ، ولا يالهأ إعياء أو كلال ، وحيلته كلها عبر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتي تزدك وتترك ، وتجعل للحنن والأسى إلى قلبك سيلاً ، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فتظنُّ مبتسماً منذ تنتدئ إلى أنه انتهى دون أن تعبس أو تنقلب . وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين ، ولكك لن تترك الابتسام إلى الحزن الشديد . وربما أعترضتك في طريقك بحبابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هبّة ، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان هذا الشاعر من المعمرين ، بلغ المائة أو كاد ، وطاصر طبقات من الشعراء ، وألواناً من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظلَّ محتفظاً بشخصيته الواحدة المبتسمة ، تغير الناس وأختلفت الظروف ، وظلَّ هو واحداً

(١) هو مولد بأهلة ، ولد في البصرة ونشأ فيها ودام الخلفاء من بني العباس ، وكان حليفاً فاسداً وكان مع ذلك حسن التصرف في الظنم ولشعره قبول ورونق ، فهو من المتصين وله معان جديدة في الحركات أو نواس يأخذها عنه ، ومع أن أبانواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحَّاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تقاصر لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحَّاك عمر كثيراً . وهو أول من نادى الأمين وله فيه مدائح كثيرة ، وعمر عمرًا طويلاً حتى قارب مائة السنة ومات في حلاقة المستعين أو المتصور . ونجد أخباره في الأغانى (ج ٦ ص ١٧٠) وابن حلكان (ج ١ ص ١٥٤) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لم يتعبه. كان حليعا، بل كان يُعرف بالحليع، وكان كثير المجون مُسْرِفا فيه، وما أحسب أن
أما وواس سقه الى لذة أو برز عليه في مأثم، ولكه على حلاسته وإسرافه في المجون
وتهالكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة
الأصل، كأما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأحلاقه انزلاقا دون أن تترك
فيها أثرا باقيا، وإنما كانت الآثار التي تركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعبث، هذه
الأشعار الجميلة الحلوة التي سأطهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كبيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون الى الخلفاء بعد الجهد
والكد، وبعد التلطف وحسن الحيلة، وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا، يعاشرهم
ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل الى أكثر مما ينبغي . وكان الخلفاء
يحتنون عه، ويحرصون على عشرته ويدلون في ذلك غير قليل من الإلاحاح والعطاء، وكان
شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

وترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب طريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر
حلو المذهب، لشعره قبول ورويق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير
عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسه الناس الى أبي نواس، وله معان في صفتها
أربع فيها، وهاتى مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين
الذين تخلو أشعارهم ومداهمهم جملة من التكلف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتي التي قتلها في الخمر وهي :

بُدِّلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ * ^(١) وَمِنْ صُبُوحِ دُرِّ الْإِنْبِيلِ وَالشَّاءِ

فلما انتهت منها الى قولي

حتى اذا أُسِّدَتْ فِي الْبَيْتِ وَأُحْتَصِرَتْ . عِنْدَ الصُّبُوحِ بِبَسَائِينِ أَكْثَفَاءِ
فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَاصْفَهَا * عَنِ مِثْلِ رَقْرَاقَةٍ فِي جَفْنِ مَرْهَاءِ ^(٢)

فَصَبَقَ صَعْقَةً أَفْرَعْتَنِي وَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَشْقَرَ، فَقُلْتُ : وَيْلَكَ يَا حَسَنَ ، إِنَّكَ أَفْرَعْتَنِي وَاللَّهِ، فَقَالَ : بَلَى وَاللَّهِ أَنْتَ أَفْرَعْتَنِي وَرُعْتَنِي ، هَذَا مَعِيَ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي كَانَ فَكَّرِي . لَا بَدَأَ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهَا أَوْ اغْوَصَ عَلَيْهَا وَأَقُولُهَا ، مَسْبِقَتَنِي إِلَيْهِ وَاحْتِلَسَتْهُ مِنِّي ، وَسَتَعَلَّمَ لِمَنْ يُرَوِّى أَيْ أُمِّ لَكَ ؟ فَكَانَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ ، سَمِعْتُ مَنْ لَا يَعْلَمُ بِرُويَا لَه :

لَمَّا قَدِمَ الْمَأْمُونُ مِنْ خِرَاسَانَ أَمَرَ بِأَنْ يُسَمَّى لَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ لِيَجَالِسُوهُ وَيَسَاصِرُوهُ ، فَذَكَرَ لَهُ جَمَاعَةٌ فِيهِمُ الْحُسَيْنُ بْنُ الصَّحَّاحِ ، وَكَانَ مِنْ جُلَسَاءِ مُحَمَّدٍ الْمُخْلُوعِ ، فَلَمَّا رَأَى أَسْمَهُ قَالَ : أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ :

هَلَا بَقِيَتْ لِسَدِّ فَاقْتَنَا * أَبَدًا وَكَأَنَّ لَغَيْرِكَ التَّلَفُّ
فَلَقَدْ خَلَقْتَ خَلَائِفًا سَلَفُوا * وَلَسَوْفَ يُعَوِّزُ بَعْدَكَ الْحَلَفُ

لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، وَاللَّهِ وَلَا يَرَانِي أَبَدًا إِلَّا فِي الطَّرِيقِ ، وَلَمْ يَعَاقِبِ الْحُسَيْنُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ هِجَاؤِهِ لَهُ وَتَعْرِيزِهِ بِهِ ، وَأَتَمَحَدَّرُ حُسَيْنٌ إِلَى الْبَصْرَةِ فَأَقَامَ بِهَا طَوِيلَ أَيَّامٍ الْمَأْمُونُ .

قَالَ أَبُو صَالِحٍ الرِّشِيدُ : دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْمَأْمُونِ وَمَعِيَ يَتَانِ لِلْحُسَيْنِ بْنِ الصَّحَّاحِ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَحَبُّ أَنْ تَسْمَعَ مِنِّي بَيْتَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْشِدْهُمَا ، فَأَنْشَدْتُهُمَا :

حَمَدَنَا اللَّهُ شُكْرًا إِذْ حَبَّانَا * بِنَصْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
فَأَنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ حَقًّا * جَمَعْتَ سَمَاحَةً وَجَمَعْتَ دِينَنَا

فَقَالَ : لِمَنِ هَذَانِ الْبَيْتَانِ ؟ فَقُلْتُ : لِعَبْدِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُسَيْنُ بْنُ الصَّحَّاحِ ، قَالَ : قَدْ أَحْسَنَ ، فَقُلْتُ : وَلَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجُودُ مِنْ هَذَا ، فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟ فَأَنْشَدْتُهُ قَوْلَهُ :

أَجْرُنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمِئْتُ إِلَى الْوَعْدِ * مَتَى تُخَيِّرُ الْوَعْدَ الْمُؤَكَّدَ بِالْمَهْدِ
أَعِيذُكَ مِنْ خُلْفِ الْمُلُوكِ وَقَدْ بَدَأَ * تَقَطُّعِ أَنْفَاسٍ عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ
أَيُخْلِلُ قَرْدُ الْحَسَنِ عَنِّي بَائِلٌ * قَلِيلٌ وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهَوَى قَرْدٍ
رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَلَمَّا عَظَّمَ وَاللَّهِ أَعْلَمَ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عَصَمَةٌ * مَمِيَّةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ

فَاطْرُقَ سَاعَةٌ ثُمَّ قَالَ : مَا تَطْبِيبُ نَفْسِي لَهُ بِخَيْرٍ بَعْدَ مَا قَالَ فِي أَخِي مُحَمَّدٍ مَا قَالَ .

ومن قوله يرثي محمدا الأمين :

أُطِّلَ حَرْنَا وَأَبَيْكَ الْإِمَامَ مُحَمَّدًا * بَحْزَنَ وَإِنْ خِفْتَ الْحَسَامَ الْمَهْدَا
فَلَا تَمِتِ الْأَشْيَاءَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ * وَلَا زَالَ شَمْلُ الْمَلِكِ مِنْهَا مُبْتَدَا
وَلَا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا طَرِيدَا مُشْرِدَا

ولحسين في محمدا الأمين مراثٍ كثيرة جداً، وكان كثير التحقق به والمؤالة له لكثرة إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وطلع من جرعه عليه أنه خُلِطَ فكان يُنكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول: إياه مستر وأنه قد وقف على دُعَاة في الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعة صَبَا به وشعقه عليه .

ومن جيد مراثيه إياه قوله :

سَالُوا أَنْ كَيْفَ مَحَنٌ ؟ فَقُلْنَا * مِنْ هَوَىٰ مَحْمُودٍ فَكَيْفَ يَكُونُ ؟
نَحْنُ قَوْمٌ أَصَابَنَا حَدَثُ الدَّهْرِ * نَحْنُ فُظِّلْنَا لِرَيْبِهِ نَسْتَكِينُ
نَتَمَنَّى مِنَ الْأَمِينِ إِيَابَا * لَهْفَ نَفْسِي وَأَيَّ مَنَى الْأَمِينِ
ومن جيد قوله في مراثيه إياه .

أَعَزَّيَ يَا مُحَمَّدُ عَكَ نَفْسِي * مَعَاذَ اللَّهِ وَالْأَيْدَى الْحَسَامِ
فَهَلَا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا * وَدُفِعَ عَكَ لِي يَوْمَ الْحِمَامِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مَكَ غُيًّا * أَوْ أَسْتَشْفَى بِقَرْبِكَ مِنْ سَقَامِ

وقال أيضا برثيه :

يَا حَيْرَ أَسْرَتِهِ وَإِنْ زَعَمُوا * إِنِّي عَلَيْكَ لَمُتُّبْتُ أَسِفُ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لِي كُودَا * حَرَمَى عَلَيْكَ وَمَقَلَّةً تَكْفُ
وَلَيْسَ تَنْجِيْتُ بِمَا رُزْتُ بِهِ * إِنِّي لِأَضْمُرُ فَوْقَ مَا أَصِفُ
هَلَا يَقِيَّتَ لَسَدَ فَاغْتَنَّا * أَبَدَا وَكَانَ لِفَيْرِكَ التَّلَفُ
فَلَقَدْ خَلَفْتَ خَلَاِئِفَا سَلَفُوا * وَلَسَوْفَ يُعَوِّزُ بِعَدِكَ الْخَلَفُ

لَامَات رَهَطُكَ مَعْدَهُمْ * إِنْ لَرَهَطِكَ مَعْدَهَا شَفِ (١)
 هَنَكُوا بِجَرْمَتِكَ الَّتِي هُنْتُكَ * حُرِّمَ الرُّسُولُ وَدَوَّهَا السُّجُفُ
 وَتَلَّتْ أَقَارِبُكَ الَّتِي حَدَّاتُ * وَجَمِيعُهَا بِالذَّلِّ مَعْتَرِفُ
 لَمْ يَفْعَلُوا بِالشُّطِّ إِذْ حَصَرُوا . مَا تَفْعَلُ الْغَيْرَانَةُ الْأَنْفُ
 تَرَكُوا حَرِيمَ أَبِيهِمْ نَقْلًا : وَالْمُحْصَاتُ صَوَارِحُ هَتَفُ
 أَدَّتْ مُخْلَعَهَا عَلَى دَهَشِ أَنْكَارُهَا وَرَنَّتِ الصَّصُفُ
 سَلَبَتْ مَعَارِهَا وَأَجْتَلَيْتِ (٢) * دَاتُ اللَّقَابِ وَبُوزَعُ الشَّفِ
 فَكَانَ حِلَالُ مُنْتَهَبِ * دُرٌّ تَكْشَفُ دُونَهُ الصَّدْفُ
 مَلِكٌ تَحْوِزُ مَلِكِهِ قَدَرٌ . قَوَّهِ وَصَرُفُ الدَّهْرِ مُخْتَلِفُ
 هِيَاتٌ بَعْدَكَ أَوْ بِدُومٍ لِمَا عَزَّ وَأَنْ يَبْقَى لَهَا شَرَفُ
 لَا هَيُّوا مُصَحَّافًا مَشْرِفَةً * لِلْعَادِرِينَ تَحْتَهَا الْجَدَفُ
 أَقْبَعْدَ عَهْدِ اللَّهِ تَقْتَبِلُهُ * وَالْقَتْلُ بَعْدَ أَمَانَةٍ سَرَفُ
 فَسَتَعْرِفُونَ عِدَا بَعَاقِبَةٍ * عَزَّ إِلَهُهُ فَأُورِدُوا وَقِفُوا
 يَامَنْ يُحَوِّنُ يَوْمَهُ أَرْقُ * هَدَّتِ الشَّجُونُ وَقَلْبُهُ لَهْفُ
 قَدْ كَسَتْ لِي أَمَلًا عَيْتُ بِهِ . فَصَيَّ وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْأَسْفُ
 مَرِيحُ النَّظَامِ وَعَادَ مُنْكَرُنَا * عُرِفَا وَأُنْكِرَ بَعْدَكَ الْعُرُفُ
 فَالشَّمْلُ مَنَشَرُ لَفَقْدِكَ وَالْ * مَدْنِيَا سُدَى وَالْبَالُ مَكْسَفُ

وقال أيضا يرثيه :

إِذَا دُرِّكَ الْأَمِينُ تَعَى الْأَمِيَا * وَإِنْ رَقَدَ الْخَلْقُ حَتَّى الْجُفُومَا
 وَمَا بَرِحَتْ مَنَازِلُ بَيْنَ بُصْرَى * وَكَكَلَوَادَى تُهَيِّجُ لِي شَجُونَا
 عِرَاضُ الْمَلِكِ خَاوِيَةٌ تَهَادَى * بِهَا الْأَرْوَاحُ تَنْسُجُهَا فُونَا

(١) معض مشكور . (٢) جمع معمر بالسر وهو ثوب تشتره المرأة أى تشده على رأسها .

تَحْوَنُ عَزَّ سَاكِنَهَا زَمَانٌ * تَلْعَبُ بِالْقُرُونِ الْأَوَّلِينَ
 فَشَتَّتْ شِمْلَهُمْ بَعْدَ احْتِمَاعٍ * وَكُنْتُ بِحَسَنِ أَلْفَتِهِمْ ضَنِينَا
 فَلَمْ أَرِ مَعْدَهُمْ حُسْنًا سِوَاهُمْ * وَلَمْ تَرَهُمْ عَيُونُ الْبَاطِرِينَ
 فَوَاسَفَا وَإِنْ شَتَّتَ الْأَعَادَى * وَآهٍ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 أَصَلَ الْعُرْفَ مَعْدَكَ مُتَّعُوهُ * وَرُفَّهُ عَنِ مَطَايَا الرَّاغِبِينَ
 وَكُنْ إِلَى جَانِكَ كُلِّ يَوْمٍ * يَرْحُحَ عَلَى السَّعُودِ وَيَعْتَدِينَا
 هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هَوَتْ الْمَعَالَى * لِهَدَنِهِ وَرَبِيعِ الصَّالِحِينَ
 سَتَدْبُ مَعْدَكَ الدُّنْيَا جَوَارَا * وَتَتَدَبُّ مَعْدَكَ الدِّينَ الْمُصَوَّنَا
 فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَةِ كُلِّ شَيْءٍ * وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحًا مَهِينَا
 تَعْقِدُ عَزُّ^(١) مُتَّصِلٍ بِكُسْرَى * وَمِلَّتَهُ وَذَلَّ الْمُسْلِمُونَ

وقال أيضا يرثيه :

أَسْمًا عَلَيْكَ سَلَاكُ أَقْرَبُ قُرْبَةٍ * مَنَى وَأَحْرَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدى : حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أَيُّ دِيْبَاجَةٍ حُسَيْنٍ * هَبِجْتُ لَوْعَةً حَزَنِي
 إِذْ رَمَانِي الْقَمَرُ الرَّا * هَمَّرَ عَنِ فَتْرَةِ جَفْنِي
 بِأَبَى شَمْسٍ نَهَارٍ * بَرَزْتُ فِي يَوْمِ دَجْنِي
 قَرَّبْتَنِي بِالْمَسَى حَتَّى * إِذَا مَا أَحْلَفْتَنِي
 تَرَكْتَنِي بَيْنَ مَيْعَا * دَحْلُفٍ وَتَجَنُّ
 مَا أَرَى فِي مِنَ الصَّبِّ * نَوَّةَ إِلَّا حَسَنَ طَنِي
 إِنَّمَا دَامَتْ عَلَى الْغَدِّ * رَلْمَا تَعْرِفَ مَنِي
 أَسْتَعِذُ اللَّهَ مِنْ إِعْرَا * ضَمْنٍ مِنْ أَعْرَضَ عَنِّي

لما وَلِيَ المعتمد أمر بمكاتبته بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلمَ أستاذنه في الإنشاد ،
فأذن له ، فأنشده قوله :

هَلَا سَأَلْتَ تَلَذُّذَ الْمَشَاوِ * وَمَتَّتَ قَلَّ فِرَاقَهُ يَتَلَاوِ
إِنْ الرَّقِيبَ لِيَسْتَرِيبَ سُهُوًا * صُعْدَا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الْإِفْلَاقِ
وَلَيْثُنَ أَرَبْتُ لَقَدْ نَظَرْتُ بِمَقْلَةٍ * عَبَّرَى عَلَيْكَ سَحِينَةَ الْآمَاقِ
نَفْسِي الْعِدَاءُ لَخَائِفٌ مَرْتَقِبٌ * حَعَلَ الْوَدَاعَ إِشَارَةً عَيْنَاقِ
إِذَا لَا حَوَاتٍ لِمُقْعَمٍ مُتَحَدِّرٍ . إِلَّا الدَّمُوعَ تُصَانُ بِالْإِطْرَاقِ

حتى انتهى الى قوله :

خَيْرُ الْوَفُودِ مَبَشِّرٌ بِخِلَافَةٍ . خَصَّتْ بِهِجَتِهَا أَمَا إِسْحَاقِ
وَأَفْتِهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَلِيمَةً . مِنْ كُلِّ مُشْكَلَةٍ وَكُلِّ شِقَاقِ
أَعْطَنَهُ صَفْقَتَهَا الصَّمَاثُ طَاعَةً . قَبْلَ الْأَكْفَفِ أَوْكَدَ الْمِثَاقِ
سَكَنَ الْأَنَامُ إِلَى إِمَامٍ سَلَامِيذٍ . عَفَّ الضَّمِيرَ مَهْدَبَ الْأَحْلَاقِ
لَحْمِي رَعِيَّتِهِ وَدَافِعَ دُونَهَا : وَأَحَارَ ثَمَلَقَهَا مِنَ الْإِمْلَاقِ

حتى أتمها ، فقال له المعتمد : أدن مني ، فدنا منه ، فلأفقه جوهرًا من جوهر كان بين
يديه ، ثم أمره بأن يخرج من فمه ، فأخرجه وأمره بأن يُنظَّم ويدفع اليه ويخرج الى الساس
وهو في يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فصله ، فكان أحسن ما مُدِحَ به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أَمِينَ اللَّهِ تَقَى بِاللَّهِ * لَهُ تُعْطَى الصَّبْرُ وَالنُّصْرَةُ
كِلَا الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ * كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
لَنَا النَّصْرَ يَعْزِمُونَ اللَّهَ * وَالْكُفْرَةَ لَا الْفَزَةَ
وَاللُّزَاقَ أَعْدَا * نَكَّ يَوْمُ السُّوءِ وَالذُّبْرَةَ
وَكَأْسَ تَلْفِظُ الْمَوْتِ * كَرِيهَ طَعْمُهَا مَرَّةً

سَقُونَا وَسَقِينَاهُمْ * وَلَكِنْ بِهِمُ الْحِرَّةُ

كَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَا * عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةُ

ومن قوله في غضب حِطَّةٍ للوائق من زيارته أخرى في نوتها :

غَضِبْتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى حِلْسَةً * فَلَهَا الْمُنَى لَدَيْنَا وَالرَّصَا

يَا مَدَنِكَ الْفَسْ كَاتِ هَمْوَةٌ * فَاغْمِرِيهَا وَأَصْفَحِي عَمَّا مَصَى

وَأَتَرَكِي الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ * وَأَنْسِي جَوْرِي إِلَى حَكْمِ الْقَضَا

فَلَقَدْ بَهِنِي مِنْ رَقْدَتِي * وَعَلَى قَلْبِي كَيِّرَانُ الْفَصَا

كان اللواق يتحطى حارية له فمات، بخزع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد

إلى حاله، فعدا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلاة في اليوم فليت نومي كان طال قليلا

لأتمتع لبقائها، فقل في هذا شيئا، فقال :

لَيْتَ عَيْنَ الدَّهْرِ صَا عَقَلَتْ * وَرَقِيبَ اللَّيْلِ عَا رَقْدَا

وَأَقَامَ الْيَوْمَ فِي مَدَنَتِهِ * كَالَّذِي كَانَ وَكَأَبَدَا

بَابِي زَوْرٌ تَلَفْتُ لَهُ * فَتَفَقَّسْتُ إِلَيْهِ الشُّعْدَا

بَيْنَمَا أَضْحَكَ مَسْرُورًا بِهِ * إِذْ تَقَطَّعَتْ عَلَيْهِ كَيْدَا

لما أعيته الحيلة في رصا المأمون عه رمى بأمره إلى عمرو بن مسعدة وكتب إليه :

أَنْتَ طَوْدِي مِنْ بَيْنِ هَدْيِ الْهَيْصَابِ * وَشِهَابِي مِنْ دُونَ كُلِّ شِهَابِ

أَنْتَ يَا عَمْرُو قُوَّتِي وَحَيَاتِي * وَلِسَانِي وَأَنْتَ ظُفْرِي وَنَابِي

أَتُرَانِي أَنْسَى أَبَادِيكَ الْيَسِيرَ * بَعْضَ إِذَا أَسْوَدَ نَائِلُ الْأَمْحَابِ

أَيْنَ أَخْلَاقُكَ الرِّصِيَّةَ حَالَتْ * فِي أَمِّ أَيْنَ رِقَّةُ الْكُتَّابِ؟

أَنَا فِي ذِمَّةِ السَّحَابِ وَأَطْمَأَنَّ * إِنَّ هَذَا لَوَسْمَةٌ فِي السَّحَابِ

فَمَنْ إِلَى سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ غَنَى * قَوْمَةٌ تَسْتَجِزُّ حُسْنَ الْخَطَابِ

فَلَعَلَّ الْإِلَهِ يُطْفِئُ عَنِّي * بِكَ نَارًا عَلَى ذَاتِ الْتَهَابِ

فلم يزل عمرو يطيف للمأمون حتى أوصله إليه وأدز أرياقه .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحصاره، فلما حصر سلم، فرد عليه السلام ردًا جافيا،
ثم أقبل عليه فقال : أحري عك، هل عرفت يوم قُتل أنحى محمد هاشمية قُتلت أو
هتكت ؟ قال : لا، قال : ما معنى قولك :

وَسَرَبَ ظُبَاءَ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ . هَتَّصَ بِدَعْوَى جَبْرِحَى وَمَيَّتْ

أَرَدَ يَدَا مَنِ إِذَا مَا دَكَّرْتُهُ * عَلَى كَبِدِ حَرَى وَقَلْبِ مُعْتَتِ

فَلَا بَاتَ لَيْلُ السَّامَتَيْنِ بِعِطَةِ * وَلَا تَلَقَتْ أَمَاهُمَ مَا تَمَّتْ

فقال : يا أمير المؤمنين، لوعة علتني، وروعه فاجأتني، وبعه فقدتها بعد أن عمرتني،
وإحسان شكرته فأطقتني، وسيد فقدته فأقلقني، وإن عاقبت فحقك، وإن عطفت
فبفصلك، فقدمت عينا المأمون وقال : قد عموت عك، وأمرت بإدراار رزقك،
وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك امتناعي من استخدامك .

ومن قوله :

وَكَا لَوْرْدَةِ الْحَمَاءِ حَيَا بِأَحْمَرِ * مِنَ الْوَرْدِ يَمْشِي فِي قَرَاطِقِ كَالْوَرْدِ

لَهُ عَتَاتٌ عَدُوٌّ كُلُّ تَغْيِهِ * بَعِيدِهِ قَسَدَعَى الْحَلِيمِ إِلَى الْوَجْدِ

تَمَيَّتَ أَنْ أَسْقَى بِكَفِّهِ شَرِبَةً * تَرَكْنِي مَا قَدْ نَسِيتُ مِنَ الْعَهْدِ

سَقَى اللَّهُ دَهْرًا لَمْ أَتِ فِيهِ لَيْلَةٌ * حَلِيًّا وَلَكِنْ مِنْ جَبِيٍّ عَلَى وَعْدِ

ومن قوله :

وَأَيُّ أَبِي مُفَحَّمٍ لِعَزَّتِهِ * قُلْتُ لَهُ إِذَا خَلَوْتُ مَكْتَمًا

يُحِبُّ بِاللَّهِ مِنْ يَحْصُكُ بِالِ * يَدُ مَا قَالَ لَا وَلَا مَعَا

ثُمَّ تَوَلَّى بِمُقَلَّتِي خَجَلِ * أَرَادَ رَجْعَ الْجَوَابِ فَاحْتَشَا

فَكَتَّ كَالْمُبْتَغَى بِحِيلَتِهِ * بُرًّا مِنَ السُّقْمِ فَابْتَدَا سَقَا

وقال في هوى له :

عَالِمٌ بِحَيِّهِ * مَطَرِيقٌ مِنَ الْيَةِ

يُوسُفُ الْجَمَالِ وَفَرِ * عَوْنٌ فِي تَعَدِيهِ

لا وحقَّ ما أنا فيه * له من عطفٍ أرَّجيه
 ما الحياةُ نافعة * لى على تأيِّيه
 العيم يَسْغَلُهُ * والجمال يُطْفِئُهُ
 فهو غيرُ مُكثَر * للدى أُلَاقِيهِ
 تَأْتِيهِ تَرْهَدُهُ * فِي رِعْبِي فِيهِ

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يرانى * نُصِبَ عَيْنِي مُثْمَلٌ بِالْأُمَانِي
 أبى مَنْ صَمِيرُهُ وَصَمِيرِي * أَدَا بِالْمَغِيبِ يَتَحِجَابُ
 نحن شحسان إن نظرت ورو * حان إذا ما أَحْبَبْتَ يَمْتَحِرَانُ
 فإدا ما هَمَمْتُ بِالْأَمْرِ أَوْ هَمَّ * شَيْءٌ بَدَأْتُهُ وَبَدَانِي
 كان وَفَقًا مَا كَانَ مِنْهُ وَمَنِي * فَكَأَنِّي حَكَيْتُهُ وَحَكَانِي
 خَطَرَاتِ الْحَقُونِ مَا سِوَاءُ * وَسِوَاءِ تَحَوُّكِ الْأَدَانِ

ومن قوله :

فَدَيْتُ مَنْ قَالَ لِي عَلَى خَصَرِهِ * وَعَصَّ مِنْ جَمْعِهِ عَلَى حَوَرِهِ
 سَمِعَ بِأَشْعَارِكَ الْمَلِيحَ وَمَا * يَنْفَكُ شَادَهَا عَلَى وَتَرِهِ
 حَسْبُكَ بَعْضُ الَّذِي أَدْعَتْ وَلَا * حَسْبُ لَصَبٍّ لَمْ يَقْصُ مِنْ وَطَرِهِ
 وَقُلْتُ يَا مُسْتَعِيرَ سَالِفَةِ الْإِلَ * حَشِيفٍ وَحُسْنِ الْفُتُورِ مِنْ نَظَرِهِ
 لَا تَتَكَبَّرَنَّ الْحَيِيبَ مِنْ طَرَبٍ * عَاوَدَ فِيكَ الصَّبَا عَلَى كِبَرِهِ

ومن قوله :

سائل طبعك عن لَيْلِي وَعَنْ سَهْرِي * وَعَنْ تَسَاعِ أَنْفَاسِي وَعَنْ فِكْرِي
 لَمْ يَتَحَلَّلْ قَلْبِي مِنْ ذِكْرِكَ إِذْ نَظَرْتُ * عَيْنِي إِلَيْكَ عَلَى صَحْوِي وَلَا سَكْرِي
 سَقِيًا لِيَوْمِ سُرُورِي إِذْ سَأَزِغْنِي * صَفْوَةَ الْمُدَامَةِ بَيْنَ الْأَسَى وَالْخَفَرِ

وَفَضَّلُ كَأْسِكَ يَا تَبْنِي فَأَشْرِبْهُ * جَهْرًا وَتَشْرِبُ كَأْسِي غَيْرُ مُسْتَرٍ
وَكَيْفَ أَشْبِلُهُ لَثِي وَأَلْزِمُهُ * نَحْرِي وَتَرْفَعُهُ كَتْفِي إِلَى بَصْرِي
فَلَيْتَ مُدَّةَ يَوْمِي إِذْ مَضَى سَلَامًا * كَانَتْ وَمُدَّةَ أَيَّامِي عَلَى قَدَرٍ
حَتَّى إِذَا مَا أَطْلُوتُ عَمَّا بَشَاشَتِهِ * صِرْنَا جَمِيعًا كَذَا حَارَيْنِ فِي الْحُفْرِ
وَمِنْ قَوْلِهِ لَهُوَي كَانَ لَهُ :

تَعَزَّيْبِيَّاسَ عَنْ هَوَايَ فَإِنِّي * إِذَا أَبْصَرْتُ نَفْسِي فَمِهْيَاتَ عَنْ رَدِّي
إِذَا خُضْتُ مَالِغِي وَدَى هَالِكٍ * تَدُلُّونَ إِدْلَالَ الْمَقِيمِ عَلَى الْعَهْدِ
وَلِي مَلِكٌ بَدَّاجَتَسِي مَدَمَّمَا * وَإِنْ جِلَّتْ أَنِي لَيْسَ لِي مَلِكٌ مِنْ بَدِّ
لَمَّا وَلِيَ الْوَائِقِ الْخِلَافَةَ أَنْشَدَهُ حَسْبُ :

أَكَاثِمُ وَجَدِي هَا يَبْكُمُ * بَيْنَ لَوْ شَكُوتُ إِلَيْهِ رَحِمُ
وَإِنِّي عَلَى حَسِّ ظَنِّي بِهِ * لِأَحْذَرُ إِنْ بُحْتُ أَنْ يَجْنِثُمُ
وَلِي عَهْدُ لِحَطْنِهِ رَوْعُهُ * تَحْقِيقُ مَا طَلَبَهُ الْمُتَهَمُ
وَقَدْ عَلِمَ السَّاسُ أَنَّ لَهُ * مَحَبَّةً وَأَحْسَبُهُ قَدْ عَلِمَ
وَإِنِّي لُغْنِصٌ عَلَى لَوْعَةٍ * مِنَ الشَّوْقِ فِي كَدَى تَضْطَرُّمُ
عَشِيَّةً وَدَعَتْ عَنْ مَقْلَةٍ * سَفُوحٌ وَزَفْرَةٌ قَلْبِ سَدِيمِ
هَذَا كَانَ عَدُوِّي مُسْعِدٌ * سَوَى الْعَيْنِ تَمْزِجُ دَمْعًا بِدَمِ
سَيِّدُكَرٍ مِنْ بَابِ أَوْطَانِهِ * وَيَكِي الْمَقِيمِينَ مِنْ لَمْ يَقِيمِ

كتب إلى الحسن بن رضاء في يوم شك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال
هَزَزْتُكَ لِلصَّبُوحِ وَقَدْ نَهَانِي * أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصِّيَامِ
وَعَدَى مِنْ قِيَانِ الْمَصْرِ عَشْرُ * تَطْيِيبُ بَهْنٍ عَانِقَةِ الْمَدَامِ
وَمِنْ أَمْثَالِهِنَّ إِذَا آتَشَيْنَا * تَرَانَا بِجَنَّتِي تَمْرُ الْعَرَامِ
فَكُنْ أَنْتَ الْجَوَابُ فَلَيْسَ شَيْءٌ * أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حَذْفِ الْكَلَامِ

فوردت رقعته ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخَرُ ووجهه إليه بغلام نظيف الوجه
ومعه ثلاثة غلمة أقران حسان الوجه . ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير، وختمها
في أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ يَا أَشَدَّ * كُلَّ مَنْ عَصَى لُجَيْنَ
فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنَى الرَّوْ * مِ إِلَى دَارِ حُسَيْنِ
أَتَخَيَّصُ الْكَهْلَ إِلَى مَوْ * لَاكَ يَا قُرْزَهَ عَيْنِي
أَرِهَ الْعُنْفَ إِذَا آسَمْتُ * صَحَى وَطَالِبَهُ بَدَيْنِ
وَدَعِ الْفَلْظَ وَخَاطِبِ * هُ نَغْمُ الْحَاجِبَيْنِ
وَاحْذَرِ الرَّجْعَةَ مِنْ وَجْ * يَكُ فِي خُفَى حُنَيْنِ

فمضى معهم .

ومن قوله لمن اعرض عنه :

تَبَيْتُهُ عَلَيْهَا أَنْ رُزِقْتُ مَلَاخَةً * فَمَهْلًا عَلَيْهَا عَصَ تَبَيْتُهَا يَا بَدْرُ
لَقَدْ طَالَ مَا كُنَّا مِلَاحًا وَرَمَا * صَدَدْنَا وَتَهَا ثَمَ غَيْرَا الدَّهْرُ

وله في هوى مُحِبِّبِ عَنْهُ :

فَلَنْ مَنْ لَا كَانَ ظُلْمٌ * لَ بِحَيْبِي فَمَاءَ
أَرْصَدَ الْبَابَ رَقِيدِ * نَ لَهُ فَاصْتَنَاءَ
فَإِذَا مَا أَشْتَاقُ قَرْبِي * وَلَقَائِي مَنَاءَ
جَعَلَ اللَّهُ رَقِيدِ * هُ مِنْ الشُّؤْءِ فِدَاءَ
وَالَّذِي أَقْرَحَ فِي الْفَنَاءِ * دَنَ قَلْبِي وَلَوَاءَ
كُلُّ مُشْتَاقٍ إِلَيْهِ * فَبِ الشُّؤْءِ فِدَاءَ
بِسَيِّئَاتِي مِنْ حَالَتِ الْأَحْ * رَاسَ مِنْ دُونِ مُنَاءَ

أمره المتوكل بأن يناديه ويلزمه ، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال للمتوكل بعض من حضر عنده : هو يطيق الذهاب الى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك ؛ فبلغه ذلك ، فدفع الى أحمد بن حمدون أبياتا قالها وسأله إيصالها ، فأوصلها الى المتوكل ، وهى :

أما فى ثمانين * وفيها * عدير وإن أألم اعتذر
فكيف وقد جرتها صاعدا * مع الصاعدين يتسع أثر
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على فتنة * وألحد فى دينه أو كفر
وإني لمن أسراء الإل * له فى الأرض نصب صروف القدر
فإن يقص لي عملا صالحا * أثاب وإن يقض شرا غفر
فلا تلح فى كبير هذى * فلا ذنب لي أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب * من ذا يلوم إذا ما عذر
وإني لقي كنف مبدق * وعز بنصر أبي المتصر
يأرى الرياح بفضل السما * ج حتى تبلد أو تتحير
له أكد الوحي ميراثه * ومن ذا يخالف وحى السور
وما للمسود وأشباهه * ومن كذب الحق إلا الحجر

فلما أوصلها شيعها بكلام يعدره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ، فقال المتوكل : صدقت ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ - محمد بن عبد الملك الزيات^(١)

كان محمد شاعرا مجيدا لا يُقاس به أحد من الكُتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلّ وصاحب قصار ومقطّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيجيد ، ويأني بالقصار ويجيد ، وكان ليلغا حس اللفظ اذا تكلم واذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القباء ، وأن يلبس الدُرّاعة ويتقلّد عليها سيفاً بجائل ، فأجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمة خورّ في الطبيعة ، وصعّف في المنّة ، ما رحمتُ شيئا قط ؛ فكانوا يطعمون عليه في ديه بهذا القول ، فلما وُصّع في الثقل والحديد قال : أرحموني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فترحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكّم عليها .

لما ماتت أمّ ابنه عمرو رثاها بقصيدة منها :
يقول لي الحِلّان لو زُرْتُ قَبْرَها * فقلتُ وهل عبر العُود لها قَبْرُ
على حين لم أحدثُ فأحهل قبرها * ولم أُلْع السّنّ التي معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أنحى الشئَ ترحوه فتُحرّمه * قد كُتُّ أحسب أني قد ملأت يدي
مالى اذا عِبتُ لم أذكّر بصالحه * وإن مَرِصْتُ فطال السّقمُ لم أعد

(١) هو أبو حمزة محمد بن عبد الملك بن أمان بن حمزة واشتهر باسم الزيات لأن حده (أمان) كان يحلّ الرّيت من مواضع الى بغداد ، وكان أدبياً شاعراً عالماً بالحو والملة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان في أوّل أمره من حملة الكُتّاب ثم صار وريثاً للنعمان ولأنه الوائى . ولما قولى المتوكل قص عليه وأمر مادحاله في تور من حديد كان اس الزيات أعدّه لتعذيب المصادر بن وأرأب الدواب من المطالبين بالاموال وقيد بحملة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر بانراحه بعد أن مكث فيه أربعين يوماً ، فوجدوه ميتاً وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ومجد ترجمته في الأغانى (ح ٢٠ ص ٤٦) واس خلكان (ح ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم يعجب لمكتئب حزين * خدين صابئة وحليف صبر
يقول اذا سألت به بخير * وكيف يكون مهجور بخير

وكان لمحمد رِذْوَنُ أشهر لم رُمثله فَرَاةٌ وحُسنًا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ووصف له فراهته، فعث اليه المعتصم فأحده منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العراء وقد مضى اسبيله * عا فودعا الأحَمَّ الأشهُ
دَبَّ الوُشَاةُ فاعمدوك ورعا * تُد القى وهو الأحَبُّ الأقرب
لله يوم مات عني طاعيا * وسُليتُ قريك أى علق أسل
نفس ممرقة أقام فريقيها * ومضى لطيفته فريق يُحِب
فالأل اذا كُمت أذاتك كلها * ودعا العيون اليك لو مُعجِب
وأختر من سر الحداثد خيرها * لك خالصا ومن الحلى الأعرب
وعدوت طآن اللام صكانما * فى كل عضو منك صنج يضرب
وكان سرحك اذ علاك عمامة * وكأنا تحت العمامة كوك
ورأى على بك الصديق حلالة * وعدا العدو وصدره يتلهت
أنساك لا زالت اذا مبيتة * بمضى ولا زالت يمينى تنك
أصمرت منك اليأس حين رأيتنى * وقوى حالى من قواك تُقص
ورحمت حين رحعت منك محسره * لله ما فعل الأحَمَّ الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة أقرض من مياسير التجار مالا، فأخذ من عبد الملك ألى محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردتها اذا حاءنى مال، ولم يتم أمره . فاستحى ثم طهر ورمى عه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للسامين وأردت قصاءها من بينهم، والأمر الآن الى عيرى، فعزل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطينى

المال الذى اقترضته من أبى لأوصلن هذه العصيدة الى المأمون، نخاف أن يقرأها المأمون
 فيتدبر ما قاله ، فيوقع به ، فقال له : حد مى بعض المال ونحْم على بعضه ، ففعل ؛
 والعصيدة قوله :

ألم تَرَ أَنِ الشَّيْءَ لِلشَّيْءِ عِلَّةٌ * تكون له كالأر تُقَدَحُ بِالرَّيْدِ
 كذلك جَرَّبَتِ الأمورُ وإِنَّمَا * يَذُكُّ ما قد كان قَبْلُ على البَعْدِ
 وطَى مَراهِمَ أَرَبٍ مَكَاهِ * سَبَعَتْ يَوْمًا مِثْلَ أَيَّامِهِ التَّكْدِ
 رَأَتْ حُسْبِيًا حينَ صَارَ مُحَمَّدٌ * نِيرَ أَمَانٍ في يَدَيْهِ وَلَا عَقْدِ
 فلو كان أَمضى السِّيفِ فيه بَصْرِيَّةٌ * فَصِيرُهُ بِالْفَاعِ مُنْعِفَرِ الْخَلْدِ
 إِذَا لَمْ تَكُنِ لِلنُّفْدِ فِيهِ بَقِيَّةٌ * فَقَدْ كَانَ ما بُلِّغْتُ مِنْ خَبَرِ الْحَدِ
 هُمُ قَتَلُوهُ بَعْدَ أَرَبٍ قَتَلُوا لَهُ * ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْ كُھُولٍ وَمِنْ مُرْدِ
 وَمَا بَصَرُهُ عَنِ يَدِ سَلَفَتْ لَهُ * وَلَا قَتَلُوهُ يَوْمَ ذَلِكَ عَنْ حَقْدِ
 وَلَكِنَّهُ الْغَدْرُ الصُّرَاحُ وَفِيقَةُ الْ * حُلُومِ وَبَعْدَ الرَّأْيِ عَنْ سُنَنِ الْقَصْدِ
 فَذَلِكَ يَوْمٌ كَانَ لِلَّاسِ عِبْرَةٌ * سَبَقَتْ بَقَاءَ الْوَحْيِ فِي الْحَجَرِ الصَّلْدِ
 وَمَا يَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ طَالَ عَمْرُهُ * نَاعَدَ فِي الْمَكْرُوهِ مِنْ يَوْمِهِ عَدَى
 بَدَّكَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَامَهُ * وَأَيَّامُهُ فِي الْهَزْلِ مِثْلَهُ وَفِي الْحَدِّ
 أَمَا وَالَّذِي أَسْبَغَتْ عَدَا حَلِيقَةً * لَهُ شَرٌّ لِمَيِّمَانَ الْخَلِيفَةِ وَالْعَبْدِ
 إِذَا هَزَّ أَعْوَادَ الْمَابِرِ مَا سَنِيَتْهُ * تَفَنَّى بِلَيْلَى أَوْ بِمَيَّةٍ أَوْ هَيْدِ
 فَوَاللَّهِ مَا مِنْ تَوْبَةٍ نَزَعَتْ بِهِ * إِلَيْكَ وَلَا مَيْلَ إِلَيْكَ وَلَا وَدِّ
 وَلَكِنْ إِحْلَاصَ الضَّمِيرِ مَقَرَّتْ * إِلَى اللَّهِ زُلْفَى لَا تَيْبَدُ وَلَا تُكْدَى
 أَنَاكَ بِهَا كَرَّمَا إِلَيْكَ بِأَنَفِهِ * عَلَى رَغْمِهِ وَأَسَاؤِ اللَّهِ بِالْحَمْدِ
 فَلَا تَتَرَكَّنِ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ * فَإِنَّكَ جَزَى بِحَسَبِ الَّذِي تُسَدَّى
 فَقَدْ ظَلَمُوا لِلنَّاسِ فِي نَصَبِ مِثْلِهِ * وَمَنْ لَيْسَ لِلنَّصُورِ بَابٌ وَلَا الْمَهْدَى

فكيف بمن قد بايع الناس وألثقت - بيعته الرُّكبان عَوْرًا الى تَحْدِ
ومن سَكَتَ تسلُّمُ الخلافة سمعَه - يُأْدَى به بين السَّماطين من تُعْدِ
واى امرئ سَمَّى بها قط بعسَه * فعارقها حتى يُغَيَّب في التَّعْدِ
وترعَّم هَدَى اللَّهَيْتَةِ أَنه * إمام لها فما تُسِرَّ وما تُسْدِ
يقولون سُنَى وأَبَةُ سُنَه - تَنِمُ نَصْعَلُ الرَّاسِ حَوْنُ الْقَفَا حَعْدِ
وقد حملوا رُحْصَ الطعام بعهدَه - رعيًا له باليُسِّ والكوك السَّعْدِ
إذا ما رأوا يوما علاءَ رَأْتَهُم * يَحْمَوْنَ نَحْمًا الى ذلك العهدِ
وإقبالُه في العيد يُوحِفُ حَوْلَه * وَحِيفَ الْحِيَادِ وَاصْطَلَاكَ الْقَبَا الْجُرْدِ
ورَحَالُه يمشون بالبيص قَنَلَه - وقد تَبَعُوهُ بالقصيب والْبُرْدِ
فإن قلتَ قد رام الخلافة قَنَلَه * فلم يُؤْتَ فيما كان حاول من جَدِّ
فلم أجْزِه إذ خَيَّ الله سَعِيَه * على خطأ إدا كان مَهْ على عَمْدِ
ولم أَرْضَ بعدُ العمو حتى رَفَعْتَه - وَلَلْعَمِ أُولَى مَا تَفْعَلُ والرَّعْدِ
فليس سَوَاءً حَارِجِي رَجَى به * اليك سَفَاهُ الرَّأْيِ والرَّأْيِ قَدْ يُرْدَى
تَعَادَتْ له من كل أَوْبِ عَصَاة - متى تُورِدُوا لا يُصْدِرُوهُ عَنِ الْوَرْدِ
ومن هو في بَيْتِ الْخِلافة تَلْتَقِ - به ولك الآءَاء في ذِرْوَةِ الْمَحْدِ
فمولاك مَوْلَاهُ وَحُدُوكَ حُنْدَه * وهل يَجْمَعُ الْقَيْنُ الْحَسَاءَيْنِ في عِمْدِ
وقد رَأَيْتُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ أَى * رَأَيْتُ لَهُمْ وَحْدًا به أَيَّمَا وَجْدِ
يقولون لا تَبْعُدْ مِنْ أَبِي مُلْتَمِسِه - صَوِيرَ عَلَى الْأَوَاءِ دَى مِرّه حَلْدِ
فَدَانَا وَهَاتِ بِعُسُه دُونَ مُلْكَا * عليه لدى الحال التَّى قَلَّ مَنْ يَقْدَى
على حِينِ أَعْطَى النَّاسُ صَفَقَ أَكْفَهُم * على سِ موسى بالولايه والعَهْدِ
فما كان فيا من أَى الصِّمِّ عِيْرَه * كَرِيمٌ كَمَى مَا فِي الْقَوْلِ وَفَى الرَّدِّ
وجَرَدَ إِبْرَاهِيمَ لَلْوَتِ فَنَسَه * وأَدَى سِلَاحًا فَوْقَ ذَى مَيْعَةٍ نَهْدِ

وأبلى ومن يُلْع من الأمر جَهْدَه فليس بمدوم وإن كان لم يُخْدِ
فهدى أمور قد يحاف ذوو الهى * مَغْتَبَهَا والله يَهْدِيكَ لِلرَّشْدِ
وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاح وكتبه سليمان بن وهب ، وعلى أشباس
وكانه أحمد بن الخَصِيب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها
لبعض أهل العسكر، وهى :

يا بن الخلائف والأملاك إن تُسُوا * حُرَّتْ الخلافة عى آباءك الأول
أَجُرَتْ أم رقدت عيالك عى عَجَب * فيه البرية من خوف ومن وهل
وَلَيْتَ أُرْسَةَ أَمَرَ العباد معا * وكلُّهم حَاطِطٌ فى جبل مُعْتَبِل
هدا سليمانُ قد ملكت راحته * مشارق الأرض من سهل ومن جبل
ملكته السد فالشَّحْرَيْنِ من عَدَد * الى الجزيرة فالأطراف من مَلَل
حلافةٌ قد حواها وحده قَصَصَتْ * أحكامُه فى دماء القوم والمُثَل
وابن الخَصِيب الذى ملكت راحته * حلافة الشام والعازير والقفل
مِيلٌ مِصرَ فبحر الشام قد بُرِّيَا * بما أراد من الاموال والحُلل
كانهم فى الدى قَسَمَتْ بينهم * بئو الرشيد زمانَ القَسَمِ للدُّول
حوى سليمان ما كان الأُمى حوى * من الخلافة والتبليغ للأمل
وأحمدُ بن خَصِيب فى إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجامع السُّبُل
أصَحَّتْ لا ناصحٌ يَأْتِيكَ مَسْتَتْرَا * ولا علانيةٌ حوفا من الحِيل
سل بيت مالِك أين المال تعرفه * وسل خَراحك عن أموالك الجُمَل
كم فى حُبوسك ممن لا دنوب لهم * أَسْرَى التَّكْذِبَ فى الأقياد والجُكَل
سَمِيَتْ باسم الرشيد المُرتَضَى فيه * تُسعى الأمور التى تُنْجى من الزَّلَل
عِثَ فيهم مثل ما عاثت يدهُ معا * على البرامك بالتهديم للقُلَل
فلما قرأ الواثق هذا الشعر غاظه ، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخَصِيب ،
وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفى ألف دينار فجعلها فى بيت المال .

٦ - أبنُ البَوَّاب^(١)

لما أتى المأمونُ بشعرِ أبنِ البَوَّاب الذي يقول فيه :

أَيَخْلُ قَرْدُ الْحَسَنِ قَرْدُ صِفَاتِهِ * عَلَى وَقْدِ أَفْرَدْتُهُ بِهِوَى قَرْدِ
رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَلَمَّا كَانَ اللَّهُ أَعْلَمَ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عِصْمَةٌ * مِمِّتَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّشْدِ

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أَعْنَيْ جُودًا وَأَيْكًا لِي مُحَمَّدًا * وَلَا تَذَخَّرَا دَمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا
فَلَا فِرْحَ الْمَأْمُونُ بِالْمُلْكِ مَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرْدًا مُطَّرَدَا

وأجده بواحدة، ولم يَصِلْهُ شَيْءٌ . ولما سَحِطَ عَلَيْهِ قَالَ قَصِيدَةً يمدحه بها، ودسَّ مَنْ
عَنَاهُ فِي مَعْصَاهَا لَهَا وَحْدَ مَهْ نَشَاطًا، فَسَأَلَ مَنْ قَائِلُهَا، فَأُخْبِرَ بِهِ، فَرُصِيَ عَنْهُ وَرُدَّ إِلَى رَسْمِهِ
مِنَ الْخِدْمَةِ، وَهِيَ :

هَلْ لِلْحَبِّ مُعِينٌ * إِذْ شَطَّ عَنْهُ الْقَرِينُ
فَلَيْسَ يَبْكِي لَشَجْوَالٍ * حَزِينٍ إِلَّا الْحَزِينُ
يَا طَاعِمًا عَابَ عَا * عَدَاهُ مَارَ الْقَطِيطِ
أَبْكَى الْعَيُونَ وَكَانَتْ * لَهُ تَقَرَّرَ الْعَيُونَ
يَا أَيُّهَا الْمَأْمُونُ أَلَا * حَمَارُكَ الْمَيْمُونُ
لَقَدْ صَفَّتْ بِكَ دُنْيَا * لِلْسَّالِمِينَ وَدِينُ
عَلَيْكَ نَوْرٌ جَلَالٍ * وَنُورٌ مُلْكٌ مُبِينُ

(١) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى، وحنى بحجته وجماعة معه رهبة إلى الخلفاء بن يوسف، هزلوا
عده بواسط، فأقلمهم سكة بها، فاحتلوا ورلوا طول أيام بن أمية، ثم انقطعوا من الدولة العباسية إلى الربيع
لخدمته، وكان عبد الله بن محمد هذا يحلف العصف بن الربيع على حجة الخلفاء، وكان صالح الشعر قليله وراوية لا حبار
الخلفاء طاماً وأمورهم .

القولُ منك قَمال * والظنُّ منك يقين
 ما من يديكَ شِمال * كَلتا يديكَ يمين
 كأنما أنت في الجوّ * د والتقى هارون
 مَنْ نال من كل فضل * ما نالَه المأمون
 تألّف السّاس منه * فصلُّ وجود وِلين
 كالسدر يدو عليه * سكيهٌ وسكون
 والرّزق من راحتيه * مقسّم مضمون
 وكلّ خَصْلة فضل * كانت منه تكون

ومما يفتنى فيه قوله :

أَفِقْ أيها القلب المعدت كم تصو؟ * فلا الّئى عن سَمائك يُسلى ولا القربُ
 أقول عَدَاةَ استخبرتِ مِمَّ علّتي ؟ * من الحب كُربٌ ليس يُشبهه كُرب
 اذا أصرّتك العينُ من بُعد غاية * فادخات شكا فيك أثنتك القلب
 ولو أن رَكنا يَمُوك لَقادهم * نسيْمُك حتى يَسندل بك الركب

أملق ابن الواب حين حَفاه الخليفة وعلّت سِنّه عن الخدمة، فرحل الى أبي دُلَف
 القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعادها الى بغداد، فما
 نعمت حتى مات، وهى قوله :

طرقتك صائِدةُ القلوب رَنا * ونأت فليس لها إليك ما ب
 وتصرمت منها المهود وغلقت * من دون نيل طلابها الأبواب
 فلا صِدْفَن عن الموى وطلابيه * فالحبّ فيه بليّة وعذاب
 وأخض بالمدح المهذب سبدا * ففحاته للجُتْدِين رِغاب
 والى أبي دُلَف رحلت مطيقي * قد شَفها الإرقال والإمّاعاب

تملو بنا قُلُلَ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أهويةً وشِعَاب
 فاذا حَلَّتْ لدى الأمير بأرضه * نَلَتْ المني وتَقَصَّتِ الآرَا
 مَلِكٌ تَأْتِلُ عن أبيه وجده * مَجْدًا يَقْصُرُ دونه الطُّلَابُ
 وإذا وَزَّنت قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعَتْ لفضل قديمه الأحْسابُ
 قومَ حَلَوْا أَمْلَأكَ كُلِّ قبيلة * فالناسُ كُلُّهم له أذْنا
 صَرَبَتْ عليه المَكْرَمَاتُ قِبابها * فعلا العمودُ وطالت الأَطْنا
 عَقِمَ النساءُ بِمِثْلِهِ وتَعَطَّلَتْ * من أن تُضَمَّنَ مِثْلَهُ الأصْلا

٧ - انْخِرَيْمِي^(١)

كان متصلاً بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائح جَيَاد، ثم رثاه بعد موته، فقيل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مرثيتك وأجود؛ فقال : كُنَّا يومئذ نعمل على الرءاء، ونحس اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد .

وهو القائل في عينيه :

أُصِيبَ إِلَى قَائِدِي لِيُخَبِّرَنِي * إِذَا أَلْتَقَيْتَا عَمْرُ بُحَيْنِي
أَرِيدُ أَنْ أُعْدِلَ السَّلَامَ وَأَنْ * أَفْضَلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالْدُّونِ
أَسْمَعُ مَا لَا أَرَى فَأَكْزُهُ أَنْ * أَخْطِئُ وَالسَّمْعُ عِيرَ مَأْمُونِ
لَهُ عَيْنِي الَّتِي يُفْعَتُ بِهَا * لَوْ أَنَّ دَهْرًا بِهَا يُوَانِيَنِي
لَوْ كُنْتُ حَبِيتُ مَا أَحْدَثُ بِهَا * تَعْمِيرَ نُوْحٍ فِي مُلْكِ قَارُونِ
حَقٌّ أَخْلَانِي أَنْ يَسُودُونِي * وَأَنْ يُعْزَاوَنِي وَيَكُونِي

وهو القائل :

إِذَا مَا مَاتَ عَصُكَ فَإِنَّكَ عَصَا * فَإِنَّ الْعَصَ عَنْ عَصٍ قَرِيبُ
يُمْنِي الطَّيِّبُ شِفَاءٌ عَيْنِي * وَهَلْ عِيرَ الْإِلَهِ لَهَا طَيِّبُ

(١) هو إسماعيل بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من العمم، وهو القائل :

لَا أَمْرُؤُ مِنْ سَرَاةِ الصَّعْدِ أَلْسِي * عَرَقَ الْأَعَاظِمَ حُلْدًا طَيِّبَ الْحَرِ

، وكان مولد أبي حريم ألدَى يقال لأبيه - حريم الناعم - وهو حريم بن عمرو بن حمزة بن عوف بن سعد بن دبيان .
وعنى أبو يعقوب الحريمى بعد ما أسس، وكان يقول في ذلك شعرا، فله قوله :

فَإِنْ تَكْ عَيْنِي حَبَا وَرَدَهَا * فَكَمْ قَلْبَهَا وَرَدَعَيْنِ حَا
فَلَمْ يَسْمَعْ قَلْبِي وَلَكِنَّمَا * أَرَى وَرَدَعَيْنِي إِلَيْهِ سَرَى
فَأَسْرَجَ فِيهِ إِلَى وَرْدِهِ * سَرَاجًا مِنَ الْعِلْمِ يَشِي الْعَمَى

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها :

قالوا ولم يَلْمِ الزمانُ بِنِغْ * دَادَ وَتَعَثَّرَ بِهَا عَوَائِرُهَا
إِدْهِى مِثْلُ الْعُرُوسِ بِإِدْهِىَا * مُهَوِّلٌ لِلْفَتَى وَحَاصِرُهَا
جَنَّةُ دُنْيَا وَدَارُ مَغْبَطَةٍ * قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ وَأَثَرُهَا^(١)
ذَرَبَتْ حُلُوفُ الدُّنْيَا لِسَاكِنِهَا * وَقَلَّ مَعْسُورُهَا وَعَاسِرُهَا
وَأَهْرَجَتْ بِالنَّعِيمِ وَأَتَّجَعَتْ * فِيهَا بِلْدَاتُهَا حَوَاصِرُهَا
فَالْقَوْمُ مِنْهَا فِي رَوْصَةٍ أَثِفَ * أَشْرَقَ عِبَّ الْقِطَارِ زَاهِرُهَا
مِنْ عَرَّةِ الْعَيْشِ فِي لُتْهِيَةٍ * لَوْ أَنَّ دُنْيَا يَوْمَ عَامِرِهَا
دَارُ مَلُوكٍ رَسَتْ قَوَاعِدُهَا * فِيهَا وَقَرَّتْ بِهَا سَايِرُهَا
أَهْلُ الْعِلَا وَالْتَرَى وَأَدْنَى الْإِلَ * فَحَرَّ إِذَا عُدَّتْ مَخَايِرُهَا
أَفْرَاحُ نَعْمَى فِي إِرْثِ مَمْلَكَةٍ * شَدَّ عُرَاهَا لَهَا أَكْبَارُهَا
فَلَمْ يَزَلْ وَالرَّيْمَانُ دَوَّيَرٍ * يَقْدَحُ فِي مُلْكِهَا أَصَاغِرُهَا
حَتَّى نَسَاقَتْ كَأَسَا مُثْمَلَةٍ * مِنْ قَمِيصَةٍ لَا يُقَالُ عَائِرُهَا
وَأَفْتَرَقَتْ بَعْدَ أَلْفَةِ شَيْعَا * مَقْطُوعَةً بَيْنَهَا أَوَاصِرُهَا
يَاهِلُ رَأَيْتَ الْأُمْلَاكَ مَا صَنَعَتْ * إِذْ لَمْ يَزْعَمِهَا بَالصَّحِّ زَايِرُهَا
أَوْرَدَ أُمْلَاكُهَا مَوَسَّهْمٌ * هُوَّةٌ عَنِ أَعْيَتِ مَصَادِرِهَا
مَا صَرَّهَا لَوْ وَقَّتْ بِمَوْتِهَا * وَأَسْتَحْكَمْتُ فِي التَّقَى بَصَائِرُهَا
وَلَمْ تُسَافِكْ دِمَاءَ شَيْعَتِهَا * وَتَتَعَلَّ فِتْنَةً تُكَارِهَا
وَأَقْعَبَتْ الدُّنْيَا الَّتِي جُمِعَتْ * لَهَا وَرَعْبُ الْمَوَسِّ صَائِرُهَا
مَازَالَ حَوْضُ الْأُمْلَاكِ [...] * مَسْجُورُهَا بِالْمَوَى وَسَلِجُرُهَا
تُبْقَى فُصُولُ الدُّنْيَا مُكَاتَرَةً * حَتَّى أُيْحَتِ كَرَّهَا دَعَائِرُهَا

تيسع ما جمّع الأثوة له * أبناء لا أُرَبِّتَ متاجرها
يا هل رأيت الجباب راهرة * يروق عين الصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعه * تُصَكِّن مثل الدُّمَى مقاصرها
وهل رأيت القرى التي عَرس الـ * أملاك مُحضرة دساکُرها
عموفة بالكروم والتحل والـ * تزيحان قد دَمِيت محاجرها
فلنّها أصبحت حلایا من الـ * أساس قد دَمِيت محاجرها
فقرا حلاء تعموى الكلاب بها * يُسكر منها الرسوم دائرها
وأصبح السؤس ما يفارقها * إلقا لها والسرو زاهرها
بَرَزْد وُرد والياسرة والـ * شَطِین حيث آتت معابرها
والرحى والخيرزية الـ * علیا التي أشرفت قناطرها
وقصر عبدويه عبدة وهدي * لكل نفس زكت سرائرها
فاين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وحاربها
وأين خصيانها وحشوتها * وأين سكاها وعامرها
أين الحرادية الصقالت والـ * أحبش تعدو هذلا مشافرها
ينصدع الجحد عن مواكبها * تعدو بها سربا ضوامرها
بالسد والهد والصقالب والـ * حوبة شيت بها برابرها
طيرا أبابيل أرسلت عبثا * يقدم سودانها أحامرها
أين الظباء الأنكار في روصة الـ * حلك نهاديها عرائرها
أين عصارانها ولذتها * وأين مجبورها وحاربها
بالمسك والعبر اليماني والـ * يلنجوج مشبوبة مجاميرها
يرفلن في الخنز والمجاسد والـ * حوشى مخطومة مزامرها

فَايُن رَقاصها وزَامرها * يُجِبْن حيث آتَتْ حَاجِرَها
 تَكَادُ أَسْمَاعُهُمْ تُسَلُّ إِذَا * عَارِضَ عِيدَانَهَا مَزَاهِرَها
 أَمَسَتْ بِخَوْفِ الْحَارِ حَالِيَةً * يَسْعَرُها مَالِجِيمُ سَاعِرَها
 كَأَنَّمَا أَصْبَحَتْ بِسَاحَتِهِمْ * عَادُّ وَمَسْتَهْمُ صَرَاصِرَها
 لَا تَعْلَمُ النَّفْسُ مَا يَأْتِيهَا * مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَوْ يَأْكُرَها
 تُضْحِي وَتَمْسِي دَرِيَّةً غَرَصَا * حَيْثُ آسْتَفَزَتْ بِهَا شَرَّاشِرَها
 لَأَسْهَمُ الدَّهْرَ وَهُوَ يَرْشُقُها * مُحْطِطُها مَرَّةً وَبَاقِرَها
 يَأْؤَمَسُ بِنَدَادٍ دَارِ مَمْلَكَةٍ * دَارَتْ عَلَى أَهْلِها دَوَائِرَها
 أَمَلُها اللَّهُ ثُمَّ عَاقَبَهَا * لَمَّا أَحَاطَتْ بِهَا كِبَائِرَها
 بِالْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالْحَرِيقِ وَنَالِ * حَرْبِ الَّتِي أَصْبَحَتْ تُسَاوِرُها
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنَ الْمَعَاصِي بِهَا * كَالْمَاهِرِ السَّوِّءِ
 حَلَّتْ بِفِدَادٍ وَهِيَ آمِنَةٌ * دَاهِيَةٌ لَمْ تَكُنْ تُحَاذِرُها
 طَالَهَا السَّوُّ مِنْ مَطَالَعِهِ * وَأَدْرَكَتْ أَهْلَهَا جَرَائِرُها
 رَقَّ بِهَا الدِّينُ وَاسْتَحْفَ بِذِيهِ * مَعْصِلُ وَعِزِّ النُّسَاكِ فَاجِرُها
 وَخَطَمَ الْعَبْدُ أَنْفَ سَيِّدِهِ * بِالزَّغْمِ وَاسْتَعْبَدَتْ غُخَادِرَها
 وَصَارَ رَبُّ الْجَيْرَانِ فَاسِقُهُمْ * وَأَبْتَرَّ أَمْرَ الدَّرُوبِ دَاعِرَها
 مِنْ يَرِنْدَادٍ وَالْجَنُودُ بِهَا * قَدْ رَبَّقَتْ حَوْلَهَا عَسَاكِرُها
 كُلُّ طَحُونٍ شَبَّاهُ بِاسْلَةٍ * تُسْقِطُ أَجْبَالَهَا زَمَاجِرُها
 تُلْقَى بَنَى الرَّدَى أَوَانِسُها * يُرْهَقُها لَلْقَاءُ طَاهِرُها
 وَالشَّيْخُ يَعْدُو حَزْمًا كَتَائِبُهُ * يُقَدِّمُ أَعْجَازَها يَعَاوِرُها
 وَلِزْهَرٍ بِالْقَوْلِ مَأْسَدَةٍ * مَرْقُومَةٌ صُلَّةٌ مَكَاسِرُها
 كَتَائِبُ الْمَوْتِ تَحْتَ أَلْوِيَةِ * أَبْرَجَ مَنْصُورُها وَنَاصِرُها

يَعْلَمُ أَنَّ الْأَقْدَارَ وَاقِعَةٌ * وَقَعَا عَلَى مَا أَحَبَّ قَادِرُهَا
فَنَلَّكَ بِنْدَادُ مَا يَبِينُ مِنَ الْإِلَهِ * لَدَلَّهُ فِي دُورِهَا عَصَافُهَا
عَمُوفَةٌ بِالرَّدَى مَطْقَةٌ * بِالصَّفْرِ عَمُورَةٌ جَبَابُهَا
وَيَبِينُ شَطَطُ الْفُرَاتِ مِنْهُ إِلَى * دِحْلَةٍ حَيْثُ آتَتْهُ مَعَابُهَا
كَهَادِي السَّمَرَاءِ نَافِرُهُ * تَرْكُضُ مِنْ حَوْلِهَا أَشَاقِرُهَا
يُحْرِقُهَا دَا وَذَاكَ يَهْدِمُهَا * وَيَسْتَمِي نَالُهَا شَاطِرُهَا
وَالْكَرْخُ أَسْوَاقُهَا مَطْلَةٌ * يَسْتَنُّ عِيَارُهَا وَعَاثِرُهَا
أُحْرِجَتِ الْحَرْبُ مِنْ سَوَاقِطِهَا * آسَادُ عَيْلِ عُلبِ تُسَاوِرُهَا
مِنَ الْبَوَارِي تَرَأُّسُهَا وَمِنْ الْإِلَهِ * حُوصُ إِذَا أَسْتَلَمَتْ مَغَافِرُهَا
تَغْدُو إِلَى الْحَرْبِ فِي جَوَاشِنِهَا الْإِلَهِ * صَوُفُ إِذَا مَا عَدَّتْ أَسَاوِرُهَا
كَتَائِبِ الْهَرَشِ تَحْتِ رَايَتِهِ * سَاعِدُ طَرَارِهَا مُقَاسِرُهَا
لَا الرِّزْقُ تَغْنَى وَلَا الْعَطَاءُ وَلَا * يَحْشُرُهَا لِلْقَاءِ حَاشِرُهَا
فِي كُلِّ دَرْبٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ * خَطَارَةٌ يَسْتَلِ خَاطِرُهَا
بِمَنْثَلِ هَامِ الرِّجَالِ مِنْ قَلَقِ الْإِلَهِ * صَحَرُ يَزُودُ الْمُقْلَاعَ بِأَثَرِهَا
كَأَمَّا هَوَى هَامِهَا عَدَفَ * مِنْ الْقَطَا الْكُذْرُ هَاجَ نَافِرُهَا
وَالْقَوْمُ مِنْ تَحْتِهَا لَمْ زَحَلَ * وَهِيَ تَرَامِي بِهَا خَوَاطِرُهَا
بَلْ هَلْ رَأَيْتَ السِّيَوفَ مُضَلَّةً * أَشْهَرَهَا فِي الْأَسْوَاقِ شَاهِرُهَا
وَالْحَيْلَ تَسْتَنُّ فِي أَرْقَتِهَا * بِالْأَرْكَ مَسُونَةُ خَنَابِرُهَا
وَالنُّفْطُ وَالنَّارُ فِي طَرَائِقِهَا * وَهَابِيَا لِلدِّخَانِ عَامِرُهَا
وَالْتَّهَبَ تَعْدُو بِهِ الرِّجَالُ وَقَدْ * أَبَدَتْ خَلَائِلَهَا حَرَارُهَا
مُعْصُوفَاتٍ وَسَطِ الْأَرْقَةِ قَدْ * أَبْرَزَهَا لِلْعِيُونِ سَاتِرُهَا
كُلُّ رُقُودٍ الضَّحَى غُخْبَاءُ * لَمْ تَبْدُ فِي أَهْلِهَا عَاجِرُهَا

بَيْضَة حَذَر مَكُونَة بَرَزَتْ * للناس منشورة غداؤها
 تعرّض في ثوبها وتُعجلها * كَكَبَّة خيل زِيَّت حوافرها
 تسأل أين الطريق والهة * والار من حلفها تبادرها
 لم تجتَل الشمس حسن بهجتها * حتى اجتلبها حرب تُاسرها
 يا همل رأيت النكلى مَوْلَوَة * في الطُرق تسمى والجهد باهرها
 في لَأثر بعش عليه واحدها * في صدره طعنة يُساورها
 فرعاء تُلقي النَّار من يدها ^(١) * يَهْرها بالنَّاس شاجرها
 تنظر في وجهه وتهنّف نال * تنكل وعزّ الدموع حامرها
 عرعر بالنفس ثم أسلمها * مطلولة لا يُخاف نائرها
 وقد رأيت الفتيان في عَرَصَة ال * محمرك معفورة مَاسرها
 كل متى مَتاع حقيقته * تشقى به في الوعي مساعرها
 بانت عليه الكلاب تنهشه * مخضوبة من ديم أطافرها
 أما رأيت الخيول جائلة * بالقوم منكوبة دوائرها
 تعرّض بالأوجه الحسان من ال * قَتلى وعلت دما أشاعرها
 يَطْأَن أَكْبَاد فتية يُجْبِد * يَفْلِق هاماتهم حوافرها
 أما رأيت النساء تحت المجا * نيق تعادى شُعثاً ضفائرها
 عقائل القوم والعماثر وال * عُنس لم تُختبر معاصرها
 يحلن قوتا من الطامعين على ال * أكتاف معصوبة معاجرها
 وذات عيش صَنك ومُقِيسَة * تَسْدُخها صخرة تُعاورها
 تسأل عن أهلها وقد سُليت * وأبتر عن رأسها غفائرها
 يا ليت ما والدهر ذو دُوب * تُرْجى وأخرى تُخشى بوادرها

(١) كذا في هامش النسخة الأوربية من الطرى . وفي نسخة بولاق وأوربا (في صلبها) :

* فرعاء بين الشارمريدها * وهي رواية طاهر عليها التحريف ومصاد المص .

هل ترجعن أرضاً كما غيّت * وقد تهاوت بنا مصايرها
 من مبلغ ذا الراسيتين رسا * لايت تأتني للصبح شاعرها
 بأب خير الولاة قد علم الد * سأس اذا عُددت ماثرها
 حليفة الله من بريته ال * مامون سأنسها وجايرها
 سمت إليه آمال أمته * مفادة برّها وفاجرها
 شاموا حيا المدل من تخايله * وأخفرت نالتني بصايرها
 وأحمدوا ملك سيرة جلّت ال * شك وأخرى صحّت معاذرها
 واستحمت طاعه برفقك لد * مامون تحديها وعارها
 وأنت سمع في العالمين له * ومقلّة ما يكّل ناطرها
 فاشكر لذي العرش فضل نعمته * أوجب فصل المزيّد شاكرها
 وأحذر فداء لك الرعية وال * أجاد مأمورها وأمرها
 لا تردن عمره بمسك لا * يصدر عنها بالأي صادرها
 عليك محضاحها فلا تلج ال * غمر ملّحة زواجرها
 والقصد إن الطريق دوشعب * أشامها وعثها وجايرها
 أصبحت في أمة أوائلها * قد فارقت هديها وأواجرها
 وأنت سرسورها وسأنسها * فهل على الحق أنت قاسرها
 أدب رجلا رأيت سيرتهم * حالف حكم الكتاب سائرها
 وأمدد الى اللاس كف مرحمة * نسد منهم بها مفاقرها
 أمكك العدل إذ هممت به * وواقفت مده مقادرها
 وأبصر السأس قصد وجههم * وملكت أمة أخايرها
 تُشرع أعناقنا إليك اذا ال * بادات يوما جمّت عشايرها
 كم عدنا من نصيحة لك في الد * له وقربى عزت زوافرها

وَحَرَمِيهِ قُرْبَتِ أَوَاصِرُهَا * مَكَ وَأُخْرَى هَلْ أَنْتَ ذَاكَرُهَا
 سَمِعُ رِجَالٍ فِي الْعِلْمِ مَطْلُهُمْ * رَاثُحُهَا بَاكِرٌ وَبَاكَرُهَا
 دُونَكَ غِرَاءَ كَالْوَذِيلَةِ لَا * تَفْقَدُ فِي مِلْدَةِ سَوَائِرِهَا
 لَا طَمَعًا قَلْبُهَا وَلَا نَظَرًا * لِكُلِّ نَفْسٍ نَفْسٌ تُؤَامِرُهَا
 سَيَرَهَا اللَّهُ بِالصَّبِيحَةِ وَالْ * حَشِيَّةٍ فَاسْتَدَجَتْ مَرَاثِرِهَا
 حَاءُكَ تَحْكِي لَكَ الْأُمُورَ كَمَا * يَبْشُرُ زَرْ التَّحَارِ مَا شَرُهَا
 حَمَلْتُهَا صَاحِبًا أَوْ نَفَقَةً * يَطْلُ عَجْبًا بِهَا يُحَاصِرُهَا

ومن جيد شعره قوله :

النَّاسُ أَحْلَاقُهُمْ شَتَّى وَإِنْ جُلُوا * عَلِ نَسَابُهُ أُرُوجٌ وَأَحْسَادُ
 لَخِيرٍ وَالشَّرُّ أَهْلٌ وَكُلُّوْا بِهِمَا * كُلُّ لَهُ مِنْ دَوَاعِي نَفْسِهِ هَادُ
 مِنْهُمْ خَلِيلٌ صَفَاءُ ذُو مَخَافَةٍ * أَرَسَى الْوَفَاءُ أَوْ أَخِيهِ أَوْ تَادُ
 وَمُشْعَرُ الْغِيْرِ نَحْنُ أَضْلَعُهُ * عَلِ سَرِيرِهِ عَمَرُ غِلْهَا نَادُ
 مُشَاكِسٌ حَدِيعَ جَمِّ غَوَائِلُهُ * يُدِي الصَّفَاءُ وَيَحْيِي صَرَبَةَ أَلْهَادِي
 يَأْتِيكَ بِالْنَفَى وَ أَهْلُ الصَّفَاءِ وَلَا * يَنْفَكُ يَسْمَى بِإِصْلَاحٍ لِإِنْسَادِ

ومن جيد شعر الخريبي قوله :

أَضْحَاكَ صَيْفِي قَلَّ لِمَ زَالَ رَحْلُهُ * وَيُحْصَبُ عَدِي وَالْمَحَلُّ حَدِيدُ
 وَمَا لِحَصْبٍ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى * وَلَكِنَّمَا وَحَهُ الْكَرِيمُ خَصِيبُ

ومن جيد شعره قوله :

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظَمًا * أَنَّهُ عَدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرُ
 وَتَنَاسِيهِ كَأَنْ لَمْ تَأْتِهِ * وَهُوَ عَدُ الْبَاسِ مَشْهُورُ كَبِيرُ

وهو القائل :

وَإِنْ أَشَدَّ الْبَاسِ فِي الْحَشْرِ حَبْرَةٌ * لَمْ يُورِثْ مَالِي غَيْرَهُ وَهُوَ كَالِيسَبِهِ
 كَفَى سَمْعَهَا بِالْكَهْلِ أَنْ يَتَّبَعَ الْعَصْبَا * وَأَنْ يَأْتِيَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ عَائِبُهُ

وَيُسْتَجَادُ لَهُ قَوْلُهُ :

ودون السدى في كل قلب ثَنِيَّة * لها مَصْعَدٌ وعمر ومُنْحَدَرٌ سَهْلٌ
وَوَدَّ القى في كل نيل يُلِيْلُهُ * اذا ما انْقَصَى لو أن مائِلُهُ جَزَلٌ
وأعلم علمًا ليس بالظن أنه * لكل أمان من ضرائبهم شَكْلٌ
وَأَنْ أَخْلَاءَ الزمان غَاوَهُم * قليل اذا الإنسان زَلَّتْ به النعل
تَرَوُّدٌ من الدنيا متاعًا لغيرها * فقد شَمَرَتْ حِذَاءَ وأنصرم الجبل
وهل أنت إلا هَامَةٌ اليوم أو عِد * لكل أمان من طوارقها أَلْتَكَلُّ

وفي هذا الشعر يقول :

أما لصُغْدُ أَسٍّ اذ تعيرني بِجُمْلٍ * سَفَاهًا ومن أحلاق حَارِقِيَّ الْجَهْلِ
إِنْ تَصْحَرَى يا جمل أو تَجَمَلِ * فلا نَحْرَ إِلَّا فوقه الدين والعقل
أرى الناس شَرْعًا في الحياة ولا يُرى * لقبر على قبر علاء ولا فَضْلُ
وما صَرَّتْني أب لم تَلِدْنِي بِحَارٍ * ولم تَشْتَمِلْ حَرَمٌ عَلَيَّ ولا عُنْكَلُ

وهو القائل :

ما أَحْسَنَ الْغَيْرَةِ في حِينِهَا * وَأَقْصَحَ الْغَيْرَةِ في كل حِينِ
من لم يزل مَتْنِمًا عِرْسَهُ * مُنَاصِبًا فِيهَا لِرَبِّ الطَّمُونِ
أَوْشَكَ أَنْ يُعْرِيبَهَا الَّذِي * يَحَافُ أَنْ يُبْرِزَهَا لِلْعِيُونِ
حَسْبُكَ من تَحْصِينِهَا وَضَعُهَا * مَكَدًا إِلَى عِرْصِ صَحِيحِ وَدِينِ
لا تَطْلُعْ مَكَدًا عَلَى رِيْبِهِ * فَيَتَمَعُ الْمُقْرُونُ حَبْلَ الْقَرِينِ

٨ - عبد الله بن طاهر^(١)

كان يحل من علو المنزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنى به عن التقريظ له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يُدفع، وفي السماحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحد.

وكان أديبا طريقا جيد العناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتا كثرة أحسن فيها وتقلها أهل الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُليّننا الحَدَقُ النُّحْ * لُ على أتنا تُلين الحديد
طَوْعُ أيدى الظّماء تقتادنا العِي * من ونقتاد الطّاعان الأسود
تَمَلِك الصّيد ثم تملكنا إلي * ضُ المصوناتُ أعْيَا وخدودا
تَنقُ سحطا الأسود ونخشي * سَحَط الخِشْف حين يُدَى الصدودا
فترانا يوم البكرية أجرا * را وفي السّلم للغواني عبيدا

أعطاه المأمون مَال مصر لِسَةِ، نَراَحَها وصِياعَها، فوهبه كلّ وفرقه في لباس ورجع صِفرا من ذلك، ففاظ المأمون فعُله، فدحل إليه يوم مَقْدَمه، فأنشده أسياتا قالها في هذا المعنى، وهي :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق كان سيدا نبيلًا عالي الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، حس الاتعانت إليه لداته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان واليا على الديور فلما حرح مالك الحزمي على خراسان وأوقع الخوارج أهل ثرية الجراء من أعمال نيسابور وأكثرها فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون هت إلى عبد الله وهو بالديور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا، فقام إليه رجل رازم حافوته وأنشده .

قد لحظت الساس في زمامهم * حتى إذا حثت حثت بالدر

عيتان في ساعة لنا قدما * فرحا بالأمير والمطر

تولى الشام والعراق ومصر . وتوفي سنة ٢٣٠ هـ . ومجده ترجمته في ابن حلكان (ح ١ ص ٣٦٩) والأغاني

(ج ١١ ص ١١) .

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْنَاقُ حَاضِعَةٌ * لِلنَّائِبَاتِ أَيْبًا غَيْرَ مُهْتَضَمٍ
إِلَيْكَ أَقْلُتُ مِنْ أَرْضٍ أَقْمَتَ بِهَا * حَوْلَيْنِ بَعْدَكَ فِي شَوْقِي وَفِي أَلَمٍ
أَقْفُو سَاعِيكَ الْإِلَاقَى خُصِصَتْ بِهَا * حَدَوَّ الشَّرَاكِ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْإِدَمِ
فَكَانَ فَضْلِي فِيهَا أَتَى تَسَعٌ * لِمَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالْعَمِ
وَلَوْ وَكَلْتُ إِلَى سَمَى حَيْنَتِ بِهَا * لَكِنْ بَدَأْتُ فَلَمْ أَعْمَزْ وَلَمْ أَلَمْ

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عَلَيْكَ مَكْرُمَةً لَهَا ، وَلَا أَخْذُوتهُ حَسَنَ عَدَدِكَ
دَكَرَهَا ، وَلَكِنْ هَذَا شَيْءٌ إِذَا عَوَّدْتَهُ نَفْسَكَ انْفَقَرَتْ ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى لَمْ شَعْنِكَ وَإِصْلَاحِ
حَالِكَ . وَزَالَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ .

لَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مَصْرَ سَوْغِهِ الْمَأْمُونُ نَرَا جُهَا ، فَصَعِدَ الْمِيزَ فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَجَازَ بِهَا
كُلَّهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ أَلْفٍ دِيَارًا أَوْ مَحْوًا ، فَأَنَاهُ مُعَلَّى الطَّائِي وَقَدْ أَعْلَمُوهُ مَا صَنَعَ بِالنَّاسِ
فِي الْجَوَائِزِ وَكَانَ عَلَيْهِ وَاحِدًا ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ الْمَبْرِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَمَا مُعَلَّى
الطَّائِي وَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَا كَانَ مَعَكَ مَرَجَ جَمَاءٍ وَعَلَطَ ، فَلَا يَغْلُظُنَّ عَلَى قَلْبِكَ ، وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ
الَّذِي يَلْعَكَ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَمَوًّا عَدَّ مَقْدِرَةٍ * وَأَعْظَمَ النَّاسِ عَدَّ الْجُودِ لَالِ
لَوْ أَصْبَحَ الدَّيْلُ يَحْمِي مَأْوَهُ دَهْبًا * لَمَّا أَشْرَتَ إِلَى خَرِيبٍ بِمِثْقَالِ
تُقَالِي بِمَا فِيهِ رِقَى الْحَمْدِ تَمْلِكُهُ * وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعَاضَ الْحَمْدَ بِالْغَالِي
تَفَكَّ بِالْيُسْرَكْفِ السُّرْمِ زَمْنِي * إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ بِإِقْلَالِ
لَمْ تَحُلْ كَفْكَ مِنْ حُودٍ مُخْتَبِطٍ * وَمُرْهَفٍ قَاتِلٍ فِي رَأْسِ قَتَالِ
وَمَا بَنَيْتُ رَعِيْلَ الْخَلِيلِ ۝ بَلَدِي * إِلَّا عَصَفْنَ مَارْزَاقٍ وَأَجَالِ
إِنْ كُنْتُ مِنْكَ عَلَى مَا مَنَنْتَ بِهِ * فَإِنَّ شُكْرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ
مَا زِلْتُ مُقْتَصِبًا لَوْلَا مَجَاهِرَةٌ * مِنْ أَلْسِنِ خُضْنٍ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالِ

فضحك عد الله وسر بما كان منه وقال : يا أما السَّمرَاء ، أفرِضْنِي عشرة آلاف دينارها
أَمْسَيْتُ أَمْلِكُهَا ، فأقرَّصه فدفعها إليه .

كان موسى بن حاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر ، وكان نديمه وجليسه ، وكان له مؤثرا
مقدِّما ، فأصاب منه معروفا كثيرا وأحازه بجوائز سنية هناك وقبل ذلك ، ثم إنه وجد عليه
في بعض الأمر بجماعه وظهوره منه بعض ما لم يحبّه ، فرجع حينئذ الى بغداد وقال :
إِنْ كَانَ عَدُّ اللَّهِ خَلَانَا * لَا مُبْدَأَ عُرْفَا وَإِحْسَانَا
لِحَسْبُنَا اللَّهُ رَضِينَا بِهِ * ثُمَّ بَعَدَ اللَّهُ مَوْلَانَا

يعنى به المأمون ، وغنت فيه حاريتة وسمعه المأمون ، فاستحسسه ووصله وإياها ، فبلغ
ذلك عد الله بن طاهر ، فعاضله ذلك وقال : أَحْلُ ! صنعا المعروف الى غير أهله فضاع .
• ولعبد الله ألحان صاعها ، فمنها ومن محتارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر أخت
عاصية فإنه صوت نادر جيد صحيح العمل مُزْدَوِّج العم ، بينَ لَيْنٍ وَشِدَّةٍ على رسم الحدائق
من القُدَّماء ، وهو :

هَلَا سَقِيمٌ بَنَى سَهْمٌ أَسِيرُكُمْ * نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي
الطاعسُ الطعمةُ الجلاءُ يتبعها * مُصَرَّجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِإِزْبَادٍ

ومن غنائه أيضا :

رَاحَ صَحْبِي وَعَاوَدَ الْقَلْبَ دَاءُ * مِنْ حَبِيبِ طَلَابُهُ لِي عَاءُ
حَسَنُ الرَّأْيِ وَالْمَوَاعِيدِ لَا يُلْغِي لَشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ
مَنْ تَعَزَّى عَمَّنْ يَحِبُّ فَإِنِّي * لَيْسَ لِي مَا حَيْثُ عَنْهُ عَزَاءُ

ما قيل في هجاء الأمين ورثائه

قيل في هجائه :

لم نُنْجِكَ لماذا للظَرْبِ * يا أبا موسى وترويح اللَّعْنِ
 وَلِتَرْكِ الْخُمْسِ وَ أَوْقَاتِهَا * حَرَصًا مِنْهَا عَلَى مَاءِ الْعَنْبِ
 وَشَيْفِ أَمَا لَا أَمْكِي لَهُ * وَعَلَى كَوْزٍ لَا أَخْشَى الْعَطَبِ
 لم تكن تعرف ما حدّ الرضا * لا ولا تعرف ما حدّ الغصب
 لم تكن تَصْلُحْ لِلْكَ وَلَمْ * تُعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمَلِكِ الْعَرَبِ
 أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَيْهِ لَا بَكَتْ * عَيْنٌ مِنْ أَنْكَاءِ إِلَّا لِلْعَجَبِ
 لم نُنْجِكَ لِمَا عَرَصْنَا * لِلْأَحْنِيقِ وَطُورًا لِلْسَّلَبِ
 وَلِقُومِ صَيَرُوا أَعْدَاءَ * لَمْ يَدُوْا عَلَى الرَّأْسِ الذَّنْبِ
 فِي عَدَابٍ وَحِصَارٍ مُجْهِدٍ * سَتَدِرُ الطُّرُقَ فَلَا وَحَةَ طَلَبِ
 زَعَمُوا أُنْكَ حَى حَاشِرٍ * كَلَّ مِنْ قَدْ قَالَ هَذَا قَدْ كَذَبِ
 لَيْتَ مِنْ قَدْ قَالَهُ فِي وَحْدَةٍ * مِنْ حَمِيعِ دَاهِيٍّ حَيْثُ ذَهَبِ
 أَوْحَى اللَّهُ عَايَا قَتَلَهُ * فَاذَا مَا أَوْجَبَ الْأَمْرَ وَجَبِ
 كَانَ وَاللَّهِ عَلَيْنَا فِتْنَةً * غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكُتِبِ

وقال عبد الرحمن بن أبي الهُداهد يرثيه :

يَا غَرُبُ جُودِي قَدُبْتُ مِنْ وَدَمِهِ * فَقَدْ فَقَدْنَا الْغَزِيرَ مِنْ دِمَمِهِ
 أَلَوْتُ بِدُنْيَاكَ كُفُّ نَائِبَةٍ * وَصِرْتَ مُنْقَصَى لَهَا عَلَى بَقَمِهِ
 أَصْبَحَ لِلْوُتْ عِنْدَنَا قَعْلَمٌ * يَصْحَكُ سِنَّ الْمُنُونِ مِنْ عِلْمِهِ
 مَا أَسْتَنْزَلَتْ دَرَّةُ الْمُنُونِ عَلَى * أَكْرَمِ مَنْ حَلَّ فِي ثَرَى رِجَمِهِ
 خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي بَرِّيَّتِهِ * تَقْصُرُ أَيْدَى الْمُلُوكِ عَنْ شِمَمِهِ

يَفْتَرَّ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَر * يَنْشَقُّ عَنْ نَوْرِهِ دُجَى ظُلْمِهِ
 زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَوَابِهَا * اذْ أُلْعَ السِّيفُ مِنْ نَجِيعِ دَمِهِ
 مَنْ سَكَتَتْ نَفْسُهُ لِمَصْرَعَةٍ * مِنْ عُمَمِ النَّاسِ أَوْ ذَوَى رَجَمِهِ
 رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَاهُ بِهِ * حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمِهِ
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَزِيزًا مَمْلُوكَةً * يُقَالُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ
 يَا مَلِكًا لَيْسَ بَعْدَهُ مَلِكٌ * نَحْنُ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهِ
 حَادَّ وَحَى الَّذِي أَقْسَمَ بِهِ * سَمِعَ غَزِيرَ الْوَكَيْفِ مِنْ دِيَمِهِ
 لَوْ أَجِمْحُ الْمَوْتُ عَنْ أُنْحَى ثَقِيَةٍ * أَسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَدَمِهِ
 أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامُ سَطَوْتُهُ * إِلَّا مَرَامَ الشَّنِيمِ فِي أَجْمِهِ
 حَلَدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدَفٌ * أَوْ قَامَ طِفْلُ الْعَشَى فِي قَدَمِهِ
 أَصْبَحَ مُلْكُكَ إِذَا أَتَزَرَّتْ بِهِ * يَقْرَعُ سَنَ الشَّقَاةِ مِنْ نَدَمِهِ
 أَتَرُدُّو الْعَرِيشَ فِي عِدَاكَ كَمَا * أَتَرَى فِي عَادِهِ وَفِي إِمَارِمِهِ
 لَا يُبْعِدُ اللَّهُ صَيُورَةَ تَلَيْتُ * لَخَيْرٌ دَاعٍ دَعَاهُ فِي حَرَمِهِ
 مَا كُنْتُ إِلَّا لِحُكْمِ ذِي حُلْمٍ * أَوْ لِحَ بَابِ السَّرُورِ فِي حُلْمِهِ
 حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتُهُ رَقْدَتُهُ * عَادَ إِلَى مَا أَعْتَرَاهُ مِنْ عَدَمِهِ

وقال أيضا يرثيه :

أَقُولُ وَقَدْ دَنُوتُ مِنَ الْفِرَارِ * سَقَيْتُ الْغَيْثَ يَا قَصْرَ الْقَرَارِ
 رَمَتْكَ يَدُ الزَّمَانِ بِسَهْمِ عَيْنٍ * فَصِرْتَ مُلُوحًا بِدُخَانِ نَارِ
 أَيْنَ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حَلَاوَا * وَأَيْنَ مِزَارِهِمْ بَعْدَ الْمَزَارِ
 وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ وَأَيْنَ بَنَاهُ مَالِي * أَرَى أَطْلَالَهِمْ سُودَ الدِّيَارِ
 كَأَن لَمْ يُؤْتَسُوا بِأَنْبِيَسِ مُلْكٍ * يَطْوِلُ عَلَى الْمُلُوكِ بِخَيْرِ جَارِ
 إِمَامٌ كَانَ فِي الْحَدَثَانِ عَوْنًا * لَنَا وَالْغَيْثُ يَمْسَحُ بِالْقَطَارِ

لقد ترك الزمانُ بى أبيه * وقد عمرتهم سُود البحار
أضاعوا شمسهم بقرت بحيس * فصاروا فى الظلام بلا نهار
وأحلوا عنهم قرا ميرا * وداسَتْهمُ خيولُ بنى الشرار
ولو كانوا لهم كهفًا ومثلا * اذا ما تُوجوا تيجانَ عار
ألا بآب الأمامِ ووآرائه * لقد صَرم الحشى منابنار
وقالوا الخلدُ بيع فقلتُ دُلًّا * يصدر بيائيه الى صَفَار
كذلك الملك يُتبع أوليه * إذا قُطِع القرار من القرار

وقال مُقدِّس بن صَبِيء يَرثيه :

خليل ما أنتك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعته النجيب
تدلّت من شماريخ المايا * منايا ما تقوم لها القلوبُ
خلالَ مقابر البستانِ قد * يُحاوِ قهره أئندُ غريب
لقد عَظمت مُصيبته على من * له فى كل مَكْرمة نصيب
على أمثاله العبراتُ تُدرى * وتَهْتِك فى مآئمه الجيوبُ
وما أذخرتُ زُبيدة عه دمعاً * تُحَصّ به النسيبةُ والنسيبُ
دعوا موسى أبنه لُكاءَ دَهرٍ * على موسى أبنه دخلَ الحزيبُ
رايتُ مَشاهدَ الخلفاءِ مه * خلاءً ما بساحتها يُجيبُ
لَينِكَ أنى كهلٌ عليه * أذوبُ وى الحشى كَيدَ تدوبُ
أُصِيبَ به البعيدَ نَحَرَ حَزنا * وعابنَ يومه فيه المرُيبُ
أُأدى من بطون الأرضِ شخصاً * يحركه النداءُ ما يُجيبُ
لئن نَعَتِ الحروبُ اليه نفساً * لقد جُفَعَتْ بمصرعه الحروبُ

وقال خزيمة بن الحزن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخيرِ أُمَامٍ قام من خيرِ عَصْرٍ * وأفضلِ سَامٍ فوق أَعوادِ مِنبرِ
لِوَارِثِ عِلْمِ الأولينِ ومهمهم * ولِلَّذِلكِ المأمونِ من أمِ جَعْفَرِ
كَتَبْتُ وَعَبِي مُسْنَهْلٌ دَموعُها * إِلَيْكَ أبْنِ عَمِي من جَفُونِي ومَحْجَرِي
وَقَدْ مَسَّنِي ضَرٌّْ وَذلُّ كَايَةٍ * وَأَرَقَّ عَيْنِي يَا ابنَ عَمِي تَفَكَّرِي
وَهَمْتُ لِمَا لَاقَيْتُ بعدَ مَصَابِهِ * فَأَمْرِي عَظِيمٌ مُنْكَرٌ جَدُّ مُنْكَرِ
سَأَشْكُو الَّذِي لَاقَيْتُهُ بعدَ فَقْدِهِ * إِلَيْكَ شَكَاةُ المِسْتَهَامِ المُقَهَّرِ
وَأرجو لِمَا قَد مَرَّ بِي مَذَقْدُهُ * فَأَنْتَ لَبَنِي خَيْرَ رَتِّ مُغَيَّرِ
أَتَى طَاهِرٍ لَطَهَرَ اللهُ طَاهِرَا * فَمَا طَاهِرٌ فِيمَا أَنَّى بِمُطَهَّرِ
فَأَخْرَجَنِي مَكشُوفَةَ الوَحْهِ حَاسِرَا * وَأَنْتَ أَمْوَالِي وَأَحْرَقَ أَدْرِي
يَعِزُّ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَقِيتُهُ * وَمَا مَرَّ بِي من مَقْصِ الخَلْقِ أَعُورِ
فَإِنْ كَانَ مَا أَسْدَى أَمْرَهُ * صَبَرْتُ لِأَمْرٍ من قَدِيرٍ مُقَدَّرِ
تَذَكَّرَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ قِرَاقِي * فَدَيْتُكَ مِنْ ذِي حَرَمَةٍ مُتَدَكَّرِ

وقال أيضا يرثيه :

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ الصَّمَدِ * مَاذَا أَصْبَا بِهِ فِي صُبْحَةِ الأَحَدِ
وَمَا أَصِيبَ بِهِ الإِسْلَامُ قَاطِئَةً * مِنَ التَّصْمُصِ فِي رُكْنَيْهِ والأَوْدِ
مَنْ لَمْ يُصَبِّ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَلَمْ * يُصْبِحْ بِمَهْلَكَةِ وَالِهِمْ فِي صُعدِ
فَقَدْ أَصِيبَتْ بِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ فِي * عَقْلِي وَدِينِي وَدُنْيَايَ وَفِي جَسَدِي
يَا لَيْلَةَ لَيْسَتْكَ الإِسْلَامُ مُدَّتْهَا * وَالْعَالَمُونَ جَمِيعَا آخِرِ الأَبَدِ
غَدَرْتُ بِأَمْلِكِ المِيعُونِ طَائِرُهُ * وَبِالإِمَامِ وَبِالضَّرْغَامَةِ الأَسَدِ
سَارَتْ إِلَيْهِ المَنَايَا وَهِيَ تُرْهِبُهُ * فَوَاحِشُهُ بِأَوْغَادِ ذَوِي عَدَدِ
بُسُورَ حِينَ وَاغْتَامَ يَقُودُهُمْ * قُرَيْشٌ بِالبَيْضِ فِي قُرَيْشٍ مِنَ الزُّرْدِ

فصادفوه وحيِّداً لا مُعينَ له : عليهم غائب الأنصار بالمدد
 بفزعوه المنايا غير مُمتنع * فردا يالك من مُستسلم فرد
 يلقي الوجوه بوجه غير مُبتدل * أبهى وأبقى من القُوْية الجُد
 واحسرتا وقريش قد أحاط به * والسيف مُرتعد في كف مُرتعد
 ما تحرك بل ما زال متصباً * منكس الرأس لم يدي ولم يعد
 حتى اذا السيف وافى وسط مفرقه * أذرتَه عنه يداه فقل مُتبد
 وقام فاعتلقت كفاه لبتة * كصبيغ شرس مستبسل ليد
 فاجتزته ثم أهوى فاستقل به * للأرض من كف ليت مُخرج حرد
 فكاد يقتله لو لم يُكاثره * وقام مقلتا مه ولم يكد
 هذا حديث أمير المؤمنين وما * نقصتُ من أمره حفا ولم أزد
 لا زلت أُنذبه حتى المات وإن * أخنى عليه الذي أخنى على بُد

وذكر عمر بن شبة أن محمداً بن أحمد الهاشمي حَدَّثَهُ أَنَّ لُبَّابَةَ ابْنَةَ عَلِيٍّ بْنِ الْمُهَدِيِّ قَالَتْ

الْبَيْتَيْنِ الْآتَيْنِ وَقَبِلَ أَهْمَا لَابَةَ عَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ وَكَانَتْ مُمْلَكَةً بِمَحْمَدٍ :

أبْجِكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالْأُنْسِ بَلْ لِلْعَالِيِ وَالرَّحِ وَالْأُنْسِ
 أَنْكِ عَلَى هَالِكٍ بَجُعْتُ بِهِ أَرْمَلَنِي قُلُ لَيْلَةِ الْعُرْسِ

هجاء يحيى بن أكرم^(١)

وعندناك في المجلد الأول أن نذكر مثلا من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى أكرم، وها هو ذا :

أَرْقَهُ تَرْجُ الْمَوَى وَسِدْمُهُ * وَمَلَهُ الْحُتُ فَمَاتَ يَأْلَمُهُ
طَوْرًا يُعَانِيهِ وَطَوْرًا يَنْتُمُهُ * مِثْلَ الْحَرِيقِ فِي الْحَشَا يُصْرَمُهُ
فَفَاصِيتِ الْعَيْنِ بَدَمْعُ تَسْجُمُهُ * نَمَتْ عَلَيْهِ كُلُّ شَوْقٍ يَكْتُمُهُ
وَبَاحَ بِالْحُبِّ الَّذِي يُجْجِمُهُ * وَبَاتَ وَالْقَلْبُ يُسَايِ هِمَمُهُ
مَنْ لِحَبِّ قَدْ تَرَاهُ يَرْجُمُهُ : أَصْبَحَ بِالنَّاسِ عَارِ أَعْمُهُ
طَالَ تَصَايِيهِ وَطَالَ سَقَمُهُ * وَبَلَى الْجِسْمَ وَرَقَّتْ أَعْظَمُهُ
يَشْهَدُنِي اللَّهُ عَلَى مَنْ يَظْلِمُهُ * بِمَنْعِهِ طَعْمَ الْكُرَى وَيَحْرِمُهُ
وَأَهَا لَهُ يَصْرِمُ مَنْ لَا يَصْرِمُهُ * أَصْبَحَ هَذَا الدِّينَ رَثَا رِثْمُهُ
عَظْلُهُ الْجَوْرَ وَطَالَ قِدْمُهُ * تَحْتَ مِنْ الْجَوْرِ عَلَيْهِ دِيمُهُ
قَادَ مَعْنَى رَنْعِهِ وَأَرْسَمُهُ * إِلَّا بَقَا يَا قَوْمِهِ وَجَمُّهُ
أَوْطَنَهُ الْجَوْرَ فَاحْشَى مَعْلَمُهُ * يَرُودُ بِهِ شَاؤُهُ وَنَعْمُهُ
مَنْ يَشْهَدُ الْجَوْرَ فَتَحْنُ نَعْلَمُهُ * أَنْوَكُ قَاصٍ فِي السَّلَادِ نَعْلَمُهُ
يَقُولُ حَقًّا لَا تُعَيِّثُ تَرْجُمُهُ * مَدَّ وَلِيَ الْحَكَمِ أُبَيْعَ حَرَمُهُ
وَأُتْهِمْتُ مِنَ الْقَضَاءِ حُرْمُهُ * وَأَضْطَرَبْتَ أَرْكَانُهُ وَدِعْمُهُ
وَاللَّهُ يَنْبِيهِ وَنَحْنُ نَهْدِمُهُ * يَا لَيْتَ يَحْيَى لَمْ يَلِدْهُ أَكْثَمُهُ
وَلَمْ تَطَأْ أَرْضَ الْعِرَاقِ قَدْمُهُ * مَلْعُونَةٌ أَخْلَاقُهُ وَشَيْبُهُ^(٢)

(١) أنظر ما كتبه عن يحيى بن أكرم في المجلد الأول (ص ٤٤٠) . (٢) حذفا بعد هذا البيت

أربعة أبيات رأينا أنها تنافي الآداب العامة .

واللهِ واللهِ لقد حَلَّ دَمُهُ * لو أن للدينِ عمادا يدَعُمُهُ
 يَعدِلُ عنه الميلَ أو يَقوِّمُهُ * لكان قد رنَّ عليه ماتمُّه
 أرجو ويقصِي اللهُ لا يُسَلِّمُهُ * من وجهه هذا ولكن يَقصِمُهُ
 * بالسيفِ إذ حلت عليه نَقَمُهُ *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتحريب وفننة شعواء وقتل ودماء،
فانا ترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تَقَطَّعَتِ الْأَرْحَامُ بَيْنَ الْعَشَائِرِ * وَأَسْلَمَهُمْ أَهْلُ التَّقَى وَالْبَصَائِرِ
فَإِنَّكَ أَنْتَقَامُ اللَّهِ مِنْ حَلْقِهِ بِهِمْ * لَمَّا أَحْتَرَمَوْهُ مِنْ رُكُوبِ الْبُكَائِرِ
فَلَا نَحْنُ أَظْهَرْنَا مِنَ الذَّنْبِ تَوْبَةً * وَلَا نَحْنُ أَصْلَحْنَا فَسَادَ السَّرَائِرِ
وَلَمْ نَسْمَعْ مِنْ وَاعِظٍ وَمَدَكِّرٍ * فَيَنْحَحَ فِيا وَعْظُهُ بَاهٍ وَأَمْرِ
فَأَبَيْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا تَقَطَّعَتْ * عِرَاهُ وَرَبَّيْ ضَرَّهُ كُلُّ كَافِرٍ
فَأَصْبَحَ بَعْضُ النَّاسِ يَقْتُلُ بَعْضَهُمْ * مِنْ يَرِيْبٍ مَقْهُورٍ عَزِيزٍ وَقَاهِرٍ
وَصَارَ رِئِيسُ الْقَوْمِ يَحْمِلُ نَفْسَهُ * وَصَارَ رِئِيسُ فِئْتِهِمْ كُلُّ شَاطِرٍ
فَلَا فَاجِرَ لِلْبَرِّ يَحْفَظُ حَرَمَهُ * وَلَا يَسْتَطِيعُ الْبَرُّ دَفْعًا لِمَاجِرٍ
تَرَاهُمْ كَأَمْثَالِ الدَّنَابِ رَأَتْ دَمًا * فَأَمَّتْهُ لَا تَلْوَى عَلَى زَجَرٍ زَاجِرٍ
وَأَصْبَحَ فُسَّاقُ الْقَبَائِلِ بَيْنَهُمْ * تَسْلَى عَلَى أَقْرَانِهَا بِالْخَنَاجِرِ
فَأَبَيْكَ لِقَتْلَى مِنْ صَدِيقٍ وَمِنْ أَحٍ * كَرِيمٍ وَمِنْ جَارٍ شَفِيقٍ مُجَاوِرٍ
وَوَالِدَةٍ تَبْكِي بِمُحْزِنٍ عَلَى أَنَّهَا * فَيَكِي لَهَا مِنْ رَحْمَةٍ كُلُّ ظَاوِرٍ
وَذَاتٍ حَلِيلٍ أَصْبَحَتْ وَهِيَ أَيْمٌ * وَتَبْكِي عَلَيْهِ بِالْدمُوعِ الْبُؤَادِرِ
تَقُولُ لَهُ قَدْ كُنْتَ عِزًّا وَنَاصِرًا * فَغَيَّبَ عَنِّي الْيَوْمَ عَزَى وَنَاصِرِي
وَأَبْكَ لِلْإِحْرَاقِ وَهَدِيمِ مَنَارِلٍ * وَقَتْلِ الْإِنْهَابِ الْهَلْهِ وَالدَّخَائِرِ

وإبراز ربات الخدور حواسرا * نرجس بلا ثمر ولا بآزر
 تراها حيارى ليس تعرف مذهبا * نوافر أمثال الظباء النوافر
 كأن لم تكن بعدد أحسن منظرا * وملهى رآته عين لآه وناظر
 بلى هكذا كانت فأذهب حسنها * وبدد منها الشمل حكم المقادر
 وحل بهم ماحل بالناس قبلهم * فاضحوا أحاديثا لباد وحاضر
 أبعداد يا دار الملوك ومحتى * صروف المايا مستقر المنابر
 وياجنة الدنيا ومطلت الغنى * ومستندت الأموال عند الصرائر
 أبني لما ابن الدين عهدتهم * يحلون في روض من العيش زاهر
 وابن ملوك في المواكب تقتدى * تشبه حسنا بالجوم الزواهر
 وابن القصاة الحاكون برأيهم * لورد أمور مشكلات الأوامر
 أو القائلون الساطقون بحكمة * ورصف كلام من خطيب وشاعر
 وابن مراح للولك عهدتها ^(١) * من حرفة فيها صوف الجواهر
 ترش بماء المسك والورد أرضها * يفوح بها من بعد ريح الجواهر
 وروح الدامى فيه كل عشيّة * الى كل قياس كريم العناصر
 وابن قيات تستجيب لغمها * اذا هولباها حين المرامر
 وابن الملوك الغر من آل هاشم * وأشياهم فيها اكتفوا بالمعاذر
 يروحون في سلطانهم وكأنهم * يروحون في سلطان بعض العشائر
 يبادل عما نالهم كبرائهم * فنالتهم بالكثرة أيدي الأصاغر
 فأقسم لو أن الملوك تناصروا * لزلت لها خوقا رقاب الجبابر

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يكي بغداد ويهجو طاهرا ويعرض به :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ * ألم تكوني زمانا فترة العينِ
 ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شرف * بالصالحات والمعروف يلقونِ
 ألم يكن فيك قومٌ كان سكُّهم * وكان قُرْبُهُم زينا من الرينِ
 صاح الزمانُ بهم بالين فانقرصوا * ما ذا الذي بلغتني لوعة البينِ
 أستوعِ اللهُ قوماً ما ذكرتهمو * ألا تحذر ماء العين من عيني
 كانوا ففرقهم دهرٌ وصدعهم * والذهر يصدع ما بين الفريقينِ
 كم كان لي مُسعد منهم على زمني * كم كان منهم على المعروف من عونِ
 لله در زمان كان يجمعنا * أين الزمان الذي ولّى ومن أينِ
 يا من يُحترَب بغداداً ليعمرها * أهلكَت نفسك ما بين الطريقينِ
 كانت قلوبُ جميع البايء واحدة * عينا وليس يكون العين كالذنينِ
 لما استبقيتهم فرقتهم فرقا * والناس طرأ جميعا بين قطينِ

ولبعض فتياي بغداد :

كيتُ دما على بغداد لما * فقدتُ عَضارة العيش الأنيقِ
 تَبَذَلْنَا هموماً من سرور * ومن سَعَةٍ تدلُّنا بضيقِ
 أصابتنا من الحُسَاد عينٌ * فافقت أهلها بالمَجْجِيقِ
 فقومٌ أحرِقوا بالنار قسراً * وبائحةٌ تسوح على عَرِيقِ
 وصائحةٌ تُنادي وأصباحا * وباكيةٌ لفقدان الشَّفِيقِ
 وحوراءُ المدامع ذاتُ دَل * مضمتةٌ المَجاسد بالخلوقِ
 تَهَيَّزُ من الحريق الى انتهابٍ * ووالدها يفتري الى الحريقِ

وَمَسَالِيَةُ الْغُرَالَةِ مُقْلَتِيهَا * مَصَاحِكُهَا كَلَالَةُ الْبُرُوقِ
 حَيَارَى كَالْمَدَايَا مُبْعِكَرَاتٍ * عَلِيمِنَ الْقَلَائِدِ وَالْخُلُوقِ
 يُنَادِينَ الشَّفِيقَ وَلَا شَفِيقٌ * وَقَدْ فُقِدَ الشَّعِيقُ مِنَ الشَّمِيقِ
 وَقَوْمٌ أَنْعَرَجُوا مِنْ طَلِّ دُنْيَا * مَتَاعُهُمْ يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ
 وَمُغْتَرِبٌ قَرِيبُ الدَّارِ مُلْقٍ * لَا رَأْسَ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 تَوَسَّطَ مِنْ قِتَالِهِمْ جَمِيعَا * مَا يَدْرُونَ مِنْ أَى الْفَرِيقِ
 فَلَا وَلَدٌ يُقِيمُ عَلَى أَبِيهِ * وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ مِنَ صَدِيقِ
 وَمَهُمَا أَتَسَّ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى * فَإِنِ ذَاكَرَ دَارَ التَّوَقُّيقِ

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة . التي عولنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

ثبت لك هنا المهتم من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة
التي أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهي :

المصادر باللغة العربية .

تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط .
تاريخ المشاركة لصليبا س يوحنا ،
مخطوط .
تاريخ عداد للخطيب العدادي ،
مخطوط .
تاريخ عداد لاس طيفور (الجزء السادس
طبعة أوروبا) .
تاريخ التشريع الاسلامي للرحوم
الخصري بك ، طبعة مصر .
تاريخ الآداب السلطانية والدول
الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة
أوروبا .
تاريخ العجوز الزاهرة لابن تقي الدين ،
طبعة أوروبا .
السنن والتاريخ لأبي زيد اللحى ، طبعة
باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .
الآثار الباقية للبيروني ، طبعة ليبسك .

تاريخ الطبري ، طبعة مصر وليدن .
تاريخ الكامل لابن الأثير ، طبعة مصر .
تاريخ مروج الذهب للسعودي ، طبعة
مصر وباريس .
تاريخ اليعقوبي ، طبعة ليدن ناشراف
المسيو هتسما .
تاريخ أبي الفدا للملك المؤيد ، طبعة
الأستانة .
تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد عبد الله
محمد بن يوسف ، طبعة أوروبا .
تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر .
تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ،
طبعة مصر .
الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ،
طبعة ليدن .
نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة
أكسفورد سنة ١٦٥٩ للشتيرق
ادوار بوكوك .

- مختصر تاريخ الدول لأبي العرج الملقب،
طبعة بيروت .
- تاريخ الاسحاق، طبعة أوربا .
- فتوح الشام للواقدي، طبعة مصر .
- نشوار المحاصرة وأحار المداكرة، طبعة
مصر .
- ولاه مصر وقصائنها للكندی، طبعة
بيروت .
- مختصر أحار الخلفاء لاس الساعى،
طبعة مصر .
- كشف الطون لحامى حليمة، طبعة
الأستانة وليسك ومصر .
- المستطرف للإبشيى، طبعة بولاق .
- معجم البلدان لياقوت الحموى، طبعة
ليسك ومصر .
- المرهر للسيوطى، طبعة بولاق .
- الأحكام السلطانية لأوردى، طبعة
أوربا .
- أعلام الناس للاتيدى، طبعة مصر .
- كتاب المعارف لاس قتيه، طبعة أوربا .
- معجم الأدياء لياقوت الرومى، طبعة
مصر وشراف مرحليوث .
- الفهرست لابن الديق، طبعة ليسك .
- طبقات الأئم لابن صاعد، طبعة بيروت .
- طبقات الأطباء لابن أبى أصيعة،
طبعة مصر .
- تراجم الحكماء للقفطى، طبعة مصر .
- طبقات الأدياء لعبد الرحمن الأنبارى،
طبعة مصر .
- وفيات الأعيان لابن حلكان، طبعة
مصر .
- هوات الويارد لابن شاكر الكتبي،
طبعة مصر .
- الملل والهل للشهرستانى، طبعة مصر .
- ألف ناء لوسف البلوى، طبعة مصر .
- مسالك الأبصار لابن فصل الله العمري،
طبعة دار الكتب .
- فتوح البلدان للبلاورى، طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لاس العقيه الهمدانى،
طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لليعقوبى، طبعة ليدن .
- مسالك الممالك للاصطخرى، طبعة
ليدن .
- المسالك والممالك لابن حوقل، طبعة
ليدن .
- أحسن التقاسيم للقدسى، طبعة ليدن .
- المسالك والممالك لابن حرداذيه، طبعة
ليدن .
- الأعلاق القيسية لابن رسته، طبعة ليدن .
- حسن المحاضرة للسيوطى، طبعة مصر .
- بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى
طبعة بغداد .
- مقدمة الياذة هميروس تعريب البستانى
طبعة مصر .

- كتاب الكشكول للعامل، طبعة مصر.
- سراج الملوك للطوطشي، طبعة مصر.
- كتاب الحراج لقدامه بن جعفر، طبعة لندن.
- كتاب الخراج لأبي يوسف، طبعة بولاق.
- تاريخ الوزراء المنسوب للصولي، طبعة بيروت.
- أشهر مشاهير الاسلام، للرحوم رفيع العظم بك، طبعه مصر.
- كتاب نفع الطبيب، طبعة مصر وأوربا.
- مفاتيح العلوم للحوارمي، طبعة مصر.
- مفيد العلوم للحوارمي، طبعة مصر.
- كتاب المواهب للفتحية للرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر.
- كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر.
- خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي، طبعة دمشق.
- مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت.
- مجموعة مجلة المجمع العلمي، طبعة دمشق.
- مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر.
- مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر.
- بعض فصول ومباحث من المجلة الأسيوية.
- حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر.
- حضارة الاسلام في دار السلام لجليل مدكور، طبعة مصر.
- كتاب الأغاني للاصبهاني، طبعة بولاق والسامسي.
- الجزء الأول من كتاب الأغاني، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوة رايه بالدار.
- صحح الأعشي، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب التاج المنسوب للماحظ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب الأملاني لأبي علي القاسمي، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب الكامل للبرد، طبعه مصر.
- كتاب البيان والتبيين للماحظ، طبعه مصر.
- العمدة لاس رشيق، طبعة مصر.
- كتاب المحاسن والمساوي للبهقي، طبعه فردك شوالى.
- كتاب المحاسن والاضداد للماحظ، طبعه لندن.
- كتاب البخلاء للماحظ، طبعة مصر.
- كتاب الحيوان للماحظ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية).

حلبة الكيت، طبعة بولاق .
 خزانة الأدب لابن حجة الحموي، طبعة
 بولاق .
 خزانة الأدب للبغدادى، طبعة بولاق .
 محاضرات الفلسفة لستلانه بالجامعة
 المصرية .
 محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية
 للسيور كولو نليو، طبعة روما .
 مفتاح السعادة ومصباح السيادة
 لطاشكبرى زاده، طبعة
 حيدر آباد .
 محاضرات الشيخ عبد الوهاب البحار
 بالجامعة المصرية .
 محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي
 بالجليلة المصرية .
 محاضرات الأستاذ الخصرى بك في تاريخ
 الأمم الإسلامية، طبعه مصر .
 محاضرات الأستاذ الخصرى بك في تاريخ
 الدولة الأموية، طبعه مصر .
 التمدن الإسلامى للرحوم جورجى بك
 زيدان، طبعة مصر .
 تاريخ آداب اللغة العربية للرحوم
 جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
 طبقات ابن سعد، طبعة أوروبا .
 طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر .
 المشور والمظوم لابن طيفور .
 رسالة بنى أمية للمحافظ، خطية .

منهل الرقاد في علم الانتقاد لقسطاكي
 الحصى بك، طبعة مصر .
 محاضرات الأستاذ الاسكندرى
 المدرس بدار العلوم، طبعه مصر .
 الوسيط للأستاذ الاسكندرى المدرس
 بدار العلوم، طبعة مصر .
 أدبيات اللغة العرسة للاسناد مصطفى
 صادق الرافعى، طبعة مصر .
 أدبيات اللغة العرسة للرحوم عاطف
 ركبات بك ورملائه، طبعة مصر .
 مهذب الأعاني للرحوم الخصرى بك،
 طبعه مصر .
 ملاحة العرب للدكتور أحمد صيفى،
 طبعة مصر .
 الشعر والشعراء لاس قتيبة، طبعة ليدن .
 طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي،
 طبعه ليدن ومصر .
 كتاب الأدب كياء لاس الجورى، طبعة
 مصر .
 العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر .
 العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة
 مصر .
 لطائف المعارف للتحايلي، طبعة ليدن .
 عيون الأحبار لابن قتيبة، طبعة
 دار الكتب وأوروبا .

- رسائل البلقاء للأستاذ محمد كرد علي ،
طبع مصر .
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد ، طبعة
مصر .
- المفضليات للضبي ، طبعة مصر .
- حاسة البعثة ، طبعة بيروت .
- الصاعتين لأبي هلال العسكري ، طبعة
مصر .
- الموشى لأبي الطيب ، طبعة أوروبا .
- ديوان الحماسة لأبي تمام ، طبعة مصر .
- محاني الأدب وشرحه ، طبعة بيروت .
- تجارب النواردي ، طعة مصر .
- حياة الحيوان للدميري ، طعة مصر .
- عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي
(أجراء منه محفوظة بدار الكتب
المصرية) .
- الفرج بعد الشدة للتونسي ، طبعة مصر .
- كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله
محمد بن عبدوس الجهشيارى طبعة
مينا سنة ١٩٢٦
- كتاب الاشتقاق لابن دريد الازدي
طبعه جوتيجن سنة ١٨٥٤
- الأوراق للصولي ، خطية .
- مطبوعات تذكاري جيب الانجليزية
وخاصة مؤلفات الأستاذين
مرحليوث وبرون .
- زهر الآداب للمصري ، طبعة مصر .
- المشتبه في أسماء الرجال للذهبي ، طعة
أوروبا .
- الوافي بالوفيات للصفدي (المحفوظ
.. بدار الكتب المصرية تحت
رقم ١٢١٩) .
- أخبار أبي نواس لابن منظور ، طعة
مصر .

المصادر الأفرنجية :

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris
 Life of Mohamet by Sir W Muir (London)
 The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).
 D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series"
 H. Lammens "Etudes sur les règnes des Califs Omayyades Moawia 1^{er} et Yasid 1^{er}". (Beyrouth)
 Library of Universal History (N. Y)
 History of Arabic Literature. Cl Huart (London)
 A Literary History of Persia. Ed G Browne. (London)
 A Literary History of the Arabs by R. A Nicholson. (London).
 Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London)
 The Caliphate. its rise decline and fall by Sir W. Muir (London).
 Annals of the Early Caliphate by Sir W Muir (London).
 Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).
 Encyclopaedia of Islam (Luzac)
 Encyclopaedia Britannica. (London)
 La Grande Encyclopédie. Paris.
 The Historians' History of the World by H. S Williams.
 (New York).
 Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings (London)
 The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London)
 The History of Philosophy in Islam by J de Boer translated by Jones. (London).
 Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle)
 Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R Dozy. (London).
 Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).
 Margoliouth's Works Etc.
 R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes 1927.
 Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik. (Leipzig).

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)
